



المكتبة العامة للجمهوريات
وإدارة التعليم العالي
الجامعة الإسلامية بالدينه النزهه
مناوه ولهم السلام
بشم الإصدار (٩٠)

جهد العلماء والولاة في الحفاظ على السنة

في عصر السلاجوق

تأليف

وخالد بن محمد بن قبا من القاصحري

الجزء الأول

الطبعة الأولى

١٤٢٧ هـ

بجهود العلماء والقادة
في الحفاظ على السنة
في عصرنا المتحدي

ح) الجامعة الإسلامية، ١٤٢٧هـ

فهرس مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصاعدي، خالد بن محمد

جهود العلماء والولاة في الحفاظ على السنة في

العصر السلجوقي. / خالد بن محمد الصاعدي.

المدينة المنورة، ١٤٢٧هـ

١٢٠٦ ص؛ ٢٤ سم

ردمك: ٣-٥٦٨-٠٢-٩٩٦٠

١- السنة النبوية - تاريخ أ. الطول

٢٣٠،٩ نيوي ١٤٢٧/٥٤٢٢

رقم الإيداع: ١٤٢٧/٥٤٢٢

ردمك: ٣-٥٦٨-٠٢-٩٩٦٠

جميع حقوق الطبع محفوظة
للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
عمادة البحث العلمي
رقم الإصدار (٩٠)

جهود العلماء والولاة

في الحفاظ على السنة

في عصر السلاجقة

تأليف

د. خالد بن محمد بن علي بن الصاغري

الجزء الأول

الطبعة الأولى

١٤٢٧ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة معالي مدير الجامعة الإسلامية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وأصحابه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن أشرف ما تتجه إليه الهمم العالية هو طلب العلم، والبحث والنظر فيه، وتنقيح مسائله، وسلوك طريقه، لأن ذلك هو الذي يوصل إلى السعادة كما قال الرسول ﷺ: "من سلك طريقاً يلتمس به علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة".

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا نَخْنِئُ اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ عَلَّمْتُوا ﴾ [فاطر من الآية: ٢٨].

وأول ما بدئ به رسول الله ﷺ هو وحي الله إليه بالعلم ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ

الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ أَقْرَأْ ۝ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ

بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾ [العلق: ١-٥]

وقال تعالى يخاطبه: ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ ﴾

[محمد من الآية: ١٩]

وقال تعالى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه من الآية: ١١٤].

وما قامت به الحياة السعيدة في الحياة الدنيا والآخرة إلا بالعلم النافع.

ولذا كان التعليم هو الهدف الأعظم لمؤسس المملكة العربية

السعودية الملك عبد العزيز رحمه الله، ولأبنائه كذلك من بعده، ففي عهد

خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز بلغت مسيرة التعليم مستوى

عالياً وازدهر التعليم العالي وارتقت الجامعات، ومن هذه الجامعات العملاقة، الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، فهي صرح شامخ، يشرف بأن يكون إحدى المؤسسات العلمية والثقافية، التي تعمل على هدي الشريعة الإسلامية، وتقوم بتنفيذ السياسة التعليمية بتوفير التعليم الجامعي والدراسات العليا، والنهوض بالبحث العلمي والقيام بالتأليف والترجمة والنشر، وخدمة المجتمع في نطاق اختصاصها. ومن هنا، فعمادة البحث العلمي بالجامعة تضطلع بنشر البحوث العلمية، ضمن واجباتها، التي تمثل جانباً هاماً من جوانب رسالة الجامعة ألا وهو النهوض بالبحث العلمي والقيام بالتأليف والترجمة والنشر.

ومن ذلك الكتاب: [جهود العلماء والولاة في الحفاظ على السنة في

العصر السلجوقي] تأليف: د/ خالد بن محمد بن عليان الصاعدي.

نفع الله بذلك ونسأله سبحانه أن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، وصلى الله وسلّم وبارك على عبده ورسوله محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

معالي مدير الجامعة الإسلامية

د/ صالح بن عبد الله العبود

المقدمة

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فإنّ الاشتغال بالعلوم الإسلامية يُعدُّ من أفضل الأعمال حالًا ومآلًا، وقد حثّ ديننا الحنيف على طلب العلم، ورغب فيه، وأثنى على العلماء المخلصين المجاهدين، فقال تعالى في كتابه الكريم ممتدحًا العلماء: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾^(١)، وقال جل شأنه: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو وأولو العلم قائمًا بالقسط﴾^(٣)، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وقال نبينا الكريم ﷺ في حق العلماء: «من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة»^(٤)، «وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم، لرضى الله عنه، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد

(١) سورة المجادلة، آية (١١).

(٢) سورة الزمر، آية (٩).

(٣) سورة آل عمران، آية (١٨).

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي-كتاب الذكر (٢١/١٧).

كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء»^(١).

ومن الملاحظ أنّ الدولة العباسية بعصورها المختلفة أخذت قدراً كبيراً من الدراسة والبحث لدى الدارسين والباحثين في التاريخ الذي يسלט الضوء على جهود العلماء والخلفاء ورجال الدولة الدينية والعلمية، ومواقفهم ضد الأخطار التي تهدد المسلمين، فلم يحظ هذا الجانب المهمّ بذلك القدر من العناية والاهتمام؛ لأنه يتطلب من الباحث جهداً كبيراً، وبحثاً متواصلًا في أمّات المصادر المختلفة، للحصول على المعلومات المطلوبة، حيث التناقض الكبير، والتباين الواضح في معلومات المصادر التي تسيطر عليها الظروف السياسية والدينية والأهواء الشخصية، ومن هنا تكمن الصعوبة في كتابة مثل هذه البحوث بصورة موضوعية، لكي تظهر الدراسة أكثر صدقاً ووضوحاً وفائدة، خاصة في العصور العباسية المتأخرة، والتي كان العراق خلالها يموج بالفرق الإسلامية المختلفة، والمذاهب الدينية المتعددة، والعناصر العرقية المختلفة، الأمر الذي أدى إلى كثرة الفتن والصراعات بين السنة والشيعة، وبين أتباع المذهب السلفي أحياناً، وكانت هذه النزاعات المختلفة عامل تمزق وضعف قاست منه

(١) سنن ابن ماجه-باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (١/٨١)، وصحيح

الجامع الصغير للسيوطي (٥/٣٣) جمع وترتيب الألباني.

الأمة الإسلامية كثيراً، وترتب عليه آثار سيئة كثيرة في الأوضاع الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية.

لذا كانت لديّ الرغبةُ الشديدة في اقتحام مثل هذا النوع من الدراسات التاريخية؛ لأن توجيه الجهد لمثل هذه الدراسات يُعدُّ -في رأيي- أمراً بالغ الأهمية، وذلك لندرة مثل هذه الدراسات، ولكونه يسد جانباً كبيراً من جوانب النقص في الدراسات التاريخية الحديثة.

ومن هنا كان اختياري موضوع هذا البحث الذي يدور حول "جهود العلماء والولاة في الحفاظ على السنة في العصر السلجوقي- ٤٤٧-٥٩٠هـ-"، ذلك العصر الذي يُعدُّ من العصور الإسلامية المهمة، نظراً لما حدث فيه من ظروف وتطورات سياسية ودينية وعسكرية، وتغيرات طائفية دينية، حيث ظهرت القوة السلجوقية السنية، التي حلت مكان القوة البويهية الشيعية، حيث ارتفع شأن أهل السنة في عصرهم، وشاركوا في أحداث العالم الإسلامي، وتوسع المذهب السني وانتشر في عهدهم، وانحسر المذهب الشيعي الذي كان له نشاط ونفوذ في العصر البويهي، كذلك أحيى السلاجقة القوة الحربية الإسلامية، وحملوا راية الجهاد ضد البيزنطيين، فانتشر الإسلام في آسيا الصغرى بعد معركة "ملاذكرد" سنة (٤٦٣هـ-)، والتي هزموا من خلالها البيزنطيين، كما حاربوا النفوذ الشيعي في بلاد الشام، وتصدوا لفرقة الباطنية الشيعية عسكرياً وفكرياً، حيث قام بعض سلاطين السلاجقة كالسلطان بركياروق والسلطان محمد والسلطان سنجر، بمقابلتهم والتضييق عليهم،

والاستيلاء على بعض حصونهم وقلاعهم، بمساعدة الخلفاء العباسيين الذين قدموا كل دعم وتأيد لهم، كما تصدى الوزير الشهير " نظام الدولة " للرد عليهم بالسلاح العلمي، فقام بتأسيس المدارس النظامية في شتى الأمصار الإسلامية، وتشيد المكتبات، وتشجيع العلماء وإكرامهم، وتقريبهم لديه، كما خصص بعض فصول كتابه " سياسة نامه " للتعريف بأصول الدعوة الباطنية، وضرورة التصدي لها، وإنقاذ المسلمين من شرورها ومخاطرها.

وبالجملة فقد كان للسلاجقة الفضل العظيم بعد الله تعالى في الذود عن الإسلام وأهله، ومحاربة أعداء الله من الصليبيين والبيزنطيين، وغيرهم من أصحاب الفرق الضالة والتيارات الفكرية المنحرفة.

إن أهمية مثل هذه الجهود العظيمة التي قام بها السلاجقة وأمراؤهم ووزراؤهم، بالتعاون مع خلفاء بني العباس الذين بذلوا ما في وسعهم لنصرة الإسلام والمسلمين، والاهتمام بشؤون الرعية، والتصدي لأعداء المسلمين، كانت من أهم الدوافع والحوافز التي دفعتني لاختيار هذا الموضوع، رغم اقتناعي بصعوبته، وعدم توفر المعلومات بيسر وسهولة، وتناثرها في المصادر المختلفة، ثم وضع هذه المعلومات أمام النقد التاريخي للمواقف والجهود والأحداث، للثبت منها، لاسيما إذا نقلتها من المؤرخين الميالين للسلاجقة والمعاصرين لهم.

وهذا الأمر الذي أشرت إليه آنفاً كان من أهم الصعوبات والعقبات التي واجهتني في البحث، لوجود التناقض في بعض المواقف، والغموض

واللبس في البعض الآخر، الأمر الذي يجعل الباحث في حيرة تامة، وفي حاجة ماسة لكثير من الوقت والجهد للحكم على موقف لوالٍ أو سلطانٍ أو لرجلٍ من رجالات الدولة الآخرين.

ومن الدوافع أيضاً التي شجعتني على اختيار هذا الموضوع وطرق أبوابه هو إبراز دور العلماء في الحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية وتوحيد صفوفها، وجمع كلمتها، لمواجهة المخاطر والأضرار التي تحيط بالمجتمع الإسلامي، والتصدي للتيارات الفكرية المنحرفة التي يقودها أصحاب الفرق الضالة والأفكار الباطلة، وكذلك توضيح جهودهم التي أدت إلى نشر المذهب السني في شتى الأمصار، ودورهم في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلاقتهم برجال الدولة من خلفاء وسلاطين ووزراء وأمراء وغيرهم، وما ترتب عليها من آثار عظيمة في المجتمع الإسلامي آنذاك، كل هذه الجهود والمواقف هي التي أدت إلى الحفاظ على كيان أهل السنة في العصر السلجوقي، وبالتالي الحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية، وقد قاموا بذلك خير قيام من خلال الجهود والمواقف التي قمت بتوضيحها موزعة على الفصول المتعلقة بها.

والحقيقة أن الأمر لم يكن أمامي سهلاً ميسراً لاستخراج المادة العلمية المتعلقة بتلك الجهود والمواقف لعلماء العصر السلجوقي، حيث إنها موزعة متناثرة في كتب التاريخ العامة والتراجم، وبعض هذه المواقف والجهود قد لا يتجاوز سطرًا أو سطرين أحياناً، مما يعني وجوب القراءة الطويلة والمتأنية، للظفر بهذه المادة القليلة التي تمثل أهمية كبرى لموضوعي

الذي يعتمد في هذه الجهود والمواقف على إشارات صغيرة، وأسطر معدودة أحياناً، قد لا يفتن له الباحث إلا بجهد مستمر وعناء طويل، وهذا ما جعلني أضطر لتكرار أسماء بعض العلماء في أكثر من فصل، لتنوع جهودهم ومواقفهم، وجعلها في الفصل الذي يخصها، ولا شك أن ما أوضحتته في هذه النقطة يُعدُّ من جملة الصعوبات التي واجهتني في إعداد هذا البحث.

ولما كان البحث مرهوناً بمدة زمنية محددة، ولما يحتاجه استخراج المادة العلمية، ونقدها، وتنظيمها، ومقارنتها، من وقت وجهد، كان لزاماً عليّ أن أطلب تمديد مُدَّة البحث لسنة خامسة أخرى، كي يخرج البحث بالصورة المرجوة والفائدة التي نتطلع إليها، بحول الله وقوته.

ومع ذلك فلا أدعي أنني أوفيت الموضوع حقه من الكمال؛ إذ الموضوع كما وجدته يحتاج إلى بيانٍ أشملٍ وتعميقٍ أوسعٍ ووقتٍ أطولٍ، فما زالت آفاق البحث واسعة وقضاياها متعددة، وما أنا إلا طالب علمٍ بذلت في سبيل إعطاء هذا الموضوع حقه من الدراسة والبحث كل ما في الوسع والطاقة، لكي أقدم صورة متوازنة متناسبة لإبراز هذا الجانب المهم من جوانب تاريخنا الإسلامي المجيد، ولكي يكون هذا الموضوع رسالة علمية مستوفية لموضوعاتها، وما يتعلق بها.

تحليل المصادر:

وبعد أن أوضحت دوافع اختياري الموضوع، وتوضيح مضمونه، وذكر بعض الصعوبات والعوائق التي واجهتني، لا بد من إلقاء الضوء

بصورة إجمالية على أهم المصادر التي استفدت منها في كتابة البحث، فقد كان لطبيعة البحث، وتنوع فصوله وموضوعاته، دور كبير في اختلاف وتباين مصادره من فصل إلى آخر، حيث إن كل فصل من هذه الفصول يحتاج إلى بحثٍ مستقلٍ بذاته؛ لأن المصادر في مثل هذا البحث تشمل كتب التاريخ العام، وكتب التراجم والسير، وطبقات الرجال والوفيات في المجالات والتخصصات المختلفة، وهذا ما أدى إلى تنوع مصادر البحث، الأمر الذي يجعل من الصعوبة بمكان تناولها جميعاً بالتحليل والتفصيل، وإنما يكفي الإشارة إلى أهم المصادر الأصلية التي اعتمد عليها البحث بدرجة كبيرة، خاصة تلك المصادر المعاصرة لمدة البحث، والتي قدمت معلومات مفصلة في دراسة النواحي السياسية والاجتماعية والعلمية والمذهبية، كما تناولت كثيراً من المواقف والجهود للعلماء والولاة خلال العصر السلجوقي.

ومن أهم المصادر التي استفدت منها في كتابة البحث، بعض المصادر الخطية التي أمكن الوصول إليها، والإفادة منها في نطاق محدود، حيث لم تكن أساسية، في بناء الهيكل العام للبحث، ومن هذه المخطوطات كتاب " تاريخ الإسلام " الجزء التاسع لمؤلفه أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت: ٧٤٨هـ)، وهو حافظ مؤرخ، علامة محقق، ولد وتوفي بدمشق، له تصانيف نقارب المائة، ويقدم من خلال كتابه معلومات عن الخلفاء، والأحداث المتعلقة بالعصر

السلجوقي، حيث استعرض من خلال كتابه الذي يقع في أكثر من ثلاثين مجلداً وقائع وأحداث التاريخ الإسلامي حتى عام (٧٤١هـ).

أما كتاب " عيون التواريخ " لمؤلفه محمد بن شاكر الكتي (ت: ٧٦٤هـ)، الجزء الثالث عشر، فيقدم معلومات مفصلة عن الخلفاء وسيرهم، وتصديهم للحركات المناوئة لهم، كما يهتم بتقديم معلومات عن جهود السلاجقة ضد الباطنية والتضييق عليهم، والاستيلاء على بعض حصونهم وقلاعهم، وكذلك علاقة الخلفاء بالسلطين السلاجقة، ومحاولتهم استرجاع سلطتهم في العصر السلجوقي.

وهذان الكاتبان مخطوطان مصوران بقسم المخطوطات بالجامعة الإسلامية بالمدينة.

أما المصادر المطبوعة، فقد كان جُلُّ اعتماد البحث عليها، ومما ينبغي الإشارة إليه هنا، أن ترتيب استعراض المصادر لا يعكس مدى أهميتها وفائدتها بالنسبة للبحث، بل إني رأيت من الضروري مراعاة تسلسل سني الوفيات لمؤلفيها، ثم الحديث عن صلة المصدر وأهميته في البحث.

ومن أهم هذه المصادر المطبوعة ما يلي:

كتاب " تجارب الأمم وتعاقب الهمم " لأحمد بن محمد بن يعقوب ابن مسكويه (ت: ٤٢١هـ)، الذي يُعدُّ من أهم المصادر لدراسة تاريخ العصر البويهي السياسي والحضاري، بحكم معاصرته للبويهيين، حيث يقدم معلومات مفصلة عن أحوال العراق خلال العصر البويهي؛ لكونه

شاهد عيان للأحداث التي وقعت في أثناء خدمته في الدولة البويهية، وبالجملة فالكتاب يُعدُّ من أهم المصادر في تغطية المدّة الزمنية التالية لما توقف الطبري عن الكتابة فيه، وقد استفدت منه في نطاق محدود، عند تعرضي للعصر البويهي أحياناً.

ويُعدُّ كتاب " ذيل تجارب الأمم " لأبي شجاع محمد بن الحسين الروذراوري (ت: ٤٨٨هـ) مكملاً لدراسة التاريخ السياسي والحضاري للبويهيين حتى سنة (٣٨٩هـ)، ويتضمن هذا الكتاب معلومات مهمّة عن نظام الخلافة والوزارة والنظم الإدارية والمالية في العصر البويهي. وهذا ما جعل الفرصة مهيأة للبحث للتعرف على طبيعة التطورات في العراق خلال المراحل المبكرة من وصول السلاجقة.

كما استفاد البحث من كتاب " رسوم الخلافة " لأبي الحسن هلال ابن الحسين الصائب (ت: ٤٤٨هـ) في المعلومات التي يوردها عن آل بويه ومعاملتهم للخلفاء ومشاركتهم لهم في بعض مظاهر سيادتهم الدينية والدينية.

ومن الكتب المهمة التي استفدت منها كثيراً " تاريخ بغداد " للحافظ أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (ت: ٤٦٣هـ)، حيث يُعدُّ من أهم المصادر التاريخية، وقد خدم البحث بما يقدمه من معلومات حول الخلفاء وسيرتهم، وبعض الأحداث المهمّة في عهدهم، إضافة إلى ما يقدمه من تفاصيل حول مجالس العلم والسماع، والأماكن التي تعقد فيها

المجالس العلمية، وكذلك تراجمه لبعض العلماء خلال مدة البحث، وذكر مواقفهم وجهودهم ورحلاتهم العلمية ومؤلفاتهم.

ومن المصادر المهمة أيضاً مؤلفات أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ)، لمعاصرتة مدة زمنية من البحث، ومن هذه المؤلفات كتاب " فضائح الباطنية " فقد أوضح عقائد الباطنية وبطلانها، وقد افكارهم ومزاعمهم، وبين كذبهم وتزييفهم، وقد أفاد منه البحث كثيراً عند الحديث عن الباطنية في العصر السلجوقي، وذلك في الفصل الثالث من الباب الأول.

وكذلك كتابه " إحياء علوم الدين " الذي تناول فيه العبادات والعبادات والمهلكات والمنجيات، وقد أفاد البحث منه في الفصل الثالث من الباب الثاني عند الحديث عن جهود العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأوضح الغزالي واجبات الأمراء والعلماء في هذا الميدان الهام، وتوضيح أهميته ووجوب النهوض به.

كما استفاد البحث من كتابه " التبر المسبوك في نصيحة الملوك " حيث اشتمل على نصائح ومواعظ وتوجيهات للسلطان " محمد بن ملكشاه السلجوقي " يذكره فيها بالله تعالى، ونعمه الكثيرة عليه، ويحذره من الظلم، وأن يكون عادلاً رقيقاً برعيتته، وأن لا يطلب رضا أحد بمخالفة الشرع، وكان السلطان محمد يصغي لنصائح الغزالي، الأمر الذي جعله يحرص على العدل والإحسان، وتقريب أهل الدين والمعرفة، وقد استفاد البحث من هذا الكتاب كثيراً في الفصل الرابع من الباب الثاني المتضمن

علاقة الخلفاء ورجال الدولة بالعلماء والآثار المترتبة على ذلك في الحفاظ على كيان أهل السنة في ذلك العصر.

ومن كتب الغزالي أيضاً التي أفاد منها البحث، الرسالة التربوية التعليمية "أيها الولد"، وكتاب "تهافت الفلاسفة"، الذي انتقد فيه الفلاسفة، وبين مخالفتهم للإسلام، وانتهى إلى تكفيرهم في بعض المسائل، وكتاب "المنقذ من الضلال" الذي ذم من خلاله علم الكلام وحذر منه؛ لأنّ هذا الكتاب يُعدُّ قصة حياة فكرية وسيرة ذاتية لحياة الغزالي، في صراعه وتجاربه مع الفلاسفة والمذاهب والفرق المختلفة في محاولة منه للوصول إلى الحقيقة.

وكذلك استفاد البحث من رسائله الموجهة للسلطين السلاجقة وغيرها التي ترجمها عن الفارسية الدكتور نور الدين آل علي، تحت مسمى "فضائل الأنام من رسائل حجة الإسلام"، وكان الغزالي من العلماء المعاصرين لمُدّة البحث، تربطه بسلطين السلاجقة ووزرائهم علاقة وثيقة، مما يدل على أهمية كتبه ورسائله بالنسبة لبعض فصول البحث.

ومن الكتب التي أفادتني في كتابة البحث، لاسيما في الفصل الثاني من الباب الأول المتضمن جهود الخلفاء العباسيين والسلطين السلاجقة ودورهم ضد الزحف البيزنطي والصيبي، كتاب "ذيل تاريخ دمشق" لمؤلفه أبي يعلى حمزة بن علي بن أسد، المعروف بابن القلاسي (ت: ٥٥٥هـ)، حيث يُعدُّ من المصادر التاريخية المهمة التي تتناول أحداث مدة طويلة تمتد من سنة (٣٦٠هـ) حتى سنة (٥٥٥هـ)، ولم يقتصر

ابن القلاسي على تاريخ مدينة دمشق، بل قدم تفاصيل عن الحوادث السياسية التي وقعت في الشام والعراق والجزيرة، ولكنها بصورة موجزة، فضلاً عن اهتمامه بأحوال الإمارات الصليبية في بلاد الشام، وتفكك وحدة السلاجقة في الشام، عقب وفاة " تاج الدولة تتش " سنة (٤٨٨هـ-)، وقيام النزاع بين ولديه " رضوان " في حلب، و " دقاق " في دمشق، واستفاد منه البحث عند الحديث عن الأمراء المجاهدين ضد الصليبيين، كالأمير مودود، ونجم الدين إيلغازي، وظهر الدين طغتكين، وغيرهم، وتعود أهمية الكتاب بدرجة كبيرة، لكون صاحبه شغل العديد من الأعمال الإدارية في دمشق، حتى أصبح مسؤولاً في ديوان الرسائل، مما أتاح له الاطلاع على كثير من الرسائل المحفوظة في هذا الديوان.

ومن المصادر المهمة التي اعتمدت عليها في بحثي كتاب " المنتظم في تاريخ الملوك والأمم " لمؤلفه أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ-)، الحافظ المشهور والمؤرخ الكبير، صاحب التصانيف الكثيرة في شتى أنواع العلوم، وكتابه " المنتظم " كتاب تاريخ إسلامي عام على نظام الحوليات، انتهى فيه سنة (٥٧٤هـ-)، وقد قدم الكتاب معلومات قيمة للبحث، منها ما يتعلق بالخلفاء العباسيين وسيرتهم وجهودهم الدينية، وعلاقتهم بسلاطين السلاجقة، ومحاولتهم استعادة سلطاتهم ومكائنتهم، وأفاد البحث أيضاً عند حديثه عن جهود سلاطين السلاجقة ضد الفرق الضالة، وخاصة الباطنية، كما قدم معلومات قيمة ونادرة أحياناً عن جهود العلماء ودورهم في الحفاظ على كيان أهل السنة

في ذلك العصر؛ لأنه يذكر في نهاية كل سنة وفيات أعيان وعلماء تلك السنة، كما كان للمعلومات التي يقدمها عن الأوضاع السياسية والاجتماعية والدينية والعلمية والمذهبية، أهمية خاصة في بناء الهيكل العام للبحث، ومما يزيد من أهمية الكتاب أن مؤلفه قريب من الأحداث، معاصر للكثير منها، وبجانب كتابه " المنتظم " استفاد البحث من مؤلفاته الأخرى، مثل كتاب " صيد الخاطر " و " تلبيس إبليس " في بعض الجوانب، كالحديث عن الباطنية، ومجالس العلماء المختلفة، وحلقات الوعظ، وبعض الموضوعات المتعلقة بالأوضاع الاجتماعية والدينية والعلمية.

ومن المصادر الأساسية التي أفادت البحث مؤلفات العماد الأصفهاني، وهو أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد بن عبد الله الأصفهاني، المعروف بالعماد الكاتب (ت: ٥٩٧هـ)، ولد ونشأ بأصفهان، تولى أكثر أفراد أسرته وظائف هامة في الدولة السلجوقية والخلافة العباسية، ثم قدم بغداد، ودرس في المدرسة النظامية، ثم ولي عدة مناصب، كالنظر في واسط والبصرة سنة (٥٥٢هـ)، ثم ما لبث أن انتقل إلى دمشق، وكسب حظوة تامة لدى الزنكيين، ولدى صلاح الدين الذي لازمه في سفره وحضره، ودرس بالشام وتولى ديوان الإنشاء على أيام نور الدين زنكي، وله مؤلفات حسان في التاريخ والأدب والكتابة، وما يهمنا منها هنا كتاب " تاريخ دولة آل سلجوق " اختصار الفتح بن علي بن محمد البنداري (ت: ٦٤٣هـ)، وهذا الكتاب اختصار لكتاب " نصره

المُدَّة وعصرة الفطرة " للعماد الأصفهاني، وقد استفاد البحث من هذا المصدر في موضوع أصل السلاجقة وقيام دولتهم، وعلاقتهم بخلفاء بني العباس، بالإضافة إلى الحديث عن وزراء دولة السلاجقة، وكذلك عن ظهور الباطنية، وجهود السلاطين والوزراء ضدهم، وتأتي أهمية الكتاب في أن مؤلفه عاصر جزءاً من المدَّة التاريخية التي يشملها البحث، رغم المبالغة أحياناً في بعض الروايات، واعتماد الأصفهاني فيه الكثير من المحسنات البديعية واللفظية، والكتاب لم يرتبط بمنهج الكتابة التاريخية على طريقة الحوليات، وإنما صاغه تاريخاً عاماً عن السلاجقة، والبنداري مؤرِّخ مطلع، صاحب ثقافة عربية وفارسية، رحل إلى بغداد، ثم عمل في خدمة سلاطين بني أيوب في الشام، كان مولعاً بالتاريخ، متأثراً بمؤلفات العماد الأصفهاني.

كما استفاد البحث من كتاب " خريدة العصر " للأصفهاني، الذي يؤرخ في هذا الكتاب الضخم لطائفة من علماء وشعراء وأدباء القرنين الخامس والسادس، لاسيما عند الحديث عن الإنتاج العلمي والفكري خلال مدَّة البحث، وذلك في الفصل الأول من الباب الثاني المتضمن "ازدهار الحياة الثقافية ومجتمع العلماء في العصر السلجوقي".

ويُعدّ كتاب " راحة الصدور وآية السرور " في تاريخ الدولة السلجوقية لمؤلفه محمد بن علي بن سليمان بن محمد الراوندي (ت: ٦٠٣هـ) من المصادر المهمة التي أفادت البحث كثيراً، لاسيما أن مؤلفه ينتسب إلى أسرة من أهل العلم، حيث تلقى تعليمه في صغره على

يد خاله تاج الدين أحمد بن محمد الراوندي، ثم ارتحل إلى العراق، حيث أتقن فنون الخط، ودرس الشريعة والفقه، ونال حظوة تامة وتقديراً كبيراً لدى سلاطين السلاجقة، حتى أصبح من أشهر مؤرخيهم بتأليفه هذا الكتاب الذي يُعدُّ مصدرًا أساسيًا لتاريخ السلاجقة من حيث نشأتهم وقيام دولتهم إلى وقت زوالها، ومعلوماته عن بعض السلاطين وما يخصُّ مدّة حكمهم تُعدُّ أصلية ومفصلة، كما يقدم الكتاب معلومات عن علاقة سلاطين السلاجقة بالخلفاء، وكذلك عن وزيرهم الشهير نظام الملك، والكتاب إجمالاً يقدم معلومات أصيلة عن تاريخ السلاجقة ساهمت كثيراً في البناء العام للبحث، ولكن يؤخذ عليه المبالغة أحياناً عند ذكره بعض الحوادث المتعلقة بالسلاطين أو سيرتهم، وبالجملة فقد استفاد البحث من هذا المصدر في أكثر من موضع في فصول الرسالة، رغم غلبة المحسنات البديعية واللفظية عليه، لدرجة يصعب معها استخراج المادة التاريخية بسهولة.

كما استفاد البحث في استعراضه بعض تراجم الأدباء والعلماء وأعيان العصر ممن ورد ذكرهم في البحث من كتاب "معجم الأدباء" أو "إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب" لياقوت بن عبد الله الحموي (ت: ٦٢٦هـ)، المؤرّخ الأديب اللغوي الجغرافي، وتعود أهميته لمعاصرة المؤلف لمدّة البحث، حيث يقدم تفصيلات مهمّة عن حياة العلماء والأدباء وأنشطتهم وإنتاجهم العلمي.

ويأتي في الأهمية الكبرى من حيث الاستفادة الشاملة في موضوع البحث وبناء هيكله العام كتاب "الكامل في التاريخ" لمؤلفه عز الدين علي بن محمد الشيباني، ابن الأثير الجزري (ت: ٦٣٠هـ)، والكتاب يُعدُّ بحق من أهم كتب التاريخ الإسلامي العام، حيث يعد مصدرًا مهمًّا لجميع مراحل التاريخ الإسلامي في القرون الستة الأولى من تاريخ الإسلام، وقد جمع ابن الأثير في كتابه المذكور أخبار المشرق والمغرب، فجاء وافيًا شاملًا، وقد أوضح في مقدمة كتابه الحافظ الذي دفعه إلى تأليفه، وهو أنه تفحص معظم مؤلفات المؤرخين المسلمين، فوجدها غير متناسقة، فهي إما أن تكون تاريخًا محليًّا مع إهمال أخبار البلاد الأخرى، وإما أن تكون تاريخًا عامًا، بيد أن أصحابها شغلوا بتوافه الأمور عن كثير من الحوادث المهمة، أو قيام المؤرخ إذا كان شرقيًّا بالتركيز على أخبار الشرق، والاختصار المخل عند الحديث عن أخبار الغرب، والعكس بالعكس^(١).

وقد تحرى ابن الأثير وبجهد عن الحقيقة فيما كتب، مع التزامه بتماسك المعلومات وسلامة الأسلوب، وبعده عن الإسهاب أو التكرار في الروايات، وانتهى في كتابه عند آخر سنة (٦٢٨هـ)، منتهجًا في كتابه طريقة الحوليات، ولا تتوقف أهمية كتاب "الكامل" عند هذا الحد، بل تتضح أكثر في أن مؤلفه معاصر لمدة البحث، بوصفه مؤلفًا منصفًا وشاهد

(١) انظر: مقدمة الكامل في التاريخ لابن الأثير (١/٢-٥)، شاعر مصطفى: التاريخ

عيان دقيقاً في مروياته، حيث انفرد بذكر معلومات قلما نجدُها في مصدر آخر، كذلك تكمن أهميته في أن مؤلفه قد اعتمد في جمع مادة كتابه على أصدق المصادر وأوثق الكتب وأجمعها، كالطبري وابن القلانسي والعظيمي والعماد الكاتب وغيرهم.

وقد استفاد البحث من كتاب "الكامل" لابن الأثير، في تقديمه معلومات مفصلة ودقيقة عن تاريخ الدولة العباسية إجمالاً، وبطالعتها مادة واسعة عن سلاطين السلاجقة ونشأتهم، ومراحل وصولهم إلى بغداد، وجهودهم ومواقفهم ضد الفرق الضالة، إضافة إلى التطورات العامة للأوضاع السياسية والدينية والاجتماعية، وأخبار الجهاد ضد الصليبيين، كما يقدم معلومات دقيقة عن أعلام العصر في نهاية كل سنة عند ذكره عدة حوادث، وذكر أخبارهم وجهودهم، ومواقفهم، وأخبار الوزراء والأمراء ورجال الدولة في ذلك العصر، وهو وإن اعتمد على نظام الحوليات، كان يدرك أهمية بعض الأحداث، فيرويها تارة على النظام الذي نهجه، وتارة أخرى يذكر تلك الأحداث مجتمعة كي لا يتشتت ذهن القارئ في المتابعة، وتحقيق الفائدة، كذكره السلاجقة ونشأتهم، وحديثه أيضاً عن الباطنية ونشأتهم وقلاعهم وحصونهم وما يتعلق بهم.

وبالجمله فقد لازمني هذا الكتاب ملازمة وثيقة طيلة مُدَّة إعداد البحث؛ لاشتماله على معلومات واسعة، مما جعله مصدرًا مهمًا وأساسياً لأبواب البحث وفصوله بصفة عامة، حيث يبرز اسم الكتاب في أكثر صفحات الرسالة.

كما استفاد البحث من كتاب " مرآة الزمان في تاريخ الأعيان " (١) لسبط ابن الجوزي يوسف بن قزاوغلي بن عبد الله، أبي المظفر شمس الدين (ت: ٦٥٤هـ)، خاصة في بعض الحوادث المتعلقة بالجهاد ضد الصليبيين، وما يقدمه من تراجم في نهاية كل سنة للعلماء والأدباء والأعيان، حيث سار فيه على نظام الحوليات، ويزيد في أهميته انفراده أحياناً بتقدم ترجمة وافية لبعض الوزراء والعلماء والأعيان قد لا توجد عند غيره، وقد استفاد البحث من هذا الجانب عند الحديث عن جهود ومواقف العلماء ورجال الدولة في ذلك العصر.

ومن أهم مصادر البحث التي استفدت منها خاصة في تراجم العلماء والولاة وذكر جهودهم ومواقفهم وسيرتهم، ما يتعلق بالحركة العلمية، كتاب " وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان " للقاضي شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان (ت: ٦٨١هـ)، الذي يعد من أشهر كتب التراجم، ومن أحسنها ضبطاً وإحكاماً، حيث قدم تراجم شاملة للخلفاء والسلاطين والأمراء والوزراء والقضاة ورجال العلم والأدب، وهذه التراجم لا تخلو من ذكر بعض الأحداث والمواقف التي أفادت البحث.

(١) هذا الكتاب يمثل المدة من سنة (٤٨١-٥١٧هـ) وقام بتحقيقه الدكتور مسفر بن سالم الغامدي، وقد نشر في جزئين، وقام بطبعه مركز إحياء التراث الإسلامي التابع لجامعة أم القرى بمكة المكرمة.

ومن مصادر البحث الأساسية أيضًا كتاب " زبدة التواريخ ، أخبار
الأمراء والملوك السلجوقية " لمؤلفه أبي الحسن علي بن ناصر الحسيني (ت:
في القرن السابع)، ويهتم هذا الكتاب بأخبار السلاجقة من سلاطين
وأمرء ووزراء وعلاقتهم بالبيزنطيين وحروبهم معهم، كما يهتم بعلاقة
السلاطين السلاجقة بالخلفاء العباسيين، ويفرد الحسيني بذكر أحداث
ونصوص مهمة في تاريخ السلاجقة، ويُعدُّ الكتاب مصدرًا ضروريًا
لدارسي العصر السلجوقي؛ لأنه يتناول أخبار دولة السلاجقة منذ بدايتهم
إلى نهاية حكمهم، وما يتعلق بسيرهم وأعمالهم وحروبهم وجهودهم
ومواقفهم، ويؤخذ عليه تكرار السجع والمبالغة والتفخيم على عادة العديد
من مؤرخي تلك المدّة.

ومثله كتاب " العراضة في الحكاية السلجوقية " لمؤلفه محمد بن
النظام الحسيني (ت: ٧٤٣هـ) الذي يهتم بذكر أخبار السلاجقة من
بدايتهم إلى نهاية حكمهم، وكسابقه يكثر من المحسنات البديعية واللفظية،
ولكنه يُعدُّ مصدرًا ضروريًا لدارسي العصر السلجوقي، ويركز على جهود
سلاطين السلاجقة ضد الباطنية؛ لأنَّ يتحدث عن كل سلطان على حدة،
ويحتاج الباحث إلى وقت طويل وعناء شديد، كي يظفر بمادته التاريخية،
لكثرة الأبيات الشعرية، والأمثال التي يسوقها في عمق الأحداث التاريخية.
ومن كتب التراجم العامة التي استفدت منها كثيرًا في بناء البحث
كتاب " سير أعلام النبلاء " لمؤلفه شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي
(ت: ٧٤٨هـ)، حيث يحتوي على تراجم عامة للخلفاء والسلاطين

والوزراء والعلماء والقضاة، والمشاهير من أعلام المسلمين، وفائدته تتجلى عندما أتطرق لمواقف بعض الخلفاء والسلاطين والعلماء في الحفاظ على السنة في ذلك العصر، حيث تحتوي تراجمهم على معلومات دقيقة أحياناً قد لا نعثر عليها في مصادر أخرى، كما أنّ الذهبي يتميز بالتحري والدقة، ويستعرض أحياناً ضمن المترجم له بعض الأحداث التاريخية مرتبة زمنياً، ولا شك أن البحث استفاد كثيراً من تلك المعلومات المتعلقة ببعض الأحداث ذات العلاقة بمُدّة البحث.

كما استفاد البحث أيضاً من كتابه " تذكرة الحفاظ " وهو كسابقه من حيث الأهمية فيما يتعلق بالتراجم، بل يطيل في بعضها أحياناً، ويضيف معلومات جديدة، وكتاب " العبر في خبر من غير " وهو وإن كان يقدم من خلاله ترجمة موجزة لبعض العلماء والأعيان، وكذلك ما يخص الأحداث التاريخية المرتبة على السنين، يشمل مراحل تاريخية طويلة، ويوضح بعض الجهود والمواقف لبعض علماء العصر وولاته، قد لا توجد عند غيره، رغم اختصاره الشديد للترجمة.

ومن المصادر المهمة المعتمدة في البحث كتاب " البداية والنهاية " للحافظ ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ) الذي يقدم مادة واسعة في تاريخ الدولة العباسية، ويوضح علاقة الخلفاء بسلاطين السلاجقة، وجهود العلماء والولاة في ذلك العصر، ومواقفهم في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودورهم في انتعاش المذهب السني وانتشاره في شتى الأمصار؛ لأنه مرتب على السنين، حيث يذكر في نهاية أحداث كل سنة من توفي فيها

من الأعيان، ويقدم ترجمة موجزة له، مع ذكر مواقفه وجهوده، وأحياناً يترجم ترجمة طويلة لبعض الولاة والسلاطين والعلماء والوزراء، كما يهتم ابن كثير في ذكر الأحداث المتعلقة بالجهاد ضد الصليبيين، والمواقف المشهودة في هذا الجانب، وبالجملة فقد استفاد البحث من هذا الكتاب في كثير من فصوله المتنوعة.

ومن كتب التراجم التي استفاد منها البحث كتاب "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" للمؤرخ الفقيه أبي الفلاح عبد الحي ابن العماد الحنبلي (ت: ١٠٨٩هـ) الذي سار فيه على طريقة الحوليات، وفي نهاية كل سنة يترجم للأعيان من العلماء والولاة والوزراء والأمراء وغيرهم، وقد لازمني كثيراً في أثناء إعداد البحث، لما يقدمه من معلومات ومواقف لها علاقة وثيقة بمادة البحث، ورغم أنه ينقل كثيراً عن الذهبي، يقدم إضافات جديدة أحياناً، لاسيما في تراجمه للعلماء ونشاطهم العلمي، وجهودهم ومؤلفاتهم.

وقد اعتمد البحث على مجموعة من المصادر المتخصصة لتراجم رجال المذاهب نخص بالذكر منها كتاب "طبقات الشافعية الكبرى" لمؤلفه تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي (ت: ٧٧١هـ)، وكتاب "طبقات الشافعية" لجمال الدين عبد الرحيم الأسنوي (ت: ٧٧٢هـ)، وكتاب "طبقات الحنابلة" للقاضي أبي الحسين محمد بن أبي يعلى الفراء (ت: ٥٢٦هـ)، وكتاب "الذيل على طبقات الحنابلة" لأبي الفرج عبد الرحمن بن رجب (ت: ٧٩٥هـ)، وكتاب "المنهج الأحمد في تراجم

أصحاب الإمام أحمد " لأبي اليمن مجير الدين عبد الرحمن بن محمد العليمي (ت: ٩٢٨هـ)، وغيرها.

وهذه المصادر المتخصصة بتراجم رجال المذاهب أفادت البحث كثيراً خلال استعراضه تراجم علماء العصر وذكر مواقفهم وجهودهم ومصنفاتهم؛ لأن هذه الكتب تستعرض العلماء في مختلف التخصصات، كما تقدم تراجم للوزراء الشافعية والحنابلة كالوزير نظام الملك الطوسي، والوزير عون الدين يحيى بن هبيرة، وغيرها.

وبالإضافة إلى هذه المصادر المهمة والأساسية التي اعتمدت عليها في هذه الدراسة وأسهمت في البناء العام لهيكل البحث، حتى ظهر بهذه الصورة، فهناك مصادر أخرى متنوعة أيدت بعض النصوص والأحداث والجهود والمواقف التي تطرق لها البحث، ومن جملة هذه المصادر:

- كتاب " نزهة الألباء في طبقات الأدباء " لأبي البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الأنباري (ت: ٥٧٧هـ).

- وكتاب " إخبار العلماء بأخبار الحكماء " لجمال الدين علي بن يوسف القفطي (ت: ٦٤٦هـ).

- وكتاب " تاريخ مختصر الدول " لابن العبري (ت: ٦٨٥هـ).

- وكتاب " مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يُعدُّ من حوادث الزمان " لأبي محمد عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي (ت: ٧٦٨هـ).

- وكتاب " الجواهر الثمين في سير الملوك والسلاطين " لابن دقماق (ت: ٨٠٩هـ).

- وكتاب : المستفاد من ذيل تاريخ بغداد " للحافظ محب الدين ابن النجار البغدادي (ت:٦٤٣هـ).
- وكتاب " النجوم الزاهرة " لأبي المحاسن بن تغري بردي (ت:٨٧٤هـ).
- ومؤلفات المقرئزي (ت:٨٤٥هـ): " الخطط " ، و" اتعاظ الحنفا " ، و" السلوك لمعرفة دول الملوك " .
- وكذلك مؤلفات السيوطي (ت:٩١١هـ): " تاريخ الخلفاء " ، و" بغية الوعاة " ، و" طبقات المفسرين " .
- وكتاب " أخبار الدول وآثار الأول " للقرماني (ت:١١٠٩هـ).
- وهذه المصادر تتضح أهميتها فيما تقدمه لنا من روايات نادرة، أو توثيق بعض المعلومات المهمة، أو إضافة ما يمكن أن نستنتجه من مجموع الأحداث بالمقارنة مع المصادر الأخرى.
- كما استفاد البحث من كتب الملل والنحل، مثل كتاب " الفرق بين الفرق " لعبد القاهر البغدادي (ت:٤٢٩هـ)، وكتاب " الملل والنحل " للشهرستاني (ت:٥٤٨هـ)، كذلك أفاد البحث من مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية (ت:٧٢٨هـ)، ومنها: " الفتاوى " ، و" منهاج السنة " ، و" الرد على المنطقيين " .
- ومن المصادر الجغرافية التي استفدت منها: كتاب " معجم البلدان " لياقوت الحموي (ت:٦٢٦هـ)، وكتاب " آثار البلاد وأخبار العباد " للقرظيني (ت:٦٢٨هـ)، و" معجم ما استعجم " للبكري (ت:٤٨٧هـ).

أما المصادر اللغوية فيأتي في مقدمتها " لسان العرب " لابن منظور الإفريقي (ت: ٧١١هـ)، و " القاموس المحيط " لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت: ٨١٧هـ)، و " مختار الصحاح " للرازي. وغيرها من المصادر الأخرى التي يجدها القارئ مثبتة في آخر الرسالة في الفهرس الخاص بالمصادر والمراجع.

وبجانب هذه المصادر المهمة فقد استفدت من بعض المراجع الحديثة التي تحدث أصحابها عن هذه المدّة التاريخية من جوانب شتى، وهدني من بيان بعضها توضيح جهد من سبقنا من العلماء والباحثين لينال كل ذي حق حقه من باب الأمانة والإنصاف.

وفي مقدمة هذه المراجع الحديثة كتاب " تاريخ العراق في العصر السلجوقي " للدكتور حسين أمين، حيث قدم دراسة مفصلة عن العصر تتضمن النواحي السياسية والاجتماعية والعلمية والمذهبية، وتضمن كتابه القيم دراسة عن الإنتاج العلمي والأدبي، دون التطرق لجهود ومواقف الخلفاء والعلماء ورجال الدولة ودورهم في الحفاظ على السنة في العصر السلجوقي، وهو الموضوع الذي يختص برسالتي، وقد استفدت منه عند ذكر المدارس والمكتبات وملامح النشاط العلمي وموضوعات أخرى متفرقة.

وكذلك كتاب " الحياة العلمية في العصر السلجوقي " للدكتور مريزن سعيد عسيري، حيث لا يقل أهمية عن سابقه، لاسيما فيما يتعلق بالإنتاج العلمي والفكري في العصر السلجوقي، وأشهر العلماء والأدباء

في ذلك العصر، كل في مجال تخصصه، كما تحدث عن حركة التأليف وخزائن الكتب، والمدارس النظامية، وغيرها من المدارس الأخرى في العراق، وقد أفدت منه في بعض هذه الجوانب، وأضفت بعض العلماء الذين لم يذكرهم في دراسته، لا بسبب العجز أو القصور، ولكن لأن طبيعة بحثه لا تسمح له بذلك، والكتاب بحق إضافة مفيدة، ومساهمة مشكورة، حيث يتضح لقارئه مدى صبر الباحث وجلده الذي انتهى به إلى تلك الدراسة القيمة للحياة العلمية في العصر السلجوقي.

كما لا يفوتني أن أشير إلى مدى الفائدة التي استفاد منها البحث من خلال مؤلفات الدكتور حسن إبراهيم حسن في كتابه " تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي " الذي تناول العصر السلجوقي في الجزء الرابع من الكتاب، وكتاب " التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد " للدكتور عبد الحميد بدوي، حيث تحدث عن التيارات الفكرية والمذهبية في العصر السلجوقي، وعن اتجاه السلاجقة السني، وتأثيره على مخالفيهم في المذهب، وموقفهم من الفاطميين، وجهودهم ضد الباطنية، وكذلك عن المدارس النظامية في ذلك العصر.

كما استفاد البحث من كتاب " الحركة الصليبية " للدكتور سعيد عاشور، وكتابه الآخر " بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى " ويُعدُّ الكتاب الأول من الموسوعات التي عاجلت الحركة الصليبية بوجه عام، في حين ضمن الكتاب الثاني عدة بحوث تتعلق بالخلافة العباسية

وموقفها من الغزو الصليبي، وبحث آخر عن الخلافة الفاطمية، وكذلك كتاب " تاريخ الحروب الصليبية " لمؤلفه ستيفن ونسيان، ترجمة الدكتور السيد الباز العريبي، وهو في ثلاثة أجزاء، وكتاب " الحروب الصليبية في المشرق والمغرب " للأستاذ محمد العروسي المطوي.

والحقيقة أنّ هناك العديد من المراجع، إلى جانب ما ذكرت سابقاً، لا يتسع المجال لذكرها هنا، وهي من الكثرة بحيث لا يمكن حصرها في هذه المقدمة.

وقد اتبعت في بحثي قواعد البحث العلمي العامة، وحاولت جاهداً تحري واتباع الأسلوب العلمي في مناقشة النصوص والروايات والجهود والمواقف التي تطرق لها البحث، ومحاولة نقدها ومقارنتها، للوصول إلى نتائج أفضل، حيث لم أدخر جهداً في سبيل البحث والتدقيق والتنقيب، وعن الحديث عن العلماء وتسجيلي مواقفهم وجهودهم ودورهم في ذلك العصر، لم أقصد بذلك السرد التاريخي؛ لأنه ليس موضوع البحث، ولكني أوضحت جوانب الحق، ومواطن العبر والاتعاظ التي تحيي القلوب، وتوقظ المسلمين، وتبصرهم بتاريخهم، من خلال تلك المواقف والجهود، في ظل التيارات الفكرية المتعددة التي كادت أن تعصف بالمجتمع الإسلامي آنذاك، كما أبرزت جهود الولاة والسلاطين والوزراء الذين قاموا بجهود كبيرة، وسجلوا مواقف عظيمة ضد أعداء المسلمين من بيزنطيين وصلبيين، وفرق ضالّة، وتيارات فكرية منحرفة، أدت هذه الجهود والمواقف مجتمعة إلى الحفاظ على السنة في العصر السلجوقي.

وقد قمت بترجمة للأعلام الذين يرد ذكرهم في أثناء الحديث عنهم عدا بعض المشهورين الذين هم في غنى عن ترجمتهم هنا، كما قمت بعزو الآيات القرآنية الواردة في البحث، وتخريج الأحاديث النبوية، ثم ألحقت بالبحث مجموعة من الملاحق التفصيلية المهمة التي لها علاقة ماسّة بالبحث، كما قمت بوضع فهرس الأعلام المترجم لهم، وكذلك فهرس للمصادر والمراجع، وآخر لمحتويات الرسالة.

أما بالنسبة لخطة البحث، فقد انتظم هذا البحث في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة أبواب، وخاتمة، وكل باب يشتمل على عدّة فصول، على النحو التالي:

المقدمة: وقد احتوت على توضيح أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وذكر بعض العوائق والصعوبات التي واجهتني في أثناء كتابة البحث مع دراسة نقدية لأهم مصادر البحث.

أما التمهيد: فقد تناولت من خلاله أصل السلاجقة، ونشأتهم، وكيفية وصولهم إلى بغداد سنة (٤٤٧هـ)، مع إلقاء الضوء على بعض الدول ذات الصلة بالأحداث التي ساعدت على تكوين دولة السلاجقة، كالدولة السامانية، والغزنوية، والبويهية، وذكر أشهر سلاطين السلاجقة. في حين أتى الباب الأول تحت عنوان " جهود الخلفاء العباسيين والسلطين السلاجقة الدينية ودعمهم للسنة، ومحاربتهم للتيارات الباطلة ".

ويشتمل على ثلاثة فصول:

تناولت في الفصل الأول دراسة تحليلية وتقييماً عاماً لخلفاء بني العباس في العصر السلجوقي، حيث تحدثت عن سيرة الخلفاء وعلاقتهم بسلاطين السلاجقة، وتوضيح جهودهم الدينية والإدارية والسياسية، والحركات التي قامت في عهدهم، كحركة البساسيري، وحركة ديبس، ومحاولاتهم استرجاع سلطاتهم في ذلك العصر بدءاً من الخليفة المسترشد، وعلاقتهم بالرعية، واهتمامهم بأمر المسلمين، ومتابعتهم الأمراء المجاهدين، ودعمهم لهم، ومناصرتهم لأهل السنة، وتوثيق صلتهم بالعلماء، مع إلقاء الضوء على بعض ملامح الحياة الاقتصادية والاجتماعية في ذلك العصر.

أما الفصل الثاني فقد تحدثت من خلاله عن دور الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة وجهودهم بأمر الجهاد ضد الصليبيين، رغم الظروف السياسية المحيطة بهم، ثم جهاد السلطان السلجوقي ألب أرسلان الذي قاد جيش المسلمين في المعركة، وما تركته من آثار عظيمة للمسلمين، ثم متابعة السلاطين لأمر الجهاد ضد الصليبيين عن طريق أمرائهم مثل قوام الدولة كربوقا، وشرف الدولة مودود بن التونتكين، وحمل راية الجهاد بعده نجم الدين إيلغازي، وأقسنقر البرسقي، وظهير الدين طغتكين، حتى أكمل آل زنكي، بقيادة عماد الدين زنكي دورهم في الجهاد ضد الصليبيين، كما أوضحت في هذا الفصل الدور الذي أدّاه الأراقة في جهاد الصليبيين، وكان الخلفاء العباسيون على صلة ومتابعة

للمجاهدين من المسلمين سواء سلاطين السلاجقة أو أمراءهم الذين يقومون بهذا الواجب العظيم، وبدعم وتأيد من السلاطين الذين جاهدوا وتحملوا الكثير من المشاق في سبيل الله دفاعاً عن الإسلام والمسلمين.

أما الفصل الثالث من هذا الباب وعنوانه " جهود الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة في محاربة الفرق الضالة والتيارات الباطلة " فقد ألفتُ فيه الضوء على الجهود العظيمة والمواقف التي قام بها الخلفاء والسلاطين والوزراء ضد الفرق الضالة والتيارات الفكرية المنحرفة، وقد تمثلت تلك الجهود والمواقف، بجهود عسكرية عن طريق القتال والمجاهدة، لاسيما ضد الباطنية الذين عظم نفوذهم، وزاد خطرهم في ذلك العصر، وأبلى سلاطين السلاجقة في ذلك البلاء الحسن، أو الجهود الفكرية المتمثلة في العمل العظيم الذي قام به الوزير المحنك نظام الملك وهو إنشاء المدارس النظامية لمحاربة هؤلاء بنفس السلاح الذي استخدموه، وقد أدت هذه المدارس دورها العظيم عن طريق العلماء الذين درسوا بها، والطلاب الذين تخرجوا فيها، وأصبحوا في عداد العلماء المعدودين، كما ناقش الفصل دور المدارس الأخرى عدا النظامية في مجابهة تلك الأفكار والأخطار المحدقة، وقد أوضحت في هذا الفصل ما قام به أولئك الملاحدة من سفك الدماء ذهب ضحيتهم كثير من الخلفاء والسلاطين والوزراء والعلماء والقضاة والمجاهدين، وقد ذكرت نماذج منهم.

ويتضح من خلال الفصول الثلاثة المتقدمة أن الباب الأول يتضمن جهود الخلفاء ومواقفهم والسلاطين والوزراء والأمراء، أي رجال الدولة

عمومًا وما قاموا به من دور عظيم وجهود متنوعة في سبيل الحفاظ على السنة في العصر السلجوقي.

الباب الثاني " جهود العلماء، ودعمهم المذهب السني، وعلاقتهم بالخلفاء والسلاطين، وآثارها في الحفاظ على السنة في ذلك العصر"، ويشتمل على أربعة فصول:

الفصل الأول: وقد خصصته للحديث عن ازدهار الحياة العلمية والثقافية، ومجتمع العلماء في العصر السلجوقي، وتحدثت في هذا الفصل عن ملامح النشاط العلمي، والرحلة في طلب العلم والمراكز الثقافية والعلمية التي أدت دورًا مهمًا في ازدهار الحياة الفكرية والثقافية في ذلك العصر، مع نماذج للعلماء والأدباء في فنون العلم والمعرفة المختلفة، ومنها علم القراءات والتفسير والفقهاء والحديث والأدب والتاريخ والطب والفلك والرياضيات والصيدلة، وذكر خزائن الكتب العامة والخاصة، مع توضيح بعض الجهود التي قام بها الخلفاء والسلاطين والوزراء والكبراء في تشجيع العلم وتقريب العلماء، الأمر الذي أدى إلى ازدهار الحركة العلمية، وزيادة حركة التأليف.

أما الفصل الثاني: فقد تناولت من خلاله جهود العلماء ودورهم في انتعاش المذهب السني، وانتشاره في الأمصار، ومحاربة التيارات الفكرية المنحرفة، وقد ألقى الضوء أولاً على ظروف العصر الدينية والمذهبية، وأبرزت جوانب عامة من النشاط الشيعي الذي تصدى له العلماء آنذاك، ثم تحدثت عن تقويم الدور الذي قامت به المدارس النظامية، وغيرها من

المدارس الأخرى لنشر المذهب السني في شتى الأمصار، والوقوف بقوة أمام التيارات الباطلة والأفكار المنحرفة، وأوضحت أشهر مدرسي النظامية ودورهم، وكذلك طلاب المدرسة الذين نشروا المذهب السني في بلدانهم بعد عودتهم إليها كما ذكرت بعض العلماء الآخرين-خارج هذه المدارس- والذين كان لهم الدور العظيم في هذا الجانب المهم.

ثم تحدثت في الفصل الثالث من هذا الباب عن جهود العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وآثار ذلك في المجتمع الإسلامي، حيث إن هذا الفصل يكمل الجهود المبذولة والموضحة في الفصل السابق، لما في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من آثار عظيمة وأهمية كبيرة في المجتمع الإسلامي، ثم تحدثت عن دعم وتأيد الخلفاء للعلماء في هذا الميدان، مع ذكر نماذج من مواقف الخلفاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا شك أن هذا التعاون والتآزر أدى ثماره البانعة وفوائده المتوخاة التي أدت إلى الحفاظ على كيان أهل السنة في ذلك العصر، وقد كانت مواقف بعض العلماء جريئة وقوية، تدل على إخلاصهم والتزام قول الحق والصدق، حيث لا تأخذهم في ذلك لومة لائم، وإنما كانوا يرجون ما عند الله تعالى من الثواب والأجر العظيم، ثم أداء لرسالتهم، وقيامًا بواجبهم المنوط بهم، فالعلماء هم مصابيح الهدى وقادة العلم وأرباب الكلمة، ولهم الأهمية القصوى والمكانة العظيمة في المجتمع الإسلامي.

ثم ختمت هذا الباب بالفصل الرابع الذي تناولت فيه اهتمام الخلفاء العباسيين والسلطين السلاجقة بالعلم، وعلاقتهم بالعلماء،

وآثارها في مجال الحفاظ على السنة في ذلك العصر، حيث أوضحت مواقف العلماء مع رجال الدولة من خلال علاقتهم وصلتهم، وتعاون الجميع لما فيه الخير والمصلحة العامة للمسلمين، والنصائح والمواعظ والتوجيهات التي كان يقوم بها أولئك العلماء للحكام ورجال الدولة، وتقبلهم تلك النصائح والعمل بها، كما أوضحت أن تلك العلاقة القوية والصلة الوثيقة للعلماء مع رجال الدولة في عصرهم، لم تُنته عن قول الحق والصدق معهم، وعدم المحاباة أو المداينة على حساب الدين أو مصالح المسلمين، مع التزام العلماء بالضوابط الشرعية في التعامل مع رجال الدولة، ثم أوضحت الآثار الإيجابية من خلال تلك الصلة على المجتمع الإسلامي آنذاك، والتي أدت إلى المحافظة على كيان أهل السنة في ذلك العصر.

الباب الثالث: "جهود العلماء والولاة في إعادة السنة والحفاظ عليها في بلاد الشام ومصر في العصر السلجوقي".

واشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: جهود الولاة في الحفاظ على السنة والقضاء على المذهب الشيعي في بلاد الشام ومصر في العصر السلجوقي.

الفصل الثاني: دور المدارس في انتعاش المذهب السني وانتشاره في بلاد الشام ومصر في ذلك العصر.

الفصل الثالث: جهود العلماء في الحفاظ على السنة ومحاربة التيارات الفكرية المنحرفة في بلاد الشام ومصر في العصر السلجوقي.

وأخيراً تضمنت الرسالة خاتمة توضح أهم النتائج والفوائد التي توصل إليها البحث من خلال موضوعاته المتفرقة، ومجموعة الملاحق المتعلقة ببعض الحوادث الواردة في فصول الرسالة.

ولا يفوتني في الختام أن أتوجه بخالص الشكر إلى الله العليّ القدير الذي منّ عليّ بتمام هذا البحث، وإخراجه إلى حيز الوجود بهذه الصورة الموجودة الآن.

كما لا يفوتني أن أسجّل الشكر وعظيم التقدير لمشرفي الفاضل فضيلة الدكتور عبد الله بن علي المسند، المشرف على هذه الرسالة، لتفضله -حفظه الله- بقبول الإشراف على الرسالة بعد سفر المشرف السابق، ولما أبداه لي من توجيهات سديدة وإرشادات علمية قيمة وملاحظات مفيدة كان لها أكبر الأثر في إخراج هذا العمل على هذا الشكل، كما أنه لم يتضجر من كثرة تردادي عليه في منزله أو الاتصال به مراراً، فجزاه الله عني خيراً الجزاء، ونفع به.

كما أتقدم بالشكر الجزيل والعرفان بالجميل لمشرفي السابق فضيلة الأستاذ الدكتور: أكرم ضياء العمري الذي أشرف على الرسالة، وما أبداه لي من توجيهات وملاحظات قيمة طيلة إشرافه، دون ضجر أو ملل، سواء في منزله، أو في أثناء عمله في مركز خدمة السنة والسيرة النبوية، فجزاه الله خيراً الجزاء وأمدّه بعونه وتوفيقه.

كما أتوجه بالشكر إلى المسؤولين في الجامعة الإسلامية، وعلى رأسهم مدير الجامعة، وعميد كلية الدعوة وأصول الدين، ورئيس القسم،

وأمناء المكتبات، وإلى كلِّ مَنْ مَدَّ لي يد العون والمساعدة سواء داخل الجامعة أو خارجها من أساتذة وزملاء بمشورة وإبداء رأي أو إعارة كتاب ونحوه، وأخص بالذكر الزميل سالم بن عبد الله الخلف الذي أمدني ببعض المصادر والمراجع التي يحتاجها البحث، وكذلك الأخ الزميل عبد العزيز محمد نورولي، فجزى الله الجميع خير الجزاء، وأمدنا جميعاً بعونه وتوفيقه، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومَنْ سار على هديهم إلى يوم الدين.

خالد محمد الصاعدي

الجامعة الإسلامية

المدينة المنورة

مدخل
في تعريف السنة
والمراد بأهل السنة والجماعة

مدخل

" في تعريف السنة، والمراد بأهل السنة والجماعة "

من الضروري قبل أن أشرع في الدخول في مضامين هذه الرسالة الموسومة بـ "جهود العلماء والولاء في الحفاظ على السنة في العصر السلجوقي" أن أوضح معنى السنة في اللغة والاصطلاح، وما هو المراد بأهل السنة والجماعة؛ لأنّ هناك الكثير من الفرق وأهل الأهواء تقحم نفسها تحت هذا المسمى وتدعيه، وتخطي من يخالفهم.

وقد أوضح العلماء المحققون هذا المعنى بجلاء مستدلين بأحاديث الرسول ﷺ، وأقوال الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين، لكي يحذر المسلمون من ادعاءات أهل الأهواء والبدع والضلالات الذين يحاولون بشق الطرق أن يصعوا أنفسهم تحت هذا المسمى، كي يتسنى لهم ترويح بدعتهم، ونشر سمومهم، والتأثير على الناس واستدراجهم من خلال هذه الادعاءات التي قد تحقق بعض أغراضهم، ولكن الحق يعلو والأباطيل تزهر أمام القول السديد والمنهج القويم حيال السنة والمراد بها، ومن هم الأجدر بحمل هذا المسمى والتشرف بهذا الوصف.

أقول وبالله التوفيق:

إنّ السّنة في اللغة: هي الطريقة والسيرة، حسنة أو قبيحة، محمودة أو مذمومة، وهي مأخوذة من السنن، وهو الطريق.

قال الهذلي:

فلا تجزعن من سنة أنت سيرتها

فأول راضٍ سنةً من يسيرها

ثم صار لفظ " السنة " يطلق على ما كان محموداً، فيقال: فلان من

أهل السنة، أي من أهل الطريقة المستقيمة المحمودة^(١).

أما تعريف السنة في الاصطلاح: فيختلف باختلاف غرضه عند

كل من المحدثين والأصوليين، والفقهاء، وفي ذلك يقول السباعي: " ومرد

هذا الاختلاف في المعنى الاصطلاحي للسنة إلى اختلافهم في الأغراض التي

يُعنى بها كل فئة من أهل العلم "^(٢).

فالسنة عند المحدثين هي: ما أثر عن النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو

تقرير، أو صفة خلقية، أو خلقية، أو سيرة، سواء كان قبل البعثة أو

بعدها.

أما في اصطلاح الأصوليين: فتطلق السنة " على ما جاء منقولاً عن

النبي ﷺ على الخصوص مما لم ينص عليه في الكتاب العزيز، بل إنما نص

عليه من جهته عليه الصلاة والسلام، كان بياناً لما في الكتاب أولاً " .

(١) انظر: الصحاح للجوهري (٢١٣٨/٥)، لسان العرب لابن منظور (٢٢٥/١٣).

(٢) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص (٤٨).

وفي اصطلاح الفقهاء: السنة هي الطريقة المسلوكة في الدين من غير افتراض ولا وجوب، فهي مرادفة للمندوب، وهو ما ثبت عن النبي ﷺ ولم يكن واجباً.

وإذا نظرنا وتأملنا في كلام كثير من السلف نجدهم يعنون بالسنة معنى أوسع من معناها عند المحدثين، أو الأصوليين، أو الفقهاء. إذ يعنون بالسنة: موافقة الكتاب وسنة الرسول ﷺ وأصحابه، سواء في أمور الاعتقادات، أو العبادات.

وهي بذلك تكون مقابل البدعة، وذلك بعد أن نشأت البدع وتشعبت الأهواء بعد العصور المفضلة.

قال الشاطبي: "ويطلق (أي لفظ السنة) في مقابلة البدعة، فيقال: فلان على سنة إذا عمل على وفق ما عليه النبي ﷺ، وكان ذلك مما نص عليه الكتاب أولاً، ويقال: فلان على بدعة إذا عمل على خلاف ذلك". ويقول الحافظ ابن رجب: "والسنة هي: الطريق المسلوك، فيشمل ذلك التمسك بما كان عليه النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون من الاعتقادات، والأعمال والأقوال، وهذه هي السنة الكاملة، ولهذا كان السلف قديماً لا يطلقون اسم السنة إلا على ما يشمل ذلك".

والذي عليه النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون هو الكتاب والسنة، فيكون لفظ السنة شاملاً لذلك كله في مقابلة البدعة.

ولأهمية خَطَر مسائل الاعتقاد التي هي أصل الدين وعليها يبنى غيرها من أعمال الإسلام، أطلق السلف لفظ (السنة) على موافقة الكتاب والسنة في أمور الاعتقاد.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " ولفظ السنة في كلام السلف، يتناول السنة في العبادات، وفي الاعتقادات، وإن كان كثير ممن صنف في السنة يقصدون الكلام في الاعتقادات، وهذا كقول ابن مسعود، وأبي بن كعب، وأبي الدرداء رضي الله عنهم: " اقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة ".

فلفظ السنة إذا يطلق مقابل البدعة، فيقال (أهل السنة) كما يقال (أهل البدعة) ، وهذا هو الحق والصواب، وهو المراد عند إطلاق السنة، والله أعلم.

ويدل على ذلك بعض الآثار الواردة عن أئمة السنة الذين أطلقوا ذلك:

فمنها: قول الإمام أبي بكر بن عياش رحمه الله عندما سئل: مَنْ السنِّي؟ فقال: " الذي إذا ذكرت الأهواء لم يتعصب لشيء منها ".
وقول الإمام مالك بن أنس رحمه الله عندما سئل: مَنْ أهل السنة؟ فقال: " أهل السنة الذين ليس لهم لقب يُعرفون به: لا جهمي، ولا قدري، ولا رافضي ".

وكذلك قول الإمام سفيان بن عيينة رحمه الله: " السنة عشرة، فمن كُنَّ فيه فقد استكمل السنة، ومن ترك منها شيئاً فقد ترك السنة: إثبات

القدر، وتقديم أبي بكر وعمر، والحوض، والشفاعة، والميزان، والصراف، والإيمان قول وعمل، والقرآن كلام الله، وعذاب القبر، والبعث يوم القيامة، ولا تقطعوا بالشهادة على مسلم^(١).

المراد بأهل السنة:

إنّ الهدف من التعريف بأهل السنة حتى لا ينسب إليهم خارج عنهم، ولا يخرج منهم داخل فيهم؛ لأنّ كثيراً من الطوائف والفرق تتنازع هذا اللقب، وتدعي أنّها هي التي ينطبق عليها هذا الوصف.

فأهل السنة: هم أخص الناس بها، وأكثرهم تمسكاً بها واتباعاً لها قولاً وعملاً واعتقاداً ظاهراً وباطناً^(٢).

يقول ابن حزم: "وأهل السنة الذين نذكرهم أهل الحق، ومن عداهم فأهل البدعة، فإنهم الصحابة رضي الله عنهم، وكل من سلك نهجهم من خيار التابعين، ثم أصحاب الحديث، ومن تبعهم من الفقهاء

(١) انتهى ملخصاً من كتاب "وسطية أهل السنة بين الفرق" للدكتور محمد باكرم ص (٣٠-٣٣)، و"العقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط" للدكتور سليمان السحيمي -رسالة دكتوراه ص (٨-١٠) ١٤١٣هـ، والآثار الواردة عن أئمة السنة في أبواب الاعتقاد من كتاب السير، للذهبي لجمال بادي ص (١٦)، رسالة دكتوراه، ١٤١٤هـ.

(٢) العقيدة في أهل البيت ص (١٣).

جبلًا فجيبًا إلى يومنا هذا، ومن اقتدى بهم من العوام في شرق الأرض
وغربها رحمة الله عليهم" (١).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية في تعريف أهل السنة: " هم
التمسكون بكتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، وما اتفق عليه السابقون
الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان" (٢).
ويقول أيضًا: " فمن قال بالكتاب والسنة والإجماع كان من أهل
السنة والجماعة" (٣).

ويقول الإمام أحمد بن حنبل في مقدمة كتاب " السنة ": " وهذه
مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر، وأهل السنة التمسكين بعروقتها
المعروفين بما المقتدى بهم فيها من لدن أصحاب النبي ﷺ إلى يومنا هذا،
وأدركت عليها من علماء الحجاز والشام وغيرهما عليها، فمن خالف
شيئًا من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها فهو مخالف مبتدع،
وخارج عن الجماعة زائل عن منهج السنة وسبيل الحق" (٤).
ولذا يمكن القول بأن تعريف أهل السنة: أنهم التمسكون بكتاب
الله وسنة نبيه ﷺ، وما اتفق عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان" (٥).

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/٢٧١).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/٣٧٥).

(٣) مجموع الفتاوى (٣/٣٤٦).

(٤) السنة (٣٣-٣٤).

(٥) موقف أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع ص (٣٨).

فمن تمسك بكتاب الله، وسنة نبيه ﷺ، وما اتفق عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان، ولم يخالف في شيء من أصول الدين فهو من أهل السنة.

أما تسمية أهل السنة بـ(الجماعة) : فهذه التسمية ثابتة لهم بالنص من رسول الله ﷺ، فعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: " إنَّ أهل الكتاب افرقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفرق على ثلاث وسبعين ملة-يعني الأهواء- كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة، وإنه سيخرج في أمي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله " (١).

وفي رواية عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إن أمي ستفرق على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلى واحدة وهي الجماعة » (٢).

ولا ينطبق هذا الوصف إلا على أهل السنة، إذ هم أتباع الرسول ﷺ وأصحابه، وهؤلاء هم جماعة المسلمين.

وفي ذلك يقول الإمام البرهاري: " والأساس الذي بيّنا عليه الجماعة هم أصحاب محمد ﷺ رحمهم الله أجمعين، وهم أهل السنة والجماعة " .

(١) رواه الإمام أحمد (١٠٢/٤) ، وسنن أبي داود (٦-٥/٥)، حديث (٤٥٩٧).

(٢) سنن ابن ماجه-كتاب السنة-باب افتراق الأمم (١٣٢٢/٢)، حديث (٣٩٩٣).

وقال ابن أبي العز الحنفي: " والجماعة جماعة المسلمين، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين "

وقد ذكر الشاطبي للعلماء في تفسير الجماعة خمسة أقول كلها دائرة على اعتبار أهل السنة أنهم هم المعنيون بالجماعة، على اختلاف ألفاظها، إذ مبناها على الاجتماع والائتلاف.

وهذه خصيصة أهل السنة خلافاً لأهل البدع أهل التفرق والاختلاف " فإن السنة مقرونة بالجماعة، كما أن البدعة مقرونة بالفرقة، فيقال: أهل السنة والجماعة، كما يقال: أهل البدعة والفرقة "(١).

ومن أسماء أهل السنة أيضاً: الفرقة الناجية، والطائفة المنصورة، والسلف.

فنخلص مما تقدم إلى أن أهل السنة والجماعة هم الذين يلتزمون في أقوالهم وأعمالهم باطنًا وظاهرًا بما دلّ عليه الكتاب والسنة، ويردون ما تنازع فيه الناس إليهما إذعائًا وامتثالًا لقوله تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شئ﴾ فردوه إلى الله والرسول ﴿ وهذا المنهج هو الذي يميزوا به عن سائر الفرق والطوائف.

ومن المناسب أن نختم الحديث عن أهل السنة والجماعة بما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في نهاية كتابه " العقيدة الواسطية "(٢)، حيث قال:

(١) الاستقامة لابن تيمية (٤٢/١).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥٧/٣) " العقيدة الواسطية ".

" ثم من طريقة أهل السنة والجماعة: اتباع آثار رسول الله ﷺ باطنًا وظاهرًا، واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، واتباع وصية رسول الله ﷺ حيث قال: " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة ".

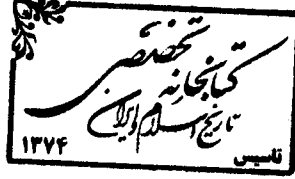
ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ويؤثرون كلام الله على كلام غيره من كلام أصناف الناس، ويقدمون هدي محمد ﷺ على هدي كل أحد، وبهذا سموا أهل الكتاب والسنة. وسموا أهل الجماعة: لأن الجماعة هي الاجتماع، وضدّها الفرقة، وإن كان لفظ الجماعة قد صار اسمًا لنفس القوم المجتمعين، و" الإجماع " هو الأصل الثالث الذي يُعتمد عليه في العلم والدين.

وهم يزنون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من أقوال وأعمال باطنة، أو ظاهرة مما له تعلق بالدين، والإجماع الذي ينضبط: هو ما كان عليه السلف الصالح، إذ بعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة.

وبعد: فالقصد من هذا المدخل هو توضيح معنى السنة ومكانتها، والمراد بأهل السنة والجماعة، ومن أحق الناس بهذا الوصف العظيم، لأنني سوف أتطرق بمشيئة الله في هذا البحث لعلماء كانت لهم جهود ومواقف عظيمة في العصر السلجوقي أدت إلى نصره السنة والحفاظ على كيان أهل السنة، ولكنهم في الوقت نفسه لم يسلموا من بعض الأخطاء والشطحات في العقيدة، ومن هنا يجب التنبيه لكتبهم عند قراءتها أو

الاستفادة منها فيما يوافق الكتاب والسنة، فليس من شرط العالم أنه لا يخطئ، وقد كان لبعض هؤلاء العلماء مواقف عظيمة من أهل الأهواء والفرق الضالة كالباطنية والفلاسفة وغيرها، مما يعني ضرورة توضيح جهودهم ومواقفهم في هذا الجانب الهام الذي يؤدي في النهاية إلى الحفاظ على السنة والتصدي للتيارات الباطلة، وهو ما أريد توضيحه وبيانه من خلال هذه الدراسة إن شاء الله تعالى.

والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل.



تمهيد
نشأة السلاجقة
وكيفية وصولهم إلى بغداد

تمهيد

"نشأة السلاجقة وكيفية وصولهم إلى بغداد"

أرى من الضروري قبل الشروع في الحديث عن السلاجقة وقوتهم وقيام دولتهم، أن أعرف تعريفاً موجزاً بالعالم الإسلامي قبل ظهور قوة السلاجقة، كي تتضح العوامل التي ساعدت على تحرك السلاجقة وزيادة قوتهم، واتساع دولتهم، التي شملت إيران والعراق وآسيا الصغرى وبلاد الشام.

وقد ذكر اسم السلاجقة في التاريخ في أواخر القرن الرابع الهجري، إلا أنهم لم يظهروا بمظهر القوة التي يخشى منها ويعمل حسابها إلا منذ أوائل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي).

وكان العالم الإسلامي في أواخر القرن الرابع الهجري تتنازعه قوى إسلامية مختلفة هي: الدولة العباسية ومقرّها بغداد، والدولة الفاطمية ومقرّها القاهرة، والدولة الأموية في بلاد الأندلس.

أما الخلافة العباسية فقد كانت حين ظهور قوة السلاجقة ضعيفة سياسياً وحرّياً، بحيث لا يستطيع الخلفاء العباسيون توجيه سير الأحداث، الأمر الذي أتاح الفرصة للوزراء والحجاب وقواد الجيش وحكام الأقاليم للتدخل في أمور الدولة المختلفة والتأثير في سير الأحداث، فوجدت قوى

متعددة داخل دولة الخلافة، واستطاعت بعض هذه القوى أن تستقل بنفسها سياسياً وحريةً^(١).

إلا أن ضعف الدولة العباسية من الناحية العسكرية والسياسية، لم يفقدها قوتها الدينية الروحية^(٢)، بوصف الخليفة العباسي إمام المسلمين الذي يدينون له بالطاعة والولاء ويحرصون على التقرب إليه، وطلب موافقته على ما هم فيه من سلطان وملك وجاه.

وقد ازداد النفوذ التركي في العصر العباسي الثاني (٢٣٢-٣٣٤هـ) منذ عهد الخليفة المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ) أول خليفة عباسي في عصر سيطرة الأتراك، وكان قد رفع من مكانتهم، فأسند إليهم المناصب العالية في الدولة، فسيطروا على الأمور، ثم ما لبث أن أدرك خطرهم، فبادر إلى محاربتهم والتصدي لهم، ولكن بعد فوات الأوان، حتى تآمروا عليه وقتلوه سنة (٢٤٧هـ)^(٣).

وظلت قوة الأتراك وتسلطهم في ازدياد حتى بلغت أوجها في القرن الرابع الهجري، ثم تبع ذلك ظهور الدول المستقلة والدويلات في أنحاء الدولة العباسية، التي دخلت في الإسلام واستظلت برايته، ودانت بالولاء

(١) عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٩-١١).

(٢) البيروني: الآثار الباقية عن القرون الخالية ص (١٣٢).

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك (١/١٥٥-٢٢٢)، ابن الأثير: الكامل في التاريخ

للخلافة العباسية السنية، الأمر الذي أدى إلى انقسام دولة الخلافة إلى مناطق نفوذ متعددة، فكانت البصرة في يد محمد بن رائق، وخوزستان في يد ابن البريدي، وغلب نفوذ البويهيين على فارس والري وأصبهان والجليل، واستقل بنو حمدان بالموصل وديار بكر، وديار ربيعة ومضر، وسيطر الإخشيديون على مصر والشام، وظفر السامانيون بحكم خراسان وما وراء النهر، ثم حل محلهم الغزنويون، والأندلس تحت سيطرة عبد الرحمن بن محمد الناصر الأموي، والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القرمطي^(١).

وهكذا يتضح ما كانت عليه الخلافة العباسية من ضعف وتمزق وانقسام، حتى أصبح الخليفة العباسي غير قادر على التحكم في أنحاء دولته المترامية الأطراف، فأدت الأحوال المضطربة إلى تقلبات في الأوضاع السياسية، وسقوط دول ودويلات، وحلول أخرى محلها، وفي هذا الجو العاصف والمناخ المضطرب قامت دولة السلاجقة، مما كان له أثر كبير في سير الأحداث التي شهدتها العصر السلجوقي في الناحية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والمذهبية.

(١) مسكويه: تجارب الأمم (٣٠٥/١)، الهمداني: تكملة تاريخ الطبري (٣٠٧/١)، ابن الأثير: الكامل (٣٢٣/٨-٣٢٤)، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص (١٦٢)، الذهبي: العبر (٢١/٣).

واستكمالاً للفائدة أرى من المناسب أن تُعرف بالدول التي كانت قائمة وقت ظهور السلاجقة، واستقلت نوعاً ما عن الخلافة العباسية. فمن المعلوم أن الدولة الإسلامية تعرضت منذ عصر سيطرة الأتراك، لكثير من الاضطرابات السياسية التي أدت إلى التمزق والانقسام، ولكن الملاحظ أنه رغم انقسام الدولة الإسلامية إلى دول ودويلات، تمتع كثير منها بالرّفاه والأمن والاستقرار، أكثر مما كانت تنعم به في عهد بعض خلفاء بني العباس؛ لأن كل حاكم من حكام هذه الدول، بذل جهده وطاقته في سبيل توطيد دعائم ملكه، والاهتمام بموارد الثروة في دولته وانتعاش الحياة الاقتصادية فيها^(١)، كما لم يؤد هذا الانقسام إلى انقطاع الصلة بين أقاليم الدولة الإسلامية، فكان المسلم ينتقل في شتى أنحاء الدولة الإسلامية، دون أن يتعرض له أحد بسوء^(٢)، ولم يترتب على ذلك الانقسام أيضاً تدهور الحضارة في تلك الدول، بل ازدهرت وتطورت وأسهمت في تقدم العلوم والآداب على اختلاف أنواعها وفنونها^(٣).

أما عن الدول التي استقلت عن الدولة الإسلامية، وكانت قائمة وقت ظهور السلاجقة، فسنتكفي منها بثلاث دول هي: السامانية،

(١) محمد سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص (٦٩-٧٠).

(٢) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (٢١/١-٢٢)، ويؤكد ذلك ما كان له من أمر الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي طاف في كثير من البلاد الإسلامية دون أن يلاقي شيئاً من المضايقات. (المرجع السابق).

(٣) محمد سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص (٧٠-٧١).

والغزنوية، والبويهية، لصلتها بالأحداث التي ساعدت على تكوين دولة السلاجقة، وسند ذكر شيئاً موجزاً عن هذه الدول:

الدولة السامانية (٢٦١-٣٨٩هـ):

أقامها السامانيون في خراسان وما وراء النهر، على أنقاض الدولة الصفارية (٢٥٤-٣٩٠هـ)، ثم امتد نفوذهم حتى شمل بلاد طبرستان والري وقزوین، وأصلهم فرس من بلخ، وينتسب السامانيون في الأصل إلى أسرة فارسية عريقة، حيث كان جدّهم " سامان " من أسرة عريقة تنتسب إلى بهرام جور، وقد أخذ نجمهم في الارتفاع والتألق منذ القرن الثالث هجري، وكانت علاقتهم بالخلفاء العباسيين تقوم على أساس من المودة وتبادل المصالح المشتركة، فكان الخلفاء العباسيون يوكلون إلى السامانيين إقرار الأوضاع في بلاد المشرق والإشراف عليها^(١).

وفي القرن الرابع الهجري بدأ النزاع والصراع بين السامانيين والبويهيين، فنشب القتال بينهما، وتبادلا النصر والهزيمة، الأمر الذي أدى إلى ضعف قوة السامانيين، إضافة إلى ظهور الخلافات والتزاعات بين أفراد البيت الساماني^(٢).

(١) ابن الأثير: الكامل (٢٧٩/٧)، الفقي: الدولة العباسية ص (٢٣٣)، بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص (٢٦٢)، حسن محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص (٤٦٥).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٤٤٣/٨-٤٤٤)، عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (١٤).

وكان آخر ملوك الدولة السامانية هو " نوح بن منصور بن نصر الساماني " الذي تولى الملك إحدى وعشرين سنة ونيّفًا (٣٦٦-٣٨٧هـ)، وقد قبض عليه خواصه، وأجلسوا مكانه ابنه " منصور بن نوح " الذي بدأ النزاع في عهده بينه وبين الغزنويين الذين قامت دولتهم في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، وكانت دولة الخانيين قد قامت أيضًا في بلاد ما وراء النهر في تلك المدة وارتبطت برباط المصاهرة مع الدولة الغزنوية، ولا شك أن ضعف السامانيين وتفرق كلمتهم أغرى جيرافهم من الغزنويين والخانيين باقتطاع أجزاء من دولتهم، فاستولى السلطان " محمود الغزنوي " على بخارى ونيسابور، وتمكن من بسط نفوذه على إقليم خراسان، بينما استولى الخانيون على ممتلكات السامانيين في بلاد ما وراء النهر، وهكذا اقتسم الغزنويون والخانيون ممتلكات السامانيين وأزالوا دولتهم، وخطب فيها للخليفة القادر بالله العباسي^(١)، في الوقت الذي أخذ السلاجقة في الظهور في تلك المنطقة التي حلوا فيها محل الغزنويين والخانيين بعد ذلك.

(١) ابن الأثير: الكامل (١٣٩/٩-١٤٦)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٨٥/١١-٣٢٣-٣٢٤)، وعن أسباب زوال ملكهم المتعلقة بكثرة التراعات بينهم وتدخّل النساء والوزراء في الحكم وغيرها، انظر: ابن الأثير: الكامل (١٤٨/٩)، حسين إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني (٨١/٣)، بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص (٢٦٦)، بارتولد: تركستان من الفتح العربي حتى الغزو المغولي

الدولة الغزنوية (٣٥٢-٥٨٢هـ):

كان قيام دولة الغزنويين قبل قيام دولة السلاجقة بحوالي ستين عاماً، وكانت دولة قوية مرهوبة الجانب، يخشاها جيرانها، ويقدرها الخليفة العباسي، وهي التي أسسها " سبكتكين " أحد القادة البارزين في الدولة السامانية، وكان يعمل في خدمة " البتكين " قائد الجيش الساماني، الذي كان عاملاً على هراة-إحدى مدن خراسان-(^١)، وتولى سبكتكين إمارة غزنة سنة (٢٦٦هـ)، واستطاع بحسن سيرته، وبعد همته، وسياسته، أن يكتسب محبة الرعية، وأمراء البلاد المجاورة له، واعترف به الخليفة العباسي، وتلقب بـ " ناصر الدولة "، وشرع في غزو أطراف الهند، فاتسعت دولته، ثم لم يلبث أن توفي سنة (٣٨٧هـ)، فخلفه ابنه محمود الذي انتزع السلطة من أخيه إسماعيل ويُعدُّ " محمود سبكتكين " من أشهر رجال هذه الدولة، حيث استطاع أن ييسط سلطانه على ملك السامانيين في خراسان وبلاد ما وراء النهر، وبلغت دولة الغزنويين في عهده أقصى اتساع لها، ومن أعماله المهمة مجابهته لبني بويه، وإزالة سلطاتهم في الري وأصفهان وبلاد الجبل، وفرض على نفسه الجهاد في كل عام، فقد أدت غزواته لبلاد الهند إلى فتح أقاليم كثيرة، وضمها إلى ممتلكات الغزنويين،

ص (٣٩٣)، وعن النظم الإدارية والعسكرية في الدولة السامانية، انظر: بارتولد:

تركستان ص (٣٥٥-٣٦١)، أرمنيوس: تاريخ بخارى ص (١٠٩-١٢٤).

(١) ياقوت: معجم البلدان (٣٦٩/٥).

ونشر الإسلام في ربوعها، وتحطيم الأصنام، وبناء المساجد، وإزالة أماكن الشرك، ونفي المعتزلة إلى خراسان، وقتل عددًا كبيرًا من الباطنية، وأحرق كتب المعتزلة والفلسفة والنجوم، وهو أول من تلقب من الغزنويين بلقب "سلطان" ولقبه الخليفة القادر بالله "يمين الدولة، وأمين الملة" وكانت وفاته سنة (٤٢١هـ)^(١)، وقد أخذت دولة الغزنويين في الضعف بعد وفاة السلطان محمود، فكثرت الفتن في ربوعها، وكثر النزاع بين أفراد البيت الغزنوي، لاسيما في عهد السلطان "مسعود بن محمود" الذي جرى بينه وبين البويهيين مناوشات، وكذلك بينه وبين السلاجقة الذين أتاحت لهم الفرصة للظهور بعد وفاة السلطان محمود^(٢)، حيث لم يتمكنوا من الظهور في عهده، ولم يستطيعوا الوقوف في وجهه والتصدي له، أو

(١) للتفاصيل حول ما تقدم ذكره، انظر: ابن الأثير: الكامل (٦٨٤/٨)، (١٣٠/٩-١٣١-٣٧١-٣٧٢)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (١٧٥/٥-١٨٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٧/١٢-٣١)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (١٣/٤-١٩)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني (٨٧/٣-٨٩)، أنور الرفاعي: تاريخ العرب والإسلام ص (٤٥).

(٢) انظر التفاصيل في: ابن الأثير: الكامل (٤٧٣-٣٨٩/٩)، ابن كثير: البداية والنهاية (٣٥/١٢-٤٣-٤٨٠)، السامرائي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي ص (٢٠٩-٢٠٥)، والدولة الغزنوية سميت بهذا الاسم نسبة إلى عاصمتها غزنة القريبة من كابل عاصمة أفغانستان الحالية، عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (١٦).

الاشتباك معه في قتال؛ لأنهم يدركون خَطَرَ ذلك، فلما تهَيأت لهم الفرصة بعد وفاته سارعوا باغتنامها، ونجحوا في إقامة دولة لهم في خراسان، ثم انطلقوا منذ عام (٤٣٢هـ-)، خاصة بعد اعتراف الخليفة العباسي بهم^(١).

وقد ظلت الدولة الغزنوية قائمة حتى أواخر القرن السادس الهجري، ولكن قوتهم ونفوذهم بدأت في الضعف والانهيار بعد قيام دولة السلاجقة، إلا أن جهودهم في سبيل نشر الإسلام، وإعلاء راية الجهاد في سبيل الله، فمشهورة معروفة، لاسيما جهود السلطان " محمود الغزنوي " .

الدولة البويهية (٣٣٤-٤٤٧هـ):

ظهر البويهيون منذ أوائل القرن الرابع الهجري، وسيطروا على الخلافة العباسية منذ سنة (٣٣٤هـ-) في خلافة المستكفي بالله (٣٣٣-٣٣٤هـ-)، الذي قبل وجودهم في عاصمة الخلافة مضطراً، وأمر بذكرهم في الخطبة بعد ذكر اسمه، ومن هنا تيسر لهم توجيه سير الأحداث لمدة استمرت أكثر من قرن من الزمان.

وبنو بويه من أواسط الديلم، سكنوا الإقليم المسمى باسمهم على شاطئ بحر قزوين، ونُسبوا إلى الديلم؛ لأنهم سكنوا بها وطال مقامهم هناك^(٢).

(١) عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (١٦).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٢٦٥/٨)، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص (٢٧٩)، ابن

طباطبا: الفخري ص (٢٤٩).

وسلسلة نسب هذه الأسرة مسألة يحوطها الشك، ولا تعرف على وجه الدقة، فبعض المؤرخين يقول: إنهم أسرة فارسية ينتسبون إلى بهرام جور أحد ملوك ساسان، وادّعت هذه الأسرة النسب العربي، وذلك باتصالها بقبيلة بني ضبة العربية^(١)، وقد تصدى بعض المؤرخين لهذا الوهم، وفي طليعتهم ابن خلدون الذي قال: والحق أن هذا النسب مصنوع، تقرب إليهم به من لا يعرف طبائع الإنسان في الوجود^(٢).

ومهما يكن من أمر، فإنّ ما يهمنا هنا هو أن البويهيين اعتنقوا الإسلام على المذهب الشيعي الزيدي^(٣)، حيث نهجوا مع الشيعة سياسة متعاطفة جداً، منذ دخولهم بغداد، حتى أصبح الشيعة يجهرون، ويختلفون بأعيادهم، فكثرت الفتن بين السنة والشيعة في العصر البويهي، ولم يقم

(١) ابن الأثير: الكامل (٢٦٥/٨)، ابن خلدون: العبر (٤٢٦/٤)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني (٣٧/٣)، إبراهيم العدوي: التاريخ الإسلامي ص (٣٥٣)، السامرائي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي ص (١٣٦-١٣٧).

(٢) ابن خلدون: العبر (٤٢٦/٤)، وعن قيام دولة بني بويه وتسلمهم السُلطة في بغداد والمراحل التي مروا بها، انظر: حامد غنيم: قيام دولة بويه ص (٣) وما بعدها، وكتاب العلاقات العربية السياسية في عهد البويهيين ص (٨٨) وما بعدها، للمؤلف نفسه.

(٣) ابن الأثير: الكامل (٤٥٢/٨)، الذهبي: العبر (٤٦/٢)، يوسف العش: تاريخ عصر الخلافة العباسية ص (١٨٧).

بنو بويه بأي جهود لخدمة الإسلام والمسلمين، بل إنهم سيطروا على الخلافة العباسية السنية، وتعدوا على الخلفاء العباسيين، وانتصوا من حقوقهم، بل فكروا في إزالة الخلافة العباسية، وإقامة خلافة علوية مكانها، وقد أدى تعصب البويهيين للشيعة ودعمهم لهم إلى انتشار الفوضى والاضطرابات في العراق، كما قامت الفتن الطائفية، وكثرت الثورات بين الجند، وذهبت هيبة الخلافة العباسية ومكانتها، فلم يبق لها غير الاسم، وقد امتد نفوذ البويهيين حتى شمل جميع أنحاء العراق، وتجاوز ذلك إلى عدد من البلدان التابعة للخلافة العباسية مثل فارس والري وهمدان وأصفهان وغيرها^(١).

وقد أخذ هذا النفوذ يضعف تدريجياً في أواخر القرن الرابع الهجري، حيث كثر التنازع بين أفراد البيت البويهي، وبين أمراء الجند الذين كان

(١) انظر حول ذلك: البيروني: الآثار الباقية ص (١٣٢)، ابن الأثير: الكامل (٤٥٢/٨)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢١٢/١١-٢١٣)، الفقي: الدولة العباسية ص (٢٤٠)، وعن الفتن بين السنة والشيعة في ذلك العصر انظر: ابن الجوزي: المنتظم (٢٣٧/٧)، ابن الأثير: الكامل (٥٧٥/٩)، الذهبي: العبر (٢٨٢/٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (٦٣/١٢)، وكذلك حوادث السنوات ص (٤٠٦-٤٠٨-٤٣٢-٤٤٠-٤٤٥-٤٤٧) في تلك المصادر المتقدمة.

لهم نفوذ قوي في ذلك العصر، حتى أصبحوا يتدخلون في تولية الحكام من آل بويه، دون تدخل من الخليفة الذي لا يملك إلا تنفيذ رغباتهم^(١).

وعندما ظهر السلاجقة بعد وفاة السلطان محمود الغزنوي سنة (٤٢١هـ)، كان نفوذ البويهيين قد أخذ في الضعف والزوال، ساعد في ذلك الحروب والنزاعات التي قامت بين البويهيين أنفسهم، حيث لم يستطيعوا الوقوف في وجه السلاجقة، عندما توجهوا إلى بغداد بزعامة السلطان طغرل بنة (٤٤٧هـ) تلبية لدعوة الخليفة القائم بأمر الله الذي اعترف بدولتهم وحكمهم على البلاد التي استولوا عليها، وبذلك زال نفوذ البويهيين الذين حكموا أكثر من قرن من الزمان^(٢).

ولكي تتضح حقيقة الأوضاع في العالم الإسلامي بمعسكريه السني والشيوعي، أرى من المفيد إلقاء الضوء بإيجاز على دولة الفاطميين العبيديين^(٣) حين قيام دولة السلاجقة، كي تظهر بجلاء العوامل التي ساعدت السلاجقة على التقدم والانتشار.

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل (٣٣٦/٩-٣٦٧)، أنور الرفاعي: تاريخ العرب والإسلام ص (٤١٨).

(٢) انظر: البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق (٩-١٠)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (٥٨)، عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (١٨)، سهيل زكار: تاريخ العرب والإسلام ص (٣٣٩).

(٣) يتكرر إطلاق لقب الفاطميين على العبيديين الباطنيين، مع العلم أن نسبتهم إلى فاطمة رضي الله عنها نسبة كاذبة وغير صحيحة، بل المقصود به التستر بذلك

والحقيقة أن الدولة الفاطمية العبيدية لم تكن حين ظهور قوة السلاجقة أسعد حالاً من دولة الخلافة العباسية، فقد كان الحاكم الفاطمي العبيدي ضعيفاً من الناحية السياسية والإدارية والعسكرية، كما هو الحال بالنسبة للخليفة العباسي، وكانت الأحوال بصفة عامة مضطربة، لا سيما في عهد الحاكم الفاطمي الحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١١هـ)، الذي عاصر ظهور قوة السلاجقة، وكان شاذاً في تصرفاته، جمع بين صفات متضاربة متناقضة، وكانت سياسته مع رعاياه تتسم بالعنف والكثير من التذبذب والاضطراب^(١)، وما ذلك إلا نتيجة عدم تقبل الرعية هذا المذهب الفاسد الذي سيطر على أجزاء من بلاد الإسلام، وحاول نشر سمومه المخالفة للعقيدة الإسلامية الصحيحة.

وعندما أقام السلاجقة دولتهم سنة (٤٢٩هـ)، كان الحاكم الفاطمي العبيدي آنذاك هو المستنصر بالله (٤٢٧-٤٧٨هـ)، وكان في التاسعة من عمره، واستقرت الأحوال في عهده مدة من الزمن، ثم لم تلبث أن عادت إلى الاضطراب وسوء الأحوال الدينية والاقتصادية بسبب

النسب، لنشر مذهبهم الباطل وعقيدتهم المنحرفة، ولذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن هذه النسبة: "وهي نسبة باطلة كمذهبهم".

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل (٣١٤/٩-٣١٥)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٩٢/٥)، المقرئزي: اتعاظ الحنفا (٣/٢)، العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص (٢٨٤)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني (١٥٣/٣).

سيطرة أهل هذا المذهب، ولتدخل أم الحاكم في إدارة أمور الدولة، وزيادة نفوذ الوزراء، وتنافسهم على السلطة، الأمر الذي أدى إلى تزعزع مركز الخلفاء إلى حد كبير^(١)، مما هيا الوضع للسلاجقة أن يغتتموا تلك الظروف، فتزداد قوتهم، وتتسع أملاكهم، حيث استطاعوا أن يقتطعوا ممتلكات الفاطميين العبيديين في بلاد الشام ومحاربة النفوذ الشيعي فيها، وهذه العوامل ساعدت السلاجقة على سرعة الظهور والسيطرة، واحتلال مكان بارز في نفوس المسلمين، نظير ما قدموه من خدمات جليلة للإسلام والمسلمين، حيث عمدوا إلى نشر المذهب السني، ودعم أهل السنة، وارتفاع شأنهم في عهدهم، ومحاربة التيارات الفكرية المنحرفة، وتوحيد أغلب المناطق والدويلات تحت إمرة واحدة، أملاً في إعادة الوحدة للدولة الإسلامية^(٢).

وبعد أن أوضحت أحوال العالم الإسلامي قبيل ظهور السلاجقة، والدول التي كانت قائمة آنذاك، وكذلك أحوال الخلافة العباسية، والدولة

(١) المقرئزي: إتعاظ الحنفا (٢/١٨٤)، العبادي: في التنارخ العباسي والفاطمي ص

(٢٩٧-٣٠٠)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني (٣/١٥٥).

(٢) عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٢٠)، إبراهيم

العدوي: التاريخ الإسلامي ص (٣٥٥)، سهيل زكار: تاريخ العرب والإسلام ص

(٣٣٧)، أنور الرفاعي: تاريخ العرب والإسلام منذ العصور القديمة حتى العهد

العثماني ص (٤٢٩).

الفاطمية العبيدية، حين قيام دولة السلاجقة^(١)، يحسن بي أن أتحدث عن السلاجقة وأصولهم وقيام دولتهم، حتى وصولهم إلى بغداد، كي تكتمل الصورة، وتحصل الفائدة المرجوة بمشيئة الله.

فالسلاجقة ينحدرون في أصولهم من قبيلة " قنق " التركية، وتمثل هذه القبيلة مع ثلاث وعشرين قبيلة أخرى مجموعة القبائل التركية المعروفة باسم " الغز "^(٢)، وكانت منازل هذه القبائل في الصحراء الواسعة الممتدة من الصين حتى شواطئ بحر الخزر^(٣).

ولم يكن هذا الفرع من قبيلة " الغز " يحمل اسماً خاصاً به إلا عندما ظهر " سلجوق بن دقاق "^(٤) في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، حيث نجح في توحيد أفراد قبيلته تحت زعامته، فنسبوا إليه، وسموا

(١) وذلك لصلة الخلافة العباسية، والدولة الفاطمية بالأحداث التي ساعدت على تكوين دولة السلاجقة وبسط نفوذها.

(٢) ابن خلدون: العبر (٣/٥-٤)، القلقشندي: صبح الأعشى (١/٣٦٦)، العيني: السيف المهند ص (٢٠-٢٢)، عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٢٤)، أنور الرفاعي: تاريخ العرب والإسلام ص (٤٢٦).

(٣) أرمنيوس: تاريخ بخارى ص (١٢٧)، وبحر الخزر هو بحر قزوين.

(٤) دقاق" اسم مقدم السلاجقة، ورد بصيغ مختلفة منها: دقاق، تقاق، يقاق، وهي كلمة تركية معناها: القوس الحديد، أو القوس الحديدي، ابن الأثير: الكامل (٤٧٣/٩)، الحسيني: أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ص (٢٣).

بالسلاجقة، حيث أخذ اسمهم يظهر في كتب التاريخ منذ عام (٣٧٥هـ)^(١).

وأول هجرهم كانت من أقصى بلاد التركستان إلى بلاد ما وراء النهر حيث تتوفر موارد المياه، وأسباب العيش الرغد^(٢).

وقد أدى جوار السلاجقة للمسلمين السنين من السامانيين والخانين والغزنويين إلى اعتناقهم الإسلام، وانتشاره بين قبائلهم، واتباعهم للمذهب السني، وتمسكهم به^(٣)، وحول ذلك يقول ابن الأثير: "فسار بجماعته-أي سلجوق بن دقاق- ومن يطيعه من دار الحرب إلى ديار الإسلام، وسعد بالإيمان ومجاورة المسلمين"^(٤).

وكان سلجوق غيوراً على الإسلام وأهله، فأخذ على عاتقه حماية المسلمين في المناطق المجاورة له من غارات القبائل التركية غير المسلمة،

(١) عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٢٤).

(٢) الراوندي: راحة الصدر وآية السرور ص (١٤٥)، الحسيني: العراضة في الحكاية السلجوقية ص (٢١).

(٣) عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٢٥).

(٤) ابن الأثير: الكامل (٤٧٤/٩).

فذاع صيته، وزاد أتباعه، وعظم نفوذه، فأخذت قوته تتزايد يوماً بعد يوم^(١).

وقد استفاد سلجوق من مساعدته السامانيين واتصاله بهم^(٢)، فأذنوا له بالمرور عبر بلادهم، والاستقرار بقومه بالقرب من شاطئ نهر سيحون، واتخاذ مدينة جند مركزاً لهم^(٣).

ثم أخذت جموع السلاجقة تزداد وتنتشر منذ أواخر القرن الرابع الهجري، واستقرت قرب موارد المياه، حيث توجد الأراضي الخصبة، وتكثر المراعي اللازمة لدوابهم فيطيب لهم العيش، كما دخل السلاجقة في هذه المدة في حروب مع الحكام المحليين في هذه المنطقة، والذين توجسوا

(١) أرمينيوس: تاريخ بخارى ص (١٢٨)، وقد تمكن سلجوق من إسقاط ضريبة الخراج التي كان يأخذها ملك الترك من المسلمين في المناطق المجاورة. ابن الأثير: الكامل (٤٧٤/٩)، المقرئزي: السلوك (٣١/١).

(٢) من ضمن هذه المساعدات استنجد السامانيين بسلجوق ضد هارون بن إيلك خان الذي استولى على بعض أملاك السامانيين، فاستردوها منه بمساعدة سلجوق وابنه أرسلان. ابن الأثير: الكامل (٤٧٤/٩).

(٣) الحسيني: أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ص (٢٤)، حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٤٥-٤٦)، عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٢٦)، حسن محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص (٥٤٦)، السامرائي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي ص (٢٠٤).

خوفاً من تزايد قوتهم، وتوسيع ممتلكاتهم، حيث أصبحوا قوة يخشى بأسها ويرهب جانبها^(١).

توفي سلجوق عن مائة وسبعة أعوام، وترك أربعة أولاد هم: إسرائيل (بيغو أرسلان)، ومكائيلن وموسى، ويونس، وتولى إسرائيل زعامة السلاجقة بعد وفاة أبيه، وكانت الدولة السامانية قد غربت شمسها في عام (٣٨٩هـ)، وكانت أراضي السلاجقة قد ضاقت بهم، فأخذوا يتنقلون ما بين بلدة " نور " بالقرب من مدينة بخارى في الشتاء، وبين بلدة " سفد " بالقرب من مدينة سمرقند في الصيف^(٢).

وبعد أن شعر جيران السلاجقة من الخانيين والغزنويين بهذه القوة الجديدة، وما يمكن أن ينجم عنها من خطر عظيم، أخذوا يتدارسون خطة لإضعاف السلاجقة والحدّ من نفوذهم، وذلك في عام (٤١٥هـ)، وكان السلطان " محمود الغزنوي " يعلم تماماً بأن السلاجقة قوة كبيرة يقودها " إسرائيل بن سلجوق " فلجأ إلى الحيلة والدهاء للتخلص من خطرهم، وبالفعل استطاع القبض على إسرائيل، وهو المقدم بينهم، حيث حبسه في

(١) عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٢٦)، السامرائي:

تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي ص (٢٠٥).

(٢) الراوندي: راحة الصدور ص (١٤٥)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (٢٥)، ابن

الأثير: الكامل (٤٧٤/٩)، المقرئزي: السلوك ص (٣١)، حسن محمود: العالم

الإسلامي في العصر العباسي ص (٥٤٦)، حسين أمين: تاريخ العراق في العصر

السلجوقي ص (٤٦).

قلعة " كالنجر " وحاول السلاجقة إنقاذ زعيمهم، إلا أنهم فشلوا، ومات إسرائيل في سجنه سنة (٤٢٢هـ)^(١).

وقد أغضب هذا العمل الغادر السلاجقة، وكان لهذه الخديعة وقع عظيم في نفس " ميكائيل بن سلجوق " الذي خلف أخاه " إسرائيل " في زعامة السلاجقة، فلم يبادر بالاشتباك في حرب الغزنويين، لما كان يعلمه من قوة السلطان " محمود " ومكانته في العالم الإسلامي، وإجلال الخلفاء العباسيين له، فأثر استعمال الحيلة والدهاء، الذي استعمله " محمود " ضد قادة السلاجقة، فأرسل إلى السلطان " محمود " يلتمس منه الإذن للسلاجقة بالمرور من الأراضي التي تقع تحت سلطانه، والرحيل إلى إقليم خراسان فسمح لهم بالرحيل إلى خراسان، رغم تحذير بعض الأمراء له، ولكنه لمن يلتفت لهذا التحذير، اعتماداً على قوة جيشه، واعتقاداً منه بأن السلاجقة قد ضعفت قوتهم بعد اعتقال " إسرائيل "، ووفاته، فعبروا نهر جيحون واستقروا في إقليم خراسان^(٢)، ولم يكد السلاجقة ينزلون في إقليمهم الجديد، حتى أخذوا يدعمون قوتهم، وينتشرون في المناطق المجاورة

(١) الراوندي: راحة الصدور ص (١٤٩-١٥٠)، عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٣٠-٣١)، حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٤٥)، حسن محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص (٥٤٨)، السامرائي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي ص (٢٠٦).

(٢) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (٥)، الراوندي: راحة الصدور ص (١٥٣-١٥٤)، الحسيني: العراضة في الحكاية السلجوقية ص (٣١).

لمنازلهم، ويتحينون الفرص للانقضاض على الدولة الغزنوية، وقد شعر سكان المنطقة التي تنزل فيها قبائل السلاجقة بخطرهم وقوتهم، فرفعوا شكواهم إلى السلطان " محمود الغزنوي " وطلبوا منه إبعاد السلاجقة، فأمر والي طوس بإجلائهم ومهاجرتهم، فهاجم الوالي معسكراهم، فهب السلاجقة لمقاومته، فدارت بين الطرفين معارك عنيفة رجحت فيها كفة السلاجقة، وانتصروا انتصاراً كبيراً، ولكن حضور السلطان " محمود الغزنوي " الذي استنجد به والي طوس، وضع حداً لتفوقهم، وحول نصرهم إلى هزيمة ساحقة، وذلك سنة (٤١٨هـ)^(١).

وفي هذه الأثناء توفي " ميكائيل بن سجلوق " قبل عام (٤٢١هـ)، وترك ولدين: أبا سليمان داود (جفري بك)، وأبا طالب محمد (طغرل بك)^(٢)، وكانا يتمتعان بنفوذ كبير بين جند السلاجقة، فانتهزوا فرصة وفاة السلطان " محمود الغزنوي " سنة (٤٢١هـ)، ونجحوا في تقوية جبهة السلاجقة، والأخذ بالثأر من الغزنويين، وتوسيع أراضيهم وممتلكاتهم.

(١) عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٣٣)، السامراتي:

تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي ص (٢٠٧).

(٢) كان لكل فرد من أفراد البيت السلجوقي اسمان: اسم قبلي، واسم إسلامي، فطغرل

الاسم القبلي لهذا السلطان، أما اسمه الإسلامي فهو محمد، وكنيته: أبو طالب، ولقبه

بك، قبل توليه العرش، فهو طغرل بك أبو طالب محمد، أما أخوه جفري، فلقبه

بك، واسمه الإسلامي داود، وكنيته أبو سليمان، فهو جفري بك أبو سليمان داود،

انظر: عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٣٥).

وفي عام (٤٢٦هـ) طلب السلاجقة من والي نيسابور أن يسمح لهم بالنزول بالقرب من المدينة والإقامة حولها، فرفض الوالي وأحس بالخطر، فاستنجد بالسلطان "مسعود بن محمود الغزنوي" فأسرع إلى نيسابور لدفع خطر السلاجقة وإخضاعهم، وتمكن من هزيمتهم في البداية، ولكن السلاجقة أعادوا تنظيم صفوفهم، ثم هاجموا قوات السلطان "مسعود" وانتصروا عليها انتصاراً باهراً، وكان ذلك بالقرب من مدينة نسا- إحدى مدن خراسان سنة (٤٢٦هـ)^(١)، فاضطر السلطان "مسعود" إلى عقد صلح معهم، وترك بمقتضاه المنطقة لهم، ثم رحل إلى الهند لترتيب أمورها، وإقراراً الأوضاع فيها، وكان لهذا الصلح أثره الكبير في ازدياد قوة السلاجقة، وتنظيم صفوفهم، خاصة وقد أعطيت لهم بموجبه ولايات (نسا، ودهستان، وفراوه)، ولُقّب زعماء السلاجقة بلقب "الدهقان"^(٢)،

(١) انظر التفاصيل في: البيهقي: تاريخه ص (٥١٨-٥٢٨)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (٦)، الراوندي: راحة الصدور ص (١٥٦-١٥٧)، الحسيني: العراضة ص (٣٢-٣٣)، ابن الأثير: الكامل (٩/٤٧٧-٤٧٨)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (٣٢)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٥/٦٥)، ابن الوردي: تممة المختصر (١/٤٧١)، المقرئزي: السلوك (١/٣٢).

(٢) الدهقان: لفظ فارسي بمعنى رئيس القرية، أو رئيس الفلاحين، وكان يطلق على خانات تركستان في العصر الإسلامي. حسن الباشا: الألقاب الإسلامية ص (٢٩٠).

وبهذا خلا الجو للسلاجقة في إقليم خراسان، حيث تهيأت لهم الأسباب، وخدمتهم الظروف لتدعيم نفوذهم وبسط سلطاتهم وإقامة دولتهم^(١). ثم إن السلطان مسعود عاد من بلاد الهند إلى مدينة غزنة سنة (٤٢٩هـ)، وقد علم بارتفاع شأن السلاجقة وقوتهم، فطلب من أمير خراسان محاربتهم وإبعادهم^(٢)، فانهزم أمامهم، ثم أرسل السلطان مسعود جيشاً كبيراً لقتال السلاجقة، مع كبار قواده، فهاجم معسكراتهم بالقرب من مدينة "سرخس" سنة (٤٢٩هـ)، وتمكن السلاجقة بعد قتال شديد، من إحراز النصر، والاستيلاء على غنائم كثيرة^(٣)، وبذلك أصبحت قوة السلاجقة أعظم قوة في خراسان، ودخل زعيمهم "طغرل بك" مدينة نيسابور، فجلس على عرش السلطان "مسعود الغزنوي" ولقب نفسه بالسلطان المعظم ركن الدنيا والدين أبي طالب، وأعلن قيام

(١) ابن الأثير: الكامل (٤٧٨/٩)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (٣٣)، حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٤٩-٥١).

(٢) الراوندي: راحة الصدور ص (١٥٧).

(٣) البيهقي: تاريخه ص (٦٢٤)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (٨)، ابن الأثير: الكامل (٤٨١/٩-٤٨٢)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (٤١-٤٢)، ابن العري: تاريخ مختصر الدول ص (٣١٩)، ابن الوردي: تممة المختصر (٤٨٢/١)، ابن كثير: البداية والنهاية (٤٨/١٢)، أرميينوس: تاريخ بخارى ص (١٣٣).

وسرخس: مدينة بنواحي خراسان بين نيسابور ومرو، ياقوت: معجم البلدان (٢٠٨/٣).

دولة السلاجقة، وأمر بضرب النقود باسمه في البلاد التي سيطر عليها، فكان بذلك أول سلطان للسلاجقة^(١).

ولم يمر إعلان قيام دولة السلاجقة، وانتصارهم المتوالية على الغزنويين دون مقاومة من جانب الغزنويين الذين بذلوا جهودًا متوالية بين عامي (٤٢٩هـ)، و(٤٣١هـ)، للقضاء على السلاجقة، ولكنها باءت بالفشل، وأدت إلى تمكين السلاجقة وإحكام قبضتهم على خراسان وما وراء النهر، عند ذلك نهض السلطان مسعود، وبادر إلى تجهيز حملة عسكرية كبيرة يقودها بنفسه، والتقى مع السلاجقة في معركة "داندانقان" بين سرخس ومرو، وذلك في عام (٤٣١هـ)، ودارت الدائرة على جيش السلطان "مسعود" الذي انتصر في البداية، ولكنه هزم أخيرًا هزيمة نكراء، ورجع إلى غزنة، بينما رجع السلطان "طغرل" إلى نيسابور مكللاً بالنصر^(٢).

(١) الراوندي: راحة الصدور ص (١٥٨)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (٤٢)، عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٣٥)، حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٥٢)، حسن محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص (٥٥٢).

(٢) للتفاصيل انظر: البيهقي: تاريخه ص (٦٤٩)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (٨)، الراوندي: راحة الصدور ص (١٦٢-١٦٣)، ابن الأثير: الكامل (٩/٤٨٢-٤٨٣)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (٤٤)، الحسيني: العراضة ص (٣٥)، ابن خلدون: العبر (٤/٥٠٥)، أرمينوس: تاريخ بخارى ص (١٣٤).

وتُعدّ معركة " داندانقان " من المعارك الحاسمة في تاريخ كل من الغزنويين والسلاجقة، حيث أنهت الصراع بين هاتين القوتين، كما غنم السلاجقة غنائم كثيرة مادية ومعنوية^(١)، ونتج عن المعركة أيضًا ترسيخ الكيان السياسي للسلاجقة، فأحكموا سيطرتهم على خراسان وما وراء النهر، وأخذوا يستعدون لبسط سلطاتهم وتوسيع دولتهم، حتى تشمل جميع أنحاء العالم الإسلامي^(٢).

ومن أجل تحقيق هذا الهدف، عقد السلطان " طغرل " اجتماعًا ضم أخاه " جعفري بك داود " وعمه " موسى بيغو " وأبناء عمه، وكبار رجالات السلاجقة، تعاهدوا فيه على الاتحاد والمنصرة، وعلى الولاء والطاعة لزعامه طغرل وعينوه قائدًا أعلى للجيش السلجوقية مهما كثرت، ثم وزع طغرل المناصب بين أفراد أسرته، وعين كل واحد منهم على ولاية من الولايات، وسيره إليها، وأذن له بأن يفتح ما يستطيع من الجهات المجاورة لها^(٣)، فاختص " جعفري بك داود " بأكثر خراسان، على

(١) الراوندي: راحة الصدور ص (١٦٣)، ابن الأثير: الكامل (٤٨٣/٩)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (٤٥)، عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٣٧).

(٢) عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٣٧-٣٨)، السامرائي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي ص (٢١٠).

(٣) عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٣٩-٤٠)، حسن محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص (٥٥٤-٥٥٥).

أن يتخذ مدينة مرو عاصمةً للملكه، وعين " موسى " على ولاية هراة، وبست، وسجستان، واختص " إبراهيم ينال " - وهو أخو السلطان طغرل بك لأمه - بولاية قهستان، وجرجان، أما السلطان طغرل بك، فقد اتخذ مدينة " الري " عاصمةً لدولة السلاجقة الكبرى، وقرر أن يتجه لاستكمال السيطرة على إيران والولايات القريبة منه، ثم التوجه للاستيلاء على العراق، وبسط نفوذ السلاجقة على عاصمة الخلافة الإسلامية^(١).

ثم بعد أن رتب السلاجقة أمورهم، وحددوا أهدافهم، ونظموا صفوفهم، لم يبق أمامهم إلا أن يعطوا دولتهم الصبغة الشرعية، والصفة الرسمية، فكتبوا في سنة (٤٣٢هـ) رسالة إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ) أظهروا فيها ولاء السلاجقة للخلافة العباسية، وحبهم للجهاد في سبيل الله وابتغاء مرضاته، ثم ذكروا ما دار بينهم وبين الغزنويين من حروب، وطلبوا في نهاية الرسالة من الخليفة العباسي الاعتراف بشرعية دولتهم، والموافقة على قيامهم على أساس من السدين، وأمر من أمير المؤمنين، والإقرار بطغرل بك سلطاناً عليهم^(٢).

(١) الراوندي: راحة الصدور ص (١٦٧-١٧٧)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (٥٦)، حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٥٥)، السامرائي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي ص (٢١٠).

(٢) الراوندي: راحة الصدور ص (١٦٦-١٦٧)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (٥٦)، حسن محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص (٥٥٩).

وهكذا توثقت العلاقة بين السلاجقة والخليفة العباسي، خاصة أن السلاجقة كانوا يعتقدون المذهب السني الذي يُعدّ الخليفة العباسي رئيسه الأعلى^(١)، ومن هنا كان التقارب بينهم كبيراً؛ لإيمان السلاجقة بشرعية الخلافة العباسية^(٢)، ووجوب طاعة الخليفة العباسي.

وقد كانت الظروف مهيأة في مقر الخلافة العباسية، لاستجابة الخليفة القائم بأمر الله لرسالة السلاجقة، وقد بادر الخليفة بإرسال رسول إلى طغرل بك في الري، يحمل إليه اعترافه بدولة السلاجقة، ويدعوه للحضور إلى بغداد ليتشرف دار الخلافة بحضوره^(٣)، وبذلك أصبحت الطرق ممهدة لقيام مزيد من الاتصالات والعلاقات بين الخليفة والسلاجقة حتى سيطرتهم على بغداد سنة (٤٤٧هـ)^(٤).

وكان السلاجقة قد أخذوا في تنفيذ خططهم في السيطرة على إيران والعراق، دون أن يتوقفوا حتى يصل رد الخلافة العباسية، فبدأ السلطان "طغرل" بتنفيذ خطته، ففي سنة (٤٣٣هـ) استولى على إقليمي جرجان

(١) محمد سرور: النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ص (١٢٤).

(٢) حيث انتشرت الفتن وانعدم الأمن وكثر العيارون، وكانت الفرق المذهبية يضرب بعضها بعضاً، والدولة البويهية عاجزة عن إقرار الأمور في العراق. حسن محمود:

العالم الإسلامي في العصر العباسي ص (٥٥٦).

(٣) الراوندي: راحة الصدور ص (١٦٨-١٦٩)، الحسيني: العراضة ص (٣٨).

(٤) السامرائي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي ص (٢١١).

وطبرستان^(١)، كما تمكن أيضاً من فتح خوارزم سنة (٤٣٤هـ)، وتمكن من ضمها إلى دولة السلاجقة، ثم رحل إلى مدينة الري عاصمة إقليم خراسان فاتخذها عاصمة له ومقرّاً لحكومته^(٢)، ثم استطاع السيطرة على كل أجزاء إيران الغربية، حيث تمكن من بسط نفوذه على قزوين وأبهر وزبجان وهمدان، وأذربيجان، وكرمان، وذلك خلال المدة من سنة (٤٣٧هـ) إلى سنة (٤٤١هـ)^(٣)، ثم توجه لاستيلاء أصفهان سنة (٤٤٢هـ)، وكذلك الأجزاء الجنوبية من إيران^(٤)، وبذلك قضى على نفوذ الدولة البويهية في هذه المناطق.

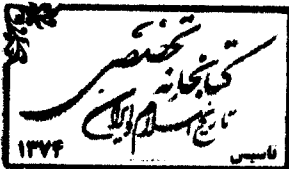
وفي سنة (٤٤٦هـ) توجه السلطان " طغرل " إلى إقليم أذربيجان، ودخل مدينة تبريز عاصمة الإقليم، وبسط نفوذ السلاجقة على جميع

(١) ابن الأثير: الكامل (٤٩٦/٩)، ابن العري: تاريخ مختصر الدول ص (٣٢٠)، وكان هذا إيذاناً بسقوط الإمارة الزيارية في إيران، والتي حكمت من عام (٣١٦هـ) إلى عام (٤٣٣هـ). عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٤٣).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٥٠٤/٩-٥٠٧)، ابن خلدون: العبر (٥٦٠/٣)، حسن محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص (٥٥٧).

(٣) ابن الأثير: الكامل (٥٠٨/٩-٥١٠-٥٣٤-٥٥٦)، عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٤٤).

(٤) ابن الحوزي: المنتظم (١٥١/٨)، ابن الأثير: الكامل (٥٦٢/٩)، السامرائي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي ص (٢١٣).



أجزاء أذربيجان، وعلى بعض الأجزاء من بلاد الروم (آسيا الصغرى)، ثم رجع إلى عاصمته الري^(١)، وبذلك اتسع نفوذ السلاجقة حتى شمل أكثر أجزاء إيران، وأجزاء من البلاد المجاورة لها، وأخذوا يستعدون للسيطرة على العراق، وأصبحت جيوشهم على أهبة الاستعداد لدخول بغداد^(٢).

وكان الوضع في بغداد في النصف الأول من القرن الخامس الهجري سيئاً جويداً، مما سهل مهمة السلاجقة في دخولها، فكانت الأحوال مضطربة، والنزاع والتنافس بين أمراء البويهيين قائم من جهة، وبينهم وبين الجند من جهة أخرى، وعجز الخليفة عن الصمود في وجه تلك الأحداث والظروف^(٣)، واستمر تبادل الوفود والرسائل بين السلاجقة والخلافة العباسية حتى سنة (٤٤٧هـ)، حيث كان السلاجقة أكبر قوة في العالم الإسلامي آنذاك^(٤).

وقد أرسل السلطان " طغرل بك " وفدًا في تلك السنة - قبيل دخوله بغداد - يحمل رسالة يبالغ فيها بإظهار الولاء والطاعة العباسية،

(١) ابن الأثير: الكامل (٥٩٨/٩).

(٢) ن.م.س (٦٠٣/٩)، أبو الفداء: المختصر (١٧٦/٢)، حسن محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص (٥٥٨).

(٣) محمد سرور: سياسة الفاطميين الخارجية ص (١٧٩)، عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٤٥).

(٤) عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٤٥)، السامرائي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي ص (٢١٣).

ويعد الأتراك - أحد عناصر الجيش البويهي - بالجميل والإحسان^(١)، وهذه سياسة حكومية تدل على دهاء وحنكة، كي يستطيع السيطرة على الأمور مع ضمان النتائج المترتبة على ذلك.

وقد شجعت العوامل والظروف السابقة السلطان طغرل بك على التوجه إلى بغداد، حيث تقدم بقواته ودخلها سنة (٤٤٧هـ) في موكب ضخم، بحجة تلبية دعوة الخليفة العباسي له من قبل لزيارة عاصمة الخلافة، كما أبدى رغبته في أداء فريضة الحج، والعمل على إصلاح الطريق المؤدي إلى الديار المقدسة، ثم التوجه إلى الشام ومصر للقضاء على النفوذ الفاطمي هناك^(٢).

ثم دخل العراق دخول الفاتحين، وتوجه لقتاله الملك الرحيم البويهي - آخر سلاطين البويهيين - إلا أنه أدرك عجزه عن قتاله والانتصار عليه، فرجع إلى بغداد، واتفق مع الخليفة القائم على التعاون مع السلطان "طغرل"، لذلك أمر الخليفة القائم بأمر الله - قبل وصول طغرل بك إلى بغداد - بأن يذكر اسم السلطان السلجوقي طغرل بك في الخطبة، وأن يكون لقبه "السلطان ركن الدولة أبا طالب طغرل بك محمد بن

(١) ابن الأثير: الكامل (٦٠٩/٩ - ٦١٠)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني (١٠/٤).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٦٠٩/٩)، عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٤٦).

ميكائيل، يمين أمير المؤمنين^(١)، على أن يذكر بعد اسمه اسم الملك الرحيم سلطان الدولة البويهية^(٢)، فلم يكذب يصل " طغرل بك " إلى بغداد، حتى أصبح سيد الموقف في العراق، وزمام الأمور في يده، بعد أن استقل استقبالاً كبيراً، واعترف به الخليفة العباسي به سلطاناً على جميع المناطق التي سيطر عليها السلاجقة^(٣)، ثم لم يلبث أن أمر بالقبض على الملك الرحيم البويهي الذي زج به في سجن الري حتى توفي سنة (٤٥٠هـ)، وبذلك زالت السلطة البويهية^(٤)، ثم قضى أيضاً على فتنة " أبي الحارث أرسلان التركي البساسيري "، وذلك سنة (٤٥١هـ)^(٥)، وبذلك أصبح " طغرل بك " هو المؤسس الحقيقي لدولة السلاجقة، بعد أن بسط نفوذه على إيران وما جاورها، وأزال الدولة البويهية، فأتسعت رقعة دولة السلاجقة الفتية، وصاروا أكبر قوة عربية في العالم الإسلامي،

(١) الراوندي: راحة الصدور ص (١٦٩)، الحسيني: العراضة ص (٣٩)، عبد النعيم

حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٤٦-٤٧).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٨/١٦٤)، ابن الأثير: الكامل (٩/٦١٠).

(٣) الراوندي: راحة الصدور ص (١٦٩-١٧٠)، عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في

العصر السلجوقي ص (٤٧).

(٤) الراوندي: راحة الصدور ص (١٦٩)، حسين أمين: تاريخ العراق في العصر

السلجوقي ص (٦٠).

(٥) الراوندي: راحة الصدور ص (١٧١)، وسيأتي تفصيل هذه الحركة-إن شاء الله- في

الفصل الأول من الباب الأول.

حيث أخذوا يوجهون سير الأحداث لأكثر من قرن من الزمان منذ سنة (٤٤٧هـ)^(١).

والذي يتضح أن السلطان " طغرل بك " كان رجلاً مسلماً ملتزماً، حريصاً على إعلاء معالم الشرع والدين، غيوراً على تقديم مصالح الإسلام والمسلمين، يحب أهل السنة، ويحرص على أداء الفرائض، ويتقرب إلى الله تعالى بخدمة الدين، وكان ذا شخصية قوية، وذكاء حاد، وشجاعة نادرة، من أشد الناس احتمالاً، وأكثرهم كتماناً لسره^(٢).

وهذه المقومات أدت إلى التفاف الجند والقبائل حوله، وإسنادهم القيادة العليا إليه، وتحقيق الأهداف التي خطط لها، وأدت إلى إرساء دعائم دولته، واتساع نفوذها، وإحكام سيطرتها على المناطق التابعة لها^(٣).

وبصفة عامة، فالعصر السلجوقي كان عصرًا ذهبيًا في المشرق الإسلامي، حيث وهدت أغلب المناطق والدويلات تحت إمرة واحدة، وارتفع شأن أهل السنة والجماعة في عهدهم، وكان لهم فضل عظيم في خدمة الإسلام والمسلمين، وقد استعاد الخليفة العباسي شيئاً من مكانته

(١) عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٤٧).

(٢) الراوندي: راحة الصدور ص (١٦٠)، ابن الأثير: الكامل (٢٨/١٠).

(٣) عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٤٠).

وهيئة التي تدهورت كثيراً خلال العصر البويهي^(١)، وقد أدى محاربة السلاجقة السنيين الشيعة من تقوية مركز الخليفة العباسي السني. وبالجملة فإن قيام دولة السلاجقة قد قوى الخلافة وبعث الحياة فيها من جديد، حيث امتد نفوذ الخليفة- وإن كان اسمياً أحياناً- على مناطق جديدة^(٢)، نتيجة اتساع دولة السلاجقة، وسيطرتها على أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي.

ذكر أشهر سلاطين السلاجقة:

واستكمالاً لهذا التمهيد عن السلاجقة ومراحل وصولهم إلى بغداد، أرى من المناسب إلقاء الضوء بصورة موجزة على أشهر سلاطين آل سلجوق، كي تكمل الفائدة، وتتضح الرؤيا حول أبرز أحداث عصرهم.

- السلطان طغرل بك (٤٥٥-٤٤٧هـ):

وقد تحدثت عنه من خلال التمهيد السابق، وذكرت أنه المؤسس الحقيقي لدولة السلاجقة، حيث هو الذي أعلن قيامها، وثبت قواعدها،

(١) البيروني: الآثار الباقية ص (١٣٢)، ابن دحية: النبراس في تاريخ بني العباس ص (١٢١)، ابن الأثير: الكامل (٤٥٢/٨)، الفارقي: تاريخه ص (٨٦).

(٢) سهيل زكار: تاريخ العرب والإسلام ص (٣٣٥)، وسوف أنطرق -بمشيئة الله تعالى- في الفصول اللاحقة إلى الجوانب العامة للحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والمذهبية في العصر السلجوقي، ولذا آثرت عدم التكرار هنا وهناك؛ لأن هذا التمهيد يتعلق فقط بالتعريف بالسلاجقة ونشأتهم، ومراحل وصولهم إلى بغداد.

وبسط نفوذها على أقاليم كثيرة، وجعل السلاجقة أكبر قوة في جميع أرجاء العالم الإسلامي في القرن الخامس الهجري، لاسيما بعد قضائه على البويهيين، وإخماده حركة البساسيري، وإعادة الخليفة القائم بالله، وبذلك تخلصت الدولة العباسية من تلك الاضطرابات الداخلية الخطيرة^(١). وكان السلطان طغرل بك متمسكاً بالمذهب السني، محترماً أئمة الدين، مظهرًا الولاء والطاعة للخليفة العباسي إمام أهل السنة في ذلك العصر، كما قام بإنعاش الخلافة العباسية، وزادت العلاقات بين طغرل بك والخليفة العباسي توثقاً عندما تزوج ابنة الخليفة، وقد وافق الخليفة القائم على هذا الزواج بعد تردد كبير، إذ إنها تُعدّ حادثة فريدة في الأسرة العباسية، وفوق هذا فقد قارب السبعين، غير أن طغرل لم يهنأ بهذا الزواج، فتوفي سنة (٤٥٥هـ) عن سبعين سنة عامًا، بعد أن تمكن السلاجقة في عهده من السيطرة على أصقاع كبيرة من البلاد الإسلامية تشمل خوارزم وخراسان، وبلاد الري، والعراق، وفارس، وأذربيجان، والجزيرة الفراتية، وأرمينية^(٢).

(١) عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٥١)، العبادي: في

التاريخ العباسي والفاطمي ص (١٨١-١٨٢).

(٢) الراوندي: راحة الصدور ص (١٧١)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (٦٣)، سهيل

زكار: تاريخ العرب والإسلام ص (٣٣٠)، حسن محمود: العالم الإسلامي في

العصر العباسي ص (٥٦٧).

وتكاد تجمع المصادر التاريخية على أن وزير السلطان طغرل أبا نصر " منصور بن محمد الكندري "، الملقب بعميد الملك، قد ساهم في إرساء أساس دولة السلاجقة وتدعيم أركانها، لما يملكه من كفاءة وثقافة واسعة، وكان من الكتاب المحيدين باللغة العربية والفارسية. ومن الجدير بالذكر أن منصب الوزارة في العصر السلجوقي كان له أهمية كبيرة بوصفه منصباً يلي منصب السلطان في الأهمية، الأمر الذي جعله مثاراً للتنافس الذي أدى إلى كثير من المنازعات التي أدت فيما بعد إلى ضعف الدولة السلجوقية^(١).

– السلطان عضد الدين ألب أرسلان (٤٥٥-٤٦٥هـ):

بعد وفاة السلطان طغرل، برزت مشكلة خلافته إلى الوجود بين سليمان بن داود، وأخيه ألب أرسلان محمد بن داود، ولكنها حسمت بتولي ألب أرسلان السلطة بمساعدة الوزير نظام الملك الطوسي^(٢). ويعتد ألب أرسلان من أعظم السلاطين السلاجقة، حيث أحيا القوة الحربية الإسلامية، وحمل لواء الجهاد ضد الشيعة والروم على السواء، فبعد أن قوى مركزه في المشرق توجه إلى الشام، وبدأ بالاستيلاء على حلب

(١) عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٥٢)، حسن محمود:

العالم الإسلامي في العصر العباسي ص (٥٦٨).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٢٩/١٠)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني

سنة (٤٦٣هـ)، وأنهى دولة بني مرداس- وهم من سلالة عرب الشام من بني كلاب- كما استولى على مدينة الرملة وبيت المقدس وما جاورها وكانت تحت حكم الفاطميين- ثم قصد مدينة دمشق فحاصرها، ولكنه لم يستطع دخولها، وقد هدف في تحركاته تلك إلى ضرب القوى الشيعة في تلك البلاد^(١)، قبل التوجه شمالاً إلى آسيا الصغرى لجهاد البيزنطيين، وهذا ما أدركه الإمبراطور البيزنطي " رومانوس " الذي خرج بجيش عظيم لمهاجمة المسلمين، حتى وصل إلى " ملاذ كرد " سنة (٤٦٣هـ)، وهناك التقى الجيشان، وانتصر ألب أرسلان- قائد جيش المسلمين- على الإمبراطور البيزنطي في تلك الموقعة الحاسمة، وقد وقع أسيراً في أيدي المسلمين، وقد مكنت هذه المعركة جيوش المسلمين من التوغل والانسياح في بلاد آسيا الصغرى، حيث وجه ألب أرسلان إليها ابن عمه " سليمان قتلмыш " الذي استوطنها برجاله، وأقام هناك دولة " سلاجقة الروم " التي كانت أطول الدويلات السلجوقية عمراً، حيث استمرت حتى سنة (٧٠٠هـ)، إلى أن قضى عليها الأتراك العثمانيون^(٢).

(١) ابن الأثير: الكامل (٦٤/١٠)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (٣٦-٣٧)،

العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص (١٨٤-١٨٥).

(٢) سيأتي الحديث عن معركة ملاذ كرد بالتفصيل، وذلك في الفصل الثاني من الباب

الأول بمشيئة الله تعالى.

ثم ءوآه ألب أرسلان بعء هءا النصر إلى بلاد ما وراء النهر للقفام بغزوة هناك، ولكنه لقف مصرعه سنة (٤٦٥هـ)^(١).
وكان عهد ألب أرسلان عهد نمو وارتقاء وعلم وعلء، ءفء ازءهرف النواءف العلمفة والأءففة والفنفة فف عصره^(٢).

- السلطان ءلال الءفن أبو الفءء ملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ):

بعء وفاة السلطان ألب أرسلان، ءولى السلطنة بعءه ابنه ملكشاه الءف اسءمر فف سفاسة والءه فف ءءاربة النفوذ الشفعف فف الشام، ءفء ءمكن قائءه " أءسز " من الاسءفلاء على ءمشق بعء عءة ءءاولاء سنة (٤٦٨هـ)، ثم عفن السلطان ملكشاه أءاه " ءءش " على الشام، الءف أسس ففها ءولة سلاءفة الشام واءآءها مقرأ له^(٣).

وقء بلغت الءولة السلءوففة فف عهد ملكشاه أقصف اءساعها وقوقها، فامءءء ءءوءها من أفغانسءان شرقاً إلى آسفا الصغرف غرباً،

(١) البءارف: ءارفء ءولة آل سلءوق ص (٤٤)، الراونءف: راءة الصءور ص

(١٩٠-١٩١)، الءسفن: زبءة ءءوارفء ص (١١٧).

(٢) العباءف: فف ءارفء العباسف والفاطمف ص (١٨٨).

(٣) ابن الأءفر: الكامل (١١١/١٠)، عبء النعم ءسفن: فرفان والعراق فف العصر

السلءوفف ص (٧٠)، العباءف: فف ءارفء العباسف والفاطمف ص (١٨٩).

وشمل سلطاتها بالإضافة إلى خراسان والعراق، بلاد الشام^(١)، وساعد ملكشاه في تدبير دولته الواسعة وزيره " نظام الملك " الذي أخلص كثيرًا في خدمة السلاجقة، وهو من أعظم شخصيات التاريخ الإسلامي، وقد منحه ملكشاه لقب " أتاك " ومعناه " الوالد الأمير " وأسند إليه الأمور كلها، وهو مؤسس المدارس النظامية^(٢).

ويُعَدُّ عهد السلطان ملكشاه عهدًا حافلًا بالعلم والعلماء، فقد شجّع مع وزيره نظام الملك الحركة العلمية، فأسس مرصدًا فلكيًا سنة (٤٦٧هـ) بمساعدة جماعة من العلماء والفلكيين منهم عمر الخيام، وأبو المظفر الإسفزازي، وميمون بن النجيب الواسطي، وغيرهم، وحفر الترع، وأقام الجسور، وحصّن المدن، وبني المساجد، وعبّد طريق الحجّاج إلى مكة^(٣).

-
- (١) عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٧٣)، السامرائي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي ص (٢٢٥)، العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص (١٨٩)، سهيل زكار: تاريخ العرب والإسلام ص (٣٣٢).
- (٢) ابن الأثير: الكامل (٨٠/١٠)، العدوي: التاريخ الإسلامي ص (٣٥٦)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني (٣٠/٤).
- (٣) العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص (١٩٠)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني (٢٧/٤)، العدوي: التاريخ الإسلامي ص (٣٥٦).

وكان السلطان ملكشاه كما وصف ابن خلكان: " أحسن الملوك سيرة، حتى كان يلقب بالسلطان العادل " (١).

وكان وفاة السلطان ملكشاه في شهر شوال سنة (٤٨٥هـ) بعد موت وزيره نظام الملك بخمسة وثلاثين يوماً (٢).

وبعد وفاة ملكشاه تم إعلان: " محمود " الابن الأصغر لملكشاه سلطاناً جديداً (٣)، وقام صراع بين السلاجقة من أجل خلافة ملكشاه، رجحت فيه كفة " بركياروق " الابن الأكبر لملكشاه الذي تولى السلطة سنة (٤٨٧هـ)، وكثرت في عهده المنازعات والحروب الداخلية بينه وبين إخوته وأعمامه (٤)، مما أدى إلى تفكك الدولة، وانفراط عقد وحدتها.

(١) وفيات الأعيان (٢٨٤/٥).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٢١٠/١٠)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٨٨/٥)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٤٢/١٢)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني (٣٣/٤).

(٣) ابن الأثير: الكامل (٢١٤/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٣٩/١٢)، سهيل ركاز: تاريخ العرب والإسلام ص (٣٣٣).

(٤) حول المنازعات والحروب بين السلطان بركياروق وإخوته وأعمامه. انظر: ابن الأثير: الكامل (٢١٥/١٠) - ٢٣٤ - ٢٤٤ - ٢٦٥ - ٢٩٦ - ٣٠٣ - ٣٢٩ - (٣٣٢، ٣٥٩).

ومن أبرز أحداث عصره: محاربه الباطنية الذين عظم نفوذهم وزاد خطرهم في عهده^(١)، ولم تطل حياة بركياروق حيث توفي سنة (٤٩٨هـ).

وبعد وفاته تقرر منصب السلطنة لأخيه " محمد بن ملكشاه " ، الذي وقع بينه وبين أخيه " بركياروق " منازعات كثيرة، وتدخل في هذا النزاع الأخ الثالث لهما المسمى " سنجر " ، وقد لقب الخليفة المستظهر (٤٨٧-٥١٢هـ) السلطان محمد بلقب " غياث الدنيا والدين " ، وعظمت هيئته، وكثرت جيوشه وأمواله^(٢).

ومما يستحق الذكر في عهده: الجهود الكبيرة التي بذلها للقضاء على قوة الباطنية المتزايدة، حيث حاربهم وضيق عليهم وحاصر قلاعهم، وقتل " عبد الملك بن عطاش " صاحب قلعة أصبهان سنة (٥٠٠هـ)^(٣)، وكذلك الحرب بين جنده وجند " صدقة بن مزيد " التي انتهت بانتصار السلاجقة، وقتل صدقة وكثير من أصحابه، وأسر ابنه " ديبس " ، وذلك

(١) ابن الأثير: الكامل (٣١٣/١٠-٣٢٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٥٩/١٢)، وسيأتي تفصيل ذلك في الفصل الثالث من الباب الأول-إن شاء الله-

(٢) ابن الأثير: الكامل (٢٨٩/١٠)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني (٤٣/٤).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (١٥٠/٩)، ابن الأثير: الكامل (٤٣٠/١٠)، وسيأتي تفصيل ذلك أيضاً في الفصل الثالث من الباب الأول إن شاء الله.

سنة (٥٠١هـ)^(١)، وكان السلطان محمد عادلاً، حسن السيرة، شجاعاً، ووصفه ابن خلكان بأنه: "رجل الملوك السلجوقية وفحلهم، وله الآثار الجميلة والسيرة الحسنة، والمعدلة الشاملة، والبر للفقراء والأيتام، والحرب للطائفة الملحدة (أي الباطنية)، والنظر في أمور الرعية"^(٢).

وفي شهر ذي الحجة سنة (٥١١هـ) توفي السلطان محمد بمدينة أصبهان، وكان في السابعة والثلاثين من عمره^(٣).

وكان السلطان محمد قد أوصى بولاية العهد لابنه "محمود" وكان في الرابعة عشرة من عمره، وخطب له بأصبهان وبغداد^(٤)، ولكن السلطان "سنجر" صاحب خراسان، وجد أن من حقه أن يعلن نفسه سلطاناً أعظم للسلاجقة، وأن يعترف به الخليفة، وسبب ذلك وقوع النزاع والقتال بينه وبين "محمود" فقام ونازع ابن أخيه وأعلن نفسه

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٥٦/٩)، ابن الأثير: الكامل (٤٤٠/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٦٩/١٢).

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٧٢/٥)، ويذكر الحسيني أنه كان كثير البغض للباطنية والروافض. زبدة التواريخ ص (١٧٢).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (١٩٣/٩)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (١٠٨)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (١٧١).

(٤) ابن الأثير: الكامل (٥٢٥/١٠)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (١٧٨)، الراوندي: راحة الصدور ص (٢٩٩).

سلطاناً على جميع السلاجقة^(١)، واحتدم القتال بينهما، وحلت الهزيمة بجيوش محمود، وقطعت الخطبة له، وأقيمت للسلطان "سنجر" في شهر جمادى الأولى سنة (٥١٣هـ)، ثم إن السلطان سنجر استقبل ابن أخيه وعفا عنه، وقلده ولاية العراق التي حكمها نحواً من أربع عشرة سنة^(٢)، ثم عاد سنجر إلى خراسان^(٣).

ولما توفي السلطان محمود سنة (٥٢٥هـ)، خلفه ابنه "داود"^(٤)، الذي دخل في حرب مع عمه "مسعود"، وقد حلت الهزيمة بجيوش "داود بن محمود"، ثم نزل مسعود بدار السلطنة في بغداد، وأقيمت الخطبة

(١) عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (١١٨)، سهيل زكار: تاريخ العرب والإسلام ص (٣٣٤).

(٢) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (١١٥)، ابن الأثير: الكامل (٥٤٨/١٠)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (١٧٩)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني (٤٨/٤)، عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (١٢٦).

(٣) الحسيني: زبدة التواريخ ص (١٨٩)، سهيل زكار: تاريخ العرب والإسلام ص (٣٣٥).

(٤) ابن الأثير: الكامل (٦٧٠/١٠)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (١٩٥)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني (٥٣/٤).

له سنة (٥٢٧هـ)^(١)، ثم بدأ النزاع بينه وبين الخليفة المسترشد بالله (٥١٢-٥٢٩هـ)، ودار القتال بينهما، وأسر الخليفة^(٢).

وفي شهر رجب سنة (٥٤٧هـ) توفي السلطان مسعود بهمدان^(٣)، وكان حسن الأخلاق كثير المزاج، وكان كريمًا عفيفًا عن أموال الناس، حسن السيرة فيهم، وقد ماتت معه سعادة البيت السلجوقي - كما يعبر ابن الأثير - فلم تقم بعدها راية يعتمد عليها ولا يلتفت إليها^(٤).

والحقيقة أن عصر السلاجقة العظام لم ينته بوفاة السلطان مسعود سنة (٥٤٧هـ)، بل امتد حتى وفاة السلطان سنجر سنة (٥٥٢هـ) - آخر سلاطين السلاجقة العظام - الذي هزم على أيدي الغز الأتراك سنة (٥٤٨هـ)، وبقي أسيرًا لديهم لمدة ثلاث سنوات، وهرب بعدها، ووصل إلى " مرو "، وتملك عليه الحزن لما وصلت إليه بلاده من التخريب والإفقار، حيث توفي بعد أشهر قليلة سنة (٥٥٢هـ)^(٥).

(١) الراوندي: راحة الصدور ص (٣٢٩)، ابن الأثير: الكامل (١٠/٦٧٤-٦٨٦).

(٢) ابن الأثير: الكامل (١١/٢٤).

(٣) ابن الأثير: الكامل (١١/١٦٠)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (٢٢٩).

(٤) ابن الأثير: الكامل (١١/١٦٠-١٦١)، ثم انظر: الحسيني: زبدة التواريخ ص (٢٩٩).

(٥) انظر تفاصيل ذلك في: البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (٢٣٤-٢٥٧)، الراوندي: راحة الصدور ص (٢٧٠-٢٧١-٢٧٨)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (٢٣٠-٢٣٣)، ابن الأثير: الكامل (١١/١٧٦ و ٢٢٢).

وبموت السلطان سنجر انتهى عصر مهم من تاريخ الدولة السلجوقية، حيث تجزأت السلطنة إلى عدة سلطنات، ودول أتابكية، كان أشهرها: دولة سلاجقة العراق، ودولة سلاجقة الروم، ودولة سلاجقة كرمان، وأشهر الدول الأتابكية: أتابكية الموصل، وأتابكية الشام، وأتابكية سنجار، وأتابكية الجزيرة، وأتابكية ديار بكر^(١).

وقد حكم السلطان سنجر إحدى وأربعين سنة - كما يذكر البنداري^٥، وأقيمت له الخطبة على أكثر منابر الدولة السلجوقية المترامية الأطراف نحو أربعين سنة، وتلقب بالسلطان الأعظم معز الدنيا والدين^(٢). وكان عماد آل سلجوق، وهو شيخ البيت وعظيمه، وحافظ عزه ومديده، كما وصفه البنداري^(٣)، ولا شك أنه كان الشخص المسيطر على البيت السلجوقي منذ سنة (٤٩٠هـ-)، فقد حكم خراسان وبلاد ما وراء النهر قبل توليه السلطنة حكماً يتميز بالقوة والحكمة، ويُعدُّ موته نهاية لعصر السلاجقة العظام^(٤).

(١) سهيل زكار: تاريخ العرب والإسلام ص (٣٣٥)، العدوي: التاريخ الإسلامي ص (٣٥٧).

(٢) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوقي ص (٢٣٤-٢٤٢)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني (٥٩/٤).

(٣) تاريخ دولة آل سلجوق ص (١١٠).

(٤) عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (١٢٠)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني (٣٤/٤).

وهكذا ألقى الضوء على أشهر سلاطين السلاجقة بصورة موجزة، مع ذكر أهم الأحداث التاريخية في عصر كل منهم، كي تتضح الصورة، وتكتمل الفائدة لما سأذكره من أحداث، ومواقف من خلال فصول الرسالة اللاحقة بمشيئة الله.

سلاطين السلاجقة العظام

- ١- السلطان طغرل بك: ركن الدين طغرل بك، أبو طالب، محمد بن ميكائيل بن سلجوق.
(٤٢٩-٤٥٥هـ).
- ٢- ألب أرسلان، عضد الدولة، أبو شجاع، محمد ألب أرسلان بن داود.
(٤٥٥-٤٦٥هـ).
- ٣- ملكشاه، جلال الدولة، أبو الفتح، ملكشاه بن ألب أرسلان.
(٤٦٥-٤٨٥هـ).
- ٤- محمود، ناصر الدين، محمود بن ملكشاه.
(٤٨٥-٤٨٧هـ).
- ٥- بركياروق، ركن الدين، أبو المظفر، بركياروق بن ملكشاه.
(٤٨٧-٤٩٨هـ).
- ٦- محمد، غياث الدين، أبو شجاع، محمد بن ملكشاه.
(٤٩٨-٥١١هـ).
- ٧- سنجر، ناصر الدين، أبو الحارث، أحمد "سنجر" بن ملكشاه.
(٥١١-٥٥٢هـ).

الباب الأول
" جهود الخلفاء العباسيين
والسلاطين السلاجقة الدينية، ودعمهم
السنة، ومحاربتهم التيارات الباطلة "

الفصل الأول: " تقويم عام لخلفاء العصر السلجوقي "
الفصل الثاني: " دور الخلفاء العباسيين والسلطين
السلاجقة وجهودهم ضد الزحف البيزنطي
والصليبي "

الفصل الثالث: " جهود الخلفاء العباسيين والسلطين
السلاجقة في محاربة الفرق الضالة والتيارات الباطلة "

الفصل الأول

" تقويم عام خلفاء العصر السلجوقي "

الفصل الأول

" تقويم عام لخلفاء العصر السلجوقي "

من المناسب قبل أن أتعرض لجهود الخلفاء العباسيين والسلطين السلاجقة ومواقفهم، ودعمهم السنة، ومحاربتهم التيارات الفكرية المنحرفة، والأهواء الضالة، وما رتب عليها من آثار أدت إلى الحفاظ على السنة في العصر السلجوقي الذي أصبح له مكانة عظيمة في نفوس المسلمين، أن ألقى الضوء بصورة إجمالية على خلفاء ذلك العصر الذي استطاع من خلال الخليفة العباسي أن يستعيد شيئاً من الهيبة والمكانة للخلافة العباسية التي تدهورت مكانتها، وضعف شأنها خلال العصر البويهي (٣٣٤-٤٤٧هـ)، الذي سيطر عليه آل بويه الشيعة، واستبدوا بالأمر دون الخليفة^(١)، وكثرت من خلال ذلك الفتن بين السنة والشيعة، والتي أثرت على المسلمين كثيراً في ذلك العصر، ولعلّ أبلغ تصوّر لأبعاد العصر البويهي وما جرّه على العالم الإسلامي من فتن وآثار سيئة، قول المؤرخ الذهبي:

" وضاع أمر الإسلام بدولة بني بويه... " ^(٢).

(١) انظر حول العصر البويهي، ووضع الخلافة في ذلك العصر، والفتن بين السنة والشيعة: جهود العلماء في الحفاظ على كيان أهل السنة في العصر البويهي، للباحث-رسالة ماجستير-١٤١٠هـ- لم يطبع- الباب الأول.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٢٣٢/١٦).

وليس ثمة شك أن التوافق المذهبي بين الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة كان له أكبر الأثر في تلك المواقف والجهود الجبارة التي قام بها أولئك الخلفاء والسلاطين والوزراء في ذلك العصر، الأمر الذي كان له الأثر العظيم في نفوس المسلمين، وهيبتهم في نفوس أعدائهم؛ لأنّ الجميع يدينون بالمذهب السني وينشدون هدفاً واحداً مشتركاً، وهو الحفاظ على كيان أهل السنة في ذلك العصر، وارتفاع شأنهم، والتصدي للفرق الضالة والتيارات الهدامة، لاسيما الشيعة ومن حذا حذوهم، والذين كانوا يلقون كل دعم وتأييد وتشجيع من البويهيين (الشيعة)^(١) في عصرهم الذي سبق عصر السلاجقة.

لذلك نلاحظ أن السلاجقة - كما سيأتي -^(٢) شاركوا في أحداث العالم الإسلامي، وحملوا راية الجهاد في سبيل الله ضد أعداء الإسلام، وقدموا خدمات جليلة للمسلمين في عصرهم، من هذا المنطلق قام الخلفاء بدورهم كما ينبغي، وعززوا جهودهم، وأثبتوا وجودهم؛ لأنهم وجدوا

(١) حول تشيع البويهيين، انظر: ابن الأثير: الكامل (٤٥٢/٨)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٢٣٢/١٦)، العش: تاريخ عصر الخلافة العباسية ص (١٨٥)، العدوي: التاريخ الإسلامي ص (٣٥٥)، حامد غنيم: العلاقات العربية السياسية في عهد البويهيين ص (٨٩-٨٨)، سهيل زكار: تاريخ العرب والإسلام ص (٣٢٩)، العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص (١٦٤)، السامرائي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية ص (١٤٧).

(٢) أي من خلال هذه الرسالة وفصولها.

العون والدعم والتأييد والنصرة-بعد الله تعالى-من السلاطين السلاجقة،
فاتخذ الجميع تحت هدف واحد، وغاية سامية واحدة.

والآن إلى تقييم عامّ للخلفاء العباسيين في العصر السلجوقي من
حيث الشخصية العامة للخليفة وسيرته، وأقوال المؤرخين فيه، وجهوده
الدينية والإدارية والسياسية بصفة عامة، وأبرز أحداث خلافته، وعلاقته
بالسلاطين والعلماء^(١)، وكيفية تعامله مع الأحداث والمستجدات التي
تطراً في عصره، أي تحليل عام للملامح عصر كل خليفة بصفة عامّة.

الخليفة القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ):

هو: عبد الله بن أحمد القادر بالله بن إسحاق بن جعفر المقتدر بالله
ابن أحمد المعتضد بالله العباسي، ويكنى أبا جعفر^(٢).

(١) المراد بذلك إعطاء القارئ تصوراً عاماً عن الخليفة وعصره وجهوده، دون تفصيل
أو إطالة في بعض الأمور؛ لأن ذلك له بحثه الخاص في فصله المتعلق به كما سيأتي في
الفصول اللاحقة لتلا يودي ذلك إلى التكرار إلا عند الضرورة المقتضية ذلك،
حسب ما يقتضيه الحديث أو المناسبة.

(٢) انظر حول ترجمة الخليفة القائم: الخطيب: تاريخ بغداد (٣٩٩/٩)، ابن الجوزي:
المنتظم (٥٧/٨)، ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٩٤/١٠)، الحسيني: زبدة التواريخ
ص (١٢٩)، ابن طباطبا: الفخري ص (٢٩٢)، الذهبي: سير أعلام النبلاء
(٣٠٧/١٨)، ابن كثير: البداية والنهاية (٣١/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم
الزاهرة (٩٧/٥).

تولى الخلافة بعد موت أبيه الخليفة القادر بالله، وذلك يوم الإثنين الحادي عشر من شهر ذي الحجة سنة (٤٢٢هـ)، وكان القائم ولي عهد أبيه في حياته، وهو الذي لقبه بالقائم بأمر الله^(١).

وكان الخليفة القائم متصفاً بصفات الخير والصلاح، وحسن المعتقد، ومحبة الرعية، ورعاية أهل العلم، ومحبتهم، وإكرامهم، وكثرة الإحسان إلى الناس.

قال عنه ابن الأثير: " كان القائم ورعاً ديناً زاهداً عالماً، قوي اليقين بالله تعالى، كثير الصبر، له عناية بالأدب، ومعرفة حسنة بالكتابة، وكان مؤثراً للعدل والإنصاف، يريد قضاء حوائج الناس، لا يرى المنع من شيء يُطلب منه " (٢).

وقال الذهبي: " كان قوي النفس، ديناً ورعاً متصديقاً، له يد في الكتابة والأدب، وفيه عدل وسماحة " (٣).

وقال في موضع آخر: " كان ذا دين وخير وبر وعلم وعدل " (٤).

(١) الخطيب: تاريخ بغداد (٣٩٩/٩)، ابن دقماق: الجوهر الثمين في سير الملوك والسلطين (١٩٢/١)، ابن العري: تاريخ مختصر الدول ص (٣١٨)، أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر (١٥٨/٢)، القلقشندي: مآثر الأنافة (١/٢).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٩٥/١٠)، وذكر نحوه السيوطي في تاريخ الخلفاء ص (٤١٧).

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٣٨/١٥).

(٤) نفسه (٣٠٧/١٨).

وقال عنه ابن كثير: " كان القائم بأمر الله ورعًا زاهدًا فصيحًا، أديبًا كاتبًا، بليغًا شاعرًا، وكان عادلاً كثير الإحسان إلى الناس " (١).
ويختتم كلامه عند بقوله: " وقد كان من خيار بني العباس دينًا واعتقادًا ودولة " (٢).

وذكر نحو ما تقدم كثير من المؤرخين وأهل السير (٣)، مما يدل على ما يتمتع به الخليفة القائم من دين وتقوى وخشية لله تعالى في رعيته، وإحسانه وعدله بين الناس، وحرصه على متابعة الأمور بنفسه، وكذلك محبته للعلم، وإكرامه للعلماء، والحرص على توثيق الصلة بهم، ولا شك أن من يحمل تلك السجايا الحميدة والصفات النبيلة جدير بأن يقوم بأمر المسلمين، لأن من يكون في مقدور فعل الخير وتقديمه للمسلمين، وتحقيق الأمن والرخاء لهم، والحفاظ على مقدسات المسلمين، والدفاع عنهم ضد الأعداء- بعد توفيق الله تعالى ومشيئته- وهو خير من يتولى أمر المسلمين ويقوم على مصالحهم.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١١٠).

(٢) نفسه (١٢/١١٠)، ثم انظر الحسيني: زبدة التواريخ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ص (١٢٩-١٣٠).

(٣) منهم: الذهبي: العبر (٢/٣٢٢)، ودول الإسلام ص (٢٣٩)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهر (٥/٩٧)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣/٣٢٦)، المكسي: سمط النجوم العوالي (٣/٣٦٧)، القرمانلي: أخبار الدول وآثار الأول ص (١٧١-١٧٢).

وكان الخليفة القائم بأمر الله متمثلاً لحديث الرسول ﷺ: "ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع، ومسؤول عن رعيته..."^(١).

لذلك كان يجلس للناس بنفسه، ويرعى أمور رعيته، ويتفقد أحوالهم، مما أدى إلى صلاح الحال، واستتباب الأمن، وانتشار الخير؛ لأنه بصلاح الراعي تصلح الرعية، ويعلو شأنها بحول الله وقدرته وتوفيقه.

ويؤيد ذلك ما ذكره ابن دقماق حيث يقول: "فلما تولى-أي القائم بأمر الله- أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وأحسن إلى الرعية، وعدل فيهم، وجلس للناس بنفسه، وأقام العلماء والمحدثين يرفعون له قصص الناس، فانصلح الحال"^(٢).

ومع هذا فقد افتتن وامتحن هذا الخليفة وابتلى ابتلاءً شديداً في هذه الدنيا التي هي موطن الحن ودار الفتن، ليحزي الله تعالى من صبر وتحمل وعلم أن مردّ ذلك كله لله تعالى الجزاء الأوفى في الآخرة، دار النعيم المقيم

(١) انظر: نص الحديث كاملاً وشرحه فوائده: فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب الوصايا (٣٧٧/٥)، رقم (٢٧٥١)، وكتاب الاستقراض (٦٩/٥)، رقم (٢٤٠٩)، وكتاب الجمعة (٣٨٠/٢) رقم (٨٩٣)، وصحيح مسلم بشرح النووي: كتاب الإمارة (٢١٣/١٢)، وسنن الترمذي- كتاب الجهاد (٢٠٨م٤)، تحقيق إبراهيم عطوة.

(٢) ابن دقماق: الجواهر الثمين (١٩٢/١)، وانظر كذلك: ابن دحية: النبراس ص (١٣٦).

الذي لا يزول ولا يفنى، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ولنبؤكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾^(١).

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، أي الناس أشد بلاءً؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يتلى العبد على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابَةٌ اشتد بلاءُوه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه من خطيئة»^(٢).

والآيات والأحاديث في فضل الصبر وما أعدّ للصابرين من أجر وثواب كثيرة جداً.

والفتنة التي حلت بالخليفة القائم بأمر الله تتلخص كما أوضحها الخطيب البغدادي، وابن الأثير، وابن الجوزي، والذهبي، وابن كثير، والسيوطي، وغيرهم من المؤرخين في أنّ القائم بأمر الله قبض عليه في سنة (٤٥٠هـ)، وكان السبب في ذلك أن القائد أرسلان التركي، المعروف

(١) سورة البقرة، الآيات (١٥٥-١٥٧).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب المرضى-

(١٠/١١١)، سنن ابن ماجه (٢/١٣٣٤)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، سنن

الترمذي- كتاب الزهد- (٤/٦٠١).

بـ "البساسيري"^(١) كان قد عظم أمره، واستفحل شأنه، وانتشر ذكره، وتهيته أمراء العرب والعجم، ودُعي له على المنابر، وجمع الأموال، وخرّب البلاد، ولم يكن الخليفة يقطع أمراً دونه، ثم تبين له سوء عقيدته، وبلغه أنه عزم على نهب دار الخلافة، والقبض على الخليفة، فكتب الخليفة إلى السلطان السلجوقي طغرل بك - وهو أول سلاطين السلاجقة دخل بغداد - يستنهضه في القدوم والقضاء على البساسيري، فوصل إلى بغداد في رمضان سنة (٤٤٧هـ-)، فأحرق دار أرسلان البساسيري، مما اضطره إلى الهروب للرجبة - شمالاً على نهر الفرات - ومعه خلق كثير من الأتراك والبغداديين الذين انضموا إليه، ومن ثم كاتب صاحب مصر الحاكم

(١) البساسيري: هو أبو الحارث أرسلان بن عبد الله البساسيري التركي، أحد قواد بني بويه، كان على جانب عظيم من الشجاعة والذكاء والمكر والدهاء، قدمه الخليفة القائم على جميع الأتراك، ولم يكن يقطع أمراً دونه، وترقت به الأحوال إلى أن نابذ الخليفة فخرج عليه، وأخرجه من بغداد، ثم قتل سنة (٤٥١هـ) على يد السلطان طغرل السلجوقي. انظر حول ترجمته وأخباره: ابن خلكان: وفيات الأعيان (١٩٢/١)، أبو الفداء: المختصر (١٧٧/٢-١٧٩)، ابن كثير: البداية والنهاية (٨٣/١٢-٨٤)، المقرئ: اتعاظ الحنفا (٢/٢٣٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (٢٨٧/٣)، والبساسيري نسبة إلى فسا، بلد في فارس، وهي نسبة شاذة على خلاف الأصل، والصواب: فسوي، فقيلت على غير قياس، والفرس يلفظونها بسا. ياقوت: معجم البلدان (٢٦٠م٤)، كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص (٣٢٧)، محمود مصطفى: إعلام الأعلام ص (٧٤).

الفاطمي العبيدي (المستنصر بالله) ^(١)، وذكر له أنه في طاعته، فاستجاب الخليفة لذلك؛ لأنه يريد طرد السلاجقة والقضاء عليهم والانتقام لسقوط الدولة البويهية الشيعية، ويذكر ابن تغري بردي: " أن الذي وصل إلى البساسيري من المستنصر من المال خمسمائة ألف دينار، ومن الثياب ما قيمته مثل ذلك، وخمسمائة فرس، وعشرة آلاف قوس، ومن السيوف ألوف، ومن الرماح والنشاب ^(٢) شيء كثير " ^(٣).

وقد استطاع البساسيري أن ينتصر على جيوش الخليفة العباسي سنة (٤٤٩هـ)، ثم أخذ ينتظر الفرصة للهجوم على بغداد، وقد قهياً له ذلك في سنة (٤٥٠هـ) عندما خرج طغرل بك السلجوقي لمحاربة أخيه لأمه "إبراهيم ينال" الذي قام بتمرد خطير طمع من خلاله بمنصب أخيه، إلا أن طغرل بك لم يلبث أن أخضع هذا التمرد لعلاقته بأسس ودعائم البيت

(١) انظر عن الحاكم المستنصر بالله (٤٢٧-٤٨٧هـ)، المقريري: الخطط (٣٥٥/١)، تعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء (١٨٤/٢-١٨٥)، العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص (٢٩٧-٣٠٢).

(٢) النشاب: هو السهم، والناشب: الرامي بالنشاب أي صاحبه. السرازي: مختار الصحاح ص (٦٥٩)، إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط (٩٢١/٢).

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١١/٥).

السلجوقي، حيث التقيا في همدان^(١)، وظفر طغرل بك بأخيه، وقتله سنة (٤٥١هـ)^(٢).

وقد انتهر البساسيري هذه الفرصة، فهاجم بغداد، واستولى عليها بمساعدة أهل الكرخ^(٣) - وكان التشيع يغلب عليها - ورفع البساسيري الرايات المصرية في بغداد، وغيرها من الأقاليم التي استولى عليه مثل البصرة وواسط^(٤)، وخطب للحاكم الفاطمي "المستنصر بالله" بجامع

(١) همدان: مدينة عظيمة من مدن الجبال، وتعد أكبر مدينة بأرض الجبال، كان فتحها في جمادى الأولى على رأس ستة أشهر من استشهاد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتحها المغيرة بن شعبة سنة (٢٤هـ)، وهي من أشدّ البلدان بردًا، وأكثرها ثلجًا. ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان ص (٢١٧)، ياقوت: معجم البلدان (٤١٠/٥)، القيرواني: آثار البلاد ص (٤٨٣)، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص (١٩٨).

(٢) انظر التفاصيل في: ابن الجوزي: المنتظم (١٩٠/٨ - ٢٠٢)، الراوندي: راحة الصدور ص (١٧١)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (٦١ - ٦٢)، ابن الأثير: الكامل (٦٤٥/٩)، ابن كثير: البداية والنهاية (٧٦/١٢، ٨١).

(٣) الكرخ: قرية فوق بغداد، تقع على بعد ميل منها، وأهلها كلهم شيعة لا يجد فيهم سني البتة. القيرواني: آثار البلاد وأخبار العباد ص (٤٤٤)، ياقوت: معجم البلدان (٤٤٨/٤).

(٤) واسط: مدينة بين الكوفة والبصرة من الجانب الغربي، بناه الحجاج سنة (٨٤هـ)، وهي إحدى المدن الثلاثة المشهورة قبل بناء بغداد، وسميت بهذا الاسم لتوسطها بين الكوفة والبصرة والأهواز، وقد بقيت طوال عصور الخلافة من أشهر

المنصور، وغيره من الجوامع عدا جامع الخليفة، وأن بجي على خير العمل -من شعائر الشيعة- وقد قبض البساسيري أثناء سيطرته على بغداد على وزير الخليفة القائم بأمر الله، وهو "أبو القاسم علي بن المسلمة" بـ "رئيس الرؤساء" وصلبه^(١).

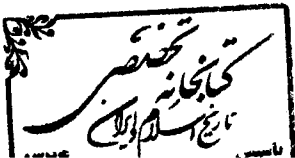
ثم دار قتال بين الخليفة وأتباعه، وبين البساسيري ومن انضم تحت لوائه، قرابة الشهر، حيث قبض أتباع البساسيري على الخليفة، وحسوه بالحدیثة^(٢) عند صاحبها "مهارش بن مجلي العقيلي"^(٣) الذي تولى خدمة

مدن العراق. القيرواني: آثار البلاد وأخبار العباد ص (٤٧٨)، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص (٥٩-٦١).

(١) التفاصيل حول ذلك انظر: الخطيب: تاريخ بغداد (٣٩٩/٩-٤٠٠)، ابن الجوزي: المنتظم (١٩٣/٨)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (٦٢)، ابن الأثير: الكامل (٦٤٤/٩)، ابن طباطبا: الفخري ص (٢٩٥)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٢٥١-٢٤٧/٥).

(٢) الحدیثة: تعرف بحدیثة الفرات، وحدیثة النورة، وهي على فراسخ من الأنبار، وبها قلعة حصينة. القيرواني: آثار البلاد وأخبار العباد ص (٤١٨)، ياقوت: معجم البلدان (٢٣٠/٢)، وهناك حدیثة عانة-وهي المراد هنا- وهي ببلدة بين الرقة وهيت. ياقوت: معجم البلدان (٧٢/٤)، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص (٢٣٨).

(٣) هو أمير العرب محي الدين أبو الحارث مهارش العقيلي، صاحب الحدیثة، كان رجلاً ديناً كثير الصدقة والصلوات، ملازم الجمع والجماعات، توفي في صفر سنة (٤٩٩هـ)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٦٩/٥).



الخليفة بنفسه، وفي أثناء ذهابهم وصل السلطان السلجوقي " طغرل بك " إلى بغداد، وأعاد الخليفة القائم إلى داره مكرماً، وكانت مدة غيبته عن بغداد تسعة أشهر، ثم إن السلطان طغرل بك بعد أن استقر في بغداد أرسل جيشاً إلى البساسيري فهزمه وقتله سنة (٤٥١هـ)^(١).

وبذلك تخلصت الدولة العباسية من هذه الاضطرابات الخطيرة التي كادت أن تعصف بالدولة وتمزقها أكثر مما هي عليه، خاصة وأنها أتت بعد عصر البويهيين الشيعية، وبداية عصر السلاجقة الجديد.

ولا بد ونحن بصدد الحديث عن الخليفة القائم، أن أشير إلى أنه لما سجنه البساسيري كتب قصته وبعث بها إلى بيت الله الحرام، وأمر أن تُعلق على الكعبة وفيما يلي نصها:

(١) حول أحداث حركة البساسيري وفتنته ونهايته. انظر: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد (٣٩٩/٩)، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص (٨٧)، ابن الجوزي: المنتظم (١٩١/٨)، الفارقي: تاريخ الفارقي ص (١٥٥)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (٦٣-٥٩)، الراوندي: راحة الصدور وآية السرور ص (١٧١)، وما بعدها، ابن العري: تاريخ مختصر الدول ص (٣٢١)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣١١/١٨)، والعبير (٢٩٨/٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (٨٣/١٢)، ابن دقماق: الجواهر الثمين (١٩٣/١-١٩٤)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٦٤/٥)، العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص (٣٥٣)، العوفي: العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والدولة في العصر السلجوقي ص (٨٨)، سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب ص (٢٧١)، السامرائي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي ص (٢١٨)، الزهراني: نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية ص (٧٣).

" إلى الله العظيم من المسكين عبده، اللهم إنك العالم بالسرائر،
المطلع على الضمائر، اللهم إنك غني بعلمك واطلاعك على خلقك عن
إعلامي، هذا عبدك قد كفر نعمك وما شكرها، وألغى العواقب وما
ذكرها، أطفاه حلمك حتى تعدى علينا بغياً، وأساء إلينا عتواً وعدواً،
اللهم قلّ الناصر، واعتز الظالم، وأنت المطلع العالم، المنصف الحاكم، بك
نعتز إليك، وإليك نهرب من بين يديه، فقد تعزز علينا بالمخلوقين، ونحن
نعتز بك، وقد حكمناه إليك، وتوكلنا في إنصافنا منه عليك، ورفعنا
ظلامتنا هذه إلى حرمك، ووثقنا بكشفها بكرمك، فاحكم بيننا بالحق
وأنت خير الحاكمين"^(١).

ويقول الذهبي بعد أن ذكر هذا النص معلقاً على ذلك:

" فكذاك ينبغي لكل من قهر وبُغي عليه أن يستغيث بالله تعالى،
وإن صبر وغفر فإن في الله كفاية ووقاية"^(٢).

ومما يدل على ما ذكرناه سابقاً عن الخليفة القائم وسيرته المباركة
أنه لما رجع إلى بغداد ودخل داره يوم الإثنين الخامس والعشرين من ذي
القعدة سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، لم ينم إلا على سجادة يصلي إلى

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٨/١٩٥-١٩٦)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٥/١٤٠)،
السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤١٩)، القرماني: أخبار الدول وآثار الأول ص
(١٧٢).

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٨/٣٠٧).

أن يغلبه النوم عليها، ولزم الصيام والقيام، ولم يمسك من المال إلا قوته وقوت عياله، وعفا عن كل من آذاه بيد أو لسان، ولم يسترد شيئاً مما نهب من قصره إلا بالثمن، وأفرد له بيتاً للعبادة، وكان يقول: " هذه أشياء أحتسبها عند الله " (١).

وهكذا يكون الحكام المسلمون المخلصون لله تعالى الموقنون بما عند الله من الأجر والثواب العظيم، المدركون لقيمة هذه الدنيا الفانية بزخرفها وزينتها وأموالها وقصورها وجاهها، ولا شك أنه موقف نادر عظيم، فهو باستطاعته أن يقبض على كل من آذاه ويعاقبه، وأن يسترد ما نهب وسلب من داره؛ لأنه أصبح في موقف السلطة والقوة، ولكنه تذكر أن ما عند الله هو خير وأبقى، وأدرك وفهم قول الله تعالى في كتابه العزيز، واصفاً عباده المؤمنين المتقين: ﴿الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين﴾ (٢).

واستمر الخليفة القائم بأمر الله على ذلك إلى أن توفي ليلة الخميس الثالث عشر من شعبان سنة سبع وستين وأربعمائة (٣)، وذلك أنه افتصد ونام، فأنحل موضع الفصد، وخرج منه دم كثير، فاستيقظ وقد انحلت

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (٨٣/١٢)، ابن دقماق: الجوهر الثمين (١٩٥/١)،

السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤١٨).

(٢) سورة آل عمران، آية (١٣٤).

(٣) الحسيني: أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ص (١٢٩)، وابن الأثير: الكامل

(٩٤/٠١٠)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٢٦/٣).

قوته وضعفت فأيقن بالموت، فأحضر ولي العهد، ووصاه بوصاياه^(١)، وبحضور قاضي القضاة، وغيره، وأشهدهم على نفسه أنه جعل حفيده: "أبا القاسم عبد الله بن محمد بن القائم بأمر الله" ولي عهده^(٢).

وكان عمره -رحمه الله- ستًا وسبعين سنة وأشهرًا، وقد دامت خلافته خمسًا وأربعين سنة، وقيل أربعًا وأربعين سنة وثمانية أشهر، ولم يبلغ أحدًا من العباسيين مثله هذه المدّة حتى هذه المرحلة - كما ذكر ذلك ابن كثير وابن تغري بردي وغيرهما^(٣).

وهكذا عاصر الخليفة القائم بأمر الله عصرين مختلفين اختلافًا كبيرًا يتمثلان في العصر البويهي (٣٣٤-٤٤٧ هـ)، والعصر السلجوقي، ولكنه استطاع بتوفيق الله تعالى أن يستعين بالسلاجقة السنيين في القضاء على البويهيين الشيعة، وأن يقي المسلمين شرورهم ومخططاتهم، رغم الأثر السيء الذي تركوه، مع أن القائم أيضًا، وفي عصر السلاجقة أنفسهم، لم يسلم من الفتن والحن، كما مر معنا في فتنة البساسيري، ومحاولات

(١) انظر نص الوصية كاملاً في المنتظم لابن الجوزي (٢٩٠/٨-٢٩١).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٢٩١/٨)، ابن الأثير: الكامل (٩٤/١٠)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣١٨/١٨)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٢٧/٣).

(٣) ابن الأثير: الكامل (٩٤، ٩٥/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (١١٠/١٢)، الحسيني: أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ص (١٢٩)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٩٨/٥)، أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر (١٩١/٩)، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص (٣٢٤)، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤٢٢).

السلاجقة بسط نفوذهم على أمور الدولة، ونجاحهم في ذلك، وهذا لا يعني أن الخلافة لم يكن لها وقار أو سلطان أو هيبة؛ لأنه وبالرغم من ضعف الخليفة كان لنفوذه الديني أثر كبير في الرأي العام الإسلامي؛ لأنه بقي بالنسبة إلى أهل السنة مصدر السلطة ورمز الشريعة، حيث إن الفقهاء أخذوا يؤكدون أن الخليفة هو الرئيس الأعلى للمسلمين، ويمثل دورًا بارزًا في حياتهم، كما يتضح ذلك في كتاب "الأحكام السلطانية" للماوردي، وغيره من الكتب التي تناولت هذا الجانب، والتي تؤكد أن السيادة السياسية والدينية للخليفة، وتأثير هذا النفوذ الديني استرجع الخلفاء بعض سلطاتهم ومكانتهم التي فقدت إلى حد بعيد في العصر البويهي، وقد أشار صاحب الفخري إلى هذا الانتعاش، إذ يذكر عن الخليفة القائم ما نصه: "وزاد وقار الدولة ونمت قوتها"^(١).

الخليفة المقتدي بأمر الله (٤٦٧-٤٨٧هـ):

هو: عبد الله بن الأمير ذخيرة الدين محمد بن الخليفة القائم بأمر الله عبد الله بن القادر بالله أحمد العباسي^(٢)،

(١) ابن طباطبا: الفخري ص (٢٩٢)، وانظر حول ذلك أيضًا: عبد العزيز الدوري:

دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص (٢٥٧-٢٥٨).

(٢) حول ترجمة الخليفة المقتدي وسيرته وأخباره. انظر: ابن العمري: الأنباء في تاريخ

الخلفاء ص (٢٠١)، ابن الجوزي: المنتظم (٢٩١/٨)، ابن الأثير: الكامل

ويكنى: أبا القاسم^(١).

ولقبه بالمقتدي بأمر الله جدّه الخليفة القائم بأمر الله^(٢).

بُويغ له بالخلافة بعد موت جدّه، حيث حضر الوزراء والأمراء والأشراف ووجوه الناس وأعيانهم فبايعوه، وكان أوّل من بايعه الشريف أبو جعفر بن أبي موسى الهاشمي^(٣)، فبعد أن فرغ من غسل الخليفة القائم قام فبايعه وأنشده:

إذا سيد منا مضى قام سيّد

فارتجّ عليه، فلم يعلم ما بعده، فقال الخليفة:

(١٠/٩٦)، الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص (٢٦٨)، ابن طباطبا: الفخري ص (٢٩٦)، أبو الفداء: المختصر (٢/١٩١ و٢٠٤)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٨/٢١٨)، والعبر (٢/٣٥٤)، ودول الإسلام ص (٢٤٠ و٢٤٩)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١١٠)، ابن دقماق: الجواهر الثمين ص (١٩٧)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٥/١٣٩)، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤٢٣)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣/٢٨٠).

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٨/٢٩١)، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤٢٣).

(٢) ابن دقماق: الجواهر الثمين (١/١٩٧).

(٣) هو عبد الخالق بن عيسى بن أحمد الهاشمي الحنبلي، كان أحد الفقهاء العلماء العباد الزهاد المشهورين بالديانة والفضل والعبادة والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، توفي سنة (٤٧٠هـ). ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١١٩)، العليمي: المنهج الأحمد في تراجم الإمام أحمد (٢/١٥١)، الزركلي: الأعلام (٣/٢٩٢)، وسوف نتعرف على مزيد من جهوده ومواقفه في فصول الباب الثاني من الرسالة بمشيئة الله.

قوول بما قال الكرام فعول.

ثم تتابع الناس يبايعونه، فلما فرغوا من البيعة صلى بهم العصر^(١). ونتيجة للعلاقة الوثيقة والصلة القوية التي كانت تربط الخلفاء بالعلماء، وما ينتج عنها من آثار عظيمة ونتائج مفيدة، أن تلك البيعة كان من جملة من حضرها من شيوخ العلم والفقهاء والقضاة الشيخ أبو إسحاق الشيرازي^(٢)، وقاضي القضاة أبو عبد الله الدامغاني^(٣)،

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٩٢/٨)، وعنده "قوول بما قال الرجال فعول"، ابن الأثير: الكامل (٩٦/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (١١٠/١٢-١١١).

(٢) هو إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي، تفقه بشيراز وقدّم بغداد، أحد الأعلام، كان أنظر أهل زمانه وأفصحهم، وأكثرهم تواضعاً وبشراً، درس بالنظامية، له تصانيف منها: المذهب، التنبيه، اللمع، التبصرة، الملخص، طبقات الفقهاء، وغيرها، توفي رحمه الله سنة (٤٧٦هـ). انظر حول ترجمته وأخباره: طبقات الشافعية الكبرى (٢١٥/٤)، الأسنوي: طبقات الشافعية (٧/٢)، ابن الأثير: اللباب (٢٣٢/٢)، العبر (٣٣٤/٢).

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد الحنفي الدامغاني، وتفقه بخراسان، ثم قدم إلى بغداد، كان عفيفاً، وافر العقل، كامل الفضل، شديد الرأي، مكرماً لأهل العلم، انتهت إليه رئاسة المذهب في العراق، وكان يناظر الشافعية، وفي ذلك يقول القاضي أبو الطيب الشافعي: الدامغاني أعرف بمذهب الشافعي من كثير من أصحابنا، تولى القضاء بعد أبي عبد الله بن ماكولا، ومكث في القضاء ثلاثين سنة، له مصنفات منها: مختصر الحاكم في فروع الفقه، مسائل الحيطان والطرق والزوائد والنظائر في غريب القرآن، وغيرها، توفي رحمه الله سنة (٤٧٨هـ). انظر ترجمته في: الكنوي:

والشيخ أبو نصر بن الصباغ^(١)، وغيرهم من أهل العلم والفضل والمعرفة^(٢).

ومن الجدير بالذكر أنه لم يكن للخليفة القائم بأمر الله من أعقابه ذكر سواه، حيث إن الذخيرة أبا العباس محمد بن القائم تسوفي في حياة أبيه، ولم يكن له غيره، فأيقن الناس بانقراض نسله، ولكن الذخيرة كانت له جارية اسمها (أرجوان)، وتدعى (قرة العين)، فلما رأت ما نال القائم من المصيبة والفتنة واستعطافه انقراض عقبه، ذكرت أنها حامل، فولدت له بعد موت سيدها بستة أشهر المقتدي، وفرح به جدّه، وفرح المسلمون

الفوائد البهية ص (١٨٣)، تاريخ بغداد (١٠٩/٣)، سير أعلام النبلاء (٤٨٥/٨)، المنتظم (٢٢/٩)، معجم البلدان (٤٣٣/٢).

(١) هو أبو نصر، عبد السيد بن أبي ظاهر محمد بن عبد الواحد بن محمد البغدادي، المعروف بابن الصباغ، برع في المذهب الشافعي حتى رجحوه على الشيخ أبي إسحاق، وكان خيراً ديناً، درس بالنظامية في أول افتتاحها سنة (٤٥٩هـ)، وكان بيته بيت علم، أبوه وابن أخيه وابن عمه، توفي رحمه الله سنة (٤٧٧هـ). انظر ترجمته في: الأسنوي: طبقات الشافعية (٣٩/٢)، العسر (٣٣٧/٢)، الكامل في التاريخ (١٤١/١٠)، النجوم الزاهرة (١١٩/٥)، وفيات الأعيان (٢١٧/٣)، مرآة الجنان (١٢١/٣)، شذرات الذهب (٣٥٥/٣).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (١١١/١٢)، المكي: سمط النجوم العوالي (٣٧١/٣)، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤٢٣)، وكان هناك إجماع عليه من الناس كما يصرح الفارقي في تاريخه (تاريخ الفارقي ص (١٩٥)).

فرحاً شديداً، إذ حفظ الله تعالى على المسلمين بقاء الخلافة في البيت القادري؛ لأن من عداهم كانوا يخالطون العامة، ويتبدلون^(١) في الأسواق، فلو اضطر الناس إلى خلافة أحدهم، لم يكن له ذلك القبول^(٢)؛ لأنّ القلوب تنفر من تولية مثل أولئك للخلافة، لعظم أمانتها ومسئوليتها، ولأنه منصب عظيم وجدير بمن يتحملة أن يكون على جانب عظيم من التقى والورع والهيبة والأمانة وتحمل المسؤولية^(٣).

وقد نشأ الخليفة المقتدي في حجر جدّه القائم بأمر الله يرعاه ويقوم على تربيته، ويدربه على أفضل السجايا والصفات الحميدة، وكان عمره حين ولي الخلافة عشرين سنة^(٤).

(١) التبذل والابتدال ضد الصيانة أي ترك التصاون. انظر: الفيروز أبادي: القاموس المحيط (٣/٣٤٤)، الرازي: مختار الصحاح ص (٤٥).

(٢) ابن الأثير: الكامل (١٠/٩٦)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١٠٠، ١١١)، محمد الخضري: الدولة العباسية ص (٤٢٧).

(٣) انظر حول الإمامة وشروطها وكيف تنعقد عند أهل السنة، الماوردي: الأحكام السلطانية ص (٥)، أبو يعلى: الأحكام السلطانية ص (١٩، ٢٠)، عبد الجبار الهمذاني: تثبيت دلائل النبوة (٢/٥٥١).

(٤) البداية والنهاية (١٢/١١١)، وفي تاريخ الخلفاء للسيوطي أن له تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر، وذلك عند تولية الخلافة، انظر: تاريخ الخلفاء ص (٤٢٣)، وكذلك سير أعلام النبلاء (١٨/٣١٨).

وكان المقتدي بأمر الله متصفاً بصفات حسنة وسجايا حميدة، ولعل ذلك مرده بعد توفيق الله تعالى إلى التربية الحسنة والنشأة الصالحة التي نشأ عليها تحت رعاية ونظر جده الخليفة القائم بأمر الله، حتى أصبح رجلاً مؤهلاً لتحمل المسؤولية والواجبات المنوطة به، وهو لم يتجاوز العشرين من عمره بعد، لذلك عم الخير في عهده، واتسع الرزق، وعمرت البلاد، وأصبح للخلافة هيبة ومكانة، لأنه على الرغم من أن سلاطين السلاجقة الأوائل قد استأثروا بالسلطة دون خلفاء بني العباس، معاملتهم كانت أفضل بكثير من معاملة البويهيين لهم، لأن سلاطين السلاجقة كانوا متحمسين للسنة، ولذلك حرصوا على بقاء الخلافة العباسية واحترامها ليسهل لهم القضاء على منافسيهم من أنصار المذهب الشيعي، وكسب تأييد العالم الإسلامي السني^(١)، ويذكر البعض أن احترام السلاجقة الخلافة لم يكن لاعتبارات سياسية فقط، بل كان بدافع من اعتقادهم بأنه خليفة المسلمين^(٢).

ولذا يجب طاعته واحترامه، وكان اعتراف الخليفة بمن يتولى عرش السلاجقة أمراً أساسياً لاكتساب الصفة الشرعية التي يحتاجها السلطان للحصول على تأييد الناس، والوقوف في وجه منافسيه على السلطنة^(٣).

(١) أحمد الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص (٥٨٥-٥٨٦).

(٢) محمد جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ص (١٢٤).

(٣) الزهراني: نظام الوزارة في الدولة العباسية (العهد البويهي والسلجوقي) ص (٤٧).

ويقول ابن حزم عن الخليفة المقتدي: " كان من خيرة بني العباس، قوي النفس، أصلح كثيراً من الأحوال والمفاسد التي كانت تجري في بغداد" (١).

أما ابن الجوزي فيقول: " وكان المقتدي من رجال بني العباس، له همة عالية، وشجاعة وهيبة، وفي زمانه قامت حشمة الدولة" (٢).

ويقول ابن الأثير: " وكانت أيام المقتدي كثيرة الخير، واسعة الرزق، وعظمت الخلافة أكثر مما كان من قبله، وانعمت ببغداد عدة محال في خلافته" (٣).

ويضيف: " وكان قوي النفس، عظيم الهيبة، من رجال بني العباس" (٤).

ويقول ابن كثير: "... وكان المقتدي شهماً شجاعاً، أيامه كلها مباركة، والرزق داراً، والخلافة معظمة جداً..." (٥).

ونحوه يذكر السيوطي حيث يقول: " وكانت قواعد الخلافة في أيامه باهرة، وافرة الحرمة، بخلاف من تقدمه" (٦).

(١) ابن حزم: موجز تاريخ الإسلام - تمة المحقق - ص (٦١).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٢٩٣/٨).

(٣) ابن الأثير: الكامل (٢٣٠/١٠).

(٤) ن.م.س (٢٣١/١٠)، وانظر الحسيني: زبدة التواريخ ص (١٣٠).

(٥) البداية والنهاية (١١١/١٢).

(٦) تاريخ الخلفاء ص (٤٢٣).

والحقيقة أن هذه الأقوال المتقدمة تعطينا تعريفاً عاماً بشخصية الخلفية المقتدي وصفاته العامة، واتساع الدولة في عهده، وانتشار الأمن، وكثرة الخير، واتساع الرزق، وكذلك نلاحظ من خلال تلك الأقوال عظم الخلافة في عهده وهيبته، واستعادة مكانتها، وهذا في الواقع ليس على إطلاقه، لأن سلاطين السلاجقة الأوائل (العظام) كانت لهم الهيمنة والسيطرة الفعلية على أمور الدولة بصفة عامة^(١)، لأن هؤلاء السلاطين لا ينكر مدى قوتهم ونفوذهم وهيمنتهم على مقاليد الأمور المهمة، وهؤلاء السلاطين العظام عاصروا الخليفين القائم والمقتدي، ولكن على الرغم من تلك السيطرة كانوا يحتفظون بمكانة الخليفة ومركزه الديني، ومكانته في نفوس المسلمين، ويعرفون له قدره وفضله -رغم بعض التجاوزات أحياناً^(٢)- وكانوا يتبادلون الخلع^(٣)، حيث كان الخليفة إذا ما ارتقى عرش الخلافة يبعث في طلب السلطان السلجوقي لأخذ البيعة وحمل الخلع

(١) وهذا ما يفهم من كلام المؤرخ ابن دقماق حيث يقول: "ولما تولى الخلافة-أي المقتدي- لم يكن له منها إلا الاسم". الجوهر الثمين (١٩٧/٢).

(٢) كموقف السلطان ملكشاه مع المقتدي، وسيأتي ذكره بعد قليل إن شاء الله ليؤكد ما ذكرناه.

(٣) خلع عليه: أي ألبسه الأثواب المعدة لهذه المناسبة، وهذا رمز لتسليمه السلطة، وتقويض أمر البلاد والعباد إليه. الرازي: مختصر الصحاح ص (١٨٥)، إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط (٢٥٠/١)، محمد شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد ص (٣٦).

السلطانية والهدايا، كما كان السلطان السلجوقي يلتمس بعد توليه السلطنة التفويض من الخليفة العباسي^(١)، لاكتساب الصفة الشرعية لحكمه- كما تقدم- وحقيقة أن مثل هذا التبادل كان موجوداً خلال العصر البويهي، ولكن العلاقات بين البيتين البويهي والعباسي^(٢) تختلف كثيراً عن العلاقات بين البيتين العباسي والسلجوقي؛ لأنّ السلاجقة كانوا يعتقدون المذهب السني، وهو مذهب الخلفاء العباسيين، بخلاف البويهيين الذين كانوا يعتقدون المذهب الشيعي، مما حدا ببعض المؤرخين والباحثين أن يقولوا إنّ السلاجقة- كما أوضحت آنفاً- كانوا يحترمون الخليفة العباسي، لا لمركزه السياسي فقط^(٣).

أي أنّ ذلك نابع من نظرهم إلى منصب الخلافة الديني وقديسيته واحترامه، وعلى الرغم من ذلك النفوذ السلجوقي الخليفة المقتدي بأمر الله

(١) علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام ص (٤٦٥).

(٢) انظر في علاقة البويهيين بالخلفاء العباسيين، رسالة ماجستير، بعنوان: جهود العلماء في الحفاظ على كيان أهل السنة في العصر البويهي، للباحث، وذلك في الفصل الثاني من الباب الأول ص (٧١-١٠٠)، وهي مطبوعة على الآلة الكاتبة.

(٣) انظر: أحمد الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص (٥٨٦)، محمد جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ص (١٢٤)، علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام ص (٤٦٥).

كانت له قوة وعلو همة^(١)، إضافة إلى ما كان يتمتع به من ديانة وتقوى واهتمام بالرعية، لذلك يُعدُّ الخليفة المقتدي بأمر الله من أشد الخلفاء العباسيين وأحرصهم، وأكثرهم اهتماماً بالناحية الدينية حيث قام بحملات واسعة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من ذلك ما قام به في سنة (٤٦٩هـ)، حيث أمر بهدم دور الفساق ببغداد، وأزيلت المنكرات وهرب الفساق منها، وأمر كذلك بنفي المغنيات والمفسدات من بغداد، وبيع دورهن، وخرَّب الخمارات، والأبراج التي تستخدم للطيور والحمام، ومنع من اللعب بما لأجل عدم الاطلاع على حُرْم الناس، وكذلك منع الملاحين من أن يحملوا الرجال والنساء مجتمعين، لئلا يكون هناك اختلاط وفساد بينهما^(٢)، ولا شك أن مثل هذه الأعمال الجليلة والجهود العظيمة تؤكد قوة شخصية المقتدي، وتمسكه بالسنة، وتقواه لله تعالى، ومتابعته الدقيقة أمور رعيته، وقيامه بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقمع المجرمين، ومحاربه الفساد والمنكرات، وغيرته على نساء المسلمين

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٢٢٦/١)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣١٨/١٨)، الحسيني: أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ص (١٣٠).

(٢) انظر حول تلك الأعمال والجهود العظيمة: ابن الجوزي: المنتظم (٣٠٧/٨)، ابن الأثير: الكامل (٢٣١/١٠)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣١٨/١٨)، ابن كثير: البداية والنهاية (١١١/١٢)، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤٢٣)، محمد شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد ص (١٦)، محمد الخضري: الدولة العباسية ص (٤٢٧).

والمحافظة عليهن، ولا شك أن مثل هذه الأمور لها أثرها العظيم في الأمة الإسلامية التي امتن الله تعالى عليها بفضله وكرمه بأن جعلها خير أمة أخرجت للناس، قال تعالى: ﴿كُتِبَ خَيْرًا لِمَنْ خَرَجَ لِلنَّاسِ آمُرِينَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ بِاللَّهِ﴾^(١).

واستكمالاً لمواقف وجهود الخليفة المقتدي المؤكدة لما ذكرناه، ما حدث في سنة (٤٧٨هـ) حيث أمر بهدم دور اليهود، ونقض ما علا منها، وسدّ أبواباً لهم كانت تقابل أبواب الجوامع، وأمرهم كذلك بخفض الصوت عند قراءتهم التوراة في منازلهم، وألزم كذلك أهل الذمة بلبس الغيار على رؤوسهم، كي يكون لهم لباس خاص، يعرفهم الناس من خلاله^(٢).

كما حرص الخليفة المقتدي على الاهتمام بالرعية، والتقرب إليهم، والرفق بهم، حيث أمر في سنة (٤٨٠هـ)، برفع الضرائب، وكتبت ألواح تنص على ذلك، وعُلِّقت على الجوامع^(٣).

وفي الوقت نفسه كان الخليفة المقتدي يتصدى بقوة لأصحاب البدع والأهواء والفرق الضالة والتيارات الفكرية المنحرفة، فنجدته في سنة

(١) سورة آل عمران، آية (١١٠).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (١٧/٩-٥٥)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١٢٧).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (٣٥/٩)، محمد شندب: الحضارة الإسلامية ص (١٩).

(٤٧٩هـ) يتصدى للشيعة^(١) حين يهملون ذكر الصحابة رضي الله عنهم، حيث أمرهم بذكر الصحابة، ووجه لهم عتاباً في ذلك، وحثهم على حضور الجمع والجماعات، وحذرهم في نهاية كتابه إليهم بقوله تعالى: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب عظيم﴾ (٣/٢).

(١) الشيعة: من حيث المدلول اللغوي تعني القوم والصحة والأعوان والأتباع. انظر: الجوهري: الصحاح (٣/١٢٤)، ابن منظور: لسان العرب (٨/١٨٨-١٨٩).
أما في الاصطلاح فالمراد بالشيعة: هم الذين شايعوا علياً عليه السلام على وجه الخصوص، وقالوا بإمامته نصاً ووصية إما حلياً وإما خفياً.
والشيعة مصطلح عام يطلق على مجموعة من فرق مختلفة.
ومن فرق الشيعة: الكيسانية والزيدية والإمامية والإسماعيلية وغيرها من الفرق التي تنفر عنهما. للتفاصيل حول الشيعة وفرقها انظر: النوبختي: فرق الشيعة ص (١٧)، الشهرستاني: الملل والنحل (١/١٤٦-١٤٧)، البغدادي: الفرق بين الفرق ص (٢١-٢٣)، الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص (٥٢)، السفاريني: لوامع الأنوار (١/٨٠)، ابن خلدون: المقدمة ص (١٩٦-١٩٧)، عرفان عبد الحميد: دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية ص (٢١)، دائرة المعارف الإسلامية (١٤/٥٧)، محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين (٥/٤٢٤)، أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية (٢/٣٣).

(٢) سورة النور، آية (٦٣).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (٩/٢٨/٢٩)، وسيأتي تفاصيل ذلك عند الحديث عن جهود الخلفاء ومواقفهم ضد الفرق الضالة والتيارات الهدامة في الفصل الثالث من هذا الباب بمشيئة الله تعالى.

أما عن علاقة المقتدي بسلاطين السلاجقة في عصره، فقد كان معاصرًا للسلطان السلجوقي ملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ)، وقد حدثت للخليفة معه فتنة عظيمة ومحنة شديدة، تماثل في شدتها وبلائها ما حلَّ بجده الخليفة القائم بأمر الله حينما خرج عليه البساسيري وأخرجه وشرده- كما سبق توضيحه- ولكن الواجب على المسلم المؤمن تجاه هذه الفتن والمحن والابتلاء أن يكون مع الله تعالى دائمًا وأن يثق بنصره، ويتيقن أن النصر مع الصبر والفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا، وأن يتذكر دائمًا قول الله تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾^(١).

وخلاصة ما حدث أن السلطان ملكشاه لم يكتف باستنثاره في السلطة وتجريد الخليفة من نفوذه، بل تجاوز ذلك إلى الإساءة له شخصيًا، حيث عزم على طرده من عاصمة الخلافة بغداد، وذلك: أن السلطان (ملكشاه) السلجوقي بعث إلى الخليفة المقتدي يقول به: " لا بد أن تترك لي بغداد، وتنصرف إلى أي البلاد شئت"، وكان الخليفة المقتدي- كما يذكر البعض- قد بايع بولاية العهد لابنه المستظهر بعده، ثم ولدت ابنة ملكشاه من الخليفة المقتدي ولدًا، فأقبل السلطان ملكشاه على الفور يريد بغداد، وطلب من الخليفة مغادرتها وألزمه أن يعزل ولده المستظهر عن ولاية العهد، ويجعل ولي عهده ابن ابنته (جعفر) مكانه، فطلب الخليفة من

(١) سورة الطلاق، آية (٣).

السلطان أن يتلطف به في ذلك، فأبى إلا شدة وغلظة، ثم طلب منه أن يهمله شهراً، فأبى وقال: ولا ساعة واحدة، فقال الخليفة لوزير السلطان: سله أن يؤخرنا عشرة أيام، فأمهله هذه المدة الوجيزة، مما يدل على استئثار السلطان السلجوقي وإظهار التحكم والحيف على الخليفة، ثم لما أجابه إلى ذلك، صار الخليفة يصوم النهار ويقوم الليل ويضع خده على التراب، ويناجي ربه ويلتجئ إليه، ويدعو على ملكشاه، فدفع الله عنه تلك المصيبة، واستجاب دعاءه، فهلك ملكشاه قبل تمام العشرة أيام، وكفاه الله تعالى شره، حيث خرج للصيد فأصابته حمى شديدة، فافتصد، فمات^(١).

وهذه عاقبة الظلم والاستبداد والغرور، وعُدّت هذه كرامة للخليفة المقتدي من الله تعالى، وهكذا يجب لكل من يتعرض لمثل هذه المصائب والفتن أن يتضرع إلى الله تعالى ويدعوه وهو موقن بالإجابة، مخلص في عبادته لله تعالى، مصدقاً لقوله تعالى: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم، إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾^(٢)، وقوله تعالى:

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٩٢/٨، ٦٢/٩)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٨٨/٥)،

ابن طباطبا: الفخري ص (٢٩٦)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٣٩/١٢)، ابن تغري

بردي: النجوم الزاهرة (١٣٤/٥)، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤٢٥)، المكي:

سمط النجوم العوالي (٣/٣٧٠).

(٢) سورة غافر، آية (٦٠).

﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾^(١).

وكانت وفاة الخليفة المقتدي بأمر الله في شهر محرم سنة سبع وثمانين وأربعمائة، حيث قدم إليه طعام، فتناول منه على العادة، ثم غسل يديه، وهو على أكمل حال في نفسه وجسمه، وكانت عنده جاريتة شمس النهار، فقال: ما هذه الأشخاص الذين دخلوا علي بغير إذن؟، فالتفتت الجارية فلم تر أحداً، ثم نظرت إليه فوجدته قد تغير وجهه، واسترخت يده، وانحلت قواه، وسقط إلى الأرض، ثم مات، وكانت خلافته تسع عشرة سنة وثمانية أشهر، وعمره ثمان وثلاثون سنة وأشهرًا^(٢).

وقيل: إن جاريتته سمته فمات^(٣).

(١) سورة البقرة، آية (١٨٦).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٨٤/٩)، وفي: الكامل في التاريخ (٢٣٠/١٠)، والحسيني: أخبار الملوك والأمراء السلجوقية ص (١٥٧)، والبداية والنهاية (١٤٦/١٢) كانت خلافته تسع عشرة سنة وثمانية أشهر إلا يومين، وفي الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين (١٩٨/١)، تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٢٢٩/١)، الذهبي: العبر (٣٥٥/٢)، ودول الإسلام ص (٢٤٩)، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤٢٦)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٨٠/٣).

وأخفِيَ موته ثلاثة أيام حتى تثبت البيعة لابنه المستظهر بالله^(١).
وقد ذكر الذهبي أن الخليفة المقتدي بأمر الله كان محباً للعلوم،
مكرماً لأهل العلم ومشجعاً لهم، وكان غزير الفضل، كامل العقل بليغ
النثر، وقد أورد جملة من نثره منها: " وعد الكرماء ألزم من ديون
الغرماء"، " الألسن الفصيحة أنفع من الوجوه الصبيحة"، " الضمائر
الصحيحة أبلغ من الألسن الفصيحة"، " حق الرعية لازم للرعاة، ويقبح
بالولاية الإقبال على السعاة"^(٢).

الخليفة المستظهر بالله (٤٨٧-٥١٢هـ):

هو أحمد بن المقتدي عبد الله بن الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله
عبد الله بن القادر بالله العباسي، ويكنى أبا العباسي^(٣).

(١) ابن الأثير: الكامل (٢٣١/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٤٦/١٢)، ابن تغري
بردي: النجوم الزاهرة (١٤٠/٥).
(٢) سير أعلام النبلاء (٣٢٣/١٨، ٣٢٤)، كذلك له شعر حسن أورده البعض ممن
تناول أدبه وشعره. انظر: محمد حسين شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد ص
(٢٠).

(٣) انظر: حول ترجمة المستظهر بالله وسيرته وأخباره: الأنباء في تاريخ الخلفاء ص
(٢٠٦)، المنتظم (٢٨١/٩)، الكامل في التاريخ ص (٥٣٤، ٥٣٦)، تاريخ مختصر
الدول ص (٣٣٩)، الفخري ص (٣٠٠، ٣٠١)، المختصر في أخبار البشر
(٢٣٠، ٢٠٤/٢)، العبر (٣٩٨/٢)، البداية والنهاية (١٨٢/١٢)، النجوم الزاهرة

بُويع بالخلافة عند وفاة أبيه، ولقبه أبوه بـ "المستظهر"، وكان عمره عند توليه الخلافة ست عشرة سنة وأشهرًا، وكان ذلك في سنة سبع وثمانين وأربعمائة^(١).

وكان أول من بايعه الوزير "أبو منصور-عميد الدولة بن جهير"^(٢)، وهو الذي فوض إليه أمور الدولة، وقد دبرها- كما ذكر ابن كثير- أحسن تدبير، ومهد الأمور أتم تمهيد، وساس الرعايا، وكان ممن خيار الوزراء^(٣).

(٢١٥/٥)، شذرات الذهب (٣٣/٤)، زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ص (٤ و ٩).

(١) ابن دقماق: الجواهر الثمين (١٩٩/١)، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤٢٦).
(٢) هو: أبو منصور محمد بن محمد بن محمد بن جهير، تولى الوزارة للخليفة المقتدي بأمر الله سنة (٤٧٢هـ) بناء على توصية من نظام الملك، وبعد من أكفأ وزراء الخلافة العباسية في العصر السلجوقي، ووصفه المؤرخون بأنه كان حسن التدبير كافيًا في المهمات، كثير الصدقات، واسع المعروف، وخاصة على العلماء، ويذكر عنه ابن خلكان أن الوزير نظام الملك كان معجبًا به وكان يستشيره في أهم أمور الدولة، كما كان ابن جهير من المهتمين بالأدب والحديث والفقہ، توفي سنة (٤٩٣هـ). انظر حول ترجمته وأخباره: المنتظم (١١٩/٩)، الكامل (١١٠/١٠)، (١١١، ٢٩٩)، مرآة الزمان (٣٥٠/١)، وفيات الأعيان (١٣١/٥)، ابن خلدون: العبر ٣/٤٧٣.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية (١٤٦/١٢)، المكي: سمط النجوم العوالي (٣٧١/٣).

وقد كان الخليفة المستظهر بالله - كما سبقه من خلفاء العصر السلجوقي - متصفاً بصفات حميدة، وسجايا عظيمة، وكان محباً للعلماء، مشجعاً للعلم وأهله، وعنده اهتمام بشؤون رعيته، يتضح ذلك من خلال أقوال المؤرخين عنه، حيث وصفه ابن الجوزي بقوله: " كان كريم الأخلاق، لين الجانب، سخي النفس، مؤثراً للإحسان، حافظاً للقرآن، محباً للعلم، منكرًا للظلم، فصيح اللسان، شاعراً " (١).

وقال ابن الأثير: " كان لين الجانب، كريم الأخلاق، يحب اصطناع الناس، ويفعل الخير، ويسارع إلى أعمال الخير والمثوبات، مشكور المساعي، لا يرد مكرمة تطلب منه، وكان كثير الوثوق بمن يوليه، غير مصغٍ إلى سعاية ساع، ولا ملتفت إلى قوله، ولم يُعرف منه تلون وانحلال عزم، بأقوال أصحاب الأغراض، وكانت أيامه أيام سرور للرعية، فكأنها من حسنها أعياد، وكان إذا بلغه ذلك فرح به وسره، وإذا تعرض سلطان أو نائب له لأذى أحد بالغ في إنكاره ذلك والزجر عنه " (٢).

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٨١/٩)، ثم انظر: الأزدي: أخبار الدول المنقطعة - تاريخ الدولة العباسية - ص (٢٨٢).

(٢) الكامل (٥٣٥/١٠).

وقال عنه ابن كثير: " كان خيراً فاضلاً ذكياً بارعاً، وكانت أيامه ببغداد كأنها الأعياد، وكان راغباً في البر والخير، مسارعاً إلى ذلك، لا يرد سائلاً، وكان جميل العشرة، لا يصغي إلى أقوال الوشاة من الناس" (١).
وقد نقل الذهبي عن ابن النجار قوله عن الخليفة المستظهر بالله:
"كان موصوفاً بالسخاء والجود، ومحبة العلماء، وأهل الدين، والتفقد للمساكين، مع الفضل والنبيل، والبلاغة، وعلو الهمة، وحسن السيرة، وكان رضي الأفعال، شديد الأقوال" (٢).

ولا شك أن من يحمل تلك الصفات العظيمة ويدرك عظم المسؤولية الملقاة عليه، وتقل الأمانة التي يحملها، هو جدير بأن يكون خليفة للمسلمين وإماماً لهم، يسهر على مصالحهم ويتفقد مساكينهم، ويجب الخير للجميع ويعدل بينهم (٣)، كل ذلك ناتج عن خوف من الله تعالى،

(١) البداية والنهاية (١٨٢/١٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣٩٧/١٩).

(٣) ورد حديث يدل على فضل الإمام العادل، وهو ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق بالمساجد...)) الحديث. انظر حول الحديث وفوائده وفضله: رواه البخاري في صحيحه، فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٤٣/٢) - كتاب الأذان - حديث رقم (٦٦)، الإمام مالك: الموطأ (٢٦٥/٢)، سنن الترمذي (٥٩٨/٤) - كتاب الزهد - حديث رقم (٢٣٩١)، سنن النسائي (١٩٦/٨) - فضل الحاكم العادل في حكمه -.

وتقوى له، جلت قدرته، وإدراك ويقين بأنه مسؤول أمام الله تعالى عن هذه الرعية التي استرعاه الله تعالى عليها، وابتلاه بها، لأنها امتحان عظيم، وبلاء شديد، لمن عرف حقها، وأدرك أبعادها، وعظم مسؤوليتها.

وقد كان الخليفة المستظهر بالله - إضافة إلى ما تقدم - عالماً، يحب العلماء، ويشجعهم، ويعرف مكانة العلم وفضله وأهمية العلماء في المجتمع الإسلامي، ودورهم وتأثيرهم في الرأي العام، لأنهم مصابيح الهدى، ومشاعل النور، فقد كان المستظهر - كما ذكر ابن كثير - لديه علم كثير، وله شعر حسن^(١)، وكان محباً للعلماء والصلحاء - كما ذكر السيوطي -^(٢)، وكان مع ذلك حسن الخط، جيد التوقيعات، لا يقاربه فيها أحد، مما يدل على فضل غزير، وعلم واسع، كما يعبر عن ذلك ابن الأثير^(٣).

ومن أهم أعمال الخليفة المستظهر في بداية خلافته بناء سور بغداد سنة (٤٨٨ هـ)؛ لتحصينها وحمايتها من الأعداء، حيث سعى الوزير "عميد الدولة بن جهير" في بنائه والإشراف عليه بإذن من الخليفة^(٤).

كذلك تصدى الخليفة المستظهر بقوة لنشاط العيارين في عصره، حيث عظم نفوذهم، وزاد خطرهم، وخاف الناس من شرورهم، فأمر في

(١) البداية والنهاية (١٢/١٨٢).

(٢) تاريخ الخلفاء ص (٤٢٦).

(٣) الكامل في التاريخ (١٠/٥٣٦)، ثم انظر حول علمه وأدبه: محمد حسين شندب:

الحضارة الإسلامية في بغداد ص (٨٧).

(٤) ابن الأثير: الكامل (١٠/٢٥١)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (١/٢٣٥).

سنة (٤٩٣هـ) " كمال الدولة يمن " بملاحقتهم، فأخذ جماعة من أعيانهم، وطلب الباقيين فهربوا^(١).

وهذا يدل على اهتمام المستظهر بأمر الرعية، وإنقاذهم من شرور المفسدين، والمحافظه على أرواحهم وممتلكاتهم، وتوطيد الأمن، والضرب بيد من حديد على مثل هؤلاء العابثين الذين يعبثون في الأرض فساداً، وهذا لا شك يُعدُّ من الواجبات الدينية التي يتحتم على الخليفة أن يقوم بها، لما لها من صلة قوية بالرعية.

ولم يكتف الخليفة بالوقوف في وجه العيارين فقط، بل كان يتصدى للأمراء الذين يتسلطون على الناس ويصادرون أموالهم، كما فعل مع "ينال بن أنوشكين" الذي ظلم أهل بغداد، فضرب بعضهم، وصادر أموال البعض، فأرسل له الخليفة قاضي القضاة "أبالحسن السدامغاني" ينهاه عن ذلك، ويقبح ما يرتكبه من الظلم والعدوان، إلا أنه استمر في ظلمه وفساده وسوء سيرته، فأرسل المستظهر إلى سيف الدولة " صدقة الأسدي " يأمره بالتوجه إليه ويمنعه من الظلم والتعدي على الناس، وأرسل معه جماعة من جيش الخلافة، وعند ذلك اضطر " ينال " إلى الهروب، ثم آل أمره إلى أن قتل، كما يذكر ابن الجوزي، وكان ذلك سنة

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٩/١٣٥)، ابن الأثير: الكامل (١٠/٣٠١)، وعن ترجمة يمن

ابن عبد الله خادم المستظهر. انظر: المنتظم (٩/١٩٦).

(٤٩٦هـ)^(١)، وهذا الموقف من الخليفة المستظهر يؤكد تمسكه بنفوذه الديني، والعمل لما فيه مصلحة الرعية والدفاع عنهم، وتأكيد مركزه خليفة وإمامًا للمسلمين يقوم على مصالحهم، ويتابع أمورهم ومشاكلهم. كما كان من جملة اهتماماته الدينية، وقيامه على مصالح رعيته، وحرصه على إقامة الشعائر الإسلامية أن أمر في سنة (٤٩٤هـ) بفتح جامع القصر، وقيام صلاة التراويح فيه، كما أمر المحتسب أن ينهى النساء عن الخروج ليلاً^(٢).

وهذا يدل على اهتمامه بالواجبات الدينية، وحمايته نساء المسلمين وأعراضهم، وخوفه عليهن من الجرمين والمعتدين.

وكان الخليفة المستظهر إضافة إلى ما تقدم، يتابع مجريات الأمور والأحداث الخارجية، ويراقب تطوراتها، كالحروب الصليبية، والحركة الباطنية، ودعوتها، والصراع بين أفراد البيت السلجوقي، فمن جملة اهتماماته في ذلك أن أرسل سفيرًا للسلطان "بركياروق" السلجوقي يستحثه على قتال الصليبيين، ويطلب منه تدارك الأمر قبل أن يزداد قوة،

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٣٥/٩)، ابن الأثير: الكامل (٣٥٤/١٠-٣٥٥)، وبنال بن شتكين الحسامي هو صاحب السلطان محمد السلجوقي.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (١٢٣/٩)، ابن الأثير: الكامل (٣٢٥/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٦٠/١٢).

فكتب السلطان بركياروق إلى العساكر يأمرهم بالخروج مع الوزير عميد الدولة ابن جهير للجهاد، وذلك سنة (٤٩١هـ)^(١).

وكان " فخر الملك أبو علي بن عمار " -صاحب طرابلس- قد وصل بغداد ومعه تاج الملوك " بوري بن طغتكين " وجماعة، يطلبون النجدة والمساعدة من الخليفة والسلطان^(٢)، فأكرمهم الخليفة المستظهر وأجرى عليهم الجرايات العظيمة، ولقوا من السلطان كل تقدير وإكرام أيضاً، وذلك سنة (٥٠١هـ)^(٣).

وهذه المواقف تدل على حرص الخليفة على متابعة أمور المسلمين والمحافظة على مقدساتهم، وإبراز دوره في الأحداث التي تمم المسلمين، لاسيما عندما يدهم العدو أراضي المسلمين، كما فعل الصليبيون عندما توجهوا إلى بلاد المسلمين، واستولوا على مقدساتهم وأمنهم.

وكان الخليفة المستظهر يتابع باهتمام بالغ نشاط الباطنية في عصره، ويساند السلاجقة في تصديهم هذه الدعوة الملحدة سواء بالرجال أو بالعتاد، وكان يحرص على مناصرة علماء أهل السنة والجماعة، ويدعمهم ويؤيدهم، لاسيما من كان له دور في توعية الناس وتحذيرهم من خطر

(١) ابن الأثير: الكامل (٢٧٩/١٠)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٣٠٦/١).

(٢) الخليفة المستظهر بالله، والسلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي.

(٣) ابن الأثير: الكامل (٤٥٢/١٠)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٤٩٣/٢)، ابن

كثير: البداية والنهاية (١٦٩/١٢)، خاشع المعاضدي: الحياة السياسية في بلاد الشام

خلال العصر الفاطمي ص (١٧٤).

هؤلاء الملاحدة، وتوضيح أفكارهم الفاسدة للناس، كي يجتنبوا ويحذروها، ومما يؤكد ذلك توسطه في شأن الفقيه الشافعي " علي بن محمد الطبري "، المعروف بـ " ألكيا الهراسي " (ت: ٥٤٠هـ) عندما اتهم بأنه باطني، فقبض عليه السلطان بركياروق سنة (٤٩٥هـ)، ولكن المستظهر تدخل بقوة، وأرسل إلى السلطان ببراءته، وحسن معتقده، بعد أن شهد له جماعة من العلماء، فأطلق سراحه^(١).

وهذه الأعمال والمواقف تدلّ على تصدّي الخليفة المستظهر للباطنية ومجاهته لهم، وتقديره لعلماء أهل السنة، ومناصرتهم لهم، وكانت هذه الجهود دافعاً للباطنية للتخلص من الخليفة المستظهر واغتياله، حيث ألقى القبض على رجل أعمى كان يحتبّي في سطح الجامع، وعثر معه على سكين مسموم، وقيل: إنه كان يريد قتل الخليفة^(٢).

أما عن علاقة الخليفة المستظهر بالله بسلاطين السلاجقة في عصره، فعلى الرغم من الضعف والانقسام للذين دبا في جسم الدولة السلجوقية بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة (٤٨٥هـ) نتيجة للنزاع الذي نشب بين أولاده محمود وبركياروق وسنجر ومحمد على العرش، كانوا حريصين

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣٥٠/١٩)، الكتبي: عيون التواريخ ج ١٣ مخطوط رقم (٢٥٤٣) ورقة (١٠٧)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٧١/١٢).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (١٧٢/١٢)، الكتبي: عيون التواريخ ج ١٣ مخطوط رقم (٢٥٤٣) ورقة (٢٦١)، وسيأتي تفصيل هذه الجهود في الفصل الثالث من الباب الأول بمشيئة الله، وكذلك الحديث عن العالم الفقيه ألكيا الهراسي.

أشد الحرص على الاستئثار بالسلطة دون الخلفاء، ففي سنة (٤٩٤هـ) قدم السلطان بروكياروق إلى بغداد، وكان ذلك في أثناء صراعه مع أخويه محمد وسنجر على السلطنة، وكان في حالة يرثى لها من المرض والتعب نتيجة لحروبه، وصادف وجوده حلول عيد الأضحى، ولما كان السلطان مريضاً ولا يستطيع حضور صلاة العيد، فقد وافق الخليفة المستظهر أن يرسل إليه منبراً فخطب عليه باسمه في داره، كذلك طلب السلطان من الخليفة أن يقدم له بعض الأموال لتخفيف الضائقة المالية التي كان يعاني منها، فقدم له مبلغ خمسين ألف دينار، في الوقت الذي تسلط فيه السلطان وأصحابه على أموال الناس وأخذوها، فعم ضررهم، دون وضع أي اعتبار لحرمة الخليفة ومكانته، ومعاملته الطيبة للسلطان في وقت محنته^(١).

وليس أدلّ على استئثار سلاطين السلاجقة واستبدادهم بالسلطة مما حدث سنة (٤٩٨هـ)، حيث توجه السلطان بروكياروق إلى بغداد، ومرض مرضاً شديداً، فلما أحس بالوفاة بايع لولده ملشكاه البالغ من العمر إذ ذاك أقل من خمس سنوات، وعين الأمير " إياز " أتابكاً له، ثم

(١) ابن الأثير: الكامل (٣٠٧/١٠)، ويقول ابن كثير: " إن جيش السلطان بروكياروق ووزيره أبو المحاسن عبد الجليل الدهستاني قد تصرفا تصرفاً مماثلاً لما ذكرناه آنفاً في السنة السابقة (٤٩٣هـ). انظر: ابن الجوزي: المنتظم (١١٢/٩)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٣٣٥/١).

توفي بركياروق قبل وصوله إلى بغداد، فسار الأمير إياز وفي صحبته ملكشاه بن بركياروق، وأخذ موافقة الخليفة على الخطبة لملكشاه بالسلطنة، وبعد شهر وصل السلطان " محمد " إلى بغداد، وطلب بالخطبة له بالسلطنة، فخطب له بالجانب الغربي من المدينة، في الوقت نفسه الذي كان يخطب فيه لابن أخيه في الجانب الشرقي منها^(١).

وكانت علاقة الخليفة المستظهر مع السلطان محمد السلجوقي الذي استقرت له أمور السلطنة بعد وفاة أخيه بركياروق سنة (٤٩٨هـ)، قد اتسمت بالاحترام المتبادل، حيث أخذ الخليفة المستظهر يستغل الأحداث لإظهار مساندته السلطان محمد^(٢)، ومجاملته أحياناً، حيث عزل وزيره "مجد الدين بن المطلب" بناءً على رغبة السلطان محمد، وذلك سنة (٥٠١هـ)^(٣)، ولم يعد للوزارة إلا بعد سماح السلطان محمد له، وتأكيدها

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٤٢/٩)، ابن الأثير: الكامل (٣٨٠/١٠-٣٨٢-٣٨٦)، ابن خلدون: العبر (٤٩٣/٣).

(٢) يتضح ذلك عندما اختلف السلطان محمد مع سيف الدولة صدقة بن منصور الأسدي صاحب الحلة والتقى في معركة كبيرة عند النعمانية بين واسط وبغداد، وقتل فيها سيف الدولة سنة (٥٠١هـ). الكشي: عيون التواريخ ج ١٣ مخطوط رقم (٢٥٤٣) ورقة (٢٣١)، ابن خلدون: العبر (٣٦٦/٤)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٢٢/٥).

(٣) ابن الأثير: الكامل (٤٥٤/١٠).

لتوثيق العلاقة بينهما فقد تزوج الخليفة المستظهر من أخت السلطان محمد سنة (٥٠٢هـ)^(١).

ويتضح من خلال ما تقدم حول علاقة الخليفة المستظهر بسلاطين السلاجقة، أنه على الرغم من الخلاف الذي حدث بين أفراد البيت السلجوقي، الخليفة المستظهر لم يستغل ذلك الخلاف لاستعادة مكانة الخلافة وهيبته من خلال الجهود العسكرية، كتلك التي حدثت في عهد الخليفة المسترشد بالله، حيث أخذت العلاقات العباسية السلجوقية طابعاً جديداً- كما سيأتي توضيحه- ولعل السبب في عدم استغلال الخليفة المستظهر بالله تلك النزاعات والخلافات السلجوقية هو أن تلك الصراعات كانت في مهدها ومراحلها الأولى، كما أن أبناء ملكشاه (بروكياروق ومحمد وسنجر) كانوا على قدر كبير من الوعي والفتنة والذكاء، حيث كانوا يدركون رغم نزاعهم أن ذلك ليس في صالح دولتهم واستمرارها، بل إن ذلك خطر كبير عليهم، ولذا نجد أنهم كانوا يتناسون في بعض الأحيان خلافاتهم ويعمدون إلى الصلح، كما حدث بين بروكياروق ومحمد سنة (٤٩٥هـ)، وكذلك سنة (٤٩٧هـ)^(٢)، ولذا لم

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٦٥/٩)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (١٧١)، الذهبي:

العبر (٣٨٣/٢)، الكتبي: عيون التواريخ ج ١٣ مخطوط ورقة (٢٥٥).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (١٣٠/٩)، ابن الأثير: الكامل (٣٢٩/١٠ و ٣٦٩)، ابن

خلدون: العبر (٦٠٦/٣).

يكن بمقدور المستظهر أن يقوم بتحركات عسكرية أو مجاهمة واضحة لهم، لعدم توفر الإمكانيات، وعدم تهيئ الظروف المناسبة له.

وكان الخليفة المستظهر -رغم ذلك- يتمتع بنفوذ إداري في عصره، دون ضغوط شديدة من السلطان السلجوقي في هذا الجانب، ومما يؤكد نفوذه الإداري تمسكه بوزير والده الخليفة المقتدي وهو عميد الدولة ابن جهير، الذي كان من خيار الوزراء، وقد خدم كلاً من القائم والمقتدي والمستظهر، ودبر الأمور أحسن تدبير، ومهداها أتم تمهيد، على حدّ تعبير ابن كثير وغيره من المؤرخين^(١).

كذلك استوزر المستظهر سنة (٤٩٥هـ) سديد الدولة أبا المعالي، ولقبه "عضد الدين"، ثم عزله في منتصف سنة (٤٩٦هـ)^(٢)، ثم استوزر بعده أبا القاسم علي بن جهير سنة (٤٩٦هـ)، ولقبه "قوام الدين"، واستمرت وزارته ثلاث سنوات وأشهرًا، ثم عزله سنة (٥٠٠هـ)^(٣).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١٤٦)، المكي: سمط النجوم العوالي (٣/٣٧١)، الزهراني: نظام الوزارة في الدولة العباسية ص (١٥٠).

(٢) ابن الأثير: الكامل (١٠/٣٥١-٣٦٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٥/١٨٦).

(٣) ابن العمري: الأبناء في تاريخ الخلفاء ص (٢٠٧)، ابن الجوزي: المنتظم (٩/١٤٩)، ابن الأثير: الكامل (١٠/٣٦٦-٤٣٨)، الكتبي: عيون التواريخ ج ١٣ مخطوط ورقة (١٥٧)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١٦٧).

وهذه النماذج والشواهد تدل على قوة نفوذ المستظهر الإداري، وتأكيده دوره، ومتابعته أمور دولته، ومحاولته استعادة قوة الخلافة ومكانتها- حسب قدرته والظروف المحيطة به- ومما يُدلل على ذلك أنه أمر الخطباء سنة (٤٩٦هـ) بقطع الخطبة للسلطين السلاجقة، وأن يقتصروا في الدعاء للخليفة فقط^(١)، وهذا أمرٌ عظيم يؤكد طموحه ومحاولته وشجاعته لاستعادة مكانة الخلافة وهيبتها، ولكن على الرغم من ذلك ظلت الأمور بيد سلطين السلاجقة بصفة عامة فيما يتعلق بالجوانب الدينية والإدارية التي أبرزت دور الخليفة ونفوذه في هذه الجوانب دون ضغوط من السلطان السلجوقي؛ لأن الخليفة المستظهر- كما أسلفت- لم يحاول استغلال الخلاف بين أفراد البيت السلجوقي، ولم تخدمه الظروف المحيطة بعصره، لاسيما وأن نزاع السلاجقة كان في بدايته، وكانوا دومًا ينظرون لمصالحهم الشخصية والسياسية، ولكنه تفاقم فيما بعد، الأمر الذي جعل الخلفاء بعد المستظهر يستعيدون مكانتهم وهيبتهم وهيمنتهم على الأمور، كما حدث في خلافة المسترشد والمقتفي والمستنجد والمستضيء والناصر، الذين ساعدتهم الظروف السياسية المحيطة بهم لتحقيق أهدافهم وطموحاتهم التي يتطلعون إليها.

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٩/١٣٤)، الكتبي: عيون التواريخ ج١٣ مخطوط ورقة

(١١٥)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١٦٣).

ومع ذلك كانت دعوة الخليفة المستظهر بالله قائمة بالأندلس والمغرب، كما يذكر الأزدي^(١)؛ لأن المسلمين في أنحاء العالم الإسلامي في ذلك العصر كانوا ينظرون إلى البيت العباسي نظرة احترام واعتزاز، وكانوا لا يرتضون طاعة أي أمير حتى يأتيه التقليد والتفويض الشرعي من الخليفة العباسي؛ لأنهم ينظرون إلى وحدة المسلمين وتماسكهم، عن طريق الخليفة الذي يمثل أمل المسلمين في الوحدة والترابط.

وكان الخليفة المستظهر رغم مشاغله ومتابعته أمور دولته شديد الحرص على توثيق الصلة بالعلماء؛ لأهمية وجودهم في العالم الإسلامي وتأثيرهم فيه، وإبداء الرأي والمشورة للخليفة فيما يتعلق بأمر الدولة والناس، والاستفادة العلمية منهم، لذا نجده يطلب من العالم الفقيه " محمد ابن أحمد بن الحسين الشاشي "^(٢)، أحد أئمة الشافعية (ت: ٥٠٧هـ) أن

(١) أخبار الدولة المتقطعة ص (٢٨٣)، ويتضح من ذلك أن اتساع الرقعة التي خطب فيها للخليفة المستظهر وللخليفة المقتدي قبله، إنما كان مرتبطاً بقوة السلطنة السلجوقية وهيمنتها، والذي يمكن ملاحظته على مجريات الأحداث أن الخلافة العباسية استطاعت التوفيق بين رغبات السلطان السلجوقي، وتطلعات رعاياها من أهل السنة والجماعة، والاهتمام بشؤونهم ومصالحهم، والوقوف في وجه النفوذ الشيعي الفاطمي، وهذا أمر له أهميته العظيمة في الحفاظ على كيان أهل السنة في ذلك العصر.

(٢) هو محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي، أحد فقهاء الشافعية وأئمتهم، سمع الحديث على أبي يعلى الفراء، وأبي بكر الخطيب، وأبي إسحاق الشيرازي، الذي تفقه عليه

يصنف له كتاب " الحلية " الذي ذكر فيه اختلاف العلماء، وهو الكتاب المسمى بـ " المستظهري " نسبة للخليفة المستظهر بالله^(١)، كما صنف له أبو حامد الغزالي (ت: ٥٠٥ هـ) كتاب " فصائح الباطنية وفضائل المستظهري "، وقدمه له وسماه " المستظهري " أيضاً^(٢)، مما يدل على عمق الروابط والصلة التي كانت تجمع بين الخلفاء والعلماء، وما لها من آثار عظيمة على المجتمع الإسلامي، لاسيما إذا تعاون الجميع وتضافرت الجهود.

أيضاً وعلى غيره من الفقهاء في عصره، وقرأ الشامل على مصنفه ابن الصباغ، واختصره في كتابه الذي جمعه للخليفة المستظهر بالله، وسماه " الحلية "، وذكر ابن كثير أن اسمه " حلية العلماء بمعرفة مذاهب الفقهاء "، وقد تولى التدريس في نظامية بغداد، توفي سنة (٥٠٧ هـ). ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢١٩/٤)، اليافعي: مرآة الجنان (١٩٤/٣)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٧٠/٦)، الأسنوي: طبقات الشافعية (٩/٢)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣٩٣/١٩)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٧٧/١٢).

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣٩٣/١٩-٣٩٤)، والكتاب مطبوع نشرت منه مؤسسة الرسالة، ودار الأرقم قسم العبادات في ثلاثة أجزاء، بتحقيق الدكتور ياسين دراكركة بعنوان " حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء ".

(٢) الغزالي: فصائح الباطنية ص (٢)، الأزدي: أخبار الدول المتقطعة ص (٢٨٣).

ومما يدلّ على غزارة علم المستظهر، وتأثره بمجالسة العلماء والأدباء، ما ذكره الذهبي^(١) من أقوال نثرية له تؤكد ما ذكرناه، وهذه نماذج من تلك الأقوال:

"خير ذخائر المرء لدينا ذكر جميل، ولآخرته ثواب جزيل."

"شح المرء بفلسه من دناءة نفسه."

"الصبر على الشدائد ينتج الفوائد."

وكانت وفاة الخليفة المستظهر بالله في شهر ربيع الآخر سنة (٥١٢هـ)^(٢) حيث مرض ثلاثة عشر يوماً، وكان عمره إحدى وأربعين سنة وأشهرًا^(٣)، ومدة خلافته خمس وعشرون سنة وأشهرًا^(٤)، وقيل: أربع

(١) سير أعلام النبلاء (٣٩٨/١٩)، والأربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص (٢٧٠).

(٢) ابن حزم: موحز تاريخ الإسلام - تنمة المحقق - ص (٦١)، ابن الأثير: الكامل (٥٣٤/١٠)، ابن دقماق: الجواهر الثمين (٢٠٠/١)، وفيه "توفي في شهر ربيع الأول".

(٣) يتفق ذلك مع ما ورد في المنتظم (٢٠٠/٩)، ومرآة الزمان (٦٦١/٢)، أما في العبر للذهبي (٣٩٩/٢)، "وله من العمر اثنتان وأربعون سنة".

(٤) الذهبي: العبر (٣٩٩/٢)، المكي: سمط النجوم العوالي (٣٧١/٣)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٣/٤).

وعشرون سنة وأشهرًا^(١)، بعد أن قدم ما يستطيعه لأمته ورعيته، رغم كثرة الحروب والاضطرابات في عهده^(٢).

الخليفة المسترشد بالله (٥١٢-٥٢٩هـ):

هو: الفضل بن المستظهر بالله أحمد بن المقتدي بأمر الله عبد الله بن محمد بن القائم بن القادر العباسي^(٣).
ويكنى: أبا منصور^(٤).

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٠٠/٩).

(٢) كما عبر عن ذلك السيوطي بقوله: "وكانت أيام خلافته مضطربة جدًا وكثيرة الحروب، فلم تصف له الخلافة". انظر: تاريخ الخلفاء ص (٤٢٦)، ويقول سبط ابن الجوزي: "ولم تصف له الخلافة، فكانت مضطربة". انظر: مرآة الزمان (٦٦١/٢).

(٣) ابن حزم: موجز تاريخ الإسلام - تممة المحقق - ص (٦٢)، ابن الجوزي: المنتظم (١٩٧/٩)، (٥٣/١٠-٥٤)، الأزدي: أخبار الدول المتقطعة ص (٢٨٦)، ابن الأثير: الكامل (٢٧/١١-٢٨)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٦٥٠/٢)، ابن طباطبا: الفخري ص (٣٠٢)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٥٦١/١٩)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٢٥٧/٧)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٠٧/١٢-٢٠٨)، ابن دقماق: الجوهر الثمين (٢٠١/١)، القلقشندي: مآثر الأنافة (٢٤/٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (٨٦/٤-٨٧).

(٤) ابن الجوزي: المنتظم (١٩٧/٩)، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤٣١).

بُويغ له بالخلافة يوم وفاة أبيه المستظهر بالله، وكان قاضي القضاة أبو الحسن علي بن علي بن محمد الدامغاني^(١)، هو المتولي لأخذ البيعة له، حيث كان نائباً في الوزارة.

وكان الخليفة المسترشد بالله شجاعاً مقداماً بعيد المهمة، فصيحاً بليغاً عذب الكلام، حسن الإيراد، مليح الخط، كثير العبادة، محباً إلى العامة والخاصة، كما وصفه بذلك ابن كثير^(٢).

وكان ذا دين ورأي، وشهامة وشجاعة، وكان خليقاً للإمامة، قليل النظر، كما وصفه الذهبي^(٣).

وكان المسترشد يتابع أمور الدولة ومكاتبها بنفسه، حيث كان له خطٌ بديع، ونثر صنيع، ونظم جيد^(٤)، ويؤيد ذلك ما ذكره ابن الأثير بعد

(١) هو علي بن محمد بن علي بن الحسن الدامغاني، قاضي القضاة، ولي القضاء لأربعة خلفاء، القائم والمقتدي والمستظهر والمسترشد، وكان ذا حزم ورأي وسودد، وهيبة وافرة، وديانة ظاهرة، وقد أورد ابن الجوزي نبذة وافرة عن سيرته، أما سبطه فقد أورد من التفصيل في ترجمته ما لم يرد عند غيره من المؤرخين، توفي سنة (٥١٢هـ-). انظر حول سيرته وأخباره: ابن الجوزي: المنتظم (٢٠٨/٩-٢١٢)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٦٨٥/٢-٦٩١)، الذهبي: العبر (٤٠١/٢)، الكتي: عيون التواريخ (٩١/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٢١٩/٥).

(٢) البداية والنهاية (٢٠٨/١٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (٥٦١/١٩).

(٤) نفسه (٥٦١/١٩).

أن وصفه بالشجاعة والشهامة والإقدام، قال: " وكان فصيحًا بليغًا حسن الخط، ولقد رأيت خطه في غاية الجودة ورأيت أجوبته على الرقاع من أحسن ما يكتب وأفصحه "(١).

ويقول السيوطي حول ذلك: " وكان مليح الخط، ما كتب أحد من الخلفاء قبله مثله، يستدرك على كتابه، ويصحح أغاليط في كتبهم "(٢). وهذا دليل على اهتمامه بالعلم وتشجيعه لعلماء وصلته بهم، ويؤيد ذلك ما ذكره السبكي وغيره من أن أبا بكر الشاشي قد صنف له كتاب " العمدة " في الفقه، وباسمه اشتهر الكتاب، حيث كان يلقب " عمدة الدنيا والدين، وعمدة الإسلام والمسلمين "(٣).

وقد كان يخرج بنفسه للقتال، ويضرب بنفسه هام الرجال، مما يدل على حبه للجهاد، وإقدامه، وشجاعته، وفروسيته، فقد خرج عدة مرات إلى الحلة^(٤)، والموصل وخراسان وغيرها، وكان المسترشد قد تصدى

(١) الكامل في التاريخ (٢٨/١١).

(٢) تاريخ الخلفاء ص (٤٣٢).

(٣) طبقات الشافعية الكبرى (٢٥٨/٧)، سير أعلام النبلاء (٥٦٧/١٩)، السيوطي:

تاريخ الخلفاء ص (٤٣٢).

(٤) الحلة: علم لعدة مواضع، أشهرها حلة بني مزيد-وهي المقصودة هنا-، وهي مدينة

كبيرة بين الكوفة وبغداد، كانت تسمى الجامعين، وهي على بعد أميال من أطلال

بابل على الفرات، وكانت موضعًا عامرًا كثير الخصب. ياقوت: معجم البلدان

(٢/٢٩٤)، كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص (٩٧).

لحركة ديبس بن صدقة بن منصور بن ديبس بن مزيد الأسدي^(١) - صاحب الحلة - ولأطماعهم، ولأعمالهم العدائية، ولاتجاهاتهم المذهبية، حيث كانوا يتشيعون على مذهب الإمامية الاثني عشرية، وهو مذهب أهالي الكرخ والحلة، وكانوا يظهرون في الحلة من سب الصحابة رضي الله عنهم بما لا يقف عند حدّ، بل كانوا يتركون الصلاة ولا يعرفون الجمع والجماعات، ولا يسمع عندهم قرآن أو أذان، وأبطلوا الحج^(٢)،

بابل على الفرات، وكانت موضعاً عامراً كثير الخصب. ياقوت: معجم البلدان (٢٩٤/٢)، كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص (٩٧).

(١) هو ديبس بن صدقة بن مزيد الأسدي، من بيت الإمرة وسادة الأعراب، كان شجاعاً بطلاً، مقداماً، جواداً، كثير الحروب والفتن، خرج على الخليفة المسترشد غير مرة، ودخل خراسان والشام، واستولى على كثير من أجزاء العراق، وكان مسعر حرب وجمرة بلاء، قتله السلطان مسعود، وأظهر أنه قتله أخذاً بثأر المسترشد الذي قُتل في السنة نفسها، حيث لم يعيش بعد قتله سوى أربعة وثلاثين يوماً، وكان ذلك في سنة (٥٢٩هـ)، وكان بنو مزيد يتشيعون على مذهب الشيعة الإمامية. انظر حوله وحول قبيلته بني أسد وفروعها وما يتعلق بها: ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص (١٩٠)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٦٣/٢)، الذهبي: العبر (٤٣٥/٢)، ابن خلدون: العبر (٣٨٢/٢)، القلقشندي: صبح الأعشى (٢٢٩/١٣)، عمر كحالة: معجم قبائل العرب (١١/٤).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٢٣٧/٩)، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص (١٦٠)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (١٦٩)، الذهبي: تاريخ الإسلام ج ٩ مخطوط - ورقة

وقد تعرض المسلمون لكثير من الاعتداءات من جانب ديبس بن صدقة وأتباعه، لذلك كان لزامًا على الخليفة المسؤول عن إدارة الدولة العباسية، وتتبع أحوال المسلمين، والوقوف بقوة في وجه الظالمين المعتدين أصحاب الأفكار الضالة والتيارات الهدامة، أن يقوم بواجبه تجاه ذلك كله، وهذا ما دفع المسترشد بالله لمجاهمة حركة ديبس ومحاربتها، والتأكيد على النفوذ الديني والسياسي الذي يتمتع به.

ومن هنا يتضح لنا أن تصدي المسترشد لحركة ديبس والوقوف ضدها بكل شجاعة وحزم، كان محاولة جريئة منه لإنقاذ الخلافة من هذا الخطر المحدق بها، وأيضًا لإظهار قوة الدولة وهيبتها وتصميمها على الوقوف بقوة أمام المتمردين والخارجين عن طاعة الخليفة وإمام المسلمين، مما يوحي بإحداث الفوضى والاضطراب إن لم يقم بذلك، أي أن المسترشد نظر إلى تلك الفتنة

(٣٧٤)، ابن خلدون: العبر (٣٩/٤)، القلقشندي: صبح الأعشى (٢٢٩/١٣)،

الزركلي: الأعلام (٢٠٢/٣)، دائرة المعارف الإسلامية (٥٦/٨).

بعين الخذر والترقب، ووقف بقوة أمامها، لدوافع دينية وسياسية وأمنية^(١)، لا تخفى على المتتبع للأحوال والظروف السياسية والاجتماعية آنذاك^(٢). كل ذلك يوضح مدى ضبطه الأمور، ومتابعته الشخصية لها، وقد وصفه السيوطي بقوله: "وقد ضبط أمور الخلافة، ورتبها أحسن ترتيب، وأحيا رسم الخلافة ونشر عظامها، وشيد أركان الشريعة، وطرز أكامها"^(٣).

(١) انظر عن حركة ديبس وتصدي المسترشد له ونهايتها وما فيها من أحداث: ابن الجوزي: المنتظم (٢١٧/٩ و ٢٣٥)، وما بعدها، (١٠/٤٤-٥٢)، ابن الأثير: الكامل (١٠/٥٦٥، ٥٩٨، ٦٠٧)، (١١/٣٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (٨/١٩٠، ١٩١)، ابن خلدون: العبر (٣/٦٢٠)، (٤/٣٧٢)، الكتبي: عيون التواريخ ص (١٣، خ، ورقة (٤٠٤)).

(٢) كذلك تصدى المسترشد للتحالف الذي تم بين ديبس-المتقدم-وعماد الدين زنكي، وأحبطه سنة (٦٢٦هـ)، واشترك بنفسه في القتال، وأسفر ذلك عن هروب ديبس إلى الفرات، وزنكي إلى تكريت، وعاد الخليفة منتصراً إلى بغداد. انظر للتفاصيل حول ذلك: ابن العمراني: الأنباء في تاريخ الخلفاء ص (٢١٧)، المنتظم (١٠/٢٦)، الكامل (١٠/٦٧٨)، الذهبي: تاريخ الإسلام (٩، خ، ورقة ١١٤)، الكتبي: عيون التواريخ (١٢/٢٥٠)، ابن خلدون: العبر (٣/٦٢٦)، وعن عماد الدين زنكي وسيرته وجهاده ضد الصليبيين. انظر: عماد الدين خليل: عماد الدين زنكي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ، الطبعة الثانية.

(٣) تاريخ الخلفاء ص (٤٣١).

وقد كان اهتمام الخليفة المسترشد بالجانب الديني اهتماماً كبيراً، حيث كان شديد الحرص على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتصدي، والوقوف بقوة أمام الفساد، فقد تقدم بنفسه -رحمه الله- في سنة (٥١٤هـ) بإراقة الخمر التي بسوق السلطان، ونقض بيوتهم^(١)، كما كان حريصاً على الاهتمام بإقامة شعائر الإسلام، ودعائم أركانه، فحين تأخر سير الحجاج سنة (٥١٢هـ)، وخشي الناس أن ينقطع الحج من العراق، عند ذلك رتب الخليفة إلى الأمير نظر-أخذ خواصه وخادم أمير الجيوش- وولاه إمرة الحج، وأعطاه من المال ما يحتاج إليه في طريقه، حتى أدرك الناس الحج، وأدوا فريضتهم بأمان^(٢)، ولا شك أن مثل هذا العمل العظيم له الأثر العميق في نفوس المسلمين، كي يتم لهم أداء الشعائر الدينية في أمن ويسر وسهولة، وبذلك يؤكد الخليفة المسترشد أن الخلافة العباسية محتفظة برعاية المسلمين والقيام على مصالحهم بصفة عامة.

وكان المسترشد أيضاً حريصاً على تفقد أمور الدولة ومحاسبة المختلسين والذين يسلبون أموالاً من الدولة، بحكم مناصبهم وأعمالهم، من ذلك ما حدث في سنة (٥٢٦هـ)، عندما أمر المسترشد بمحاسبة القائمين على دار الضرب، وتبين له خيانتهم، بعد شكوى العمال تجاههم، فأمر

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢١٨/٩)، الذهبي: تاريخ الإسلام (٩، خ، روقة ٩٧).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٥٤٥/١٠).

على الفور بنقل النظر في ذلك إلى الديوان^(١)، ونتيجة ليقظته تلك واهتمامه كان يصادر أموال الوزراء وكتاب ديوان الزمام^(٢) عندما يتأكد لديه اختلاسهم أو نهبهم شيئاً من موارد الدولة المالية^(٣).

وهذا لا شكّ مكن الدولة من السيطرة على الخزينة العامة للدولة، وتوفير الأموال اللازمة، وذلك لإنفاقها في وجوه الإنفاق العامة، ومصالح الدولة الضرورية، كالنواحي العسكرية والاجتماعية، ونحوها.

وهكذا تتضح لنا مراقبة المسترشد بالله لجميع أجهزة الدولة، ويقظته، وفطنته لما يدور في دواوينها، وحزمه وشخصيته القوية تجاه العابثين بأمن الدولة واستقرارها، من خارجين على الخلافة، أو مستهزئين بأمور الشريعة الإسلامية، أو مستغلين لنفوذهم ومناصبهم القيادية والإدارية، وبمعنى أشمل، اتضحت معالم جهود المسترشد ومواقفه الدينية والإدارية والسياسية.

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٥/١٠).

(٢) هناك ديوان يسمى ديوان الزمام، والمقصود منه باختصار هو الديوان المسؤول عن النواحي المالية المدنية والعسكرية، والمشرف على الأجهزة الإدارية في الدولة، وفيه تحفظ السجلات والوثائق العامة لهذه الأجهزة. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء (٢٩٥/١٠)، نقلًا عن كتاب "تكملة المعاجم العربية" لدوزي، الطبعة الفرنسية، (٦٠١/١١)، نقله محقق هذا الجزء في الهامش.

(٣) انظر ما فعله الوزير شرف الدين، ومع الحسين بن محمد بن الوزان - كاتب الزمام - وذلك سنة (٥٢٦هـ). ابن الجوزي: المنتظم (٢٧/١٠).

وكان كفاحه ونضاله وشجاعته هو الذي أيقظ في بعض من خلفه من الخلفاء تلك الروح النضالية التي أعادت للخلافة هيبتها واستعادت مكانتها^(١).

أما وفاته فكانت سنة (٥٢٩هـ)، حيث خرج في شهر رجب سنة تسع وعشرين وخمسمائة إلى همدان، وكان معه كثير من الأتراك، فقدر

(١) انظر: السامرائي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي ص (٢٩٤).

به أكثرهم، ولحقوا بالسلطان السلجوقي "مسعود بن محمد بن ملكشاه"، ثم التقى الجمعان، فلم يلبثوا إلا قليلاً، وانهمزوا عن المسترشد، وذلك في شهر رمضان سنة تسع وعشرين وخمسمائة، وقُبض على الخليفة المسترشد، وعلى خواص دولته، وحملوا إلى قلعة بقرب همدان، فحبسوا فيها، وبقي الخليفة المسترشد مع السلطان مسعود إلى النصف من ذي القعدة من تلك السنة، وفي أعقاب ذلك توجه السلطان مسعود إلى مراغة^(١) من بلاد أذربيجان^(٢) لقتال "داود بن محمود" وكان في صحبته المسترشد، ثم أرسل السلطان السلجوقي (سنجر) رسالة تتضمن معاقبته السلطان مسعود، ويأمره أن يعتذر للخليفة عن ذلك كله، ويسأله العفو والصفح، ويحذره من عاقبة ما وقع فيه من الأمر العظيم، ويطلب منه أن يعيد الخليفة إلى مكانه ودار خلافته، فامتثل السلطان مسعود لذلك، وفعل جميع ما أمره به، وكان الناس قد انزعجوا لما حلّ بالخليفة، وحزنوا على

(١) مراغة: بلد مشهور من بلاد أذربيجان، وبها آثار قديمة للمجوس. انظر: ياقوت:

معجم البلدان (٩٣/٥)، القزويني: آثار البلاد ص (٥٦٢)، كي لستننج: بلدان

الخلافة الشرقية ص (١٩٨)، محمود مصطفى: إعجاز الإعلام ص (٢٣٦).

(٢) أذربيجان: أرض واسعة بين قهستان وأران، وحدها من برزعة مشرقاً إلى أذربيجان

مغرباً، ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الديلم، والجبل، وبها مدن كثيرة

أشهرها مراغة وأردبيل وتبريز، وهي غزيرة المياه، كثيرة البساتين، وماؤها بارد

عذب صحيح. ياقوت: معجم البلدان (١٢٨/١)، القزويني: آثار البلاد ص

(٢٨٤)، محمود مصطفى: إعجاز الإعلام ص (٢٠٣).

ذلك، ويبدو أن سنجر كان يدرك خَطَر ما قام به ابن أخيه مسعود، وأنه أثار نقمة المسلمين وسخطهم على السلاجقة، مما جعل السلطان سنجر يرسل رسالة ثانية إلى السلطان مسعود، وحين وصل حامل هذه الرسالة، خرج السلطان مسعود لاستقباله، وكان معه جماعة من العسكر، أرسلهم سنجر ليكونوا في خدمة الخليفة، وصحب هؤلاء جماعة من الباطنية، فاستغلوا انشغال مسعود وجيشه، فهاجموا على الخليفة المسترشد في خيمته، وقطعوه قطعاً، وقتلوا معه بعض أصحابه وخواصه، منهم عبيد الله بن سكينه المقرئ، وكان ذلك في ذي القعدة سنة (٥٢٩هـ)، ودفن في مراغة، ثم قبض بعد ذلك على هؤلاء الباطنية وقتلوا جميعاً^(١).

وكان عمره ثلاثاً وأربعين سنة وأشهرًا^(٢).

(١) انظر للتفاصيل عن القتال بين الخليفة والسلطان مسعود السلجوقي ونهاية الخليفة وقتله، ورسائل السلطان سنجر إلى مسعود: ابن العمران: الأبناء في تاريخ الخلفاء ص (٢١٨)، ابن الجوزي: المنتظم (٣٦/١٠) وما بعدها، ابن الأثير: الكامل (٢٤/١١، ٣٧)، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص (٢٥٤)، ابن طباطبا: الفخري ص (٣٠٢)، أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر (٩/٣)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٥٦٥/١٩)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٢٥٩/٧)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٠٧/١٢)، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤٣٣)، المقدسي: الروضتين (٣١/١)، ابن دقماق: الجوهر الثمين (٢٠٢/١).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٢٠٨/١١)، وفي العبر (٤٣٤/٢): "وله خمس وأربعون سنة"، وكذا في البداية والنهاية (٢٠٨/١٢).

ومدة خلافته سبع عشرة سنة وستة أشهر وأيام^(١)
وقد حزن المسلمون كثيراً على ما حدث؛ لأن المسترشد كان محبباً
فيهم لبرّه وإحسانه، ولما فيه من الشجاعة والعدل، والرفق بهم، والنصح
لهم.

الخليفة الراشد بالله (٥٢٩-٥٣٠هـ):

وقد بادروا إلى مبايعة الراشد بالله، وهو أبو جعفر، منصور بن
المسترشد بالله، وكان أبوه قد أخذ له ولاية العهد، وبويع بالخلافة عند
مقتل أبيه في ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة بحضور العلماء
والقضاة والأعيان^(٢).

(١) ابن الأثير: الكامل (٢٠٨/١١)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٠٨/١٢)، ابن
دقماق: الجوهر الثمين (٢٠٣/١)، وفي دول الإسلام ص (٢٧٣) " سبع عشرة سنة
وسبعة أشهر ".

(٢) انظر حول الخليفة الراشد: ابن الجوزي: المنتظم (٧٦/١٠، ٧٧)، ابن الأثير: الكامل
(٦٢/١١)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٥٦٨/١٩)، العبر (٤٤٣/٢)، اليافعي: مرآة
الجنان (٢٥٩/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢١٣/١٢)، ابن حلدون: العبر
(٦٣٤/٣)، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤٣٦)، المكي: سمط النجوم العوالي
(٣٧٢/٣).

وقء كان الراءء بالله ءسن السىرة؁ مؤءراً للءءل؁ فصىءاً؁ عءب العبارة؁ كرىماً؁ ءواءاً؁ فصىءاً؁ أءبياً؁ شاعراً؁ كان يكره الشرّ والظلم^(١)؁ ومما يؤضح ذلك: أنه أمر عءء ءولىه الءلافة أن لا يظلم أءء أءءاً؁ وأن يؤمر بالمرءوف وىنهى عن المنكر؁ ومن كانت له مظلمة فليرفعها^(٢)؁ وهكءا يكون ءلفاء المسلمىن الءىن يءافون الله وىراقبونه فى الرعىة السىة اسءرعاهم الله ءعالى علىها؁ والأمانة العظىمة الءى ءمءلوها.

وعلى الرغم من قصر ءلافته والءى لم ءءم سوى سنة؁ إلا أىاماً؁ كان يؤكء على ءعظىم الشعائر الءىنىة؁ ومءاربة أهل الفسق والمنكرات؁ وكان مءسناً إلى الرعىة؁ مءفقءاً أءوالهم^(٣)؁ رغم الظروف والاضءراباء السىاسىة الءى واجهءه عءء ءولىه الءلافة وأءء إلى ءلعه.

وكان سبب ءلعه مءبراً من السلطان مسعود السءلءوقى الءى ءارب والءه- كما ءءءم- وعمل على مواصلة الضغط على الراءء؁ ءىء كان ءرىصاً على إضعاف الءلافة العباسىة الءى بءأت ءسءىء قوءها وهىءتها ووقوفها فى وءه الطامعىن؁ وقء ءءل بعض الأمراء لمناصرة الراءء والوقوف معه فى وءه السلطان مسعود؁ وفى مءءمءهم السلطان "

(١) الءهى: سىر أعلام النبلاء (٥٦٩/١٩)؁ العبر (٤٤٣/٢)؁ السىوطى: ءارىء الءلفاء

ص (٤٣٦)؁ المكى: سمءء النءوم العوالى (٣٧٣/٣).

(٢) ابن ءوزى: المءنظم (٥٠/١٠)؁ الأزءى: أءبار الءول المءقءعة ص (٢٩٢).

(٣) ن.م.س. (٥٠/١٠)؁ (٥١).

داود بن محمود"، و"عماد الدين زنكي"، و"صدقة بن دبيس الأسدي"، وغيرهم، كما أمر الخليفة الراشد بحذف اسم السلطان مسعود من الخطبة، والدعاء للسلطان داود^(١).

ولا شك أن هؤلاء الأمراء الذين أبدوا مناصرتهم للراشد، والوقوف معه، كانوا حريصين كل الحرص على طموحاتهم الشخصية وأطماعهم في الوصول إلى ما يسعون إليه، ولم يكن هدفهم الفعلي هو مناصرة الراشد ومساندته، ودليل ذلك هو انسحابهم إلى بلادهم عندما علموا بقدوم السلطان مسعود، وتفرقهم^(٢).

ثم إن الراشد ارتكب خطأ كبيراً عندما خرج من بغداد متوجهاً إلى الموصل^(٣)، حيث أتاح ذلك للسلطان مسعود الفرصة لدخول بغداد

(١) ابن العمري: الأبناء في تاريخ الخلفاء ص (٢٢٢)، ابن الجوزي: المنتظم (٥٥/١)، ابن الأثير: الكامل (٣٦/١١)، الذهبي: تاريخ الإسلام (٩، خ، ورقة ١٢٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢١٠/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٢٥٨/٥).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٥٧/١)، اليافعي: مرآة الزمان (٢٥٧/٣)، ابن خلدون: العبر (٦٣٢/٣).

(٣) الموصل: مدينة عظيمة مشهورة، منها يقصد إلى جميع البلدان، فهي باب العراق، ومفتاح خراسان، وهي على دجلة بالجانب الغربي. انظر: ياقوت: معجم البلدان (٢٢٣/٥)، القزويني: آثار البلاد ص (٤٦١)، وانظر عن الموصل: كتاب تاريخ الموصل لسعيد الديوجي، وكتاب أمارة الموصل في العصر السلجوقي لرشيد عبد الله الجميلي، وعن وصف قلاعها ومساجدها وأسواقها وما خص الله تعالى به هذه المدينة. انظر: ابن جبیر: الرحلة ص (١٨٨، ١٩٠).

بقوته وجنوده، وعمل على خلع الخليفة الراشد الذي فقد تأييد الوزراء والقضاة والعلماء، وغيرهم، كما تشير بعض الروايات إلى أن السلطان مسعودًا هو الذي جمع القضاة والشهود والأعيان، وعرض عليهم خط الراشد وبمبينه أنه متى جمع وجمّد، فقد خلع نفسه، ثم حُكِمَ بخلعه، وقد ذكر ذلك ابن العمري، وابن الجوزي، وابن الأثير، وابن خلكان، وأبو الفداء، وابن العبري، والذهبي، وابن تغري بردي، والسيوطي، وابن العماد، وغيرهم^(١).

كما تشير المصادر المتقدمة إلى أن الذي تولى خلع الخليفة الراشد هو الوزير شرف الدين علي بن طراد الزيني^(٢)، الذي أحضر الفقهاء وأصحاب الرأي والمناصب، وخوفهم وهدّدهم، وكتب المحضر بأن الراشد

(١) الأبناء في تاريخ الخلفاء ص (٢٢٢، ٢٢٣)، المنتظم (٦٠/١٠)، الكامل في التاريخ (٤١/١١، ٤٢)، وفيات الأعيان (٢٠١/٥)، تاريخ مختصر الدول ص (٣٥٨)، المختصر في أخبار البشر (١١/٣)، دول الإسلام ص (٢٧٥)، سير أعلام النبلاء (٥٧٣/١٩)، النجوم الزاهرة (٢٥٨/٥)، تاريخ الخلفاء ص (٤٣٦)، شذرات الذهب (٩٤/٤).

(٢) هو أبو القاسم علي بن طراد بن محمد بن علي الزيني، كان والده فقيهاً للعباسيين بالبصرة، ثم انتقل إلى بغداد، تولى الوزارة للمسترشد بالله، وتقلبت به الأحوال حيث عزل وأعيد في زمن المسترشد، وقد أدى دوراً هاماً في الأحداث التي تلت مقتل الخليفة المسترشد بالله - كما أوضحنا - توفي سنة (٤٣٨ هـ) عن ست وسبعين سنة. انظر: ابن الجوزي: المنتظم (٢٠٢/١٠)، (١٠٦/٩)، ابن الأثير: الكامل (١٠٢/١٠، ١٦٨)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢١٩/١٢).

لا يصلح للخلافة، وأشهد على ذلك ابن الكرخي^(١)، وابن البيضاوي، ونقيب الطالبين، وغيرهم، وحكم القاضي ابن الكرخي بخلعه، وذلك في السادس عشر من ذي القعدة سنة ثلاثين وخمسائة للهجرة^(٢).

ومما يؤكد دور الوزير الزيّني في خلع الراشد، ما ذكره البعض من أن السلطان مسعوداً حين دخل بغداد عزم على التوجه نحو الخليفة الراشد لإرضائه وصلحه وإعادته، إلا أن الوزير الزيّني أشار عليه بعدم فعل ذلك، ولم يكتف بهذا، بل جمع القضاة وألزمهم بأن يشهدوا على الراشد بالظلم وسفك الدماء، وشرب الخمر^(٣)، وفي ذلك إشارة إلى أن الوزير الزيّني كان له دور كبير ومؤثر في خلع الراشد، وكذلك السلطان مسعود بسبب خلافه السياسي معه حيث لا يستبعد أن يكون قد أكره الراشد على

(١) هو القاضي العلامة أبو طاهر، محمد بن أحمد بن محمد بن جعفر الكرخي، ولي قضاء باب الأرج، وقضاء واسط، وقد ولي ذلك في زمن خمسة من الخلفاء هم: المستظهر، والمسترشد، والراشد، والمقتفي، والمستنجد، وهو الذي حكم بفسخ ولاية الراشد- كما تقدم-، توفي في ربيع الأول سنة ست وخمسين وخمسائة، وله ثمانون سنة. انظر ترجمته: ابن الجوزي: المنتظم (٢٠٢/١٠)، الصفدي: الوافي بالوفيات (١٠٩/٢)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٨٦/٦)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣٩٠/٢٠).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٦٠/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٤٢/١١)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢١٠/١٢)، ابن طباطبا: الفخري ص (٣٠٨)، اليافعي: مرآة الجنان (٢٥٧/٣)، زامبارو: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ص (١٠).

(٣) الأزدي: أخبار الدول المتقطعة ص (٢٩٣).

كتابة الخط واليمين بأنه إذا جمع جيشاً أو جنداً فقد خلع نفسه^(١)، حيث يشير ابن الجوزي^(٢) إلى أن الخط الذي أخرجه السلطان مسعود للقضاة والفقهاء كان قد كتب مع شحنته^(٣) بك آبه.

ويرى البعض من المؤرخين أن ما أورد السلطان مسعود والوزير الزبيني في المحضر ضد الخليفة الراشد بالله، واتهامه بالظلم وأخذ الأموال، وسفط الدماء، وشرب الخمر، كل ذلك كان افتراءً على الخليفة، وبعيداً كل البعد عن الحقيقة^(٤).

(١) ابن الأثير: الكامل (٤٢/١١)، السامرائي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي ص (٢٩٦).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٦٠/١٠)، ونصه: "إني متى جندت أو خرجت فقد خلعت نفسي من الأمر".

(٣) الشحنة: وظيفة سلجوقية جديدة، استحدثتها السلاجقة، ويعين صاحبها من قبل السلطان، وهذه الوظيفة أشبه ما تكون بوظيفة المتصرف أو محافظ المدينة في العصر الحاضر، ويتمتع صاحبها بسلطات إدارية وبوليسية. انظر: حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف (٦٢٣/٢)، حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٢٠١)، مريزن عسيري: الحياة العلمية في العصر السلجوقي ص (١٠٤) - هامش رقم (٤).

وقيل الشحنة: هم أعوان الأمير الذين يضبطون أمور الدولة. الذهبي: سير أعلام النبلاء (٢٠٢/٢٠)، حاشية رقم (٥).

(٤) ابن دحية: النبراس ص (١٥٣)، ابن العماد: شذرات الذهب (١٠١/٤)، الزهراني: نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية ص (١٤٣).

وعندما نتتبع سيرة الخليفة الراشد نجد أنه كان رجلاً صالحاً متديناً ورعاً حسن السيرة، مؤثراً للعدل، وهذا ما يؤكد أن المحضر كذب ملفق، وباطل منمق، أكره على توثيقه القضاة والشهود خوفاً ممن بيده الحل والعقد، ولا شك أن ذلك مما تمليه الأحقاد والأغراض الشخصية، لأنّ البغي وحب التسلط والظلم يحمل صاحبه على الكذب والافتراء، وأقام من كان قبله بما هم منه براء، والتماس الوسيلة غير المشروعة للحصول على غايته^(١).

ومما يؤيد ما ذكرناه عن الخليفة الراشد أيضاً، ما أورده الذهبي، حيث ذكر من كلام الخليفة الراشد قوله: "إنا نكره الفتن، إشفافاً على الرعية، ونؤثر العدل والأمن في البرية، ويأبى المقدور إلا تصعب الأمور،

(١) يقول المحقق شعيب الأرنؤوط ناصحاً المؤرخين والباحثين بعد أن ذكر ذلك: "فليتق الله المؤرخون، وليمحصوا الآراء، وليطرحوا الآراء التي يتبين لهم بطلانها وافتراؤها بالدراسة الجادة المبنية على أسس صحيحة وسديدة، وليخرجوا بذلك من المسؤولية أمام الله تعالى الذي لا تحفى عليه خافية" ا.هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٥٧١/١٩)، حاشية رقم (١)، والحق أنه يجب الأخذ بهذه النصيحة القيمة لكل باحث مسلم منصف يتحرى العدل والأمانة العلمية في الكتابة والبحث، وينشد الحقيقة والفائدة، ولن يتأتى ذلك إلا بمراقبة الله تعالى وتقواه، وكبح جماح النفس البشرية وأهوائها.

واختلاط الجمهور، فنسأل الله العون على لَمَّ شَعَثِ الناس بإطفاء نائرة البأس" (١).

وهو يشير بذلك -رحمه الله- إلى الفتن والاضطرابات السياسية التي واجهته عند توليه الخلافة، لاسيما بعد مقتل والده المسترشد بالله.

ثم إن حياة الراشد بالله لم تدم طويلاً، حيث مات وعمره ثلاثون سنة، ولم تدم خلافته سوى أحد عشر شهراً وأحد عشر يوماً (٢).

وقد ذكر ابن الجوزي في سبب موته ثلاثة أقوال:

أحدها: أن سُقي السم ثلاث مرات.

والثاني: أنه قتله قوم من الفراشين الذين كانوا في خدمته.

والثالث: أنه قتله الباطنية، ثم قتلوا بعده (٣).

وكان ذلك في رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة للهجرة (٤).

(١) سير أعلام النبلاء (٥٧٠/١٩)، ونائرة البأس: أي شدته وقوته.

(٢) ابن الأثير: الكامل (٤٢/١١)، وفي الجوهر الثمين لابن دقماق (٢٠٦/١): "وكانت خلافته إلى أن خلع أحد عشر شهراً وعشرين يوماً".

(٣) المنتظم (٧٦/١٠)، ويتفق ذلك أيضاً مع ما ذكره اليافعي في مرآة الجنان (٢٥٩/٣)، وابن الوردي: تنمة المختصر (٦٧/٢).

(٤) ابن الجوزي: المنتظم (٧٦/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٦٢/١١)، ابن طباطبا:

الفخري ص (٣٠٨)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٥٧١/١٩)، الإعلام بوفيات

الأعيان ص (٢١٨)، العبر ص (٤٤٣)، اليافعي: مرآة الزمان (٢٥٩/٣)، ابن كثير:

ومهما يكن من أمر حول الاختلاف في سبب موته، فإنه لا يخرج عن الباطنية الذين كثيراً ما يلجأون لمثل هذه الوسائل في تنفيذ جرائمهم، لاسيما وأنهم يعادون أهل السنة، ويغضونهم، ولهم قدم سبق في قتل الخلفاء والوزراء أمثال المسترشد، ونظام الملك وغيرهما.

الخليفة المقتفي لأمر الله (٥٣٠-٥٥٥هـ):

ثم تولى الخلافة بعد ذلك المقتفي لأمر الله، وهو أبو عبد الله، محمد ابن المستظهر بالله، وهو أخو المسترشد، وعم الراشد، وسبب تلقيبه بذلك - كما تذكر بعض الروايات - أنه رأى النبي ﷺ في المنام قبل استخلافه بأيام، وهو يقول له: سيصل إليك هذا الأمر فاقتف بي، فلقب بذلك^(١).

البداية والنهاية (٢١٢/١٢)، ابن خلدون: العبر (٦٤٣/٣)، الزركلي: الأعلام (٢٧٨/٦).

والحقيقة أن الخليفة الراشد كان قليل الخيرة السياسية والأناسة والحيطه، سريع الانفعال، قوي رد الفعل، دفعه مطالبته بثأر أبيه، وعجلته، وتحريضه على السلطان السلجوقي إلى خلعه، حيث لم يتح لنفسه الوقت الكافي أن يطور مواقفه واستعداداته في سبيل تحقيق أهدافه، بل كان عجولاً عجلة أفقدته حياته بعد ذلك.

(١) انظر حول المقتفي لأمر الله: ابن الجوزي: المنتظم (١٩١/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٤٢/١١ و ٢٥٦)، أبو شامة: الروضتين (١٢٤/١)، أبو الفداء: المختصر (٣٧/٣)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣٩٩/٢٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٤١/١٢).

وقد بويح الخليفة المقتفي لأمر الله (٥٣٠-٥٥٥هـ) بالخلافة بعد خلع الخليفة الراشد بالله، سنة ثلاثين وخمسمائة للهجرة، حيث استشار السلطان مسعود كبار رجال الدولة، ومنهم الوزير علي بن طراد الزيّني، وصاحب المخزن^(١)، فيمن يصلح للخلافة-بعد أن ذكر المحضر المتضمن القدح في الخليفة الراشد^(٢)- فأشار عليه الوزير الزيّني بأن الذي يصلح لهذا الأمر هو الأمير: أبو عبد الله، محمد بن المستظهر بالله، فاقتنع السلطان مسعود بذلك، وقام بمبايعته المقتفي بالخلافة، ثم بويح بالبيعة العامة بحضور القضاة والفقهاء والشهود والأعيان^(٣).

تاريخ ابن خلدون (٥٢٢/٣)، ابن دقماق: الجوهر الثمين (٢٠٧/١)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٣٣٢/٥)، ابن العماد: شذرات الذهب (١٧٢/٤)، المكي: سمط النجوم العوالي (٣٧٣/٣).

(١) صاحب المخزن: بالنسبة للمخزن يشبه وزارة المالية في العصر الحاضر، أو الخزينة المركزية، وكان له في ذلك الوقت ديوان كبير خاص به، يُسمى متولّيه والقائم عليه "صاحب المخزن"، وهو منصب له أهميته وأبعاده، وتحت إمرة صاحب المخزن عدة موظفين لكل منهم اختصاصه وعمله المنوط به. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء (٦٩/٢١)، حاشية (٤).

(٢) سبق توضيح ذلك عند حديثي عن الخليفة الراشد بالله.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (٦١/١١)، ابن الأثير: الكامل (٤٢/١١، ٤٣)، ابن العبري: المختصر (١١/٣)، الحسيني: أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ص (٢١١)، اليافعي: مرآة الجنان (٢٥٧/٣)، ابن خلدون: التاريخ (٦٣٢/٣).

وقد كان الخليفة المقتفي لأمر الله - كما يذكر أصحاب السير والتراجم - عاقلًا، حكيمًا، حازمًا، مهيبًا، جوادًا، محبًا للحديث والعلم، مكرمًا لأهله، وكان حميد السيرة، يرجع إلى تدين وحسن سياسة، جدد معالم الخلافة، وباشر المهمة بنفسه، وغزا في جيوشه، وكانت أيامه نضرة بالعدل، زاهرة بالخير، وكان على قَدَم من العبادة قبل الخلافة ومعها^(١).

وفيه قال السيوطي إنه " قليل المثل في الأئمة، لا يجري في دولته أمر - وإن صغر - إلا بتوقيعه، جدد معالم الإمامة، ومهد رسوم الخلافة، وباشر الأمور بنفسه، وغزا غير مرة، ولم يرد مع سماحته ولين جانبه ورأفته بعد المعتصم خليفة في شهامته وصرامته، وشجاعته، مع ما خُص به من زهده وورعه وعبادته "^(٢).

وقد أثنى عليه الكثير ممن تناولوا شخصيته بالترجمة والتحليل نظرًا لقوة شخصيته وحزمه وصرامته، ومتابعته لدقيق الأمور قبل جليلها، مما يوضح لنا أنه كان على جانب كبير من اليقظة والشجاعة والشهامة، ومثله كان خليفًا للإمامة، جديرًا بها، كما ذكر الذهبي وغيره حيث قال: " كان المقتفي عالمًا فاضلًا، شجاعًا، حليمًا، دمث الأخلاق، كامل السوَدَد، خليفًا للإمامة، عظيم الهيبة، أقام حشمة الخلافة، وقطع عنها

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٢٠/٤٠٠، ٤٠١)، المكي: سمط النجوم العوالي

(٣/٣٧٣).

(٢) تاريخ الخلفاء ص (٤٤٠، ٤٤١).

أطماع السلاطين السلاجقة وغيرهم، عدم النظر، عظيم المملكة، بيده أزمّة الأمور"^(١).

وكان السلطان مسعود قد توقع قبل وفاته بما سيكون للخليفة المقتفي لأمر الله من شأن عظيم حيث قال: " لقد أجلسنا في الخلافة رجلاً عظيماً، فالله تعالى يكفيننا شره"^(٢).

ولا شك أن هذه النظرة من رجل مثل السلطان مسعود لها أبعادها الكثيرة والدالة على قوة شخصية المقتفي وحنكته، ومن ثم استعادته لسلطان الخلافة العباسية، والذي وضع البداية الأولى لذلك الخليفة المسترشد بالله عندما حدثت الفجوة والخلاف بينه وبين السلطان مسعود سنة (٥٢٩هـ) كما تقدم توضيحه^(٣).

ولكن الذي تمكن بعد ذلك من إعادة الهبة للخلافة وزيادة حرمتها، وعلو كلمتها هو الخليفة المقتفي لأمر الله، يوضح ذلك ما ذكره السيوطي عن ابن الجوزي حيث قال: " من أيام المقتفي عادت بغداد والعراق إلى يد الخليفة، ولم يبق له منازع، وقبل ذلك من دولة المقتدر إلى

(١) انظر: العبر (٣/٢٤، ٢٥)، سير أعلام النبلاء (٢٠/٤٠١)، دول الإسلام ص (٢٨٩)، القرمان: أخبار الدول ص (١٧٥).

(٢) انظر: ابن الأثير: الكامل (١١/٤٤)، علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام ص (٤٦٨).

(٣) تقدم تفصيل ذلك عند حديثي عن الخليفة المسترشد بالله.

وقته كان الحكم للمتغلبين من الملوك، وليس للخليفة معهم إلا اسم الخلافة" (١).

وهكذا نجح المقتفي بتوفيق الله ثم بتأييد ومساعدة أصحابه ووزرائه في السلطة في الوصول إلى ما يصبو إليه، وهو إعادة الهبة والمكانة للبيت العباسي مرة أخرى بعد أن فقدت الخلافة هيبتها ومكانتها. وكان المقتفي لأمر الله موفق الوزراء والأصحاب- كما ذكر ابن دقماق ذلك (٢).

ومن موافقه الدالة على شجاعته وحزمه وقوة شخصيته وتمكنه من الأمور نجاحه في عزل الوزير "علي بن طراد الزبيني" (٣)، الذي استبد بالأمور على نحو لم يرض عنه الخليفة، وحين شعر الزبيني بتغير المقتفي عليه وعدم ارتياحه له وهتمته بالقبض عليه، خاف على نفسه، واحتفى بدار السلطان مسعود، ثم إن الخليفة نجح بعد ذلك في إقناع السلطان مسعود بعزله سنة (٥٣٤هـ-)، وإسقاط اسمه من الخطبة (٤)، رغم أن الوزير الزبيني

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤٤١)، وذكر نحو ذلك أيضاً القرماني في أخبار الدول ص (١٧٦).

(٢) الجوهر الثمين (٢٠٧/١).

(٣) تقدمت ترجمته.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم (٨٥/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٧٦/١١)، الكشي: عيون التواريخ (٣٦١/١٢، ٣٧٨)، ابن طباطبا: الفخري ص (٣١٠)، ابن خلدون: العبر (٦٤٣/٣)، الذهبي: العبر (٤٥٤/٢).

كان قد أدى دوراً كبيراً في تولية المقتفي للخلافة، ولا شك أن ذلك دليل على نظرتة البعيدة للأمور، وطموحه لتنظيم أمور الدولة وتيسير دفتها واختيار المخلصين لمثل هذه المناصب المهمة، وعدم مجاملته أحداً مهما كان قدره أو شهرته إذا بدر منه ما يوجب عزله للمصلحة العامة^(١).

ومما يدل على متابعة المقتفي الأمور بدقة متناهية، وحنكته في استغلال الأحداث لمصلحة الخلافة والدولة، نجده يرفض طلب السلطان مسعود حول تقرير إقطاع^(٢) يكون لخاصته ومن حوله^(٣)، وكذلك عندما أخذ السلطان مسعود جميع ما في دار الخلافة، ولم يترك للخليفة إلا العقار

(١) يبدو أن من أسباب الخلاف بين الخليفة المقتفي والوزير الرئسي ما فعله الوزير في حق الخليفة الراشد وكتابه المحضر الذي تخلع بموجبه من الخلافة، وكذلك استبداده وتسلمه بالأمور، وتواطئه مع السلاجقة ضد الخلافة العباسية، ويقظة المقتفي لذلك كله، وتصفية حساباته مع خصومه وعدم ترك الفرصة لهم.

(٢) الإقطاع: هو ما يقطعه السلطان بأمره ويعطيه لخواصه ورجاله من الأرض، وهو ضربان: إقطاع تملك، وإقطاع استغلال، وفيه تفصيل طويل في الكتب المختصة بذلك. انظر حول الإقطاع وأحكامه وأقسامه: للقاضي أبي يوسف: كتاب الخراج ص (٦٢)، الماوردي: الأحكام السلطانية ص (٢٣٩)، الفراء: الأحكام السلطانية ص (٢٢٧)، فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري (٣/١٧١-١٨٨)، عبد العزيز الدوري: نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية ص (٣)، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد العشرون، ١٣٩٠هـ.

(٣) ابن الأثير: الكامل (١١/٤٣، ٤٤).

الخاص، وأرسل وزيره يطلب من الخليفة مائة ألف دينار، فقال المقتضي رادًا عليه: " ما رأينا أعجب من أمرك، أنت تعلم أن المسترشد صار إليك بأمواله، فجرى ما جرى، وأن الراشد ولي ففعل ما فعل، ورحل وأخذ ما تبقى، ولم يبق إلا الأثاث، فأخذته كله، وتصرفت في دار الضرب، وأخذت التركات^(١)، والجوالي^(٢)، فمن أي وجه نقيم لك هذا المال؟، وما بقي إلا أن نخرج من الدار ونسلمها؟ فإني عاهدت الله ألا آخذ من المسلمين حبة ظلمًا ".

(١) التركات: جمع تركة، وهي ما يتركه الميت من مال، أو ما يتركه من التراث المتروك أيًا كان. ابن منظور: لسان العرب (٤٠٥/١٠)، المعجم الوسيط (٨٤/١)، وكان هناك ديوان يسمى " ديوان التركات " ويتضمن إرث من لا وارث له من الرعية، لأن الدولة كانت ترثهم بحكم الشرع الإسلامي. انظر: ابن الساعي: الجامع المختصر (٩ض).

(٢) الجوالي: يقال: اجتال الرجل الشيء إذا ذهب به، واجتال أموالهم أي ذهب بها ولم يترك شيئًا. ابن منظور: لسان العرب (١٣١/١١، ١٣٢)، وهناك أيضًا: " ديوان الجوالي " وهو الذي يستوفى الجزية من أهل الذمة، والجوالي جمع جالية، وهم أهل الذمة في بلاد الإسلام، ويودون للخليفة الجزية بمقتضى الشريعة. انظر: ابن الساعي: الجامع المختصر (٩ض، ٢٥٩).

فترك السلطان بعد ذلك الأخذ من الخليفة، وعاد إلى جباية الأملاك من الناس، وصادر التجار- كما تذكر المصادر التاريخية- فلقى الناس من ذلك شدة^(١).

وحين نتأمل هذا الرد المقنع الجريء من الخليفة للسلطان مسعود نلاحظ أنه دليل على جرأة وشجاعة الخليفة، وقوة شخصيته وحزمه، وقبل ذلك تقواه لله تعالى وورعه، وإحسانه للرعية والقيام بما يجب عليه حولها، وذلك يظهر جلياً عند قوله في آخر الرسالة: "إني عاهدتُ الله ألا آخذ من المسلمين حبة ظمماً".

وهكذا يكون خلفاء المسلمين الأتقياء الذين لا تفتنهم الدنيا أو السلطة والجاه، بقدر ما يتذكر المصير المحتوم، وهو الوقوف أمام الله تعالى يوم القيامة ومحاسبة العبد ذلك الحساب الدقيق سواء كان خليفة أو أميراً أو مأموراً أو صغيراً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٦٦/١٠)، ابن طباطبا: الفخري ص (٣١٠)، الذهبي: تاريخ الإسلام (٩، خ، ورقة ١٢٤)، ابن دقماق: الجواهر الثمين (٢٠٧/١)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٢٥٩/٥)، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤٣٨)، وهذا أوضح دليل على سوء معاملة السلطان السلجوقي للخليفة المقتفي، ونفاذ صير الخليفة مما يلاقيه. الزهراني: نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية ص (١٤٦).

(٢) سورة الزلزلة، آية (٧، ٨).

أتى الله بقلب سليم^(١)، فيتذكر الجميع مثل هذه الآيات العظيمة، وأن الظلم آخزه حسرة وندامة، والعياذ بالله.

وقد كان لتلك المواقف العظيمة للخليفة المقتفي الأثر الكبير لصالح الرعية، حيث إن السلطان مسعود لم يستمر في تسلطه وشدته مع الناس، بل على الفور أمر بإزالة المكوس^(٢)، وتعليق الألواح التي وضعت على أبواب الجوامع وفي الأسواق، كما أمر أيضاً أن لا ينزل جندي في دار عامي من أهل بغداد إلا بإذن، فكثرت الثناء عليه والدعاء له^(٣).

وهذا الموقف يشير إشارة واضحة إلى تغير كبير في سياسة مسعود تجاه الرعية، حيث أراد أن يتقرب إليهم بعد أن أحسّ بشجاعة المقتفي وحنكته وصرامته، كما أنه يشير إلى رغبة مسعود الجديّة في تجديد الصلة بالخليفة أيضاً إضافة إلى الرعية؛ لأنّه حرص على عدم إثقال كاهلهم بالضرائب التي أزعجتهم، ثمّ تحسين صورته أمام الناس لا سيما بعد أحداث المسترشد وابنه الراشد وما نتج عنها من تصور أو أثر كبير في الرأي العام تجاه السلطة السلجوقية.

(١) سورة الشعراء، آية (٨٨-٨٩).

(٢) المكوس: جمع مكس، وهي الجباية التي تؤخذ من الناس، وهي تشبه الضرائب اليوم، وتؤخذ أيضاً من التجار الداخلين إلى البلد، والمالكس من يأخذ المكس من التجار. الجوهري: الصحاح (٩٧٩/٣)، الزمخشري: أساس البلاغة ص (٦٠٠)، الرازي: مختار الصحاح ص (٦٣٠)، المعجم الوسيط (٨٨١/٢).

(٣) ابن الأثير: الكامل (٧١/١١)، الكتبي: عيون التواريخ (٣٤٣/١٢).

ومما يؤكد نجاح الخليفة المقتفي لأمر الله في كسب ثقة البيت السلجوقي، وإعادة الهبة للخلافة العباسية مبادرة السلطان (سنجر) إلى إرسال البردة^(١) والقضيب^(٢) إلى الخليفة المقتفي، حيث كانا مع المسترشد الذي خرج بهما في قتاله للسلطان مسعود سنة (٥٢٩هـ—)، وكان

(١) البردة: كساء أسود مربع فيه صيغر تلبسه الأعراب، وقيل: كساء من صوف يُلتحفُ به، والجمع (بُرْد). الرازي: مختار الصحاح ص (٤٧)، المعجم الوسيط (٤٨/١).

والمقصود هنا هي بردة الرسول ﷺ، وقد ذكر الفراء عن أبان بن تغلب أن رسول الله ﷺ كان قد وهبها لكعب بن زهير فاشتراها منه معاوية ﷺ فهي التي يلبسها الخلفاء، وقيل: إن هذه البردة أعطاها رسول الله ﷺ أهل إيلة فأخذها منهم عبد الله ابن خالد بن أبي أوفى—وعند الماوردي، سعيد بن خالد—وكان عاملاً عليها من قبل مروان بن محمد، فبعث بها إليه، وكانت في خزائنه حتى أخذت بعد قتله، وقيل اشتراها أبو العباس السفاح بثلاثمائة دينار. انظر حول البردة: الماوردي: الأحكام السلطانية ص (٢١٦، ٢١٧)، الفراء: الأحكام السلطانية ص (٣٠٢)، الصابئ: رسوم دار الخلافة ص (٨١)، صالح العلي: ألوان المدارس العربية في العهد الإسلامية الأولى، مجلة المجمع العلمي العراقي ص (٦٢)، المجلد السابع والعشرون، ١٩٧٦م.

(٢) القضيب: وهو أجرد أنواع السيوف وأقطعها، وهو من تركة الرسول ﷺ هي صدقة، وقد صار مع البردة من شعار الخلفاء، وقيل: عود كان النبي ﷺ يأخذه بيده، وهو ثالث علامات الخلافة، فإذا تولى الخليفة جازوه بالبردة والخاتم والقضيب. انظر حول ذلك: ابن منظور: لسان العرب ص (٦٧٨)، المعجم الوسيط (٤١/٢)، الفيروز أبادي: القاموس المحيط ص (١٢٢)، الصابئ: رسوم الخلافة ص (٨١)، الماوردي: الأحكام السلطانية ص (٢١٧)، المنجد في اللغة والأعلام ص (٦٣٦).

السلطان سنجر قد حفظهما عنده إلى أن أرسلهما للخليفة في سنة (٥٣٥هـ)^(١)، مما يُدلل على احترام سنجر للخليفة العباسي المقتفي وتقديره له، وكسب رضاه، كما أن السلطان مسعود من جانبه كان حريصاً على كسب ود ورضا الخليفة، وذلك حين قبض على أحد خواص الخليفة ويدعي الأمير (ترشك)، فساء ذلك الخليفة وأغضبه، فبادر السلطان مسعود إلى إطلاق سراحه حفظاً لقلب الخليفة- كما عبر بذلك ابن الأثير- وكان هذا الحدث سنة (٥٣٧هـ)^(٢).

وبعد وفاة السلطان مسعود سنة (٥٤٧هـ) عزز الخليفة المقتفي محاولاته لتحسين أوضاع الدولة وضبط الأمور بطريقة أفضل مما سبق، رغم الأعمال التي قام بها في بداية خلافته، والتي كان لها الأثر الكبير في أعماله اللاحقة بعد وفاة السلطان مسعود، لأنها كانت توطئة وتمهيداً لما بعدها، ويتضح لنا من خلال الأحداث ومتابعتها وتحليلها أن طموح الخليفة المقتفي ومتابعته الدقيقة الأحداث والمواقف أخذ منعطفاً جديداً منذ سنة (٥٤١هـ)، ففي رجب منها دخل السلطان مسعود بغداد،

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٩٠/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٧٩/١١)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢١٧/١٢)، الذهبي: تاريخ الإسلام (٩)، ورقة ١٣٠، مخطوط مصور برقم (٩٣١)، الجامعة الإسلامية، المدينة.

(٢) ابن الأثير: الكامل (٩٢/١١).

وعمل دار ضرب، فقبض الخليفة على الضراب الذي تسبب في إقامة تلك الدار، فقام شحنة بغداد بالقبض على ابن الصاحب-حاجب الباب- انتقاماً لذلك العمل، فغضب الخليفة وصمم على إطلاق الحاجب، ولما شعر الشحنة بتصميم المقتفي على موقفه وعدم إذعانه للتهديدات، اضطر مجبراً على إطلاق سراح ابن الصاحب^(١).

ومثل هذا العمل من الخليفة يوضح مدى هيبة ومكانة وقدرة الخليفة للتصدي لمثل هذه الأمور التي لا يحسن السكوت عليها، ويدل على ما وصلت إليه الخلافة في عهد المقتفي من نفوذ^(٢) وسيطرة على مجريات الأمور، حيث استعادت نفوذها وقوتها، لاسيما وأن هذا الموقف يتعلق بالوضع المالي للخلافة، وهذا له أهميته القصوى في الدولة، لذا وجب الاهتمام به ومتابعته، وكان الخليفة المقتفي أهلاً لذلك كله.

إضافة إلى ما تقدم من اهتمام الخليفة بالوضع المالي، كان شديد الاهتمام والمتابعة للوضع المكمل لذلك والذي لا ينفك عنه، وهو الوضع

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١١٩/١٠)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٣١/٦)، الذهبي:

سير أعلام النبلاء (٤٠٤/٢٠)، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤٣٨).

(٢) يصور لنا ابن القلانسي الخطوات التي اتبعتها الخليفة العباسي المقتفي لتقوية مركز

الخلافة من الناحية العسكرية فيقول: " خرج أمر الخلافة في سنة (٥٤٣هـ)،

بالشروع في عمارة سور بغداد، وحفر الخنادق وتحصينها، وألزم الأمانيل وكبار

المزارعين والتجار وأعيان الرعايا بالقيام بما ينفق على العمارات من أموالهم على

سبيل القرض والمعونة ". انظر: ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص (٣٠٢).

الإداري، وذلك عندما عيّن العالم العادل، عون الدين " يحيى بن هبيرة " مشرفاً على ديوان الزمام، وذلك سنة (٥٤٢هـ)، وكذلك عين زعيم الدين " يحيى بن جعفر " مشرفاً على المخزن في السنة نفسها أيضاً، وإقامة الخطبة للمستنجد بالله بولاية العهد من بعد أبيه^(١)، مما يشير إشارة واضحة إلى سيطرة ونفوذ المقتفي على أمور الدولة العامة، وحرية في اتخاذ القرارات المناسبة حسب ما تمليه مصلحة الخلافة سواء كان ذلك فيما يتعلق بولاية العهد لابنه حفاظاً على وحدة وتماسك البيت العباسي كي لا يحدث تنازع أو تقاطل على السلطة أو فيما يتعلق من يراه مناسباً وصالحاً ومخلصاً للدولة، لاسيما في المناصب المهمة والأعمال التي لها مساس بمصلحة الدولة العليا كديوان الزمام، وديوان المخزن-كما أوضحناه آنفاً.

ومما يبرهن أيضاً على ما وصلت إليه الخلافة العباسية من الهيبة والنفوذ والمكانة في النفوس، ما حدث سنة (٥٤٥هـ)، حينما أراد " يوسف الدمشقي "^(٢)، أن يدرس في المدرسة النظامية في بغداد، وكان

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٠/١٢٤، ١٢٥)، ابن الأثير: الكامل (١١/١٢٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/٢٢٢)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٢٠/٤٠٥)، تاريخ الإسلام (٩، خ، ورقة ١٣٤)، الكتبي: عيون التواريخ (١٢/٤٢١).

(٢) هو يوسف بن عبد الله بن بندار الدمشقي، درس في النظامية وغيرها، وكان بارعاً في المناظرة، وكان رسول الخليفة المستنجد بالله إلى خزرستان، حيث بعثه إلى شملة التركماني عندما وصل إلى قلعة الماهكي-من أعمال بغداد-بجذره من عاقبة فعله

ذلك بغير أمر الخليفة وإذنه، فمنع من التدريس، فتقدم السلطان مسعود إلى الشيخ " أبي النجيب " بأن يدرس في النظامية، فامتنع من ذلك، ولم يقبل إلا بعد أن أخذ السلطان مسعود له إذناً من الخليفة^(١)، وهذا دليل واضح على إشراف الخليفة إدارياً على المدرسة النظامية، وصلاحياته في تعيين المدرسين فيها أو إعفائهم من ذلك، وقد أمر المقتفي لأمر الله بعد وفاة السلطان مسعود بعزل المدرسين الذين تم تعيينهم من قبل السلطان مسعود للتدريس في المدرسة النظامية ببغداد.

ويتضح لنا أن الخليفة المقتفي وهو يعمل ذلك كله ويقوم بمتابعة الأمور الدقيقة والجليلة بنفسه، ويضبطها ضبطاً تاماً، ويتدخل في كل صغيرة وكبيرة، ولا يجري شيء في دولته إلا بإذنه وتوقيعه، كان يتطلع ويأمل في أن يعثر على رجل مخلص، قوي الشخصية، وعنده الاستعداد للدفاع عن الخلافة والوقوف مع الخليفة، خاصة خلال تلك الأحداث، والعمل على إعادة هيبة الخلافة واستعادة مكانتها، وقد وجد الخليفة ضالته، وكان حسن الاختيار، موفقاً في ذلك، حيث اختار ابن هبيرة لذلك المنصب المهم، وكان اختياراً موفقاً بشهادة الكثير من المؤرخين

ذلك، فمات الدمشقي هناك سنة (٥٦٣هـ). انظر: ابن الجوزي: المنتظم

(٢٢٦/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٥٥/١٢).

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٤٢/١٠)، ابن الأثير: الكامل (١٥٢/١١)، ابن كثير:

البداية والنهاية (٢٢٨/١٢)، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤٤٠).

والباحثين الذين تناولوا العصر السلجوقي، حيث عبّر عن ذلك الإمام الذهبي بقوله: " وكان من حسناته وزيره عون الدين بن هبيرة " (١).

وحيث إن نجاح الدولة في استعادة سلطاتها ومكانتها مرهون بنجاح الخليفة في اختيار ذوي الكفاءة والقدرة التي تعمل بكل تفان وإخلاص (٢)، كل ذلك أدى إلى اختيار ابن هبيرة لشغل ذلك المنصب المهم والخطر في الوقت نفسه، ويحسن بي أن أتعرض بشيء من الإيجاز لحياة هذا الوزير العالم وشيء من أعماله ومواقفه وصفاته، وذلك لصلته بالأحداث التي صاحبت خلافة المقتضي لأمر الله، وكان له فيها دور كبير.

فهو: يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني، الدوري، ثم البغدادي الحنبلي، الوزير العالم العدل، صدر الوزراء، عون الدين، أبو المظفر، ولد سنة (٤٩٩هـ)، دخل بغداد في صباه وطلب العلم، وجالس الفقهاء، وقرأ بالقراءات السبع، وسمع الحديث، وكانت له معرفة جيدة في علوم

(١) سير أعلام النبلاء (٤٠١/٢٠).

(٢) وقد اختار الخليفة المقتضي هذا الوزير العصامي الجيد الصيت ابن هبيرة بنفسه دون أن يعرض عليه من السلطان السلجوقي كما جرت العادة، إلى جانب أن الضعف البالغ قد دب في صفوف السلاجقة وازدادت صراعاتهم، وكثر عدد الأمراء والأتابكة والعساكر المتدخلين في سياسة الأمور وكثرة القلاقل، ولذا تيسر أمام الخليفة موقف المحاماة الصريحة والعسكرية من أجل استقلال بغداد والعراق من نفوذ السلاجقة، وقد تم ذلك. السامرائي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي ص (٢٩٩).

الإسلام، ومهر في النحو واللغة والعروض، تفقه على مذهب الإمام أحمد، كان فقيراً لا مال له، فاشتغل في الكتابة، وتقدم، وترقى، فجعله المقتفى مشرفاً في المخزن، ثم ولي ديوان الزمام للمقتفي لأمر الله، ثم وزر له سنة (٥٤٤هـ)، واستمر، ووزر من بعده لابنه المستنجد، وكان من خيار الوزراء وأحسنهم سيرة، وأبعدهم عن الظلم، وكان المقتفي يقول: ما وزر لبني العباس مثله، وكذلك كان ابنه المستنجد معجباً به، وكان خيراً متعبداً عاقلاً، وقوراً متواضعاً، متبعاً للسنة، على مذهب السلف في الاعتقاد، يجتهد في اتباع الصواب، ويحذر من الظلم، ذا رأي صائب، وسيرة صالحة، وظهر منه في أيام وزارته ما شهد له بكفاءته وحسن مناصحته، وكان مكرماً لأهل العلم، باراً بهم، يحضر مجلسه الفضلاء على اختلاف فنونهم، ويقرأ عنده الحديث عليه، وعلى الشيوخ بحضوره، ويجري من البحث والفوائد ما يكثر ذكره^(١)، صنّف كتباً منها كتاب "الإفصاح

(١) انظر حول ابن هبيرة وما قيل حوله وسيرته وما له من الكلام الحسن والفوائد المستنبطة الدقيقة من كلام الله تعالى ورسوله ﷺ. المنتظم (٢١٤/١٠، ٢١٧)، الكامل في التاريخ (٣٢١/١١)، ابن النجار: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد ص (٤٣٧)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٣٠/٦)، ابن واصل: مفرج الكروب (١٣١/١، ١٤٧)، ابن طباطبا: الفخري ص (٣١٢)، المقرئ: السلوك (٢١/١)، الكتبي: عيون التواريخ (٤٢١/١٢)، أبو شامة: الروضتين (١٤١/١)، اليافعي: مرآة الجنان (٣٤٤/٣)، ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة (٢٥١/١)، العليمي: المنهاج

عن شرح معاني الصحاح^(١)، وهو يشتمل على تسعة عشر كتاباً، شرح فيه صحيح البخاري ومسلم، وكتاب "المقتصد"، واختصر كتاب "إصلاح المنطق" لابن السكيت، وله كتاب "العبادات في الفقه على

الأحمد (٣٢٢/٢)، سير أعلام النبلاء (٤٢٦/١٠)، تاريخ ابن خلدون (٦٣٧/٣)، وأنظر: الزهراني: نظام الوزارة في الدولة العباسية ص (١٦٠، ١٦١).

(١) وذكر فيه مسائل الفقه المتفق عليها والمختلف فيها بين الأئمة الأربعة، ويُقال إنه أنفق على تأليفه مائة وثلاثة عشر ألف دينار، وبلغ الاهتمام بتعميم فائدة هذا الكتاب أن نسخت منه عدة نسخ، وأرسلت لعدد من الأمراء والوزراء ورجال العلم. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٣٣/٦)، ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة ص (٢٥٢).

وقد قام الدكتور محمد يعقوب طالب الأستاذ المساعد بكلية الشريعة بالجامعة الإسلامية بتحقيق الجزء الأول من الكتاب، وهو قسم العبادات، وقد طبع الكتاب عام ١٤١٣هـ، ولعله يقوم بتحقيق الأجزاء المتبقية من الكتاب، أو غيره من طلبه العلم إن شاء الله تعالى.

وقد قامت بنشره قبل ذلك المؤسسة السعدية بالرياض، ولكن دون تحقيق، وهي طبعة قديمة له إذا ما قورنت بهذا التحقيق الجيد للكتاب، انظر حول بعض الروايات الفقهية والاستنباطات المستفادة من هذه الطبعة، ما كتبه الدكتور عيد بن سفر الحجيلي في مجلة الجامعة الإسلامية، الأعداد ٨٥-١٠٠ تحت عنوان "تحقيق المقام فيما يتعلق بأوقات النهي عن الصلاة من أحكام" ٢١٩-٣٠٠، وتلك الأعداد صدرت في مجلد واحد، وتمتد من شهر المحرم ١٤١٠هـ إلى ذي الحجة ١٤١٣هـ.

مذهب الإمام أحمد " وغيرها^(١)، وفي ذلك يقول الذهبي: " كان مكباً مع أعباء الوزارة على العلم وتدوينه "^(٢).

ويقول العليمي حول اهتمام الوزير بأهل السنة ودعمه لهم: " وارتفع به أهل السنة غاية الارتفاع، ولقد قال مرة في وزارته: والله لقد كنت أسأل الله تعالى الدنيا لأخدم بما يرزقنيه الله منها العلم وأهله "^(٣).

وكان شديد التواضع والورع والعمل بالسنة، رافعاً للمبر، شديد الإيثار لمجالسة أرباب الدين والفقراء، وقال في أحد الأيام لبعض الفقراء يخاطبه: أنت أخي والمسلمون كلهم إخوة^(٤).

ورغم ما تقدم من الصفات الحميدة والسجايا الكريمة التي كان يتمتع بها ابن هبيرة - كما يذكر ابن الجوزي وغيره - كان مبالغاً في

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٣٣/٦)، وذكر صاحب كتاب المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد (٣٣٣/٢)، كثيراً من كتبه ومولفاته والحديث عنها، ولكنه اختلف في تسمية أحد هذه الكتب مع ابن خلكان، فورد عنده: " العبادات الخمس على مذهب الإمام أحمد " (٣٣٤/٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤٢٧/٢٠)، وكان الخليفة المقتفي قد لقبه بـ "سلطان العراق وملك الجيوش". حسن الباشا: الألقاب الإسلامية ص (٦٤).

(٣) المنهج الأحمد (٣٣٥/٢).

(٤) نفسه (٣٣٩/٢).

تحصيل التعظيم للدولة العباسية، قامعاً المخالفين بأنواع الحيل، حسم أمور السلاطين السلاجقة^(١).

ومما يدل على حكمته في التصرف وإخلاصه للخلافة، أنه لما استطال السلطان مسعود وأصحابه، وأفسدوا، عزم هو والخليفة على قتاله، ثم فكر الوزير بعد ذلك وأحكم عقله ورأى أن ليس بصواب مجاهرته وقاتله لقوة شوكته وكثرة أتباعه، فدخل على الخليفة المقتفي وقال له: "إني رأيت أن لا وجه في هذا الأمر إلا اللجوء إلى الله تعالى وصدق الاعتماد عليه"، فاقنع الخليفة بذلك الرأي الصائب، واتفقا على الدعاء عليه، فابتدأ هو والخليفة سراً كل يدعو في موضعه وقت السحر شهراً كاملاً، فمات السلطان مسعود لتمام الشهر، لم يزد يوماً، ولم ينقص يوماً^(٢)، ومثل هذه القصة تذكر في كرامات الخليفة والوزير يرحمهما الله تعالى.

وما من شك في أن هذا الوزير قام بدور كبير في تخلص الخلافة العباسية من النفوذ السلجوقي، واستعادة سلطة الخلفاء العباسيين في الدولة، ومكانتهم، وقد استطاع ابن هبيرة بمساعدة الجيش الذي أعده وجهزه تخلص العراق وجميع أعماله من سيطرة السلاطين السلاجقة^(٣)،

(١) المنتظم (٢١٤/١٠)، البداية والنهاية (٢٥٠/١٢).

(٢) المنهج الأحمد (٣٣٧/٢)، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤٣٩).

(٣) ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة (٢٥٧/١)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٥١/١٢).

الأمر الذي جعل الخليفة المستنجد بالله - كما يذكر ابن كثير - يعده بأن يظل محتفظاً بمنصبه في الوزارة حتى وفاته^(١).

وكانت وفاته - رحمه الله - سنة (٥٦٠هـ) عن إحدى وستين سنة^(٢).

والآن نستكمل جوانب التقويم لأعمال الخليفة المقتفي لأمر الله، فبعد وفاة السلطان مسعود، وهروب " مسعود بلال " شحنة بغداد إلى تكريت^(٣)، استولى الخليفة على أملاك السلطان مسعود وأصحابه التي في بغداد، وأخذ كل ما في دورهم، ولم يكتف بذلك بل قبض على الذين كانوا يساندونهم ويقفون معهم، ويسخرون من الخلافة ويحطون من

(١) البداية والنهاية (٢٤١/١٢).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٢١٦/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٣٢١/١١)، المنهج الأحمد (٣٥٧/٢).

(٣) تكريت: بلد مشهورة بين بغداد والموصل، غربي دجلة، افتتحها المسلمون زمن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه في سنة (١٦هـ). ياقوت: معجم البلدان (٣٩/٢)، وعن وصف المدينة وما فيها من مساجد وقلاع ونحوه. انظر: ابن جبير: الرحلة ص (١٨٦).

مكاتها مثل أبي النجيب السهروردي^(١)، والحيص بيص الشاعر^(٢)، وأهينا، ثم حبسا، ثم إن الخليفة جمع الرجال، وأكثر التجنيد، وشجع الناس على الالتحاق بجيش الخلافة^(٣).

وقد استغل الخليفة المقتفي هذه الأحداث المتلاحقة، ولم يُفوّت الفرص التي يجدها سائحة أمامه، بل كان يستفيد كثيراً من الظروف التي تعود على الخلافة والناس بالخير والنفع سواء ما يتعلق بدينهم وعقيدتهم،

(١) هو عبد القاهر بن محمد بن عبد الله، أبو النجيب السهروردي، كان يذكر أنه من سلالة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، سمع الحديث، وتفقه، وأفتى، ثم درس بالمدرسة النظامية، ومع ذلك كان متصوفاً، توفي سنة (٥٦٣هـ). ابن كثير: البداية والنهاية (٢٥٤/١٢)، الذهبي: العبر (٤٠٠/٣)، ابن العماد: شذرات الذهب (٢٠٨/٤).

(٢) هو سعد بن محمد بن سعد الصيفي التميمي، الملقب (شهاب الدين أبو الفوارس)، المعروف بحيص بيص، كان وافر الأدب، متضلعا في اللغة، بصيراً بالفقه والمناظرة، شافعي المذهب، وكان من أخير الناس بإشعار العرب، واختلاف لغاتهم، وإنما قيل له الحيص بيص؛ لأنه رأى الناس في حركة واختلاط، فقال: ما للناس في حيص بيص، أي في شر وهرج، فغلبت عليه هذه التسمية، توفي في بغداد سنة (٥٧٤هـ). انظر: المنتظم (٢٨٨/١٠)، الكامل في التاريخ (٤٥٤/١١)، ياقوت: معجم الأدباء (١٩٩/١١)، البداية وانتهى (٣٠١/١٢)، العبر (٦٥/٣)، النجوم الزاهرة (٨٣/٦)، مرآة الجنان (٣٩٩/٣).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (١٤٧/١٠)، ابن الأثير: الكامل (١٦١/١١)، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص (٣١٩)، ابن واصل: مفرج الكروب (١٣١/١)، ابن طباطبا: الفخري ص (٣١٠)، ابن دقماق: الجوهر الثمين (٢٠٨/١).

أو ما يتعلق بدينهم وأسباب عيشتهم ورزقهم، فأمر -رحمه الله- في سنة (٥٤٧هـ) بإراقة الخمر التي وجدت في دار مسعود بلال^(١) -شحنة بغداد- وكذلك في مساكن أصحاب السلطان مسعود، حيث وُجد في تلك الدور كثير من الخمر الذي لم يتوقعه الكثير من الناس^(٢).

وكذلك عاقب الخليفة المقتفي لأمر الله "علي بن الحسين الغزنوي"^(٣)، الذي كان يعظم السلطان ويسانده، ولا يعظم الخليفة، فلقي من الذلّ والإهانة الشيء الكثير، لا سيما وأنه كان يميل إلى التشيع، كما ذكر ذلك بعض المؤرخين^(٤).

ومما يدل على مدى استفادة المقتفي من الأحداث المتلاحقة واغتنامه الفرص التي تؤدي إلى رفع مكانة الخلافة وتأكيد هيبتها ومكانتها، مبادرته

(١) ورد في بعض المصادر التاريخية أن اسمه: مسعود البلالي، انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٣١/٦)، ابن دقماق: الجواهر الثمين (٢٠٨/١).

(٢) ابن الأثير: الكامل (١٦١/١١، ١٦٢).

(٣) هو الواعظ علي بن الحسين الغزنوي، الملقب بالبرهان، كان فصيحا، وله جاه عظيم، وكان السلطان يأتيه ويزوره، وكان يحضر مجلسه خلق كثير وجمع غفير من الناس، وكان يميل إلى التشيع ولا يحترم بيت الخليفة، ثم مُنع من الوعظ وأخذ جميع ما كان في يده وأهين حتى مرض فمات سنة (٥٥١هـ). انظر ترجمته في: المنتظم (١٦٦/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٣٤/١٢)، النجوم الزاهرة (٣٢٣/٥)، ابن العماد: شذرات الذهب (١٥٩م٤).

(٤) ابن الجوزي: المنتظم (١٦٧/١٠)، ابن العماد: شذرات الذهب (١٥٩/٤)، سير أعلام النبلاء (٣٢٥/٢٠).

في تجهيز حملة عسكرية سنة (٥٤٧هـ) بقيادة وزير عون الدين بن هبيرة الذي استطاع أن يلحق الهزيمة بمسعود بلال-الشحنة- ومن ثم إخضاع الحلة لسلطان الخلافة، وحين فشل الجيش في إخضاع واسط، خرج المقتفي بنفسه إليها، ونجح في الاستيلاء عليها، وإصلاح شأنها، ثم سار منها إلى الحلة والكوفة ثم عاد مؤيداً إلى بغداد، فعملت له قباب الزينة، وكانت غيبته خمسة وعشرين يوماً^(١).

وفي تصوري أن الخليفة المقتفي كان يولي الحلة اهتماماً كبيراً، ولعل سببه هو أهمية هذه المنطقة عند السلاطين وأمراءهم لاستغلال أموالها وحاصلاتها، فأراد الخليفة أن يؤكد على عظمة الخلافة وقدرتها على السيطرة، وتمكن الجيش من إخماد أي محاولة لزعة كيان الخلافة، ومن ثم إخضاع جميع الأقاليم والولايات المجاورة لسلطان الخلافة، كل ذلك كان في بغداد وما جاورها، ولكن طموح الخليفة المقتفي لم يقتصر على بسط سلطان الخلافة العباسية في العراق فقط- رغم أهميتها الكبيرة- ولكنه أخذ يتطلع إلى أكبر من ذلك، حيث كان يتابع الأحداث في مصر، ويراقب الأمور وتطوراتها في الدولة الفاطمية^(٢)- وسبق أن ألمحت سابقاً إلى

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٠/١٤٨)، ابن الأثير: الكامل (١١/١٦)، ابن كثير: البداية

والنهاية (١٢/٢٢٩)، المقرئ: السلوك (١/٣٨)، ابن خلدون: العبر (٣/٦٣٧).

(٢) ابتدأت دولة الفاطميين من سنة (٢٩٦هـ) إلى سنة (٥٦٧هـ). أبو الفداء:

المختصر في أخبار البشر (٢/٦٣)، وعن قيام الدولة الفاطمية وخلفائها وانتهائها.

انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢/١٩٢)، ابن الكامل (٨/٢٤)، المقرئ:

أنَّ المقتفي كان يستفيد من الفرص المتاحة ويستغل الأحداث المتلاحقة لمصلحة الخلافة واستقرارها واستعادة مكانتها وهيبتها-وقد استغل ذلك في مصر، وبالتحديد في أعقاب مقتل حاكم مصر الظافر بالله الفاطمي العبيدي سنة (٥٤٩هـ)^(١)، حيث كتب المقتفي عهداً لنور الدين محمود

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (٣٤٩/١)، اتعاض الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء (٥٥/١، ٦٦)، ومن الدراسات الحديثة، انظر: العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، محمد سالم العوفي: العلاقات السياسية والثقافية بين العباسيين والفاطميين في العصر السلجوقي، محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، وأيضاً: النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق، سياسة الفاطميين الخارجية، وهناك كتاب حول نسب الفاطميين والكلام حوله للدكتور عبد الحلیم عويس، تحت عنوان " قضية نسب الفاطميين أمام منهج النقد التاريخي " ط ١، ١٤٠٦هـ، لمن أراد الاستزادة حول موضوع الفاطميين ونسبهم وما قيل فيه، وكتاب أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد، تحقيق ودراسة الدكتور الشهابي نقرة، والدكتور عبد الحلیم عويس.

(١) هو أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله عبد المجيد العلوي، صاحب مصر العبيدي، ببيع له سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وهو ابن سبع عشرة سنة، وكانت أيامه مضطربة لحداثة سنه واشتغاله باللهو، وهو الحاكم التاسع من حكام مصر من بني عبيد، قُتل سنة (٥٤٩هـ)، عن طريق نصر بن عباس وزيره. انظر حول ترجمته وأخباره: ابن الأثير: الكامل (١٩١/١١)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٣٦/١)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٢٨٨/٥)، المقرئزي: اتعاض الحنفا (١٩٣/٣-٢١٠).

ابن زنكي^(١)، وولاه مصر، وأمره بالمسير إليها، ولقبه بالملك العادل. ولا شك أن مثل هذا العمل يدل على إدراك المقتني لأهمية الموقف في الشام ومصر، وإبراز دور الخلافة واهتمامها الكبير بأمور الجهاد في سبيل الله، ودعم المجاهدين المناضلين، وإحباط محاولات الأعداء من

(١) هو المجاهد، الملك العادل، نور الدين أبو القاسم محمود بن قسيم الدولة عماد الدين أبي سعيد زنكي بن الأمير الكبير آقسنقر التركي، كان حامل رأيي العدل والجهاد، وانتزع من الكفار المدن الكثيرة، وكان بطلاً شجاعاً وافر الهيبة، عظيم الديانة، محافظاً على الصلوات في الجماعات، كثير التلاوة، مجباً لفعل الخيرات، أظهر السنة ورفع شأنها، وقمع الرافضة وحارهم، وكانت وفاته سنة (٥٦٩هـ) بعلة الخوانيق (الطاعون) رحمه الله تعالى. انظر ترجمته وأخباره وسيرته العطرة في: المنتظم (٢٤٨/١٠)، الكامل (٤٠٢/١١)، الروضتين في أخبار الدولتين (٤٨/١-٢٣٠)، مفرج الكروب (١٠٩/١)، وفيات الأعيان (١٨٤/٥)، الجواهر المضية (٥٣١/٢)، تاريخ ابن خلدون (٢٥٣/٥)، البداية والنهاية (٢٧٧/١٢)، المختصر في أخبار البشر (٥٥/٣)، سير أعلام النبلاء (٥٣١/٢٠)، النجوم الزاهرة (٧١/٦)، شذرات الذهب (٢٢٨/٤)، وانظر ما كتبه الدكتور أحمد محمود الأحمد عن نور الدين محمود في كتابه "في السنوات الأخيرة من حياة صلاح الدين" ص (١٤-١٥)، وعن قيام الدولة الزنكية، انظر كتاب "هكذا ظهر جيل صلاح الدين، وهكذا عادت القدس" للدكتور ماجد الكيلاني ص (٢١١)، وما بعدها، وكتاب "نور الدين محمود" لحسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩م، ط ١.

الصليبيين وغيرهم في سبيل الاستيلاء على المدن الإسلامية، لاسيما وأن نور الدين قد بنجح -رحمه الله- في مواصلة حملاته الجهادية، واستولى على حلب، ودمشق وغيرهما، واستطاع استرجاع العديد من المدن والقرى والحصون والقلاع^(١)، مما أدى إلى رفع كيان السنة، ومن ثم عزة الإسلام والمسلمين.

ثم إن الخليفة المقتفي كان يُتابع الأمور والأحداث متابعة دقيقة -كما مر معنا- وبنجح في ذلك كثيراً وأخضع كل من يحاول التمرد والخروج على سلطان الخلافة، وأجبره على العودة إلى احترام الخلافة وبسط سلطائها على جميع الأقاليم التابعة للدولة، وكان مصدر القلق الذي كان يزعج الخليفة ويرغب في القضاء عليه هو: مسعود بلال -شحنة بغداد- في عهد السلطان مسعود -الذي لم يهنأ الخليفة حتى تخلص من خطره بعد إرسال الحملات المتتابعة إليه بعد أن اضطر إلى الخروج بنفسه وملاحقته هو وأتباعه بدءاً بالحملة الأولى التي توجهت إلى تكريت- حيث كان مسعود وحلفاؤه هناك- ثم عاد إلى بغداد، ثم خرج مرة أخرى إلى تكريت

(١) انظر في هذه المدن وكيفية استعادتها: الكامل في التاريخ (١١/١٢٢)، وما بعدها، حيث إن تفاصيل ذلك كله تبدأ من حوادث سنة (٥٤٢هـ) إلى سنة (٥٦٩هـ)، وهي سنة وفاته، وحول ذلك يقول ابن الجوزي في المنتظم (١٠/٢٤٨، ٢٤٩): "جاهد-أي نور الدين محمود زنكي- وانتزع من الكفار نيفاً وخمسين مدينة وحصناً" رحمه الله تعالى، ثم انظر: حسين مونس: نور الدين محمود، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م، الطبعة الأولى.

وحاصرها سنة (٥٤٩هـ)، ولم يتمكن من اقتحامها أيضاً، وعاد إلى بغداد وجّهز حملة كبيرة بقيادة وزيره ابن هبيرة، فحاصر تكريت وضيق عليها، وكاد أن يفتحها، إلا أن الأنباء وصلته بقرب جيش مسعود وحلفائه من العراق، فاضطر إلى فكّ الحصار والتوجه بسرعة إلى بغداد، وكان المقتضى قد استعد لذلك التحالف، وعزم على حربهم وهزيمتهم والخلص منهم، وأخيراً انتهى القتال بهزيمة مسعود بلال، ومن معه، واستيلاء الخليفة المقتضى على أموالهم، وعودته إلى بغداد في أول شعبان سنة (٥٤٩هـ) بعد أن غنم منهم غنائم كثيرة^(١).

ثم إن مسعود بلال ومن معه قصدوا مدينة واسط، فنهبوا وخرّبوا فيها، وعاثوا فساداً، فسير الخليفة إليهم الوزير ابن هبيرة ولاحقهم في شعبان من نفس السنة الآتفة الذكر فهزموهم، ونهب منهم شيئاً كثيراً، ثم عاد الوزير بجيشه ودخل على الخليفة، فشرفه بقميص وعمامة، ولقبه "سلطان العراق ملك الجيوش"^(٢)، وذلك لإخلاصه وتفانيه ووقوفه مع الخليفة ضد من يعاديه، أو يحاول الخروج عليه، أو يتعدى على مكانة الخلافة وحرمتها، وليس أدل على انتصار الخلافة، واستعادة هيبتها من

(١) انظر عن ذلك القتال والحصار وتفصيله: ابن الجوزي: المنتظم (١٥٢/١٠-١٥٧)،

ابن الأثير: الكامل (١٩٤/١١-١٠٥)، الذهبي: العبر (٨/٣)، دول الإسلام ص

(٢٨٤، ٢٨٥)، الياقعي: مرآة الجنان (٢٩٢/٣).

(٢) المنتظم (١٥٧/١٠)، الكامل (١٩٦/١١)، تاريخ ابن خلدون (٦٣٨/٣).

تصدي الخليفة المقتفي ووزيره ابن هبيرة، لذلك التحالف الخطير الذي كاد أن يضع الخلافة وما وصلت إليه في مأزق لا يستطيع الخروج منه بسهولة، ولكن شجاعة المقتفي وحنكته وذكاءه ومتابعته للأحداث وفطنته لما يجري، كل ذلك هو الذي أنقذ الخلافة وأعاد لها مجدها وكيانها، بعد توفيق الله ومشيبته تعالى، وما من شك في أن اضطراب الأمور وضعف السلطنة السلجوقية والانقسامات الحادة فيها ساعد كثيراً في ذلك، مع نجاح المقتفي في استغلال الفرص التي تسنح له على ضوء تلك الأحداث.

ومما يشير إلى يقظة المقتفي وتبعه سير الأمور وقمعه المتمردين على الفور، ما فعله السلطان " محمد بن محمود " عندما حاول دخول بغداد، وأرسل إلى الخليفة يطلب إقامة الخطبة له، ولما لم يستجب الخليفة لذلك الطلب، جمع السلطان محمد جيشه، واستنجد كذلك بقطب الدين مودود^(١) -صاحب الموصل- وحاصر بغداد سنة (٥٥١هـ-)، وكان

(١) هو قطب الدين مودود بن زنكي بن آقسنقر-صاحب الموصل-، كان من خيار الملوك، محباً للرعية، عطوفاً عليهم، كثير الإنعام عليهم، كريم الأخلاق، حسن الصحة، كان سريع الانفعال للخير، بطيئاً عن الشر، حم المناقب، قليل المعاييب، وهو أخو نور الدين محمود-الشهير- توفي قطب الدين وعمره أربعون سنة، كانت مدة ملكه منها إحدى وعشرين سنة، وكانت وفاته سنة (٥٦٣هـ). انظر ترجمته وأخباره في: الكامل في التاريخ (٣٥٥/١١، ٣٥٦)، الإعلام بوفيات الأعلام ص (٢٣٣)، العبر (٤٦/٣)، مرآة الجنان (٣١٨/٣)، النجوم الزاهرة (٣٨٣/٥).

الخليفة ووزيره ابن هبيرة قد استعدا لذلك استعدادًا تامًا من جمع الجنود وتوفير السلاح والاحتياجات الأخرى كافة، ولم يكتف بذلك كله، بل إنّه حث السلطان ملكشاه-أخو السلطان محمد المحاصر لبغداد- ورغبه في التوجّه إلى همدان، وقد ضاعف السلطان محمد جهوده لاقتحام بغداد، ولكنه أخفق في ذلك، فاضطر إلى فكّ الحصار عنها، والعودة بسرعة إلى همدان، ثم إنَّ المقتفي عاقب الأمراء الذين ساندوا السلطان محمد في حصاره بغداد، كما قام بتوزيع الأموال والخيرات على الرعية نتيجة الأضرار التي لحقت بهم من جرّاء الحصار الذي فرض عليهم^(١)، ولا شك أنّ في ذلك تقوية للروابط والصلات بين الخلافة والرعية، الأمر الذي يؤدي في النهاية لوقوف الرعية مع الخلافة ومناصرتها عندما تتعرّض لخطر محقق بها، أو محاولة لزعزعة كيافها.

(١) انظر تفاصيل ذلك الحصار ونهايته في: المنتظم (١٦٨/١٠) وما بعدها، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (٢٢٦)، ابن الأثير: الكامل (٢١٢/١١)، ابن واصل: مفرج الكروب (١٣١/١)، المقدسي: الروضتين (١١٤/١-١٢٢)، اليافعي: مرآة الجنان (٢٩٩/٣)، المقرئ: السلوك (٣٨/١)، تاريخ ابن خلدون (٨٥/٥)، الكتي: عيون التواريخ (٤٩٥/١٢).

وقد استغلّ الخليفة المقتفي مناسبة العيد سنة (٥٥٣هـ) في محاولة لتوطيد تلك العلاقة، فاستعرض الجند والأمراء وشهد العيد معهم في تحمل باهر لم يُر مثله قبل ذلك^(١).

وهكذا يتضح لنا من خلال خلافة المقتفي لأمر الله، وتحليل الأحداث التي حدثت خلال مُدّة حكمه بنجاحه الكبير في استعادة هيئة الخلافة، واسترداد مكانتها التي حاول فيه الآخرون من الخلفاء قبله، ولكنهم لم يحالفهم التوفيق رغم كفاحهم ومحاولتهم المتكررة، وإن كانوا قد اجتهدوا إلى حدّ بعيد في سبيل تحقيق ذلك، إلا أنهم وضعوا البداية الأولى للتخلص من نفوذ السلاجقة بدءاً من الخليفة المسترشد بالله، والراشد، والمقتفي، وكذلك المستنجد^(٢)، وقد كان لتلك الجهود الأثر الكبير في تحقيق سلطة الخلافة، واستقلال الخليفة في اتخاذ القرار، ونفوذه الواضح، ومتابعته كلّ مال يجري واتخاذ ما يلزم تجاه كل حدث، حسب ما تقتضيه مصلحة الخلافة والرعية.

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٠/١٨١)، ابن واصل: مفرج الكروب (١/١٣١)، الكتبي:

عيون التواريخ (١٢/٤٩١)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٢٠/٤٠١).

(٢) سيأتي الحديث عنه بالتفصيل وإبراز دوره وجهوده في سبيل استعادة مكانة الخلافة،

والمحافظة على ما حققه الخليفة المقتفي في هذا الجانب المهمّ.

ولعلّ من أبرز عوامل نجاح المقتفي في محاولاته تلك واستعادته المكانة والنفوذ للخلافة هو اهتمامه الكبير بالبريد^(١)، والذي كان يراقب من خلاله بداية الأحداث وتطوراتها في الداخل والخارج، ولا شك أنّ اهتمام الخليفة المسترشد والمقتفي بالبريد كان من أهم العوامل التي أدت إلى نجاحهما في محاولتهما، لاسيما وأن المقتفي كان يبذل الأموال الجزيلة لأصحاب الأخبار الذين يوافقون بها الخليفة^(٢)، سواء فيما يتعلق بتطورات الأحداث داخل العراق، أو تطوراتها في ظل الدولة الفاطمية العبيدية، وهذا ما يعمل به الخلفاء العباسيون في عصر القوة والنفوذ المتمثل في العصر العباسي الأول (١٣٢-٢٣٢هـ)^(٣)، مما كان له الدور الكبير والأثر

(١) من المعلوم أن السلاجقة أهملوا الاهتمام بالبريد، بل ألغوا ديوان البريد الذي كان الديوان الرئيسي في الدولة العباسية، حيث يقوم بجمع الأخبار من مختلف أجزاء الدولة فتصل الخليفة بسرعة، وقد أدى ذلك الإهمال إلى المساهمة في إضعاف الخلافة والسلطنة، وكان الخلفاء الأمويون والعباسيون الأوائل قد اهتموا بهذا الجانب كثيراً، وكذلك فعل الخليفة المقتفي لأمر الله، مما كان له دور كبير ومؤثر في متابعة الأحداث واستقرار الأوضاع، واستعادة مكانة الخلافة، والبريد: هو بث العيون في أنحاء الدولة كافة لإيصال الأخبار كبيرها وصغيرها إلى الخليفة. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى (٤١١/١٤).

(٢) أبو الفداء: المختصر (٣٧/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٤١/١٢)، القلقشندي: مآثر الأنافة (٣٧/٢).

(٣) انظر عن الدراسات الحديثة التي تناولت العصر العباسي الأول بالتفصيل (حسن الباشا: دراسات في تاريخ الدولة العباسية، دار النهضة العربية، القاهرة، (١٩٧٥م)،

البارز في استقرار الخلافة العباسية وقوتها ومتابعتها كل ما يجري على الساحة الداخلية والخارجية، والعمل على قمع كل حركة أو تمرد أو نحوه، قد يؤدي إلى حدوث خللٍ في الدولة أو أثرٍ قد يمتد خطره لزعزعة كيان الخلافة.

وهكذا، وبعد تلك الأعمال العظيمة، والمواقف المؤثرة في الأحداث المتلاحقة التي واكبت مُدّة خلافة المقتفي، يجدر بنا أن نُعدّ الخليفة المقتفي -كما ذكر المؤرخون- من الرجال ذوي الرأي والعقل والحكمة السياسية، وبعد النظر، وحسن التدبير، وهو أول من استبد بالعراق منفردًا عن سلطان يكون معه، وأول خليفة تمكن من الخلافة، وحكم على الجنود والأمراء، علاوة على شجاعته وإقدامه، ومباشرته الحروب بنفسه، كما يبذل الأموال العظيمة لأصحاب الأخبار في جميع أنحاء البلاد، حتى كان لا يفوته منها شيء، وكان لا يحدث أمرًا بدولته إلا بعلمه وتوقيعه عليه

أحمد الشامي: الدولة الإسلامية في العصر العباسي الأول، مكتبة الأنجلو المصرية، (ط٢، ١٩٨٦م)، حامد الفقي: الدولة العباسية، مكتبة فضة الشرق، مصر، (١٩٨٧م)، يوسف العث: تاريخ عصر الخلافة العباسية، دار الفكر، (ط١، ١٤٠٢هـ).

وإن كان صغيراً^(١)، مما يُدلل على شدة متابعته ويقظته لكل ما يجري من أمور وأحداث.

وكان الخليفة المقتفي لأمر الله قد حكم العراق -ولأول مرة- من أقصى الكوفة إلى حلوان^(٢)، ومن حدّ تكريت إلى عبّادان^{(٣)(٤)}، ويقول الأزدي: "وكانت دعوة المقتفي بالشام والحجاز والعراق وخرسان^(٥)."

(١) ابن الأثير: الكامل (٢٥٦/١١)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٤١/١٢)، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول (٣٦٣)، المقدسي: الروضتين (١٢٤/١)، ابن واصل: مفرج الكروب (١٣٣/١)، الأربلي: خلاصة الذهب المسبوك (٢٧٦).

(٢) حلوان: مدينة بين بغداد وهمدان، أكثر ثمارها التين والرمان، وفيها عدة عيون كبريتية يُنتفع بها من عدة أدواء. انظر: ياقوت: معجم البلدان (٢٩٠/٢)، القزويني: آثار البلاد (٣٥٧).

(٣) عبّادان: هي جزيرة تحت البصرة، مثلثة الشكل، ومن عجائبها أن لا زرع بها ولا ضرع. القزويني: آثار البلاد (٤١٩).

(٤) ابن العمري: الأبناء في تاريخ الخلفاء (٢٢٥)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق (٢١٥)، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول (٣٦٣)، ابن واصل: مفرج الكروب (١٣٣/١)، المقدسي: الروضتين (١٢٤/١)، الأربلي: خلاصة الذهب المسبوك (٢٧٦).

(٥) الأزدي: أخبار الدول المنقطعة ص (٢٩٩).

وفي شهر ربيع الأول سنة (٥٥٥هـ)^(١) توفي الخليفة المقتفي لأمر الله بعد حياة حافلة بالنضال ضد تسلط السلاجقة واستبدادهم، وقد أجمع المؤرخون على شجاعته وحسن تدبيره، وقدرته الفائقة على تصريف الأمور^(٢)، وكان حريصاً كل الحرص على تتبع ما يجري في البلاد حتى لا يقوته شيء، ويصفه ابن العماد موضحاً ضبط الخليفة المقتفي لأمر دولته: "وكان لا يجري في دولته أمرٌ إلا بتوقيعه"^(٣).

وهكذا نجح المقتفي إلى حد بعيد في استعادة ما فقدته الخلافة العباسية من مكانة وهيبة واحترام، كما تمكن من تثبيت سلطتها ونفوذها على معظم أجزاء العراق^(٤)، وقد أثبت الخليفة المقتفي من خلال المواقف والأحداث المتقدمة مدى كفاءته وجدارته بمنصب الخلافة، والنهوض بها، وتحقيق ما تتطلع إليه من القوة والنفوذ والهيبة، مستمداً العون والتوفيق من

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٠/١٩٧)، ابن الأثير: الكامل (١١/٢٥٦)، الحسيني: أخبار الأمراء والملوك السلجوقية (٢٦٨)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٢٠/٤١٢)، الإعلام بوفيات الأعلام (٢٢٨)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/٢٤١)، ابن دقماق: الجوهر الثمين (١/٢٠٨)، السيوطي: تاريخ الخلفاء (٤٤٠)، القرمانلي: أخبار الدول (١٧٦).

(٢) مثل ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص (٣٣٢)، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص (٣٦٣)، أبو الفداء: المختصر (٣/٣٧)، ابن خلدون: العبر (٣/٥٢٢).

(٣) ابن العماد: شذرات الذهب (٤/١٧٢).

(٤) الزهراني: نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية (١٥٥).

الله العزيز الحكيم، وقد تحقق له ذلك بصبره وجهده وحكمته وحسن اختياره مستشاريه وعدم تسرعه بعد توفيق الله تعالى له^(١). وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة^(٢)، وعمره ست وستون سنة سوى ثمانية وعشرين يوماً^(٣).

الخليفة المستنجد بالله (٥٥٥-٥٦٦هـ):

هو: أبو المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله محمد بن المستظهر بن المقتفي العباسي^(٤).

(١) السامرائي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي (٣٠١).
 (٢) يتفق ذلك مع ما جاء في: -موجز تاريخ الإسلام لابن حزم (٦٣)، والمنظم (٩٧/١٠)، والكمال (٢٥٦٩/١١)، والنجوم الزاهرة (٣٣٣/٥)، ويختلف مع ما جاء في العبر (٢٥/٣)، ودول الإسلام (٢٨٩٩)، وسمط النجوم العوالي (٣٧٥/٣)، حيث ذكر هؤلاء أن خلافته كانت خمساً وعشرين سنة، وشذ القزويني في كتابه "أخبار الدول وآثار الأول" (١٧٦)، حيث ذكر أن خلافته كانت ثلاثاً وعشرين سنة.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (١٩٧/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٤١/١٢)، الذهبي: العبر (٢٤/٣)، وعند المكي: سمط النجوم العوالي (٣٧٥/٣)، "أن عمره سبع وستون سنة، وقيل: وشهر واحد".

(٤) انظر عن الخليفة المستنجد بالله: ابن الجوزي: المنتظم (١٩٢/١٠)، الأزدي: أخبار الدول المتقطعة (٣٠٤)، ابن الأثير: الكامل (٢٥٦/١١)، ٣٦٠، ٣٦٢، أبو شامة: الروضتين (١٩٠/١)، ابن واصل: مفرج الكروب (١٩٣/١)، ابن طباطبا: الفخري (٣١٦)، الأربلي: خلاصة الذهب المسبوك (٢٧٦)، الذهبي: سير أعلام النبلاء

عقد له والده بولاية العهد سنة (٥٤٢هـ)^(١).

وبويع بالخلافة بعد وفاة أبيه سنة (٥٥٥هـ)، بايعه أهله وأقاربه أولاً، ثم الوزير ابن هبيرة، وقاضي القضاة علي بن أحمد الدامغاني^(٢)، ثم القضاة والعلماء والأمراء وأرباب الدولة^(٣).

وقد وصفه مؤرخو عصره ومن تلاهم بالصفات الحميدة، والفهم الثاقب والرأي الصائب، والذكاء والفضل والمعرفة بالنظم والنثر والفلك، وذكروا أنه كان من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية، عادلاً فيهم، كثير الرفق بهم، أزال كثيراً من المكوس والضرائب، ولم يترك بالعراق منها

(٢٠/٤١٢)، اليافعي: مرآة الجنان (٣/٣٧٩)، ابن خلدون: العبر (٣/٥٣٥)، ابن دقماق: الجواهر الثمين (١/٢١٠)، القلقشندي: مآثر الأناقة (٢/٤٤)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٥/٣٨٦٩)، المكي: سمط النجوم العوالي (٣/٣٧٥).

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٠/١٢٥)، ابن الأثير: الكامل (١١/١٢٣)، الكتبي: عيون التواريخ (١٢/٤٢١)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/٢٢٢).

(٢) هو أبو الحسن علي بن أحمد الدامغاني الحنفي، كان قوفاً محتشماً، ولي القضاء بعد موت الزينبي خلافة المفتي، ثم للمستنجد بالله، ثم عزل وأعيد في أيام المستضيء، واستمر كذلك في أيام الناصر إلى أن توفي سنة (٥٨٣هـ). (ابن الأثير: الكامل (١١/٥٦٣)، الذهبي: العبر (٣/٨٦)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/٣٢٩)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٦/١٠٤-١٠٥).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (١٠/١٩٢)، ابن الأثير: الكامل (١١/٢٥٧)، الذهبي: العبر (٣/٢٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/٢٤١).

شيئاً، وكان شديداً على أهل العبت والفساد، والسعاية بالناس^(١)، وذكر بعض المؤرخين نموذجاً يدل على شدته على المفسدين، وحرصه على زجرهم وتأديبهم، حيث ذكروا أنه قبض على إنسانٍ كان يسعى بالناس فسجنه، وأطال سجنه، فشفع فيه رجل وبذل عشرة آلاف دينار في سبيل إطلاق سراحه، فقال له الخليفة المستنجد بالله: "أنا أعطيك عشرة آلاف دينار، وتحضري إنساناً آخر مثله لأكف شره عن الناس ولم يطلقه"^(٢).

وفي هذا الموقف دليل واضح على قوة شخصيته واهتمامه برعيته، وحرصه على دوام الأمن والاستقرار بين الناس والقبض على المفسدين والعاثين والشدة عليهم، لما في ذلك من آثار عظيمة تعود على الجميع بالخير والنفعة، وفي الوقت نفسه دليل على قيامه بواجبه ومسؤولياته المنوطة به خليفة للمسلمين وقائداً لهم.

ومن جملة اهتمامه أيضاً بالرعية وحرصه على توثيق الصلة بهم، قيامه برد الأموال التي غُصبت من أصحابها، كما سجن أناساً كانوا يتسلطون على الرعية بالظلم وأخذ الأموال بغير حق، منهم القاضي ابن

(١) ابن حزم: موجز تاريخ الإسلام - تنمة المحقق - (٦٤)، ابن الجوزي: المنتظم (١٩٣/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٣٦٢/١١)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤١٤/٢٠)، المكّي: سمط العوالي (٣/٣٧٥)، القرمانى: أخبار الدول (١٧٧).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٣٦٢/١١)، الكتبي: عيون التواريخ (٥٢٢/١٢)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤١٤/٢٠)، القرمانى: أخبار الدول (١٧٧)، محمد الخضيرى: الدولة العباسية (٤٦٤).

المرخم الذي قبض عليه وأخذ منه مالٌ كثير، وأعيد إلى أصحابه الشرعيين، ثم أمر بحبسه ومصادرة ممتلكاته، وحرق مكتبته، وذلك سنة (٥٥٥هـ)، وكان ابن المرخم - كما يذكر البعض - ظالمًا جائرًا في أحكامه، أخذًا للرشوة، وقد مات في سجنه^(١).

كما أفرج الخليفة المستنجد عن جماعة كانوا قد سجنوا لمطالبتهم بسداد أموالٍ عليهم، حيث تحمل عنهم تلك الأموال، وأطلق سراحهم^(٢)، مما يدل على شدة متابعته، وإحساسه بمسؤوليته، وقوة صلته برعيته.

وكان الخليفة المستنجد بالله كثير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد وصفه ابن كثير بقوله: "كان من خيار الخلفاء وأعداهم، وأرفقهم بالرعايا، وكان أمارًا بالمعروف، نهاءً عن المنكر"^(٣).

وهذه الأعمال العظيمة والجهود المتقدمة تدل على تمسكه بدينه، وشدة تقواه من الله تعالى، واهتمامه الكبير بالرعية وحرصه على توفير وسائل الأمن والسعادة لهم، وتوثيق الصلة بهم، وشدته على المفسدين والعابثين بأمن الناس وممتلكاتهم، فكان كما وصفه الذهبي والسيوطي

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٠/١٩٤)، ابن الأثير: الكامل (١١/٣٦٢)، ابن دقماق: الجواهر الثمين (١/٢٠١).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (١٠/١٩٤).

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/٢٦٢).

وغيرهما "يتمتع بالفهم الثاقب والرأي الصائب، والذكاء الغالب، والفضل الباهر"^(١).

إضافة إلى ما تقدم كان للخليفة المستنجد نفوذ واسع في الجانب الإداري، لما له من أهمية كبيرة في متابعة الأحداث واستقرار الأمور، ولذلك نجده قد أقر الوزير العالم ابن هبيرة في وزارته ووعده بذلك إلى الممات^(٢)، نظرًا لسيرته الحسنة، وإخلاصه وتفانيه في خدمة الخلفاء العباسيين، واستوزر شرف الدين أبا جعفر "أحمد بن محمد بن سعيد" المعروف بابن البلدي، ولُقب بالوزير "شرف الدين جلال الإسلام معز

(١) سير أعلام النبلاء (٤١٨/٢٠)، تاريخ الخلفاء (٤٤٣)، وقد علق الذهبي رحمه الله بعد ذكره العبارة السابقة بتعليق جيد قال فيه: "الإمام إذا كان له عقل جيد، ودين متين، صلح به أمر الممالك، فإن ضعف عقله وحسنت ديانتها، حمله الدين على مشاورة أهل الحزم، فتسدت أموره، ومشت الأحوال، وإن قل دينه ونبل رأيه تعبت به البلاد والعباد، فإن نقص رأيه وقل دينه وعقله، كثر الفساد وضاعت الرعية...". ثم يقول: "ونحن آيسون اليوم من وجود إمام راشد من سائر الوجوه، فإن يسر الله للأمة بإمام فيه كثرة محاسن، وفيه مساوئ، قليلة، فمن لنا به، اللهم فأصلح الراعي والرعية، وارحم عبادك ووفقهم وأيد سلطانهم وأعنه بتوفيقك". (سير أعلام النبلاء (٤١٨/٢٠)، وهذا كلام عظيم قيم يدل على فقه الذهبي رحمه الله وإخلاصه لدينه وحرصه على مصلحة أمته وتجنّبها الفتن، ولفائدته ذكرته هنا لمناسبته وأهميته.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (٢٤١/١٢)، وانظر: البنداري: تاريخ آل سلجوق

الدولة، سيد الوزراء، صدر الشرق والغرب"، وكان قد تولى الوزارة للخليفة المستنجد سنة (٥٦٣هـ)^(١)، في الوقت الذي كان عضد الدين أبو الفرج "محمد بن عبد الله بن هبة الله بن أبي القاسم علي بن المسلمة البغدادي"^(٢)، قد تحكم تحكماً عظيماً، فخشى الخليفة من طموحاته، فأمر الوزير ابن البلدي بكف يده، وأيدي أهله وأصحابه، ففعل، وبذلك تخلص الخليفة من نفوذه^(٣)، حيث كان يشغل منصب "أستاذ دار الخليفة"^(٤).

(١) ابن الأثير: الكامل (٣٢٢/١١)، ابن طباطبا: الفخري (٣١٧)، ابن خلدون: العبر

(٢/٣/٦٤٨)، وانظر ترجمة ابن البلدي وكيفية مقتله سنة (٥٦٦هـ) في: (ابن

الجوزي: المنتظم (٢٣٣/١٠)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤٧٠/٤).

(٢) عضد الدين: هو الابن الأكبر للوزير الكبير رئيس الرؤساء أبي القاسم علي بن

المسلمة البغدادي، كان والده أستاذ دار الخليفة المقتفي إلى أن توفي سنة

(٥٤٩هـ)، فأخذ ابنه عضد الدين مكانه في خلافة المقتفي والمستنجد، ولما ولي

الخليفة المستضيء استوزره وعظم شأنه ثم عزل، ثم أعيد، وقتل وهو في طريقه إلى

الحج سنة (٥٧٣هـ) على أيدي الباطنية، وكان يحفظ القرآن، وكانت داره مجمعا

للعلماء. انظر حول ترجمته: المنتظم (٢٨٠/١٠)، الكامل (٤٤٦/١١)، الروضتين

(٢٧٨/١)، سير أعلام النبلاء (٧٥/٢١).

(٣) ابن الأثير: الكامل (٣٣٢/١١).

(٤) أستاذ الدار: كان هو المسؤول عن دار الخليفة ونفقاتها ونفقات ما فيها من الحاشية

والغلمان، وهو الذي يحمل أوامر الخليفة، وعُرفت هذه الوظيفة في عهد العباسيين،

ويشرف صاحبها على دار الخليفة والسلطان، ويعمل على مراعاة الآداب فيه، وقد

ولقد صرف الخليفة المستنجد بالله جهده في تثبيت سلطان الخلافة في العراق، والمحافظة على مكانتها، ومواصلة جهود من سبقه من الخلفاء في هذا الجانب، فقد سار المستنجد على نهج والده المقتفي وخطاه في إدارة الدولة، والوقوف في وجه تسلط السلاجقة واستبدادهم، والحد من نفوذهم، فقد كتب للسلطان السلجوقي "سليمان شاه" يطلب منه إقامة الخطبة له في سائر البلدان التابعة للسلاجقة، فلم يمانع السلطان في ذلك، وخطب للمستنجد في جميع البلاد التي كانت تدين له بالطاعة^(١)، وفي ذلك يقول البنداري^(٢): "ووقفت في أنفسهم -أي السلاجقة- من بغداد الهيبة، ومن حصولها الخيبة، فلم يقدم ملك إليها، ولا سلطان عليها". كذلك لم يلبّ الخليفة المستنجد ما طلب منه بعض سلاطين السلاجقة أو أمرائهم بالخطبة لهم في بغداد^(٣)، مما يؤكد استقلال الخلافة في بغداد، وتعزيز هيبتها، واستعادة مكانتها.

انتقلت هذه الوظيفة إلى الفاطميين ثم الأيوبيين. انظر: الصابي: رسوم دار الخلافة (٧٧)، القلقشندي: صبح الأعشى (٤٥٧/٥)، المقرئ: الخطط (٢٢٢/٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٢٦٧/٥)، حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف (٧١/٢١)، حاشية رقم ٤).

(١) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق (٢٦٨)، وكان ذلك سنة (٥٥٥هـ).

(٢) نفسه (٢٦٨).

(٣) ابن الأثير: الكامل (٢٦٩/١١)، السامرائي: تاريخ الدولة الإسلامية في العصر

العباسي (٣٠٢).

كما واجه الخليفة المستنجد الكثير من الحركات الداخلية التي قام بإخمادها والقضاء عليها سواء فيما يتعلق بحركات النهب والفساد كالتي قامت بها قبيلة خفاجة، وغيرها من القبائل حينما هبوا سواد الكوفة والحلة سنة (٥٥٦هـ-)، ولكن المستنجد نجح في تأديب القبائل المتحالفة وملاحقتهم حتى اضطروا إلى عقد الصلح وطلب العفو، فأجيبوا إلى ذلك^(١)، وقد أدى الوزير ابن هبيرة دورًا بارزًا في تأديبهم وإرغامهم على الصلح.

كذلك نجح الخليفة المستنجد في الاستيلاء على قلعة الماهكي -من أعمال بغداد- والتي كان يسيطر عليها التركمان والأكراد، فاشتراها منهم بخمسة عشر ألف دينار، وسلاح وأمتعة وعدد من القرى، وجدير بالذكر أن هذه القلعة كانت بأيدي الأكراد والتركمان من خلافة المقتدر بالله (٢٩٥-٣٢٠هـ-) إلى أن امتلكها الخليفة المستنجد سنة (٥٥٧هـ-)^(٢).

كما قضى المستنجد على خطر عظيم أيام خلافته طالما كان يهدد بغداد، ويُسبب قلقًا شديدًا للخلافة، ألا وهو خطر بني مزيد الأسديين^(٣)

(١) ابن الأثير: الكامل (٢٧٦/١١-٢٧٧)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٤٤/١٢).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٢٨٦/١١).

(٣) بنو مزيد: بطن من بني أسد بن خزيمه من العدنانية، وهم النازلون بالحلة السيفية على الفرات، كانوا ملجأً للاجئين، وكنف المستضعفين، وملكهم للاجئيء ظهير،

الذين استغلوا ضعف الخليفة العباسي وهيمنة سلاطين السلاجقة في المدّة الماضية، خاصة تلك التي سبقت خلافة المقتضي والمسترشد، وكان هؤلاء قد ساعدوا السلطان محمد لما حاصر بغداد سنة (٥٥١هـ)، وقد توجه جيش الخلافة إلى الحلة سنة (٥٥٨هـ)، وتمكن من التضييق عليهم، وسد طرقهم في الماء، فاضطروا إلى الاستسلام، وقتل منهم أربعة آلاف قتيل - كما تذكر الروايات - ونودي فيمن بقي منهم أن من وجد بعد هذا في الحلة المزيدية فقد حلّ دمه، ففرقوا في البلاد، ولم يبق منهم أحد، ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك^(١).

إضافة إلى ما تقدم، قام الخليفة المستنجد بمواجهة أطماع شمله^(٢) -صاحب خوزستان- الذي وصل إلى قلعة الماهكي، وأرسل إلى الخليفة

وأثرهم في الخيرات أثر ... وما برحت دولتهم وظلهم يقلص إلى أن اضمحلت.
الأصفهاني: الخريدة (١٥٣/٤)، عمر كحالة: معجم قبائل العرب (١٠٨٢/٣).
(١) ابن الأثير: الكامل (٢٩٦-٢٩٧)، الذهبي: دول الإسلام (٢٩١)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٤٦/١٢)، ابن خلدون: العبر (٦٤٦/٣).
(٢) شمله: أمير تركي كان قد تغلب على بلاد فارس وعظم شأنه، وبني عدة حصون وقلاع، حارب الملوك، وهب المسلمين، وكان يخطب للخليفة، حاربه بعض التركمان فقتلوه سنة (٥٧٠هـ)، وفرح بمصرعه لأنه كان ظالماً جباراً، وكانت أيامه عشرين سنة. ابن الأثير: الكامل (٤٢٣/١١)، الذهبي: العبر (٥٩/٣)، وسير أعلام النبلاء (٦٤/٢١)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٩١/١٢).

يطلب جزءاً من البلاد، ويشتط^(١) في الطلب، فلم يجبه الخليفة إلى طلبه، بل أرسل إليه العالم "يوسف الدمشقي" يلومه ويحذره من عاقبة فعله، وينصحه بالعودة إلى بلاده، ولكنه لم يأبه بذلك، فاضطر المستنجد أن يجهز جيشاً بقيادة "أرغش المسترشدي"^(٢) الذي استطاع أن يهزم طائفة من عسكر شمله، وأسر البعض الآخر، فسيرهم إلى بغداد، وبقي شمله مقيماً مقابل الخليفة إلى أن يمس من تحقيق مآربه وأهدافه، وأدرك أنه لا قدرة له عليهم، عندئذ رحل إلى بلاده بعد أن غاب عنها أربعة أشهر، وكان ذلك سنة (٥٦٢هـ)^(٣).

وهكذا يتضح لنا من خلال هذه الأعمال والجهود والمواقف العظيمة التي قام بها الخليفة المستنجد بالله، هيمنة الخلافة وبسط نفوذها واستعادة مكانتها، والتصدي لأطماع السلاجقة وأمرائهم وأتابكتهم^(٤) في

(١) اشتط في الطلب: أي أمعن وبالغ، ومنه قوله: اشتط في سلعته شططاً أي جاوز القدر المحدد وتباعد عن الحق. الفيروز أبادي: القاموس المحيط (٣٨٢).

(٢) أرغش المسترشدي: قائد تركي، كان مقدماً على العساكر، وأميراً للحج سنين عديدة، خرج لملاقاة شمله التركماني فسقط عن فرسه فمات سنة (٥٦٢هـ). ابن كثير: البداية والنهاية (٢٥٣/١٢).

(٣) للتفاصيل حول ذلك انظر: (ابن الجوزي: المنتظم (٢٢٠/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٣٢٨/١١)، ابن خلدون: العبر (٦٤٧/٣).

(٤) الأتابكة: جمع أتابك وهو لفظ تركي معناه "الوالد الأمير" أو "مربي الأمير" وأول من لقب بهذا اللقب هو الوزير نظام الملك، وقد تحول هذا اللقب إلى لقب عسكري

التسلط والاستبداد الأمور كما كان يحدث سابقاً^(١)، ولاشك أن يقظة المستنجد وإدراكه للأمور، وفهمه وذكائه وآرائه الصائبة، واستغلاله الأحداث والظروف، واستفادته من تجربة والده، ومحافظة على إنجازاته ومجهوداته في سبيل استعادة وإعادة النفوذ والمكانة التي فقدتها رداً من الزمن، وقد نجح كثيراً في تحقيق هذا الهدف العظيم الذي سعى إليه أكثر الخلفاء الأوائل في العصر السلجوقي، ولكن لم يخالفهم التوفيق لأسباب وظروف ذكرناها في موضعها^(٢).

وكانت وفاة الخليفة المستنجد بالله في شهر ربيع الآخر سنة (٥٦٦هـ)، وسبب موته كما تذكر بعض الروايات أنه مرض واشتد

في عصر الماليك، فأصبح يطلق على القائد العام في الجيش. انظر: ابن الأثير: الكامل (٨٠/١٠)، القلقشندي: صبح الأعشى (١٨/٤)، حسن الباشا: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار (١٢٢-١٢٤)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني (٣٢٣/٤)، علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام (٤٦٩)، علي عبد الحليم محمود: الغزو الصليبي والعالم الإسلامي (١٩١-١٩٢)، عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي (٦٩).

- (١) يؤكد ذلك قول ابن حزم: "ولم يكن للسلاجقة في زمنه سلطان على العراق، بل استقل بأمرها الخليفة". موجز تاريخ الإسلام (٦٤).
- (٢) راجع تقويمنا لخلافة القائم والمقتفي والمستظهر.

مرضه، فتآمر عليه أستاذ الدار عضد الدين، وقايماز^(١)، ويزدن^(٢)، وغيرهم، وكانوا من أكابر الأمراء في بغداد، بمساعدة طيب الخليفة، حيث حملوه إلى الحمام وهو يستغيث، فألقوه وأغلقوا عليه الباب وهو يصبح إلى أن مات^(٣)، وقيل إنّه مات مسموماً، سمّه أحد المماليك، وقيل: إنه قايماز^(٤).

(١) قايماز بن عبد الله، قطب الدين المستنجد، كان مملوكاً للمستنجد، ثم عظم شأنه حتى أصبح مقدم الجيش في خلافة المستضيء، فأراد الخروج على الخليفة، فأمر الخليفة بنهب داره والقبض عليه، توفي سنة (٥٧٠هـ). ابن الجوزي: المنتظم (٢٥٥/١٠)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٦٦/٢١).

(٢) يزدن: أمير تركي، من كبار أمراء بغداد المتحكمين في الدولة، كان رافضياً متعصباً، تأذى منه أهل السنة كثيراً إلى أن أراح الله المسلمين منه فمات سنة (٥٦٨هـ) بعد مرض لم يمهل طويلاً. ابن الجوزي: المنتظم (٢٤٢/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٣٩٥/١١)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٧٢/١٢).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (٢٣٦/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٣٦٠/١١)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٦٢/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٣٨٦/٥).

(٤) ابن دقماق: الجواهر الثمين (٢١٠/١-٢١١).

وكانت مدة خلافته إحدى عشرة سنة^(١)، وعمره ثمان وأربعون سنة^(٢).

— الخليفة المستضيء بأمر الله (٥٦٦-٥٧٥هـ):

لما توفي الخليفة المستنجد بالله سنة (٥٦٦هـ) خلفه ابنه : أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله يوسف بن المقتفي محمد بن المستظهر أحمد بن المقتدي العباسي، ولقب بالمستضيء بأمر الله^(٣).

وقام بأمر البيعة له أبو الفرج عضد الدين ابن رئيس الوزراء الذي كان له نفوذ آنذاك، وقد استوزره المستضيء، وعين قطب الدين أميراً على الجيش، وروح بن أحمد الحديثي^(٤)

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٣٦/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٦٢/١٢)، أما في الكامل لابن الأثير (٣٦٠/١١) "كانت خلافته إحدى عشرة سنة وشهراً وستة أيام".

(٢) الذهبي: العبر (٤٨/٣)، القرمانى: أخبار الدول (١٧٧).

(٣) انظر عن المستضيء وأخباره: ابن الجوزي: المنتظم (٢٣٣/١٠)، المصباح المضيء في خلافة المستضيء، ابن الأثير: الكامل (٤٥٩/١١)، ابن العري: تاريخ مختصر الدول (٣٧٧)، ابن طباطبا: الفخري (٣١٩)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٦٨/٢١)، العبر (٦٨/٣)، ابن خلدون: العبر (٦٥٢/٣)، القلقشندي: مآثر الأناقة (٥٠/٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٨٥/٦)، السيوطي: تاريخ الخلفاء (٤٤٤)، القرمانى: أخبار الدول (١٧٧).

(٤) هو أبو طالب، روح بن أحمد بن محمد الحديثي، كان متديناً حسن الطريقة، عفيفاً نزيهاً، ولآه المستضيء القضاء بعد امتناع شديد، ولم يزل على القضاء حتى توفي

قضاء القضاة^(١).

وقد أثنى المؤرخون على الخليفة المستضيء، ووصفوه بالصفات الحميدة، فقد ذكر لنا معاصره ابن الجوزي شيئاً من ذلك فقال: "بُوع المستضيء فنودي برفع المكوس ورد المظالم، وأظهر من العدل والكرم ما لم نره من أعمارنا، وفرق أموالاً عظيمة على العلويين والعلماء والأربطة، وكان دائم البذل للمال ليس له عنده وقع"^(٢). ووصفه ابن الأثير بقوله: "كان عادلاً حسن السيرة في الرعية، كثير البذل للأموال، وكان الناس معه في أمن عام، وإحسان شامل، وطمأنينة وسكون لم يروا مثله، وكان قليل العاقبة على الذنوب، محباً للنفوس والصفح عن المذنبين، فعاش حميداً، ومات سعيداً، ثم قال: وكانت أيامه كما قيل:

وكان أيامه من حسن سيرته مواسم الحج والأعياد والجمع^(٣)

توفي سنة (٥٧٠هـ). الذهبي: سير أعلام النبلاء (٥٠/٢١)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٩١/١٢).

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٣٣/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٣٦١/١١)، ابن كثير:

البداية والنهاية (٢٦٢/١٢)، السيوطي: تاريخ الخلفاء (٤٤٥).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٢٣٣/١٠).

(٣) ابن الأثير: الكامل (٤٥٩/١١).

ويقول ابن دحية: "وفرق من أمواله أموالاً جسيمة حتى عم أكثر الناس من الأشراف والفقهاء والعلماء والغرباء، فرد الشريد، وأغنى الفقير، وأمن الخائف"^(١).

ووصفه الذهبي بقوله: "كان ذاحلم وأناة، ورأفة وبر وصدقات"^(٢).
ويقول ابن دقماق: "فاستضاءت الدنيا ببيعته، وهاجر الناس إلى بغداد لعدله وحسن سيرته، فأمر بإطلاق المسجونين، وفرق أموالاً جزيلة، وعم أكثر الناس جوده وفضله، ففرق الخلع والثياب النفيسة على أكثر الناس، ورد الشريد، وأغنى الفقير"^(٣).

وكان الخليفة المستضيء كما ذكر ابن كثير وابن العماد والمكي: "من خيار الخلفاء، أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، جواداً كريماً مؤثراً للخير، كثير الصدقات، سخياً رحيماً ليناً، محباً للسنة، أمنت البلاد في زمانه، مزيلاً عن الناس المكوسات والضرائب، مبطلاً البدع والمعائب"^(٤).
وهذه الأقوال مجتمعة تدل على أن الخليفة المستضيء كان رجلاً تقياً يخشى الله تعالى في رعيته، ويحرص على توثيق الصلة بهم، والتخفيف

(١) ابن دحية: النبراس في تاريخ بني العباس (١٥٩)، الأزدي: أخبار الدول المتقطعة (٣٠٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (٦٨/٢١).

(٣) الجوهر الثمين (٢١٢/١).

(٤) البداية والنهاية (٣٠٤/١٢)، شذرات الذهب (٢٥٠/٤)، سمط النجوم العوالي (٣٧٧/٣).

عنهم، وما يعود عليهم بالخير والنفعة، رغم أنه لم يكن كثير الاتصال بالناس، بل كان يحتجب عن أكثرهم، ولا يدخل عليه إلا خدمه الخاصون به^(١)، ومع ذلك كان متواضعًا حليمًا، لأنه كان يفقه ويدرك منزلة المتواضع عند الله تعالى ومكانته، من قول الرسول ﷺ الدال على ذلك، في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه: "ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله رجلاً بعفوٍ إلا عزاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله"^(٢).

وكان الخليفة المستضيء شديد الاهتمام بالجانب الديني، والذي أولاه الخلفاء العباسيون بصفة عامة اهتمامًا كبيرًا وحرصًا شديدًا، رغم ما يكتنفهم أحيانًا من ظروف سياسية واجتماعية ومذهبية، لذلك نجد أن الخليفة المستضيء كان حريصًا على القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة العدل، ومحاربة الظلم، ودعم أهل السنة، ومحاربة أهل البدع والأهواء، والفرق الضالة، والتيارات المنحرفة، فعندما أكثر

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٣٤/١٠)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٦٩/٢١)، السيوطي: تاريخ الخلفاء (٤٤٥)، السامرائي: تاريخ الدول العربية الإسلامية في العصر العباسي (٣٠٢-٣٠٣).

(٢) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة (٢٠٠١/٤)، سنن الترمذي (٣٧٦/٤)، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في التواضع، وانظر أيضا موطأ الإمام مالك (٢٨٧/٢)، باب الصدقة.

الرافضة^(١) من سب الصحابة، وتنقصهم سنة (٥٧١هـ)، أمر الخليفة المستضيء على الفور بأن من يقبض عليه يتنقص الصحابة ويحط من قدرهم ومكانتهم، فسوف يعاقب بعقوبات شديدة، منها سجنه ونقض داره، فلما رأى الرافضة ذلك كفوا عن عملهم، وامتنعوا من سب الصحابة رضي الله عنهم وانتقاصهم^(٢).

وفي سنة (٥٧٤هـ) قبض على رجل رافضي يُقال له أبو السعادات ابن قرايا، حيث وجدوا عنده كتباً كثيرة فيها سب الصحابة وانتقاصهم والنيل منهم، فأخذ وعُوقب وقُطعت يده، ثم ضربه العوام حتى مات،

(١) الرافضة: الرفض في اللغة الترك. (القاموس المحيط (٢/٣٤٤)، وفي الاصطلاح: هم الذين رفضوا إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، قال عبد الله بن الإمام أحمد: سألت أبي من الرافضة؟ قال: الذين يشتمون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما. ابن تيمية: الصارم المسلول على شاتم الرسول (٥٦٧)، ويرى جمهور المحققين والمحدثين أن إطلاق هذه التسمية على الرافضة يعود إلى زمن زيد بن علي حين خرج على هشام بن عبد الملك سنة (١٢١هـ)، وقد منع بعض جنوده أن يطعن في أبي بكر وعمر، فرفضوه، ولم يبق معه إلا القليل، فقال لهم: رفضتموني، قالوا: نعم، فسموا الرافضة. انظر للتفاصيل حول الرافضة: ابن حزم: الفصل (٢/٧٨)، الشهرستاني: الملل والنحل (١/١٥٥)، الأشعري: مقالات الإسلاميين (١/١٣٧)، الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (٥٢)، ابن تيمية: مجموع الفتاوى (٣٦/١٣)، ومنهاج السنة (١/٣٥)، تحقيق محمد رشاد سالم، وعن فرق الرافضة وأقسامها انظر: البغدادي: الفرق بين الفرق (٢١-٢٣).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (١٠/٢٥٩).

ففرع بعض الروافض، فأخذوا يحرقون كتبنا عندهم، خوفاً من أن يلقوا المصير نفسه الذي لقيه ابن قرايا^(١).

وهذه المواقف تؤكد اهتمام الخليفة المستضيء بالجانب الديني، وقمع المتدعة وأصحاب الفرق الضالة وإهانتهم ومعاقبتهم، ولذا يقول ابن الجوزي معلقاً على تلك المواقف: "وخدمت جمرهم - أي الروافض - وصاروا أذل من اليهود"^(٢)، وحول ذلك يقول الذهبي أيضاً: "وفي أيامه اختفى الرفض ببغداد وبمصر وضعف، وظهرت السنة، وحصل الأمن"^(٣).

ومن مواقفه أيضاً الدالة على اهتمامه بالجانب الديني ما حدث سنة (٥٧٣هـ) عندما تسلط اليهود على بعض مسلمي المدائن، وتأذوا منهم، وحضر قوم من مسلمي المدائن إلى بغداد فشكوا من يهودها، فأمر الخليفة صاحب المخزن ابن العطار^(٤) بجسهم عقوبة لهم، وبهدم كنيستهم التي

(١) نفسه (٢٨٦/١٠).

(٢) نفس المصدر (٢٨٦/١٠).

(٣) سير أعلام النبلاء (٦٨/٢١)، وانظر كذلك اليافعي: مرآة الجنان (٤٠١/٣).

(٤) هو ظهير الدين، أبو بكر بن منصور بن نصر بن الحسين، المعروف بابن العطار، كان خيراً حسن السيرة، كثير العطاء، قبض عليه سنة (٥٧٥هـ) بعد بيعة الخليفة الناصر لدين الله، ثم قُتل بعد أن عُدب وأهين وجماعة من أصحابه، قال عنه الذهبي: "كان ابن العطار نقمة وعداباً على الرافضة". انظر: ابن الأثير: الكامل (٤٥٩/١١)،

بالمدائن وجعلها مسجداً، نكاية بهم^(١).

كما أمر أيضاً بصلب جماعة من المفسدين في الأرض سنة (٥٧٣هـ)، وتطبيق حكم الله تعالى فيهم كي يُعَدُّ أمثالهم، فيمتنعوا عن الفساد وتخويف الناس، وتهديد الأمن، وانتشار الفوضى.

ولاشك أن هذه الأعمال والجهود العظيمة تدل دلالة واضحة على مناصرة المستضيء أهل السنة، ودعمه لهم ومحاربتهم أهل البدع والأهواء والفرق الضالة، وقمع المجرمين والمفسدين والشدة عليهم، ومعاقبتهم.

ومن أهم الأحداث السياسية في عهده، تأكيد طاعة وولاء المجاهد "نور الدين محمود بن زنكي" للخلافة العباسية، وتجديد العلاقة معه، وتوطيدها، لما في ذلك من آثار عظيمة لمضاعفة الجهود والتصدي للصليبيين، ودعم المجاهدين المخلصين لجهادهم ضد الأعداء، ولذلك نجد أن المستضيء يرسل إلى نور الدين الخلع دائماً، وكذلك عبارات التهنية بالانتصارات التي يحققها، كتلك التي أرسلها له وهو يحاصر الموصل سنة

محمد بن تقي الدين الأيوبي: مضمرة الحقائق وسر الخلائق (٣)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٨٤/٢١).

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٧٥/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٤٤٧/١١-٤٤٨)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٩٨/١٢).

(٥٦٦هـ)^(١)، وكذلك التقليد الذي أرسله له سنة (٥٦٨هـ) بولاية ما بيده من البلاد مثل مصر والشام والجزيرة وخراسان^(٢) وبلاد قلعج أرسلان^(٣)، وديار مصر، وما جاور ذلك^(٤)، مما يُدلل على عمق العلاقة وتوثيق الصلة بين الخليفة والمجاهدين من أمراء المسلمين وجنودهم، وتأيد نور الدين وتشجيعه لما يواجهه من صعوبات ومشاق في جهاده ضد أعداء الله^(٥)، وفي هذا دلالة أيضًا على متابعة الخليفة لأمر المسلمين

(١) للتفاصيل في حصاره للموصل واستيلائه عليها انظر: ابن الأثير: الكامل (٣٦٢/١١)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٦٣/١٢).

(٢) خراسان: مدينة كبيرة مشهورة، وهي قصبة بلاد أرمينية، ذات خيرات ومياه كثيرة. القزويني: أثار البلاد (٥٢٤)، ياقوت: معجم البلدان (٣٨٠/٢).

(٣) بلاد قلعج أرسلان: من البلدان التي حكمها صلاحية الروم وهي مليطة وسيواس وأقصر ونيكسار، وغيرها. ابن الأثير: الكامل (٣٩١/١١)، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية (١٧٣-١٨١-١٨٢).

(٤) ابن الأثير: الكامل (٣٩٢/١١-٣٩٥).

(٥) للاستزادة حول جهود نور الدين محمود في إظهار السنة وتأيدها، وقمع البدع وإزالتها، ومجاهدة الأعداء، انظر: ابن العديم: زبدة الطلب في تاريخ حلب (٢٩٣/٢)، وما بعدها، ابن الأثير: الكامل (٤٠٢/١١)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٧٧/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٢٨٢/٥)، وابن الأثير أيضا كتاب "الباهر في الدول الأتابكية بالموصل" وقف من خلاله على الكثير من أخبار دولته وسيرته وعدله وجهاده، وأنظر أيضا: محمد علي قطب: الشهيد نور الدين محمود زنكي، وحسين مؤنس: نور الدين محمود، وعن المدارس والبيمارستانات في عهده

ومجريات الأحداث والعمل لما فيه مصلحة الإسلام وخير المسلمين والحفاظ على مقدساتهم وممتلكاتهم.

ويمكن القول إن أهم حدث في خلافة المستضيء بأمر الله هو سقوط الدولة الفاطمية العبيدية وعودة الخطبة بمصر للدولة العباسية، وإعادة ضمها للخلافة العباسية، بعد انقطاعها لأكثر من مائتي سنة^(١)، حيث تمكن السلطان صلاح الدين الأيوبي^(٢)، قائد نور الدين محمود من

وجهوده في هذا المجال، انظر: ما كتبه الاستاذ ممدوح الزوي في مجلة المنهل، العدد (٥١٦)، المجلد (٥٦)، شهر محرم سنة (١٤١٥هـ)، بعنوان "المدارس الدمشقية القديمة (١٢-١٧)".

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٣٧/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٦٤/١٢)، وعندهما أن الخطبة قطعت لمدة مائتين وثمانين سنة، أما ابن دقماق: الجواهر الثمين (٢١٢/٢)، فيذكر أن انقطاعها دام مائتي وخمس عشرة سنة تقريباً.

(٢) هو السلطان الكبير، الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الأمير نجم الدين أيوب ابن شاذي الدويبي، كان نور الدين قد أمره وبعثه في عسكره مع عمه أسد الدين شيركوه الذي حكم مصر ثم توفي، فقام بعده صلاح الدين، وكان حديراً بالإمارة، مهيباً شجاعاً مجاهدًا كثير الغزو، عالي الهمة، قهر بني عبيد، وأزال دولتهم، وكانت دولته نيفاً وعشرين سنة، مات بقلعة دمشق سنة (٥٨٩هـ) رحمه الله، وسيرته وأخباره ومواقفه مشهورة طبقت الآفاق لما له من الأيادي البيض على الإسلام وأهله، منها فتح بيت المقدس، وتخليصه من الصليبيين، وبنائه للمدارس السننية، وجهاده ضد الأعداء، وقضائه على الأفكار الشيعة الفاطمية، ودعمه أهل السنة، وغيرها من الجهود الدينية والإدارية. انظر عنه وعن سيرته وجهاده: الأيوبي: مضممار

السيطرة على مصر وإعادتها للخلافة سنة (٥٦٧هـ)، حيث كتب إليه نور الدين يأمره بقطع الخطبة للحاكم العاضد الفاطمي العبيدي^(١)، فامتثل لذلك، وأمر بإقامة الخطبة للعباسيين، فلما وصلت البشارة إلى بغداد، فرح الناس كثيراً بذلك، وزينت بغداد، وسُيرت الخلع لنور الدين، وصلاح الدين، وخطباء مصر، ابتهاجاً بهذا الحدث التاريخي العظيم^(٢).

الحقائق (٢١٢، ١٨٨، ٩٣، ٥٢)، ابن الأثير: الكامل (٩٥/١٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢/١٣)، وما بعدها، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٢٧٨/٢١)، أحمد الأحمد: في السنوات الأخيرة من حياة صلاح الدين، والدويني: نسبة إلى دوين، وهي بلدة صغيرة في آخر أعمال أذربيجان من جهة أران وبلاد الكرج. ابن خلكان: وفيات الأعيان (١٣٩/٧)، ياقوت: معجم البلدان (٤٩١/٢)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٢٧٨/٢١)، دائرة المعارف (٢٦٣/١٤)، زامبازو: معجم الأنساب (١٥٦/١).

(١) العاضد: هو أبو محمد عبد الله بن يوسف الحافظ بن المستنصر بن الحاكم، كان شيعياً وصاحب سيرة مدمومة، يقول ابن كثير: "لو أمكنه قتل كل من قدر عليه من أهل السنة"، مات في يوم عاشوراء سنة (٥٦٧هـ)، وانتهت بموته دولة الفاطميين بمصر. انظر: ابن كثير: البداية والنهاية (٢٦٤/١٢)، القريري: اتعاط الحنفاء (٣٢٦/٣)، والمواظ والاعتبار (٣٥٧/١)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٣٥٦/٥)، العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي (٣٦٤).

(٢) للتفاصيل حول ذلك انظر: ابن حزم: موحز تاريخ الإسلام - تمة المحقق - (٦٥)، المنتظم (٢٣٧/١٠)، الكامل (٣٦٨/١١)، وفيات الأعيان (١٥٩/٧)، سير أعلام النبلاء (٧١/٢١)، العبر (٦٨/٣)، البداية والنهاية (٢٦٤/١٢)، الجوهر الثمين

وقد ألف بعض العلماء مؤلفات خاصة بهذه المناسبة العظيمة، فقد ألف ابن الجوزي كتاب "النصر على مصر"، ولأبي شامة كتاب بعنوان "كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والمكر والكيـد"^(١)، وغيرها.

ولاشك أن مثل هذا الحدث العظيم المتمثل في إعادة مصر للدولة العباسية، وسقوط الدولة الفاطمية العبيدية، يؤكد دور الخليفة في ذلك، واستعادتها لهيبتها ومكانتها، لأن الدولة الفاطمية العبيدية بمصر كانت تشكل مصدر خطر كبير على الخلافة العباسية، والحقيقة أن السلاجقة أدوا دوراً كبيراً في إنقاذ الخلافة العباسية من هذا الخطر المحدق بها^(٢)، ولا ننسى دور المجاهدين العظمين نور الدين وصلاح الدين في تحقيق هذا الفتح العظيم، وحرصهما على مصلحة المسلمين، وإنقاذهم من الأفكار والتيارات المنحرفة، وإخلاصهما للخلافة العباسية.

(١/٢١٢)، تاريخ الخلفاء (٤٤٥)، أخبار الدول (١٧٧)، سمط النجوم العوالي

(٣/٣٧٧)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤/٣٢٢).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/٢٦٤-٢٦٨)، كما صنف العلماء في الرد عليهم كتباً كثيرة، من أفضلها كتاب "كشف الأسرار وهتك الأستار" للقاضي الباقلاني. البداية والنهاية (١٢/٢٦٨)، ويتضمن الرد على الشيعة والباطنية.

(٢) وذلك حين قضوا على حركة البساسيري الذي كانت تدعمه الدولة الفاطمية، كما قضوا على الدعاية الفاطمية التي كانت منتشرة في العراق، خاصة في أواخر العصر البويهي، نظراً للتوافق المذهبي بينهما بصفة عامة.

ومما يجب ذكره وتوضيحه في هذا الصدد هو أن جمهور الناس وغالبيتهم لم ينخرطوا في التيار الشيعي أو يتأثروا به، رغم محاولات الفاطميين ودعواتهم المتكررة، والذي يؤيد ذلك ويؤكد أنه هو أن صلاح الدين لم يواجه مقاومة أو صعوبة تذكر في القضاء على الأفكار والمبادئ الشيعية الفاطمية إلا من بعض أتباع الحكام الفاطميين العبيدين الذين حاولوا التمرد والاعتداء على صلاح الدين، ولكنهم فشلوا في ذلك، وكان صلاح الدين قد أبطل من الأذان "حي على خير العمل" وعزل القضاة الشيعة، وجعل في منصب قاضي القضاة قاضيًا سنيًا هو صدر الدين عبد الملك بن درباس الكردي^(١)، وجعل له نوابًا من القضاة الشافعية، واهتم ببناء المدارس، كالمدرسة الشافعية والمالكية^(٢)، والمدرسة الصلاحية^(٣)، وغيرها، وعمّر أسوار القاهرة والإسكندرية، وأحسن إلى

(١) هو قاضي الديار المصرية الإمام صدر الدين أبو القاسم عبد الملك بن درباس الكردي الشافعي، اشتهر بالصلاح والغزو وطلب العلم، كان من حلّة العلماء وفضلائهم، توفي سنة (٦٠٥هـ). الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٧٤٩/٢١)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٩٦/٦).

(٢) عن المدرستين وموافقهما انظر: المقرئزي: المواعظ والاعتبار (١٨٧/٢-٣٦٤)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٣٨٥/٥).

(٣) المقرئزي: المواعظ والاعتبار (٣٨٢/٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٥٤/٦).

الرعية كثيراً^(١)، وعمل ما في وسعه لخدمة الإسلام وأهله، وقد أورد ابن واصل قولاً لصالح الدين يؤكد ما ذكرناه وهو قوله: "إنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم"^(٢).

والمستضيء - كما مر معنا - كان من خيار الخلفاء، أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر مبطلاً للبدع^(٣)، حليماً، ومع ذلك كان حازماً شديداً عندما يتطلب الموقف ذلك، ولعل الخلاف الذي كان بينه وبين قطب الدين قايماز^(٤)، والفتنة التي حدثت من جرّاء ذلك، للدليل واضح على شخصيته وضبطه الأمور، وسببها أن الخليفة أمر بإعادة عضد الدين ابن رئيس الرؤساء^(٥) إلى الوزارة سنة (٥٦٩ هـ)، مما أثار غضب قطب الدين الذي قام بثورته، وسانده في ذلك علاء الدين تنامش^(٦) الذي كان من

(١) عن تلك الأعمال والجهود انظر: المقدسي: الروضتين (١/١٩٦)، ابن الأثير: الكامل (١١/٣٦٦)، ابن واصل: مفرج الكروب (١/١٩٧)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/٢٦٣)، ابن دقماق: الجوهر الثمين (٢/١٧)، العوفي: العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والفاطمية (٣٠٨)، ومحمد كرد علي: خطط الشام (٢/٣٩).

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب (٢/١٨).

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/٣٠٤).

(٤) تقدمت ترجمته.

(٥) تقدمت ترجمته أيضاً.

(٦) توفي سنة (٥٨٤ هـ). ابن الأثير: الكامل (١٢/٢٦).

كبار الأمراء، حيث قاما بنهب أموال الناس والمبالغة في إيدائهم، وأنكر الخليفة عليهم ذلك وحذرهم، ولكنهم لم يبالوا بذلك كله، بل قاموا بالاعتداء على صاحب المخزن ظهير الدين بن العطار^(١)، وأحرقوا داره، وقصدوا دار الخليفة للاستيلاء عليها ونهب ما فيها، فلما رأى ذلك الخليفة وعلم بسوء عملهم ومقصدهم صاح في الناس وقال: "مال قطب الدين لكم ودمه لي" فانطلق الناس إلى داره ونهبوا منها من الأموال ما لا يعد ولا يحصى، مما اضطر قطب الدين إلى الهروب من بغداد، فلما خرج تبعه تنامش ومن معه من الأمراء، فنهبت دورهم أيضاً وأخذت أموالهم، وساروا جميعاً إلى الحلة، فسير الخليفة إليه صدر الدين شيخ الشيوخ^(٢) لملاحقته، فلم يزل به يخدعه حتى توجه عن الحلة إلى الموصل، فلحقه ومن معه عطش عظيم، فهلك أكثرهم، ومات قطب الدين في الطريق قبل وصوله إلى الموصل، وذلك سنة (٥٧٠هـ)^(٣).

(١) تقدمت ترجمته أيضاً.

(٢) هو أبو الحسن محمد بن عماد الدين عمر بن علي الجويني، كان شيخ الشيوخ بمصر والشام، من بيت رئاسة وإمرة عند بني أيوب، وكان فقيهاً فاضلاً، وكان بالموصل وردّها رسولاً إلى الخليفة يستنصره على الفرنج فمات هناك سنة (٦١٧هـ). انظر في ترجمته: ابن الأثير: الكامل (٤٠٠/١٢)، الذهبي: العبر (١٧٥/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (٩٣/١٣)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٢٥١/٦).

(٣) انظر التفاصيل في: المنتظم (٢٥٣/١٠)، الكامل (٤٠٩/١١-٤٢٤)، البداية والنهاية (٢٩١/١٢).

وقد علق ابن الأثير على هذه الحادثة، وذلك العمل الذي قام به قايماز ومن معه بقوله: "وهذا عاقبة عصيان الخليفة، وكفران الإحسان، والظلم، وسوء التدبير، وكفر إحسان الخليفة الذي كان قد عمره..."^(١).
وبالقضاء على حركة قطب الدين قايماز تكون الخلافة العباسية والتي أخذت منعطفًا جديدًا، قد تخلصت من فتنة عظيمة وخطرٍ محددٍ بها، وعقبة كبيرة كانت تقف في طريقها المرسوم بدقة، وفي نفس الوقت يعطي هذا النجاح تحذيرًا شديدًا لكل من تُسوّل له نفسه النيل من الخلافة أو زعزعة الأمن أو نشر الخوف والرعب بين الناس أو الوصول للمصالح الشخصية. بمثل هذه الطريقة التي لا يقرها شرع ولا يقبلها عقل، وأن مصيره سيكون المصير نفسه الذي لحق بقايماز وجماعته.

ثم إن الخليفة المستضيء، وبعد أن تخلص من خطر قطب الدين، وأخذ يباشر اهتماماته ونفوذه في الجانب الإداري، لما لذلك من أهمية

(١) انظر: الكامل (٤٢٥/١١)، وأورد أيضًا قولًا لبعض الشعراء في قطب الدين وتنامش منها:

إن كنت معتبرا بملك زائل وحوادث عنقبة الإدلاج
فدع العجائب والتواريخ الأولى وانظر إلى قايماز وابن قماج
فتبدلوا بعد القصور وظلها ونعيمها بمهامه وفجاج
فليحذر الباقون من أمثالهم نكبات دهر خائن مزعاج

بالغة في مسيرة الدولة، وضبط الأمور، وإسناد الأمر لأهله ومستحقه، أخذ يعيد على الفور عضد الدين أبا الفرج إلى الوزارة^(١)، ويسند حجة الباب إلى ابن الناقد، وهو أبو طالب نصر الدين علي وذلك سنة (٥٧١هـ)، ثم يعزله ويولي ابن المعوّج، وفي هذا الصدد أيضاً قبض الخليفة على عماد الدين صندل المقتفوي -أستاذ الدار- وجعل مكانه أبا الفضل هبة الله بن علي بن الصاحب^(٢)، كذلك قام بعزل أمير مكة واسمه مكثر، وتعيين أخيه داود مكانه، لفتنة لحقت بالحجاج آنذاك^(٣).

ولاشك أن مثل هذه الأعمال والقرارات الإدارية المتمثلة في العزل والتثبيت لمن يستحق ذلك، تدل بوضوح على قوة شخصية الخليفة

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٥٤/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٤٢٦/١١).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٢٥٦/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٤٣٣-٤٣٤)، وابن الصاحب هو مجد الدين، هبة الله ابن الصاحب، كان متحكماً في الدولة، وقد بلغ أعلى الرتب، حيث صار يولي ويعزل، خلف تركة ضخمة، يقول عنه الذهبي: إنه أظهر الرفض، وعمرد، وسفك الدماء، وسب الصحابة، وعزم على قلب الدولة، ويذكر ابن الأثير عنه: أنه كان حسن السيرة، عفيفاً عن الأموال، وكان الذي سعى به إنسان من أصحابه وصنائه، يقال له عبيد الله بن يونس، سعى به إلى الخليفة، وقبح آثاره، فقبض عليه وقتله، وذلك سنة (٥٨٣هـ). انظر ترجمته وأخباره في: ابن الأثير: الكامل (٥٦٢/١١)، أبو الفداء: المختصر في تاريخ البشر (٧٤/٣)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٦٤/٢١)، العبر (٨٧/٣)، ابن العماد: شذرات الذهب (٢٧٥/٤).

(٣) انظر تفاصيل ذلك وسببه في: ابن الأثير: الكامل (٤٣٢/١١).

المستضيء، ونفوذه الإداري في الدولة، وتفرد به باتخاذ القرار المؤدي لمصلحة الدولة واستقرارها، والإحسان للرعية والاهتمام بأموالهم ومصالحهم.

وهكذا كان عهد المستضيء - كما تؤكد المصادر التاريخية - عهد أمن واستقرار^(١)، عادت من خلاله الهيئة والمكانة للخلافة العباسية، والتي كان لجهود المسترشد، والراشد، والمقتفي، والمستنجد، الأثر الكبير في تحقيق ذلك، فقد كان كل واحد من هؤلاء الخلفاء عظيمًا في موقفه، حازمًا شديدًا ضد مخالفه، قامعًا للفتنة، حريصًا على إقامة العدل والإحسان للرعية، ونجد في هذا الصدد أن المستضيء خطب له في مصر واليمن والمغرب، وزال الرفض بحمد الله أو كاد من مصر والشام، وكان اهتمامه - رحمه الله - كبيرًا بأمر الجهاد ونصرة المجاهدين ودعمهم والوقوف بجانبهم كنور الدين محمود وصلاح الدين - رحمهم الله - وقد سبق توضيح ذلك وبيانه.

(١) يقول ابن حزم: "وكانت أيام المستضيء أيام عدل وبذل وسخاء". (موجز تاريخ الإسلام (٦٥)، ويقول ابن الجوزي: "كان عهد الخليفة المستضيء يتميز بالهدوء والأمن والاستقرار". المصباح المضيء في خلافة المستضيء (١/٦٠٠).

وفي شهر ذي القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة توفي الخليفة المستضيء، وله من العمر تسع وثلاثون سنة، وكانت مدة خلافته تسع سنين وأشهرًا^(١).

الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ):

هو أبو العباس أحمد بن المستضيء بن المستنجد بن المقتفي العباسي^(٢).

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل (٤٥٩/١١)، الأيوبي: مضمار الحقائق (٤)، الحسيني: أخبار الأمراء والملوك السلجوقية (٢٨٦)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٧٠/٢١)، الإعلام بوفيات الأعلام (٢٣٧)، ابن العري: تاريخ مختصر الدول (٣٧٧)، اليافعي: مرآة الجنان (٤٠١)، ابن دقماق: الجواهر الثمين (٢١٣/١)، السيوطي: تاريخ الخلفاء (٤٤٨)، القرمان: أخبار الدول (١٧٧)، المكّي: سمط النجوم العوالي (٣٧٨/٣)، وفي بعض هذه المصادر اختلاف يسير حول عمره ومدة خلافته مثل الكامل والبداية والنهاية وسمط النجوم العوالي.

(٢) انظر حول ترجمة الناصر وأخباره: ابن حزم: موجز تاريخ الإسلام -تتمة المحقق- (٦٥)، ابن الأثير: الكامل (٤٣٢/١٢-٤٤٠)، ابن طباطبا: الفخري (٣٢٢)، أبو الفداء: المختصر (١٣٥/٣)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٩٢/٢٢)، دول الإسلام (٣٣٣)، والعير (١٨٥/٣)، اليافعي: مرآة الجنان (٥٠/٤)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٠٦/١٣)، القلقشندي: مآثر الأناقة (٥٦/٢)، المقرئزي: السلوك (٢١٧-٢١٨)، السيوطي: تاريخ الخلفاء (٤٤٨)، ابن العماد: شذرات الذهب (٩٧/٥)، المكّي: سمط النجوم العوالي (٣٧٨/٣)، القرمان: أخبار الدول (١٧٨).

وقام بأخذ البيعة له ظهير الدين ابن العطار^(١) -صاحب المخزن- ثم بايعه الأمراء والوزراء والكبراء، والخاصة والعامه^(٢)، وقد خُطب له على المنابر في حياة أبيه، وقبل موته بيسير، ولُقّب بالناصر^(٣). وبعد أن تمت البيعة للخليفة الناصر لدين الله صار المحكم في الدولة أستاذ الدار مجد الدين أبو الفضل ابن الصاحب، ونفذت أوامره في جميع أرباب الدولة^(٤).

ولقد وقف المؤرخون مواقف مختلفة عند تقويمهم شخصية الناصر لدين الله وكفاءته وسياسته وسيرته، حيث مالت الأغلبية منهم إلى مدحه والإطراء عليه واستحسان سياسته، وانفرد قلة من المؤرخين بالتعريض به، ووصف سياسته بالتناقض والانشغال بالتافه من الهوايات كابن الأثير في

(١) الذي قبض عليه تلك السنة (٥٧٥هـ) وأخذت أمواله وأهين هو وأصحابه غاية الإهانة، وقتل وأخرج ميّتا، فثارت به العامة وفعلوا به أفعالا شنيعة، ويعلق ابن الأثير على ذلك فيقول: "هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم وكفه عن أموالهم"، وعلل ابن الوردي ما أصاب ابن العطار من نكبة بحسد الناس له لما بلغه من المكانة والرفعة. ابن الأثير: الكامل (٤٥٩/١١ - ٤٦٠)، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول (٣٧٨-٣٧٩)، الأيوبي: مضمار الحقائق (٣)، ابن الوردي: تمة المختصر (٩٠/٢).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٤٥٩/١١)، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول (٣٧٨)، أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر (٦٢/٣).

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية (٣٠٥/١٢).

(٤) ابن الأثير: الكامل (٤٥٩/١١)، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول (٣٧٨)، الأيوبي: مضمار الحقائق (١٠).

كتابه "الكامل" وابن واصل في "مفرج الكروب" الذي ربما نقل عنه كثيراً، وسوف ألقى الضوء بمشيئة الله تعالى على الجوانب العامة لهذا الخليفة وسياسته وجهوده ومواقفه.

يقول الذهبي نقلًا عن ابن النجار: "دانت للناصر السلاطين، ودخل تحت طاعته المخالفون، وذلت له العتاة، وانقهرت بسيفه البغاة، واندحض أصداده، وفتح البلاد العديدة، وملك ما لم يملكه غيره، وخطب له بالأندلس والصين، وكان أسد بني العباس، تتصدع لهيبته الجبال، وتذل لسطوته الأقيال، وكان حسن الخلق، أطيף الخلق، كامل الظرف، فصيحًا بليغًا، له التوقيعات المسددة، والكلمات المؤيدة، كانت أيامه غرة في وجه الدهر، ودرة في تاج الفخر"^(١).

ويذكر ابن الساعي والذهبي أيضًا وابن كثير أن الخليفة الناصر كان "ذكيًا شجاعًا مهيبًا، ملأ القلوب هيبة وخيفة، حتى كان يهابه أهل الهند، وأهل مصر، وكان الملوك والأكابر بمصر والشام إذا أتى ذكره في مجالسهم الخاصة خفضوا أصواتهم هيبة وإجلالًا له"^(٢).

(١) سير أعلام النبلاء (١٩٩/٢٢).

(٢) ابن الساعي: الجامع المختصر - المقدمة - ، الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٩٨/٢٢)،

ابن كثير: البداية والنهاية (٣٠٥/١٢).

كما كان الناصر ذا فكرة صائبة وعقل رصين ومكر ودهاء، وله أصحاب أخبار في العراق وسائر الأطراف يطالعونه بجزئيات الأمور وكلياتها^(١).

وكان شديد الاهتمام بمصالح الملك، متابعاً لأحوال رعيته كبارهم وصغارهم، وأصحاب أخباره في أقطار البلاد يوصلون إليه أحوال الملوك الظاهرة والباطنة^(٢).

وهذه الأقوال المتقدمة تدل على يقظته وفطنته وقوة شخصيته وإلمامه بأخبار الدولة، وأخبار السلاطين والأمراء، ولهذا فقد كون لديه نظاماً للاستخبارات كان بالغ الدقة والكفاءة، لتزويده بدقائق الأمور وتفصيلها عن كل ما يحدث في كل مكان من الدولة، وقد بالغ بعض المؤرخين في رواية قصص في هذا الجانب يمكن عدّها من باب المبالغات^(٣).

وكان الخليفة الناصر رجلاً مثقفاً محباً للعلم وأهله، سمع الحديث ودرسه، وقام بإسماعه لغيره في أثناء مُدّة خلافته، ومنح الإجازة لمن قرأ عليه، وقد رُوي أنه أعطى الإجازات بالتحديث للملوك والعلماء، وقام بنفسه بجمع كتاب في الأحاديث النبوية، جمع فيه سبعين حديثاً، وأسماه

(١) ابن واصل: مفرج الكروب (٤/١٦٦)، وقد ذكر في النهاية سوء سيرته وظلمه وتناقض أفعاله.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء (٤٤٨-٤٤٩).

(٣) المصدر السابق (٤٤٩)، وانظر ابن واصل: مفرج الكروب (٤/١٦٦).

"روح العارفين" وراج كتابه هذا حتى يقال بأنه وصل إلى مدن خارج بغداد، مثل حلب حيث سمعه الناس هناك^(١).

وحول ذلك يقول الذهبي نقلًا عن الموفق عبد اللطيف البغدادي^(٢):
"وفي وسط ولايته اشتغل برواية الحديث، وكتب للملوك والعلماء إجازات، وحدثوا عنه، منهم قاضي القضاة ابن الدماغاني، والملك العادل^(٣) وبنوه، ومحمود الزنجاني، والمقداد القيسي، وهما من شيوخ الذهبي، وغيرهم^(٤)."

ويقول ابن النجار: "شرفني الناصر بالإجازة، ورويتُ عنه بالحرمين، ودمشق، والقدس، وحلب، وبغداد، وأصبهان، ونيسابور، ومرو، وهمدان"^(٥).

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء (٤٥١)، السامرائي: تاريخ الدول العربية الإسلامية في العصر العباسي (٣٣٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٩٧/٢٢)، وكذلك السيوطي: تاريخ الخلفاء (٤٥٢-٤٥١).
(٣) هو السلطان سيف الدين أبو بكر محمد بن الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي التكريتي، نشأ في خدمة الملك نور الدين، وشهد المغازي مع أخيه صلاح الدين، كان ذا عقل ودهاء وشجاعة، توفي سنة (٦١٥). انظر في ترجمته: ابن الأثير: الكامل (٣٥١-٣٥٠/١٢)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٧٤/٥)، أبو الفداء: المختصر (١١٩/٣)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (١١٥/٢٢)، المقرئزي: السلوك (١٩٠/١).

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٩٧/٢٢).

(٥) المصدر السابق (١٩٨/٢٢).

ومثل هذه الاهتمامات الدينية وتلقي العلوم الشرعية تدل على محبة الناصر للعلم الشرعي والاستزادة منه، وتأثره بمجالس العلماء، ورغبته الصادقة في طلب العلم، ودعمه وتشجيعه للعلماء، كما حققت هذه الاهتمامات مقاصد سياسية وأهدافاً أخرى، مثل كسب ثقة الرأي العام الإسلامي، وتأسيس قدسية الخلافة في نفوس الناس، وملوك الأطراف، والأقاليم التابعة لها، كما يرى البعض^(١)، ولكن لاشك أيضاً في الرغبة الصادقة للخلفاء في العلم، وتوثيق صلتهم بالعلماء، وحضور مجالس الوعظ والذكر، وتأثرهم بها، وعلى هذا جرى كثير من خلفاء بني العباس، رغم وجود الأهداف الأخرى المكملة لذلك والتي قد تفرضها طبيعة الأحداث أحياناً، والمحافظة على مكانة الخلافة وهيبتها، والمصالح العامة الأخرى.

وقد أكمل الخليفة الناصر لدين الله نضال الخلافة العباسية ضد السلاجقة الذي بدأه الخليفة المسترشد بالله، وجنى ثماره الناصر لدين الله، وحفاظاً على ما وصلت إليه الخلافة من قوة ومكانة وهيبة ونفوذ، للحيلولة دون ظهور زعامة أو قوة قد تؤثر على هيبة الخلافة ومكانتها، لذلك وطّد الناصر علاقته بالمجاهد صلاح الدين الأيوبي، لأن قوة الدولة الأيوبية هي القوة الإسلامية التي حلّت محلّ القوة النورية التي كان يتزعمها

(١) كالدكتور بشار عواد معروف، والدكتور محي هلال سرحان. الذهبي: سير أعلام

النبلاء (١٩٧/٢٢)، حاشية رقم (٢).

المجاهد نور الدين محمود بن زنكي، وهما القوتان اللتان بذلتا الجهود العظيمة والتضحيات الجسمية في محاربة الصليبيين، وقد حرص الناصر على تأكيد تلك العلاقة والصلة بصلاح الدين عندما أرسل إليه الخلع والهدايا سنة (٥٧٦هـ)، حيث لبس خلعة الخليفة بدمشق، وزُينت له البلد - كما يذكر الياضي وابن كثير - وكان يوماً مشهوداً^(١)، وفي سنة (٥٨٠هـ)، أرسل له الخليفة الخلع والهدايا أيضاً في أعقاب فتحه الكرك، حيث رأى صلاح الدين أن فتحها أنفع للمسلمين، لأن أهلها كانوا يقطعون الطريق على الحجاج^(٢)، وهذه نظرة بعيدة تدل على اهتمامه وحرصه بما يعود على المسلمين بالخير والنفع، وتسهيل الصعاب التي قد تعترضهم، أو تحول دون أدائهم شعائرهم الدينية، ومثل هذه الخلع والهدايا تأتي في محاولة من الخلافة العباسية للتأكيد على ولاء الدولة الأيوبية للخلافة العباسية، والمحافظ على إقامة الخطبة للخليفة على منابر مصر والشام، وقد حرص السلطان صلاح الدين على تحقيق الولاء والتبعية للخلافة العباسية، وذلك في أول خطبة أقيمت في بيت المقدس بعد تطهيره من أيدي الصليبيين سنة (٥٨٣هـ)، حيث أمر بالدعاء للخليفة

(١) الياضي: مرآة الجنان (٤٠٢/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (٣٠٧/١٢).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (٣١٥/١٢).

الناصر^(١)، كما أمر خطيب دمشق عبد الملك بن زيد الدولعي^(٢) بأن يذكر ولي العهد أبا نصر الملقب بالظاهر ابن الخليفة الناصر على المنبر، وذلك حينما أرسل الخليفة الناصر رسلاً لصالح الدين يخبرونه بذلك سنة (٥٨٥هـ)، ثم إن السلطان صلاح الدين جهز تحفاً كثيرة وهدايا ثمينة مع أولئك الرسل إلى الخليفة^(٣)، بدّل على سروره وبهجته وولائه له، الأمر الذي يؤكد هيمنة الخلافة العباسية واتساع نفوذها، والمحافظة على مكانتها وهيبتها.

أما عن مواقف الخليفة الناصر لدين الله ونضاله ضد السلاجقة ونهايتهم في عهده، فقد كان يعاصره من السلاجقة السلطان "طغرل بن

(١) للتفاصيل حول موقعة حطين وفتح بيت المقدس، ونص الخطبة انظر: ابن الأثير: الكامل (١١/٥٣٤-٥٤٦)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/٣٠٢-٣٢٦)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٦/٣١-٣٦)، وكان قاضي دمشق محيي الدين بن الزكي هو الخطيب في تلك الخطبة العظيمة، وعنه انظر: البداية والنهاية (١٣/٣٢)، النجوم الزاهرة (٦/١٨١)، شذرات الذهب (٤/٣٣٧).

(٢) هو أبو القاسم ضياء الدين عبد الملك بن زيد التغلبي الموصلبي الدولعي، تفقه بدمشق وتولى الخطابة بها، ودرس بالغزالية، كان زاهداً ورعاً حسن الطريقة مهيباً في الحق، توفي سنة (٥٩٨). انظر: الكامل (١٢/١٧٨)، معجم البلدان (٢/٤٨٦)، طبقات الشافعية الكبرى (٧/١٨٧)، سير أعلام النبلاء (٢١/٣٥٠)، والإعلام بوفيات الأعلام (٢٤٦)، النجوم الزاهرة (٦/١٨١).

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/٣٣٢)، سعيد عاشور: ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية ضمن كتاب بحوث ودراسات في العصور الوسطى (٧٥).

أرسلان شاه بن طغرل" الذي كان نفوذه يشمل همذان والري^(١) وأصبهان^(٢) وتابعها، وكانت السلطة الفعلية في يد أتابكة "نصرة السدين محمد البهلوان" الذي كانت علاقته بالخليفة يسودها الاحترام والود^(٣)، ولما توفي سنة (٥٨٢) خلفه أخوه "مظفر الدين قزل أرسلان"، وكان مواليا للخلافة كأخيه، ولما تمكن السلطان السلجوقي طغرل من انتزاع السلطة من أتابكه قزل، والتخلص من وصاية الأتابكة الثقيلة، وفرض سيطرته على البلاد، وتجميع الأمراء والجند حوله، عند ذلك أرسل قزل إلى الخليفة الناصر يطلب منه معاونته ضد طغرل ويحذره منه^(٤)، وهي فرصة كبيرة للخليفة لكي يضرب السلاجقة ببعضهم، فيضعفهم جميعاً

(١) الري: هي قسبة بلاد الجبل، وهي مدينة مشهورة من أعلام المدن وأمهات البلاد، فتحها المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهي قرية من طهران حالياً. ياقوت: معجم البلدان (٣/١١٦)، القزويني: آثار البلاد (٣٧٥)، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية (٢٤٩)، عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي (١١).

(٢) أصبهان: مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن في بلاد فارس، أسرف العلماء كثيراً في وصفها، فتحت في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان (٢٦١)، القزويني: آثار البلاد (٢٩٦)، ياقوت: معجم البلدان (١/٢٠٦).

(٣) الراوندي: راحة الصدور (٤٦٦)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق (٢٧٦)، الحسيني: زبدة التواريخ (٢٨٧-٢٨٨).

(٤) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق (٢٧٦-٢٧٧)، الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية (٢٩٣-٢٩٤).

ويتخلص من تجاوزاتهم، ويمنعهم من تكوين قوة واحدة قد تؤثر على مركز الخلافة، وقد تنبه السلطان طغرل لما دبره الأتابك قزل، فأراد أن يوجد سبباً جوهرياً للتحرّيش بالخليفة وأخذ زمام المبادرة، فأرسل إلى الخليفة سنة (٥٨٣هـ) يطلب منه إقامة الخطبة له في بغداد، وضرورة تجديد عمارة دار السلطنة السلجوقية في بغداد لكي يتزل بها عند قدومه إلى بغداد ويسكنها، فكان رد فعل الخليفة هو إرجاع رسول السلطان طغرل دون جواب، وهدم دار السلطنة^(١)، ثم المسارعة لمساعدة قزل ضد السلطان طغرل وقتاله، وفي صفر سنة (٥٨٤هـ) جهز الخليفة جيشاً كبيراً بقيادة الوزير "جلال الدين عبد الله بن يونس" لمساعدة قزل، ولكن الجيش لم يثبت أمام جيش السلطان طغرل الذي تمكن من إلحاق الهزيمة به وأسر قائده الوزير ابن يونس قبل أن ينضم إلى جيش قزل أرسلان في همدان^(٢)، ولكن تلك الهزيمة لم تؤثر في تصميم الخليفة الناصر لتحقيق ما يهدف إليه، بل زادته حماساً وقوة، فجهز جيشاً من جديد، وتمكن هذا الجيش من دخول همدان بدون قتال، لأن السلطان طغرل كان قد خرج منها عندما علم بقوة جيش الخلافة، وذلك في نفس السنة (٥٨٤هـ)^(٣)،

(١) ابن الأثير: الكامل (٥٦٠/١١)، ابن خلدون: العبر (٥٢٩/٣).

(٢) الراوندي: راحة الصدور (٤٨٠-٤٨١)، الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية

(٢٩٥)، وعن ابن يونس انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/٢٩٩).

(٣) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية (٢٩٦).

ثم إن السلطان طغرل تمكن من إعداد جيش قوي سار به لاستعادة همذان، ولكنه هزم على يد الأتابك قزل، عند ذلك اضطر السلطان طغرل لطلب الصلح من الخليفة الناصر، وكان ذلك سنة (٥٨٦هـ)، وقد بعث ابنه ألب أرسلان إلى الخليفة كرهينة^(١)، وبعد خوض عدة معارك في همذان والري وأذربيجان تمكن قزل أرسلان من أسر السلطان طغرل وسجنه في إحدى قلاع أذربيجان، وخطب لنفسه بالسلطة، بدعم وتأييد من الخليفة الناصر لدين الله، ولكنه ما لبث أن قتل سنة (٥٨٧هـ)^(٢)، وتمكن السلطان طغرل من الهرب من معتقله، وبدأ على الفور بتكوين جيش له، فجمع حوله الأمراء وقضى على معارضيه واستعاد السلطنة، واستقر في همذان، وعمد لتقوية مركزه وبسط نفوذه على المدن المجاورة لهمذان، وذلك سنة (٥٨٧هـ)^(٣).

(١) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق (٢٧٧)، الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية (٢٩٧).

(٢) الراوندي: راحة الصدور (١٠٥)، ابن الأثير: الكامل (٧٦-٧٥/١٢)، ابن الوردي: تنمة المختصر (١٥٧/٢).

(٣) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق (٢٧٧)، الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية (٣١٠-٣٠٠)، عبد النعيم حسنين: دولة السلاجقة (١٣٠-١٣١).

وفي تلك المدة كان الخوارزميون^(١) بقيادة "علاء الدين تكش خوارزمشاه" قد وسعوا بلادهم، واتسع نفوذهم، وصاروا قاب قوسين من حدود سلطان سلاجقة العراق طغرل، وكان هذا الخطر الجديد شغل طغرل الشاغل، ولذلك استقر رأي الخليفة الناصر على الاستعانة بالخوارزميين ضد السلطان طغرل، فصمم "علاء الدين تكش" على حسم أمر السلطان طغرل، وزاد من تشجيعه على هذا الأمر مراسلة الخليفة الناصر له، وشكواه من تصرفات طغرل، وطلب منه التوجه بنفسه للقضاء عليه، وأرفق الرسالة بمنشور يقضي بإقطاع خوارزمشاه - في حالة التغلب على السلطان طغرل - جميع البلاد التي كانت تحت نفوذ السلاجقة آنذاك^(٢)، فالتقى خوارزمشاه مع السلطان طغرل قريباً من الري، وذلك

(١) خوارزم أو خوارزميا: ولاية من بلاد خراسان، وهي ناحية مشهورة ذات مدن وقرى كثيرة، بما نهر جيحون، ويطلق على حكام خوارزم لقب "خوارزمشاه" وهم من أتراك بلاد ما وراء النهر. انظر حول خوارزم: القزويني: آثار البلاد (٥٢٥)، البكري: معجم ما استعجم (٥١٥/٢)، ياقوت: معجم البلدان (٣٩٥/٢)، (٤٥/٥)، الذهبي: الأمصار ذوات الآثار (٩٧)، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية (٤٨٩)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني (٩٥/٤-٩٦)، أما عن الدولة الخوارزمية فانظر: (ابن الأثير: الكامل (٢٦٧/١٠)، (١٧٦/١١)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤٢٨/٢)، تاريخ ابن خلدون (٢٢/٥)، نافع العبود: الدولة الخوارزمية (١٥-١٧)، حسن محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي (٦١٥)، بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية (٣٧٦)، دائرة المعارف (٤٧٧/٨).

(٢) ابن الأثير: الكامل (١٠٧/١٢).

في منتصف سنة (٥٩٠هـ)، فدارت الدائرة على الجيش السلجوقي، وشاب عسكره الفرقة والاضطراب، وخسر المعركة، وقتل السلطان طغرل^(١)، وبمقتله انتهى عهد سلاجقة العراق، ودخلت الدولة العباسية في مُدّة استقلال حتى سنة (٦٥٦هـ) عندما سقطت بغداد في أيدي المغول، وهكذا يتضح لنا أن سياسة الخليفة الناصر ضرب أعدائه ببعضهم وتآليب القوى المتنافسة، كي يحافظ على الخلافة واستقلالها، ومن ثم يفرض هيئته واحترامه على هذه القوى، ويضمن استقرار دولته وحمايتها من الطامعين. ثم إن الخليفة الناصر بعد أن تخلص من نفوذ السلاجقة، وزالت دولتهم في العراق، استطاع أن يستغل الظروف السياسية المحيطة به في ظل القوة الخوارزمية الجديدة التي حلت محل السلاجقة، فوجه على الفور جيش الخلافة إلى خوزستان^(٢) بقيادة وزيره مؤيد الدين المعروف بابن

(١) للتفاصيل في ذلك انظر: ابن الأثير: الكامل (١٠٦/١٢-١٠٧)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق (٢٧٧-٢٧٨)، الحسيني: زبدة التواريخ (٣١٣)، ابن الساعي: الجامع المختصر (٣٥/٩)، المقدسي: الروضتين (٦)، ابن كثير: البداية والنهاية (٩/١٣)، ابن خلدون: العبر (٦٥٤/٣)، السامرائي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي (٣٣٧-٣٣٨).

(٢) خوزستان: معناها "بلاد الخوز" وهي إقليم في بلاد فارس بين بلاد الجبال شمالاً والخليج جنوباً، والعراق غرباً، وفارس شرقاً، وكانت الأهواز قاعدة الإقليم، وتسميتها بهذا الاسم قد بطلت اليوم، فأصبحت تسمى "عربستان" أي إقليم

القصاب^(١)، حيث سار إليها سنة (٥٩٠هـ) واستولى عليها^(٢)، كما تمكنت جيوش الخلافة من الاستيلاء على بلاد الري وأصبهان وهمدان، وغيرها من البلدان، وذلك سنة (٥٩١هـ)، وقد أدى ابن القصاب دوراً كبيراً وجهداً عظيماً في استعادة تلك البلدان، وإعادة هيمنة الخلافة عليها، وكذلك الأمير أبو الهيجان الكردي^(٣)، الذي كان مقدماً على عسكر الخليفة عند توجههم إلى همدان^(٤).

العرب. ياقوت: معجم البلدان (٢/٤٠٤-٤٠٥)، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية (٢٦٧)، محمود مصطفى: إعجام الإعلام (٢١٥).

(١) هو أبو الفضل محمد بن علي بن أحمد القصاب البغدادي، كان رجلاً مهيباً شهماً حازماً، عمل في ديوان الإنشاء، وولي الوزارة سنة (٥٩٠هـ)، كان والده قصاباً يبيع اللحم في أسواق بغداد، توفي سنة (٥٩٢هـ). سير أعلام النبلاء (٢١/٣٢٣)، العبر (٣/١٠٦)، البداية والنهاية (١٣/١٢)، شذرات الذهب (٤/٣١١)، المنذري: التكملة لوفيات النقلة (٢/٤٥).

(٢) ابن الأثير: الكامل (١٢/١٠٨-١٠٩).

(٣) هو الأمير الكبير حسام الدين أبو الهيجاء، ويعرف بالسمين، كان من أكابر أمراء صلاح الدين، ثم ذهب إلى بغداد، فلقى إكراماً شديداً وبعثه الخليفة مقدماً على العساكر إلى همدان، توفي سنة (٥٩٣هـ). الكامل (١٢/١٢٥)، البداية والنهاية (١٣/١٥).

(٤) لمزيد من التفاصيل انظر: ابن الأثير: الكامل (١٢/١١١-١١٧-١٢٥)، الأربلي: خلاصة الذهب المسبوك (٢٨١)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٣/١١)، الغساني: العسجد المسبوك (٢٢٩).

وهذا يؤكد مدى الاستقرار السياسي الذي وصلت إليه الخلافة في عهد الناصر، واستغلاله الظروف واغتنامه الفرص، ولكن الخوارزميين استطاعوا استعادة بعض هذه المدن سنة (٥٩٢هـ)^(١).

وكان الخليفة الناصر حكيمًا في تعامله مع القوة الخوارزمية، متابعًا للأحداث، فقد عمل في البداية على تحسين علاقته بالحاكم الخوارزمي علاء الدين تكش الذي بلغت الدولة الخوارزمية في عهده وعهد ابنه أوج قوتها وأقصى اتساعها، حيث أرسل إليه تقليدًا بإقطاعه البلاد التي تحت سيطرته، وذلك سنة (٥٩٠هـ)^(٢) تلك السنة التي قُتل في منتصفها السلطان طغرل^(٣) - كما تقدم - ثم لجأ الخليفة بعد ذلك إلى اتباع الأسلوب الترغبي الترهيب، فهدد خوارزمشاه بأنه سوف يولب عليه المسلمين إن لم يترك ما احتله من أرض، ويكتفي بما له من قبل^(٤)، ولكن رد خوارزمشاه كان أكبر إزعاج للخليفة عندما أرسل إليه في سنة (٥٩٢هـ) مطالبًا إياه بإعادة بناء دار السلطنة السلجوقية في بغداد، حيث إنه قادم إليها ليضع يده عليها^(٥)، عند ذلك عمد الخليفة الناصر إلى أسلوبه السياسي المعهود، وذلك بتمزيق جبهة خوارزمشاه الداخلية،

(١) السامرائي: تاريخ الدولة العربية والإسلامية في العصر العباسي (٣٣٩).

(٢) ابن الأثير: الكامل (١٠٧/١٢).

(٣) الذهبي: الإعلام بوفيات الأعلام ص (٢٤٣)، وقد تقدم ذكر ذلك مفصلاً.

(٤) نافع العبود: الدولة الخوارزمية ص (٨٤-٨٦).

(٥) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤٥٤-٤٥٥).

واستمالة بعض ولاته وتأليبهم عليه، وتحريض الأمراء وإغرائهم بالتصدي له والنيل منه، كما فعل مع صاحب غزنة (عياث الدين الغوري)^(١)، الذي استجاب لطلب الخليفة، وعلى الرغم من عدم وقوع قتالٍ أو صدام بينهما اضطر خورزمشاه إلى تأجيل تحركه نحو بغداد، وبهذا نجحت خطة الخليفة الناصر، كما أرسل تقليدًا إلى الأمير "كوكجه" بالبلاد التي تحت يده مثل ساوه^(٢) وقم^(٣) وقاشان^(٤) وما حولها، واتفق معه على أن تكون أصفهان وهمدان وزنجان^(٥) وقزوين^(٦) تابعة للخلافة، وكتب له منشورًا بذلك، وأرسلت له الهدايا والخلع، مما زاد في قوة نفوذه، وعظم شأنه، وكثرة

(١) هو أبو الفتح غياث الدين محمد سالم الفوري، صاحب غزنة وبعض خراسان، كان عاقلًا حازمًا شجاعًا لم تكسر له راية، حسن الاعتقاد، كثير الصدقة، وسيرته بالجملة حسنة، توفي سنة (٥٩٩هـ). الكامل (١٢/١٨٠)، المختصر (٣/١٠٤)، العبر (٣/١٢٦)، البداية والنهاية (١٣/٣٤).

(٢) ساوه: مدينة بين الري وهمدان. ياقوت: معجم البلدان (٣/١٧٩).

(٣) قم: مدينة كبيرة بين أصفهان وساوه، أهلها جلهم شيعة إمامية. القزويني: آثار البلاد (٤٤٢)، ياقوت: معجم البلدان (٤/٣٩٧).

(٤) قاشان: مدينة بين قم وأصفهان، أهلها شيعة إمامية غالبية جدًا. القزويني: آثار البلاد (٤٣٢)، ياقوت: معجم البلدان (٤/٣٩٧).

(٥) زنجان: مدينة مشهورة في أرض الجبال قريبة من أهر وقزوين. ياقوت: معجم البلدان (٣/١٥٢).

(٦) قزوين: مدينة كبيرة مشهورة قريبة من الري وأهر. ياقوت: معجم البلدان (٤/٣٤٢).

جنده^(١)، وبالتالي قدرته في الوقوف في وجه الخوارزميين والحد من اطماعهم وتوسعاتهم، وهذا ما يهدف إليه الخليفة، الأمر الذي يدل على حنكته ودهائه للمحافظة على دولته واستقرارها، وعلى إثر ذلك ساد هدوء وسلام نسبي بين الخلافة والخوارزميين الذين انشغلوا بمشاكلهم الداخلية مُدّة من الزمن، استمال خلالها الخليفة علاء الدين خوارزمشاه، فكان يبعث إليه الخلع والهدايا، وكذلك لولده محمد، إضافة إلى تهنتته بالانتصارات التي يحققها، كما كان يرسل إليه تقليدًا بالبلاد التي يسيطر عليها، كما حدث في سنة (٥٩٥هـ)^(٢)، ولم يحدث ما يعكر صفو تلك العلاقة حتى وفاة تكش سنة (٥٩٦هـ)، وتولية ابنه محمد قيادة الدولة الخوارزمية^(٣)، وقد استمرت السياسة السلمية والهادئة بين الخوارزميين والخليفة مُدّة طويلة حتى سنة (٦١٤هـ)، وهي علاقة يغلب عليها المراسلات الودية^(٤)، ولكن يشوبها الحذر من الجانبين، جانب الخليفة الذي لا يستطيع جيشه الوقوف ضد جيش الخوارزميين وقوتهم الذين

(١) ابن الأثير: الكامل (١١٨/١٢)، الغامدي: أوضاع الدول الإسلامية في الشرق الإسلامي (١٠٢)، والأمير كوكحة: من أعيان المماليك البهلوانية الذين استولوا على الري وما جاورها، وعملوا على مناوأة الخوارزميين، كان عدلاً حسن السيرة، قتل سنة (٦٠٠هـ). ابن الأثير: الكامل (١١٨/١٢-١٩٥).

(٢) ابن الأثير: الكامل (١٥٢/١٢).

(٣) ابن الأثير: الكامل (١٥٦/١٢)، العبود: الدولة الخوارزمية ص (٩٠).

(٤) العبود: الدولة الخوارزمية ص (٩٠-٩٣).

انشغلوا بمقاتلة المغول الذين انساحوا إلى ممتلكاتهم، وأخذوا أجزاء كبيرة، منها وبذلك استطاع الخليفة الناصر أن يحافظ على قوة مركز الخلافة ونفوذها بشتى الوسائل المتاحة له والتي تدلل على حنكته وسياسته وفطنته ومتابعته الدقيقة لما يدور حوله، مع استغلاله الفرص والظروف المحيط به. والجدير بالذكر أن الدولة الخوارزمية تُعدّ القوة الوحيدة التي استطاعت أن تقف بقوة أمام الخطر المغولي، حيث كانت الدولة الخوارزمية تحاول تثبيت وجودها السياسي والحفاظة على قوتها، ولكن الظروف السياسية لم تكن مهيأة لتحقيق ذلك، حيث كان الانتشار المغولي سبباً في إضعاف الجيش الخوارزمي والتأثير عليه وهزيمته، كذلك لم يتمكن الخوارزميون من تكوين علاقات وطيدة مع الدولة العباسية التي استعادت قوتها ومكانتها، ولم يوفقوا كذلك في كسب ثقة القوى الإسلامية المجاورة^(١)، وهذه الأمور تكشف لنا عن حقيقة وهي أن

(١) العبود: الدولة الخوارزمية (١٧)، ويقول حسن إبراهيم حسن: "أن الدولة الخوارزمية استطاعت أن تتمد وقعتها وتثبت أقدامها أكثر من قرن، ولم تسقط إلا بسبب كارثة عامة لم تكن في الحسبان، غيرت من وجه التاريخ وأنزلت المصائب والويلات بالجيش البشري، وهي كارثة غزوات المغول". (تاريخ الإسلام السياسي والديني (٩٦/٤)، ومن المناسب ذكره هنا أن خورزمشاه تكش - حاكم خورزم - كان من المجاهدين المناضلين الذين تصدوا للباطنية وحاصر قلاعهم وضيق عليهم، وكذلك ابنه محمد الذي نجح في إخضاع بعض حصونهم ومحاصرهم. (ابن الأثير: الكامل (١٥٣/١٢)، المنذري: التكملة لوفيات النقلة (٢٣٢/١١/٢).

المنازعات بين الدويلات الإسلامية وعدم اتحادها وتماسكها مهدت للسيطرة المغولية عليها.

وهكذا يتضح لنا مما تقدم محافظة الخليفة الناصر على استقرار الخلافة ومكانتها، وبسط سلطتها ونفوذها، ومتابعته الأمور ومستجدات الأحداث، والتعامل معها بذكاء وفطنة، حيث لاحظنا ذلك في علاقته بصلاح الدين والدولة الخوارزمية، وسقوط السلطنة السلجوقية^(١)، وغيرها ومن هنا جاء وصف المؤرخين له بالدهاء والحنكة، وأنه أسد بني العباس، كان بصيراً بالأمور، مجرباً سائساً، وكانت له حيل لا يفتن إليها أحد، كما اهتم كثيراً بأصحاب الأخبار^(٢).

كذلك لم يغفل الخليفة الناصر عن الأخبار الداخلية التي لها مساس بالدولة وسلطانها وهيمنتها داخل العراق وخارجه، وهذا ما نلاحظه في ظهور اتجاهات وحركات عديدة لدى الخليفة الناصر منها: حركة الفتوة، التي تعدّ من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية، والفتوة تتضمن معاني مختلفة، والمراد بها هنا: الشباب بين طوري المراهقة والرجولة، الذين سلكوا مسكاً

(١) هناك آثار نجمت عن سقوط السلطنة السلجوقية، لاسيما في محاربة الأفكار والأخطار والتيارات المخالفة لمذهب أهل السنة والجماعة، وعودة النشاط الشيعي، وشيوع البدع، وضعف القوة الإسلامية بصفة عامة. انظر: محمد آل ياسين: الحياة الفكرية في العراق ص (٣٦).

(٢) الأربلي: خلاصة الذهب المسبوك (٢٨٢)، الكتبي: فوات الوفيات (١/٦٦)، العيني: السيف المهند ص (٧٣)، تاريخ ابن خلدون (٣/٦٦٠).

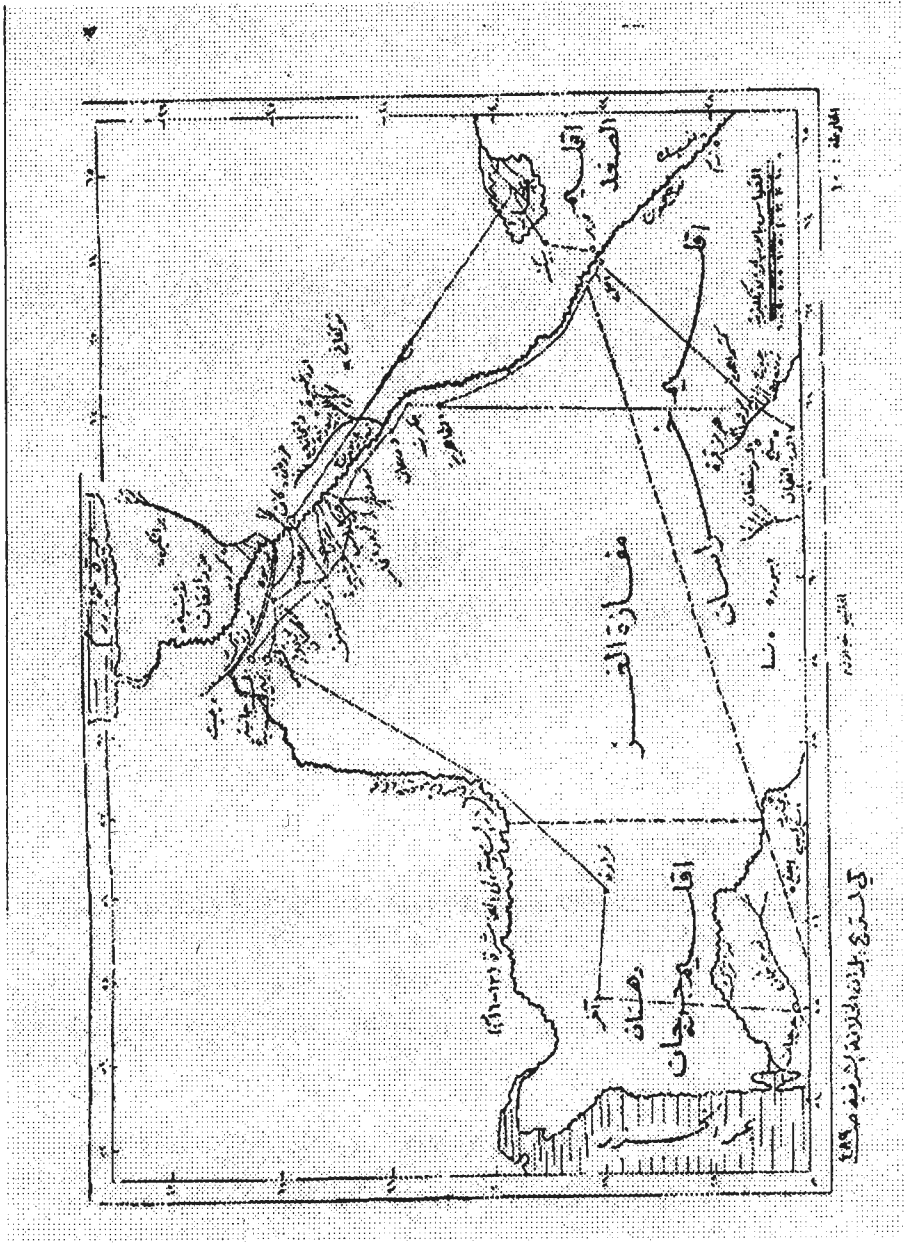
أو نظاماً ينمّي في نفوسهم النجدة والشجاعة والنشاط والحيوية، ويحثهم على الصفات الحميدة كالكرم والوفاء بالوعد، والبر، والصبر على الشدائد، وتحمل الأعباء، وغيرها من الصفات التي يحرص الفتي على الالتزام بها، حيث إنّها تمثل ضرباً من المروءة، ولوناً من ألوان الفروسية^(١).

والحقيقة أن حركة الفتوة كانت امتداداً لحركة الشطار^(٢) والعيارين^(٣) التي نشطت في العصر السلجوقي، واتبعت في كثير من الأحيان أسلوباً شاذاً في التعامل مع الناس، حيث كانوا لا يلتزمون بسلوك

(١) حول معنى الفتوة وما يتعلق بها انظر: ابن منظور: لسان العرب (١٤٥/١٥)، الزبيدي: تاج العروس (٢٧٥/١٠)، الرازي: مختار الصحاح (٤٩١)، إبراهيم أنيس ورفاقه: المعجم الوسيط (٦٧٣/٢)، محمد وحدي: دائرة معارف القرن العشرين (١٢٤/٧)، وانظر أيضاً ما كتبه نوري القيسي عن الفتوة في مجلة المجتمع العلمي العراقي، المجلد (٣٤)، الجزء الثالث، (١٤٠٣هـ-١٩٨٣م)، (١٧٣).

(٢) الشطار: جمع شاطر، يقال شطر الرجل قومه شطوراً و شطارة، أي أعيا قومه شراً وخبثاً، والشاطر هو الخبيث الفاجر، وقيل له شاطر لأنه أخذ في نحو غير الاستواء. (تهذيب اللغة).

(٣) العيارون: جمع عيار، وهو كثير المحيء والذهاب في الأرض، وقيل هو الذكي الكثير التطواف. ابن منظور: لسان العرب (٦٢٠/٤)، الزبيدي: تاج العروس (٤٣٤/٣)، الفيروز آبادي: القاموس المحيط (١٠١/٢)، الرازي: مختار الصحاح ص (٤٦٥)، وقيل: العيار من الرجال هو الذي يُخلى نفسه وهوها، لا يردعها ولا يزرعها، وقال في تهذيب اللغة: العرب تمدح بالعيار وتذم به. (تهذيب اللغة).



خريطة بلاد الحجاز العربية سنة ١٢٨٩

أخلاقي ولا يعرف اجتماعي، بل كانوا يعيشون في الأرض فساداً^(١)، مما عرض أرواح الناس وممتلكاتهم للخطر.

وجدير بالذكر أن نشاط الشطار والعيارين لم يبدأ بشكل واضح في الدولة العباسية إلا في عهد الخليفة المأمون (١٩٨-٢١٨هـ)، حيث برز نشاطهم واستفحل شرهم، وزاد خطرهم، وكان كبار القادة والوزراء في عصره يقفون وراءهم ويساندونهم، مما أدى إلى انتشار ظاهرة الفوضى والاضطراب وانعدام الأمن نسبياً، الأمر الذي اضطر معه أصحاب العقول النيرة والآراء السديدة إلى التصدي لهؤلاء في محاولة منهم للحد من نشاطهم وخطرهم، وذلك عندما اجتمعوا سنة (٢٠١هـ—)، وقاموا بمقاتلتهم وحبسهم، ورفع أمرهم إلى الخليفة، ودعا هؤلاء الصلحاء الناس إلى العمل بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتصدي بقوة لهؤلاء العابثين^(٢).

ولاشك أن حركة العيارين التي برزت في هذا العصر بشكل كبير، لم يكن اتجاههم هذا وعملهم الجديد، وأسلوبهم في التعامل مع الغير إلا بسبب ضعف القيم الإسلامية في المجتمع، ووليد الظروف الاقتصادية

(١) أكرم العمري: دراسات تاريخية (٢٧١).

(٢) انظر تفاصيل تلك المقاومة وزعمائها: الطبري: تاريخ الأمم والملوك (٥٥١/٨-

٥٥٤)، ابن الأثير: الكامل (٣٢٤/٦)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٤٧/١٠)، ابن

خلدون: العبر (٣٠٩/٣).

آنذاك، لذا نجد أن المؤرخين الذين تعرضوا لحركة الشطار والعيارين يصمونهم دومًا بأنهم لصوص، وأن عملهم هذا، وحركتهم تلك لم تقم إلا لزيادة الفوضى والفساد والاضطراب في البلاد^(١).

وقد نشطت حركة الشطار والعيارين في العصر السلجوقي على أنهم طائفة اجتماعية مهمّة، حيث أصبح لها تنظيم معين مقرون بشروط معينة للعضو الراغب للانضمام للحركة، وعُرفوا بالفتيان.

ونلاحظ أن لفظ (الفتى) كان شائعًا بين العيارين، يقول الشاعر:

ويقول الفتى إذا طعن الطعن — سنة خذها من الفتى العيار

ويدل هذا على أن مدلول الكلمتين "فتى" و"عيار" في الأصل واحد، كما استنتج ذلك الدكتور عبد العزيز الدوري وغيره من الباحثين في مثل هذه الجوانب، حيث يقول الدوري: "إن هذه الجماعة كانت تستهدف إجراء حركة إصلاحية اجتماعية للطبقة الفقيرة دون أن يكون لها وقتئذ ذلك القانون السامي الأخلاقي الذي تمثل في خلافة الناصر"^(٢).

والفتوة وإن سلمنا أنها كانت امتدادًا لحركة الشطار والعيارين - كما ذكرت - كانت ضمن إطار أخلاقي متين، وتتميز أيضًا بمشاركة الأعيان والأكابر فيها، وليس أدل على ذلك من أن الخليفة الناصر عُبد رئيسًا للفتوة، حيث كان يلبس سراويل الفتوة، وجعلها تحت إشرافه المباشر،

(١) العسيري: الحياة العلمية في العصر السلجوقي ص (١١٢).

(٢) الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص (٩٣)، نقلًا عن المرجع السابق ص (١١٣).

رغبة منه في أن يجدد شباب الأمة الإسلامية، ويعيد للدولة تماسكها، ويوحدها داخل العراق، وفي أقاليم الدولة الأخرى، ويعيد أيضاً لبغداد مكانتها ودورها، وهكذا مكن لهذا التنظيم في شتى الأمصار الإسلامية^(١).

وقد كانت الفتوة طوال العصر الأموي، وشطراً من العصر العباسي مسلماً ومنهجاً فردياً يسلكه بعض الأفراد، ولم يعرف لهم تنظيم اجتماعي في تلك المدّة، وقد أثرت الظروف التي تحكمت في الفتوة، والتي هي أصلاً نوع من الفروسية والشجاعة المقرونة بالإيثار والأخلاق والمثل العليا في تطورها واختلاف نهجها في بغداد، حيث تكونت جماعات وعصابات جعلت هدفها نهب الحوانيت والأسواق، وبيوت كبار التجار والأغنياء والقادة، الذين يرون أنهم أناس جشعون يجمعون الأموال الكثيرة دون أن يؤديوا حقها من الزكاة والصدقة، ساعدهم في ذلك مناصبهم ومراكزهم، وتساهل السلطة معهم، وهذا ما جعل هذه الحركة تبدو على حقيقتها في هذا العصر، حيث اتجهت الحركة إلى التخفيف من الفرق بين الغني الفاحش الذي يتمثل في قلة من رجال بغداد وتجارها وأثريائها، والفقير الشديد المتمثل في السواد الأعظم من الناس^(٢).

(١) ابن الساعي: الجامع المختصر (٢٢١/٩)، ابن الفوطي: الحوادث الجامعة (٢٥٥-

٢٥٦)، أكرم العمري: دراسات تاريخية (٢٧٢)، العسيري: الحياة العلمية في العصر

السلجوقي (١٧٧).

(٢) حول أمر العيارين ونشاطهم ومواقفهم انظر: ابن مسكويه: تجارب الأمم

(٣٣٧-٣٠٥/٢)، ابن الجوزي: المنتظم (٢٢٠/٧)، (٤٤/٨-٤٧-٥٤-٥٥-

ويرى البعض أن الفتوة ترتبط بسندٍ يذكرونه إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، وهذا باطل، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن الإسناد الذي يذكرونه في الفتوة إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إسناد مظلّم، عامة رجاله مجاهيل لا يعرفون، وليس لهم ذكر عند أهل العلم"^(١).

وكانت للفتيان مبادئ أخلاقية وصفات نبيلة، ذكر ابن الجوزي أن الفتى كان "لا يزني ولا يكذب، ويحفظ الحرم، ولا يهتك ستر امرأة"^(٢)، وهذه الصفات الحميدة التي اتصف بها أصحاب الفتوة، ربما اتصف بها عدد غير قليل من الشطار والعيارين، بينما غالبيتهم تتناقض مثل هذه الصفات مع سلوكهم وأعمالهم وعلاقتهم بالناس.

وقد أورد التنوخي قصة تدل على ما ذكرناه من صفاتهم وأخلاقهم، حيث ذكر أن تاجرًا وقع في كمين عيّار يدعى ابن حمدي، فأخذ كل ماله، فحاول التاجر ملاطفته ووعظه، ثم بكى وحلف أن هذا المال الذي أخذته هو كل ما أملك، ثم سأل هذا التاجر ابن حمدي، ما

(٥٧)، ابن الأثير: الكامل (١٠٦/٩-٤١٩-٤٢٢)، حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي: (٣٢-٣٤)، ويربط البعض بينها وبين حركة الفتوة التي نشطت في العصور العباسية المتأخرة. سهيل زكار: تاريخ العرب والإسلام (٣٢٤).

(١) مجموع الفتاوى (٨٢/١١).

(٢) تلبس إبليس (٤٤١)، وحول هذه المبادئ انظر: ابن تيمية: مجموع الفتاوى

(٨٩-٩١).

الذي حملك على هذا؟، فكان جوابه: "يا هذا، الله بيننا وبين هذا السلطان الذي أحوجنا إلى هذا، فإنه قد أسقط أرزاقنا، وأحوجنا إلى هذا الفعل، ولسنا فيما نفعله نرتكب أمراً أعظم مما يرتكبه السلطان، وأنت تعلم أن ابن شيرزاد ببغداد يُصادر الناس ويفقرهم، حتى إنه يأخذ الموسر المكثّر، فلا يخرج من حبسه إلا وهو لا يهتدي إلى شيء غير الصدقة، وكذلك يفعل غيره، ثم إنهم يأخذون أصول الضياع والدور والعقار، ويتجاوزون ذلك إلى الحرم والأولاد، فاحسب أننا نحن مثل هؤلاء وأن واحداً منهم صادرك.

فقال له التاجر: أعزك الله، الظلمة لا تكون حجة، والقبيح لا يكون سنة، وإذا وقفت أنا وأنت بين يدي الله عز وجل، أترضى أن يكون هذا جوابك له؟ ثم أطرق ملياً، وخشي منه التاجر، ثم رفع رأسه وأعطاه نصف ماله، وبعث معه من يوصله آمناً مطمئناً، لأنه يخشى من قطاع الطريق^(١).

(١) الفرج بعد الشدة (٤/٢٣٨)، وابن حمدي - المتقدم ذكره - كان مشهوراً بفتوته وظرفه، وقد أعى السلطان أمره، فخلع عليه ابن شيرزاد سنة (٣٣٢هـ)، وقبض عليه ووافق على أن يؤدي للسلطان في كل شهر خمسة عشر ألف دينار، وأخذ خطه بذلك، وكان يستوفيها منه، ثم إن توزون - وهو أحد الأمراء الأتراك أيام الخليفة المقتفي بالله (٣٢٩-٣٣٣هـ) - كان قد قلد أبا العباس أشكورج الديلمي الشرطة ببغداد، فقبض في نفس السنة أي سنة (٣٣٢هـ) على ابن حمدي وقتله،

وكان المعروف عن ابن حمدي -هذا- والمشهور عنه أنه إذا قطع لم يعرض لأصحاب البضائع اليسيرة التي تكون دون الألف درهم، وأنه لا يفتش امرأة ولا يسلبها، ولا يهتك سترها، كما ذكر ذلك ابن الجوزي أيضًا كما تقدم^(١).

وهكذا كانت أخلاقهم وصفاتهم -رغم التباين الاقتصادي- والظروف الاجتماعية التي أجبرتهم على ذلك، وتلك الأخلاق والصفات ليست حكمًا عامًا عليهم، بل القليل منهم -كما أوضحت- ولكنها مثل وصفات جديرة بأن تذكر، وذلك كي تتضح الصورة عنهم وعن أهدافهم ومناهجهم^(٢).

ومهما يكن من أمر فإن اتخاذ الفتوة هذا المسار، وذلك النهج أدى إلى اختلاف أوضاعها سلبيًا وإيجابيًا، حيث كان أصحاب حركة الفتوة يتحولون إلى شطار وعيارين، ينشرون الفوضى والاضطراب، ويخلون

فأمن الناس وحف شرمهم. انظر: ابن مسكويه: تجارب الأمم (٢/٥١-٥٥)، وعن

الأمير توزون التركي انظر: المنتظم (٦/٣٤٥)، الكامل (٨/٤٤٨).

(١) التنوخي: الفرج بعد الشدة (٤/٢٣٨)، ابن الجوزي: تلبيس إبليس (٤٤١).

(٢) انظر حول ذلك ما كتبه محمد الهلالي عن الفتوة والفروسية، مجلة المورد، المجلد الثاني

عشر، العدد الرابع سنة (١٤٠٤هـ)، (٢٦، ٣٠).

بالآداب، ويخيفون الناس، ويقلقون الأمة، على الرغم من أن المعروف عن الفتي أنه لا يزي ولا يكذب، ولا يهتك ستر امرأة^(١).

وقد أدى ذلك إلى تدهور الأوضاع وسوء الأحوال، الأمر الذي لم يستطع معه رجال الأمن أن يفعلوا شيئاً، لاسيما بعد انضمام بعض أفراد البيت السلجوقي في بغداد إلى هذه التنظيمات السرية، واحتلالهم مراتب عالية بين صفوف العيارين، وهذا ما جعل السلطان السلجوقي لا يهتم ولا يعبأ باستغاثة الناس ومطالبتهم اتقاء شر العيارين، ولكنه كان يخضع أحياناً لمقاومتهم عن طريق ثوابه، خاصة إذا زاد نشاطهم، واستفحل شرهم، وعم فسادهم^(٢).

وعندما أخذت أوضاع العيارين في التبدل والتغير، من حيث التنسيق والتنظيم المتقن، والرصد الدقيق للتحركات، والاتصال بالتحركات

(١) ابن الجوزي: تلبس إبليس (٤٤١)، وانظر حول ذلك أيضاً ما كتبه مصطفى جواد، عن الفتوة وأطوارها في مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الخامس (١٣٧٧هـ)، (٥٢).

(٢) انظر: ابن الأثير: الكامل (٤٥/١١-٨٩-٩٥)، ومن انضم للعيارين، وكان لهم نصيب في الأموال التي يستولون عليها ابن الوزير، وابن قاروت أخي زوجة السلطان مسعود السلجوقي، الذي صُلب بأمر السلطان، أما ابن الوزير فهرب، وقد قبض على أكثر العيارين، وهرب بعضهم عندما رأوا ذلك الحزم، والعمل على وقاية الناس من شرهم، وقد أدى دوراً كبيراً في ذلك إيلدكز نائب شحنة بغداد آنذاك. (ابن الأثير: الكامل (٩٥/١١)).

الباطنية، المناوئة للدولة، وكذلك بالفاطميين العبيديين في مصر، وغير ذلك، كانت كل تلك العوامل والتطورات من أهم وأقوى الأسباب التي أجبرت السلطة العباسية إلى تنظيم حركات الفتوة والسيطرة عليها، وتوظيفها لمصلحة الدولة، وهذا ما فعله الخليفة الناصر لدين الله الذي قرر تشكيل نظام جديد للفتوة يكون مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالخلافة، ودعم قوتها، وحفظ مكانها، وجعلها تحت إشرافه المباشر، وعمم ذلك إلى جميع الممالك الإسلامية، وطلب من الأمراء والملوك الانتماء إلى الفتوة، وتنظيمها في مناطقهم، وجعل لهم لباساً خاصاً بهم، يتميزون به عن غيرهم، وهو عبارة عن قمصان زرقاء وسوداء وخضراء، وفرض شروطاً لمن أراد أن يلتحق بالفتوة، مما جعلها ذات أسس أخلاقية، وقواعد منظمة، وشروط محكمة^(١).

وهكذا أدرك الخليفة الناصر لدين الله ببعده نظره وحسن سياسته، وتفهمه للظروف وأحوالها، وتصدع النواحي الاجتماعية والاقتصادية والأمنية، وانتشار الانحراف والتنازع والبطالة، وما عليه العالم الإسلامي من التشتت والاختلاف وآثار ذلك أمام قوة الصليبيين والأفرنج وخطرهم، ومحاولتهم النيل من المسلمين وقتالهم ونهب أراضيهم وسلب

(١) أكرم العمري: دراسات تاريخية (٢٧٣)، قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي

(١٠٢/١-١٠٣)، محمد الهلالي: الفتوة والفروسية (٣١)، مجلة المورد، المجلد الثاني

عشر، العدد الرابع، ١٤٠٤هـ).

ممتلكاتهم، كلما رأوا الفرصة متاحة لتحقيق ذلك الهدف، وجميع ذلك دفعه بقوة وإخلاص على الاهتمام بشباب الأمة الإسلامية الذين يمثلون قوتها وهيبتها ومستقبلها، وتدعيم دورهم، وهذا ما جعله يوجه تلك الثروة إلى الفتوة الجديدة التي وجد فيها أسلوباً مثالياً جديداً لتجمع قوة شباب المسلمين تحت لواء واحد، وهدف واحد يخدم المسلمين، ويدعم الخلافة، ويعين على إصلاح الأوضاع وتحسينها واستقرار الأمن ومشاركة الجميع في تثبيت دعائم الدولة وتحقيق أهدافها في خدمة الإسلام، وصالح المسلمين العامة.

وقد نجح الخليفة الناصر لدين الله إلى حد بعيد في سبيل تحقيق هدفه من ذلك التنظيم الجديد للفتوة، حيث تضمن تدريباً خاصاً على مختلف فنون بناء الجسم وقوته، وفنون القتال وأساليبه، والاهتمام بالفروسية والرماية.

وتجنباً للنزاع والاختلاف بين أفراد الفتیان وأحزابهم، أصدر الخليفة الناصر عام (٦٠٤هـ) منشوراً بإبطال جميع التنظيمات القديمة للفتوة، وإثبات التنظيم الجديد الذي استحدثه، حيث ذكر ابن الساعي في حوادث سنة (٦٠٤هـ) ما نصه: "في هذه السنة أهدرت الفتوة القديمة، وجعل أمير المؤمنين الناصر لدين الله ﷺ القبلة في ذلك، والمرجوع إليه فيه، وكان قد شرف الشيخ عبد الجبار بن صالح البغدادي الزاهد بالفتوة إليه، فدخل في ذلك كافة من الخاصة والعامة، وسأل ملوك الأطراف

الفتوة فأنفذ إليهم الرسل، ومن ألبسهم سراويلات الفتوة بطريق الوكالة الشريفة، وانتشر ذلك ببغداد، وتفتى الأصاغر والأكابر^(١).
ثم أصدر أيضاً في شهر صفر من السنة المذكورة -أنفاً- مرسوماً يتضمن تقرير قواعد الفتوة وشروطها^(٢).

وما من شك في أن سوء الحالة الاقتصادية، واحتكار معظم موارد الدولة وثرواتها لطبقة خاصة، وتطور الأوضاع الاجتماعية وتباين مظاهرها وأحوالها، ومعاناة الناس من الفقر والجوع، وانعدام الأمن، كان له أكبر الأثر على حياة الناس العامة خلال العصر السلجوقي، وذلك لعدم الاستقرار، وانتشار الفساد، وتفشي السلب والنهب، وتأثر المجتمع بالعادات السيئة الدخيلة والتيارات المنحرفة والهدامة كالباطنية وغيرها.
لذلك لم يكن من الغريب أو المفاجئ أن تظهر مجموعات مختلفة من الناس يستترون بالدين ويستغلونه لخدمة أهوائهم وأغراضهم ومصالحهم الخاصة، فتجدهم يلبسون ثياب الزهد والورع والدعوة إلى الإصلاح، ويرتزقون من جراء ذلك المظهر والتستر بالدين، وقد أخذ الأمراء والسلاطين يقربون هؤلاء الأذعياء ويشجعونهم، ويدللون الصعوبات أمامهم في محاولة منهم لتحسين علاقاتهم بالعامة، وتغيير الصورة التي علقت في أذهان الناس.

(١) ابن الساعي: الجامع المختصر (٢٢١/٩).

(٢) المصدر السابق (٢٢٣/٩).

وقد أدى ذلك إلى حدوث تطور مفاجئ كان له أثره الخطير في العقيدة، حيث انتشر في أعقاب هذه المرحلة اتخاذ التكايا ورباطات^(١) الصوفية^(٢) مراكز قيادية لأنشطة اجتماعية لها خطرها وضررها السلبى؛

(١) أنشأ الخليفة الناصر رباطاً سنة (٥٨٥هـ) وجرى له احتفال مشهود، كما أنشأ رباطاً آخر سنة (٥٨٩هـ) وهذا يؤكد أن الخليفة كان يتقرب من الاتجاهات التي تظهر على مسرح الأحداث، ويسعى إلى عدم مجاهتها بالعنف، بل يتعامل معها بما يتمشى مع مصلحة الخلافة واستعادة مركز الدولة الديني والسياسي، ولاشك أن لمثل هذا التساهل والتسامح خطره الكبير وأثره العظيم الذي لا يخفى، لاسيما في ظل انتشار ونشاط المذاهب الفكرية الضالة. انظر حول تلك الأربطة: ابن الأثير: الكامل (١٢/٤٢-٢٠٤)، الغساني: العسجد المسبوك (٢٢٤)، جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٣/٢٢٧)، وللرباط معان عدة، حيث يطلق على الإقامة على جهاد العدو في الحرب، وارتباط الخيل وإعدادها، وملازمة ثغر العدو، ومنه قوله تعالى: ﴿وَصَابِرُوا وِرَابِطًا﴾، ويطلق أيضا على ملجأ الفقراء من الصوفية، وغيرها. انظر حول ذلك: ابن منظور: لسان العرب (٧/٣٠٢)، الفيروز آبادي: القاموس المحيط (٢/٣٧٤)، المعجم الوسيط (١/٣٢٣).

(٢) الصوفية: هي حركة دينية، وطريقة سلوكية، انتشرت في العالم الإسلامي عقب اتساع الفتوحات، وزيادة الرخاء الاقتصادي كردة فعل مضادة للانغماس في الترف الحضاري مما حمل بعضهم على الزهد والتقشف الذي تطور بهم حتى أصبح لهم طريقة مميزة معروفة باسم "الصوفية"، ولكنهم جنحوا في المسار بعد ذلك حتى تداخلت طريقتهم مع فلسفات هندية وفارسية ويونانية مختلفة، أي أنهم يبالغون في الزهد والتقشف لدرجة تخرجهم عن تعاليم الإسلام، وللصوفية مددٌ من كل نحلة

لأنها بثت في المجتمع روح التواكل والقنوط إذ لم يحصل ذلك التفاعل الحقيقي والمطلوب مع روح العقيدة الإسلامية، حيث لم تكن هناك

ودين إلا دين الإسلام لأن عقيدة الصوفية تختلف عن عقيدة الكتاب والسنة، حيث تنتسب إلى كل نخلة مارقة، وتنتهب منها أحب ما تدين به، ثم تفتريه لنفسها، انظر : عبد الرحمن عبد الخالق: الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة (٣٧-٤١)، عبد الرحمن الوكيل: هذه هي الصوفية (١٩-٢١). وعلم التصوف: مجموعة المبادئ التي يعتقدونها المتصوفة، والآداب التي يتأدبون بها في مجتمعاتهم وخلواتهم. انظر حول الصوفية وأسباب التسمية والأقوال في ذلك، وأبرز شخصياتهم، وأفكارهم ومعتقداتهم في: ابن الجوزي: تلبس إبليس (١٨٥) وما بعدها، ابن تيمية: الفتاوى (١١م) عن "التصوف"، (١٠م) عن "السلوك"، طبعة (١٣٩٨هـ)، عبد الرحمن عبد الخالق: الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، مكتبة ابن تيمية، الكويت، الطبعة الثانية، عبد الرحمن الوكيل: هذه هي الصوفية، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٩٨٤م)، حمدي عبد الرزاق، شطحات المتصوفة في طبقات الشعرا، دار الحقيقة للإعلام الدولي، المعجم الوسيط (٥٢٩/١)، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة (٣٤١)، وللتوسع أيضاً انظر : عبد المجيد بدوي: التاريخ السياسي والفكر للمذهب السني من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد (٦١)، أحمد أمين: ظهر الإسلام (١٤٩/٤)، آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع (٣٦٦/١)، وكتاب "فتاوى وسائل في ابن عربي الصوفي"، جمع وتحقيق الدكتور موسى الدويش، طبعة (١٤١١هـ)، وانظر كذلك ما كتبه الدكتور إبراهيم بن محمد البريكاني في مجلة البحوث الإسلامية، العدد (٤١)، شهر صفر (١٤١٥هـ)، بعنوان "التصوف في ميزان النقل والعقل" (١٣٩-٢٣٤).

استجابة واعية لداعي الجهاد في سبيل الله لأنهم ألقوا تلك الزوايا والأربطة، وتأثروا بها^(١).

لذلك يرى البعض أن حركة الفتوة تأثرت كثيراً بالمفاهيم الصوفية في مُدَّة من تاريخها، لأن مثل تلك المراكز كانت تضم أشتاتا من الناس، من مختلف أجزاء البلاد، حيث كانوا يأكلون ويشربون ويدعون للخلفاء والسلاطين بالخير والبركة والعزة، لاسيما إذا كانوا يمدونهم ويدعمونهم في أربطتهم وزواياهم تلك^(٢).

والخلاصة أن الفتوة كانت سمة بارزة من سمات العصر السلجوقي من الناحية الاجتماعية، ودراسة الحياة الاجتماعية للعراق في هذا العصر - كما هو الحال في كل العصور الأخرى، لا بد وأن تكون متأثرة إلى حد بعيد بالحياة الاقتصادية والظروف السياسية- كما تقدم توضيح ذلك وبيانه عند الحديث عن الفتوة.

وعندما نقول إن الفتوة تأثرت بالمفاهيم والأفكار الصوفية، لا بد وأن أشير إلى أن طبقة رجال الصوفية كانت من أهم طبقات المجتمع في العصر السلجوقي، حيث كان لانتشار تعاليمها أثر كبير في ميل الناس إلى

(١) العسيري: الحياة العلمية في العصر السلجوقي (١١٩-١٢٠).

(٢) من هولاء البعض: محمد الهلالي: "الفتوة والفروسية" (٣٢)، مجلة المورد، (١٢م)،

العدد الرابع (١٤٠٤هـ)، نوري القيسي: "الفتوة تطور ودلالة" (١٩٧)، مجلة

المجمع العلمي العراقي، (٣م) الجزء الثالث (١٤٠٣هـ).

حب الوحدة والاعتكاف، والعزلة، وعدم الاختلاط بالناس، مما جعل حياتهم يسودها القلق والشك، وانعدام المثل والقيم الأخلاقية إلى حد بعيد، وعدم الإخلاص في التعامل، واحترام الغير، ولعل ابن جبير يُدلل على ذلك، فقد زار بغداد عام (٥٨٠هـ)، وذكر ما نصه: "وأما أهلها فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع بالتواضع رياءً، ويذهب بنفسه عجباً وكبرياءً، يزدرون الغرباء، ويظهرون لمن دوهم الأنفة والإباء، ... فالغريب فيهم معدوم الإرفاق، متضاعف الإنفاق ..."^(١).

وفي ختام الحديث عن الفتوة يجب أن أوضح أنه بعد أن كان نظام الفتوة قائماً على نظم وقواعد وأسس ومنهج معين، استفادت منه الخلافة كثيراً في عهد الخليفة الناصر، ما لبث أن أصبح ضرراً عليها، وشراً ووبالاً على الرعية، لأن العاملين في الفتوة استغلوا المصادمات التي تحدث بسبب الفتن المذهبية والطائفية، وظهرت عصبية المحلات بشكل قوي ومؤثر، وانشغال السلطنة بإخماد هذه الفتن وإطفائها، فأخذوا يشنون حملاتهم العدوانية، ويعيثون في الأرض فساداً، ويسرقون الأموال وينهبون البيوت،

(١) ابن جبير: الرحلة (١٧٤)، ويجب أن أوضح هنا أن ابن جبير قد بالغ كثيراً في هذه الأوصاف التي لا يعقل أنها تسري على أهل بغداد كلهم، ولعله تنبه لذلك في نهاية حديثه عندما قال: "...أستغفر الله إلا فقهاءهم المحدثين، ووعاظهم المذكّرين"، وليس هؤلاء من أهل بغداد؟ على أننا لا نغفل دور الصوفية فيما وصل إليه أصحاب تلك الأوصاف.

ويخيفون الناس، فأحيوا بذلك حركة العيارين وزاد نشاطهم، واستفحل أمرهم^(١).

ولا أريد أن أطيل في الحديث عن الفتوة، ففيما أوضحناه كفاية، لأن ذلك قد يخرج بنا عن نطاق البحث الذي نحن بصدده^(٢).

(١) أكرم العمري: دراسات تاريخية (٢٧٣-٢٧٤).

(٢) للمزيد من التفاصيل حول الفتوة، انظر: مصطفى جواد: الفتوة وأطوارها، مجلة المجمع العلمي العراقي، (٥٢-٥٣)، سنة (١٣٧٣هـ)، محمد الهلالي: الفتوة والفروسية العربية والإسلامية، مجلة السورد، (١٢م)، العدد الرابع، (٢٣)، (١٤٠٤هـ-١٩٨٣م).

وبجانب حركة الفتوة ظهرت في الشام والجزيرة الفراتية حركة موازية لها متداخلة معها، وهي حركة الأحداث التي تكونت في بلاد الشام لمقاومة الحكم الفاطمي هناك منذ النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، وهم جماعة من القوات المدنية مهمتهم حفظ النظام، ومكافحة النيران، وإغاثة المنكوبين، بالإضافة إلى انضمامهم إلى القوات النظامية لمحاربة الأعداء وقت الحاجة إليهم، وهي حركة ظهرت نتيجة سوء الأوضاع السياسية والاجتماعية في بلاد الشام والجزيرة منذ النصف الثاني من القرن الثالث الهجري عندما ضعفت الدولة العباسية وضاع سلطانها، واشتدت حملات البيزنطيين على المدن والثغور الإسلامية، وتوالت فتن القرامطة، وانتشرت الفوضى وعدم الأمن. انظر حول جماعة الأحداث وزعمائها وأعمالها: علي محمد الغامدي: بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي (٥٠)، سعيد عاشور: المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ضمن كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى (٣٠-٣١)، مسفر الغامدي: الجهاد ضد الصليبيين (٤٩).

وبعد أن ألقى الضوء على حياة الخليفة الناصر لدين الله وشخصيته وسيرته، ومواقفه، وطموحاته، وضبطه الأمور، وتعامله مع مجريات الأحداث والمستجدات، ومحافظته على استقرار الخلافة وهيبتها ومكانتها، واهتمامه بالفتوة، وتصديه لإصلاحها، يتضح لنا مدى ما كان يتمتع به من حنكة سياسية ودهاء وبعد نظر، واهتمام بالرعية، وتفقد أحوالهم، ومجاهته التيارات الهدامة، واهتمامه بالحديث، وتوثيق صلته بالعلماء، ومناصرته لهم، ودعمه المجاهدين، ومع ذلك نجد أن المؤرخين الذين وصفوه بالحزم والشجاعة والاهتمام بالرعية، ودعمه للعلماء وتصديه لأهل الفساد، نجدهم في الوقت نفسه يذهبون إلى أن الناصر كان رديء السيرة في الرعية، ظالماً، وكان يميل إلى مذهب الشيعة، الأمر الذي يجعلنا نحتاج إلى تحقيق وتثبت وتوثيق، ومقارنة بين النصوص والمصادر، وتوضيح مثل هذا الأمر الخطير بإثباته أو نفيه لعلاقته الماسة بالدين والعقيدة، لاسيما علاقته بالتشيع^(١).

(١) ما جعلني أطرق هذا الموضوع بالدراسة والتحليل، هو أهميته بالنسبة للدارسين والباحثين للعصر السلجوقي، وعدم تطرق أكثر الباحثين في العصر السلجوقي لهذا الموضوع المهم، ولذا أحببت أن يستفيد الإخوة الباحثون وطلبة العلم المهتمون بمثل هذه الدراسات، لأن أكثر الباحثين ينصب اهتمامهم على النواحي السياسية والعسكرية والاجتماعية ونحوها، دون إعطاء مثل هذا الجانب حقه من البحث.

أي أن ما ذكره ابن الأثير، وابن واصل، والسيوطي، وابن العماد، والقرماني، من أنه كان قبيح السيرة، ظالمًا، يميل إلى التشيع^(١)، يجب أن ندرسه دراسة متأنية منصفة، والتثبت من ذلك، وتوضيح النتيجة التي نتوصل إليها بعد دراسة سيرته وأعماله ومواقفه وظروف عصره.

فأما عن اهتمامه بالرعية، فبعد أن حافظ على قوة ومكانة الخلافة، وعلاقة ذلك بتطورات الأحداث داخليًا وخارجيًا، عمل على الاهتمام برعيته، حيث ألغى الضرائب والمكوس، وجعل عشرين دارًا للضيافة يفطر فيها الصائمون من الفقراء^(٢)، وتحديد سور بغداد، واهتمامه بالمجالين التعليمي والعمرائي، وإنشائه الربط وخزائن المكتبات، ونقل الكتب إليها، ومراقبته الأوضاع، وتفقدته أحوال الناس بنفسه، وحسن خلقه^(٣)،

(١) ابن الأثير: الكامل (٤٤٠/١٢)، ابن واصل: مفرج الكروب (١٦٦/٤)، السيوطي: تاريخ الخلفاء (٤٥١)، ابن العماد: شذرات الذهب (٩٨/٥)، القرماني: أخبار الدول (١٧٨)، إلا أن ابن الأثير لم يذكر تشييعه، بل أشار إلى سوء سيرته وظلمه وتناقض أفعاله.

(٢) ابن الأثير: الكامل (٢٧٨/١٢)، ابن الساعي: الجامع المختصر (٢٥٨/٩)، ابن كثير: البداية والنهاية (٥١/١٣)، وكان الناصر قد أمر بأن يُدفع لكل فقير عند عزمه على السفر دينارًا بعد أن يُكسى ويُعطى زاده. ابن الساعي: الجامع المختصر (٢٥٩/٩).

(٣) الأربلي: خلاصة الذهب المسبوك (٢٨١)، ابن كثير: البداية والنهاية (٦/١٣)، الغساني: العسجد المسبوك (٢٢٤)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٣٢/٦)،

فهل بعد هذه الأعمال العظيمة يمكن أن يوصف بالظلم وعدم الاهتمام بالرعية وسوء السيرة؟^(١).

أما عن تشييعه أو ميله للتشييع، فهو أمر خطير وله مساس كبير بعقيدة المسلم، ولدينا ما يثبت أن الناصر كان يقف ضد الشيعة، ولم يكن يدين أو يميل إلى المذهب الشيعي أو يدعمه، ولكن قبل أن أوضح ذلك يجب أن أشير إلى نقطة مهمة هنا، ينبغي ألا نغفل عنها ألا وهي سقوط السلطنة السلجوقية في عهد الخليفة الناصر، فهي وإن كانت لها مدلولاتها السياسية المتعلقة بالدولة ومكانتها، كانت في الوقت نفسه سبباً مهماً في ضعف القوة الإسلامية، ولاشك أن زوالها كان إعلاناً باهتار الحاجز

ابن العماد: شذرات الذهب (٩٧/٥)، القرمانى: أخبار الدول (١٧٨)، محمد آل ياسين: الحياة الفكرية في العراق (٢٠٥).

(١) مما يدل على اهتمامه بالرعية وحسن سيرته وعدله، قول عبد الملك المكي في كتابه "سمط النجوم العوالي" (٣٧٨/٣-٣٧٩) حين ترجم له: "بويع بالخلافة بعد موت والده... فبسط العدل، وأمر بإزالة الخمر، وكسر الملاحى، وإزالة المكوس، والضرائب، فعمر البلاد، وبسط الأرزاق... وكانت أيامه من غرر الزمان، وكان له إحسان على أهل الحرمين"، وقد ذكر ابن دقماق عنه أيضاً أنه: "كان عالماً فاضلاً أديباً، حسن السياسة، وكان يباشر الأمور بنفسه، ويطلع على أحوال رعيته، وما كان يحتجب عنهم، بسط بساط العدل، وأمر بإزالة الخمر، وكسر الملاحى، وأبطل المكوس، وأوقع بوزراء السوء على الإطلاق، وكثرت الأرزاق، وقصد الناس بغداد من سائر الآفاق". الجوهر الثمين (٢١٥/١).

والسد الذي كان يجمع أولئك الذين كانوا يبذون اهتماماً بالدراسات العقلية والفلسفية من ترويج أفكارهم ومعتقداتهم، حتى أصبح الاشتغال بمثل هذه العلوم أمراً عادياً ومألوفاً بعد سقوط السلطنة السلجوقية، وكان من آثار ذلك أن نشطت كثيراً من الفرق المخالفة لأهل السنة، وفي مقدمة تلك الفرق الباطنية والإمامية وما يتفرع منهما^(١)، الأمر الذي حمل الخليفة الناصر على اتباع سياسة فيها نوع من المرونة والتوازن، والتساهل أحياناً، إدراكاً منه لواقع التغيير الذي فرض نفسه عليه، فلم يجد بُدّاً من انتهاج تلك السياسة التي اضطرت له لتولية بعض الشيعة الإمامية لمراكز وقيادات عليا في الدولة لدرجة أنه استوزر منهم خمسة وزراء في عهده، وقد كان يعزلهم أحياناً، ولاشك أن ذلك يدل على نشاط الشيعة الإمامية في العراق، وتأثيرهم في السلطة، وزيادة قوتهم عقب سقوط السلاجقة في العراق، إضافة إلى سياسة الخليفة المتسامحة (اضطراباً) مع المذاهب المختلفة، وهذا ما جعل الشيعة يدعمون مذهبهم بقوة، وينصرون أتباعهم، ويتسلطون على السنة كما حدث في سنتي (٦٠١ و٦٠٣ هـ)^(٢)، في الوقت الذي كانوا فيه قبل سقوط السلاجقة لا

(١) انظر في ذلك: محمد آل ياسين: الحياة الفكرية في العراق في القرن السابع الهجري (٣٦).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٢٠٣/١٢)، ابن الساعي: الجامع المختصر (٢٠٠/٩-٢٠١)، وهي مجموعة من الفتن حدثت في بغداد، وكذلك انتشرت البدع والخرافات وجهالات الصوفية واعتقادهم الولاية لشيخوهم لاسيما بين العامة، والتفصيل حول

حول لهم ولا قوة تذكر أو نشاط بارز، أو تعبير عن أفكارهم ومعتقداتهم بحرية وعلائية ظاهرة للجميع - كما هو الحال في عهد الخليفة الناصر، وبالتحديد بعد سقوط السلاجقة.

ونتيجة لما تقدم يتضح لنا أن مساندة الخليفة الناصر لأتباع المذهب الشيعي، وتعيين بعض الوزراء منهم^(١)، كان لأمر اضطرارية ومصالحية

هذه البدع والخرافات في عهد الناصر، انظر: دراسات تاريخية للدكتور أكرم العمري (٢٦٧).

(١) من الوزراء الشيعة في عهد الناصر: معز الدين، سعيد بن علي، أبو المعالي، المعروف بابن حديدة الأنصاري، تقلد الوزارة سنة (٥٨٤هـ)، وتوفي سنة (٦١٠هـ)، ومؤيد الدين، أبو المظفر محمد بن علي القصاب، قلده نيابة الوزارة، ثم استوزره سنة (٥٩٠هـ)، ونصير الدين، أبو الحسن، ناصر بن مهدي العلوي الرازي، استناب في الوزارة سنة (٥٩٢هـ)، ثم تقلدها سنة (٦٠٢هـ)، وعزل سنة (٦٠٤هـ)، وتوفي سنة (٦١٧هـ)، وفخر الدين، أبو الوليد محمد بن أحمد الواسطي، استناب في الوزارة سنة (٦٠٤هـ)، وعزل سنة (٦٠٦هـ)، ومؤيد الدين، أبو الحسن محمد ابن محمد بن عبد الكريم القمي، كان نائباً في الوزارة بعد الواسطي سنة (٦٠٦هـ)، واستمر حتى وفاة الناصر، وكانت وفاته سنة (٦٢٩هـ). انظر حول هؤلاء الوزراء وسيرهم: ابن الأثير: الكامل (١٢/٣٠٢، ١٠٨، ١١٢، ٢٧٦، ٤٠٠)، ابن الساعي: الجامع المختصر (٩/١٦٧-٢٨٧)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١٣)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٢١/٣٤٦)، العبر (٣/١٥٣، ١٠٦، ١٧٦)، ابن العماد: شذرات الذهب (٥/٤٢، ٧٨، ٩٧)، ابن طباطبا: الفخري (٣٢٤-٣٢٥)، الغساني: المسجد المسبوك (٤٠٨-٤٠٩)، محمد آل ياسين: الحياة

في الوقت نفسه، يأتي في مقدمتها المحاولة في المحافظة على سلطان الخلافة ومكانتها وهيبتها، ولكن لا بد أن نقول -هنا- إن الانحراف عن المذهب السني -مهما كانت الظروف والمبررات- يُعدُّ من أخطر الأمور سواء على الخلافة والدولة أو على الخليفة نفسه -وهذا ما أثبتته أحداث التاريخ- لأن ذلك سوف يؤثر على عقيدة المسلمين، وكيان أهل السنة عاجلاً أو آجلاً، مهما اتضح للناصر أن ذلك العمل وتلك السياسة قد تحقق المصلحة لدولة الخلافة، لأن ذلك يترتب عليه نتائج سلبية وخطيرة في نفس الوقت، فالعلماء والفقهاء السنة سوف تسوء العلاقة بينهم وبين الخليفة، وهذا لاشك له أثر كبير على الدولة من جهة وعلى الرعية من جهة أخرى، كما أن مثل هذه السياسة تساهم بقدر كبير في تجدد الفتن والاشتباكات بين السنة والشيعة كما كان يحدث في العصر البويهي - بحكم الدعم والتأييد من قبل آل بويه الشيعيين- وفي ذلك كله إضعاف

الفكرية في العراق (٥٣-٥٤)، ومن الزعماء الشيعة الذين تقلدوا وظائف ومراكز عليا في الدولة في عهد الخليفة الناصر لدين الله، الأمير مجد الدين طاشتكين، زعيم خوزستان الذي كان أميراً للحج لسنوات طويلة، وكان غالباً في التشيع، وكانت وفاته سنة (٦٠٢هـ). انظر حول ترجمته وأخباره: ابن الأثير: الكامل (٢٤١/١٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (٤٥/١٣)، الغساني: العسجد المسبوك (٢٠١)، المنذري: التكملة لوفيات النقلة (١٢٧/١٨/٣)، ابن العماد: شذرات الذهب (٨/٥)، وغير ذلك من الشواهد التي تشير إلى نشاط الشيعة في عهد الناصر، وعقب سقوط السلاجقة على وجه التحديد.

للوضع الداخلي للدولة، وتقوية للمذاهب المخالفة لأهل السنة، ومن ثم ضعف قوة المسلمين العامة، وعدم قدرتهم على الوقوف أمام التيارات والمذاهب الفكرية الضالة.

وهكذا يتضح أن الخليفة الناصر كان مضطراً لاتباع تلك السياسة -آنفة الذكر- والمبنية على التساهل نوعاً ما، والمرونة، نتيجة للظروف التي أجبرته على ذلك، وإدراكاً منه لواقع التغيير الذي حدث بعد سقوط السلطنة السلجوقية، ومن هنا كان وصف المؤرخين له بالحنكة والدهاء، والتجربة والسياسة، واهتمامه الكبير بالأخبار حتى كان ذلك سمة مميزة في عصره، وعُدَّ أسد بني العباس^(١).

ومع ذلك كله لدينا من الأدلة ما يدل على أن الخليفة الناصر لم يكن يدين بالمذهب الشيعي، أو أن يكون لديه ميل إلى التشيع، ولعل من أهمها أنه كان ينصر المذهب السني ويؤيده، ويدعمه، ولم يرد ما يشير إلى أن الخليفة الناصر قد تعرض لأحد من أهل السنة بأذى أو تعذيب أو اضطهاد، إلا أن تكون عقوبة لها ما يبررها شرعاً، وهذا ما يمليه عليه واجبه الديني، لكونه إماماً للمسلمين، ولكنها لا تعني كراهية أو حقداً على المسلمين، أو أن تكون لها صلة بالنيل من المسلمين -أهل السنة.

(١) انظر حول هذه الصفات في مقدمة تناولنا لتقويم خلافة الناصر وشخصيته وأعماله.

يضاف إلى ذلك أن الناصر لم يرد ما يشير أيضاً إلى أنه حاول أن يكره أحداً على أن يدين بالمذهب الشيعي، أو أن يأخذ بالأفكار الشيعية أو غيرها من التيارات الأخرى المخالفة لمذهب أهل السنة.

ثم إنّه كان يُعادي معاداة واضحة وجريئة للمذاهب المخالفة للمذهب السني سواء أكان من الشيعة أو الفلاسفة أو غيرهم، ومن أمثلة ذلك ما حدث مع "عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلاني"، حيث قبض عليه الخليفة الناصر، وأمر بإحراق كتبه لما فيها من كتب الفلاسفة، وصادر أمواله عقاباً له وذلك سنة (٦٠٣هـ)^(١).

كذلك أحضر الخليفة الناصر لدين الله الشيخ "عبد الله التميمي البكري" المعروف بابن المارستانية، وأمره بأن يخطب بالناس، فصعد المنبر، وخطب خطبة لعن فيها الفلاسفة، ومن يقول بقولهم أو ينهج منهجهم،

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (٤٥/١٣)، والجيلاني هو: عبد السلام بن الفقيه عبد الوهاب بن الشيخ عبد القادر الجيلاني، والبعض يذكر (الجيلي)، كان أبوه صالحاً، أما هو فقد كان فاسد العقيدة، وكان يتهم بمذهب الفلاسفة، اعتقل قبل موته، وأظهر كتبه، وفيها كثير من الكفریات مثل مخاطبة زحل بالإلهية، وغيرها، ثم أحرقت بملاً من الناس وسجن، ثم شفع فيه أبوه، فأفرج عنه، تولى عدة ولايات وأعمال، توفي سنة (٦١١هـ)، انظر حول ترجمته: ابن الأثير: الكامل (٣٠٥/١٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (٦٨/١٣)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٥٥/٢٢)، أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر (١١٦/٣)، ابن العماد: شذرات الذهب (٤٥/٥).

وكان يخرج كتب الفلاسفة كتابًا كتابًا، فيتكلم في شأنه، ويوضح ما فيه باختصار ويبالغ في ذمه وذم مصنفه، ثم يلقيه في النار^(١).

وكان الناصر يتصدى بقوة لمذهب الشيعة وأتباعه، لاسيما من له وزنه عند الناس، سواء أكان مركزًا مرموقًا في الدولة كالوزراء مثلًا، أو مروجًا للمذهب عن طريق الكتب والتأليف، أو الوعظ وإلقاء الدروس، ومن الأدلة على ذلك ما حدث مع "مجد الدين صاحب هبة الله بن علي" الذي كان أستاذ دار المستضيء، عندما تولى الخليفة الناصر الخلافة رفع منزلته، وعلا شأنه، إلا أنه لم يلبث أن أمر الناصر بقتله، ومصادرة أمواله، لأنه كما يذكر الذهبي وغيره كان رافضياً سبباً، تمكن وأحيا شعار الإمامية، وعمل كل قبيح^(٢)، وذلك سنة (٥٨٣هـ) أي مقتله، وجعل الوزارة من بعده لجلال الدين، أبي المظفر "عبد الله بن يونس" في السنة^(٣) نفسها.

ومما يؤكد ما نذكره بشأن البحث والتحقيق حول ميل الناصر للشيعة، وزيادة في الشواهد والأدلة التي تنفي ذلك موقفه من "خورزمشاه علاء الدين محمد" عندما طلب من الخليفة أن يأمر بذكر اسمه في الخطبة،

(١) محمد آل ياسين: الحياة الفكرية في العراق ص (٣٨).

(٢) العبر (٨٧/٣)، ابن العماد: شذرات الذهب (٢٧٩/٤).

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية (٣٢٨/١٢)، ابن خلدون: العبر (٦٥٣/٣)، الغساني:

العسجد المسبوك ص (٢٠٣).

عند ذلك رفض الناصر تلبية طلبه والاستجابة له، الأمر الذي أشعل العداوة والبغضاء بينهما حتى حذف خورزمشاه اسم الخليفة العباسي من الخطبة على منابر بلاده^(١)، ولعل عدم إجابة الخليفة إلى ذكر اسم خوارزمشاه في الخطبة يرجع - كما يذكر البعض - إلى تحوله وانتحاله عقائد المذهب الشيعي^(٢).

وهذا الموقف يدل بوضوح على أن الناصر كان يقف ضد الشيعة وأفكارهم، ويمنع من انتشار المذهب الشيعي وعقائده ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، على أننا يجب أن لا نغفل الجانب السياسي في هذا الموقف بالذات، وقوة خوارزمشاه، وعظم سلطانه، واتساع ملكه، ومحاولته الاستيلاء على مدينة بغداد، وتهديد الخلافة العباسية^(٣).

كل تلك المواقف والشواهد المتقدمة تدل بوضوح على أن الخليفة الناصر لم يكن لديه ميل إلى التشيع، أو يدين بالمذهب الشيعي - كما ذكر البعض - لأن مواقفه ضد الشيعة تنفي ذلك، فهو وإن كان متساهلاً مرناً معهم، ومن ذلك إسناده الوزارة لبعضهم - كما تقدم توضيحه - لا يكفي ذلك للتدليل على ميله للتشيع، حيث كان يנהج سياسة متوازنة مع

(١) ابن الأثير: الكامل (٣١٨/١٢).

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني (١٠١/٤).

(٣) سبق توضيح العلاقة بين الخلافة العباسية والدولة الخوارزمية في أثناء الحديث عن الخليفة الناصر، وتقويم الخلافة العباسية في عهده، وتوضيح مكانتها وهبتها، ودور الناصر في ذلك.

الاتجاهات كافة تبعاً لما تقتضيه مصلحة الخلافة العباسية، ولما أوصله إليه اجتهاده في ذلك، ونحن لسنا معه في تلك السياسة المتسامحة مع الشيعة وتقليدهم لمراكز قيادية عليا في الدولة، لما في ذلك من الخطر المحقق بالمسلمين -أهل السنة- والتأثير على عقيدتهم ونقائهم من التيارات والأفكار الهدامة، ومع ذلك يجب أن لا نتجاهل الظروف المحيطة بالدولة من كل جانب في أثناء خلافة الناصر، -وقد أقيمت عليها الضوء سابقاً^(١)- والتي أرغمته على نهج تلك السياسة المتساهلة مع الشيعة -من وجهة نظري- ولمثل ذلك شواهد في التاريخ.

والخلاصة التي أميل إليها أن الخليفة الناصر كان يدعم المذهب السني، ويناصره، ويعادي ما يخالفه من المذاهب والأفكار والتيارات الضالة، وقد أنهكته الخلافة وأعبأها، وظروف الدولة الداخلية والخارجية حتى أرغمته على ما فعل من مرونة وتساهل مع بعض أصحاب تلك التيارات، إلا أننا يجب أن نكون منصفين، فلا نتهم الرجل بالتشيع أو الميل إليه، وقد فندنا ذلك -آنفا- وأبطلناه.

وهذه النتيجة جعلتني أطيل إلى حدّ ما في هذا الموضوع، وذلك لأهميته وخطره لما له من علاقة وثيقة في الحفاظ على السنة في ذلك

(١) انظر حول ذلك: من بداية الحديث عن الخليفة الناصر، وتحليل أحداث خلافته، ومواقفه، وجهوده.

العصر، وهو ما أخوض فيه من خلال هذه الدراسة، وصلته القوية بعنوان البحث، وفائدته المرجوة - بإذن الله - للباحثين في العصر السلجوقي. وبعد تلك الحياة الحافلة بالمواقف والجهود التي أدت إلى محافظته على هبة الخلافة ومكانتها، وسعيه الخيث لإكمال سيطرته على البلاد، ومعايشته الأحداث والظروف والمستنجدات، وتطوراتها بين الحين والآخر، مما يدل على ذكائه وحنكته السياسية واهتمامه بالرعية، وشؤون المسلمين، حتى جاء وصف المؤرخين له بالدهاء والحنكة، وأنه أسد بني العباس، وذلك لتجربته وسياسته للأمر، واهتمامه الكبير بأصحاب الأخبار، كي يكون قريبا من الأحداث، فيعمل لكل أمرٍ أو حدث ما يستحقه من الاهتمام والعناية، لما يعود على الجميع بالخير والنفعة والمصلحة العامة للمسلمين.

بعد تلك الآثار الحميدة، والأعمال العظيمة، والجهود البارزة، توفي الخليفة الناصر لدين الله في شهر شوال سنة (٦٢٢هـ)، وقيل آخر يوم من شهر رمضان^(١).

(١) ابن حزم: موجز تاريخ الإسلام - تنمة المحقق - (٦٥٩)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٢٤٢/٢٢)، الإعلام بوفيات الأعلام (٢٥٦)، العبر (١٨٥/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٠٦/١٣)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٢٦٣/٦)، ابن العماد: شذرات الذهب (٩٧/٥).

وكانت مدة خلافته سبعا وأربعين سنة تقريباً، وعمره نحو سبعين سنة، ولم يقم أحد من الخلفاء العباسيين قبله في الخلافة بمثل هذه المدة الطويلة^(١)، أي أنه أطولهم مدةً.

وبنهاية تقويمي خلافة الناصر لدين الله، نكون قد انتهينا من التقويم العام لخلفاء العصر السلجوقي، بصفة عامة، حيث ألقيت الضوء على سيرتهم وأعمالهم ومواقفهم، وأحوال الخلافة في عهدهم، ونظرتهم للأمور والأحداث، واهتمامهم بالرعية، ومتابعتهم أمور المسلمين، ودعمهم لأهل السنة، وتوثيق صلتهم بالعلماء والمجاهدين، ومحاولتهم المستمرة لإعادة سلطاتهم على الخلافة واسترجاع مكائنها^(٢)، وتعاملهم مع الظروف والأحداث التي واكبت عصرهم، وجهودهم الحثيثة لما فيه نصره الإسلام ومصلحة المسلمين، ودور الخلفاء في ذلك^(٣).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (١٣/١٠٦-١٠٧)، ابن دقماق: الجوهر الثمين (١/٢١٥)، المكي: سمط النجوم العوالي (٣/٣٨٠).

(٢) حول الموضوع انظر بتوسع رسالة الأخ الزميل محمد الأمين مولود، رسالة ماجستير، بعنوان "محاولات الخلفاء العباسيين لاسترجاع سلطاتهم في العهد السلجوقي" مطبوعة على الآلة الكاتبة.

(٣) سيأتي بمشيئة الله في الفصول اللاحقة للباب الأول جهود الخلفاء ودورهم ضد الزحف الصليبي والبيزنطي، وجهودهم أيضاً في محاربة الفرق الضالة والتيارات الباطلة، وكذلك جهودهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلاقتهم بالعلماء وأثرها في الحفاظ على كيان أهل السنة في العصر السلجوقي، وذلك في فصول الباب الثاني إن شاء الله تعالى.

الفصل الثاني

الفصل الثاني

" دور الخلفاء العباسيين والسلاطين

السلاجقة وجهودهم ضد الزحف البيزنطي

والصليبي "

الفصل الثاني

" دور الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة وجهودهم ضد الزحف البيزنطي والصليبي "

من الضروري قبل أن أعرض لجهود الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة ضد البيزنطيين والصليبيين والأعمال المجيدة التي قاموا بها، وجهادهم المتواصل في سبيل ذلك، رغم الظروف المحيطة بهم، أرى من الأهمية التي لا غنى عنها أن ألقى الضوء على موقف الإمبراطورية البيزنطية من الدولة الإسلامية، ثم الحديث عن أحوال العالم الإسلامي قبيل الغزو الصليبي بإيجاز، كي لا أخرج عن نطاق البحث وموضوعه، لاسيما وأن فائدة هذا العرض الموجز تكمن في بيان الأسباب الحقيقية التي من أجلها قامت هذه الحرب الضروس التي أفرزت ذلك الجهاد الإسلامي العظيم وسطرت أسماء خالدة في تاريخ البشرية عامة، وفي تاريخنا الإسلامي المجيد خاصة.

فأما موقف البيزنطيين من المسلمين فمتّضح وظاهر منذ أيام الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومنذ استطاع المسلمون فتح مصر والشام وفلسطين، ولم يكتفوا بذلك بل حاولوا فتح القسطنطينية أكثر من مرة أيام الخلافة الأموية، فلما كانت الدولة العباسية كثرت غارات البيزنطيين على أراضي المسلمين، ساعدتهم على ذلك نقل العاصمة الإسلامية إلى بغداد، ومع ذلك كان للعباسيين اسم عظيم يُلقى الرعب في نفوس

البيزنطيين، الذين أرغمهم الخلفاء العباسيون على دفع الجزية - أحياناً- ومعلوم أنه لا تُذكر الدولة العباسية والدولة البيزنطية إلا ذكر معهما انتصار الخليفة المعتصم بالله على الروم انتصاراً ساحقاً في عمورية^(١).

أما في العصر العباسي الثاني -وهو عصر الدول المستقلة- والتي كان من أهمها بالنسبة للصليبيين دولة الحمدانيين، فقد طال النزاع بين المسلمين والبيزنطيين، وكان النصر سجلاً بينهما، ذلك لأنه كان للبيزنطيين آمال صليبية لم تخف على أذهان المسلمين، وكانت تهدف دائماً إلى الظفر بالأماكن المقدسة، ومن أجل ذلك خاضوا حروباً كثيرة ضد الإسلام، استطاعوا من خلالها الاستيلاء على كثير من حصونه، والاستيلاء على كثير من بلاده^(٢).

(١) عمورية: بلدة في بلاد الروم، وهي الموصوفة بأنها مدينة في الشرق، وأمنع وأحصن بلاد الروم. انظر: ياقوت: معجم البلدان (١٥٨/٤)، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص (١٧٠)، وقد سجل الشاعر العباسي أبو تمام انتصار المسلمين في عمورية أقوى تسجيل وأبرعه من خلال قصيدته الخالدة التي مطلعها:
السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
وللوقوف على سيرة أبي تمام حبيب بن أوس الطائي وشعره انظر: (تاريخ بغداد (٢٤٨/٨)، وفيات الأعيان (١١/٢)، حنا الفاخوري: تاريخ الأدب العربي ص (٤٨٠)، وما بعده .

(٢) عبد اللطيف حمزة: أدب الحروب الصليبية ص (١١).

والواقع أن الانحلال والضعف الذي أصاب الخلافة العباسية والتفكك الذي اعترى وحدة الدولة الإسلامية هو الذي مكن الأعداء -من بيزنطيين وصليبيين- في العدوان على الإسلام وبلاد المسلمين، حيث نشأت دويلات مستقلة انفصلت عن جسم الخلافة العباسية، ومن الممكن أن نتصور ما كانت عليه الخلافة العباسية من ضعف وانحلال وتمزق، مما أورده بعض المؤرخين حول ذلك حيث ذكروا ما يلي: "...وأما باقي الأعمال، فكانت البصرة في يد ابن رائق، وخوزستان والأهواز^(١) في يد ابن البريدي، وفارس في يد عماد الدولة بن بويه، وكرمان^(٢) في يد أبي علي بن إلياس، والري وأصبهان والجل في يد ركن الدولة ابن بويه، وينازعه في هذه الأعمال وشمكير بن زيار، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد ابن حمدان، ومصر والشام في يد محمد بن طغج الإخشيدي، والمغرب وأفريقيا في يد العبيديين، والأندلس في يد عبد الرحمن الناصر،

(١) الأهواز: ناحية عظيمة تحتوي على سبع كور بين البصرة وفارس، لكل كورة منها اسم ويجمعهن الأهواز. انظر: البكري: معجم ما استعجم (٢٠٦/١)، ياقوت: معجم البلدان (٢٨٤/١)، القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص (١٥٢).

(٢) كرمان: ولاية مشهورة، وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان، وهي بلاد واسعة الخيرات، وافرة الغلات، وكانت أيام السلاجقة من أعمر البلدان وأطيبها. انظر: ياقوت: معجم البلدان (٤٥٤/٤)، القزويني: آثار البلاد ص (٢٤٧)، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية (٣٣٧).

وما وراء النهر في يد ابن سامان ، وطبرستان في يد السديلم، والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القرمطي^(١).

(١) مسكويه: تجارب الأمم (٣٠٥/١)، الهمذاني: تكملة تاريخ الطبري (٣٠٧/١)، ابن الأثير: الكامل (٣٢٣/٨-٣٢٤)، المكّي: سبط النجوم العوالي (٣٦٢/٣)، انظر حول القرامطة: بندلي جوزي: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام في الفصل الخامس الذي عقده عن القرامطة (١٢٢-١٦٦)، ومحمود إسماعيل: الحركات السرية في الإسلام (١٠٩-١٣٧)، مع التنبه وأخذ الحيطه عند قراءتهما ، وما كتبه محمد الخطيب في كتابه "الحركات الباطنية في العالم الإسلامي" (١٣٥٩)، وعن معتقداتهم (١٥٩)، وما بعدها، وكذلك كتاب (القرامطة) لمحمود شاكر (ط١ المكتب الإسلامي سنة (١٩٨٤م)، وما كتبه أيضاً عبد الله سعيد بالحداد في مجلة الجندي المسلم العدد (٥٢) شهر جمادى الآخرة (١٤٠٩هـ) تحت عنوان "القرامطة ما عليهم وما عليهم" (٤٧-٥٠)، وعن بلاد ما وراء النهر انظر محمود شيت خطاب: "بلاد ما وراء النهر" مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الثالث والثلاثون الجزء الرابع (١٤٠٣هـ-١٩٨٢م) (٩١)، ويتضح من خلال النص المتقدم كثرة الحركات الانفصالية التي قامت في جسم الدولة، والتي أدت إلى ظهور وحدات سياسية مستقلة على حساب الخلافة، فمن ذلك مثلاً: (الدولة الحمدانية (٣١٨-٣٩٢هـ)، والدولة الإخشيدية (٣٢٣-٣٥٨هـ)، والدولة الفاطمية (٢٩٧-٣٥٨هـ)، ودولة الأدارسة (١٧٢-٣٦٤هـ)، والدولة الطولونية (٢٥٤-٢٩٢هـ)، وغيرها، أما في شرق العالم الإسلامي فنجد: الدولة الطاهرية (٢٠٥-٢٥٩هـ)، والدولة الصفارية (٢٥٤-٢٩٠هـ)، والدولة السامانية (٢٠٤-٣٩٥هـ)، ولاشك أن هذا الوضع كان من أكبر الأدلة على ضعف الدولة العباسية وعدم قدرتها على بسط سيطرتها ونفوذها على أرجاء الدولة الإسلامية.

وهكذا فقد شجعت أوضاع العالم الإسلامي المتردية في تلك المرحلة البيزنطيين والصليبيين لشنّ عدوانهم على البلاد الإسلامية، كما مهد ذلك السبيل للمغول لاجتياح أقاليم بلاد ما وراء النهر وفارس والعراق، حيث بدأت الدولة البيزنطية في أوئل القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي - سلسلة الهجمات العدوانية الخارجية التي تعرضت لها الأمة الإسلامية، حيث تحول موقف الامبراطورية البيزنطية من الدفاع إلى الهجوم، وجاء التحول حين أدرك البيزنطيون أنهم لا يواجهون على حدودهم الشرقية، دولة إسلامية موحدة مثلما كان عليه الحال أيام الأمويين والعباسيين الأوائل، وإنما صاروا لا يرون إلا دولة مفككة أضعفتها الانقسامات السياسية والمذهبية، مما أدى إلى انحلال قوتها وطمع الأعداء المتربصين بها، والواقع أن تلك الهجمات أو الحروب الموجهة ضد الخلافة العباسية بصفة عامة لم تكن سوى مقدمة وتوطئة لحركة شاملة أزمعت الدولة البيزنطية القيام بها، وذلك للانتقام من المسلمين لما حلّ بها على أيديهم طوال القرون الثلاثة السابقة.

وهكذا بدأت الدولة البيزنطية بالتوسع على حساب المسلمين في أطراف آسيا الصغرى والشام، ولم تأت سنة (٣٤٨هـ - ٩٥٩م)، إلا وكانت الجيوش البيزنطية قد شارفت الثغور الشمالية للعراق فيما وراء نهر دجلة، وواصلت اعتداءاتها الصليبية على المسلمين، لاسيما في بلاد الشام، فقد عاث البيزنطيون فساداً في كثير من مدنها، وأحرقوا مساجدها، وخرّبوا معالم حضارتها، وغنموا وسلبوا، وهذا ما حدث بالفعل في مدينتي

أنطاكية ونصيبين، وباستيلاء البيزنطيين على أنطاكية يكونون قد بلغوا قمة حركتهم التوسعية على حساب المسلمين في القرن الرابع الهجري^(١). ويتحدث المؤرخ ابن الأثير عن ملك الروم في معرض حديثه عن حوادث سنة (٣٥٨هـ-٩٦٨م)، فيقول: "... دخل ملك الروم الشام، ولم يمنعه أحد، ولا قاتله، فسار في البلاد إلى طرابلس، وأحرق بلدها، وقصد ملك الروم حمص، وكان أهلها قد انتقلوا عنها فأحرقها ملك الروم، وأقام في الشام شهرين يقصد أي موضع شاء، ويخرب ما شاء، ولا يمنعه أحد"^(٢).

ولعل هذا النص المتقدم يوضح بجلاء مدى قوة البيزنطيين^(٣) في تلك المدّة، ويدلّل أنهم كانوا قوة صليبية مدمرة في بلاد الشام قبل قدوم الصليبيين الغربيين.

(١) للتفاصيل عن اعتداءات البيزنطيين واستيلائهم على بعض المدن الإسلامية وتخريبها، انظر: ابن الأثير: الكامل (٥١٧/٨-٥٢٧-٥٣٦-٥٤٠-٥٥٢-٥٥٥-٥٦٠-٥٧٢-٥٨٩)، وذلك في حوادث سنة (٣٥٤هـ)، إلى سنة (٣٥٨هـ)، فقط، أي أنها نماذج فقط لا تمثل كل الاعتداءات البيزنطية.

(٢) الكامل في التاريخ (٥٩٦/٨)، وكذلك ابن كثير: البداية والنهاية (٢٦٦/١١).

(٣) لمزيد من التفاصيل حول الدولة البيزنطية ودراسة التاريخ البيزنطي، والأسر والحكام الذين تابعوا عليها، انظر: الدولة البيزنطية، للدكتور السيد الباز العريبي دار النهضة العربية (١٩٨٢م)، بيروت.

وهكذا ظلّ البيزنطيون يتقدمون في حروبهم التوسعية، ويحرزون النصر على حساب المسلمين، حتى أوقف هذه الأطماع ظهور الفاطميين أولاً، والذين ما لبثوا أن فرضوا سيادتهم على معظم بلاد الشام؛ بعد أن استردوا ما غنمه البيزنطيون من المسلمين، ثم السلجوقيين ثانيًا الذين عُرفوا بالتحمس الشديد لمذهب السنة، حيث استطاع هؤلاء السلاجقة - فوق سيطرتهم على الخلافة العباسية في بغداد- أن يملكوا إرمينيا، وآسيا الصغرى، واستردوا كذلك بيت المقدس، وحلب، وأنطاكية، والرملة، فألقوا بذلك الرعب في قلب الدولة الفاطمية، كما ألقوا كذلك رعبًا أشد في قلب الإمبراطورية البيزنطية، وخاصة منذ أن هزموا عاقلها الأكبر (أرمانوس) في موقعة من أهم المواقع الفاصلة في التاريخ وهي موقعة (ملاذكرد)^(١)، وبذلك أجهضوا الآمال الصليبية لتلك الإمبراطورية البيزنطية في الشرق الإسلامي، ومنذ ذلك الوقت اهتزت كفة الدولة الفاطمية، ورجحت عليها كفة السلاجقة الذين اقترن بظهورهم تاريخ الحروب الصليبية في الشرق.

وقبل الخوض في جهود ومواقف الخلفاء العباسيين والسلاجقة وتصديهم ضد الزحف البيزنطي والصليبي، أرى من الضروري أن أوضح

(١) سيأتي تفصيل لهذه الموقعة من خلال هذا الفصل -بمشيئة الله تعالى.

- باختصار - ماهية الحروب الصليبية ودوافعها دون التطرق لتفاصيل الحملات الصليبية؛ لأن ذلك قد يخرجنا عن نطاق البحث وموضوعه^(١).
والواقع أن معظم الباحثين قد اتفقوا على تعريف الحروب الصليبية^(٢) بأنها " حركة نبعت من الغرب الأوروبي النصراني، واتخذت شكل هجوم حربي استعماري على بلاد المسلمين، وبخاصة في المشرق الإسلامي " ^(٣).

- (١) للتفاصيل عن الحروب الصليبية وحملاتها وأحداثها، انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، الجزء الأول، فائد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، عماد الدين خليل: المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، سهيل زكار: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، محمد العروسي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب: عبد الله الغامدي: صلاح الدين والصليبيون، أحمد شليبي: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، الجزء الخامس، علي عبد الحلیم محمود: الغزو الصليبي والعالم الإسلامي.
- (٢) سميت الحروب الصليبية بهذا الاسم لأن الجنود الأوربيين كانوا يضعون على صدورهم إشارة الصليب، الرمز المقدس لدى جميع (النصارى)، (فائد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية (٧٨)، محمد العروسي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب (٤٧)، محمد حسين شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد (١٣٧)، علي عبد الحلیم محمود: الغزو الصليبي والعالم الإسلامي (٢٧)، هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب (١٠٦).
- (٣) سعيد عاشور: الحركة الصليبية (٢٦/١)، محمد الهرفي: شعر الجهاد في الحروب الصليبية (٣٥)، محمد حمادة: وثائق الحروب الصليبية (١٧-٢٥).

ولقد كان الهدف الظاهري من غزو الصليبيين الشرق الإسلامي هو تخليص الأماكن المقدسة من أيدي المسلمين واحتلال بيت المقدس، في حين أن غرضها الحقيقي هو استعمار بلاد الشرق الإسلامي الغنية بخيراتها وثرواتها المتنوعة، وذات الموقع الاستراتيجي الهام، وكذلك الحد من الزحف الإسلامي الذي كان يغزو العالم.

وقد اتخذت هذه الحركة الصبغة الدينية سواء بالنسبة للمسلمين أو الصليبيين^(١)؛ أي أن الهجمات العدوانية التي شنتها أوروبا النصرانية على الجبهة الإسلامية في المشرق خلال قرنين من الزمان، وبالتحديد منذ نهاية القرن الخامس الهجري حتى أواخر القرن السابع، هي التي تُعرف بالحروب الصليبية.

وقد عاصرت الدولة العباسية هذه الحروب من أوائلها حتى نهايتها، وأدّى السلاجقة دوراً عظيماً في الجهاد ضد الصليبيين بالتعاون مع الخلفاء العباسيين آنذاك^(٢).

أما عن الأسباب والعوامل التي أدت إلى إشعال الحروب الصليبية التي تمثل دوراً هاماً في تاريخ الشرق والغرب، وصوراً من الصراع بين النصرانية والإسلام؛ لأن هذه الحروب لم تقم -في الظاهر- إلا لمناصرة

(١) محمد العروسي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ص (٢٧).

(٢) سوف تتضح الرؤية بالتفصيل -إن شاء الله- حول هذه المواقف والجهود من خلال

الدين النصراني؛ كما قال ذلك دعاؤها وقادتها ومقاتلوها، ولقد اكتسبت الحروب الصليبية هذا الاسم لأنها قامت باسم الدين النصراني، كما أن الجهاز الكنسي النصراني في الغرب الأوروبي هو الذي دعا إليها، وأمدّها بتأييده وتشجيعه ودعمه المادي والمعنوي؛ لأن عظمة الفتوحات الإسلامية كانت تحز في نفوس النصارى، وكان أثر هذه الفتوحات يحملهم على الحقد والبغض للإسلام وأهله أكثر مما يحملهم على الإعجاب به، ولهذا كانوا يحترقون شوقاً إلى اليوم الذي يستطيعون فيه ردّ الفعل والأخذ بالتأثر والنيل من المسلمين وأراضيهم الغنية بخيراتها وثرواتها، وقد وجدوا ضالتهم في الحروب الصليبية^(١).

ومعلوم أن لكل حادث تاريخي أسبابه وموجباته، وقد تختلط وتضطرب تلك الأسباب، وينتابها شيء من الغموض والخفاء، وما الحروب الصليبية إلا حادث تاريخي عظيم زاد من اختلاط أسبابه وغموضها كثرة الشعوب التي اشتركت فيها، وكثرة الأفكار والأنظار التي توجهت إليها، ولهذا اختلف المؤرخون القدامى والمحدثون؛ سواء من

(١) العروسي: الحروب الصليبية في المشرق والغرب (٢٩)، فايد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية (٧٧)، علي بن عبد الحليم محمود: الغزو الصليبي والعالم الإسلامي (٣٨)، سعيد عاشور: الحركة الصليبية (٨٨/١)، محمد كرد علي: خطط الشام (٢٤٨/١)، سهيل زكار: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية (٨)، ستغين رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية (١٣٢/١)، خاشع المعاضيدي: الحياة السياسية في بلاد الشام (١١١).

الشرق أم الغرب في تعداد أسبابها ودوافعها المتعددة الاتجاهات والأهداف؛ ولهذا؛ فإن بعض المؤرخين المحدثين؛ سواء في الشرق أو في الغرب؛ أعطوا تفسيرات لأسباب الحروب الصليبية ركزت - في الدرجة الأولى - على جعل السبب الديني ثانويًا لا أساسًا جوهريًا وعاملاً رئيسًا في هذه الحروب - أي: يضعونه ضمن الأسباب، وهذا عند البعض كما أسلفت - ولكن الحقيقة أن المسلمين في عصر الحروب الصليبية؛ سواء كانوا الحكام أو المحكومين، أو من القادة والمسؤولين، أو من الكتاب والمؤلفين؛ أدركوا تمامًا أن الهدف في هذه الحروب كان دينيًا في الدرجة الأولى، وما العوامل الأخرى إلا روافد ودعائم استخدمت لتدعيم الأساس الأول والمحرك الرئيسي لهذه الحروب^(١)، أي: أن السبب الأساسي هو عداة النصارى الأوربيين للمسلمين؛ نتيجة لتعاظم نفوذ المسلمين، وانتشار الإسلام؛ لذا فقد ألقت الكنيسة النصرانية الأوروبية - وعلى رأسها البابا - بكل ثقلها في إيقاف المد الإسلامي المتدفق، وهكذا انطلقت الدعوة إلى الحروب الصليبية من فرنسا، وكان أول من دعا إلى هذه الحروب هو البابا أوربان الثاني^(٢) في خطاب ألقاه في مجمع كليرمونت

(١) انظر حول ذلك: محمد العروسي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ص (٢٩)،

فايد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ص (٧٧-٧٨).

(٢) أوربان الثاني فرنسي الأصل وقد كان راهبًا رسطًا بمدينة كلوني بفرنسا (الحروب

الصليبية في المشرق والمغرب ص (٤٦).

الديني بفرنسا الحالية، حيث ألقى خطاباً حماسياً بليغاً في حشد من الملوك والأمراء ورجال الكنيسة، استعمل من خلاله جميع وسائل الإغراء لإثارة الحمية في الصدور؛ كإعلانه غفران الذنوب، والتكفير عن المعاصي لكل مشارك في الحملة الصليبية، وإعفاء حماة الصليب من جميع التكاليف المدنية، وقد كان -في خطبته- يركز على الجانب الديني كمثّل قوله: "وليس هذه الحروب لاكتساب مدينة واحدة فقط؛ بل هي أقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التي لا تحصى، فادّعوا محجة القبر المقدس، وخلصوا الأراضي المقدسة من أيدي المختلسين، وامتلكوها لأنفسكم، فهذه الأرض كما تقول التوراة تفيض لبناً وعسلاً^(١)."

وأدرك المستمعون لخطابه المشهور ما يعنيه؛ وصاح الجميع صيحتهم المشهورة: هذه هي إرادة الله، وعندنا حمل الجميع من فورهم شارة الصليب، وتوجهوا في حماس جنوني إلى الشرق الإسلامي؛ لتحرير القدس، والسيطرة على بلاد المسلمين، والدعوة للنصرانية بين المسلمين^(٢).

(١) انظر حول خطابه وبعض نصوصه والتعليق عليه: سعيد عاشور: الحركة الصليبية (١٣٥/١)، فايد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ص (٧٨)، محمد الهرفي: شعر الجهاد في الحروب الصليبية ص (٣٧-٣٨)، عبد الطيف حمزة: أدب الحروب الصليبية ص (٢٤-٢٥)، أحمد شليبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية (٧٢٦/٥)، شفيق جاسر: تاريخ القدس ص (٢٥٢)، طه ندا: فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية ص (٢٢٣).

(٢) عبد اللطيف حمزة: أدب الحروب الصليبية ص (٢٥).

ولعلنا نشير هنا -أيضاً- إلى بعض الطرق التي عمد إليها رجال الدين النصراني في إثارة الأمم النصرانية، منها: أنهم رسموا صورة لقيصر المسيح وعليه فارس مسلم يدوس القبر بجواده^(١)، وقيل: بل صوروا المسيح -عليه السلام- وجعلوا معه صورة عربي يضربه، وجعلوا الدماء على صورة المسيح، وقالوا: "هذا المسيح يضربه نبي المسلمين"^(٢).

وكذا فعلت مثل هذه الخطب والطرق الباباوية فعلها في نفوس الأوروبيين الذين أخذوا على أنفسهم ميثاقاً عليّظاً في الذود عن البيت المقدس بكل ما يملكون، والتضحية من أجله، وقد ساعد على النجاح في استتارة الناس تدني المستوى الثقافي والوعي الحضاري لأوروبا في ذلك العصر، فقد أثارت دعوة البابا "أوروبان الثاني" حركة شعبية ضخمة ترتبط في التاريخ عادة باسم "بطرس الناسك" الذي أخذ يطوف البلاد الأوروبية يدعو لقتال المسلمين، وينشر دعوة القتال في سبيل المسيح، ويدعي أنه أراد زيارة الأماكن المقدسة فمنعه المسلمون، وقد تجمع حوله أعداد كبيرة خرجوا إلى بلاد المسلمين، واستطاع السلاجقة أن يقضوا

(١) أبو شامة: الروضتين (١٦٠/٢).

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب (٣٣٦/١).

عليهم بسهولة، ولم يكذبوا منهم إلا عدد يسير كان فيهم ذلك الناسك الكبير المسمى بطرس^(١).

ولاشك أن هناك أسباباً ودوافع أخرى مكّمتها لما ذكرناه، لها أهميتها في حمل أوروبا على الحروب الصليبية، منها ما يتعلق بالدوافع التجارية؛ فقد حرص تجار الغرب^(٢) على إيجاد موانئ تجارية لهم في بلاد الشرق؛ كي تتصل أوروبا عن طريق هذه الموانئ ببلاد المسمين الشرقية؛ لذلك قدّم هؤلاء التجار كل المساعدة الممكنة للجيش الصليبي لغزو الشرق الإسلامي؛ ليتمكنوا من تحقيق أطماعهم^(٣)، كما قام اليهود -وخاصة التجار منهم- بدور التشجيع والمساعدة المادية والمعنوية لدعم الصليبيين، مما يجعل اليهود أسباباً مستترة خلف إثارة الحروب الصليبية ودعمها^(٤).

كذلك كان لسوء الأوضاع الداخلية في أوروبا -لاسيما الأحوال الاجتماعية والاقتصادية- الدور المؤثر في الحروب الصليبية؛ حيث كان

(١) محمد الهرفي: شعر الجهاد في الحروب الصليبية ص (٣٨)، عبد اللطيف حمزة: أدب

الحروب الصليبية ص (٢٥)، أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي (٧٣٠/٥)،

علي عبد الحليم محمود: الغزو الصليبي والعالم الإسلامي (٢٨-٢٩-٧١).

(٢) خاصة تجار المدن الإيطالية مثل (جنوة، بيرة، البندقية).

(٣) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي (٧١٨/٥)، ول ديوارنت: قصة الحضارة

(٤/١١)، محمد العروسي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ص (٣٣).

(٤) فايد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ص (٣٨)، أحمد شلبي: موسوعة

التاريخ الإسلامي والحضارة (٧١٨/٥).

النظام الإقطاعي سائدًا في أوروبا آنذاك، وقد نتج عنه وجود طبقة من الفرسان المحترفين الذين رغبوا في إظهار بطولتهم على أرض جديدة، لكسب المال والأرض، وتأسيس إقطاعات جديدة في الشرق^(١).

كذلك تعطلت الزراعة وضعفت بسبب استمرار الحروب في أوروبا، فنتج عن هذا مجاعات طاحنة، وظروف دفعتهم للهجرة إلى بلاد الشرق الغنية والمستقرة في الوقت نفسه^(٢).

وقد وجد -أيضًا- رقيق الأرض -وهم الطبقة الشعبية البائسة التي كانت تلاقي الأمرين من الظلم والإرهاق والمجاعة- الفرصة المتاحة لهم في الحروب الصليبية؛ للتحرر من الرق، وفك رقابهم من الفقر والاستبداد؛ فانضموا للصلبيين بنشاط وحماس ورغبة^(٣).

أما عن الدوافع السياسية في الحروب الصليبية، فمن المعلوم أن السلاجقة الأتراك توغلوا في آسيا الصغرى، وانتصروا على البيزنطيين في معركة "ملاذكرد" الشهيرة، وهددوا القسطنطينية، مما جعل ذلك سببًا لتخويف إمبراطور بيزنطة الكسيوس كومنين -ALEXIS COMNENE-

(١) محمد الهرفي: شعر الجهاد في الحروب الصليبية (٣٧).

(٢) فايد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية (٨١)، حسين مونس: نور الدين محمود (٥٩٩)، أحمد شلبي: موسوعة التاريخ والحضارة (٧١٩/٥).

(٣) محمد العروسي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب (٣٣)، أحمد شلبي: موسوعة التاريخ والحضارة (٧١٩/٥).

(١٠٨١-١١١٨م)^(١) ومن ثم استنجاهه بالبابا والأمم النصرانية^(٢)، وقد استجاب البابا لهذا الطلب، ودعا إلى الحروب الصليبية - كما تقدم- في سبيل توحيد الكنيستين الشرقية والغربية تحت سيطرته^(٣).

ومن جملة الأسباب -أيضاً- ما يذكره الكثير من المؤرخين المسلمين -من القدماء والمحدثين- أن مما شجع الصليبيين على الهجوم على الشرق الإسلامي موقف الفاطميين العبيديين المتخاذل؛ بل المشجع على الغزو؛ فقد أشار إلى ذلك المؤرخ أبو المحاسن عندما قال: "لم ينهض الأفضل -الوزير الفاطمي- بإخراج عساكر مصر، ولا أدري ما كان السبب في عدم إخراجهم مع قدرته على المال والرجال"^(٤)، ثم بين كيف أن المسلمين

(١) في سنة (١٠٨١م)، اعتلى الكسيوس كومنين الأول عرش الإمبراطورية البيزنطية، حتى سنة (١١١٨م)، وبذلك يكون هذا الإمبراطور أهم إنسان عاصر المدة الخطيرة التي تشمل مطلع الحروب الصليبية، وكان يدرك أن لا قبل لجيوشه بمواجهة المسلمين فأرسل استغاثته واستنجاهه إلى البابا الذي لبي مطالبه. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية (٧٢٥/٥)، وكان مما قاله هذا الإمبراطور للبابا في رسالته: "إن من الحكمة أن يحارب الأتراك في آسيا بدل أن تنتظرهم حتى يقتحموا بمحافلهم بلاد البلقان إلى عواصم أوروبا الغربية. انظر: ديورانت: قصة الحضارة (١١/٤).

(٢) محمد العروسي: الحروب الصليبية (٣٠)، موسوعة التاريخ والحضارة (٧٢٥/٥-٧٢٦).

(٣) محمد الهرفي: شعر الجهاد في الحروب الصليبية ص (٣٧).

(٤) النجوم الزاهرة (١٤٧٩/٥).

في العراق والشام حاولوا صدّهم وقتالهم، كل ذلك وعساكر مصر لم تُهَيَّأ للخروج^(١).

ويمكن تعليل هذا الموقف السلبي من الفاطميين بأنهم لم يدركوا حقيقة الحروب الصليبية وأهدافها المرسومة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى رأوا في هزيمة السلاجقة المسلمين -بواسطة الصليبيين- فرصة مواتية لكي تسترد الدولة الفاطمية المدن؛ التي كانت لا تزال تحت حكم السلاجقة، والتي قد انتزعت من الفاطميين منذ زمن ليس بالبعيد؛ لذلك كان الفاطميون العبيديون يعلقون آمالاً كبيرة على مهاجمة الصليبيين للسلاجقة، زيادة على الخلافات المذهبية بين أهل السنة والشيعة والتي كانت على أشدها في تلك الأزمنة^(٢)، ولتوضيح أكثر لمواقفهم فإن المؤرخ ابن الأثير اتهم الفاطميين العبيديين بأنهم شجعوا الصليبيين على غزو بلاد الشام ليساعدوا الفاطميين العبيديين ضد الأتراك السلاجقة؛ حيث ذكر: "أن أصحاب مصر من العلويين لم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم، خافوا وأرسلوا إلى الإفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه، ويكونوا بينهم وبين المسلمين"^(٣).

(١) ن.م.س. (١٤٨/٥).

(٢) فايد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية (١١٠)، سعيد عاشور: شخصية

الدولة الفاطمية ضمن كتاب بحوث ودراسات في العصور الوسطى (١٦٥-٢٢٣)،

محمد العروسي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب (٣٥).

(٣) الكامل في التاريخ (٢٧٣/١٠).

وتذكر بعض المراجع أن اتفاقاً وقع بين الحاكم الفاطمي العبيدي والإمبراطور البيزنطي ضد السلاجقة^(١)، وكان هناك تعاون وتحالف بين الفاطميين العبيديين والصليبيين؛ وذلك عندما وصل الصليبيون إلى أنطاكية؛ حيث أسرع الوزير "الأفضل بن بدر الجمالي" الفاطمي لعقد تحالف بينهما، والاتفاق على تقسيم الغنيمة بعد ذلك؛ بحيث يكون القسم الشمالي من بلاد الشام (سوريا) للصليبيين، والقسم الجنوبي (فلسطين) للفاطميين العبيديين، وأرسل الصليبيون سفارة إلى القاهرة تؤكد على التعاون والتحالف بينهم ضدّ العدو المشترك (السلاجقة)^(٢).

والحقيقة أنه - مهما كان موقف الفاطميين العبيديين بمصر من الصليبيين - كان أقرب إلى أسباب نجاح الحملة الصليبية الأولى، لأن موقفهم في هذه الحملة وتقايسهم عن نجدة السلاجقة، بل وانتهازهم

(١) محمد العروسي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب (٣٥)، حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى ص (٧٠).

(٢) فايد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية (١١٠-١١١)، محمد العوفي: العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والدولة الفاطمية ص (١٥٣)، علي الغامدي: بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي (٣١٦)، محمد كرد علي: خطط الشام (٢٧٩/١)، ستيفن رنسيومان: تاريخ الحروب الصليبية (٣٢٦/١)، علي عبد الحليم محمود: الغزو الصليبي والعالم الإسلامي ص (١٨٢-١٨٣)، ثم انظر ما كتبه: يوسف درويش غوانمة، في مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، المجلد العاشر، سنة (١٩٨٣م) بعنوان: "الأفضل بن بدر الجمالي وموقفه من الحملة الصليبية الأولى" ص (٧٦).

الفرصة لاحتلال بيت المقدس زمن حصار أنطاكية من قبل الصليبيين، ثم تفهقهم السريع؛ عندما هاجمتهم القوات الصليبية؛ رغم قوتهم وقوة أسطولهم المعروف؛ كل ذلك يجعل الفاطميين العبيدين متحملين لقدر كبير من المسؤولية في نجاح الحملات الصليبية في مرحلتها الأولى بالذات.

ولعل من الضروري، ونحن نتحدث عن أسباب الحروب الصليبية وأهدافها أن نعطي فكرة موجزة عن أحوال العالم الإسلامي قبيل الحروب الصليبية؛ وذلك كي تتضح الأسباب التي جعلت الصليبيين ينتصرون في بداية هذه المعارك، ويحتلون بيت المقدس دون مقاومة تذكر؛ فقد كانت عوامل الضعف والانحلال تنخر في جسم الأمة الإسلامية، كما أن عوامل تفرق السلطة واختلافها والمنازعات حولها كان من أقوى الأسباب التي أدت إلى هزيمة المسلمين، ففي بغداد كان مركز الخلافة العباسية السنية، وكانت سيطرة السلاجقة واضحة آنذاك، على الرغم من محاولات بعض الخلفاء، زيادة على ذلك كانت الدولة العباسية قد تفككت في أواخر أيامها، وانقسمت إلى دويلات مستقلة متنازعة في بعض الأحيان فيما بينها، وفي القاهرة كان مركز الدولة الفاطمية العبيدية الشيعية، وكانت هذه الدولة -أيضاً- ضعيفة، يدير الأمر فيها الوزراء والأمراء، وكان الخلاف على أشده

بين العباسيين والفاطميين العبيديين، وسعى كل حاكم لأخذ ما يستطيعه من بلاد الآخر^(١).

ومن هذا يتضح أن العالم الإسلامي كان يعاني من الانحلال والضعف والصراع، والتفكك والتزاع المستمر بين الأمراء، فدولة السلاجقة قد ذهبت شوكتها وانحلت قوتها، لاسيما بعد أن مات ملك شاه سنة (٤٨٥هـ)، حيث اقتسم أبنائه الأربعة (محمود وبركياروق وسنجر ومحمد) مملكته بعد حروب ومنازعات طويلة استنزفت قوى السلاجقة، وانفردت السلطنة السلجوقية التي كانت تمتد من بلاد الصين إلى سواحل الشام شرقاً وغرباً، ومن بلاد القوقاز إلى اليمن شمالاً وجنوباً، وانقسمت الدولة إلى عدة دويلات صغيرة عرفت باسم دول الأتابكة، وانشغلت كل دولة منها بالتزاع مع الأخرى، والسبب في ذلك عدم وجود خلافة تستطيع أن تستوعب هذه الدويلات، وتشملها في دولة الخلافة الإسلامية^(٢).

وكان سلاجقة الشام أكثر تنازعا، حيث استولى عليها تتش بن أرسلان، ولكن ابنه رضوان ودقاق تنازعا السلطة بعد مقتل أبيهما، وقد

(١) محمد المهربي: شعر الجهاد في الحروب الصليبية ص (٣٩)، ماجد الكيلاني: هكذا

ظهر حيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس ص (٦٧).

(٢) فايد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ص (٥٤-٥٥)، محمد العروسي:

الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ص (١٧)، أحمد شلبي: موسوعة التساريخ

والحضارة (٥/٧٢٠).

اتخذ رضوان (٤٨٨-٥٠٧هـ) مدينة حلب عاصمة له، واختار أخوه دقاق (٤٨٨-٤٩٨هـ) دمشق عاصمة له، ودارت رحى الحرب بينهما مُدّة طويلة من عهديهما^(١).

أما أنطاكية فكانت تحت إمارة ياغيسيان التركماني، وبيت المقدس كانت قد أُقطعت للأمير سقمان بن أرتق التركماني، ولم يكن لأحدهما علاقة بالآخر إلا علاقة النزاع والخصام، ومحاولة الاستيلاء على أرض غيره^(٢).

من كل ذلك يتضح أن ضعف العالم الإسلامي وتفككه ونزاعاته الداخلية كان من أهم أسباب ضعف الشرق الإسلامي أمام الغزو الصليبي، ولاشك أن انحلال الدولة السلجوقية وضعفها ترتب عليه خطر عظيم على العالم الإسلامي؛ الذي أصبح لقمة سائغة للمعتدين من

(١) ابن الأثير: الكامل (٢٦٩/١٠)، (حوادث سنة ٤٩٠هـ)، أحمد شليبي: موسوعة التاريخ والحضارة (٧٢/٥)، ماجد الكيلاني: هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص (٦٧)، مسفر الغامدي: الجهاد ضد الصليبيين ص (١٣٦)، ولمزيد من التفاصيل حول ولاية الشام في العصر السلجوقي، انظر: "أمراء دمشق في الإسلام" للصفدي، تحقيق صلاح الدين المنجد، وكتاب "ولاية دمشق في العهد السلجوقي" وهو عبارة عن نصوص مستخرجة من تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر، مهّد لها وحققها الدكتور صلاح الدين المنجد، وكلا الكتابين نشر دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، طبع الأول سنة (١٩٨٣م) والثاني سنة (١٩٨١م).

(٢) محمد العروسي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ص (١٧).

صليبيين وغيرهم، ولا ريب أن نجاح الصليبيين في تحقيق أهدافهم واحتلالهم معظم بلاد الشام وسقوط بيت المقدس في أيديهم دليل لا يقبل الشك على انقسام العالم الإسلامي وضعفه وتفككه في تلك المدّة^(١)، والباحث في تاريخ الحركة الصليبية بصفة عامة، يتضح له دون جهد أو عسر أن ما أصابه الصليبيون من نجاح حربي وتفوق في بداية هذه الحروب كان -في الغالب- نتيجة ضعف الولايات الإسلامية وانقسامها وتفككها، وكثرة النزاعات حولها، وقد أثبتت الأحداث -أيضاً- أنه كلما تناسى المسلمون خلافاتهم وأطماعهم، واتحدوا كان ذلك بشيراً بتكتل إسلامي موحد، يعقبه حملات مضادة على الأعداء، وبالتالي النصر عليهم بتوفيق الله تعالى^(٢).

ومما يُدلل على تفكك المسلمين وبعدهم عن المنهج السوي ما ذكره ابن جبير في رحلته، من أنه شاهد المسلمين الواقعيين تحت حكم الصليبيين يعاملون معاملة أفضل من معاملة المسلمين الواقعيين تحت حكم إخوانهم المسلمين، ثم علق على ذلك قائلاً: "وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين، أن يشتكي الصنف الإسلامي جور صنفه المالك له، ويحمد سيرة عدوه وضده المالك له من الإفرنج، ويأنس بعدله، فإلى الله المشتكى

(١) فايد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ص (٥٥).

(٢) محمد الهرفي: شعر الجهاد في الحروب الصليبية ص (٣٩).

من هذه الحال^(١) ولاشك أن كلام ابن جبير -المتقدم- وإن دل على ما أوضحناه آنفاً، لا تتسم رؤيته وتقويمه للأحداث بالشمول والتقصي بالبشاعة والقتل والنهب والخراب، على ما سنوضحه -إن شاء الله- من خلال هذا الفصل، وهذا لا يعني عدم وجود تفكك واضطراب وسوء معاملة بين المسلمين آنذاك.

وعلى الرغم من ضعف العالم الإسلامي وانقسامه، لم يكن الأتراك السلاجقة يهملون تماماً الجهاد ضد الأعداء الذين يناهضون المسلمين ويعتدون عليهم، كلما تهيأت الظروف لهم؛ وذلك لاعتقاد السلاجقة بأن الجهاد ضد الأعداء يجب أن يستمر دون توقّف مهما كانت التضحيات، وبفضل الله تعالى ثم بفضل جهادهم المتواصل لم يتمكن البيزنطيون من تحقيق أهدافهم التوسعية في بداية الحروب الصليبية؛ حيث أشعلوا نار الجهاد الإسلامي، الأمر الذي أدى -في النهاية- إلى فشل الصليبيين، وعدم تمكنهم من تحقيق طموحاتهم وأغراضهم في العالم الإسلامي، ومعلوم أن السلاجقة أنجبوا قادة عظاماً مثل آل زنكي، ومن ثم أسرة صلاح الدين الأيوبي^(٢)، وهؤلاء الثلاثة أي: عماد الدين زنكي -حاكم الموصل- نور الدين زنكي -حاكم دمشق- وصلاح الدين -حاكم مصر- هم الأبطال الذين أدّوا دوراً كبيراً في الجهاد ضد الصليبيين

(١) رحلة ابن جبير ص (٢٤٨).

(٢) فايد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ص (٥٤-٥٥).

وطردهم^(١)، وآل زنكي من ممالك السلاجقة، كما هو معلوم، وهذا يُعدُّ مفخرة للسلاجقة أن ظهر هؤلاء الأبطال وغيرهم الذين أبلوا البلاء الحسن ضد أعداء المسلمين، وهذا يُدلل بوضوح على مدى أهمية الجهاد عند السلاجقة ومحافظتهم على ذلك، كيف لا وهم مسلمون سنيون يدركون عظمة الجهاد في الإسلام الذي أمر به الباري - عز وجل - رسوله الكريم محمد ﷺ والمسلمين كافة، إذ يقول تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَئْسَ الْمَصِيرُ﴾^(٢).
ويقول تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾^(٣).

ويقول جل شأنه: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾^(٤).

ويقول تعالى موضعاً فضل الجهاد: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(٥).
وغير ذلك من الآيات التي وردت في القرآن الكريم، والتي تحض المسلمين على الجهاد في سبيل الله ضد كل عدو لهم ولدينهم الخفيف،

(١) عبد اللطيف حمزة: أدب الحروب الصليبية ص (١٧).

(٢) سورة التوبة آية (٧٣)، ثم انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٢٦/٣).

(٣) سورة الحج آية (٧٨).

(٤) سورة الأنفال آية (٦٠).

(٥) سورة آل عمران آية (١٦٩).

وكذلك ما أوردته السنة النبوية الشريفة من الأحاديث الدالة على ذلك أيضاً.

ومما يجدر ذكره هنا، وقبل الخوض في تفاصيل الجهاد ضد البيزنطيين والصلبيين من قبل الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة، أن نوضح -بإيجاز- شيئاً عن الأحداث الكبرى في تاريخ الحروب الصليبية، وموقف الخلفاء والسلاطين بادئ الأمر من ذلك؛ كي تتضح الرؤية، فمن المعلوم أن الإفرنج بدءوا بالسير إلى بلاد المسلمين سنة (٤٩٠هـ)، حيث عبروا خليج القسطنطينية، ووصلوا بذلك إلى أوائل بلاد المسلمين، وهي مدينة نيقية^(١)، حيث كانت أول بلد احتله الصليبيون، فلما وصلوا إليها لقيهم "قلج أرسلان بن سليمان ابن قتلмыш" في جموعه ومنعهم فقاتلوه، وهزموه في السنة نفسها ثم تقدموا واحتلوا مدينة قونية^(٢)، ثم شرعوا -بعد ذلك- في أخذ بلاد المسلمين الواحدة تلو الأخرى^(٣).

(١) نيقية: مدينة من أعمال إستانبول، وتعدّ من المراكز الرئيسية للمسلمين السلاجقة وكانت عاصمتهم. ياقوت: معجم البلدان (٣٣٣/٥).

(٢) قونية: مدينة من أعظم مدن الإسلام ببلاد الروم، وكانت عاصمة سلاجقة الروم بعد نيقية. ياقوت: معجم البلدان (٤١٥/١)، (٣٣٣/٥)، كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية (١٧٤).

(٣) ابن الأثير: الكامل (٢٧٢/١٠-٢٧٤)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٤٦/٥)، المختصر في أخبار البشر (٢١٠/٢)، الكيلاني: هكذا ظهر جيل صلاح الدين (٦٧)، شفيق حاسر: تاريخ القدس (٢٥١).

وقد تصدى السلاجقة - منذ البداية - للصليبيين، وقاتلوهم بشجاعة المؤمنين الصادقين، وصبر المجاهدين في سبيل الله تعالى، ثم تزايدت هجمات الصليبيين، وسيطروا على أراض واسعة، فاستولوا عام (٤٩١هـ) على أنطاكية^(١)، ولما سمع المسلمون في بلاد الشام بسقوط أنطاكية جمع (كربوقا) أتابك الموصل العساكر، "وسار إلى الشام، وأقام بمرج دابق"^(٢)، واجتمعت معه عساكر الشام تركها وعربها - سوى من كان بحلب - فاجتمع معه دقاق بن تتش، وطغتكين أتابك، وجناح الدولة؛ صاحب حمص، وأرسلان تاش؛ صاحب سنجار وسليمان بن أرتق، وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم"^(٣) وقد التقى المسلمون والصليبيون في معركة كبيرة انتهت بهزيمة المسلمين وانتصار الصليبيين "وثبت جماعة من المجاهدين - كما يذكر ابن الأثير - وقاتلوا حسبة وطلباً

(١) يقول ابن تغري بردي حول سقوط أنطاكية: "وأما أنطاكية فقتل منها وسي من الرجال والنساء والأطفال مالا يدركه حصر". (النجوم الزاهرة (١٤٧/٥)، معجم ما استعجم (٣٠٠/١)، والقزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص (١٥٠).

(٢) مَرَج دابق: المرج: الأرض الواسعة التي فيها نبت كثير ممرج فيها الدواب أي تذهب وتجيء، ودابق: هي قرية قرب حلب، بها قبر الخليفة سليمان بن عبد الملك رحمه الله، حيث عسكر بها وعزم على ألا يرجع حتى يفتح القسطنطينية انظر: ياقوت: معجم البلدان (١٠٠/٥) و(٤١٦/٢).

(٣) ابن الأثير: الكامل (٢٧٦/١٠).

للسهاده، فقتل الفرنج منهم ألوفاً وغنموا ما في العسكر من الأقات والأموال والأثاث والدواب والأسلحة، فصلحت حالهم، وعادت إليهم قوتهم" (١).

وبذلك حقق الصليبيون انتصاراً على سلاجقة الروم (٢) والشام، وازدادوا قوة وحماسة على مواصلة الزحف على البلاد الإسلامية، ومضوا في زحفهم حتى بيت المقدس؛ الذي سقط في أيديهم يوم الخامس عشر شهر رجب سنة (٤٩٢هـ)، بعد حصار طويل، وكان يحكمه (افتخار الدولة) وهو وال من قبل الفاطميين بمصر (٣)، وقد فعل هؤلاء الغزاة

(١) المصدر السابق (٢٧٧/١٠-٢٧٨)، انظر: ابن العربي: مختصر الدول (٣٤٢).
(٢) سلاجقة الروم هم الذين استقروا بأسيا الصغرى، واستقلوا بعد انحلال الإمبراطورية السلجوقية العظمى، وكانت عاصمتهم الأولى نيقية، وبعد الحملة الصليبية الأولى أصبحت عاصمتهم قونية، وهذه السلطنة هي أطول دول السلاجقة المنفصلة عمراً، إذ بقيت قائمة الذات إلى سنة (٦٩٩هـ)، وعلى أنقاض هذه الدولة انبعثت الدولة العثمانية في بلاد الأناضول. انظر: محمد العروسي المطوي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب (٥٠).

(٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق (١٣٦-١٣٧٩)، ابن الأثير: الكامل (٢٨٢/١٠)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٣٢٣/١)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٤٨/٥)، سعيد بن عاشور: الحركة الصليبية (٢٤٣/١)، شفيق بن جاسر: تاريخ القدس (٢٥١)، ويرى البعض أن سقوط بيت المقدس كان في شهر شعبان سنة (٤٩٢هـ)، انظر: النجوم الزاهرة (١٤٨/٥). وعلى الرغم من أن المؤرخين المسلمين كابن الأثير وابن القلانسي وسبط بن الجوزي لم يذكروا الجهود التي بذلها

بالمسلمين أفعالاً شنيعة دلت على مدى حقدهم الهائل والدفين على المسلمين؛ حيث كانوا يقتربون المذابح الوحشية ضد المسلمين، وخاضت خيولهم بدم الضحايا من الرجال والنساء والأطفال، ويقول ابن الأثير في وصف المذبحة التي أحدثها الصليبيون: "وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين، وعلمائهم وعبادهم وزهادهم، ممن فارق الأوطان، وجاور بذلك الموضع الشريف"^(١).

افتتار الدولة في سبيل منع سقوط المدينة بيد الصليبيين، ذكر الأستاذ سعيد عاشور؛ اعتماداً على المصادر اللاتينية فقد ذكر أن افتتار الدولة قد اتخذ كافة الاستعدادات والاحتياطات لمواجهة الصليبيين؛ فسم الآبار وقطع موارد المياه، وأخفى المواشي، واهتم بتقوية التحصينات، والتأكد من سلامة الأسوار، واجتهد كثيراً في ذلك (سعيد عاشور: الحركة الصليبية (١/٢٣٤)، ومما يؤكد ذلك المدة الطويلة التي قضاها الصليبيون في حصار بيت المقدس وهي ٤٠ يوماً.

(١) الكامل (١٠/٢٨٣-٢٨٤)، انظر كذلك: ابن الجوزي: المنتظم (٩/١٠٨)، ابن خلدون: العبر (٥/٢١)، وإن كان العدد المذكور مبالغاً فيه إلا أنه يُدلل على كثرة عدد القتلى من المسلمين، وتسلط الفرنج عليهم، ويذكر القلقشندي أنهم قتلوا ما يزيد عن تسعين ألفاً من المسلمين. مآثر الأنافة في معالم الخلافة (٣/١٥-١٦).

وبلغ من حقد الصليبيين أنهم انطلقوا إلى المساجد والمنازل والشوارع يقتلون كل من يصادفهم دون تمييز^(١)، وكانوا يقطعون

(١) ابن العري: تاريخ مختصر الدول (٣٤٢)، ستيفن رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية (٤٠٤/١)، شفيق جاسر: تاريخ القدس (٢٥٤)، ويروي ول ديوارنت عن القس ريمند الأجيلي الذي حضر هذه المذبحة قوله: "شاهدنا أشياء عجيبة، إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين، وقتل غيرهم رمياً بالسهم، أو أرغموا على أن يلقوا بأنفسهم من فوق الأبراج، وظل بعضهم الآخر يعذبون عدة أيام ثم أحرقوا بالنار، وكان الإنسان أينما سار فوق جواده يسير بين حثث الرجال والخيل". انظر: قصة الحضارة (٢٥٩/٤/٤)، وقال شاهد عيان آخر: "إن النساء كنَّ يُقتلن طعناً بالسيوف والحراب، والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أئداء أمهاتهم، ويقذف بهم من فوق الأسوار، أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعمد، وذبح سبعون ألفاً من المسلمين الذين بقوا في المدينة". (قصة الحضارة (٢٥٩/٤/٤)، وقد وصف تلك المذبحة غود فردي بخطاب بعثه إلى البابا، وقد جاء فيه: "إن خيولنا كانت تخوض إلى ركبتها في بحر من دماء الشرقيين في إيوان سليمان ومعبده". انظر: عبد اللطيف حمزة: أدب الحروب الصليبية (٣٠)، محمد حسين شنداب: الحضارة الإسلامية في بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (١٣٨). وقد أشار الأستاذ سعيد عاشور إلى أن أحد مورخي الصليبيين حضر تلك الأحداث البشعة غداة المذبحة الرهيبة التي قام بها الصليبيون، فلم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء المسلمين إلا بكل صعوبة، وأن دماء القتلى بلغت ركبته. الحركة الصليبية (٢٣٨/١).

الأشجار، وينشبون قبور الموتى، وكلما أمسكوا بمسلم قطعوا يديه ومذاكيره^(١).

وهذا الموضوع خير دليل يوضح أحوال المسلمين واختلافهم في أثناء اجتياح الصليبيين ديارهم، وقد أشار المؤرخ ابن الأثير إلى ذلك في حوادث سنة (٤٩٧هـ) بقوله: "لما استطال الفرنج خذلهم الله تعالى بما ملكوه من بلاد الإسلام، واتفق لهم اشتغال عساكر الإسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضاً، تفرقت حينئذ بالمسلمين الآراء، واختلقت الأهواء، وتمزقت الأموال"^(٢).

وعلى أثر تلك المذابح ذهب أهل الشام يستغيثون بالخلافة العباسية، ويصف ابن الأثير، وابن كثير، وغيرهما ذهاب الوفد والطريقة التي قوبل بها والنتيجة التي انتهى إليها فيقولان: "وذهب الناس على وجوههم هارين من الشام إلى العراق، مستغيثين على الفرنج إلى الخليفة والسلطان،

(١) ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب (٢/٢٢٤)، ويذكر أبو شامة أنهم أرسلوا إلى دمشق، فاستعرضوا الرقيق الذي أخذ من البلاد النصرانية، وخيرهم بين البقاء عند أربابهم أو العودة إلى ديارهم، فمن أحب البقاء تركوه، ومن رغب العودة أعادوه. الروضتين (١/٣٠).

(٢) الكامل (١٠/٣٧٣)، وهكذا يتضح أن سرعة اجتياح الصليبيين لشمال وسواحل الشام وبيت المقدس إنما يعود إلى تفرق كلمة المسلمين ومنازعتهم وفشلهم في إقامة جبهة إسلامية متحدة. انظر: علي الغامدي: بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي (٣٤٦).

صحبة القاضي أبي سعد الهروي^(١)، فأوردوا في الديوان كلامًا أبكى العيون، وأوجع القلوب، فلما سمع الناس ببغداد هذا الأمر الفظيع هالهم ذلك وتباكوا، وقد نظم أبو سعد الهروي كلاما قرئ في الديوان وعلى المنابر؛ فارتفع بكاء الناس، فأمر الخليفة الفقهاء إلى الخروج إلى البلاد؛ ليحرضوا الملوك على الجهاد، فخرج القاضي أبو محمد الدماغاني، وأبو بكر الشاشي، وأبو القاسم الزنجاني، وأبو الوفاء ابن عقيل، وغيرهم من أعيان الفقهاء، فساروا في الناس فلم يقد شيئا، فإننا لله وإننا إليه راجعون"^(٢).

ولعل من أبلغ ما يصور اهتزاز المجتمع الإسلامي، ونقمته على حكامه ورؤسائه، تلك القصيدة الطويلة التي قالها الأبيوردّي^(٣) بعد اختلال القدس من قبل الصليبيين، وهذه أبيات منها:

(١) هو محمد بن نصر بن منصور الهروي، أحد مشاهير الفقهاء، كان ذا مروءة عزيزة، وشهرة واسعة في الدولة السلجوقية قتلته الباطنية بمهذان سنة (٤١٩هـ). انظر: ابن الأثير: الكامل (٦٣٠/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١٩٥). وعنده أحمد.
(٢) الكامل (٢٨٤/١٠)، البداية والنهاية (١٢/١٥٦).

(٣) هو أبو المظفر محمد بن أحمد بن محمد الأبيوردّي وهي نسبة إلى أبيورد، مدينة بخراسان، أقام ببغداد زمنا طويلا وكان من شعراء بلاط الخلافة، وكان فاضلا في العربية والعلوم الأدبية، ينتهي نسبه إلى بني أمية توفي سنة (٥٠٧هـ)، له عدة مصنفات منها كتاب "الطبقات" وكتاب "المختلف والمؤتلف" انظر ترجمته في (ابن الجوزي: المنتظم (٩/١٧٦-١٧٧)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤/٤٤٩)،

مزاوجنا دماءً بالدموع السواجم فلم يبق منا عرضة للمزاجم
 وشر سلاح المرء دمع يريقه إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
 فأيهما بني الإسلام إن وراءكم وقائع يلحقن الذرى بالمناسم^(١)
 وكيف تنام العين ملء جفونها على هفوات أيقظت كل نائم؟
 وإخوانكم بالشام أضحي مقيلهم ظهور المذاكي أو بطون القشاعم^(٢)
 تسومهم الروم الهوان وأنتم تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
 تلك حروب من يغب عن ليسلم يقرع بعدها سنن نادم
 يكاد لهن المستجير بطيبة ينادي بأعلى الصوت يا آل هاشم
 أرى أمي لا يشرعون إلى العدا رماحهم والدين واهي الدعائم^(٣)

الفارقي: تاريخ الفارقي ص (٢٨٥٩)، حاشية رقم (٦/٦)، ياقوت: معجم الأدباء ص

(١٧-٢٣٤)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٦/٨١).

(١) ذروة الشيء أعلاه، والجمع "الذرى" تهذيب اللغة (٨/١٥)، يقال في الأمثال: ليس
 ذر الجمال كالمناسم.

(٢) المذاكي: جمع مذكاة، وهي الخشبة التي يذبح عليها الحروف، وبطون القشاعم:

بطون الوحوش والسباع. انظر: الكيلاني: هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص

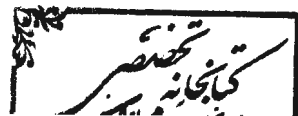
(٦٩)، وقيل: المذاكي: هي الخيل التي كملت قوتها وتم سنهها، والقشاعم: جمع

قشعم وهو المسن من السنور. الزمخشري: أساس البلاغة (٢٠٦)، والهرفي: شعر

الجهاد في الحروب الصليبية ص (١٢٧).

(٣) ديوان الأبيوردي ص (١٥٦)، تحقيق عمر الأسعد، وانظر تفاصيل أوسع في: سبط

ابن الجوزي: مرآة الزمان (١/٣٢٧-٣٢٨).



ونظم الشعراء وتكلم الأدباء المسلمين في هذا المعنى عدة مرات تعبيراً عن الكارثة، ووصفا للحالة التي كانوا عليها، ولكن دون نتيجة، ولقد علق ابن تغري بردي (٨٧٤هـ)، على هذه النتيجة بقوله: "والمقصود أن القاضي ورفقته عاودوا من بغداد إلى الشام بغير نجدة، ولا حول ولا قوة إلا بالله"^(١).

وكان عامة المسلمين قد انزعجوا لما حلّ بأرض الإسلام من هزائم واحتلال الصليبيين بيت المقدس، وأجزاء واسعة من بلاد الشام، وطلبوا من الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي الجد في جهاد الصليبيين، وكثر انتقاد المسلمين لموقف الخلافة، وضرورة حثهم على القتال، وإلزامهم بالجهاد ضد أعداء الإسلام.

وعلى الرغم من كل تلك الظروف والملايسات المحيطة بالعالم الإسلامي آنذاك، بذل الخلفاء العباسيون، والسلاطين السلاجقة جهوداً

(١) النجوم الزاهرة (١٥٢٩/٥)، وعلى الرغم من موقف الخلافة، السلي تجاه الغزو الصليبي، ظلت بغداد محط أنظار المسلمين في الشام حينما يحل بهم مكروه، ففي سنة (٥٠٤هـ) خرج أهل حلب حين ضاق بهم الأمر من حصار الصليبيين، لطلب النجدة والمساعدة من الخليفة المستظهر والسلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه، واستغاثوا في أيام الجمع، مستصرخين بالعساكر الإسلامية ضد الفرنج. انظر: ابن العديم: زبدة الحلب (١٥٧/٢)، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق (١٧٣)، وانظر أيضاً: سعيد عاشور: ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية (٥٥)، ضمن كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى.

جبارة، وتحملوا الكثير من المصاعب والتضحيات في سبيل الجهاد ضد البيزنطيين والصليبيين الذين تسلطوا على المسلمين، وسيطروا على بلادهم ردحًا من الزمن، وكان الخلفاء العباسيون حريصين كل الحرص على متابعة الأحداث في الشام، وهذا الحرص منهم -رغم الظروف السياسية المحيطة بهم- دليل على قيامهم بما هو واجب على خليفة المسلمين، وإمامهم، ومشاركتهم في الأحداث التي تهدد المسلمين؛ سواء في ديارهم أو مقدساتهم، ومما يُدلل على ذلك موقف الخليفة المستظهر بالله عند ما أرسل رسولاً إلى السلطان السلجوقي بركياروق يستحثه على قتال الصليبيين، ويستنفره عليهم، ويوضح له عظم هذا الأمر، ووجوب تداركه قبل أن يزداد قوة وشأنًا، وذلك سنة (٤٩١هـ)^(١)، ومما يوضح أيضًا اهتمام الخليفة المستظهر بالجهاد ضد أعداء المسلمين عند ما توجه إليه القاضي فخر الملك أبو علي بن عمار^(٢)، صاحب طرابلس الشام، حيث

(١) ابن الأثير: الكامل (٢٧٩/١٠)، سعيد عاشور: ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية، ضمن كتاب بحوث ودارسات في تاريخ العصور الوسطى ص (٥٨-٥٩).
 (٢) كان فخر الملك أبو علي بن عمار من دهاة الرجال وأفراد الزمان شجاعة وإقدامًا ورأيًا وحزمًا يمتاز بحسن التدبير وبالمكيدة والمخادعة للعدو، تسلم حكم طرابلس في وقت فيه الأحداث تطورت بشكل خطير إثر الغزو الصليبي الذي بدأ يجتاح بلاد الشام سنة (٤٩١هـ)، عمل ما في وسعه للاستنفار على الفرنج والوقوف ضدهم، وأبلى البلاء الحسن، توفي سنة (٥١٧هـ)، انظر: محمد سعيد شندب: الحضارة

الفصل الثاني: جهود الخلفاء والسلاطين ضد الزحف البيزنطي والصلبيبي ٣٢٣

سير إليه الخليفة خواصه، وبعض رجال دولته، فتلقوه، وأكرمه الخليفة وأجرى عليه الجراية العظيمة، وكان قدوم ابن عمار بغداد لحث الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي واستنفارهما لقتال الصليبيين، وكان ذلك سنة (٥٠١هـ)^(١).

ومن هنا يتضح أن الخليفة المستظهر كان يتابع الأحداث ويراقب تطوراتها، ويساهم قدر استطاعته في التصدي لأعداء المسلمين، وإبراز دوره خليفة في الأحداث التي تمه المسلمين، وما سفارته تلك للسلطان بركياروق إلا دليل واضح لحنه واستنفاره لتجهيز الجيوش وقتال الأعداء، والقيام بواجب الجهاد في سبيل الله تعالى، إضافة إلى ذلك تُعطي مثل هذه المواقف دعمًا كبيرًا للخلافة العباسية؛ لأن المسلمين في شتى أنحاء العالم الإسلامي ينظرون إلى الخلافة العباسية، والبيت العباسي نظرة احترام واعتزاز وتقدير، لاسيما إذا كان لها دور في الأحداث التي تمه المسلمين، وقيامها بما يجب عليها تجاههم^(٢).

الإسلامية في بغداد ص (١٤٢)، مسفر الغامدي: الجهاد ضد الصليبيين ص (٨١)-

(٩١).

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص (١٦١)، ابن الأثير: الكامل (٤٥٢/١٠)-

(٤٥٣)، ابن شداد: الأعلام الخطيرة (١٠٩/٣-١١١)، عبد النعيم حسين: دولة

السلاجقة ص (٩٣).

(٢) وهكذا تكون الخلافة العباسية قد أدت واجبتها في نطاق الإمكانيات المتاحة لها،

حيث إنها كانت محرومة من قوة ضاربة تخضع لها خضوعًا مباشرًا وتأممر بأمرها،

كذلك كان للخليفة المسترشد بالله دور كبير وجهد واضح ضد أعداء المسلمين، فعلى الرغم من أن مُدّة خلافته كانت حافلة بالاضطرابات ومحفوفة بالمخاطر، حيث استهل خلافته بتمرد أخيه أبي الحسن وهروبه إلى ديبس الأسدي الذي قدم له العون والمساعدة، ولكنه -في النهاية- تمكن من القبض عليه سنة (١٣هـ) وأعادته إلى بغداد وأكرمه، ثم واجهته حركة ديبس بن صدقة الأسدي الذي شكل خطرًا على الخلافة العباسية، حتى اضطررة الخليفة أن يخرج بنفسه ويقود الجيش لملاقاته، وينتصر في النهاية عليه سنة (١٧هـ)^(١).

أقول: على الرغم من تلك الحوادث والظروف السياسية المحيطة بالخلافة العباسية في أثناء تولى المسترشد الخلافة، لم يغفل أبدًا عن متابعة الجهاد وأمور المسلمين ومقدساتهم، وحرصه الشديد على ذلك المتمثل في مبادرته بإرسال الخلع مع "سديد الدولة ابن الأنباري"^(٢) إلى المجاهد "نجم

وتلتزم بتوجيهاتها، لأن مثل هذه القوة لا تتوفر آنذاك إلا للسلاجقة، وهذا ما يجب توضيحه هنا.

(١) للتفاصيل حول ذلك: انظر الفصل الأول المتعلق بتقويم عام للخلفاء أثناء العصر السلجوقي "خلافة المسترشد بالله".

(٢) هو محمد بن عبد الكريم بن إبراهيم، المعروف بابن الأنباري، كاتب الإنشاء ببغداد كان شيخًا حسنًا ظريفًا، خدم الملوك والخلعاء وُبعث رسولًا إلى السلطان سنجر وغيره، توفي سنة (٥٥٩هـ). انظر: ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/٢٤٧).

الدين إيغاري"^(١)، وشكره وأثنى عليه لما فعله من غزو الفرنج، وذلك تشجيعاً له، وتكريماً واحتراماً للمجاهدين في سبيل الله وكان ذلك سنة (٥١٤هـ)^(٢)، ولاشك أنها محاولة -أيضاً- لتحسين سمعة الخلافة في نظر المسلمين، لاسيما أمثال المجاهدين المخلصين الذين يدافعون عن الإسلام ومقدسات المسلمين وديارهم، تبرز أيضاً مثل هذه المواقف دور المسترشد خليفة للمسلمين، من أهم واجباته متابعة الأحداث التي تهم المسلمين والوقوف بقوة ضد أعدائهم، وبعث فكرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين^(٣) وكان من نتاج ذلك أن واصل إيغاري جهاده ونضاله ضد

(١) هو إيغاري بن أرتق بن أكسب، نجم الدين التركماني، صاحب ماردين وديار بكر وحلب، كان فارساً شجاعاً كثير الغزو، كثير العطاء، له غزوات ومواقف مشهورة مع الفرنج، وكان يقود حملات الجهاد بنفسه ضد الأعداء، توفي سنة (٥١٦هـ). انظر ترجمته في: ابن منقذ: الاعتبار (١١٣ حاشية رقم ٢٤٥)، ابن الأثير: الكامل (٦٠٤/١٠)، سبط بن الجوزي: مرآة الزمان (٧٤٤/٢)، الذهبي: العبر (٤٠٦/٢)، الكتبي: عيون التواريخ (١٣١/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٢٢٣/٥)، ولمزيد من التفاصيل عن دوره في جهاد الصليبيين، انظر: عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام (٢٣٤-٢٤٤)، مسفر الغامدي: الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي (١٥١-١٧٢).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٥٦٨/١٠).

(٣) سعيد عاشور: ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية، ضمن كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص (٦١)، مسفر الغامدي: الجهاد ضد الصليبيين ص (١٠٩).

الصلبيين حتى وافته المنية سنة (٥١٦هـ)، لأن مثل هذا الإكرام والتشجيع لاشك أنه يدفع المجاهدين لبذل المزيد من الجهد والتضحيات، ويثير في نفوسهم حماساً شديداً؛ لأنهم يشعرون بمن يُقدر جهودهم ويحترم أعمالهم العظيمة بعد أن يخلصوا نياهم وأعمالهم لله تعالى.

وقد كان الخليفة المقتفي لأمر الله مدركاً لذلك كله، وحريصاً على الاهتمام بواجبه نحو رعيته، والحفاظ على ديار المسلمين ومقدساتهم، ومتابعاً لأخبار المجاهدين ضد الصليبيين وأعداء الإسلام، وليس أدل على ذلك من إرساله الخلع والمراكب والتحف، للمجاهد نور الدين محمود، وتلقيه بالملك العادل^(١)، ولاشك أن مثل هذا الاهتمام من شأنه أن يرفع من معنويات المجاهدين، ومن ثم يواصلون جهادهم ونضالهم ضد أعداء المسلمين، وقد قام نور الدين بحملات واسعة ضد العدو الصليبي، ونجح في إحباط محاولاتهم في الاستيلاء على حلب ودمشق وبعلبك وغيرها من المدن والحصون والقلاع^(٢)؛ لأن هذا الموقف من الخليفة المقتفي يوضح

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٥٨/١٠)، المقدسي: الروضتين (١٨٣/١)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٠٩/٢٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٣١/١٢)، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤٤٠)، القرطبي: أخبار الدول ص (١٧٦).

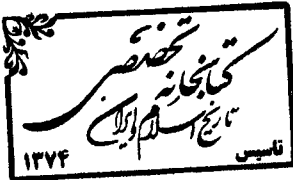
(٢) انظر حول جهاده وحروبه وسيطرته على المدن والحصون والقلاع في: ابن الأثير: الكامل ص (١١) حيث إن أخباره فيه من حوادث سنة (٥٤٢هـ) إلى سنة (٥٦٩هـ)، وكتاب: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ص (٤٨/١) - (٢٣٠).

-بجلاء- دور الخلافة العباسية، ويؤكد واجب الخليفة تجاه المسلمين، ويُبرز مكانة الخليفة وهيبته، علماً بأن هؤلاء المجاهدين؛ أمثال: نور الدين، وعماد الدين، وصلاح الدين، كانوا يؤكدون -دوماً- على ولائهم للخلافة العباسية، وطاعتهم للخليفة العباسي، واحترامهم له، مما يُدلل على صدق جهادهم ورغبتهم الصادقة فيما عند الله تعالى، وما أعده للمجاهدين في سبيله من الأجر والثواب.

كذلك واصل كل من الخليفة المستنجد بالله، والخليفة المستضيء بأمر الله تلك الجهود والمواقف التي سطرها أولئك الخلفاء المتقدم ذكرهم -رغم الظروف التي أحاطت بهم والأحداث التي سجلتها مُدّة خلافتهم- فقد كان الخليفة المستنجد بالله يلوم المجاهد نور الدين كثيراً على تأخير إقامة الخطبة في مصر للخلافة العباسية، وإزالة الشعارات الفاطمية هناك ومن ثم إسقاط الدولة الفاطمية العبيدية، وهذا ما تحقق بالفعل سنة (٥٦٧هـ) بعد وفاة حاكم مصر الفاطمي العبيدي العاضد^(١).

وعلى نفس النهج كان يسير الخليفة المستضيء الذي حرص على توثيق العلاقة بنور الدين، وصلاح الدين، اللذين كان لهما الدور الكبير، والجهد العظيم في السيطرة على زمام الأمور في مصر، وإقامة الخطبة للعباسيين، والقضاء -ومن ثم- على المبادئ الشيعية الفاطمية، وانتشار

(١) ابن الأثير: الكامل (٣٦٨/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٦٤/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٣٥٦/٥).



المذهب السني، وانحسار المذهب الشيعي الفاطمي، ومن ذلك إنشاء المدارس السننية في مصر^(١)، لأن جهود المقتفي والمستنجد ودعمهما القوي ومتابعتهما أبناء المجاهدين، كانت دافعاً قوياً للمجاهدين العظمين نور الدين محمود، وصلاح الدين يوسف، لتحقيق ذلك الفتح العظيم الذي كان يحلم به الخلفاء العباسيون، وعامة المسلمين، وذلك بعودة مصر إلى الخلافة العباسية السننية، وإسقاط دولة الفاطميين العبيديين هناك.

فعندما أرسل المجاهد نور الدين بالبخارة للخليفة المستضيء يخبره بذلك الفتح، استبشر الناس بذلك كثيراً، وزينت بغداد، وظهر من الفرح ما لا حد له، وبادر الخليفة المستضيء على الفور بإرسال الخلع والهدايا إلى كل من المجاهد نور الدين، والمجاهد صلاح الدين^(٢)، تقديراً وعرفاناً لجهودهما العظيمة في ذلك، وهذا ما يؤكد عمق العلاقة بين الخليفة والأمراء المجاهدين من جهة، وحرصهم على عودة مصر للخلافة العباسية من جهة أخرى.

وتأييداً لتلك العلاقة الوثيقة، ورغبة في توثيقها، نجد أن الخليفة المستضيء يُرسل إلى نور الدين تقليداً لما في يده من البلاد، وهي الموصل

(١) انظر حول تلك الأعمال والجهود: المقدسي: الروضتين (١/١٩٦)، ابن واصل: مفرج الكرب (١/١٩٨)، ابن كثير: البداية والنهاية (٤/١٣)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٦/٥٤).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (١٠/٢٣٧)، ابن الأثير: الكامل (١١/٣٧١)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/٢٦٤)، المقرئ: السلوك (١/٤٦).

والجزيرة والشام ومصر، وخراسان، وبلاد قلع أرسلان، وغيرها، وذلك سنة (٥٦٨هـ)، عندما أرسل إليه نور الدين يطلب منه ذلك، ويوضح ما هو عليه من جهاد الكفار وأتباعهم^(١)، ومثل هذا التشجيع والتكريم يضاعف الجهود المبذولة للوقوف ضد الصليبيين ودحرهم، والمحافظة على مقدسات المسلمين وديارهم، لأنه يبرهن على اهتمام الخلفاء الكبير بالأمراء المجاهدين؛ كنور الدين وصلاح الدين، ومتابعة أمور الرعية؛ لاسيما في ظل الزحف الصليبي الذي أوقفه أمثال أولئك الأبطال الذين جاهدوا في الله حق جهاده، هكذا نحسبهم إن شاء الله، فكان حقاً على الله تعالى نصرهم ومؤازرتهم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) وقوله جل شأنه: ﴿إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾^(٣).

وهكذا أصبحت مقاليد الأمور في مصر، ثم في اليمن^(٤) - بعد ذلك - تحت يد المجاهد صلاح الدين، إلى أن توفي المجاهد العظيم نور الدين محمود ابن زنكي سنة (٥٦٩هـ)، فأصبح صلاح الدين هو المتصرف والقوة المسيطرة والمهيمنة على الشام أيضاً، ومن ثم أصبح هو الذي يقود حملة الجهاد المباركة ضد الصليبيين وأعدائهم، لذلك كان من

(١) ابن الأثير: الكامل (٣٩٥/١١)، سعيد عاشور: ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية، ضمن كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص (٦٦).

(٢) سورة الروم آية (٤٧).

(٣) سورة محمد آية (٧).

(٤) انظر حول فتح بلاد اليمن: ابن كثير: البداية والنهاية (٢٧٣/١٢).

الطبيعي أن يواصل الخليفة الناصر لدين الله العباسي جهود من سبقه من الخلفاء، وذلك بتعزيز العلاقة، وتوطيدها بالمجاهدين الأوفياء لما يقومون به من جهد مشكور وعملٍ مظفرٍ مبرورٍ في محاربة الصليبيين، والحفاظة على مقدسات المسلمين وديارهم، ولاشك أن هذا هو ديدن الخلفاء العباسيين بصفة عامة؛ فقد كانوا يدعمون المجاهدين وينصرونهم قدر استطاعتهم وبما تمليه عليهم الظروف المحيطة بهم من كل جانب.

ومن هنا نجد أن الخليفة الناصر قد حرص كل الحرص على تأكيد الصلة وتثبيت العلاقة بالسلطان المجاهد صلاح الدين من خلال بعثه الهدايا والخلع له في رجب سنة (٥٧٦هـ)، حيث لبس خلعة الخليفة بدمشق، وزُينت له المدينة، وكان يومًا مشهودًا^(١)، مما يُدلل على احترام الخليفة الناصر للسلطان صلاح الدين، وتقديره له ولجهوده العظيمة في مجاهدة الصليبيين، وفي المقابل نجد أن صلاح الدين -أيضًا- يبادل الخليفة الاحترام والتقدير نفسه، وتأكيد الولاء للخلافة العباسية، ويتضح ذلك جليًا عندما حاصر صلاح الدين الموصل سنة (٥٧٨هـ) أرسل إليه الخليفة يأمره بالرحيل عنها^(٢)، وحينما عزم على حصارها مرة أخرى سنة (٥٨١هـ) لم يفعل ذلك إلا بعد أخذ الإذن من الخليفة، حيث أرسل إليه

(١) اليافعي: مرآة الجنان (٤٠٢/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٧٣/١٢).

(٢) اليافعي: مرآة الجنان (٤٠٩/٣)، الذهبي: دول الإسلام (٣٠٥)، العبر (٧٤/٣).

الفصل الثاني: جهود الخلفاء والسلاطين ضد الزحف البيزنطي والصلبي ٣٣١

الشيخ ضياء الدين الشهرزوري يخبره بما عزم عليه من حصار الموصل، وتوضيح أن مقصوده من ذلك ردهم إلى طاعة الخليفة ونصرة الإسلام^(١).
ومما يؤكد على ولاء صلاح الدين للخلافة العباسية وطاعته للخليفة والعمل لذلك أمره بالدعاء للخليفة الناصر في أول خطبة أقيمت ببيت المقدس بعد إعادته وتطهيره وذلك سنة (٥٨٣هـ)، حيث دعا الخطيب في ذلك اليوم العظيم؛ وهو القاضي محيي الدين بن الزكي للخليفة الناصر لدين الله، ثم دعا للسلطان صلاح الدين^(٢)، كذلك عندما قدم رسل الخليفة إلى السلطان صلاح الدين يخبرونه بولاية العهد لأبي نصر الملقب بالظاهر بن الخليفة الناصر، لم يكن من السلطان صلاح الدين إلا أن أمر على الفور خطيب دمشق أبا القاسم عبد الملك بن زيد الدولعي أن يذكره على المنبر في الخطبة، وذلك سنة (٥٨٥هـ)^(٣)، كما كان السلطان صلاح الدين يرسل تحفاً كثيرة، وهدايا ثمينة إلى الخليفة الناصر^(٤)، ومثل هذه الحوادث والمواقف تؤكد بوضوح سلطان الخلافة العباسية وهيمنتها على مصر، وتبعيتها للخليفة العباسي، مما يوثق العلاقة بين الخلافة العباسية

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (٣١٦/١٢).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (٣٢٦/١٢).

(٣) ابن الأثير: الكامل (٤٢/١٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (٣٣٢/١٢).

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية (٣٣٢/١٢)، سعيد عاشور: ظل الخلافة العباسية في

الحركة الصليبية، ضمن كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص

والقوة الإسلامية بقيادة صلاح الدين، لأنها القوة التي حلت مكان قوة نور الدين محمود بن زنكي، وتلك العلاقة لاشك أنها تكثف الجهود ضد الصليبيين، وهو الهدف الأسمى للجميع بعيداً عن الأغراض السياسية والأطماع الشخصية التي قد تساور النفس البشرية عندما تجد الفرصة المواتية لتحقيق ذلك.

وهكذا كان الخليفة الناصر لدين الله يدرك بثاقب بصيرته وبعد نظره ما كان عليه العالم الإسلامي من الضعف والتشتت والاختلاف والتنازع، وكذلك قوة الصليبيين والإفرنج وخطرهم المهدق بالمسلمين، لذلك كان من الطبيعي أن يعزّز علاقته وصلته بالمجاهدين وتشجيعهم، ودعمهم لما يقومون به من جهود كبيرة وتضحيات عظيمة في محاربة الصليبيين والوقوف ضدهم^(١).

(١) تذكر المصادر ما يُدلل على ذلك، حيث يذكر الأصفهاني أن الخليفة الناصر لدين الله أرسل سنة (٥٨٦هـ) رسوياً إلى صلاح الدين ومعه حملان من النفط، وحملان من القنا الخطّي الخطار، ومعدات أخرى، وأراد أن يقترض له مبلغ عشرين ألف دينار لخدمة الجهاد ضد الصليبيين، فقبلها منه صلاح الدين ما عدا المال فإنه اعتذر عن قبوله عن طريق القرض، وأرسل إلى الخليفة شاكرًا له صنيعه ذلك، مما يوضح حرص الخليفة الناصر ومتابعته لأمر الجهاد ضد الصليبيين، ودعمه للمجاهدين حسب استطاعته وإمكانياته، انظر حول ما تقدم: سعيد عاشور: ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية، ضمن كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص (٧٦)، نقلًا عن العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي ص (٣٦٥).

ومن هنا نلاحظ اهتمام العباسيين في العصر السلجوقي -بصفة عامة- وحرصهم الشديد على متابعة الأحداث ومراقبتها لاسيما في الشام، لما حلّ بأرض الإسلام من هزائم واحتلال بيت المقدس على أيدي الصليبيين، ولاشك أن هذا الحرص وذلك الاهتمام وتلك المتابعة من الخلفاء (المستظهر والمسترشد والمقتفي والمستنجد والمستضيء والناصر)، نابع من تقديرهم لمسئوليتهم، وقيامهم بما يجب عليهم شرعاً تجاه المسلمين، وضرورة مشاركتهم وإثبات وجودهم في الأحداث التي تمّ مقدسات المسلمين والمحافظة على ديارهم، ودحر المتربص بهم، وإدراك خطره؛ إن هم خلدوا للراحة، ولم يقوموا بمواجهته، ودعم المجاهدين لدحره وطرده من بلاد المسلمين، لاسيما أنهم خلفاء مسلمون يدينون بالمذهب السني، وينصرون أهل السنة، ويسعون جاهدين للمحافظة على كيان أهل السنة، ورغم الظروف السياسية التي تحيط بهم من كل جانب، عملوا ما بوسعهم، وعلى قدر استطاعتهم، وبما تمليه عليهم الظروف والموقف والأحداث التي لا تخفى على من درس أحوال ذلك العصر وسير أغواره^(١).

أما عن مواقف السلاطين السلاجقة وجهودهم ضد أعداء المسلمين من بيزنطيين، وصليبيين، وغيرهم، فقد قاموا بذلك خير قيام، فلم يهملوا

(١) سهل زكار: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص (١٧)، العسيري: الحياة العلمية

في العصر السلجوقي ص (٨٦).

أمر الجهاد ضد أولئك الذين يناهضون المسلمين، ويعتدون عليهم، ويفتكون بهم، مما أدى إلى استشهاد الكثير منهم في سبيل الدفاع عن الإسلام والمسلمين، على الرغم من انقسام العالم الإسلامي وضعفه وتفككه في تلك المدّة، ونحن لا نتعجب من ذلك إذا علمنا أن السلاجقة كانوا على المذهب السني، وقد ارتفع شأن أهل السنة والجماعة في عصرهم، وكان لهم الفضل العظيم بعد الله تعالى في حماية الدين والدفاع عن الإسلام، وكذلك تمكنهم من تحقيق ما عجز عنه من سبقهم من المسلمين، وهو الأناضول، ومن ثم التمهد للقضاء على البيزنطيين^(١).

ومما يُوضح حبهم للجهاد في سبيل الله تعالى وحماسهم الشديد لغزو الكفار وحرهم أنه عندما أصبحت الدولة السلجوقية أكبر قوة عسكرية مهيمنة في الشرق الإسلامي، وأصبحوا جميعاً يخضعون للسلطان طغرل الذي اتجه للاستيلاء على العراق، واتخذ مدينة الري عاصمة له كتب

(١) يجب أن نوضح - في ختام الحديث عن جهود الخلفاء ومواقفهم ضد الصليبيين - أنها تنصب حول متابعتهم الأحداث وتشجيعهم وتأييدهم وإرسالهم الخلع والهدايا وتوثيق العلاقة بهم لخدمة الإسلام والمسلمين والمحافظة على المقدسات الإسلامية، أما إعداد الجيوش وتسييرها للقتال ضد الصليبيين فكان من مهمة الأمراء المجاهدين والسلطين السلاجقة، ولم يكن من قبل الخلفاء، وذلك لقرب أولئك الأمراء من ساحات القتال ومباشرتهم الأحداث، إلا أنه كانت هناك متابعة دقيقة واهتمام مباشر من الخلفاء لتطورات الأحداث، والحرص الشديد على مصلحة الإسلام والمسلمين، رغم الظروف المحيطة بهم.

رسالة إلى الخليفة القائم بأمر الله سنة (٤٣٢هـ) حيث أوضح فيها ولاءهم للخلافة العباسية وحبهم لها، ثم قال: "ولقد اجتهدنا دائماً في غزو الكفار وإعلان الجهاد، وداومنا على زيارة الكعبة المقدسة..."^(١).

إذا لم يبق إلا أن يبدأ هؤلاء السلاطين السلاجقة عملهم وجهادهم ضد الأعداء الذين يتربصون بالمسلمين، ويناصبونهم العداوة؛ سواء كانوا من البيزنطيين أو الصليبيين، فمنذ النصف الأول للقرن الخامس الهجري، كان السلاجقة يهاجمون أراضي الدولة البيزنطية بين الحين والآخر؛ فقد استطاع "إبراهيم بن ينال"^(٢) - وهو أخ للسلطان السلجوقي طغرل لأمه - سنة (٤٤٠) من غزو بلاد الروم، ووصل السلاجقة في تقدمهم إلى ملاذكرد، وأرزن، وقاليقلا، حتى بلغوا طرابزون على شاطئ البحر الأسود، فلقبهم جمع عظيم من الروم، فاقتتلوا، واشتد القتال بينهم، وكان

(١) الراوندي: راحة الصدور (١٦٦)، وقد كان طغرل بك ملتزماً بحب أهل السنة، ويحرص على أداء الفرائض، ويتقرب إلى الله بخدمة الدين (المصدر السابق).

(٢) يكتب اسمه في الكتب التاريخية بأشكال مختلفة مثل: نبال، وبنال، ونيال، وبنال، وينيال، وإينال، ويرى البعض أن الاسم الصحيح هو "إينال" ومعناها في التركية: رئيس القبيلة. انظر: الراوندي: راحة الصدور (١٦٨)، حاشية رقم (١) وكان إبراهيم هذا على خلاف مع أخيه طغرل بك، وكانت بينهما منازعات انتهت بمحاصرة إبراهيم وقتله سنة (٤٥١هـ). انظر حول ما دار بينهما ونهايته: ابن الجوزي: المنتظم (٢٠٢-١٩٠/٨)، وعن ترجمة: إبراهيم بن ينال انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء (١١٢/١٨).

النصر - في النهاية - للمسلمين الذين أكثروا القتل في الروم، وهزموهم، وأسروا جماعة كثيرة من بطارقتهم، وكان من بين الأسرى البيزنطيين القائد البيزنطي "قاربط"^(١)، ولم يزل إبراهيم ينال وصول ويجول في تلك البلاد حتى لم يبق بينه وبين القسطنطينية إلا خمسة عشر يوماً، وغنم المسلمون غنائم كثيرة من دواب وبغال وأموال ودروع وغيرها^(٢).

وفي سنة (٤٤٤هـ) هاجم السلاجقة أراضي البيزنطيين في إقليم قرس^(٣)، وكان السلطان طغرل بك السلجوقي قد غزا بلاد الروم بعد أخذه بلاد أذربيجان، وسار إلى أرمينية، واتجه إلى ملاذكرد، وحاصرها، وضيق على أهلها، ونهب ما جاورها من البلاد وخربها، وقد أثر السلطان طغرل

(١) وقد أطلق سراحه فيما بعد، حيث أطلقت السلطان طغرل السلجوقي بغير فداء (ابن الأثير: الكامل (٢٨/١٠)).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (١٣٧/٨)، ابن الأثير: الكامل (٥٤٦/٩)، ابن كثير: البداية والنهاية (٥٨/١٢)، سعيد عاشور: الحركة الصليبية (٧٩/١)، فايد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية (٥٦)، السيد الباز العريبي: الدولة البيزنطية (٨٤٨).

(٣) قرس: إحدى المدن الكبيرة بجمهورية جورجيا، وهي مدينة أرمينية من نواحي تفليس (ياقوت: معجم البلدان (٣٢٣/٤)، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية (٢١٦)، وقد ترد أحياناً بلفظ: قرص، وقارص).

بك في غزو الروم آثاراً عظيمة، كما يذكر ابن الأثير، وغيره، ونال منهم النهب والقتل والأسر شيئاً كثيراً^(١).

واستمر السلاجقة في جهادهم وغاراتهم ضد البيزنطيين، وشملت جميع أنحاء أرمينية، وذلك في عهد الإمبراطور البيزنطي (فستظين التاسع ٤٣٤-٤٤٦ هـ)^(٢)، بل إن تلك الغارات والهجمات ازدادت في المدة الواقعة بين سنتي (٤٤٩-٤٧٤ هـ)^(٣)، واستولوا على بعض المدن المهمة^(٤)، وبقيت تلك الغارات حتى وفاة السلطان السلجوقي طغرل بك سنة (٤٥٥ هـ)^(٥)، أي أن المسلمين في تلك الحقبة لم يستقروا في أراضي

(١) ابن الأثير: الكامل (٥٩٩/٩)، ابن كثير: البداية والنهاية (٦٥/١٢)، فايد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية (٥٦)، سعيد عاشور: الحركة الصليبية (٨١/١).

(٢) انظر حول حياته وأحداث عصره، السيد الباز العريبي: الدولة البيزنطية (٧٤٢)، وما بعدها، ولزيد من التفاصيل عن الأباطرة البيزنطيين، الذين تولوا العرش البيزنطي قبله أحدث عصرهم انظر: أسمت غنيم: الإمبراطورية البيزنطية وكرت الإسلامية (١١٠-١٠٥).

(٣) حول الهجمات والغارات على البيزنطيين انظر: ابن الأثير: الكامل (١٠/٩) في حوادث تلك السنوات.

(٤) مثل إقليم كبادوكيا، ومدينة ملطية، وغيرها.

(٥) انظر حول سيرته ومناقبه ابن الأثير: الكامل (٢٨/١٠)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٦٣/٥)، الراوندي: راحة الصدور ص (١٥٩)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق (٢٥-٢٦)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (٥٩-٦٥).

الدولة البيزنطية، وإنما اكتفوا بقذف الرعب والخوف في قلوب البيزنطيين، وإشعارهم بيقظة المسلمين وانتباههم؛ كي لا يفكر العدو في قتالهم أو مباغتتهم، وهم يدركون قوة المسلمين ويقظتهم.

وبعد أن تأكد السلاجقة من ضعف الإمبراطورية البيزنطية وتفككها، أخذوا ينوعون في خططهم العسكرية، لاسيما بعد وجود شخصية قوية في السلطنة السلجوقية، ألا وهي شخصية السلطان ألب أرسلان (٤٥٦-٤٦٥هـ)، حيث بدأت السياسة العسكرية تأخذ دوراً جديداً في عهده، وهو غزو الأراضي البيزنطية، وضمها لديار المسلمين^(١). وهذا ما حدث بالفعل، ففي سنة (٤٥٦هـ) استولى السلطان ألب أرسلان على مدينة آني^(٢) وقرس وغيرها من المدن والقلاع الحصينة؛ مثل

(١) فايد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ص (٥٦).

(٢) آني: مدينة في أرمينية بين خلاط وكنجه وأني وقرس من المراكز الأساسية لقوة الدولة البيزنطية في الأقاليم الشمالية الشرقية من آسيا الصغرى وهما العاصمتان القديمتان لأرمينية (ياقوت: معجم البلدان (٥٩/١)، فايد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ص (٥٦).

الفصل الثاني: جهود الخلفاء والسلاطين ضد الزحف البيزنطي والصليبي ٣٣٩

مدينة نشين^(١)، وسبيذ شهر^(٢) وأعال لال^(٣) وقلعة ساماري^(٤)، وغيرها، وغنم المسلمون من ذلك غنائم كثيرة، إضافة إلى كثرة من وقع في أيديهم من الأسرى، وقد شارك في ذلك الغزو ملكشاه بن ألب أرسلان، والوزير السلجوقي الشهير نظام الملك^(٥).

(١) ويقال لها: مريم نشين - مسكن ماري - وربما يكون دير ممراشين الواقع عند مصب نهر آربا، وهي مدينة حصينة سورها من الأحجار الكبار الصلبة المشدودة بالرصاص والحديد، وعندها نهر كبير. ابن الأثير: الكامل (٣٨/١٠)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (٨٩).

(٢) سبيذ شهر: تقع على المجرى الخلفي من نهر ديبيد إلى الشرق من بحيرة نشالدير على الطريق من فرمس إلى أخالقالا، وهي: آق شهر، بالفارسية والتركية انظر: الحسيني: زبدة التواريخ أخبار الأمراء والملوك السلجوقية (٩٠ حاشية رقم ١).

(٣) أعال لال: هي مدينة أخالقالا في جمهورية جورجيا السوفيتية حاليًا، وهي مدينة حصينة، عالية الأسوار، شاهقة البنيان، وهي من جهة الشرق والغرب على جبل عال، وعلى الجبل عدة حصون، (ابن الأثير: الكامل (٣٩/١٠)، الحسيني: زبدة التاريخ (٩٠).

(٤) ساماري: قلعة عظيمة وولاية واسعة بين تفليس وخلاط، وفيها المياه الجارية والبساتين (ياقوت: معجم البلدان (٢١٥/٣)، وهي سرماري الحالية في تركيا (الحسيني: زبدة التواريخ (٨٨).

(٥) ابن الأثير: الكامل (٣٧/١٠-٤١)، ابن كثير: البداية والنهاية (٩١/١٢)، الحسيني: زبدة التواريخ (٨٧-٩٧)، السيد العريبي: الدولة البيزنطية (٨٤٩-٨٥٠).

وفي سنة (٤٦٠هـ) سار السلطان ألب أرسلان مرة أخرى إلى الروم وافتتح عدة قلاع وغنم المسلمون غنائم كثيرة^(١). ولم تتوقف غارات السلاجقة الإسلامية وهجماتهم ضد الدولة البيزنطية، كلما سنحت لهم الفرصة لذلك، الأمر الذي لم يتمكن من خلاله الإمبراطور البيزنطي (قسطنطين العاشر، (٤٥١-٤٦٠هـ) من الوقوف ضد تلك الهجمات والغارات المتتالية، وذلك لأن الله تعالى قذف في قلوبهم الرعب والخوف من المسلمين الصادقين في جهادهم، ولما تولى الإمبراطور البيزنطي (رومانوس الرابع، (٤٦٠-٤٦٤هـ) السلطة، اهتم كثيراً بإعادة بناء الجيش البيزنطي وتنظيم قواته، وإصلاح الأوضاع الداخلية التي تدهورت في تلك المدّة، حيث بدأ الانهيار السياسي للإمبراطورية البيزنطية، وقد حاول رومانوس أن ينتقم من المسلمين السلاجقة، وأن يسترد الأناضول، ففي سنة (٤٦٢هـ) تمكن من الوصول إلى مدينة منبج الواقعة على الضفة الغربية لنهر الفرات، وتمكن من قتل أهلها ونهبها، وهزيمة بعض أمراء العرب^(٢)، وفي ذلك يقول ابن الأثير: "في هذه السنة -أي: سنة (٤٦٢هـ)- أقبل ملك الروم من القسطنطينية في عسكر كثيف إلى الشام، ونزل على مدينة منبج وقتل أهلها، وهزم محمود

(١) انظر تفاصيل ذلك في الحسيني: زبدة التواريخ ص (١٠٣-١٠٦).

(٢) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق (٣٥)، السيد العريبي: الدولة البيزنطية (٨٥١)،

وفيه أنه استولى على أرتاح القريبة من أنطاكية.

ابن صالح بن مرداس، وبني كلاب، وابن حسان الطائي، ومن معهما من جموع العرب، ثم إن ملك الروم ارتحل وعاد إلى بلاده، ولم يمكنه المقام لشدة الجوع"^(١).

وهذا النص يدل على قوة البيزنطيين، وتنظيم صفوفهم، وبناء جيشهم، ومحاولتهم الثأر من المسلمين، ولكن ذلك لم يوقف السلاجقة من المضي في هجومهم إلى أراضي الدولة البيزنطية، ولم تعد أرمينية تقف عائقاً بين السلاجقة وقلب آسيا الصغرى، وقد تمكنوا من السيطرة على مدينة ملطية، وهزيمة حاكمها البيزنطي، واستمرت الغارات السلجوقية تباعاً حتى تمكنت من نهب قونية"^(٢).

ولما علم رومانوس بما أصاب قونية، وما تعرضت له من النهب، حاول أن يوقف زحف السلاجقة، إلا أنه لم يكن بوسعه -أو بوسع قادته العسكريين- تنفيذ ذلك، حيث أعد حملة ضخمة لقتال السلاجقة، وعهد بقيادتها إلى القائد البيزنطي مانويل كومنين الذي هزم هزيمة كبيرة من السلاجقة، ووقع أسيراً بأيديهم، الأمر الذي أدى إلى توغل السلاجقة في

(١) ابن الأثير: الكامل (٦٠/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (٩٩/١٢)، وقد ذكر ابن الجوزي: المنتظم (٦٥٦/٨)، أن عدد العسكر ثلاثمائة ألف، ومن الواضح أن ثمة مبالغة في هذا التقدير.

(٢) السيد العربي: الدولة البيزنطية (٨٥٢)، فايد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ص (٥٧).

آسيا الصغرى أكثر من ذي قبل، وكان ذلك سنة (٤٦٣ هـ)^(١)، حيث سار السلطان السلجوقي ألب أرسلان إلى حلب، وجعل طريقة على ديار بكر، فخرج إليه صاحبها (نصر بن مروان)، وخدمه بمائة ألف دينار، وحمل إليه إقامة^(٢) عرف السلطان أنه قسطها على البلاد، فأمر بردها^(٣)، أي رد تلك الأموال إلى أصحابها الشرعيين، ثم وصل إلى آمد فرآها ثغراً منيعاً فتبرك به، وجعل ثمر يده على السور ويمسح بها صدره، ثم حاصر الرها فلم يظفر بها منها بطائل، فترحل إلى حلب^(٤). وهذا دليل على ورع السلطات ألب أرسلان وتقواه، لأن أخذ أموال المسلمين وتقديمها للحكام هدية ونحوها يُعدُّ منافياً لتعاليم الإسلام، وفي هذه الأثناء كان السلطان ألب أرسلان يعد حملة ضد الفاطميين العبيديين، الأمر الذي حمل (محمود ابن صالح بن مرداس) أمير حلب، أن ينتقل من الانتماء للفاطميين العبيديين إلى الولاء للعباسيين، وجعل الخطبة للخليفة القائم بأمر الله، وللسلطان ألب أرسلان الذي انتهى بذلك من تصفية الخلافات والمشاكل الداخلية في دولته، واستقرار الأوضاع السياسية، مما جعله يقرر إعلان

(١) السيد العريبي: الدولة البيزنطية (٨٥٢).

(٢) إقامة: المراد بها أنواع المون التي تقدم من باب التكريم والحفاوة، وجمعها "إقامات" وقد وردت في هذا المعنى عند: الصابئ في كتابه رسوم دار الخلافة (١٣)، ولم أجد لها تعريفاً في معاجم اللغة المتعددة.

(٣) ابن الأثير: الكامل (٦٤/١٠)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق (٣٦).

(٤) وهذا الفعل منه -أي: التبرك بالسور- لا يجوز شرعاً لأنه مخالف للعقيدة.

الجهاد العام ضد الدولة البيزنطية^(١)، فكانت معركة (ملاذكرد) الشهيرة في التاريخ، والتي تعدّ أقصى ما بذله البيزنطيون من جهد لوقف غارات السلاجقة؛ والحد من هجماتهم المتلاحقة.

ذلك سنة أنه سنة (٤٦٣هـ) حاول الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع وقف تلك الغارات، واسترداد أرمينية، حيث تحرك بجيشه الكثير العدد وقواته المتعددة الأجناس، التي تربو على ثلاثمائة ألف فارس وراجل^(٢)، ورمت الروم إلى المسلمين أفلاذ كبدها، وأخرجت الأرض أثقالها من عديدها وعددها - كما يعبر بذلك الحسيني^(٣) - ويضيف: "واجتمع على هذا الملك من أوباش الروم والفرس البجنك والغز،

(١) ابن الأثير: الكامل (٦٣/١٠)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق (٣٦-٣٧)، السيد العربي: الدولة البيزنطية (٨٥٢)، فايد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية (٥٨)، وهنا يتضح من تحركات ألب أرسلان في بلاد الشام أنها كانت تهدف إلى ضرب القوي الشيعية في تلك البلاد قبل التوجه لجهاد البيزنطيين.

(٢) الرقم (٣٠٠،٠٠٠) يرد عند البنداري ص (٣٧)، وعند ابن الأثير (٢٠٠،٠٠٠) (٦٥/١٠) وكذلك الذهبي: في السير (٤١٥/١٨)، وعند ابن القلانسي: (٧٠٠،٠٠٠) ص (٩٩)، وعند الراوندي: (٦٠٠،٠٠٠) ص (١٨٩)، وعند الحسيني: (٣٠٠،٠٠٠) (١٠٨)، وكذلك عند ابن النظام الحسيني ص (٤٦)، وقد يكون هناك مغالاة في هذا العدد، إلا أن الذي لا نشك فيه أن هذه الحملة فاقت في العدد والعدة جميع الحملات التي سبق أن قادها رومانوس في آسيا الصغرى.

(٣) زبدة التواريخ ص (١٠٨).

والفرنج^(١)، أقوام طالت العين بهم سواعدها، وأعلت النصرانية باجتماعهم قواعدها، وحلفوا على أنهم يزعمون الخليفة، ويخربون المساجد، وبينون البيع^(٢).

فلما بلغ السلطان ألب أرسلان الخبر، وعلم بتحريك الإمبراطور البيزنطي رومانوس بتلك القوات الكثيرة^(٣)، لم يتمكن آنذاك من جمع العساكر، لبعدها وقرب العدو وخطره على المسلمين، عند ذلك سار فيمن عنده من العساكر، وهم خمسة عشر ألف فارس، وجدّ في السير،

(١) نفسه (١٠٨)، ويعد البنداري ص (٣٧) ضمن الجيش البيزنطي: ما بين رومي وروسي وغزي وقفجاقني وكرجي وأنخاري وخزري وافرنجي وأرمي.

(٢) زبدة التواريخ (١٠٨).

(٣) تذكر بعض المصادر عن جيش البيزنطيين وعدته أنه يتألف من: ١٠٠،٠٠٠ مقاتل،

١٠٠،٠٠٠ مهندس وناسف، ١٠٠،٠٠٠ من الجورجين، ١٠٠،٠٠٠ من

الصناع، وأربعمائة عربة مصفحة يجرها ثمانمائة جاموس، وألف عربة محملة بالسلاح

والقنابل، ومع الجند كان يوجد ٣٥ ألف بطريق (قائد)، ويوجد ضاربة منجنيق

بخدمها ١٢٠٠ شخص، ومجموع الحجار التي ترها يعادل عشرة قناطير

(القنطار = ٩٧،٥ كغم)، كما تضيف المصادر أن الإمبراطور رومانوس وزع على

بطارقه اقطاعات مصر وسوريا وخراسان والري والعراق. انظر حول ذلك: ابن

الجوزي: المنتظم (٢٦١/٨)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (١٠٨ حاشية رقم ٢)، ابن

كثير: البداية والنهاية (١٢/١٠٠).

فإن سلمت فنعمة من الله تعالى، وإن استشهدت فرحمة من الله تعالى،
فخليفتي ابني ملكشاه ولي عهدي، وساروا"^(١).

وكان الخليفة القائم بأمر الله، أمير المؤمنين، قد أمر بالدعاء على المنابر، وعمل نسخة بذلك، ودفعه إلى الخطباء، وهو من إنشاء أبي سعد ابن موصلايا^(٢)، وقد أورد الحسيني نص الدعاء، وهو: "اللهم أعل راية الإسلام وناصره، وادحض الشرك بجبّ غاربه وقطع أواصره، وامدد المجاهدين في سبيلك الذين في طاعتك نفوسهم سمحوا، وبما يعتك مهجتهم فازوا وربحوا، بالعون الذي يطول به باعهم، وتملاً بالظفر والأمن رباعهم، وأحبّ السلطان ألب أرسلان برهان أمير المؤمنين بالنصر الذي تستنير به أعلامه، ويستيسر مرامه، وأوّلّه من التأييد الضاحكة بماسمه، القائمة أسواقه ومواسمه، ما يقوي إعزاز دينك يده، ويقضي له بأن يشفع بيومه من الكفار غده، واجعل جنوده، بملائكتك معضودة، وعزائم على التيمن

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٦١/٨)، ابن الأثير: الكامل (٦٥/١٠)، الحسيني: زبدة

التواريخ ص (١٠٨-١٠٩)، العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص (١٨٦).

(٢) هو أمين الدولة، أبو سعد، العلاء بن الحسن بن وهب بن موصلايا، نال من الرفعة

والمنزلة ما لم ينله أبناء جنسه، كتب في الإنشاء للخلفاء خمسًا وستين سنة بدءاً من

خلافة القائم بأمر الله، كان كثير الصدقة، كريم الفعال، غزير العلم، فصيحاً، توفي

سنة (٤٩٧هـ). انظر ترجمته في: ابن الجوزي: المنتظم (١٤١/٩)، ابن الأثير:

الكامل (٣٧٧/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٦/١٢)، ابن تغري بردي:

النجوم الزاهرة (١٨٩/٥).

والتوفيق معقودة، فإنه قد هجر في كريم مرضاتك الدعة، وتاجر في بذل المال والنفس ما انتهج فيه مسالك أوامرك الممتثلة المتبعة، فإنك تقول وقولك الحق: ﴿يأأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم﴾^(١) فابتهلوا معاشر المسلمين إلى الله تعالى بالدعاء له بنية صافية، وعزيمة صادقة، وقلوب خاشعة، وعقائد في رياض الخلوص رائعة، فإنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿قل ما يعبوبكم ربى لولادعآؤكم﴾^(٢) وواصلوا الرغبة إلى الله تعالى في إعزاز جانبه، وإعلاء رايته، وإنالته من الظفر أقصى حده وغايته، وتسير المصاعب لديه، وإذلال الشرك بين يديه^(٣).

ولاشك أن في مثل هذا التضرع والدعاء دليلاً على صدق توجهه إلى الله تعالى، والرغبة الصادقة في نيل إحدى الحسينيين، ويوضح كذلك اهتمام ومتابعة الخليفة لأمر المسلمين، وتوحيد الجهود لتحقيق الهدف المنشود، وهو الجهاد في سبيل الله وقمع الأعداء، وهو هدف يرمي إلى تحقيقه كل من الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي مما يؤدي إلى الحفاظ على كيان أهل السنة، مهما كانت الأحوال والظروف وتباين وجهات

(١) سورة الصف آية (١٠).

(٢) سورة الفرقان آية (٧٧).

(٣) زبدة التواريخ (١٠٩-١١٠)، ولم أعثر على نص الدعاء المذكور عند غيره في

المصادر والمراجع التي اطلعت عليها، ولعل الحسيني تفرد به.

النظر، لاسيما إذا تجمع الأعداء وتكالبوا على المسلمين، كما هو الحال في ملاذكرد^(١).

ثم إن الإمبراطور رومانوس الرابع عندما وصل إلى ملاذكرد واستولى عليها، تقدمت بعض القوات الإسلامية السلجوقية، وهاجمت جزءاً من قوات العدو يُقدر بنحو عشرة آلاف من الروم، عند مدينة خلط، فانتصر المسلمون، وأسروا القائد الرومي^(٢) الذي حمل إلى السلطان فجذع أنفه^(٣)، وعلى الرغم من ذلك الانتصار فإن السلطان ألب أرسلان لم يأبه به، فأرسل إلى الإمبراطور رومانوس يطلب منه المهادنة، لأنه أدرك الفرق بين الجيشين، وتأكد لديه أنه من الصعب أن يقاتل مثل هذا الجيش، لاسيما وأنه لم يستطع أن يجمع قواته المبعثرة، ففضل أن

(١) يذكر ياقوت أمّاً: منازجرد، بعد الألف زاي ثم جيم مكسورة، وراء ساكنة ودال، وأهله يقولون: منازکرد بالكاف، وهي: بلد مشهور بين خلط وبلاد الروم، يُعد في أرمينية، وأهله أرمن وروم. انظر: معجم البلدان (٢٠٢/٥). وقد تحرفت في بعض المصادر إلى ملاذكرد، كما في الكامل (٦٥/١٠)، والبعض يطلق عليها: مانزكرت، مانزکرد، منازكر، مانزكرت، ملاذكرد.

(٢) يذكر البنداري أن اسمه صندات التركي ص (٣٨).

(٣) رغم أن جذع الأنف ذكرته أكثر المصادر التي رجعت إليها، فإنه ولاشك منافع لتعاليم الإسلام السمحة التي نمت عن المثلة، ولعل السلطان عاقبة عقاباً قصد منه إهاتته وإذلاله أمام أصحابه، إلا أن العقوبة قد لا تصل إلى جذع الأنف - كما ذكرت الروايات - وإن حصل ذلك فهو مخالف للشريعة لثبوت الأدلة على منع ذلك.

يطلب الصلح وتأجيل ما عزم عليه من غزو بلاد الروم، ريثما يكمل استعداده ويحشد قواته، ولكن امبراطور الروم الذي كان مغترباً بنفسه، معتدلاً بقوة جيشه، متلهفاً على ضرب السلاجقة وسحقهم، رد على رسول السلطان بأن الصلح والهدنة لن يتما إلا في الري، بمعنى أنه يرفض المهادنة ويعزم على احتلال دولة السلاجقة حتى يصل إلى قلب الدولة السلجوقية؛ وهي مدينة الري (عاصمة السلاجقة)^(١).

ولاشك أن مثل هذا الرد المتكبر أزعج السلطان كثيراً، ولكن هنا يبرز دور العلماء الصادقين المجاهدين الواثقين بنصر الله تعالى؛ عندما قال له إمامه وفقهه أبو نصر، محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي: "إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره، وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح، فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال في الساعة التي تكون الخطباء على المنابر، فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر، والدعاء مقرون بالإجابة"^(٢)، وانتظر السلطان إلى يوم الجمعة،

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٦١/٨)، ابن الأثير: الكامل (٦٥/١٠)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (٣٩)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (١١٠)، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص (٣٢٢)، حسن أحمد: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص (٥٩٠).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٦٥/١٠-٦٦)، البنداوي: تاريخ دولة آل سلجوق ص (٣٩)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (١١١).

وقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾^(١)، وقال: "ربما يكون في الخطاب مَنْ إذا قال في آخر خطبته: اللهم انصر جيوش المسلمين وسراياهم، حقق الله ببركات دعائه مقاصد الغزاة ومبتغاهم"^(٢).

ويتضح من نصيحة الإمام والفقير محمد بن عبد الملك البخاري -المتقدمة- واجب الفقهاء، وعلماء الإسلام في النصيحة للحكام وقول الحق، ودورهم العظيم في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله تعالى، وتثبيت قلوب القادة والمجاهدين أمام الغزاة، وعدم خشيتهم إلا من الله تعالى، دون محاباة الحاكم، أو تقرب من سلطان، لغرض دنيوي، أو مصلحة شخصية، ونحو ذلك، مثل هذه المواقف هي التي تؤدي إلى الحفاظ على السنة وأهلها في كل عصر وحين؛ وهو ما نود إبرازه وتوضيحه من خلال هذا البحث.

ولما كانت تلك الساعة التي أوصى بها الإمام أبو نصر البخاري، قام السلطان ألب أرسلان فصلى بالناس، وبكى كثيراً، فبكى الناس لبكائه، ودعا الله تعالى وابتهل، وتضرع، وقال لهم: "من أراد الانصراف فليصرف، فما هاهنا سلطان يأمر وينهى، وألقى القوس والنشاب، وأخذ

(١) سورة الأنفال آية (١٠).

(٢) الحسيني: زبدة التواريخ ص (١١١).

السيف، وعقد ذنب فرسه بيده، وفعل عسكريه مثله، ولبس البياض وتحنط، وقال: "إن قتلت فهذا كفي"^(١).

ثم زحف السلطان ألب أرسلان إلى الروم، وزحفوا إليه، فلما قاربهم ترجل، وعفر وجهه بالتراب، وبكى، وأكثر الدعاء^(٢)، ثم ركب وحمل وحملت العساكر معه حملة صادقة، فوقعوا في وسط العدو، وحجز الغبار بينهم، فقتل المسلمون فيهم كيف شاؤوا، وأنزل الله نصره عليهم، فانهزم الروم، وقتل منهم ما لا يحصى، حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى، ووقع الإمبراطور البيزنطي رومانوس أسيراً^(٣)، وهرب القادة البيزنطيين

(١) ابن الأثير: الكامل (٦٦/١٠)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤١٥/١٨)، العبر (٣١٤/٢)، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص (٣٢٢).

(٢) يذكر الحسيني أن السلطان ألب أرسلان عندما التقى مع الروم، كاد جيشه أن يهزم في بداية المعركة، ولكن السلطان نزل عن فرسه، وسجد لله تعالى، وقال: "اللهم توكلت عليك، وتقربت بهذا الجهاد إليك، وعفرت وجهي بين يديك، فإن كنت تعلم من ضميري خلاف ما أقوله بلساني فأهلكني ومن معي من أعواني وغلماي، وإن كان سري موافقا لعلائي فامدني على جهاد الأعداء، واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً، وصير العسير عليّ يسيراً". انظر: زبدة التواريخ ص (١١٢)، وهذا النص تفرد به الحسيني فقط، فلم أجده عند غيره في المصادر التي اطلعت عليها.

(٣) تذكر المصادر أن الذي أسر إمبراطور الروم غلام مملوك لسعد الدولة الكوهرائين اسمه شادي، وقد أهدها إلى الوزير نظام الملك، فرده عليه، ولم ينظر إليه، ولكن سعد الدولة رغبه فيه كثيراً، فقال الوزير: وماذا يراد منه عسى أن يأتينا بملك الروم أسيراً

والجند تاركين الإمبراطور يقع في أسر المسلمين، ويروي ابن الأثير والعبري وغيرهما أن السلطان ألب أرسلان عندما رأى الإمبراطور الأسير رومانوس وبخه وقال له: ألم أرسل إليك في الهدنة فأبيت؟ فقال: دعني من التويخ، وافعل ما تريد!، فقال السلطان: ما عزمت أن تفعل بي إن أسرتني؟ فأجاب الإمبراطور: القبيح، فقال السلطان: فما تظن أنني أفعل بك؟ قال: إما أن تقتلني، وإما أن تشهري في بلاد الإسلام، والأخرى بعيدة، وهي العفو، وقبول الأموال، واصطناعي نائباً عنك، فقال السلطان: ما عزمت على غير هذا.

ذكر ذلك استهزاءً به واحتقاراً واستصغاراً لقدره، وكان من إرادة الله أن هذا الغلام عرف ملك الروم في أثناء الهزيمة - وكان قد رآه قبل ذلك - فأمسك به وأحضره إلى السلطان أسيراً. انظر: الراوندي: راحة الصدور (١٨٩)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق (٤١)، الحسيني: زبدة التواريخ (١١٣)، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول (٣٢٢)، وابن الجوزي يسمي الغلام (شاذي) (٢٦٢/٨)، ابن النظام الحسيني: العراضة في الحكاية السلجوقية ص (٤٧)، وعند ابن الجوزي ما يدل على أنه لا يعرفه (المنتظم: (٢٦٢/٨).

وكان سعد الدولة الكوراثين من الخدم الأتراك الذين خدموا السلطان ألب أرسلان، وقد أرسله السلطان ملكشاه بعد قتل أبيه إلى بغداد، وأقطعه واسط وجعله شحنة بغداد، قتل في رجب سنة (٤٩٣هـ). انظر: ابن الجوزي: المنتظم (١١٥/٩ - ١١٦)، ابن الأثير: الكامل (٢٩٥/١٠ - ٢٩٦).

فاتفق معه على أن يدفع فدية قدرها ألف ألف وخمسمائة ألف دينار، وأن يرسل إليه عساكر الروم أي وقت طلبها، وأن يطلق كل أسير في بلاد الروم، واستقر الأمر على ذلك، وأنزله في خيمة وأرسل إليه عشرة آلاف دينار يتجهز بها، وأطلق له جماعة من البطارقة، وخلع عليه، وهادنه السلطان خمسين سنة، وسيره إلى بلاده، وسير معه عسكرياً أوصلوه إلى مأمنه، وشيعه السلطان فرسخاً^(١).

وقد لقي الإمبراطور في أسره معاملة طيبة حسنة من المسلمين، وأطلق سراحه بعد ثمانية أيام فقط من أسره^(٢).

(١) انظر عن المعركة وتفصيلها: ابن الجوزي: المنتظم (٢٦٠/٨-٢٦٩)، ابن الأثير: الكامل (١٠/٦٥-٦٧)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١٠٠-١٠١)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٥/٦٥-٦٧)، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص (٣٢٢-٣٢٣)، الرواندي: راحة الصدور ص (١٨٩)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (٣٧-٤١)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (١٠٧-١١٥)، ابن النظام الحسيني: العراضة في الحكاية السلجوقية ص (٤٦-٤٨)، اليافعي: مرآة الجنان (٣/٨٦-٨٧)، علي بن عبد الحليم محمود: الغزو الصليبي والعالم الإسلامي ص (١٨٨)، السيد العربي: الدولة البيزنطية ص (٨٥٣-٨٥٦)، العدوي: التاريخ الإسلامي ص (٣٥٦)، بسام العسلي: الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية ص (١٥) وما بعدها، عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٦٢-٦٥).

(٢) بسام العسلي: الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية ص (٣١)، السيد العربي: الدولة البيزنطية ص (٨٥٤)، ولمزيد من التفاصيل حول الصفحات المشرقة والمشرقة في

وتعدّ موقعة (ملاذكرد) من المواقع الحاسمة في التاريخ، وتعد نقطة تحول في التاريخ الإسلامي بصفة عامة، وتاريخ منطقة غرب آسيا بصفة خاصة؛ فقد كانت هزيمة الجيش البيزنطي هزيمة نكراء وساحقة، وأثرها في التاريخ الإسلامي يكمن في أن السلاجقة واصلوا جهاد المسلمين ضد الروم، واستطاعوا بهذا الانتصار العظيم أن يزيلوا الروم بوصفهم عدو ظل يصارعهم منذ خروج المسلمين من الجزيرة العربية إلى خارجها؛ وذلك من خلال الفتوحات الإسلامية، وقد بقي النفوذ الرومي قويًا طاغيًا حتى موقعة ملاذكرد، مما جعل النفوذ الرومي ينحسر شيئًا فشيئًا حتى زال تمامًا، ثم إن ذلك الانحسار عن هذه المنطقة أدى إلى انتشار الحضارة الإسلامية في تلك البلاد.

وأما من ناحية تاريخ منطقة غرب آسيا، فإن موقعة ملاذكرد، وما نتج عنها من نتائج سياسية وحربية خطيرة أدى إلى تمهيد الطريق أمام جيوش المسلمين للتوغل في بلاد آسيا الصغرى، والقضاء على النفوذ الرومي في أكثر أجزائها، الأمر الذي ساعد على القضاء على الدولة البيزنطية بعد ذلك على أيدي الأتراك العثمانيين؛ وبذلك شمل الإسلام كل منطقة غرب آسيا، ومن ثم إلى شرقي أوروبا؛ وذلك مع التقدم العثماني، وقوة الدولة العثمانية آنذاك؛ لأنّ السلطان ألب أرسلان أرسل بعد موقعة

تاريخ المسلمين ضد البيزنطيين، انظر كتاب "الإمبراطورية البيزنطية وكريست الإسلامية" للدكتور اسمت عنيم، دار المجمع العلمي، جدة، (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م).

ملاذكرد مباشرة ابن عمه "سليمان بن قتلмыш" إلى آسيا الصغرى؛ فاستوطنها برجاله، وأقام هناك دولة سلاجقة الروم نسبة إلى بلاد الروم التي قامت فيها، وستكون هذه الدولة هي أطول الدويلات السلجوقية عمراً؛ حيث ستظل قائمة إلى أن قضى عليها الأتراك العثمانيون في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي^(١) (٦٩٨هـ).

وكانت موقعة ملاذكرد -أيضاً- من أهم الأسباب التي أدت إلى قيام الحروب الصليبية^(٢)، حيث إن أخبار هزيمة الروم وعدم تمكنهم من حشد جيش قوي آخر يرد خطر المسلمين، أثار مخاوف القوى الأوروبية، الأمر الذي أدى بعد ذلك إلى تدخلها؛ فاشتبك المسلمون في صراع مع قوى أوروبا النصرانية، فكانت الحروب الصليبية، فقد تناسى أباطرة

(١) انظر في ذلك: عبد النعيم حسنين: إيران والعراق السلجوقي ص (٦٣)، حسن أحمد: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص (٥٩١)، بسام العسلي: الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية ص (٣٢)، أحمد العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص (١٨٧).

(٢) بل تعدّ معركة ملاذكرد هي الشرارة التي أوقدت فتيل الحروب الصليبية، فقد حصد ألب أرسلان السلجوقي قوة البيزنطيين وترك آسيا الصغرى هامدة لا حراك فيها، وقد مملك أهلها الرعب، ولم تنهض الدولة البيزنطية لمجابهة ذلك التحدي الهائل لمدة عشر سنوات تقريباً بعد أن فقدت أهمي أقاليمها الآسيوية (لاسيما أرمينية) وسيطر عليها السلاجقة، وهذا الشلل السياسي والعسكري ضاعف ما بالدولة البيزنطية من شلل سابق بسبب الفتن الداخلية المتلاحقة التي أحاطت بالبيزنطيين آنذاك.

بيزنطة منذ تلك الموقعة ما بينهم وبين الغرب النصراني من خلاف مذهبي، فأخذوا يرسلون إليهم الدعوات، ويصفون لهم هول الضربة التي تلقوها وعظمتها من خلال موقعة ملاذكرد، ويحذرونهم من الخطر السلجوقي عليهم^(١)، ويستنجدون بهذا الغرب النصراني لحمايتهم^(٢).

وكان باستطاعة السلطان ألب أرسلان لو واصل سيره، وتوغل كثيراً في أراضي الدولة البيزنطية أن يصل إلى عاصمتها، وأن يقضي على هذه الدولة بكل يسر وسهولة، ولما وجد من يقف أمامه أو يجابهه؛ وذلك للظروف الداخلية التي أحاطت بالبيزنطيين آنذاك؛ حيث أعلن أحد الطامعين في السلطة، وهو (مخائيل السابع) نفسه إمبراطوراً عليهم، وانهز فرصة انشغال رومانوس في الحرب مع ألب أرسلان وثار ضده؛ فاندلعت

(١) كان الغرب ينظر إلى الدولة البيزنطية على أنها الحصن الأمامي الذي يحمي النصرانية ضد الإسلام في الشرق، ومن ثم يجب على الغرب النصراني أن يمد لها يد المساعدة، وأن يقوم بدوره في حماية هذا الحصن بدلاً من اعتماده على الإمبراطورية البيزنطية التي شهدت ألواناً من الثورات الداخلية والهزائم الخارجية. أحمد شليبي: موسوعة التاريخ الإسلامي (٧٢٥/٥).

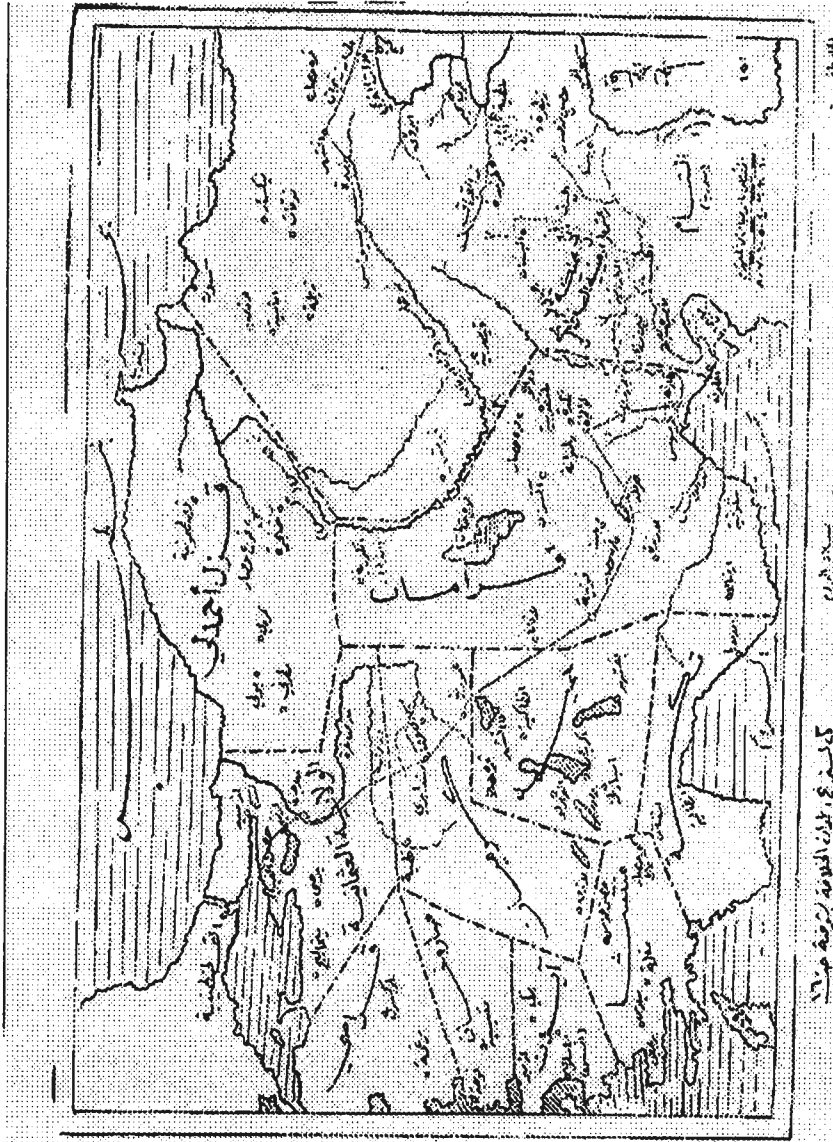
(٢) أحمد العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص (١٨٧)، جمال الشيبال: تاريخ الدولة العباسية ص (١٠٩)، محمد حمادة: وثائق الحروب الصليبية ص (٢٥-٢٦).

الحروب الأهلية، وأخيراً تم ألقاء القبض على رومانوس، وعُدَّ مفرطاً في حقوق البلاد؛ فحكم عليه بأن تسمل عيناه ويُقتل^(١).

ثم إن السلطان ألب أرسلان لم يعيش طويلاً بعد انتصاره في ملاذكرد، إذ تروي المصادر أنه اتجه بجيش كبير نحو بلاد ما وراء النهر للقيام بغزوة هناك، ويبدو من كلام ابن الجوزي وابن الأثير وابن كثير أن تصرفات جنود السلطان في أثناء عبورهم نهر جيحون، وما فعلوه بتلك البلاد، قد أثار استياء الأهالي وغضبهم؛ لدرجة أن أهالي بخارى وسمرقند اجتمعوا وأخذوا يتلون القرآن، ويتضرعون إلى الله تعالى بالدعاء أن يكفيهم أمره ويقيهم شره، فاستجاب الله تعالى لهم، ثم حدث أن شتم السلطان ألب أرسلان مستحفظ لقلعة^(٢) هناك اسمه "يوسف الخوارزمي"،

(١) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي (٧٢٥/٥)، السيد العربي: الدولة البيزنطية ص (٨٥٥)، جمال الشبال: تاريخ الدولة العباسية ص (١٠٩)، ولزيد من التفاصيل حول الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين، انظر ما كتبه: رشيد الجميلي، بعنوان "دراسات في العصر السلجوقي الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين" مجلة الأستاذ، جامعة بغداد العدد الأول، (١٣٩٧هـ - ص ١٩٣).

(٢) القلعة كما يذكر الحسيني هي قلعة برزن في مقاطعة مرو. انظر حول القلعة المذكورة، ياقوت: معجم البلدان (٣٨٢/١)، وينقل عن سبط ابن الجوزي أن القلعة اسمها بيروت. انظر: زبدة التواريخ ص ١١٨ حاشية رقم (١).



فرد عليه، فغضب السلطان وأخذ القوس والنشاب وأمر الحراس بتركه، ثم رماه بسهم فأخطأه - ولم يكن يخطئ سهمه - فوثب عليه يوسف، وضربه بسكين كانت معه في خاصرته ضربة بليغة لم يعيش بعدها سوى ثلاثة أيام، وتوفي في شهر ربيع الأول سنة خمس وستين وأربعمائة، وله من العمر أربعون سنة وشهور، وكانت مدة ملكه منذ أن خطب له بالسلطنة إلى أن قُتل تسع سنين وستة أشهر وأياماً^(١)، والبعض يذكر أن مدة ملكه كانت عشر سنين^(٢)، وقد أوصى بأن يكون ابنه ملكشاه ولي عهده^(٣).

وقد كان ألب أرسلان - كما تصفه المصادر - حسن السيرة، ديناً، عادلاً، منصفاً، مظفراً في حروبه، كثير الغزوات والجهاد، كريماً، رحيم القلب، مقراً بأنعم الله عليه، كثير الدعاء، رفيقاً بالفقراء، كان يكثر الصدقة لاسيما في شهر رمضان، وكان يكره السعيات، وكان شديد العناية والاهتمام بكف الجند عن أموال الرعية، وقد بلغه أن بعض خواص

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٧٦/٨-٢٧٧)، ابن الأثير: الكامل (٧٣/١٠-٧٤)، الراوندي: راحة الصدور (١٩٠-١٩١)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق (٤٤-٤٥)، العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي (١٨٨).

(٢) مثل الحسيني في زبدة التواريخ (١١٩)، وقد أخطأ ابن كثير حينما ذكر (١٠٧/١٢) أن مدة ملكه كانت سبع سنين وستة أشهر، ولعل هناك خطأ في الطباعة أو تحريف في الكلمة بين (سبع، وتسع)، والله أعلم.

(٣) الراوندي: راحة الصدور (١٩٤)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق (٤٥)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (١١٩)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٠٦/١٢).

مما ليكه سلب إزاراً، فعاقبه عقاباً شديداً حيث كان ذلك رادعاً للناس عن التعرض إلى مال غيرهم^(١).

ومناقبه - رحمه الله - كثيرة، لا يتسع هذا المقام لذكرها وتفصيلها.

وهكذا كانت جهود السلاطين السلاجقة ضد البيزنطيين، فقد قدموا جهوداً جبارة وتضحيات عظيمة ومواقف مشرفة، وأبلوا البلاء الحسن في خدمة الإسلام والمسلمين والمحافظة على السنة وكيانها ضد أولئك الأعداء، الذين يناهضون المسلمين ويعتدون عليهم؛ لأن المسلمين السلاجقة أدركوا أن الجهاد ضد الأعداء لا بد أن يستمر مهما كانت الظروف والأحوال والتضحيات؛ لأن القعود عن الجهاد والركون إلى الخلود والراحة فيه ضرر كبير على الإسلام والمسلمين، وقد جعل الله

(١) انظر في سيرته ومناقبه وصفاته: ابن الجوزي: المنتظم (٢٧٦/٨-٢٧٧-٢٧٩)، الراوندي: راحة الصدور ص (١٨٥)، ابن الأثير: الكامل (٧٣/١٠-٧٥)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (٤٥)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٦٩/٥-٧١)، أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر (٢/١٨٩)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (١١٩)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٨/٤١٤-٤١٨)، العبر (٢/٣١٨)، دول الإسلام ص (٢٣٨)، الحسيني: العراضة ص (٤٥)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٩٢/٥-٩٣)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣/٣١٨)، ويذكر ابن خلكان أن: ألب أرسلان، بفتح الهمزة وسكون اللام، هو اسم تركي معناه (شجاع أسد) فألب تعني شجاع، وأرسلان أسد. انظر: وفيات الأعيان (٧١/٥).

تعالى الجهاد في سبيله مقياساً لصدق إيمان المسلم؛ لأنه سيجود بنفسه في سبيل الله تعالى، والجود بالنفس أقصى غاية الجود، وقد أوضح القرآن الكريم ذلك ورغب فيه، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِن اللّٰه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله، فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهد من الله، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم﴾^(١).

ويقول جل شأنه: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾^(٢)، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وبعد أن اتضحت الرؤية بشيء من التفصيل والإيضاح حول مواقف وجهود الخلفاء العباسيين ضد الخطر الصليبي، وكذلك جهود السلاطين السلاجقة ضد البيزنطيين، ومآثرهم وتضحياتهم في ذلك، لا بد أن أوضح -أيضاً- مواقف السلاجقة وجهودهم الجبارة وتصديهم للصليبيين وجهادهم وصبرهم في سبيل الدفاع عن الإسلام ومقدسات المسلمين وغم اختلاف الظروف وتباينها؛ حيث دب النزاع بين أفراد

(١) سورة التوبة آية ١١١، انظر: مختصر تفسير ابن كثير (١٧١/٢-١٧٢)،

والشوكان: فتح القدير (٤٠٧/٢-٤٠٩).

(٢) سورة التوبة آية (٤١)، انظر أيضاً: الشوكان: فتح القدير (٣٦١/٢-٣٦٤)،

حول تفسير الآية ومدلولاتها، وكذلك: السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير

كلام المنان (١١٤/٣).

البيت السلجوقي، وضعفت السلطنة السلجوقية، وتفككت إلى دويلات، وقوي نشاط الباطنية وفتكهم بالخلفاء والسلاطين والعلماء، وغيرهم، ولكن ذلك كله لم يثنهم (أي السلاجقة) عن القيام بواجب الجهاد في سبيل الله تعالى وقاتلهم بشجاعة المؤمنين وصبر المجاهدين، مما أدى إلى الحفاظ على مقدسات المسلمين من ذلك الخطر المحقق بهم والمتمثل بالصليبيين.

فمن المعلوم أن جهاد السلاجقة ضد الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى وما حل بهم في موقعة (ملاذكرد) بالذات، كان من أهم الأسباب التي دفعت بالإمبراطورية البيزنطية إلى طلب المعونة والنجدة من الغرب الأوروبي رغم الاختلاف المذهبي بينهما، وحدث أن استجاب البابوية في روما لتلك الاستغاثة؛ فتحررت جموع الصليبيين لقتال المسلمين والانتقام منهم، ورغبتهم في احتلال الأراضي المقدسة والكيد للإسلام والمسلمين^(١)، ومحاربتهم الدين الإسلامي، ومحاولتهم الجادة إبعاد المسلمين عن دينهم وتشكيكهم في عقيدتهم الإسلامية.

(١) انظر حول العداة الدينية الذي يمثله الصراع بين الصليبيين والمسلمين، ما كتبه الدكتور محمد عثمان صالح، بعنوان: "الاستشراق ومكونات النفسية الغربية تجاه الإسلام والمسلمين، مجلة المنهل، العدد (٤٧)، المجلد الخمسون، ص (٢٤٩-٢٥٦)، وهو العدد السنوي المتخصص حيث كان عن الاستشراق والمستشرقين سنة (١٤٠٩هـ). وللوقوف أيضًا على حقيقة الكيد والحقد الصليبي للإسلام، انظر ما كتبه: رشاد حمود الصباح، بعنوان: "التصورات الأوروبية للإسلام في العصور

وقد حقق العدو الصليبي أول نجاح في ذلك عندما استولى على نيقية سنة (٤٩٠هـ)، ثم احتلوا مدينة قونية وضورليوم - إلى الجنوب الشرقي من نيقية - ومرعش^(١)، واستولوا عام (٤٩١هـ) على أنطاكية، وأخيراً استمروا في زحفهم حتى بيت المقدس الذي سقط في أيديهم سنة (٤٩٢هـ)، وهكذا كانت المدن الإسلامية تسقط الواحدة تلو الأخرى^(٢).

الوسطى، مجلة عالم الفكر، المجلد الحادي عشر، العدد الثالث ص (٨٥)، (١٩٨٠م) ومما يؤكد محاربتهم للمسلمين ورغبتهم في مهاجمة الإسلام في معقل دعوته محاربتهم الاستيلاء على الحجاز سنة (٥٧٩هـ) ولكنهم فشلوا في ذلك والله الحمد علماً أن بلاد الحجاز ليس فيها أي مطمع اقتصادي يشجعهم على ذلك، ولكنه الحقد الذفين على الإسلام وأهله انظر حول تلك المحاولة: الذهبي: دول الإسلام ص (٣٠٥).

(١) مرعش: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم (ياقوت: معجم البلدان (١٠٧/٥)، وهي من ثغور أرمينية (البكري: معجم ما استعجم).

(٢) انظر حول ذلك: ابن الأثير: الكامل (٢٧٢/١٠-٢٧٤-٢٨٣)، أبو الفداء: المختصر (٢١٠/٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٤٦/٥-١٤٨)، الكيلاني: هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص (٦٧)، شفيق جاسر: تاريخ القدس ص (٢٥١-٢٥٤)، عماد الدين خليل: المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص (٧٠-٧٤)، وعن تفاصيل استيلاء الصليبيين على أنطاكية انظر: سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٣٠٦/١-٣٠٩)، وعن حصانتها وقوة المدافعين عنها انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية (١٨٥/١).

وأمام ذلك الوضع الخطير من اقتحام للأراضي الإسلامية، وإهانةٍ وقتلٍ للمسلمين في ديارهم، أرسل الخليفة المستظهر بالله رسولًا إلى السلطان السلجوقي (بركياروق) يستنفره في الخروج على الفرنج، ويوضح له عظم الأمر وخطره وضرورة تداركه قبل فوات الأوان^(١)، وقد امتثل السلطان السلجوقي لذلك الأمر، فكتب إلى جميع الأمراء يأمرهم بالخروج لحربهم والاجتهاد في قتالهم وذلك سنة (٤٩١هـ)^(٢)، وهذا يدل على اهتمام السلجوقية وجهودهم في هذا المجال.

ومما يجب ذكره في هذا المقام، ويضاف إلى حسنات السلجوقية وجهادهم ضد الصليبيين هو مقاومة السلطان السلجوقي "قلج أرسلان بن سليمان بن قتلش" للصليبيين عندما وصلوا إلى بلاده وهي قونية وغيرها -رغم إدراكه كثرة عددهم وقوتهم- ولكن عدم قدرته على هزيمتهم ودجرهم لا يقلل أبدًا من جهوده، حيث إنه لم يستسلم أو يدخل في طاعتهم كما فعل غيره، ولكنه أصر على مجابتهم وقاتلهم حسب قدرته وإمكانياته^(٣).

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٠٥/٩)، ابن الأثير: الكامل (٢٧٩/١٠)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٣٠٦/١).

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٣٠٦/١).

(٣) ابن الأثير: الكامل (٢٧٤/١٠)، وقلج أرسلان اسمه الحقيقي داود بن سليمان بن قتلش، ووالده سليمان هو جد سلجوقية الروم (زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ٢١٥-٢٢٠).

وبعد سقوط أنطاكية في أيدي الصليبيين - كما تقدم - جمع "قوام الدولة كربوقا" أتابك الموصل من قبل السلاجقة العساكر، ومضى إلى الشام، واجتمع معه بعض الأمراء^(١)، والتقى المسلمون والصليبيون في قتال عنيف سنة (٤٩١هـ-)، انتهى بهزيمة المسلمين وانتصار العدو الصليبي، رغم ثبات جماعة من المجاهدين الذين قاتلوا طلباً للشهادة في سبيل الله، ولعل من الأسباب التي أدت إلى تلك النتيجة السيئة - بعد مشيئة الله تعالى وقدرته - هو سوء تصرف كربوقا واستهائه بالمسلمين والإعراض عنهم ومنعهم من القتال حتى يتكامل خروج الفرنج - في نظره - علمًا بأن المسلمين قد طلبوا منه أن يقفوا على الباب ويقتلوا كل من يخرج منهم، وقالوا: إن أمرهم الآن وهم متفرقون سهل، ولكنه منعهم ونهاهم عن ذلك^(٢)، ولاشك أن مثل هذا التصرف السيء يُعدُّ تفرّدًا بالرأي مع عدم

(١) من أولئك الأمراء: دقاق بن تتش، وطغتكين، وجناح الدولة، صاحب حمص، وأرسلان شاه، صاحب سنجار، وسليمان بن أرتق، وسقمان بن أرتق، وغيرهم انظر: ابن الأثير: الكامل (٢٧٦/١٠)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٣١٠/١)، وعن قوام الدولة كربوقا وأخباره وتدرجه في المناصب، انظر: ابن الأثير: الكامل (٢٥٨/١٠)، ابن واصل: مفرج الكروب (٢٨/١)، وعن جهاده ضد الصليبيين، انظر ما كتبه إبراهيم خليل، بعنوان: "كربوقا صاحب الموصل ودوره في مقاومة الصليبيين، في مجلة المورخ العربي، العدد الخامس، (١٩٧٤)، ص (٩٥-١١١).

(٢) انظر تفاصيل ذلك في: ابن الأثير: الكامل (٢٧٧-٢٧٨)، ابن النديم: زبدة الحلب (١٣٦-١٣٧)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٥٥/١٢)، سعيد بن عاشور:

توفر الحنكة العسكرية لديه، وعدم مشاركته الأمراء الذين كانوا معه وأفراد جيشه.

ومهما يكن من أمر فإن قوام الدولة كربوقا كان أفضل من غيره بكثير واختلف موقفه تماماً عن موقف بعض الأمراء في أواسط بلاد الشام من الصليبيين حيث آثروا الدخول في طاعة الصليبيين والاتفاق معهم، وقبول ما تقدموا به من عروض، ومن بين هؤلاء أمراء حمص وطرابلس، وشيزر^(١)، وكذلك موقف الدولة الفاطمية التي لم تقم بأي عمل يُسجل لها في سبيل التصدي للصليبيين، بل إن موقفهم - لاسيما في بداية الحركة الصليبية - كان ضد الأتراك السلاجقة، وكانوا يؤيدون الصليبيين، ويرون في هزيمة السلاجقة الفرصة المواتية لاسترجاع نفوذها على بلاد الشام، وبيت المقدس، وهذا ما جعلهم يرحبون بتقدم القوات الصليبية في أراضي الدولة السلجوقية، وليس ذلك فحسب؛ بل وصل الأمر إلى أن الوزير

بحوث ودرسات في تاريخ العصور الوسطى ص (٨٥)، مسعر الغامدي: الجهاد ضد الصليبيين ص (١٣٨-١٣٩).

(١) شيزر: قلعة بالشام قريبة من حماة (ياقوت: معجم البلدان (٣/٣٨٣)، محمود مصطفى: (إعجام الأعلام (٢٢٦)، وتُعد من أعمال حمص (البكري: معجم ما استعجم (٣/٨١٨)).

الفاطمي الأفضل بن بدر الجماعي سارع إلى التحالف مع الصليبيين ضد السلاجقة المسلمين في محاولة للقضاء على العدو المشترك (السلاجقة)^(١). وكان من الطبيعي أن يترجع عامة المسلمين أمام تلك الأوضاع والظروف التي أحاطت بهم من كل جانب، وما حلّ بأرض الإسلام من احتلال وسيطرة الصليبيين على بيت المقدس وأجزاء كبيرة من بلاد الشام، لذلك خرج جماعة من أهالي حلب يشكون إلى الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي^(٢) من سياسة حاكمهم رضوان^(٣) المتواطئة مع الصليبيين،

(١) انظر حول موقف الدولة الفاطمية آنذاك: ابن الأثير: الكامل (١٠/٢٧٣)، ابن تغري بردي: (٥/١٤٧-١٤٨-١٧٩-٢٠٩)، محمد العروسي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ص (٣٥)، سعيد عاشور: شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية ضمن كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص (١٦٥-٢٢٣)، محمد سالم العوفي: العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والدولة الفاطمية ص (١٥٣)، مسفر الغامدي: الجهاد ضد الصليبيين ص (١١٥-١٣٤)، وقد سبق أن فصلت ذلك عند الحديث عن أهم دوافع الحروب الصليبية في أوائل هذا الفصل.

(٢) كان الخليفة العباسي آنذاك هو المستظهر بالله (٤٨٧-٥١٢هـ)، أما السلطان السلجوقي فهو محمد بن ملكشاه (٤٩٨-٥١١هـ).

(٣) وصف ابن تغري بردي، رضوان صاحب حلب بقوله: "وكان -أي: رضوان- ظالماً بغيلاً شحيحاً، قبيح السيرة، ليس في قلبه رافة ولا شفقة على المسلمين، وكانت الفرنج تغير وتسي وتأخذ من باب حلب، ولا يخرج إليهم" انظر: النجوم الزاهرة (٥/٢٠٥)، وذكر أبو الفداء عنه: أنه كان يستعين بالباطنية في كثير من أموره لقلة دينه. (المختصر في أخبار البشر (٢/٢٢٧)).

وعدم مقاومته لهم، ويطلبون من الخليفة العباسي الجد والاجتهاد في جهاد الصليبيين قبل استفحال خطرهم وتمكنهم من ديار المسلمين^(١).

وقد انضم كذلك أهل بغداد إلى المسلمين الذين وصلوا إلى بغداد لاستنفار الخلافة والسلطنة على الفرنج، وهنا يبرز دور العلماء والفقهاء والقضاة وجهودهم، حيث قاموا بدور كبير لتجميع كلمة المسلمين إزاء ذلك الخطر العظيم، وسار العلماء يندبون السلاطين والوزراء، وعمامة المسلمين لإنقاذ الأراضي المقدسة وصد الصليبيين ودحرهم؛ فاستجاب الجميع لهم، وقام الخليفة العباسي فأرسل إلى السلطان السلجوقي يأمره بالاهتمام بهذا الفتق ورتقه؛ فما كان من السلطان إلا أن تقدم حينئذ إلى من معه من الأمراء يأمرهم بالمسير إلى بلادهم، والتجهيز للجهاد، وسير أيضاً ولده مسعوداً، مع الأمير مودود؛ صاحب الموصل، وتقدموا إلى الموصل ليلحق بهم الأمراء ويسيروا لقتال الفرنج^(٢).

وسرعان ما وجد الصليبيون أنفسهم أمام قوة إسلامية كبيرة لم يحسبوا حسابها عندما اندفعوا بقوة نحو الأراضي المقدسة.

(١) ابن الأثير: الكامل (٤٨٢/١٠).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٤٨٢/١٠-٤٨٣)، وحول أسماء الأمراء الذين اجتمعوا لقتال

الفرنج بأمر السلطان محمد، انظر (٤٨٥/١٠) من الكامل، وكذلك ابن كثير:

البداية والنهاية (١٧٣/١٢)، وعماد الدين خليل: المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي

ص (١٠٠).

وهكذا كان موقف العلماء المخلصين المجاهدين من الخليفة والسلطان السلجوقي، وضرورة حثهم على القتال، وإلزامهم بالجهاد في سبيل الله تعالى ضد أعداء الإسلام، مثل هذه المواقف والجهود هي التي تؤدي إلى الحفاظ على كيان أهل السنة قوياً وشامخاً^(١)، وهو ما نود أن نبرزه من خلال هذا البحث.

وامتداداً لتلك الجهود والمواقف للسلاجقة، كان أول هجوم سلجوقي منظم ومركز ضد الصليبيين في سنة (٥٠٥هـ)، بقيادة الأمير "مودود بن التوتكين" -الآنف الذكر- صاحب الموصل، الذي استنعان بجيرانه من الترك والأكراد مثل أمراء تبريز^(٢)،

(١) من أمثلة ذلك ما فعله الفقيه عبد الوهاب بن عبد الواحد الشيرازي عندما ذهب إلى بغداد سنة (٥٢٣هـ) ومعه بعض التجار يخبرون الخليفة بمدى ما يتعرضون له من أخطار، وأن الفرنج وصلوا فعلاً إلى دمشق، عندها لم يجد الخليفة المسترشد وسيلة لإرضائهم وهدئة نفوسهم إلا أن يعدهم بالاتصال بالسلطان السلجوقي ليخبره بما يتعرض له أهل دمشق ونجدتهم والاستنفار لحرب الفرنج، وهذا يوضح جهود العلماء في ذلك العصر وقيامهم بواجبهم ومتابعتهم أحداث أمتهم والحفاظ ومن ثم على كيان أهل السنة. انظر تفاصيل ذلك في: ابن الجوزي: المنتظم (١٣/١٠)، ابن الأثير: الكامل (١٠/٦٥٧-٦٥٨)، سعيد عاشور: ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية، ضمن كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص (٦٠).

(٢) تبريز: مدينة حصينة ذات أسوار محكمة، وهي أشهر مدن أذربيجان وقصبتها ياقوت: معجم البلدان (١٣/٢)، القزويني: آثار البلاد ص (٣٣٩)، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص (١٩٤).

وبعض ديار بكر^(١)، ومراغة، وإربل^(٢)، وهمدان، وما ردين^(٣)، حيث اجتمعوا وساروا إلى سنجار^(٤)، وافتتحوها عدة حصون للفرنج، وقتلوا من بها منهم، وحاصروا مدينة الرها^(٥) مدة، ثم رحلوا عنها من غير أن

(١) ديار بكر: ناحية ذات قرى ومدن كثيرة بين الشام والعراق، قصبها الموصل وحران، تنسب إلى بكر بن وائل (ياقوت: معجم البلدان (٢/٤٩٤)، القزويني: آثار البلاد ص (٣٦٨)).

(٢) إربل: مدينة من أعمال الموصل، لها قلعة حصينة لم يظفر بها التتر مع أنه لم يفتهم شيء من القلاع والحصون. (ياقوت: معجم البلدان (١/١٣٨)، القزويني: آثار البلاد (٢٩٠)، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية (١٢١)).

(٣) ماردين: قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة، وهي مشرفة على دارا ونصيبين (ياقوت: معجم البلدان (٥/٣٩)، القزويني: آثار البلاد ص (٢٥٩)، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص (١٢٥)).

(٤) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بقرب الموصل ونصيبين (ياقوت: معجم البلدان (٣/٢٦٢)، القزويني: آثار البلاد ص (٣٩٣)).

(٥) الرها: مدينة من أرض الجزيرة الفراتية بين الموصل والشام (البكري: معجم ما استعجم (٢/٦٧٨)، ياقوت: معجم البلدان (٣/١٠٦)، والمقصود بالجزيرة -هنا- هي البلاد التي بين دجلة والفرات، مجاورة الشام، وتشمل ديار بكر، ومضر، وربيعة، بها مدن وحصون وقلاع كثيرة، ومن أهمها: الرها وحران والرقعة ونصيبين وسنجار والموصل وماردين وآمد وميافارقين وسروج وشمشاط وغيرها، وسميت بالجزيرة لأنها بين دجلة والفرات انظر: البكري: معجم ما استعجم (٢/٣٨١)، ياقوت: معجم البلدان (٢/١٣٤)، القزويني: آثار البلاد ص (٣٥١)، والرها: تسمى الآن أورفة في تركيا انظر: ابن منقذ: الاعتبار ص (١٣٥) حاشية رقم (٣٠٨).

بملكوها، وسبب ذلك أن الفرنج اجتمعت جميعا فارسها وراجلها، وساروا إلى الفرات ليمنعوا الرها من المسلمين، فلما وصلوا إلى هناك بلغهم كثرة المسلمين، فلم يقدموا عليه، وأقاموا على الفرات، فلما رأى المسلمون ذلك رحلوا عن الرها إلى حران^(١)، كي يطمع الفرنج ويعبروا الفرات إليهم ليقاتلوهم، فلما رحلوا عنها جاء الفرنج ومعهم الميرة والذخائر إلى الرها؛ فجعلوا فيها كل ما يحتاجون إليه، وأخذوا كل من فيه عجز وضعف وفقر، وعادوا إلى الفرات فعبروه إلى الجانب الشامي، وطوقوا أعمال حلب، فأفسدوا فيها، وقتلوا ونهبوا وأسروا خلقًا كثيرًا - كما يذكر ابن الأثير^(٢).

ثم في هذه الأثناء قام جيش المسلمين بقيادة الأمير مودود بمهاجمة الرها مرة ثانية، وحصارها، ولكنهم وجدوها محكمة؛ حيث قويت نفوس أهلها بالذخائر والمؤن التي تركت عندهم، وكثرة المقاتلين عنها، فترك المسلمون حصارها، وعبروا الفرات فحاصروا قلعة تل باشر - غرب الفرات - خمسة وأربعين يومًا، وقد نجح الصليبيون في مقاومة ذلك

(١) حران: مدينة من نواحي الجزيرة، وهي قصبة ديار مضر، قريبة من الرها (ياقوت: معجم البلدان (٢/٢٣٥)).

(٢) انظر تفاصيل ذلك في: الكامل (١٠/٤٨٥-٤٨٦)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١٧٣).

الحصار، في حين أن المسلمين تركوا حصارها دون أن يبلغوا عرضهم المنشود، وذلك في نفس السنة (٥٠٥هـ)^(١).

وهنا يجب أن نذكر أن رضوان -صاحب حلب- قام بإغلاق أبواب مدينته في وجه القوات الإسلامية، ولم يجتمع بهم، ورفض التعاون مع الأمير مودود ضد الصليبيين، علماً بأنه هو الذي استدعاه واستدعى قواته للقُدوم إلى حلب؛ كي يعملوا سوية من هناك ضد المواقع الصليبية، ولكنه لم يكن صادقاً في ذلك، وخشي أن تؤخذ منه حلب في حالة انتصار قوات السلاجقة في الشام، وهذا ما أدى إلى تفكك القيادات الإسلامية وعدم وحدتها واتحادها ضد عدوها المشترك^(٢).

وأمام تلك المبادرة السيئة من الأمير رضوان، اضطر الأمير مودود إلى الاجتماع مع طغتكين -صاحب دمشق- بعد أن أغار على عدد من المواقع الصليبية، واتفقا على الاشتراك والتعاون والقتال ضد الصليبيين، إلا أن طغتكين -هو الآخر- خشي على نفسه من الجيش السلجوقي الكبير، وخاف أن تؤخذ منه دمشق، كما تخوف رضوان؛ صاحب حلب، من ذلك أيضاً، ويذكر ابن الأثير أن طغتكين عندما اجتمع مع الأمير مودود "اطلع من الأمراء على نيات فاسدة في حقه؛ فخاف أن تؤخذ منه دمشق؛

(١) ابن الأثير: الكامل (٤٨٦/١٠)، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص (٣٤٦).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٤٨٦/١٠-٤٨٧)، سبط بن الجوزي: مرآة الزمان (٥٣٩/٢-

٥٤٠)، عماد الدين خليل: المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص (١٠٠-١٠١).

فشرع في مهادنة الفرنج سرّاً" فنكث طغتكين الاتفاق، وتفرقت القوات الإسلامية"^(١).

ولنا -هنا- وقفة أمام مثل هذه التصرفات والبوادر السيئة من قبل بعض الأمراء^(٢)، حيث أدى التفكير في المصالح الشخصية والدينيوية إلى تفكك القوة الإسلامية وتفرقتها، في الوقت الذي تجمعت فيه القوات الصليبية في شمال الشام وجنوبه واتحدت ضد المسلمين، وكان الأولى أن يؤثروا ويقدموا مصلحة الإسلام والمسلمين على مصالحهم الشخصية والدينيوية في مثل تلك الظروف الصعبة، ولكنها حكمة الله تعالى ومشيئته التي لا راد لها.

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص (١٧٧)، ابن الأثير: الكامل (٤٨٧/١٠)، وطغتكين المذكور هو صاحب دمشق؛ وهو مملوك الملك تتش بن ألب أرسلان، كان عاقلاً خيراً، كثير الجهاد والغزوات للفرنج، حسن السيرة في رعيته، مؤثراً للعدل فيهم، وكان ظهير الدين، أي أنه رغم تصرفه السابق له حسنات كثيرة ومواقف عظيمة لاسيما في جهاده ضد الفرنج، توفي سنة (٥٢٢هـ)، انظر ترجمته في: ابن الأثير: الكامل (٦٥٢/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٩٩/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٢٣٤/٥)، الصفدي: أمراء دمشق في الإسلام ص (١٥٦-٦٦)، المنجد: ولاة دمشق في العصر السلجوقي (٢٠-٢١).

(٢) عن الأمير رضوان صاحب حلب ومواقفه السيئة ضد المسلمين، انظر: ابن العديم: زبدة حلب (١١٧/٢-١٦٤)، مسفر الغامدي: الجهاد ضد الصليبيين ص (٤٢-٥٧)، سهيل زكار: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص (٢٣٠) وما بعدها.

ولما علم الفرنج بتفرق جند المسلمين طمعوا بهم، واجتمعوا كلهم بعد الاختلاف والتباين؛ حيث اجتمعت قوات بيت المقدس وطرابلس وأنطاكية والرها قرب أفامية - الواقعة في الجزء الأوسط من حوض نهر العاصي - وقد بلغ عددهم نحو ستة عشر ألف مقاتل، فسمع بهم "سلطان ابن منفذ" صاحب شيزر، الذي سار إلى مودود وطغتكين، وهون عليهما أمر الفرنج، وحرصهما على الجهاد، فرحلوا إلى شيزر ونزلوا عليها، ونزل الفرنج بالقرب منهم؛ فضيق عليهم عساكر المسلمين الميرة، والفرنج يحفظون نفوسهم، ولا يعطون مصافاً، فلما رأوا قوة المسلمين عادوا إلى "أفامية" وتبعهم المسلمون؛ فخطفوا من أدركوه في ساقتهم وعادوا إلى شيزر، وكان ذلك في ربيع الأول سنة (٥٠٥هـ)^(١).

ويتضح لنا - من خلال تلك الحملات التي قام بها السلاجقة سنة (٥٠٥هـ) - أن جيش السلاجقة لم يدخل حتى الآن في معارك قوية وحاسمة ضد الصليبيين، على الرغم من بعض النجاح الذي حققته بعض تلك الحملات، ولكنها تعدّ - بالجملة - مقدمات لإحياء الجهاد ضد الصليبيين، حيث لم يهمل السلاجقة أمر الجهاد بعد تلك المناوشات التي

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص (١٧٧-١٧٨)، ابن الأثير: الكامل (٤٨٧/١٠-٤٨٨)، وينفرد سبط ابن الجوزي من بين المؤرخين في ذكر الوقائع والحملات التي قادها مودود وطغتكين ومن معهما من الأمراء ضمن حوادث سنة (٥٠٤هـ)، انظر سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٥٣٨/٢-٥٤٢).

تخللها بعض التصرفات الفردية من بعض الأمراء؛ مما أدى إلى تفوق نسبي للصليبيين الذين اجتمعوا ووجدوا صفوفهم ضد المسلمين، وألّفوا جبهة متحدة في بلاد الشام تمكنهم من مواجهة المسلمين، كلما سنحت لهم الفرصة، وكذلك لصد غارات المسلمين وهجماتهم.

ومع ذلك كله، وإدراك المسلمين لواجبهم المنوط بهم في سبيل الدفاع عن الإسلام والمسلمين، قام الأتراك السلاجقة بهجوم قوي على الصليبيين سنة (٥٠٧هـ) بقيادة الأمير مودود؛ صاحب الموصل، الذي انتهز فرصة استنجد طغتكين -صاحب دمشق- به ضد الصليبيين، بعد أن ساءت علاقة طغتكين بالصليبيين الذين أغاروا على دمشق، ونهبوا وخربوا بها، حتى انقطعت عن دمشق المواد الغذائية، وغلّت فيها الأسعار غلاءً فاحشاً، ولم يتردد مودود في تلبية طلب طغتكين -حليفه- فتحرك بقواته من الموصل إلى بلاد الشام، بعد أن عبر الفرات، وكان ذلك في آخر شهر ذي القعدة سنة (٥٠٦هـ)، وقد تبعه في عبور الفرات بعض أمراء السلاجقة في إقليم الجزيرة؛ كالأمير إياز بن إيغاري الأرتقي، والأمير تميرك؛ صاحب سنجار، واجتمعت القوات الإسلامية عند سلمية -إلى الجنوب الشرقي من حماة^(١)- بعد أن استقبلهم طغتكين، واتفق الجميع على ملاقات الصليبيين، وتوجه المسلمون جنوباً للقاء ملك الفرنج بغدوين

(١) ياقوت: معجم البلدان (٣/٢٤٠)، ويقول القلقشندي إنها تقع على طرف البادية

وهي نزهة خصبة كثيرة المياه والشجر. انظر صبح الأعشى (٤/٤١١).

(بلدوين)، وقد نجح الأميران مودود وطغتكين في استدراج الملك بلدوين شمالاً صوب أراضي دمشق، باتجاه جسر الصنبرة والواقع عند المجرى الأعلى لنهر الأردن، وكان اللقاء قريباً من طبرية^(١) في الثالث عشر من المحرم سنة (٥٠٧هـ)، حيث اشتد القتال، بعد أن قام طغتكين بقطع الجسر، وصير الفريقان، وما لبث المسلمون أن انتصروا وأنزلوا بأعدائهم هزيمة ساحقة، وكثر القتل والأسر فيهم، كما غرق عدد كبير منهم في بحيرة طبرية ونهر الأردن، ومن وقع في الأسر منهم ملكهم بلدوين، فلم يُعرف، فأخذ سلاحه، وأطلق فنجا، وكان قد أصيب بجرح في أثناء القتال تسبب في وفاته في العام التالي^(٢)، وغنم المسلمون أموالهم، وتراجع الصليبيون باتجاه مضائق طبرية بقيادة أميرها "بونز"، وكذلك عساكر أنطاكية بقيادة أميرها "روجر"، وكان بلدوين قد طلب النجدة من أمراء الصليبيين قبيل المعركة^(٣)، الأمر الذي أنقذ قوات بيت المقدس من كارثة محققة، ومع ذلك تبعهم المسلمون وقتلوهم وأحاطوا بهم من كل جانب، بينما أوى الفرنج إلى جبل غربي طبرية، وأقاموا هناك ستة وعشرين يوماً،

(١) طبرية: بلدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية، وهي من أعمال الأردن في طرف الغور (ياقوت: معجم البلدان (٤/١٧)).

(٢) الذهبي: العبر (٢/٣٩١)، وذكر أن وفاته كانت سنة (٥٠٨هـ) من جراحة أصابته يوم مصاف طبرية أي سنة (٥٠٧هـ).

(٣) كان بلدوين قد استعان بروجر صاحب أنطاكية، وبونز صاحب طرابلس. سعيد عاشور: الحركة الصليبية (١/٣١١).

والمسلمون بإزائهم يرمونهم بالنشاب فيصيبون من يقرب منهم، ومنعوا الميرة^(١) عنهم؛ كي يضطروهم إلى الخروج لقتالهم؛ فلم يخرج أحد منهم، الأمر الذي شجع المسلمين على قتال الصليبيين بقوة ومعنويات مرتفعة؛ فأهوا حصارهم وساروا إلى بيسان^(٢)؛ حيث راحوا يهاجمون ويخربون بلاد الصليبيين الممتدة بين عكا والقدس، ويقتلون من يقع في أيديهم من الصليبيين، وواصل المسلمون التقدم، ولم يبق بين عكا والقدس ضيعة عامرة، وأثبتت مملكة بيت المقدس عجزها عن الدفاع عن نفسها، فسرعان ما أصبح الإقليم تحت رحمة المسلمين، وأصاب الفرنج - كما يقول مؤرخهم وليم الصوري - من الذلة والانكسار ما جعلهم لا يجروون على مغادرة الاستحكامات والحصون^(٣).

(١) الميرة: جلب الطعام للسفر ونحوه، والميار: جالب الميرة وجامعها، وامتار لأهله أو لنفسه؛ أي: جمع الميرة.

(٢) بيسان: مدينة بالأردن، بين حوران وفلسطين (ياقوت: معجم البلدان (١/٥٢٧)، وحوران المذكورة: كورة واسعة من أعمال دمشق (ياقوت: معجم البلدان (٢/٣١٧)، القزويني: آثار البلاد ص (١٨٥)).

(٣) انظر تفاصيل ذلك في: ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص (١٨٤-١٨٨)، ابن الأثير: الكامل (١٠/٤٩٥-٤٩٦)، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص (٣٤٦)، الذهبي: دول الإسلام ص (٢٦٢)، العبر (٢/٣٨٩)، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤٣٠)، عماد الدين خليل: المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص (١٠٥).

وفي هذه الأثناء بعث الأمير مودود، وحليفه طغتكين رسولاً إلى السلطان السلجوقي في أصفهان يشرانه بما تم على أيديهما من فتح ونصر، بتوفيق الله تعالى، وبعثوا مع الرسول بعض ما غنموه من غنائم، وعددًا من أسرى الفرنج ورؤوسهم^(١).

ثم إن بُعد المسلمين عن بلادهم، وانقطاع الإمداد والتموين عنهم، واشتداد البرد عليهم، اضطرهم إلى وقف هجماتهم وعملياتهم في المنطقة والعودة إلى دمشق على أمل الرجوع ثانية عند حلول الربيع، وبعد أن يتلقى مودود جواب السلطان السلجوقي على رسالته والتعليمات التي سيصدرها بهذا الصدد، إلا أن مودودًا ما لبث أن قُتل في جامع دمشق على أيدي الباطنية في أثناء خروجه عقب صلاة الجمعة، وكان ذلك في ربيع الأول سنة (٥٠٧هـ)، وكان مودودًا صائمًا؛ فحمل إلى دار طغتكين، واجتهد به ليفطر، فلم يفعل وقال: لا لقيتُ الله إلا صائمًا، فمات من يومه رحمه الله، وكان خيرًا كثير الخير، من خيار الملوك دينًا وشجاعة وخيرًا^(٢).

(١) عماد الدين خليل: المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص (١٠٥).

(٢) ابن الأثير: الكامل (١٠/٤٩٦-٤٩٧)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص

(١٥٨)، أبو الفداء: المختصر (٢/٢٢٦)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة

(٥/٢٠٧)، وانظر ما كتبه عفاف سيد صبرة عن الأمير مودود بن التوتكين

-أتابك الموصل- ودوره في حركة الجهاد الإسلامي في مجلة الدارة العدد الثاني السنة

الثانية عشرة ص (١٠٩-١٩٨٦م).

قال ابن الأثير، حدثني والدي قال: "كتب ملك الفرنج إلى طغتكين بعد قتل مودود كتاباً من فصوله: "إن أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها، لحقيق على الله أن يببدها"^(١).

ولاشك أن الصليبيين استفادوا كثيراً من تلك الجريمة؛ لأن الرأي العام الإسلامي كان يشير إلى اتهام طغتكين في تدبير مقتل مودود؛ وذلك للخلاص منه وحرصه على الاحتفاظ باستقلاله في دمشق، وقلقه الشديد لبقاء القائد العام لجند السلطان في دمشق، وما يترتب على ذلك من تهديد لاستقلاله^(٢)، إلا أن كلاً من ابن القلانسي، وسبط ابن الجوزي ينفيان هذه التهمة عن طغتكين أشد النفي^(٣)، وهذا هو الأرجح والأقرب

(١) الكامل (٤٩٧/١٠)، الباهر ص (١٨-١٩)، وذكر ذلك سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٥٩١/١٢)، والسيوطي أيضاً في تاريخ الخلفاء ص (٤٣٠).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٤٩٧/١٠)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (١٥٨)، أبو الفداء: المختصر (٢٢٦/٢).

(٣) يقول ابن القلانسي حول ذلك: "فقلق طغتكين لوفاته، وتزايد حزنه وأسفه، وكذلك سائر الأجناد والرعية"، ويقول سبط ابن الجوزي: "وقلق طغتكين لوفاة مودود على الوجه، وحزن حزناً شديداً، وكذا سائر الناس، وذكر بعضهم أن طغتكين خاف منه فوضع عليه من قتله، وليس بصحيح، فإن طغتكين كان أحب الناس إليه، وحزن حزناً لم يحزنه على أحد، وجلس في عزائه سبعة أيام، وتصدق عنه بمال جزيل" انظر ذيل تاريخ دمشق ص (١٨٧-١٨٨)، مرآة الزمان (٥٩٠/٢-٥٩١)، ونحن نرجح رواية المؤرخين المذكورين، وهما من سكان دمشق، بسبب قرعهما الزماني والمكاني من الأحداث المذكورة واطلاعهما الشامل على دقائق

للصحة؛ وذلك لتوافق الباطنية مع الصليبيين في الأهداف التي ترمي إلى التخلص من الأبطال والمجاهدين والقادة العظماء من المسلمين، أما رواية ابن الأثير وغيره ممن نقل عنه، وكذلك روايات المؤرخين الغربيين فلا تعدو أن تكون استنتاجاً أو تخميناً وتفسيراً لتلك الأحداث والمواقف.

وخلاصة القول إن قتل مودود - ذلك البطل العظيم من أبطال الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين - كان فيه منفعة ومصلحة للصليبيين، حيث فرحوا كثيراً لاختفاء عدو عدوه من أشد الخصوم، كفاءة وقدرة وشجاعة، ولاشك أن قتله قد أضر بالمسلمين كثيراً لفقدتهم بطلاً اشتهر بإخلاصه وتفانيه وجرأته وجهاده المتواصل ضد الصليبيين حتى استشهاده سنة (٥٠٧هـ).

ولم يؤثر مقتل الأمير مودود على سير الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين أو وقف حملاتهم الجهادية ضدهم؛ بل قام على الفور السلطان

العصر الذي يتحدثان عنه، لاسيما أن هذه ليست أول أو آخر مرة يتصدى فيها الباطنية الأشرار لاغتيال زعماء الجهاد الإسلامي إضافة إلى انتصار مودود وحليفه في فلسطين يعود بالنفع على إمارة دمشق مثل غيرها من المدن، وذلك بما يحدثه في صفوف قوات بيت المقدس من زعزعة وإرباك، وبما يقدمه لأتابكية دمشق وأراضيها من منعة وقوة وحماية. انظر: عماد الدين خليل: المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص (١٠٦) ومع ذلك فالشكوك تحوم حول طغتكين، والله أعلم.

محمد السلجوقي بتعيين الأمير آقسنقر البرسقي^(١) والياً على الموصل، وأمره باستمرار الجهاد والقتال ضد الصليبيين والسير على نفس النهج الذي كان سلفه مودود قد سلكه من قبل في ساحات الجهاد، والحقيقة أن البرسقي لم يكن بأقل من مودود تفانياً وجهاداً وإخلاصاً، وكفاءة عسكرية، وصبراً على القتال، فوصل إلى الموصل قادماً من بغداد على رأس قوات كبيرة بصحبة -وفقاً للعادة السلجوقية المتبعة- الملك مسعود بن السلطان محمد، وانضم إلى قواته عدد كبير من الأمراء الذين كتب إليهم السلطان السلجوقي بأن يكونوا تحت إمرته وطاعته، ومنهم عماد الدين زنكي بن آقسنقر -الذي ملك هو وأولاده الموصل بعد ذلك- وانضم إليه أيضاً تميرك -صاحب سنجار- وغيرها، فسار البرسقي إلى جزيرة ابن عمر فسلمها إليه نائب مودود بها، ومن ثم اتجه إلى ماردين؛ فنازلها البرسقي

(١) هو قسيم الدولة، آقسنقر البرسقي؛ صاحب الموصل، كان مملوكاً تركياً، خيراً يجب أهل العلم والصالحين، عادلاً، من خير الولاة، يحافظ على الصلوات في أوقاتها، ويتعهد كثيراً بالليل، جاهد الصليبيين وأبلى بلاءً حسناً في ذلك إلى أن قُتل على أيدي الباطنية سنة (٥٢٠هـ) (ابن الأثير: الكامل (١٠/٦٣٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١٩٥)، وذكر أن وفاته كانت سنة (٥١٩هـ)، وذكر الذهبي عنه أنه كان: ديناً، عادلاً، عالي الهمة، قتل خلقاً من الباطنية (العبر (٢/٤١٣))، وذكر ابن تغري بردي: أن الخلفاء والملوك كانوا يحترمونه (النجوم الزاهرة (٥/٢٣٠))، ومن الواجب إيضاحه -هنا- أن قسيم الدولة آقسنقر -صاحب الموصل المذكور- هو غير آقسنقر الحاجب؛ والد عماد الدين زنكي، وإنما هو من توافق الأسماء فقط.

حتى أذعن له إيغازي صاحبها، وسير معه قوة من الأتراك بقيادة ابنه إياز للاشتراك في الجهاد تحت لواء البرسقي؛ الذي غادر ما ردين على رأس خمسة عشر ألف مقاتل؛ لمهاجمة الرها، فبلغها في ذي الحجة سنة (٥٠٨هـ)، وقاتلها، وصبر له الفرنج، وأصابوا من بعض المسلمين غرة، فأخذوا منهم تسعة رجال، وصلبوهم على سورها؛ فاشتد القتال حينئذ، وحمي المسلمون، وقاتلوا بضراوة، فقتلوا من الفرنج خمسين فارساً من أعيانهم، وفرض البرسقي الحصار عليها، إلا أن الدفاع المستميت الذي أبدته الحامية القوية التي كلفت بالدفاع عنها، وتوافر المؤن في المدينة، في حين ضاقت الميرة على المسلمين وتناقصت مؤنهم، رغم ما حصلوا عليه من قرى المنطقة، إلا أنه لا يكفي لسد حاجتهم؛ كل تلك العوامل أرغمت البرسقي على مغادرة المدينة بعد حصار دام نحو شهرين وأياماً، بعد أن قام بتخريب بعض جوانبها، ومهاجمة عدد من المواقع الصليبية القريبة منها^(١).

ومما يجب ذكره -هنا- أن بعض أمراء الشام المسلمين كان قد انضم إلى جانب الحملة السلجوقية -المذكورة- ضد الصليبيين، في حين كان البعض الآخر قد انضم إلى الجانب الصليبي ضد المسلمين لمصالح

(١) ابن الأثير: الكامل (٥٠١/١٠-٥٠٢)، التاريخ الباهر (١٩-٢٠)، ابن الوردي:

تمة المختصر (٢٢/٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١٧٨)، ابن خلدون: العبر

(٥/٨٩-٩٠).

سياسية وشخصية، وعلى رأس هؤلاء إيغازي -صاحب مادرين- وطغتكين -صاحب دمشق- حيث اتفقا على الامتناع، والالتجاء إلى الفرنج، والاحتماء بهم؛ فراسلا صاحب أنطاكية وحالفاه^(١)، كما أن صاحب حلب -شمس الخواص- كان قد انضم هو الآخر إلى الأمراء المتحالفين مع الصليبيين^(٢) وعلى الرغم من ذلك التحالف الخطير الذي عصفت بقوة المسلمين وأضعفها، السلطان السلجوقي محمد أمر بتجهيز جيش كبير بقيادة الأمير برسق بن برسق؛ صاحب همذان؛ ومعه بعض الأمراء؛ فاستولى على حماة التي كانت تابعة لطغتكين وبها ثقله، كما هاجم قلعة أفامية التابعة لإمارة أنطاكية الصليبية.

وبذلك حققت هذه الحملة السلجوقية بعض الانتصارات ضد المتحالفين، ثم أن الأمير برسق انسحب بقواته إلى الجزيرة الفراتية، وكان انسحابه مناورة بارعة؛ حيث اعتقد الصليبيون أن الخطر قد زال، فسرعان ما عاد برسق بقواته واتجهت لمحاربة كفرطاب^(٣) الصليبية وحاصروها، وتمكنوا من الاستيلاء عليها عنوة، ثم توجه لمهاجمة قلعة أفامية فامتعت عليه، فتقدم إلى المعرة التابعة أيضاً للصليبيين، ثم ساروا عنها إلى حلب، فواجهه الصليبيون بهجوم مباغت شنته عليه قوات روجر -صاحب

(١) ابن الأثير: الكامل (٥٠٣/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٧٨/١٢).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٥١٠/١٠).

(٣) كفرطاب: بلدة بين حلب والمعرة (القزويني: آثار البلاد ص ٢٤٨).

أنطاكية - ونشب القتال عند دانيث^(١)، فحلت الهزيمة بقوات برسق، وقتل الصليبيون معظم جيشه، وأسروا عددًا منهم، كما أحرقوا ونهبوا ميرتهم، وتفرق العسكر وأخذ كل واحد جهة^(٢).

وبالرغم من هزيمة المسلمين في المحاولتين السابقتين اللتين قادهما آقسنقر البرسقي، وبرسق^(٣)، فأمرُ تجهيزهما ومحاولتهما وما حققتهما أيضًا من بعض الانتصارات أمر يجب ذكره في الجهاد ضد الصليبيين لأنها أثارت في نفوس الأعداء الخوف والرعب من المسلمين، مما كان أثره الكبير في المواجهات اللاحقة التي أدت إلى انتصارات المسلمين، ولا ننس هنا - أن المشاحنات والمصالح الشخصية التي أدت إلى تحالف بعض أمراء المسلمين في الشام مع الصليبيين كانت السبب المهم الذي أتاح للأعداء الفرصة لتوجيه ضربات قاصمة أدت إلى إضعاف المسلمين، ومن ثم هزيمتهم، وزيادة قوة الصليبيين، ورفع معنوياتهم ضد المسلمين، والتخلص

(١) دانيث: بلد من أعمال حلب، بين حلب وكفرطاب (ياقوت: معجم البلدان ٤٣٤/٢).

(٢) انظر تفاصيل تلك الواقعة في: ابن الأثير: الكامل (١٠/٥٠٩-٥١١)، أبو الفداء: المختصر (٢/٢٢٨-٢٢٩)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١٧٨-١٧٩)، فايد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية (١٦٠).

(٣) كان الأمير برسق خيرًا دينًا، حاول تجهيز حملة عسكرية والرجوع لأخذ الثأر، لأنه ندم كثيرًا على الهزيمة التي حلت بالمسلمين، ولكنه توفي سنة (٥١٠هـ -)، وهو يتجهز لذلك. ابن الأثير: الكامل (١٠/٥١١).

إلى وقت ليس بالقصير من أخطار مجاهات واسعة كهذه مع قوى المسلمين وقيادات السلاجقة.

ومن أهم النتائج التي تمخضت عنها هزيمة المسلمين السلاجقة في موقعة دانيث سنة (٥٠٩هـ) أنها أنهت آخر محاولة جادة قام بها سلاطين السلاجقة لاستعادة الشام، وقوت مركز روجر -أمير أنطاكية- الذي تمكن بذلك الانتصار من تخليص الإمارات الصليبية جميعاً من خطر أكيد طالما هدهدها، ثم إنه استطاع أن يهدد باقي الإمارات الإسلامية المجاورة، وتحقيق انتصارات أخرى في المنطقة؛ لإحساسه وإدراكه بضعف القوى الإسلامية وتفككها واضطراب أحوالها داخلياً، وعدم اتحاد أمرائها وتفرقهم؛ الأمر الذي أوجد لديه فرصة سانحة لتحقيق أهدافه وما يصبو إليه، لاسيما وأن الإمارات الصليبية بلغت إثر تلك الموقعة قمة مجدها، وقوتها؛ قياساً مع تلك العوامل التي أدت إلى ذلك^(١).

أما عن موقف بعض الأمراء المتحالفين مع الصليبيين، فقد عاد البعض منهم إلى رشده وصوابه، وأدرك خطر فعله ونتائجه، ومن هؤلاء طغتكين -صاحب دمشق- الذي ذهب إلى بغداد سنة (٥٠٩هـ)، وأظهر الندم والأسف، وطلب من السلطان السلجوقي محمد الذي قدم إلى بغداد أن يعفو عنه، فرضي عنه السلطان، وخلع عليه، ورده إلى

(١) عماد الدين خليل: المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، عصر ولاة الموصل ص

(١١٥)، فايد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ص (١٦١).

دمشق^(١)، ومن ثم واصل جهاده وحروبه ضد الفرنج، وقتل منهم وأسر، وذلك سنة (٥٠٩هـ)^(٢).

واستكمالاً لجهاد السلاجقة ومواقفهم ضد الصليبيين، وعدم تأثرهم بالأحداث والمواقف الماضية، التي أدت إلى زعزعة القوات الإسلامية وضعفها واضطرابها، لاسيما من بعض الأمراء - كما تقدم - كان هناك بداية فجر جديد، وانتصار عظيم على الصليبيين، تمثل ذلك في الموقعة الشهيرة، ألا وهي موقعة البلاط سنة (٥١٣هـ)، فمن المعلوم أن روجر الأنطاكي بدأ يطمع في أخذ حلب، خصوصاً عندما سمع بعدم وجود أمير يجاهد عنها، إضافة إلى استغلاله تلك الأحداث والظروف المتقدمة التي أعقبت موقعة دانيث؛ مما دفعه إلى مهاجمة حلب، وأخذ ما قدر عليه، بل فرض ضرائب على قوافل الحجاج المسلمين بين حلب والحجاز، بمساعدة الأمير ياروققاش - الأرمني الأصل - الذي كان قد تولى الوصاية على حلب بعد قتل بدر الدين لؤلؤ الذي حكم في المدّة من (٥٠٨ - ٥١١هـ)، وأمام تلك المواقف والأوضاع السيئة التي حلت بأهل حلب من الصليبيين وحلفائهم، تقدم الأمير طغتكين - صاحب دمشق - والأمير اقسنقر البرسقي - أمير الرحبة - لاحتلال حلب سنة (٥١١هـ)، وما إن

(١) ابن الأثير: الكامل (٥١٤/١٠)، أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر (٢٢٩/٢)،

الذهبي: دول الإسلام ص (٢٦٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٧٩/١٢).

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٦١٠/٢).

سمع بهما الأمير أبو المعالي ابن الملحي الدمشقي الذي أصبح الوصي على حلب بعد ياروق تاش إلا استنجد على الفور بروجر الأنطاكي ضد المسلمين، فلم يستطيعا عمل أي شيء ضد حلب وما حلّ بها^(١).

وهكذا أصبحت حلب تحت حماية الصليبيين في أنطاكية، بعد أن فضّل حكامها الخضوع للصليبيين والتحالف معهم، بدلاً من أن يُسيطر عليها أحد من المشرق الإسلامي، لكنّ الشعور الديني، وإحساس أهاليها المسلمين بعدم شرعية هذا الموقف، وخوفهم من الفرنج وعدم ثقتهم بهم -بحكم عداوتهم وحقدهم على المسلمين- كل تلك العوامل جعلت الحلبيين يستغيثون بالأمير إيغازي الأرتقي -نجم الدين- صاحب مادريين وديار بكر -حيث سلموا إليه بلدهم، وطلبوا منه حمايتهم من الصليبيين، والدفاع عن حلب، بعد أن سيطر روجر الأنطاكي على جميع الأجزاء المحيطة بحلب من جهتي الغرب والشمال، وكان الصليبيون قد شدوا على حلب ونواحيها وأحكموا سيطرتهم عليها^(٢)، ويصف ذلك ابن الأثير بقوله: "وفي سنة (٥١٣هـ) سار الفرنج من بلادهم إلى نواحي حلب؛

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص (١٩٩)، ابن الأثير: الكامل (٥١٣/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٨٠/١٢).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٥٣١/١٠)، فايد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ص (١٦٢).

فملكوا بزاعه^(١) وغيرها، وخرّبوا بلد حلب ونازلوها، ولم يكن بحلب من الذخائر ما يكفيها شهراً واحداً، وخافهم أهلها خوفاً شديداً...^(٢).

وهذا ما أغضب الأمير إيغازي بن أرتق -صاحب مادريين- الذي لم يصمت أمام تلك الأوضاع السيئة، أو يتوانى عن نصرّة إخوانه المسلمين من أهل حلب الذين فعل بهم الفرنج ما فعلوا من نهب وسلب وتخريب ورعب، فما كان منه إلا أن حشد جيوشه ومن انضم إليه من المتطوعين للجهاد ضد العدو؛ فاجتمع نحو عشرين ألفاً، وكان معه أسامة بن المبارك بن شبل الكلاي، والأمير طغان أرسلان بن المكر -صاحب بدليس وأوزن- كما انضم إليه الأمير طغتكين -صاحب دمشق- كما أعلن أبو العساكر سلطان بن منقذ -أمير شيرز-^(٣) استعداداً لمهاجمة أنطاكية من ناحية الجنوب، وقد احتشدت هذه القوات الإسلامية التي بلغت حوالي أربعين ألفاً، وتحرك بها الأمير إيغازي، وسلّكوا طرقاً صعبة المسلك، فلم يشعر الفرنج إلا وأوائل المسلمين قد غشيتهم، فحملوا على الفرنج حملة

(١) بزاعة: بلدة من أعمال حلب (ياقوت: معجم البلدان (٤٠٩/١)).

(٢) الكامل (٥٥٣/١٠).

(٣) انظر في علاقة سلطان بن منقذ مع الصليبيين ومواقفه السليبي من القوى الإسلامية ودفاعه عن إمارة شيرز: ابن منقذ: الاعتبار ص (٦٢) وما بعدها، ابن العديم: زبدة حلب (١٦١/٢-١٧٤-١٧٥-١٩٣-١٩٧)، سعيد عاشور: الحركة الصليبية (١/٢٢١-٣٠٨-٣١١-٣٣٥-٤٠٩-٤١٨)، حسن حبشي: الحروب الصليبية الأولى: (١٦٤).

منكرة، فولوا منهزمين، وجرى بينهما حرب شديدة، وأحاط المسلمون بالفرنج من جميع جهاتهم؛ فلم يفلت منهم غير نفر يسير، وقُتل الكثير منهم وأسر الباقون، وكان في جملة الأسرى نيف وسبعون فارساً من مقدميهم، وحملوا إلى حلب؛ فبدلوا في أنفسهم ثلاثمائة ألف دينار؛ فلم يقبل منهم، وغنم المسلمون من تلك الموقعة غنائم كثيرة، أما روجر الأنطاكي فقد قُتل وحمل رأسه، ثم تجمع من سلم من الفرنج عقب المعركة من غيرهم الذين انضموا إليهم؛ فلقبهم إيغازي أيضاً، فهزمهم، وفتح بعض الحصون؛ مثل حصن الأثارب وزردنا، ثم عاد إلى حلب، وقرر أمرها، وأصلح حالها، ثم عبر الفرات إلى مادريين مستبشراً بما من الله تعالى عليه من نصر عظيم^(١)، وقد جرت هذه الموقعة في شهر ربيع الأول سنة (٥١٣هـ)^(٢)، في سهل قريب من أرتاح، وتعرف بموقعة البلاط^(٣)،

(١) انظر تفاصيل الموقعة في: ابن الأثير: الكامل (١٠/٥٤٤-٥٥٥)، ابن العديم: زبدة الحلب (٢/١٨٧-١٩٣)، أبو الفداء: المختصر (٢/٢٣١)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١٨٤).

(٢) ابن الأثير: الكامل (١٠/٥٥٥)، ابن منقذ: الاعتبار ص (٦٢)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٢/٦٨٠).

(٣) البلاط: موضع يقع شمال قلعة الأثارب (ابن منقذ: الاعتبار ص ٦٢ حاشية رقم (١١٠))، وهو من كور ديار بيعة. انظر: البكري: معجم ما استعجم (١/٥٦٨)، الأصبخري: المسالك والممالك ص (٥٢-٥٣).

وقد أطلق على هذا السهل اسم ساحة الدم؛ لكثرة من قُتل فيه من الصليبيين^(١).

ولاشك أن هذه المعركة ونتائجها المباركة قد أعطت دفعة قوية، ومعنوية عالية للمسلمين، ولاسيما أنها أتت بعد المحاولات الماضية التي قام بها المسلمون، ولكن لم يكتب لها النجاح الذي كان متوقعًا؛ وذلك لعوامل وأسباب سبق ذكرها، وقد استبشر المسلمون كثيرًا، وفرحوا فرحًا عظيمًا - خاصة في حلب - بهذا النصر المؤزر ضد الصليبيين الذين تأثروا كثيرًا من هذه الهزيمة، وقد نظم شعراء حلب القصائد في مدح الأمير نجم الدين إيغازي، ومما مدح به في هذه الواقعة قول العظيمي:

قل ما تشاء فقولك المقبول وعليك بعد الخالق التعويل
واستبشر القرآن حين نصرته وبكى لفقد رجاله الانجيل^(٢)
وقد أرسل الخليفة العباسي المسترشد بالله (٥١٢-٥٢٩هـ) الخلع إلى الأمير إيغازي، وشكره على ما يفعله من غزو الفرنج وجهادهم^(٣)، وفي هذا دليل على متابعة الخليفة لأمر الجهاد والمجاهدين وتكريمهم

(١) فايد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ص (١٦٥)، رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية (٢/٢٤٢)، عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية ص (٢٤٢-٢٤٤).

(٢) ابن الأثير: الكامل (١٠/٥٥٥)، أبو الفداء: المختصر (٢/٢٣١)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١٨٤)، والبيتان غاية في المبالغة الفاحشة.

(٣) ابن الأثير: الكامل (١٠/٥٦٨)، ابن واصل: مفرج الكروب (١/٣١).

وتشجيعهم، مما يثير في نفوسهم الحماس، ويشعرهم بتقدير الخلافة لهم، كيف لا، وهم يدافعون عن الإسلام، ومقدسات المسلمين؛ وهكذا واصل المجاهد نجم الدين إيغازي جهاده ضد الصليبيين؛ حتى وافته المنيّة سنة (٥١٦هـ)^(١)، وبذلك قدم صفحة ناصعة جديدة مغايرة تماماً لما كان منه سابقاً؛ عندما تحالف هو وطغتكين مع الصليبيين لمصالح شخصية وسياسية آنذاك، ولكنهما رجعا إلى صوابهما، وأدركا خطر فعلهما، واعتذرا عما صدر منهما، وجاهدا الصليبيين وأبليا في ذلك البلاء الحسن؛ لأن الإنسان مهما كان وضعه أو مركزه قد يخطئ أحياناً لظروف أو مطامع أو بجانبة للصواب، ولكن ليس هناك ثمة أمور تمنعه من التراجع والاعتراف بالخطأ، والعودة إلى سابق عهده؛ خاصة إذا كان في ذلك مصلحة ومنفعة تعود على الإسلام والمسلمين.

أما عن نتائج موقعة البلاط في الجانب الصليبي؛ فمن أهمها أنها زرعت الرعب والخوف في قلوب الصليبيين، وأحبطت معنوياتهم،

(١) ابن العري: تاريخ مختصر الدول ص (٣٥١)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٢٢٣/٥)، وقد أجمعت المصادر التاريخية على أن هذا الفتح العظيم المتمثل في موقعة البلاط لم يقع للمسلمين في ذلك العصر مثله بما حققوا من نصر عظيم، وبما وقع في أيديهم من الغنائم الكثيرة. انظر ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق (٢٠١)، ابن العديم: زبدة الحلب (١٩٠/٢)، الأمر الذي أدى إلى أن النصرارى من الأرمن والسراني أخذوا يتآمرون للخلاص من حكم الصليبيين. نظر: سعيد عاشور: الصليبية (١/٣٦-٩٢).

وزعزعت صفوفهم، وأضعفت قوتهم، وأوقفت هجماتهم على المسلمين، كذلك أصبحت أنطاكية الصليبية بلا أمير يحكمها بعد مقتل صاحبها روجر في المعركة، وأصبحت -أيضاً- بلا جيش منظم يحميها ويدافع عنها بعد القضاء على قوتها في المعركة؛ مما اضطر الملك بلدوين الثاني -ملك بيت المقدس- أن يفرض وصايته على أنطاكية ويدير شؤونها لحين وصول بوهيموند الثاني ابن بوهيموند الأول؛ مؤسس إمارة أنطاكية من بلاد الغرب، وهكذا تركت موقعة البلاط آثاراً سيئة على الصليبيين، وأعطت المسلمين روحاً معنوية عالية دفعتهم لموصلة الجهاد ضد الصليبيين، واستغلال الظروف والآثار التي نجمت عن الموقعة المذكورة.

وهذا ما دفع الأمير إيغازي -بطل موقعة البلاط- لمواصلة جهاده ونضاله ضد الفرنج لاسيما أنه ازداد قوة وعدداً بانضمام طغتكين -صاحب دمشق- إليه؛ حيث سار الأميران لمحاصرة الفرنج في معرة قنسرين، وتم حصارها يوماً وليلة، ثم أشار طغتكين بالإفراج عنهم؛ كيلا يحملهم الخوف على أن يستقتلوا ويخرجوا إلى المسلمين؛ فأفراج عنهم إيغازي، فساروا عن مكائهم، وتخلصوا من الحصار^(١)، وكان نجم الدين إيغازي قد التقى مع الفرنج قبل انضمام طغتكين إليه وحصارهما للفرنج، عند موضع يقال له: "ذات البقل" من أعمال حلب فاقتتلوا، واشتد القتال بينهما، وانتهى بانتصار المسلمين عليهم والظفر للأمير إيغازي الذي لم

(١) ابن الأثير: الكامل (١٠/٥٦٨-٥٦٩).

يترك الجهاد أو توقف عن مواصلته^(١)، ففي أواخر سنة (٥١٤هـ—)، اجتاح المنطقة كلها بين تل باسر^(٢) وكيسوم^(٣)؛ حيث قتل من الصليبيين عددًا كبيرًا، وخرّب كثيرًا من ضياعهم وقراهم، وغنم غنائم كثيرة، ثم واصل سيره حتى اقترب من أنطاكية؛ حيث هرب كثير من أهلها، واستنجدوا بالملك بلدوين، وطلبوا منه المعونة السريعة؛ فخرج بالبدوين على رأس قواته؛ فتنقدم إليه إيغازي بقواته أيضًا، وبمساعدة الأمير طغتكين الذي حضر لمساعدته، ولكن بلدوين لم يدخل في مواجهة عسكرية مع إيغازي؛ خوفًا من أن يتكرر ما حدث في موقعة البلاط، وانتهى الأمر بعقد هدنة بينهما^(٤).

وعلى الرغم من ذلك لم يتوقف القتال بين الأرتاقة والصليبيين، فقد استمرت الاشتباكات بين الطرفين، وحقق الأرتاقة انتصارات حاسمة ضد الصليبيين؛ ولعل من أبرز تلك الانتصارات ما فعله بلك بن بهرام الأرتقي؛ ابن أخي إيغازي؛ عندما حصر مدينة الرها، وقاتل الفرنج، وأسّر أمير

(١) ن.م.س (٥٦٨/١٠).

(٢) نل باشر: قلعة حصينة وكورة في شمال حلب، وأهلها نصارى أرمن. ابن منقذ: الاعتبار ص (١٣٥ حاشية رقم ٣٠٩)، ياقوت: معجم البلدان (٤٠/٢).

(٣) كيسوم: هي قرية من أعمال سميساط. ياقوت: معجم البلدان (٣٩٧/٤) وسميساط: مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات. ياقوت: معجم البلدان (٢٥٨/٣).

(٤) فايد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ص (١٦٧).

الرها جلوسين الذي بذل في نفسه أموالاً كثيرة؛ فلم يقبل منه أو يستجاب لطلبه، وأسر معه ابن خالته، وجماعة من فرسانه المشهورين، مما أدى إلى سوء موقف الصليبيين، وكان ذلك سنة (٥١٥هـ)^(١)، وهكذا ظهر الأرتقة قُوَّةً إسلامية شابة متماسكة في مقاومتها للصليبيين، وقيادتها لحركة الجهاد الإسلامي، لاسيما طيلة عهد إيغازي وابن أخيه بلق اللذين حققا انتصارات عظيمة وحاسمة ضد الصليبيين؛ في حين تضاءل دور الموصل القيادي في حركة الجهاد، خاصة بعد الهزائم التي مني بها كل من آقسنقر البرسقي وبرسق، ولكن مرحلة قيادية الأرتقة للجهاد لم تدم طويلاً بعد مقتل بلق في مطلع سنة (٥١٨هـ)، وهو في قمة نشاطه ضد الأعداء؛ حيث كان قد تحالف مع طغتكين -صاحب دمشق- ضد الصليبيين، وبينما تغلب من خلاله بلق عليهم وطردهم، ثم عاد إلى منبج؛ ليستأنف الحصار؛ بينما هو يقاتل من بها أتاه سهم طائش فقتله^(٢)؛ فخلفه في حكم ديار بكر وحلب ابن عمه حسام الدين تمرتاش بن إيغازي بن أرتق سنة (٥١٨هـ)، الذي كان رجلاً يرغب الدعة والمسألة، ويعكف

(١) ابن الأثير: الكامل (٥٩٣/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢٨/١٢)، وعن الأرتقة انظر: عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام، مؤسسة الرسالة، بيروت (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب (٢١٩/٢)، ابن الأثير: الكامل (٦١٩/١٠)، ابن الوردي: تمة المختصر (٣٢/٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢٨/١٢)، ابن العري: تاريخ مختصر الدول ص (٣٥٢)، عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية ص (٢٧٥).

على الترف والرفاهية، وكان متساهلاً كثيراً في مجابته للصليبيين؛ الأمر الذي آثر معه أن يترك حلب وقيم في مادريين؛ لأنه رأى الشام كثيرة الحروب مع الفرنج - كما يذكر ابن الأثير^(١) - وهذا ما جعل وضع مدينة حلب في موقف حرج؛ إذ غدت هدفاً - للمرة الثانية - لهجمات الصليبيين الذين طمعوا في الاستيلاء على حلب، وتأمين ممتلكاتهم في شمال الشام، فضلاً عن اتخاذها منطلقاً لمد نفوذهم باتجاه الجزيرة والعراق، ويذكر ابن الأثير سبب ذلك؛ وهو أن الفرنج لما ملكوا مدينة صور الساحلية^(٢) - إثر مقتل غريمهم اللدود بلك الأرتقي - "طمعوا وقويت نفوسهم، وتيقنوا الاستيلاء على بلاد الشام، واستكثروا من الجموع، ثم وصل ديبس بن صدقة؛ صاحب الحلة؛ الذي كان قد فر من العراق بسبب خصامه مع العباسيين والسلاجقة، وطرده الخليفة العباسي المسترشد بالله من حكم الحلة بالعراق؛ فلجأ إلى الجزيرة - فأطعمهم طمعاً ثانياً، لاسيما في حلب -

(١) الكامل (٦١٩/١٠)، ثم انظر عماد الدين خليل: المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص (١١٧)، بل إنه لم يقف عند هذا الحد، بل وافق على إطلاق سراح بلدوين الثاني ملك بيت المقدس الذي كان في أسر بلك بن بهرام بعد أن تعهد بلدوين لحسام الدين ممرتاش بمساعدته ضد خصمه ديبس بن صدقة الذي كان يود الاستيلاء على حلب انظر ابن العديم: زبدة الحلب (٢/٢٢١)، مسفر الغامدي: الجهاد ضد الصليبيين ص (٧٨).

(٢) انظر حول استيلائهم على مدينة صور: ابن الأثير: الكامل (١٠/٦٢٠-٦٢١)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٥/٢٢٨).

وقال لهم: إن أهلها شيعة، وهم يميلون إليّ لأجل المذهب، فمتى رأوني سلموا البلد إليّ، وقال: إنني أكون هاهنا نائباً عنكم ومطيعاً لكم؛ فساروا معه إليها وحصروها، وقاتلوا قتالاً شديداً، ووطنوا نفوسهم على المقام الطويل، وأنهم لا يفارقونها حتى يملكوها، وبنوا البيوت لأجل البرد والحر^(١).

وهكذا استطاع الفرنج تكوين جبهة من بعض العملاء المسلمين تحت قيادتهم وتوجيههم، ومن هؤلاء بنو مزيد، ودييس بن صدقة - المذكور - وسلطان شاه بن رضوان السلجوقي الذي عزله الأراتقة من ملكه في حلب، أما ديبس فلا يرى مانعاً من التحالف مع الصليبيين؛ وذلك لما عُرف عنه من عداوة قديمة للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي، وأما البقية فقد أثرت عليهم الأطماع الشخصية التي قادتهم إلى التبعية للقوى الصليبية المعادية للمسلمين^(٢)، وبدأ الصليبيون هجماتهم على المناطق الزراعية المحيطة بحلب، وأنزلوا بها خسائر فادحة، وفرضوا الحصار على حلب من جميع جهاتها، وقاد ذلك الهجوم أمير أنطاكية والرها

(١) الكامل (٦٢٣/١٠)، مسفر الغامدي: الجهاد ضد الصليبيين ص (٧٩).

(٢) فايد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ص (١٧٠)، عماد الدين خليل: المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص (١١٧)، وقد أورد ابن العديم صيغة الاتفاق الذي تم بين الصليبيين ودييس حيث قال: "واتفق ديبس والفرنج على قواعد تعاهدوا عليها، منها أن تكون حلب لدييس بن صدقة، والأموال والأرواح للفرنج مع مواضع من بلد حلب تكون للفرنج" انظر ابن العديم: زبدة حلب (٢٢٣/٢).

بمساعدة أمير الحلة مما أدى إلى سوء الأحوال في حلب، وقلة الأقوات، وانتشار الأمراض، وضعف الجند عن القتال بسبب الجوع والمرض، فلما رأى أهل حلب ذلك ضعفت نفوسهم، وخافوا الهلاك، وظهر لهم من صاحبهم تمرتاش^(١) الوهن والعجز، عند ذلك أعملوا الرأي في طريق يتخلصون من خلاله مما أصابهم؛ فرأوا أنه ليس لهم غير البرسقي -صاحب الموصل- فأرسلوا إليه يستنجدونه، ويسألونه المحيء إليهم؛ ليسلموا البلد إليه^(٢) - وهنا أمر يجب ذكره وهو عودة الموصل - مرة ثانية - لدورها الأصيل في قيادة حركة الجهاد ضد الصليبيين، بعد أفول نجم الأراتقة، ويجب كذلك ألا ننسى - في هذا المجال - أن السلاجقة ظلوا إلى أزمنة متأخرة بوجهون اهتمامهم كثيراً إلى الدور الذي تزعمه الموصل في قيادة

(١) كان حسام الدين تمرتاش الأرتقي آنذاك مشغولاً في الاستيلاء على بعض المواقع الجاورة لمالدين، والغرض من ذلك توسيع إمارته في ديار بكر؛ وهذا من أهم الأسباب التي أدت إلى إهماله أمر حلب وصيرورتها إلى ما آلت إليه، إضافة إلى عدم تحمسه لقتال الصليبيين وجهادهم، وذكر زامباور. معجم الأنساب ص (٣٤٥)، أن بعض المؤرخين يسميه "تمورتاش".

(٢) ابن الأثير: الكامل (٦٢٣/١٠-٦٢٣٤)، لأنه ترتب على ذلك حدوث مجاعة حلت بالخليين اضطرهم إلى أكل الكلاب وأوراق الشجر، كما يذكر البعض. انظر: ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص (٢١٢)، ابن العديم: زبدة الحلب (٢/٢٢٦)، أبو الفداء: المختصر (٢/٢٣٧).

حركة الجهاد ضد الصليبيين، وكانوا يصدرون أوامرهم بين الحين والآخر لولاقتهم هناك بالتحرك لقتال الفرنج؛ لإدراكهم أهمية ذلك الدور. ونستنتج من بعض نصوص ابن الأثير ما يؤيد ذلك، فقد ذكر في أحداث سنة (٥١٥هـ) ما نصه: "في صفر أقطع السلطان محمود مدينة الموصل وأعمالها، وما يضاف إليها؛ كالجزيرة، وسنجار، وغيرها، الأمير آقسنقر البرسقي... وقدم إلى سائر الأمراء بطاعته، وأمره بمجاهدة الفرنج وأخذ البلاد منهم"^(١)، وما ذكره أيضًا في أحداث سنة (٥١٨هـ) حيث يقول: "في هذه السنة، عُزل البرسقي عن شحنة العراق، وأرسل إليه السلطان محمود يأمره بالعودة إلى الموصل، والاشتغال بجهاد الفرنج"^(٢)، ومما يُدلل بوضوح لما ذكرناه هو ترشيح عماد الدين زنكي -فيما بعد- لولاية الموصل؛ حيث يُعدُّ دليلًا واضحًا على حرص السلاجقة على منح إمارة الموصل وأقاليمها للقائد الذي يستطيع أن يتصدى للغزاة بجدارة وأمانة وإخلاص.

ثم إنَّ البرسقي استجاب لطلب أهالي حلب، وسرعان ما ضرب خيمته بظاهر الموصل، وطلب من قواته أن تتأهب لجهاد الصليبيين

(١) الكامل (١٠/٥٨٨).

(٢) نفسه (١٠/٦٢٢).

واستفاد حلب^(١)، وفي غضون أيام معدودات أصبح جيشه على أهبة الاستعداد، وأرسل إلى طغتكين -أمير دمشق- وخوخان بن قراجا -أمير حمص- يطلب منهما مساعدته في إنجاز مهمته، فلبى هذان الأميران دعوته، وبعثا بعساكرهما للانضمام إلى جيش البرسقي؛ الذي كان قد تحرك آنذاك ووصل إلى بالس القريبة من حلب، ومن هناك أرسل إلى مسؤولي حلب، قائلاً: "إنني لا أقدر على الوصول إليكم، والفرنج يقاتلونكم إلا إذا سلمتم القلعة إلى نوابي، وصار أصحابي فيها، فإنني لا أدري ما يقدره الله تعالى إذا أنا لقيت الفرنج، فإن انهزمتنا منهم وليست حلب بيد أصحابي حتى أحتمي أنا وعسكري بها، لم يبق منا أحد، وحينئذ تؤخذ حلب وغيرها"^(٢)، فأجابوه إلى ذلك، وسلموا القلعة إلى نوابه، فلما استقروا فيها، واستتب الأمر لهم، واطمأن البرسقي إلى وجود حماية أمنية له في حالة تراجعهم، حتى بدأ زحفه صوب قوات الصليبيين التي ما زالت تطوق حلب، وكان وصول طلائع قوات البرسقي إلى حلب في الثاني والعشرين من شهر ذي الحجة سنة (٥١٨هـ).

وما إن اقترب البرسقي من المدينة بقواته المنظمة حتى كان ديبس بن صدقة أول المنسحبين، فلما أشرف عليها رحل الفرنج عنها، وهو يراهم،

(١) ابن العديم: زبدة الحلب (٢٢٧/٢-٢٢٨)، مسفر الغامدي: الجهاد ضد الصليبيين

ص (٧٩-٨٠).

(٢) ابن الأثير: الكامل (١٠/٦٢٣-٦٢٤).

وتحولوا إلى منطقة أفضل من الناحية الدفاعية، وأصبحوا مدافعين بعد أن كانوا مهاجمين، وخرج الحلبيون إلى خيامهم فنهبوا، ونالوا منها ما أرادوا، وهناك رغب من في مقدمة عسكر البرسقي أن يحمل على الفرنج ويقاتلهم بعد أن انسحبوا، ولكن البرسقي منعهم من ذلك؛ لأنه يدرك ما يرمي إليه الصليبيون بانسحابهم واتخاذهم موقفاً دفاعياً، وقال موضحاً لهم خطته: "لا، ما يؤمننا أن يرجعوا إلينا، ويهلك المسلمون، ولكن قد كفى الله شرهم، وحفظ بلدنا منهم، والمصلحة تركهم حتى يتقرر أمر حلب، ونصلح حالها، ونكثر ذخائرها، ثم حينئذ نقصدهم ونقاتلهم".

فلما رحل الفرنج، خرج أهل حلب ولقوه، وفرحوا به، وأقام عندهم حتى أصلح الأمور، وقررها، وبدأ بحل مشاكل حلب، ورفع مستواها العسكري والاقتصادي والاجتماعي، وعودة الأمور إلى حالتها الطبيعية الأولى، كما عاد النشاط الزراعي والتجاري إلى عهده السابق؛ وذلك لما تمتعت به المنطقة من أمن واستقرار منذ مجيء البرسقي إليها، وجلاء الصليبيين^(١).

وبذلك فشلت محاولة بلدوين الثاني وحلفائه في الاستيلاء على حلب، وخاب أيضاً رجاء ديبس بن صدقة في حكم حلب؛ كما كان

(١) ابن العديم: زبدة الحلب (٢/٢٢٩-٢٣٠)، ابن الأثير: الكامل (١٠/٦٢٤)، عماد الدين خليل: المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص (١٢١-١٢٢) رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية (٢/٢٧٤).

يأمل؛ بل إن أقسنقر البرسقي استطاع أن يجمع -بتوفيق الله- بين ملكي الموصل وحلب؛ مما شكل خطراً كبيراً وجديداً على الصليبيين في شمال العراق وبلاد الشام، وقد تمتع البرسقي بتأييد السلطان محمود السلجوقي، وتقديره له، بوصفه ممثلاً للسلطان السلجوقي في تلك المنطقة، كما اعترف بزعامته كذلك طغتكين -صاحب دمشق- الذي كان يقدر كثيراً البرسقي ويثق به^(١).

وهكذا استطاع البرسقي أن يحطم الطوق الذي أحاط به الصليبيون حلب، وأن يُخلص هذا الموقع الهام من أخطر محنة واجهته طيلة الحروب الصليبية، وأن يعيد إليه الأمن والعدل والاستقرار، ويوحده مع الموصل لأول مرة منذ بدء الحروب الصليبية، ولاشك أن هذا أتاح له ولعماد الدين زنكي من بعده أن يفيد من هذه الوحدة لتحقيق انتصارات عديدة ضد الصليبيين؛ لأن حلب تعدّ القاعدة الثانية في الشمال بعد الموصل، وهي الحصن الأخير الذي وقف بوجه الزحف الصليبي في المنطقة، نظراً لمركزها الحيوي من الناحية البشرية والعسكرية والسياسية والاقتصادية، واتصالها بالقوى الإسلامية التركية المنتشرة في الجزيرة والفرات والأناضول وشمال الشام؛ مما يزيد من قوة واستمرار حركة الجهاد وتحقيق الهدف المنشود؛ هذا فضلاً عن عمق وتوثيق الصلات الاقتصادية والجغرافية بين حلب والموصل منذ أيام الحمدانيين.

(١) فايد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ص (١٧١).

لذا تعدّ المدينتان إحداهما مكملة للأخرى، وهذا الاتحاد بين حلب والموصل، علاوة على تهديده لكيان الصليبيين، فهو النواة الأولى لما قام بعد ذلك في الشام من دولة إسلامية متحدة زمن الزنكيين والأيوبيين والمماليك^(١)، وما قاموا به من جهاد ودفاع عن المسلمين ومقدساتهم؛ الأمر الذي اختلف معه ميزان القوى ورجحت من خلاله كفة المسلمين على أعدائهم؛ مما عاد بالخير والنفع للإسلام والمسلمين، وحفظ لهم كيانهم ورفعتهم وعزتهم المتصلة بهذا الدين العظيم - وهذا ما يهمننا من خلال هذا البحث.

وهكذا أصبح البرسقي عند الفرنج أشد خطرًا من الأراتقة الذين حققوا انتصارات عظيمة وحاسمة ضد الصليبيين - لاسيما في عهد إيغازي وابن أخيه بلق؛ لأنه بوسعه - أي: البرسقي - أن يوحد المسلمين بشمال الشام تحت إمرته وسلطانه، نظرًا لكونه أصبح أميرًا على الموصل وحلب، وحظي بتأييد السلطان السلجوقي ومساندته، وكان البرسقي - بعد أن أقر الأوضاع في حلب واطمأن عليها - اتجه إلى شيرز؛ فوصلها في شهر صفر سنة (٥١٩هـ) حيث رحب به أميرها سلطان بن منقذ السذي يحرص دائمًا على أن يكون أخًا وصديقًا لكل رجل عظيم الأهمية، يخلص لدينه، ويجاهد عدوه بكل تفان وإخلاص، وقد سلمه ابن منقذ رهائن الصليبيين ومن بينهم ابنة بلدوين الثاني، وجوسلين الصغير ولي عهد الرها، السذين

(١) عماد الدين خليل: المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص (١٢٢-١٢٣).

كانوا قد أودعوا لدى بني منقذ، الأمر الذي يؤكد زعامة البرسقي للقوى الإسلامية في بلاد الشام.

ثم إن البرسقي بعد أن أقام في حماة أياماً ينتظر وصول طغتكين على رأس قواته، رحل على رأس جيش مؤلف من القوات الإسلامية المتحالفة، وهاجم حصن كفرطاب الذي كان بحوزة الفرنج، وتمكن من الاستيلاء عليه في شهر ربيع الآخر سنة (٥١٩هـ)، ثم شرع في حصار زردنا^(١)، ولكنه ترك حصارها، وسار إلى عزاز^(٢)، وشددوا هجومهم عليها، وتمكنوا من إحداث ثغرات في قلعتها، في الوقت الذي استنجدت أنطاكية فيه بالملك بلدوين الثاني؛ ملك بيت المقدس؛ الذي قاد جيوش أنطاكية وطرابلس والرها، ودارت في عزاز معركة تعد من أشد المعارك عنفاً وسفكاً للدماء في تاريخ الحروب الصليبية؛ حيث اقتتلوا قتالاً شديداً صبروا كلهم فيه، وكان للفرنج من التفوق بالسلاح والقوة الضاربة ما لم يطق المسلمون مقاومته، فحلت بهم هزيمة ساحقة، وقتل منهم عدد كبير جاوز الألف قتيل، وعاد البرسقي إلى حلب، فخلف بها ابنه مسعوداً، وعبر الفرات إلى الموصل ليجمع العساكر ويعاود القتال مرة أخرى، ثم في هذه الأثناء جرت اتصالات بين الطرفين انتهت بعقد هدنة بينهما، تقرر

(١) زردنا: بلدة من نواحي حلب الغربية (ياقوت: معجم البلدان (٣/١٣٦)).

(٢) عزاز: بلدة بقرب حلب إلى الشمال منها، على الطريق بين أنطاكية والرها. انظر

ياقوت: معجم البلدان (٤/١١٨)، القزويني: آثار البلاد ص (٢٢١).

الفصل الثاني: جهود الخلفاء والسلاطين ضد الزحف البيزنطي والصليبي ٤٠٣

بموجبها إعادة ابنة بلدوين الثاني، وجوسلين الصغير، وغيرهما من رهائن الصليبيين، في حين احتفظ البرسقي بكفرطاب، وعاد بعد ذلك بلدوين إلى القدس، وكانت معركة عزاز في شهر ربيع الأول سنة (٥١٩هـ)^(١). وقد حاول بلدوين الثاني أن يستفيد من آثار معركة عزاز، والروح المعنوية العالية لدى قواته. فما لبث أن هاجم إمارة دمشق، ودارت معركة جديدة بين طغتكين وبلدوين الثاني في سنة (٥٢٠هـ)، ويصف ابن الأثير هذه المعركة بقوله: "في هذه السنة اجتمعت الفرنج وملوكها، ... وساروا إلى نواحي دمشق فنزلوا قريباً منها، فعظم الأمر على المسلمين واشتد خوفهم، وكاتب طغتكين صاحبها أمراء التركمان من ديار بكر وغيرها وجمعهم، وكان هو قد سار عن دمشق إلى جهة الفرنج، واستخلف بها ابنه تاج الملوك؛ فكان بها كلما جاءت طائفة أحسن ضيافتهم وسيرهم إلى أبيه؛ فلما اجتمعوا سار بهم طغتكين إلى الفرنج؛ فالتقوا أواخر ذي الحجة، واقتتلوا، واشتد القتال؛ فسقط طغتكين عن فرسه؛ فظن أصحابه أنه قتل؛ فانهزموا وركب طغتكين فرسه ولحقهم، وتبعهم الفرنج، وبقي التركمان لم يقدرُوا أن يلحقوا بالمسلمين في الهزيمة، فتحلفوا، فلما رأوا فرسان الفرنج قد تبعوا المنهزمين، وأن معسكرهم

(١) انظر في تفاصيل ذلك: ابن الأثير: الكامل (١٠/٦٢٨)، فايد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ص (١٧١-١٧٢)، عماد الدين خليل: المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص (١٢٣-١٢٤).

وراجلهم ليس له مانع ولا حام، حملوا على الرجالة فقتلوهم، ولم يسلم منهم إلا الشريد، ونهبوا معسكر الفرنج وخيامهم وأموالهم، وجميع ما معهم، وفي جملة كنيسة، وفيها من الذهب والجواهر ما لا يقوم كثرة؛ فنهبوا ذلك جميعه؛ وعادوا إلى دمشق سالمين لم يعدم منهم أحد، ولما رجع الفرنج من أثر المنهزمين، ورأوا رجالتهم قتلى، وأموالهم منهوبة، تموا منهزمين لا يلوي الأخ على أخيه"^(١).

وبعد هذه الموقعة العسكرية مع الفرنج، وانتصار المسلمين عليهم، وأخذ ممتلكاتهم، عاد بلدوين الثاني إلى بيت المقدس، وما لبث أن استنجد به أمير طرابلس يطلب معاونته في حصار رفية^(٢) التي كانت هدفاً للصليبيين منذ أن استردها منهم طغتكين -صاحب دمشق- سنة (٤٩٩هـ) لأنها تتمتع بموقع هام يحكم إشرافها على أطراف وادي نهر العاصي فيما بين حماة وحمص؛ لذلك لم يرض الصليبيون ببقائها مع المسلمين؛ فاشتد الحصار عليها؛ فاستنجد صاحبها شمس الخواص بطغتكين؛ صاحب دمشق والبرسقي؛ صاحب حلب والموصل- ولكن رفية لم تستطع أن تصمد أمام حصار الصليبيين، فاستسلمت قبل وصول

(١) الكامل (١٠/٦٣٩).

(٢) رفية: كورة من أعمال حمص، وقيل: بلدة عند طرابلس من سواحل الشام وما تزال المدينة تعرف بهذا الاسم في سوريا، (ابن منقذ: الاعتبار ص ٦٨ حاشية رقم (١٢٥) ياقوت: معجم البلدان (٣/٥٥).

الفصل الثاني: جهود الخلفاء والسلاطين ضد الزحف البيزنطي والصلبيبي ٤٠٥

النجدة الإسلامية إليها بعد حصار دام ثمانية عشر يومًا، ومنها بدأ أمير طرابلس بشن الغارات المتواصلة على منطقة حمص.

ولاشك أن الاستيلاء على الحصن كان ذا أهمية بالغة عند الفرنج؛ ليس لأنه كفل الأمان والسلامة لطرابلس فحسب، بل إنه آمن أيضًا طرق الاتصال بين بيت المقدس وأنطاكية، ثم توجه الفرنج بعد ذلك إلى حمص، وهاجموا المناطق المحيطة بها، وخرّبوا مزارعها، ولم يغادروا المنطقة إلا بعد أن أدركتهم القوة التي بعث بها البرسقي؛ بقيادة ابنه عز الدين مسعود؛ لنجدة صاحب حمص، وليدفع الصليبيين عنها؛ في حين توجه البرسقي إلى إمارة أنطاكية، وحاصروا حصن الأتارب؛ الأمر الذي جعل بلدوين يسرع لصدّه، وفي أثناء ذلك قام الأسطول الفاطمي بمهاجمة السواحل الشامية، وأمام هذا الموقف اضطر بلدوين الثاني للصلح مع البرسقي وعقده هدنة أخرى بين الطرفين، والعودة إلى ما كانوا عليه في سنة (٥١٩هـ) فوافق البرسقي على ذلك وعدل عن حصار الأتارب، ومن ثم عاد البرسقي إلى الموصل؛ فدخلها سنة (٥٢٠هـ) حيث قتل في اليوم نفسه على أيدي الباطنية الذين قتلوا مودودًا قبله، وعددًا من زعماء الجهاد ضد الصليبيين^(١).

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص (٢١٤) ابن الأثير: الكامل (١٠/٦٣٣-٦٣٤)، المقدسي: الروضتين (١/٢٩) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص (٢٠٢)، الكتيبي: عيون التواريخ (١٢/١٧٠) ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١٩٥)، وعنده

ومن العجيب - كما يقول ابن الأثير: أن صاحب أنطاكية أرسل إلى عزّ الدين مسعود يخبره بقتل والده قبل أن يصل إليه الخبر، كان قد سمعه الفرنج قبله؛ لشدة عنايتهم بمعرفة الأحوال الإسلامية^(١)، ولكن مثل هذا النبأ يجعل الشكوك تحوم بل تؤكد حول إمكانية حدوث اتفاق مسبق بين الباطنية والصليبيين لاغتيال المجاهد المسلم، لاسيما أن البرسقي لم يألُ جهداً في قتال الصليبيين ومحاربتهم، وقيادته للقوات الإسلامية التي شكلت خطراً كبيراً على وجودهم؛ الأمر الذي يجعلنا نؤكد اتفاقهم جميعاً على الخلاص منه؛ خاصة وأن الجميع تتفق أهدافهم ومآربهم ضد الإسلام والمسلمين.

وهكذا يتضح لنا - من خلال ما تقدم من مواقف وجهود عظيمة للسلاجقة ضد الصليبيين - ما يبرهن على أن السلاجقة قاموا بدورهم العظيم ومسؤوليتهم العظيمة تجاه الأعداء بصفة عامة، وأبلوا البلاء الحسن في الدفاع عن الإسلام والمسلمين، وتصدوا من البداية للصليبيين بكل قوة وشجاعة وصبر، وفي هذا دلالة واضحة على مشاركتهم في أحداث العالم

أن مقتله سنة (٥١٩هـ) وكذلك عند ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة

(٢٣٠/٥)، ثم انظر عماد الدين خليل: المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص

(١٢٥-١٢٧)، محمد كرد علي: خطط الشام (١/٢٧١).

(١) الكامل (١٠/٦٣٥).

الإسلامي، وحملهم راية الجهاد في سبيل الله تعالى؛ الأمر الذي أدى إلى ارتفاع شأن أهل السنة في عصرهم والمحافظة على كيانهم.

ويمكن القول أن السلاجقة - عمومًا سواء كانوا من سلاجقة آسيا الصغرى والأناضول أم سلاجقة بلاد الشام، أم سلاجقة فارس - فقد جاهدوا ضدّ الصليبيين، وقبل ذلك ضد البيزنطيين - كما أوضحنا - وتحملوا الكثير من المشاق والصعوبات، واستشهد منهم الآلاف في سبيل الله تعالى؛ دفاعًا عن الإسلام والمسلمين، وقيامًا بواجبهم المنوط بهم في حماية الدين والذود عن الإسلام وأهله؛ لأن ذلك واجب حتمي على حكام المسلمين وولايتهم، وكان دور السلاجقة بارزًا وعظيمًا في الجهاد في سبيل الله، ثم انشغلوا بالمنازعات الداخلية، وأصاب دولتهم الضعف، حتى أهملوا في النهاية فريضة الجهاد ضد الصليبيين، ولكن الله تعالى حكمة في ذلك؛ فكان لا بد من استمرار الصراع بين الحق والباطل؛ لذلك برزت على الساحة الإسلامية دولة مجاهدة قوية متمثلة في أسرة آل زنكي؛ ليقوموا بدورهم في الجهاد ضد الأعداء، كما قام بذلك الأراقة من قبل، وسيقوم الأيوبيون بنفس الدور فيما بعد، وهكذا تستمر القافلة الخيرة، وينجب التاريخ أبطالًا جدد؛ كعماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين، وغيرهم، وما ذاك إلا بتوفيق الله تعالى، وحفظه

لهذا الدين وأهله مصداقاً لقول الحق سبحانه: ﴿أنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾^(١).

(١) سورة الحجر آية (٩).

الفصل الثالث

" جهود الخلفاء العباسيين والسلاطين

السلاجقة في محاربة الفرق الضالة والتيارات

الباطلة "

الفصل الثالث

"جهود الخلفاء العباسيين والسلطين السلاجقة في محاربة

الفرق الضالة والتيارات الباطلة"

ما من شك في أنه - منذ ظهور الإسلام- يعمل أعداء هذا الدين في داخل الأمة الإسلامية وخارجها من أجل تقويض الإسلام وهدمه وإبادة أهله فقد تعرضت أمتنا الإسلامية - في الماضي- لفتك الصليبيين والبيزنطيين والمغول، وغيرهم من الأمم التي حاولت تفتيت الدولة الإسلامية، وإضعاف هيبة الخلافة، وإذلال المسلمين.

ولكي يصل أعداؤنا إلى تحقيق أهدافهم المنشودة، وآمرهم الشريرة فقد سلكوا سبلاً عدة، لعل من أهمها: تقسيم المسلمين إلى فرق دينية متناحرة فيما بينها من ناحية، وثائرة على سلطة الدولة (الخلافة) من ناحية أخرى؛ أمثال فرق السبئية^(١)،

(١) السبئية: هم أصحاب عبد الله بن سبأ، كان يهودياً من أهل صنعاء، ثم أسلم؛ وهو أول من قال بالنص على إمامة علي، كما يقول الشهرستاني، وكان قد غلا في علي عليه السلام، فزعم أنه كان نبياً، ثم غلا فيه حتى زعم أنه إله، والسبئية أول فرقة قالت بالتوقف، والغيبة، والرجعة، وغير ذلك مثل سب الصحابة والقول بالحلول والتناسخ. انظر حول هذه الفرقة ونشأتها ومعتقداتها: الفرق بين الفرق ص (٢٣٣)، الشهرستاني: الملل والنحل (١/١٧٤)، الاسفراييني: التبصر في الدين ص (١٠٨)،

الأشعري: مقالات الإسلاميين (١/٨٦)، المقرئزي: المواعظ والاعتبار (٢/٣٥٢٢)، ابن حزم: الفصل في الملل والنحل (٤/١٨٠)، النوبختي: فرق الشيعة ص (٢٢)، السكسكي: البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ص (٨٥)، وأول المصادر المهمة النادرة التي ذكر فيها ابن سبأ: رسالة الإرجاء، للحسن بن محمد بن محمد بن الحنفية (ت: ٩٥)، ابن حجر: تقريب التهذيب ص (١٦٤)، والذي كان يقول: من خلع أبا بكر وعمر فقد خلع السنة، وقد تعرض لهذه الرسالة الذهبي في تاريخ الإسلام (٣/٣٥٨)، وابن حجر الذي أشار إلى مكان وجودها، فقال: "المراد بالإرجاء الذي تلکم الحسن بن محمد فيه غير الإرجاء الذي يعيبه أهل السنة، المتعلق بالإيمان، وذلك أني وقفت على كتاب الحسن المذكور، أخرجه ابن عمر العدني في كتاب الإيمان..." تهذيب التهذيب (٢/٣٢١)، وكتاب العدني محقق في قسم العقيدة بالجامعة وطبع عام (١٤٠٧هـ). وقد ذكر فواد سزكين هذه الرسالة في تاريخ التراث العربي (١٦/٤ص/١٦)، وأوضح الدكتور سعد الهاشمي أن رسالة الإرجاء مخطوط في دار الكتب الظاهرية في آخر كتاب الإيمان لمحمد بن يحيى العدني (ت: ٢٤٣هـ) (بمجموع ١٠٤). وذلك في كتابه: ابن سبأ حقيقة لا خيال ص (٢٥)، أما عن نهاية ابن سبأ، فقد ذكر البعض أن علياً عليه السلام نفاه إلى المدائن، مثل: الشهرستاني: الملل والنحل (١/١٧٤)، البغدادي: الفرق بين الفرق ص (٢٣٤)، وهذا هو المشهور؛ أي: نفى ابن سبأ دون إحراقه، وهناك من وضع مسألة إحراق ابن سبأ موضع الشك، مثل الذهبي حيث قال: "أحسب أن علياً حرقه بالنار" (ميزان الاعتدال (٣/١٤٠)، وهناك طائفة حزمت بإحراق ابن سبأ، ومنهم الكشي، والمقاني؛ وهما من الشيعة، انظر: رجال الكشي ص (٩٨-١٠٠)، تنفيح المقال (٢/١٨٤)، نقلًا عن: العودة: عبد الله بن سبأ وأثره في إحداث الفتنة في صدر الإسلام ص (٢١٧-٢١٨)، أما إحراق علي لطائفة من السبئية فتؤكد الروايات الصحيحة، وكتب المعارف العامة

والخوارج^(١) والقرامطة^(٢)

وأصحاب المقالات والفرق حيث ثبت ذلك بما لا يدع مجالاً للشك. انظر حول ذلك: ابن حجر: فتح الباري (٢٧٠/١٢)، لسان الميزان (٣٥٨/٣)، ابن تيمية: الفتاوى (٤٧٥/٢٨)، ومنهاج السنة (٨٣/١)، الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (٥٧).

(١) الخوارج: المراد هم هنا: طائفة مخصوصة كان أول خروجهم على أمير المؤمنين الخليفة الراشد علي بن أبي طالب عليه السلام بعد قبوله التحكيم عقب معركة صفين، وتنقسم الخوارج إلى فرق كثيرة منها: المحكمة، والأزارقة، والنجدات، والصفيرية، والشراة، والعجاردة، والإباضية، والثعالبة، ويجمعها جميعاً الاتفاق على تكفير عثمان وعلي عليهما السلام، والحكمين ومن رضي بالتحكيم، ويكفرون أصحاب الكباثر، ويسرون الخروج على الإمام إذا خالف السنة، ولو في نظرهم فقط. انظر للتفاصيل حول الخوارج ونشأتهم، وأهم فرقهم: الآجري: الشريعة (٢١-٣٧)، الشهرستاني: الملل والنحل (١١٤/١-١١٥)، الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (٤٦-٥١)، ابن تيمية: الفتاوى (٣٥٥/٣)، السفاريني: لوامع الأنوار (٨٦/١)، السكسكي: البرهان ص (١٧)، أحمد جلي: الخوارج والشيعة (٣٥ وما بعدها). وعن معركة صفين وما تلاها من أحداث انظر: كتاب "وقعة صفين" لنصر بن مزاحم المنقري (ت: ٢١٢هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون.

(٢) القرامطة: فرع من فروع الإسماعيلية، ينسبون إلى شخص يقال له "حمدان بن الأشعث" الملقب بقرمط، وقد انتهت على أيدي السلاجقة دولة القرامطة في البحرين والأحساء حيث انتصروا عليهم في موقعة "الخنديق" الحاسمة سنة (٤٧٠هـ)، وعقائدهم لا تختلف عن العقائد الإسماعيلية إلا في بعض الأمور التطبيقية. انظر حول القرامطة: النوبختي: فرق الشيعة (٧٢)، الطبري: تاريخ الأمم

والإسماعيلية^(١) وغيرها من الفرق الأخرى، ثم عمل أعداؤنا إلى إحياء دعوات الجاهلية الفاسدة، وتزيينها للناس، كالعصية القبليّة المقوتة، والشعوبية، ونحوها، وكذلك نشر الدجل والشعوذة، والروح السلبية المناوئة للإسلام، كما في بعض فرق الصوفية المنحرفة؛ وهذه العوامل مجتمعة ألحقت بالمسلمين وحضارتهم آثاراً مؤلمة من جراء تلك الفرق، والدعوات، والضلالات الأخرى التي تأثر بها المجتمع الإسلامي آنذاك، ولا تزال تلك الآثار نشطة إلى اليوم.

لذلك كانت تلك الفرق الضالة وما زالت مصدر خطر كبير على الإسلام والمسلمين منذ أن وُجدت، وأصبح لها زعماء وأتباع، وبعد أن أدرك أعداء الإسلام أن مواجهتهم للمسلمين وجهاً لوجه لن يجدي شيئاً في تحقيق أهدافهم المنشودة والوصول إلى مآربهم الشريرة، وما يهمننا - في هذا البحث، ونحن نتحدث عن هذه الفرق وخطرها - هو مواجهة الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة، والوزراء، وكذلك العلماء الذين كان

والمملوك (٢٣/١)، وما بعدها، البغدادي: الفرق (٢٩٤-٢٩٨)، بندلي جوزي: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام (١٢٢)، بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية (٢٢٨)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٣/٢٥٨-٢٥٩)، وحول الأعمال التي قام بها القرامطة وما أحدثوه من اضطرابات في المدة الممتدة من سنة (٢٦٤هـ) حتى نهاية العقد الرابع من القرن الرابع الهجري، انظر: (تاريخ الأمم والملوك، المنتظم، الكامل في التاريخ، البداية والنهاية).

(١) الإسماعيلية: سيأتي الحديث عنهم بالتفصيل من خلال هذا الفصل - بمشيئة الله.

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطلة ٤١

لهم دور بارز ومؤثر في إبطال مزاعم الفرق الباطلة، وتنفيذ آرائهم، ومعتقداتهم الفاسدة؛ حيث تصدى كثير من علماء أهل السنة للرد عليهم وألفوا الكتب التي توضح للمسلمين معتقداتهم وتحذيرهم منها، ومثل هذه الجهود العظيمة من الخلفاء والسلاطين والعلماء، لاشك أنها تؤدي إلى الحفاظ على كيان أهل السنة، ومن ثم تأصيل مذهب أهل السنة والجماعة، والوقوف بشتى الوسائل أمام التيارات الباطلة، والفرق الضالة التي قد تؤثر على المسمين في دينهم وعقيدتهم.

وجدير بالذكر -هنا- أن أولئك العلماء والسلاطين والوزراء كانوا يلقون الدعم والتأييد والتشجيع من قبل خلفاء بني العباس الذين كانوا يرون أنهم حماة المذهب السني، وناصروه، منذ أن أعلنها "داود بن علي"^(١) على لسان ابن أخيه "أبي العباس السفاح" أول الخلفاء العباسيين

(١) هو داود بن علي بن حبر الأمة عبد الله بن عباس الهاشمي، روى عن أبيه عن جده، وعنه: الأوزاعي، وابن جريح، وسعيد بن عبد العزيز وغيرهم، وكان داود ذا بأس وهيبة وسطوة، وجبروت وبلاغة، ولما قام السفاح ليخطب يوم بيعته حُصر؛ فوثب داود بن علي فتكلم وأبلغ، وقال فأوجز، وفي الكامل لابن عدي، سئل ابن معين كيف حديثه؟ قال: أرجو أنه ليس يكذب، قال ابن عدي: عندي أنه لا بأس بروايته عن أبيه عن جده، وقد ذكره ابن حبان في الثقات، توفي سنة (١٣٣هـ)، انظر ترجمته في: الرازي: الجرح والتعديل (٤١٨/٣)، ابن عدي: الكامل (٨٨/٣)، الذهبي: ميزان الاعتدال (٢٠٣/٢)، سير أعلام النبلاء (٤٤٤/٥)، ابن حجر: تهذيب التهذيب (١٩٤/٣)، تقريب التهذيب ص (١٩٩).

(١٣٢-١٣٦هـ)، عندما قال: "ألا وإن ذمة الله وذمة رسوله، وذمة العباس لكم أن نسير، فنحكم في الخاصة والعامة بكتاب الله وسنة رسوله"^(١).

وإذا نحن تتبعنا وبحثنا -بصورة أشمل- عن الأسس التي قامت عليها الفرق الدينية، وأسباب نشوئها لوجدنا أنها ترتبط عمومًا في الإسلام بمسألة الإمامة والخلافة؛ لذلك يصعب أن نجد فرقة دينية لم تحدد موقفها من هذه المسألة التي تعدّ من أهم وأبرز القضايا التي واجهت الأمة الإسلامية، وتكونت حولها أهم الفرق الإسلامية التي نشأت في القرن الأول الهجري؛ مثل الخوارج، الشيعة، والمرجئة^(٢) ثم المعتزلة^(٣) فيما بعد.

(١) انظر تفاصيل ذلك في: تاريخ يعقوب (٣/٣٥٠٣٥١)، الطبري: تاريخ الأمم والملوك (٧/٤٢٧)، الدينوري: عيون الأخبار (٢/٢٧٥).

(٢) المرجئة: سما بذلك لأنهم أخرجوا العمل عن الإيمان، لأن الإرجاء بمعنى التأخير، وهم أربعة أصناف. للتفاصيل حول المرجئة انظر الآجري: الشريعة ص (١٤٣)، الشهرستاني: الملل والنحل (١/١٣٩)، البغدادي: الفرق ص (٢٠٢٩)، السفاريني: لوامع الأنوار (١/٨٩).

(٣) المعتزلة: نشأت هذه الفرقة بسبب الخلاف الذي حدث بين الحسن البصري (ت: ١١٠هـ) وواصل بن عطاء (١٣١هـ) في القدر، وفي الميزلة بين الميزلتين، فطردهم الحسن عن مجلسه؛ فاعتزل واصل بن عطاء إلى سارية من سواري مسجد البصرة؛ فقبل له ولأتباعه "معتزلة" وهم الذين يقولون بنفي الصفات الإلهية، وهناك علاقة وطيدة بين المعتزلة والشيعة. انظر للتفاصيل عن المعتزلة (الطحاوي: العقيدة الصحاوية مع شرحها ص (٥٢٨)، الشهرستاني: الملل والنحل (١/٤٨)، البغدادي:

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلطين في محاربة الفرق والتيارات الباطلة ١٧٤

وحول ذلك يقول الشهرستاني: "وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة إذ ما سُلَّ سيفٌ في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سُلَّ على الإمامة في كل زمان"^(١).

وقد تناول موضوع الإمامة عدد كبير من مفكري الأمة وعلمائها بالدراسة، وإبداء الآراء التي تبلورت حولها المواقف المتباينة؛ مما أدى إلى تشعب وجهات النظر التي أدت من ثم إلى تشعب الفرق الإسلامية، ومن بين أولئك العلماء الذين أسهموا في دراسة هذا الموضوع الخطير خلال العصور الإسلامية المتعاقبة: الماوردي، والغزالي، والفراء، والطرطوشي^(٢) ونظام الملك، وابن تيمية، وابن خلدون، والشاطبي، وغيرهم.

الفرق ص (٢٠-٢١)، الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص (٣٩)، السكسكي: البرهان ص (٤٩)، عرفان عبد الحميد: دراسات في الفرق ص (١٠٣)، إبراهيم العدوي: التاريخ الإسلامي ص (٣٢٤).

(١) الملل والنحل (٢٤/١)، وانظر كذلك: الأشعري: مقالات الإسلاميين ص (٢).
(٢) هو الإمام العلامة، شيخ المالكية، أبو بكر محمد بن الوليد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشي الفهري الأندلسي الطرطوشي، الفقيه، ولد بطرطوشة آخر بلاد الأندلس سنة (٤٥١هـ). ورحل إلى المشرق وتوفي سنة (٥٢٠هـ) بعد أن حج وذهب إلى بغداد، كان إماماً عالمًا زاهدًا ورعًا، من مؤلفاته: تعليقة في مسائل الخلاف وأصول الفقه، كتاب في البدع والمحدثات، كتاب في بر الوالدين، كتاب سراج الهدى، كتاب الفتن. انظر ترجمته وأخباره في: ابن خلكان: وفيات الأعيان

ولاشك أن هناك أسباباً أخرى تتعلق بالناحية السياسية والاجتماعية ساعدت على نشأة الفرق الإسلامية؛ التي افرقت في المذهب والوسيلة والفكر؛ للوصول إلى أهدافها، ثم كانت تلك الحروب الطاحنة بين هذه الفرق بعضها مع بعض، وبينها وبين الدولتين الأموية والعباسية، وما نجم عن ذلك من صراع فكري أسفر عن آثار عميقة وبعيدة المدى؛ تضمنت عند عدد من الفرق شذوذاً فكرياً، ونزوعاً إلى استخدام المنطق، والاعتماد على الأسلوب الفلسفي في التفكير؛ مما أدى إلى شتات أفكار المسلمين، وتفرق عقيدتهم، وفقدتهم الثقة في نفوسهم، وإلحاق الضرر بهم^(١).

(٣/٢٦٢-٢٦٥)، ابن فرحون: الديباج المذهب (٢/٢٤٤-٢٤٨)، مخلوف: شجرة النور الزكية ص (١٢٤-١٢٥).

(١) انظر : مريزن عيسيري: الحياة العلمية في العصر السلجوقي ص (١٢٥)، ويضيف أحد الباحثين المعاصرين أن هذه الفرق والتيارات والمذاهب لم تكن كلها وليدة ذلك الخلاف الذي دار حول الخلافة، بل كانت هناك بعض العوامل التي أثرت في ظهور هذه الفرق والتيارات المتباينة، من بينها ترجمة التراث اليوناني إلى اللغة العربية وافتتان البعض به، والخوض في المشكلات العقائدية بغير المنهج الذي وضعه الشرع، هذا إضافة إلى أن الجدل مع أصحاب الديانات والمذاهب غير الإسلامية أثار كثيراً من المشكلات العقائدية لدى بعض المسلمين. انظر : (أحمد محمد حلي: دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين "الخوارج والشيعة" ص (٣٤)، انظر كذلك: إبراهيم العدوي: التاريخ الإسلامي ص (٣٢٦).

وما يهمنا - في هذا المقام - أنه عندما جاء العصر السلجوقي - الذي نحن بصدد الحديث عنه - قد غُصَّت العراق بالفرق الإسلامية المختلفة، والمذاهب الدينية المتعددة، والتيارات الفكرية المتباينة، واحتدام الصراعات والتراعات بينها؛ وخاصة بين أتباع مذهب السلف (أهل السنة) وبين الشيعة، والذي أدى إلى صراع ديني وسياسي أسفر عن آثار مؤلمة، ومتلاحقة عبر العصور^(١)، وقد عبّر عن ذلك الأستاذ عبد العزيز الدوري؛ حيث ذكر أن برنامج هذه الفرق ينطوي على اتجاهات سياسية في دعوتها إلى إزالة السلطان العربي، وإحياء مجد الفرس، ودينية في دعوتها إلى المجوسية ومحاربتها للإسلام، واقتصادية في دعوتها لأوضاع أفضل^(٢).

ومما يجب ذكره - في هذا المقام - أن من يتأمل في كتب هذه الفرق قد تخيل إليه أن هذه الأمة قد تمزقت أحزاباً وأشلاءً، وأن الاختلاف

(١) أورد ابن الجوزي وابن الأثير وابن كثير كثيراً من المنازعات والخصومات التي كانت تقع بين السنة والشيعة في العصر السلجوقي؛ وذلك من خلال مؤلفاتهم (المنتظم، الكامل، البداية والنهاية).

(٢) الدوري: الجذور التاريخية للشعبية ص (٣٤)، نقلًا عن كتاب: الحياة العلمية في العصر السلجوقي للعسيري ص (١٢٦)، وانظر كذلك: محمد مصطفى رمضان: الشعبية الجديدة، فاروق عمر: التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، عبد الله السامرائي: الشعبية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية، زاهية قدورة: الشعبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في حياة الإسلام في العصر العباسي الأول، سميرة الليثي: الزندقة والشعبية وانتصار الإسلام والعروبة عليهما.

والنزاع الذي كان يحصل بين أفرادها وجماعاتها قد بلغ الغاية؛ وهذا بالطبع غير صحيح؛ بل لا يتفق والواقع الذي عاشته هذه الأمة؛ لأن المجتمع الإسلامي العريض ظل متماسكاً، وظلت الجماعة المسلمة ملتفة حول الكتاب والسنة، وحملت تلك الجماعة ما تضمنه كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، من مبادئ وتشريعات وقيم، وانتشرت بها في أرجاء الأرض، واستطاعت بفضل الله تعالى في أقل من قرن من الزمان أن تخرج كثيراً من الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد الديان، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، وأن تقيم حضارة راقية كان لها ولا يزال الأثر الكبير في مسار البشرية وتاريخ الإنسانية جمعاء^(١)، وهذا بالطبع لا يعني عدم وجود آثار فكرية سيئة من جراء اختلاف تلك الفرق ومعتقداتها أثرت على المسلمين في دينهم وعقيدتهم، وألحقت بهم أضراراً مؤلمة، إلا أنها لم تؤثر على وحدة الأمة الإسلامية وتماسكها والقيام بواجبها المنوط بها تجاه الإسلام والمسلمين.

ومن هنا كان يبرز -وبشكل واضح- دور علماء السنة في العصر السلجوقي، وخاصة خريجو وشيوخ المدارس النظامية التي أنشأها نظام الدولة سنة (٤٥٧هـ)، الوزير السلجوقي الشهير، للوقوف والتصدي لذلك الخطر الذي أصبح يهدد الإسلام والأمة الإسلامية؛ فما كان منه إلا

(١) انظر ذلك: احمد جلي: دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين، الخوارج والشيعة ص

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطلة ٤٢٩

أن بادر إلى محاربتهم عن طريق نشر العلم والمذهب السني والثقافة الإسلامية الصحيحة عن طريق تلك المدارس التي بثها في أرجاء العالم الإسلامي^(١).

ومن أولئك العلماء الإمام الماوردي (ت: ٤٥٠هـ)، والإمام الغزالي (٥٠٥هـ)، والإمام أبو الفرج بن الجوزي (٥٩٧هـ)، وغيرهم، لاسيما عند مناقشة المسائل الخلافية والأمور الدينية والسياسية؛ حيث ألف علماء السنة العشرات من الكتب التي تعرضوا فيها لمناقشة الأمور المتعلقة بالخلافة وسياسة الحكم^(٢)؛ وذلك للرد على فرق الشيعة والمعتزلة والمرجئة

(١) سيأتي الحديث بالتفصيل - إن شاء الله - عن هذه المدارس والدور الذي قامت به في مجاهمة التيارات الهدامة من خلال هذا الفصل.

(٢) انظر ذلك: أحمد جلي: دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين، الخوارج والشيعة ص (٦٠٥).

(٢) انظر عرضًا واقفيًا لبعض كتب السياسة الإسلامية خلال التاريخ الإسلامي في كتاب: "الإمام أبو الحسن الماوردي" للدكتور محمد بن سليمان داود، والدكتور فواد عبد المنعم ص (٩٨) وما بعدها، كما ظهرت عدة كتب ورسائل وبحوث في العصر الحاضر عن الفقه السياسي الإسلامي مثل: كتابات: محمد ضياء الدين الريس، أبي زهرة، وعبد المجيد بدوي، ومحمد الزحيلي، وعبد الرحمن سالم، وغيرهم، وعن الفكر السياسي عند الغزالي والماوردي انظر: فتحى الدريني: "دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر" ص (٣٤١) وما بعدها، عبد الكريم عثمان: معالم الثقافة الإسلامية ص (٣٧٦).

والجهمية^(١) غيرها؛ حيث كانت كثيراً ما تتعرض لمناقشة تلك الأمور؛ مما أدى إلى صراع في الآراء ومناقشات قوية استمرت مدة من الزمن. وبناءً على ماتقدم فقد نهضت العلوم الإسلامية نهضة لا حدود لها في العصر السلجوقي، من فقهٍ وحديثٍ وتفسيرٍ وأصولٍ وأدبٍ ولغةٍ، وغيرها، إلا أننا يجب أن نلاحظ أن العلم في هذا العصر قد تأثر بالتغيرات والتطورات السياسية والدينية والمذهبية تأثيراً كبيراً؛ لأن الدولة السلجوقية كانت سنية المذهب، وارتفع شأن أهل السنة في عهدهم، وحملوا لواء المذهب السني، وكان خلفاء بني العباس سنيين، وفي الجانب الآخر كان هناك الشيعة الذين وقفوا موقفاً معارضاً من أهل السنة، وكانوا يرون أن الخلفاء العباسيين اغتصبوا الخلافة، وأن أصحاب الحق فيها هم أبناء علي عليه السلام من أبناء فاطمة رضي الله عنها^(٢)، لذلك كان للخلفاء العباسيين والسلطين السلاجقة جهود ومواقف عظيمة في التصدي لتلك التيارات الفكرية الهدامة والفرق الضالة - وهذا ما يهمننا في البحث.

ولاشك أن تطور المجتمع - بصفة عامة - وتطور الحركة الثقافية، وواقع الظروف الاقتصادية والاجتماعية، وظهور الكثير من الحركات

(١) الجهمية: هم أتباع الجهم بن صفوان الذي قُتل في آخر ملك بني أمية سنة (١٢٨هـ)، وقد وافقهم المعتزلة في نفي الصفات الإلهية.

انظر: الشهرستاني: الملل والنحل (١/٨٦)، البغدادي: الفرق بين الفرق ص (٢١١)، السكسكي: البرهان ص (٤٣)، الذهبي: ميزان الاعتدال (١/٤٢٦).

(٢) العسيري: الحياة العلمية في العصر السلجوقي ص (١٥١-١٥٢).

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطنية ٢٣ ٤

الهدامة والتيارات الفاسدة؛ كالباطنية -مثلاً- التي اعتمدت الجدل وأسلوب المتكلمين والفلاسفة في محاولة نشر أفكارها ومعتقداتها، ثم القتل ضد كل من يقف حجر عثرة في طريق دعوتهم، وتعاونهم الوثيق مع الصليبيين ضد المجاهدين والمخلصين من أبناء الأمة الإسلامية^(١)؛ كل ذلك أدى إلى ظهور الكثير من القضايا الفكرية التي أثرت على كثير من الناس في عقيدتهم، وأدت إلى بلبلة أفكارهم، وانتشار الفوضى، وانحطاط الأخلاق وانعدام الفضائل، ونحو ذلك^(٢).

والحقيقة أن الشيعة - بشئ فرقتها - كانوا منذ بداية ظهورهم -ورغم اختلافهم أحياناً- يجتمعون على شيء واحد؛ وهو مناصبة أهل السنة العداء، ولقد قويت شوكة الشيعة -بصفة عامة- والإسماعيلية خاصة أيام البويهيين؛ حيث حاربوا أهل السنة، وتناولوا عليهم، وجرت بين الطرفين فتن ومنازعات مستمرة^(٣)، كان الشيعة فيها على درجة من القوة

(١) تقدم ذكر ذلك في الفصل الثاني عند ما قام الباطنية بقتل الأمير مودود، والأمير آقسنقر البرسقي، وغيرهما.

(٢) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ص (١٧٣)، إبراهيم العدوي: التاريخ الإسلامي ص (٣٢٦).

(٣) انظر حول الفتن التي كانت تقع بين السنة والشيعة في العصر البويهي: ابن الأثير: الكامل (٦١٩/٨)، (٢٠٨/٩)، (٥٧٥)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٣٢/١١)، (٢٤٣، ٢٥٤، ٣٣٨)، (٦٢/١٢، ٦٤، ٦٦)، وكذلك في حوادث السنوات (٤١٣، ٤٢١، ٤٣٢، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤٤)، وقد تناولت هذه الفتن -بالتفصيل-

والمنعة، وذلك بمساعدة أمراء بني بويه الشيعيين الذين ساندوا المذهب الشيعي ودعموه، وكانوا السند الأكبر للشيعية في عاصمة الخلافة^(١)، وتسلطوا على الخلفاء، حيث خلعوا المستكفي سنة (٤٤٣هـ-^(٢))، ولم يستطع الخليفة المطيع لله^(٣) (٣٣٤-٣٦٣هـ) وكذلك الخليفة الطائع لله^(٤) (٣٦٣-٣٨١هـ) عمل أي جهود أو مواقف من شأنها التضيق على بني بويه أو العمل لنصرة السنة والوقوف ضد الشيعة.

في الفصل الثالث من الباب الأول في رسالتي للماجستير بعنوان "جهود العلماء في الحفاظ على كيان أهل السنة في العصر البويهي".

(١) للتفاصيل والتوسع حول مناصرة البويهيين للمذهب الشيعي انظر: ابن الجوزي: المنتظم، ابن الأثير: الكامل، ابن كثير: البداية والنهاية، في حوادث سنة (٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٥، ٣٦٣، ٣٨٩)، وغيرها، وبالإضافة إلى ما تقدم فقد وصل الأمر إلى أنه لم ينجح أحد من العراق من سنة (٣٧٢هـ) إلى سنة (٣٨٠هـ)، وقد تعطلت قوافل الحجيج من بغداد وخراسان، والموصل، والكوفة، وواسط وغيرها خوفاً من قطاع الطرق الذين يعترضونهم، انظر حول ذلك: المنتظم في حوادث السنوات: (٣٩٢، ٤٠٣، ٤١٦، ٤١٧، ٤٢٠، ٤٢٤، ٤٢٦).

(٢) انظر حول خلع المستكفي، وسبب ذلك: مسكويه: تجارب الأمم (٢/٨٦)، ابن العراني: الأنباء في تاريخ الخلفاء ص (١٧٦)، ابن طباطبا: الفخري ص (٢٨٧).

(٣) الأربلي: خلاصة الذهب السبوك ص (٢٥٧)، ابن دقماق: الجوهر الثمين ص (١٨٦).

(٤) ابن الأثير: الكامل (٧٩/٩)، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤٠٨-٤١٠).

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلطين في محاربة الفرق والتيارات الباطلة ٤٢٥

ورغم امتناع بني بويه عن إزالة الخلافة العباسية، وإقامة خلافة شيعية علوية مكانها^(١)، فإن البويهيين انتهجوا سياسة في العراق؛ كانت ذات أثر سيئ في هذه البلاد، وقد تميز عصرهم بكثرة الفتن والمنازعات بين السنة والشيعية وانتشار الفساد، وسوء الأوضاع الاقتصادية والأمنية، وانتشار الفوضى، وهكذا وجد الخليفة أنه قد فقد سلطاته السياسية والإدارية والمالية، ولم يبق له إلا اشارات الخلافة، والخطبة، وتعيين الخطباء والأئمة^(٢)؛ أي: أنهم جردوه من أغلب اختصاصاته، وتجردوا من كل

-
- (١) انظر تفاصيل ذلك في: ابن الأثير: الكامل (٤٥٢/٨)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢١٢/١١-٢١٣)، ألفقي: الدولة العباسية ص (٢٤٠)، ومن الذين عارضوا تلك الفكرة أبو جعفر الصيمري، وزير معز الدولة البويهي؛ حيث نصحه بقوله: "إذا بايعته -أي: أحد العلويين- استنفر عليك أهل خراسان وعوام البلدان. وأطاعه الديلم، ورفضوا أمره فيك، وبنو العباس قوم منصورون، تعتل دولتهم مرة، وتصح مراراً، وممرض تارة وتستقل أطواراً؛ لأن أصلها ثابت، وبنائها راسخ" فاستبعد معز الدولة الفكرة وعدل عن تنفيذها. انظر: تكملة تاريخ الطبري ص (٣٥٤-٣٥٥).
- (٢) انظر حول ذلك المقرئزي: الخطط (٣٥٨/٢)، الذهبي: العبر (٢١٣/٢-٢١٥)، الدوري: دراسات في العصر العباسية المتأخرة ص (٢٤٨)، الباشا: دراسات في تاريخ الدولة العباسية ص (٩٨)، آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (٢٢٠/١-٢٢١)، حامد عنيم: العلاقات العربية السياسية في عهد البويهيين ص (٩٥)، سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص (٤٩-٦٠)، الزهراني: نظام الوزارة في الدولة العباسية ص (٢٥)، وهناك دراسة للدكتور عبد العزيز

احترام أو تقدير له^(١)، وليس أدل على ذلك من قول ابن الأثير يصف ذلك الوضع: "وازداد أمر الخلافة إداراً، ولم يبق لهم من الأمر شيء البتة"^(٢).

والخلاصة: أن السلطة الحقيقية في الدولة انتقلت من يد الخلفاء العباسيين إلى أيدي أمراء بني بويه وأعوانهم.

وعلى الرغم من ضعف الخلفاء العباسيين في عهد بني بويه كان لديهم شعور وحماس بضرورة العمل لمواجهة طغيان بني بويه والحد من هيمنتهم وسيطرتهم على الأمور، ومن ثم قمع الشيعة الذين تسلطوا على أهل السنة في ذلك العصر المضطرب^(٣)، ولعل أبرزهم على الإطلاق هو الخليفة القادر بالله (٣٨١-٤٢٢هـ) الذي أدرك خطر ذلك الوضع،

الدوري، حول "الحياة الاقتصادية في العراق في العصر البويهي"، وهي أطروحته للدكتوراه.

(١) مسكويه: تجارب الأمم (٣٠٧/٢)، الصابي: رسوم دار الخلافة ص (١٣١-١٣٧)، علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام ص (٤٥٢-٤٥٣)، العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص (١٦٣)، محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين (٤٤٥/٢).

(٢) الكامل في التاريخ (٤٥٢/٨).

(٣) حامد غنيم: العلاقات العربية السياسية في عهد البويهيين ص (٩٤-٩٥)، أحمد شلي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة (٤١٦/٣)، حسن الباشا: دراسات في تاريخ الدولة العباسية ص (٩٨).

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطلة ٢٧٤

واستغل -بثاقب بصره، وبعد نظره- الظروف السياسية المحيطة، واستطاع أن يسترد شيئاً من هيبة الخلافة العباسية.

وقد وصف صاحب ذيل تجارب الأمم الخليفة القادر بقوله: "إنه سلك من طريق الزهد والورع ما تقدمت فيه خطاه؛ فكان راهب بني العباس حقاً، وزاهدهم صدقاً؛ ساس الدنيا والدين، وأغاث الإسلام والمسلمين، واستأنف -في سياسة الأمر- طرائق قويمه، ومسالك مأمونه، لم تُعرف منه زلة، ولا دُمّت له خلّة؛ فطالت أيامه، وأخباره، وأقفيست آثاره"^(١).

وكان من أفضل الخلفاء وأقواهم؛ حيث رجع -في خلافته- وقار الدولة العباسية، ونما رونقها، وأخذت أمورها في القوة، كما يذكر ذلك ابن طباطبا^(٢)، ولا غرابة في ذلك إذا ما علمنا أن الرجل -كما يصف ابن الأثير- كان حليماً كريماً يحب الخير، وأهله، ويأمر به، وينهى عن الشر، وينقص أهله، وكان حسن الاعتقاد، صنف فيه كتاباً على مذهب السنة^(٣)، وكان يتخفى ويخرج؛ ليتعرف أحوال رعيته ويقوم بشؤونها^(٤).

(١) الوزير أبو شجاع محمد بن الحسين: ذيل تجارب الأمم (٣/٢٠٧-٢٠٨).

(٢) الفخري: في الآداب السلطانية ص (٢١٩).

(٣) الكامل في التاريخ (٩/٤١٥).

(٤) نفسه (٩/٤١٦)، انظر أيضاً: آدم متز: الحضارة الإسلامية (١/٤١)، (٢/٨٠)،

سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب ص (٢٦٨).

وما يهمنا -هنا- هو تصدي الخليفة القادر بالله للشيعة والمعتزلة وأصحاب الأهواء الضالة؛ التي لقيت رواجاً كبيراً في العصر البويهى؛ حيث أوقف الدعايات الفاطمية، وضيق على المذهب الشيعي في العراق، وكتب محضراً يقدرح في نسب الفاطميين العبيدين، واشهد عليه العلماء؛ وذلك سنة (٤٠٢هـ)^(١)، وقد استتاب الخليفة القادر بالله فقهاء المعتزلة والشيعة في بداية الأمر، ونهاهم عن الكلام والمناظرة، وأخذت خطوطهم بذلك، وجعل عقوبة صارمة لمن يخالف منهم^(٢).

ولم يقتصر على ذلك؛ بل أصدر كتاباً يتضمن تكفير القائلين بخلق القرآن؛ محاولاً بذلك القضاء على المعتزلة الذين نشطوا في عصر بني بويه^(٣)، كما لم يكتف القادر بمطاردة الشيعة والمعتزلة داخل العراق فقط؛

(١) انظر حول المحضر ونصه والكلام عنه في: ابن الجوزي: المنتظم (٢٥٥/٧)، ابن الأثير: الكامل (٢٣٦/٩)، ابن كثير: البداية والنهاية (٣٤٥/١١)، ابن خلدون: العبر (٤٤٢/٣)، المقرئ: اتعاظ الحنفا (٤٣/١-٤٩)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٢٢٩/٤-٢٣١)، العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص (١٧٤)، حامد غنيم: العلاقات العربية السياسية في عهد البويهيين ص (١٣٧-١٤١)، محمد حمادة: الوثائق السياسية والإدارية للعصر العباسية المتأخرة (٣٧)، لمزيد من التفاصيل حول نسب الفاطميين انظر كتاب قضية نسب الفاطميين أمام منهج النقد التاريخي، للدكتور عبد الحلیم عويس.

(٢) ابن الأثير: الكامل (٣٠٥/٩)، الذهبي: العبر (٢١٥/٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (٦/٢).

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٢٨/١٥).

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطنية ٤٢٩

وإنما أرسل -أيضاً- إلى السلطان محمود الغزنوي^(١) يطلب منه القضاء عليهم، ويأمر بنشر السنة في خراسان؛ فامتثل الغزنوي أمره، واستن بسنته، وتصدي لهم؛ فنفي خلقاً كثيراً من المعتزلة والرافضة القرامطة، والإسماعيلية، والجهمية والمشبهة، وقتل منهم وصلب وسجن، وأمر بلعنهم على منابر المسلمين، وصار ذلك سنة في الإسلام^(٢).

ولعل أخطر ما حدث في عهد الخليفة القادر فيما يتعلق بالأوضاع المذهبية -آنذاك- تلك الحركة التي قام بها الأمير قرواش بن المقلد؛ أمير بني عقيل^(٣) سنة (٤٠١هـ)، عندما خطب في الموصل والكوفة، وغيرها

(١) انظر حول جهود الدولة الغزنوية ومحمود الغزنوي في نشر الإسلام خاصة في بلاد الهند، وبناء المساجد وتصدية للمعتزلة والرافضة والباطنية وغيرهم من أهل الأهواء والتيارات الباطنية في: ابن خلكان: وفيات الأعيان (١٧٥/٥-١٨٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٧/١٢-٣١)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (١٩/١٣٠/٤)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني (٨٧/٣-٨٩)، الزركلي: الأعلام (١٧١/٧)، سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب ص (٢٦٩).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٢٨٧/٧)، الذهبي: العبر (٢١٥/٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (٧٠٢/١٢).

(٣) قرواش بن المقلد بن المسيب بن راقع، أبو المنيع معتمد الدولة؛ وهو صاحب الموصل تملك بعد موت أبيه سنة (٣٩١هـ)، فطالت أيامه، واتسع ملكه؛ فكان له الموصل والكوفة والمدائن وغيرها، توفي سنة (٤٤٢هـ). انظر ترجمته وأخباره في: ابن الجوزي: المنتظم (١٤٧/٨)، ابن الأثير: الكامل (٥٥٣/٩)، أبو الفداء: المختصر (١٧٢-١٧٠/٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٥٠-٤٩/٥)، وبنو عقيل بن

للخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي؛ فأرسل الخليفة القادر -على الفور- أبا بكر الباقلاني^(١) إلى بهاء الدولة البويهية؛ يطلب منه أن يعمل بسرعة على

كعب بن ربيعة بن عامر صعصعة، من أعظم القبائل في البحرين؛ حيث كانت مساكنهم هناك، ثم ساروا إلى العراق، وملكوا الكوفة والبلاد الفراتية، وتغلبوا على الجزيرة والموصل، وملكوا تلك البلاد، وبقيت في أيديهم إلى أن غلب عليهم السلاجقة؛ فعادوا إلى البحرين، وصار الأمر لهم، وأصبح بنو تغلب من رعاياهم، وكذلك بنو ثعلبة وبنو عصفور انظر: ابن حزم: جمهرة أنساب العرب (٢/٢٩٠-٢٩٢)، عمر كحالة: معجم قبائل العرب (٢/١٠٨).

(١) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن الباقلاني؛ صاحب التصانيف الكثيرة، نال ثناء العلماء الأجلاء، قال عنه القاضي عياض: "هو الملقب بسيف السنة، ولسان الأمة إليه انتهت رئاسة المالكية في وقته، كان من حصون المسلمين، وما سرُّ أهل البدع بشيء كسرورهم بموته" وقال عنه ابن تيمية: "إنه أفضل المتكلمين المنتسبين إلى الأشعري، وليس فيهم مثله لا قبله ولا بعده"، وكان حسن الفقه، عظيم الجدل، يقول ابن عساكر: "ذكره أكبر من أن ينكر، وقدره أظهر من أن يستر، وتصانيفه أشهر من أن تشهر، وتأليفه أكثر من أن تذكر" وكان شديد الوطأة على المخالفين من الروافض والمعتزلة، وأهل الأهواء الضالة، وكان ابن تيمية ينقل عنه نصوصاً من كتابه "كشف الأسرار وهتك الأستار" ويؤيد ما يذكره لاسيما في كلامه عن الباطنية وكان يجالس الخلفاء والأمراء ويرسلونه في المهمات، توفي سنة (٤٠٣هـ). انظر ترجمته وأخباره ومؤلفاته في: القاضي عياض: ترتيب المدارك (٤/٥٨٥)، السمعاني: الأنساب (٢/٥١)، ابن عساكر: تبين كذب المفتري ص (٢١٧)، ابن فرحون: الديباج المذهب (٢/٢٢٨)، الخطيب: تاريخ بغداد (٥/٣٧٩)، الذهبي: تذكرة الحفاظ (٣/١١٠٤١)، مخلوف: شجرة النور الزكية ص (٩٢)، انظر: كتاب

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطلة ٣١٤

قمع هذه الحركة؛ فما كان من بهاء الدولة إلا أن أرسل على الفور جيشاً لمحاربة قرواش الذي اعتذر عن ذلك وتراجع، ثم قطع الخطبة للفاطميين العبيدين، وأعادها للخليفة العباسي^(١).

ولاشك أن مثل هذه الجهود العظيمة والمواقف القوية التي قام بها الخليفة القادر تجاه أولئك المعتزلة وغيرهم، من شأنها أن توثق العلاقة وتقويها بين الخليفة والعلماء الذين يؤيدون مثل تلك الجهود ويبايعون تلك الأعمال العظيمة التي تؤدي - في النهاية - إلى المحافظة على كيان أهل السنة، والمحافظة على قيم المجتمع الإسلامي من أن تعصف به التيارات الهدامة والأفكار الضالة والفتن المذهبية.

وما جعلني أتوسع قليلاً في الحديث عن الفرق وأسباب نشأتها والعوامل المؤثرة في ذلك، إضافة إلى الحديث عن البويهيين ومواقفهم ضد السنة، ودعمهم للشيعة في عصرهم، ومواقف وجهود الخليفة القادر بالله تجاه ذلك؛ هو محاولة ربط الموضوع وصلته المباشرة بالعصر السلجوقي،

التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والخوارج والمعتزلة، بتحقيق محمود الخضيرى، ومحمد أبو ريده - المقدمة ص (١٥-٢٠)، وهو للباقلاني، وكذلك كتاب "إعجاز القرآن" بتحقيق الشيخ عماد حيدر ص (١١)، ابن تيمية: منهاج السنة (٤٧٩/٨) - (٤٨٦)، بتحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، أنور الجندى: أعلام الإسلام ص (٤٧).
(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٤٨/٧)، ابن الأثير: الكامل (٢٢٣/٩)، ابن خلدون: العبر (٤٤٢/٣).

وإعطاء القارئ تصوراً عاماً عن العصر والأحداث المهمة المتعلقة بالفرق والتيارات المذهبية؛ لأننا نلاحظ أن جهود القادر مهدت الطريق أمام الخليفة القائم بأمر الله الذي عاصر العهدين البويهى والسلجوقي بأن يقوم بمتابعة تلك الجهود العظيمة والعمل على نصرة أهل السنة ضد الشيعة، وغيرهم، لاسيما بعد دعوته للسلاجقة في دخول بغداد؛ حيث وضعت تلك الدعوة النهاية للنفوذ الشيعي الذي فرض نفسه على مركز الخلافة السنية ما يقرب من أربعة عشر عاماً ومائة، ولا ننسى أن السنوات الست التي سبقت دخول السلاجقة بغداد قد حفلت بالفتن المستمرة بين السنة والشيعة، والمتتبع لتطورات الأحداث في تلك السنوات يلحظ أن الرأي العام السني أخذت مقاومته للشيعة تزداد قوة وعنفاً؛ حيث حاولوا منعهم من ممارسة شعائرهم منتهزاً فرصة ضعف النفوذ البويهى الذي كان يمثل القوة والسند الأكبر للشيعة في بغداد^(١).

(١) تذكر المصادر حول مقاومة السنة للشيعة في أواخر العصر البويهى أن أهل الكرخ منعوا من النياحة وفعل ما جرت به عادتهم بفعله يوم عاشوراء؛ فلم يقبلوا، فجرى بين أهل السنة والشيعة فتنة عظيمة قُتل فيها وجرح كثير من الناس، ولم تتوقف إلا في العام التالي عندما عُين أبو محمد النسوي والياً لشرطة بغداد، وطلب من الخليفة العمل على إصلاح الحال، وكف الشر بين الفريقين.

انظر: ابن الجوزي: المنتظم (١٤٠/٨)، ابن الأثير: الكامل (٥٦١/٩)، ابن كثير: البداية والنهاية (٥٩/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٤٧/٥).

ولما ابتدأ العصر السلجوقي سنة (٤٤٧هـ)، كان العراق يُعجُّ بالفرق الإسلامية المختلفة، والمذاهب المتعددة، والتيارات الفكرية المختلفة، ولكن الوضع تغير تماماً بعد دخول السلاجقة بغداد؛ أعني: وضع الخلافة والرأي العام تجاه الشيعة وغيرهم من الباطنية وأتباعهم الذين كان لهم نشاط بارز ومؤثر في العصر السلجوقي؛ فقد تغيرت سياسة القائم بأمر الله المعتدلة نوعاً ما مع الشيعة خلال مُدَّة حكم البويهيين الأخيرة -رغم ضعفهم وتفككهم- فقد أخذ يمارس سياسة الضغط على الشيعة بصورة قوية؛ فقد أمر سنة (٤٤٨هـ) الشيعة بأن يؤذنوا في الكرخ^(١) والمشهد، وغيرهما بالصلاة خير من النوم، وأن يتركوا حي على خير العمل ففعلوا ما أمرهم به خوف السلطة وقوتها^(٢)، كما أمر رئيس الرؤساء ابن

(١) يذكر ابن تغري بردي عن أهل الكرخ أنهم "طائفة نشأت على سب الصحابة وليس للخلافة عليها أمر" ثم يُعلل ذلك بقوله: "وعدم أمر الخليفة عليهم لميل بني بويه إليهم في الباطن، فإنهم أيضاً من كبار الشيعة. انظر: النجوم الزاهرة (٤٧/٥)، وتركز الشيعة في الكرخ دفعت البعض إلى القول بأن أهل الكرخ كلهم شيعة إمامية لا تجد فيهم شيئاً البتة، لذلك كانت العلاقة بينهم وبين أهل السنة تتسم بالعداوة والبغضاء والكراهية المتبادلة. انظر: ياقوت: معجم البلدان (٤/٤٤٨)، آثار البلاد ص (٤٤٤)، حامد غنيم: العلاقات العربية السياسية في عهد البويهيين ص (٩٤).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٩/٦٣٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٩/٥٩).

المسلمة^(١) بنصب الأعلام السود شعار العباسيين في الكرخ، وخلع جميع ما كان على أبواب الدور والدروب من محمد وعلي خير البشر، ودخل إلى الكرخ منشدو أهل السنة؛ فانشدوا الأشعار في مدح الصحابة رضي الله عنهم وأمر رئيس الرؤساء ابن النسوي (والي الشرطة) بقتل أبي عبد الله بن جلاب (شيخ البزازين)^(٢) لما كان يتظاهر به من الغلو في الرفض؛ فقتل وصلب على باب دكانه، وهرب أبو جعفر الطوسي

(١) هو وزير الخليفة القائم بأمر الله؛ رئيس الرؤساء، أبو القاسم علي بن الشيخ أبي الفرج بن المسلمة، كان من خيار الوزراء العادلين، حدث عنه الخطيب، وكان خصيصاً به، ووثقه، وقال: اجتمع فيه من الآلات ما لم تجتمع في أحد قبله، مع سداد مذهبه، ووفور عقل، وأصالة رأي، قتله البساسيري سنة (٤٥٠هـ). انظر ترجمته في: الخطيب: تاريخ بغداد (٣٩١/١١-٣٩٢)، ابن الجوزي: المنتظم (١٩٦/٨-٢٠١)، ابن الأثير: الكامل (٦٤٠/٩-٦٤٤)، أبو الفداء: المختصر (١٧٧/٢-١٧٨)، ابن خلدون: العبر (٤٥٧/٣-٤٥٩).

(٢) البزاز: هو بائع البزّ، والبزّ: نوع من الثياب والسلاح، والبزازة: حرفة البزاز. (ابن منظور: لسان العرب (٣١١/٥-٣١٢)، الفيروز آبادي: القاموس المحيط (١٧٢/٢)، الزمخشري: أساس البلاغة (٣٨)، إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط (٥٤/١).

(فقيه الإمامية)^(١) ونُهِت داره^(٢).

ولاشك أن هذه الأعمال والمواقف ضد الشيعة تُدلل -بوضوح- على أن الخلافة العباسية بدأت تمارس القوة بعد دخول السلاجقة بغداد بقيادة السلطان طغرل بك، وقضائه على البويهيين^(٣)؛ فأخذت تحول بين الشيعة وممارستهم لشعائهم التي كانوا يعملونها علناً أمام الناس في ظل البويهيين الشيعة، كما يلاحظ أيضاً أن الشيعة أنفسهم -وبعد شعورهم بالضغط الشديد من قبل الخلافة- أخذوا يستجيبون لتلك الضغوط؛ خوفاً من السلطة السلجوقية الجديدة التي توالي السنة وتدعمها، وترفع قدرها، وعليه؛ فإن الفرق واضح والبون شاسع بين موقف الخلافة من الشيعة في عهد بني بويه، وموقفها منهم في عهد السلاجقة، اللهم إلا ما كان من مواقف الخلفية القادر بالله -التي أشرنا إليها سابقاً- حيث لم يكن للخلفاء قدرة على منع الشيعة أو مجابتهم؛ وذلك لأنه كان محكوماً عليهم لا يقدر على شيء، ومن ثم لم يكن للسنة قدرة على مقاومة الشيعة أو

(١) هو شيخ الشيعة: وصاحب التصانيف، أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي، أعرض عنه الحفاظ لبدعته، وقد أحرقت كتبه عدة مرات، توفي سنة (٤٦٠هـ). انظر ترجمته في: ابن الجوزي: المنتظم (٢٥٢/٨)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣٣٤/١٨)، ابن حجر: لسان الميزان (١٣٥/٥).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (١٧٢-١٧٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (٦٨-٦٩).

(٣) الراوندي: راحة الصدور ص (١٦٩)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (٥٩-٦٠).

منعهم من ممارسة شعائرهم؛ وذلك لكثرتهم وقوة نفوذهم، ولأن السلطان البويهبي معهم^(١).

أما في العصر السلجوقي فقد كان السلاجقة يدينون بالذهب السني، ويحبون أهل السنة، كما يذكر ابن كثير وغيره، ويوالونهم، ويرفعون قدرهم^(٢)، لذلك كان للسنة في ظل السلطان السلجوقي قوة ومنعة؛ فأصبحوا يمارسون الضغط على الشيعة -بفضل الله ثم بدعم وتأييد من السلاجقة- فكان من الطبيعي أن يُغير الخليفة القائم بأمر الله -كما ذكرت- سياسته المعتدلة تجاه الشيعة، ويتجه إلى عامة السنة في موقفهم المتصلب والمتشدد من الشيعة.

ومما يوضح قوة أهل السنة، وازدياد نفوذهم في عهد السلاجقة ما حدث سنة (٤٦٠هـ) حيث تجمع بعض الفقهاء وأعيان أصحاب الحديث في ديوان الخلافة، وطلبوا إخراج الاعتقاد القادري^(٣)، وقراءته؛

(١) ابن الأثير: الكامل (٥٤٩/٨).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (٦٩/١٢)، سهيل زكار: تاريخ العرب الإسلام ص (٣٣٠).

(٣) هو الاعتقاد الذي وضعه الخليفة القادر بالله يوضح فيه معالم مذهب أهل السنة والجماعة، وقد قرأه على العلماء والفقهاء، وأخذ خطوطهم بالموافقة عليه؛ حتى يصبغ بالصفة الرسمية؛ فتلقاه الناس بالقبول والتأييد، ولاشك أن الخليفة القادر بالله يريد -من خلال هذا الاعتقاد- تثبيت العقيدة الإسلامية الصحيحة في نفوس الناس، والتحذير من الفتن والتيارات الهدامة المحيطة بهم آنذاك.

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطلة ٤٣٧

فأجيبوا إلى ذلك، وقرئ على المجتمعين، مما ورد في هذا الاعتقاد، لعن الرافضة من الشيعة، وتكفيرهم، وتكفير من لا يكفرهم، ثم قام ابن فورك^(١) فلعن المبتدعة، وقال: "لا اعتقاد لنا إلا ما اشتمل عليه هذا الاعتقاد" فشكره الحضور على ذلك^(٢).

وكان السبب لهذا الاجتماع المبارك هو أن أبا علي محمد بن أحمد ابن الوليد المعتزلي (ت: ٤٧٨هـ). عزم على تدريس مذهب المعتزلة بتحريض من أهل مذهبه؛ ففزع هؤلاء العلماء إلى ديوان الخلافة، وطالبوا بإخراج الاعتقاد القادري الذي قرئ عليهم، ثم قرئ - بعد ذلك - على الناس في بغداد في أماكن متفرقة^(٣).

ولاشك أن مثل هذا الاجتماع وما دار فيه، ومدلولاته البعيدة، تؤكد - بوضوح - على أن أهل السنة كانوا يقفون بالمرصاد لأي حركة أو نشاط من جانب الشيعة أو المعتزلة يمكن أن يؤثر في الرأي العام الإسلامي؛ لأن الوضع - كما أسلفت - يختلف في العصر السلجوقي عنه

انظر نص هذا الاعتقاد كاملاً في: المنتظم (١٠٩/٨-١١١).

(١) هو أحمد بن محمد بن الحسن الفوركي (ت: ٤٧٨هـ) وهو سبط أبي بكر بن فورك (ت: ٤٠٦هـ)، كان متكلمًا مناظرًا واعظًا، يعظ الناس في النظامية. (ابن الجوزي: المنتظم (١٧/٩)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢٧/١٢)).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٢٤٨/٨-٢٤٩)، ابن كثير: البداية والنهاية (٩٦/١٢).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (٢٤٩/٨)، وعن ترجمة أبي علي بن الوليد المعتزلي، انظر: ابن

الجوزي: المنتظم (٢٠/٩-٢١)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢٩/١٢).

في العصر البويهي الشيعي، والذي كان للمعتزلة والشيعية نشاط ودور بارز آنذاك لدعم آل بويه لهم، ثم إن أبا علي المعتزلي -السالف الذكر- سبق لبعض رجال الحديث أن هاجموا واعتدوا عليه بالضرب والشتم وذلك سنة (٤٥٦هـ)، وحالوا بينه وبين التدريس^(١)؛ كي لا يؤثر في الناس من خلال دروسه وحلقاته التي كان يقوم بها؛ مما يُبرهن على قوة أهل السنة، وزيادة نفوذهم، واستسلام الشيعة أو معظمهم لهذا النفوذ السني الذي لم يألفوه من قبل، ثم إن قبضة السلاجقة بشدة على السلطة في العراق لاسيما في عهد السلطان ألب أرسلان، والسلطان ملكشاه، ونصرتهم للسنة، ووجود المدارس النظامية التي افتتحت سنة (٤٥٩هـ) وكان من أهم أهدافها العمل على نشر الفكر السني من جهة، ومقاومة الفكر الشيعي من جهة أخرى؛ كل ذلك كان من أهم أسباب زيادة وقوة النفوذ السني في العصر السلجوقي^(٢).

وقد اهتم الخليفة القائم بأمر الله بالجانب الديني كثيراً؛ لاسيما بعد دخول السلاجقة، وناصر أهل السنة ودعمهم في محاولة منه لحماية المسلمين من خطر التيارات الهدامة التي نشطت ردحاً من الزمن في العصر

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٣٥/٨-٢٣٦)، ابن كثير: البداية والنهاية (٩١/١٢).

(٢) عبد المجيد بدوي: التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص (١٩٠)، وسيأتي الحديث عن المدارس النظامية ودورها في مجابهة التيارات الهدامة عند الحديث عن جهود السلاجقة ضد الباطنية من خلال هذا الفصل -بمشيئة الله تعالى.

البويهبي^(١)؛ حيث نجده يتصدى للمذهب الشيعي، ويقوم بجهود جبارة في هذا المجال - سبق أن أوضحت أهمها - إضافة إلى ما تقدم نجده كذلك يصدر أمره في سنة (٤٥١هـ) بعزل أبي الحسين بن المهدي من الخطابة بجامع المنصور؛ لأنه خطب للفاطميين في بغداد خلال فتنة البساسيري، وأقيم مكانه بماء الشرف، أبو علي، الحسن بن عبد الودود بن المهدي، وذلك سنة (٤٥١هـ)^(٢).

ومن مواقفه القوية ما حدث سنة (٤٥٨هـ) عندما أغلق أهل الكرخ دكاكينهم يوم عاشوراء، وأحضرُوا نساءً ينحن على الحسين بن علي ﷺ، كما جرت العادة المتبعة عندهم، فحين وقع ذلك أنكره الناس، عندها طلب الخليفة القائم بأمر الله أبا الغنائم الطاهر بن عبيد الله -نقيب الطالبين^(٣)- وأنكر عليه فعله ذلك؛ فذكر له أنه لم يعلم به إلا بعد فعله، وأنه لما علم أنكره وأزاله، فقليل له: لا تفسح بعدها في شيء من البدع

(١) الفارقي: تاريخ الفارقي ص (٨٦)، ويوضح أن أهل السنة ارتفع شأنهم في عهد السلاجقة، واستعاد الخليفة العباسي مكانته الطبيعية نسبياً في أعقاب التدهور المزري الذي أصاب مكانته في العصر البويهبي. (نفس المصدر والصفحة).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٢١١/٨)، ابن الأثير: الكامل (٩/٩).

(٣) انظر حول الطالبين، والعلاقة بين العلويين والعباسيين: عبد الله المسند: العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت ص (١٢-١٣-٧١).

التي كانت تستعمل، وتردد أهل الكرخ إلى ديوان الخلافة يعتذرون من ذلك، وخرج التوقيع بكفر من سب الصحابة وأظهر البدع^(١). وفي هذا دلالة واضحة على قوة نفوذ أهل السنة، وسيطرة الخلافة على الأمور، ودعمها لأهل السنة ونصرتهم؛ مما يؤدي -في النهاية- إلى الحفاظ على كيان أهل السنة ورفع شأنهم، وخفت صوت الشيعة، وقمعهم، والحد من نفوذهم ونشاطهم.

وتلك المواقف والجهود العظيمة التي قام بها الخليفة القائم بأمر الله ضد الشيعة وأصحاب الأهواء الضالة، والتيارات الهدامة، تدل -بوضوح- على عمق العلاقة والرابطة التي تربط الخلفاء بالسلطين السلاجقة، وتوضح الأهداف المرسومة والمشاركة بينهما في هذا المجال؛ وهي مناصرة أهل السنة ودعمهم وتأييدهم، والوقوف -بقوة- أمام نفوذ الشيعة والمعتزلة وغيرهم، ولا غرابة في ذلك إذا علمنا أن السلاجقة يدينون بالمذهب السني، ولديهم الاستعداد الكامل لمحاربة المخالفين لمذهب أهل السنة؛ وهذا ما جعل لهم مكانة مرموقة في نفوس المسلمين، ودفع كذلك الخلفاء العباسيين السنيين لتقوية الصلة بهم، لاسيما أنهم كانوا يحترمون الخلفاء؛ ويرفعون قدرهم؛ خلافاً لما كان عليه وضع الخلافة في العصر البويهي.

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٣٩/٨-٢٤٠)، ابن طباطبا: الفخري ص (٢٩٣)، ابن

كثير: البداية والنهاية (٩٣/١٢).

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلطين في محاربة الفرق والتيارات الباطلة ٤٤

واستكمالاً لجهود الخلفاء العباسيين ومواقفهم ضد الفرق الضالة، والتيارات الباطلة، نجد أن الخليفة المقتدي بأمر الله (٤٦٧-٤٨٧هـ) الذي بويع بعد وفاة الخليفة القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ)، وكان من أشد الخلفاء العباسيين حرصاً واهتماماً بالجانب الديني؛ حيث قام بحملات واسعة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وملاحقة المجرمين والعابثين وتأديبهم، وأمر بنفي المغنيات والمفسدات من بغداد، وبيع دورهن، ومنع الناس من دخول الحمام إلا بمئزر، وأمر الملاحين ألا يحملوا الرجال والنساء - في سفنهم - مجتمعين؛ بل لابد من التفريق بينهم، كما أمر بهدم دور اليهود، وسد أبوابهم التي كانت تقابل أبواب الجوامع، وأخذ عليهم كذلك خفض الصوت عند قراءة التوراة، كذلك قام بتحطيم الملاهية وإراقة الخمور سنة (٤٧٨هـ) و(٤٧٩هـ)، كما أن تلك الأعمال الجيدة لم تغفله عن التقرب إلى الرعية والاهتمام بشؤونهم؛ فقد أمر سنة (٤٨٠هـ) برفع المكوس والضرائب، وكتبت الألواح بذلك، وعُلقت على أبواب الجوامع^(١).

(١) انظر تلك الأعمال والجهود التي قام بها الخليفة المقتدي وتفصيلها في: ابن الجوزي: المنتظم (٣٠٧/٨)، ابن الأثير: الكامل (١٥٩/١٠، ٢٣١)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٤٦/١٢)، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤٢٣)، وقد سبق ذكر تفاصيل هذه الأعمال وغيرها عند تقويمنا لشخصيات الخلفاء في العصر السلجوقي؛ وذلك في الفصل الأول من الباب الأول تحت عنوان "تقويم عام لخلفاء العصر السلجوقي".

هذه الأعمال الموجزة التي قام بها الخليفة المقتدي صرفت معظم الشيعة في بغداد إلى الهدوء والسكون والاستسلام؛ وهذا سبب ذكرنا لها هنا؛ لأنه عندما يفعل تلك الأعمال مع أولئك ويقوم بتلك الجهود الدينية العظيمة، فمن باب أولى أن يتصدى -بقوة- للفرق الضالة من شيعة وغيرها؛ عندما يقومون بأعمال تنافي الشرع، أو يتحرشون بالسنة كسابق عهدهم، ومن أهم الدلائل على ذلك ما حدث سنة (٤٧٩هـ)، عندما شكوا أحد الفقهاء إلى الخليفة المقتدي من أن الشيعة لا يذكرون أسماء الصحابة -رضي الله عنهم- مع أن السنة ظاهرة، ويد أمير المؤمنين قاهرة؛ فخرج على الفور كتاب من دار الخليفة يُؤنب الشيعة؛ لإغفالهم ذكر صاحبي رسول الله ﷺ على الجنائز^(١)، أنهم تورطوا في هذه الجهالة، واستمروا على هذه الضلالة التي استوجبوا بها النكال، واستحقوا بها عظيم الخزي والوبال، وألقى الخليفة باللائمة على نقيب الطالبين، وأمر الشيعة بضرورة ذكر الصحابة، وحثهم على حضور الجمع والجماعات، وأن يؤذنوا بالصلاة خير من النوم، وأن يكتبوا أسماء الصحابة على مساجدهم ومحاريبهم؛ أسوة بمسجد السنة، ولم يكتف الخليفة بفرض هذه الأمور

وقد ذكرتها هنا لمناسبتها في هذا الفصل لاسيما عند الحديث عن جهود ومواقف الخلفاء العباسيين ضد الفرق الضالة والأفكار الهدامة لارتباط تلك الأعمال وصلتها بالجهود والمواقف المبذولة في هذا الشأن.

(١) لا أعلم دليلاً على هذا العمل، وإن كان فيه إغاضة ونكاية للرافضة.

وتنفيذها على الشيعة في بغداد فقط؛ بل أرسل إلى منصور بن دبيس المزيدي -صاحب الحلة- يأمره بالسير على هذا النهج في بلاده، وهدد الخليفة المخالفين لتلك الأوامر بأشد العقوبات، ومضمناً تهديده قوله تعالى: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾^(١).

وفي هذا دلالة واضحة على نفوذ أهل السنة في العصر السلجوقي، لاسيما في عهد المقتدي الذي كان متابعاً لتطورات الأحداث، حريصاً على دعم السنة، وقمع الشيعة في أي مكان، كما أن موقف الخلافة العباسية من بني مزيد يعطي أبعاداً كبيرة ودلالات واضحة على تطور موقفها وتغيره تجاه الشيعة منذ بداية عهد السلاجقة ودخولهم بغداد؛ لأن آل مزيد -هم شيعة إمامية- كانوا يعدُّون أنفسهم في عهد البويهيين سنداً وقوة للإمامية في بغداد^(٢)، ويلقون كل دعم وتشجيع من آل بويه؛ لتوافق

(١) سورة النور آية (٦٣)، ابن الجوزي: المنتظم (٢٨/٩-٢٩).

(٢) من الدلائل على ما نقول: ما حدث سنة (٤٤٣هـ) عندما وقعت فتنة بين السنة والشيعة، وأحرق عامة السنة ضريح موسى الكاظم، وغيره، عظم الأمر على دبيس ابن مزيد؛ فقطع خطبة الخليفة القائم بأمر الله من أعماله كلها، فرُوسل في ذلك وغُوتب؛ فاعتذر بأن أهل ولايته من الشيعة، وأنهم اتفقوا على ذلك، ولم يمكنه أن يشق عليهم أو يخالفهم، كما احتج بأن الخليفة القائم لم يمكنه كف السفهاء الذين فعلوا بالمشهد ما فعلوا. انظر تفاصيل هذه الحادثة في: ابن الأثير: الكامل (٥٧٧/٩-٥٧٨).

الجميع في المذهب الشيعي الذي يعتنقونه؛ وهذا ما دفع الخليفة المقتدي إلى التعامل معهم بالصورة المذكورة آنفاً وتوجيه الكتاب إليهم بما سلف ذكره؛ كي يخفت صوت الشيعة، ويضعف نشاطهم أمام زيادة نفوذ أهل السنة الذي تحقق في عصر السلاجقة.

وعلى الرغم من تلك الأوامر التي تضمنها كتاب الخليفة المقتدي وشدتها تجاه الشيعة لم تمنع من وقوع الفتنة بين السنة والشيعة؛ بوصفها ردة فعل من الجانب الشيعي؛ وهذا ما حدث بينهما - وفي نفس الشهر الذي خرج فيه ذلك الكتاب - حيث وقعت فتنة بينهما، وتفاقم الأمر، واشتد الخطب بينهما حتى وصل الحال إلى النهب والحرق، وما نُهب من دور الشيعة بيع للناس، وكان يُنادى عليه في بغداد "هذا مال الروافض، وشراؤه وتملكه حلال"^(١).

ولم تتوقف الفتن - أيضاً - في عهد المقتدي بين السنة والشيعة، رغم نفوذ أهل السنة القوي في تلك المدّة، وكثرة تحرشهم بالشيعة؛ ففي شهر صفر من سنة (٤٨٢هـ) هاجم باب البصرة (وهم سنة) أهل الكرخ، فقتلوا رجلاً وجرحوا آخر، وأغلّت أسواق الكرخ، واشتعلت الفتن بينهما، وما زالت تزيد وتنقص؛ حتى اشتد أوارها في شهر جمادى الأولى من تلك السنة، وقويت نارها، وقتل من الفريقين عدد كبير، وعجزت السلطة عن إخماد الفتنة بينهما، أو كبح جماح الفريقين؛ الأمر الذي اضطر

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٩/٩).

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطنية ٤

معها حاجب الخليفة، وخدمه، والقضاة، وأعيان الحنابلة؛ كابن عقيل^(١)، وغيره، أن يسيروا مع شحنة بغداد إلى الكرخ، ويقرؤوا على أهله منشورًا من ديوان الخلافة، جاء فيه ما نصه: "قد حكى عنكم أمور، فيجب أن تأخذ علماءكم على أيدي سفهائكم، وأن تدينوا بمذهب أهل السنة"، فاذعنوا بالطاعة، وكتبوا على مساجدهم: خير الناس بعد رسول الله أبو بكر، ثم عمر ثم عثمان ثم علي، مما أثار حفيظة بعض المتشددين من الشيعة، فاستمروا في الفتنة، وتعرضت بعض دور أهل السنة للنهب، فتوجه كثير من أهل السنة إلى دار الخلافة ثائرين، ظنًا منهم أن تلك تساهلًا من جانب الخلافة تجاه الشيعة، وهجموا على الوزير أبي شجاع^(٢) في

(١) هو الإمام العلامة شيخ الحنابلة، أبو الوفاء، علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي، المقرئ الفقيه، الأصولي، صاحب التصانيف الكثيرة أحد الأعلام، له في كل فن شيخ أو أكثر، قال ابن الأثير: كان قد اشتغل بمذهب المعتزلة في حدائته على أبي علي بن الوليد؛ فأراد الحنابلة قتله؛ فاستجار بباب المراتب عدة سنين، ثم أظهر التوبة حتى تمكن من الظهور، توفي سنة (٥١٣هـ). انظر ترجمته في: ذيل تاريخ بغداد ص (٣٤١)، ميزان الاعتدال (١٤٦/٣)، لسان الميزان (٢٤٣/٤)، المنهج الأحمد (٢٥٢/٢)، البداية والنهاية (١٨٤/١٢)، النجوم الزاهرة (٢١٩/٥).

(٢) هو محمد بن الحسين بن محمد، ظهير الدين الروذراوري، من أهل رودزاور (كورة قرب هاوند من أعمال الجبال)، تولى الوزارة للمرة الأولى سنة (٤٧١هـ)، خلفًا للوزير فخر الدولة بن جهير، ثم عزل، فأعيد سنة (٤٧٦هـ)، وكان رجلًا دينيًا خيرًا، كثير البر والصدقات، نجح في ضبط أمور الدولة، وحفظ للخلافة هيبتها

حجرته، وأكثروا من الكلام الشنيع، واستمر النهب والقتل والفساد بين الفريقين، حتى عجزت السلطة في بغداد عن إخماد الفتنة وإطفاء نارها؛ فأرسل الخليفة إلى سيف الدولة صدقة بن مزيد، وطلب منه أن يرسل بعض عسكره إلى بغداد؛ فأعادوا الهدوء إلى المدينة، وسكنت الفتنة، وأمن الناس^(١).

وهكذا أحدثت أوامر الخليفة المتقدمة ردة فعل قوية عند الشيعة؛ كان من أهمها تلك الفتنة المذكورة وما آلت إليه من قتل ونهب وجرح، ولكن نفوذ السنة القوي لم يتأثر بذلك؛ بل زاد تحرش السنة بالشيعة عن ذي قبل؛ فقد خرجوا في شعبان سنة (٥٠١هـ) لزيارة قبر مصعب بن الزبير، وكانوا قد تركوا ذلك منذ مدة طويلة منعاً للفتنة، وأبوا إلا أن يكون طريقهم على الكرخ تحدياً لمشاعر الشيعة، وإثارة لهم، وتحرشاً بهم،

واحترامها، وكان شديداً في تطبيق أحكام الشرع، وظل في الوزارة حتى سنة (٤٨٤هـ)، ثم عزل، فانصرف وهو ينشد:

تولاهـا وليس له عدو وفارقها وليس له صديق
أقام آخر حياته في المدينة إلى أن توفي سنة (٤٨٨هـ). انظر ترجمته وأخباره في: ابن الجوزي: المنتظم (٩٠/٩)، البنداري: آل سلجوق ص (٧١-٧٣)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (١٣٥/٥-١٣٦)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٥٠/١٢-١٥١)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (١٣٦/٤).

(١) انظر تفاصيل تلك الفتنة في: ابن الجوزي: المنتظم (٤٧/٩-٤٨)، ابن الأثير: الكامل (١٧٦/١٠-١٧٧).

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلطين في محاربة الفرق والتيارات الباطنية ٤٧

ولكن الشيعة كانوا يدركون عاقبة ذلك؛ لاسيما إذا ما وقعت بينهما مشاجرة أو قتال كالعادة، وكانوا -في الوقت نفسه- حريصين على عدم إشعال نار الفتنة؛ لأنها لن تكون الغلبة لهم في ظل النفوذ السني الجديد، فما كان منهم، إلا استقبلوا السنة بالبحور والترحيب والزينات، والمساء المبرد، وأظهروا السرور لمجيئهم، وشيّعوهم حتى خرجوا، وهذا المسلك من جانب الشيعة أدى إلى هدوء الوضع وإطفاء نار الفتنة؛ حيث خرج الشيعة ليلة النصف من شعبان لزيارة مشهد موسى الكاظم؛ فلم يعترض أحد من أهل السنة؛ فعجب الناس من ذلك^(١)؛ لأنهم لم يألفوه سابقاً، ولن يستمر طويلاً مثل هذا الهدوء، كما سيأتي.

ومن الملاحظ أن جاهلية السنة بدؤوا بزيارة قبر مصعب بن الزبير في الثامن عشر من المحرم سنة (٣٨٩هـ). ليقابل ذلك احتفال الشيعة باستشهاد الحسين في العاشر من المحرم، واستمروا على ذلك مدة طويلة^(٢) ولكنهم -من خلال الحادثة المتقدمة- نلاحظ أن السنة خرجوا هذه المرة في شعبان لزيارة قبر مصعب؛ علماً أن مقتله في النصف من جمادى

(١) ابن الأثير: الكامل (١٠/٤٦٩).

(٢) الذهبي: العبر (٢/١٧٦)، ويعقب الذهبي بقوله: "وجعلوا بإزاء عاشوراء وبعده بثمانية أيام يوم مصرع مصعب بن الزبير، وزاروا قبره -يومئذ- بمسكن وبكوا عليه ونظروه بالحسن لكونه صبر وقاتل حتى قتل، ولأن أباه ابن عمه النبي ﷺ وحواريه وفارس الإسلام، كما أن أبا الحسين ابن عم النبي ﷺ وفارس الإسلام، فنعود بالله من الهوى والفتن، ودامت السنة على هذا الشعار القبيح مدة عشر سنين".

الأولى^(١)، وهذا ما يؤكد ما ذكرناه؛ وهو تحرش السنة بالشيعة وتحديدهم، وإثارة مشاعرهم بأي وسيلة من الوسائل المتاحة لهم، والشيعة أنفسهم كانوا يدركون ذلك تمام الإدراك.

والغالب أن الخلافات المذهبية بين الطائفتين كانت هي السبب الجوهري لكثير من الفتن التي كانت تقع بين السنة والشيعة، ولكن هذه الخلافات المذهبية قد استُغلت - أحياناً - لتحقيق أغراض سياسية عن طريقها، كما حدث في سنة (٥٠١ هـ) أيضاً، عندما اصطدم السلطان محمد السلجوقي بالأمير سيف الدولة، صدقة بن يزيد الأسدي؛ بسبب امتناعه عن تسليم سرخاب بن كيخسرو الديلمي (صاحب ساوة)^(٢) الذي خرج على السلطان ثم استجار بصدقة، فأجاره، وهنا تدخل عميد العراق أبو جعفر محمد بن الحسين البلخي، الذي أخذ يجمع فتاوى الفقهاء فيما يجب عمله تجاه من يسب الصحابة، وكتب محاضر بما يدور في بلاد ابن يزيد من ترك الصلوات، وعدم إقامة الجمع والجماعات، وأنهم يتظاهرون بالمحرمات؛ فصدرت فتاوى الفقهاء وإجاباتهم بأنه لا يجوز الإغضاء عنهم، وأن من قاتلهم فله أجر عظيم، ثم أن عميد العراق حمل

(١) الذهبي: السير (٤/١٤٣).

(٢) ساوة: مدينة بين الري وهمدان، وبالقرب منها مدينة يقال لها آره أهلها شيعة إمامية، أما ساوة فأهلها سنية شافعية، وكان كثيراً ما يقع بينهما منازعات وفتن. ياقوت: معجم البلدان (٣/١٧٩)، ويقول ابن الأثير: إن سرخاب الديلمي: المذكور أعلاه - كان صاحب ساوة وآوة. (الكامل (١٠/٤٤١)).

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطلة ٤٤٤

المحاضر إلى السلطان محمد، وكذلك فتاوي الفقهاء بما يجب عمله تجاه ابن مزيد^(١)؛ فخرج السلطان لقتاله، والتقى الطرفان، فهزم صدقة، وقتل في المعركة؛ رغم بسالته وشجاعته^(٢).

وقد اغتم الشيعة وأصابهم الهم لمقتله؛ مما أدى إلى زيادة تحرش السنة بهم، والتشيع عليهم، ولكن الشيعة كانوا يعضون عن ذلك كله، خوفاً من الخليفة والسلطان، ومن قوة أهل السنة ونفوذهم الذي عظم كثيراً في العصر السلجوقي.

وقد سار الخليفة المستظهر بالله (٤٨٧-٥١٢هـ) على سياسة والده المقتدي في الاهتمام المستمر بالنفوذ الديني، وملاحقة المجرمين والعابثين^(٣)، ومناصرة أهل السنة، ووقوفه مع العلماء فيما يتعرضون له

(١) يقول ابن الأثير عن عميد العراق أبي جعفر البلخي إنه طعن في اعتقاد صدقة بن مزيد، ونسبه وأهل بلده إلى مذهب الباطنية -ركذب- إنما كان مذهبه التشيع لا غير. انظر الكامل (١٠/٤٤٠).

(٢) انظر تفاصيل القتال وما دار فيه: ابن الجوزي: المنتظم (٩/١٥٦-٢٣٦-٢٣٧)، ابن الأثير: الكامل (١٠/٤٤٠-٤٤٨).

(٣) عند ما زاد العيارون في بغداد سنة (٤٩٣هـ) نجد أن الخليفة المستظهر يأمر كمال الدولة يُمن بالتصدي لهم وملاحقتهم؛ حيث قبض على جماعة من أعيانهم، وقتلهم، وطلب الباقيين فهربوا؛ وهذا يدل على حرص الخليفة على ملاحقة المجرمين والعبثين وإنقاذ الناس من شرهم وفسادهم. (ابن الجوزي: المنتظم (٩/١١٣)، ابن الأثير: الكامل (١٠/٣٠١)).

من محن ومصاعب واتهامات^(١)، وكان يدعم كثيرًا سلاطين السلاجقة في التصدي للفرق الضالة عامة، وللباطنية خاصة؛ مما يدل على اهتمام الخلافة العباسية بالجهود المبذولة من سلاطين السلاجقة وعلماء السنة، ودورهم الفعال في مجابهة الأفكار الفاسدة التي قد تؤثر في عقائد المسلمين، وتشككهم في دينهم، وكان المستظهر قد دعم السلطان محمدًا وأيده في قتاله ضد صدقة بن يزيد؛ لأنه يُعدُّ نزاعًا بين السنة والشيعة؛ وذلك لأن مذهب سيف الدولة صدقة -المتقدم- هو التشيع -كما ذكرت.

وكان المستظهر حريصًا على إقامة السنن والشعائر الدينية؛ حيث أمر بفتح جامع القصر سنة (٤٩٤هـ) وأن تقام فيه صلاة التراويح، لولم تكن العادة جارية بذلك، كما أمر المحتسب بأن ينهى النساء عن الخروج ليلاً للتفرج^(٢).

ولاشك أن مثل تلك الأعمال تشير إلى ورع الخليفة المستظهر وتقواه، وخوفه على نساء المسلمين، وحرصه على صيانة أعراضهن، وحمايتهن من المجرمين، كما أن اهتمامه بالمساجد، وإقامة شعائر الإسلام فيها، ودعمه للسلاجقة في تصديهم للفرق الضالة والتيارات الهدامة يعطي

(١) سيأتي ذكر ذلك؛ وهو موقفه مع العالم ألكيا الهراسي عندما اتهم بمذهب الباطنية، وتدخل الخليفة في ذلك، وتبرئته مما نسب إليه، في هذا الفصل -بمشيئة الله- عند الحديث عن الجهود ضد الباطنية.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (١٣٣/٩)، ابن الأثير: الكامل (٣٢٥/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٦٠/١٢).

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطلة ٥١٤

انطباعاً واضحاً بأنّ المستظهر كان يعمل على نصرته المذهب السني، وقمع الفرق الضالة التي تؤثر في المسلمين، ومن ذلك دعمه للسلطان محمد في حربه ضد ابن مزيد الشيعي، على الرغم من علاقته السياسية به؛ حيث كان يستنجد به أحياناً، ويأمره بالتوجه لتأديب المفسدين أو الأمراء الظالمين^(١)، ولكن نصرته الدين وأهل السنة أقوى من كل اعتبار آخر؛ وهذا ما دأب عليه الخلفاء العبّاسيون من نصرته وتأييد ودعم لأهل السنة، لا سيما في العصر السلجوقي الذي نتحدث عنه؛ وذلك للتوافق المذهبي بينهما، والتقارب بين الخلافة والسلاجقة لتحقيق ما ينشده المسلمون من القوة ووحدة الكلمة والهدف، ومجابهة المخالفين للمذهب السني ومحاربتهم بشتى الوسائل الممكنة، واستغلال الظروف التي تساعدهم على تحقيق ما يهدفون إليه

ثم إنّ إحساس أهل السنة بأنّ بني مزيد كانوا سنداً وقوة للشيعية في بغداد، لا سيما في عهد بني بويه، جعلهم يضغطون على الشيعة كلما ألمّ

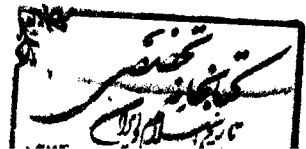
(١) من الدلائل على ذلك ما حدث سنة (٤٦٩هـ) عندما أرسل الخليفة المستظهر إلى سيف الدولة صدقة، يأمره بالتوجه لتأديب ينال بن أنوشكين الحسامي؛ لما ظلم الناس في بغداد وصادرهم واستطال أصحابه على العامة بالضرب والقتل، الأمر الذي اضطر معه الأمير ينال الحسامي إلى الهروب. ابن الأثير: الكامل (٣٥٤/١٠).
ومما يوضح عمق العلاقة بين الخليفة وصدقة بن مزيد تلقيب الخليفة له بملك العرب؛ وذلك في ذي الحجة سنة (٤٩٢هـ)، حيث بعث الخليفة كتاباً إلى صدقة يتضمن ذلك. ابن الجوزي: المنتظم (١٣٢/٩).

بهذه الأسرة مكروهه، أو نزلت بهم كارثة، أو ساعدتهم الظروف على ذلك؛ وذلك لإدراكهم أن مشاعر الشيعة وأحاسيسهم مع هذه الأسرة دائماً؛ للتوافق المذهبي بين الجميع؛ وهذا الإحساس والمسلك من جانب السنة ظهر جلياً عندما هزم الخليفة المسترشد (٥١٢-٥٢٩هـ)، ديبس ابن صدقة الأسدي سنة (٥١٧هـ)^(١)، فما كان من عوام السنة في بغداد إلا أن ثاروا على الشيعة، ونهبوا بعض مشاهدهم، وخلعوا أبوابها، فلجأ الشيعة يشكون حالهم إلى ديوان الخلافة؛ فأنكر الخليفة ذلك، وأمر بتأديب الجناة، ورد ما نُهب إلى أصحابه^(٢).

ولعل من أهم الأسباب التي أدت إلى توتر العلاقة بين الخليفة المسترشد وديبس بن صدقة هو الخلاف المذهبي بينهما؛ فالخليفة المسترشد يدين بالمذهب السني، وهو خليفة المسلمين، أما ديبس فكان شيعياً؛ شأنه في ذلك شأن والده وبلدته؛ فإنهم كانوا يتشيعون على مذهب الإمامية الاثني عشرية؛ وهو: مذهب أهل الكرخ والحلة -مدينته- وكانوا يظهرون فيها -أي الحلة- من سب الصحابة عليهم السلام ما لا يقف عند حد، ولا يحتمل، علاوة على تركهم الصلوات، وعدم إقامتهم للجمع والجماعات.

(١) تقدم تفصيل ذلك في الفصل الأول من الرسالة؛ الخاص بتقويم عام عند الحديث عن شخصية الخليفة المسترشد بالله، وللإستزادة انظر: ابن الجوزي: المنتظم (٢٤٢/٩) - (٢٤٣)، ابن الأثير: الكامل (٦٠٧/١٠ - ٦١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١٩٠-١٩١).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٢٤٩/٩)، ابن الأثير: الكامل (٦٠٩/١٠).



وإبطاهم الحجّ وعدم سماع الآذان والقرآن عندهم، واعتداءهم المتكررة على المسلمين^(١).

وتلك الأمور -مجتمعة- هي التي دفعت المسترشد بقوة على مجابهة حركة دبّيس؛ لما يراه من المعاصي والمنكرات، وإنكار فضل الصحابة، وإهملهم شعائر الإسلام، إضافة إلى ما بينهما من خلافات شخصية وسياسية؛ خاصة بعد مقتل والده صدقة سنة (٥٠١هـ) ومحاولة دبّيس الانتقام من الخليفة المسترشد، من السلطان محمود السلجوقي؛ لأن المسترشد كان يحثه على دخول بغداد لتأديب دبّيس وإخماد حركته، قبل أن ينتهي الأمر بهزيمة دبّيس على يد الخليفة.

وهكذا يؤكد الخليفة المسترشد على قوة النفوذ الديني في عهده -كسلفه من الخلفاء- ومجاهته للفرق الضالة والتيارات الهدامة التي تعيث في المسلمين فساداً، ومحاربتهم لمن يرتكب المعاصي ويجاهر بها، ودعمه للسلاجقة في هذا الشأن، وتعاون الطرفين على التصدي بقوة للشيعنة، ومن ثم نصرة أهل السنة وزيادة نفوذهم، كما أن موقف الخليفة المسترشد

(١) انظر حول معتقداتهم وأعمالهم: ابن الجوزي: المنتظم (٢٣٧/٩)، ابن القلانسي: ذيل تاريخ بغداد ص (١٦٠)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (١٦٩-١٧٠)، ابن الأثير: الكامل (٦٢٣/١٠)، ابن العراني: الأنباء في تاريخ الخلفاء ص (٢١٣-٢١٥)، الذهبي: تاريخ الإسلام (ج٩ مخطوط - روقة ٣٧٣-٣٧٤)، القلقشندي: صبح الأعشى (٢٢٩/١٣)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٢٥٦/٥)، ابن العماد: شذرات الذهب (٢/٤).

من حركة ديبس، وجهوده المتواصلة لتأديبه وهزيمته وإخماد حركته، تؤكد حمايته ودفاعه عن الخلافة العباسية السنية من خطر هذه الحركة وآثارها؛ لأنها كانت تسعى لإسقاط الخلافة العباسية السنية^(١)، كما تدلل على تصديه للمذهب الشيعي الذي لا يزال منتشرًا بين بعض القبائل العربية^(٢)، ولا يخفى خطر ذلك على المسلمين إذا ما كانت لهم دولة وقوة وأتباع؛ كما هو الحال أيام البويهيين.

من خلال ما تقدم من جهود الخلفاء القائم والمقتدي والمستظهر والمسترشد يتضح قوة نفوذ أهل السنة، وتقلص نفوذ الشيعة ونشاطهم؛ لذا لم يعد أمام الشيعة في بغداد خاصة إلا الرضاء والتسليم بالأمر الواقع الذي يحتم عدم ارتكاب ما يثير مشاعر السنة نحوهم، أو القيام بأي فتن أو منازعات تعيد الأمور لسابق عهدها؛ خاصة إذا ما علمنا أن بعض الخلفاء الذين أتوا بعد الخليفة المسترشد بالله انتهزوا فرصة ضعف نفوذ سلاطين السلاجقة والمنازعات بينهم؛ الأمر الذي جعلهم يشعرون بالقوة والهيبة،

(١) من المعلوم أن الأمر وصل لدرجة أن ديبس بن صدقة تحالف مع العدو الصليبي وحرّضه على حلب؛ مما يؤكد عداوته للخلافة العباسية، والسعي لإسقاطها، وتحقيق ما يصبو إليه. ابن الأثير: الكامل (١٠/٦٢٣)، وأنه مستعد لموالاته النصارى وغيرهم من الكفار لتحقيق أغراضه الطائفية، والسياسية، وقد تطرقت لذلك في الفصل الثاني من الباب الأول؛ المتضمن (جهود الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة ضد الزحف البيزنطي والصليبي) فليُنظر هناك.

(٢) مثل بني مزيد هولاء وبني حمدان وبني مرداس، وغيرهم.

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطنية ٤٥٥

ومن ثم استعادة سلطاتهم على الخلافة ومجريات الأمور، وتحقيق نوع من الاستقلال؛ يُديرون -من خلاله- شؤون العراق الداخلية والخارجية؛ وهذا ما بدأه الخليفة المسترشد -كما أسلفت- في نزاعه مع ديبس بن صدقة، وخروجه بنفسه لقتاله؛ مما يدل على إظهار قوة الخلافة، واستقلالها وتفردا وسيطرتها على زمام الأمور.

وتكمن أهمية انتصار المسترشد على ديبس وقمعه لحركته، وإنقاذ الخلافة من خطرهما المحدق بها، في كون المسترشد هو الذي قاد الجيش بنفسه، وقسمه، وأعد خطته؛ وهذا أمر لم يحدث منذ وقوع الخلافة تحت سيطرة السلاجقة^(١)، مما يؤكد إلى استعادة الخلافة هيبتها ومكانتها، وفرض سيطرتها على الأمور.

ثم أكمل الخليفة المقتفي لأمر الله (٥٣٠-٥٥٥هـ) ما بدأه الخليفة المسترشد^(٢)، إذ أخذ يُقاوم بقوة النفوذ السلجوقي الذي حاول استمرار

(١) بل إن هذا الأمر لم يحدث منذ وقوع الخلافة تحت نفوذ الأتراك. العصر العباسي الثاني.

(٢) لم تُشر هنا إلى أن الخليفة الراشد (٥٢٩-٥٣٠هـ) نظراً لقصر مدة خلافته، واضطراب الأحوال في عهده، ثم خلعه بعد ذلك؛ حيث لم يُسجل له جهود في المجال الذي نتحدث عنه؛ رغم أنه كان معظماً شعائر الدين، محارباً المنكرات، محسناً إلى الرعية، حسن السيرة. ابن الجوزي: المنتظم (٥٠/١٠-٥١)، السيوطي: تاريخ الخلافة ص (٤٣٦)، وقد قُتل على أيدي الباطنية سنة (٥٣٢هـ). ابن الأثير: الكامل (٦٢/١١).

فرض هيمنته على العراق بعد وفاة السلطان مسعود^(١)، وقد حقق نجاحًا إلى حد كبير في ذلك؛ لدرجة جعلت المؤرخ ابن الأثير يقول عنه في ترجمته: "وهو أول من استبد بالعراق منفردًا عن سلطان يكون معه من أول الديلم إلى الآن"^(٢).

ويقول الذهبي عنه: "وكان لا يجري في دولته أمر - وإن صغر - إلا بتوقيعه"^(٣).

وما يهمننا - هنا - هو أن قوة الخلافة ويقظتها وسيطرتها على الأمور، ومتابعتها للأحداث الداخلية والخارجية، كان له الأثر الكبير في انصراف الشيعة عن معظم ما يثير مشاعر السنة، أو يغضبهم، وأصبح - السنة في الوقت نفسه - يُعدّون ما يحدث منهم؛ وإن كان أمرًا صغيرًا ليس له تأثير كبير أمرًا كبيرًا يستحقون العقوبة عليه؛ خلافًا لما كان عليه

(١) كانت وفاة السلطان مسعود في رجب سنة (٥٤٧هـ)، كان حسن الأخلاق، كريمًا عفيفًا عن أموال الرعية، لا يقبل نعمة، وله فضائل كثيرة ومناقب جمّة، يذكر ابن الأثير أنه مع موته مات معه سعادة البيت السلجوقي فلم يبق له بعده راية يعتد بها. انظر حول سيرته وأخباره: ابن الأثير: الكامل (١١/١٦٠-١٦١)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (٢٠٧)، الحسيني: بدء التواريخ أخباره الأمراء والملوك السلجوقي ص (٢٠٧-٢٣٥).

(٢) الكامل في التاريخ (١١/٢٥٦)، انظر أيضًا: ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/٢٤١).

(٣) العبر (٣/٢٤٤)، ويقول السيوطي: "في أيام المقتضي عادت بغداد والعراق إلى يد الخلفاء ولم يبق لهم منازع" (تاريخ الخلفاء ص (٤٤١)).

الحال في الماضي؛ وهذا التحول يعود مغزاه إلى النفوذ القوي الذي أصبح لأهل السنة؛ بفضل الدعم والتأييد الذي يلقونه من الخلفاء العباسيين، والسلاطين السلاجقة.

ومن أمثلة ذلك ما حدث سنة (٥٤٧هـ) عندما قبض على رجل متصوف يدعى "البديع" كان يعظ الناس؛ فحُمل إلى ديوان الخلافة، وأخذت من عنده ألواح كُتِب عليها أسماء الأئمة الاثني عشر؛ فاقم بالرفض، ثم شُهر به، وأدب، وألزم بيته^(١).

ومتابعة الخليفة المقتفي لمثل تلك الأمور تدل على نصرته لأهل السنة، ودعمه لهم، واهتمامه بأمور المسلمين عامة؛ لأنه كان حريصاً على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ يتضح ذلك عندما قام بحملة على منازل الشحنة، وأصحاب السلطان، وأراق ما بداخلها من خمور^(٢)، دون مجاملة لأحد، أو محاباة لمسؤول؛ مما يدل على يقظته ومتابعته أمور دولته، وقيامه بمسؤولياته وواجباته تجاه رعيته؛ مما يعود بالنفع والخير للإسلام والمسلمين.

أما الخليفة المستنجد بالله (٥٥٥-٥٦٦هـ) فقد كان شديد الاهتمام بالتمسك بالنفوذ الديني، والمحافظة عليه، وتوثيق الصلة بالرعية، والتصدي لأهل الفساد، والمحافظة على قوة الخلافة وهيبتها؛ كما هو

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٤٧/١٠-١٤٨).

(٢) ابن الأثير: الكامل (١٦١/١١).

الحال أيام المقتضي، وتأكيد سلطاتهم على العراق، ومن الأمور الدالة على نصرته لأهل السنة، وتصديه لأصحاب الأهواء، والفرق الضالة: ما فعله مع القاضي ابن المرخم؛ حيث أمر بسجنه، ومصادرة أمواله، وإحراق كتبه؛ وذلك لظلمه وجوره في أحكامه، وزندقته^(١)، وكان ذلك في السنة الأولى لتولية الخلافة (٥٥٥هـ).

كذلك عندما قبض على جماعة من الحصريين (صانعي الحصر) في بغداد سنة (٥٥٩هـ) وشهروا؛ لأنهم كتبوا أسماء الأئمة الاثني عشر على الحصر، وقد شهرهم المحتسب بأمر من الوزير ابن هبيرة^(٢) الذي كان من خيار الوزراء وفضلائهم، يحب العلماء والصالحين ويقربهم، ويكثر من مجالستهم، حريصاً على اتباع السنة وسير السلف، شديداً على أهل الأهواء والبدع والأفكار الضالة^(٣).

ومن أهم الأعمال التي قام بها الخليفة المستنجد بالله لنصرة أهل السنة وقمع الشيعة ومن ينصرهم أو يقف معهم، عندما تمكن سنة (٥٥٨هـ) من القضاء التام على آل مزيد، الذين كانوا يدعمون الشيعة،

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٠/١٩٤)، ابن الأثير: الكامل (١١/٣٦٢)، الكشي: عيون التواريخ (١٢/٥٢٢). ومن تلك الكتب التي أمر الخليفة بحرقها: كتاب الشفاء لابن سينا، ورسائل إخوان الصفاء، وما شاكلها من كتب الفلسفة.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (١٠/٢٠٨).

(٣) سبق وأن ألقى الضوء على الوزير ابن هبيرة وجهوده وأعماله؛ وذلك في الفصل الأول من الباب الأول من الرسالة عند تقويمنا لخلافة المقتضي لأمر الله.

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطلة ٤٥٩

ويقفون معهم؛ حيث قام عسكر الخليفة بمحاصرتهم، والتضييق عليهم حتى أرغموا على الاستسلام، وقُتل عدد كبير منهم؛ قَدَّرَهُ البعض بأربعة آلاف، ولم يكتف بذلك، بل نودي فيمن بقي منهم بأن من وجد هذا في الحلة المزيدية، فقد حل دمه؛ فتفرقوا في البلاد، ولم يبق منهم بالعراق من يعرف^(١).

وهكذا تخلص المستنجد من خطر بني أسد، وأنقذ المسلمين من شرورهم وفسادهم؛ لأنهم كانوا يتشيعون؛ وهذا يُعدُّ نصرًا كبيرًا لأهل السنة، ودعمًا وتأييدًا من الخليفة لهم، كما لا يخفى خطرهم على الخلافة العباسية؛ وهذا ما كان يدركه جيدًا خلفاء بني العباس بدءًا من الخليفة المسترشد الذي حاربهم وهزمهم، ثم سار الخلفاء على نهجه في مجاهمتهم إلى أن انتهوا على يد الخليفة المستنجد في تلك السنة.

ولما توفي الخليفة المستنجد بالله سنة (٥٦٦هـ) خلفه ابنه المستضيء بأمر الله (٥٦٦-٥٧٥هـ)، الذي كان عهده يتميز بالهدوء والأمن والاستقرار^(٢)، إلى حدٍّ بعيد قياسًا بعهود من سبقه من الخلفاء المتأخرين؛ فقد كان من خيار الخلفاء، أمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، حسن السيرة

(١) ابن الأثير: الكامل (٢٩٦/١١)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٤٦/١٢)، الذهبي:

دول الإسلام ص (٢٩١)، ابن خلدون: العبر (٦٤٦/٣).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٤٥٩/١١).

في الرعية، حريصاً على إقامة العدل ومحاربة الظلم، مبطلاً للبدع والمعائب^(١).

وكان شديداً على أهل الرفض والبدع، وجهوده البارزة في هذا المجال، ما فعله سنة (٥٧١هـ) عندما لاحظ أن الشيعة قد بدأت تعود إلى سابق عهدها من سب الصحابة وانتقاصهم، وغير ذلك، مما قد يبرز نشاطهم، ويعيد شيئاً من نفوذهم الذي فقدوه تقريباً في العصر السلجوقي؛ عندما أمر الخليفة المستضيء على الفور بتحذيرهم ومنعهم، والتضييق عليهم، وطلب من الناس أن يخبروه بمن ينتقص الصحابة بأنه سيعاقبه بأقصى العقوبات، وسوف ينقض عليه داره، ويخلد في السجن^(٢). ولم يكتف الخليفة بمطاردة من يسب الصحابة -رضي الله عنهم- أو ينتقصهم؛ بل تعداه إلى مقاومة ما دونوه -من ذلك- في كتبهم ومؤلفاتهم؛ كما حدث مع أبي السعادات بن قرايا، -أحد رجال الشيعة- عندما اقتحم داره؛ فوجد لديه كتب كثيرة في سب الصحابة وانتقاصهم؛ فأخذ وقطع لسانه ويده، وأحرقت كتبه، وهجم عليه العامة يرمونه حتى مات؛ وذلك سنة (٥٧٤هـ)^(٣).

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٣٣/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (٣٠٤/١٢)،

السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤٤٥).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٢٥٩/١٠).

(٣) نفسه (٢٨٥/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (٣٠٠/١٢).

وقد أثر الموقف والمصير الذي انتهى إليه ابن قريا، في نفوس كثير من الشيعة، وأصابهم بالرعب والهلع والخوف؛ الأمر الذي اضطرهم إلى حرق ما لديهم من كتب تحوي مثل ذلك من سب الصحابة، أو انتقاصهم؛ خوفاً من أن يُخبر عنهم أحد؛ فيلقون المصير الذي لقيه ابن قرايا، وقد "مخدت جمرتهم بالمرّة، وصاروا أذل من اليهود" كما يعبر عن ذلك ابن الجوزي^(١).

ومع ذلك كانت تقع - أحياناً - حركات من الشيعة، ومحاولات تمرد، وعودة إلى ما ألفوه قديماً من سب الصحابة - رضي الله عنهم - إلا أن تطور الأحداث ونفوذ السنة القوي في تلك المدّة، وسياسة الكبت والقمع والشدة التي اتبعت معهم، جعل هذه الحركات والنزعات تنتهي في مهدها دون عناء شديد من أهل السنة؛ ذلك لضعفهم وإذلالهم، وعدم قدرتهم على المجاهدة، وفقدانهم من يؤيدهم أو يدعمهم وينصرهم؛ كآل بويه وبني مزيد (الشيعة) ثم سقوط سندهم الأخير الذي كانوا يعوّلون عليه بعد أولئك؛ والمتمثل في سقوط الدولة الفاطمية العبيدية سنة (٥٦٧هـ) حيث وصل رسول من المجاهد نور الدين محمود إلى الخليفة المستضيء يبشره بإقامة الخطبة في مصر، وضرب السكة باسمه؛ ففرح الناس بذلك كثيراً، وزيّنت بغداد، وسيرت الخلع والهدايا لنور الدين وصلاح الدين الذين بذلا جهوداً عظيمة في سبيل تحقيق ذلك، وكذلك

(١) المنتظم (١٠/٢٨٦).

لخطباء مصر، ابتهاجاً وسروراً بهذا الحدث التاريخي العظيم؛ حتى إن ابن الجوزي ألف كتاباً سماه "النصر على مصر" وعرضه على الخليفة المستضيء، وكذلك ألف أبو شامة كتاباً سماه "كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والمكر والكيد" وصنف الباقلاني -أيضاً- كتاب "كشف الأسرار وهتك الأستار"^(١).

وقد أصاب الشيعة هم كبير، وكمدٌ شديد من ذلك الحدث؛ لأن مثل هذه التحولات، وعودة مصر للخلافة العباسية كفيلة بنشر المذهب السني ودعمه ونصرته على حساب المذهب الشيعي الفاطمي الذي كان مدعوماً ومؤيداً من الخلفاء الفاطميين العبيديين؛ حيث أزيلت الشعارات والمبادئ الشيعية على يد صلاح الدين الذي أبطل من الأذان (حيى على خير العمل) وعزل القضاة الشيعة، وجعل في منصب قاضي القضاة قاضياً سنياً هو صدر الدين عبد الملك بن درباس الكردي (ت: ٦٠٥هـ—)، واهتم ببناء المدارس السنية التي أدت إلى تثبيت وتأصيل المذهب السني في مصر، علماً بأن أكثر الناس هناك لم يتأثروا بتلك المبادئ والأفكار الشيعية

(١) سبق أن تطرقت لهذا الموضوع في خلافة المستضيء؛ وذلك في الفصل الأول من الرسالة، وللتوسع حول ذلك انظر: ابن الأثير: الكامل (١١/٣٦٨)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٧/١٥٩)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٢١/٧١)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/٢٦٤-٢٦٨)، القرطبي: أخبار الدول ص (١٧٧)، المكّي: سبط النجوم العوالي (٣/٣٧٧)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤/٣٢٣). وانظر عن كتاب (النصر على مصر) العجلوني: مؤلفات ابن الجوزي (٣٤٣).

التي حاول دعاة الفاطميين جذب الناس إليها واعتناقها، وليس أدل على ذلك من أن صلاح الدين لم يجد أدنى صعوبة تذكر في القضاء عليها وإزالتها؛ لأن الرأي العام الإسلامي لم يألفها أو يتأثر بها^(١).

وبهذا الحدث العظيم في خلافة المستضيء يفقد الشيعة آخر سند وقوة وتأييد ودعم لهم، ومن ثم يزداد أهل السنة قوة ونفوذاً، ويتدعم المذهب السني وينشر بفضل الله تعالى، ثم بفضل المدارس التي أنشئت، ومن كان نتيجة ذلك هدوء الوضع بين السنة والشيعة؛ فلم يعد هناك فتن أو منازعات كما كان سابقاً؛ وهذا ما أشار إليه الذهبي وهو يترجم للمستضيء؛ حيث قال عنه: "وفي أيامه اختفى الرافض البيغداد ووهي، وأما بمصر والشام فتلاشى، وزالت دولة العبيديين (الفاطميين) أولي الرافض، وخطب له بديار مصر وبغض المغرب واليمن"^(٢).

ويشير -في موضع آخر- إلى ظهور السنة وقوة نفوذها واستتباب الأمن^(٣).

ومثل هذا التعبير من الذهبي؛ المبني على تلك الأعمال والجهود التي قام بها الخليفة المستضيء يدل -بوضوح- على اهتمامه الشديد بالجانب

(١) حول جهود صلاح الدين وأعماله تلك انظر: ابن الأثير: الكامل (٣٦٦/١١)، ابن

كثير: البداية والنهاية (٢٦٣/١٢)، ابن دقماق: الجوهر الثمين (١٧/٢-١٨)، ابن

تغري بردي: النجوم الزاهرة (٣٨٥/٥).

(٢) العبر (٦٨/٣).

(٣) سير أعلام النبلاء (٧٠/٢١).

الديني، ودعمه ونصرته لأهل السنة، وقمعه وشدته على أهل الأهواء والفرق الضالة ومتابعته لأمر المسلمين، وقوة صلته بالمجاهدين المخلصين الذين يهتمون بأمر المسلمين، ويبدلون ما في وسعهم لصالح الإسلام، ومنفعة المسلمين، والتصدي للمخاطر التي قد يتعرضون لها، وتؤثر عليهم في دينهم ودنياهم.

ومما يؤكد اهتمام الخليفة المستضيء بأمر المسلمين، ونصرته لأهل السنة، وحرصه على تدعيم وتقوية نفوذهم، ما حدث سنة (٥٧٣هـ) عندما تسلط اليهود على بعض المسلمين في المدائن؛ حيث أمر صاحب المخزن (ابن العطار) بحبسهم وتأديبهم؛ عقوبة لهم، كما أمر الخليفة بهدم كنيسهم، وجعلها مسجداً؛ نكاية بهم؛ حتى لا يعودوا لفعالهم ذلك مرة أخرى^(١).

ولاشك أن مثل هذا الموقف يدل على دعم الخليفة للسنة، ومحاربتها لأعداء المسلمين، والشدة عليهم، والتنكيل بهم، ومن يحدو حذوهم من أهل البدع والضلالات والتيارات الباطلة.

وبعد وفاة المستضيء سنة (٥٧٥هـ)، تولى الخلافة ابنه أبو العباس أحمد؛ الملقب بالناصر لدين الله الذي سار على نهج والده في تثبيت قواعد الدولة، والمحافظة على نفوذها وهيبتها واستقلالها عن نفوذ السلاجقة

(١) انظر تفصيل ذلك في: ابن الجوزي: المنتظم (٢٧٥/١٠)، ابن الأثير: الكامل (١١/٤٤٧-٤٤٨)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٩٨/١٢).

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطنية ٤٦

وسيطرهم؛ وهو ما بدأه الخليفة المسترشد بالله، وحافظ عليه الخلفاء، المقتفي والمستنجد والمستضيء، وجنى ثماره الخليفة الناصر لدين الله الذي سقطت في عهده السلطنة السلجوقية، وانتهت دولة السلاجقة بمقتل السلطان السلجوقي طغرل سنة (٥٩٠هـ) وهو آخر سلاطينهم^(١)، وكان الخليفة الناصر بصيراً بالأمر، مجرباً، شجاعاً، مهيباً؛ دانت له السلاطين، وكان أسد بني العباس....^(٢).

وقد حافظ الخليفة الناصر على علاقته بالمجاهدين، وتأكيد الصلة بهم؛ لما يقومون به من أعمال وجهود كبيرة في محاربة أعداء المسلمين من أهل الأهواء والفرق الضالة أو من الصليبيين؛ فكان يحرص على إرسال الخلع والهدايا إلى صلاح الدين الأيوبي؛ كما حدث في سنة (٥٧٦هـ)^(٣)

(١) انظر حول قتال السلطان طغرل ونهايته: البنداري: تاريخ آل سلجوق ص (٢٧٢-٢٧٨)، ابن الأثير: الكامل (١٠٦/١٢-١٠٧)، الحسيني: أخبار الأمراء والملوك

السلجوقية ص (٢٨٧-٢٣٤)، ابن خلدون: العبر (٣/٦٥٤).

(٢) تقدم الكلام حول شخصية الخليفة الناصر لدين الله والأحداث التي واكبت عصره،

ودوره في استقرار الخلافة واستعادة قوتها وهبتها؛ وذلك في الفصل الأول من الباب

الأول من الرسالة.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/٣٠٧).

وسنة (٥٨٠هـ)^(١)، كما أرسل صلاح الدين -أيضاً- هدايا وتحفًا نفيسة إلى الخليفة الناصر^(٢)، وأمر خطيب دمشق أن يذكر ابن الخليفة الناصر في الخطبة؛ لأنه أصبح ولي العهد^(٣)، ومثل هذه العلاقة والصلة تؤكد تعاون الجميع واشتراكهم في الهدف المنشود الذي يعود خيره ونفعه للإسلام والمسلمين، وتكثيف الجهود المبذولة في سبيل تحقيق ذلك الهدف، كتلك الأعمال التي قام بها صلاح الدين بعد سقوط دولة الفاطميين العبيديين، من إزالة للشعارات والأفكار الشيعية، وعزله لقضاة الشيعة، وإبطاله الأذان بحمي على خير العمل، ونحوها - كما تقدم ذكره في خلافة المستضيء-، وكذلك جهوده العظيمة لصد الصليبيين، واستعادة مقدسات المسلمين بعد استيلائهم عليها.

وقد قام الخليفة الناصر بدور بارز بالتصدي لأصحاب الفرق الضالة والتيارات الباطلة، وله جهود كبيرة - في هذا المجال - تؤكد مناصرته

(١) وكان ذلك في أعقاب فتح صلاح الدين للكرك؛ حيث رأى أن فتحها أنفع للمسلمين؛ لأن أهلها كانوا يقطعون الطريق على الحجاج. انظر: ابن كثير: البداية والنهاية (٣١٥/١٢).

(٢) كان ذلك سنة (٥٨٥هـ). ابن كثير: البداية والنهاية (٣٣٢/١٢)، وكان صلاح الدين قد أمر بالدعاء للخليفة الناصر في أول خطبة أقيمت في بيت المقدس بعد تطهيره من أيدي الصليبيين سنة (٥٨٣هـ). (ابن الأثير: الكامل (٥٥١/١١)، ابن كثير: البداية والنهاية (٣٢٦/١٢).

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية (٣٣٢/١٢).

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلطين في محاربة الفرق والتيارات الباطلة ٦٧٤

ودعمه لأهل السنة، ومجاهته للشيعة الذين نشطوا قليلاً إثر سقوط السلطنة السلجوقية، وكانت لهم مراكز في الدولة؛ فمن تلك المواقف ما حدث سنة (٥٨٣هـ) حيث أمر بقتل مجد الدين صاحب، هبة الله بن علي، ومصادرة أمواله؛ لأنه كان رافضياً، سبباً، أحيا شعار الإمامية، وعمل كل قبيح - كما يصفه الذهبي^(١) وهذا الموقف يدل على عدائه للشيعة وعدم مجاملتهم، مهما كان ثقلهم في الدولة؛ كابن الصاحب هذا أو غيره؛ لما في ذلك من الخطر على المسلمين، والتأثير عليهم في دينهم وعقيدتهم.

كذلك كان الخليفة الناصر يُقاوم المذاهب المخالفة للمذهب السني ويعاديهم؛ سواء كانوا من الشيعة أو الفلاسفة، أو من غيرهم، وله مواقف تؤكد ذلك؛ منها ما حدث مع الجيلاني، عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الذي قبض عليه الخليفة الناصر، وأمر بإحراق كتبه؛ لأنها احتوت على كتب الفلاسفة، وصادر أمواله؛ عقوبة له؛ حتى أصبح يسأل الناس، وكان ذلك سنة (٦٠٣هـ)^(٢).

ثم إن الخليفة الناصر في محاولة منه للتشديد على أولئك، والتضييق عليهم، أمر الشيخ عبد الله التميمي البكري، المعروف بابن المارستانية، أن

(١) العبر: (٨٧/٣)، انظر: ابن كثير: البداية والنهاية (٣٢٨/١٢)، ابن العماد:

شذرات الذهب (٢٧٩/٤)، وقد تقدمت ترجمة ابن الصاحب.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (٤٥/١٣).

يخطب بالناس؛ فقام التميمي وخطب خطبة لعن فيها الفلاسفة ومن يحدو حدوهم أو يتأثر بهم، وأخذ يخرج كتب الفلاسفة كتاباً كتاباً؛ فيتكلم في شأنه ومضمونه، ويوضح ما فيه للناس باختصار، ويبالغ في ذمه ودم مؤلفه، ثم يلقيه في النار^(١).

ومثل هذه المواقف والشواهد تؤكد -بوضوح- تصدي الخليفة الناصر لدين الله لأصحاب الأهواء والاتجاهات المخالفة، والتيارات الفاسدة، ومن ثم تقوية صلته بعلماء السنة؛ من خلال تلك المواقف؛ لأنها تدلل على مناصرة الخليفة لأهل السنة ودعمهم، وصلته القوية بهم، ونبذه لأصحاب الفرق الضالة ومجاهتهم، كما حصل مع ابن الصاحب الرافضي، وكذلك عدم استجابته لطلب خوارزمشاه علاء الدين محمد -صاحب خوارزم- عندما طلب منه أن يذكر اسمه في الخطبة؛ الأمر الذي أغضب خوارزمشاه؛ حتى حذف اسم الخليفة من الخطبة على منابر بلاده^(٢)، ويُعلل البعض عدم إجابة الخليفة لطلبه إلى تحوله، وانتحاله عقائد المذهب الشيعي^(٣).

(١) محمد آل ياسين: الحياة الفكرية في العراق ص (٣٨).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٣٢٨/١٢).

(٣) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني ... (١٠١/٤)، وقد تقدمت ترجمة خوارزمشاه علاء الدين محمد في الفصل الأول من الباب الأول عند الحديث عن خلافة الناصر لدين الله وعلاقته بالدولة الخوارزمية.

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلطين في محاربة الفرق والتيارات الباطلة ٤٦٩

وهذا دليل قوي على تصدي الناصر للشيعة، ومنع انتشار المذهب الشيعي وأفكاره الخطيرة ومعتقداته الباطلة التي تؤثر على عقيدة المسلمين وتشككهم في دينهم، كذلك تؤكد تلك المواقف والدلائل السابقة - مجتمعة - على أن الناصر لم يكن لديه ميل للتشيع - كما يذكر البعض^(١) - وإلا كيف يفعل تلك الأعمال مع الشيعة التي تدلل على معاداته لهم، وعدم تساهله أو مجاملته لهم إلا نادراً، وتبعاً لما تمليه عليه مصلحة الدولة آنذاك، ولم يثبت أو يذكر أنه وقف معهم ضد أهل السنة، أو روج للمذهب الشيعي للأخذ بأفكاره والتأثر به؛ حيث لم يذكر ذلك عن خلفاء بني العباس بصفة عامة^(٢).

وكان الخليفة الناصر يستغل تطور الأحداث والاتجاهات لتقوية مركز الدولة الديني والسياسي والعسكري؛ وخاصة عند ما يدرك صعوبة

(١) من هؤلاء المؤرخين: ابن واصل: مفرج الكروب (٤/١٦٦)، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤٥١)، ابن العماد: شذرات الذهب (٥/٩٨)، القرطبي: أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ص (١٧٨).

(٢) سبق أن تطرقت لموضوع علاقة الناصر بالتشيع؛ وذلك عند دراسة عصر خلافته، وقد فصلت في ذلك، وتوصلت إلى عدم ثبوت ميله للتشيع؛ وقد أوردت أدلة ومواقف وشواهد تؤكد ما توصلت إليه - حسب جهدي واستطاعتي -، ولذلك فضلت عدم التكرار - هنا - مرة أخرى، وللتفاصيل عن هذا الموضوع، انظر: الفصل الأول من الباب الأول من الرسالة عند الحديث عن خلافة الناصر لدين الله وتقويم عصره.

إخضاع بعض تلك الحركات؛ لاسيما التي يسيطر عليها الباطنية؛ ولذا نجد الناصر يستغل مبادرة زعيم الإسماعيلية جلال الدين بن الصباح؛ حين أعلن توبته، والكف عن فعل المحرمات واستحلالها، وأمر بإقامة الصلوات وشرائع الإسلام في بلاده، وقام بإرسال والدته، وجماعة من أتباعه إلى الحج؛ ففرح الخليفة بذلك وإكرامهم إكرامًا عظيمًا؛ لأنه سبق أن أرسل إليهم يدعوهم لأقامة شعائر الإسلام، ويقول لهم: "إنكم إذا فعلتم ذلك كنا يدًا واحدة"^(١).

وهذا الموقف من الخليفة من شأنه تقوية مركز الخلافة لاستعادة الحصون والقلاع التي يسيطر عليها الباطنية، وتخليص المسلمين من الرعب والقلق والعدوان الذي كانوا يعانونه بسببهم، وكذلك غاراتهم على المدن والقرى وقوافل الحجاج؛ مما يشير إلى مناصرة الخليفة الناصر لأهل السنة، واهتمامه بمصلحة المسلمين، ومحاولته زعزعة حركة الباطنية، والحد من نشاطهم الذي زاد في العصر السلجوقي، وذهب ضحيته الكثير من المجاهدين والعلماء والخلفاء، ولقي المسلمون منهم عناءً شديدًا؛ لتحصنهم وقوتهم وتنظيمهم وكثرة أتباعهم.

(١) ابن الأثير: الكامل (٢٩٨/١٢)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٩٨/٢٢)، العبير

(٣/١٤٧)، ابن كثير: البداية والنهاية (٦٢/١٣)، محمد آل ياسين: الحياة الفكرية

من كل ما تقدم يتبين لنا أن الخلفاء العباسيين كانوا يدركون تمام الإدراك أن الاهتمام بالجانب الديني، والوقوف بقوة أمام الفرق الضالة والتيارات الباطلة، من أهم الواجبات المنوطة بهم، وأنه من أعظم المسؤوليات عليهم؛ لأن مثل أولئك -أعني: أصحاب الفرق الضالة والتيارات الفاسدة- إذا ما وجدوا الفرصة متاحة أمامهم، لاشك أنهم سينشطون، وسيقومون ببث أفكارهم ومعتقداتهم في المجتمع الإسلامي، دون خوف أو وجل، ولكن الخلفاء في العصر السلجوقي تنبهوا لمثل تلك الأمور، والمخاطر الناجمة عنها؛ فقاموا بتلك الجهود والمواقف التي ألقى الضوء عليها من خلال هذا الفصل، وأوقفوا تلك الحركات الهدامة، وحدّوا كثيراً من نشاطهم السابق، وعملوا ما في سبيل مناصرة السنة، والمحافظة على كيانهم، والتصدي للمذاهب الفاسدة، وأصحاب الأهواء الضالة.

وبعد أنه ألقى الضوء على جهود ومواقف الخلفاء العباسيين في العصر السلجوقي في محاربة الفرق الضالة والتيارات الباطلة، لابد أن أتطرق لجهود السلاطين السلاجقة آنذاك، ومواقفهم وتضحياتهم في سبيل التصدي لهم ومحاربتهم؛ الأمر الذي أدى إلى استشهاد البعض منهم؛ نتيجة تلك الجهود والمواقف التي أكملت ما بدأه الخلفاء من جهود، ولا غرابة في ذلك؛ لأن الخلفاء العباسيين والسلاطين والسلاجقة يشتركون جميعاً في الأهداف المرجوة من خلال تلك الجهود والمواقف، لاسيما في

هذا الجانب؛ وهو دعم السنة ومناصرتهم، ومحاربة الفرق الضالة ومجاهبتهم.

وكان للخلفاء العباسيين دور كبير في دعم جهود السلاطين السلاجقة الخيرة في هذا الشأن؛ من خلال علاقتهم القوية بهم، وبوزرائهم أيضًا؛ كتلك العلاقة التي كانت متميزة وقوية بين الوزير نظام الملك والخليفة العباسي القائم بأمر الله، وفي الوقت نفسه كانت المعاملة الطيبة، والاحترام الكبير من السلاجقة الأوائل -خاصة- للخلفاء العباسيين، من أهم الدوافع القوية للخلفاء في القيام بدورهم لإصلاح الأوضاع الداخلية، ومحاربة المجرمين والمتمردين، والتصدي لأهل الأهواء والفرق الضالة، والمساهمة الفعالة في أحداث العالم الإسلامي، والجهاد ضد الأعداء المسلمين من البيزنطيين والصليبيين، والقضاء على الفاطميين العبيديين، وإحباط الدعايات الباطلة التي قاموا بها للدعوة إلى مذهبهم، ونشر أفكاره بين المسلمين.

من هذا المنطلق كان للسلاطين السلاجقة مواقف وجهود لا بد من ذكرها والتوقف عندها؛ لما لها من أثر إيجابي كبير على المسلمين، ودليل واضح على مناصرة السلاجقة لأهل السنة، والحد من نشاط التيارات التي تؤثر على المسلمين في دينهم؛ وهذا الشعور قد أكده السلاجقة من بداية عهدهم؛ حيث أكد السلطان طغرل بك -أول سلطان سلجوقي-

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطنية ٤٧٣

استعداده التام لمحاربة المخالفين للمذهب السني؛ مهما كان شأنه وقوته^(١)، وكان لهذا التأكيد أثره القوي الذي أدى للتقارب والتآلف بين الخلافة والسلطنة السلجوقية؛ لتحقيق ما يصبو إليه المسلمون من العزة والقوة وتوحيد الكلمة، والمصير المشترك.

ومن أبرز مواقف السلاجقة وجهودهم ضد الشيعة بصفة عامة، ومحاولتهم إضعاف الفكر الشيعي وتفتيت قوتهم: ما حدث سنة (٤٦٣هـ)، عندما وصل السلطان ألب أرسلان (٤٥٥-٤٦٥هـ) - الذي حمل لواء الجهاد ضد الروم والشيعة على السواء- إلى حلب، وكان أميرها آنذاك: محمود بن صالح بن مرداس^(٢) الذي خطب لأمر المؤمنين القائم بأمر الله، وللسلطان ألب أرسلان بحلب- وكان قد طلب من

(١) انظر: العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص (١٨١-١٨٣).

(٢) هو محمود بن نصر بن صالح بن مرداس الكلابي، صاحب حلب، كان شجاعاً فارساً جواداً، توفي سنة (٤٦٧هـ). انظر ترجمته في: المنتظم (٣٠٠/٨)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣٥٨/١٨)، العبر (٣٢٣/٢)، اليافعي: مرآة الجنان (٩٥/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (١١٣/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٠٠/٥)، وبنو مرداس سلالة من عرب الشام من بني كلاب ينتمون إلى صالح بن مرداس الكلابي الذي استقل بحكم حلب عن الفاطميين، وحوا شمال الشام من هجمات البيزنطيين. انظر: ابن حزم: جمرة أنساب العرب ص (٢٨٢)، كحالة: معجم قبائل العرب ص (٩٨٩/٣)، (٣٦٢/٥)، العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص (١٨٤).

مندوب الخلافة طراد بن محمد الزيني -نقيب النقباء- أن يخرج إلى السلطان ليعفيه من الحضور، والمثول بين يديه؛ فخرج نقيب النقباء، وأخبر السلطان ألب أرسلان بأن الأمير محمود قد لبس الخلع القائمية وخطب؛ فقال السلطان غاضباً: "أي شيء تُساوي خطبتهم، وهم يؤذنون: "حي على خير العمل؟" (الأذان عند الشيعة)، ولا بد له من الحضور، ودوس بساطي"، فامتنع محمود من ذلك؛ فاشتد الحصار على البلد، وغلّت الأسعار، وعظم القتال، فلما عظم الأمر على محمود، خرج ليلاً ومعه والدته؛ فدخلا على السلطان، وقالت له: هذا ولدي، فافعل به ماتحِب؛ فتلقاهما بالجميل، وخلع على محمود، وأعادته إلى بلده؛ فأنفذ إلى السلطان مالاً جزيلاً^(١).

ولاشك أن هذا الموقف دليل واضح على نصره السلاجقة لأهل السنة، ودعمهم لهم، ووقوفهم بقوة أمام أصحاب الأهواء والفرق الضالة، ومحاولته إضعاف نفوذ الشيعة، والحد من قوتهم ونشاطهم الذي برز كثيراً في العصر البويهي؛ لدعم آل بويه (الشيعة) لهم، ويستفاد كذلك من هذا الحديث أن صاحب حلب كان شيعياً؛ فأراد ألب أرسلان أن يجعله سنياً، وأن يعيد الخطبة في حلب للخليفة القائم بأمر الله^(٢).

(١) انظر تفاصيل ذلك في: ابن الأثير: الكامل (١٠/٦٤)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوقي ص (٣٦-٣٧)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٥/٦٩).

(٢) جمال الدين الشيال: تاريخ الدولة العباسية ص (١٠٧).

وعلى كل فقد أثر هذا الموقف في الشيعة بصفة عامة، وأدركوا أن الوضع في العصر السلجوقي السني اختلف كثيراً عنه في العصر البويهى الشيعي، وكانت تحركات ألب أرسلان في بلاد الشام تهدف إلى ضرب القوى الشيعية هناك قبل التوجه شمالاً إلى آسيا الصغرى؛ لجهاد البيزنطيين، أي: أنه يريد حماية ظهره من الخطر الشيعي قبل التوغل في أرض الروم، وقد تحقق له ذلك^(١).

ولقد انصبت جهود السلاجقة ومواقفهم من الفرق الضالة ضد الباطنية على وجه الخصوص، الذين برزوا على مسرح الأحداث، وكانت لهم قوة رهيبية أخذت تمثل منعطفاً كبيراً في تاريخ الدولة السلجوقية، ولكن هذه القوة الجديدة أخذت تتلاشى في بداية العصر السلجوقي، وذلك لشدة تحمس السلاجقة للمذهب السني، وتعقبهم للباطنية في قلاعهم وحصونهم، ولكن النفوذ الباطني ما لبث أن عاد لقوته الأولى في عهد السلطان ملكشاه؛ حيث كثر أتباعهم، وتعددت قلاعهم وحصونهم، واستطاعوا تكوين معازل قوية وحصينة لهم في أقاليم الجبال، واتخذوا طريق اغتيال الأعداء من الخلفاء والسلاطين والقواد والعلماء والوزراء، وسيلة لإزالة من يعترضهم أو يقف في طريقهم؛ الأمر الذي أثار قلقاً شديداً في جميع أنحاء الدولة السلجوقية، وعاش الناس في خوف

(١) العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص (٣٥٦-٣٥٧).

واضطراب ورعب من هؤلاء الذين لا يردعهم وازع ديني أو خوف من أحد مهما كانت قوته وسطوته.

وقبل أن أخوض في مواقف السلاجقة من الباطنية -على ضوء ما تقدم- يحسن بي أن أذكر شيئاً موجزاً عنهم وعن ألقابهم، والأسس العامة التي يقوم عليها مذهبهم، وأماكن انتشار نفوذهم، وأشهر طوائفهم: فالباطنية: لقب عام تنطوي تحته طوائف عديدة، تلتقي جميعها في تأويل ظواهر النصوص وإثبات معان باطنة لها، وتلجأ إلى الرموز والإشارات في تفسير النصوص الدينية، وإخراجها عن معانيها الظاهرة؛ مستهدفين بذلك هدم الدين، وإبطال شعائره وأحكامه العملية^(١).

ويقول الغزالي في ذلك: "وأما الباطنية، فإنما لقبوا بها لدعواهم أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجري في الظواهر مجرى اللب من القشر، وأنها بصورها توهم عند الجهال الأغبياء صوراً حلية، وهي -عند العقلاء والأذكياء- رموز وإشارات إلى حقائق معينة... وغرضهم الأقصى إبطال الشرائع؛ فإنهم إذا انتزعوا عن العقائد موجب الظواهر، قدروا على الحكم بدعوى الباطن على حسب ما يوجب الانسلاخ عن قواعد الدين؛ إذ

(١) وكان ظهور دعوة الباطنية في عهد الخليفة العباسي المأمون، وانتشر في خلافة المعتصم. انظر: البغدادي: الفرق بين الفرق ص (٢٨٤)، المسعودي: التنبيه والإشراف ص (٣٢٣)، ابن واصل: مفرج الكروب (٢٠٦/١)، طه ندا: فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية ص (٨٢).

سقطت الثقة بموجب الألفاظ الصريحة؛ فلا يبقى للشرع عصام يُرجع إليه، ويُعوّل عليه"^(١).

وقد أدرك مؤرخو الفرق الإسلامية الارتباط الفكري والحركي بين هذه الحركات الباطنية، من ثم عدّوها واجهات مختلفة يجمعها مذهب واحد؛ فالغزالي يقول عن ألقاهم؛ التي تداولتها الألسنة على اختلاف الأزمنة والعصور؛ وهي عشرة ألقاب: "الباطنية والقرمطية والقرمطية والخرمية والخرميدنية والإسماعيلية والسبعية والبابكية والحمرية والتعليمية، ولكل لقب سبب"^(٢)، وابن الجوزي يقول: "وأما ألقاهم فإنها يسمون الإسماعيلية والباطنية والقرامطة والخرمية والبابكية والحمرية والسبعية والتعليمية"^(٣)، وأورد أيضاً لكل لقب سبب التسمية.

ويرى الشهرستاني أن أشهر ألقاهم: الباطنية، وإنما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطنًا، ولكل تنزيل تأويلًا، ولهم ألقاب

(١) فضائح الباطنية ص (١١-١٢).

(٢) نفسه ص (١١)، انظر كذلك: الديلمي: بيان مذهب الباطنية وبطلانه ص (٢١-

٢٥)، ابن خلدون: المقدمة ص (٢٠١).

(٣) المنتظم (١١/٥)، تلييس إبليس ص (١١٩)، ثم انظر: طه ندا: فصول من تاريخ

الحضارة الإسلامية ص (٤٨).

كثيرة سوى هذا؛ فبالعراق يسمون الباطنية والقرامطة والمزدكية، وبخراسان: التعليمية والملحدة^(١).

ومن ذلك يتبين أن الإسماعيلية سموا بالباطنية لارتباطهم بالتيار الباطني العام القائم على فكرة الظاهر والباطن، ولأنه في ظل الحركة الإسماعيلية نمت العديد من الحركات الباطنية؛ كالقرامطة والأغاخانية والدروز والبهرة والنصيرية، وغيرها؛ ولذا يمكن حصر فرق الباطنية بصفة عامة في الإسماعيلية، والقرامطة، والبابكية، والدروز، والنصيرية^(٢).

(١) الملل والنحل (١/١٩٢)، ويوضح أحد الباحثين المعاصرين واجهات هذا التيار الباطني على اختلاف البلدان والأمصار فيقول: "ويعرفون في العراق باسم القرامطة، وباسم المزدكية (المزدكية) نسبة إلى (مزدك)، ويسمون في خراسان بالتعليمية والملاحدة والميمونية، ويدعون في مصر بالعبودية؛ نسبة إلى عبید الله المعروف، وفي الشام بالنصيرية والدروز والتمامنة، وفي فلسطين بالبهائية، وفي الهند بالبهرة والإسماعيلية، وفي اليمن باليامية، نسبة إلى القبيلة المعروفة، وفي بلاد الأكراد بالبكداشية والقرلباشية؛ على اختلاف منازلهم، وفي بلاد العجم بالباية، ولهم فروع إلى يومنا هذا تلبس لكل قرن لبوسه، وتظهر لكل قوم بمظهر تقص به البيئته، وقدماءهم كانوا يسمون أنفسهم بالإسماعيلية باعتبار تميزهم عن فرق الشيعة بهذا الاسم". انظر: أحمد محمد جلي: دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين ص (١٩٤)، نقلًا عن كتاب كشف أسرار الباطنية لمحمد بن مالك الحمادي اليمني، تقدم وتعليق محمد زاهد الكوثري (٨).

(٢) صابر طعيمة: دراسات في الفرق ص (٧٨)، أحمد جلي: دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين ص (١٩٤)، برنارد لويس: أصول الإسماعيلية ص (١٨٨).

والإسماعيلية (الباطنية) إحدى فرق الشيعة، ويقولون بإثبات الإمامة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، ويرون أنه أحق بالإمامة من أخيه موسى الكاظم^(١)، ومن أهم مبادئهم: إيمانهم بالإمامة؛ لأن العقل وحده يقصر عن الوصول إلى معرفة الله معرفة حقة؛ ولذلك يرون أنه لا بد أن يعرف الناس إمامهم وأن يبائعوه، ومن أهم الأسس التي يقوم عليها مذهبهم: إيمانهم بأن للعقيدة ظاهراً وباطناً، وللتزليل معان ظاهرة يعرفها الناس، وأخرى باطنة يعرفها الإمام؛ ولذلك سماوا الباطنية^(٢).

ويوضح الشهرستاني أن الإسماعيلية المشهورة في الفرق هم الباطنية التعليمية الذين لهم مقالة مفردة^(٣)، وتعد الباطنية من الفرق الشيعية المهمة

(١) الشهرستاني: الملل والنحل (١/١٩١-١٩٢)، الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص (١٢٩-١٣٠).

(٢) حول طائفة الإسماعيلية (الباطنية) انظر النوبختي: فرق الشيعة ص (٦٨)، ابن النديم: الفهرست ص (٢٦٤)، البغدادي: الفرق بين الفرق ص (٢٨١)، ابن الجوزي: المنتظم (٥/١١٠-١١٩)، ابن الأثير: الكامل في حوادث سنة (٢٧٨، ٢٨٦، ٢٨٩، ٣٠١، ٣١١، ٣١٧)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢/١٤٦-١٤٧)، السفاريني: لوامع الأنوار (١/٨٣)، القلقشندي: صبح الأعشى (١٣/٢٤٥)، المقريري: الخطط (٢/٣٥٧)، أبو شامة: الروضتين ص (٥٢-١٩٨)، حسن أحمد: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص (٥٩٦)، الزهراني: نظام الوزارة في الدولة العباسية ص (٥٦)، دائرة المعارف الإسلامية (٦/٨٦-٨٧) (مادة باطنية)، محمد فريد وحدي: دائرة معارف القرن العشرين (١/٣٤٧).

(٣) الملل والنحل (١/١٦٨).

التي نشطت كثيراً في العصر السلجوقي، وأصبح لها نفوذ قوي، واتخذت خطأً سياسياً غير عادي، فهي - في الوقت الذي تتكلم فيه على تعاليمها الباطنية، وتتبع أسلوباً سرّياً باطنياً في نشر دعوتها، فإنها اتخذت من رعاية العلوم؛ وتنظيمها العمال والأفراد، والتقاليد الخاصة بها غطاءً تستتر فيه على حقيقة دعوتها ومبادئها، وعندما كان بعض دعاة الإسماعيلية يحصلون على مراكز قوة لهم في المناطق النائية، ويدعمون أنفسهم فيها، كان هناك آخرون يثون دعايتهم الدينية في المراكز الرئيسية داخل العالم السني السلجوقي، وهؤلاء هم الذين تسببوا في سفك أول الدماء بين العملاء الإسماعيليين والسلطات السلجوقية^(١).

وقد تصدى لهؤلاء المنحرفين المفسدين بعض أئمة المسلمين وعلمائهم، وفضحوا عقائدهم وأهدافهم، ونقلوا صورة أمنية عن خبثهم ومكرهم وأساليب خداعهم إلى الأجيال القادمة؛ حتى بانصورت صورهم واضحة عند المسلمين، تمثل صورة حاقدة على الإسلام، مدمرة لكل القيم والفضائل.

ولتوضيح أكثر نشير إلى بعض من كتب عنهم خلال فترة البحث (العصر السلجوقي)، فمن هؤلاء أبو حامد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) في كتابه "فضائح الباطنية" الذي يوضح عنوانه مضمونه؛ وهو الرد على هذه

(١) مريزن عسيري: الحياة العلمية في العصر السلجوقي ص (١٣٤)، نقلًا عن:

برناردلويس: الحشاشون ص (٩١).

الفرقة، وبيان ما هم عليه من الضلال والإلحاد، ويُعلل الغزالي بواعث ظهورهم، ونصب دعوتهم، وإفاضة بدعتهم بقوله: "مما تطابق عليه نقلة المقالات قاطبة أن هذه الدعوة لم يفتحها منتسب إلى ملة، ولا معتقد لخلقة؛ فإن مساقها ينقاد إلى الانسلاخ من الدين؛ كانسلاخ الشعرة من العجين، ولكن تشاور جماعة من ملحدة الفلاسفة المتقدمين، وضربوا سهام الرأي في استنباط تدبير يخفف عنهم ما نأبهم من استيلاء أهل الدين، وينفس عنهم كربة ما دهاهم من أمر المسلمين؛ حتى أحرصوا ألسنتهم عن النطق بما هو معتقدهم، من إنكار الصانع، وتكذيب الرسل، ووجد الحشر والنشر والمعاد إلى الله"^(١).

أما عن وسيلتهم في الوصول إلى المسلمين ونشر أفكارهم، فقد أوضح ذلك الغزالي أيضاً حين نقل قولهم: "فسبيلنا أن نتحل عقيدة طائفة من فرقهم، هم أركنتهم عقولاً، وأسخفهم رأياً، وألينهم عريكة لقبول المحالات، وأطوعهم للتصديق بالأكاذيب المزخرفات؛ وهم الروافض، ونتحصن بالانتساب إليهم، والاعتزاز إلى أهل البيت عن شرهم ... وتباكى لهم على ما حلّ بآل محمد ﷺ"^(٢).

ومن العلماء أيضاً أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) الذي وصفهم بأنهم "قوم تستروا بالإسلام، ومالوا إلى

(١) فضائح الباطنية ص (١٨).

(٢) نفسه ص (١٩).

الروافض، وعقائدهم وأعمالهم تباين الإسلام بالمرّة؛ فمحصول قولهم: تعطيل الصانع، وإبطال النبوة والعبادات، وإنكار البعث، ولكنهم لا يظهرون هذا في أول أمرهم"^(١).

ويذكر الديلمي: "أن أول من أسس هذا المذهب المشؤوم قوم من أولاد الجوس وبقايا الخرمية والفلاسفة واليهود، وبنوا أمورهم على التلبس والتدليس"^(٢).

ومن هنا وقف فقهاء المسلمين وعلمائهم من أهل السنة موقف التصدي، والمجاهمة لهذه الفرقة الباطنية، وغيرها من الفرق الضالة والتيارات الهدامة، وأخذوا على عاتقهم مهاجمة هذه الفرق؛ فهاجموها وكفروها، وقدحوا في مؤلفاتها وأفكارها ومبادئها، كما أنهم ذهبوا إلى أن الباطنية حركة إباحية، أسسها جماعة من الزنادقة والجوس واليهود، وبقايا الخرمية والفلاسفة، وهم يظهرون الرفض والتشيع، ويبطنون الكفر والإلحاد، ويعملون على تحليل ما حرّم الله، وتهدف حركتهم إلى تقويض دعائم وأركان الدين الإسلامي؛ لأنها تنادي برفع التكاليف الدينية، وتدين بالتناسخ والحلول، وشيوعية المرأة، وإنكار الشرائع، ونزول الوحي والمعاد والملائكة، ويتأولون الصلاة بأنها موالاة إمامهم، والملائكة بأن المقصود بهم

(١) تلبس إبليس ص (١١٩).

(٢) بيان مذهب الباطنية وبطلانه ص (١٩).

دعاهم، وأن الحج زيارة إمامهم وإدمان خدمته، والصوم الإمساك عن إفشاء سر الإمام، إلى غير ذلك من الأفكار والمبادئ الكفرية والإلحادية^(١). وكانت دعوة الباطنية المذهبية وأفكارهم أخطر ما تكون على الإسلام والمسلمين؛ لما في مبادئها ومعتقداتها من خطر عظيم؛ لأنها تحتوي على أمور إلحادية كفرية؛ ولذلك يقول البغدادي: "اعلموا -أسعدكم الله- أن ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس عليهم؛ بل أعظم من مضرة الدهرية، وسائر أصناف الكفرة عليهم؛ بل أعظم من ضرر الدجال الذي يظهر في آخر الزمان؛ لأن الذين ضلوا عن الدين بدعوة الباطنية من وقت ظهور دعوتهم إلى يومنا أكثر من الذين يضلون بالدجال وقت ظهوره؛ لأن فتنة الدجال لا تزيد مدتها على أربعين يوماً، وفضائح الباطنية أكثر من عدد الرمل والقطر"^(٢).

(١) انظر حول عقائد الباطنية وأفكارهم ومبادئهم: البغدادي: الفرق بين الفرق ص (٢٩٥-٢٩٨)، الغزالي: فضائح الباطنية ص (١٨)، ابن الجوزي: تلبس إبليس (١٢٥)، الديلمي: بيان مذهب الباطنية وبطلانه ص (٣١)، السكسكي: البرهان ص (١٨)، ابن تيمية: مجموع الفتاوى (٣/٣٠)، محمد الخطيب: الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ص (١٩-٢٠-٨٥)، محمد الخشت: حركة الحشاشين ص (١٤٩-١٧٧)، حسين أمين: تاريخ العراق في العصر الإسلامي ص (٢٥٨-٢٦٠)، محمد شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد ص (١٤٤-١٤٧).

(٢) الفرق بين الفرق ص (٢٨٢).

وقد اعتمد زعماء هذه الحركة الضالة (الباطنية) على تنظيم معين ومحدد يسرون عليه لنشر مذهبهم وأفكارهم، ومن أهم مراتب هذا التنظيم: التفرس، والمقصود به أن يكون الداعي إلى أفكارهم في غاية الفطنة والذكاء، وله قدرة على التليس والتدليس، ثم الربط؛ وهو تعليق نفس المدعو بطلب تأويل أركان الشريعة، وهم لا يخبرونه بذلك إلا بعد أن يحلفوه بالأيمان المغلظة^(١)، ثم تأتي مرتبة التدليس؛ وهي التأكيد على العضو بكتمان ما يلقي إليه من الأفكار الباطنية، والاعتماد على الإمام في تفسير النصوص، ثم التأسيس؛ وهو اختبار العضو بطرح بعض الأفكار الباطنية عليه بعد أن يخبروه بأن الظاهر رمز، والباطن هو المعنى المقصود، ثم الخلع، وهو قبول العضو لأفكارهم، ومن ثم خلعه من الدين وإدخاله في المذهب الباطني، ثم الانسلاخ؛ وهو الغاية المستهدفة أصلاً من مذهبهم؛ وهو التأكيد على إبعاد العضو عن عقيدته الدينية الإسلامية، وإدخاله في الدعوة الباطنية، وعدّه عضواً من أعضائها^(٢).

(١) وهم - في الحقيقة - لا أيمان لهم؛ لأنهم ملاحدة ومذهبهم باطل، ولكن مقصودهم التضليل على الناس في رواج حيلهم، ونشر دعوتهم، وقد صادفت دعوتهم وأفكارهم هوى في نفس العامة لسهولة انقيادهم، وضعف ثقافتهم، وسوء أوضاعهم الاقتصادية، ولذلك ركز الباطنيون في دعوتهم على المزارعين وأصحاب الحرف. الغزالي: فضائح الباطنية ص (٣٣-٣٦).

(٢) البغدادي: الفرق ص (٢٩٨)، الغزالي: فضائح الباطنية ص (٢١)، صابر طعيمة: دراسات في الفرق ص (٩١-٩٤)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام الديني

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطنية ٤٨٥

وكما رأينا فإن الشيعة الإسماعيلية تضم طوائف متعددة وجماعات مختلفة تلتقي جميعها في منهجها الباطني، وتختلف بعد ذلك قربًا وبعْدًا، لا من التصور الإسلامي الصحيح، بل من التيار الشيعي العام، وتهدف الحركات الإسماعيلية إلى إبطال العقيدة الإسلامية، وإبطال الشرع وهدم أحكامه؛ كما هو هدف الحركات الشيعية الغالية، وقد تبنت هذه الفرق الباطنية بعض مبادئ الفلسفة اليونانية، واستفادت من بعض المذاهب والنحل الأخرى، وحاولت مزج هذه المبادئ والآراء ببعض التصورات الإسلامية للوجود والألوهية، وقامت بربط ذلك كله بنظرية الإمامة عند الشيعة^(١)، وقد أشار الشهرستاني -من قبل- إلى هذا الأثر الفلسفي عند الباطنية في معرض حديثه عنهم؛ حيث قال: "إن الباطنية القديمة قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة، وصنفوا كتبهم على هذا المنهاج"^(٢)، ثم ساق أمثلة على ذلك.

والسياسي... (٢٧٣/٤)، أحمد أمين: ظهر الإسلام (١٢٧/٤)، سيقوماس: الدعوة إلى الإسلام ص (٢٤٠)، بندلي جوزي: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ص (٩٥)، وما بعدها، إحسان ظهير: الإسماعيلية ص (٦١٣).

(١) أحمد محمد جلي: دراسات عن الفرق في تاريخ المسلمين ص (٢٠٠-٢٠٢)، الخطيب: الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ص (٨٥).

(٢) الملل والنحل (١/١٩٢-١٩٣).

ويؤكد الغزالي -أيضاً- أن آراء الباطنية في الإلهيات مسترقة من الثنوية والمجوس في القول بإلهين، ومن كلام الفلاسفة في المبدأ الأول، وأن مذهبهم في النبوات مستخرجة من مذاهب الفلاسفة في النبوات؛ مع تحريف وتغيير، وأن مذهبهم في المعاد موافق لآراء الثنوية^(١) والفلاسفة في الباطن، وللروافض والشيعة في الظاهر^(٢).

وإلى مثل تلك الآراء يذهب ابن الجوزي -أيضاً^(٣).

(١) الثنوية: هم أصحاب الاثني الأزميين الذين يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان؛ بخلاف المجوس؛ فإنهم قالوا بحدوث الظلام، وذكروا سبب حدوثه، وزعمت الثنوية أن النور منهما فاعل الخيرات والمنافع، والظلام فاعل الشرور والمضار. (البغدادي: الفرق ص (٢٨٥)، الشهرستاني: الملل والنحل (١/٢٤٤).

(٢) فضائح الباطنية ص (٤٠-٤٢-٤٦).

(٣) المنتظم (١١٠/٥)، تلبس إبليس ص (١٢٣).

هذا وقد أكدت الدراسات الحديثة للفكر الإسماعيلي الباطني^(١) ما

(١) فيما يختص بالدراسات الحديثة حول فرقة الإسماعيلية (الباطنية) فقد تناولها الكثير من الكتاب المستشرقين والعرب بالدراسة والتحليل، ومن هؤلاء برنارد لويس في كتابه "أصول الإسماعيلية" وقد أشاد بهذه الدراسة الدكتور الدوري؛ حيث اعتمد فيه على مجموعة كبيرة من المصادر السنوية والإسماعيلية، وأخذ عليه عدم اهتمامه بالناحية الاقتصادية وآثارها، ولعل هذا ما جعل الدوري يركز عليها في كتابه "دراسات في العصور العباسية المتأخرة" ص (٢٢-١٧٨-١٥٦)، وليرنارد لويس -أيضاً- كتاب الحشاشون، حيث أشار -من خلاله- إلى بعض الدراسات حول الإسماعيلية؛ من أهمها كتاب "تاريخ الحشاشين" للمستشرق النمساوي جوزيف فون هامر، ونشر بالألمانية في شتوت جارت عام (١٢٢٣هـ-١٨١٨م)، وترجم إلى الفرنسية والإنجليزية في عام (١٢٤٩هـ-١٨٣٣م) ويذكر الدكتور الدوري أن المستشرق دي خويه في كتابه "تاريخ علاقة قرامطة البحرين بالفاطميين" قدم خطوات حسنة في هذا الموضوع؛ لاعتماده -في بحثه- على عدد كبير من المصادر السنوية، إضافة إلى اهتمامه بالنقد والتحليل، من الكتب الحديثة أيضاً حول الإسماعيلية كتاب "تاريخ الدعوة الإسماعيلية" لمصطفى غالب، وكتاب "طائفة الإسماعيلية" لمحمد كامل حسين، وغيرها من الدراسات الأخرى في هذا الموضوع. انظر حول ذلك: مريزن عسيري: الحياة العلمية في العصر السلجوقي ص (١٣٨-١٣٩) ومما يجب ذكره في هذا الصدد هو أن الدعاية والترويج للإسماعيلية وأفكارها أخذ ينتشر بكثرة في الآونة الأخيرة في البلاد العربية؛ وذلك على يد عدد ليس بالقليل من دعاةهم ومفكريهم، ومن أهمهم: مصطفى غالب، وعارف تامر، اللذين ما فتئا يكتبان عن الإسماعيلية وعقائدها وأفكارها وحركاتها، بمساعدة عدد من دور النشر اللبنانية، مستغلين جهل القارئ المسلم بحقيقة هذه الحركات الضالة وأبعادها الخطيرة؛ لذا امتلأت السوق

ذهب إليه الشهرستاني والغزالي وابن الجوزي، إذ توصل الدكتور علي سامي النشار - بعد دراسته للشيعنة الإسماعيلية - إلى القول بأن أحد مصادر الإسماعيلية الرئيسة؛ هي: الأفلاطونية المحدثة، والفيثاغورية المحدثة، وأن الإسماعيلية أخذت مبادئها وعقائدها من الفلسفة اليونانية؛ كما صورها المسلمون مزيجاً من فلسفات أفلوطين، وأرسطو، والفيثاغورية الجديدة، وعقائد مسيحية ويهودية، إضافة إلى بعض العناصر المجوسية^(١)، ويظهر الأثر التلفيقي واضحاً في رسائل إخوان الصفاء^(٢)، التي أثبت

العربية بالكتب البراقة المريبة - من تأليف هذين المؤلفين وغيرهما - والتي تتحدث عن الإسماعيلية بصفتهم أصحاب الفكر الذي حمى الإسلام ودافع عنه، ووقف سداً منيعاً أمام أعدائه، وقد وصل الأمر بهذين المؤلفين أن يصدرا الكتب المدافعة عن حركتي القرامطة والحشاشين؛ مثل كتاب: "تاريخ الدعوة الإسماعيلية" "الحركات الباطنية في الإسلام" "القرامطة" "الحسن بن الصباح"، وجميعها لمصطفى غالب، وكذلك كتاب "القرامطة" لعارف تامر. انظر: محمد الخطيب: الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ص (٨٢).

ولذا؛ يجب الحذر كل الحذر من مثل هذه المؤلفات وأمثالها عند قراءتها، وعدم الاغترار بها، وتحذير الناس من سمومها المدفونة، وخطرها العظيم. ومن الدراسات المفيدة الحديثة حول الإسماعيلية كتاب "الإسماعيلية تاريخ وعقائد" لإحسان إلهي ظهير، إدارة ترجمان السنة، باكستان.

(١) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (٢/٤١٦).

(٢) جماعة إخوان الصفا كانت فرقة من المفكرين المعلمين المثقفين المبشرين بنسزعة فلسفية فيها مزج وفيها ثقافة، وفيها انحراف وزينغ، وكان أمرهم عجيباً يجمع بين

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلطين في محاربة الفرق والتيارات الباطلة ٤٨٩

البحث الحديث أنها إسماعيلية مصدرًا وغاية، وباطنية فكرًا ومنهajaً؛ كما يتضح هذا الأثر -بجلاء- في كتب الإسماعيلية الخالصة^(١)، وفي هذه الآثار

القيضين، ويقرن بين المتنافرين، وأقدم مصدر تحدث عنهم هو أبو حيان التوحيدي في كتابه (الامتناع والموانسة)، فيقول عن غايتهم: "إن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة؛ وذلك لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية، فقد حصل الكمال". انظر: الامتناع والموانسة (٥/٢)، القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص (٥٩)، الشكعة: معالم الحضارة الإسلامية ص (١٧٥)، -وتضم رسالتهم ألوانًا عديدة من العلوم والمعارف؛ كاللغة والحساب والهندسة والجغرافية والكيمياء، إلى جانب الأبحاث الطبيعية والإلهية، ويقول القفطي: أهم اجتمعوا على تصنيف كتاب في أنواع الحكمة الأولى ورتبه مقالات على طريق الاختصار والإيجاز...". انظر القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص (٨٥)، ويذكر الدسوقي أن السبب في تأليفها ليعرف الفرق بين الدين والفلسفة، (الدسوقي: إخوان الصفا ص (٦٣)، ويمكننا القول إن هذه الرسائل التي ظهرت خلال القرن الرابع الهجري تمثل نموذجًا باطنيًا ليس في مضمونها فقط؛ بل من حيث الشكل أيضًا، ويؤكد الدكتور النشار أن الدلائل قاطعة بأن رسائل إخوان الصفا عمل إسماعيلي بحت. انظر عمر الدسوقي: إخوان الصفا ص (٦٨) النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (٣٩٢/٢)، الخطيب: الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ص (١٧٩)، محمود إسماعيل: الحركات السرية في الإسلام ص (١٤٠).

(١) مثل كتاب "راحة العقل" للداعي الإسماعيلي أحمد بن حميد الدين الكرمانى (ت بعد سنة ٤٠٨هـ)، و"تحفة المستجيبين" و"الينابيع" لأبي يعقوب السجستاني

جميعاً ينجلي الأثر الباطني، ومنها جميعاً يمكن استخلاص تصور واضح لعقائد الإسماعيلية^(١) ومبادئهم، والمتمثلة في آرائهم حول الوجود والألوهية وصفات الله تعالى، وتصوراتهم حول الإمامة والنبوة والمعاد، وغيرها من التعاليم والأفكار التي دانوا بها وروّجوها^(٢).

وقد تفرع عن طائفة الإسماعيلية (الباطنية) هذه فريق يعرف بالحشاشين؛ لأنه أثر عنهم استعمال الحشيش في دعوتهم؛ وهو المخدر المعروف، ويبدو أن زعماء هذه الحركة الباطنية وجدوا في هذا المخدر فرصتهم الكبيرة لإكمال سيطرتهم على أتباعهم بإعطائهم الحشيش قبل تنفيذ العملية المطلوبة، أو بعد تنفيذها أحياناً؛ للاستحواذ عليهم وإغرائهم في حالة عدم قيامهم بعمل إجرامي؛ كي لا يكون عندهم مجال للتفكير والانفراد بأنفسهم ومحاسبتها، ولذا نجد أن أتباع هذه الحركة الإجرامية يطيعون قادتهم وزعماءهم طاعة مطلقة؛ وهم يعلمون أنهم سيقتلون،

(ت: ٣٣١هـ) و "الأصول والأحكام" للداعي الإسماعيلي ابن زهرة (ت: ٤٩٧هـ)، وفي كتابات أبي سليمان السجستاني المنطقي، والمؤيد في الدين الشيرازي. أحمد محمد جلي: دراسات عن الفرق في تاريخ المسلمين ص (٢٠٤)، وهناك كتب للإسماعيلية أشار إليها ابن الندم في الفهرست ص (٢٦٧).

(١) انظر ما ذكره ابن تيمية عنهم في مجموع الفتاوى (٥٨١/١١).

(٢) أحمد محمد جلي: دراسات عن الفرق في تاريخ المسلمين ص (٢٠٢-٢٠٤)، الخطيب: الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ص (٨٥) وما بعدها.

ولكنهم لا يبالون أو يفكرون بخطور هذا العمل وعظمته؛ لما هم عليه من الإجماع والإلحاد الذي سيطر على أفكارهم وقلوبهم^(١).

كما يطلق عليهم -أيضاً- الفدائيين؛ وهم الذين كانوا يُستعملون في قتل أعدائهم غدرًا، ويضحون بأنفسهم فداء لرئيسهم، ولا يشترط في الفداوي أن يتعمق كثيرًا في دراسة أسرار المذهب؛ إنما يشترط فيه التفاني في طاعة الرئيس، والتضحية إلى أبعد الحدود؛ فأصبحوا آلات انتقام فتاكة، وحلفوا عصراً مليئاً بالخوف والفرع، وكانوا يتصفون بالشجاعة النادرة وحب المخاطر، والعزيمة التي لا تقهر، والصبر الذي لا ينفذ، ويظل الواحد منهم يترقب الفرصة شهوراً؛ بل سنين للفتك بعدوه، ويشترط في الفدائي أن يكون من الشبان الأقوياء الذين يجيدون عدة لغات^(٢).

(١) انظر حول اللقب (الحشاشين)، الخطيب: الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ص (٧٥-٧٦)، عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٧٨)، ويطلق على الحشاشين لقب الحشيشية أيضاً، وقد تميز عهد الحشاشين بسفك الدماء والإرهاب؛ حتى خافهم الناس؛ وخاصة الحكام والوزراء؛ حيث نجدهم في مرحلة من المراحل يحاولون اغتيال صلاح الدين الأيوبي، ولكن محاولتهم باءت بالفشل. انظر: بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص (٣٥٤)، ويُعلل بعض الباحثين المعاصرين تسميتهم بالحشاشين بصمودهم في قلاعهم؛ حتى بعد نفاذ المون والأطعمة، معتمدين في غذائهم على أكل الحشائش من العشب ونحوه. انظر: محمد الخشب: حركة الحشاشين ص (٥). وقد يكون الوحيد الذي توصل إلى ذلك ممن كتبوا عن الحركة أو تناولوا ضمن مؤلفاتهم.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني... (٢٧٢/٤).

هذا؛ وقد انتشر دعاة الإسماعيلية في جميع الأقطار الإسلامية للترويج لدعوتهم، وقد تمكنوا -بأساليبهم المختلفة- من إقناع بعض الأمراء والقبائل الأفراد باتباع مذهبهم؛ الأمر الذي أتاح لهم أن يقيموا دولاً؛ منها دولة القرامطة سنة (٢٨٦هـ) الذين تمكنوا من بسط نفوذهم على كثير من مدن الشام والعراق وعمان والبحرين، وأكثروا القتل والنهب والسلب في المسلمين خاصة في موسم الحج، وبلغوا ذروة نشاطهم سنة (٣١٧هـ) عندما دخلوا مكة تحت إمرة أبي طاهر؛ سليمان بن سعيد الجنابي، وقتلوا الحجيج، وردموا -بجثثهم- بئر زمزم، ونزعوا الحجر الأسود، وحملوه إلى عاصمتهم "هجر" حيث ظل لديهم بضعة وعشرين عاماً، ولم يُرد إلا في عام (٣٣٩هـ)^(١)، وقد تبنى القرامطة عقائد الباطنية وأسلوب دعوتهم؛ إن لم يكن هم الذين شاركوا في وضعها، وتهدف دعوتهم بصفة عامة إلى نشر الإلحاد وإبطال الشرائع وتعطيلها، واتبعوا وسائل مختلفة ومداخل متعددة لنشر دعوتهم والترويج لها^(٢).

كما استطاعت طائفة من الإسماعيلية أن تصل إلى شمال أفريقيا، وأن ينجح في عام (٢٦٩هـ)، في إقامة الدولة الفاطمية العبيدية التي امتد

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (١١/١٦٠-١٦١)، ولزيد من التفاصيل حول مدة القرامطة وما قاموا به من أعمال واضطرابات، انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ابن الجوزي: المنتظم، ابن الأثير: الكامل، ابن كثير: البداية والنهاية، في المدة الممتدة من بداية عهد القرامطة سنة (٢٨٦هـ) حتى نهاية دولتهم سنة (٤٧٠هـ).

(٢) البغدادي: الفرق بين الفرق ص (٢٩٥-٣٠٢).

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطنية ٩٣٤

نفوذها إلى الشمال الإفريقي، ثم زحف الفاطميون على مصر سنة (٣٥٨) فأخذوها، ووصل نفوذها بغداد نفسها مع الشام والحجاز واليمن^(١)، وهذا الوضع شجع الدولة الفاطمية العبيدية على الدعاية والترويج للمذهب الشيعي (الإسماعيلي)، وجعلهم يفكرون في تحطيم الخلافة العباسية، وتقويض المذهب السني، أو على الأقل إضعاف الخلافة العباسية؛ إن لم يتمكنوا من القضاء عليها بالكلية، ولكن حدث أن انقسم أنصار هذه الدعوة الشيعية منذ أيام الحاكم الفاطمي العبيدي المستنصر بالله^(٢) (٤٢٧-٤٨٧هـ) إلى فريقين متنافسين؛ حيث ادعى البعض أن الحاكم المستنصر أوصى بالولاية من بعده لابنه نزار، بينما ادعى البعض الآخر أنه أوصى بها لابنه المستعلي، ومن هنا نشأت فرقتان متعارضتان تُناصر إحداهما نزاراً، وتناصر الأخرى المستعلي، وقد اتخذت الفرقة الأولى من بلاد المشرق الإسلامي (فارس وخرسان والشام فيما بعد) مهدياً لها بزعامة الزعيم الباطني (الحسن بن الصباح)، ولذا سموا بالإسماعيلية النزارية^(٣) أو

(١) عبد النعيم حسين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٧٩).

(٢) حول خلافة المستنصر بالله، انظر: المقرئزي: اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين

الخلفاء (١٨٤/٢-١٨٥)، العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص (٢٩٧).

(٣) يصف الشهرستاني الإسماعيلية النزارية بأنها الدعوة الجديدة؛ تمييزاً لها عن الإسماعيلية

القديمة، وتتميز هذه الدعوة عن الإسماعيلية القديمة بتمسكها بتعليم معلم هو الإمام،

وإنكار المعرفة العقلية. (الملل والنحل (١/١٩٥) وما بعدها، ثم انظر: (أحمد محمد

جلي: دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين ص (٢٣٢)، حسن إبراهيم حسن:

الإسماعيلية الشرقيين، أما الفرقة التي كانت تؤيد المستعلي، فقد بقيت في مصر وسُمِّي أتباعها بالإسماعيلية المستعلية أو الإسماعيلية الغربيين^(١).

وقد تكونت الفرقة النزارية على يد الحسن بن الصباح الذي كان كما يقول عن نفسه أنه من الشيعة الإمامية الاثني عشرية^(٢)، ثم أقنعه أحد دعاة الإسماعيلية بتبني المذهب الإسماعيلي، وأصبح أحد دعاةهم، ثم طوّف في البلاد؛ حتى وصل إلى مصر في عهد المستنصر بالله الفاطمي، وأقام فيها عامًا ونصف، وعلم منه أمره باستخلاف ابنه نزار، ثم عاد إلى فارس داعية إسماعيلياً، وخطب لنزار الحاكم الشرعي في نظرهم، ولما علم بما أحدثه الوزير الأفضل بن بدر الجمالي، وتحويله الخلافة إلى المستعلي بدلاً من نزار؛ الأمر الذي جعل نزاراً يثور من جرّاء ذلك، ولكنه هُزم وأسر وقُتل

تاريخ الإسلام السياسي والديني (٤/٢٦٨)، بروكلمان؛ تاريخ الشعوب الإسلامي ص (٢٨٣).

(١) فايد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ص (٦٩)، عبد المجيد بدوي: التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص (١٥٧)، وقد عُرفت الإسماعيلية الشرقية بأسماء عديدة في التاريخ؛ مثل: الإسماعيلية التزارية، الباطنية السبعية، التعليمية، الحشاشين، الملاحدة، السفاكين. انظر: أحمد جلي: دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين ص (٢٣٣).

(٢) حول الشيعة الإمامية الاثني عشرية، انظر: البغدادي: الفرق بين الفرق ص (٦٤)، الشهرستاني: الملل والنحل (١/١٦٩)، محب الدين الخطيب: الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية الاثني عشرية.

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطنية ٤٩

في النهاية^(١)، عند ذلك انتصر الحسن بن الصباح لنزار، واستطاع أن يستغل الدعوة النزارية لصالحه، وجعل من نفسه نائباً عن الإمام المستور، ومن ثم وجبت طاعته في كل ما يأمر به أو ينهى عنه، وقد استطاع الحسن بن الصباح أن يكون قوة كبيرة من الأتباع في إيران؛ حيث أخذ يدعو لمذهبه بين الفلاحين الإيرانيين، وكون من بينهم جماعات فدائية درها تدريباً خاصاً على الطاعة العمياء والتضحية، واتخذ أسلوب الاغتيال الفردي وسيلة لتحقيق أهدافه، وإزالة كل من يقف في طريقه أو ينازعه^(٢).

(١) انظر حول ذلك: ابن الأثير: الكامل (١٠/٢٣٧-٢٣٨)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٥/١٤٢-١٤٣)، حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص (٥٩٧)، أحمد جلي: دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين ص (٢٣٢)، ويلاحظ أن بعض المصادر الإسماعيلية التزارية لا تعترف بمقتل نزار، وتدعي أنه تمكن من مغادرة الإسكندرية، واتجه إلى بلاد فارس؛ حيث استقر به المقام في الموت، وعمل مع الحسن بن الصباح على تأسيس الدولة التزارية. انظر: مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص (٢٥٥)، ويقول الدكتور عبد الرحمن بدوي إن هذه الرواية ليس لها سند تاريخي. ولم يذكرها أي مؤرخ، وإنما قصد من اختراعها إلى الربط بين نزار وبين إسماعيلية إيران في الموت، وسائر القلاع الإسماعيلية انظر: مذاهب الإسلاميين (٢/٣٥٥-٣٥٦)

(٢) عبد المجيد بدوي: التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص (١٥٦)، نقلًا عن: بدري محمد فهد: تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص (٨٤)، أحمد محمد

ومهما يكن من أمر، فقد كان القرنان الخامس والسادس الهجريان عصر نشاط الإسماعيلية (الباطنية)، خصوصاً بعد بروز دور أحمد بن عبد الملك بن عطاش^(١)، وتلميذه الحسن بن الصباح^(٢) في تنظيم الدعوة

جلي: دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين ص (٢٣٢-٢٣٣)، عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٨٠-٨١).

(١) أحمد بن عبد الملك بن عطاش: زعيم باطني من أهل أصبهان، وقد ملك قلعة أصبهان، واجتمع عليه عدد من باطنيتها، قتل سنة (٥٠٠هـ) في عهد السلطان محمد السلجوقي. انظر ترجمته وأخباره ونهايته في: ابن الجوزي: المنتظم (٩/١٥٠-١٥١)، ابن الأثير: الكامل (١٠/٣١٧-٤٣٤)، أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر (٢/٢٢٢)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٩/٢٦٧)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١٦٧)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (١٦٨).

(٢) الحسن بن الصباح بن علي الإسماعيلي، أصله من مرو، كان رجلاً شهماً داهية شجاعاً، عالماً بالهندسة والنجوم والسحر والحساب، من تلامذة ابن عطاش، وأحد أبرز أعيان الباطنية ودعاتهم؛ حيث نشط في الدعوة إلى أن كثر أتباعه وعظم شأنه، وكان لا يدعو إلا جاهلاً غيبياً لا يعرف يمينه من شماله، استولى على قلعة "الموت" سنة (٤٨٣هـ)، وأصبحت مركزاً لهم ولقيادتهم، توفي سنة (٥١٨هـ). انظر حول ابن الصباح وسيرته وأخباره في: الفارقي: تاريخه ص (٢٦٨-٢٧٦)، القزويني: آثار البلاد ص (٣٠١)، ابن طباطبا: الفخري ص (٣٠٠)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٩/٤٠٤)، ميزان الاعتدال (٢/٢٣)، الكشي: عيون التواريخ (٢/٢٥٨)، ابن حجر: لسان الميزان (٢/٢٦٨)، زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطنية ٩٧٤

الإسماعيلية؛ حيث زاد نشاطها، وقوي نفوذها في تبليغ معتقداتها، وأفكارها، والترويج لها، وإيجاد المراكز المناهضة لآراء أهل السنة، والخلافة العباسية؛ إذ كانت اتجاهاتها مناهضة؛ سواء كان ذلك ضد الفرق الأخرى، أو ضد سلطة الخلفاء والسلاطين، وقد اتخذت هذه الدعوة مركزها الرئيسي قرب بحر قزوين؛ لبعدها عن مركز الخلافة، ولكثرة أتباعهم هناك^(١).

وقد استغل أحمد بن عبد الملك بن عطاش اختلاف السلاجقة فيما بينهم؛ لاسيما الصراع الذي احتدم بين أبناء السلطان ملكشاه وإخوته على السلطة، وكانت أصفهان بصفة خاصة مسرحاً لجرائمهم البشعة، حيث كانت هذه المدينة مقراً لداعٍ من أكبر دعاةهم -وهو ابن عطاش المتقدم ذكره- الذي استطاع أن يستولي على قلعة أصفهان (شاه دز) في عام (٤٩٤هـ) وهي قلعة حصينة بناها ملكشاه بالقرب من أصفهان^(٢)، وملأها بالأسلحة والعتاد، واتخذها مركزاً لدعوته؛ فتبعه خلق كثير من

التاريخ الإسلامي (٣٢٩/٢)، دائرة المعارف الإسلامية (١٨٧/٢)، طه ندا: فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية ص (٨٤).

(١) ابن الأثير: الكامل (٣١٦/١٠).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٣١٥-٣١٦)، ياقوت: معجم البلدان (٣١٦/٣)، الحسيني: أخبار الملوك والأمراء السلجوقية ص (١٦٨)، ومعنى "شاه دز" قلعة الملك، كما ذكر ياقوت.

أصفهان، ونال المسلمين منه ضرراً عظيماً من أخذ الأموال وقتل النفوس، وقطع الطريق، والخوف الدائم^(١).

ثم بعد عودة الحسن بن الصباح من مصر، وتنقله في بلاد فارس، استطاع بحيلة جريئة أن يستولي على الحصن الجبلي المنيح المعروف بقلعة "آلموت"^(٢) وذلك سنة (٤٨٣هـ)^(٣)، والتي كانت بداية لسقوط الكثير من القلاع الحصينة في هذه المنطقة؛ كقلعة (وسنمكوه)، وهي بقرب أهر^(٤)، وقد استولى عليها سنة (٤٨٤هـ)، وقلعة (خالنجان) قرب

(١) ابن الأثير: الكامل (٣١٦/١٠).

(٢) آلموت: قلعة بنواحي قزوین، واسمها بلغة الديلم "آله موت" ومعناها "تعليم العقاب" ويقال لذلك الموضع وما يجاوره طالقان: ابن الأثير: الكامل (٣١٦/١٠)، وعن طالقان، انظر: القزويني: آثار البلاد ص (٤٠٢)، محمود مصطفى: إعجام الأعلام ص (٢٢٦).

(٣) الشهرستاني: الملل والنحل (١٩٥/١)، ابن الأثير: الكامل (٣١٦/١٠).

(٤) أهر: مدينة مشهورة بين قزوین وزنجان وهمدان، من نواحي الجبل: البكري: معجم ما استعجم (١٠٢/١)، ياقوت: معجم البلدان (٨٢/١).

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلطين في محاربة الفرق والتيارات الباطلة ٤٩٩

أصفهان، وقلعة (أستوناوند) بين الري وآمل^(١)، وقلعة (أردهن) وقلعة (الطنبور)، وقلعة (خلادخان)، وغيرها من القلاع والأماكن الحصينة^(٢). وكان استيلاء الباطنية على هذه القلاع والأماكن جميعها، بداية لما نالوه من سلطة سياسية، ومن نفوذ قوي، في نفس الوقت الذي انتشر فيه دعائهم في بلاد فارس والعراق.

وإذا كان هولاء (الباطنية) قد سعوا -بجدية- إلى الاستيلاء على القلاع والأماكن الحصينة؛ التي تضم مجتمعات إسماعيلية بحتة مستقرة؛ على جزء من سياستها التي رسمتها لمواجهة المعسكر السني المحيط بها، فإنها سعت -في الوقت نفسه- إلى اتخاذ خطوة هامة أيضًا؛ وهي التسلل إلى المركز المهمة في دولة السلاجقة السنيين، وداخل بلاط السلطين، وخاصة في مجال الوزارة والجيش وجباية المال، والمراكز المهمة الأخرى؛ الأمر الذي مكّنهم من التعرف على أسرار خصومهم وأحوالهم، ومراقبتهم -عن قرب- واستغلال ذلك كله لمصلحتهم الدينية والسياسية، ومن الدلائل على ذلك، ما حدث سنة (٥٠٠هـ) عندما حاصر السلطان السلجوقي محمد قلعة (شاه دز) قرب أصفهان، وكان صاحبها -آنذاك-

(١) آمل: مدينة مشهورة بطبرستان؛ وهي أكبر مدينة فيها: البكري: معجم ما استعجم

(١٩٣)، ياقوت: معجم البلدان (٥٧/١)، القزويني: آثار البلاد ص (٢٨٦).

(٢) انظر حول تلك القلاع والحصون وتفصيلها: ابن الأثير: الكامل (١٠/٣١٥-

٣١٩)، محمد شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد ص (١٤٥-١٥٠)، كي

لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص (٢٥٥-٢٥٦-٣٠٥).

أحمد بن عطاش، قد تأمر مع الوزير سعد الملك أبو المحاسن الآبي^(١) على قتل السلطان محمد؛ كي يتمكن من فك الحصار عن القلعة، ورغم أن الشبهات كانت تحوم حول الوزير؛ نظرًا لما كان يتمتع به من نفوذ كبير، إلا أن السلطان محمد لم يتوقع أن يكون وزيره واحدًا من المنتمين لمذهب الباطنية والمتعاونين معهم؛ حتى انكشفت خيوط المؤامرة، "و لم يعد لدى السلطان أدنى شك في أن الوزير سعد الملك ملحد حقيقة"^(٢) عند ذلك قبض عليه هو وبعض أعوانه، وصلبوا على باب أصفهان.

(١) هو أبو المحاسن سعد بن محمد الآبي، كان من أكفأ وزراء سلاطين السلاجقة ومن أكثرهم فهمًا للأعمال الإدارية؛ ولي الوزارة للسلطان محمد، وكانت مدة وزارته سنتين وخمسة أشهر، وقد أدى دورًا بارزًا في نزاع السلطان محمد مع أخيه السلطان بركياروق، نُسب إليه خيانة السلطان محمد وانتماؤه لمذهب الباطنية، فقبض عيه السلطان وقتله مع أربعة نفر من أصحابه سنة (٥٠٠هـ). انظر ترجمته وأخباره في: البنداري: تاريخ دولة آل سحوق ص (٨٣-٨٥)، ابن الأثير: الكامل (٤٣٧/١٠)، الحسيني: أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ص (١٧٢)، والآبي: نسبة إلى قرية آبه إحدى قرى أصفهان. ياقوت: معجم البلدان (٥٠/١).

(٢) الراوندي: راحة الصدور ص (٢٤٥)، رغم أن البعض ينكر ذلك، ويرى أن أعداءه هم الذين أهموه بالميل لمذهب الباطنية؛ مثل البنداري: تاريخ آل سلجوق ص (٨٤-٨٥)، وابن الأثير بذكر أنه نُسب إلى الوزير سعد الملك خيانة السلطان فقط، ولم يتطرق لميله للباطنية؛ وابن تغري بردي يذكر أن السبب في قتله يعود إلى اهتمام السلطان محمد له بتدبير مؤامرة ضده باتفاق مع أخيه السلطان سنجر. النجوم الزاهرة (١٩٤/٥)، ويرى البعض أيضًا أن له مواقف مشرفة ضد الباطنية؛ منها

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطلة ٥٠

ومما يؤيد ذلك أنه بعد مقتل الوزير بيومين سقطت القلعة؛ مما يدل على أن وجود هذا الوزير في مكانه المهم كان من بين أسباب صمودها ومقاومتها^(١).

والواقع أن الوزير سعد الملك لم يكن هو الوزير الوحيد؛ الذي اهتم بانتمائه إلى مذهب الباطنية أو تعاونه معهم على أقل تقدير؛ وإنما اهتم بذلك -أيضاً- الوزير مجد الملك البلاساني؛ الذي وزر للسلطان بركياروق؛ حيث ذكر أن سبب مقتله أنه اهتم بدفع الباطنية إلى قتل بعض الخصوم، وأنه هو الذي شجعهم وحثهم على قتل من قتلوه من الأمراء والمجاهدين^(٢)، ويذكر الذهبي أنه كان يعتضد بالباطنية^(٣).

وقد تسلل كثير من الباطنية إلى جيوش السلاطين في العصر السلجوقي، وشاركوا في النزاعات الدائرة بينهم أحياناً، ويذكر ابن الأثير

مساهمته في افتتاح قلعتين من قلاعهم الحصينة؛ وهما: قلعة شاهر وقلعة خالنجان. انظر: البنداري: تاريخ آل سلجوق ص (٨٣-٨٤).

(١) الراوندي: راحة الصدور ص (٢٤٦)، الحسيني: العراضة ص (٩١)، مرآة الزمان (١٦٢/٣)، الكبي: عيون التواريخ (١٣/في ورقة ١٥٤)، ابن خلدون: العبر (١٢٣/٤).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٢٨٩/١٠)، ويضيف ابن الأثير: أنه كان يتشيع، إلا أنه كان يذكر الصحابة ذكراً حسناً، ويلعن من يسبهم (٢٩٠/١٠)، والرواندي أشار إلى مقتله إلا أنه لم يذكر أنه كان باطنياً. راحة الصدور ص (٢٢٤).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٨٠/١٩).

أن جماعة منهم كانوا في جيش السلطان بركياروق، وأنهم أضلوا كثيرًا من الجند، وأدخلوهم في مذهبهم، وكادوا يظهرون بالكثرة والقوة، وزاد أمرهم؛ فصاروا يتهددون من لا يوافقهم بالقتل، وصار يخافهم من يخالفهم؛ حتى كان الأمراء والوزراء يضعون الدروع تحت ثيابهم خوفًا منهم^(١).

ويقول ابن الجوزي إن السلطان السلجوقي سنجر ورد على الري عام (٥١٣هـ) لحرب ابن أخيه محمود، وكان معه من الباطنية ألوف^(٢)، ولاشك أن هؤلاء الباطنية كانوا يقدمون تلك الخدمات لسلطين السلاجقة لأهداف، ربما مقابل المال؛ وذلك لدعم دعوتهم والترويج لها، أو مقابل الإغضاء عن نشاطهم وعدم التعرض لهم؛ كي يتمكنوا من نشر أفكارهم ببسر وسهولة، أو لتثبيت دعائم الفرقة والتزاع بين أفراد البيت السلجوقي ليزدادوا ضعفًا وتمزقًا، ومن ثم يزداد الباطنية قوة ونفوذًا، ويتهيأ لهم المناخ الملائم لنجاح دعوتهم وتحقيق أهدافهم، والقضاء على مخالفينهم وأعدائهم^(٣).

(١) الكامل في التاريخ (١٠/٣٢٢).

(٢) المنتظم (٩/٢٠٥).

(٣) عبد المجيد بدوي: التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص (١٥٨)، ويضيف الدكتور عبد المجيد بدوي إلى أن مشاركة الباطنية في جيوش السلطين السلاجقة كان لتحقيق هدفين أساسيين، أولًا: إضعاف هؤلاء السلطين المتنازعين وتبديد مواردهم، ثانيًا: -وهو الأهم- صرف هؤلاء السلطين وشغلهم؛ حتى لا يفكروا في

وقد حرص الباطنية إلى جانب التسلل إلى المراكز المهمة في بلاط سلاطين السلاجقة، وبين أفراد جندهم، حرصوا كذلك على أن يكون لهم نفوذ وسلطة في دواوين الخراج، وجباية الأموال، وهدفهم من ذلك تخدير السلاطين السلاجقة، وكسب ثقتهم، ثم العمل على إثارة سخط المظلومين وتفجير الصراع الطبقي، وثورة الرأي العام على الحكام؛ لأن دعائمهم كانوا يحرصون دائماً على تبشير الطبقات المهضومة والمحرومة بأن أئمتهم سيملؤون الأرض عدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً؛ وهذا أسلوب خطير وناجح، لاسيما في عامة الناس، والفقراء، والمعوزين، ومن هنا يظهر قوة خطر هذه الحركة الإجرامية، وشدة حقدتها على الإسلام والمسلمين^(١).

وبهذا التخطيط المرسوم والدقيق، جنى الباطنية ثمار تخطيطهم، وحققوا كثيراً من أهدافهم التي رسموا لها، بدءاً من محاولة الاستيلاء على القلاع والأماكن الحصينة، ثم التسلل إلى المراكز والوظائف العليا في الدولة؛ سواء كان ذلك في الجيش أو الوزارة، أو السيطرة على دواوين المال والخراج، الأمر الذي أدى إلى قوة نفوذهم، وشدة خطرهم، وكثرة أتباعهم، ومن ثم أخذوا يعملون على نشر الرعب والفرع في قلوب

توجيه جهودهم وقوهم العسكرية إلى قلاع الباطنية، حتى يصبحوا القوة الوحيدة المرهوبة الجانب. (نفس المرجع والصفحة).

(١) عبد المجيد بدوي: التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص (١٥٩).

خصومهم، خاصة عندما اتخذوا أسلوب القتل والاغتيال وسيلة لتحقيق أهدافهم السياسية والمذهبية، وكان أسلوبهم في ذلك مدروسًا ومخططًا له بكل دقة وإحكام؛ كي يتيقنوا من عاقبة عملهم، وجدواه على دعوتهم^(١)، ومن أمثلة ذلك: عندما اشتد النزاع بين السلطان بركياروق، والسلطان محمد، لجؤوا إلى اغتيال عدد كبير من الأمراء والأعيان في جيش السلطان محمد^(٢)، حتى آثم بركياروق بالميل إليهم؛ وهم -لاشك- يهدفون إلى إضعاف السلطانين معًا: محمد بقتل كبار قواده، وبركياروق بصرف أعوانه وخواصه عنه؛ وكان من أهم نتائج حركتهم تلك اتهام بركياروق بالميل إليهم والتعاون معهم، وهذا -في حد ذاته- يُعدُّ نجاحًا عظيمًا وإنجازًا كبيرًا لهم ول مستقبل دعوتهم^(٣).

كما كانوا يقومون -في بعض الأحيان- بقتل أحد طرفي النزاع إذا كان في قتله خدمة ومصلحة لدعوتهم؛ كي يوقعوا بينهما، فيتهم الفريق الآخر بأنه هو القاتل أو المحرض على القتل؛ كما حدث عندما قتلوا

(١) نفسه ص (١٦٠)، أحمد محمد جلي: دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين ص (٢٣٣).

(٢) مثل شحنة أصبهان سرمز، وأرغش، وكمش، وغيرهم. ابن الأثير: الكامل (٣٢٢/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٥٨/١٢)، محمد الحشت حركة الحشاشين ص (٨٩).

(٣) ابن الأثير: الكامل (٣٢٢/١٠)، عبد المجيد بدوي: التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص (١٦١).

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطلة ٥٠٥

الخليفتين العباسيين: المسترشد بالله، والراشد بالله في أثناء نزاعهما مع السلطان السلجوقي مسعود؛ وذلك في عامي (٥٢٩هـ—)، (٥٣٢هـ)^(١).

وعندما كان يقع أحدهم في قبضة السلطان بعد تنفيذ جرمته، ويسأل عن شركائه ومحرضيه على ذلك العمل، كان يقر - كذبًا - على جماعة من أعدائهم، ومن يحاول الباطنية التخلص منهم، أي أنه يريد أن يقتل بيده وسعيته عند السلطان، وكثيرًا ما قُتل أناس وهم أبرياء؛ فعندما قتل الوزير فخر الملك، أبو المظفر بن نظام الملك على أيدي أحد الباطنية، أخذ هذا الباطني، فرُفع إلى السلطان، واستجوبه، فأقر على جماعة من أصحاب الوزير أنهم أمروه بذلك، وكان كاذبًا، فقتل وقتلوا أيضًا^(٢). وهذا من نتائج تخطيطهم ووسائلهم التي تكفل لهم تحقيق مقاصدهم وأهدافهم.

والقتل أو الاغتيال لم يكن أسلوبهم المفضل دائمًا، في سبيل التخلص من خطر خصومهم وأعدائهم، وإنما كانوا يفضلون أحيانًا أسلوب التهديد دون القتل إذا رأوا جدوى ذلك ومنفعته لهم ببقائه، وقد نهجوا هذا المنهج

(١) انظر حول مقتلهما: الراوندي: راحة الصدور ص (٣٣٠)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (١٦٢-١٦٩)، الحسيني: العراضة في الحكاية السلجوقية ص (١١٩-١٢٠)، اليافعي: مرآة الجنان (٢٥٥/٣).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (١٢٧/١٢).

مع السلطان السلجوقي سنجر؛ عندما ألقى أحد الفدائيين أمامه خنجرًا؛ وهو جالس على كرسيه؛ الأمر الذي جعله يسألهم مُدّة من الزمن، خوفًا ورهبة منهم؛ لاسيما بعد أن قويت شوكتهم وزاد خطرهم^(١).

وحول ذلك يقول البنداري: "فنابت النوائب، وظهرت العجائب، وفارق الجمهور من بيننا جماعة نشأوا على طباعنا، وكالوا بصاعنا، وكانوا معنا في المكتب، وأخذوا حظًا وافراً من الفقه والأدب، وكان منهم رجل من أهل الري، ساح في العالم، كانت صناعته الكتابة فخفي أمره، حتى ظهر فأقام من الفتنة كل قيامه، واستولى في مدة قريبة على حصون وقلاع منيعة، وبدأ من القتل والفتك بأمر شنيعة، وخفيت عن

(١) دائرة المعارف الإسلامية (٣/٣٧٨)، مادة (إسماعيلية)، وتذكر بعض الروايات أنه وُضع بجانب الخنجر رسالة من الحسن الصباح إلى السلطان سنجر نصها: "أيها السلطان المغرور، لا تفكر إذا كان الحسن بن الصباح بعيداً عنك يعيش فوق صخرة آلمت غير قادر على الوصول إليك، ثق أن من تمكن من أن يضع هذا الخنجر في ساداتك لقادر على غمسه في فؤادك، إلا أنني رأيت الرجل الطيب الصالح متجسداً فيك؛ فأحببت أن أستبقى عليك لفرصة أخرى؛ فقد أعذر من أنذر، والسلام على من اتبع الهدى، وخشي عواقب الردى". انظر: محمد الخشت: حركة الحشاشين ص (١٠١)، نقلًا عن كتاب (البستان الإسماعيلي).

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطنية ٥٠٧

الناس أحوالهم، ودامت حتى استتبّت على استتار؛ بسبب أنه لم يكن للدولة أصحاب أخبار"^(١).

وهكذا أشاعت هذه الجماعات الباطنية الرعب والفرع والقلق والفوضى في أنحاء الخلافة العباسية، وكان من نتائج أسلوبهم في التصفية الدموية والاعتقال أن ذهب ضحيتهم كثير من الرعب في نفوس الناس، وهددوا أمنهم وسلامتهم.

وكان من أبرز ضحاياهم - هو أول ضحية لهم - الوزير السلجوقي الشهير نظام الملك (الذي كان من الأعداء الألداء للشيعنة، وخاصة الإسماعيلية) حيث اغتالوه سنة (٤٨٥هـ)، عندما أمر بإرسال العسكر لحصار الحسن بن الصباح إثر استيلائه على قلعة (آلموت) سنة (٤٨٣هـ). فلما ضاق ذرعاً بهذا الحصار وجه أحد أتباعه لاغتيال نظام الملك؛ فتم له ذلك، وانتهى حصار القلعة^(٢)، وكذلك اغتالوا الوزير أبا

(١) تاريخ دولة آل سلجوق ص (٦٢)، ولاشك أن مما ساعد على اتساع نفوذ الباطنية وتحقيقهم لكثير من أهدافهم التي سعوا لها هو إهمال السلاجقة للبريد، وكان الوزير نظام الملك قد أشار على السلطان ألب أرسلان بضرورة الاهتمام بالبريد، لكنه لم يأخذ بمشورته، وقد دفع السلاجقة ثمن إهمالهم البريد أرواحهم أحياناً، وضعف دولتهم، ثم نهايتها. انظر: نظام الملك: سياسة نامه ص (١٠٢)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (٦٢-٦٣).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٢٠٤/١٠-٣١٧)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (١٢٨/٢)، أبو شامة: الروضتين (٢٥/١)، اليافعي: مرآة الجنان (١٣٥/٣).

الفرج محمد بن عبد الله -رئيس الرؤساء- سنة (٥٧٣هـ)^(١)، وفي عام (٤٩٠هـ) قتلوا عبد الرحمن السميرمي؛ وزير أم السلطان بركياروق^(٢)، كما قتلوا "أرعرش النظامي" مملوك نظام الملك بمدينة الري، في تلك السنة، وقتلوا -في العام ذاته- الأمير "برسيق" الذي كان من كبار قواد السلطان طغرل بك، وأول من تولى شحنة بغداد^(٣)، وفي سنة (٤٩٢هـ) قُتل أبو القاسم ابن إمام الحرمين، أبي المعالي الجويني، قتله بعض الباطنية بنيسابور^(٤)، كما قتلوا سنة (٤٩٣هـ) شحنة أصبهان الأمير بلكابك سمرز، في دار السلطان محمد، وكان كثير الاحتياط من الباطنية، لا يفارقه لبس الدرع؛ فلم يلبسه تلك الليلة، ودخل دار السلطان؛ فضربه الباطني بسكين، وقتل معه اثنين، ومات -في تلك الليلة- جماعة من أولاد الشحنة، حيث أخرج من داره خمس جنائز^(٥)، وفي نفس السنة قُتل أمير

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٨٠/١٠)، ابن العماد: شذرات الذهب (٢٤٥/٤)، وقد تقدمت ترجمته.

(٢) ابن الأثير: الكامل (٢٧٠/١٠)، كذلك قتلوا الوزير الكمال أبا طالب السميرمي سنة (٥١٦هـ)، وهو وزير السلطان محمود. (ابن الأثير: الكامل (٦٠١/١)).

(٣) ابن الأثير: الكامل (٢٧١/١٠).

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية (١٥٧/١٢).

(٥) ابن الجوزي: المنتظم (١١٤/٩)، ابن الأثير: الكامل (٣٠١/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٥٨/١٢).

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطلة ٥٠٩

بالري -أيضاً- على أيديهم^(١)، وفي سنة (٤٩٥هـ) قتلوا الوزير الأغر، وزير السلطان بركياروق علسى باب أصفهان^(٢)، وفي سنة (٤٩٨هـ) خرجوا على قافلة الحجاج القادمة من بلاد ما وراء النهر^(٣) وخراسان عند مدينة الري؛ فقتلوا من فيها؛ وغنموا أموالهم ودوابهم، ولم يتركوا لهم شيئاً، كما قتلوا في العام نفسه شيخ الشافعية بمدينة الري الفقيه أبا جعفر بن المشاط الذي كان يدرس ويعظ الناس بالري، فلما نزل من كرسيه أتاه باطني فقتله^(٤).

كما اغتالوا القاضي أبا العلاء بن صاعد النيسابوري الحنفي بجامع أصفهان سنة (٤٩٩هـ)^(٥)، كما قاموا بقتل الوزير فخر الملك بن نظام

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١١٤/٩).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٣٣٥/١٠)، محمد شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد ص (١٥٠)، واسمه: أبو المحاسن، عبد الجليل بن محمد الدهستان؛ وزير السلطان بركياروق على أصفهان.

(٣) ما وراء النهر: يُراد به ما وراء نهر جيحون بخراسان، فما كان في شرقية يقال له بلاد الهياطلة، وما كان في غريبه فهو خراسان، وولاية خوارزم. انظر حول بلاد ما وراء النهر وما يتبعها من مدن وبلدان: (ياقوت: معجم البلدان (٤٥/٥)، القزويني: آثار البلاد ص (٥٥٧)، وعن خراسان وما يتبعها من بلدان، انظر: (ياقوت: معجم البلدان (٣٥٠/٢).

(٤) ابن الأثير: الكامل (٣٩٣/١٠)، محمد الخشت: حركة الحشاشين ص (٩٣).

(٥) ابن الأثير: الكامل (٤١٥/١٠).

الملك، سنة (٥٠٠هـ)، وكان وزيراً للسلطان السلجوقي سنجر^(١)، كما قتلوا أيضاً أبا المظفر بن الخجندي بالري، وكان واعظاً مجيداً وصديقاً لنظام الملك، وكان الأخير يتردد إليه ويزوره^(٢).

وفي سنة (٥٠٢هـ) قاموا باغتيال شيخ الشافعية فخر الإسلام، القاضي أبا المحاسن، عبد الواحد بن إسماعيل الروياني^(٣)، كما قتلوا في نفس السنة قاضي قضاة أصبهان عبيد الله بن علي الخطيبي^(٤)، وقُتل كذلك أبو العلاء صاعد بن محمد بن عبد الرحمن النجاري؛ قاضي نيسابور؛ وذلك يوم عيد الفطر سنة (٥٢٠هـ)^(٥) كما كان من أهم أهدافهم الأمراء المجاهدين الذين يجاهدون أعداء الإسلام، ويدافعون عن مقدسات المسلمين وديارهم؛ كالأمير مودود -صاحب الموصل- الذي

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٤٨/٩)، ابن الأثير: الكامل (٤١٨/١٠)، محمد الخشت: حركة الحشاشين ص (٩٣).

(٢) محمد الخشت: حركة الحشاشين ص (٩٢)، واغتالوا كذلك والي بيهق، ومفتي أصبهان، وغيرهما. انظر: المرجع السابق ص (٩٢).

(٣) الذهبي: العبر (٣٨٣/٢)، وكان الروياني حافظاً للمذهب، يقول: "لو احترقت كتب الشافعي لأمليتها من حفظي"، انظر ترجمته في: المنتظم (١٦٠/٩)، الكامل (٤٧٣/١٠)، البداية والنهاية (١٧٠/١٢)، شذرات الذهب (٤/٤).

(٤) ابن الأثير: الكامل (٤٧١/١٠)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (٩١)، الذهبي: دول الإسلام ص (٢٥٩)، محمد الخشت: حركة الحشاشين ص (٩٨).

(٥) ابن الأثير: الكامل (٤٧٢/١٠)، الذهبي: دول الإسلام ص (٢٥٩)، العبر (٣٨٣/٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (٤/٤).

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطنية ٥١٩

اغتالوه سنة (٥٠٧هـ)^(١)، والأمير أحمد إبراهيم الروادي -صاحب مراغة- قتلوه سنة (٥٠٨هـ)^(٢)، كما قتلوا قسيم الدولة آقسنقر؛ البرسقي -صاحب الموصل- سنة (٥٢٠هـ)^(٣)، وقاموا كذلك بقتل آقسنقر؛ وهو أتابك السلطان مسعود؛ حيث دخلوا عليه في خيمته، وتناوبوه بالسكاكين، وذلك سنة (٥٢٧هـ)^(٤)، وغيرهم من الأمراء والقادة المجاهدين.

ويُلاحظ أن الباطنية قاموا بدور سيء للغاية ضد الإسلام والمسلمين؛ حيث قتلوا معظم القادة المجاهدين والسلاطين والأمراء الذين جاهدوا ضد أعداء الله بصدق وعزم وثبات؛ فمواقفهم من الإسلام والمسلمين، وأعمالهم التي قاموا بها، كانت أشد سوءاً وقسوة ونكالاً من

(١) ابن الأثير: الكامل (٤٩٦/١٠)، التاريخ الباهر ص (١٩)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (١٥٨)، أبو الفداء: المختصر (٢٢٦/٢)، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص (١٨٧).

(٢) الذهبي: العبر (٣٩١/٢).

(٣) ابن الأثير: الكامل (٦٣٣-٦٣٤)، والبعض يذكر أن مقتله سنة (٥١٩هـ)، مثل: ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١٩٥)، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٢٣٠/٥)، كذلك قتلوا "جناح الدولة" صاحب حمص سنة (٤٩٥هـ). سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٣٩١/١).

(٤) ابن الأثير: الكامل (٦٨٦/١٠)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (١٥٥)، الحسيني: أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ص (٢٠٣).

بعض مواقف اليهود والنصارى؛ وبهذا تتفق أهدافهم مع الصليبيين وأعداء الإسلام في التخلص من الأبطال والقادة والمجاهدين العظماء من المسلمين^(١).

وهكذا ذهب ضحية الباطنية خلق كثير من الخلفاء^(٢) والسلاطين^(٣) والأمراء؛ حيث قتلوا معظم والقضاة والقادة والعلماء والمجاهدين؛ مما يُدلل على خطر حركتهم وقوة تنظيمها، والتخطيط المدروس والدقيق في تنفيذ

(١) فايد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ص (١٧٣)، العسيري: الحياة العلمية في العصر السلجوقي ص (١٣١).

(٢) كالخليفة المسترشد بالله، ومحاولتهم قتل الخليفة المستظهر بالله قبل ذلك.

(٣) كالسلطان داود بن محمود بن محمد ملكشاه، قُتل على أيدي الباطنية؛ وذلك سنة (٥٣٨هـ)، بمدينة تبريز، وصاحب خلاط السلطان سيف الدين بكتمر سنة (٥٨٩هـ). ابن الأثير: الكامل (١٠٢/١٢)، البنداري: تاريخ آل سلجوق ص (١٧٧)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (٢١٩)، الذهبي: العبر (٩٨/٣)، ابن العماد: شذرات الذهب (٢٧٩/٤)، وفي الشام قتلوا تاج الملوك بوري بن ظهير الدين طغتكين سنة (٥٢٦هـ)، ثم اغتالوا ولده شمس الملوك إسماعيل سنة (٥٢٩هـ) وذلك لجهادهما ضد الباطنيين والصليبيين، ووقوفهما ضد أي تحالف بينهما يُخدم مصالحهما ويضر بالمسلمين. ابن الأثير: الكامل (١٧٠/١١) (٢٠/١١)، الذهبي: دول الإسلام ص (٢٧١، ٢٧٤)، الكتيبي: عيون التواريخ (١٣/ورقة رقم ٤٨٧، خ)، اليافعي: مرآة الزمان (٢٢٩/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٠٤/١٢)، كما حاول الباطنية التخلص من السلطان بركياروق والسلطان محمد، ولكنهم فشلوا في ذلك. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني... (٣٩/٤).

جرائمهم؛ الأمر الذي من أجله قامت الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية ببذل الجهود العظيمة والتضحيات الجسيمة لحرهم ومقاومتهم عسكرياً وفكرياً، وهبّ الجميع في محاولة للتخلص من شرهم وخطيرهم المحقق بالمسلمين، والذي راح ضحيته الكثير.

ولاشك أن تلك الجهود قد أتت بنتائج طيبة؛ حيث اضطر أتباع هذه الفرقة الضالة للهروب إلى الجبال البعيدة في أقصى شمال شرق الدولة الإسلامية؛ مما يعني أن خطر هذه الفرقة قد ضعف وانزوى، وأنه لم يكن من المستطاع القضاء عليهم بشكل نهائي؛ وهذا أمر متوقع؛ لأن استعمال القوة، وعلى الرغم من أنه قد قلل من خطيرهم، وقلص من قوتهم، لم يقض عليهم قضاءً تاماً؛ حيث ظلت هذه الدعوة تضعف وتنشط حسب الظروف والأحوال المتاحة لهم، ومعلوم أن الحجة لا تقاوم إلا بالحجة التي تفضحها وتقضي عليها، ومن هنا كانت المقاومة عسكرية وفكرية في آن واحد^(١).

وقد قام السلاطين السلاجقة بجهود عظيمة وأعمال مجيدة ضد الباطنية، وتعقبوا دعوتهم -وبشكل خاص- أيام السلطان ملكشاه، ووزيره نظام الملك، والسلطان بركياروق، والسلطان سنجر، وغيرهم، وبدعم ومساعدة وتأييد من الخلفاء العباسيين الذين كان لهم دور كبير في

(١) العسيري: الحياة العلمية في العصر السلجوقي ص (١٤٢).

تشجيع السلاجقة والأمراء على جهادهم وحرهم، وإنقاذ المسلمين من شرورهم وأخطارهم.

وسوف أعرض -بشكل عام- لأهم المواقف والجهود التي قام بها السلاطين السلاجقة لمقاومة الباطنية، والحد من أخطارهم وشرورهم، والجدير بالذكر أن هذه المقاومة وتلك الجهود التي بُذلت، لم تكن على درجة واحدة من حيث القوة في مقاومتهم، والإصرار على التخلص منهم؛ بل تراوحت بين المقاومة الحذرة حيناً، والمقاومة القوية حيناً آخر؛ أي حسب الظروف المتاحة لأطراف القتال؛ مع الأخذ في الحسبان نزاعات وصراعات البيت السلجوقي؛ الذي استفاد من خلاله الباطنية كثيراً في التمكين لأنفسهم، والاستيلاء على القلاع والحصون، والتخلص من أعدائهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

ولنبداً بمواقف السلطان السلجوقي ملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ) الذي بلغ النفوذ الباطني في عصره الذروة، ومن هنا كانت السياسة المتبعة في مقاومتهم في عصر السلطان ملكشاه، وابنه السلطان بركياروق (٤٨٥-٤٩٨هـ) تتراوح بين المهادنة والملاطفة لهم حيناً، والمقاومة الحذرة حيناً آخر، ويتجلى ذلك عندما استولى الحسن بن الصباح على قلعة ألموت سنة (٤٨٣هـ)، وانتشر اتباعه وفدائيوه يغتالون الآمنين، ويسفكون دماءهم؛ عند ذلك أرسل له ملكشاه الإمام أبا يوسف بن

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطنية ٥١

سليمان بن داود^(١)، لمناظرهم، وإقناعهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد باءت تلك المحاولة بالفشل.

ومن ثم لجأ السلطان ملكشاه إلى المقامة والعمل المسلح؛ فأرسل في سنة (٤٨٥هـ) الأمير "أرسلان طاش" فحاصر القلعة أيامًا، ولكنه هزم في النهاية كما أرسل في نفس السنة أحد قواده؛ فحاصر قلعة "ديره" ثم رجع ولم يظفر منها بطائل^(٢)، مما اضطر معه ملكشاه إلى اتباع أسلوب التهديد والوعيد معهم؛ فبعث إلى زعيمهم الحسن يدعوه إلى الطاعة، والكف عن بث أصحابه وفدائييه لقتل الأمراء والعلماء والقادة، ونحوهم، ويبلغ في تهديده ووعيده؛ فما كان من الحسن بن الصباح إلا أن نادى على بعض أتباعه -ورسول السلطان ملكشاه حاضر- فقال لهم: أريد أن

(١) هو: يعقوب بن سليمان بن داود الخازن، من أهل اسفراين، كان فقيهاً عارفاً بالأصول، صنف كتاباً في الإمامة وشرائط الخلافة وبعض السير العادلة، سماه "المستظهر" نسبة للخليفة المستظهر بالله، له كتاب "بدائع الآثار وروائع الأشعار" توفي في شهر ذي القعدة سنة (٤٨٨هـ)، وكتاب المستظهر -المتقدم- يختلف عن كتاب المستظهر الذي صنفه أبو بكر الشاشي للخليفة المستظهر أيضاً؛ وهو كتاب في الفقه على مذهب الشافعي. انظر: المقرئزي: اتعاظ الحنفا (٢/٣٢٤) وحاشية رقم ١ في نفس الصفحة).

(٢) دائرة المعارف الإسلامية (٣/٣٧٧) مادة (إسماعيلية)، عبد المجيد بدوي: التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص (١٦٢)، وتذكر بعض المراجع أن اسم القائد "قرل مارق". (محمد الخشت: حركة الحشاشين ص (٧٦)).

أنفذكم إلى مولاكم في حاجة، فمن ينهض لها؟ فاشراًب كل واحد منهم لذلك. وظن رسول السلطان أنها رسالة يحملها إياهم إلى السلطان؛ فأوماً إلى أحدهم، وقال له: اقتل نفسك؛ فجذب سكينه وضرب بها نفسه فخرّ صريعاً، وقال للآخر: ارم نفسك من القلعة؛ فألقى بنفسه منها فمات، ثم التفت إلى رسول السلطان، فقال له: أخبره -أي: السلطان- أن عندي من هؤلاء عشرين ألفاً؛ هذا حد طاعتهم لي، وهذا هو الجواب، فعاد الرسول إلى السلطان ملكشاه؛ فأخبره بما رأى، فعجب من ذلك، وترك كلامهم^(١).

ثم ما لبث ملكشاه أن توفي في تلك السنة (٤٨٥هـ)^(٢) والحقيقة أن السلطان ملكشاه لم يبذل جهداً كبيراً في مقاومته وتصديه لهم جهداً يتناسب مع قوته ومكانته وهيئته؛ حيث نلاحظ أنه لم يتوجه بنفسه للحرهم، كما فعل في مناسبات كثيرة؛ عندما كان يتهدد دولته خطر من الأخطار، كما أنه لم يأخذ بنصائح وزيره نظام الملك؛ الذي حذره كثيراً من أخطار هذه الحركة، وكان يشكو كثيراً في كتابه "سياسة نامه" من انتشار نفوذهم وكثرتهم في وظائف الدولة والديوان، وقال: "إنهم يدبرون

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٢١/٩)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٥٩/١٢-١٦٠).

(٢) انظر في سيرته وأخباره: الرواندي: راحة الصدور ص (١٩٧)، البنداري: تاريخ آل سلجوق ص (٥٢)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٨٣/٥)، الحسيني: أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ص (١٢١)، الحسيني: العراضة في الحكاية السلجوقية ص (٥٥)، اليافعي: مرآة الجنان (١٣٩/٣).

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطنية ٥١٧

من وراء أسوارهم نكبة هذه المملكة، وإفساد مذهبها ودينها، يلقون السمع لكل صيحة نكواء، ويتدربون بها كل آفة؛ حتى إذا أصابت هذه الدولة القاهرة مصيبة جديدة، خرج هؤلاء الكلاب من مكائهم لنشر الدعوة الشيعية، ولم يغادروا شيئاً من الشر والفساد والقتل والبدع إلا فعلوا...^(١).

وعندما نتحدث عن السلطان ملكشاه وجهوده ضد الباطنية والفرق الضالة، لا بد أن نتطرق لجهود وزيره الشهير "نظام الملك الطوسي"^(٢)

(١) نظام الملك: سياسة نامه ص (٢٣٣-٢٣٤)، بتصرف، وكان نظام الملك قد أوضح -في كتابه المذكور- أن ملكشاه استطاع أن يجني بعض الأموال من ورائهم، بعد أن غرسوا في نفسه حب المال، وحرّضوه على جمعه. سياسة نامه ص (٢٣٤)، وكان ابن الجوزي قد أشار إلى مهادنة ملكشاه للباطنية؛ فقال: "وكان هذا السلطان قد أفسد عقيدته الباطنية، ثم رجع إلى الصلاح. (المنتظم ٧٣/٩)، وبعد الوزير نظام الملك العدو الأول والخصم اللدود للباطنية. (محمد الخشت: حركة الحشاشين ص (١٥).

(٢) نظام الملك هو: الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي؛ الملقب بقوام الدين، ولد سنة (٤٠٨هـ)، كان وزيراً حازماً عالي الهمة. متديناً محتشماً، اشتغل بالأعمال السلطانية؛ فاتصل بالسلطان ألب أرسلان؛ فاستوزره؛ فأحسن التدبير، وبقي في خدمته عشر سنين، فلما مات السلطان ألب أرسلان خلفه ابنه ملكشاه؛ فصار الأمر كله لنظام الملك؛ فشجع العلم والعلماء، وكان مجلسه عامراً بالقراء والفقهاء، وأيامه دولة أهل العلم، كان إذا سمع المؤذن أمسك عن كل ما هو فيه وتجنبه، ولا يبدأ بشيء قبل الصلاة، جواداً حليماً، كثير العفو، أسقط المكوس والضرائب، وأزال لعن

ومواقفه العظيمة ضد أصحاب النحل والأهواء الضالة ومجاهته لهم فكرياً، والوقوف في وجه هذا الخطر العظيم الذي أصبح يهدد الإسلام والأمة الإسلامية بصفة عامة؛ فبادر نظام الملك إلى محاربتهم عن طريق إنشاء المدارس النظامية^(١) التي بثها في أرجاء العالم الإسلامي؛ تلك المدارس التي

الأشعرية من المنابر، توفي سنة (٤٨٥هـ)، وقد تضاربت أقوال المؤرخين في أسباب قتله، ولكن أشهرها أنه قُتل على أيدي الباطنية، حيث كان من ألد الأعداء لهم، والواقع أن الباحث في تاريخ الدولة السلجوقية لا يجد مفراً من الوقوف وقفات طويلة عند الدور الذي قام به نظام الملك على مسرح الدولة السلجوقية؛ حيث قام بدور كبير الأثر في جميع النواحي الدينية والسياسية والاجتماعية والثقافية. انظر حول ترجمته وأخباره وسيرته: المنتظم (٦٤/٩)، الكامل (٢٠٤/١٠)، وفيات الأعيان (١٢٨/٢)، راحة الصدور ص (٢٠٩)، تاريخ دولة آل سلجوق ص (٥٣) وما بعدها، العراضة ص (٥٦)، زبدة التواريخ ص (١٣٩)، طبقات الشافعية الكبرى (٣٠٩/٤)، مرآة الجنان (١٣٥/٣)، العالم الإسلامي في العصر العباسي ص (٦٠٠)، أنور الجندي: أعلام الإسلام ص (٢٤١)، وهناك رسالة ماجستير عن الوزير السلجوقي نظام الملك، إعداد هيفاء البسام (١٤٠٠هـ)، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

(١) انظر حول المدرسة النظامية وإنشائها وافتتاحها وما يتعلق بأوقافها ونفقائها: البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (٣٢-٥٤)، المقرئزي: الخطط (٣٦٣/٢)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (١٦٦/١)، ابن الساعي: الجامع المختصر (٢٠/٩)، ابن النظام الحسيني: العراضة ص (٧٥)، اليافعي: مرآة الجناة (٨٣/٣)، حسن

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطلة ٥١٩

كانت تستهدف تخريج أكبر عدد ممكن من المثقفين من أهل السنة؛ للدفاع عن العقيدة السلفية، والوقوف في وجه أباطيل الشيعة وفرقها المتنوعة، وخاصة الإسماعيلية الباطنية.

والجدير بالذكر أن المدارس النظامية لم تكن الأولى التي أنشئت في ديار الإسلام؛ فقد أنشئت قبلها - في المشرق الإسلامي - مدارس أخرى؛ أي أن المدارس كانت موجودة قبل نظام الملك^(١)، وقد سبقته جهود العلماء في العصر البويهى وغيره؛ مثل مدرسة البيهقي في نيسابور^(٢)، والمدرسة السعدية التي بناها الأمير نصر بن سبكتكين؛ أخو السلطان

الباشا: دراسات في الحضارة الإسلامية ص (١٠٢)، جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٣/٢٢٠).

(١) يذكر الأستاذ ناجي معروف أن هناك مدارس عديدة أنشئت قبل النظامية بأكثر من (١٦٥ سنة)، وقد أشار إلى (٣٣) مدرسة في المشرق الإسلامي في نيسابور، وبخارى، وغزنة، وطوس، وبوشنج، وذكر أن أقدمها أنشئت سنة (٣٤٩هـ)، وهي مدرسة حسان القرشي الأموي بنيسابور، وقد قام بإنشاء هذه المدارس المستقلة عن المساجد منذ أواخر القرن الثالث الهجري.

انظر للتوسع حول ذلك: ناجي معروف: مدارس قبل النظامية ص (١٠٣) وما بعدها، نشأة المدارس المستقلة في الإسلام، طه الولي: التعليم عند المسلمين، مجلة الفكر العربي ص (١٨)، العدد العشرون، السنة الثالثة، (١٩٨١م).

(٢) يذكر السبكي أن المدرسة البيهقية بنيسابور - هذه - كانت موجودة قبل أن يولد نظام الملك. طبقات الشافعية الكبرى (٤/٣١٤).

محمود الغزنوي، والأخرى التي بناها إسماعيل بن علي الاشرابادي هناك؛ أي في نيسابور، والرابعة التي بُنيت للأستاذ أبي إسحاق الاسفراييني^(١) -المتكلم الشافعي- (ت: ٤١٨هـ) وكذلك مدرسة محمد بن الحسن بن فورك (ت: ٤٠٦هـ) وبنيت له عندما قدم نيسابور؛ فأحيا الله به علومًا إلى أن توفي^(٢)، وغير ذلك من المدارس الكثيرة التي أنشئت في نيسابور، والتي أدت دورًا كبيرًا، وأثرت تأثيرًا بالغًا في النهوض بالحركة العلمية الفكرية، وأصبحت مقصد طلاب العلم؛ يفدون إليها من كل مكان^(٣).

وكانت النهضة العلمية في بغداد نشيطة أيضًا، ومزدهرة بفضل وجود المدارس والمكتبات العامة الكثيرة؛ منها مدرسة ابن اللبان؛ وهي لأبي الحسن محمد بن عبد الله بن الحسن البصري^(٤)، ودار العلم؛ وهي مدرستان، الأولى: وقفها وزير الدولة البويهبي، أبو نصر بن أزد شير (ت: ٤١٦هـ) في عام (٣٨١هـ)، وملاها بالكتب ووقف عليها أموالًا

(١) السبكي طبقات الشافعية الكبرى (٤/٣١٤)، أكرم العمري: دراسات تاريخية ص (١٢٦).

(٢) الإسنوي: طبقات الشافعية (٢/١٢٧)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣/١٨١).

(٣) حول تلك المدارس وأسماء أصحابها وأماكنها، انظر ناجي معروف: مدارس قبل النظامية ص (١٠٣)، أكرم العمري: موارد الخطيب البغدادي ص (٢٤-٢٥)، دراسات تاريخية ص (١٢٦-١٢٧)، حسين أمين: المدرسة المستنصرية ص (٢١-

٢٢)، بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية ص (١٠٤).

(٤) ابن العماد: شذرات الذهب (٣/١٦٤-١٦٥).

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطلة ٥٢

كبيرة، إلا أنها احترقت عام (٤٥٠هـ)^(١)، والثانية: وقفها على الفقهاء، وسماها (دار العلم) بعد أن جدد عمارتها، وملأها بالكتب، ويقول ابن كثير عن هذه المدرسة: "وأظن أن هذه أول مدرسة وقفت على الفقهاء، وكانت قبل النظامية بمدة طويلة"^(٢).

وكانت ببغداد أيضاً مدارس للحنفية؛ مثل مدرسة الأسروشي، نسبة إلى أبي جعفر بن عبد الله الأسروشي -القاضي الإمام- وهو أستاذ أبي زيد الدبوسي^(٣)، ومدرسة القدوري ببغداد^(٤)، ومدرسة الصيمري، وكان علماء الحنفية يتوارثون التدريس في بعض مساجد بغداد^(٥).

وهناك مدارس أخرى مماثلة للشافعية والحنابلة في بغداد أيضاً^(٦)، والتي كانت المدارس فيها كثيرة؛ حيث ذكر ابن جبر -خلال رحلته

(١) الذهبي: العبر (١٦٢/٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٩/١٢).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (٣١٢/١١).

(٣) اللكنوي: الفوائد البهية في تراجم الحنفية ص (٧٥).

(٤) نفسه: ص (٣٠)، القرشي: الجواهر المضية في طبقات الحنفية (٢٤٧/١).

(٥) الصيمري: أخبار أبي حنيفة وأصحابه ص (١٦٧).

(٦) حول أسماء مدارس الشافعية والحنابلة في بغداد، انظر: ابن الجوزي: المنتظم

(٧/٢٧٧)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٧٣/١)، الذهبي: العبر (٢٠٥/٢-٢١١)،

ابن كثير: البداية والنهاية (٣٤٩/١١)، (١٦/١٢-٣٧)، أكرم العمري: موارد

الخطيب البغدادي ص (٢٣).

لبغداد- قال: "وكانت المدارس ببغداد كثيرة، نحو الثلاثين، وأعظمها وأشهرها: النظامية، وهي التي أنشأها نظام الملك"^(١).

ويتضح مما سبق أن النظاميات (المدارس النظامية) لم تكن أول المدارس نشأة في المشرق الإسلامي^(٢)، بل كانت أول مؤسسات تربية رسمية، تدخلت الدولة في تحديد أهدافها، ورسم مناهجها، واختيار أساتذتها، وتنظيمها، والقيام بالإنفاق عليها، والإشراف المباشر على سير العمل فيها^(٣).

(١) رحلة ابن جبیر: ص (١٨٣)، ثم انظر: ناجي معروف: المدارس الشرايية ببغداد وواسط ومكة ص (١١١-١١٦).

(٢) يحدد المقرئزي تاريخ نشأة المدارس بقوله: "والمدارس مما حدث في الإسلام، ولم تكن تعرف زمن الصحابة ولا التابعين، وإنما حدث علمها بعد الأربعمئة من سني الهجرة". (الخطط (٣٦٣/٢)، ولكن يفهم من رواية السبكي -المتقدمة الذكر- ومما نقله آدم متز عن الحاكم النيسابوري (ت: ٤٠٦هـ)، وهو صاحب، تاريخ نيسابور "أن المدارس من نشأة القرن الرابع الهجري، وأن نيسابور كانت مهذا لها. (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (١/٣٣٦-٣٣٧)، وانظر كذلك: أكرم العمري: دراسات تاريخية ص (١٢٦).

(٣) يذكر سبط ابن الجوزي أن نظام الملك بنى المدارس والرباطات في كل بلد، ووقف عليها الأوقاف، وصرف العناية إلى نظامية بغداد. (مرآة الزمان (١/١٦٦)، ويذكر الحسيني أن نظام الملك خصص لطلاب العلم وظائف مرتبة وانعامات مقسرة. (العراضة ص (٥٧-٥٨).

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطنية ٥٢٣

ويُعدُّ نظام الملك أول من قدر المعاليم^(١) للطلبة، إضافة إلى توسعه الكبير واهتمامه العظيم في إنشاء المدارس في عدد كبير من مدن العراق والمشرق الإسلامي؛ حيث كان يفتح المدارس الكثيرة، ويخصص لها ما تحتاجه من مخصصات مالية^(٢)، ويعين لها العلماء الأكفاء الذين كانوا يعينون بمرسوم خاص يصدر من الخلفاء أو السلاطين السلاجقة أو الوزراء؛ حيث كان تولي التدريس بالمدارس النظامية منصباً مرموقاً، وشرفاً عظيماً يطمع إليه الكثير من العلماء، وكان له مراسيم معينة تُتبع عند تولية أحد العلماء التدريس بالنظامية^(٣)، وكان نظام الملك يغدق على أولئك العلماء الأموال الكثيرة، ويشجعهم لنشر العلم الشرعي، وتخريج

(١) المعاليم: هي المراتب أو الجرايات. مريزن عسيري: الحياة العلمية في العصر السلجوقي ص (٢٥٥)، نقلًا عن: ناجي معروف: التوقيعات التدريسية، مقالة بمجلة كلية الآداب - جامعة بغداد - العدد السادس ص (٢٧)، ولم تكن المدارس التي أنشئت - قبل ذلك - تقدر المعاليم للطلبة. (السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٣١٤/٤).

(٢) انظر: ناجي معروف: المدارس الشراعية ص (١١٢-١١٤)، علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي مطبعة الإرشاد، بغداد (١٣٩٣هـ).

(٣) كان لتولية أحد العلماء مهمة التدريس بالنظامية مراسيم معينة؛ حيث تُخلع عليه أهبة سوداء، وطرحة كحلية، ويذهب في موكب إلى المدرسة، ويحضر عنده أرباب الدولة على جاري العادة، ثم يقوم بإلقاء درسه. ابن الساعي: الجامع المختصر ٧٩/٩).

جيل من الدعاة والعلماء؛ للدفاع عن الدين الإسلامي، والتصدي لقوى البغي والضلال والتيارات الهدامة^(١).

وعندما نناقش أسباب ودوافع إنشاء المدارس النظامية نجد أنها لا تقصر على سبب واحد فقط؛ وإنما هناك جملة أسباب مجتمعة دفعت نظام الملك إلى تبني مثل ذلك العمل العظيم، والافتناع بفكرته، والإسراع في تنفيذه، وتلك الأسباب كانت عقديّة بالمقام الأول^(٢)؛ لأننا نعلم أن دخول السلاجقة بغداد سنة (٤٤٧ هـ) كان يمثل انتصاراً عظيماً لمذهب أهل السنة على المذهب الشيعي الذي كان مسيطراً على الحياة السياسية في العراق والمشرق الإسلامي في العصر البويهي؛ حيث كان الوضع

(١) انظر حول ذلك: الذهبي: سير أعلام النبلاء (٩٤/١٩)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٣١٣/٤)، أحمد الملا: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية ص (٥٣)، وقد حفظ القلقشندي نموذجاً لتوقيع تدرّيس كتب به عن الخليفة الناصر لدين الله للقاضي محيي الدين محمد بن فضالان بالتدرّيس في المدرسة النظامية ببغداد سنة (٦١٤ هـ). انظر النص في: القلقشندي: صبح الأعشى (٢٩٢/١٠) ويشير البنداري إلى دقة نظام الملك في اختيار أساتذة المدارس النظامية؛ فيقول عنه: لا ولم يزل بابه مجمع الفضلاء، وملجأ العلماء، وكان ناقدًا بصيرًا ينقب عن أحوال كل منهم؛ فمن تفرس فيه صلاحية الولاية ولاه.. ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه ورتب له ما يكفيه من جداره؛ حتى ينقطع إلى إفادة العلم ونشره:" انظر: تاريخ دولة آل سلجوق ص (٥٤-٥٥)، ونحوه عند: السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (١٩٦/٦).

(٢) إضافة إلى أسباب سياسية لا تخفى؛ كان يطمح إليها نظام الملك.

السياسي والديني المضطرب الذي خلفه البويهيون في أثناء سيطرتهم على الخلافة العباسية، ومحاولتهم القضاء عليها^(١)، وعلى مذاهب أهل السلف ونشر المذهب الشيعي، قد دفع بالسلاجقة وعدد من العلماء إلى الوقوف بوجه الدعاية الإسماعيلية، والحد من نفوذهم، ومقاومتهم، والدفاع عن العقيدة الإسلامية، وإعطاء الحرية لعلماء أهل السنة وفقهائهم للدفاع عن وجهات نظرهم، والرد على خصومهم الذين كانوا قد ضيقوا عليهم كثيراً.

لذلك كله فكر نظام الملك في أن يُقاوم النفوذ الشيعي بنفس الأسلوب الذي ينتشر به؛ أي يقرن المقاومة السياسية والعسكرية للشيعية بمقاومة فكرية أيضاً، والقيام بعمل مضادة من أجل القضاء على الأفكار التي نشرتها الباطنية؛ وذلك ليحرر عقول الناس مما قد علق بها من مبائ وأفكار مضللة؛ من تأثير الدعوة الباطنية للمذهب الشيعي^(٢)، ورأى أن نشر العلم واستعمال أساليب الجدل العقلي - وهو السلاح الذي استخدمه الإسماعيلية - خير طريق لذلك؛ لأنه متى ما أتيح للناس أن

(١) انظر حول تلك المحاولة: ابن الأثير: الكامل (٤٥٢/٨)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢١٣/١١-٢١٤)، ولم يفعلوا ذلك لاعتبارات سياسية - كما يذكر الدوري - لأنهم يعلمون تماماً مدى ولاء الأمة الإسلامية للخلفاء العباسيين، ومعاداتهم لمن يخالفهم أو يتعدى عليهم. الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص (٢٤٨).

(٢) عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٨٧).

يتعلموا مبادئ الدين الحق المستمد من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فهم بلا شك سيعرفون الهدى من الضلال، والحق من الباطل.

ومن هنا كان تفكير نظام الملك في إنشاء المدارس النظامية التي تُنسب إليه^(١)؛ حيث كان هو المسؤول عن توجيه سياسة دولة السلاجقة، والمؤثر الفعال في سياسة الدولة العباسية بصفة عامة؛ لذلك كان لا بد له من أن يسلك الطريق المضمون والملائم لمواجهة مثل هذه الحركات الهدامة؛ لأنه لم يكن من السهل أو الممكن إيقاف الدعوة الباطنية من الانتشار، وجذورها قد تغلغت في المجتمع الإسلامي؛ لاسيما بين العامة وأصحاب الحرف؛ فصمم نظام الملك على أن يمنع هذه الحركة من التوسع أو بث السموم والأفكار الباطلة في جسم الدولة الإسلامية، وعمل

(١) لأنه هو الذي جد في إنشائها، وفكر فيها، وخطط لها، وأوقف عليها الأوقاف الواسعة، واختار لها الأكفاء من الأساتذة؛ فكان من الطبيعي أن تُنسب إليه من دون السلاجقة؛ وهذا يؤكد أن نظام الملك كان رجل دولة وسياسة وفكر من خلال مدة الوزارة التي استمرت ثلاثين عامًا تقريبًا؛ وهو الذي ألف كتاب "سياسة نامه" أو كتاب "السياسة" والذي يعرض فيه آراءه في الحكم والإدارة؛ وهذا يؤكد ما ذهب إليه بعض المؤرخين من أنه يعد بحق أسلوبًا من الإدارة انفرد به الأتراك. العسيري: الحياة العلمية في العصر السلجوقي ص (٩١)، نقلًا عن: كلود كاهن: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ص (٢٤٢)، الزهراني: نظام الوزارة في الدولة العباسية ص (٢٧٢-٢٧٣)، عبد النعيم حسنين: دولة السلاجقة ص (٧٠-٧١)، بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص (٢٨٠).

على محاربتها بنفس أسلوبها وسلاحها؛ حيث أدرك تمام الإدراك أن استخدام القوة والعنف لا يجدي نفعاً في ذلك؛ لأنّ الحجة لا تقهر إلا بالحجة التي تدحضها، وتبطل مزاعمها.

ومن هنا أدرك نظام الملك هذه الأمور والحقائق جيداً، وتيقن أن مجاهدة التيارات الهدامة والأفكار الباطلة لا يكفي أن تكون بقهرهم عسكرياً وسياسياً فقط؛ بل لا بد أيضاً من قهرهم فكرياً وثقافياً^(١)، ومجاهتهم بنفس الطريق الذي سلكوه، ومحاولة إفساد خططهم، وإحباط مخططاتهم ومؤامراتهم؛ بتخريج جماعات مسلمة مثقفة ثقافة إسلامية عالية، ومزودة بسلاح العلم والإيمان معاً، ومثل هذه الحركة الفكرية ليست سهلة على الإطلاق، ولا يستطيعها أو يتحمل تبعاتها وأعباءها إلا رجل مؤمن صابر محتسب جلد قوي جدير بتحمل أعباء الأمة والقيام بمسؤولياته احتساباً وإخلاصاً؛ طلباً لما عند الله تعالى من الثواب والأجر العظيم.

لذلك فقد بذل نظام الملك غاية جهده، وصبر، وصابر في سبيل هذا العمل المجيد؛ فإنه ما كاد يتسلم منصبه في الوزارة حتى شرع في إنشاء

(١) يعدّ كتاب نظام الملك "سياسة نامه" مشاركة فعالة في تلك المقاومة الفكرية؛ إذ خصص فصلاً منه لمهاجمة الباطنية، وبيان فساد مذهبهم، وتفنيد معتقداتهم وأفكارهم بدءاً من الفصل الرابع والأربعين حتى نهاية الفصل السابع والأربعين. انظر: سياسة نامه ص (٢٣٣-٢٩٦)، وكذلك: طه ندا: فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية ص (٨٨-٩٠)، عند النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٨٧).

تلك المراكز الثقافية؛ المتمثلة في تأسيس المدارس النظامية في أمهات المدن وحواضر الأمصار^(١)؛ لكي تحقق الهدف النبيل والمنشود من إنشائها، وعهد بمناصب التدريس في تلك المدارس إلى علماء فحول مخلصين؛ ممن تتوفر فيه المقدرة العلمية، والإخلاص في العمل، ولهم مكانتهم الفكرية في مدغم وحواضرهم؛ حتى يستطيعوا التأثير على العامة، ومن ثم تخرج علماء مسلّحون بسلاح العلم والإيمان، وقفوا أمام الأفكار الشيعة الباطلة، وتصدوا للدعوة الباطنية الفاسدة التي أفسدت عقول الناس، وآذنت بدنو مصيبة عامة؛ كاد يعم أثرها العالم الإسلامي بصفة عامة^(٢)، ولكنه توفيق الله سبحانه وتعالى وحفظه ودفاعه عن عباده المؤمنين هو الذي حالفهم،

(١) الحسيني: العراضة في الحكاية السلجوقية ص (٥٧-٥٨)، ويذكر السبكي أن نظام الملك: "بني مدرسة ببلخ، ومدرسة بنيسابور، ومدرسة بهراة، ومدرسة بأصبهان، ومدرسة بمرو، ومدرسة بأمل طبرستان، ومدرسة بالموصل، ويقال: إن له في كل مدينة بالعراق وخرسان مدرسة".

السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٣١٣/٤)، ويقول المؤرخون: "ومدارسه في العالم مشهورة لم يخل بلد منها حتى جزيرة ابن عمر -بلدة فوق الموصل- التي هي في زاوية كبيرة من الأرض بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة" انظر: ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (٩)، أبو شامة: الروضتين (٢٥/١).

(٢) عبد الحميد بدوي: التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص (٢١٣)، العسيري: الحياة العلمية في العصر السلجوقي ص (٢٥٨).

مصدقاً لقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾^(١).

ومن خلال ما تقدم من نشأة هذه المدارس وفكرتها، ومتابعة تاريخ تطورها، والأسباب التي دعت إلى إنشائها، تتجلى لنا أهداف هذه المدارس والفوائد المتوخاة من تأسيسها، والمثابرة عليها ومتابعتها، والنفقة عليها^(٢).

وتتلخص هذه الأهداف في نشر الفكر السني وصموده أمام تحديات الفكر الشيعي والتيارات المخالفة الأخرى، والعمل على تقليص قوتهم، وإضعاف نفوذهم، وإحباط مخططاتهم، وقمع دعوتهم، ثم إيجاد طائفة من المثقفين السنيين المؤهلين لتدريس المذهب السني، وتخريج علماء مزودين بسلاح العلم والإيمان لنشر المذهب السني في مختلف الأقاليم والأمصار، وكذلك تأهيل طائفة من الموظفين السنيين؛ للمشاركة في تسيير

(١) سورة الحج آية (٣٨).

(٢) يذكر الأستاذ سعيد نفيس أن نظام الملك أنفق على بناء نظامية بغداد مائتي ألف دينار من ماله، وأنه خصص لنفقاتها - كل عام - خمسة عشر ألف دينار تنفق على الأساتذة والطلاب. (سعيد نفيس: المدرسة النظامية في بغداد، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الثالث، (١/١٤٧)، ثم انظر: (حرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٣/٢٢٠)، حسن الباشا: دراسات في الحضارة الإسلامية ص (١٠٢).

مؤسسات الدولة ومصالحها، وإدارة دواوينها؛ ولاسيما في مجال القضاء والإدارة والقيادات المركزية^(١).

وقد تحقق لنظام الملك تلك الأهداف؛ من خلال نشر المدارس النظامية، وإنشائها في المشرق الإسلامي، والتي أثمرت نتائج إيجابية مثمرة حققت الأغراض المنشودة؛ المتمثلة في الدفاع عن الشريعة والعقيدة -بوجه عام- ضد الهجمات الشرسة، والتيارات الباطلة؛ التي قام بها الباطنية بشكل منظم، واستخدموا سلاح العلم فيها؛ الأمر الذي أدرك -من خلاله- نظام الملك أنه لا بد من مقاومتهم بنفس الأسلوب الذي اتبعوه؛ لأن القوة والعنف لا تجدي نفعاً أو تحقق هدفاً أمام العقل والقلم؛ أي لا بد من المقاومة الفكرية والثقافية، المقرونة بالمقاومة السياسية والعسكرية.

وقد ساعدت هذه المدارس على نشر الثقافة والعلم، وزودت أجهزة الدولة بالعناصر المثقفة والمؤهلة؛ لذلك أقبل عليها طلاب العلم والجاه؛ حتى بلغ عددهم في نظامية بغداد سنة (٤٨٨هـ) ثلاثمائة طالب^(٢)، وفي نظامية نيسابور كان يجلس بين يدي إمام الحرمين - كل يوم - نحو ثلاثمائة

(١) عبد المجيد بدوي: التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص (٢١٦).

(٢) نفسه ص (٢٢٥)، ويذكر سعيد نفيس أن عدد الطلاب بنظامية بغداد - في وقت من الأوقات - ستة آلاف طالب. انظر: سعيد نفيس: المدرسة النظامية في بغداد، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الثالث (١/١٤٧-١٤٨).

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطلة ٥٣١

رجل من الأئمة والطلبة^(١)، كما أن هذه المدارس النظامية كان لها الدور الكبير في إمداد المدارس الأخرى؛ التي أنشئت -فيما بعد- بعناصر وكفاءات مؤهلة من العلماء والأساتذة الكبار، والذين قدم بعضهم من بلاد الأندلس والمغرب، وتلقوا علومهم في المدارس النظامية، ومن ثم عادوا إلى بلادهم؛ للتدريس في المدارس والمساجد هناك، إضافة إلى أنه قد -ظهر من بين أساتذة النظاميات- علماء ورجال عظماء أثروا المكتبة الإسلامية بعدد كبير من المؤلفات والتصانيف في مختلف علوم الشريعة واللغة والأدب والتاريخ، وغيرها، وكانت نظامية بغداد أطول المدارس النظامية عمرًا؛ حيث بقيت تؤدي دورها التعليمي زهاء ثلاثة قرون كانت منارةً للعلم، وموطنًا لطلابها، ومجمعًا لرواد الفكر وقادته^(٢).

ولم تكن المدارس النظامية أو غيرها من مدارس العصر السلجوقي إلا امتدادًا لحركة التعليم الإسلامي في المساجد؛ ولذا كان التعليم في المدرسة النظامية -لاسيما في بداية افتتاحها- يركز على تدريس الفقه الإسلامي، والعقيدة، وأصول الدين؛ وهن أبرز ملامح نظام التدريس في

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (١٧١/٥).

(٢) العسيري: الحياة العلمية في العصر السلجوقي ص (٢٦٢-٢٦٣)، ويذكر ابن قاضي شعبة في ترجمته لغيث الدين محمد بن محمد بن عبد الله العاقولي الشافعي (ت: ٧٩٧هـ) أنه درس بالمدرسة النظامية، وهذا ما يوضح بقاءها مدة طويلة من الزمن. العسيري: الحياة العلمية في العصر السلجوقي ص (٢٦٣)، نقلًا عن ابن قاضي شعبة: ذيل تاريخ الذهبي: ورقة (١١١) دار الكتب الباريسية رقم (١٥٩٨).

المدرسة النظامية ببغداد -على وجه الخصوص- ولها عنايتها واهتمامها بموضوع التخصص؛ حيث لم يعهد بالتدريس -في أي قسم من الأقسام الدراسية فيها- إلا لمن عُرف بغزارة العلم والتخصص في ميدانه، ومن هنا لم يكن يعين فيها لتولي منصب التدريس سوى رؤوس العلماء المتخصصين، وكانت المدرسة النظامية تغص بتخصصات متنوعة؛ تشمل الفقه وأصوله، والحديث، والتفسير، والوعظ، والنحو، واللغة، والأدب^(١). وقد تولى التدريس في نظامية بغداد علماء فحول^(٢)، طبقت شهرتهم العالم الإسلامي، وكان لهم مؤلفات ودراسات عظيمة في مختلف العلوم؛ التي برزوا فيها، وسنقتصر على ذكر نماذج من أشهرهم؛ فمنهم: الشيخ أبو إسحاق؛ إبراهيم بن علي الشيرازي (ت: ٤٧٦هـ)، أحد الأعلام، وكان أنظر أهل زمانه وأفصحهم، انتهت إليه رئاسة المذهب الشافعي، ورحل إليه الفقهاء من شتى الأمصار، وتولى التدريس بنظامية بغداد؛ حيث عينه نظام الملك مدرساً وحيداً؛ لتدريس الفقه على مذهب الإمام الشافعي؛ وذلك عند افتتاح المدرسة^(٣) سنة (٤٥٩هـ).

(١) العسيري: الحياة العلمية في العصر السلجوقي ص (٢٧٦).

(٢) كذلك تولى إدارة المدرسة النظامية ببغداد عدد من العلماء الكبار، وقد حُدِّد لكل فرد من رجال إدارتها مهام عمله المنوط به. عن هؤلاء العلماء انظر: ناجي معروف: علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي ص (٣٣).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (٧/٩)، ابن النجار: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد ص (١٣٥)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٩/١)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطنية ٥٣٣

وينقل السبكي عن أبي إسحاق الشيرازي قوله: "خرجت إلى خرسان، فما بلغت بلدة ولا قرية إلا وكان قاضيها أو مفتيها أو خطيبها تلميذي أو من أصحابي"^(١).

كما تولى تدريس الفقه الشافعي في المدرسة النظامية، أبو نصر، عبد السيد بن محمد بن عبد الواحد الصباغ (ت: ٤٧٧هـ) الفقيه الشافعي، كان فقيه العراقيين في وقته، رحل إليه الطلاب من مختلف البلاد، وفاق أبا

(١/٢١٥)، الشيرازي: طبقات الفقهاء ص (٥/٢٢)، المقدمة - وفيها ترجمة وافية لأبي إسحاق الشيرازي تناول نشأته، شيوخه، طلبه للعلم، مواقفه، علاقته بالسلاطين والوزراء والخلفاء، مؤلفاته، وفاته، والكتاب المذكور بتحقيق الدكتور إحسان عباس (١٩٧٨م)، وتوجد كذلك ترجمة مماثلة أوسع من هذه الترجمة وأشمل في مقدمة كتاب "المعونة في الجدل" للشيرازي، تحقيق عبد المجيد تركي ص (٥/٨٥).

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٤/٢١٦)، ويبدو في العبارة شيء من المبالغة إلا أنها تكون مقبولة إلى حد ما، لاسيما إذا علمنا أن التدريس في النظامية كان على مستوى عال يشبه التعليم الجامعي المعاصر، ولا يلتحق به إلا من حصل قدرًا كبيرًا من العلم، وأشرف على التخرج، ومعلوم أن تدريس الشيرازي في النظامية كان سنة (٤٥٩هـ) وخروجه إلى خرسان كان سنة (٤٧٥هـ)، إذا هذه المدة الزمنية الطويلة كفيلة بتخريج عدد لا بأس به من العلماء، ومن هنا يأتي قبول العبارة إلى حد ما، بعد أن علمنا ذلك كله.

إسحاق في المذهب؛ وهو صاحب كتاب "الشامل" وكتاب "الكامل" وكتاب "تذكرة العالم والطريق السالم"^(١).

كذلك تولى تدريس فرع الفقه بالمدرس النظامية، ألكيا الهراسي، أبو الحسن، علي بن محمد بن علي الطبري (ت: ٥٠٤هـ)^(٢).

وقد تولى تدريس فرع الفقه بالمدرسة النظامية ببغداد -أيضاً- حجة الإسلام محمد بن محمد بن محمد، أبو حامد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ)، صاحب التصانيف الكثيرة، وكان على قمة العلماء المفكرين؛ الذين شنوا حرباً شعواء على الشيعة بصفة عامة، وعلى الإسماعيلية (الباطنية) بصفة خاصة، وأشهر كتبه في ذلك، كتاب "فضائح الباطنية" الذي كلف بتأليفه في عام (٤٨٧هـ) من قبل الخليفة المستظهر بالله، وكان لهذا الكتاب أثره

(١) الخطيب: تاريخ بغداد (٣١/١١)، ابن الأثير: الكامل (١٤١/١٠)، ابن النجار: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد ص (٢٩٦)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢١٧/٣)، طبقات السبكي (١٢٢/٥)، طبقات الإسنوي (٣٩/٢)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٦٤/١٨)، العبر (٣٣٧/٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١١٩/٥).

(٢) ابن النجار: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد ص (٣٤٧)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣٥٠/١٩)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٢٣١/٧)، كحالة: معجم المؤلفين (٢٢٠/٧)، وألكيا: بكسر الكاف، وفتح الياء، وبعدها ألف، معناه في اللغة العجمية الكبير القدر، المقدم بين الناس (وفيات الأعيان (٢٨٩/٣)، سير أعلام النبلاء (٢٥٢/١٩)، محمود مصطفى: إعجام الاعلام ص (١٧٤).

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطنة ٥٣٥

القوي في انحسار فكر الشيعة وتراجعها، ومن ثم تأصيل المذهب السني، وانتشاره، والمحافظة على كيان أهل السنة^(١).

كما تولى تدريس الفقه الشافعي^(٢) بالنظامية، فخر الإسلام، أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي (ت: ٥٠٧هـ)، شيخ الشافعية،

(١) انظر حول الغزالي وسيرته وأخباره: ابن الجوزي: المنتظم (١٦٨/٩)، ابن النجار: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد ص (١٢٧)، المختصر في أخبار الشر (٢٢٥/٢)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣٢٢/١٩)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (١٩١/٦)، الإسنوي: طبقات الشافعية (١١١/٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (١٠/٤)، كحالة: معجم المؤلفين (٢١١/١١)، الزركلي: الأعلام (٢٢٩/٧)، بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص (٢٧٥)، عبد الرحمن بدوي: مؤلفات الغزالي ص (٢١-٢٥)، أنور الجندي: نوابغ الإسلام ص (١٧٣)، وأعلام الإسلام ص (١٨١).

(٢) كان نظام الملك مؤسس المدارس النظامية - يلتزم بالمذهب الشافعي، وينصره، ويتعصب له، ويدافع عنه؛ لذلك اشترط فيها؛ أي: في تلك المدارس؛ أن يكون المدرس شافعي المذهب، حتى وصل الأمر إلى أن يُضحى البعض بالتخلي عن مذهبه في سبيل التطلع والوصول إلى منصب التدريس في النظامية؛ وذلك في عصر كان التعصب المذهبي سمة من سماته البارزة؛ لأن ذلك كان مطلبًا يطمع إليه الكثير في ذلك الوقت، ومن هؤلاء: أبو الفتح، أحمد بن علي بن ترکان؛ المعروف بابن الحمامي (ت: ٥١٨هـ) كان حنبليًا؛ فانتقل إلى مذهب الشافعي، والمبارك بن المبارك بن سعيد بن الدهان، الضرير المعروف الوجيه (ت: ٦١٢هـ) كان حنبليًا؛ فتحول إلى مذهب أبي حنيفة، ثم انتقل إلى مذهب الشافعي؛ من أجل أن يتولى تدريس النحو في المدرسة النظامية، وغيرهم كثير. انظر فيهما: ابن الجوزي: المنتظم

(٢٥٠/٩)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (١٥٢/٤)، ياقوت: معجم الأدباء (٥٨/١٧)، ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة (١١١/٢)، السيوطي: بغية الوعاة (٢٧٣/٢)، معجم المؤلفين (١٧٣/٨). إلا أنه -مهما قيل عن نظام الملك، والتزامه بوجهة نظر المذهب الشافعي- لم يكن يقف موقف التصارع مع وجهة السلطنة السلجوقية من جهة والخلافة العباسية من جهة أخرى، أو على حساب مصلحة الأمة، وتنافر أصحاب المذاهب، وإثارة الاضطراب بينهم، يضاف إلى ذلك أن قبول هذه المقولة يؤدي إلى التناقض مع موقف نظام الملك من الدعوة الباطنية، وخططه الواضحة في سبيل تحجيم خطرهما، والقضاء على شرورها، والحد من نفوذها، ويتجلى ذلك تمامًا من خطابه لمدرس النظامية أبي إسحاق الشيرازي؛ عندما قامت فتنة بين الشافعية والحنابلة سنة (٤٧٠هـ-)، حيث جاء فيه: "ورد كتابك بشرح أطلت فيه الخطاب، وليس توجب سياسة السلطان وقضية العدالة إلى أن نميل في المذاهب إلى جهة دون جهة، ونحن بتأييد السنن أولى من تشييد الفتن، ولم نتقدم ببناء هذه المدرسة إلا لصيانة أهل العلم والمصلحة، لا للاختلاف وتفريق الكلمة" وهذا يؤكد ما ذكرناه من أن هدف نظام الملك مصلحة الأمة الإسلامية، والتصدي للتيارات الهدامة؛ التي كادت أن تفتك بالأمة، رغم التزامه بالمذهب الشافعي ونصرته. انظر: ابن الجوزي: المنتظم (٣١٢/٨)، مريزن عسيري: الحياة العلمية في العصر السلجوقي ص (٢٦١)، محمد حمادة: الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصور العباسية المتتابعة ص (٤٥٢-٤٥٣).

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطلة ٥٣٧

والذي اشتهر بعدد من المصنفات؛ أبرزها وأهمها كتاب "حلية العلماء"^(١)، وهو الكتاب الملقب بـ "المستظهري" لأنه صنفه للحليفة المستظهر بالله العباسي (٤٨٧-٥١٢هـ)^(٢).

كما كان من مشاهير أساتذة المدرسة النظامية في بغداد ومن مدرسي الفقه: أحمد بن علي بن محمد الوكيل؛ المعروف بابن برهان، الفقيه الشافعي، وكان متبحراً في الأصول والفروع، وبارعاً في المذهب والخلاف، وتوفي سنة (٥١٨هـ)^(٣).

وكان هناك عدد من أساتذة الفقه، يقومون بتدريس الفقه والحديث، وأحياناً التفسير، منهم: عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب،

(١) الكتاب مطبوع في ثلاثة أجزاء؛ حيث نشرت منه مؤسسة الرسالة، ودار الأرقم قسم العبادات سنة (١٩٨٠م)، بتحقيق الدكتور ياسين درادكة، بعنوان "حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء". انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء (١/٣٩٤ حاشية رقم ١).

(٢) انظر عن الشاشي وسيرته: ابن عساكر: تبين كذب المفتري ص (٣٠٦)، ابن النجار: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد ص (٧٧)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤/٢١٩)، أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر (٢/٢٢٧)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٩/٣٩٣)، تذكرة الحفاظ (٤/١٢٤١)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٦/٧٠).

(٣) ابن الأثير: الكامل (١٠/٦٢٥)، ابن النجار: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد ص (١٦٢)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (١/٩٩)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٦/٣٠)، ابن العماد: شذرات الذهب (٤/٦١).

أبو محمد الشيرازي الفارسي (ت: ٥٠٠هـ)^(١) وقد ولاه الوزير نظام الملك تدريس الحديث بالمدرسة النظامية سنة (٤٨٣هـ)^(٢)، وكذلك الحسن بن سليمان بن عبد الله، أبو علي، الفقيه الشافعي (ت: ٥٢٥هـ)^(٣)، وعبد القاهر بن عبد الله بن محمد بن عبد الله، أبو النجيب السهرودري (ت: ٥٦٣هـ)^(٤).

وممن درس النحو واللغة والأدب بالمدرسة النظامية، أبو زكريا، يحيى ابن علي بن بسطام الشيباني، الخطيب التبريزي (ت: ٥٠٢هـ)، كان أحد أئمة اللغة والنحو، وصنف العديد من المصنفات القيمة في اللغة والأدب^(٥).

ومنهم -أيضاً- علي بن محمد النصيحي (ت: ٥١٦هـ-)، الذي كان عالماً في الأدب والنحو، ولكنه اهتم بالتشيع، فأبعد عن التدريس،

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٥٢/٩-١٥٣).

(٢) نفسه (١٥٣/٩).

(٣) ابن الأثير: الكامل (٦٧٠/١٠-٦٧١)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٠٢/١٢).

(٤) الذهبي: العبر (٤٠/٣)، ابن العماد: شذرات الذهب (٢٠٨/٤)، كحالة: معجم

المؤلفين (٣١١/٥)، الزركلي: الأعلام (٤٩/٤).

(٥) ابن الأنباري: نزهة الألباء ص (٢٧٠)، ابن الجوزي: المنتظم (٦٦/٩)، ياقوت:

معجم الأدباء (٢٥/٢٠)، ابن النجار: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد ص (٤٣٣)،

السيوطي: بغية الوعاة (٣٣٨/٢).

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطلة ٥٣٩

وأخرج من النظامية، وانقطعت صلته بها^(١)، وعُين مكانه أبو منصور، موهوب بن أحمد بن محمد الجواليقي (ت: ٥٤٠هـ)^(٢).

ومن درس الأدب بالنظامية -أيضاً- أبو زكريا، يحيى بن القاسم بن مفرج بن درع الثعلبي اللغوي الأديب (ت: ٦١٦هـ)^(٣)، كما قام بتدريس الأدب -أيضاً- الشيخ فتح بن موسى بن حماد بن عبد الله الجزري (ت: ٦١٣هـ)، كان فقيهاً فاضلاً شافعيًا أصوليًا نحوياً، عارفاً بالعروض^(٤).

وغيرهم من العلماء؛ الذين أسندت إليهم مهمة التدريس في المدرسة النظامية، والذين قاموا بمجهود كبير ودور بارز في تأصيل المذهب السني، وتدريسه ونشره، والوقوف أمام التيارات الباطلة والأفكار الفاسدة؛ التي

(١) ابن الأنباري: نزهة الألباء ص (٢٧٤)، ياقوت: معجم الأديباء (٦٦/١٥)، السيوطي: بغية الوعاة (١٩٧/٢)، وهنا يجب أن نوضح أنه لم يكن يسمح بالتدريس في النظامية لغير أهل السنة؛ بدليل طرد الفصيح منها بعد اتهامه بالتشيع واعترافه على نفسه بذلك؛ لأن هدف المدارس النظامية هو الوقوف -بقوة- أمام الفرق الضالة، والتصدي لها فكريًا وثقافيًا، والدفاع عن العقيدة وما يتهددها من أخطار فكرية مناهضة.

(٢) ابن الأنباري: نزهة الألباء ص (٢٧٤)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٣٤٢/٥)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٨٩/٢٠)، تذكرة الحفاظ (١٢٨٦/٤).

(٣) ياقوت: معجم الأديباء (٢٩/٢٠-٣٠)، السيوطي: بغية الوعاة (٣٣٩/٢).

(٤) السيوطي: بغية الوعاة (٢٤٢/٢).

كادت تعصف بالمجتمع الإسلامي -آنذاك- وعلى رأسها الدعوة الباطنية؛ التي نشطت كثيراً في العصر السلجوقي، وأصبح لها نفوذ قوي، وتنظيم خطير، ولكن نظام الملك كان لهم بالمرصاد؛ من خلال إنشاء المدارس النظامية؛ التي أدت دورها الكبير في هذا المجال، وصدت قوى البغي والضلال، وحفظت لأهل السنة كيانهم ونفوذهم، ودافعت عن الدين الإسلامي؛ من خلال تخريج عدد من الدعاة والعلماء؛ الذين قاموا بواجبهم خير قيام، وأدوا رسالتهم المنوطة بهم؛ من خلال التدريس والتأليف وحلقات الوعظ والإرشاد، وتوضيح أهداف الفرقة الضالة، وتنفيذ مزاعمهم وأفكارهم الهدامة^(١).

(١) وقد أورد الذهبي خلاصة مهمة عن العلماء؛ الذين تولوا التدريس في المدرسة النظامية في بغداد منذ سنة (٤٥٩هـ) إلى سنة (٦٣٦هـ)، والذين قاموا بذلك الدور العظيم؛ كل فيما يخصه؛ حيث نشروا المذهب السني، وواجهوا الفكر الشيعي، وعملوا جاهدين لتقليص نفوذه، وقد نجحوا في ذلك إلى حد كبير -ولله الحمد- وهذا ما يهمنا من خلال هذا البحث؛ وهو توضيح جهود العلماء في الحفاظ على السنة في العصر السلجوقي. انظر عن أولئك العلماء ومن عزل منهم: الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٨/٤٦٦-٤٦٧)، ناجي معروف: علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي، مطبعة الإرشاد، بغداد (١٣٩٣هـ).

أما عن كيفية التدريس في النظامية فقد نقل لنا شاهد عيان؛ وهو ابن جبير صورة واضحة عن ذلك؛ حيث زار المدرسة النظامية سنة (٥٨٠هـ)، وحضر بحالس العلماء، واطلع على طرقهم المباركة في التدريس؛ فكتب يقول: "وأول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الإمام رضي الدين القزويني؛ رئيس الشافعية وفقه النظامية..."

ومما يجب ذكره -هنا- ونحن نتحدث عن الجهود العظيمة للعلماء والخلفاء والسلاطين السلاجقة ضد الفرق الضالة والتيارات الفكرية الباطلة، تلك المتابعة المستمرة والاهتمام المتواصل بالمدراس النظامية، من جانب كبار رجال الدولة السلجوقية ومسؤوليها؛ وذلك بعد وفاة نظام الملك سنة (٤٨٥هـ-)، مما كان له الأثر الكبير في استمرار تدفق الطلاب عليها، ومواصلتها لأداء رسالتها؛ التي أنشئت من أجلها، وطموح العلماء في الوصول إلى منصب الأستاذية فيها، ومن النماذج الدالة على ذلك

حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة إثر صلاة العصر من يوم الجمعة، فصعد المنبر، وابتدأ القراء أمامه بقراءة القرآن، ثم اندفع الشيخ فخطب خطبة سكون ووقار، وتصرف في أفانين من العلوم، من تفسير كتاب الله -عز وجل- وإيراد حديث رسوله ﷺ والتكلم على معانيه، ثم رشقته شأبيب المسائل من كل جانب؛ فأجاب وما قصر، ودُفعت إليه عدة رقاع فجمعها جملة في يده، وجعل يجاوب على كل واحدة، إلى أن فرغ منها واستمر المجلس حتى المساء، ثم افترق الجمع فكان مجلسه مجلس علم ووعظ ظهرت فيه البركة والسكينة، ولم تقصر عن إرسال عبرتها فيه النفس المستكينة؛ فإنه سرت حُمياً وعظه إلى النفوس حتى أطارها خشوعاً، وفجرها دموعاً، وبدر التائبون إليه سقوطاً على يده ووقوعاً". انظر: رحلة ابن حبير ص (١٧٤-١٧٥)، . ويذكر ابن حبير أنه حضر فيها مجلساً آخر للشيخ رضي الدين القزويني أيضاً، فوجد في مجلسه صدر الدين الخجندي، رئيس الشافعية بأصبهان، فأتى بأفانين من العلوم على حسب مجلسه المتقدم الذكر (رحلة ابن حبير ص (١٧٥)، وعن صدر الدين الخجندي انظر: ابن الأثير: الكامل (١٢٣/١٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/٣).

الاهتمام، وتلك المتابعة، ما حدث في عام (٤٩٨هـ)، حيث زار سعد الملك الآبي (وزير السلطان السلجوقي محمد)، نظامية بغداد، وحضر درس العالم "ألكيا الهراسي" بما ليرغب الناس في العلم، وحضور حلقات العلماء^(١)، وكان هذا الوزير من أكثر الوزراء إخلاصاً وفهماً للأعمال الإدارية^(٢).

وفي عام (٥٠٤هـ) قام الوزير محمد الحسين الميذي "وزير السلطان محمد" بزيارة المدرسة النظامية، ومعه أرباب الدولة، واستمعوا لدرس أبي بكر الشاشي -المدرس بالنظامية^(٣).

ولاشك أن مثل هذه الزيارات تدل على الاهتمام والمتابعة الدؤوبة من قبل رجال الدولة السلجوقية بصفة عامة؛ سواء من سلاطين السلاجقة أو وزرائهم، أو من يكلفونه بذلك؛ الأمر الذي يعطي انطباعاً حسناً لدى الناس عندما يلحظون ذلك.

وتجدر الإشارة -في ختام حديثي عن المدارس النظامية- إلى أنني لم أتوسع كثيراً في ذكر التفاصيل عن إقامتها، وظروف نشأتها، والأسباب التي دعت نظام الملك إلى إنشائها؛ لأن الكثير من الباحثين المحدثين قد

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٤٣/٩).

(٢) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوقي ص (٨٥)، الحسيني: أخبار الملوك والأمراء السلجوقية ص (١٧٢).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (١٦٦/٩)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٧٢/١٢)، وكان قد وزر للسلطان بركياروق قبل ذلك.

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطنية ٣٤٤ ٥٤

تعرضوا لذلك، وناقشوه، وقدموا دراسات جيدة في هذا الخصوص^(١)؛ وإنما توسعت في دور المدارس النظامية في مقاومتها لأصحاب التيارات الفاسدة والفرق الضالة - لاسيما الدعوة الباطنية الشيعية - لأنها تخص البحث؛ حيث موضوع الدراسة في هذا المجال.

وقد اقترنت المقاومة الفكرية والعلمية، والمتمثلة في تلك المدارس النظامية، والدور الكبير الذي قامت به لنشر المذهب السني ومحاربة الأفكار الضالة الأخرى، أقول: إن تلك المقاومة اقترنت بمقاومة سياسية وعسكرية - أيضاً - تمثلت في جهود بعض السلاطين السلاجقة في هذا المضمار، والذين أبلوا البلاء الحسن في ذلك؛ حيث تصدوا للباطنية، وعملوا - جاهدين - لإضعافهم، والحد من نفوذهم، ولم يترددوا أو يتهاونوا في

(١) من هؤلاء الباحثين: ناجي معروف: علماء النظاميات ص (١٦)، سعيد نفيس: المدرسة النظامية في بغداد - مجلة المجمع العلمي العراقي - (٣م ج ١ ص ١٤٥، ١٩٥٤م)، مصطفى جواد: المدرسة النظامية في بغداد، مقال في مجلة سومر (٩م ج ٢/٣١٧)، ويقول جواد: إن الدكتور أسعد طلس كان أفضل الباحثين - ممن درسوا هذه المدرسة - عن إنشائها ووصفها ونظام التعليم فيها ص (٣٢٤) من المقال المذكور، انظر في هذه الدراسات والبحوث: مريزن عسيري: الحياة العلمية في العصر السلجوقي ص (٢٥٦)، ويقول الأستاذ ناجي معروف: "ويكاد لا يخلو كتاب من كتب التاريخ أو الفقه أو التراجم أو الخطط من أخبار للنظامية وذكر مدرسيها، ومعيديها وفقهائها وخزانة كتبها، وأوقافها. انظر: المدارس الشراعية ص (١١٨).

ذلك؛ لأنهم تيقنوا خطر هذه الحركة الإلحادية والإرهابية في نفس الوقت، وحقدوا على الإسلام والمسلمين، فجنّدوا أنفسهم لقمعها، وتخليص المسلمين من شرورها، قدر استطاعتهم، وما تمليه عليهم الظروف المحيطة بهم.

كذلك لا بد من الإشارة إلى أن الخلفاء العباسيين كان لهم دور كبير وجهد واضح في تشجيع السلاجقة والأمراء على جهاد الباطنية والتصدي لهم؛ لأن ذلك يبرز دورهم خلفاء للمسلمين؛ من واجبه العمل الدؤوب لإنقاذ المسلمين من الأخطار؛ التي تهددهم في دينهم وعقيدتهم أولاً، ثم ما يهدد أرواحهم وممتلكاتهم ثانياً؛ لذلك نجد أن الباطنية - كما حاولوا التخلص من السلطان بركياروق والسلطان محمد^(١) - حاولوا أيضاً التخلص من الخليفة المستظهر (٤٨٧-٥١٢هـ)، وذلك سنة (٥٠٥هـ) ولكن المحاولة فشلت؛ حيث ألقى القبض على الباطني محتبباً في سطح الجامع، متظاهراً بأنه أعمى، ليس له في هذه الأمور شيء، ولكن عثر معه على سكين مسموم^(٢)، كما هي عادتهم في الاغتيالات، ومثل هذا العمل من الباطنية يؤكد - بجلاء - مساندة ووقوف الخليفة المستظهر، وغيره من

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٨٦/٩)، الرواندي: راحة الصدور ص (٢٢١)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٤٩/١٢)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني .. (٣٩/٤).

(٢) الكشي: عيون التواريخ (١٣/رؤفة ٢٦٢)، مخطوط مصور برقم (٢٥٤٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٧٣/١٢)، وقد ذكر أنه يريد قتل الخليفة، أي الرجل الباطني.

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطنية ٥٤

خلفاء بني العباس في ذلك العصر^(١)، مع السلاجقة في التصدي للباطنية، وإحباط مخططاتهم، وإضعاف قوتهم^(٢)، وتلك المساندة كانت بتقديم الرجال والعتاد لهم، ثم التشجيع والمتابعة لجهودهم المتواصلة في هذا الجانب المهم.

وللخليفة المستظهر -أيضاً- موقف آخر يدل على مناصرته لعلماء أهل السنة، وتقديرهم ومساندتهم، والدفاع عنهم؛ وهو توسطه في موضوع العالم الفقيه الشافعي ألكيا الهراسي -أحد مدرسي النظامية، كما تقدم- الذي قبض عليه السلطان بركياروق سنة (٤٩٥هـ) بسبب اتهامه بأنه باطني، ولكن المستظهر تدخل على الفور لمعرفة التامة وثقته الكبيرة في ذلك العالم، وحسن منهجه ومعتقده؛ الأمر الذي جعله يُرسل إلى

(١) سبق أن ذكرت أن الباطنية قاموا باغتيال الخليفة المسترشد بالله سنة (٥٢٩هـ)، وابنه الخليفة الراشد بالله سنة (٥٣٢هـ)، مما يؤكد تريبص هؤلاء الباطنية بالخلفاء والسلاطين والوزراء وغيرهم ممن يقف في طريقهم أو يحاول مجاهمتهم .

(٢) ومن جملة جهود السلاجقة في مطاردة الباطنية والتضييق عليهم، مطاردتهم لأشهر دعاهم؛ الذين نشطوا في العصر البويهي الشيعي، والذين وجدوا أنفسهم أمام وضع جديد وقوة سنينة فتية هي قوة السلاجقة المناصرة للخلافة العباسية، ومن أشهر من طوردوا: الرحالة ناصر خسرو، والحسن الصباح، وعبد الملك بن عطاش؛ والد أحمد ابن عطاش. انظر في أولئك: المنتظم (١٥١/٩)، الكامل (٣١٦/١٠)، مقدمة سفرنامه، رحلة ناصر وخسرو، ترجمة الدكتور أحمد خالد البدي ص (٥-٢٢)، طه ندا: فصول تاريخ الحضارة الإسلامية ص (٨٥).

السلطان بركياروق ببراءة ألكيا الهراسي وإطلاق سراحه^(١)، وهذا الموقف يوضح متابعة المستظهر الدقيقة للأحداث، وإكرامه العلماء واحترامه لهم، وكذلك اهتمام الخلافة العباسية بجهود علماء السنة، ودورهم الفعال في مجرى الأحداث، لاسيما من له دور كبير وجهد مميز في توعية المسلمين وتبصيرهم في أمور دينهم، وتوضيح خطر الباطنية، وتفنيد مزاعمهم وأفكارهم الفاسدة، وتحذير المجتمع الإسلامي منهم؛ كل ذلك دفع الباطنية، للتخلص من الخليفة المستظهر ومن بعض سلاطين السلاجقة - كما ذكرت - لوقوفهم حجر عثرة أمام مخططاتهم وأهدافهم، وجهودهم في القضاء عليهم، وتخليص المسلمين من شرورهم وأخطارهم.

واستكمالاً لجهود السلاطين السلاجقة ومواقفهم العظيمة ضد الباطنية، فقد قام السلطان بركياروق (٤٨٥-٤٩٨هـ) سنة (٤٩٤هـ)

(١) انظر في ذلك: ابن الجوزي: المنتظم (١٢٩/٩)، ومن شهد ببراءته أبو الوفاء بن عقيل - شيخ ابن الجوزي - كما في المنتظم (١٦٧/٩)، وانظر كذلك: ابن الأثير: الكامل (٣٢٣/١٠)، وذكر الحادثة سنة (٤٩٤هـ)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣٥١/١٩)، الكتبي: عيون التواريخ (١٣/ورقة ١٠٧)، مخطوط مصور برقم (٢٥٤٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٦٢/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٦٨/٥)، يقول السبكي - في طبقاته -: "ومن غريب ما اتفق له أنه أشيع أن ألكيا باطني، فتمت له فتنة هائلة، وهو بريء من ذلك، ولكن وقع اشتباه؛ لأن صاحب الأملوت ابن الصباح الباطني كان يلقب بألكيا أيضاً، ثم ظهر الأمر، وفرجت كربة شيخ الإسلام، وعلم أنه أتى من توافيق اللقبين. طبقات الشافعية (٢٣٣/٧).

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطنية ٥٤٧

بقتالهم، بعد أن اشتد أمرهم، وزاد نفوذهم، وقويت شوكتهم، وكثر عددهم، وسعوا إلى التمكين لأنفسهم؛ عن طريق الاستيلاء على القلاع والأماكن الحصينة؛ مستغلين فرصة الاضطرابات والنزاعات بين أفراد البيت السلجوقي، ويبدو أن السلطان بركياروق لم يرغب - في البداية - أن يصطدم معهم بسبب انشغاله في الصراعات الدائرة مع أهل بيته، لاسيما نزاعه وقاتله مع أخيه السلطان محمد^(١)، لكن بعد أن اتهم بالميل إليهم^(٢)، واتضح له خطرهم وقوتهم المتزايدة، وقتلهم الخلفاء والسلاطين والعلماء، وخطر دعوتهم على المسلمين، وتزايد نفوذهم وعددهم في الجيوش؛ حيث استغفوا كثيراً من العسكر، وأدخلوا في مذهبهم - كما يعبر عن ذلك ابن الأثير^(٣) - كل تلك العوامل؛ التي جعلت السلطان

(١) حول القتال بين الأخوين بركياروق ومحمد، انظر الراوندي: راحة الصدور ص (٢٢٦-٢٢٨)، ابن الأثير: الكامل (١٠/٢٩٤، ٣٠٣، ٣٢٩، ٣٣٢)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (٨١)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (١٦١-١٦٤)، وعن القتال بين بركياروق وعمه تنش سنة (٤٨٨هـ) انظر الراوندي: راحة الصدور ص (٢٢٠)، ابن الأثير: الكامل (١٠/٢٤٤-٢٤٥)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (٧٨-٧٩)، الحسيني: أخبار الملوك والأمراء السلجوقية ص (١٥٩-١٦١)، أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر (٢/٢٠٦)، الذهبي: العبر (٣٥٦/٢).

(٢) ابن الأثير: الكامل (١٠/٣٢٢)، محمد الخشت: حركة الحشاشين ص (٨٩).

(٣) ابن الأثير: الكامل (١٠/٣٢٢).

بركياروق يأذن في قتلهم، والفتك بهم، واستئصال شأفتهم؛ فركب هو والعسكر معه؛ فأخذوا الباطنية من خيامهم، وأخرجوا إلى ميدان عام؛ فقتلوا فيه، ولم يفلت منهم إلا من لم يعرف^(١).

ويذكر ابن الجوزي أن القتلى من الباطنية بلغوا ثلاثمائة ونيّفاً^(٢)، ثم تتبعهم أمراء الأقاليم بتوجيه من سلاطين السلاجقة؛ حيث قتل الأمير "جاولي سقاو"^(٣) خلقاً كثيراً منهم، ذكر البعض أنهم يبلغون ثلاثمائة رجل من أعيانهم وصناديدهم، وقد غنم جاولي ما معهم من دواب وسلاح وأموال وغير ذلك، ثم تبعهم بعض الأمراء -أيضاً- وطاردهم، وقتلوا خلقاً منهم، وكذلك من تمذهب بمذهبهم، وتأثر بمعتقداتهم، وأصبح معهم، لقي أيضاً المصير نفسه^(٤).

(١) ابن الأثير: الكامل (٣١٣/١٠، ٣٢٢، ٣٢٣)، أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر (٢١٤/٢)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٠٣/١٩-٤٠٤)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٥٩/١٢).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (١٢٠/١٠)، ثم انظر: حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٢٦٣).

(٣) انظر في سيرته وأخباره: ابن الجوزي: المنتظم (١٨٥/٩)، ابن الأثير: الكامل (٥١٦/١٠) وما بعدها، وكذلك في حوادث سنة (٥٠٠هـ)، وكانت وفاته سنة (٥١٠هـ).

(٤) ابن الجوزي: المنتظم (١٢٢/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٣١٩/١٠-٣٢٠)، محمد الخشت: حركة الحشاشين ص (١٩)، محمد شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد ص (١٥٢).

ثم إنَّ السلطان بركياروق أرسل -على إثر ذلك- إلى الخليفة العباسي المستظهر يشير عليه بتتبع الموجودين منهم في عاصمة الخلافة؛ فقبض الخليفة على قوم يظن فيهم ذلك المذهب -أي: ميلهم إلى مذهب الباطنية واعتقاده- ولم يتحاسر أو يتجرأ أحد من الناس أن يشفع في أحد منهم؛ لئلا يظن ميله إلى ذلك المذهب^(١)؛ من خلال شفاعته أو وساطته؛ الأمر الذي يدل على شدة الحزم، والتضييق عليهم؛ من خلال تلك الجهود والمواقف المبذولة في هذا الشأن.

ثم قام السلطان سنجر "عميد البيت السلجوقي" بمطاردةهم في سنة (٤٩٤) أيضاً؛ فقتلت عساكره منهم خلقاً كثيراً، وحاصروا قلعة "طبس"^(٢) وضيّفوا عليها، وخرّبوا سورها، وضعف من بها، وأوشكت على السقوط؛ فلجأ الباطنية إلى رشوة قائد العسكر الأمير "برغش" -أكبر أمراء السلطان سنجر- واستنزلوه عما كان يريده منهم؛ فرحل عنهم وتركهم^(٣).

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٠/١٢٠).

(٢) طبس: مدينة بين أصفهان ونيسابور. (القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص(٤٠٦)، ياقوت: معجم البلدان (٤/٢٠).

(٣) ابن الأثير: الكامل (١٠/٣٢٤)، محمد الخشت: حركة الحشاشين ص(٩١-٩٢)، وما كان للأمير برغش أن يفعل ذلك، ويتواطأ مع أولئك الملاحدة، نظير حفنة من المال أو غيره.

ثم تكررت محاولة السلطان سنجر مرة أخرى في عام (٤٩٧هـ)، حيث خرج الأمير "بزغش" ومعه جمع كثير من عساكر خرسان ومن المتطوعين، وسار إلى قتال الباطنية؛ فقصده قلعة "طبس" المذكورة آنفاً، في محاولة منه لتصحيح الخطأ؛ الذي وقع فيه سابقاً، والعودة إلى الطريق الصحيح في مجاهدتهم، وعدم الاغترار بما يقدمونه من أموال أو رشاوى، ونحوها؛ فخرّبها هي وما جاورها من القلاع والقرى، وأكثر فيهم القتل والنهب والسبي، وفعل بهم الأفعال العظيمة.

ومع ذلك الانتصار الساحق، والخسائر الفادحة؛ التي نزلت بالباطنية؛ فإن أصحاب السلطان سنجر أشاروا عليه بأن يؤمنهم -أي: الباطنية- مقابل ألا يبنوا حصناً، ولا يشتروا سلاحاً، ولا يدعوا أحداً إلى مذهبهم^(١)، ولا شك أن هذا الصلح أثار سخط كثير من الناس، ونقموا على السلطان وأصحابه من ذلك الفعل؛ بسبب ما تعرضوا له من أذى على أيدي هذه الفئة؛ التي لا تحترم عهداً، ولا تعترف بصلح أو أمان، لاسيما إذا تهيأت لهم الفرص وخدمتهم الظروف.

(١) ابن الأثير: الكامل (١٠/٣٧٨-٣٧٩).

وهذا ما حدث بالفعل؛ ففي العام التالي لذلك الصلح سنة (٤٩٨هـ) خرج جمع كثير منهم من قلعة "طريثيث"^(١) -إحدى قلاعهم- وأغاروا على النواحي المجاورة لهم، وأكثروا القتل في أهلها، والنهب لأموالهم، والسبي لنسائهم، ولم يقفوا على الهدنة المتقدمة، أو يتقيدوا بها^(٢)؛ لأن مثل تلك الهدنة ما كان لها أن تتم؛ خاصة مع الانتصار؛ الذي تحقق عليهم -بفضل الله تعالى- حيث إن الواجب عدم التهاون مع أولئك الباطنية لخطر حركتهم، وضلال دعوتهم، وفساد مذهبهم، وكثرة سفكهم الدماء، وقتلهم المسلمين، وليس أدل على ذلك من تعرضهم لقافلة الحجاج القادمة من خراسان وبلاد ما وراء النهر، وقتل من فيها، وأخذ أموالهم ودوابهم، وقتلهم في نفس السنة (٤٩٨هـ) لأبي جعفر بن المشاط شيخ الشافعية بمدينة الري^(٣)، وغيرها من الجرائم؛ التي ارتكبوها في أعقاب تلك الهدنة؛ التي استفادوا منها كثيراً؛ حيث قويت شوكتهم، واستعادوا نفوذهم، وأتى لهم ذلك، لولا الخطأ الفادح؛

(١) طريثيث: ناحية وقرى كثيرة من أعمال نيسابور، وطريثيث قصبته، وهي قرية من مدينة بيهق انظر: ياقوت: معجم البلدان (٣٣/٤)، ابن الأثير: الكامل (٣٩٢/١٠)، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص (٣٩٤).

(٢) نفسه الكامل (٣٩٢/١٠-٣٩٣)، دائرة المعارف الإسلامية (٣/٣٧٧)، مادة (إسماعيلية) محمد الحشت: حركة الحشاشين ص (٩٣).

(٣) ابن الأثير: الكامل (٣٩٣/١٠)، محمد الحشت: حركة الحشاشين ص (٩٣).

الذي ارتكبه أصحاب سنجر من خلال تلك الهدنة؛ وذلك الأمان الذي وهبوه لغير مستحقيه، ولكن الله غالب على أمره ويفعل الله ما يشاء.

وعلى الرغم من ذلك كله، لم يتوان سلاطين السلاجقة عن مقاومتهم وجهادهم، أو يتهاونوا في ذلك؛ نتيجة استعدادهم قوتهم وزيادة نشاطهم، وكثرة جرائمهم؛ بل واصلوا جهودهم الموفقة، وتابعوا مسيرتهم المباركة، وأدوا دورهم العظيم، في محاولة منهم لاستئصال هذا الداء العضال، وكسر شوكتهم، وبث الأمن في نفوس الناس الذين أصبحوا في رعب وخوف منهم، حيث نبهت تلك الجرائم؛ التي ارتكبتها الباطنية، والدماء التي سفكوها؛ نبّهت سلاطين السلاجقة إلى أنه لا بد من مقاومة عنيفة لهم، وإلا زاد خطرهم، وعم ضررهم، وهددوا أمن الدولة ونظامها، وكان بطل هذه المقاومة الجديدة، وصاحب الجهود الموفقة في ذلك هو السلطان محمد السلجوقي -الذي استقر له الأمر بعد وفاة أخيه السلطان بركياروق سنة (٤٩٨هـ)- فقد حرص حرصاً شديداً على استئصالهم، والقضاء عليهم، وكان السلطان محمد -كما وصفه ابن خلكان وغيره- "رجل الملوك السلجوقية وفحلهم، وله الآثار الجميلة والسيرة الحسنة والمعدلة الشاملة، والبر للفقراء والأيتام، والحرب للطائفة الملحدة (أي: الباطنية)، والنظر في أمور الرعية"^(١).

(١) وفيات الأعيان (٧٢/٥)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٥٠٦/١٩)، ويضيف الذهبي

عنه "وقد حارب الإسماعيلية وأباد منهم".

ويقول عنه الحسيني: "وكان السلطان غياث الدين محمد شديد البغض للباطنية، ومفرطاً في عدوانهم"^(١).

وهذه الأقوال دلالة واضحة على ما قام به السلطان محمد من أعمال وجهود ومواقف ضد الباطنية، عدّها بعض المؤرخين من محاسن أعماله، ولاشك في ذلك؛ لأن مثل أولئك تجب محاربتهم وقمعهم؛ لأن في ذلك حفظاً للدين، وعزة للإسلام والمسلمين؛ وهذا ما أدركه السلطان محمد وأسلافه من السلاطين السلاجقة؛ الذين كان لهم الأثر الكبير في التصدي لهم، وجهادهم المتواصل في تعقب دعوتهم وحصارهم^(٢)، وإسقاط قلاعهم الحصينة، والاستيلاء عليها^(٣)، ومن ثم المحافظة على كيان أهل السنة، ضد أي تيارات خارجية أو دعوات فكرية قد تؤثر على المسلمين في دينهم وعقيدتهم؛ كالدعوة الباطنية -مثلاً.

ومن المواقف الدالة على جهود السلطان محمد ومقاومته الشديدة للباطنية، إسقاطه قلعة أصبهان المنيعّة التابعة لهم؛ وهي قلعة "شاه دز"

(١) أخبار الأمراء والملوك السلجوقية (١٦٨).

(٢) المقصود هنا: جهود السلطان ملكشاه والسلطان بركياروق، وكذلك جهود الوزير نظام الملك؛ الذي كان له دور كبير ومؤثر في مقاومة فكرية وثقافية؛ من خلال إنشائه المدارس النظامية؛ التي تحدثنا عنها سابقاً.

(٣) ليس ثمة شك في أن صمودهم في القلاع والحصون يدل دلالة واضحة على مهارة في فنون الحرب والقتال والخداع، ويشهد لهم بالشجاعة الفائقة والتحمل الطويل، والصبر على ما يصيبهم في سبيل تحقيق أهدافهم ومقاصدهم.

حيث بدأ حصاره لها في سنة (٥٠٠هـ) بعد أن استفحل بها أمر الداعي الباطني "أحمد بن عطاش" وزاد خطره؛ حيث كان يرسل أصحابه لقطع الطريق، وأخذ الأموال، وقتل من قدروا على قتله؛ فقتلوا خلقاً كثيراً، وجعلوا له على القرى السلطانية وأملاك الناس ضرائب يأخذونها؛ ليكفوا عنها الأذى، فلما صفت السلطنة لمحمد، ولم يبق له منازع، لمن يكن عنده أمر أهم من قصد الباطنية وحرهم، والانتصاف للمسلمين من جورهم وعسفهم؛ فرأى البداية بقلعة أصبهان؛ التي بأيديهم؛ لأن الأذى بها أكثر؛ فخرج بنفسه فحاصرهم، وتمكن من الاستيلاء على القلعة المذكورة في شهر ذي القعدة سنة (٥٠٠هـ) بعد حصار دام حوالي ثلاثة أشهر، ووقع صاحبها "أحمد بن عبد الملك بن عطاش" أسيراً هو وابنه فقتلا، وحمل رأسهما إلى بغداد^(١).

(١) انظر تفاصيل الحصار ونهاية ابن عطاش في: ابن الجوزي: المنتظم (١٥٠/٩)، الراوندي: راحة الصدور ص (٢٤٢-٢٤٦)، ابن الأثير: الكامل (٤٣٠/١٠-٤٣٤)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (٨٣-٨٤-٩١)، الحسيني: أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ص (١٦٨)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٠٧/١٩)، ابن الوردي: تنمة المختصر (١٨/٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٦٦/١٢-١٦٧)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٩٤/٥)، محمد الخشت: حركة الحشاشين ص (٩٤-٩٧)، محمد شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد ص (١٥٣).

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطنية ٥٥٥

ولم يتحقق هذا النصر العظيم للسلطان محمد على الباطنية بتلك السهولة؛ التي قد يتصورها البعض؛ وإنما واجه مواقف محرجة في ذلك، ولكنه صمد أمامها بقوة الإرادة والتصميم بعد عون الله تعالى له وتوفيقه. فمن ذلك أنه لما عزم على حربهم في شهر رجب سنة (٤٩٨هـ)، وساء ذلك من يتعصب لهم من العسكر؛ فاستخدموا الشائعات؛ ليصرفوا السلطان محمد عن مراده وغايته؛ فأرجفوا^(١) أن قلعج أرسلان بن سليمان^(٢) (سلطان سلاجقة الروم) قد ورد بغداد وملكها، وافتعلوا في ذلك مكاتبات، ثم أظهروا أن خللاً واضطراباً قد تجدد بخراسان، وكان هدفهم من ذلك كله إبعاد السلطان عن أصفهان؛ حتى لا يتحقق الهدف الذي يسعى إليه، ولكن السلطان محمد توقف حتى ظهر له بطلان ما ذكروه، وتحقق من هدفهم ومرادهم من تلك الشائعات والأراجيف، ثم انصرف لغايته، وقصد حربهم، وأسقط قلعته^(٣)، وقتل صاحبها؛ كما أوضحت ذلك آنفاً.

(١) أرجفوا: من الإرجاف والمراد: خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن. (ابن منظور:

لسان العرب (١١٣/٩-١١٤)، الرازي: مختار الصحاح ص(٢٣٥).

(٢) هو قلعج بن أرسلان بن سليمان بن قتلмыш، توفي سنة (٥٠٠هـ) غرقاً، انظر في

ترجمته ونهايته: ابن الأثير: الكامل (١٠/٤٢٨-٢٣٠)، ابن العبري: تاريخ مختصر

الدول ص(٣٤٥)، الذهبي: العبر (٢/٣٧٩)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة

(٦/١١٧)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣/٤١٠).

(٣) ابن الأثير: الكامل (١٠/٤٣١-٤٣٢).

كذلك واجه موقفاً محرّجاً آخر قبل استيلائه على القلعة المذكورة؛ حيث كتب هؤلاء الباطنية إلى الفقهاء السنيين؛ يطلبون فتواهم في قوم يؤمنون بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر؛ وإنما يخالفون في الإمام: هل يجوز للسلطان مهادنتهم وموادعتهم، وأن يقبل طاعتهم، ويجرسهم من كل أذى؟، وكادت الخطة تنجح؛ حيث أجاب أكثر الفقهاء بجواز ذلك، وتوقف البعض؛ فجمع السلطان الفقهاء للمناظرة، وكان معهم الفقيه الشافعي: أبو الحسن علي بن عبد الرحمن السمنجاني^(١)؛ الذي أفقى بوجوب قتالهم، وإباحة دمائهم؛ نظراً لرأيهم في الإمام، فلو قيل لهم: أخبرونا عن إمامكم إذا أباح لكم ما حظره الشرع، أو حظر عليكم ما أباحه الشرع، أتقبلون أمره؟ فإنهم يقولون نعم، فحينئذ تباح دماؤهم بالإجماع^(٢).

وكان الباطنية يهدفون -من خلال هذا الموقف- أن يهدموا شرعية قتالهم؛ حتى يضعف السلطان، أو يتهاون في قتالهم، ومن ثم ينصرف عنه أكثر الجند؛ لأنه يقاتل قوماً مؤمنين -على حد زعمهم- أي: أنهم أرادوا أن يؤثروا في نفوس الجند؛ عن طريق هذا المسلك الديني، وعندما فشلت

(١) هو علي بن عبد الرحمن بن محمد السمنجاني، كان إماماً فاضلاً متبحراً في العلم، حسن السيرة، كثير العبادة، دائم التلاوة والذكر، تخرج به جماعة، توفي في شعبان سنة (٥٠٢هـ)، انظر: ياقوت: معجم البلدان (٣/٢٥٢)، الإسنوي: طبقات الشافعية (٣٣١/١).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٤٣٢/١٠)، محمد الحشت: حركة الحشاشين ص(٩٥).

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطنية ٥٥٧

هذه الخطة اتجهوا إلى أسلوب المماثلة، وكسب الوقت، في محاولة منهم لاتباع شتى الأساليب والخطط لصرف السلطان وجنده عن قلاعهم وقتالهم؛ فطلبوا من السلطان أن يرسل إليهم من يناظرهم، وحددوا أشخاصاً من العلماء، منهم: القاضي أبو العلاء صاعد بن يحيى؛ شيخ الحنفية بأصبهان وقاضيها، وغيره؛ فصعدوا إليهم وناظروهم، وعادوا كما صعدوا، وكان قصدهم في ذلك التعلل والمطاوله^(١)، وأخيراً عندما رأوا همة السلطان، وإصراره على حصارهم وقتالهم، أذعنوا إلى تسليم القلعة، وطلبوا أن يؤمنوا؛ بحيث يوصلهم السلطان إلى بعض قلاعهم الأخرى على دفعات، واختاروا قلعة "خالنجان"^(٢) ورتب لهم السلطان ما يحمل إليهم كل يوم من الطعام والفاكهة، وجميع ما يحتاجون إليه، ثم نزلوا من القلعة على مراحل، ووصلت الدفعة الأولى إلى القلاع سالمين، وكان الاتفاق على أنه إذا عاد إليهم من أخبرهم بوصول تلك الدفعة إلى قلاعهم سالمين، عندها ينزل ابن عطاش ومن بقي معه من أتباعه؛ ليوصلهم السلطان إلى الحسن بن الصباح بقلعة "الموت" ووافق السلطان محمد على

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٥٠/٩)، ابن الأثير: الكامل (٤٣٢/١٠-٤٣٣).

(٢) أمر السلطان محمد بتخريب قلعة "خالنجان" عليهم؛ وذلك لأنهم لما امتنعوا بها، وأصبح الطعام يأتيهم كل يوم، وأرسلوا من أصحابهم من يقتل أميراً كان يُباع في قتالهم، ولكنه جرح وسلم منهم، فحينئذ أمر السلطان بتخريب قلعتهم المذكورة، والتضييق عليهم. ابن الأثير: الكامل (٤٣٣/١٠).

فانظر إلى أي حد بلغ لوم القوم وخبثهم ومكرهم السيء؛ الذي حاق بهم.

ذلك، ولما تأكد ابن عطاش من أن أتباعه وصلوا سالمين، نقض العهد وغدر، ولم يُسلم السنّ الذي بقي بيده؛ فأمر السلطان في الزحف إليه وحصاره، واستمر في عناده، إلى أن انتهت مقاومته وسقط أسيراً، ثم قتل بعد ذلك - كما ذكرت - وقد ظهر منهم صبر عظيم، وشجاعة زائدة^(١)، ولكن النصر كان حليف السلطان ومن معه على أولئك المجرمين الحاقدين على الإسلام وأهله.

ومن خلال تلك المواقف والخطط؛ التي اتبعوها يتضح لنا أساليبهم الماكرة، وخططهم التي حاولوا من خلالها صرف المسلمين بقيادة السلطان محمد عن قتالهم، ومماطلتهم المتزايدة، وصبرهم في ذلك، وكان على السلطان محمد أن لا يؤمن الباطنية ويسيرهم إلى قلاعهم، ويكرمهم أيما إكرام؛ كما فعل؛ لأنهم بهذا العمل يتزايد إخوافهم واتباعهم قوة بالانضمام إليهم؛ مما يعكر الصفو على المسلمين؛ وهذا ما دار في فكر ابن عطاش، وحرص على تحقيقه بدليل أنه لما تأكد من وصول أتباعه سالمين إلى القلعة غدر ونقض عهده، وكانت الحكمة تقتضي بأن يتصرف السلطان تصرفاً آخر غير الذي قام به؛ وهو القضاء عليهم واستئصالهم، أو سجنهم وعزلهم عن المجتمع على الأقل؛ حتى يأمن الناس على أرواحهم، ويزول الرعب والخوف؛ الذي قذفه أولئك في قلوبهم، ويعود الأمن، وتسود

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٥١/٩)، ابن الأثير: الكامل (٤٣٣٤٣٤/١٠)، أبو الفداء:

المختصر في أخبار البشر (٢٢٢/٢).

الطمأنينة أرجاء المجتمع؛ لأن مثل هؤلاء لا أيمان لهم، ولا عهود تضبطهم، ولكن الظروف الحرجة المحيطة بالسلطان محمد جعلته يتبع معهم ذلك المسلك المسلم^(١)، وعلى الرغم من ذلك كله، وحلم السلطان، وصبره عليهم، إلا أنه انتصر - في النهاية - وأسقط القلعة، وقضى على أحد كبار زعمائهم؛ وهو ابن عطاش^(٢)، بعد توفيق الله تعالى ونصرته له.

ولعل من المناسب - هنا - أن تُورد عبارة الراوندي؛ التي ذكرها في أثناء حديثه عن محاصرة السلطان محمد قلعة "شاهر" والتي توضح - بجلاء - مدى المعاناة؛ التي لقيها من جرّاء ذلك، وشدة مجاهدته الباطنية، وصبره الطويل في ذلك؛ ابتغاء ما عند الله تعالى من الثواب العظيم، وقيامه

(١) من تلك الظروف؛ التي أحاطت به وجود بعض أشياعهم ومن يتعصب لهم في عسكره، وكذلك اكتشافه أن وزيره سعد الملك متواطئ معهم، وأنه تأمر على قتله في أثناء الحصار. الراوندي: راحة الصدور ص (٢٤٤-٢٤٥)، وهذا ما يشفع له في اتباع ذلك المسلك تجاههم؛ لأن الظروف أحياناً قد تضطر الإنسان على فعل ما يكره؛ تحسباً لما قد يستجد من أمور.

(٢) تقدم ذكر ذلك، ولكن ما جعلني أتوسع في ذكر خططهم وأساليبهم هو توضيح طرقهم الماكرة وأساليبهم الخبيثة، وربطها بدعاة الباطنية المحدثين، وتشويههم الحقائق وكذبهم على التاريخ، وزيفهم الواضح، وأن هناك امتدادات باطنية عبر التاريخ، لا تزال موجودة في بلاد المسلمين حتى اليوم، والجميع يتبعون أسلوباً واحداً ومنهجاً مشتركاً واتجاهاً واحداً، هدفهم محاربة الإسلام وإفساد عقائده، وتدمير القيم والفضائل، إشباعاً لأحقادهم الدفينة ضد الإسلام؛ وهذا ما قصدت توضيحه وبيانه، كي لا نجعل حقيقة هذه الحركات قديمها وحديثها.

بواجبه الديني تجاه الإسلام والمسلمين؛ حيث يقول الراوندي: "كان السلطان محمد صائب الرأي، ثابت العهد صادق القول، وكان جاداً في إعزاز الدين، مجاهداً في قمع الملاحدة الملاحين، وله اليد البيضاء في حفظ بيضة الإسلام، والفضل في اقتلاع شرك الكفر والبدعة، ولاشك في أن كل من يرى قلعة "شاه در" على أبواب أصفهان، ليقدر التعب والعناء اللذين احتملهما هذا السلطان في فتح هذه القلعة وقمع هذه الطائفة من الملاحدة... فقد ظل هذا الملك الكريم يجاهد سبع سنوات متصلة لم يسترح فيها لحظة واحدة؛ حتى استطاع أن يرفع هذا السد المنكر؛ ويزيحه عن طريق الإسلام"^(١).

وقد أعطى هذا النصر المؤزر؛ الذي حققه السلطان محمد على الباطنية؛ واستيلاؤه على قلعته، وتخريبها، وقتل أحمد بن عبد الملك بن عطاش، دفعة معنوية قوية لملاحقة الباطنية؛ وخاصة في عاصمتهم "الموت" التي حاصرها مدة تزيد على ست سنوات، ولم ينفك الحصار عنها إلا بعد وفاته سنة (٥١١هـ)، أي أنه كان مُصرّاً على إسقاط تلك القلعة الحصينة، ولكن المنية عاجلته قبل أن يتحقق ما يصبو إليه؛ ففي سنة

(١) راحة الصدور ص (٢٣٥)، وكان فتح قلعة "شاه در" سنة (٥٠٠هـ) وكانت هذه القلعة، كما يذكر الحسيني "شجاً في حلق أهلها، وقذى في عيونهم، وقُتل كل باطني فيها". أخبار الملوك والأمراء السلجوقية ص (١٦٨).

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطلة ٥٦

(٥٠٣هـ) أرسل وزيره أحمد بن نظام الملك^(١)، فحاصر قلعة "الموت"، ولكنه اضطر للرحيل عنها مع حلول الشتاء؛ فعادوا ولم يبلغوا غرضاً^(٢)، وقد تربص الباطنية بهذا الوزير، وحاولوا الانتقام منه؛ فطعنوه في نفس العام بالسكاكين، في أحد مساجد بغداد، وبقي مريضاً مدة من الزمن، ثم برأ من جراحه، وأخذ الباطني الذي طعنه، وأقر على جماعة من الباطنية كان لهم دور في ذلك، فأخذ الجميع وقتلوا^(٣).

ثم إن السلطان محمد كرر المحاولة مرة أخرى؛ حيث كان مُصرّاً على حصارهم وقتالهم؛ لأنه أدرك أن مصالح العباد والبلاد منوطة بمحو

(١) هو ضياء الملك، أبو نصر، أحمد بن نظام الملك الطوسي، وزير للخليفة وللسلطان، آخر ما وزر للمسترشد بالله، تلقى عند تعيينه وزيراً لقب والده: قوام الدين نظام الملك صدر الإسلام، وفي سنة (٥٠٤هـ) عُزل من الوزارة، ولزم داره، توفي سنة (٥٤٤هـ). انظر في ترجمته وأخباره: البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص(٨٨-٩٣)، ابن الأثير: الكامل (١٤٧/١١)، الحسيني: أخبار الملوك والأمراء السلجوقية ص(١٧٣)، ابن طباطبا: الفخري ص(٣٠٦)، السذهبي: سير أعلام النبلاء (٢٣٩/٢٠).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٤٧٧/١٠-٤٧٨)، الحسيني: أخبار الملوك والأمراء السلجوقية ص(١٧٠)، محمد شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد (١٥٣).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (١٦٣/٩)، ابن الأثير: الكامل (٤٧٨/١)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٧١/١٢)، محمد الخشت: حركة الحشاشين ص(٩٨).

آثارهم، وإخراب ديارهم وملك حصونهم وقلاعهم؛ لذلك جعل قصدهم دأبه واهتمامه - كما يعبر عن ذلك ابن الأثير^(١).

وفي هذه المحاولة ندب لقتالهم الأمير أنوشتكين شيركير^(٢) -صاحب آبه وساوة وأعمالهما- وأرسل له السلطان محمد جيشاً لمحاصرة قلاع الباطنية، مع مطلع جمادى الأولى سنة (٥٠٥هـ)، وحتى وفاة السلطان محمد سنة (٥١١هـ)، وقاد شيركير المعارك ضد الباطنية، وملك عدة قلاع لهم، واستولى عليها، منها: قلعة كلام، وقلعة بيرة القريبة من قزوين، ولكنه -للأسف- وقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه السلطان محمد قبل ذلك؛ فأمن من كانوا في هذه القلاع، وسيرهم إلى الموت، ثم سار هو ومن معه من العسكر إلى قلعة ألموت لحصارها، وأمده السلطان بعدد من الأمراء؛ لأنها قد ازدادت قوة ومنعة بمن وصل إليها من الباطنية، وانعقد العزم على إسقاطها؛ مهما كلفهم من جهد وتضحيات؛ فبنى أنوشتكين المساكن حولها، وعين لكل طائفة من الأمراء أشهراً يقيمون فيها لحصارها -وهو مقيم إقامة دائمة هناك- وكان السلطان ينقل إليهم الميرة والذخائر والرجال، ويتابع الوضع متابعة دقيقة؛ حتى اشتد الأمر على الباطنية، وعُدت عندهم الأقوات والمؤن؛ بسبب طول الحصار، وشدته عليهم.

(١) الكامل في التاريخ (١٠/٥٢٧).

(٢) كان أنوشتكين صاحب قريحة وبصيرة مع جودة رأي وشجاعة ابن الأثير: الكامل

(١٠/٥٢٨).

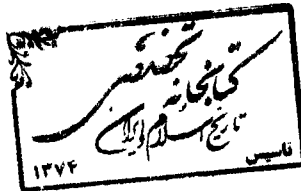
فلما ضاق عليهم الأمر، وبلغ حدًا لا يستطيعون معه الصبر وتحمل الحصار، لم يجدوا بُدًّا من إنزال نسائهم وأبنائهم؛ يطلبون الأمان لهم، والسماح لهم بأن يمضوا إلى أي طريق شاءوا، فلم يجابوا إلى ذلك، وأعاد أنوشتكين^(١) الجميع إلى القلعة قصداً ليموت الجميع جوعاً؛ لأنه أدرك -هذه المرة- الأخطار الكبيرة؛ التي ترتبت على منحهم الأمان في الماضي، واستفاد من الدروس السابقة؛ حيث إن من أهم هذه الأخطار أن قلعة "الموت"^(٢) أصبحت أكبر مركز لتجمعاتهم، لاسيما بعد أن وفد عليها الكثير من القلاع الأخرى؛ التي سقطت أو من أمن وسار إليها؛ لذلك كان لابد من حصارها والاستيلاء عليها وتخريبها؛ لأنها تمثل آخر معقل لهم، ونهاية الباطنية مرهونة بسقوط هذه القلعة الحصينة.

(١) كانت هناك جهود كبيرة لأمرء السلاجقة ووزرائهم ضد الباطنية أيضاً، ومن تلك الجهود حملات الأمير قجن في سنة (٥٤٦هـ) حيث هاجم الباطنية، وخرّب منازلهم، وكذلك حملات الأمير إيدغمش؛ مملوك البهلوان محمد بن إيلدكز؛ صاحب بلاد الجبل والري؛ حيث قتل خلقاً كثيراً من الباطنية، وعزم على حصار الموت. انظر حول تلك الأعمال والجهود لأمرء السلاجقة المذكورين: ابن الأثير: الكامل (١١/١٥٧) (١٢/٢٣٨).

(٢) ملك الحسن بن الصباح قلعة "الموت" ما يقارب ستاً وعشرين سنة نشر خلالها الخراب والدمار في المناطق المجاورة له، ولذلك حاربهم السلطان محمد لأن مصالح البلاد والعباد مرهونة بمحو آثارهم، وخراب ديارهم، وملك حصونهم وقلاعهم. (ابن الأثير: الكامل (١٠/٥٢٧)، محمد شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد ص(١٥٣).

ولكن لم يكتب الله تعالى لهذا القائد المجاهد ما كان يأمله ويطمح إليه؛ وهو سقوط قلعة "الموت"؛ بسبب وفاة السلطان محمد سنة (٥١١هـ)، وإصرار الأمراء والجنود على الرحيل بعد سماعهم هذا الخبر، ورغم محاولة الأمير أنوشتكين معهم في البقاء، ومواصلة الحصار، وعدم التأثر بما استجد من ظروف؛ لأن القلعة كانت وشيكة السقوط، ولكنهم رحلوا، ولم يبق أمام القلعة غير أنوشتكين في ثلثة من رجاله؛ فانتعشت آمال الباطنية، وقويت نفوسهم، وطابت قلوبهم؛ خاصة بعد أن بلغهم الخبر بموت السلطان، وتفرق الجنود؛ الأمر الذي اضطر معه القائد أنوشتكين إلى الانسحاب بجنده؛ الذين بقوا معه، رغم مدافعتهم وقتالهم ونجاحه في حماية عسكره، فلما فارق القلعة غنم الباطنية ما تخلف منهم؛ وهذا ما توقعه أنوشتكين وحذر منه الأمراء والجنود الذين كانوا معه، ولكنهم لم يأبهوا بقوله، وعزموا على الرحيل بعد أن استمر حصار القلعة ما يقرب من ست سنوات^(١)، وكاد المسلمون من خلالها أن يستأصلوا جذور الباطنية -بفضل الله تعالى، ثم بجهود سلاطين السلاجقة، وتأييد

(١) انظر تفاصيل ذلك في: الراوندي: راحة الصدور ص(٢٤٧-٢٤٨)، ابن الأثير: الكامل (١٠/٥٢٧-٥٢٩)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص(٩١)، الحسيني: أخبار الملوك والأمراء السلجوقية ص (١٦٨-١٧١)، محمد الحشت: حركة الحشاشين ص(٩٨-١٠٠)، حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص(٢٦٣).



الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطنية ٥٦

الخلفاء لهم، ودعمهم المتواصل للسلاطين والأمراء المجاهدين لأعداء الله - ولكن حكمة الله ومشيئته النافذة حالت دون تحقيق ذلك.

ولاشك أن الباطنية استفادوا كثيراً من الصراع على السلطة؛ الذي أعقب وفاة السلطان محمد، وكان هذا الصراع بين ولده محمود وعمه السلطان سنجر؛ حيث اطمأنوا على أنفسهم كثيراً، واستطاعوا أن يوسعوا دائرة نفوذهم بعد أن كان مقتصرًا على بلاد المشرق، خاصة أصفهان وما جاورها، ثم اشتد نشاطهم حتى أصبح يهدد العراق (٤٩٢هـ)، ولكنهم لم يكتفوا بذلك؛ بل استطاعوا - من خلال وسائلهم المتعددة - أن يمدوا نفوذهم إلى الشام^(١)؛ حيث وجدوا أن الأوضاع في الشام تسمح لهم بمزاولة نشاطهم، ونشر دعوتهم، لاسيما

(١) بدأ الباطنية يشكلون قوة كبيرة لها أثرها في الشام منذ أواخر سنة (٥٢٠هـ)، حيث وصل إلى حلب أحد دعاة الكبار ويدعى: بهرام الأسداباذي، وأخذ ينتقل بين حلب ودمشق داعيًا إلى مذهبهم، حتى كثر أتباعه، وأعانه الوزير أبو علي بن طاهر سعد، وقدم له مساعدات كثيرة، فعظم شره واستفحل أمره، وملكوا عدة قلاع وحصون في الشام، ومن زعماء الباطنية في الشام -أيضًا- وأحد كبار دعاةهم: سنان بن سليمان البصري الباطني، كان داهية ماكرًا، قدم الشام واستغوى كثيرًا من العامة والجهال، واستولى على بعض الحصون، واستمر في دعوته حتى توفي سنة (٥٨٩هـ). انظر: ابن الأثير: الكامل (٦٣٢/١٠) (٧٩/١١)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٨٢/٢١)، العبر (٩٩/٣)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٧٦/٦)، محمد كرد علي: خطط الشام (٣/٢)، الزركلي: الأعلام (١٤١/٣)، دائرة المعارف الإسلامية (٤٣٧/٧).

وأن الظروف المحيطة بالشام تساعدهم كثيراً في تحقيق أهدافهم؛ لأنهم كانوا على أتم الاستعداد للتعاون مع الصليبيين؛ حيث يتحد الجميع لمحاربة الإسلام والكيد للمسلمين؛ فالكفر ملة واحدة؛ وإن اختلفت آراؤهم ومناهجهم أحياناً.

وعلى كل؛ فقد استطاع الباطنية في الشام أن يملكوا بعض القلاع والحصون، وأن يزداد نشاطهم كثيراً بمساعدة بعض الأمراء المحسوبين على المسلمين؛ مثل الأمير رضوان بن تتش ابن ألب أرسلان^(١) الذي قرّب الباطنية، وعمل لهم دار دعوة لمذهبهم في حلب^(٢)؛ وهذا ما جعل أتباعهم في زيادة سريعة بالشام، وتطور أمرهم - بعد ذلك - إلى أن ملكوا عدة قلاع؛ منها: قلعة القدموس ومصيف وبانياس وغيرها^(٣)، ولم يكتفوا

(١) تقدمت ترجمته، وفيه يقول ابن الأثير: "وكانت أمور رضوان غير محمودة، وكان يستعين بالباطنية في كثير من أموره لقلّة دينه"، انظر ابن الأثير: الكامل (٤٩٩/١٠).

(٢) ابن العديم: زبدة الحلبي (١٤٦/٢-١٤٧-١٦٨)، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص (١٤١-١٤٢)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣١٥/١٩)، مسفر الغامدي: الجهاد ضد الصليبيين ص (٥٩).

(٣) ابن الأثير: الكامل (٦٣٢/١٠-٦٥٦)، وعن قلاعهم وحصونهم، انظر: لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص (٢٥٥، ٣٠٥)، والقدموس: حصن من حصون وادي التيم، من أعمال بعلبك شمال الشام. انظر: ابن الأثير: الكامل (٦٥٦/١٠)، ومصيف: حصن حصين مشهور للإسماعيلية، قرب طرابلس، والبعض يقول له: مصيب. ياقوت: معجم البلدان (١٤٤/٥)، وبانياس: بلدة صغيرة قريبة من جبل

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلطين في محاربة الفرق والتيارات الباطلة ٥٦٧

بذلك بل أخذوا يتربصون الدوائر بأمرء الشام؛ خاصة من يحاول قتالهم ومجاهدتهم؛ فقتلوا بعض الأمراء؛ الذين قاموا بمناوئتهم والتضييق عليهم؛ حيث قاموا باغتيال تاج الملوك بوري بن ظهير الدين طغتكين -صاحب دمشق- سنة (٥٢٦هـ)، لقتله زعيمهم بهرام، وملاحقته لهم، وإحباطه بعض تحالفاتهم مع الصليبيين، ثم اغتالوا ولده شمس الملوك إسماعيل سنة (٥٢٩هـ)، وكان تاج الملوك ابن طغتكين قد قتل مع زعيمهم المذكور ستة آلاف رجل منهم؛ وذلك سنة (٥٢٣هـ)، وقام بقتل الوزير أبي علي بن طاهر بن سعد المزوقادي (وزير طغتكين) الذي قدم لهم كثيرًا من المساعدات والتسهيلات؛ التي أضرت بالمسلمين^(١) وقد أبلى تاج الملوك البلاء الحسن في قتالهم، وحاول -قدر استطاعته- أن يستأصل شأفتهم من الشام، رغم تعدد جبهات القتال ضد المسلمين من الصليبيين تارة،

لبنان، وتعد من أعمال دمشق. مسفر الغامدي: الجهاد الصليبيين ص (٦١) حاشية رقم (٢).

(١) من تلك المساعدات؛ التي قام بها هذا الوزير، إشارته لطغتكين -صاحب دمشق- بأن يُسلم لبهرام -أحد دعاة الباطنية وزعمائهم بالشام- قلعة باناس؛ فسُلِّمت إليه، واجتمع الباطنية بها؛ فعظم أمرهم وزاد نفوذهم، واشتد الحال على الفقهاء والعلماء وأهل الدين -لاسيما أهل السنة- ولم يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا؛ خوفًا من سلطانهم أولًا، ومن شر الباطنية ثانيًا، فلم يقدم أحد على إنكار ذلك؛ حتى قتلهم تاج الملوك سنة (٥٢٣هـ) وقتل زعيمهم بهرام أيضًا، وكفى الله المسلمين شرهم، ورد على الكافرين كيدهم. انظر في تفاصيل ذلك: ابن الأثير: الكامل (١٠/٦٣٢-٦٥٦).

والباطنية تارة أخرى، ولكنه بذل ما في وسعه حتى استشهد على أيديهم سنة (٥٢٦هـ)^(١) - كما أسلفت.

ومن هنا يتضح أن الباطنية كانوا يهدفون لنشر دعوتهم، وامتداد نفوذهم لأكثر من إقليم أو جهة، علماً أن بداية نشاطهم كان مركزاً في المشرق، وضمن الأراضي والأقاليم؛ التي يسيطر عليها السلاجقة؛ كأصفهان وطبرستان وخراسان، ولم يتهاون سلاطين السلاجقة في قتالهم والتضييق عليهم؛ لذلك اضطر الباطنية لنقل نشاطهم ودعوتهم إلى الشام؛ كي يصبح لهم نفوذ في أكثر من مكان حتى إذا ما ضعفوا أو قل نشاطهم

(١) حول قتله للباطنية، انظر: ابن الأثير: الكامل (١٠-٦٥٦)، الذهبي: العبير (٢/٤١٨)، اليافعي: مرآة الجنان (٣/٢٢٩)، وفي ترجمته انظر: ابن الأثير: الكامل (١٠/٦٧٩)، اليافعي: مرآة الجنان (٣/٢٥١)، الصفدي: أمراء دمشق في الإسلام ص (٣٨)، المنجد: ولاة دمشق في العصر السلجوقي ص (٢١)، ومع ذلك تابع سلاطين السلاجقة جهودهم ضد الباطنية في الشام، إضافة إلى ما قام به بعض أمراء الشام من جهود جبارة وأعمال عظيمة ضدهم - كما أوضحت ذلك - ومما يدل على ما ذكرته الرسالة؛ التي وجهها السلطان محمود السلجوقي إلى ألب أرسلان بن رضوان السلجوقي - ملك حلب - يطلب منه أن يقتل الباطنية لديه، ونصها: "كان والدك يخالفني في الباطنية، وأنت ولدي فأحب أن تقتلهم". انظر: ابن العديم: زبدة الحلب (٢/١٦٨)، محمد ماهر حمادة: الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصور العباسية المتتابعة ص (٤٥٠).

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطنية ٥٦٩

في جهة ما، قوي في أخرى؛ وبذلك يضمنون استمرار دعوتهم، ومن ثم يحافظون على قوة نفوذهم؛ وهذا تخطيط خطير، وناجح إلى حد بعيد^(١).

وقد واصل سلاطين السلاجقة جهادهم، وملاحقتهم للباطنية، بعد وفاة السلطان محمد؛ الذي كان شديد العداوة لهم؛ فقد قام السلطان السلجوقي سنجر سنة (٥٢٠هـ)، وبعد وفاة زعيمهم الحسن بن الصباح سنة (٥١٨هـ)، بملاحقتهم وحصارهم؛ حيث أمر وزيره أحمد بن الفضل بغزو الباطنية في خرسان وقتلهم أينما كانوا، وحيثما ظفر بهم، ونهب أموالهم، وسبي نسائهم، فجهّز الوزير جيشين لقتالهم، توجه أحدهما إلى قلعة "طريث" والآخر إلى قرية لهم؛ اسمها "طرز" قرب بيهق،

(١) نلاحظ أن الباطنية لم يكن لهم نفوذ كبير ونشاط مميز في العراق؛ وذلك لوجود الخلافة العباسية هناك وبعض سلاطين السلاجقة؛ الذين سيقفون بقوة ضدهم، ويعملون جاهدين لإضعافهم وإحباط مخططاتهم؛ لذلك فكروا في نقل نشاطهم إلى الشام؛ حيث الوجود الصليبي؛ الذي يتفق معهم في الأهداف؛ التي تلخص في محاربة الإسلام والنيل من المسلمين، ووجود تعاون وثيق بينهما، إضافة إلى المساعدات والتسهيلات؛ التي قدمها لهم بعض أمراء المسلمين في الشام، وعدم وجود خلافة أو سلطنة هناك، أعطاهم كثيرًا من الأمان والاطمئنان لدعوتهم وضمان انتشارها، ورغم ذلك كله فقد قام بعض أمراء المسلمين بمجاهدتهم وقتالهم ونجحوا إلى حد كبير في الحد من نفوذهم؛ كالأمير ألب أرسلان بن رضوان وبلق بن هرام بن أرتق تاج الملوك بورى بن طغتكين؛ الذي قتل منهم ستة آلاف في دمشق سنة (٥٢٣هـ)، انظر في نشاط الإسماعيلية (الباطنية) في بلاد الشام وأثرهم، مسفر الغامدي: الجهاد الصليبي ص (٥٧-٦٢).

وأوصاهم أن يقتلوا من لقوه منهم؛ فقصد كل جيش الجهة التي سير إليها ووكل بها فأما القرية؛ فقصدها العسكر، وقتلوا كل من بها منهم، وهرب مقدمهم وصعد إلى منارة المسجد وألقى نفسه منها فهلك، وأما الذين توجهوا إلى قلعة "طريث" فإنهم قتلوا أكثر أهلها، وغنموا كثيراً من أموالهم، ثم عادوا بعد أن أظفرهم الله تعالى عليهم^(١).

ثم إن الباطنية حاولوا الثأر لأنفسهم، والانتقام من المسلمين مما حل بهم^(٢)؛ فأكثروا الغارات على القرى والبلدان القريبة من حصونهم وقلاعهم؛ حتى أفزع ذلك الناس، وباتوا في رعب وخوف من شرهم؛ الأمر الذي دفع السلطان سنجر لمحاربتهم وقتلهم مرة أخرى، ومهاجمتهم في قلعتهم الحصينة "الموت" سنة (٥٢١هـ) فقتل منهم خلقاً كثيراً، قيل

(١) ابن الأثير: الكامل (١٠/٦٣١-٦٣٢).

(٢) ومن جملة انتقامهم، قتلهم للوزير معين الملك، أبي نصر، أحمد بن الفضل، وزير السلطان سنجر؛ الذي قام بقتالهم بأمر من السلطان سنجر سنة (٥٢٠هـ) - كما تقدم - فقد قتلوه سنة (٥٢١هـ) أي بعد قتاله لهم بسنة، وكان له في قتالهم آثار حسنة ونية صالحة فرزقه الله الشهادة (ابن الأثير: الكامل (١٠/٦٤٧)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (٢٤٥).

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطنية ٥٧١

إنهم كانوا يزيدون عن عشرة آلاف نفس^(١)، ويذكر الذهبي أن سنجر قتل من الباطنية اثني عشر ألفاً^(٢).

كذلك نجح السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه في الاستيلاء على قلعة ألموت، واستخلاصها من الباطنية سنة (٥٢٤هـ)^(٣).

ثم استمرت جهود السلاجقة، ومواقفهم ضد هذه الطائفة، ومحاولة التخلص من خطرهم؛ فعلى الرغم من مقاومة السلاطين السلاجقة لهم بين الحين والآخر، وقتل الكثير منهم، والاستيلاء على بعض حصونهم وقلاعهم، كانوا لا يلبثون أن يعودوا لسابق عهدهم من إقامة القلاع،

(١) ابن الأثير: الكامل (٦٤٧/١٠).

(٢) العبر (٤١٥/٢)، وذكر الذهبي في دول الإسلام أنه قتل منهم نحو عشرة آلاف (دول الإسلام ص ٢٦٩)، وتذكر المصادر أن الأمير عباس - من مماليك جوهر؛ صاحب الري - من قبل السلطان سنجر - قام بقتال الباطنية بدون هوادة؛ فقتل منهم ما يزيد على مائة ألف، وفعل بهم ما لم يفعله غيره ولم يزل بغزوهم وبقتل فيهم ويحرب ديارهم إلى أن مات، وقتل أحد قادة الباطنية؛ وهو إبراهيم السهاوي سنة (٥٣٦هـ). انظر في جهوده ومواقفه تلك: ابن الجوزي: المنتظم (٩٥/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٨٩-٧٦/١١)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (١٧٤)، الحسيني: أخبار الملوك والأمراء السلجوقية ص (٢١٨)، وكان المغرب جوهر - أحد قادة السلطان سنجر البارزين - قد قتله باطنيون محتفون بزى النساء سنة (٥٣٤هـ) (ابن الجوزي: المنتظم (٨٧/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٧٧/١١)، الحسيني: أخبار الملوك والأمراء السلجوقي ص (٢١٨).

(٣) ابن الأثير: الكامل (٦٦٦/١٠)، الذهبي: العبر (٤١٩/٢).

وإحكام الحصون، وبت الدعوة؛ ليكثر أتباعهم، ومع ذلك كان السلاطين السلاجقة يتعقبونهم، ويستولون على أكثر قلاعهم الجديدة، ومن تلك الجهود والمواقف ما يذكره الراوندي من أن السلطان مسعودًا نزل هو وأمرأوه على إحدى قلاعهم في ولاية "قهاب"^(١) فأقاموا حولها ثلاثة أشهر؛ وذلك سنة (٥٤١هـ)، وحاصروها حصارًا شديدًا حتى سقطت، ثم حدث خلاف بين الأمراء؛ فانسحبوا من حولها^(٢)، وتركوا جميع الآلات، وأدوات الحصار، وكان ذلك - كما يذكر الراوندي - غيبًا عظيمًا وهنأ تمامًا؛ فقد قوي أمر هؤلاء المخاذيل؛ فأخذوا يبالبغون في عمارة تلك القلعة وإحكام بنائها؛ لأنهم عدوا ما حدث فألًا حسنًا، ولم تسقط هذه القلعة إلا في عهد السلطان أرسلان بن طغرل، سنة (٥٦٠هـ)، ومعها كذلك بعض القلاع الأخرى؛ الواقعة بنواحي قزوين^(٣).

وهكذا؛ وقفنا على جهود السلاطين السلاجقة ومواقفهم العظيمة ضد الفرق الضالة والتيارات الهدامة المتمثلة في الدعوة الباطنية، وقد أبلوا

(١) قهاب: ناحية ذات قرى كثيرة من أعمال أصبهان، (ياقوت: معجم البلدان ٤١٧/٤).

(٢) وما أكثر ما يحدث هذا بين المسلمين عبر التاريخ، في وقت هم أحوج ما يكونون فيه إلى الوحدة واجتماع الكلمة وتوحيد الصف، وكثيرًا ما دفعوا ممن ذلك.

(٣) انظر: راحة الصدور ص (٤١٤-٤١٥)، الحسيني: العراضة في الحكاية السلجوقية ص (١٤٩-١٥٠).

الفصل الثالث: جهود الخلفاء والسلاطين في محاربة الفرق والتيارات الباطنية ٥٧٣

البلاء الحسن في ذلك، وحاولوا -جاهدين- لاستئصال جذورهم، وتخليص الناس من شرورهم، والقضاء عليهم، ولكن على الرغم من تلك المواقف والجهود التي لا تنكر، والتضحيات التي بذلت في هذا الشأن والآثار؛ التي نجمت عن ذلك، من إضعاف السلطنة السلجوقية، وقتل الكثير من الخلفاء والأمراء والسلاطين والوزراء والعلماء، وغيرهم وتأثر الناحية العسكرية والمالية من جراء ذلك، أقول: على الرغم من كل ما تقدم لم يتمكن السلاجقة من القضاء التام على فلول الباطنية، وإن كانوا قد نجحوا -إلى حد كبير- في التخفيف من آثارهم، وتقليص قوتهم وقدراتهم، وتقليم أظافر حركتهم؛ فقد ظلت الدعوة الباطنية تضعف وتنشط بحسب الظروف والأحوال المتاحة لها، ومن ثم امتد بقلاعهم العمر إلى أن ظهرت قوة المغول؛ حيث تم القضاء على فلولهم عند استيلاء المغول على قلعة "الموت" سنة (٦٥٤هـ)، وبذلك تم القضاء على مركز التنظيم الأساسي لهم^(١).

(١) كانت نهاية الباطنية على يد المغول؛ الذين استولوا على حصونهم؛ وخاصة قلعة الموت؛ التي استسلمت لهم في ٢٦ ذي القعدة سنة (٦٥٤هـ) حين أرغموا الزعيم الباطني (ركن الدين خورشاه) الذي تولى في عام (٦٥٣هـ) على الاستسلام، ثم قتلوه؛ وهو آخر سلاطينهم، أما عن قلاعهم بالشام فقد سقطت على يد المجاهد الظاهر بيبرس؛ الذي جاهد الصليبيين والمغول والباطنية. انظر للتفاصيل فيما تقدم: ابن واصل: مفرج الكروب (١/٢٠٩)، القرظيني: آثار البلاد ص (٣٠٢)، الهمداني: جامع التواريخ (٢٢٠ ج ١/٢٤٣-٢٥٦)، اليونيني: ذيل مرآة الزمان

والخلاصة: أن الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية بذلوا الجهود الجبارة، وقاموا بدور بارز وعظيم، في محاولة منهم لوقف دعوة الباطنية، والعمل على الحد من خطرهم؛ الذي أصاب الناس بالرعب والخوف، وهذه الجهود والمواقف -مجتمعة- أدت إلى الحفاظ على كيان أهل السنة في ذلك العصر؛ وهو ما نريد أن نتوصل إليه ونبرزه من خلال هذا البحث، وقد أثرت تلك المقاومة الفكرية والعسكرية لأوئك المجرمين الحاقدين على المسلمين في كبح جماحهم، والحيلولة دون تنفيذ مخططاتهم، ومقاومة أفكارهم الإلحادية، ومعتقداتهم الباطلة.

(٥٨/١)(٤٧٣/٢)، ابن خلدون : العبر (١٢٦/٤)، إسماعيل الخالدي: العالم الإسلامي والغزو المغولي ص (٨٣)، رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية (٥١٥/٣)، دائرة المعارف الإسلامية (١٨٨/٢)(٤٣٤/٧)، العبادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ص (١٧٧) وما بعدها، حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٢٦٤)، بسام العسلي: الظاهر بيبرس ونهاية الحروب الصليبية القديمة دار النفائس (ط١/٣/١٩٨٣م).

الباب الثاني

"جهود العلماء، ودعمهم المذهبَ السني،
وعلاقتهم بالخلفاء والسلاطين، وآثارها في
الحفاظ على السنة في ذلك العصر"

الفصل الأول: "ازدهار الحياة العلمية والثقافية،
ومجتمع العلماء في العصر السلجوقي"

الفصل الثاني: "دور العلماء في انتعاش المذهب السني
وانتشاره في الأمصار ومحاربة التيارات الفكرية
المنحرفة"

الفصل الثالث: "جهود العلماء في الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر، وأثر ذلك في المجتمع الإسلامي"
الفصل الرابع: "اهتمام الخلفاء العباسيين والسلاطين
السلاجقة بالعلم وعلاقتهم بالعلماء، وآثار ذلك على
المجتمع الإسلامي"

الفصل الأول

"ازدهار الحياة العلميّة والثقافية ومجتمع

العلماء في العصر السلجوقي"

الفصل الأول

"ازدهار الحياة العلميّة والثقافية ومجتمع العلماء في العصر

السلجوقي"

يحسن بي - قبل أن أتحدث عن العلماء الذين كانت لهم جهود عظيمة في نصرّة السنة في العصر السلجوقي - أن أذكر كلاماً نفيساً للإمام الآجري في هذا المقام؛ حيث يقول: "ولما علم أن العلم فريضة عليه - أي على المؤمن - وأن المؤمن لا يحسن به الجهل؛ فطلب العلم لينفي عن نفسه الجهل، وليعبد الله - عز وجل - كما أمره، ليس كما يهوى نفسه؛ فكان هذا مراده في السعي في طلب العلم، معتقداً الإخلاص في سعيه لا يرى لنفسه الفضل في ذلك؛ بل يرى لله - عز وجل - الفضل عليه؛ إذ وفقه لطلب علم ما يعبد به من أداء فرائضه، واجتناب محارمه"^(١).

وقد ظهر - في العصر السلجوقي - كبار العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء الذين تركوا آثاراً خالدة، ومصنفات عظيمة، أدت دوراً مهماً في دفع الحركة الثقافية والعلمية إلى الإمام، وقدم أولئك العلماء مجموعة قيمة من التصانيف للمكتبة الإسلامية لاتزال تحتل مرتبة عالية، وتحفظ بأهميتها وفوائدها وثمارها حتى الآن، والله الحمد، حيث بقيت آثارهم محفوظة، وأعمالهم مشكورة، وجهودهم مأجورة بإذن الله.

(١) أخلاق العلماء ص (٦٧).

وسوف أُلقي الضوء فيما يلي على بعض العلماء الذين برزوا في العصر السلجوقي، كذلك العلوم التي برزوا فيها، لاسيما من له أثر في تثبيت دعائم المذهب السني، والحفاظ على السنة في ذلك العصر؛ إما عن طريق التصنيف، أو التدريس، أو حلق السوعظ والذكر، أو الاتصال بالخلفاء والسلاطين بما يخدم مصلحة الأمة الإسلامية، ويحافظ على كيان أهل السنة.

ففي علم القراءات القرآنية ظهر عدد من علماء القراءات، ورحل طلاب العلم إليهم، وقد اهتم علماء المسلمين بالقراءات؛ حتى أصبحت علماً مهماً بين علوم القرآن الكريم بخاصة، والدراسات الشرعية بصفة عامة، ولذلك صُنفت - في هذا العلم - عشرات الكتب والمؤلفات نظماً ونثراً.

ومن مشاهير القراء في العصر السلجوقي: أبو علي حسن بن القاسم ابن علي الواسطي (ت: ٤٦٧هـ)، كان شيخ القراء، ومسند العراق، رحل إليه الناس من الشام ومصر والعراق للقراءة عليه^(١).

كما برز من مشاهير القراء في ذلك العصر - أيضاً - الحسن بن أحمد بن عبد الله الحنبلي، المقرئ المحدث، (ت: ٤٧١هـ)، صاحب التصانيف الكثيرة في علوم القرآن والفقه والحديث واللغة والأصول؛ حيث بلغت تصانيفه مائة وخمسين مصنفاً، وكانت له حلقة بجامع

(١) ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء (١/٢٢٨).

المنصور، وحلقة بجامع القصر، يُفني فيهما ويُقرئ الحديث، ويعظ الناس، وكان شديداً على المخالفين^(١).

ولاشك أن مثل هذه الأعمال والجهود توضح دور العلماء وجهودهم في ذلك العصر؛ المتمثلة في التأليف، والتدريس، والوعظ، والرد على المخالفين؛ أصحاب الأهواء الضالة والتيارات الهدامة، ومثل هذه الجهود هي التي تؤدي إلى تأصيل المذهب السني، وتوضيح معتقداتهم الفاسدة، ومثل تلك الجهود كانت لهم بالمرصاد؛ حيث حافظت على كيان أهل السنة، وفوّتت الفرصة لأصحاب الأغراض الأخرى من أن ينالوا مقاصدهم، وحدّت من نشاطهم، وثبّطت من عزائمهم، كل ذلك بفضل الله تعالى؛ ثم بفضل أولئك العلماء المخلصين المجاهدين بأقلامهم وألسنتهم وأنفسهم؛ وهذا ما يجب علينا توضيحه في هذا البحث، عند

(١) انظر في ترجمته وسيرته وجهوده: ابن الجوزي: المنتظم (٨/٣١٩-٣٢٠)، ياقوت: معجم الأدباء (٧/٢٦٥)، ابن الأثير: الكامل (١٠/١١٢)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٨/٢٣٠)، تذكرة الحفاظ (٣/١١٧٦-١١٧٧)، معرفة القراء الكبار (١/٣٥٠)، ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة (١/٣٢)، ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء (١/٢٠٦)، ابن حجر: لسان الميزان (٢/٢٤٥)، السيوطي: بغية الوعاة (١/٤٩٥)، العليمي: المنهج الأحمد (٢/١٦٥)، حاجي خليفة: كشف الظنون (١/٢١٢-٨٩٢)(٢/١١٠٥-٢٠٠١).

استعراضنا علماء العصر السلجوقي، وإبراز جهودهم ومواقفهم إن وُجدت^(١).

ومن مقرئي العصر السلجوقي - أيضاً - المقرئ الجليل أبو محمد أحمد بن علي بن الحسن الدقاق (ت: ٤٧٤هـ)^(٢)، كما كان العلامة المقرئ الفقيه الأصولي المتكلم شيخ الحنابلة في عصره أبو الوفاء علي بن عقيل البغدادي (ت: ٥١٣هـ)، من مشاهير القراء في العصر السلجوقي؛ حيث حفظ القرآن، وقرأ القراءات على عدد من العلماء آنذاك، له عدة مؤلفات؛ من أشهرها كتاب "الفنون"^(٣)، وكان مفتياً في الديوان في أثناء خلافة القائم في حضرة كبار العلماء^(٤)؛ مما يدل على قوة علاقته بالخلفاء والسلاطين واتصاله بهم مبكراً؛ الأمر الذي يؤكد أن بعض العلماء

(١) سيأتي الحديث عن هذه الجهود بإذن الله في الفصول اللاحقة لهذا الفصل؛ لأن بعضها يتعلق بنشر المذهب السني، وبعضها يتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والبعض الآخر يتعلق بمواقف العلماء وعلاقتهم بالخلفاء والوزراء والسلاطين، وهكذا كل فيما يخصه.

(٢) الذهبي: تذكرة الحفاظ (٣/١١٨٣).

(٣) طُبع من هذا الكتاب جزءان بتحقيق جورج المقدسي، بيروت - دار الشروق - (١٩٧٠م)، ويقول شعيب الأرنؤوط إنه قد طبع منه جزء في دار الشروق، لبنان (١٩٦٩م)، ووقع لمحققه تحريفات فاضحة، سير أعلام النبلاء (١٩/٤٤٦).

(٤) تقدمت ترجمته، وفيما يخصه هنا انظر: الذهبي: معرفة القراء الكبار (١/٣٨٠)، ميزان الاعتدال (٤/٦٦)، ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء (١/٥٥٦) - (٥٥٧)، العليمي: المنهج الأحمد (٢/٢٥٢-٢٧٠).

والفقهاء في العصر السلجوقي شغل مراكز في الدولة تتناسب مع مقامهم العلمي والديني والاجتماعي.

وهذا لاشك له أثره في الحفاظ على كيان أهل السنة في ذلك العصر، إضافة إلى ما كانوا يقومون به من أمور التدريس والوعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتصنيف، وغيرها من الجهود الجبارة التي تؤثر في الرأي العام الإسلامي، وتخدم مصالح الأمة الإسلامية في عصور الفتن والاضطرابات؛ وهذا هو واجب العلماء المخلصين لدينهم وأمتهم على مرّ العصور.

ومن أشهر القراء - في ذلك العصر - عبد الله بن علي بن أحمد المقرئ النحوي (ت: ٥٤١هـ)، كان مقرئاً نحوياً محدثاً؛ له تصانيف في القراءات، قرأ عليه الخلق الكثير^(١)، يقول ابن الجوزي: "قرأت عليه القراءات والحديث الكثير؛ فلم أسمع قارئاً قط أطيب صوتاً منه، ولا أحسن إذا صلى"^(٢).

إلى غير هؤلاء من القراء المشاهير الذين برزوا في العصر السلجوقي، ورحل إليهم طلبة العلم؛ ينهلون من علمهم، ويستفيدون من ملازمتهم؛

(١) ابن الأثير: الكامل (١١٨/١١)، الذهبي: معرفة القراء الكبار (٤٠٣/٢)، ابن كثير:

البداية والنهاية (٢٢٢/١٢)، ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء (٤٣٤/١)،

ابن العماد: شذرات الذهب (١٢٨/٤).

(٢) المنتظم (١٢٢/١٠).

حيث يقرؤون عليهم؛ لأن أكثر هؤلاء القراء انتهت إليهم القراءة والتجويد علماً وعملاً؛ مثل المبارك بن الحسن بن أحمد الشهرزوري البغدادي (ت: ٥٥٠هـ) الذي انتهت إليه مشيخة الإقراء بالعراق^(١)، بعد سبط أبي منصور الخياط عبد الله بن علي المقرئ -الآنف الذكر- ومنهم كذلك الإمام المقرئ علي بن عبد الرحمن بن هارون بن عيسى بن داود الجراح، كان إماماً مقرئاً حسن الكتابة، مجوّد التلاوة، قرأ عليه عدد من العلماء، ونظم في القراءات كتاباً، وانتهت إليه رئاسة القراءة، كان يصلي بأمر المؤمنين الخليفة المستظهر بالله، وتوفي سنة (٤٩٧هـ)^(٢).

والحسين بن محمد بن عبد الوهات الدباس، كان علماً في القراءات، قرأ عليه عدد من المشاهير؛ وهو صاحب كتاب "الشمس المنيرة في التسعة الشهيرة" توفي سنة (٥٢٤هـ)^(٣).

ولاشك أن الجمهرة الكبيرة من أولئك العلماء في القراءات تدل دلالة واضحة على عناية المسلمين واهتمامهم الفائق بتلاوة القرآن الكريم، ومعرفة أحكام القراءة؛ أي أن ذلك العصر امتاز بغزارة المؤلفات في علم

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٠/١٦٤)، الذهبي: معرفة القراء الكبار (٢/٤١٣)، العبير

(٢/٣٨)، ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء (٢/٣٨)، ابن تغري بردي:

النجوم الزاهرة (٥/٣٢٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (٤/١٥٧).

(٢) ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء (١/٥٤٩).

(٣) الذهبي: معرفة القراء الكبار (١/٣٨٧)، ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء

(١/٢٥١).

القراءة، وبكثرة الرجال المخلصين الذين يقومون بتلقين هذا العلم في المساجد والمدارس؛ أمثال محمد بن عبد الرزاق البغدادي؛ المعروف بالخياط الذي قرأ عليه ما يزيد على سبعين ألف تلميذ، وهو مؤلف كتاب "المهذب" في القراءات توفي سنة (٤٩٩ هـ)^(١)، وكان الخلفاء والسلاطين -بدورهم- يراعون العلوم الإسلامية، ويقربون العلماء المهتمين بتلك العلوم، كما فعل الخليفة المستظهر بالله الذي أكرم علي بن الجراح الذي انتهت إليه رئاسة القراءة في عصره، وجعله إماماً له في الصلاة؛ وهذا يدل على العلاقة القوية التي كانت تربط العلماء بالخلفاء والولاة، وآثارها الإيجابية على المسلمين.

أما في التفسير^(٢) فقد برز عدد من العلماء في العراق خلال العصر السلجوقي، وكان علماء التفسير يُحيطون بعدة علوم إسلامية وأدبية ولغوية تُساعدهم على فهم معاني القرآن الكريم، واستنباط أحكامه ومضامينه؛ لأنه لا يمكن لأي رجل أن يخوض في هذا العلم إلا بعد أن يحصل على مرتبة عالية في فهم اللغة العربية، وحديث الرسول ﷺ،

(١) ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء (٢/٧٤).

(٢) علم التفسير هو علم يُعرف به نزول الآيات وشؤونها، وأقاصيصها، والأنساب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيتها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومحملها ومفسرها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وأمثالها انظر التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون (١/٢٤).

وسيرته، وأن يصل إلى درجة عالية في فهم الأحكام ومقاصد الشريعة وما يتعلق بها، ومن أبرز العلماء وأشهرهم في هذا الحقل: محمد بن الحسين بن محمد بن خلف، أبو يعلى المعروف بالفراء الحنبلي (ت: ٤٥٨هـ-)، شيخ الحنابلة؛ صاحب التصانيف المتنوعة، كان إماماً لا يدرك قراره، ولا يشق غباره؛ كما وصفه الذهبي^(١)، له تصانيف في التفسير وعلوم القرآن، إضافة إلى أنه كان من رجال الحديث المعدودين^(٢).

ومنهم -أيضاً- عبد الخالق بن هبة الله بن سلامة بن نصر، أبو عبد الله، المفسر الواعظ (ت: ٤٧٩هـ-)^(٣)، وكذلك: علي بن فضال بن علي ابن غالب المجاشعي (ت: ٤٧٩هـ-)، كان إماماً في اللغة والنحو والأدب والتفسير والسير، له من التصانيف "البرهان العميدي" في التفسير؛ وهو

(١) العبر في خير من غير (٣٠٩/٢).

(٢) الخطيب: تاريخ بغداد (٢/٢٥٦)، ابن الجوزي: المنتظم (٨/٢٤٨)، ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة (٢/١٩٣)، ابن الأثير: الكامل (١٠/٥٢)، أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر (٢/١٨٦)، العليمي: المنهج الأحمد (٢/١٢٨)، الداودي: طبقات المفسرين (١/٤٢٣).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (٩/٣٢).

كتاب ضخيم في عشرين مجلداً، له -أيضاً "الأكسير في علم التفسير" في خمس وثلاثين مجلداً، وله مصنفات أخرى في فنون مختلفة^(١).

ومن أشهر المفسرين -أيضاً- في ذلك العصر: أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل الراغب الأصبهاني (ت: ٥٠٢ هـ)^(٢)، العلامة الماهر، والمحقق الباهر، له مصنفات في التفسير وعلوم القرآن؛ منها: "جامع التفاسير"، وهو كتاب كبير طُبعت مقدمته؛ حيث لم يكمله المؤلف، واستفاد منه الإمام البيضاوي في تفسيره، وكتاب "المفردات في غريب القرآن" و"حل متشابهات القرآن" و"الذريعة إلى مكارم الشريعة"، وكتاب "تحقيق البيان في تأويل القرآن" وغيرها من الكتب المطبوعة والمخطوطة والمفقودة^(٣).

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٣٣/٩)، ياقوت: معجم الأديباء (٩٠/١٤-٩١)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٢٤/٥)، السيوطي: بغية الرعاة (١٨٣/٢)، طبقات المفسرين ص (٨٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٦٣/٣).

(٢) السيوطي: بغية الرعاة (٢٩٧/٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٤/٤)، حاجي خليفة: كشف الظنون (٣٦/١، ١٣١، ٣٧٧)، ثم انظر مقدمة كتاب الذريعة للراغب الأصبهاني، تحقيق الدكتور أبو اليزيد العجمي ص (١٩-٣٦)، حيث دافع عن اتهام الراغب الأصبهاني بالتشيع والاعتزال بأدلة علمية قوية، وفند المزاعم حول ذلك من خلال دراسته الجيدة حول المؤلف في المقدمة.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٢٠/١٨-١٢١)، الزركلي: الأعلام (٢٥٥/٢)، مقدمة كتاب الذريعة للراغب الأصبهاني تحقيق الدكتور العجمي ص (٢٤).

ومن المفسرين البارزين في العصر السلجوقي -أيضاً: محمد بن علي ابن علي يحيى بن يونس النسفي (ت: ٥١٠هـ)، كان صالحاً فاضلاً خبيراً بالتفسير والنحو والأدب، وإسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي التيمي الطلحي الأصبهاني (ت: ٥٣٥هـ)، كان إماماً في التفسير والفقهِ والحديث واللغة والأدب، لُقّب بقوام السنة، صنف في التفسير: "التفسير الكبير" في ثلاثين مجلداً، و"المعتمد في التفسير"، عشرة مجلدات، و"الإيضاح في التفسير" أربعة مجلدات، و"التفسير باللسان الأصبهاني"، عدة مجلدات، وله "إعراب القرآن" و"الحجة في بيان المحجة"، وغيرها من المصنفات المتنوعة^(١).

كذلك كان العلامة أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)، صاحب التصانيف المشهورة والمتنوعة، من العلماء البارزين في ذلك العصر في التفسير؛ فمن مصنفاته في هذا الباب: "زاد المسير في علم التفسير"، وكتاب "نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه

(١) الذهبي: العبر (٢/٤٤٦)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/٢١٧)، اليافعي: مرآة الجنان (٣/٢٦٣)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٥/٢٦٧)، السيوطي: طبقات المفسرين ص (٨)، الزركلي: الأعلام (١/٣٢٣).

والنظائر" إضافة إلى مصنفااته الأخرى في علم الحديث والفقه والتاريخ والأدب وغيرها^(١).

ومن مفسري العصر -أيضاً: أبو السعادات مجد الدين المبارك بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني؛ المعروف بابن الأثير الجزري (ت: ٦٠٦هـ-)، يقول ابن خلكان: "كان من أشهر العلماء ذكراً، وأكبر النبلاء قدرًا، وأحد الأفاضل المشار إليهم"^(٢).

أما في الحديث فقد اهتم العلماء بحديث الرسول ﷺ، وكان الاهتمام به يحتل المرتبة الثانية بعد الاهتمام بالقرآن الكريم وعلومه؛ لأنّ المسلمين أجمعوا على أن لشريعة الإسلام مصدرين أساسيين؛ هما القرآن الكريم والسنة المطهرة، ومن هنا ندرك أهمية هذا العلم في الثقافة الدينية الإسلامية، واهتمام العلماء المسلمين به في جميع العصور، منذ بدأ تدوينه

(١) ابن الأثير: الكامل (١٧١/١٢)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (١٤٠/٣). الذهبي: تذكرة الحفاظ (١٣٤٢/٤)، السيوطي: طبقات المفسرين ص (١٧)، الداودي: طبقات المفسرين (٢٧٠/١)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٢٩/٤).
(٢) وفيات الأعيان (١٤١/٤).

ابن حجر: لسان الميزان (١٣/٤-١٥)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٥٦/٥)، السيوطي: طبقات المفسرين ص (٦٧)، الداودي: طبقات المفسرين (٣٠١/١)، حاجي خليفة: كشف الظنون (٦٣٤/١).
وعن القاضي عبد الجبار شيخ المعتزلة في عصره، انظر: الخطيب: تاريخ بغداد (١١٣/١١)، ابن الأثير: الكامل (٣٣٤/٩).

وتنقيته، وتمييز صحيحه من حسنه، وضعيفه من غريبه، وما يتعلق به، والله سبحانه وتعالى شرف نبينا -عليه الصلاة والسلام- حيث قال: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾^(١)، ولهذا كان ما يجيء به الرسول ﷺ من شرع، واجب الطاعة والامتثال -كالقرآن- مصداقاً لقوله تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾^(٢)؛ لذلك كان المسلمون يهتمون برواية الأحاديث النبوية، والتدقيق في أسانيدها، وبرع عدد من العلماء الذين اتصفوا بالصدق والأمانة والتثبت؛ فكان بعضهم يرحل من بلد إلى آخر من أجل معرفة حديث واحد^(٣)، وبعضهم لا يكتفي بنذر حياته لعلم الحديث؛ بل كان يطلب أن تُوقف كتبه لطلبة العلم أيضاً.

وقد تطور علم الحديث، وتفرع عنه جملة من العلوم الخاصة بالمصطلح، منها علم الرجال، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم الإسناد، ونقده، وقام العلماء بالتدقيق في سير المحدثين وتراجهم، ووضعوا علم الجرح والتعديل على أصول محددة، ووصلوا في ذلك إلى غايات بعيدة^(٤)،

(١) سورة النجم آية (٣-٤).

(٢) سورة النساء آية (٨٠).

(٣) سبق وأن تحدثت عن الرحلة في طلب العلم بصفة عامة والخاصة أيضاً بالحديث الشريف ضمن هذا الفصل، فليُنظر هناك.

(٤) صنف العلماء قديماً وحديثاً في علم الحديث ومصطلحه مصنفات هامة ومفيدة ينهل منها طلبة العلم حتى اليوم بحمد الله، من أهمها: كتاب "علوم الحديث" لابن الصلاح، و"الكفاية في علم الرواية" للخطيب البغدادي و"منهج النقد في علوم

من هذا المنطلق هناك عدد عظيم من رجال الحديث في العصر السلجوقي أفنوا أعمارهم في جمع الحديث وتصنيفه وضبطه وتنقيحه، وكان لهم الفضل الذي لا ينكر في الكتابة والتأليف في هذا الباب المهم من أبواب العلوم الإسلامية، واهتم طلاب العلم والعلماء بالإجازات العلمية^(١) والحصول عليها من داخل العراق وخارجة، وقصد العراق لهذه الغاية عدد

الحديث" لنور الدين عتر و"أصول التخريج ودراسة الأسانيد" للدكتور محمود الطحان و"بحوث في تاريخ السنة المشرفة" للدكتور أكرم العمري، وغيرها من المؤلفات في هذا المجال.

(١) الإجازة لغة: مصدر أجاز أي إعطاء الإذن، وأجازله: أذن له واستجاز: طلب الإجازة انظر الفيروز آبادي: القاموس المحيط (١٧٦/٢)، ابن منظور: لسان العرب (٣٢٦/٥)، إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط (١٤٦/١)، وفي الاصطلاح: الإجازة اصطلاح اتخذها علماء مصطلح الحديث؛ وذلك أن يأذن ثقة من الثقات لغيره بأن يروي عنه حديثاً أو كتاباً؛ سواء كان الكتاب من تصنيفه أم كان يرويه عن شيوخه بالإسناد إلى مولفه، أو أن يسأل طالب العلم العالم أن يميزه علمه فيميزه إياه، فالطالب مستحيز والعالم مجيز، انظر حول معنى الإجازة اصطلاحاً وأنواعها الخطيب: الكفاية في علم الرواية ص (٤٤٦-٤٤٧)، ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ص (١٧٥)، وما بعدها، ابن كثير: الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث ص (٩٩)، نور الدين عتر: منهج النقد في علوم الحديث ص (١٩٠).

ليس بالقليل من علماء البلدان الإسلامية، كذلك طلبة علم الحديث؛ لسماع الحديث وتلقيه من العلماء البارزين في هذا المجال^(١). وقد برع - في هذا الميدان - مجموعة من العلماء المحدثين نذكر منهم - على سبيل المثال لا الحصر: أبو يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن خلف، المعروف بالفراء الحنبلي (ت: ٤٥٨هـ)، كان محدثاً كثير السماع، عدلاً ثقة، يتقدم على أهل زمانه بكثرة سماعه الحديث، وعلو إسناده في الرويات، وكان يملي بجامع المنصور، ويحضر مجلسه خلق لا يحصيهم إلا الله، تتلمذ على يديه الكثير من الناس في الحديث؛ حتى أصبحوا علماء يُشار إليهم في هذا الميدان^(٢).

ومن علماء العصر المعدودين - في هذا المجال - أيضاً: الإمام المحدث، والمؤرخ الشهير، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)، سمع من خلق كثير من العلماء، وحدث عنه الكثير أيضاً، قرأ

(١) ابن الديلمي: ذيل تاريخ مدينة السلام (٢١٨/١)، وللإطلاع على نماذج من الإجازات انظر: أبو إسحاق الشيرازي: طبقات الفقهاء ص (١٨١-١٨٧)، حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٣٧٤) نقلًا عن ابن الشجري: أمالي الشجري، مخطوط بمكتبة الأوقاف ببغداد (رقم ٥٦٦٧).

(٢) تقدم الحديث عنه في ميدان التفسير، وللإستزادة عنه في هذا المجال انظر: الخطيب: تاريخ بغداد (٢/٢٥٦)، ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة (٢/١٩٣)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٨/٨٩)، العليمي: المنهج الأحمد (٢/١٢٨).

القرآن، وتفقه على أبي الحسن أحمد بن أحمد المحاملي (ت ٤١٥ هـ) ^(١)، والقاضي أبي الطيب طاهر بن عبد الله بن طاهر الطبري (ت ٤٥٠ هـ) ^(٢)، وسمع الحديث، ورحل إلى البصرة والكوفة والري وأصفهان وهمدان ونيسابور والحجاز والشام، وغيرها، ثم عاد إلى بغداد؛ فأذن له الخليفة أن يُملي الحديث بجامع المنصور، فاجتمع عليه خلق كثير يكتبون عنه ويسمعون، نقل الذهبي عن ابن ماكولا قوله: "كان أبو بكر الخطيب آخر الأعيان، ممن شاهدناه معرفة وحفظاً وإتقاناً، وضبطاً لحديث رسول الله ﷺ وتفناً في علله وأسانيده، وعلماً بصحيحه وغيبيه، وفردته ومنكره ومطروحه"، ويقول المؤتمن بن أحمد بن علي الساجي ^(٣): "ما أخرجت بغداد بعد الدارقطني أحفظ من أبي بكر الخطيب" ^(٤)

(١) انظر في ترجمته: الخطيب: تاريخ بغداد (٣٧٢/٤)، الشيرازي: طبقات الفقهاء ص (١٠٨)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٤٨/٤)، الأسنوي: طبقات الشافعية (٢٢٠/٢).

(٢) انظر في ترجمته: الخطيب: تاريخ بغداد (٣٥٨/٩)، الشيرازي: طبقات الفقهاء ص (١٢٧)، ابن الأثير: الكامل (٦٥١/٩)، ابن كثير: البداية والنهاية (٧٩/١٢)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (١٢/٥)، الأسنوي: طبقات الشافعية (٥٨/٢)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (٢٢)، سزكين: تاريخ التراث العربي (م) (٢٣٣/٣).

(٣) سيأتي الحديث عنه -بعد قليل- ضمن الحديثين الذين برزوا في العصر السلجوقي.

(٤) انظر في الخطيب البغدادي وسيرته وعلو شأنه في الحديث: ابن عساكر تبين كذب المفتري ص (٢٦٨)، ابن الجوزي: المنتظم (٢٦٥/٨)، ياقوت: معجم الأدباء

أما مصنفاته فهي كثيرة إجمالاً، وما يتعلق منها في الحديث فقط أكثر من أحد عشر كتاباً؛ من أهمها: "الكفاية في معرفة علم الرواية" و"الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع" و"الرحلة في طلب الحديث" و"شرف أصحاب الحديث"، و"الأمالي" و"تقييد العلم" و"موضح أوهام الجمع والتفريق" وغيرها^(١).

ومن رجال الحديث في ذلك العصر -أيضاً: أبو الحسين أحمد بن محمد بن عبد الله البزار، (ت ٤٧٠هـ)، وكان صدوقاً متحريراً فيما

(٤/١٣)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (١/٩٢)، أبو الفداء: المختصر (٢/١٨٧)،
الذهبي: تذكرة الحفاظ (٣/١١٣٥)، سير أعلام النبلاء (١٨/٢٧٠)، ابن كثير:
البداية والنهاية (١٢/١٠١)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣/٣١١)، أكرم
العمرى: موارد الخطيب البغدادي ص (١١-٨٤).

(١) يذكر ابن الجوزي أن مصنفاته بلغت ستة وخمسون مصنفاً، المنتظم (٨/٢٦٦)،
ويقول ابن خلكان أنه صنف قريباً من مائة مصنف، وينقل شعيب الأرنؤوط عن
يوسف العث أن مؤلفاته بلغت واحداً وسبعين مؤلفاً، وقد عين العث أماكن
وجودها في المكتبات العالمية، مع الإشارة إلى المطبوع منها والمخطوط؛ وذلك في
كتابه الخطيب البغدادي مؤرخ بغداد ومحدثها ص (١٢٠-١٣٤)، وقد زاد الدكتور
أكرم العمرى في مؤلفات البغدادي، وذكر أنها بلغت ستة وثمانين مصنفاً، وقد عقد
لها فصلاً خاصاً في دراسة عن الخطيب في كتابه موارد الخطيب البغدادي ص (٥٥-
٨٤)، فلينظر إليه لمن أراد التعرف على كتبه ومؤلفاته المتنوعة.

يرويه، وكان أصحاب الحديث يشغلونه عن الكسب لعياله؛ لأنه كان
مكثرًا من الحديث، ثقة في الرواية^(١).

وكذلك: الإمام الحافظ الجود أبو المعالي محمد بن محمد بن زيد بن
علي العلوي الحسيني البغدادي (ت ٤٨٠هـ)، سمع الحديث الكثير،
وصحب أبا بكر الخطيب، واختص به، ولازمه، وأخذ عنه العلم الحديث؛
فصارت له به معرفة حسنة، وكان يرجع إلى عقل كامل، وفضل وافر،
ورأي صائب، صنف فأجاد، له المعرفة التامة بالحديث^(٢).

ومنهم: أبو الحسن محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الباقري
(ت ٤٨١هـ)، يقول ابن الجوزي عنه: "حدثنا عنه أشياء؛ وهو من
الثقات؛ أهل بيت الحديث والعلم والعدالة"^(٣).

وعبد الواحد بن أحمد بن الحصين الدسكري (ت ٤٨٦هـ)،
وصحب أبا إسحاق الشيرازي، وروى الحديث، كان ميلاً لأهل العلم،
كثير الإحسان إليهم^(٤).

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٣١٤/٨)، ابن الأثير: الكامل (١٠٧/١٠-١٠٨).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٤/٩-٤١)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٥٢٠/١٨)، تذكرة

الحفاظ (١٢٠٩/٤)، العبر (٣٤٢/٢)، دول الإسلام ص (٢٤٥)، ابن كثير: البداية

والنهاية (١٣٣/١٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٦٥/٣).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (٤٦/٩).

(٤) ابن الجوزي: (٧٨/٩)، ابن الأثير: الكامل (٢٢٧/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية

(١٤٥/١٢).

وأبو الفضل حمد بن أحمد بن الحسن بن مسهرة الحداد الأصبهاني (ت ٤٨٨هـ)، سمع خلقاً كثيراً، وقدم بغداد؛ فروى الحلية عن أبي نعيم الأصفهاني، كان إماماً فاضلاً عالماً، صحيح السماع، محققاً في الأخذ^(١).
 أما أبو عبد الله بن محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله بن حميد الحميدي الأندلسي (ت ٤٨٨هـ)، فقد كان من أئمة الحديث المعدودين في ذلك العصر، كان إماماً حافظاً ديناً نزيهاً عفيفاً، ثقة حجة، كثير الاطلاع، أحد أوعية العلم، امتاز بالدقة والإتقان والتحقيق، واشتهر عنه معرفته لعلوم الحديث، سمع بالقيروان والحجاز ومصر والشام والعراق والأندلس، سكن بغداد، له مصنفات في التاريخ والأدب، من أهم مصنفاته في الحديث: كتاب "الجمع بين الصحيحين"، وله مصنفات أخرى منها "جذوة المقتبس" و"الذهب المسبوك في وعظ الملوك" و"مخاطبات الأصدقاء" و"ذم النميمة" و"حفظ الجار"، جمع فيه بين الفقه والحديث الأدب، وغيرها^(٢).

ومن رجال الحديث -أيضاً- في ذلك العصر: أبو الحسن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن يوسف البغدادي اليوسفي (ت ٤٩٢هـ)، كان

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٨٨/٩)، الذهبي: العبر (٣٥١/٢)، وفيه توفي سنة (٣٨٦هـ)، اليافعي: مرآة الجنان (١٤٢/٣).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٩٦/٩)، ابن الأثير: الكامل (٢٥٤/١٠)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٨٢/٤)، الذهبي: تذكرة الحفاظ (١٢١٨/٤)، العبر (٣٥٩/٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٥٢/١٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٩٢/٣).

ثقة، جليل القدر، محدثاً، زاهداً، سافر كثيراً، ووصل إلى بلاد المغرب، وسمع الحديث الكثير^(١).

وأبو طاهر محمد بن أحمد بن محمد الرحي (ت ٤٩٤هـ)، سمع الحديث الكثير، وكتب، وكان صالحاً^(٢).

وأبو ياسر أحمد بن بندار بن إبراهيم البقال الدينوري (ت ٤٩٧هـ)، حدث ببغداد، وكان ثقة^(٣).

وأبو المعالي ثابت بن بندار إبراهيم البقال (ت ٤٩٨هـ)، كان ثقة فاضلاً ثبناً صدوقاً، سمع من خلق كثير، وحدث وأقرأ^(٤).

أما أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج (ت ٥٠٠هـ)، فقد كان علامة في الحديث في ذلك العصر، سمع من خلق كثير في الشام ومصر وطرابلس والحجاز، كان ثقة صدوقاً، خرج له الخطيب البغدادي خمسة أجزاء تسمى "السرجيات"، له مصنفات؛ منها كتاب "مناسك

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٠٩/٩)، الذهبي: العبر (٣٦٦/٢)، اليافعي: مرآة الجنان (١٥٤/٣)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٩٧/٣).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (١٢٦/٩).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (١٣٩/٩)، الذهبي: العبر (٣٧٤/٢).

(٤) ابن الجوزي: المنتظم (١٤٤/٩)، ابن الأثير: الكامل (٣٩٦/١٠)، الذهبي: العبر (٣٧٧/٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (٤٠٨/٣).

الحج" وكتاب "التنبيه" وكتاب "مصارع العشاق" وكتاب "زهد السودان وغيرها"^(١).

وكان هبة الله بن محمد بن علي بن إبراهيم البزدوي الموصلي (ت ٥٠٢هـ) من رجال الحديث في العصر السلجوقي؛ إذ كان فاضلاً صالحاً صحيح السماع، عمّر حتى انتشرت عنه الرواية^(٢).

كذلك اشتهر - في ذلك العصر - العالم الحافظ محمد بن طاهر بن علي بن أحمد أبو الفضل المقدسي (ت ٥٠٧هـ)، رحل في طلب الحديث إلى بلدان كثيرة؛ منها: مصر والشام والجزيرة والحجاز والعراق وأصبهان وجرجان ونيسابور وهراة ومرو وهمدان وآمل والري وغيرها، كان له حفظ ومعرفة بالحديث، وصنف فيه، وله معرفة بالرجال والمتون، جمع أطراف الصحيحين وسنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، من مصنفاته: كتاب "موافقات البخاري ومسلم"، وكتاب "التذكرة في غرائب الحديث والمنكرة" وكتاب "أسماء رجال من الضعفاء" وكتاب

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٥١/٩)، ياقوت: معجم الأدباء (١٥٣/٧)، ابن خلكان:

وفيات الأعيان (٣٥٧/١)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٦٨/١٢)، ابن رجب: ذيل

طبقات الحنابلة (١٢٣/١)، السيوطي: بغية الوعاة (٤٨٥/١)، العليمي: المنهج

الأحمد (٣١٣/).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (١٦١/٩).

"تراجم الجرح والتعديل" للدارقطني، وكتاب "الناسخ والمنسوخ" وغيرها^(١).

أما المؤتمن بن أحمد بن علي بن الحسن أبو نصر الساجي المقدسي (ت ٥٠٧ هـ)، الحافظ الحجة، محدث بغداد، فقد رحل في طلب الحديث إلى بيت المقدس وأصبهان وخراسان ونيسابور وهرات وحلب والبصرة، قرأ على شيخ الإسلام عبد الله الأنصاري الهروي^(٢)، الحديث، وحصل على

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٧٧/٩)، ابن الفوطي: مجمع الآداب (٦٦٤/٢)، الذهبي: تذكرة الحفاظ (١٢٤٢/٤)، الكشي: عيون التواريخ (٢٥/١٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٧٦/١٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (١٨/٤)، وقد تكلم عنه العلماء ما بين مادح وقادح، كابن الجوزي والذهبي وابن كثير في تراجمهم له.

(٢) هو الإمام الحافظ الكبير أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي، يُعد من أئمة العلماء والمحدثين، كان مظهرًا للسنة، واعيًا إليها محرضًا عليها، يقول عنه المؤتمن الساجي: "وكان يدخل على الأمراء والجبابة فما يبالي، ويرى الغريب من المحدثين؛ فيبالغ في إكرامه، قال لي مرة: هذا الشأن شأن من ليس له شأن سوى هذا الشأن -يعني: طلب الحديث"، وكان يقول: "من لم ير مجلسي وتذكيري، وطعن فيّ، فهو مني في حل"، وهو مؤلف كتاب "ذم الكلام" لقي كثيرًا من العنت والاضطهاد من علماء عصره، ورموه بأمر خطيرة عند السلطان ألب أرسلان والوزير نظام الملك، ولكن لم يثبت عليه شيء من ذلك، توفي سنة (٤٨١ هـ). انظر ترجمته وسيرته وأخباره: ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة (٢٤٧/٢)، الذهبي: تذكرة الحفاظ (١١٨٣/٣)، سير أعلام النبلاء (٥٠٣/١٨)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٣٥/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٢٧/٥)، السيوطي: طبقات

الكثير منه، وكان حافظاً، عارفاً بالحديث معرفة جيدة، وكان حسن القراءة والخط، صحيح النقل، فيه صدق وأمانة وورع، يقول ابن الجوزي: "حدثنا عنه أسيافنا، وكلهم وصفه بالثقة والورع".

وكان الإمام عبد الله بن محمد الأنصاري؛ إذا رأى المؤمن؛ قال: "لا يمكن لأحدٍ أن يكذب على رسول الله ﷺ ما دام هذا حياً"^(١).

ومن أعلام المحدثين - في ذلك العصر - إمام المحدثين والمفسرين في زمانه؛ أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد، المعروف بالفراء البغوي، الشافعي، المحدث المفسر، صاحب التصانيف المشهورة، مثل كتاب "شرح السنة"^(٢)،

المفسرين ص (٢٥)، الداودي: طبقات المفسرين (٢٤٩/١)، العليمي: المنهج الأحمدي (١٨١/٢)، حاجي خليفة: كشف الظنون (٥٦/١-٤٢٠)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني (٤/٤٦١).

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٧٩/٩)، ابن الأثير: الكامل (١٠/٥٠٠)، الذهبي: تذكرة الحفاظ (٤/١٢٤٦)، سير أعلام النبلاء (١٩/٣٠٨)، الياضي: مرآة الجنان (٣/١٩٧)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٧/٣٠٨)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١٧٨)، ابن العماد: شذرات الذهب (٤/٢٠).

(٢) وهو كتاب في الحديث، يعتبر من أجل كتب السنة من حيث الترتيب والتنقيح والتوثيق والإحكام، والكتاب مطبوع في ستة عشر مجلداً.

الفصل الأول: ازدهار الحياة العلمية ومجتمع العلماء في العصر السلجوقي ٦٠٧

و"معالم التنزيل" ^(١)، و"المصايح" ^(٢)، وكتاب "التهذيب" ^(٣)، و"الجمع بين الصحيحين"، و"الأربعين حديثاً" وغيرها ^(٤).
كان إماماً جليلاً، ورعاً، زاهداً، فقيهاً، محدثاً، مفسراً، جامعاً بين العلم والعمل، سالكا سبيل السلف، وكان البغوي يلقب بـ (محي السنة)، وبـ (ركن الدين)، بورك له في تصانيفه، ورزق فيها القبول التام، لحسن قصده، وصدق نيته، وتنافس العلماء في تحصيلها، وكان لا يلقي الدرس إلا على طهارة، له القدم الراسخ في التفسير، والباع المديد في الفقه ^(٥).

-
- (١) في التفسير، وهو تفسير متوسط جامع لأقوال السلف في تفسير آيات القرآن الكريم، وهو مطبوع مراراً
- (٢) في الحديث، جمع فيه طائفة من الأحاديث، وقسمها إلى صحاح وحسان، وعني بالصحاح؛ ما أخرجه الشيخان أو أحدهما، وبالحسان؛ ما أخرجه أصحاب السنن، طبع عدة طبعات.
- (٣) في الفقه، وهو تأليف محرر مهذب، لخصه من تعليقه شيخه القاضي حسين.
- (٤) انظر حول الإمام البغوي: ابن خلكان: وفيات الأعيان (١٣٦/٢)، أبو الفداء: المختصر (٢٤٠/٢)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٧٥/٧)، الأسنوي: طبقات الشافعية (١٠١/١).
- (٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٣٩/١٩)، تذكرة الحفاظ (١٢٥٧/٤)، العبر (٤٠٦/٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٩٣/١٢).

توفي البغوي في شوال سنة ست عشرة وخمسة مائة بمرو الروذ، من مدن خراسان، وعاش بعضا وسبعين سنة^(١).

ولا بد لنا ونحن نتحدث عن أعلام المحدثين في العصر السلجوقي أن نُشير إلى عالم العراق وواعظه، العلامة الحافظ، أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، فقد كان من رجال الحديث المشهورين في ذلك العصر بغزارة علمه وكثرة تصنيفه وواعظه، حيث صنف في شتى العلوم: في التفسير وعلوم القرآن، والحديث ورجاله وفنونه، والتاريخ والفقه، والعقائد، والأخلاق، والوعظ، والأدب والشعر، والتراجم العامة، والخاصة، وبالجملة فكتبه أكثر من أن تُعد - كما ذكر ذلك ابن خلكان وغيره - كان يكتب في اليوم تسع كراريس أي أنه لا يضيع من وقته شيئا سدى، من مصنفاته: كتاب "الضعفاء والمتروكين" وكتاب "أسماء الضعفاء والواضعين" و"شرح مشكل الصحيحين"، و"الموضوعات" و"جامع المسانيد" و"المغني في علوم القرآن" و"زاد المسير" و"المنتظم" و"تليس إبليس" و"صفة الصفوة" و"الأذكياء"، و"الناسخ والمنسوخ" و"منهاج القاصدين"، و"التحقيق في مسائل الخلاف" و"الوجوه والنظائر" و"الذهب المسبوك في سير الملوك" و"أخبار النساء" و"مناقب عمر" و"مناقب الصديق"، و"مناقب علي" و"مناقب عمر بن عبد العزيز"،

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٧/٧٧)، ابن العماد: شذرات الذهب

الفصل الأول: ازدهار الحياة العلمية ومجتمع العلماء في العصر السلجوقي ٦٠٩

و"مناقب أحمد" و"مناقب الشافعي" وغيرها من المصنفات الكثيرة التي يقول عنها الذهبي: "ما علمت أحدًا من العلماء صنف ما صنف هذا الرجل" (١).

ومن رجال الحديث المعدودين في ذلك العصر: أبو السعادات محمد الدين المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني؛ المعروف بابن الأثير الجزري (ت ٦٠٦هـ)، أحد العلماء المشهورين، والأفاضل المذكورين، هو من بيت الحديث، وكذلك أبوه وجده، وعمه وعمما أبيه وابنه، ذكر ذلك المنذري عنه، وصنف في سائر العلوم، وخاصة الحديث، منها - في هذا المجال - كتاب: "جامع الأصول لأحاديث الرسول ﷺ" جمع فيه بين الصحاح الستة، وكتاب "النهاية في غريب الحديث" وهو معجم للحديث في خمس مجلدات وكتاب "المرصع" وهو قاموس للكثير في رجال الحديث، بالإضافة إلى مصنفاته الأخرى المتنوعة (٢).

(١) انظر في ابن الجوزي ومصنفاته: ابن الأثير: الكامل (٧١/١٢)، أبو شامة: الذيل على الروضتين ص (٢١)، ابن الساعي: الجامع المختصر (٣٢١/٩)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (١٤٠/٣)، الذهبي: تذكرة الحفاظ (١٣٤٢/٤)، سير أعلام النبلاء (٣٦٥/٢١)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٨/١٣)، ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة (٣٩٩/١)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٧٤/٦)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٢٩/٤)، والعجلوني: مؤلفات ابن الجوزي.

(٢) ابن الأثير: الكامل (٢٠/١٢)، المنذري: التكملة (٦٦/١)، أبو شامة: الذيل على الروضتين ص (٦٩)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (١٤١/٤)، أبو الفداء: المختصر

ولقد ظهر - في العصر السلجوقي - عدد كبير من علماء الحديث، لا يتسع المجال - هنا - لذكرهم جميعاً؛ لأنّ موضوع البحث لا يسمح بمصرهم^(١)، وحسبنا أننا أشرنا إلى نماذج من أبرزهم وأشهرهم في هذا الميدان من الدراسات الشرعية؛ التي أولاها علماء ذلك العصر اهتماماً بالغاً، وصنفوا فيها المصنفات العظيمة؛ التي بقيت أكثرها خالدة حتى اليوم؛ يستفيد منها الناس وطلبة العلم جيلاً بعد جيل، والحمد لله.

ومما يلفت النظر - هنا - إسهام النساء بالاشتغال بالعلوم الدينية، والمشاركة الفعالة في إحياء النهضة العلمية في شتى العلوم والآداب، ولاسيما في علم الحديث الذي نتحدث عنه، ومن هؤلاء النساء: شهدة

(٣/١١٢)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٨/٣٦٦)، السيوطي: بغية الوعاة (٢/٢٧٤)، ثم انظر مقدمة التحقيق لكتابه "النهاية في غريب الحديث والأثر" تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي ص (٩-١٥)، حيث أشار إلى كثير من مصنفاته في فنون العلم المختلفة.

(١) للاستزادة والاطلاع على بعض علماء الحديث في ذلك العصر انظر: ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد (١/٣٥٤)، ابن الفوطي: مجمع الآداب: (١/٥٩٨، ٣/١٧٥-٢٢٦)، الذهبي: تذكرة الحفاظ (٤/١٢٠٧-١٢٢٤-١٢٤٦-٢٨٩-١٣٦٣-١٣٨٣-١٤١٢)، العبر (٢/٣٥١، ٣٧٣-٤٠١-٤٠٩-٤٤٨).

بنت الأبرى البغدادية (ت ٥٧٤هـ) التي كانت من أسند أهل زمانها، وسمع منها خلق كثير حتى اشتهر ذكرها وبعد صيتها^(١).

وكريمة بنت أحمد بن محمد المروزية (ت ٤٦٣هـ) التي اشتهرت برواية صحيح البخاري، وكانت تضبط كتابها، وتقابل نسخها، ولها فهم ونباهة، سمع منها خلق كثير^(٢).

وكذلك فاطمة بنت علي بن المظفر بن عبل، أم الخير (ت ٥٣٢هـ)، روت صحيح مسلم وغيره، وكانت تُلقن النساء^(٣).

وسقيته بنت القاضي عبد الواحد بن محمد البجلي (ت ٤٧٧هـ)، يقول الخطيب البغدادي: "كتبنا عنها، وكانت صادقة فاضلة"^(٤).

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٨٨/١٠)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤٧٧/٢)، الذهبي: العبر (٦٥/٣-٦٦)، ابن العماد: شذرات الذهب (٢٤٨/٤).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٦٩/١٠)، اليافعي: مرآة الجنان (٨٩/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٠٥/١٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣١٤/٣).

(٣) اليافعي: مرآة الجنان (٢٦٠/٣)، الذهبي: العبر (٤٤٣/٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (١٠٠/٤).

(٤) الخطيب: تاريخ بغداد (٤٤٦/١٤).

وخديجة بنت محمد بن علي بن عبد الله الواعظة؛ المعروفة بالشاهجانية (ت ٤٦٠هـ)، كانت صالحة صادقة، كتب عنه الخطيب البغدادي أيضاً^(١).

وفاطمة بنت الحسن بن فضلوية الرازي (ت ٥٢١هـ)^(٢)، وست الدار بنت الشيخ عبد الرحمن بن علي بن عبد الله البغدادي الحريية (ت ٥٨٨هـ)^(٣)، وبلقيس بنت سليمان بن أحمد بن نظام الملك (ت ٥٩٠هـ)^(٤)، وغيرهن من العالمات اللاتي روين الحديث، وروى عنهن العلماء، وأجزن الكثير من علماء العصر بالرواية، وكانت لهن مشاركات واسعة وجهود عظيمة في مجال الحديث والوعظ^(٥).

أما مجال الفقه والأصول، وما يتعلق بالدراسات الفقهية، فقد احتل الفقهاء ورجال العلم منزلة رفيعة في المجتمع الإسلامي بمدينة بغداد، وساهموا في معظم الأحداث التي شهدها العصر؛ فكان كبار رجال الفقه والعلم هم الذين يبايعون الخلفاء عند توليهم الخلافة، كما حدث عند بيعة

(١) الخطيب: تاريخ بغداد (٤٤٦/١٤)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٠٨/٣).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٧/١٠).

(٣) المنذري: التكملة لوفيات النقلة (١٧٧/١).

(٤) المنذري: التكملة لوفيات النقلة (٢٥٩/١).

(٥) هناك العشرات من العالمات - في هذا الميدان - ببغداد، برزن في ذلك العصر، ولكن موضوع البحث لا يسمح بحصرهن، والوقوف على أكثرهن، وما ذكرناه فيه الكفاية - إن شاء الله.

الفصل الأول: ازدهار الحياة العلمية ومجتمع العلماء في العصر السلجوقي ٦١٣

الخليفة المقتدي بأمر الله (٤٦٧هـ-)، حيث بايعه الفقهاء والعلماء، وتولى له منصب قاضي القضاة أبو عبد الله الدامغاني^(١)، ثم -بعد وفاته- أبو بكر محمد بن المظفر الحموي الشامي^(٢).

وقد وصلت الحركة الفقهية في العصر السلجوقي إلى درجة عالية من النمو والنضج، نتيجة عوامل ودوافع ساعدت في تطوير الحركة الفقهية؛ من أهمها: تشجيع الدولة السلجوقية والخلافة العباسية، والوزراء -في ذلك العصر- للمذاهب الفقهية ودعمها، وبناء المدارس الكثيرة ببغداد؛ التي أخذت على عاتقها الاهتمام الكبير بالفقهاء من الناحية العلمية والاجتماعية، والحاجة الماسة لمؤسسات الخلافة والسلطنة إلى الطاقات العلمية المثقفة في مواجهة التحديات العقائدية؛ التي أحدثتها الدولة الفاطمية العبيدية من جانب، والحركة الباطنية من جانب آخر، فلجأت الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية إلى أسلوب التعليم والمدارس والمساجد، واستقطاب الطلاب في مواجهة ذلك التيار الخطير؛ لأن

(١) تقدمت ترجمته في الفصل الأول من الباب من الرسالة.

(٢) هو محمد بن المظفر بن بكران الحموي الشامي، قدم بغداد وتفقه على أبي الطيب الطبري، وشهد عند قاضي القضاة أبي عبد الله الدامغاني، كان حسن الطريقة، ثقة عفيفاً لا يقبل من سلطان عطية، ولا من صديق هدية، ولازم مسجده يدرس ويقراً الحديث أكثر من خمس وخمسين سنة، تولى منصب القضاء بعد وفاة أبي عبد الله الدامغاني، وكان لا يحايي مخلوقاً، توفي سنة (٤٨٨هـ)، الذهبي: العبر (٣٥٩/٢)، الأسنوي: طبقات الشافعية (١٥/٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٩١/٣).

المواجهة العسكرية وحدها لا تكفي ولا تجدي؛ إذا لم يدعمها مواجهة فكرية عن طريق الفقهاء والعلماء الذين درسوا وصنفوا وقاوموا تلك الحركات الهدامة؛ لأن الحججة لا تفرع إلا بالحجة؛ فتمكن أولئك العلماء من تخريج رجال مسلحين بسلاح العلم والإيمان؛ للوقوف والتصدي أمام تلك الدعوات الباطلة؛ التي أفسدت العقول، وأثرت على المسلمين، وكادت تعصف بالعالم الإسلامي^(١).

وقد أدرك الفقهاء خطر ذلك؛ فعملوا ما في وسعهم، واجتهدوا بما في قدرتهم، ووثقوا علاقتهم بالخلفاء والسلاطين، ووجدوا الجهود في مواجهة التيارات الباطلة والأفكار الفاسدة؛ حتى شغل بعضهم مراكز في الدولة تتناسب مع مقامهم الديني والاجتماعي، والبعض منهم برع في عدد من العلوم الإسلامية؛ كالفقه والحديث والتفسير والقراءات والنحو وغيرها، ومنهم طائفة غلب عليها الزهد والورع؛ فامتنت عن ممارسة أي عمل في أجهزة الدولة حتى تصون سيرتها من أي غش قد يلحق بها^(٢).

وازدهرت - في العصر السلجوقي - مذاهب الفقه السنية الثلاثة، مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ومذهب الإمام الشافعي، ومذهب الإمام

(١) محمد شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد ص (١٩٦).

(٢) انظر في هؤلاء العلماء: ابن الجوزي: المنتظم (٨٨/٩-٨٩-١٠٠)، ابن الجوزي:

غاية النهاية في طبقات القراء (١/٥٥٦-٥٥٧).

أبي حنيفة^(١)، وقد حصر أكثر علماء الشريعة - في ذلك العصر - أنفسهم حول مذاهبهم، والتزم كل منهم مذهباً معيناً؛ فتعصب كل واحد لمذهبه؛ فضعفت عزائم الناس، وفترت همهم، واكتفوا بالتقليد والمحاكاة، وانصرف العلماء عن الاجتهاد والاستنباط، واقتصر علمهم الفقهي على فهم كلام الأئمة أو تفريع قواعدهم، وعمل التعليقات والحواشي على كتبهم، على الرغم من أنه قد ظهر - في العصر السلجوقي - عدد من العلماء وفحول الفقهاء لا يقلون عن سابقهم علماً واستنباطاً وفهماً؛ كالإمام الغزالي (ت ٥٠٥ هـ)، والإمام الماوردي (ت ٤٥٠ هـ)، وغيرهما^(٢).

واستمر اهتمام بعض العلماء - في ذلك العصر - بجمع الآثار والترجيح بين الروايات، ولكن معظمهم بنوا فتاواهم وآراءهم من أصول أئمتهم وقواعدهم وفتاواهم؛ الأمر الذي أدى إلى ظهور التعصب المذهبي، والخوض في ميدان الجدل والمناظرة، وتأليف كتب الخلافات؛ فنصر كل عالم إمامه، ودعم رأيه، وعمل على نصرته مذهباً وتأييده بشتى الوسائل، وأكثر علماء العصر من تأليف كتب المناقب يثنون فيها على إمام المذهب، وسعة علمه وورعه وزهده، وحسن استنباطه، ودقة نظره، وقوة حجته،

(١) الترتيب - هنا - للأغلبية، وليس المراد منه الترتيب الزمني للمذاهب الفقهية.

(٢) سيأتي الحديث عنهما - إن شاء الله - من خلال العلماء الذين برزوا في مجال الفقه

والدراسات الفقهية في الصفحات اللاحقة.

وكأنهم يريدون بذلك أن يعتنق الناس مذهبهم، ويسلكوا مسالكهم؛ حتى يكثر عددهم، ويزيد نشاطهم؛ فتقوى شوكتهم، ويعظم نفوذهم^(١)؛ مما أدى إلى كثرة الخلاف والنزاع بين أصحاب المذاهب الفقهية؛ لا سيما بين الشافعية والحنابلة؛ الأمر الذي اضطر معه الوزير العالم ابن هبيرة أن يقول: "إن اختصاص المساجد ببعض أرباب المذاهب بدعة محدثة؛ فلا يقال: هذه مساجد أصحاب الإمام أحمد، فيمنع منها أصحاب الشافعي، ولا بالعكس؛ فإن هذا من البدع، وقد قال الله تعالى: ﴿سواء العاكف فيه والباد﴾"^(٢) "^(٣).

وهذا القول يوضح -بجلاء- مدى ما وصل إليه الحال في الانقسام المذهبي آنذاك.

وقد تأثر الفقه كثيراً في العصر السلجوقي بالأحوال السياسية؛ لارتباطه بالتشريع والأحكام؛ لذلك أقدم الكثير من كبار الفقهاء -في ذلك العصر- على وضع المصنفات المتعلقة في الأحكام السلطانية، وتناولوا موضوع الإمامة والخلافة والإمارة والوزارة، وشرعية السطة والإدارة، وما يتعلق بهذه الأمور، وأفردوا لها مؤلفات خاصة؛ كما فعل الماوردي (ت ٤٥٠هـ)، في كتابه "الأحكام السلطانية" وكتاب "قوانين

(١) العيسري: حياة العلمية في العصر السلجوقي ص (٣٣٩-٣٤٠).

(٢) سورة الحج آية (٢٥).

(٣) ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة (٢٨٠/١).

الوزارة وسياسة الملك" وكتاب "أدب القاضي" و"نصيحة الملوك" وكتاب "تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك" (١).

وكذلك ألف الفقيه أبو يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي (ت ٤٥٨هـ) كتاب "الأحكام السلطانية" (٢)، وألف الإمام أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) كتاب "التبر المسبوك في نصيحة الملوك" (٣)، وعلى الرغم من كل ما تقدم حول انتشار التقليد، ونصرة المذهب، والتعصب له أحياناً، ووقوع الخلاف والنزاع بين أصحاب المذاهب؛ فقد كان فقهاء المذاهب السنية الثلاثة، (المذهب الحنبلي والحنفي والشافعي) يشكلون القوة المسيطرة على مدينة بغداد في ذلك العصر، وكان التيار القوي الذي كان سائداً هو تيار الحنابلة؛ الذين تولوا الدفاع عن العقائد السلفية،

(١) راجع في هذه الكتب وما يتعلق بها ومضامينها: "الإمام أبو الحسن الماوردي" للدكتور محمد سليمان داود، والدكتور فؤاد عبد المنعم، وكتاب، تسهيل النظر وتعجيل الظفر للماوردي، تحقيق محي هلال السرحان، ومراجعة الدكتور حسن الساعاتي، دار النهضة العربية بيروت.

(٢) الكتاب مطبوع بتعليق الشيخ محمد حامد الفقي وتحقيقه، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(٣) ذكر الغزالي في كتابه هذا العدل والسياسة وسير الملوك وسياسة الوزراء وسيرتهم انظر: التبر المسبوك في نصيحة الملوك ص (٤٣-١٢٦)، ط: ١ - ١٣٧٨هـ - ١٩٦٨م - الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة) - وللتعريف بالكتاب ومخطوطاته في مكتبات العالم، انظر: عبد الرحمن بدوي: مؤلفات الغزالي ص ١٨٤ -

وتصدوا لعلم الكلام، ومحاربة المنكرات، وبرز - في هذا المذهب - جمهرة كبيرة من الفقهاء، كان بعضهم يجمع علوماً عديدة إلى جانب الفقه، وبعضهم احتل منزلة سياسية في أجهزة الخلافة العباسية، وبرع البعض الآخر في مجال التصنيف والتأليف.

أما المذهب الثاني الذي كان يتمتع بنفوذ كبير ببغداد فهو المذهب الحنفي؛ الذي كان يتلقى الدعم من السلطنة السلجوقية مباشرة، وكان البعض منهم يشغل وظائف عليا في الدولة، وكان قاضي القضاة ببغداد من الأحناف غالباً، وكان الخلفاء يبعثونهم إلى الملوك والأمراء في مهمات مختلفة تتعلق بالدولة، وبرع البعض منهم في الأصول وعلم الكلام والخلاف.

أما التيار الفقهي الثالث فهو تيار الشافعية؛ الذين كانوا كثيراً ما ينتقدون الأحناف والمالكية بصفة عامة، والحنابلة بصفة خاصة، وكان يحصل بينهم وبين الحنابلة خلاف ونزاع، وقد برز بعضهم في التصنيف والقضاء والتدريس في المدارس النظامية، وبعضهم كان مقرباً من الخلفاء؛ وألفوا بعض المصنفات لهم، وبعضهم تميز بالزهد والعلم والحياة الخشنة وعدم ممارسة أي عمل في الدولة.

أما المذهب المالكي فقد كان ضعيفا في ذلك العصر، وكان المالكية أكثر بعداً عن مجالس المنظر

أو الاحتكاك بأصحاب المذاهب الأخرى^(١)، وهذا الترتيب قد يتأثر أحيانا بمجريات الأحداث والظروف؛ لا سيما بين الشافعية والحنفية، والمتتبع للمدّة التي يشملها البحث يلحظ تقدم الشافعية أحياناً على الحنفية، والعكس؛ أي أنه ليس على إطلاقه.

ومن المفيد -الآن- بعد أن ألقيت الضوء على الحركة الفقهية في العصر السلجوقي وما يتعلق بها بصفة عامة، والمذاهب الفقهية السائدة آنذاك، أن أذكر نماذج لبعض الفقهاء الذين برزوا في ذلك العصر، وكان لهم دراسات جليّة، ومؤلفات عظيمة، ونظرات صائبة، وفكر ثاقب في دراسة الفقه الإسلامي وأصوله، وكان لهم -أيضاً- علاقات وثيقة بالخلفاء والسلاطين أدت من ثمّ إلى المحافظة على كيان أهل السنة في ذلك العصر؛ لأن الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية كانتا تحرسان كثيراً على تقوية التيار السني عامة؛ لمواجهة تحديات الحركة الباطنية والدولة الفاطمية والتيارات الباطلة الأخرى التي تؤثر على المسلمين في دينهم وعقيدتهم.

(١) محمد شندب الحضارة الإسلامية في بغداد ص (٢٠١-٢٠٢)، وإذا كان المذهب الحنبلي هو مذهب الأغلبية كما أوضحناه، فإن السلطان السلجوقي ملكشاه شجع المذهب الحنفي كثيراً وحاول نشره، والوزير نظام الملك شجع مذهب الشافعي ونشره عن طريق المدارس التي أمر بها، وفي نفس الوقت كان للمذهب الشيعي أيضاً أتباع وأنصار، إلا أن فقهاء الشيعة كانوا قلة من حيث العدد.

فمن فقهاء المذهب الحنبلي - مذهب الأغلبية آنذاك - الذين برزوا في العصر السلجوقي: أبو يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن خلف الفراء (ت ٤٥٨هـ) الفقيه الحنبلي، كان عالم زمانه وفريد عصره، له معرفة تامة بالقرآن والتفسير والحديث، كان إماماً في الفقه، له فيه تصانيف عدة، درس وأفتى مُدَّة طويلة، وانتهت إليه رئاسة المذهب، ومن أهم مصنفاته في الفقه: "العدة في أصول الفقه" و"المجرد في الفقه" وكتاب "الخلاف الكبير"، أو "التعليق الكبير في المسائل الخلافية بين الأئمة" و"مختصر في الصيام" وغيرهما من المصنفات الأخرى المتنوعة^(١).

وكانت لأبي يعلى مكانة عالية، ومترلة كبيرة عند الخلفاء والوزراء، وحدث مرة أن التمس الخليفة القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ) منه حمل كتاب "إبطال التأويلات لأخبار الصفات" لأبي يعلى، فلما قرأه وتأمله، أعجب به الخليفة، وأعادته إليه، وشكر له تصانيفه، ثم إنه عينه قاضياً بعد امتناع شديد، ولكن الخليفة ألح عليه؛ لما يعلم من عدالته ونزاهته وصدقه

(١) الخطيب: تاريخ بغداد (٢/٢٥٦)، ابن الجوزي: المنتظم (٨/٢٣٤)، أبو يعلى: طبقات الحنابلة (٢/١٩٣)، العليمي: المنهج الأحمد (٢/١٢٨)، وفي مصنفاته المتنوعة انظر: طبقات الحنابلة (٢/٢٠٥)، سير أعلام النبلاء (١٨/٩١)، المنهج الأحمد (٢/١٣٥)، الزركلي: الأعلام (٦/١٠٠)، وحول المطبوع منها والمخطوط، انظر رسالة الأخ عواض بن هلال العمري (ماجستير) حيث حقق كتاب الحج من كتاب التعليق الكبير لأبي يعلى ص (٤٩-٦١)، وكتاب "القاضي أبو يعلى الفراء وكتابه الأحكام السلطانية" للدكتور محمد عبد القادر أبو فارس.

وعلمه وفقهه، ولكنه اشترط شروطاً قبل توليه ذلك المنصب الخطير؛ وهي ألا يحضر أيام المواكب، وأن لا يخرج في الاستقبال، وأن لا يقصد دار السلطان^(١)، وهذه الشروط الثلاثة تدل على ورعه، وبعده عن أعراض الدنيا ومتعها الزائلة، ومحاولة البعد عن الحكام والأمراء وقلة الاتصال بهم، رغم المكانة العالية التي كان يحظى بها عندهم، ومع ذلك كان يرفض هدايا وعطايا الخلفاء والوزراء ويردها؛ حتى لا يفتتن بذلك، وقد رفض مرة هدية ثمينة قدمها له الخليفة القائم بأمر الله، ولم يمسه بيده، وروجع في ذلك أكثر من مرة فأبى^(٢).

وهكذا يكون العلماء المخلصون المجاهدون الذين أدوا رسالتهم على الوجه المرضي لله دون محاباة لحاكم، أو مجاملة لسلطان؛ لأنهم أدركوا قيمة رسالتهم السامية، ودورهم المنوط بهم في المجتمع الإسلامي وحاجة المسلمين الماسة لعلمهم ومؤلفاتهم ودروسهم التي تؤدي إلى المحافظة على كيان أهل السنة، ومجاهدة أهل الأهواء والبدع والتيارات الباطلة.

ومن فقهاء الحنابلة أيضاً: أبو جعفر عبد الخالق بن عيسى بن أحمد ابن محمد الهاشمي (ت ٤٧٠هـ)، كان عالماً فقيهاً ورعاً عابداً زاهداً قوولاً؛ بالحق لا يحابي أحداً، ولا تأخذه في الله لومة لائم، وكان إذا بلغه

(١) انظر تفاصيل ما تقدم في: ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة (١٩٧/٢-١٩٩)، الذهبي:

سير أعلام النبلاء (٩٠/١٨)، العليمي: المنهج الأحمد (١٣١/٢-١٣٣).

(٢) ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة (٢٢٣/٢).

منكر عظم عليه جداً، وكان شديداً على المبتدعة؛ لم تزل كلمته عالية عليهم، وأصحابه يقيمونهم، ولا يردهم أحد، لم يزل يدرس في مسجده، ثم درس بجامع المهدي، وجامع المنصور، ولما احتضر أبو يعلى - شيخ الحنابلة المتقدم - أوصاه أن يغسله، وكذا لما احتضر الخليفة القائم أوصى أن يغسله أبو جعفر ففعل، ولم يأخذ شيئاً مما وصى له به، ثم استدعى المقتدي؛ فبايعه بالخلافة منفرداً، وكان يقول: "مذهبي الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وما عليه مالك وأحمد والشافعي وغيرهم؛ ممن يكثر ذكرهم..."^(١).

وهذا يدل على سعة إدراكه، وبعد نظره، وتحريسه الحق؛ دون تعصب لمذهب، أو نُصرة لإمام؛ كما كان شائعاً في ذلك العصر، ولا شك أن الأمة الإسلامية في أمس الحاجة لأمثال هؤلاء العلماء المخلصين الذين يقودونها إلى بر الأمان، وبيعدونها عن أسباب النزاع والخلاف الذي يضر بالمسلمين، ويخدم أعداء الأمة الذين يتربصون بها، ويغتتمون الفرص التي قد تحقق لهم أهدافهم ومآربهم التي يخططون لها، فهل من مذكر؟

(١) انظر حول هذا العالم وجهوده ومواقفه في: ابن الجوزي: المنتظم (٣١٥/٨-٣١٧)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٥٤٦/١٨-٥٤٨)، العبر (٣٢٨/٢)، دول الإسلام ص ٢٤١، ابن كثير: البداية والنهاية (١١٩/١٢)، ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة (١٥/١-٢٦)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٠٦/٥).

الفصل الأول: ازدهار الحياة العلمية ومجتمع العلماء في العصر السلجوقي ٦٢٣

ومنهم: الفقيه المحدث المقرئ أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الله ابن البناء (ت ٤٧١هـ)، تفقه المحدث المقرئ على القاضي أبي يعلى بن الفراء، وصنف في كل فن، حُكي عنه أنه قال: "صنفتُ خمسمائة مصنف" وكانت له حلقة بجامع القصر، وحلقة بجامع المنصور يفتي فيها ويعظ الناس^(١).

كذلك كان من فقهاء الحنابلة في ذلك العصر: أبو علي يعقوب بن إبراهيم بن أحمد بن سطور البرزباني (ت ٤٨٦هـ) تفقه على القاضي أبي يعلى بن الفراء، ودرس في حياته، وصنف وحدث^(٢).

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٣١٩/٨-٣٢٠)، ياقوت: معجم الأدباء (٢٦٥/٧)، ابن الأثير: الكامل (١١٢/١٠)، الذهبي: تذكرة الحفاظ (١١٧٦/٣)، السيوطي: بغية الوعاة (٤٩٥/١)، قد تقدم ذكره أيضاً ضمن مشاهير القراء في العصر السلجوقي، ومن مصنفاته المتداولة التي توصلت إليها: كتاب "المقنع شرح كتاب الخرقى" بتحقيق الدكتور عبد العزيز البعيمي، في أربعة مجلدات، وكتاب "المختار في أصول السنة مطبوع بتحقيق الدكتور عبد الرزاق العباد، و"الرسالة المغنية في السكوت ولزوم البيت" و"فضل التهليل وثوابه الجزيل" وكلاهما بتحقيق يوسف الجديع، ومن كتبه المخطوطة كتاب "الرد على المتدعة" ويقوم بتحقيقه الأخ عبد المنعم عبد الغفور من قسم العقيدة بالجامعة الإسلامية لنيل درجة الماجستير، وغيرها من المصنفات الكثيرة المطبوعة والمخطوطة.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٨٠/٩).

وأبو الفرج عبد الرحمن بن علي الشيرازي الحنبلي (ت ٤٨٦هـ)، كان إماماً عارفاً بالفقه والأصول، تفقه على القاضي أبي يعلى، وكان تتش^(١) صاحب الشام يحترمه ويقدره^(٢).

وأبو محمد رزق الله عبد الوهاب بن عبد العزيز التميمي (ت ٤٨٨هـ)، أحد أئمة القراء والفقهاء على مذهب الإمام أحمد، وأئمة الحديث، كان له مجلس للوعظ، وحلقة للفتوى بجامع المنصور، ثم بجامع القصر، كان كثير العبادة، فصيح العبارة، حسن المناظرة، وكان ذا مكانة عند الخليفة؛ حيث جعله رسولاً إلى السلطان السلجوقي في مهام الدولة^(٣)؛ مما يدل على صلة العلماء بالخلفاء ورجال الدولة، والآثار الإيجابية المترتبة على ذلك في المجتمع الإسلامي.

(١) هو تاج الدولة تتش بن السلطان ألب أرسلان السلجوقي، كان شهماً شجاعاً مقداماً، واسع الممالك، قتله السلطان بركياروق ابن أخيه سنة (٤٨٨هـ)، ابن الأثير: الكامل (١٠/٢٤٤)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (١/٢٣٩)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١٤٩)، الذهبي: العبر (٢/٣٥٧)، المنجد: ولاة دمشق في العصر السلجوقي ص (١٨).

(٢) اليافعي: مرآة الجنان (٣/١٤٢)، الذهبي: العبر (٢/٣٥٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣/٣٧٨).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (٩/٨٨)، ابن الأثير: الكامل (١٠/٢٥٣)، مرآة الزمان (١/٢٤٩)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١٥٠).

ومنهم أيضاً: أبو منصور علي بن محمد بن علي بن أحمد بن إسماعيل الأنباري (ت ٥٠٧هـ)، قرأ القرآن، وسمع الحديث، تفقه على القاضي أبي يعلى؛ حتى برع في الفقه وأفتى، ووعظ بجامع القصر وجامع المنصور وجامع المهدي، وكان مظهراً للسنّة، مقدماً عنها^(١).

ومن فقهاء الحنابلة في ذلك العصر: أبو الخطاب محفوظ بن أحمد بن الحسن بن أحمد الكلوزاني (ت ٥١٠هـ)، أحد أئمة المذهب الحنبلي وأعيانه، سمع الحديث، وبرع في الفقه الحنبلي، صنف كتباً كثيرة وانتفع بتصنيفاته الناس، وحدث وأفتى ودرس، من مصنفاته في الفقه: "الهداية في الفقه" و"الانتصار في المسائل الكبار" و"رؤوس المسائل" و"التهذيب" و"التمهيد" وغيرها، وكان عدلاً ثقة^(٢).

ومن أشهر فقهاء المذهب الحنبلي في العصر السلجوقي وأحد أئمتهم: أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي (ت ٥١٣هـ)، شيخ الحنابلة في عصره، كان ديناً حافظاً للحدود، إماماً بارزاً

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٧٦/٩)، العليمي: المنهج الأحمد (٢٢٩/٢).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (١٩٠/٩)، ابن الأثير: الكامل (٥٢٤/١٠)، الذهبي: العبر (٣٩٥/٢)، وفيه محمود تذكرة الحفاظ (١٢٦١/٤)، وفيه محفوظ، اليافعي: مرآة الجنان (٢٠٠/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٨٠/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٢١٢/٥)، وأجمعت المصادر التي ترجمت له أن اسمه "محفوظ" ما عدا الذهبي في العبر وفي نسخة واحدة فقط من مخطوطات الكتاب ذكر أن اسمه محمود ولعله خطأ من النساخ.

في كثير من العلوم، مكبًا على الاشتغال والتصنيف، عدم النظر، ما كان أحد يستطيع أن يتكلم معه لغزارة علمه، وحسن إيراده، وبلاغة كلامه، وقوة حجته، كان بحر معارف، وكثر فضائل، يتوقد ذكاءً، لم يكن له في زمانه نظير^(١).

قال ابن الجوزي عنه: "وأفتى ودرس وناظر الفحول، واستفتي في الديوان في زمن الخليفة القائم بأمر الله في زمرة من الكبار، وجمع علم الفروع والأصول، وصنف فيها الكتب، وكان دائم التشاغل بالعلم لا يضيع ساعة من عمره"^(٢).

وقال ابن كثير: "وكان يجتمع بالعلماء من كل مذهب، فربما لأمه أصحابه؛ فلا يلوي عليهم، فلهذا برز على أقرانه، وساد أهل زمانه في فنون كثيرة، مع صيانة وديانة، وحسن صورة، وكثرة اشتغال"^(٣).

(١) ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة (٢/٢٥٩)، ابن الأثير: الكامل (١٠/٥٦١)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٢/٦٩١)، الذهبي: ميزان الاعتدال (٤/٦٦)، ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة (١/١٤٢)، ابن حجر: لسان الميزان (٤/٢٧٩).

(٢) المنتظم: (٩/٢١٣-٢١٤)، وكذلك: الحجوي: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي (٢/٣٥٩).

(٣) البداية والنهاية: (١٢/١٨٤)، ولا شك أن اجتماع ابن عقيل بعلماء المعتزلة قد أثر فيه؛ حيث ظهر منه -في بعض الأحيان- نوع انحراف عن السنة ومخالفة لهم أحياناً، يقول الذهبي عنه: "أحد الأعلام، وفرد زمانه علماً ونقلًا وذكاءً، وتفناً، إلا أنه

خالف السلف، ووافق المعتزلة في عدة بدع، نسأل الله السلامة، فإن كثرة التبحر في علم الكلام ربما أضر بصاحبه، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"
ميران الاعتدال: (٦٦/٤)، وكان الحنابلة ينهونه عن مجالسة المعتزلة، ويأبى حتى وقع في حبالهم، ويحسر على تأويل النصوص. سير أعلام النبلاء (١٩/٤٤٧)، وقد أوضح شيخ الإسلام ابن تيمية نوع الخطأ الذي وقع فيه ابن عقيل، فقال: "ولابن عقيل أنواع الكلام؛ فإنه كان من أذكاء العالم، كثير الفكر والنظر في كلام الناس؛ فتارة يسلك مسلك نفاة الصفات الخيرية، وتارة يثبتها ويرد على النفاة والمعتزلة بأنواع من الأدلة الواضحات، وتارة يوجب التأويل، وتارة يحرم التأويل ويذمه وينهى عنه؛ كما فعل في كتابه "الانتصار لأصحاب الحديث" ثم يقول: فيوجد في كلامه من الكلام الحسن البليغ ما هو معظم مشكور، وفي الكلام المخالف للسنة والحق ما هو مذموم مدحور.... ولابن عقيل من الكلام في ذم من خرج عن الشريعة من أهل الكلام والتصوف ما هو معروف، كما قال في الفنون، ومن خطه نقلت، ثم ذكر فصلاً مطولاً استوعب سبع صفحات من الكتاب" انظر: درء تعارض العقل والنقل (٦٠/٨-٦١، ٧/٢٦٣)، وانظر ما كتبه عنه في مجموع الفتاوى (٥٤/٦).
أما الحافظ ابن حجر فيقول: "وهذا الرجل - يعني: ابن عقيل - من كبار الأئمة، نعم كان معتزلياً، ثم أشهد على نفسه أنه تاب عن ذلك، وصحت توبته، ثم صنف في الرد عليهم، وقد أثنى عليه أهل عصره ومن بعدهم" لسان الميزان (٤/٢٧٩).
ولعل ابن عقيل عندما كان يتردد على أبي علي بن الوليد، وابن التبان - شيعي المعتزلة - هدفه الإحاطة بمذهب الاعتزال، كي يستطيع الرد عليهم رداً علمياً مقنعاً؛ بعد أن يلم بمذاهبهم ومعتقداتهم، ولا شك أنه سيتأثر لا محالة بفكرهم، لأن كثرة التبحر في مثل ذلك توقع صاحبها إن عاجلاً أو آجلاً، وفي تجربة الغزالي وابن عقيل عبرة وعظة لمن حاول أن يقتحم مثل هذه العلوم والمعتقدات؛ فالخير كل الخير فيما

وقد تعرض للأذى والحبس والضرب، وتقلبت عليه الأحوال، ولكنه صبر واحتسب، وكان يقول: "وتقلبت عليّ الدول؛ فما أخذتني دولة سلطان ولا عامة عما أعتقد أنه الحق، فأوذيت من أصحابي... وأوذيتُ من دولة النظام بالطلب والحبس، فيامن خفت الكل لأجله، لا تخيب ظني فيك" (١).

وله تصانيف كثيرة في أنواع العلوم، وأكبر تصانيفه كتاب "الفنون" وهو كتاب كبير جداً، فيه فوائد كثيرة جليّة، في الوعظ والتفسير والفقّه والأصول والنحو واللغة والشعر والتاريخ، وفيه مناظراته التي وقعت له، وخواطره ونتائج فكره، وهذا الكتاب مائتا مجلد، وقال الذهبي: "وهو أزيد من أربعمئة مجلد حشد فيه كل ما يجري له مع الفضلاء والتلاميذ، ومن ينسج له من الدقائق والغوامض، وما يسمعه من العجائب والحوادث" (٢).

وافق الكتاب والسنة، وما عليه سلف الأمة" وقد نقل ابن رجب نص توبته في ذيل الطبقات: (١٤٢/١)، قال ابن عقيل: "إني أبرأ إلى الله من مذهب مبتدعة الاعتزال وغيره، ومن صحبة أربابه وتعظيم أصحابه....".

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢١٤/٩)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٤٨/١٩)، وابن العماد: شذرات الذهب (٣٦/٤).

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٤٥/١٩)، ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة (١٤٢/١).

وذكر ابن العماد عن الذهبي -أيضا- قوله: "لم يصنف في الدنيا أكبر من هذا الكتاب، حدثني من رأى منه المجلد الفلاني بعد الأربعمئة، وقال بعضهم هو ثمانمائة مجلد" (١).

وله في الفقه -أيضا- كتاب "الفصول" ويسمى "كفاية المفتي" في عشرة مجلدات، وغيرها من الكتب والمصنفات الأخرى المتنوعة (٢).
وله من الكلام في السنة، والانتصار لها، والرد على المتكلمين شيء كثير، وقد صنف في ذلك مصنفاً (٣).

ومن فقهاء الحنابلة في العصر السلجوقي -أيضا: عماد الدين أبو الحسين محمد بن محمد بن الحسين بن القاضي أبي يعلى بن الفراء الحنبلي البغدادي (ت ٥٢٦هـ)، كان مفتيا مناظراً عارفاً بالمذهب ودقائقه، صلباً في السنة، له في الفقه تصانيف؛ منها: "المفردات في الفقه" و"رؤوس المسائل" و"المفردات في أصول الفقه" و"إيضاح الأدلة في الرد على الفرق

(١) شذرات الذهب (٣٨/٤).

(٢) انظر في كتبه ومؤلفاته: العليمي: المنهج الأحمد (٢/٢٦١)، الزركلي: الأعلام (٣١٣/٤) وفيه المطبوع منها والمخطوط.

(٣) العليمي: المنهج الأحمد (٢/٢٥٧) قال ابن تيمية: "فابن عقيل إنما وقع في كلامه المادة المعتزلة بسبب شيوخه أبي علي بن الوليد... لكن له في الإثبات كلام كثير حسن، وعليه استقر أمره في كتاب الإرشاد". مجموع الفتاوى (٥٤/٦).

الضالة المضلة" و"المفتاح في الفقه" وغيرها، وهو مؤلف كتاب "طبقات الحنابلة" حدث عنه، وسمع منه خلق كثير من العلماء^(١).

ومن أعيان الحنابلة وفقهائهم - في ذلك العصر: أبو الحسن علي بن عبيد الله بن نصر الزاغوني (ت ٥٢٧هـ)، شيخ الحنابلة في عصره، قرأ القراءات، وبرع في المذهب والأصول والوعظ، وكان متفناً في علوم شتى من الأصول والفروع والوعظ والحديث، وكانت له حلقة بجامع المنصور يناظر فيها يوم الجمعة قبل الصلاة، ثم يعظ فيها بعد الصلاة، كان مشهوراً بالصلاح والديانة والورع والسياسة، من تصانيفه في الفقه: "الإقناع" و"الواضح" و"الخلاص الكبير" و"المفردات" و"الإيضاح في أصول الدين"، و"غرر البيان في أصول الفقه" وغيرها من التصانيف الأخرى في التاريخ والفرائض والوعظ وغيرها^(٢).

ومن فقهاء الحنابلة أيضاً - في ذلك العصر: أبو حكيم إبراهيم بن دينار بن أحمد بن الحسين النهرواني (ت ٥٥٦هـ)، الفقيه الحنبلي، الفرضي الزاهد الحكيم الورع، برع في المذهب والخطاب والفرائض،

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٩/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٦٨٣/١٠)، اليافعي: مرآة الجنان (٢٥٢/٣)، الذهبي: العبر (٤٢٩/٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٠٤/١٢)، العليمي: المنهج الأحمد (٢٧٥/٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (٧٩/٤)، الزركلي: الأعلام (٢٣/٧).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٣٢/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٠٥/١٢)، العليمي: المنهج الأحمد (٢٧٧/٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (٨١-٨/٤).

الفصل الأول: ازدهار الحياة العلمية ومجتمع العلماء في العصر السلجوقي ٦٣١

وأفتى وناظر، كانت له مدرسة يدرس ويقيم بها، وكان من العلماء العاملين بالعلم، كثير التعبد، تالياً للقرآن، يعرف المذهب والمناظرة، صنف تصانيف في المذهب والفرائض، كان يأكل من كسب يده، فإذا خاط ثوباً فأعطي الأجرة مثلاً قيراطاً أخذ منه حبة ونصفاً ورد الباقي، وقال: خياطي لا تساوي أكثر من هذا، ولا يقبل من أحد شيئاً^(١).

ونحتم الحديث عن فقهاء الحنابلة وأعيانهم - في العصر السلجوقي - بالوزير العلامة أبي المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة (ت ٥٦٠هـ) الذي كان متبحراً في الفقه والحديث والنحو واللغة والعروض، وله تصانيف في هذه العلوم، من أشهر تصانيفه: كتاب "الإفصاح عن معاني الصحاح" في عدة مجلدات، وهو شرح صحيح البخاري ومسلم، قال ابن العماد: "ولما بلغ فيه إلى حديث: من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين - شرح الحديث، وتكلم على معنى الفقه، وآل به الكلام إلى ذكر مسائل الفقه المتفق عليها والمختلف فيها بين الأئمة الأربعة المشهورين، وقد أفرده الناس من الكتاب، وجعلوه بمفرده مجلدة، وسموه بكتاب: الإفصاح - وهذا الكتاب صنفه في ولايته الوزارة، واعتنى به، وألف كذلك كتاب العبادات في مذهب الإمام أحمد، وكان شديداً في اتباع السنة وسير السلف، من خيار الوزراء وأحسنهم سيرة، وأبعدهم عن الظلم، وكان الخليفة المقتفى

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٠١/١٠)، العليمي: المنهج الأحمد (٣٢٢/٢)، ابن العماد:

شذرات الذهب (١٧٦/٤).

يقول: ما وزر لبني العباس مثله، وكان يعقد في داره للعلماء مجلساً للمناظرة يبحثون فيه وينظرون عنده، يستفيد منهم، ويستفيدون منه^(١)، وسيرته وأخباره ومواقفه وجهوده مستوفاة في أكثر كتب التراجم التي تحدثت عنه عالماً فقيهاً، ووزيراً مسؤولاً.

والحقيقة أن الحنابلة وعلماءهم - في ذلك العصر - كانوا من الكثرة بحيث لا يتسع المجال لذكرهم؛ لأن موضوع البحث لا يسمح باستعراضهم جميعاً أو حتى أكثرهم، ولكننا اكتفينا بالمشاهير منهم، ومن له جهود مرتبطة بأمر الحفاظ على كيان أهل السنة في ذلك العصر.

أما عن فقهاء المذهب الحنفي وأعيانهم في العصر السلجوقي - الذين يمثلون المرتبة الثانية بعد الحنابلة - وكانوا يتمتعون أيضاً بنفوذ كبير في ذلك العصر، فمن أبرز فقهاء هذا المذهب وأشهرهم: أبو عبد الله محمد ابن علي بن الحسين بن عبد الملك الدامغاني (ت ٤٧٨هـ -)، قاضي

(١) سبق أن تقدمت ترجمة الوزير العالم ابن هبيرة في الفصل الأول من الباب الأول من الرسالة، وللمزيد في معرفة أخباره وسيرته ومصنفاته وعلمه انظر: وفيات الأعيان: (٢٣٠/٦)، المقدسي: الروضتين (١٤١/١)، ابن واصل: مفرج الكروب (١٤٧/١)، أبو الفداء: المختصر (٤٢/٣)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٢٦/٢٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٥٠/١٢)، ابن خلدون: العبر (٥٢٤/٣)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٣٦٩/٥)، ابن العماد: شذرات الذهب (١٩١/٤)، الحجوي: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي (٣٥٩/٢).

الفصل الأول: ازدهار الحياة العلمية ومجتمع العلماء في العصر السلجوقي ٦٣٣

القضاة، تفقه ببغداد على أبي عبد الله الحسين بن علي الصميري^(١)، وأبي الحسين أحمد بن محمد القدوري^(٢)، وسمع منهما الحديث، وبرع في الفقه، وكان له عقل وافر، وتواضع زائد، وانتهت إليه رئاسة الفقهاء، وكان الخليفة القائم بأمر الله يكرمه ويقدره، وكذلك السلطان السلجوقي طغرل

(١) هو الحسين بن علي الصميري، أحد الفقهاء الكبار، حسن العبارة، كان إمام الحنفية ببغداد، له كتاب في أخبار أبي حنيفة وأصحابه، توفي سنة (٤٣٦هـ)، انظر ترجمته في: الخطيب: تاريخ بغداد (٧٨/٨)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٦١٥/١٧)، القرشي: الجواهر المضية (١١٨/٢)، اللكنوي الفوائد البهية ص (٦٧)، الحجوي: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي (١٧٩/٢).

(٢) هو أحمد بن محمد بن أحمد البغدادي، كان إماماً بارعاً عالماً ثبتاً صدوقاً مناظراً، انتهت إليه رئاسة الحنفية، وعظم عندهم قدره، وارتفع جاهه، روى عنه أبو عبد الله الدامغاني، أبو بكر الخطيب الذي كان يقول: "كتبت عنه وكان صدوقاً"، من أشهر مصنفاته: "المختصر" و"التجريد" و"التقريب" وغيرها، توفي سنة (٤٢٨هـ) - انظر في سيرته وترجمته ومصنفاته: الخطيب: تاريخ بغداد (٣٧٧/٤)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٧٨/١)، القرشي: الجواهر المضية (٢٤٧/١)، اللكنوي: الفوائد البهية ص (٣٠)، سزكين: تاريخ التراث العربي (١١٥-١١٦)، الزركلي: الأعلام (٢١٢/١)، كحالة: معجم المؤلفين (٦٧/٢)، الحجوي: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي (١٧٩/٢).

بك، باشر الحكم ثلاثين سنة في أحسن سيرة، وفي غاية الأمانة والديانة^(١).

ومن فقهاء الحنفية -أيضاً- في ذلك العصر: محمد بن طاهر العباسي؛ ويعرف بابن المرحي، تفقه على أبي نصر ابن الصباغ، وشهد عند قاضي القضاة أبي عبد الله الدامغاني، وناب في القضاء، وكان محمود الطريقة، توفي في ذي العقدة سنة (٤٧٨هـ)^(٢).

وكذلك: أبو سعد عبد الملك بن محمد بن الحسن السامري (ت ٤٩٣هـ) الذي شغل مناصب عدة في حياته، كان حجاجاً، وإليه كسوة الكعبة وعمارة الحرمين، والنظر في البيمارستانات، كذلك النظر في الجوامع بمدينة السلام، كان كثير الصدقة، ظاهر المعروف، كامل الظرف، مستحسن الصورة^(٣).

ومن أشهر فقهاء الحنفية -أيضاً- في ذلك العصر: أبو الفضل بكر ابن محمد بن علي الأنصاري الزرنجني (ت ٥١٢هـ)، شمس الأئمة، برع في الفقه، فكان يُضرب به المثل في حفظ مذهب أبي حنيفة، ويقولون: هو أبو حنيفة الصغير، وكان الفقهاء إذا أشكل عليهم شيء رجعوا إليه،

(١) الخطيب: تاريخ بغداد (١٠٩/٣)، السمعاني: الأنساب (٩٦/٥)، ابن الجوزي:

المنتظم (٢٢/٩)، ياقوت الحموي: معجم البلدان (٤٣٣/٢)، القرشي: الجواهر

المضية (٩٦/٢)، اللكنوي: الفوائد البهية ص (١٨٢).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٢٤/٩)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٣٠/١٢).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (١١٧/٩).

وحكموا بقوله، ومتى طلب المتفقه منه الدرس ألقاه عليه من أي موضع أراد من غير مطالعة ولا مراجعة لكتاب^(١)، وهذا دليل على قوة حفظه، وسعة اطلاعه.

ومن فقهاءهم -أيضاً: أبو طالب الحسين بن محمد بن علي بن الحسن بن محمد بن عبد الوهاب الزيني (ت ٥١٢هـ)، قرأ القرآن، وسمع الحديث، وبرع في الفقه، تفقه على أبي عبد الله الدامغاني، فبرع وأفنى ودرس بمدرسة أبي حنيفة، انتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة ببغداد، ولُقب: نور الهدى، وكان شريف النفس، كثير العلم، غزير الدين، وكان يُرسل إلى ملوك الأطراف من قبل الخليفة؛ مما يُدلل على مكانته وصلته بالخلفاء والسلاطين آنذاك، وتولى نقابة الطالبين والعباسيين مدة من الزمن، وحضرت جنازته الأعيان والعلماء وأرباب الدولة^(٢).

ومنهم -أيضاً: أبو الحسن علي بن محمد بن علي الدامغاني (ت ٥١٣هـ) قاضي القضاة ابن قاضي القضاة بضعاً وعشرين سنة، كان

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٠٠/٩)، ابن الأثير: الكامل (٥٤٥/١٠)، اليافعي: مرآة الجنان (٢٠٣/٣)، الذهبي: العبر (٣٣٩/٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٨٣/١٢)، اللكنوي: الفوائد البهية ص (٥٦)، الزرنجبي نسبة إلى زرنجري: من قرى بخارى، ياقوت: معجم البلدان (١٣٨/٣).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٢٠١/٩)، ابن الأثير: الكامل (٥٤٥/١٠)، اليافعي: مرآة الجنان (٢٠٣/٣)، الذهبي: العبر (٣٣٩/٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٨٣/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٢١٧/٥)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٤/٤).

فقيهاً متديناً ذا مروءة وعفاف وصدقات، تولى القضاء لأربعة خلفاء: القائم والمقتدي والمستظهر والمسترشد، وكان ذا حزم ورأي وسؤدد وهيبة وافرة، وديانة ظاهرة^(١).

ومن فقهاء الحنفية وأبرزهم - كذلك - في العصر السلجوقي: أبو سعد محمد بن نصر بن منصور الهروي (ت ٥١٨ هـ)، وكان من دهاة الرجال، فقيهاً على مذهب أبي حنيفة، قدم إلى بغداد، واتصل بالخليفة المستظهر بالله؛ حتى ارتفع جاهه وعلا قدره، فكان يُنفذ في الرسائل إلى الأقطار، وولي القضاء ببغداد سنة (٥٠٢ هـ) وخُوطب بأقضى القضاة، ثم عُزل؛ فاتصل بخدمة السلاطين السلاجقة؛ فكان يسعى بالسفارات متنقلاً بين مصر والشام وخراسان والعراق، إلى أن قُتل في جامع همدان، وكان على علم بالفقه والأصول والحديث والأدب والشعر^(٢).

وكذلك: الحسن بن محمد بن أحمد بن علي الفقيه (ت ٥٤١ هـ)، برع في الفقه، وشهد عند قاضي القضاة أبي الحسن علي بن محمد الدامغاني، واستنابه قاضي القضاة أبو سعد بن نصر الهروي في قضاء حريم دار الخلافة سنة (٥٠٢ هـ)، وحدث ببغداد^(٣).

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٠٨/٩)، اليافعي: مرآة الجنان (٢٠٤/٣)، الذهبي: العبر (٤٠١/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٩٥/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٢١٧/٥).

(٢) القرشي: الجواهر المضية (١٣٧/٢-١٣٨)، الزركلي: الأعلام (١٢٥/٧).

(٣) القرشي: الجواهر المضية (٢٠١/٢).

وغيرهم من فقهاء الحنفية وعلمائهم؛ الذين برزوا في العصر السلجوقي، وكانت لهم جهود ومواقف في ذلك العصر؛ سواء من حيث التصنيف والتأليف، أو الدرس والحلقات والوعظ، أو الاتصال بالخلفاء والسلاطين والوزراء وتمتعهم بنفوذ كبير؛ لا سيما إذا علمنا أن سلاطين السلاجقة كانوا على المذهب الحنفي، وهذه الجهود مجتمعة لا شك لها دورها وثقلها في الحفاظ على كيان أهل السنة في ذلك العصر؛ وهو ما يهمننا توضيحه وإبرازه؛ لأنه موضوع البحث والدراسة.

أما فقهاء المذهب الشافعي فقد اشتهر أكثرهم في التأليف والتصنيف، ومنهم من صنف للخلفاء؛ حيث كان لبعضهم صلة وثيقة بالخلفاء والولاية والسلاطين، وبرز بعضهم في التدريس في المدارس النظامية؛ التي أنشأها الوزير نظام الملك الذي استطاع أن يشجع وينشر المذهب الشافعي عن طريق تلك المدارس الكثيرة، والمنتشرة في أرجاء العالم الإسلامي، ولا شك أن تلك المدارس أدت دوراً كبيراً ومؤثراً في التصدي للحركات الباطنية وأصحاب التيارات الباطلة؛ لأنها جابهت تلك التيارات فكرياً، وقاوموا تلك الحركات بالحجة الدامغة والفكر النير، وأوضحت للناس المسار الصحيح الذي يجب أن يسلكوه، وتفنيد الدعوى الباطلة، وتأصيل المذهب السني في نفوس المسلمين؛ كي يتحصنوا ضد تلك التيارات الداخلية على المجتمع الإسلامي.

ومن هنا برز كثير من علماء الشافعية وفقهائهم في هذا الميدان، ولا شك أن المدارس النظامية أدت دوراً كبيراً في نشر المذهب السني بين

الأمصار، والتصدي للحركات الفكرية المخالفة للإسلام؛ وهذا لا ينكر، ولكن الخطأ هو تركيز نظام الملك ومن بعده على ألا يُدرس في تلك المدارس إلا من كان شافعي المذهب، وكان الأولى أن تكون النظرة أبعد من ذلك؛ فكل فقهاء المذاهب السنية وعلمائهم هدفهم واحد، ونظرهم متحدة في التصدي لأولئك، ولكن التعصب المذهبي الذي كان منتشرًا - آنذاك - هو الذي أفرز مثل هذه الأمور، وأفقدت المدارس فكر وعقول كثير من الفقهاء الذين لا يقلون كفاءة وعلمًا عن فقهاء الشافعية؛ كالحنابلة والحنفية؛ مع رغبتهم الصادقة في التدريس بها، ولكن غياب الفكر أحيانًا، ومطاوعة هوى النفس البشرية يفعل أكثر من هذا.

وسوف نلقى الضوء على نماذج من أولئك الفقهاء والعلماء الذين برزوا في ذلك العصر؛ على اختلاف مواقفهم وجهودهم وتنوعها.

فمن أبرز فقهاء الشافعية في العصر السلجوقي: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي (ت ٤٥٠هـ - ٩هـ)، كان إمامًا جليلًا وقورًا أديبًا، رفيع الشأن، له اليد الباسطة في المذهب، والتفنن التام في سائر العلوم، من وجوه فقهاء الشافعية، درس الفقه، وتولى القضاء في بلدان كثيرة، صاحب التصانيف الكثيرة والإنتاج الغزير في الأصول والفروع والتفسير والفقه والأدب واللغة والسياسة والأحكام السلطانية وقوانين والوزارة والحكم والأمثال وغيرها من أنواع العلوم والمعارف.

من أشهر تصانيفه في الفقه كتاب: "الحاوي الكبير" وهو موسوعة ضخمة في فقه الشافعية، وكان يقول: "بسطت الفقه في أربعة آلاف

ورقة، واختصرته في أربعين" يُريد بالمبسوط كتاب "الحاوي"، وبالمختصر كتاب "الإقناع" يقول ابن خلكان: "وكان حافظاً للمذهب، وله فيه كتاب الحاوي الذي لم يطالعه أحد إلا وشهد له بالتبحر والمعرفة التامة بالمذهب".

ومن كتبه الأخرى "كتاب أدب القاضي" و"أعلام النبوة" و"أدب الدنيا والدين" و"العيون" في اللغة وغيرها، وكانت له مكانته الخاصة عند الخلفاء والسلاطين؛ فكانوا يبعثونه سفيراً لهم، ووسيطاً بينهم وبين منائهم؛ مما يؤكد مكانته لديهم وصلته الوثيقة بهم، ومع ذلك كان لا يخشى في الله لومة لائم، وكان يقول الحق وينتصر له دون مجاملة لأحد مهما كان قدره أو مكانته، رغم منزلته عند الخلفاء والملوك واحترامهم له، وهكذا يكون العلماء المخلصون المجاهدون الذين لا يخشون إلا الله تعالى، ولا يتأثرون بمتع الدنيا ونعيمها الزائل^(١).

(١) انظر حول الماوردي ومؤلفاته المتنوعة: تاريخ بغداد (١٠١/١٢)، وفيات الأعيان (٢٨٢/٣)، معجم الأدباء (٥٢/١٥)، المختصر في أخبار البشر (١٧٩/٢)، سير أعلام النبلاء (٢٩٦/١٨)، طبقات السبكي (٢٦٧/٥)، طبقات الأسنوي (٢٠٦/٢)، مقدمة كتاب "قتال أهل البغي" للماوردي ص (١٥)، تحقيق د. إبراهيم علي صندوقجي، ومقدمة كتاب "تسهيل النظر" ص (١٣)، ومقدمة كتاب (أدب الدنيا والدين" للماوردي ص (٥-١٠-٧٣)، تحقيق د. محمد صباح، وكتاب: "أعلام النبوة" للماوردي، تحقيق محمد شريف سكر ص (٥-١١)، وحول كتابه "النكت والعيون في تأويل آيات القرآن الكريم" انظر ما كتبه محمد حمد الحمد عن

ومن فقهاء الشافعية في ذلك العصر أيضا: أبو الطيب طاهر بن عبد الله بن طاهر الطبري (ت ٤٥٠هـ)، فقيه بغداد، سمع بجرجان ونيسابور، ثم استوطن بغداد، ودرس وحدث وأفتى بها، ثم تولى القضاء، كان ثقة صادقاً ديناً ورعاً عارفاً بالأصول والفروع، قال عنه تلميذه أبو إسحاق الشيرازي: "ولم أر فيمن رأيت أكمل اجتهاداً، وأشد تحقيقاً، وأجود نظراً منه، شرح مختصر المزني وصنف في الخلاف والمذهب والأصول والجدل كتباً كثيرة، وليس لأحد مثلها، من مصنفاته -أيضاً- "التعليقة الكبرى" في الفروع و"المخرج في الفروع" وغيرها"^(١).

أما أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي (ت ٤٧٦هـ)، فهو أحد فقهاء الشافعية الكبار، وأحد علمائهم المشهورين في ذلك العصر، كان زاهداً عابداً ورعاً، كبير القدر محترماً عند الخلفاء والسلاطين، إماماً في الفقه والأصول والحديث، تفقه على القاضي أبي الطيب طاهر بن عبد الله الطبري، ولزمه إلى أن صار معيده في حلقتيه،

الكتاب؛ من حيث منهج الماوردي، وموقفه من الأسانيد والأحكام الفقهية والقراءات، وموقفه أيضاً من الإسرائيليات، في مجلة الفرقان العدد السادس، شهر ذي القعدة (١٤٠٩هـ، ص ٨).

(١) الخطيب: تاريخ بغداد (٣٥٨/٩)، ابن الأثير: الكامل (٦٥١/٩)، أبو الفداء: المختصر (١٧٩/٢)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٦٦٩/١٧)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (١٥/٥)، الأسنوي: طبقات الشافعية (٥٨/٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٦٣/٥).

كان أنظر أهل زمانه وأفصحهم، انتهت إليه رئاسة المذهب، ورحل إليه الفقهاء، وتخرج به علماء كبار، قال عن نفسه: "خرجتُ إلى خراسان، فما دخلتُ بلدة ولا قرية إلا وكان قاضياً أو مفتياً أو خطيباً تلميذي أو من أصحابي".

وقال عنه أبو بكر الشاشي^(١): "الشيخ الشيرازي حجة الله على أئمة العصر"، تولى التدريس في المدرسة النظامية التي بناها له الوزير نظام الملك، وذلك سنة (٤٥٩هـ)، ومن مصنفاته في الفقه: "المهذب" و"التنبيه" و"النكت في الخلاف" و"التبصرة في أصول الفقه" و"طبقات الفقهاء" و"المعونة" وغيرها، وعندما توفي كان أول من تقدم للصلاة عليه الخليفة المقتدي بأمر الله؛ مما يدل على صلته ومكانته عند الخلفاء^(٢).

ومن فقهاء الشافعية في العصر السلجوقي: أبو نصر عبد السيد بن محمد بن عبد الواحد الصباغ (ت ٤٧٧هـ)، كان فقيه العراق في العصر، يُضاهي أبا إسحاق الشيرازي؛ بل يتقدم عليه في معرفة المذهب، وكان ثقة خيراً فقيهاً محدثاً أصولياً ثبتاً؛ وهو أول من درّس بالنظامية عند

(١) سيأتي ذكره ضمن فقهاء الشافعية وعلمائهم في هذا الفصل.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٧/٩)، ابن الأثير: الكامل (١٠/١٢٥-١٢٦-١٣٢)، ابن حلكان: وفيات الأعيان (٢٩/١)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٤/٢١٥)، الأسنوي: طبقات الشافعية (٧/٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١٢٤)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣/٣٤٩)، ومقدمة كتاب: "طبقات الفقهاء للشيرازي" تحقيق الدكتور إحسان عباس ص (٥-٢٢)، الزركلي: الأعلام (١/٥١).

افتتاحها سنة (٤٥٩هـ) قبل أبي إسحاق بعشرين يوماً، ثم بعد وفاته، ومن أهم مصنفاته كتاب: "الكامل" و"الشامل" و"تذكرة العالم" و"الطريق السالم" و"العمدة في أصول الفقه" قال أبو الوفاء بن عقيل: "ما كان يثبت مع قاضي القضاة أبي عبد الله الدامغاني، ويشفي في مناظراته من أصحاب الشافعي مثل أبي نصر الصباغ"^(١).

ومن فقهاء الشافعية -أيضاً: أبو سعد عبد الرحمن بن مأمون بن علي المتولي (ت ٤٧٨هـ)، الفقيه الشافعي، تولى التدريس بالنظامية بعد أبي إسحاق الشيرازي، كان فصيحاً فاضلاً جامعاً بين العلم والدين، له يدٌ قوية في الفقه والأصول والخلاف، صنف في الفقه كتاب "تتمة الإبانة"، تمم به "الإبانة" تصنيف شيخه عبد الرحمن بن محمد بن أحمد الفوراني -

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٢/٩)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢١٧/٣)، ابن النجار: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد ص (٢٩٦)، أبو الفداء: المختصر (١٩٦/٢)، الياضي: مرآة الجنان (١٢٢/٣)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٦٤/١٨)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (١٢٢/٥) الأسنوي: طبقات الشافعية (٣٩/٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢٦/١٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٥٥/٣)، الحجوي: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي (٣٣٠/٢).

مقدم الفقهاء الشافعية بمرور^(١) - لكنه لم يكمله وعاجلته المنية قبل تمامه، وأكمله بعده جماعة من الفقهاء^(٢).

ومنهم أيضاً: أبو طاهر عبد الرحمن بن أحمد بن علك الشاوي (ت ٤٨٤هـ)، كان من رؤساء الشافعية، تفقه بسمرقند، وكان السبب في استعادتها، قال يحيى بن عبد الوهاب بن منده: "لم نر فقيها في وقتنا أنصف منه ولا أعلم، وكان بهيج المنظر، فصيح اللهجة، ذا مروءة، وكانت له حال عظيمة ونعمة كبيرة، توفي ببغداد فمشى الوزراء وكبار رجال الدولة في جنازته، ولم يتبعه راكب سوى نظام الملك الذي اعتذر بكمبر سنه، وجاء السلطان عشية ذلك اليوم إلى قبره^(٣).

أما أبو الحسن علي بن محمد بن علي الطبري؛ المعروف بألكيا الهراسي (ت ٥٠٤هـ)، فقد كان شيخ الشافعية ببغداد، وأحد فحول العلماء ورؤوس الأئمة، تفقه على إمام الحرمين الجويني، وكان من رؤوس معيدي الإمام الجويني في الدرس هو وأبو حامد الغزالي، وقد اتصل بخدمة السلطان السلجوقي بركياروق بن ملكشاه، وحظي عنده بالجاه والمال،

(١) في ترجمة الفوراني انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان (١٣٢/٣)، الذهبي: العبر (٣١١/٢)، ابن حجر: لسان الميزان (٥٢٧/٤).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم: (١٨/٩)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (١٠٦/٥)، الذهبي: العبر (٣٣٨/٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢٨/١٢).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (٥٨/٩)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٣٨/١٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٧٢/٣).

وارتفع شأنه، وتولى القضاء، وكان يستعمل الأحاديث في مناظراته ومجالسه مع الفقهاء وطلبة العلم بالمدرسة النظامية ببغداد؛ حينما تولى التدريس بها، وله مصنفات عدة؛ منها: "أحكام القرآن" و"شفاء المسترشدين"، و"لوامع الدلائل في زوايا المسائل"، و"تعليق في الأصول"، وغيرها^(١).

ومن أبرز فقهاء الشافعية وعلمائهم في العصر السلجوقي: الإمام العلامة حجة الإسلام محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ)، أحد الأعلام وأشهرهم، لازم إمام الحرمين أبا المعالي الجويني وتلمذ عليه، كان من أذكى العالم في كل ما يتكلم فيه، وساد في شببته حتى إنه درس بالنظامية ببغداد؛ وله أربع وثلاثون سنة، فحضر عنده رؤوس العلماء، وجدّ واجتهد حتى برع في المذهب الشافعي والخلاف والجدل، وقرأ الحكمة والفلسفة، وكان أنبغ تلاميذ الجويني، حتى إنه صنف -في حياته- كتابه المسمى "المنحول" فنظر الجويني فيه؛ فقال: "دفنتني وأنا حي، هلا صبرت حتى أموت"، وبعد وفاة

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٦٧/٩)، ابن الأثير: الكامل (٤٨٤/١٠)، ابن النجار: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد ص (٣٤٧)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٥٤٣/١)، المنذري: التكملة لوفيات النقلة (٤١٤/٢)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٨٦/٣)، ابن الفوطي، مجمع الآداب (٧٩١/٢)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٢٣١/٧)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣٥٠/١٩)، العبر (٣٨٦/٢)، الحجوي: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي (٣٣٣/٢).

شيخه الجويني خرج الغزالي قاصداً الوزير نظام الملك؛ حيث كان مجلسه يجمع أهل العلم؛ فناظر العلماء في مجلسه، وأعجب به الوزير، وعظمت منزلته عنده؛ فندبه للتدريس في المدرسة النظامية في بغداد؛ فتولاها سنة (٤٨٤هـ)، قضى حياته بين التدريس والعبادة والتصنيف إلى أن توفي. يقول السبكي عنه: "مات ولم تر العيون مثله في القرون الماضية والتالية لسائناً وبيئاً أو خاطراً وطبعاً، نظر في الأصول وكان قد أحكمها فصنف فيها تصانيف وجدّد المذهب في الفقه، فصنف فيه تصانيف، وسبك الخلاف فحرر فيه أيضاً تصانيف...".

ويُعَدُّ الغزالي من أعظم مفكري الإسلام، وأقدرهم على الابتكار؛ وهو من العلماء الذين ناضلوا وجاهدوا بقلمهم وفكرهم لحماية الدين والدفاع عنه، يقول السبكي في هذا الخصوص: "... جامع أشتات العلوم، جاء والناس إلى رد فرية الفلاسفة أحوج من الظلماء لمصايح السماء، فلم يزل يُناضل عن الدين الحنيف بجلاد مقاله، ويحمي حوزة الدين".

ومن مميزات أنه وهب نفسه للعلم؛ حيث قال: "طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله"^(١)، وكذلك أولى الغزالي الجانب الأخلاقي

(١) انظر عن الغزالي سيرته وشخصيته وفضله وعلمه وأقوال العلماء فيه: ابن الجوزي: المنتظم (١٦٨/٩)، ابن النجار: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد ص (١٢٧)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (١٩١/٦)، الأسنوي: طبقات الشافعية (١١١/٢)،

والتربوي لدى الإنسان جانباً عظيماً من اهتمامه، ويظهر ذلك جلياً في كتابه إحياء علوم الدين، بالإضافة إلى رسالته: "أيها الولد" و"الرسالة اللدنية"، وقد توصل - بحكم تعامله مع الطلاب - إلى الكثير من الأسس التربوية والقواعد العلمية والنفسية التي يجب ملاحظتها في التربية، كما أنه تعرض لشروط المدرس الصالح وواجباته، وكذلك الصفات التي يجب أن يتصف بها الطالب.

ومن أبرز معالم شخصيته وصفاته حبه للحقيقة وتعلقه بالوصول إليها، وكتابه المنقذ من الضلال؛ الذي ألفه بعد الخمسين من عمره، يعرض فيه المنهج والطريق الذي سلكه في سبيل ذلك، وقد طوّف من خلاله بجميع المذاهب، ودرس مختلف العلوم من فقهه وكلامه وفلسفته،

الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣٢٢/١٩)، العبر (٣٨٧/٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٧٣/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٢٠٣/٥)، ابن العماد: شذرات الذهب (١٠/٤)، وهناك الكثير من الباحثين المحدثين الذين تناولوا شخصية الغزالي وكتبه بالدراسة والتحليل؛ منهم: محقق كتاب "فضائل الأنام من رسائل حجة الإسلام" للغزالي وهو نور الدين آل علي، وماجد الكيلاني: "هكذا ظهر جيل صلاح الدين" ص (٨١)، وكتاب: "الموت" للغزالي تحقيق عبد اللطيف عاشور، وكتاب: "دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر" للدكتور فتحي الدريني ص (٣٩٥)، وكتاب: "سيرة الغزالي وأقوال المتقدمين فيه" لعبد الكريم العثمان وغيرها من الدراسات.

من يُماثل الغزالي في نهمه للمعرفة، وجلده على البحث، ورغبته في الوصول إلى الحقيقة^(١).

وأما عن مصنفاته فقد تجاوزت الثلاثمائة مصنف؛ بل بعضهم قد أوصلها إلى أكثر من هذا؛ منها في علم الفقه: "الوسيط"، و"البسيط"، و"الوجيز"، و"الخلاصة" وفي سائر العلوم الأخرى؛ منها "إحياء علوم الدين"، و"المستصفى في أصول الفقه"، و"المنقذ من الضلال"، و"مقاصد الفلاسفة"، و"تهافت الفلاسفة"، و"عقيدة أهل السنة"، و"فضائح الباطنية"، و"فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة"، و"تنضويه القرآن عن المطاعن"، و"إلجام العوام عن علم الكلام"، و"معيار العلم"، و"ميزان العمل"، و"التبر المسبوك"، و"المقاصد في بيان اعتقاد الأوائل"، وغيرها من المصنفات الأخرى المتنوعة في شتى فنون العلم والمعرفة^(٢).

(١) العسيري: الحياة العلمية في العصر السلجوقي ص (٣٤٦)، عبد الكريم عثمان: معالم الثقافة الإسلامية ص (٣٧٦-٣٧٨)، ولا شك أن في كتب الغزالي من الأخطاء والأفكار والبدع والضلالات التي لا تخفى، وقد أشار ابن تيمية -رحمه الله- إلى أنه تاب في آخر حياته، وكره كتبه؛ مما يؤكد وجوب التنبيه لذلك.

(٢) يُعدّ أهم كتاب في موضوع كتب ومؤلفات الغزالي المتنوعة، كتاب الدكتور عبد الرحمن بدوي "مؤلفات الغزالي" حيث ضمن تفصيلاً كاملاً بمؤلفات الغزالي مسترشداً بما كتبه علماء التراجم والباحثون في مؤلفاته من المتقدمين والمعاصرين من المسلمين والمستشرقين، وقد أحصى كتبه وما نسب إليه فبلغت (٤٥٠) كتاباً ورسالة. ثم انظر كذلك: الزركلي: الأعلام (٢٢/٧)، كحالة: معجم المؤلفين

ويذكر أكثر من ترجم له - أنه في خاتمة أمره وآخر عمره - أقبل على طلب الحديث، ومجالسة أهله، ومطالعة الصحيحين. ولو عاش لسبق الكل في ذلك الفن بيسير من الأيام^(١) والله أعلم، وكانت له مكانة عالية عند الخلفاء والسلاطين والوزراء؛ حيث كان يصنف لهم، ويقدم لهم النصح والوعظ، وكتابه المسمى "التبر المسبوك في نصيحة الملوك" خير شاهد على ما ذكرناه^(٢).

واستكمالاً للحديث عن فقهاء الشافعية في العصر السلجوقي، لا بد أن أتطرق لأحد فقهاءهم البارزين - في ذلك العصر - ألا وهو فخر الإسلام أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر الشاشي (ت ٥٠٧ هـ)، لازم الشيخ أبا إسحاق الشيرازي، وأصبح معيداً بالنظامية،

(١١/٢٦٦)، وكتاب "سكرات الموت وشدته" أو "الموت" للغزالي، تحقيق عبد اللطيف عاشور ص (١٥-١٦).

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٦/٢١٠)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٩/٣٢٥-٣٢٦)، وسوف أتطرق - أيضاً - لشخصية الغزالي مرة أخرى في الفصول القادمة وفي مواضع عدة - إن شاء الله.

(٢) انظر لنصائحه وتوجيهاته في الكتاب المذكور، وكذلك في كتابه "فضائل الأنام من رسائل حجة الإسلام"، تحقيق نور الدين آل علي، ثم انظر ما كتبه الدكتور عرفان عبد الحميد، بعنوان "الإمام الغزالي، دراسة في المنهج" في مجلة المجتمع العلمي العراقي، المجلد الثاني والثلاثون، الجزء الثالث والرابع ص (٥٨٥) ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

كان حافظاً للمذهب، انتهت إليه رئاسة المذهب الشافعي ببغداد، وقد تولى التدريس بالنظامية، واشتهر بعدد من المصنفات في الفقه والأصول؛ أهمها كتاب: "حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء" وهو الكتاب الملقب بـ "المستظهري"، لأنه صنفه للخليفة المستظهر بالله (٤٨٧-٥١٢هـ)، وله كتاب "العمدة" و"الشافي في شرح مختصر المسزني" و"المعتمد"، و"الشافي في شرح الشامل" وغيرها^(١).

ومن فقهاء الشافعية -أيضاً- في ذلك العصر أبو الفتح أسعد بن أبي نصر بن أبي الفضل الميهني (ت ٥٢٧هـ)، شيخ الشافعية في عصره وعالمهم، تولى نظامية بغداد مرتين، كان يتوقد ذكاءً، وكان يرجع إلى دين وخوف^(٢).

وغيرهم من فقهاء الشافعية؛ الذين برزوا واشتهروا -في ذلك العصر- ومواقفهم بجهودهم من تصنيف وتأليف، أو دروس وحلقات أو

(١) ابن عساكر: تبين كذب المفتري ص (٣٠٦)، ابن النجار: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد ص (٧٧)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٥٨١/٢-٥٨٢)، أبو الفداء: المختصر (٢٢٧/٢)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٧٠/٦)، الذهبي: تذكرة الحفاظ (١٢٤١/٤)، الحجوي: الفكر السامي في تاريخ الفقه لإسلامي (٣٣٣/٢)، وكتاب الحلية، سبق أن ذكرت أنه مطبوع بتحقيق الدكتور ياسين دراركة في ثلاثة أجزاء؛ حيث نشرت منه مؤسسة الرسالة ودار الأرقم قسم العبادات سنة ١٩٨٠م.

(٢) الذهبي: العبر (٤٣٠/٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٠٥/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٢٥٢/٥)، ابن العماد: شذرات الذهب (٨٠/٤).

اتصال بالحكام والسلاطين والوزراء؛ الأمر الذي أدى إلى الحفاظ على كيان أهل السنة في ذلك العصر، والتصدي للأفكار والتيارات الباطلة، وقد تجلّى ذلك في المدارس النظامية؛ التي تميز بها فقهاء الشافعية عن سواهم، وكان لها دور كبير ومؤثر في توضيح حقائق تلك التيارات الحاقدة على الإسلام، المتآمرة عليه، العاملة على تهديمه وتخريب كيانه؛ كل ذلك بفضل الله تعالى، ثم بفضل أولئك العلماء المجاهدين المخلصين؛ الذين أبلوا البلاء الحسن، وأدوا رسالتهم على الوجه المطلوب، وعملوا بعلمهم، وقاموا بواجبهم خير قيام؛ وهذا هو واجب العلماء في كل زمان ومكان؛ على مرّ العصور والأجيال.

وبعد أن تحدثت عن الدراسات الشرعية، وألقيت الضوء على مجموعة من العلماء؛ الذين اشتهروا في ذلك العصر، وفي هذا النوع المهم من الدراسات، والتي لها ارتباط وثيق بموضوع البحث؛ حيث إنها تنصب جميعاً في الحفاظ على كيان أهل السنة آنذاك؛ وذلك في مجال الدراسات الشرعية والدينية، وآثار ذلك على أهل السنة؛ الذين كانوا في أمس الحاجة إلى أمثال أولئك العلماء البارزين في تلك العلوم، وتوضيح جهودهم ومواقفهم.

أقول بعد هذا: واستكمالاً لدراسة الحياة العلمية، ومجتمع العلماء في العصر السلجوقي، أرى من الضروري أن أُلقي الضوء على أنواع العلوم الأخرى، وأبرز العلماء فيها باختصار؛ كي يتم استكمال الموضوع في جوانبه الأخرى المكتملة له، ومن ثمّ تحقيق الفائدة المرجوة - بمشيئة الله.

ففي علوم اللغة العربية برز عدد من العلماء؛ الذين تميزوا بالثقافة العالية والمتنوعة؛ حيث بلغت هذه العلوم درجة عالية من الازدهار والنضج، واجتمع في العراق - في ذلك العصر - طائفة كبيرة من اللغويين والنحاة والأدباء والشعراء ورجال البيان؛ الذين خلفوا تراثاً علمياً وأدبياً ضخماً، وكان بعضهم قد درّس الأدب واللغة في النظامية؛ منهم من صنف التصانيف الكثيرة، وبعضهم احتل مرتبة اجتماعية عالية ببغداد^(١).

وقد اشتهر من علماء اللغة والنحو في العصر السلجوقي عدد كثير من العلماء نذكر منهم - على سبيل المثال لا الحصر: أبا الحسن علي بن فضال المجاشعي (ت ٤٧٩هـ)^(٢)، أبا عبد الله سلمان بن عبد الله النهرواني (٤٩٣هـ)^(٣)، وأبا الكرم المبارك بن الفاخر بن محمد بن

(١) انظر في أولئك العلماء والأدباء: ابن الأنباري: نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص (٢٥٥-٢٥٩-٢٦٩-٢٨٦)، السيوطي: بغية الوعاة (٢/٢٢٦).

(٢) هو: علي بن فضال المجاشعي، كان من كبار أئمة النحو واللغة والتصريف، استقر به المقام في بغداد، يدرس النحو واللغة، له من المصنفات: "البرهان العميدي" "أكسير الذهب في صناعة الأدب والنحو" "الدول في التاريخ" "معارف الأدب". ياقوت: معجم الأدباء (١٤/٩٠)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٣/٢٠٤).

(٣) هو: سلمان بن عبد الله الحلواني النهرواني، قدم بغداد، وقرأ بها النحو واللغة، وبرع فيها، درس علي ابن الدهان وغيره، وجمال في العراق، ونشر بها النحو، له من المصنفات: القانون في اللغة - عشرة مجلدات، لم يصنف مثله، له "شرح الإيضاح لأبي علي الفارسي" و"شرح ديوان المتنبي"، و"الأمالي"، وغيرها. ياقوت: معجم الأدباء (١١/٢١١)، السيوطي: بغية الوعاة (١/٥٩٥).

الفصل الأول: ازدهار الحياة العلمية ومجتمع العلماء في العصر السلجوقي ٦٥٣

يعقوب البغدادي (ت ٥٠٠هـ)^(١)، وجعفر بن أحمد السراج (ت ٥٠٠هـ)^(٢)، وأبا زكريا يحيى بن علي؛ المعروف بالخطيب التبريزي (ت ٥٠٢هـ)^(٣)، وأبا الحسن علي بن نصر الإسفراييني (ت ٥٠٥هـ)^(٤)، وعلي بن محمد الفصيح

(١) هو: المبارك بن الفاجر بن محمد النحوي البغدادي، كان بارعًا في النحو، عارفاً باللغة، ألف كتبًا؛ منها: "العلم في النحو" و"جواب مسائل"، وغيرها. ياقوت: معجم الأدباء (٥٤/١٧)، ابن الأنباري: نزهة الألباء ص (٢٨١)، السيوطي: بغية الوعاة (٢٧٢/٢٠)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٩٥/٥).

(٢) هو: جعفر بن أحمد بن الحسين بن أحمد؛ المعروف بابن السراج، كان عالي الطبقة في الحديث والقراءة والنحو واللغة والعروض، كثير الشعر، حسن التصانيف، من مصنفاته: "مصارع العشاق"، "زهد السودان". الذهبي: العبر (٣٨٠/٢)، السيوطي: بغية الوعاة (٤٨٥/١).

(٣) هو: يحيى بن علي بن محمد بن الحسن الشيباني، المعروف بالخطيب التبريزي، أحد أئمة اللغة والأدب والبلاغة في عصره، درس في المدرسة النظامية في بغداد، له مصنفات منها: "إعراب القرآن العظيم"، "الكافي في علمي العروض والقوافي"، "شرح اللمع لابن جني"، "شرح ديوان المتنبي"، "مقاتل الفرسان"، وغيرها. ابن الأنباري: نزهة الألباء ص (٢٧٠)، ابن الجوزي: المنتظم (١٦١/٩)، ياقوت: معجم الأدباء (٢٥/٢٠)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٥١٣/٢).

(٤) هو: علي بن نصر بن محمد بن عبد الصمد القندروجي، أبو الحسن الإسفراييني، قال ياقوت: "له فضل وافر ومعرفة تامة باللغة والأدب، وخط وبلاغة، وله شعر مليح رائق، ويد باسطة في الكتابة والرسائل". ياقوت: معجم الأدباء (٩٨/١٥)، السيوطي: بغية الوعاة (٢١١/٢).

(ت ٥١٦هـ) ^(١)، والحسين بن محمد البكري الدباس، المعروف بالبارع البغدادي (ت ٥٢٤هـ) ^(٢)، وموهب بن أحمد الجواليقي (ت: ٥٣٩هـ) ^(٣)، وهبة الله بن علي؛ المعروف بابن الشجري (ت:

(١) هو: علي بن أبي زيد محمد بن علي؛ المعروف بالفصحي النحوي، كان نحويًا حاذقًا، وتعلم النحو علي كبر، درس بالمدرسة النظامية، وكان يقول الشعر. ابن الأنباري: نزهة الألباء ص (٢٧٤)، ياقوت: معجم الأدباء (١٥/٦٦)، السيوطي: بغية الوعاة (٢/١٩٧).

(٢) هو: الحسين بن محمد بن عبد الوهاب بن أحمد الحارثي البكري الدباس؛ المعروف بالبارع البغدادي النحوي، كان نحويًا لغويًا مقرئًا حسن المعرفة بصنوف الآداب، أقرأ القرآن؛ وهو من بيت الوزارة، وكان فاضلًا عارفًا بالأدب، له شعر حسن. السيوطي: بغية الوعاة (١/٥٣٩).

(٣) هو: موهب بن أحمد بن الحسن بن الخضر الجواليقي، شيخ أهل اللغة في ذلك العصر، كان ثقة صدوقًا، درس في النظامية، واختص بإمامة الخليفة المقتفي لأمر الله، وكان طويل الصمت لا يقول شيئًا إلا بعد التحقيق، وكان مליح الخط، من تصانيفه: شرح أدب الكاتب، وكتاب العروض، والتكملة فيما يلحن فيه العامة، ومنها: المعرب؛ الذي يقول عنه الأنباري: "لم يُعمل في جنسه أكبر منه، وغيرها. ابن الأنباري: نزهة الألباء ص (٢٩٣)، ابن الجوزي: المنتظم (١٠/١١٨)، ياقوت: معجم الأدباء (١٩/٢٠٥)، ابن الأثير: الكامل (١١/١٠٦)، اللباب (١/٢٤٥)، وانظر ما كتبه الدكتور دفع الله عبد الله سليمان بعنوان: "مختصر شرح أمثلة سبويه للجواليقي"، عرض وتحليل، في مجلة الدارة، العدد الثالث، السنة الثانية عشرة ص (٧١-٩٨)، ربيع الآخر ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

الفصل الأول: ازدهار الحياة العلمية ومجتمع العلماء في العصر السلجوقي ٦٥٥

٥٤٢هـ^(١)، والوزير عون الدين يحيى بن هبيرة (ت ٥٥٥هـ)^(٢)،
وأبا محمد عبد الله بن أحمد بن الخشاب البغدادي (ت ٥٦٧هـ)^(٣)،
وأبا محمد سعيد بن المبارك بن علي بن الدهان (ت ٥٦٩هـ)^(٤)، أبا

(١) هو: هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة العلوي الحسني النحوي؛ المعروف بابن الشجري، كان وحيد عصره وفريد دهره في علم النحو، كان تام المعرفة باللغة، كان فصيحاً، حلو الكلام، حسن البيان والإفهام، وقوراً في مجلسه، ذا صمت طويل، يقول الأنباري: وكان ابن الشجري أنحى من رأينا من علماء العربية، وآخر من شاهدنا من حذاقهم وأكابرهم. ابن الأنباري: نزهة الألباء ص (٢٩٩)، ياقوت: معجم الأدباء (٢٨٢/١٩)، السيوطي: بغية الوعاة (٣٢٤/٢)، الشكعة: مناهج التأليف عند العلماء العرب ص (٣٨٧-٣٩٩).

(٢) سبقت ترجمته والحديث عنه، وفيه يقول ابن الجوزي: "وكانت له معرفة حسنة بالنحو واللغة والعروض". المنتظم: (٢١٤/١٠).

(٣) هو: عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن نصر الخشاب، كان أعلم أهل زمانه بالنحو، قال ابن العماد: "انتهت إليه الإمامة في النحو"، ويقول ياقوت: "رأيت قوماً من نخاة بغداد يفضلونه على أبي علي الفارسي" وقد برع في علوم كثيرة بجانب اللغة والنحو؛ كالتفسير والحديث والحساب والهندسة والمنطق وغيره، ومن مصنفاته: "شرح اللمع لابن جني"، "غريب اللغة"، "شرح مقدمة الوزير ابن هبيرة في النحو"، شذرات الذهب (٢٢١/٤).

(٤) هو: سعيد بن المبارك بن علي؛ المعروف بابن الدهان، كان من أعيان النخاة وأفاضل اللغويين، وكان يقال: "شرح الإيضاح لأبي علي الفارسي"، في أربعين مجلداً، و"شرح اللمع لابن جني"، و"المعقود في المقصور والممدود"، و"الفصول في

البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري (ت ٥٧٧هـ) ^(١)، والمبارك بن محمد بن محمد الشيباني؛ المعروف بابن الأثير الجزري (ت ٦٠٦هـ) ^(٢)،

النحو"، وغيرها. ياقوت: معجم الأدباء (١١/١٩٨)، السيوطي: بغية الوعاة (١/٥٨٧).

(١) هو: عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنباري؛ الملقب كمال الدين النحوي، كان من الأئمة المشار إليهم في علم النحو، قرأ اللغة على أبي منصور الجواليقي، وأخذ عن ابن الشجري، وانتفع بصحبته، صنف في النحو كتاب: "أسرار العربية" و"الميزان" وله كتاب "نزهة الألباء في طبقات الأدباء" جمع فيه المتقدمين والمتأخرين من النحويين منذ العصور الأولى حتى عصره، وله كتاب "البيان في غريب إعراب القرآن"، وغيرها، ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/١٣٩، الكتبي: فوات الوفيات (٢/٢٩٢)، شاکر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون (١/٣٩٢)، وانظر مقدمة كتابه: "نزهة الألباء" بتحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي ص (٥-١٠)، وقد عدّ له ٧٣ مصنفاً.

(٢) هو: المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، مجد الدين أبو السعادات الجزري؛ المشهور بابن الأثير، من مشاهير العلماء وأحد الفضلاء، جمع بين علم العربية والقرآن والحديث، وأخذ النحو عن أبي محمد سعيد بن الدهان، من مصنفاته في النحو: "البديع في النحو"، و"الباهر في الفروق في النحو"، و"تهذيب فصول ابن الدهان"، وغيرها من المصنفات في النحو والحديث. ياقوت: معجم الأدباء (١٧/٧١)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤/١٤١)، السيوطي: بغية الوعاة (٢/٢٧٤)، وقد تقدم الكلام عنه في مجال الحديث.

الفصل الأول: ازدهار الحياة العلمية ومجتمع العلماء في العصر السلجوقي ٦٥٧

وأبا بكر المبارك بن سعيد بن الدهان الواسطي (ت ٦١٢هـ) ^(١)، وعبد الله بن الحسين العكبري (ت ٦١٦هـ) ^(٢).

وغيرهم من علماء اللغة والنحو؛ الذين برزوا في العصر السلجوقي؛ الذي كان عصر خير وبركة ونماء ونضج وازدهار للغة والنحو والأدب، حيث يُعدُّ العصر السلجوقي في العراق من عصور الازدهار والرقي العلمي في خدمة اللغة العربية وآدابها؛ لأن العلماء - في ذلك العصر - انطلقوا وأخرجوا الموسوعات الضخمة، والمعاجم والمصنفات اللغوية والأدبية،

(١) هو: أبو بكر المبارك بن سعيد بن الدهان الوجيه النحوي الضرير، من أهل واسط، برع في العربية، وكان إمامًا في النحو واللغة والتصريف والعروض ومعاني الأشعار والتفسير والإعراب، تولى تدريس النحو بالنظامية سنين عديدة. الذهبي: العبر (١٥٨/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (٦٩/١٣)، السيوطي: بغية الوعاة (٢٧٣/٢).

(٢) هو: عبد الله بن الحسين بن أبي البقاء العكبري البغدادي النحوي، برع في علم النحو؛ الذي أخذه عن ابن الخشاب، وحاز قصب السبق في العربية، كان دينًا ثقة، قال عنه ابن العماد: "كان إمامًا في علوم القرآن والفقه واللغة والنحو والعروض والفرائض والمذهب"، له تصانيف، منها: إعراب القرآن، وشرح اللمع لابن جني، وإعراب الحديث، واللباب في علل النحو، وشرح ديوان المتنبي، ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة (١٠٩/٢)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (١٠٠/٣)، المنذري: التكملة لوفيات النقلة (٤٦١/٢)، الكتبي: فوات الوفيات (٤١٤/٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (٨٥/١٣)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٤٢٦/٦)، ابن العماد: شذرات الذهب (٦٧/٥).

وتوسعت تلك الدراسات اللغوية، وزاد الاهتمام بها، وتميزت مصنفاتهم بالدقة والعمق، وامتاز علماء اللغة في تلك المدة بالثقافة الشاملة والعميقة؛ حيث كان أكثرهم يتقن العربية والفارسية، ومن هؤلاء: الجواليقي الذي كان إماماً في اللغة والأدب، وصنف في اللغة العربية والفارسية؛ لأن اللغة الفارسية واصلت سيادتها خلال المدة السلجوقية؛ حيث أصبحت لغة الحكم والسياسة والأدب، وإزاء ذلك كان من الطبيعي أن يحصل الصراع اللغوي والتأثيرات المتبادلة؛ الأمر الذي أدى إلى بروز الكثير من العلماء في هذا الميدان الهام؛ حيث لا يمكن لنا حصرهم؛ لأن موضوع البحث لا يسمح بذلك، وما ذكرناه فيه الكفاية، ويصل بنا إلى الغرض المنشود - بإذن الله.

أما في مجال الأدب والشعر، فمن الطبيعي أن تنهض الحركة الأدبية والشعرية في ذلك العصر؛ لاسيما بعد انتشار المدارس النظامية، وإنشاء المكتبات التي تزود طلاب المعرفة بالمصادر اللازمة، وتسهم في ازدهار الآداب والعلوم بمختلف أنواعها؛ لذلك حفل هذا العصر بأدباء أجلاء وشعراء فحول في العراق، وكان الأدب في العصر السلجوقي يُمثل المرأة؛ التي عكست الوضع الاجتماعي والفكري، ومن يتمعن في المصادر التي كتبت خلال العصر السلجوقي، ويطلع عليها في فهارس دور الكتب في الشرق والغرب يتعجب كثيراً من ضخامة الإنتاج الأدبي وغزارته، بكافة صورته، وأنواعه من خطابة وكتابة وقصص وشعر.

وسوف أقدم نماذج لأولئك الأدباء والشعراء؛ الذين برزوا في العصر السلجوقي؛ ففي النثر الأدبي^(١) من كتابة وإنشاء ورسائل وخطب وقصص ونحوها لمعت أسماء كثيرة في ذلك العصر؛ فمن أشهر خطباء العصر ووعاظه؛ الذين اشتهروا بروعة البيان وقوة التأثير: أبو الفرج بن الجوزي، وأبو القاسم القشيري، وأبو الحسن أردشير بن منصور العبادي؛ الذي افتتن الناس بخطابته، وأبو حامد الغزالي؛ الذي كان الناس يتكاثرون على مجالسه، وتزدحم حلقاته بشكل منقطع النظير^(٢).

(١) النثر: هو الأسلوب المتبع في التعبير، ويكون بلغة مكتوبة أو منظومة، وينقسم قسمين: النثر الفني والنثر الأدبي، أما النثر الفني فهو ما حوى أفكاراً منظمة في عرض جميل جذاب، وصياغة جيدة السبك، فصيحة الأسلوب، أما النثر الأدبي التألفي فهو أسلوب من الكتابة يصور المعاني الذهنية، متأثرة بعواطف الكاتب، وفكرته الجيدة وتصويره الدقيق وتجربته الذاتية، ويشمل النثر بنوعيه: الخطابة والرسائل الديوانية والتوقيعات والإخوانيات والقصص والمقامات والكتابة. انظر في ذلك: حنا الفاخوري: تاريخ الأدب العربي ص (٣١٦-٣٣٢)، محمد خفاجي: الآداب العربية في العصر العباسي الثاني ص (٣٩-٥٦)، أحمد الزيات: تاريخ الأدب العربي ص (٢١٥-٢١٩)، العسيري: الحياة العلمية في العصر السلجوقي ص (٣٧٩-٤٠٠).

(٢) العسيري: الحياة العلمية في العصر السلجوقي ص (٣٨١)، وقد تقدم الحديث عن ابن الجوزي والقشيري والغزالي، أما عن أبي الحسن أردشير بن منصور فقد كان واعظاً، يحضر مجلسه أحياناً أكثر من ثلاثين ألفاً، تعقد له مجالس للوعظ بالمدرسة النظامية في بغداد، يحضرها الأئمة والمشايخ، وكان الغزالي ممن يحضر مجلسه. ابن

ومن رواد النشر التألّيفي؛ الذين اشتهروا بالكتابة والإنشاء: أبو عبد الله عماد الدين محمد بن صفى الدين محمد بن حامد، المعروف بالعماد الأصفهاني الكاتب (ت ٥٩٧هـ)، صاحب المصنفات والرسائل، كان فقيهاً؛ شافعي المذهب، تفقه بالمدرسة النظامية، ثم انصرف إلى العناية بالأدب، واشتهر بالكتابة؛ حتى أصبح كاتباً في الدولة الصلاحية، وقد أثنى عليه علماء عصره؛ فقال عنه ابن الساعي: "كان سمح القريحة، جيد النظم، كثير القول، له الترسل والمليح والكتابة البليغة"، وقال عنه ياقوت: "واشتغل بصناعة الكتابة؛ فبرع فيها ونبغ".

وقد نهج العماد الأصفهاني منهجاً فنياً خالياً من كل تعقيد، وكتب به التاريخ السياسي والحربي والثقافي لعصره، وكان قد انتقل إلى دمشق سنة (٥٦٢هـ) وسلطانها -يومئذ- "الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي" وكتب بين يديه أي عمل كاتباً لديه، قبل أن يتصل بصلاح الدين، ويصبح الكاتب في دولته، صنف تصانيف نافعة؛ منها: كتاب "خريدة القصر وجريدة العصر" الذي جعله ذليلاً على كتاب: "زينة الدهر" لأبي المعالي سعد بن علي الوراق (ت ٥٦٨هـ)، والوراق جعل كتابه ذليلاً على كتاب "دمية القصر وعصرة أهل العصر" للباخرزي (ت ٤٦٧هـ)، والباخرزي جعل كتابه ذليلاً على كتاب "يتيمة الدهر" للثعالبي

الجوزي: المنتظم (٧٥/٩-١٤٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١٤٤-١٦٤)،

توفي سنة (٤٩٧هـ).

الفصل الأول: ازدهار الحياة العلمية ومجتمع العلماء في العصر السلجوقي ٦٦١

(ت ٤٢٩هـ-)، وقد ذكر العماد - في خريدته - الشعراء؛ الذين كانوا بعد المائة الخامسة إلى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، وهو في عشرة مجلدات، وصنف كتاب "البرق الشامي" وهو مجموع تاريخ بدأ فيه بذكر نفسه ونشأته وانتقاله من العراق إلى الشام، وما جرى له من خدمة السلطان نور الدين محمود، وكيفية تعلقه بخدمة السلطان صلاح الدين، وله أيضاً كتاب: "نصرة المدّة، وعصرة القطرة" في أخبار الدولة السلجوقية، وكتاب "الفتح القدسي" ويتضمن كيفية فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين، وله ديوان ورسائل، وديوان شعر في أربعة مجلدات^(١).

(١) ياقوت: معجم الأدياء (١١/١٩)، أبو شامة: الروضتين (١٤٤/١)، ابن الساعي: الجامع المختصر (٦١/٩)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (١٤٧/٥)، ابن الفوطي: جمع الآداب (١٦٦/١-١٦٧)، حاجي خليفة: كشف الظنون (٧٠٢/١)، الزركلي: الأعلام (٢٦-٢٦/٧)، وفيه توضيح كتبه المطبوع منها والمخطوط والبعض يُسمى كتاب الفتح القدسي بـ "الفتح القسي في الفتح القدسي"، شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون (٣٧٤/١)، وتوجد ترجمة وإفيسة للعماد الأصفهاني في مقدمة تحقيق كتابه "خريدة القصر وجريدة العصر" (٩/١-٥٢)، وهو بتحقيق محمد بجة الأثري، والدكتور جميل سعد، القسم العراقي، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.

والكتاب بأقسامه المختلفة مطبوع في بغداد ودمشق والقاهرة وتونس، وقد أرخ فيه للعظماء والشعراء وأدباء عصره في كافة الأقطار الإسلامية في ذلك العصر، وكانت مكانة العماد الاجتماعية قد مكنته من الترجمة للعديد من العلماء، ولا تقتصر أهمية

ومن لمع اسمه في الكتابة والإنشاء في العصر السلجوقي - أيضاً: أبو سعد العلاء بن الحسين بن وهب بن الموصلايا (ت ٤٩٧ هـ)، ابتداءً في خدمة دار الخلافة في أيام القائم بأمر الله، وناب في الوزارة أيام المقتدي والمستظهر مرات كثيرة، كان حسن الفصاحة، بليغ الإنشاء، يدل على فصاحته وعلمه ما كان ينشئه من مكاتبات الديوان والعهود؛ حتى أصبح أحد مشاهير الكتاب والمنشئين في ذلك العصر^(١).

وكذلك ابن أخته هبة الله بن الحسن؛ أبو نصر بن الموصلايا (ت ٤٩٨ هـ)، كان لا يقاربه أحد في الإنشاء والعبارة، جيد الكتابة، وكان كاتباً للخليفة، وعندما توفي لم يُخلف وارثاً؛ لأنه أسلم، وأهله نصارى؛ فلم يرثوه^(٢).

ومن كتاب العصر السلجوقي ومنشئيه - أيضاً: أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم بن إبراهيم الأنباري (ت ٥٥٨ هـ)، كان كاتب إنشاء في دار

الخريدة على الناحية الأدبية؛ بل تعدتها إلى الناحية التاريخية. انظر: شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون (٢/٢٤٨).

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٩/١٤١)، ياقوت: معجم الأدباء (١٢/١٩٦)، الأصفهاني: الخريدة؛ القسم العراقي (١/١٢٣)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٢/٤٣٣)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٣/٤٨٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١٦٤)، وللإطلاع على بعض رسائله انظر: القلقشندي: صبح الأعشى (٦/٤١٥-٤١٦).

(٢) ياقوت: معجم الأدباء (١٢/١٩٧)، الأصفهاني: الخريدة - القسم العراقي - (١٠/١٣٢)، ابن الأثير: الكامل (١٠/٣٩٧).

الفصل الأول: ازدهار الحياة العلمية ومجتمع العلماء في العصر السلجوقي ٦٦٣

الخليفة، من بيت سؤدد وفضل، خدم في الكتابة لخمسة من الخلفاء؛ وهم: المستظهر والمسترشد والراشد والمقتفي والمستنجد، وكثير من السلاطين منذ سنة (٥٣٠هـ) وحتى وفاته، كان يقرض الشعر، وله مكانة عند أغلب شعراء عصره^(١).

ومنهم كذلك: أبو المعالي بهاء الدين محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون البغدادي (ت ٥٦٢هـ)، كان كاتباً أديباً مؤرخاً، اختص بالخليفة المستنجد بالله؛ فولاه ديوان الزمام، وعُرف بالفصاحة والمعرفة التامة بالكتابة والأدب؛ له كتاب "التذكرة الحمدونية" الذي قال عنه ابن خلكان: إنه من أحسن الجاميع؛ يشتمل على التاريخ والأدب والنوادر والأشعار، لم يجمع أحد من المتأخرين مثله؛ وهو من الكتب الممتعة، قيل: إنه اثنا عشر مجلداً^(٢).

ومن كتاب العصر البارزين في الإنشاء والكتابة: أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني؛ ابن الأثير

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٠٦/١٠) الأصفهاني: الخريدة - القسم العراقي - (١٤٠/١٠-١٤١)، ابن الأثير: الكامل (١١/١١)، الحسيني: أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ص (١٧٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٤٧/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٣٦٤/٥)، ابن العماد: شذرات الذهب (١٨٤/٤).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٢٢١/١٠)، الأصفهاني: الخريدة، القسم العراقي (١٨٤/١) ابن الأثير: الكامل (٣٣٠/١١)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (١٨٦/٢-١٨٧)، ابن العماد: شذرات الذهب (٢٠٦/٤).

الجزري (ت ٦٣٧هـ)، اتصل بالسلطان صلاح الدين، وكتب له، ثم اتصل بأولاده من بعده، ووزر للملك الأفضل نور الدين ابن صلاح الدين، ورُدَّتْ أمور الناس إليه، وصار الاعتماد -في جميع الأحوال- عليه، له من التصانيف كتاب "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"؛ وهو أشهرها، وكتاب "الوشي المرقوم في حل المنظوم"، وكتاب "المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء"، وديوان رسائل وغيرها، انتهت إليه كتابة الإنشاء والترسل^(١).

وغيرهم من الكتاب والمنشئين؛ الذين برزوا في ذلك العصر، وكان لهم قصب السبق في الكتابة والإنشاء؛ حتى اشتهروا وذاع صيتهم، والمجال -هنا- لا يتسع لذكرهم، أو الوقوف على أكثرهم^(٢).

(١) أبو شامة: ذيل الروضتين ص (١٦٩)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٣٨٩/٥)، ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص (١٣٦)، الذهبي: العبر (٢٣١/٣)، سير أعلام النبلاء (٧٢/٢٣)، ابن العماد: شذرات الذهب (١٨٧/٥)، محمد خفاجي: تاريخ آداب اللغة العربية ص (٥٣)، حنا الفاخوري: تاريخ الأدب العربي ص (٧٥١)، وقد أوضح أقسام الكتاب "المثل السائر" وقيّمته العلمية، ثم انظر: مقدمة كتاب "المثل السائر" لابن الأثير تحقيق الدكتور بدوي طبانة ص (٣-٣٢)، وأحمد الزيات: تاريخ الأدب العربي ص (٢١٨).

(٢) انظر للمزيد منهم في: ياقوت: معجم الأدباء (٢٣١/٢)، ١٦/١٩٢-٢٠٤، (١٦/٢٠)، الياقعي: مرآة الجنان (٤٧٧/٣)، الذهبي: العبر (١٦٩/٣)، ابن العماد: شذرات الذهب (٢٠/٥).

أما عن الأدب والشعر، فمن أبرز الأدباء والشعراء؛ الذين ذاع صيتهم في العصر السلجوقي: أبو جعفر مسعود بن المحسن بن الحسن بن البياضي، الأديب الشاعر (ت ٤٦٨هـ) له شعر مطبوع، وله ديوان شعر صغير في غاية الرقة، ويُعدُّ من الشعراء المجيدين^(١).

وأبو منصور ناصر بن محمد بن علي التركي المضافري (ت ٤٦٨هـ)، قرأ القرآن، وسمع الحديث، وكتب الكثير من اللغة، وقال الشعر، وكان أبو بكر الخطيب البغدادي يروي له، ويقدمه على الأشياخ، وتولى قراءة التاريخ عليه بمحضرة الشيوخ، وكان ظريفاً فصيحاً، له أشعار طويلة^(٢).

وأبو منصور اسبهندوست بن محمد بن الحسن الديلمي (ت ٤٦٩هـ)، شاعر مجود، كان يتشيع، ثم تاب من ذلك، وذكر توبته في قصيدة منها:

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٣٠٠/٨)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٣٠/٣)، ومن شعره قوله:

يا من لبست لهجره ثوب الضنا حتى خفيت به عن العواد
وأنست بالسحر الطويل فأنسيت أحفان عيني كيف كان رقادي
إن كان يوسف بالجمال مقطع الـ أيدي فأنت مقطع الأكباد

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٣٠١/٨).

وإذا سئلت عن اعتقادي قلت ما
كانت عليه مذاهب الأبرار
وأقول خير الناس بعد محمد
صديقه وأنيسه في الغار
ثم الثلاثة بعد خير الورى
أكرم بهم من سادة أطهار
هذا اعتقادي والذي أرجو به
فوزي وعتقي من عذاب النار^(١)
ومنهم أيضاً: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أحمد المبيدي (ت ٤٩١ هـ)،
قدم بغداد، وسمع الكثير، له معرفة بالغة والأدب^(٢).
وأبو الحسن محمد بن علي بن الحسن بن أبي الصقر الواسطي (ت
٤٩٨ هـ)، كان فقيهاً أديباً شاعراً، غلب عليه الأدب والشعر؛ فبرع
فيهما، وكذلك جودة الخط، ومن جميل شعره:
من عارض الله في مشيئته فما لديه من بطشه خير
لا يقدر الخلق باجتهدهم إلا على ما جرى به القدر^(٣)

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٣٠٨/٨)، ابن الأثير: الكامل (١٠٦/١٠)، ابن كثير: البداية
والنهاية (١١٦/١٢).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (١٠٧/٩).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (١٤٥/٩)، ابن الأثير: الكامل (٣٩١/١)، ياقوت: معجم
الأدباء (٢٥٧/١٨)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٦٥/١٢).

ولا شك أنّ هذا النوع من الشعر يتناول موضوع القدر، ويركز على العقيدة الدينية؛ ممّا يدل على الالتزام بالأمور الدينية في تلك المرحلة؛ وهو من الشعر الحسن المفيد.

وكذلك: أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السّراج (ت ٥٠٠هـ)، كان أديباً شاعراً نظم كتباً كثيرة شعراً^(١).

ومن شعره يمدح أصحاب الحديث:

قل للذين بجهلهم	أضحوا يعييون الحبار
لولا الحبار والمقا	لم والصحائف والدفاتر
والحافظون شريعة	المبعوث من خير العشائر
والناقلون حديثه	عن كبار ثبت فكابر
لرأيت من شيع الضلال	عساكرًا تتلوه عساكر
كل يقول بجهله	والله للمظلوم ناصر
سميتهم أهل الحديث	أولي النهى وأولي البصائر
رفقاء أحمد كلهم	عن حوضه ريان صادر

ومن أدباء العصر المشهورين أيضاً: أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل؛ المشهور بالرّأغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ) وكان واسع الاطلاع، حسن التصنيف، من أشهر كتبه؛ التي تُهْمُنَا -هنا- كتاب

(١) تقدمت ترجمته، والحديث عنه، ومن كتبه التي نظّمها شعراً: كتاب المبتدأ، وكتاب مناسك الحج، وكتاب التنبيه، وغيرها.

"محاضرات الأدباء" الذي يتضمن الكثير من الآيات والأحاديث والأقوال والأشعار والقصص والفكاهات والغزل والشجاعة وغيرها، كما يعتبر الراغب الأصفهاني من الأدباء البلاغيين في ذلك العصر؛ حيث إنه صنف في اللغة أيضاً كتاب "تحقيق البيان في اللغة والحكم، وكتاب "أفانين البلاغة"^(١).

كذلك كان من اللغويين الشعراء في ذلك العصر: أبو زكريا يحيى ابن محمد الحسن التبريزي (ت ٥٠٢هـ) أحد أئمة اللغة، كان له شعر حسن، درس في نظامية بغداد، واحتل منزلة رفيعة بين أقرانه^(٢).
ومن أشهر الأدباء والشعراء في العصر السلجوقي أيضاً: أبو المظفر محمد بن أحمد بن محمد الأبيوردي (ت ٥٠٧هـ) كان من شعراء بلاط الخلافة، متبحراً في الأدب والإنشاء والبلاغة، ومن ظرفاء الشعراء، له قصائد في مدح الخليفة المقتدي، والخليفة المستظهر، وكان يشارك بشعره في الظروف المحيطة بالمجتمع الإسلامي آنذاك كالحروب الصليبية مثلاً؛ لأنه

(١) سبقت ترجمته، وللمزيد عن شخصيته ومؤلفاته انظر: القرشي: الجواهر المضوية (٢١٩/١)، ومقدمة كتاب الذريعة للراغب، وهو من تحقيق الدكتور أبو اليزيد العجمي ص (١٩-٣٦)، وذكر السيوطي نقلاً عن الإمام فخر الدين الرازي في تأسيس التقديس "أن أبا القاسم الراغب من أئمة السنة، وقرنه بالغزالي، وقال: "وهي فائدة حسنة فإن كثيراً من الناس يظنون أنه معتزلي" انظر: بغية الرعاة (٢٩٧/٢).

(٢) تقدم الحديث عنه وعن مصادر ترجمته ضمن علماء اللغة والنحو.

شعر أساسه الدين، ولأن الحرب كلها كانت حرباً عقائدية خالصة، وللأبيوردي مصنفات؛ منها: "تاريخ أبيورد ونسا المختلف والمؤتلف"، و"طبقات العلم في كل فن"، وغيرها^(١).

ومنهم أيضاً: أبو الخطاب محفوظ بن أحمد الكلوزاني (ت ٥١٠هـ)، سمع الحديث والفقهاء، وقرأ الفرائض، وحدث وأفنى ودرس، وكان ثقة ثبتاً غزير العقل والفضل، وله شعر حسن يدل على مقدرته اللغوية^(٢).

ومن رواد الشعر والأدب - في ذلك العصر - وكتابه المعدودين: أبو إسماعيل الحسين بن علي بن محمد الطغرائي؛ المعروف بمؤيد الدين (ت ٥١٥هـ)، كان آية في الكتابة والشعر، بدأ حياته كاتباً، ثم انتقل إلى خدمة السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، وكان منشيء

(١) الفارقي: تاريخ الفارقي ص (٢٨٦)، ياقوت: معجم الأدباء (٢٣٧/١٧)، وديوان شعره مطبوع بتحقيق عمر الأسعد، وسبق أن ذكرت قصيدته التي قالها بعد أن هاجم الفرنج المسلمين سنة (٤٩٢هـ)، وذلك في الفصل الثاني من الباب الأول من الرسالة والمتضمن: " جهود الخلفاء العباسيين والسلاطين والسلاجقة ضد الزحف البيزنطي والصليبي".

(٢) تقدمت ترجمته وذكر مصادرها ضمن الحديث عن علماء الفقه، وقد أورد له ابن الجوزي قصيدة طويلة من شعره (المنتظم ١٩١/٩).

السلطان محمد بن ملكشاه مدة حكمه، ومتولي ديوان الطغراء^(١)، وصاحب ديوان الإنشاء، تشرفت به الدولة السلجوقية، وتنقل في المناصب والمراتب، وتولى الاستيفاء، ورشح للوزارة، له في العربية والإنشاء قدم راسخ، وله البلاغة والمعجزة في النظم والنثر، ليس له من يماثله آنذاك، له ديوان شعر كبير أكثره في المدح، وخير ما فيه قصيدته اللامية؛ المعروفة بلامية العجم، تمييزاً لها من لامية العرب للشنفرى، وفيها يشكو الشاعر مما حلّ به من ظلم وحسد، وتمتاز بالسلاسة والسهولة والبعد عن التكلف، وتدلل على الثقافة العالية؛ التي كان يتمتع بها^(٢).

ومن أدباء العصر من منشئهم وكتاهم: أبو محمد القاسم بن علي ابن محمد الحريري (ت ٥١٦هـ)، صاحب المقامات المشهورة، والبدايع المأثورة، كان أديباً فاضلاً بارعاً فصيحاً بليغاً، عمل بصناعة الإنشاء مع الكتابة في باب الخليفة، كان أحد أئمة الأدب في ذلك العصر، صنف كتباً حسناً عذبة العبارة؛ منها كتاب "المقامات" وكتاب "درة الغواص

(١) الطغراء: وهي الطرة التي تكتب في أعلى المنشور فوق البسملة بالقلم الجلي؛ تتضمن اسم الملك وألقابه، وهي كلمة أعجمية محرفة من الطرة. ياقوت: معجم الأدباء (٥٦/١٠)، محمد شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد ص (٢١٣).

(٢) ياقوت: معجم الأدباء (٥٦/١٠-٧٩)، ابن خلكان: ياقوت الأعيان (١٨٢/٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٩٠/١٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (٤١/٤)، حنا الفاخوري: تاريخ الأدب العربي ص (٧١٢)، أحمد الزيات: تاريخ الأدب العربي ص (٢٨٧).

في أوهام الخواص"، وكتاب "ملحة الإعراب في النحو"، وله ديوان رسائل؛ وهو كاتب مكثر، وشاعر مقل^(١).

يتضح لنا مما تقدّم أنقول إنّ حركة التعليم في العصر السلجوقي كانت حركة طيبة مزدهرة؛ لا سيما فيما يخص الدراسات الشرعيّة من فقه وحديث وتفسير وقراءات، كذلك الدراسات اللغوية من لغة وشعر وأدب وإنشاء وكتابة ونحوها.

وقد بذل الخلفاء العباسيون والسلاطين السلاجقة والأمراء والوزراء والكبراء جهوداً كبيرة في تشجيع العلم، وتقريب العلماء، وتوثيق الصلة بهم، وتمثلت تلك الجهود أيضاً في إنشاء المدارس والمعاهد ودور العلم (المكتبات)، والإنفاق عليها بسخاء؛ الأمر الذي أدى إلى ارتفاع المستوى الثقافي، وازدهار الحركة العلمية، وانتشار العلماء في الآفاق، وازدياد حركة التأليف والتصنيف، وتبوء العلماء مكانة مرموقة في المجتمع، ولم يتأت ذلك إلا بتلك الجهود المخلصة، والاهتمام المتزايد؛ الذي عمل على إنشاء تلك الأمكنة، والتي تضافرت لخدمة الدين وعلومه، ونشر الثقافة بين الناس، والمحافظة على كيان أهل السنة في ذلك العصر. وقد كان التركيز من -خلال هذا الفصل- على مجتمع العلماء؛ الذين كان لهم دور

(١) ابن الأثيري: نزهة الألباء (٢٧٨)، ياقوت: معجم الأدباء (٢٦١/١٦)، الكتبي:

عيون التواريخ (١٣٣/١٢).

مؤثر في الحفاظ على السنة في ذلك العصر؛ لا سيما فيما يخصّ العلوم الشرعية؛ لارتباطها مباشرة بموضوع البحث.

الفصل الثاني

"دور العلماء في انتعاش المذهب السني

وانتشاره في الأمصار ومحاربة التيارات

الفكرية المنحرفة"

الفصل الثاني

"دور العلماء في انتعاش المذهب السني وانتشاره في الأمصار ومحاربة التيارات الفكرية المنحرفة"

من المعلوم أنه عند دخول السلاجقة بغداد، وانتهاء عهد البويهيين سنة (٤٤٧هـ)، وأيام سيطرتهم على الخلافة، تغيرت الأحوال، وتبدلت الأمور في بغداد خاصة، والعراق عامة^(١) فقد حكم السلاجقة العراق في المدة الممتدة من سنة (٤٤٧هـ - ٥٩٠هـ)، شهدت البلاد -خلال هذه المرحلة- الكثير من الأحداث السياسية، والظروف الاجتماعية، والصراعات المذهبية، والتطورات الدينية؛ فالدولة السلجوقية كانت سنية، حنفية المذهب بشكل عام، وكان خلفاء بني العباس سنيين؛ فهم إذا يختلفون -أي السلاجقة- عن البويهيين من الناحية المذهبية؛ حيث إنهم أقرب إلى العطف والتقدير للخليفة العباسي؛ الذي كان يعتنق المذهب السني.

(١) كانت الأحوال في العراق -قبيل دخول السلاجقة- على أسوأ حال؛ حيث هيمنة البويهيين الشيعة ودعمهم لهم، وسوء الأحوال الاجتماعية؛ التي تتمثل في نشاط العيارين، وانعدام الأمن، وانتشار الفوضى والاضطراب في العراق، وكذلك الأطماع الفاطمية في القضاء على الخلافة العباسية، إلى جانب الاعتداءات البيزنطية، وهيار الوضع الاقتصادي والسياسي.

ومن هنا نلاحظ الآثار الأولى من نفوذهم، والمتمثلة في انتعاش المذهب السني بشكل عام في العراق، ومن ثم انتشاره في الأمصار الأخرى. وبفضل الله تعالى ثم بفضل الدعم والتأييد والتشجيع؛ الذي قدمه حكام السلاجقة ورجال الخلافة العباسية ضعفت المذاهب المخالفة لمذهب أهل السنة والجماعة، لا سيما التيار الشيعي؛ الذي كانت تسانده الدولة الفاطمية العبيدية، وتدعمه الدولة البويهية؛ إبان مُدّة حكمها (٣٣٤-٤٤٧هـ)، وكذلك التيار الباطني؛ الذي وقف له السلاطين السلاجقة ووزراؤهم وأمرأؤهم له بالمرصاد؛ مما كان له أثره الكبير في الحفاظ على قوة المسلمين وكيان أهل السنة، وانتصار المذهب السني على من خالفهم من المذاهب الضالة والتيارات الباطلة، ولا شك أن سلاطين السلاجقة هم الذين حملوا راية الجهاد في سبيل الله، وتصعدوا لأعداء الإسلام؛ سواء كانوا من البيزنطيين أو الصليبيين أو الباطنيين، وغيرهم، ولم يتوانوا في ذلك أو يتكاسلوا أو يتواكلوا؛ حتى خلال انشغالهم بالصراعات والنزاعات التي كانت تحدث بينهم؛ مما يدل على صدق جهادهم، وحسن معتقدتهم، وحرصهم على نصرته الحق وإقامة العدل، ومحاربة الظلم، ودعمهم لأهل السنة، ومناهضتهم لأعداء المسلمين، وتصديهم لهم، ومقاومتهم عسكرياً وعلمياً.

وليس أدل على ذلك من تلك الرسالة؛ التي وجهها زعماء السلاجقة سنة (٤٣٢هـ) بعد حروبهم مع الدولة الغزنوية، ويعتذرون فيها للخليفة القائم بأمر الله عن حروبهم مع الغزنويين، ويؤكدون -من

خلالها- حرصهم على إقامة الجهاد، وغزو الكفار، وطاعة أمير المؤمنين؛ الذي أرسل إليهم رسالة تتضمن الكف عن أعمال النهب والاعتداءات؛ التي يقوم بها بعض الجماعات التابعة للسلاجقة، وبخوفهم ويذكرهم بالله؛ ويحملهم على رعاية عبادته، وعمارة بلاده، ثم إن السلاجقة استبشروا خيراً برسالة الخليفة، وتباهوا بها، وازدادوا بها قوة ورفعة؛ لا سيما وأن دولتهم حتى الآن لم تعط الصبغة الشرعية؛ فما كان منهم إلا أن اجتمعوا، وبعثوا رسالة إلى الخليفة القائم بأمر الله، جاء فيها: "إننا معشر آل سلجوق قوم أطعنا دائماً الحضرة النبوية المقدسة، وأحببناها من صميم قلوبنا، ولقد اجتهدنا دائماً في غزو الكفار، وإعلان الجهاد، وداومنا على زيارة الكعبة المقدسة...، وشكراً لله على ما أفاء علينا من فتح ونصر؛ فنشرنا عدلنا وأنصافنا على العباد، وابتعدنا عن طريق الظلم والجور والفساد، ونحن نرجو أن نكون -في هذا الأمر- قد نهجنا وفقاً لتعاليم الدين، ولأمر أمير المؤمنين" (١).

ولا شك أن هذه الرسالة تعطينا دلالة واضحة على ولاء السلاجقة للخلافة، ورغبتهم في الجهاد في سبيل الله، وطلبهم من الخليفة الاعتراف بشرعية دولتهم؛ وهو ما تتضمنه الرسالة؛ وإن لم يرد نصّ فيها، ثم -في الوقت نفسه- استبشر الخليفة القائم بهذه القوة الجديدة، وخاصة أنهم على

(١) في نص هذه الرسالة انظر: الراوندي: راحة الصدور (١٦٦-١٦٧)، البنداري:

تاريخ دولة آل سلجوق ص (٧-٨)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (٥٦).

مذهب السنة؛ الأمر الذي شجعه للاستناد بهم ضد القوى الشيعة المتمثلة في أطماع الدولة الفاطمية العبيدية، وفتنة البساسيري المدعومة من قبلهم، والتسلط البويهي الشيعي؛ الذي كان لا يزال يسيطر على العراق، ومن هنا تقدم طغرل بك بقواته إلى العراق، ودخلها سنة (٤٤٧هـ)، حيث أصبح سيد الموقف في العراق؛ لا سيما بعد أن قضى على التسلط البويهي، وفتنة أبي الحارث البساسيري، وما نتج عنها من آثار سيئة على الدولة الفاطمية العبيدية؛ التي كانت تدعمه وتؤيده.

ومن هذا المنطلق أستطيع أن أقول إن ظهور قوة السلاجقة، ونشرهم للإسلام، والدود عنه، وارتفاع شأن أهل السنة والجماعة في عهدهم، وتثبيتهم للإسلام في بلادهم قبل وصولهم إلى العراق، وجهودهم في استعادة الخليفة العباسي مكانته الطبيعية، كل ذلك يُعدُّ نصراً للإسلام وعزة للمسلمين؛ حيث إنهم أحيوا راية الجهاد ضد الأعداء منذ دخولهم في الإسلام على المذهب السني، وما أعقب ذلك من جهود ضد البيزنطيين والصليبيين، ووقوفهم ضد التيارات الهدامة، والأفكار الضالة^(١)، وكان الاعتقاد السني للسلاجقة محل تقدير المسلمين؛ مما جعل لهم مكانة مرموقة

(١) تقدم الحديث بالتفصيل عن جهود الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة ضد الزحف البيزنطي والصليبي؛ وذلك في الفصل الثاني من الباب الأول، وكذلك جهود الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة في محاربة الفرق الضالة والتيارات الباطلة؛ وذلك في الفصل الثالث من الباب الأول من الرسالة، فليُنظر كل في موضعه.

في نفوسهم؛ وهذا ما دفع الخلفاء العباسيين إلى تقوية الصلة بهم بالتعاون معهم؛ خاصة بعد أن أكدوا - بقيادة قائدهم الأول، والمؤسس الحقيقي لدولة السلاجقة السلطان طغرل بك - على استعدادهم لمحاربة المخالفين والمناوئين للمذهب السني؛ مما كان لهذه المبادرة الأثر الكبير في التقارب القوي بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية لتحقيق ما ينشده المسلمون من القوة واجتماع الكلمة، ووحدة الصف؛ لذا كان التقارب بين الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧ هـ-)، والسلطان السلجوقي طغرل بك (٤٤٧-٤٥٥ هـ) كبيراً؛ بحكم انتماء السلاجقة إلى أهل السنة، وإيمانهم بشرعية الخلافة العباسية، ووجوب الطاعة لخلفاء بني العباس.

وقد كان هناك اهتمام كبير ومتزايد لحكام العصر والعلماء بالعلم وأهله؛ وهذا الاهتمام لم يكن بسبب مدى أهمية العلم في الحياة؛ فهذا أمر لا ينكر، ولكن بقدر ما يحقق من هدف أساسي؛ يتمثل في خدمة العقيدة وأهل السنة والجماعة؛ وهذا ما أدى إلى تقوية أنصار المذهب السني، وإضعاف المذهب الشيعي، وقد تضافرت الجهود -آنذاك من قبل الخلفاء والسلاطين والوزراء والعلماء- للدفاع عن الإسلام، والعقيدة، والسلفية، والوقوف في وجه الحركات المعادية للإسلام، والمغرضة للمسلمين؛ كالحركات الباطنية؛ التي أصبحت من أشد المشاكل والمعضلات خطراً على كيان الدولة السلجوقية، والخلافة العباسية، وقد انتشرت سمومها ومبادئها وأفكارها بين أفراد المجتمع الإسلامي في العراق وفارس والشام،

وكادت أن تعصف بحياة المسلمين، وتشتت شملهم، وتؤثر في معتقداتهم وأفكارهم، ولكن الله - سبحانه وتعالى - بفضله ورحمته قيض لها من وقف في طريقها، وضيق الخناق عليها؛ حيث حرص الخلفاء والسلاطين، ونظام الملك، على تعقب دعوتهم ومحاربتهم، والتصدي لهم بالقوة العسكرية، والعلماء بقوة العلم والعقل والقلم؛ الأمر الذي أدى بدوره إلى الدفاع عن الشريعة والعقيدة، ومن ثم انتشار المذهب السني، وانتعاشه عن طريق استخدام سلاح العلم؛ وهو السلاح الذي استخدمه الأعداء -أيضاً- لبث سمومهم، ونشر أفكارهم، والتأثير على الناس، والتشويش عليهم.

وقبل أن أشرع في توضيح جهود العلماء العاملين في العصر السلجوقي، ودورهم البارز في انتعاش المذهب السني، وانتشاره في الأمصار آنذاك، لا بد من توضيح بعض الأعمال والجهود؛ التي قام بها الشيعة؛ للترويج لمذهبهم، والدعاية له، ومحاولة التأثير على الناس من خلاله؛ وهذا ما دفع الحكام والوزراء والعلماء للتصدي لهم، وبيان خطرهم، وتفنيدهم، وكشف مخططاتهم؛ فقد حاول الشيعة -على اختلاف طرائقهم وفرقهم- أن ينشطوا في العصر السلجوقي، والذي قبله، في الدعوة لمذهبهم بوسائل فكرية متعددة؛ وهذا النشاط لم يكن ينجح في مقاومته إلا نشاط سني مماثل يقرع الحججة بالحجة، ويتصدى له بالعلم والبرهان؛ وخاصة إذا علمنا أن السلاجقة ورثوا -في فارس والعراق- نفوذ بني بويه الشيعيين؛ الذين لم يألوا جهداً -حكاماً ووزراء ورجال دولة- في تشجيع الشيعة على نشر فكرهم، وترويج مذهبهم؛ للتوافق

المذهبي بين الجميع، كما أنّ البويهيين غضوا الطرف كثيراً عن نشاط دعاة الشيعة في فارس والعراق؛ مما أدى إلى تزايد نفوذ الشيعة في تلك الأقاليم، وكثرتهم، وقوة شوكتهم، وعظم شأنهم في ظل النفوذ البويهي المؤيد لهم. وقد لجأ الشيعة - في العصر البويهي - إلى إنشاء مؤسسات تعليمية تتولى الترويج لعقائدهم، والعمل على نشرها، وبنها بين الناس، وقد أنشأ أحد رجال عضد الدولة البويهي (ت ٣٧٢هـ)، ويُدعى أبا علي بن سوار الكاتب، دار كتب في مدينة البصرة، وأخرى في مدينة رامهرمز^(١)، وجعل فيهما أجراً على من قصدهما، ولزم القراءة والنسخ، وكان في الأولى منهما شيخ يُدرّس عليه علم الكلام على مذهب المعتزلة^(٢).

كما أسس أبو نصر سابور بن إردشير - وزير بني بويه - (ت ٤١٦هـ)، داراً للعلم في الكرخ سنة (٣٨٣هـ)، ونقل إليها كتباً كثيرة اشتراها وجمعها، وذكر ابن الأثير أنّها بلغت عشرة آلاف وأربعمائة مجلد في أصناف العلوم والمعارف، ومعظمها بخط أصحابها، أو من الكتب التي كان يملكها رجال مشهورون، وكان بها مائة نسخة من القرآن كتبت بأيدي أحسن النساخ، وأسند الوزير المذكور النظر في أمرها ومراعاتها،

(١) رامهرمز: مدينة مشهورة بنواحي خوزستان، ومعنى "رام" بالفارسية: المراد والمقصود، و"هرمز" أحد الأكاصرة، فكان معناها "مقصود هرمز أو مراد هرمز" ياقوت: معجم البلدان (١٧/٣).

(٢) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (١/٣٢٩).

والإشراف عليها، إلى رجلين من العلويين، يعاونهما أحد القضاة، ثم -بعد وفاة الوزير سابور بن إردشير- آلت مراعاة هذه الدار إلى الشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ) نقيب الطالبين^(١) - وقد سبق أن ورد في البحث ما نقله ابن الجوزي وابن الأثير وغيرهما عن احتراق هذه الدار سنة (٤٥٠هـ)، ونهب بعض كتبها، وتدخل الوزير عميد الملك الكندي؛ الذي اختار منها ما يريد، وكان العامة قد نهبوا بعض الكتب لما وقع الحريق^(٢).

(١) نقابة الطالبين: هي هيئة رسمية أنشأها الخلفاء العباسيون للنظر في شؤون العلويين، وكان يتولى رئاستها واحداً من كبار شيوخهم وأجلهم قدراً، يسهر على صحة الأنساب وإثباتها، ورعاية مصالحهم، وعود مرضاهم، والسير في جنازتهم، وقد عُرفت -فيما بعد- باسم نقابة الأشراف. القلقشندي: صبح الأعشى (١/٤٥٣-٤٥٥)، المقرئ: اتعاظ الحنفا (٢/٨٦)، حاشية رقم (٢).

(٢) انظر في هذه الدار وكتبها: ابن الجوزي: المنتظم (٨/٢٠٥)، ابن الأثير: الكامل (٩/١٠١، ١٠-٧/٨)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق (١٧)، آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (١/٣٢٩-٣٣٠)، وعن العلويين والطالبين انظر: عبد الله المسند: العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت (١٢-١٣)، والشريف المرتضى هو أبو طالب علي بن الحسين بن موسى الحسيني الموسوي، شيخ الشيعة ورئيسهم في العراق، كان إماماً في التشيع والكلام والشعر والبلاغة، توفي سنة (٤٣٦هـ) انظر: الذهبي: العبر (٢/٢٧٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/٥٣)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٥/٣٩).

واتخذ الشريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ) الشاعر المشهور داراً سماها: دار العلم، وفتحها لطلاب العلم، وهياً لهم جميع ما يحتاجون إليه^(١). أي أن الشيعة استطاعوا - في عهد آل بويه - أن يروجوا لمذهبهم، وينشروا أفكارهم؛ عن طريق دور العلم، وخزائن الكتب التي نشرها وأشرف عليها وزراؤهم وكبرائهم؛ ممن كان لهم اهتمام كبير بهذا الجانب؛ وهذا ما أدى إلى نشر عقائدهم، وتنظيم برامجهم، إضافة إلى ما كانوا يتلقونه من الدعم والتأييد من جانب البويهيين الشيعة الذين كانوا يذهبون إلى مشاهدتهم، ويحضرون احتفالاتهم، ويجمعون بهم.

وإلى جانب دور العلم؛ التي ذكرناها آنفاً، كان هناك الكثير من أئمة الشيعة وعلمائهم يقومون بالدعوة إلى مذهبهم، والترويج لأفكارهم، في بيوتهم الخاصة، أو في مشاهدتهم ومساجدهم؛ عن طريق التدريس، والحلقات، والمحالس؛ التي يقوم بها أولئك الأئمة، ومن أمثلة ذلك: ما كان يفعله الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان (ت ٤١٣ هـ) شيخ الإمامية؛ حيث كان يعقد مجلس نظر بداره يحضره العلماء، وكانت له منزلة عند أمراء الأطراف؛ يميلهم إلى مذهبه، ويحسنه لهم، مستغلاً تلك

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية (١/٣٣٠)، والشريف الرضي هو أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى الحسيني الموسوي البغدادي الشيعي الشاعر الكبير، بدأ ينظم الشعر صغيراً، وكان مفرط الذكاء، وهو نقيب العلويين، توفي سنة (٤٠٦ هـ).
انظر: ابن الأثير: الكامل (٩/٢٦١)، الذهبي: العبر (٢/٢١٣)، ابن الكثير: البداية والنهاية (٣/١٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣/١٨٢).

العلاقة التي تربطه بهم؛ لأن كثيراً من أهل ذلك الزمان -أي: العصر البويهى- مالوا إلى التشيع؛ على حد تعبير ابن كثير، وكان من جملة تلاميذ ابن النعمان: الشريف الرضي والمرتضى^(١).

أما أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي - فقيه الإمامية - (ت ٤٦٠هـ)، فقد تمكن من مواصلة نشاطه العلمي والتعليمي، عن طريق التصنيف والتدريس، بعد أن فرّ إلى النجف سنة (٤٤٨هـ)، عندما هوجمت داره، ونهبت محتوياتها، عقب دخول السلاجقة بغداد، وتعرض الشيعة لحملة الضغط من قبل أهل السنة، وقد أُلّف الطوسي في مقره الجديد مجموعة من الكتب؛ التي احتلت مكاناً مهماً في الدراسات الشيعية؛ كالتهذيب والاستبصار، وغيرها، كما أنه كان يملئ على طلبته كثيراً من الدروس جمعها في كتاب سماه "الأمالي"^(٢)، أي أنه بذل جهوداً كبيرة في محاولة منه لنشر الافكار والمبادئ الشيعية؛ حتى بعد مناهضة أهل السنة للشيعة، بعد دخول السلاجقة سنة (٤٤٧هـ)، مما يدل على أن

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١١/٨)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٥/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٢٥٨/٤)، أما عن حضور العلماء لمجلسه فقد كانوا من سائر الطوائف؛ لأنه كان يناظر أهل كل عقيدة - كما يذكر الذهبي - . انظر: الذهبي: العبر (٢٢٥/٢)، وذكر أيضاً أن له أكثر من مائتي مصنف، وشيعة ثمانون ألف من الشيعة في جنازته (نفسه ٢٢٥/٢).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (١٧٣/٨)، ابن كثير: البداية والنهاية (٦٩/١٢)، عبد الحميد يدوي: التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني (٢١٤-٢١٥).

أئمة الشيعة وعلماءهم وفقهاءهم كانوا -دومًا- جادين في جهودهم، ولا يألون جهدًا في مواصلة تلك الجهود في محاولة منهم لبقاء الفكر الشيعي قويًا؛ كي يضمنوا له الاستمرار والبقاء.

والمتتبع للتطورات المذهبية والصراعات الفكرية -في العصر البويهي- يلحظ ذلك، ويدركه تمام الإدراك؛ حيث نشطوا -في ذلك العصر- وعظم نفوذهم، وكان لأئمتهم وعلمائهم الدور البارز والمؤثر في نشر المذهب والترويج والدعاية له، متى سنحت لهم الفرص، وتهيات لهم الظروف؛ كما هو الحال في العصر البويهي؛ حيث الدعم والتأييد من قبل آل بويه، والشيعة -بصفة عامة- يبذلون الجهود الجبارة لنشر فكرهم، والدعاية لمذهبهم على مر العصور والأزمان قديمًا وحديثًا.

تلك هي بعض النماذج للجهود؛ التي قام بها الشيعة في العصر البويهي، وأوائل العصر السلجوقي، والهدف من ذكر هذه الجهود المنظمة هو محاولة الربط بين تلك البرامج والجهود المبذولة من جهة الشيعة، والدور العظيم والجهود المتواصلة للعلماء في العصر السلجوقي، وما عملوه من أعمال ومصنفات؛ لمقاومة النفوذ الشيعي، والتي أدت إلى انتعاش المذهب السني، وانتشاره في الأمصار؛ في تلك المرحلة.

لذلك تضافرت الجهود، وتعاون الجميع لتحقيق هذا الهدف المنشود؛ سواء من قبل الخلفاء أو السلاطين أو الوزراء ورجال الدولة، أو من العلماء الذين كان لهم الدور البارز في تأصيل المذهب السني وانتشاره، ومقاومة الأفكار الهدامة وتفنيدها، بنفس الأسلوب الذي تنتشر -من

خلاله- تلك الأفكار والمبادئ؛ أي بالمقاومة العلمية والفكرية؛ التي تؤثر وتؤدي إلى النتائج المرجوة أكثر من المقاومة العسكرية؛ حيث إنّ تأثيرها يدوم ويمتد إلى الأجيال اللاحقة؛ ويستفيد منها أهل ذلك العصر والعصور التي تليه؛ لأنّ الأثر العلمي والفكري باقٍ ما بقي هذا الوجود؛ وهذا لا يعني التقليل من شأن المقاومة العسكرية؛ فقد تكون أحياناً هي الحل الأمثل؛ الذي ليس منه بدٌّ؛ لردع أمثال هؤلاء؛ الذين يفسدون على الناس عقولهم؛ التي فطرت على اتباع الحق والهدى وسبيل الرشاد؛ لا سيما إذا تجاوز أولئك الحدود، وشرعوا في سفك الدماء، ونشروا الخوف والفرع بين الناس؛ كما فعل الباطنية، عندئذ لا بد من المقاومة العسكرية، ثم تعقبه المقاومة الفكرية المقرونة بها؛ التي تفضح أهدافهم، وتحد من نشر كياناتهم، وتُحدّر من الأفكار الداخلية عليهم، حتى لا يغتروا بها، أو بغيرها من الأفكار المماثلة؛ لأن الصراع بين الحق والباطل لا يزال قائماً حتى قيام الساعة.

ومن الضروري قبل الدخول في تفاصيل جهود العلماء ومواقفهم، ودورهم في نشر المذهب السني، وتأصيله في نفوس الناس، أن أوضح أن هؤلاء العلماء كانت تربطهم علاقة وثيقة بالخلفاء والسلاطين، وما كان لهم أن يفعلوه من جهود ومصنفات ودروس وحلقات للوعظ وإرشاد الناس، وتوجيههم التوجيه السليم، إلا من خلال الدعم والتأييد والتشجيع؛ الذي لقيه العلماء من خلفاء العصر وسلاطينه - لا سيما الوزير نظام الملك- وهذا لا يعني أن العلماء لم يدركوا الواجب المنوط

الفصل الثاني: دور العلماء في انتشار المذهب السني ومحاربة التيارات المنحرفة ٦٨٧

بهم، والرسالة التي يجب أن يؤدوها؛ وهم أعلم الناس بأن العالم وطالب العلم سيُسأل عن علمه: ماذا عمل به؟ ولكن إذا تضافرت الجهود، وأخلص الجميع -حكماً وعلماء- وأصبح هدفهم واحداً، وعملهم مشتركاً، لا بد من أن تُسفر -بمشيئة الله- عن ثمار يانعة، ونتائج إيجابية، ستؤدي بحول الله إلى الهدف الذي يسعون جميعاً لتحقيقه؛ وهو خدمة الإسلام والمسلمين، وتأدية الرسالة على الوجه المطلوب المرضي لله تعالى، ويتحقق من ثم المحافظة على كيان أهل السنة، وانتشار المذهب السني، وغلبته، وفي المقابل ضعف المذاهب والتيارات الأخرى، وكبت كل فكر مخالف ومقاومته.

وكان الخلفاء -في العصر السلجوقي- يحرصون كل الحرص على تأكيد العلاقة وتقوية الصلة بينهم وبين العلماء، والتمسك بالنفوذ الديني، والتأكيد عليه في كل وقت؛ وهذا واجب الإمام العادل الذي يراقب الله تعالى، ويخشاه في رعيته؛ التي استرعاه عليها؛ فقد تصدى الخليفة القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ)، للشيعة؛ حيث أمرهم في سنة (٤٤٨هـ)، بأن يؤذنوا "بالصلاة خير من النوم" وأن يتركوا "حي على خير العمل"، ففعلوا ما أمرهم به الخليفة^(١)، وكذلك خلع جميع ما كان على الدور والدروب من "محمد وعلي خير البشر"، ودخل إلى الكرخ منشدو أهل

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٧٢/٨)، ابن الأثير: الكامل (٦٣٢/٩)، ابن كثير: البداية والنهاية (٦٨/١٢).

السنة؛ فأنشدوا الأشعار في مدح الصحابة -رضي الله عنهم-^(١) وهذا يؤكد قوة الخلافة بعد دخول السلاجقة بغداد من جهة، وقيام الخليفة بواجباته ومسؤولياته تجاه أهل السنة وقمع الشيعة من جهة أخرى.

كما تصدى الخليفة المقتدي (٤٦٧-٤٨٧هـ) للشيعة؛ فأمرهم في سنة (٤٧٩هـ) بذكر الصحابة، وحثهم على حضور الجمع والجماعات، وأن يكتبوا أسماء الصحابة على مساجدهم ومحاريبهم؛ أسوة بمسجد أهل السنة، وأن يؤذنوا "بالصلاة خير من النوم"^(٢)، وهدد الخليفة المقتدي المخالفين لتلك الأوامر؛ مستشهداً بقول الله تعالى ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾^(٣)، مما يؤكد على قوة نفوذ الخليفة الديني، واهتمامه بهذا الجانب، ومتابعته للتطورات والأحداث، إضافة إلى اهتمامه بالرعية؛ حيث أمر في سنة (٤٨٠هـ) برفع المكوس والضرائب، وكتبت ألواح علقت على الجوامع تتضمن ذلك^(٤). وقد تابعت جهود الخلفاء، وتأكيدهم على النفوذ الديني، والاهتمام بمصالح الرعية، ووقوفهم ضد أصحاب الفرق الضالة والتيارات الهدامة^(٥)،

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٧٢/٨)، ابن كثير: البداية والنهاية (٦٨/١٢).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٢٨/٩-٢٩).

(٣) سورة النور: آية (٦٣).

(٤) ابن الجوزي: المنتظم (٣٥/٩).

(٥) تقدم ذكر تلك الجهود والمواقف للخلفاء في العصر السلجوقي ضد الفرق والتيارات الهدامة في الفصل الثالث من الباب الأول بالتفصيل، وقد أوردتُ -هنا- نماذج فقط

إضافة إلى مواصلة علاقتهم، وصلتهم القوية بالعلماء في تلك المدّة؛ الأمر الذي هيا مناخا مناسباً للعلماء؛ كي يقوموا بجهودهم ودورهم المنوط بهم في التصدي للتيارات المخالفة للمذهب السني، ومن ثم العمل على نشر المذهب وتأصيله، وتوضيح الأمور للناس؛ فقد كانت هناك صلة قوية بين الخليفة المقتدي وأبي إسحاق الشيرازي؛ حيث كان يبعثه رسولاً في المهمات، كذلك كانت للخليفة المستظهر علاقة قوية وصلة مباشرة بالعلماء في عهده؛ مثل: الغزالي، وألكيا الهراسي، والشاشي، والهمذاني، وغيرهم، ثم إن ابن الجوزي كان يحظى بتقدير كبير من الخليفين المستنجد والمستضيء، وله اليد الطولى في مجال الوعظ والتصنيف في ذلك العصر، كما كان يقوم ببعض الأعمال والمهمات التي يكلف بها من قبل الخليفة في إزالة البدع والمنكرات، وغيرها، وكان بعض هؤلاء العلماء يؤلف الكتب للخلفاء ويهديها لهم، كما كان بعض الخلفاء يطلب من العلماء تصنيف الكتب المناسبة لتطورات الأحداث والظروف، كما فعل الشاشي والغزالي وابن الجوزي، وغيرهم^(١).

لناسبتها في هذا الفصل أيضاً، وآثرتُ عدم التكرار للجهود والمواقف مجتمعة مرة أخرى.

(١) سوف نتحدث بالتفصيل -بمشيئة الله- عن علاقة الخلفاء والسلطين بالعلماء وآثار تلك العلاقة في الفصل الرابع من الباب الثاني -إن شاء الله تعالى.

ومن هنا قام العلماء بجهود جبارة، ومواقف متعددة - في ذلك العصر - أدت إلى انتعاش المذهب السني وانتشاره في العالم الإسلامي على حساب المذاهب الأخرى المخالفة التي شدد العلماء قبضتهم عليها، وفندوا مزاعم أصحابها، ووقفوا بقوة أمام مفترياتهم وأباطيلهم، ووضحوا للناس النهج القويم؛ الذي يجب أن ينهجوه ويسلكوه، وأدوا الرسالة الملقاة على عاتقهم؛ وهذا ليس بغريب على العلماء العاملين المخلصين لله تعالى؛ لاسيما إذا أدركنا أن البشر محتاجون إلى العلماء حاجة عظيمة؛ لأنهم "خصوا باستنباط الأحكام، وعنوا بضبط قواعد الحلال والحرام؛ فهم في الأرض بمرتلة النجوم في السماء؛ بهم يهتدي الحيران في الظلماء، وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب" (١)، لأن كثيراً من الناس لا يعلم كيف أداء الفرائض، ولا كيف اجتناب المحارم، ولا كيف يعبد الله في جميع ما يعبد به خلقه إلا ببقاء العلماء، فإذا مات العلماء تحير الناس، ودَرس العلم بموتهم، وظهر الجهل (٢).

والله سبحانه وتعالى أوجب الرجوع إلى العلماء، وسؤالهم عما أشكل في أمور الدين، قال الله تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا

(١) ابن القيم: أعلام الموقعين (٩/١).

(٢) الآجري: أخلاق العلماء (٥٠)، ابن القيم: أعلام الموقعين (٥٢/١).

تعلمون»^(١)، ذلك أن السائل لا يصح أن يسأل من لا يُعَدُّ في الشريعة جوابه؛ لأنه إسناده للأمر إلى غير أهله، والإجماع على عدم صحة هذا، كما ذكر ذلك الإمام الشاطبي - رحمه الله^(٢).

فالعلماء إذا هم الوسيلة والطريق؛ لتبيين الأحكام للناس؛ فالعلم يتوارثه أهله؛ فيأخذه الخلف عن السلف بالتلقي، وهؤلاء العلماء يبينون أحكام الله - عز وجل - لعامة الناس^(٣)، حيث إن فتاوى عن المجتهدين من العلماء بالنسبة إلى العوام كالأدلة الشرعية بالنسبة إلى المجتهدين^(٤).

ومن هنا يتضح لنا أهمية العلماء في المجتمع الإسلامي، وعظم مكانتهم، ومدى احتياج المسلمين إليهم، ولا شك أن أهميتهم تزداد، واعتبارهم يقوى إذا كان القول متفقاً عليه بينهم؛ بل يصبح هذا الاتفاق المعروف عند أهل العلم بالإجماع حجة وأصلاً من أصول التشريع الإسلامي^(٥)؛ لأنهم يسعون دوماً للمصلحة العامة، ونفع الناس، وتبصيرهم

(١) سورة الأنبياء: الآية (٧)، وانظر تعليق الشيخ عبد الرحمن السعدي على هذه الآية في: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: (١٠٦/٥).

(٢) الشاطبي: الموافقات (٤/٢٦٢).

(٣) عبد الرحمن اللويحي: قواعد في التعامل مع العلماء ص (٤٧).

(٤) الشاطبي: الموافقات (٤/٢٩٣).

(٥) انظر في الإجماع وتعريفه وأدلته وأحكامه: الغزالي: المستصفى (١٩٩-٢٣٠)،
الأمدي: الإحكام في أصول الأحكام (١/١٧٩-٢٥٥)، ابن تيمية: الفتاوى

(١٩٧-١٩٢، ١٨٠-١٧٦/١٩).

بما يشكل عليهم، والذود عن حمى الدين الخفيف، والصبر والتحمل لما يعترضهم في سبيل ذلك؛ فهم ورثة الأنبياء؛ وهم المفضلون بعدهم على سائر البشر، بهذا العلم الذي يُبلغونه للناس، فما أعظمه من شرف، وما أجلها من نعمة!

وعندما تأتي إلى الحديث عن دور العلماء في انتعاش المذهب السني، وانتشاره في الأمصار، وجهودهم العظيمة في ذلك -خلال العصر السلجوقي- لا بد أن أتطرق لدور المدارس النظامية؛ التي أرتت دوراً كبيراً في تحقيق هذا الهدف المنشود، وكان للعلماء الذين درّسوا بها، وصنفوا الكتب في ذلك العصر، وكذلك كان لمن تفقه فيها وتعلم ودرس على أيدي علمائها ومدرسيها، ثم تصدر للتدريس في بلده، الدور الكبير والمؤثر؛ لأنهم نشروا المذهب السني في بلدانهم، وعملوا على تأصيله في نفوس الناس، وتحذيرهم من الانزلاق وراء التيارات؛ التي تتربص بهم؛ عن طريق أصحاب البدع والأهواء الضالة، والأفكار الهدامة.

ويجب أن لا ننسى -في هذا الصدد- دور الوزير الشهير نظام الملك الطوسي (ت ٤٨٥هـ) الذي بذل جهداً واضحاً في هذا المجال؛ حيث كان محباً لأهل العلم، كثير الإحسان إليهم^(١)، حتى إنه رتب للعلماء

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق (١٢١٢)، ابن الأثير: الكامل (٢٠٨/١٠)،

رواتب ثابتة، وحقوقاً لا تؤخر، ورسومًا لا تغير^(١)، وكان مجلسه يضم فحول العلماء في شتى أنواع العلوم والمعرفة، وكان فيه خير وتقوى وميل إلى الصالحين، وقد سمع الحديث من جماعة من العلماء، وروى عنه جماعة؛ منهم: علي بن طراد الزيني، ونصر بن نصر العكبري، والحسن بن منصور السمعاني^(٢)، وأملى ببغداد مجلسين: أحدهما بجامع المهدي بالرصافة، والآخر بمدرسته المعروفة بالمدرسة النظامية، وحضر إملاءه العلماء والأئمة، وفي هذا يقول أخوه أبو القاسم عبد الله بن علي بن إسحاق: "كان أخي نظام الملك يُملي الحديث بالري، فلما فرغ قال: إني لست أهلاً لما أتولاه من الإملاء، ولكني أريد أن أربط نفسي على قطار نقلة حديث رسول الله ﷺ"^(٣).

وكانت سوق العلم في أيامه - كما يقول ابن الجوزي - قائمة^(٤)، والعلماء - في عهده - مرفوعو المهمة؛ حيث كان مجلسه عامراً بالعلماء والقراء والفقهاء وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح؛ حتى كانوا يشغلون

(١) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (٥٦).

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (١٧٥/١)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٩٥/١٩)،

السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٣١٨/٤).

(٣) ابن الأثير: الكامل (٢٠٨/١٠)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (١٧٥/١)، وعن

هذين المجلسين اللذين أملاهما انظر كتاب "جزء فيه مجلسان من أمالي الصحاح نظام الملك" حققه وخرج أحاديثه أبو إسحاق الحويني الأثري.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم (٦٨/٩).

عن كثير من مهام الدولة؛ فقال له بعض كتابه: "قد بسطت هذه الطائفة في مجلسك؛ حتى شغلوك عن مصالح الرعية، فلو حجبتهم وأذنت لمن شئت، وأمرت بأن لا يضيّقوا عليك مجلسك؛ وإنما يجلسوا ناحية"، فقال له: "ويحك، هذه الطائفة أركان الإسلام، وجمال الدنيا والآخرة، فلو أجلست كل واحد منهم على رأسي لما استكثرت له ذلك، ولا استقللته"^(١).

ولما بنى المدارس والرباطات، وأجرى عليها الجرايات العظيمة، سعى به أعداؤه إلى السلطان ملكشاه، وقالوا: قد ضيع أموالاً عظيمة في هذه الوجوه، وكان قد كتب عليها اسم ملكشاه؛ فعاتبه السلطان على ذلك، وقال له: قد ضيعت الأموال في هذه الوجوه، فقال له: يا ملك، لما أقمتُ لك العساكر تقاتل بين يديك الأعداء بالنهار، أقمت لك جيشاً في الليل يصفون أقدامهم، ويدعون لك، وأنت نائم، وبعد هذا فانظر في المال الذي غرمته في هذه الوجوه، فأنا أحمله إليك وأحجو اسمك من أبوابها^(٢)،

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (١/١٦٤)، وعن تكريم نظام الملك للعلماء واحترامه لهم وتقديره إياهم انظر: السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٤/٣٠٩)، الحسيني: العراضة في الحكاية السلجوقية ص (٥٧-٥٨)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢/١٢٨)، هيفاء البسام: الوزير السلجوقي نظام الملك، رسالة ماجستير لم تطبع، بجامعة أم القرى.

(٢) أي: من أبواب المدارس والرباطات والقناطر والجسور ونحوها، وقصد نظام الملك من وراء ذلك تخليد ذكر السلطان ملكشاه، وعدم المراءاة في ذلك، وإلا باستطاعته

وأكتب اسمي ليقى لي ذكرها وأجرها، فقال السلطان ملكشاه: لا والله، ما أريد أن أمحو اسمي من أماكن البر والصلة، وجزاك الله خيرًا فيما فعلت^(١).

ولم يتوقف أعداؤه عن السعاية به إلى السلطان، فمن جملة ذلك ما سعى به تاج الملك أبو الغنائم واسمه: المرزبان بن خسرو -صاحب خزانة السلطان ملكشاه، والناظر في أمر دوره، ثم تدرج حتى أصبح الوزير الأول في الدولة بعد مقتل نظام الملك^(٢)- الذي قال للسلطان ملكشاه: إنه -أي: نظام الملك- ينفق في كل سنة على العلماء والفقهاء والقراء ثلاثمائة ألف دينار، ولو جُيِّش بها جيشًا لطعن باب القسطنطينية؛ فاستحضر السلطان نظام الملك، واستفسره عن الحال؛ فقال له: يا سلطان العالم، إني رجل شيخ لو نودي عليّ لما زادت قيمتي على ثلاثة دنانير، وأنت حدث لو نودي عليك لما زدت عن مائة دينار، وقد أعطاك الله تعالى وأعطاني بكم ما لم يعطه أحدًا، أفلا تعوضه عن ذلك في حملة دينه،

أن يضع اسمه بجوار اسم السلطان، ولكنه الإخلاص وطلب الأجر والثوبة من عند الله تعالى.

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (١٦٧/١ - ١٦٨).

(٢) قتل تاج الملك سنة ٤١٦ هـ، قتله غلمان نظام الملك ومماليكه؛ حيث اتهموه بقتل الوزير نظام الملك، وله من العمر ٤٧ عامًا. انظر عنه: ابن الجوزي: المنتظم (٧٤/٩)، ابن الأثير: الكامل (٢١٦/١٠)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (٥٩)، الحسيني: زبدة التواريخ (١٤٠-١٤١).

وحفظة كتابه العزيز بثلاثمائة ألف دينار، ثم إنك تنفق على الجيوش المحاربة في كل سنة أضعاف هذا المال، مع أن أقواهم وأرماهم لا تبلغ رميته ميلاً، ولا يضرب سيفه إلا ما قرب منه، وأنا أجيش لك بهذا المال جيشاً تصل من دعائهم سهام إلى العرش لا يحجبها شيء عن الله؛ فبكى السلطان وقال له: استكثر من هذا الجيش، والأموال مبذولة لك، والدنيا بين يديك^(١).

وقد أتى عليه غير واحد من العلماء؛ منهم: أبو الوفاء علي بن عقيل^(٢) - شيخ الحنابلة - حيث قال: " رأينا في زماننا في أوائل أعمارنا أناساً طاب العيش معهم من العلماء والزهاد وأعيان الناس، وأما نظام الملك فإن سيرته بهرت العقول جوداً وكرماً وحشمة وإحياء لمعالم الدين؛ فقد بنى المدارس، ووقف عليها الوقوف، وأنعش العلم وأهله، وأكثر الصدقات، وفتح أبواب البر والصلوات.... وأما هو فحي بعد موته، لمدح الناس لأيامه، ثم ختم له بما ختم من الشهادة؛ فكفاه الله تعالى أمر أحراره، كما كفى أهل العلم أمر دنياهم، ولقد كان نعمة من الله على أهل الإسلام؛ فما شكروها فسلبوها"^(٣).

(١) انظر: الحسيني: زبدة التواريخ ص (١٤١-١٤٢).

(٢) تقدم الحديث عنه في أكثر من موضع في البحث.

(٣) انظر هذا القول في: ابن الجوزي: المنتظم (٩/٦٧-٦٨)، سبط ابن الجوزي: مرآة

الزمان (١/١٧٦-١٧٧)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٤/٣١٨-٣١٩)، مع

اختلاف طفيف في الألفاظ بين المصادر المذكورة.

وكان نظام الملك زاهدًا في هذه الدنيا؛ مع ما أنعم الله عليه من المال والجاه والماليك، فكان يتمنى الانقطاع إلى الله تعالى، ويقول: أتمنى أن يكون لي قرية ومسجد أتخلى فيه بطاعة ربي، ثم قال -بعد ذلك: تمئنت قطعة من الأرض أتقوت بها، وأتخلى في مسجد، ثم قال -بعد ذلك: أتمنى أن يكون لي رغيف كل يوم، وأتعبد في مسجد^(١).

وقد رثاه جماعة من الشعراء؛ منهم: شبلى الدولة مقاتل بن عطية^(٢)؛

فقال:

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة

يتيمة صاغها الرحمن من شرف

عزّت فللم تعرف الأيام قيمتها

(١) ابن الأثير: الكامل (٢٠٩/١٠-٢١٠)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (١/١٦٨-١٦٩).

(٢) شبلى الدولة هو: مقاتل بن عطية بن مقاتل البكري الحجازي، كان شجاعًا شاعرًا فصيحًا من جملة الأدباء والظرفاء، وله النظم البديع الرائع، توفي سنة ٥٠٥هـ. انظر: ترجمته في: سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٢/٥٥٧)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٥/٢٥٧)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٥/٢٠٤)، ابن العماد: شذرات الذهب (٤/١١).

فردّها غيراً منه إلى الصدف^(١)

وأخباره وسيرته مشهورة، ومستوفاة في الكتب؛ التي ترجمت له. وقد سبق أن تحدثت عنه في موضع سابق^(٢)، أما ما ذكرته -هنا- من نماذج لبعض سيرته ومواقفه؛ فلارتباطها بالعلم والعلماء، وتوضيح المكانة التي يحظى بها العلماء في عهده، ودوره في إنشاء المدارس النظامية، ومجاهته الباطنية، أي: أني أتحدث عنه بصفته عالماً من العلماء؛ تنبه لخطر تلك التيارات الهدامة؛ التي كادت تعصف بالمجتمع الإسلامي؛ فما كان منه إلا أن استفاد من مركزه الإداري بصفته وزيراً لآل سلجوق؛ مع ما يتمتع به من علم وحب للعلماء، وصلة بهم، وقد ذكر في كتابه (سياسة نامة) فصولاً عدة تحدث -من خلالها- عن الباطنية وخطرهم والتحذير منهم^(٣)، ولكن ما يسجل له من دور -في هذا المجال- هو إنشأؤه واهتمامه بالمدارس النظامية؛ التي كان لها الدور المؤثر في انتعاش المذهب

(١) وردت هذه الأبيات وغيرها في: ابن الجوزي: المنتظم (٦٨/٩)، ابن الأثير: الكامل (٢٠٢/١٠)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (١٧٦/١)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٤١/١٢).

(٢) تقدم الحديث عنه في الفصل الثالث من الباب الأول في موضوع المدارس النظامية وجهودها ضد الباطنية، ولكن الحديث عنه -هنا- بمنظور آخر يتعلق بالعلماء ودور

المدارس النظامية في نشر الفكر السني تحت إشراف واهتمام الوزير نظام الملك. (٣) انظر ذلك في: كتابه (سياسة نامة) ص (٢٣٣-٢٩٦) حيث هاجم الباطنية، وأوضح فساد مذهبهم، وعظم خطرهم.

السني وانتشاره؛ من خلال العلماء الذين درسوا بهما، والأجيال التي تخرجت في تلك المدارس المنتشرة في شتى الأمصار؛ الأمر الذي أدى إلى انتشار المذهب السني، واستعادة نفوذه وقوته.

وهكذا؛ يتضح لنا أن هذا الرجل القدير، والعالم السني المتحمس، والإداري المحنك، والسياسي المظفر، صاحب الفكر الثاقب، والنظرة البعيدة؛ وهو نظام الملك، أدرك تمام الإدراك أن التصدي للأفكار الشيعة والتيارات الأخرى، لا بد أن يكون بجهود مكثفة؛ ذات نتائج مثمرة، وأن يصحب ذلك تخطيط سليم، ودراسة مستفيضة؛ فرأى هذا الوزير القدير أن الاقتصار على مقاومة أصحاب تلك التيارات والأفكار عسكرياً لا يُجدي وحده، ولن يكتب له النجاح المستمر، إلا إذا واكب هذه المقاومة العسكرية مقاومة فكرية.

فمن هنا فكر في إنشاء المدارس النظامية؛ التي تُسبت إليه، وشرع في بنائها؛ بهدف توعية الناس، وإعداد جيل من علماء السنة يقفون في وجه الدعايات الباطنية والأفكار المخالفة، أي: أن نشأة هذه المدارس -في الحقيقة- مرتبطة بالدعوة المضادة للشيعة وغيرها؛ كي يتم توجيه الناس وجهة دينية؛ توضح لهم المذهب السني، والمنهج الصحيح الذي عليه أهل السنة والجماعة، وشن عليهم حملات واسعة؛ كان التعليم من أهم الوسائل التي اعتمد عليها في محاربة التشيع؛ لأن هذه الوسيلة كانت أمراً لا بد منه لمناهضة مبادئ الشيعة وأفكارها؛ التي حاولت أن تُخفت صوت

المذاهب السننية مُدّة من الزمن^(١).

وقد انتشرت المدارس النظامية في بغداد ونيسابور وطوس والبصرة وهرارة وأصفهان والموصل وبلخ ومرو، وغيرها من البلاد^(٢)، وأكبر هذه المدارس وأعظمها شهرة، وأقواها أثرًا، المدرسة النظامية في بغداد؛ التي أمر نظام الملك بإنشائها سنة (٤٥٧هـ)، وكانت هذه المدارس - في الحقيقة - مراكز ثقافية نبعت فيها الكثير من الأصول الدينية والفقهية والأدبية، وعملت على تخريج طبقة مثقفة بثقافة إسلامية واعية؛ قامت بدورها الكبير في محاربة الفكر الشيعي في المناطق المختلفة، وفتحت الطريق لانتعاش المذهب السني، وغلبته، وانتشاره^(٣)؛ حيث كان لهذه المدارس السننية الأثر العظيم؛ الذي أدى إلى إضعاف المذاهب والأفكار المخالفة للإسلام، والتي تشكل خطرًا كبيرًا على المسلمين في دينهم وعقيدتهم؛ كالمعتزلة والباطنية.

كما أن هذه المدارس سدّت حاجة الدولة والعالم الإسلامي من

(١) حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٢٢٢)، عبد المجيد بدوي:

التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص (٢١٣).

(٢) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٣١٣/٤)، حسن أحمد: العالم الإسلامي في

العصر العباسي ص (٦٠٢)، الزهراني: نظام الوزارة في العهدين البويهبي

والسلجوقي ص (١٩٠).

(٣) حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٢٧٦)، عبد المجيد بدوي:

التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص (٢١٧).

العلماء والقضاة والأئمة والكتاب والموظفين والعمال الذين تعلموا وفق المنهج الصحيح^(١)؛ مما يعني إخلاصهم وتفانيهم في المهمات التي توكل إليهم؛ لأنهم حملوا لواء العلم الشرعي، وأدركوا خطر الأفكار والتيارات الأخرى المخالفة، ومن هنا يصبح لفكرهم وعلمهم أثر مميز في نفوس الناس؛ سواء عن طريق تدريسهم ووعظهم، أو جهودهم الأخرى؛ وهذا ما سوف نوضحه - إن شاء الله - من خلال الدور الذي قامت به المدارس النظامية في نشر المذهب السني ومقاومة الأفكار الأخرى المخالفة، وجهود العلماء في ذلك.

لقد سبق أن تحدثت عن المدارس النظامية، ودورها في مجابهة الأفكار والدعايات الباطنية^(٢)، أما هنا فإن الحديث يتضمن الحصاد الفكري لهذه المدارس، ودور علمائها ومدرسيها في انتعاش المذهب السني وانتشاره؛ أي: أن آثار المدارس النظامية جديرة بالدراسة؛ لأنها متنوعة، وذات أثر بعيد في حياة المسلمين الدينية والعلمية، ولها أثر عظيم في نشر الثقافة والعلم؛ الأمر الذي يؤدي إلى هدف واحد منشود؛ وهو توحيد كلمة

(١) عبد المنعم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (١٨٢)، حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٢٢٣).

(٢) انظر: الفصل الثالث من الباب الأول المتضمن: "جهود الخلفاء العباسيين والسلطين السلاجقة في محاربة الفرق الضالة والتيارات الباطلة"، حيث أوضحت الدور المميز للمدارس النظامية ضد الشيعة بصفة عامة، والباطنية بصفة خاصة، ودور الخلفاء والسلطين ونظام الملك في ذلك.

أصحاب المذهب السني، وتقويته؛ كي يدافع ويحافظ بدوره على كيان أهل السنة، ويحارب الأفكار الأخرى، ويقف في طريقها، عندئذ ينتعش المذهب السني، وينتشر، ويصبح لأهل السنة نفوذ وقوة وهيبة، ويخفت صوت المذاهب والتيارات المخالفة، وتكون الغلبة لأهل الحق والهدى الذين ينشدون الخير، ويحاولون جاهدين إنقاذ الناس وتبصيرهم، وتأصيل معتقد أهل السنة في نفوسهم؛ كي يعبدوا الله على بصيرة وعلم، ويصبح لديهم حصانة وعدم تأثر أو اغترار بأصحاب الدعوات الباطلة؛ الذين يظهرون بين حين وآخر.

وعندما أتحدث عن الحصاد الفكري للمدارس -بصفة عامة- في العصر السلجوقي، ودورها في انتعاش المذهب السني وانتشاره في الأمصار، لا بد أن أوضح أن لتلك المدارس مجتمعة إسهاماً كبيراً ودوراً مؤثراً في هذا الجانب المهم، وقد أسهمت تلك المدارس في نشر العلم والثقافة، وتخرج عدد كبير من المثقفين؛ الذين أصبحوا علماء -بعد ذلك- يُشار إليهم بالبنان، وكانت المصادر الأولى للمدارس؛ التي أنشئت -فيما بعد- أي: أن المدرسة النظامية، أو مدرسة أبي حنيفة، أو المدرسة التاجية، أو غيرها من المدارس؛ التي أنشئت -في العراق- في العصر السلجوقي، كانت قد خرّجت الكثير من العلماء؛ الذين ساهموا في إنجاح

الحركة الثقافية^(١)، وعملوا على نشر المذهب السني في بلدانهم. ولكن أشهر هذه المدارس وأعلىها مكانة، وأقواها أثرًا هي المدرسة النظامية في بغداد؛ التي توفر لها إمكانات مادية كبيرة؛ لم تتوفر بنفس الحجم لغيرها من المدارس الأخرى، وقد جاء إنشاؤها في عصر كان يموج بالآراء المختلفة، والأفكار المتضاربة، التي كان لها أثر كبير في الصراع الفكري آنذاك؛ وهذا ما دفع الوزير نظام الملك إلى إنشاء المدرسة -مع أسباب أخرى ذكرت سابقاً-^(٢) من أجل تحقيق حالة الانسجام في المجتمع الإسلامي، وإلغاء الفرقة، ونبذ الخلاف، والدفاع عن الأمة وعقيدتها إزاء ما يتهددها من أخطار شتى؛ وهذا لا يحصل إلا عن طريق تعليمهم أصول الدين، وتوضيح أسس العقيدة الصحيحة.

إضافة إلى ما تقدم فإن معظم أساتذة المدرسة النظامية كانوا من العلماء الأجلاء، وقد تخرج -على أيديهم- كثير من العلماء؛ الذين

(١) من الأمثلة على ذلك أن أول مدرس للشافعية في المدرسة المستنصرية؛ التي شيدها الخليفة المستنصر بالله العباسي ببغداد سنة (٦٣٠هـ) كان من مدرسي المدرسة النظامية؛ وهو: الشيخ محي الدين محمد بن يحيى بن فضلان البغدادي، توفي في شوال سنة (٦٣١هـ)، وهذا من مآثر المدرسة النظامية. انظر: عن ابن فضلان: السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (١٠٧/٨)، الذهبي: العبر (٢١١/٣)، ناجي معروف: تاريخ علماء المستنصرية (١٢٩/١).

(٢) انظر في تلك الأسباب في الفصل الثالث من الباب الأول؛ عندما تحدثت عن نشأة المدارس النظامية ودوافع إنشائها.

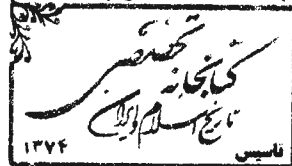
واصلوا قيادة الحركة السنية في أقاليم الدولة الإسلامية المختلفة؛ لذلك كانت نظامية بغداد أكثر عطاءً من غيرها في هذه الناحية بالذات؛ وهذا أمرٌ له أهميته في نشر المذهب السني، والمحافظة على كيان أهل السنة في ذلك العصر؛ من خلال العلماء والوعاظ والخريجين؛ الذين بدؤوا حياتهم العلمية فيها، ثم تصدوا - بعد ذلك - للتدريس والتصنيف والعطاء العلمي؛ الذي أدى إلى نشر العقيدة في الأمصار؛ التي انتقلوا إليها.

وهناك سبب آخر له أهميته في هذا المقام، وهو أن المدرسة النظامية في بغداد كانت أطول المدارس النظامية عمراً؛ حيث بقيت لمدة طويلة تؤدي دورها الديني والتعليمي^(١)، أما النظاميات الأخرى فإنها اختفت تدريجياً خلال القرن السادس الهجري^(٢).

والمدرسة النظامية - بفضل ما قمتها لها من إمكانات مادية، وطاقات علمية وفكرية، وامتداد زمني، واهتمام منقطع النظر، وبسبب وجودها في عاصمة الخلافة - نالت حظاً وافراً من عناية المؤرخين واهتماماتهم؛ فسجلوا أخبارها، ورصدوا أحوال علمائها وطلابها وخريجياتها، والمشرفين

(١) تذكر بعض المصادر أن المدرسة النظامية بقيت ثلاثة قرون منارةً للعلم وموتلاً لرواد الفكر، وذكر البعض أن غياث الدين محمد بن محمد بن عبد الله العاقولي (ت ٧٩٧هـ) درس بالمدرسة النظامية. انظر: مريزن عسيري: الحياة العلمية في العصر السلجوقي ص (٢٦٣)، نقلًا عن مصطفى حواد: المدرسة النظامية ببغداد، مجلة سومر، (٣٢٧/٢/٩).

(٢) عبد المجيد بدوي: التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص (٢٢٨).



الفصل الثاني: دور العلماء في انتشار المذهب السني ومحاربة التيارات المنحرفة ٧٠٥

عليها، وخزانة كتبها، ومجالس علمائها ووعاظها^(١)، وفي المقابل كانت أخبارهم عن المدارس الأخرى موجزة مختصرة؛ وهذا لا يعني التقليل من شأن المدارس الأخرى؛ بل كان لها دور كبير في التعليم والثقافة، وتوجيه الناس الوجهة الدينية الصحيحة.

وكان من الطبيعي أن يتخرج -في تلك المدارس النظامية بصفة عامة، ونظامية بغداد بصفة خاصة- جيل من العلماء؛ تتحقق على أيديهم معظم الأهداف؛ التي رسمها نظام الملك، والتي من أجلها قام بتلك الأعمال الجليلة؛ المتمثلة في نشر المدارس في شتى الأقطار الإسلامية؛ ولذا نجد كثيراً من العلماء؛ الذين تخرجوا فيها يرحلون إلى بلدانهم أو إلى أقاليم أخرى؛ ليقوموا بنشر المذهب السني، وتوجيه الناس وتعليمهم، وتدريس

(١) من هؤلاء المؤرخين؛ الذين تناولوا إنشاء المدرسة وافتتاحها وأخبار علمائها ومجالسهم: القزويني: آثار البلاد ص (٤١٢)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (٥٤)، الحسيني: العراضة ص (٧٥)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (١٤٢)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (١٢٨/٢)، اليافعي: مرآة الجنان (٨٣/٣)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٣١١/٤)، ابن جبير: الرحلة ص (١٧٤-١٧٥)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٦٦/١٨)، دول الإسلام ص (٢٣٤)، ناجي معروف: علماء النظامية ومدارس المشرق الإسلامي، حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٢١٨)، بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية ص (١٠٤-١٠٥)، عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (١٨٢)، ناجي معروف: المدارس الشرايية ببغداد وواسط ومكة ص (١١٨)، حسن الباشا: دراسات في الحضارة الإسلامية ص (١٠٢).

العقيدة والفقه والحديث والعلوم الإسلامية الأخرى، وكذلك توليتهم مجالس القضاء والفتيا وإمامة الناس ووعظهم، إضافة إلى الوظائف الإدارية المهمة في دواوين الدولة؛ أي: أن المدارس النظامية أمدت أجهزة الدولة بالعناصر المتعلمة تعليماً منظماً وفق الأسس الدينية، والمنهج السليم الخالي من الأفكار والشوائب الباطلة؛ ولذلك توحدت كلمة أصحاب المذهب السني؛ وهو المذهب الذي أخذ على عاتقه مهمة المحافظة والدفاع عن كيان أهل السنة في العصر السلجوقي، ومحاربة الأفكار الشيعية من الباطنية وغيرها.

ومن هنا يتبين لنا أهمية تلك المدارس في نشر المذهب السني في الأمصار، ونجاح فكرة نظام الملك في إنشاء تلك المدارس والاهتمام المتزايد بها؛ حيث أدت مدارسه واجبها بشكل مرضي، وكانت لها نتائج بعيدة وآثار عظيمة في تقوية المذهب السني، والحفاظ على أهل السنة، وانتشار العلماء في شتى الأمصار.

ويوضح السبكي بعض آثار المدرسة النظامية ببغداد؛ حيث ينقل عن أبي إسحاق الشيرازي - من أوائل مدرسي المدرسة النظامية ببغداد - قوله: "لما خرجت في رسالة الخليفة المقتدي إلى خراسان، لم أدخل بلداً ولا قرية إلا وجدت قاضيها أو خطيبها أو مفتيها من تلامذتي أو من أصحابي"^(١)، وهذا ما يؤكد انتشار طلاب المدرسة النظامية في العالم الإسلامي،

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٤/٢١٦).

وتوليتهم الوظائف والمهام المختلفة، ويوضح الأثر البعيد الذي كان يرمي إليه نظام الملك؛ وهو الحصول - بعد مدة من الزمن - على عدد كبير من الخريجين؛ ممن تتقف بالثقافة الإسلامية؛ كي ينشروا هذا الدين العظيم، ويذودوا عنه، ويخدموا جهاز الدولة؛ لأنها كفاءات تستحق ما يُوكل إليها من مهام أو أعمال؛ حيث سيقومون بذلك بكل نزاهة وإخلاص، كيف لا وقد تسلحوا بسلاح الإيمان والعلم، والفكر النير، والبصيرة الثاقبة المدركة لتطور الأحداث والأحوال، والمتابعة لمجريات الأمور، والمتعاملة مع كل حدث بما يناسبه.

ويتضح لنا مما تقدم أهمية المدارس النظامية بصفة عامة، ونظامية بغداد بصفة خاصة، في انتعاش المذهب السني وانتشاره في شتى الأمصار، وتبرز هذه الأهمية في العلماء؛ الذين تولوا التدريس في تلك المدارس، إضافة إلى الخريجين؛ الذين درسوا فيها، ثم أصبحوا من العلماء الذين يُشار إليهم، وأدوا دوراً كبيراً في الحفاظ على كيان أهل السنة، ونشر المذهب السني، وتفنيد الأفكار المخالفة؛ وهذا ما جعلني أوضح أهمية تلك المدارس عامة، وعلو مكانة المدرسة النظامية ببغداد على وجه الخصوص، وشهرتها الواسعة، لاسيما وأن تلك المدارس أنشئت في عصرٍ كان يموج بالآراء المختلفة والأفكار المتنوعة؛ التي كان لها الأثر الكبير في عقول الناس بصفة عامة، والعوام بصفة خاصة.

والخلاصة: أن فكرة نظام الملك في إنشاء المدارس كانت لها نتائجها البعيدة، وآثارها العظيمة؛ فقد حققت الأهداف المنشودة، والأغراض

المقصودة؛ التي من أهمها: نشر المذهب السني، ومناهضة الأفكار والحركات الأخرى، والتصدي لخطر الباطنية؛ الذي استفحل في العصر السلجوقي، ونشر الثقافة والعلم، وتحذير الناس من خطر تلك الحركات الهدامة، بتوجيههم دينياً، والعمل على تأصيل العقيدة الصحيحة في نفوسهم؛ الأمر الذي يؤدي - في النهاية - إلى انتعاش المذهب السني، وانتشاره، والمحافظة على كيان أهل السنة، والدفاع عنهم.

والآن، إلى ذكر نماذج من العلماء؛ الذين كان لهم الدور البارز في تحقيق تلك الأهداف المذكورة؛ سواء ممن درّس أو تخرج في المدارس النظامية، أو من غيرهم الذين دافعوا عن أهل السنة، وعملوا على نشر المذهب السني في العصر السلجوقي؛ مع توضيح جهود الجميع في تحقيق هذا الهدف؛ الذي يتوخاه العلماء؛ الذين برزوا في ذلك العصر؛ سواء ممن تشرفوا في التدريس في النظامية أو تخرجوا فيها، أو ممن لم تنهأ لهم الفرصة في الانضمام لإخوانهم في تلك المدارس^(١)؛ وهذا لا يقلل من

(١) كان العلماء في العصر السلجوقي يرغبون ويتمنون تولية التدريس في المدرسة النظامية ببغداد؛ لعلو مكاتها وشهرتها، ولكونها تابعة للجهات الرسمية في الدولة؛ التي كانت تجزل الرواتب على المدرسين، وتهتم بسكنى الطلاب، وتلبية متطلباتهم؛ حتى ظهر من العلماء من أبدل مذهبه في سبيل أن يتولى وظيفة التدريس فيها، مثل: ابن برهان أحمد بن علي بن محمد الأصولي (ت ٥١٨هـ) كان حنبلي المذهب، ثم أصبح شافعيًا، والمبارك بن المبارك بن سعيد المعروف بابن الرهان (ت ٦١٢هـ) كان حنبليًا ثم حنفيًا ثم شافعيًا عندما درس في النظامية. انظر: ابن رجب: ذيل

شأنهم، أو ينكر جهودهم، أو يُغفلها؛ لأننا لا بد أن نُنصف الجميع، دون التركيز على الأعلام المشهورين فقط؛ لاسيما وأنا أمام عصر يعجّ بمجموعة كبيرة من العلماء في شتى أنواع العلوم والمعرفة^(١).

ولنبداً بذكر نماذج من العلماء؛ الذين درّسوا في نظامية بغداد، أو تخرجوا فيها، ثم قاموا بنشر المذهب السني في بلدانهم، أي تقويم الدور، أو الحصاد الفكري والعلمي؛ الذي قامت به نظامية بغداد في نشر المذهب السني، والمحافظة على كيان أهل السنة، ومقاومة الفكر الشيعي.

فكان على رأس هؤلاء العلماء؛ الذين تصدوا للتدريس في نظامية بغداد، وقاموا بتأصيل المذهب السني، ورحل إليهم الطلاب، وتخرجوا على أيديهم، ثم نفع الله بهم في نشر المذهب السني في شتى الأمصار، وعرفوا بغزارة العلم، وكانوا من العلماء؛ الذين طبقت شهرتهم الآفاق، وكان لهم مؤلفات ودراسات عظيمة في علوم الشريعة والعقيدة والفقهِ والأصول.

كان على رأس هؤلاء العلماء: الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي (ت ٤٧٦هـ) أحد الأعلام؛ وهو إمام الشافعية، ومدرس

طبقات الحنابلة (١١١/٢)، السيوطي: بغية الوعاة (٢٧٣/٢)، عمر كحالة: معجم المؤلفين (١٧٣/٨)، حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٢٢٨).
(١) انظر في هؤلاء العلماء والعلوم؛ التي نبغوا فيها، في الفصل الأول من الباب الثاني؛ المتضمن: "ازدهار الحياة العلمية وجمتمع العلماء في العصر السلجوقي".

النظامية، وشيخ العصر، رحل إليه الناس من البلاد وقصدوه، وتفرد بالعلم الوافر مع السيرة الجميلة، والطريقة المرضية، جاءته الدنيا صاغرة فأباها، صنف في الأصول والفروع والخلاف والمذهب^(١)، وكان الوزير نظام الملك لما بنى المدرسة النظامية ببغداد لم يقع اختياره لتولي التدريس فيها إلا على الشيخ أبي إسحاق الشيرازي؛ الذي جلس في التدريس في النظامية في مستهل شهر ذي الحجة سنة (٤٥٩هـ)، وبقي فيها مدرساً إلى حين وفاته؛ أي: حوالي سبعة عشر عاماً^(٢). وكان أبو بكر الشاشي يقول: "أبو إسحاق حجة الله على أئمة العصر"^(٣)، وقد امتنع عن تولي القضاء زمن الخليفة القائم بأمر الله، فحاول إكراهه على ذلك فامتنع أيضاً؛ فوكل به من يلازمه؛ حتى يحمله على القبول؛ فكتب إليه أبو إسحاق: "ألم يكفك أن هلكت حتى تهلكني معك"، فتأثر الخليفة لهذا؛ وقال: "هكذا فليكن العلماء، إنما أردنا أن يقال: إنه كان في عصرنا من وُكل به وأكره على

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٥٤/١٨)، ثم انظر: مقدمة كتاب "المعونة في الجدل"

تحقيق عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٠٨هـ.

(٢) انظر: مقدمة كتاب "طبقات الفقهاء" للشيرازي، تحقيق الدكتور إحسان عباس ص

(٨)، ومقدمة كتاب "المعونة في الجدل" ص (٥-٨٩).

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٥٥/١٨)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى

(٢٢٧/٤)، وقال الموفق الحنفي: "أبو إسحاق أمير المؤمنين في الفقهاء"، وعند

السبكي إمام بدل أمير. انظر: المصدرين السابقين في الأجزاء والصفحات نفسها.

القضاء فامتنع، وقد أعفيناه" (١).

وعندما قدم أبو إسحاق نيسابور رسولاً تلقاه أهلها بالحفاوة والتكريم، وحمل إمام الحرمين أبو المعالي الجويني غاشيته، ومشى بين يديه كالخدم، وقال: إني أفتخر بهذا، وفي تلك الرحلة رأى أبو إسحاق ثمرة جهده الطويل؛ الذي بذله في التدريس؛ فكان عامة المدرسين والقضاة والمفتين والخطباء تلامذته وأتباعه؛ الذين انتشروا في الأمصار المختلفة، وكان أكثر العلماء في العراق والجليل وخراسان وفارس من تلاميذه، وحسبنا أن نذكر ما قاله؛ حين زار بلاد خراسان وفارس؛ فإنه لم يدخل قرية أو مدينة إلا وكان قاضيها أو مفتيها أو خطيبها من تلامذته أو من أصحابه (٢)، وفي كتاب "طبقات الشافعية الكبرى" للسبكي، عدد كبير من هؤلاء التلاميذ؛ الذين أصبحوا من أعيان المذهب وعلمائه (٣).

وهذا ما يؤكد القول بأن المدارس التي أنشأها نظام الملك - في

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٤/٢٣٦)، وانظر: مقدمة تحقيق كتاب "طبقات

الفقهاء" للشيرازي، وقد عقب المحقق الدكتور إحسان عباس على الموقف بقوله:

"ومثل هذه الحكاية تُروى عن غير أبي إسحاق مع غير القائم بأمر الله" ص (٧).

(٢) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٤/٢١٦).

(٣) يذكر الدكتور إحسان عباس؛ محقق كتاب "طبقات الفقهاء" للشيرازي، أنه وقف

على سبعة وأربعين من هؤلاء التلاميذ، دون حصر لهم ص (١٩)، والحقيقة أن

العدد أكثر من ذلك بكثير، وقد ذكرت بعضهم في الفصل الأول من الباب الثاني؛

عندما تحدثت عن علماء الحديث والفقهاء في العصر السلجوقي.

البلدان المختلفة- لنصرة المذهب السني، ومقاومة الفكر الشيعي، قد أصبحت -بعد مُدّة يسيرة- من الزمن تحت إشراف خريجي نظامية بغداد، وأن أبا إسحاق الشيرازي كان يمثل الطاقة العلمية؛ التي ساعدت على نشر المذهب السني في القسم الشرقي من الدولة العباسية؛ مما يوضح جهده الكبير، ودوره العظيم في تحقيق ذلك، ولا شك أن هذا من ثمرات المدرسة النظامية في بغداد، وفوائدها الجمة؛ حيث درّس فيها كبار العلماء والفقهاء؛ الذين خلفوا تراثاً علمياً وفكرياً؛ استفاد منه طلاب العلم جيلاً بعد جيل، وخرّجت العلماء الكبار؛ الذين نشروا الفكر السني في بلدانهم. تلك هي جهود أبي إسحاق الشيرازي في مجال التدريس والوعظ؛ التي أدّت دوراً كبيراً في انتعاش المذهب السني، وانتشاره في الأمصار المختلفة، ولم يكتف بذلك، بل كانت له جهود عظيمة أيضاً في مجال التصنيف، ومن أهم مؤلفاته: كتاب "المهذب في المذهب" الذي بدأ تصنيفه سنة (٤٥٥هـ) وفرغ منه سنة (٤٦٩هـ)، وهو كتاب جليل القدر، عظيم الفائدة، اعتنى به فقهاء الشافعية وشرحوه^(١)، وعلقوا عليه، وله كتاب "التنبيه في الفقه"^(٢)، وكتاب "اللمع في أصول

(١) طُبِعَ الكتاب في مصر عام ١٣٢٣هـ، وله شروح كثيرة؛ من أجلها: شرح الإمام

النووي "المجموع". الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٦٢/١٨) حاشية رقم (١).

(٢) طبع في المطبعة الميمنية في مصر عام ١٣٢٩هـ. ذكر ذلك محقق كتاب سير أعلام

النبلاء للذهبي (٤٦٢/١٨) حاشية رقم (٢).

الفصل الثاني: دور العلماء في انتشار المذهب السني ومحاربة التيارات المنحرفة ٧١٣

الفقه^(١)، و"شرح اللمع"، و"الملخص في أصول الفقه"، و"المعونة في الجدل"، و"التبصرة"^(٢)، و"نصح أهل العلم"، وله -أيضاً- كتاب "طبقات الفقهاء"^(٣)، و"النكت في الخلاف"^(٤).

وكان أبو إسحاق الشيرازي يقول: "العلم الذي لا ينتفع به صاحبه أن يكون الرجل عالماً، ولا يكون عاملاً"، وينشد لنفسه:

علمت ما حلل المولى وحرمه فاعمل بعلمك إن العلم بالعمل^(٥)
وكان يقول أيضاً: "الجاهل بالعالم يقتدي، فإذا كان العالم لا يعمل، فالجاهل ما يرجو من نفسه؟، فالله الله يا أولادي، نعوذ بالله من علم يصير

(١) طبع في مطبعة السعادة بالقاهرة عام ١٣٢٦هـ. الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٦٢/١٨) حاشية رقم (٣).

(٢) الكتاب مطبوع بتحقيق الدكتور محمد حسن هيتو، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٠م. الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٦٢/١٨) حاشية رقم (٣).

(٣) الكتاب مطبوع بتحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٨م، وكذلك كتاب "المعونة في الجدل" تحقيق عبد المجيد تركي.

(٤) انظر عن كتبه ومؤلفاته: ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٩/١)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٦٢/١٨)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٢١٥/٤)، الأسنوي: طبقات الشافعية (٧/٢)، الحجوي: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي (٣٣٠/٢)، الزركلي: الأعلام (٥١/١)، مقدمة كتاب طبقات الفقهاء ص (١٩ - ٢٠).

(٥) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٢٢٦/٤).

حجة علينا^(١).

وهكذا يكون العلماء العاملون المخلصون، المدركون أهمية وجودهم في المجتمع الإسلامي، الحاملون أمانة هذا العلم الذي ورثوه عن الأنبياء، ولذلك كان له ثمرة وفائدة؛ نتيجة إخلاصهم وتفانيهم في تبليغه للناس، وحرصهم الدائم على نشره؛ وهذا ما جعل المذهب السني ينتشر على أيدي الطلاب؛ الذين قاموا بذلك خير قيام، وأصبحوا من العلماء العاملين أسوة بأساتذتهم ومشايخهم.

وكانت وفاة أبي إسحاق الشيرازي سنة (٤٧٦هـ)، وصلى عليه الخليفة المقتدي بأمر الله، وقد غسله الفقيه الحنبلي أبو الوفاء بن عقيل^(٢)؛ مما يدل على تقدير العلماء بعضهم لبعض، وحزنهم الشديد لموت العلماء؛ لأن بموتهم يموت العلم وينتشر الجهل، وقد حزن عليه الوزير نظام الملك حزناً شديداً؛ حتى قال: "كان الواجب أن تُغلق المدرسة بعد الشيخ أبي إسحاق سنة"^(٣).

ومن العلماء الذين درّسوا في نظامية بغداد أيضاً، ورحل إليه الفقهاء من الأمصار: أبو نصر عبد السيد بن محمد بن عبد الواحد الصباغ (ت

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٨/٤٥٧)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٢٢٦/٤).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٨/٩)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٢٢٩/٤).

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان (١/٣١)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٨/٤٦١)،

مقدمة كتاب "المعونة في الجدل" للشيرازي، تحقيق عبد المجيد تركي.

الفصل الثاني: دور العلماء في انتشار المذهب السني ومحاربة التيارات المنحرفة ٧١٥

٤٧٧هـ) الفقيه الشافعي، الذي كان يُضاهي أبا إسحاق الشيرازي، وكانوا يقولون: هو أعرف بالمذهب من أبي إسحاق، برع في الفقه حتى أصبح فقيه العراق في عصره، تولى التدريس في المدرسة النظامية في بغداد قبل أبي إسحاق بعشرين يوماً، ثم بعد وفاته، وكانت الرحلة إليه من مختلف البلدان، وكان ابن الصباغ يحاسب نفسه أشد الحسب، انتهت إليه رئاسة الشافعية في بغداد، كان ثبًا حجة دينًا خيرًا ورعًا تقيًا، فقيهاً أصولياً محققاً^(١).

سمع الحديث من أبي علي بن شاذان، ومن أبي الحسين محمد بن الحسين بن الفضل القطان، وقد سمع منه "جزء ابن عرفة" وحدث به ببغداد وأصفهان.

وحدث عنه: ولده المسند أبو القاسم علي بن عبد السيد بن محمد ابن الصباغ، وأبو بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري، وأبو القاسم إسماعيل بن أحمد بن عمر السمرقندي، وإسماعيل بن محمد التميمي،

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٢/٩)، ابن الأثير: الكامل (١٤١/١٠)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢١٧/٣)، ابن النجار: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد ص (٢٩٢)، أبو الفداء: المختصر (١٩٦/٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢٦/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١١٩/٥)، الحجوي: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي (٣٣٠/٢).

وآخرون^(١).

ومثل هؤلاء وغيرهم من العلماء؛ الذين تلقوا العلم عن مشايخهم وعلمائهم، هم الذين يقومون - بعد ذلك - بنشر هذا العلم في بلدانهم؛ الأمر الذي يؤدي إلى نشر المذهب السني، وتأسيس معتقد أهل السنة والجماعة؛ عن طريق قيامهم بالوعظ والتدريس والتصنيف.

وكان بيت ابن الصباغ بيت علم وفضل؛ حيث كان ابنه وأبوه وابن عمه وابن أخيه من العلماء^(٢).

ولابن الصباغ جهود بارزة في مجال التصنيف؛ فمن أهم مؤلفاته: كتاب "الشامل" وهو من أجود كتب الشافعية، وأصحها نقلًا، وأثبتها أدلة، وله كتاب "تذكرة العالم والطريق السالم"^(٣)، وكتاب "كفاية السائل"، و"الفتاوى"، و"العمدة في أصول الفقه"^(٤).

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٦٤/١٨)، العبر (٣٣٧/٢)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (١٢٣/٥).

(٢) انظر في سيرهم وتراجمهم: الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٦٥-٤٦٦)، الأسنوي: طبقات الشافعية (٤٠/٢).

(٣) يذكره السبكي باسم "عدة العالم والطريق السالم". طبقات الشافعية الكبرى (١٢٢/٥).

(٤) ابن الجوزي: المنتظم (١٢/٩)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢١٧/٣)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٦٤/١٨)، العبر (٣٣٧/٢)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى

الفصل الثاني: دور العلماء في انتشار المذهب السني ومحاربة التيارات المنحرفة ٧١٧

وقد أثنى عليه بعض علماء عصره؛ فقال أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي: "لم أدرك -فيمن رأيتُ وحاضرتُ من العلماء على اختلاف مذاهبهم- من كملت له شرائط الاجتهاد المطلق إلا ثلاثة: أبا يعلى بن الفراء، وأبا الفضل الهمداني، وأبا نصر بن الصباغ"^(١).

وكانت وفاة أبي نصر بن الصباغ في شهر جمادى الأولى سنة سبع وسبعين وأربعمائة^(٢)، بعد حياة حافلة بالعلم والإنتاج والتأليف والتدريس والوعظ؛ مما كان له الدور الكبير والمؤثر في نشر الفكر السني في شتى الأمصار؛ عن طريق الطلاب؛ الذين رحلوا إليه من مختلف البلدان، وتلقوا العلم على يديه، ثم قاموا بنشره في بلدانهم؛ أي أنهم أكملوا مسيرة القافلة التي بدأها أولئك العلماء العاملون المخلصون الذين أفنوا أعمارهم في خدمة العلم وطلابهم؛ فلم تؤثر فيهم زخارف الحياة الدنيا وزينتها؛ بل عرفوا قدرها، وزوال ما فيها من نعيم مؤقت؛ فعملوا بما أنعم الله عليهم من علم نافع، وأدوا رسالتهم على الوجه المطلوب؛ سعيًا لما عند الله تعالى من النعيم المقيم؛ الذي لا يحول ولا يزول، فلتكن لنا فيهم أسوة حسنة،

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١١٩/٥)، الحجوي: الفكر

السامي في تاريخ الفقه الإسلامي (٣٣٠/٢).

(٢) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (١٢٣/٥).

(٣) ابن الأثير: الكامل (١٤١/١٠)، الذهبي: العبر (٣٣٧/٢)، ابن كثير: البداية

والنهاية (١٢٦/١٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٥٥/٣).

وعبرة وعظة، نسير على فهمهم، ونقتفي آثارهم، ونحاول أن نتشبه بهم، ونعمل شيئاً مما عملوه، ولو يسيراً؛ فإن التشبه بالكرام فلاح^(١).

ومن درّس - في المدرسة النظامية ببغداد - أبو سعد عبد الرحمن بن مأمون المتولي (ت ٤٧٨ هـ-)، برع في الفقه والأصول والخلاف، كان فقيهاً محققاً وحريراً مدققاً؛ وهو صاحب كتاب "التتمة" تم به "الإبانة" لشيخه أبي القاسم الفوراني، وصنف كتاباً في أصول الدين^(٢)، وكتاباً في الخلاف، ومختصراً في الفرائض، روى عنه جماعة من العلماء، درّس بالمدرسة النظامية بعد الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، ثم عُزل بابن الصباغ، ثم أعيد للتدريس، واستمر بها حتى وفاته، وكان فصيحاً بليغاً فاضلاً، رفيع الشأن، بعيد الصيت، توفي سنة ثمان وسبعين وأربعمائة في بغداد^(٣).

(١) هذه الجملة عجز بيت مشهور يُستشهد به في مثل هذا المقام، والبيت بتمامه:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

(٢) اسمه "الغنية في أصول الدين" والكتاب مطبوع بتحقيق عماد الدين حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط ١، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٧ م.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (١٨/٩)، ابن الأثير: الكامل (١٠/١٤٦)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٣/١٣٣)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٨/٥٨٥)، العبر (٢/٣٣٨)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٥/١٠٦)، الأسنوي: طبقات الشافعية (١/١٤٧)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١٢٨)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣/٣٥٨)، الحجوي: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي (٢/٣٣٠)، قال ابن خلكان: ولم أقف على المعنى الذي سُمي به المتولي، وانظر كذلك: مقدمة كتاب "الغنية في أصول الدين" للمتولي ص (٣٦-٣٨) تحقيق عماد الدين حيدر.

ومن العلماء؛ الذين كانت لهم جهود عظيمة في انتعاش المذهب السني، وانتشاره في الأمصار؛ خلال العصر السلجوقي: العلامة، مفتي الشافعية، أبو عبد الله الحسين بن محمد بن عبد الله الطبري (ت ٤٩٥هـ)، درّس في نظامية بغداد، وكان قد قدم إليها في الصبا، وسكنها، وتفقه على القاضي أبي الطيب الطبري، وسمع منه، ولزم الشيخ أبا إسحاق حتى أحكم المذهب والأصول والخلاف.

وفي سنة (٤٨٣هـ) قدم أبو عبد الله الطبري بمنشور من نظام الملك إلى بغداد؛ بتوليه التدريس في المدرسة النظامية؛ فدرس بها، ثم قدم - بعد أشهر - الفقيه أبو محمد عبد الوهاب بن محمد الفامي الشيرازي^(١) إلى بغداد، ومعه أيضًا منشور بالتدريس في النظامية؛ فاستقر الأمر على أن يُدرس هذا يومًا، وهذا يومًا^(٢)، فدرسا مدة من الزمن، ثم صُرفا بتولية الغزالي، فلما حج الغزالي سنة (٤٨٨هـ)، ثم ذهب إلى الشام، وأطال الغيبة، درس الشيخ أبو عبد الله الطبري مرة أخرى بالمدرسة النظامية في بغداد؛ حيث رتبته فيها فخر الملك ابن نظام الملك - وزير السلطان

(١) سيأتي الحديث عنه في هذا الفصل - إن شاء الله - أما أبو الطيب الطبري (ت ٤٥٠هـ) فقد تقدمت ترجمته في الفصل الأول من الباب الثاني.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٥٣/٩)، ابن الأثير: الكامل (١٨٥/١٠)، ابن الكثير: البداية والنهاية (١٣٦/١٢).

السلجوقي بركياروق - وذلك سنة (٤٨٩هـ)^(١) واستمر في التدريس أكثر من ثلاث سنوات، ثم سار إلى أصبهان لودائع كانت عنده، وكانت وفاته سنة خمس وتسعين وأربعمائة بأصبهان، وقد جاوز تسعين سنة^(٢).

ومن العلماء؛ الذين تولوا التدريس في نظامية بغداد أيضاً: أبو القاسم علي بن أبي يعلى بن زيد الدبوسي، كان فقيهاً ماهراً، سمع الحديث، درس في النظامية بعد الشيخ أبي سعد عبد الرحمن بن مأمون المتولي، توفي في بغداد سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة^(٣).

أما الإمام أبو محمد عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب بن محمد ابن عبد الواحد الفارسي الفامي الشيرازي، فقد كان من العلماء الذين درسوا في نظامية بغداد؛ حيث قدم إليها سنة (٤٨٣هـ) مشاركاً في التدريس فيها مع الشيخ أبي عبد الله الحسين بن محمد الطبري؛ المتقدم ذكره؛ فكان كل واحد منهم يدرس يوماً، وكان أبو محمد الشيرازي من

(١) ابن الأثير: الكامل (٢٦٠/١٠)، وفخر الملك هو علي ابن نظام الملك، المتوفى سنة (٥٠٠هـ) قتله الباطنية. ابن الجوزي: المنتظم (١٤٨/٩)، وقد تقدم الحديث عنه في الفصل الثالث من الباب الأول.

(٢) ابن الأثير: الكامل (٢٦٠/١٠)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٢١٠/١٩).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (٥٠/٩)، ابن الأثير: الكامل (١٨١/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٣٥/١٢-١٣٦)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٢٩/٥) وفيه أن الوزير نظام الملك استقدمه إلى بغداد للتدريس في مدرسته النظامية.

الفصل الثاني: دور العلماء في انتشار المذهب السني ومحاربة التيارات المنحرفة ٧٢١

أئمة الشافعية وكبارهم، حدث عنه جماعة من العلماء^(١)، اشتغل بالتصنيف كثيراً؛ حيث بلغت تصانيفه سبعين مصنفاً، وله تفسير ضمنه مائة ألف بيت من الشواهد الشعرية، وكان بارعاً في معرفة المذهب، وقد سمع الحديث الكثير، وأملى بجامع القصر، قال يحيى بن مندة: "هو أحفظ من رأيناه لمذهب الشافعي"، له كتاب "تاريخ الفقهاء"، توفي بشيراز سنة خمسائة للهجرة^(٢).

كذلك من العلماء؛ الذين كان لهم دور بارز، وجهود واضحة في نشر المذهب السني، وتأصيل معتقد أهل السنة والجماعة في ذلك العصر: أبو الحسن علي بن محمد بن علي الطبري؛ المعروف بألكيا الهراسي؛ شيخ الشافعية ببغداد، وأحد الفقهاء الكبار، تفقه على إمام الحرمين الجويني؛ وهو أجل تلامذته بعد الغزالي، كان فصيحاً فقيهاً أصولياً، وإماماً نظاراً محدثاً، سمع الحديث الكثير، وناظر وأفق ودرس، وكان من أكابر

(١) منهم: عبد الوهاب الأنماطي، وابن ناصر، وأبو علي بن سُكرة، وغيرهم. الذهبي: سير أعلام النبلاء (٢٤٩/١٩).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٥٢/٩)، ابن الأثير: الكامل (٤٣٩/١٠)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٢٢٩/٥)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٢٤٨/١٩)، ميزان الاعتدال (٣٩٧/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٦٨/١٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (٤١٣/٣)، ويذكر الذهبي أنه رمي بالاعتزال حتى فرّ بنفسه، وحُفظ عليه تصحيح شنيع. سير أعلام النبلاء (٢٤٩/١٩)، ولم يذكر ذلك أحد غيره؛ ممن ترجم له، أي: رميه بالاعتزال، فيما اطلعت عليه.

الفضلاء، وسادات الفقهاء.

كان يقول: "إذا جالت فرسان الأحاديث في ميادين الكفاح، طارت رؤوس المقاييس في مهاب الرياح"، له باع واطلاع، تولى التدريس بالمدرسة النظامية في بغداد، وروى عنه جماعة من العلماء، وتخرج على يديه كثير من طلبة العلم؛ الذين قاموا بنشر مذهب أهل السنة في بلادهم؛ الأمر الذي يوضح الآثار الجليلة للمدرسة النظامية في بغداد، ودورها الكبير في هذا الجانب؛ حيث استقطبت كبار العلماء والفقهاء من أعلام الإسلام؛ الذين رحل إليهم الكثير من الطلاب من مختلف الأمصار؛ ينهلون من علمهم، ويأخذون عنهم؛ ليلغوه إلى بلادهم؛ مما مكن لمذهب أهل السنة، وحافظ على كيانهم، وأدى إلى غلبته وانتشاره - بفضل الله تعالى، ثم بفضل أولئك العلماء المخلصين الذين جاهدوا في الله حق جهاده، وعملوا بما علموه - فدرسوا ووعظوا وصنفوا، وحذروا الناس من البدع والأهواء والتيارات المخالفة؛ التي كادت أن تعصف بهم.

ومن مصنفات ألكيا الهراسي كتاب "أحكام القرآن"، و"شفاء المسترشدين"، و"الوامع الدلائل في زوايا المسائل"، وتعليق في الأصول"، وله كتاب في الرد على مفردات الإمام أحمد وغيرها.

توفي سنة أربع وخمسمائة؛ وله خمسون سنة، وكانوا يلقبونه "شمس

الإسلام" (١).

ومن العلماء؛ الذين كانت لهم جهود متنوّعة ضد الباطنية والفلاسفة وأهل الكلام: أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) صاحب المؤلفات الكثيرة والمتنوعة؛ التي احتوى بعضها على بعض الأخطاء والضلالات والخطر، ومن ذلك كتابه "إحياء علوم الدين" حيث يقول عنه ابن كثير: "وهو كتاب عجيب؛ يشتمل على علوم كثيرة من الشرعيّات، وممزوج بأشياء لطيفة من التصوّف وأعمال القلوب، لكن فيه أحاديث كثيرة، غرائب ومنكرات وموضوعات، كما يوجد في غيره من كتب الفروع؛ التي يُستدل بها على الحلال والحرام.." (٢).

ويقول الذهبي: "أما الإحياء ففيه من الأحاديث الباطلة جملة، وفيه خير كثير، لولا ما فيه من آداب ورسوم وزهد من طرائق الحكماء ومنحرفي الصوفيّة... نسأل الله علماً نافعاً، تدري ما العلم النافع، وهو ما نزل به القرآن، وفسّره الرسول ﷺ قولاً وفعلاً، ولم يأت نهي" عنه، قال -

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٦٣/٩)، ابن النجار: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد ص (٣٤٧)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٥٤٣/٢)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٢٣١/٧)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣٥٠/١٩)، الحجوي: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي (٣٣٣/٢)، وقد تقدم أن "ألكيا" في اللغة العجمية: الكبير القدر، المقدم بين الناس. ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٨٩/٣)، محمود مصطفى: إعجام الأعلام ص (١٧٤).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (١٧٤/١٢).

عليه الصلاة والسلام-: من رغب عن سنِّي فليس مِنِّي؛ فعليك -يا أخي- بتدبُّر كتاب الله، وبإدمان النظر في الصحيحين وسنن النَّسائي ورياض النووي وأذكاره تفلح وتنجح، وإياك وآراء عبَّاد الفلاسفة، ووظائف أهل الرِّياضيات، وجوع الرُّهبان، وخطاب طيش رؤوس أصحاب الخلوات؛ فكل الخير في متابعة الحنيفية السمحة، فواغوثاه بالله، اللهم اهدنا إلى صراطك المستقيم" (١).

ويذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن كتاب "الإحياء" غالبه جيّد، وأن فيه فوائد كثيرة، لكنه أشار إلى أن فيه مواد مذمومة وفسادة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد، فإذا ذكر معارف الصوفية كان بمزلة من أخذ عدوًّا للمسلمين ألبسه ثياب المسلمين، وفيه مواد فاسدة، مادة فلسفية، ومادة كلامية، ومادة من ثرّهات الصوفية، ومادة من الأحاديث الموضوعية، وقد أنكر أئمة الدِّين على أبي حامد هذا الذي في كتبه، وقالوا: أمرضه الشفاء -يعني: شفاء ابن سينا في الفلسفة- (٢).

ويوضِّح شيخ الإسلام ابن تيمية -أيضاً- عن الغزالي أنه رجع في آخر حياته لمذهب السلف، وصار يدعو إلى الاتباع، وترك الابتداع، وأنه مال أخيراً إلى أهل الحديث، ومات وصحيح البخاري على صدره، أي:

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣٣٩/١٩-٣٤٠). عبد الكريم عثمان: سيرة الغزالي ص

(٧٩-٨٣).

(٢) ابن تيمية: مجموع الفتاوى (١٠/٥٥١-٥٥٢)، (٦/٥٥).

أنه رجع عن ذلك واستقر أمره على التلقي من أهل الحديث، ومات في أثناء ذلك على أحسن أحواله، وكان كارهاً ما وقع في كتبه؛ مما أنكره الناس عليه^(١).

ويذكر ابن أبي العز أن الغزالي انتهى أمره إلى التوقف والحيرة في المسائل الكلامية، ثم أعرض عن ذلك كله، وأقبل على أحاديث الرسول ﷺ فمات والبخاري على صدره، أي: صحيح البخاري^(٢).

وقد ذكر الذهبي عن الغزالي قوله: "لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما اشتغلتُ بعلم الكلام"^(٣).

والآن، نتابع الحديث عن جهود الغزالي، وموقفه من أهل الكلام والفلسفة، وتصديده للباطنية في ذلك العصر؛ فبعد أن خاض الغزالي كثيراً في علم الكلام وتحصيله، ذمّه وحذر الناس من الاشتغال به، وليس أدلّ على ذلك من تأليفه كتابه المسمّى "إلجام العوام عن علم الكلام" حيث أتضح له خطر هذا العلم، وعدم الوصول إلى المراد؛ بل شدة الاضطراب والتردد والحيرة، والخلاصة أنه أعرض عن ذلك كله، وذكر في رسالته

(١) ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل (٦/٢١٠).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص (١٦٧).

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٨/٤٧٣).

"أيها الولد" قوله: "أي شيء حاصل لك من تحصيل علم الكلام غير تضييع العمر"^(١).

ثم إن الغزالي يُحيل الناس في كتاب "إلجام العوام" على مذهب السلف قائلاً: "إن الحق هو مذهب السلف، وأن مَنْ خالفهم فهو مبتدع"^(٢).

أما بالنسبة للفلسفة، فقد تصدَّى الغزالي للقضايا الأساسية؛ التي قام عليها فكر الفلاسفة؛ حيث أخذ في دراستها وتحصيلها؛ كي يطلع على فكرهم ومنهجهم، ثم يردُّ عليهم، ويُفند أفكارهم، كما أوضح ذلك في كتابه "المنقذ من الضلال"^(٣).

وقد عرض الغزالي في كتابه "تهافت الفلاسفة" الذي صنّفه في الرد عليهم المسائل المتعلقة بهم في عشرين مسألة، وتفحصها جيّداً، وعرض لأقوالهم بعض الفلاسفة واتجاهاتهم، وناقشهم في آرائهم، وبين ما هو منها مخالف للإسلام مخالفة صريحة واضحة، وما هو دون ذلك، وانتهى إلى تكفير الفلاسفة في ثلاث مسائل؛ وهي: مسألة قِدَم العَالَم، وقولهم: إن الله

(١) الغزالي: أيها الولد ص (١٠٦-١٠٧).

(٢) عبد الرحمن دمشقية: أبو حامد الغزالي والتصوف ص (٩٥)، نقلًا عن كتاب "إلجام العوام" ص (٦٢).

(٣) المنقذ من الضلال ص (٢٩-٣٠).

تعالى لا يُحيط علمًا بالجزئيات الحادثة من الأشخاص، وإنكارهم بعث الأجساد وحشرها، وتبديعهم في السبع عشرة الباقية^(١).

ويخلص الغزالي - بعد مناقشة الفلاسفة في "التهافت" والرد عليهم- إلى توضيح خطر هذه الفلسفة، واصطدامها بالعقيدة الإسلامية بشكل أساسي، وتحذير الناس منها، وعدم الاغترار بتلك الأفكار والاتجاهات الخطيرة. والكتاب -إجمالاً- فيه أشياء حسنة كثيرة، وردود مفيدة عن الفلاسفة، وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى الجوانب الجيدة والمفيدة في الكتاب^(٢).

أما جهود الغزالي ضد الباطنية، ودوره الرائد في ذلك؛ فُيَعَدُّ من أهم آثاره ومواقفه في العصر السلجوقي، ويعد أيضًا إحدى ثمرات المدارس النظامية؛ التي مهدت الطريق لسيادة المذهب السني وانتشاره، وتقلص نفوذ الفكر الشيعي، لاسيما بعد أن خرجت المؤلفات المناهضة له من هذه المدارس، وكان أبو حامد الغزالي على قمة العلماء والمفكرين الذين شنوا حربًا شعواء على الشيعة بصفة عامة، والباطنية بصفة خاصة، وبصفته معاصرًا لتلك الأحداث والتيارات، فقد كشف كثيرًا من أساليب هؤلاء الباطنية في مؤلفاته عنهم؛ لأنه أُلّف في ذلك كتبًا عدة، أشهرها "فضائح الباطنية وفضائل المستظهيرية" أو "المستظهري"، نسبة إلى الخليفة المستظهر

(١) الغزالي: تهافت الفلاسفة ص (٣٠٨-٣٠٩). المنقذ من الضلال ص (٣٥-٣٩).

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل (١/١٦٣) وما بعدها.

بالله؛ الذي أدرك مدى الخطر الفكري والعقائدي؛ الذي أحدثته الباطنية في عقول الناس، إلى جانب عمليات القتل والاغتيالات؛ التي نفذتها ضد مناوئها ومناهضيها. وقد ذكرت ذلك سابقاً؛ ولذا أتجنب تكراره هنا^(١)، لذلك طلب المستظهر من العلماء والفقهاء أن يتصدوا لهذه الفتنة بالحجة والبرهان، وتحذير الناس من هذا الخطر، وهذه الفرقة الحاقدة على الإسلام المتآمرة عليه.

وقد نفذ الغزالي -وهو ما يهمنا هنا- طلب المستظهر بشوق واجتهاد، وألف كتابه المذكور آنفاً، ورد عليهم، وكشف مزاعمهم وبدعهم وضلالاتهم، وفنون مكرهم وخططهم، واحتيالاتهم، وانسلاهم من ربة الإسلام، ويوضح لنا الغزالي قصة تأليف هذا الكتاب؛ وهو يستعرض حياته الفكرية؛ فيقول: "وكان قد نبغت نابغة التعليمية (الباطنية) وشاع بين الخلق تحدثهم بمعرفة معنى الأمور من جهة الإمام المعصوم القائم بالحق، عَنِّي لي أن أبحث عن مقالاتهم؛ لأطلع على ما في كتبهم، ثم اتفق أن ورد علي أمر حازم من حضرة الخلافة بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم؛ فلم يسعني مدافعتهم"^(٢).

(١) أي: التعريف بالباطنية وأسمائها المتعددة، وجوانب من عقائدهم وأفكارهم، وذكر بعض الخلفاء والسلاطين والوزراء والعلماء والقادة المسلمين؛ الذين ذهبوا ضحايا لهم؛ كل ذلك في الفصل الثالث من الباب الأول، فلينظر هناك.

(٢) الغزالي: المنقذ من الضلال ص (٤١)، والتعليمية من أسمائهم حيث يدعون الناس إلى التعلم من الإمام المعصوم. ابن الجوزي: تلبس إبليس ص (١٢٣).

وكان الغزالي متحمسًا جدًا في رده على مبادئ الباطنية وأفكارهم؛ وهو يرى في تنفيذ أمر الخليفة امتثالاً لأمر الله بطاعة ولي الأمر؛ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾^(١)، إضافة على أن المأمور به فيه دفاع عن الحق المبين، ونضال دون حجة الدين، وقطع لدابر الملحدين^(٢).

ولقد كان التأثير الفكري للإمام الغزالي قوياً في مجال الرد عليهم؛ حيث تمكن -بذكائه، وسعة اطلاعه، وتجربته الفكرية الطويلة- أن يُفند كل ما عند الباطنية من تصورات ومعتقدات، فقد تحدث عن بيان الباعث للباطنية على نصب هذه الدعوة، وإفاضة هذه البدعة؛ فأوضح أن الذين يدعون هذه الدعوة الباطنية لا ينتسبون إلى ملة، وأن غاية هذه الدعوة الانسلاخ من الدين؛ كانسلاخ الشعرة من العجين، كذلك أوضح رؤاها والقائمين عليها^(٣).

وفي موضع آخر يذكر الغزالي بعض حيل هؤلاء الباطنية؛ لاستدراج الناس؛ فيذكر منها حيلة التشكيك، وتقوم هذه الحيلة على تشكيك الناس

(١) سورة النساء: آية ٥٩.

(٢) الغزالي: فضائح الباطنية ص (٤٠٣)، ويعد هذا الكتاب من أبرز الجهود العلمية؛ التي كتبت ضد الباطنية. أحمد محمد جلي: الخوارج والشيعة ص (٢٣٤).

(٣) وهم جماعة من المجوس والمزدكية وشرذمة من الثنوية الملحدون، وطائفة من ملاحدة الفلاسفة المتقدمين. فضائح الباطنية ص (٢٣٤).

في دينهم، وإثارة الأسئلة المحيرة في شؤون الدين؛ ليتزعزع إيمانهم، وتتأثر عقيدتهم.

ثم يبين - في موضع ثالث - السبب في رواج هؤلاء الباطنية، وانتشار دعوتهم، مع ركافة حجّتهم، وفساد طريقتهم، ويوضح الأصناف؛ التي تستجيب لهم، وتتأثر بأفكارهم^(١).

والكتاب - بصفة عامة - موجود بين أيدينا، ويقع في عشرة أبواب؛ تحدث الغزالي - في الأبواب الثمانية الأولى - عن الباطنية، وسبب بعث دعوتهم، ودرجات ترقّي المدعوين فيها وأصنافهم، وسبب انتشارها، ثم يفصل عقيدتهم في الألوهية والنبوة والإمامة والقيامة والمعاد والتكاليف الشرعية، وتأويلهم للظاهر، وإثبات التعليم من الإمام المعصوم، وفتوى الشرع في حقهم. أما في الباب التاسع فقد خصّصه لإقامة البراهين الشرعية على وجوب طاعة الإمام القائم بالحق، والواجب على الخلق طاعته هو الخليفة المستظهر، ثم يفصل صفات الإمام والوظائف الدينية؛ التي يقوم بها، ويعلن أن إمامة المستظهر أجمع عليها أئمة العصر وعلماء الدهر وجماهير الخلق إلا شردمة الباطنية^(٢).

(١) الغزالي: فضائح الباطنية ص (٣-١٢-١٨-٢٠-٢٦-٣٣).

(٢) الكتاب مطبوع عدة طبعات، أشهرها بتحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي.

وقد صرف الغزالي كثيراً من الجهد والوقت في كتابه ذلك الذي كان له أثره القوي في تراجع فكر الشيعة وانحساره^(١)، في الوقت الذي انتعش الفكر السني، وأصبحت له غلبة وقوة وانتشار، ولا شك أن هذا الجهد المبذول من الغزالي كان بدافع ديني؛ يهدف للدفاع عن عقيدة أهل السنة؛ حيث ذكر أن الهدف الأساسي للباطنية هو هدم الشريعة بتأويل ظواهرها وتحريفها؛ لتلائم مقاصدهم وأفكارهم^(٢)؛ لأنه حزّ في نفوسهم أن يروا الإسلام مسيطراً على بلادهم؛ فابتكروا هذه العقيدة؛ كي يفتكروا بالإسلام من الداخل بطريقة المكر والاحتيال، وانتسبوا إلى أهل البيت، وتباكوا من الظلم؛ الذي حلّ بهم، وقبحوا أحوال السلف وما نقل عنهم، وقالوا: إن للقرآن ظاهراً وباطناً، وهكذا حتى وصلوا إلى السلطة ومن ثم سيطروا على البلاد والعباد، وينتقموا من أعدائهم بالنهب وسفك الدماء^(٣).

(١) وهذا يوضح أن الفكر الشيعي بدأ تأثيره ونفوذه يتضاءل بعد انتشار المدارس النظامية، يدل على ذلك أن الغزالي نفسه أشار إلى أنه استمد كثيراً من شبه الباطنية وأفكارهم التي أثاروها من أصدقاء وأصحاب له كانوا يترددون عليه، وكان هؤلاء ممن التحق بالشيعة وانتحل مذهبهم، ثم أنقذهم الله بفضلهم وتوفيقه. انظر: المنقذ من الضلال ص (٤٢).

(٢) الغزالي: إحياء علوم الدين (١/٣٧).

(٣) الغزالي: فضائح الباطنية ص (١٨-٢٠).

وما يجب توضيحه -هنا- ونحن بصدد الحديث عن جهود الغزالي في الرد على الباطنية، وتفنيده أفكارهم، هو أن مجابهة الغزالي لهم والرد عليهم جاء في وقت انتشر فيه دعواتهم في فارس، وخطرهم، وقوي نشاطهم؛ حتى أقاموا الحصون والقلاع، وهددوا أمن الناس وسلامتهم؛ فانتشر الخوف، وعمّ الاضطراب؛ حيث قاموا باغتيال العلماء والقادة والمفكرين ورجال الدولة، ومن هؤلاء نظام الملك الذي كان يقاوم الدعوات الهدامة؛ التي بدأت تنتشر، ويزداد خطرهما، ومن أهمها الباطنية التي رأى وجوب القضاء عليها.

والغزالي -وإن قام بهذا الدور، والجهد بدافع ذاتي- قام بذلك أيضاً بتوجيه من السلطة القائمة على مصالح البلاد والعباد، ومعنى هذا أن الغزالي حقق إحدى الغايات؛ التي استهدفتها السلطة من إنشاء المدارس النظامية، وهذه الغاية تتمثل في مقاومة الفكر الشيعي، والحفاظ على السنة، ونشر المذهب السني^(١)؛ وهذا لا يقدر في جهد الغزالي وأثره العظيم في التصدي لهم؛ لأن العلماء والحكام كان هدفهم واحداً وغايتهم واحدة، وهي الحفاظ على الدين، ومصصلحة المسلمين، وإنقاذ الناس من الشرور والأخطار التي تعترضهم.

(١) عبد المجيد بدوي: التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص (٢٣٩)، طه ندا:

فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية ص (٨٨).

ومن المناسب أن أشير -أيضاً- إلى أن كتاب "فضائح الباطنية" لم يكن الكتاب الوحيد؛ الذي هاجم فيه الغزالي عقائد الباطنية وأفكارهم؛ وإنما كان الكتاب الأول في هذا الصدد، ثم توالى كتبه بعد ذلك، ومنها كتاب "حجة الحق"، و"مفصل الخلاف"، و"القسطاس المستقيم"، و"الدرج"^(١).

وهكذا جاهد الغزالي بعلمه وفكره، ووقف -بقوة- إزاء التيارات الفكرية المنحرفة، ونشر العلم للدفاع عن الإسلام، والرد على أهل الفسق والضلال والظلم والانحراف والإلحاد، وكانت نظرته إلى العلوم أنها لا بد أن تكون خادمة للدين، وأنه لا تناقض بين العلم والدين، وأن المرجع الأساسي والأصل الذي لا يمكن الحياد عنه هو الكتاب والسنة، وأنه لا يمكن للعالم أن يتعد عن مشاكل مجتمعه؛ بل لا بد أن يتعايش معها ويحاول حلها؛ على ضوء شريعة الإسلام الخالدة، وكان مصلحاً اجتماعياً، ندّد بما وصل إليه حال المسلمين من الانحراف عن أصول الدين القويم؛ المستمد من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ فعمل على إيقاظ الفضيلة بين المسلمين، ودعا إلى إصلاح المجتمع الإسلامي إصلاحاً شاملاً، وفند

(١) الغزالي: المنقذ من الضلال ص (٤٣-٤٦)، وكتاب "حجة الحق" أحد الكتب التي بين فيها الغزالي فساد مذهب الباطنية، وكذلك كتاب "مفصل الخلاف" الذي رد فيه على الباطنية، وكتاب "الدرج" انتقد فيه أيضاً الباطنية ورد عليهم، أما كتاب "القسطاس المستقيم" فقد ناقش فيه الباطنية أيضاً ورد عليهم وتصدى لهم، كذلك تطرق فيه إلى بيان ميزان العلوم.

دعاوى الباطنية والفلاسفة، ونقدمهم، وكشف ضلالاتهم، إضافة إلى آثاره وجهوده في التدريس والتصنيف، وتفقه الكثير من الطلبة على يديه، ونشرهم المذهب السني - بعد ذلك - في شتى الأقطار، ومصنفاته أكثر من أن تحصى؛ لأنها في شتى العلوم، وقد أشرت إلى كثير منها سابقاً.

والغزالي كان أنضج ثمرات المدارس النظامية، وأحد أعظم فوائدها؛ حيث استطاع بفكره القوي، وبما نال من علم وشهرة أن يكون ذا تأثير قوي في مقاومة الباطنية، ومقاومة الفكر الشيعي وانحساره وخفت صوته؛ وهذا ما جعلنا نقف منه هذه الوقفة الطويلة؛ لأنه جدير بذلك، حيث الأثر العظيم والدور الكبير الذي قام به؛ رغم ما اعتراه من بعض الهفوات والسقطات، ولكنه - كما قال الذهبي: "الغزالي إمام كبير، وما من شرط العالم أنه لا يخطئ"^(١).

(١) سير أعلام النبلاء (٣٣٩/١٩)، وانظر: عبد الكريم العثمان: سيرة الغزالي وأقوال المتقدمين فيه ص (٧٩)، عبد الرحمن دمشقية: أبو حامد الغزالي والتصوف ص (٣١٥)، ويحسن بنا أن نختتم الحديث عن الغزالي بذكر خاتمته، ورجوعه لمذهب السلف؛ ففي آخر حياته صار يدعو إلى الكف والاتباع، وترك الابتداع، والعمل بما كان عليه السلف الصالح، وإن نظرة عامة إلى كتابه المسمى "إلجام العوام عن علم الكلام" - وهو من آخر مصنفاته على الإطلاق - ليثبت لنا حقيقة هذا التغير من وجهه عديدة؛ فقد انتصر - في هذا الكتاب - لعقيدة السلف منبهاً على أن الحق هو مذهب السلف، وأن من خالفهم في ذلك فهو مبتدع. انظر: إلجام العوام ص (٦٢)، وأنه نهي عن التأويل أشد النهي، داعياً إلى إثبات صفات الله تعالى، وعدم

تأويلها بما يؤدي بها إلى التعطيل حيث قال: "إن علاج وهم التشبيه أسهل من علاج التعطيل؛ إذ يكفي أن يقال مع هذه الظواهر "ليس كمثله شيء". نفسه ص (١٠٨)، ثم يقول في موضع آخر: "الدليل على أن مذهب السلف هو الحق: أن نقيضه بدعة، والبدعة مذمومة وضلالة، والخوض من جهة العوام في التأويل، والخوض بهم من جهة العلماء بدعة مذمومة، وكان نقيضه -وهو الكف عن ذلك- سنة محمودة..". إجماع العوام ص (٩٦)، وهذه المرة الأولى؛ التي ينهى فيها الغزالي العوام والعلماء عن التأويل؛ فقد كان -في السابق- ينهى العوام عن الشيء السذي يبيحه للعلماء، وهذا فرق عظيم، ثم ذكر بأن الصحابة والتابعين -في طول عصرهم إلى آخر أعمارهم- ما دعوا الخلق إلى البحث والتفتيش والتأويل والتفسير والتعرض لمثل هذه الأمور؛ بل بالغوا في زجر من خاض فيه وسأل عنه وتكلم به، وأضاف: فنعلم بالقطع من هذه الأصول أن الحق ما قالوه، والصواب ما رأوه، لاسيما وقد أتى عليهم رسول الله ﷺ وقال: ((خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)). نفس المصدر والصفحة؛ وهذا تحول كبير بين الموقف المتأخر للغزالي من علم الكلام وما سبقه من مواقف؛ فقد كان يرى علم الكلام ضرورياً لحراسة العقائد وحفظها على العوام من تشويشات المبتدعة، بينما يرى -هنا- أنه بدعة مذمومة، مخالفة للهدى النبوي وسبيل السلف، وسبق أن ذكرت أن الغزالي عكف -آخر حياته- على كتب الصحاح؛ كالبخاري ومسلم وسنن أبي داود، واشتغل بها، وكان ابن تيمية -رحمه الله- ممن يذكرون بهذه المرحلة الأخيرة؛ التي ختم بها حياته، مكرراً ذلك في أكثر كتبه، مؤكداً أن الغزالي مال أخيراً إلى أهل الحديث، ومات وصحيح البخاري على صدره؛ وهذا إنصاف منه -رحمه الله- وحسن نظر، رغم تعرضه لآراء الغزالي بالنقد؛ لأنه بذلك لا يريد الغزالي بشخصه؛ وإنما التحذير من بعض آرائه؛ التي سطرها قبل توبته؛ لاسيما ما يخالف الشرع منها.

واستكمالاً لجهود العلماء ودورهم في نشر المذهب السني في العصر السلجوقي، أوصل الحديث عنهم، فمن هؤلاء العلماء؛ الذين تولوا التدريس في نظامية بغداد، وكان من ثمارها وفوائدها؛ لأن هذه المدارس حققت الكثير من الأهداف والثمار الياضة؛ حيث نجحت في نشر المذهب السني، وسيادته في شتى الأمصار، وانتعاشه وغلبته ومن ثم ضعف المذهب الشيعي وانحساره وخفت صوته؛ وهذا لم يتحقق إلا بفضل الله تعالى، ثم جهود أولئك العلماء المخلصين؛ الذين أبلوا البلاء الحسن في نشر هذا الدين العظيم، والوقوف -بقوة- تجاه التيارات المنحرفة.

فمن أولئك العلماء، واستكمالاً لما ذكرنا قبل ذلك: فخر الإسلام، أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي، شيخ الشافعية، تولى التدريس بالنظامية بعد الغزالي، حدث عن الشاشي جماعة من العلماء، وتخرج به

ولا شك أن في رجوع الغزالي إلى مصدر المعرفة اليقيني، وطريق الهداية الوحيد، عبرة بالغة يجب أن نستفيد منها في عصرنا الحاضر؛ لأننا نعيش في معترك من الأهواء والأفكار والاتجاهات؛ التي يحار فيها المرء: أيها يدع؟ وأيها يختار؟ رغم أني لا أتصور أن أحدًا من هؤلاء الحيارى يصل إلى عبقرية الغزالي الفذة، وتبحره العميق، وتجربته الطويلة، ولكن أخي المسلم: كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ بين يديك، وطريق أهل السنة والجماعة نصب عينيك؛ فلا تبغ به بديلاً، ولا ترغب عنه تحويلاً؛ فالخير كل الخير في اتباع منهج السلف الموافق للكتاب والسنة. انتهى ملخصاً من كتاب عبد الرحمن دمشقية: أبو حامد الغزالي والتصوف ص (٤١٩-٤٣٣).

كثير من الأصحاب ببغداد^(١)، الذين أصبحوا -بعد ذلك- من العلماء؛ الذين كان لهم الدور البارز والجهود العظيمة في نشر المذهب السني، وهذه ثمار المدارس النظامية بصفة عامة، ونظامية بغداد خاصة، وللشاشي تصانيف حسنة؛ أهمها كتاب "حلية العلماء"^(٢) في المذهب؛ حيث ذكر فيه مذهب الشافعي، ثم ضم إلى كل مسألة اختلاف الأئمة فيها، وجمع من ذلك شيئاً كثيراً، وسماه "المستظهري" لأنه صنفه للخليفة المستظهر بالله (٤٨٧-٥١٢هـ)، وصنف -أيضاً- في الخلاف^(٣)، وكان الشاشي قد تولى التدريس في نظامية بغداد مرتين، ودرس -أيضاً- بمدرسة تاج الملك

(١) ابن عساكر: تبين كذب المفتري ص (٣٠٦-٣٠٧)، ابن النجار: المستفاد من ذيلى تاريخ بغداد ص (٧٧)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣٩٣/١٩-٣٩٤)، تذكرة الحفاظ (١٢٤١/٤)، ومن حدث عنه: أبو المعمر الأزجي، وعلي بن أحمد البيزوي، وأبو بكر بن النقور، وأبو طاهر السلفي، وفخر النساء شهده، وغيرهم. الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣٩٤/١٩)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (١١/٦).

(٢) سبق أن ذكرت أن كتاب "الحلية" مطبوع، بتحقيق الدكتور ياسين دراركة؛ وذلك في الفصل الثالث من الباب الأول.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٢٠/٤)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣٩٤/١٩)، ويضيف السبكي وابن العماد لمصنفاته كتاب "المعتمد"، و"الترغيب"، و"العمدة"، و"الشافي في شرح الشامل" في عشرين مجلداً، ومات ولم يكمله، و"شرح مختصر المزني". طبقات الشافعية الكبرى (٧٢/٦)، شذرات الذهب (١٧/٤)، والشامل لابن الصباغ، وقد تقدم ذكره.

-وزير السلطان ملكشاه-^(١)، توفي في شوال سنة سبع وخمسمائة للهجرة، ودفن إلى جانب شيخه أبي إسحاق الشيرازي^(٢).
كما كان من أشهر علماء النظاميات -أيضاً- ومن كان له دور وجهود بارزة في نشر المذهب السني في ذلك العصر؛ عن طريق كثرة طلابه وتلاميذه: الفقيه الشافعي أحمد بن علي بن محمد الوكيل؛ المعروف بابن برهان، كان حنبلي المذهب، ثم انتقل لمذهب الشافعي، تفقه على الشاشي والغزالي وألكيا الهراسي، حتى برع في المذهب والخلاف، كان متبحراً في الأصول والفروع والمتفق والمختلف، لم يزل مواظباً على العلم حتى ضُرب المثل باسمه^(٣)، وكان حاذق الذهن، عجيب الفطرة، لا يكاد يسمع شيئاً إلا حفظه، وتعلق بذهنه، رحل إليه الطلاب، وتزاحموا على بابه ودرسه؛ حتى انتهى حاله إلى أن صار جميع نهاره وقطعةً من ليله مستوعباً في الاشتغال بالعلم؛ يجلس من وقت السحر إلى وقت العشاء الآخر، ويتأخر -أيضاً- بعده، رُوي أن جماعة سألوه أن يذكر لهم درساً

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣٩٤/١٩).

(٢) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر (٢٢٧/٢)، الذهبي: العبر (٣٩٠/٢)، الأسنوي: طبقات الشافعية (١٠/٢)، الحجوي: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي (٣٣٣/٢).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (٢٥٠/٩)، ابن الأثير: الكامل (٦٢٥/١٠)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٥٦-٤٥٧)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٣٠/٦)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٩٤/١٢).

من كتاب "الإحياء" للغزالي؛ فقال: لا أجد لكم وقتاً؛ فكانوا يُعينون الوقت؛ فيقول: في هذا الوقت أذكر الدرس الفلاني، إلى أن وصلوا معه إلى أن يذكر لهم درساً من الإحياء نصف الليل^(١).

وهذا يدل على محافظة العلماء على أوقاتهم، وشدة صبرهم وجلدهم لطلب العلم والإفادة منه، والعمل به، وشغل الوقت بما يعود عليهم بالنفع في الدنيا والآخرة، وأدائهم لرسالتهم في هذه الحياة؛ الأمر الذي أدى - بعد ذلك - عن طريق هؤلاء التلاميذ العلماء، إلى نشر المذهب السني، وتعليم الناس، وتحذيرهم من أخطار الحركات والتيارات المنحرفة؛ التي تؤثر في دينهم وعقيدتهم، ومثل هذا الجهد لا يقوم به إلا من أخلص لله تعالى في علمه، وعمل به ونشره كما يجب.

ويقول الذهبي نقلاً عن ابن النجار: "كان ابن برهان خارق الذكاء، حالاً للمشكلات، يُضرب به المثل في تبهره، تصدر للإفادة مدة، وصار من أعلام الدين"^(٢).

له مصنفات في أصول الفقه؛ منها: "الأوسط" و"الوجيز" وغيرهما^(٣).

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٦/٣٠-٣١)، الأسنوي: طبقات الشافعية (١٠٢/١).

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٩/٤٥٧).

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان (١/٩٩)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٦/٣١)، ابن العماد: شذرات الذهب (٤/٦١).

توفي في سنة ثمان عشرة وخمسمائة^(١).

ومن كان له دور -أيضاً- في نشر المذهب السني في شتى الأمصار؛ خلال العصر السلجوقي، ومن علماء نظامية بغداد ومدرسيها: أبو الفتح أسعد بن أبي نصر بن أبي الفضل الميهني، تفقه بمرور وغزنة، وشاع فضله وبعد صيته، حتى أصبح شيخ الشافعية وعالمهم -كما يذكر الذهبي وغيره- كان يتوقد ذكاءً، صاحب دين وخوف، تولى التدريس في نظامية بغداد سنة سبع وخمسمائة، واستمر ست سنوات، ثم عزل، ثم وليها سنة سبع عشرة وخمسمائة مرة أخرى، كان له أثر كبير في نشر العلم؛ حيث خرج له عدة تلامذة ينشرون المذهب السني في أمصارهم، واستمر بعض أصحابه في نظامية بغداد أيضاً^(٢).

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٥٠/٩)، ابن الأثير: الكامل (٦٢٥/١٠)، ابن النجار: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد ص (١٦٢)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٥٧/١٩)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٣١/٦)، وكلهم ذكروا وفاته في السنة المذكورة أعلاه، عدا ابن خلكان فقد ذكر أن وفاته سنة عشرين وخمسمائة. وفيات الأعيان (٩٩/١).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (١٣/١٠)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٦٣٤/١٩)، العبر (٤٣٠/٢)، تذكرة الحفاظ (١٢٨٨/٤)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٤٢/٧)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٠٠/١٢-٢٠٥)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٢٥٢/٥).

وهذه هي الجهود التي نريد التوصل إليها، والمؤدية لنشر المذهب السني؛ مذهب أهل السنة والجماعة، ومقاومة الأفكار الأخرى المخالفة، ولا يتم ذلك إلا عن طريق هؤلاء العلماء؛ الذين تتلمذوا وتفقهوا على أيدي كبار علماء النظامية، ثم قاموا بنشر العلم في بلدانهم؛ وهذا هو الهدف الأسمى من إنشاء النظاميات بصفة عامة؛ حيث قامت لنصرة المذهب السني، ونشره، والتأثير على الفكر الشيعي، ودحره.

وكان لأسعد المهيني صلة وثيقة بالحكام والسلاطين في تلك المُدَّة؛ حيث يذكر الذهبي أنه نُفِّذَ رسولاً إلى السلطان سنجر بمرو، ورسولاً إلى همدان^(١)، مما يُدلل على صلة العلماء بالحكام؛ لما لتلك الصلة من آثار إيجابية؛ حيث تتوحد الجهود، وتتضافر الأعمال التي تؤدي - في النهاية - إلى الحفاظ على كيان أهل السنة، والوقوف تجاه التيارات الأخرى المحيطة بالمجتمع الإسلامي.

وكانت وفاة المهيني سنة سبع وعشرين وخمسمائة^(٢).

كذلك كان هناك عدد من العلماء؛ الذين درسوا بنظامية بغداد، وكانت لهم جهود عظيمة في نشر المذهب السني والحفاظ على السنة في

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٩/٦٣٤)، ويذكر ابن كثير أنه حصل له وجاهة عند

الخاص والعام. البداية والنهاية (١٢/٢٠٠).

(٢) ابن عساكر: تبين كذب المفتري ص (٣٢٠)، الذهبي: العبر (٢/٤٣٠)، ابن

العماد: شذرات الذهب (٤/٨٠).

العصر السلجوقي؛ منهم: الحسن بن سلمان بن عبد الله، أبو علي (ت ٥٢٥هـ)، الفقيه الشافعي، كان يعظ بجامع القصر، درس في نظامية بغداد، كان يدرس الفقه والحديث^(١).

وأبو الوقت عبد الأول بن عيسى بن شعيب السجزي (ت ٥٥٣هـ)، المدرس بنظامية بغداد، علامة مكثار، عالي الإسناد، وكان صالحاً يغلب عليه الخير، متواضعاً، حسن السمات، متين الديانة، محباً للرواية، كان من خيار المشايخ وأصبرهم على قراءة الحديث، كان كثير التعبد والتهدج، سمع منه خلق كثير^(٢).

وأبو النجيب عبد القاهر بن عبد الله بن محمد السهروردي (ت ٥٦٣هـ)، أحد الأعلام، سمع الحديث وتفقه وأفتى ودرس بالنظامية، بلغ مبلغاً في العلم؛ حتى أصبح شيخ العراق في وقته، أخذ عنه خلائق^(٣).

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٢/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٦٧٠/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٠٢/١٢).

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٢٦/٣)، الذهبي: العبر (٢٠/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٣٨/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٣٢٨/٥)، ابن العماد: شذرات الذهب (١٦٦/٤)، الحجوي: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي (٣٣٥-٣٣٤/٢).

(٣) الذهبي: العبر (٤٠/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٥٤/١٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (٢٠٨/٤)، كحالة: معجم المؤلفين (٣١١/٥).

الفصل الثاني: دور العلماء في انتشار المذهب السني ومحاربة التيارات المنحرفة ٧٤٣

ومنهم -أيضاً: العلامة رضي الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل بن يوسف الطالقاني، الفقيه الشافعي الواعظ (ت ٥٩٠هـ)، كان إماماً في المذهب والخلاف والأصول والتفسير والوعظ، روى كتباً كباراً، ونفق كلامه على الناس لحسن سمته، وحلاوة منطقه، وكثرة محفوظاته، وكان صاحب قدم راسخة في العبادة، علم النظر، كبير الشأن، قدم بغداد ودرس بالنظامية، ووعظ، كان يتكلم يوماً وابن الجوزي يوماً، يحضر عنده خلق كثير يتقدمهم الخليفة^(١).

وكذلك يوسف بن عبد الله بن بندار الدمشقي، مدرس النظامية ببغداد، تفقه على أسعد الميهني، له صلة بالحكام والسلاطين^(٢). وغير أولئك كثير من العلماء الذين درسوا ووعظوا وأفتوا بنظامية بغداد^(٣)، وكانوا من نتائج ثمارها وفوائدها المتعددة، ولا شك أن تراث

(١) الذهبي: العبر (٣/١٠٠-١٠١)، اليافعي: مرآة الجنان (٣/٤٦٦)، ابن كثير: البداية والنهاية (٩/١٣)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٦/١٣٦)، ابن العماد: شذرات الذهب (٤/٣٠٠-٣٠١).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (١٠/٢٢٦)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/٢٥٥)، وكانت وفاته سنة (٥٦٣هـ)، بُعث رسولاً نحو خوزستان فمات هناك.

(٣) تعرضت -سابقاً- لبعض هؤلاء العلماء الذين درسوا في نظامية بغداد، وغيرها من المدارس، في الرسالة حسب الأهمية والمناسبة؛ حيث ذكرت البعض منهم في الفصل الثالث من الباب الأول عند الحديث عن علماء النظامية، وذكرهم -أيضاً- ضمن أبرز العلماء والفقهاء في العصر السلجوقي، وذلك في الفصل الأول من الباب الثاني،

المدرسة النظامية العلمي والأدبي والفكري يبدو واضحاً وجلياً فيما أنتجه علماء المدرسة من تصانيف كثيرة ومؤلفات متعددة مفيدة، وقفنا على كثير منها: أثناء الحديث عن علماء النظامية ببغداد؛ كمؤلفات الشيرازي وابن الصباغ والمتولي وألكيا الهراسي والشاشي والغزالي وابن برهان والميهني وغيرهم، والتي تُعدّ مؤلفاتهم من أروع ما خلفه العصر السلجوقي من تراث علمي وأدبي؛ لأنهم يُعدّون من أعلام الإسلام وكبار المتفقيين.

وبعد أن ألقيت الضوء على علماء النظامية وجهودهم العظيمة في نشر المذهب السني في شتى الأمصار خلال تلك المرحلة، هذه الجهود؛ المتمثلة في التدريس والتصنيف وكثرة الطلاب؛ الذين تخرجوا على أيديهم، وتفقهوا بهم، ثم أكملوا المسيرة من بعدهم، وأصبحوا من العلماء المعدودين بعد ذلك، أرى من المناسب إلقاء الضوء -أيضاً- على بعض هؤلاء الطلاب (العلماء) الذين نشروا المذهب السني في أمصارهم، بعد أن تلقوا العلم في المدرسة النظامية على أيدي كبار العلماء؛ الذين ذكرنا أكثرهم سابقاً؛ لأن مثل هؤلاء يجب عدم إغفالهم في هذا المقام؛ لأنهم قاموا بواجب عظيم وجهد كبير؛ من خلال مصنفاتهم وتدريسهم ووعظهم ومواقفهم الأخرى، الأمر الذي أدى إلى نشر المذهب السني، وانتعاشه، والحفاظ على كيان أهل السنة.

وذكرتهم كذلك في هذا الفصل، وأوضحت جهودهم ودورهم في نشر الفكر السني ومحاربة التيارات الفكرية المنحرفة.

وهذا كله من ثمار وفوائد وأهداف المدارس النظامية؛ التي قامت لنشر المذهب السني وتأصيله في نفوس الناس، ومحاربة التيارات المنحرفة، والأفكار الباطلة، لاسيما نظامية بغداد^(١) التي أخذت -على عاتقها- مسؤولية هذا الواجب؛ فكرّمت العلماء، وأعطتهم، وأغدقت عليهم الأموال، وأصبح هناك اهتمام كبير من جانب الخلفاء والسلاطين والوزراء؛ فكانوا يحضرون الدروس، ويقفون على احتياجات المدرسة، وأصبح لها نظام خاص بها، ونفقات معينة لها؛ مما جعلها تؤدي رسالتها على أكمل وجه، وفي جوّ من الألفة والمودّة؛ الأمر الذي جعل لها تأثيراً كبيراً في ازدهار العلوم والآداب، وخلق حركة ثقافية واسعة، وتخرج طبقة مثقفة بثقافة إسلامية تنشر العلم وتنقذ الناس من ظلمات الجهل، وتبصّرهم في دينهم، وتحذّره من الأفكار الأخرى؛ مما يؤدي إلى نشر المذهب السني في شتى الأقطار؛ وهذا من أهم أهداف المدارس النظامية بصفة عامة.

ومن هؤلاء العلماء؛ الذين تخرجوا في نظامية بغداد، وأصبحوا -فيما بعد- علماء وصنفوا العديد من المصنفات المفيدة، وكان لهم شأن كبير في حقول العلوم والآداب، بل في العالم الإسلامي على سعته، كذلك

(١) سبق أن أشرت أن هذا لا يعني التقليل من أهمية المدارس الأخرى سواء النظامية أو غيرها؛ لأنها ساعدت كثيراً في تحقيق الأهداف وجني الثمار، ولكن نظامية بغداد كان لها طابع خاص بها من حيث علمائها وطلبتها ونظامها والاهتمام بها.

رحل هؤلاء العلماء إلى أقاليم مختلفة؛ ليقوموا بنشر المذهب السني عن طريق التدريس والتصنيف والوعظ في بلدانهم المختلفة، وتولوا كذلك مجالس القضاء والفتيا والإمامة.

وبالجملة فقد تحققت -على أيديهم- معظم الأهداف؛ التي رسمها نظام الملك عند إنشائه تلك المدارس، واهتمامه المخلص فيها؛ حيث كان مخلصاً لأمتة ودينه، مقاوماً للدعوات الهدامة التي انتشرت بين المسلمين، مدرِّكاً لواجبه المنوط به تجاههم؛ فكان أن هاجم تلك الأفكار من خلال كتابه "سياسة نامه"^(١)، وتبنى فكرة إنشاء المدارس النظامية وتأسيسها؛ بهدف توحيد كلمة المسلمين، والمحافظة على دينهم، والدفاع عن أهل السنة، والحفاظ على كيانهم.

فكان على رأس هؤلاء العلماء الذين تصدروا للتدريس والتصنيف والدعوة والوعظ، وقاموا بجهود عظيمة في سبيل نشر المذهب السني في

(١) سبق أن ذكرت أن نظام الملك هاجم الباطنية من خلال كتابه "سياسة نامه" بدءاً من الفصل الرابع والأربعين حتى نهاية الفصل السابع والأربعين؛ مما يدل على أنه فهم هؤلاء القوم على حقيقتهم، وكشف زيفهم وأحوالهم أمام الناس والسلطان. انظر: كتاب سياسة نامه ص (٢٣٣-٢٩٦)، وللتفصيل حول نظام الملك ومدرسته انظر: سعيد نفيس: المدرسة النظامية، مجلة المجمع العلمي العراقي (م: ٣، ج: ١، ص: ١٤٧، ١٣٧٣هـ)، مصطفى جواد: المدرسة النظامية ببغداد، مجلة سومر (م: ٩، ج: ٢، ص: ٣١٧-٣٤٢، ١٣٧٣هـ-١٩٧٣م)، وكذلك ناجي معروف: علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي، مطبعة الإرشاد، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣).

الفصل الثاني: دور العلماء في انتشار المذهب السني ومحاربة التيارات المنحرفة ٧٤٧

بلداهم في تلك المدّة: أبو الحسن إدريس بن حمزة الشافعي الرملي (ت ٥٠٤هـ)، كان فقيهاً، فاضلاً، عالماً، من فحول الأمة، تفقه أولاً ببيت المقدس على الفقيه نصر بن إبراهيم المقدسي، ثم ببغداد على أبي إسحاق الشيرازي، ثم رحل إلى ما وراء النهر، وسكن سمرقند، وفوّض إليه التدريس بها، وكان علماء سمرقند يُفخمون أمره، ويهابون الكلام معه في المسائل لفصاحته وفضله وعلمه، ذكر ابن الجوزي والسبكي وابن كثير أنه كان من فحول المناظرين^(١).

ومنهم: أبو الحجاج يوسف بن عبد العزيز اللخمي الميورقي، تفقه في نظامية بغداد على أبي الحسن الطبري، المعروف بـ"ألكيا الهراسي"، ثم رحل إلى الإسكندرية وأقام بها، وتولى فيها تدريس الفقه والحديث حتى وفاته سنة (٥٢٣هـ)، كان عالماً بأصول الفقه، متفتناً، حج وأخذ عن علماء مكة وبغداد ودمشق، وأخذ بعضهم عنه، أحياناً في الإسكندرية علم الحديث، له مؤلفات منها: "التعليقة الكبرى" في الخلاف^(٢).

ومن فقهاء النظامية وعلمائها ومحدثيها ومؤرخيها: المؤرخ والمحدث الكبير الحافظ ابن عساكر أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٦٦/٩-١٦٧)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى

(٧/٤٠-٤١)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٧٢/١٢)، وهو من أهل الرملة من بلاد

فلسطين.

(٢) اليافعي: مرآة الجنان (٢٣٠/٣)، عبد المجيد بدوي: التاريخ السياسي والفكري

للمذهب السني ص (٢٢٩-٢٣٠)، الزركلي: الأعلام (٢٣٨/٨).

الله بن الحسين الدمشقي، إمام أهل الحديث في زمانه، بلغ في ذلك الذروة العليا، صنف تاريخ الشام في ثمانين مجلدة وأكثر، وله كتاب "تبيين كذب المفتري"، وعدة مصنفات أخرى في علوم الحديث، تفقه في نظامية بغداد، وبني له نور الدين محمود دار الحديث النورية في دمشق، فدرّس بها حتى مات سنة (٥٧١هـ)^(١).

ومنهم: الحافظ السلفي أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الأصبهاني، وكان حافظاً جليلاً، وإماماً كبيراً، واسع الرحلة، ديناً، ورعاً، حجةً، ثبناً، فقيهاً لغوياً، انتهى إليه علوم الإسناد، مع الحفظ والإتقان، وكان أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، أزال منكرات كثيرة، تفقه في نظامية بغداد على ألكيا الهراسي، وأبي بكر الشاشي، كما درس الأدب

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٢١٥/٧)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٩٤/١٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (٢٣٩/٤)، وكتاب "تاريخ الشام" مخطوط حتى الآن، ويُعرف بتاريخ دمشق، أو تاريخ ابن عساكر، اختصره وهذبه عبد القادر بدران في سبعة مجلدات، وياشر المجمع العلمي بدمشق نشر الأصل فطبع منه المجلد الأول ونصف الثاني. الزركلي: الأعلام (٢٧٣/٥)، وقد نعى إلى أسمعنا أنه سيخرج قريباً بتحقيق الدكتور سهيل زكار وزملائه في حوالي مائة مجلد، عن طريق دار الفكر، بيروت، حيث انتهى العمل منه كاملاً، وحقت جميع أجزائه المخطوطة، وعن دار الحديث النورية انظر: النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس (٨٥-٧٤/١)، وقد صدر حتى الآن ثلاثون جزءاً من تاريخ ابن عساكر بتحقيق محب الدين عمر بن غرامة العمروني، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤١٥-١٤١٦هـ.

على أبي زكريا التبريزي، حدث بدمشق، ثم رحل إلى الإسكندرية؛ فبني له العادل علي بن إسحاق بن السلار (وزير الحاكم الظافر الفاطمي) مدرسة بالإسكندرية، كان يُدرس بها الحديث، ويروي السبكي "أنه كان له عند ملوك مصر الجاه والكلمة النافذة، مع مخالفته لهم في المذهب، ويجلس للحديث فلا يشرب ماءً، ولا ييصق، ولا يتورك، ولا يبدو له قدم، وقد جاوز المائة"، ويقول الذهبي: "لا أعلم أحدًا في الدنيا حدث نيفًا وثمانين سنة سوى السلفي"، توفي سنة (٥٧٦هـ)^(١).

وللحافظ السلفي قصيدة عظيمة ينتصر فيها للسنّة وأهلها، ويحذّر من أهل البدع والأهواء والضلالات، يقول في أولها:

دعوني عن أسانيد الضلال وهاتوا من أسانيد عوالي

إلى أن قال رحمه الله:

فلا تصحب سوى السنّي دينًا لتحمد ما نصحتك في المال
وجانب كل مبتدع تراه فما إن عندهم غير المحال
ودع آراء أهل الزّيغ ولا تغررك حذقة الرذال
فليس يدوم للبدعي رأي ومن أين المقر لذي ارتحال
يوافى حائرًا في كل حال وقد خلّى طريق الاعتدال
ويترك دائبًا رأيًا لرأي ومنه كذا سريع الانتقال

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٥/٢١)، العبر (٧١/٣)، السبكي: طبقات الشافعية

الكبرى (٣٢/٦)، ابن كثير: البداية والنهاية (٣٠٧/١٢).

وقول أئمة الزيغ الذي لا يشابهه سوى الداء العضال
كمعبد المضلل في هواه وواصل أو كغيلان المحال
وجعدٍ ثم جهمٍ وابن حربٍ حميرٍ يستحقون المخالي
وثورٍ كاسمه أو شئت فاقلب وحفص الفرد قردي ذي افتعال
وبشرٍ لا أرى بشرى فمنه تولد كل شر واختلال
وأتباع ابن كلابٍ كلابٍ على التحقيق هم من شرّ آل
فراي أولاء ليس يفيد شيئاً سوى الهذيان من قيل وقال
وكل هوى ومحدثه ضلال ضعيف في الحقيقة كالخيال
فهذا ما أدين به إلهي تعالى عن شبيهه أو مثال
وما نافاه من خدع وزور ومن بدع فلم يخطر ببالي
ولا شك أن هذه القصيدة الرائعة تدرج ضمن الحفاظ على السنة
والانتصار لها؛ لأنها أوضحت المعتقد الصحيح والمنهج القويم الذي يجب
على المسلم أن يتبعه، وصدق الذهبي حينما عقب على القصيدة بقوله:
"صدق الناظم - رحمه الله - وأجاد، فلأن يعيش المسلم أحرص أبكم خير"
له من أن يمتلي باطنه كلاماً وفلسفة^(١).

ومنهم - أيضاً: قاضي القضاة محي الدين أبو حامد محمد بن كمال
الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله الشهرزوري الموصلبي (ت ٥٨٦هـ)،

(١) انظر: القصيدة بتمامها: الذهبي: سير أعلام النبلاء (٢١/٢٩-٣٦).

تفقه ببغداد على أبي منصور سعيد بن الرزاز؛ مدرس النظامية ببغداد، ولي قضاء حلب، ثم الموصل، ودرس بنظاميتها، وبغيرها من مدارس الموصل، وكان محي الدين عالماً أديباً جواداً، بذل ببغداد لفقائها مرة عشرة آلاف دينار، ويُقال: إنه في مدة حكمه بالموصل لم يعتقل غريباً على دينارين فما دونهما، بل كان يوفيهما عنه، ويروى عنه مكارم كثيرة، وله أشعار جيدة^(١).

ومن فقهاء النظامية وعلمائها ومؤرخيها وقضاةها: بهاء الدين يوسف ابن رافع بن تميم، المعروف بابن شداد، (ت ٦٣٢هـ)، التحق بنظامية بغداد، وعُيّن معيداً بها، ثم عاد إلى الموصل، واشتغل بالتدريس مُدّة، ثم اتصل بخدمة السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة (٥٨٤هـ) فعينه قاضياً للعسكر، وبعد وفاة صلاح الدين عُيّن قاضياً لحلب في عهد الظاهر بن صلاح الدين الذي أسند إليه النظر في أوقافها أيضاً، وكانت حلب - في ذلك الوقت - قليلة المدارس، وليس بها من العلماء عدد كثير؛ فاهتم ابن شداد بترتيب أمورها، وجمع الفقهاء بها، وعمرت - في أيامه - المدارس الكثيرة، وهو شيخ المؤرخ ابن خلكان، له تصانيف كثيرة؛ من أهمها:

(١) ابن الأثير: الكامل (٥٩/١٢)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٤٦/٤)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٦٠/٢١)، العبر (٩٢/٣)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (١٨٥/٦)، ابن كثير: البداية والنهاية (٣٤١/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١١٢/٦).

"النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" في ترجمة وسيرة السلطان صلاح الدين، وله كتاب "دلائل الأحكام" في الحديث، و"ملجأ الحكام عند التباس الأحكام" في القضاء، و"فضل الجهاد"، و"أسماء الرجال الذين في المذهب للشيرازي"، وغيرها^(١).

ومن درّس بالمدرسة النظامية ببغداد، وتفقه بها: إسماعيل بن محمد ابن حسان الأسواني (ت ٥٩٦هـ)، الذي رجع وأقام بمصر، ودرّس بها حتى وفاته^(٢).

ومن مشاهير المدرسة النظامية وفقهائها أيضاً: أبو الفتح موسى بن يونس الموصلّي (ت ٦٣٩هـ)، تفقه بالنظامية - ثم عاد إلى الموصل؛ فتبحر في كثير من فنون العلم، حتى اشتهر اسمه، وصنف، ودرّس، وتكاثر عليه الطلبة، كان موصوفاً بالذكاء المفرط، جمع من العلوم ما لم يجمعه أحد، تفرد بعلم الرياضة، وكان يحفظ من التواريخ وأيام العرب، ووقائعهم، والأشعار والمحاضرات الشيء الكثير، وكان له في التفسير

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٨٤/٧)، أبو شامة: ذيل الروضتين ص (١٦٣)، الذهبي: العبر (٢١٥/٣)، اليافعي: مرآة الجنان (٨٢/٤)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٣٦٠/٨)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٤٣/١٣)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٢٩٢/٦)، ابن العماد: شذرات الذهب (١٥٨/٥)، الزركلي: الأعلام (٢٣٠/٨)، وكتابه "النوادر السلطانية" مطبوع باسم سيرة صلاح الدين، مطبعة المؤيد، بغداد، ١٣١٧هـ.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (١٩٠/١).

والحديث وأسماء الرجال يد جيدة، أثنى عليه كثير من العلماء، وبعضهم بالغ في ذلك؛ كابن خلكان إلى أن قال -بعد أن ذكر سيرته وفضله: "إلا أنه كان -سامحه الله- يُتهم في دينه؛ لكون العلوم العقلية غالبية عليه"^(١).

إلى غير ذلك من العلماء والفقهاء؛ الذين كانت لهم الجهود العظيمة في مجال نشر المذهب السني في أمصارهم، بعد أن درسوا وتفقهوا في نظامية بغداد، وتخرجوا على أيدي كبار علمائها وفقهائها، ومن ثم أصبحوا من العلماء المشهورين؛ الذين صنفوا ودرسوا وواصلوا مسيرة شيوخهم وعلمائهم؛ الأمر الذي أدى إلى الحفاظ على كيان أهل السنة، وانتشار المذهب السني، ومحاربة التيارات الفكرية المنحرفة؛ عن طريق تلك الجهود المتواصلة لهؤلاء العلماء وتلامذتهم -بعد ذلك- جيلاً بعد جيل، وهكذا تكون رسالة العلماء في المجتمع الإسلامي، والأمانة العظيمة؛ التي تحملوها وأدّوها كما يجب -إن شاء الله تعالى- فقد عملوا ما في وسعهم لنصرة المذهب السني، وتعليم الناس وتفقيهم في دينهم، وتحذيرهم من الأخطار التي تحدق بهم عن طريق التدريس والتصنيف والوعظ والتوجيه؛

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٣١١/٥-٣١٦)، أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر

(٣/١٧٨)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٨٥/٢٣)، السبكي: طبقات الشافعية

الكبرى (٣٧٨/٨)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٥٨/١٣)، ابن تغري بردي:

النجوم الزاهرة (١٤٢/٦)، ابن العماد: شذرات الذهب (٢٠٦/٥).

للذود عن هذا الدين، ولما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين؛ كي تكون الأمة الإسلامية كما أراد الله تعالى لها، خير أمة أخرجت للناس.

وهناك من العلماء؛ الذين تفقهوا في النظامية، ثم تولوا القضاء في بلادهم، وبعضهم تولى بعض الوظائف الإدارية في دواوين الدولة، مما يُضاف إلى ثمرات وأهداف المدارس النظامية؛ فمن هؤلاء على سبيل المثال: محمد بن محمود بن عبد الله الجويني (ت ٦٠٥هـ)، تولى قضاء البصرة حتى مات بها^(١).

ومنهم: يحيى بن القاسم بن المفرج التكريتي (ت ٦١٦هـ)، تفقه في نظامية بغداد على الشيخين أبي النجيب السهروردي، ويوسف الدمشقي؛ حتى برع في المذهب والخلاف والأصول، ثم عاد إلى بلده؛ فتولى القضاء بها مدة، وكذلك التدريس، ثم قدم بغداد؛ فتولى التدريس في نظاميتها سنة (٦٠٧هـ)^(٢).

وكذلك: عبد السلام بن علي بن منصور الكتاني الدمياطي (ت ٦١٩هـ)، المعروف بابن الخراط، قرأ القرآن بدمياط، ثم رحل إلى بغداد؛ فتفقه بالنظامية، ورحل إلى واسط، ثم عاد إلى دمياط؛ فتولى

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (١٠٠/٨).

(٢) ياقوت: معجم الأدباء (٢٠/٢٠)، أبو شامة: الذيل على الروضتين ص (١٢٠)،

السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٣٥٦/٨)، وتكرت: بلدة مشهورة بين بغداد

والموصل. ياقوت: معجم البلدان (٣٨/٢).

القضاء بها، والتدريس مدة، ثم عُيِّن قاضيًا للقضاة بمصر وأعمالها من الجانب القبلي^(١).

هؤلاء بعض العلماء القضاة^(٢)؛ الذين تفقهوا في نظامية بغداد، ثم واصلوا جهودهم في بلدانهم بعد عودتهم إليها، وقد اشتهروا بعملهم في القضاء؛ وهذا لا يعني عدم قيامهم بأعمال وجهود أخرى؛ فنحن نجد - في تراجمهم وسيرهم - أنهم اشتغلوا بالتدريس والتصنيف والوعظ، إضافة إلى عملهم في سلك القضاء؛ أي أن لهم جهودًا عظيمة في سبيل نشر المذهب السني والحفاظ على كيان أهل السنة في ذلك العصر.

أما أشهر من تولى بعض الوظائف الإدارية في الدولة من خريجي المدرسة النظامية ببغداد، فهو أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد؛ المعروف بالعماد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ)، الكاتب والأديب والمؤرخ المشهور، الذي تفقه في المدرسة النظامية على أبي منصور سعيد بن الرزاز، وأتقن الفقه والخلاف والعربية، وأصبح عالمًا فاضلًا في فنون العلم، ثم اعتنى بالكتابة والترسل والنظم؛ فحاز قصب السبق، وفاق الأقران، ثم أصبح واحدًا من كتاب الوزير يحيى بن هبيرة؛ الذي ولاه النظر بالبصرة ثم

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (١٩٥/٨)، السيوطي: حسن المحاضرة

(١/٤١٠)، (٢/١٦٠)، ودمياط: مدينة قديمة بمصر، وهي من ثغور الإسلام.

القزويني: آثار البلاد ص (١٩٣)، ياقوت: معجم البلدان (٢/٣٨).

(٢) يضاف إليهم القاضي العالم المؤرخ الفقيه بهاء الدين يوسف بن رافع؛ المعروف بابن شداد، وقد ذكرته سابقًا.

واسط، ثم انتقل إلى دمشق بعد وفاة ابن هبيرة، فالتقى بقاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري؛ الذي زكاه عند نور الدين، ورشحه لكتابة الإنشاء؛ فبهر الدولة ببديع نثره ونظمه، وترقى إلى أعلى المراتب؛ فأُسند إليه نور الدين الإشراف على ديوان الإنشاء، وفوض إليه التدريس بالمدرسة النورية التي أنشأها للشافعية، والتي -عُرِفَت- فيما بعد بالعمادية؛ نسبة إلى العماد الأصفهاني^(١).

وهكذا أُلقيت الضوء على نماذج لبعض علماء نظامية بغداد، وكذلك بعض الذين تفقهوا فيها، وتشربوا أهدافها، وحملوا فكرها، ونهلوا من علمها، وانطلقوا إلى الأقاليم والأمصار المختلفة يبشرون به، وينشرونه عن طريق التدريس والتصنيف والوعظ والتوجيه، وكذلك عن طريق تولي بعض الوظائف المهمة؛ كالقضاء وإدارة الدواوين؛ الأمر الذي مكن للمذهب السني، وساعد على الحفاظ على كيان أهل السنة، وغلبتهم على من خالفهم؛ حتى أصبح السواد الأعظم من أهل السنة -ولله الحمد- بفضل الله تعالى، ثم بفضل هؤلاء العلماء؛ الذين انتشروا في الأقاليم

(١) ياقوت: معجم الأدباء (١١/١٩)، ابن الأثير: الكامل (١٢/١٧١)، ابن الساعي: الجامع المختصر (٩/٦١)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٥/١٤٧)، السبكي: طبقات الشافعية (٦/١٧٨)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٣/٣٠)، النعمي: المدارس في تاريخ المدارس (١/٣٠٨-٣١٣)، ابن العماد: شذرات الذهب (٤/٣٣٢)، وقد تقدم الحديث عن العماد الأصفهاني، وعن مصنفاته، وكتابه وإنشائه في الفصل الأول من الباب الثاني من الرسالة؛ ضمن الكتاب والمنشئين في العصر السلجوقي.

الفصل الثاني: دور العلماء في انتشار المذهب السني ومحاربة التيارات المنحرفة ٧٥٧

المختلفة؛ يحملون هذا الدين القويم، وينشرون مذهب أهل السنة، ويحاربون التيارات المخالفة، ويوجهون الناس التوجيه السليم؛ المستمد من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ.

كذلك كان لعلماء المدارس النظامية الأخرى؛ التي كانت تسير على نهج نظامية بغداد، وتسعى لتحقيق الهدف نفسه، دور كبير وجهد واضح في نشر المذهب السني في شتى أنحاء المجتمع الإسلامي؛ وذلك لتضافر الجهود، وتعاون الجميع لتحقيق الأهداف والثمار المرجوة من هذه المدارس؛ التي عملت جاهدة لتحقيق الغاية نفسها؛ لأن الجميع كان هدفهم واحداً؛ وهو نشر الفكر السني والمحافظة عليه، والعمل على محاربة التيارات المحدقة بالمسلمين، والتي قد تؤثر عليهم في دينهم وعقيدتهم.

ومن أبرز علماء النظاميات الأخرى - عدا نظامية بغداد - الإمام الكبير شيخ الشافعية، إمام الحرمين، أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله الجويني (ت ٤٧٨ هـ)، أحد الأئمة الأعلام، مجتمعا على إمامته شرقاً وغرباً، تفقه - في صباه - على والده أبي محمد، وأتى على جميع مصنفاته، وتصرف فيها حتى زاد عليه، ولما توفي والده أقعده مكانه للتدريس، وهو في نحو العشرين من عمره، فلما اضطرت الأمور في نيسابور، ذهب إلى بغداد، والتقى بكبار العلماء وناظرهم، وشاع ذكره، ثم خرج إلى الحجاز، وجاور بمكة والمدينة أربع سنين، يُدرّس ويُفتي ويجمع طرق المذهب، إلى أن رجع إلى بلده نيسابور في ولاية السلطان السلجوقي ألب أرسلان، والوزير - يومئذ - نظام الملك؛ فبنى له هذا

الوزير المدرسة النظامية، وأُعد للتدريس بها، وبقي على ذلك قريباً من ثلاثين سنة غير مزاحم ولا مدافع، وكان يقعد بين يديه لتلقي العلم نحو من ثلاثمائة من الأئمة وأعيان الطلاب، وقد أثنى عليه علماء وقته، فمن ذلك قول الشيخ أبي إسحاق: "يا مفيد أهل المشرق والمغرب، أنت إمام الأئمة اليوم"، وقال المجاشعي: "ما رأيت عاشقاً للعلم في أي فن كان مثل هذا الإمام"^(١).

وكان الإمام الجويني قد بالغ في علم الكلام، وصنف فيه، ثم رأى أن مذهب السلف أولى، فرُوي عنه أنه قال: "لقد خضت البحر الخضم، وخلّيت أهل الإسلام وعلومهم، وغُصت في الذي فهم أهل الإسلام عنه؛ كل ذلك في طلب الحق، وكنت أهرب - في سالف الدهر - من التقليد، والآن فقد رجعت إلى كلمة الحق، عليكم بدين العجائز؛ فإن لم يدركني

(١) انظر في الجويني وسيرته: ابن عساكر: تبين كذب المفتري ص (٢٧٨)، ابن الجوزي: المنتظم (١٨/٩)، ابن النجار: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد ص (١٧٤)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٦٨/١٨)، السبكي: طبقات الشافعية (١٦٥/٥)، مقدمة كتاب "الإرشاد" للجويني، تحقيق محمد يوسف وعلي عبد المنعم: هـ-ق، ومقدمة كتاب "الطريق إلى الخلافة" اختصار "غياث الأمم" للجويني، تحقيق محمد بن حامد الحسيني ص (١١-١٧).

الفصل الثاني: دور العلماء في انتشار المذهب السني ومحاربة التيارات المنحرفة ٧٥٩

الحق بلطيف بره، فأموت على دين العجائز، ويختم عاقبة أمري عند الرحيل على كلمة الإخلاص: لا إله إلا الله، وإلا فالويل لابن الجويني"^(١). وكان يقول أيضاً: "لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما اشتغلت بالكلام"^(٢).

وللجويني مصنفات عدة؛ من أهمها: "الإرشاد في أصول الدين"، و"الرسالة النظامية في الأحكام الإسلامية"، و"غياث الأمم في التياث الظلم"، و"نهاية المطلب في المذهب"، و"الشامل في أصول الدين"، و"الورقات"، وغيرها من المصنفات المتنوعة^(٣).

(١) الطحاوي: العقيدة الطحاوية مع شرحها ص (١٦٨)، ابن الجوزي: المنتظم (١٩/٩)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٧١/١٨)، السبكي: طبقات الشافعية (١٨٥/٥).

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٧٣/١٨)، وهذه الأقوال من إمام الحرمين فيها دلالة واضحة على فساد هذا العلم وخطره في الدين والتحذير منه.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٧٥/١٨)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (١٧١/٥، ١٧٢)، مقدمة كتاب الإرشاد: س-ع، وأكثر هذه الكتب مطبوعة؛ كالإرشاد، الرسالة النظامية، وغياث الأمم، والشامل، والورقات، وغيرها، ولم يقرر في كتابه "الإرشاد" و"الرسالة النظامية" عقيدة السلف، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأبو المعالي وأتباعه نفوا هذه الصفات موافقة للمعتزلة والجهمية، ثم لهم قولان: أحدهما: تأويل نصوصها، وهو أول قول أبي المعالي، كما ذكره في "الإرشاد"، والثاني: تفويض معانيها إلى الرب، وهو آخر قول أبي المعالي، كما ذكره في "الرسالة النظامية". انظر: درء تعارض العقل والنقل (٢٤٩/٥)، (٣٨١/٣).

ومن علماء نظامية أصبهان، والذي يُعدُّ من أشهر علماء النظاميات: العلامة أبو بكر محمد بن ثابت بن الحسن الحُجَنْدي (ت ٤٨٣هـ—)، كان إماماً غزير الفضل والعلم، ولما سمع به نظام الملك، وعرف محله من الفقه والعلم، حمله إلى أصبهان، وصار مدرساً بمدْرسته بها، انتشر علمه في الآفاق، وكان إليه المنتهى في الوعظ، تخرج به جماعة، وكان حسن السيرة، وهو شيخ الشافعية بأصبهان^(١).

ومن العلماء الذين كانت لهم جهود في مجال نشر المذهب السني، وانتفع به خلق كثير في ذلك العصر: جمال الدين أبو القاسم يحيى بن علي ابن الفضل بن بركة بن فضلان، شيخ الشافعية ببغداد، تفقه أولاً على سعيد بن محمد الرزاز، مدرس النظامية، ثم ارتحل إلى خراسان فأخذ عن الشيخ محمد بن يحيى الزبيدي؛ تلميذ الغزالي، ثم عاد إلى بغداد؛ فاشتهر اسمه، وذاع صيته، وانتفع به الطلبة والفقهاء، وبُنيت له مدرسة فدرّس بها، وكثر طلابه، كان إماماً في الفقه والأصول والخلاف، وكان كثير التلاوة وسماع الحديث، توفي في شعبان سنة (٥٩٥هـ)^(٢).

(١) ابن الأثير: الكامل (٣٦٦/١٠)، الذهبي: العبر (٣٤٦/٢)، الأسنوي: طبقات الشافعية (٢٢٩/١)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٦٨/٣)، وأصل بيت الحُجَنْدي من مدينة حُجَنْدة: وهي بلدة مشهورة بما وراء النهر على شاطئ سيحون. ياقوت: معجم البلدان (٣٤٧/٢).

(٢) ابن الأثير: الكامل (١١٣/١٢)، الذهبي: العبر (١١٣/٣)، اليافعي: مرآة الجنان (٤٧٩/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢١/١٣)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة

كذلك كان لبعض العلماء في ذلك العصر، والذين لم يُدرّسوا في المدارس النظامية، أو يتخرجوا فيها، جهود عظيمة في مجال نشر المذهب السني، والحفاظ على كيان أهل السنة، وتوضيح الأمور للناس، وتحذيرهم من التيارات المخالفة؛ لأن العلماء كانوا يُدرّسون رسالتهم جيداً، ويحملون هذه الأمانة العظيمة، ولذلك كانوا يحرصون على تبليغ العلم للناس، وعدم كتمانها، وهو وإن غلب على هذا العصر -أي: السلجوقي- جهود علماء المدارس النظامية عامة، ونظامية بغداد خاصة، في مجال نشر المذهب السني؛ حيث إن ذلك هدفها وغايتها المنشودة، وقاموا به خير قيام - كما أوضحت سابقاً - ولكن هذا لا يعني عدم وجود علماء آخرين ساهموا بجهودهم وعلمهم وفكرهم لنفس الهدف والغاية التي يتطلبها الجميع، ولكننا ركزنا الحديث على أولئك العلماء؛ الذين درسوا في النظاميات، أو تخرجوا فيها، وعملوا في الأعمال المختلفة، وأبلوا البلاء الحسن في سبيل نشر فكر أهل السنة؛ لأنهم يدخلون ضمن هذا الفصل؛

(١٥٤/٦)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٢١/٤)، عنده (أبو القاسم). وقد أقام نظام الملك مدرسة بمدينة (ظاخر): وهي مدينة أهلة بالسكان على ست مراحل من حوزة قاعدة بلاد أران، وأران ناحية بين أذربيجان وأرمينية، وعين فيها فقهاء ومدرسين، ورتب لهم ما يكفيهم من النفقات؛ فنقل هؤلاء الفقهاء كتاب مختصر المزني، وكتاب الأم للشافعي إلى اللغة التي كان يتحدث بها سكان مدينة ظافر. انظر: القزويني: آثار البلاد: ص (٤٩٣-٦٠٢) وهذا لا شك يعدّ من الجهود المبذولة لنشر الفكر السني والحفاظ على كيان أهل السنة في ذلك العصر.

الذي نتحدث من خلاله عن جهود العلماء في انتعاش المذهب السني وانتشاره في الأمصار؛ حيث يقفون على قمة العلماء؛ الذين تركز جهودهم في هذا المجال، ومن هنا كان الحديث عنهم وعن جهودهم بالتفصيل.

ومن العلماء الآخرين؛ الذين كانت لهم جهود في تأصيل المذهب السني، وتثبيتته في نفوس الناس، ونشره عن طريق تلاميذهم، وكذلك جهودهم في مقاومة أهل الأهواء والبدع والأفكار الهدامة: أبو الحسن علي بن أحمد بن يوسف الهكاري (ت ٤٨٦هـ)، كان إماماً صالحاً من أهل السنة، كثير التعبد، سمع الحديث، وروى عنه غير واحد من الحفاظ، وكان يقول: رأيت رسول الله ﷺ في المنام؛ فقلت: يا رسول الله، أوصني، فقال: عليك باعتقاد مذهب أحمد بن حنبل ومذهب الشافعي، وإياك ومجالسة أهل البدع"، يُلقب بشيخ الإسلام، وكان صاحب صلاة وعبادة واجتهاد، زاهداً عابداً، ذا وقار وهيبة، حدث عنه جماعة من العلماء^(١).

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٧٩/٩)، ابن النجار: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد ص (١٨٢)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٣٤٥/٣)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٦٧/١٩)، اليافعي: مرآة الجنان (١٤٢/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٤٥/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٣٨/٥)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٧٨/٣)، والهكارية: نسبة إلى قبيلة من الأكراد، لهم معاقل وحصون وقرى من أعمال الموصل. الذهبي: سير أعلام النبلاء (٦٧/١٩)، وقيل: بلدة وناحية

ومن هؤلاء العلماء أيضاً: أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز التميمي (ت ٤٨٨هـ) أحد أئمة القراء والفقهاء على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ومن أئمة الحديث أيضاً، له مجلس للوعظ، وحلقة للفتوى بجامع المنصور، ثم بجامع القصر، كان كثير العبادة، فصيح العبارة، حسن المناظرة، محبباً إلى الناس، وكان ذا وجهة عند الخليفة، يفد في مهام الرسائل إلى السلطان، وله قدر رفيع عند الخلفاء منذ زمن الخليفة القادر، ومن بعده من الخلفاء إلى خلافة المستظهر، وكانت له المعرفة الحسنة بالقرآن والحديث والفقه والأصول والتفسير واللغة والفرائض، سمع منه خلق كثير ببغداد وأصبهان لما قدمها رسولاً من جهة الخليفة المقتدي^(١)؛ وهذا الخلق الذي سمع منه وتعلم على يديه، من أهم الجهود في سبيل نشر الفكر السني في الأمصار المختلفة؛ لأنهم درسوا على يديه في بغداد والمدن التي ذهب إليها رسولاً أحياناً، ثم يقومون بنشر العلم في بلدانهم؛ الأمر الذي يؤدي إلى نشر مذهب أهل السنة، والوقوف - بقوة - تجاه أهل الأهواء والبدع والتيارات الفكرية المنحرفة.

وقرى فوق الموصل، يسكنها أكراد يُقال لهم: الهكارية. ياقوت: معجم البلدان (٤٠٨/٥).

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٨٨/٩)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٥٠/١٢)، العليمي: المنهج الأحمد (١٩٥/٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٨٤/٣).

كذلك كان لأبي جعفر عبد الخالق بن عيسى بن أحمد الهاشمي، جهود عظيمة في مجال السنة، ونشر المذهب السني عن طريق طلابه؛ الذين كانوا يدرسون عليه، ويأخذون عنه العلم، حيث كان عالماً فقيهاً، ورعاً قوئلاً بالحق، لا يجابي أحداً، ولا يخشى في الله لومة لائم، بدأ يدرس الفقه على القاضي أبي يعلى بن الفراء، من سنة (٤٢٨هـ) إلى سنة (٤٥١هـ)، يقصد إلى مجلسه، ويُعلق، ويُعيد الدرس في الفروع وأصول الفقه؛ حتى برع في المذهب، ودرّس وأفتى في حياة شيخه، كان له مجلس في كل يوم اثنين، يقصده جماعة من فقهاء المخالفين، وكان شديد القول واللسان على أهل البدع، ولم تزل كلمته عالية عليهم، رحل إليه الطلاب من شتى الأمصار؛ حيث كان إمام الحنابلة في عصره بلا مدافعة، وكان محترماً عند الخلفاء؛ حتى إن الخليفة القائم أوصى -عند موته- بأن يُغسله. وكان يدرس في مسجده، ثم درس بجامع المهدي، وجامع المنصور، وكان معظماً عند الخاصة والعامة، تفقه عليه طائفة أصبحوا من كبار العلماء بعد ذلك، توفي سنة (٤٧٠هـ) عن تسع وخمسين سنة، وكان يقول: "مذهبي الكتاب والسنة وإجماع الأمة وما عليه مالك وأحمد والشافعي، وغيرهم ممن يكثر ذكرهم"^(١)، فإياها من كلمة عظيمة، فيها

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٣١٥/٨-٣١٧)، الذهبي: العبر (٣٢٨/٢)، سير أعلام النبلاء

(١٨/٥٤٦)، دول الإسلام ص (٢٤١)، ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة

من الفوائد والمدلولات ما لا يخفى لمن كان له قلب يتدبر، أو عقل يتذكر.

ومن العلماء البارزين -أيضاً- في مجال نشر المذهب السني في العصر السلجوقي، وتخرج به جماعة من العلماء: أبو الفرج عبد الواحد بن محمد ابن علي الشيرازي، تفقه ببغداد على القاضي أبي يعلى بن الفراء، ثم قدم الشام، فسكن بيت المقدس، ونشر مذهب الإمام أحمد، ثم أقام بدمشق؛ فنشر المذهب، وتخرج به الأصحاب، ووعظ واشتهر أمره، وحصل له القبول التام، وكان إماماً عالماً بالفقه والأصول، شديداً في السنة، وكان "تنش" صاحب الشام يعظمه، وفي ذريته مدرسون وعلماء، وكان وافر العلم، متين الدين، حسن الوعظ، محمود السمعة، توفي في ذي الحجة سنة ست وثمانين وأربعمائة، ودفن بدمشق^(١).

واستكمالاً لجهود العلماء في نشر المذهب السني، ودفاعهم عن أهل السنة والمحافظة على كيانهم، كان لأبي منصور علي بن محمد بن علي بن أحمد الأنباري، جهود عظيمة في هذا الجانب؛ تتمثل في التدريس والوعظ

(١/١٥-٢٦)، العليمي: المنهج الأحمد (٢/١٥٠-١٦٠)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣/٣٣٦).

(١) اليافعي: مرآة الجنان (٣/١٤٢)، الذهبي: العبر (٢/٣٥٢)، العليمي: المنهج الأحمد (٢/١٩٠)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣/٣٧٨)، و"تنش-صاحب الشام" تقدمت ترجمته في الفصل الأول من الباب الثاني.

والحلقات، وانتشار طلابه في الأمصار؛ حيث كان فقيهاً واعظاً، تفقه على القاضي أبي يعلى حتى برع في الفقه وأفتى، وسمع الحديث من جماعة من العلماء، توفي سنة (٥٠٧هـ) ودفن ببغداد^(١).

وكان من أشهر العلماء -أيضاً- في ذلك العصر في مجال الانتصار لأهل السنة، ونشر المذهب السني، العالم المشهور، شيخ الحنابلة في وقته: أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد البغدادي (ت ٥١٣هـ)، الذي لم يكن له -في زمانه- نظير، ساد أهل زمانه في فنون كثيرة، وكان يجتمع بجميع العلماء من كل مذهب؛ فلامه بعض أصحابه، ولكنه لم يأبه بهم، وعن ذلك يقول: "كان أصحابنا الحنابلة يريدون مني هجران جماعة من العلماء، وكان ذلك يحرمني علماً نافعاً"^(٢)، ولا بن عقيل كتاب "الفسون" وهو كبير جداً فيه فوائد كثيرة في مختلف العلوم، وقد سبق أن تحدثت عن ابن عقيل، ولكن ما يهمنا -في هذا الفصل- هو قول العليمي؛ حيث

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٧٦/٩)، العليمي: المنهج الأحمد (٢٢٩/٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (١٧/٤).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٢١٣/٩)، ولا شك أن ابن عقيل قد تأثر بهؤلاء العلماء؛ حيث مال إلى موافقة المعتزلة في بعض الأمور، وقد سبق توضيح ذلك مفصلاً في الفصل الأول من الباب الثاني، ولكن يهمنا -هنا- قول الحافظ ابن حجر أنه تاب عن ذلك وصحت توبته، ثم صنف في الرد عليهم. لسان الميزان (٢٧٩/٤)، ومعلوم أن كثرة التبحر في علم الكلام تضر بصاحبها، وسيقع في انحرافات ومخاطر إن لم يتداركها الله برحمته، ويترك الخوض في هذا العلم.

يقول عنه: "وله من الكلام في السنة والانتصار لها والرد على المتكلمين شيء كثير، وقد صنف في ذلك مصنفاً"^(١)؛ فهذا يدل على جهوده في هذا المجال، مع كثرة الطلاب؛ الذين درسوا عليه، ثم ذهبوا إلى بلدانهم.

ومن علماء العصر؛ الذين كانت لهم جهود -أيضاً- في نشر المذهب السني، والرد على أصحاب الأهواء والفرق الضالة، وأهل البدع، وشدته في ذلك: أبو الحسين محمد بن محمد بن الحسين بن الفراء (ت ٥٢٦هـ)، كان إماماً مفتياً مناظراً، عارفاً بالمذهب، صلماً في السنة، شديداً على أهل البدع والاعتقادات الفاسدة، له مصنفات تدل على ذلك منها: "إيضاح الأدلة في الرد على الفرق الضالة المضلة" و"الرد على زائغي الاعتقادات في منعهم من سماع الآيات" و"شرف الاتباع وشر الابتداع" و"تنزيه معاوية بن أبي سفيان"^(٢)، وله في الفقه: "المفردات" و"المفتاح في الفقه" و"رؤوس المسائل"، وله أيضاً: "طبقات الأصحاب" وهو المسمى

(١) العليمي: المنهج الأحمد (٢/٢٥٧)، وانظر عن ابن عقيل: ابن الجوزي: المنتظم (٩/٢١٣)، ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة (٢/٢٥٩)، الذهبي: ميزان الاعتدال (٤/٦٦)، ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة (١/١٤٢)، ابن حجر: لسان الميزان (٤/٢٧٩).

(٢) هذا الكتاب في الحقيقة لوالده أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء، (ت ٤٥٨هـ)، وهو الذي رواه عنه، والكتاب مطبوع بتحقيق الزميل عبد الحميد علسي ناصر الفقيهي، مطابع الرشيد، المدينة، ط ١، ١٤١٥هـ.

"طبقات الحنابلة"، وقد قرأ عليه جماعة وحدث، وسمع منه خلق كثير من الأصحاب وغيرهم^(١)، وله عناية في الرد على الأشاعرة.

ومن هؤلاء العلماء -أيضاً: أبو القاسم علي بن يعلى بن عوض العلوي (ت ٥٢٧هـ)، سمع كثيراً من الحديث، وكان يعظ الناس بنيسابور، ثم قدم بغداد؛ فوعظ بها؛ فحصل له القبول التام، وكان يُورد الأحاديث بأسانيدها، ويظهر السنة^(٢).

ومن العلماء البارزين -أيضاً- في العصر السلجوقي، والذين كان لهم دور كبير ومؤثر في انتعاش المذهب السني وانتشاره: أبو الفضل محمد بن ناصر بن محمد البغدادي (ت ٥٥٠هـ)، سمع الكثير، وتفرد بمشايخ، كان حافظاً ضابطاً أكثرًا من السنة، كثير الذكر، سريع الدمعة، قرأ ما لا يوصف كثرة، وجمع وألف وبعد صيته، تخرج به جماعة من العلماء؛ منهم: أبو الفرج بن الجوزي؛ الذي سمع بقراءته مسند أحمد وغيره من الكتب الكبار، وكان يثني عليه كثيراً، وهو مقدم أصحاب الحديث في وقته ببغداد، له جودة حفظ وإتقان، وحسن معرفة، وهو ثبت إمام، يصفونه بالحفظ والديانة والمحافظة على السنن والنوافل، انتفع بعلمه خلق كثير، ذكروهم الذهبي وغيره؛ منهم: أبو طاهر السلفي، وابن عساكر،

(١) ابن الأثير: الكامل (٦٨٣/١٠)، اليافعي: مرآة الجنان (٢٥٢/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٠٤/١٢)، العليمي (المنهج الأحمد (٢٥٧/٢)).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٣٢/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٠٥/١٢).

وأبو سعد السمعاني، ويحيى بن الربيع، وعبد العزيز بن الأخضر، وداود بن ملاعب، وموسى بن عبد القادر، وأبو منصور محمد بن عفيجة، والحسن بن السيد، والفقير محمد بن غنية، وأحمد بن ظفر بن هبيرة، وعبد العزيز بن أحمد الناقد، وأحمد بن صرما، وغيرهم كثير^(١).

كما كان من مشاهير علماء العصر في هذا الجانب المهم: أبو العلا الحسن بن أحمد بن الحسن العطار الهمداني (٥٦٩هـ-)، سمع الكثير، ورحل إلى بلدان كثيرة في طلب العلم، وقدم بغداد فأكثر من السماع وحصل الكتب الكثيرة؛ حتى صار أوحد زمانه في علمي الكتاب والسنة، وصنف الكتب الكثيرة المفيدة، وكان على طريقة حسنة، سخيًّا عابدًا زاهدًا، حافظًا متقنًا، له بيلده (همدان) القبول التام والمكانة العظيمة، وبرع على حُفاظ زمانه في حفظ ما يتعلق بالحديث من الأنساب والتواريخ والأسماء والكنى والقصص والسير، وله التصانيف الحسنة في الحديث والقراءات والرقائق، له في ذلك مجلدات كبيرة، منها كتاب "زاد المسافر" خمسون مجلدًا، تخرج به تلامذة أصبحوا -فيما بعد- من العلماء المعدودين؛ سواء في الحديث أو العربية، وذكر الذهبي أنه يتعذر وجود

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٠/١٦٢)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤/٢٩٤)، الذهبي:

سير أعلام النبلاء (٩/٢٦٥)، تذكرة الحفاظ (٤/١٢٨٩)، دول الإسلام ص

(٢٨٦)، العبر (٣/١٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/٢٣٣)، ابن تغري بردي:

النجوم الزاهرة (٥/٣٢٠)، العليمي: المنهج الأحمد (٢/٣١٠).

مثله في أزمنة كثيرة، وقال ابن النجار عنه: "هو إمام في علوم القراءات والحديث والأدب والزهد والتمسك بالأثر"^(١)، ولا شك أن جهوده تتمثل في كثرة تصانيفه المفيدة، وكثرة تلاميذه؛ الذين درسوا عليه.

كذلك كان للفقير العلامة: أبي المعالي مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري (ت ٥٧٨هـ) جهود عظيمة في مجال نشر المذهب السني؛ عن طريق الوعظ والتدريس في بلدان شتى؛ حيث انتفع بعلمه خلق كثير، وكان قد تفقه على محمد بن يحيى -صاحب الغزالي- وبرع في الوعظ، وحصل له القبول ببغداد، ثم قدم دمشق، ودرس بالمجاهدية والغزالية، وأقبل عليه الطلاب، ثم خرج إلى حلب ودرس فيها، ثم ذهب إلى همدان؛ فدرس هناك، ثم عاد بعد مدة إلى دمشق ودرس بالغزالية، وانتهت إليه

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٤٨/١٠)، اليافعي: مرآة الجنان (٣٨٩/٣)، الذهبي: العبر (٥٩/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٨٦/١٢)، وعنده (الحسن بن الحسن بن أحمد بن محمد العطار، أبو العلاء الهمداني)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٧٢/٦)، ابن العماد: شذرات الذهب (٢٣١/٤)، وعنه يقول: "كان لا يغشى السلاطين، ولا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يمكن أحدًا أن يعمل في محلته منكرًا ولا سماعًا".

رئاسة المذهب^(١) بدمشق، وكان حسن الأخلاق، قليل التصنع، صنف مختصرًا في الفقه؛ سماه "الهادي"^(٢).

إلى غير ذلك من العلماء؛ الذين لا يتسع المجال لذكرهم جميعًا، ولكنني ركزت الضوء على أبرز هؤلاء العلماء؛ الذين كانت لهم جهود مميزة، وأدوار عظيمة في انتعاش المذهب السني، وغلبته، وانتشاره في شتى الأمصار، والمحافظة ومن ثم على كيان أهل السنة في ذلك العصر، وقد كانت أكثر تلك الجهود تتمثل في الوعظ والتدريس والحلقات العلمية والتصنيف والتحذير من أخطار التيارات المخالفة، والرد على أصحاب البدع والأهواء الضالة، والأفكار المنحرفة، ثم إن كثرة التلاميذ؛ الذين درسوا على هؤلاء العلماء؛ فواصلوا المسيرة من بعدهم في شتى البلدان المختلفة، تُعدُّ من أهم الجهود في هذا الجانب؛ لأنهم حملوا لواء الإيمان والعلم، وتسלحوا بسلاح العقيدة، ثم قاموا بنشر العلم، ونفع الناس، وتأصيل المذهب السني في نفوسهم، وتحذيرهم من الأخطار المحدقة بهم؛ لأن هؤلاء الطلاب أصبحوا -فيما بعد- من العلماء المشاهير؛ الذين صنفوا ودرسوا ووعظوا الناس، وقاموا بواجبهم خير قيام، وكان لتعاون

(١) أي المذهب الشافعي.

(٢) الذهبي: العبر (٧٦/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (٣١٢/١٢-٣١٣)، ابن تغري

بردي: النجوم الزاهرة (٩٤/٦)، ابن العماد: شذرات الذهب (٢٦٣/٤).

الجميع وتضافر الجهود الأثر الكبير في الحفاظ على كيان أهل السنة؛ وهو ما نود توضيحه من خلال هذه الدراسة.

ولا يفوتني وأنا أتحدث عن جهود العلماء في انتعاش المذهب السني، وانتشاره في شتى الأقطار، أن أتوه بالدور العظيم؛ الذي قامت به المدارس الأخرى - عدا النظامية - التي أنشئت في العصر السلجوقي، حيث كانت هذه المدارس ذات فوائد كبيرة، ونتائج عظيمة؛ فهي التي نشطت الجو الثقافي في العراق، وأمدت المدارس التي أنشئت - بعد ذلك - بالمدرسين والأساتذة الكبار، وأصبحت بغداد مركز الحركة والانتشار الثقافي؛ فالرحلات التي يقوم بها الطلاب للأقطار المختلفة؛ كمصر والشام والحجاز والمغرب وفارس وغيرها، وكذلك ورود طلبة العلم إليها من شتى البلدان، ورجوعهم إلى أوطانهم مزودين بالعلم والمعرفة، كل ذلك جعل هؤلاء الطلاب (العلماء) فيما بعد يؤدون دوراً أساسياً في المجتمع، وفي تطوير العلوم والثقافة في الحقبة التالية؛ مما كان له الأثر البعيد في نشر الثقافة وتبادل الآراء، ونقل العلوم ونشرها في بلدانهم، والدفاع عن العقيدة والشريعة - بوجه عام - ضد الهجمات الشرسة؛ التي يشنها أصحاب الأفكار والتيارات المنحرفة؛ وهذا هو الدور الأساسي؛ الذي يهمننا توضيحه هنا.

فعندما نأتي إلى تقويم الدور؛ الذي قامت به هذه المدارس المنتشرة في بغداد والعراق، نجد أنه لا يقل أهمية ومكانة عن دور المدرسة النظامية؛ الذي أوضحته - سابقاً بالتفصيل - لأن هذه المدارس كانت خير نموذج

للمدرسة النظامية، وأصبحت نظمها وتعاليمها تسير على النهج نفسه الذي عليه نظامية بغداد؛ لأن المدرسة النظامية عم نظامها الإداري ومنهجها التعليمي سائر المدارس في العراق والمشرق الإسلامي وبلاد الشام ومصر، وكانت حلقة وصل ثقافية بين الشرق والغرب، من خلال التقاء الطلبة في هذه المدرسة؛ حيث احتضنت نخبة ممتازة منهم، كان لهم الدور المؤثر - بعد ذلك - وهذا ما جعل للنظامية مزية خاصة انفردت بها^(١).

ولا شك أن هذه المدارس؛ التي أنشئت في ذلك العصر، كان لها دور كبير في مجال نشر الفكر السني، والمذاهب السنية؛ لأنها أنشئت لخدمة المذاهب الفقهية، وكان أتباع المذهب يتسابقون - في هذا المضمار - سواء على مستوى الدولة أم على مستوى الأفراد؛ من أجل نشر مذاهبهم وزيادة أنصارهم من الفقهاء والعلماء الذين كان لهم دورهم البارز والمؤثر في توجيه حياة الناس، وتوضيح الأمور لهم.

(١) انظر: حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٢٣٦)، مريزن عسيري: الحياة العلمية في العصر السلجوقي ص (٢٨٢)، وقد تناول الكثير من الباحثين المعاصرين موضوع المدارس في العصر السلجوقي، كناجي معروف في كتابه "نشأة المدارس المستقلة في الإسلام" وعماد رؤوف: مدارس بغداد في العصر العباسي، وحسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي، ومحمد شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد، ومقالات مصطفى جواد، وسعيد نفيسي عن المدارس النظامية في بعض الدوريات العلمية.

ورغم التنافس الموجود بين أتباع المذاهب آنذاك، ومساوئه - أحياناً- إنَّ الذي يعيننا -هنا- هو نشر المذهب السني في شتى الأمصار، والحفاظ على كيان أهل السنة، ودور تلك المدارس في هذا الجانب، مع أن تلك المدارس تعدّ -بحق- قفزة كبيرة في سلم التطور العلمي والثقافي، بعد أن كان التدريس محصوراً فقط في المساجد وبعض الكتاتيب، وعلاوة على دورها العظيم في خدمة المذهب السني ونشره، أمدت هذه المدارس أجهزة الدولة المختلفة بالقدرات العلمية المميزة التي تتمثل الذين تولوا المناصب والمراكز المرموقة في الدولة، سواء في مجال الولاية أو القضاء أو التدريس أو الفتيا أو الكتابة والإنشاء أو السفارات؛ الأمر الذي جعل لهم أثر كبير في الميادين الثقافية والاجتماعية والسياسية والإدارية.

ومن المناسب -الآن- أن أشير إلى نماذج من تلك المدارس^(١)؛ التي قامت بذلك الدور العظيم في سبيل نشر المذاهب السنية^(٢) -بصفة عامة-

(١) سبق أن ذكرت في الفصل الأول من هذا الباب بعض هذه المدارس، ولكني آثرت الحديث عنها بالتفصيل -هنا- لمناسبتها وأهميتها في هذا الفصل، وقد ذكرت سبب ذلك في الفصل الأول.

(٢) هذا الدور يتمثل في العلماء الذين تولوا التدريس بها، والطلاب الذين درسوا وتخرجوا فيها، ثم عادوا إلى بلدانهم؛ فنشروا الفكر السني عن طريق التصنيف والتدريس والوعظ والحلقات العلمية، فمثل هذه الجهود كفيلة بانتعاش المذهب السني وانتشاره في شتى الأمصار، ومن هنا تكمن أهمية هذه المدارس ودورها في هذا المجال.

الفصل الثاني: دور الطمء في انتشار المذهب السني ومحاربة التيارات المنحرفة ٧٧٥

سواء المدارس الحنفية أو الشافعية أو مدارس الحنابلة، فمن أشهر هذه المدارس:

مدرسة مشهد أبي حنيفة: ويقع المشهد بجانب الرصافة في محلة باب الطاق، يقول ابن جبير: "وبأعلى الشرقية خارج البلد محلة كبيرة بإزاء محلة الرصافة، وبالرصافة كان باب الطاق المشهور على الشط، وفي تلك المحلة مشهد حفيل البنيان، له قبة بيضاء سامية في الهواء، وفيه قبر الإمام أبي حنيفة، وبه تعرف المحلة"^(١)، وكانت مدرسة مشهد أبي حنيفة أول مدرسة أنشئت في العراق، وفتحت أبوابها للتعليم قبل نظامية بغداد بحوالي أربعة أشهر وثلاثة عشر يومًا، وذلك في سنة (٤٥٩هـ)، وبنها شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور الخوارزمي (ت ٤٩٤هـ) مستوفي مملكة السلطان ألب أرسلان السلجوقي^(٢)، وأنزل بها الفقهاء، ورتب لهم مدرسًا^(٣).

وقد تولى التدريس بمدرسة مشهد أبي حنيفة عدد من العلماء؛ الذين كانت لهم جهود عظيمة في ذلك العصر؛ لكثرة تلاميذهم وأتباعهم الذين

(١) ابن جبير: الرحلة ص (١٨١).

(٢) انظر ترجمة أبي سعد المسوي: ابن الجوزي: المنتظم (١٢٨/٩)، ابن الأثير: الكامل (٣٢٦/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٦١/١٢).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (٢٤٥/٨)، ابن الأثير: الكامل (٥٤/١٠)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (٣١)، الحسيني: زبدة التواريخ ص (١٤٤)، حسين أمين: المدرسة المستنصرية ص (٢٢-٢٣).

قاموا بنشر المذهب السني في بلدانهم بعد عودتهم إليها، وكثرة مصنفاتهم التي استفاد منها طلاب العلم، ودروسهم التي كانوا يلقونها، إضافة إلى مجالس الوعظ والحلقات العلمية تفيد الناس وتوجيههم الوجهة الدينية الصحيحة.

ومن أشهر هؤلاء العلماء: أبو طاهر إلياس بن ناصر بن إبراهيم الديلمي (ت ٤٦١هـ)، وهو أول من درس بالمدرسة^(١)، وأبو طالب الحسين بن محمد بن علي الزيني (٥١٢هـ)، تفقه على أبي عبد الله الدامغاني، وبرع في الفقه ودرس؛ حتى انتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة ببغداد، ولقب نور الهدى، وقد استمر في منصبه مدرساً في مدرسة مشهد أبي حنيفة إلى حين وفاته، وكان كثير العلم، غزير الدين، شريف النفس، وكان يُبعث رسولاً من قبل الدولة في بعض المهمات، حضر جنازته أرباب الدولة وأعيان العلماء^(٢).

كما تولى التدريس بها: أبو القاسم خلف بن أحمد بن عبد الله الشلجي (ت ٥١٥هـ)^(٣)، وأبو يعقوب إسماعيل بن عبد الرحمن اللمغاني

(١) القرشي: الجواهر المضية (١/١٦٣).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٩/٢٠١)، ابن الأثير: الكامل (١٠/٥٤٥)، اليافعي: مرآة

الجنان (٣/٢٠٣)، الذهبي: العبر (٢/٣٩٩)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١٨٣)،

ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٥/٢١٧)، ابن العماد: شذرات الذهب (٤/٣٤).

(٣) القرشي: الجواهر المضية (١/٢١٣).

(ت ٥٣٦هـ)^(١)، وإبراهيم بن محمد بن إبراهيم الخزرجي (ت ٥٣٧هـ)^(٢)، وعلي بن الحسين بن محمد الزبيني (ت ٥٤٣هـ)، قاضي القضاة ببغداد وغيرها سمع الحديث، وكان فقيهاً ذا وقار وعقل ورزانة وعلمٍ وشهامة ورأي، حسن الهيئة، قليل الكلام، وهو ابن أبي طالب الحسين بن محمد الزبيني^(٣).

ودرس بها - كذلك - الفقيه أبو الغنائم شجاع بن الحسن بن الفضل البغدادي (ت ٥٥٧هـ)، كان عالماً بالمذهب والخلاف، جيد الكلام في النظر، أخذ عنه جماعة من الحنفية؛ حيث كان شيخهم بالمدرسة^(٤).

ومن درس بها - أيضاً: أبو الحسين مسعود بن الحسين بن سعد اليزدي (ت ٥٥٧هـ)، قال ابن الجوزي عنه: "وتفقه وأفنى وناب في القضاء، ودرس بمدرسة أبي حنيفة ومدرسة السلطان، ثم خرج إلى الموصل؛ فأقام مدة يدرس هناك، وينوب في القضاء، وتوفي بها"^(٥).

(١) القرشي: الجواهر المضية (٢٥٢/١).

(٢) المصدر السابق (٤٤/١).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (١٣٥/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٢٥/١٢)، الذهبي: العبر (٤٦٥/٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (١٣٥/٤).

(٤) ابن الجوزي: المنتظم (٢٠٤/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٤٥/١٢)، القرشي: الجواهر المضية (٢٦٠/١).

(٥) ابن الجوزي: المنتظم (٢٦١/١٠).

وكذلك: أبو المحاسن الموفق عبد اللطيف بن نصر الله الكيال الواسطي (ت ٦٠٥هـ)^(١)، وغيرهم من العلماء الذين تولوا التدريس والإشراف على مدرسة مشهد أبي حنيفة^(٢)، وتخرج بهم الطلاب الذين واصلوا المسيرة بعد شيوخهم، وكان للجميع الدور المؤثر في الحفاظ على كيان أهل السنة في العصر السلجوقي.

ومن المدارس الحنفية -أيضاً- في العصر السلجوقي: مدرسة ترکان خاتون زوجة السلطان ملكشاه السلجوقي، وبقيت عامرة حتى أواخر القرن الخامس الهجري، وكان موقعها في الجانب الشرقي من بغداد^(٣).

(١) ابن الساعي: الجامع المختصر (٢٨٠/٩)

(٢) مثل شرف الدين يوسف الدمشقي الذي تولى التدريس بها سنة (٥٥٧هـ). ابن الأثير: الكامل (٢٨٩/١١)، وأبو الفضل أحمد بن مسعود بن علي الرساني (ت ٦١٠هـ). ابن كثير: البداية والنهاية (٦٥/١٣)، وضياء الدين أحمد بن مسعود التركستاني؛ الذي تولى التدريس والإشراف والنظر في أوقافها سنة (٦٠٤هـ)، حيث كتب توقيعاً بذلك. ابن الساعي: المختصر (٢٣٦/٩)، وتحتوي المدرسة على خزانة كتب كبيرة ومتنوعة موقوفة على طلبة العلم.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (١٣٥/٩)، وعن ترکان خاتون انظر: ابن الجوزي: المنتظم (٨٤/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٢٤٠/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٤٨/١٢).

والمدرسة التشية: أنشأها حمارتكين بن عبد الله التشي؛ أحد مماليك "تتش" السلجوقي، الذي تُنسب إليه مواضع ببغداد، منها هذه المدرسة^(١)، وقد تولى التدريس بها عدد من علماء العصر السلجوقي؛ منهم -على سبيل المثال: الفقيه الحنفي محمد بن عبد الرحمن بن عبد السلام بن الحسن اللمعاني (ت ٥٤٤هـ)، الذي تفقه على جماعة من علماء الحنفية؛ حتى أصبح فقيهاً بارزاً يُشار إليه بين أضرابه من فقهاء المذهب^(٢).

ودرّس بالمدرسة التشية -أيضاً: أبو النصر أحمد بن عبد الله الشاشي (ت ٥٧٦هـ)، وهو حفيد أبو بكر محمد بن أحمد بن أحمد بن الحسين الشاشي (ت ٥٠٧هـ)، ذكر ابن الجوزي في حوادث سنة (٥٦٤هـ) قوله: "وفي صفر جلس ابن الشاشي للتدريس بالمدرسة التشية على شاطئ دجلة بباب الأزج، وحضر عنده جماعة من أرباب المناصب"^(٣).

والمدرسة الموفقية: إحدى مدارس الحنفية ببغداد، بناها الخادم موفق ابن عبد الله الخاتوني، خادم السيدة خاتون زوجة الخليفة المستظهر بالله

(١) ياقوت: معجم البلدان (١٥/٢)، ويذكر ياقوت أن وفاة حمارتكين في صفر سنة

(٥٠٨هـ)، ويقول حسين أمين: إن من المرجح أن هذه المدرسة التشية تقع مكان

جامع الوزير الخالي ببغداد. تاريخ العراق العصر السلجوقي ص (٣٨٠).

(٢) مريزن عسيري: الحياة العلمية في العصر السلجوقي ص (٢٨٩).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (٢٢٧/١٠).

(ت ٥٣٦هـ)، وتقع على شاطئ دجلة^(١)، وممن درّس - في هذه المدرسة من العلماء: الحسن بن سلامة المنبجي (ت ٥٣٣هـ)، وابنه أبو العباس أحمد بن الحسن المنبجي (ت ٥٨٤هـ)^(٢)، وأبو زكريا يحيى بن المظفر بن الحسن البغدادي (ت ٦٢٥هـ)^(٣)، وغيرهم.

والمدرسة المغيثة: أو الغياثية، وسميت بذلك نسبة إلى السلطان مغيث الدين محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي (ت ٥٢٥هـ)^(٤)، وقد درس بها عدد من علماء الحنفية؛ منهم: محمد بن محمد بن الحسين بن صالح الحنفي (ت ٥٤٦هـ)^(٥)، ومحمد بن الحسين بن محمد بن المعلم (ت ٥٧١هـ)^(٦).

(١) ابن الساعي: الجامع المختصر (١٧٨/٩)، حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٣٨٠).

(٢) القرشي: الجواهر المضية (٦٤/١)، مريزن عسيري: الحياة العلمية في العصر السلجوقي ص (٢٩١).

(٣) ابن الفوطي: مجمع الآداب (٦٣١/٤).

(٤) ابن الجوزي: المنتظم (٢٠/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٦٦٩/١٠-٦٧٠)، وموقع المدرسة بباب الأزج، محلة باب الشيخ الحالية. حسين أمين (تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٣٨٠)، نقلًا عن: دليل خارطة بغداد ص (١٦٥).

(٥) القرشي: الجواهر المضية (١١٥/٢)، محمد شندب: الحضارة الإسلامية ص (١٩٣).

(٦) ابن الديلمي: ذيل تاريخ مدينة السلام (٢٣٢/١).

ومن مدارس الحنفية -أيضاً: مدرسة جامع السلطان: نسبة إلى السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي (ت ٤٨٥هـ)، حيث أمر بعمارة الجامع، ولكنه توفي قبل إتمامه؛ فأتمه بهروز بن عبد الله الغياثي (ت ٥٤٠هـ)، وأنشأ فيه مدرسة كبرى لتدريس الفقه الحنفي^(١)، ومن العلماء الذين درسوا بها: أبو الحسن مسعود بن الحسين بن سعد اليزدي (ت ٥٧١هـ)^(٢)، وأبو الحسن علي بن المرتضى بن محمد العلوي البغدادي الذي تولى التدريس بها سنة (٥٦٦هـ)^(٣)، ويوسف بن إسماعيل بن عبد الرحمن اللمغاني (ت ٦٠٦هـ)، وقد تولى التدريس بهذه المدرسة سنة (٥٨٨هـ)، وكان عالماً بالمذهب والخلاف^(٤).

وغيرها من المدارس الحنفية؛ التي أنشئت في العراق خلال العصر السلجوقي^(٥).

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٦٠/٩)، (١١٧/١٠)، مريز بن عسيري: الحياة العلمية في العصر السلجوقي ص (٢٩٠)، محمد شندب: الحضارة الإسلامية ص (١٩٤)، وعن بهروز الغياثي انظر (المنتظم) (١١٧/١٠).

(٢) تقدم الحديث عنه ضمن العلماء الذين درسوا بمدرسة مشهد أبي حنيفة.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (٢٣٥/١٠).

(٤) القرشي: الجواهر المضية (٢٢٤/٢).

(٥) مثل مدرسة سعادة التي بناها الأمير سعادة الرسائلي خدام الخليفة المستظهر بالله، وبقيت عامرة إلى ما بعد الاحتلال المغولي لبغداد، وآخر خير تدريس بالمدرسة كان سنة ٦٨٢هـ. محمد شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد ص (١٩٢)، والمدرسة

أما المدارس الشافعية ببغداد، فمن أشهرها:

المدرسة التاجية: أنشأها تاج الملك أبو الغنائم المرزبان بن خسرو فيروز (ت ٤٨٥هـ) وسماها "التاجية"، وقد أوقفها سنة (٤٨٢هـ) على أتباع المذهب الشافعي؛ أي: جعلها خاصة بالشافعية^(١)، ودرّس بها عدد من علماء الشافعية؛ منهم: أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي (ت ٥٠٧هـ)^(٢)، وابنه: عبد الله بن محمد بن أحمد الشاشي (ت ٥٢٧هـ)^(٣).

ومدرسة قراح ظفر: بناها الفقيه أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي (ت ٥٢٧هـ) في منتصف القرن الخامس الهجري، درس

الزيركية، درس بها عبد السلام بن إسماعيل بن عبد الرحمن اللمغاني (ت ٦٠٥هـ) وغيره. القرشي: الجواهر المضية (٣١٥/١)، ابن الساعي: الجامع المختصر (٢٧٦/٩)، مريزن عسيري: الحياة العلمية في العصر السلجوقي ص (٢٩١).

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٤٦/٩)، حسين أمين: المدرسة المستنصرية ص (٢٨)، وتقع هذه المدرسة بباب أبرز في بغداد. ابن الجوزي: المنتظم (٤٦/٩)، وعن تاج الملك أبي الغنائم المرزبان بن خسرو، انظر: ابن الجوزي: المنتظم (٧٤/٩)، ابن الأثير: الكامل (٢١٦/١٠).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٤٦/٩-١٧٩)، ابن الأثير: الكامل (٢١٦/١٠-٥٠٠)، وقد تقدم ذكره ضمن علماء النظامية.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (٣٧/١٠-٣٨)، ويذكر البعض أن المدرسة التاجية دامت حتى سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ. محمد شندب: الحضارة الإسلامية ص (٦٠).

الفصل الثاني: دور العلماء في انتشار المذهب السني ومحاربة التيارات المنحرفة ٧٨٣

بمدرسته هذه حتى سنة (٤٨٢هـ) حين انتقل للتدريس في المدرسة التاجية^(١) - المتقدمة - ويذكر بعض الباحثين أنه لم يدرس فيها سواه، وتقع في الطرف الشمالي لمدينة بغداد^(٢).

والمدرسة الثقتية: بناها ثقة الدولة علي بن محمد بن يحيى بن الحسن الدريني (ت ٥٤٩هـ)^(٣)، وتقع على شاطئ دجلة بيباب الأزج، وقد وقف عليها وقوفاً حسنة، ودرّس بها أبو المحاسن يوسف بن عبد الله الدمشقي (ت ٥٦٣هـ)^(٤).

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٧٢/٦)، وقراح ظفر: محلة من عدة محال ببغداد، وظفر: اسم رجل. ياقوت: معجم البلدان (٣١٥/٤).

(٢) محمد شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد ص (٦٠).

(٣) هو علي بن محمد يحيى الدريني، المعروف بثقة الدولة ابن الأنباري، كان من الأماثل والأعيان، واختص بالخليفة المقتفي لأمر الله، سمع الحديث، وكان فيه أدب، ويقول الشعر. ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤٧٨/٢).

(٤) ابن الجوزي: المنتظم (١١٥/١٠-١١٦)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤٧٨/٢)، محمد شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد ص (١٩٤).

والمدرسة الكمالية:

أسسها كمال الدين أبو الفتوح حمزة بن علي بن طلحة الرازي (ت ٥٥٦هـ)^(١)، وتم افتتاحها سنة (٥٣٥هـ)^(٢)، ومن العلماء الذين درّسوا بها: أبو الحسن محمد بن المبارك بن الخلل (ت ٥٥٢هـ)، الذي حضر درسه قاضي القضاة، وأرباب الدولة والفقهاء^(٣).

والمبارك بن المبارك الكرخي (٥٨٥هـ)، كان إمام وقته في العلم والدين والزهد والورع، وهو مؤدب أولاد الخليفة الناصر لدين الله، ولي

(١) كان من أعيان الدولة، مقرّباً من الخليفة المسترشد والمقتفي، تولى الحجابة ثم المخزن، انقطع في بيته نحواً من عشرين سنة، وكان محترماً في عزلته، يغشاه أرباب الدولة وغيرهم. ابن الجوزي: المنتظم (٢٠٢/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٢٨٠/١١) - (٢٨١).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٨٩/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٨٠/١١)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢١٧/١٢).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (٨٩/١٠ - ٩٠)، ابن الأثير: الكامل (٨٠/١١)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢١٧/١٢)، وعن أبي الحسن بن الخلل، انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٢٧/٤)، الذهبي: العبر (١٩/٣)، الأسنوي: طبقات الشافعية (٢٣٣/١)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٣٢٧/٥).

تدريس النظامية، وتفقه به جماعة، وكان صاحب علم وعمل ونسك وورع^(١).

والمدرسة البهائية: إحدى مدارس الشافعية ببغداد، وتقع في الجانب الشرقي من بغداد، ولم تذكر المصادر المتوفرة اسم منشئها، ودرس بها من علماء الشافعية: يوسف بن عبد الله الدمشقي (ت ٥٦٣هـ)^(٢)، وداود ابن بندار الجليلاني (ت ٦١٨هـ)^(٣)، وغيرهما.

ومن مدارس الشافعية -أيضاً: مدرسة أبي النجيب السهروردي، أنشأها أبو النجيب عبد القاهر بن عبد الله بن محمد بن عموية السهروردي (ت ٥٦٣هـ)، وتقع في الجانب الشرقي من بغداد، وقد دفن الشيخ السهروردي في مدرسته^(٤).

(١) الذهبي: العبر (٣/٩١)، اليافعي: مرآة الجنان (٣/٤٣٠)، الأسنوي: طبقات الشافعية (٢/١٨٤)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/٣٣٤)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٦/١١١)، ابن العماد: شذرات الذهب (٤/٣٨٤).

(٢) تقدمت ترجمته والحديث عنه في أكثر من موضع.

(٣) ابن الساعي: الجامع المختصر (٩/٦٤)، حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٣٨٠)، وهذه المدرسة البهائية يدل ظاهر اسمها على أنها منسوبة إلى من اسمه بماء الملك أو الدين.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم (١٠/٢٢٥)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٧/١٧٥)، ومكانها اليوم أمام نادي الضباط. حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٣٨٢).

ومدرسة زمرد خاتون: أنشأتها والدة الخليفة الناصر لدين الله زمرد خاتون، كانت امرأة صالحة عابدة، كثيرة البر والإحسان والمعروف والصلوات والصدقات، عمرت المدارس والربط والجوامع، وأوقفت وقوفاً سنة (٥٩٩هـ)^(١)، وقد افتتحت هذه المدرسة سنة (٥٨٩هـ)، حيث أشار ابن كثير إلى ذلك في حوادث هذه السنة^(٢).
وغير ذلك من مدارس الشافعية؛ التي كانت منتشرة في العراق في ذلك العصر.

أما مدارس الحنابلة في ذلك العصر، فمن أشهرها:

مدرسة المخرمي: بناها أبو سعد المبارك بن علي بن الحسين المخرمي (ت ٥١٣هـ)^(٣) ببياب الأرزج، وأوقفها

(١) ابن الأثير: الكامل (١٨٤/١٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (٣٦/١٣)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٨٢/٦).

(٢) حيث قال: "وفيها درس بالمدرسة الجديدة عند قبر معروف الكرخي الشيخ أبو علي التويابي، وحضر عنده القضاة والأعيان وعمل بها دعوة حافلة". البداية والنهاية (٦/١٣). والمقصود بالمدرسة الجديدة هي مدرسة زمرد خاتون؛ كما أشار إلى ذلك ابن تغري بردي (١٨٣/٦) وغيره.

(٣) أبو سعد المخرمي: نسبة إلى المخرم بكسر الراء محلة ببغداد، وأبو سعد قاضي باب الأرزج، فقيه فاضل عالم ثقة، كان حسن السيرة، كثير الصيام والتهجد، أفتى ودرس وجمع كتباً كثيرة، لم يسبق إلى جمع مثلها. ابن الجوزي: المنتظم (٢١٥-٢١٦)، أبو يعلى: طبقات الحنابلة (٢٥٨/٢)، ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة (١٦٦/١)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٨٥/١٢).

الفصل الثاني: دور العلماء في انتشار المذهب السني ومحاربة التيارات المنحرفة ٧٨٧

للحنابلة^(١)، وفُوضت - بعد وفاته - إلى الشيخ غبد القادر بن عبد الله بن دوست الجيلي (ت ٥٦١هـ)، الذي جدّدها ووسعها ودرس بها ووعظ حتى وفاته، ودُفن بالمدرسة^(٢).

ومدرسة أبي شجاع: بناها بهرام بن بهرام البيع (ت ٥٢٠هـ) لأصحاب الإمام أحمد بن حنبل، بباب الأزج، ووقف قطعة من أملاكه على الفقهاء؛ الذين يدرسون فيها^(٣).

ومدرسة الأبردي: بناها أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي بن عبد الله الأبردي (ت ٥٣١هـ)، الفقيه الحنبلي الزاهد، وتقع في محلة البدرية

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢١٦/٩)، (٢١٩/١٠)، محمد شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد ص (١٩٤).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٢١٩/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٥٢/١٢)، وعبد القادر الجيلي: نسبة إلى جيل؛ وهي بلاد متفرقة من وراء طبرستان، ويقال لها أيضاً جيلان، وكيلان، كان عالماً عاملاً، يعظ الناس، انتفع به خلق كثير، وكان فيه ترهد كثير، وله أحوال صالحة ومكاشفات، ويذكر عنه أقوال وأفعال ومكاشفات كثيرة أكثرها مغالاة، وبالجملة كان من سادات المشايخ. ابن كثير: البداية والنهاية (٢٥٢/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٣٧١/٥)، ابن العماد: شذرات الذهب (١٩٨/٤).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (٢٦٢/٩)، وقد سمع بهرام البيع الحديث، وكان كريماً، دُفن بمدرسته. ابن الجوزي: المنتظم (٢٦٢/٩).

شرقي بغداد، وكانت هذه المدرسة - في الأصل - داراً لمؤسسها، ثم أوقفها وجعلها مدرسة للحنابلة^(١).

ومدرسة الوزير ابن هبيرة: أنشأها الوزير العالم أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني (ت ٥٦٠هـ) وزير الخليفة المقتفي لأمر الله، وتقع في الجانب الغربي من بغداد بباب البصرة، وأقام فيها الفقهاء، ورتب لهم أجوراً فيها، وقد دُفن ابن هبيرة في مدرسته سنة (٥٦٠هـ)، وكانت المدرسة قد تكاملت عمارتها وافتتحت سنة (٥٥٧هـ)^(٢)، ودرّس بها من علماء الحنابلة: علي بن محمد بن علي الزيتوني (ت ٥٨٦هـ)، الذي تفقه وأفتى وناظر ودرس، وكان من أعيان الحنابلة في وقته^(٣).

ومدرسة ابن الجوزي: أنشأها العالم أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، وقد افتتحت سنة (٥٧٠هـ)، حيث يذكر ابن الجوزي في أحداث هذه السنة قوله: "وفي يوم الأحد ثالث المحرم ابتدأتُ بإلقاء الدرس في مدرستي بدرب دينار، فذكرتُ -يومئذ- أربعة

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٧٠/١٠)، ابن العماد: شذرات الذهب (٩٦/٤)، وعنده أبو البركات أحمد بن علي الأبردي.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٢٠٣/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٤٥/١٢).

(٣) ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة (٣٦٦/١)، ابن العماد: شذرات الذهب

(٢٨٦/٤)، ويذكر ابن الجوزي أن أبا الحسن البراندسي، كان أول من درس بها.

المنتظم (٢٠٣/١٠).

الفصل الثاني: دور العلماء في انتشار المذهب السني ومحاربة التيارات المنحرفة ٧٨٩

عشر درسًا من فنون العلوم"^(١)، وتقع المدرسة بدرب دينار في الجانب الشرقي من بغداد^(٢).

ومدرسة السيدة بنفشة: أنشأها السيدة بنفشة بنت عبد الله الرومية (ت ٥٩٨هـ) وهي جارية الخليفة المستضيء بأمر الله، وعتيقته، ثم صارت بعده من أكثر الناس صدقة وبرًا وإحسانًا إلى العلماء والفقراء^(٣)، وكانت هذه المدرسة دارًا لنظام الدين أبي نصر بن جهير -الوزير- فاشترتها السيدة بنفشة، وجعلتها خاصة للفقهاء الحنابلة، ودرس فيها ابن الجوزي، وحضر عنده قاضي القضاة، والفقهاء والكبراء، وكان يومًا مشهودًا لكثرة الخلق والزحام على الباب^(٤)، وتقع هذه المدرسة على شاطئ نهر دجلة في محلة من محال بغداد الشرقية، يُقال لها: باب المراتب؛ وهو أحد أبواب دار الخلافة ببغداد وأجلّها^(٥).

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٥٠/١٠)، وانظر أيضًا: ابن الساعي: الجامع المختصر

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (٢١٩/١٢).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (٢٥٠/١٠)، حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي

ص (٣٨٢).

(٤) ابن الأثير: الكامل (١٧٨/١٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (٣٤/١٣).

(٥) ابن الجوزي: المنتظم (٢٥٢/١٠)، ابن الساعي: الجامع المختصر (٨٩/٩)، ابن

كثير: البداية والنهاية (٢١٩/١٢).

(٥) ياقوت: معجم البلدان (٣١٢/١).

وغيرها من مدارس الحنابلة الأخرى؛ التي انتشرت في العراق خلال العصر السلجوقي^(١)، ودرس بها علماء الحنابلة، وكانت لهم ولتلاميذهم الجهود العظيمة في نشر المذهب السني والحفاظ على كيان أهل السنة في ذلك العصر.

أما عن المدارس في مدن العراق الأخرى، والتي كانت تؤدي نفس الدور المنوط بالمدارس الأخرى المماثلة في بغداد، فكان في الموصل -مثلاً- مدارس كثيرة لازدهار الحركة التعليمية فيها، وقد زار ابن جبیر الموصل سنة (٥٨٠هـ) وذكر أن "في المدينة مدارس للعلم نحو الست أو أزيد على دجلة؛ كأنها القصور المشرفة"^(٢).

ومن أشهر مدارس الموصل في العصر السلجوقي:

(١) مثل مدرسة ابن الشمحل؛ التي أنشأها أبو القاسم عمر بن ثابت بن الشمحل سنة (٥٥٦هـ) في المأمونية، ودرس بها -عند افتتاحها- الشيخ أبو الحكم إبراهيم بن دينار (ت ٥٥٦هـ) وكان عالماً بالمذهب والخلاف والفرائض قرأ عليه خلق كثير. ابن الجوزي: المنتظم (١٠/٢٠٠-٢٠١)، ومدرسة ابن بكروس؛ التي بناها أحمد بن محمد بن بكروس البغدادي (ت ٥٧٣هـ) وتقع ببغداد الشرقية. ابن الجوزي: المنتظم (١٠/٢٧٦)، وغيرها.

(٢) ابن جبیر: الرحلة ص (١٨٩).

المدرسة النظامية: التي بناها نظام الملك السلجوقي^(١)، وتلتزم بالتدريس على مذهب الإمام الشافعي، أسوة بالمدارس النظامية الأخرى، وممن درس بهذه المدرسة من العلماء: أبو حامد محمد بن محمد بن عبد الله الشهرزوري (ت ٥٨٦هـ)، قال عنه ابن خلكان: "دخل بغداد فتفقه على الشيخ أبي منصور سعيد بن الرزاز، ثم ذهب إلى الشام فتولى قضاء دمشق، ثم انتقل إلى حلب، ثم عاد إلى الموصل، وتولى قضاءها، ودرس بمدرسة والده وبالمدرسة النظامية بالموصل^(٢)."

كما درّس بها من علماء الشافعية -أيضاً: أبو العباس أحمد بن نصر ابن الحسين الأنباري (ت ٥٩٨هـ)^(٣)، وغيرهم من العلماء. والمدرسة الأتابكية: التي أنشأها سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي بن أقسنقر (ت ٥٤٤هـ)، وكان تشييدها بعد سنة (٥٤١هـ)،

(١) يذكر ابن الأثير -في أثناء حديثه عن القاضي أبي بكر محمد بن علي بن الحسن الخالدي- أن نظام الملك بنى له مدرسة بالموصل؛ وهي -الآن- بالقرب من الجامع النوري، والمقصود بها النظامية. ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب (٣٩٩/١).

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٤٦/٤)، وكذلك السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (١٨٥/٦).

(٣) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٦٧/٦).

وهي من أحسن المدارس وأوسعها، وجعلها مؤسسها وقفاً على الفقهاء الشافعية والحنفية، ودُفن في مدرسته عند وفاته^(١).

ومن العلماء الذين درّسوا فيها: أبو البركات عبد الله بن الحسين الشيرجي (ت ٥٧٤هـ)^(٢).

والمدرسة الكمالية (الزينية): أنشأها زين الدين أبو الحسن علي بن بكتكين (ت ٥٦٣هـ)، وكان له بالموصل أوقافٌ كثيرة مشهورة من مدارس وغيرها^(٣)، وعُرفت بالمدرسة الزينية، كما عُرفت بالمدرسة الكمالية؛ نسبة إلى مدرستها كمال الدين يونس بن منعة العقيلي (ت ٥٧٦هـ)؛ لطول إقامته بها، وشهرته بين مدرسيها^(٤).

والمدرسة الكمالية القضيوية: أنشأها الوزير العالم أبو الفضل محمد ابن عبد الله الشهرزودي (ت ٥٧٢هـ)، الملقب كمال الدين، الفقيه القاضي، تولى القضاء بالموصل، وبنى بها هذه المدرسة للشافعية، وكان فقيهاً أديباً شاعراً كاتباً، كثير الصدقة والمعروف، وقف أوقافاً كثيرة

(١) ابن الأثير: الكامل (١٣٨/١١)، التاريخ الباهر ص (٩٣)، أبو شامة: الروضتين (٦٠/١)، اليافعي: مرآة الجنان (٢٨٤/٣).

(٢) اليافعي: مرآة الجنان (٢٨٤/٣).

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان (١١٤/٤)، وزين الدين بن بكتكين هو والد الملك المعظم مظفر الدين أبو سعيد كوكبوري؛ صاحب إربل. نفسه (١١٤/٤).

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٣١١/٥)، حسين أمين: تاريخ العراق في العصر

بالموصل ونصبيين ودمشق، وكان عظيم الرئاسة، خبيراً بتدبير الملك، لم يكن فى بيته مثله^(١).

ومدرسة الجامع النورى: هذه المدرسة أنشأها نور الدين محمود بن زنكى (ت ٥٦٩هـ) فى جامعته المعروف بالجامع النورى، وقد حوت هذه المدرسة كتباً نفيسة كثيرة^(٢).

والمدرسة العزبية: أنشأها عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود ابن عماد الدين زنكى (ت ٥٨٩هـ)، ووقفها على الفقهاء الشافعية والحنفية^(٣).

والمدرسة النورية: أنشأها نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود الأول (ت ٦٠٧هـ)، وتعدّ هذه المدرسة من أحسن المدارس التى أنشئت فى الموصل؛ وهى خاصة بالفقهاء الشافعية، وكان عدد فقهاء

(١) ابن الجوزى: المنتظم (٢٦٨/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٤٤١/١١)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٤١/٤)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (١١٧/٦).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٤٠٤/١١)، الباهر ص (١٦١)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (١٨٥/٥)، ويذكر بعض الباحثين أن الجامع النورى لا يزال قائماً حتى اليوم فى الموصل. حسين أمين: تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ص (٣٨٤).

(٣) ابن الأثير: الكامل (١٠١/١٢)، التاريخ الباهر ص (١٨٩)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٠٧/٥)، ابن العماد: شذرات الذهب (٢٩٨/٤).

المدرسة ستين فقيهاً شافعيًا، وقد أوقف عليها الأوقاف الكثيرة^(١)، ومن أشهر العلماء؛ الذين درسوا بها: قاضي القضاة محمد بن محمد الشهرزودي (ت ٥٨٦هـ)^(٢)، وأبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد (ت ٦٣٢هـ)^(٣).

ومن مدارس الموصل -أيضًا- المدرسة المجاهدية: وقد أنشأها مجاهد الدين أبو منصور قايماز بن عبد الله الزيني (ت ٥٩٥هـ)، وكان عاقلًا دينًا خيرًا فاضلاً، يحفظ من التواريخ والأشعار والحكايات والنوادر شيئاً كثيراً، وكان كثير الصوم والصدقة، وبنى عدة جوامع؛ منها: الجامع الذي بظاهر الموصل، وبنى الربط والمدارس، وله من المعروف شيء كثير؛ فقد كان من محاسن الدنيا؛ كما وصفه ابن الأثير^(٤).

وغيرها من مدارس الموصل المنتشرة في ذلك العصر^(٥).

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (١٨٩)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (١٩٣/١)، ابن العماد: شذرات الذهب (٢٤/٥).

(٢) تقدم الحديث عنه في المدرسة النظامية في الموصل.

(٣) تقدمت ترجمته والحديث عنه في أكثر من موضع.

(٤) ابن الأثير: الكامل (١٥٣/١٢-١٥٤)، التاريخ الباهر ص (١٩٣-١٩٤)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢١/١٣)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٤٤/٦).

(٥) كالمدرسة المهاجرية؛ التي بناها علوان بن مهاجر بن علي بن مهاجر الموصلية، ووقف عليها أوقافاً كثيرة، ودرس بها ابنه محمد بن علوان الموصلية (ت ٦١٥هـ).

أما أشهر مدارس البصرة؛ التي كان يدرس بها علماء لهم جهود عظيمة في مجال نشر الفكر السني، ولهم -أيضاً- دراسات جيدة في مختلف العلوم والآداب، أسوة بعلماء المدارس الأخرى التي ذكرناها -سابقاً- فتعدّ المدرسة النظامية أهم وأكبر مدارس البصرة في العصر السلجوقي^(١)، ومن أشهر العلماء؛ الذين درسوا فيها: أبو الفضل محمد بن قنان بن حامد بن الطيب الأنباري (ت ٥٠٣هـ)، حيث يذكر السبكي في ترجمته أنه كان قد "تفقه على أبي إسحاق الشيرازي، وكان من أعيان تلامذته، ولي قضاء البصرة والتدريس بها بالمدرسة النظامية"^(٢)، ويذكر بعض الباحثين أن نظامية البصرة كانت كبيرة، وأنها استمرت إلى أواخر أيام الخليفة المستعصم بالله^(٣)، مما يُدلل على نشاط الحركة العلمية والثقافية في البصرة في ذلك العصر، وكثرة مدارسها ومكتباتها، ورحيل الطلاب إليها.

ابن الفوطي: تلخيص مجمع الآداب (٤/٦٧٥)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٨/٨١)، ابن كثير: البداية والنهاية (١١/٨٢).

(١) ابن الأثير: الكامل (١٠/٤٠٤).

(٢) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٦/١٧٥).

(٣) سعيد نفيسي: المدرسة النظامية في بغداد، مجلة المجمع العلمي العراقي م ٣١/١٤٤٤،

١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م، ومن مدارس البصرة الأخرى مدرسة أبي العباس الجرجاني،

ومدرسة أبي الفرج البصري، ومدرسة الحنابلة، ومدرسة ابن دويرة، وغيرها. مريزن

عسيري: الحياة العلمية في العصر السلجوقي ص (٣٠٥)، نقلًا عن ناجي معروف:

علماء النظاميات ص (١٤٢-١٤٦).

أما مدينة واسط فقد نشطت الحركة العلمية والثقافية بها خلال العصر السلجوقي، وكثرت فيها دور القرآن والمدارس، وظهر بها علماء قاموا بجهود كبيرة في ذلك العصر، عن طريق تصنيفهم الكتب، أو تدريسهم بالمدارس، وكثرة الطلاب؛ الذين رحلوا إليهم، واستفادوا من علمهم، ثم نشره في بلدانهم بعد عودتهم إليها، ومن أشهر مدارس واسط في العصر السلجوقي:

مدرسة الغزنوي: أنشأها أبو الفضل محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الغزنوي (ت ٥٦٣هـ)، وتقع في محلة الوراقين في مدينة واسط^(١).
ومدرسة ابن الكيال الواسطي: وتُنسب إلى أبي الفتح نصر الله بن علي بن منصور بن علي الواسطي؛ حيث ذكر القرشي أنه قدم بغداد سنة (٥٢٣هـ)، وهو شاب يطلب العلم، ثم انتقل إلى واسط، ودرّس بها في مدرسة تعرف به^(٢)، وقد تولى قضاء البصرة ثم قضاء واسط، وكان من أشهر العلماء بالقراءات؛ حتى عُرف بمقرئ واسط، له كتاب "المفيدة" في القراءات العشر، توفي سنة (٥٨٦هـ)^(٣).

(١) القرشي: الجواهر المضية (١٥٤/٢).

(٢) نفسه (١٩٨/٢).

(٣) الذهبي: العبر (٩٣/٣)، ابن العماد: شذرات الذهب (٢٨٧/٤)، الزركلي: الأعلام

(٣١/٨).

وغيرها من المدارس الأخرى؛ التي كانت منتشرة بمدينة واسط في ذلك العصر^(١).

وهكذا أدت المدارس - في ذلك العصر - دورًا كبيرًا ومؤثرًا في نشر المذهب السني في شتى البلدان؛ عن طريق العلماء؛ الذين درسوا بها، وكذلك الطلاب؛ الذين تخرجوا فيها، ثم عادوا إلى أوطانهم ينشرون هذا العلم النافع؛ بعد أن تسلحوا بسلاح الإيمان والثقافة الإسلامية؛ الأمر الذي جعل لهم الدور العظيم في الحفاظ على كيان أهل السنة آنذاك، وتوجيه الناس ووعظهم وتعليمهم وتحذيرهم من أخطار التيارات الفكرية المنحرفة، إضافة إلى جهود هؤلاء العلماء والطلاب في مجال التصنيف؛ حيث صنفوا الكتب والمؤلفات النافعة؛ التي تناقلتها الأجيال جيلاً بعد جيل.

ثم إن هذه المدارس كانت تخصص لها أوقاف على المدرسين والطلاب، وكانت مدد التدريس - في هذه المدارس - بصفة عامة تختلف في الطول والقصر من مدرسة إلى أخرى، وبعضها استمر التدريس فيها لأكثر من قرنين - كما سبق توضيحه - وكان أساتذة وعلماء هذه المدارس، سواء النظاميات أو غيرها من مدارس المدن الأخرى يتمتعون

(١) مثل مدرسة خطلبرس؛ وهي من أقدم مدارس واسط في الجانب الشرقي منها، تُنسب إلى خطلبرس (ت ٥٦١هـ). مريزن عسيري: الحياة العلمية في العصر السلجوقي ص (٣٠٣).

بثقافة دينية وعلمية وأدبية عالية؛ وهذا ما جعلهم مقصداً لرواد العلم، وطلاب المعرفة، يرحلون إليهم وينهلون من معينهم العذب، ومن ثم يواصلون المسيرة على نهج شيوخهم وعلمائهم، ولا شك أن هذه المدارس -مجتمعة- تعدّ من الظواهر الحضارية الجديرة بالدراسة والعناية والاهتمام، وكان الخلفاء العباسيون والسلاطين السلاجقة يتنافسون في إنشاء المدارس، وتذليل الصعاب التي قد تعترضها، ومتابعتها، والاهتمام بها، والنفقة عليها.

وفي هذا المقام يجب أن أوضح أن هذه المدارس قد خدمت أغراض وأهداف المجتمع الإسلامي، وعقيدته التي تعرضت لكثير من المخاطر، وهذه هي الغاية الحقيقية من إنشاء المدارس، ولا يجب أن نساق وراء مبالغات غير دقيقة وثابتة، حول الصراع المذهبي؛ الذي أفرزته حركة تأسيس المدارس المستقلة؛ التي انفردت للتدريس وفق مذاهب مفردة، حاول -من خلالها- أتباع كل مذهب من المذاهب الإسلامية نشر تعاليم المذهب عن طريق المدرسة التي تنتمي إليه؛ وهذا الأمر لا يُنكر إجمالاً؛ فهناك مدارس انفردت للتدريس لمذهب واحد؛ كالمدرسة النظامية، ومدرسة مشهد أبي حنيفة، ولكن المصادر المعتمدة تذكر -بجانب هذه المدارس- مدارس أخرى حصل فيها تعاون بين مذهبين أو أكثر^(١)؛ مما

(١) وقد ذكرت نماذج من هذه المدارس؛ في أثناء حديثي عنها؛ كالمدرسة العزبية والأتابكية وغيرهما، وأثار ذلك ومدلولاته ظهرت في المدارس المستنصرية؛ التي

يُدلل على نمو حالة التسامح المذهبي والوعي الفكري، ومن ثم تحقيق الهدف المنشود؛ الذي يسعى إليه الجميع؛ وهو الذود عن الدين، والدفاع عن العقيدة والشريعة بوجه عام، ضد ما يعترضها من أخطار وهجمات، ونشر المذهب السني، والتصدي للتيارات الأخرى المخالفة.

وهكذا يتضح لنا - من خلال هذا الفصل - جهود العلماء في انتعاش المذهب السني، وانتشاره في شتى أنحاء المجتمع الإسلامي، وقد كان لعلماء المدرسة النظامية ببغداد جهود بارزة - في هذا المجال - عن طريق تدريسهم وتصنيفهم الكتب، وتخريج الطلاب الكثر على أيديهم؛ مما جعلهم يحملون الرسالة، ويقومون بواجبهم تجاه أمتهم خير قيام؛ لأنهم أصبحوا من العلماء المعدودين، بل من مشاهير علماء العصر، كذلك الجهود التي قام بها العلماء الآخرون في المدارس النظامية الأخرى؛ حيث بذل كل منهم جهده المستطاع، وأدى دوره المنوط به؛ حسب قدرته واستطاعته، والظروف التي تحيط بعصره، وكان هناك - أيضاً - نماذج لبعض العلماء الذين لم يكن لهم ذكر في المدارس النظامية، ولكنهم لم يغفلوا عن دورهم وواجبهم تجاه أمتهم ومجتمعهم؛ فقد قاموا بدور عظيم، وجهد كبير، في الحفاظ على كيان أهل السنة في ذلك العصر، والوقوف - بقوة - أمام

كانت تدرس على المذاهب الأربعة دون تمييز. ناجي معروف: تاريخ علماء
المستنصرية (٢٥/١)، حسين أمين: المدرسة المستنصرية ص (٢٨-٢٩).

أصحاب البدع والأهواء، والأفكار الضالة المنحرفة، وكانت لهم حلقات ومجالس للوعظ والتذكير، وتحذير الناس من الأخطار المحيطة بهم، إضافة إلى جهود الجميع في مجال التصنيف والتأليف؛ حيث كان لهذه المؤلفات أثر كبير في نشر المذهب السني، وتوضيح الأمور للناس، أي أن العلماء لم يركزوا جهودهم في مجال واحد؛ بل تعددت وتنوعت؛ فشملت التدريس، والتصنيف، وحلقات العلم والوعظ، والإمامة والخطابة، والقضاء والفتيا، ونحوها، تولى البعض منهم المناصب والمراكز المهمّة في الدولة، ومواصلة جهودهم عن طريق أعمالهم.

كذلك كان لعلماء المدارس الأخرى؛ التي أشرتُ إليها سابقاً؛ دور كبير ومؤثر في انتشار المذهب السني، وغلبته، والحفاظ على كيان أهل السنة؛ وهذا ما جعلني أتطرق لهذه المدارس، وأذكر نماذج منها، وأسلط الضوء على بعض علمائها ومدرسيها؛ لأنها عملت على نشر المذاهب الإسلامية، وكان لهم تأثير قوي في توجيه حياة الناس.

وبالجملة: فقد عمل الجميع لتحقيق الهدف المشترك؛ الذي وضعوه نصب أعينهم؛ وهو الحفاظ على كيان أهل السنة، ونشر المذهب السني، والتصدي للتيارات المنحرفة؛ التي قد تؤثر على المسلمين في دينهم وعقيدتهم، ولا شك أن هناك تفاوتاً في الجهود والأدوار؛ التي قاموا بها، ولكنها -جميعاً- تسعى لغاية واحدة، ومقصد مشترك، ومن هنا يتضح أهمية وجود العلماء في المجتمع الإسلامي، ومكانتهم في توجيه الرأي الإسلامي وقيادته؛ فهم أرباب الكلمة وقادة العلم، يؤثرون في الناس،

ويرشدونهم إلى ما فيه فلاحهم في الدنيا والآخرة، وهؤلاء هم العاملون المخلصون الذين أدركوا أهمية وجودهم، وعظيم رسالتهم، فما أحوج الأمة الإسلامية إليهم، وإلى علمهم وفكرهم، وتشخيصهم أمراض أمتهم وعلاجها، وما أروع ما قاله سيد العلماء العاملين - في زمانه - سفيان الثوري: "المال داء هذه الأمة، والعالم طيب هذه الأمة، فإذا جرّ العالم الداء إلى نفسه، فمتى يبرأ الناس؟"^(١)، ويقول أيضاً: "الأعمال السيئة داء والعلماء دواء، فإذا فسد العلماء، فمن يشفي الداء"^(٢).

وقد امتن الله - سبحانه وتعالى - على أمتنا الإسلامية بعلماء عاملين مخلصين مدرّكين لدورهم، مؤدّين لرسالتهم، على مر العصور والأزمان - والله الحمد - مع الأخذ بالاعتبار الظروف والأحداث؛ التي يختلف - من خلالها - عصر عن آخر، وتأثير تلك الظروف على جهود العلماء وتأثيرهم في مجتمعاتهم، ولكن الله تعالى تكفل بحفظ هذا الدين؛ فهيأ لكل عصر علماء ورجاله، كما هو الحال في العصر السلجوقي؛ الذي نتحدث عنه، لنستفيد من أحداثه وعبره وعظاته في عصرنا الحاضر؛ كي تسير القافلة وتواصل المسيرة - بحول الله وقوته وتوفيقه - وما ذلك على الله بعزيز.

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٢٤٣/٧).

(٢) أبو نعيم الأصفهاني: حلية الأولياء (٣٦١/٦).

الفصل الثالث

"جهود العلماء في الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر وأثر ذلك في المجتمع الإسلامي"

الفصل الثالث

"جهود العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وآثار ذلك في المجتمع الإسلامي"

من المعلوم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو قوام هذا الدين وعماده، وعنوان الإيمان، ودليل السعادة والفلاح، ومن أجل هذه المهمة الكبرى؛ التي هي - في الأصل - رسالة ومهمة وواجب صفوة وسادات وخيرة الأمم، رسل الله الكرام، عليهم الصلاة والسلام، توالى رسل الله إلى البشرية، للدعوة إليها؛ فلو طوي بساط هذا الأمر العظيم، وأهمل علمه وعمله، لفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، وانتشرت الرذيلة، وعمت الفوضى، وانعدم الأمن، وخربت البلاد، وهلك العباد، قال تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾^(١).

ومن هنا خاطب الله تعالى الأمة الإسلامية بقوله -جل شأنه: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾^(٢).

(١) سورة الروم، آية ٤١.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٠٤.

ووصفهم - سبحانه وتعالى - بأوصاف عظيمة راقية؛ تتلاءم مع المهمة الكبرى، وتتناسب معها، وجعل هذه المهمة وصفاً لها، فقال تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾^(٢). وهذه الآيات توضح الصلة الوثيقة بين الإيمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٣).

والله - سبحانه وتعالى - عندما وصف الأمة الإسلامية بهذه الأوصاف أمرهم أمر إيجاب، أمرهم بتأصيل هذه الأمور، وترسيخها، وتقويتها في النفوس، والعمل على استمراريتها، وبقائها قائمة في واقع الأمة، بقوله تعالى: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿فاصدع

(١) سورة آل عمران، آية ١١٠.

(٢) سورة التوبة، آية ٧١.

(٣) أبو بكر الخلال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص (١٤) - المقدمة - تحقيق عبد القادر عطا.

(٤) سورة الأعراف، آية ١٩٩، وعن أمثلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، انظر: ابن تيمية: مجموع الفتاوى (٣/٤٢٣-٤٢٧).

بما تؤمر^(١)، وقوله جل وعلا: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾^(٢).

فخيرية هذه الأمة مرتبطة بمحافظتها على ما وصفت به، وتمسكها بذلك، وبقيامها بما كُلفت به من الله تعالى، لا أن تدعى تلكم الأوصاف فقط، دون أن يكون لها واقع ملموس في كثير من أعمالها؛ ذلك لأن الأمر بالمعروف من أعظم واجبات الشريعة الإسلامية، وأصل عظيم من أصولها، وبه يكمل نظامها، وتعزز بين الأمم^(٣).

وقد أندر الله تعالى - في مقابل ذلك - الذين تخلوا عن هذا الأمر العظيم، سواء كان تخلياً كلياً أو جزئياً، وذمهم؛ لأنهم لم يأمرُوا بالمعروف وينهوا عن المنكر، قال تعالى: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾^(٤) وهذا غاية التشديد والتهديد؛ فبين - سبحانه - أن السبب للعنهم - والعياذ بالله - هو ترك التناهي عن المنكر، وأن ذلك عصيانٌ منهم واعتداء، وعدم امتثال للواجبات الشرعية.

(١) سورة الحجر، آية ٩٤.

(٢) سورة الأنفال، آية ٣٩.

(٣) الشوكاني: فتح القدير (١/٣٦٩)، عبد الله آل قعود: أثر الأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر في حياة الأمة ص (٩-١١).

(٤) سورة المائدة، آية ٧٨-٧٩.

وأندرهم -أيضًا- بقوله تعالى -وهذا يهيم العلماء كثيرًا: ﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قوطهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون﴾^(١).

قال القرطبي: "دلت الآية على أن تارك النهي عن المنكر كمرتكب المنكر، وفيها توبيخ للعلماء في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"^(٢).

يتضح لنا مما سبق أهمية هذا الأمر العظيم، ووجوب القيام به، كما دلت الآيات السابقة على ذلك، وكذلك السنة؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»^(٣).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب، يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا

(١) سورة المائدة، آية ٦٣.

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (١٥٣/٦)، وروى ابن جرير عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: ما في القرآن آية أشد توبيخًا من هذه الآية، وقال الضحاك: ما في القرآن آية أخوف عندي منها، إننا لا ننهي. انظر (تفسير ابن كثير ٧٤/٢).

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان. صحيح مسلم بشرح النووي (٢١/٢-٢٥).

يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم في يده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»^(١).

والآيات والأحاديث - في هذا المعنى - كثيرة.

ومن المناسب - هنا - أن أذكر أهم الصفات؛ التي يجب على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يتحلى بها؛ فمن أهمها: العلم، وهذه الصفة لا بد أن توجد قبل البدء في الأمر والنهي، يكون عالماً بحقيقة المعروف للدعوة إليه، وبحقيقة المنكر للنهي عنه، أي أنه لا بد أن يكون عالماً بالشيء الذي يأمر به، وينهى عنه؛ إذ لا يمكن العمل بهما، مع الجهل بحقيقتهما والأحكام المتعلقة بهما، ولا يفهم من هذا أنه لا يأمر إلا عالم بكل شيء، أو طالب علم، المهم الأمر الذي ستنهى عنه على اعتبار أنه منكر، أو ستأمر به على اعتبار أنه معروف؛ كي تكون على بصيرة وعلم

(١) رواه مسلم أيضاً. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٢٧/٢) في نفس الباب.

والخُلف: الواردة في الحديث، جمع خلف، ويقول أهل اللغة: خَلَفَ كذا إذا جاء بعده، وكذلك ما استخلفته من شيء، وبالفتح (خَلَفَ) هو الخالف بخير، وبالسكون (خَلَفَ) هو الخالف بشر، أي أنه لا يكون الخلف إلا من الأخيار، قرئاً كان أو ولداً، ولا يكون الخلف إلا من الأشرار، قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ﴾ الآية. انظر: الزمخشري: أساس البلاغة ص (١٧٣)، ابن منظور: لسان العرب (٨٢/٩) (خلف)، الرازي: مختار الصحاح ص (١٨٥).

وهدي؛ وهذا هو سبيل الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وأتباعهم، قال تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾^(١).

وقد رُوي عن بعض السلف أنه قال: "لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به، فقيهاً فيما ينهى عنه"^(٢).

وكذلك يجب على الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون حليماً رفيقاً رحيماً؛ كي لا يثور ويغضب عند ما يُجابه بشيء لا يرضيه؛ فيفسد أكثر مما يُصلح؛ فلا بد أن يكون قلبه ممتلئاً بالرأفة والرحمة والرفق تجاه المسلمين، وليعلم أن هذا العمل لله وفي سبيل الله تعالى، وقد خاطب الله تعالى عباده المؤمنين بقوله -جل وعلا: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾^(٣).

(١) سورة يوسف، آية ١٠٨.

(٢) ذكره ابن تيمية في رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص (٣٩)، ثم انظر: عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة ص (٤٦١)، السامرائي: مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص (٧٠)، عبد الله آل قعود: أثر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حياة الأمة ص (٢٣).

(٣) سورة التوبة، آية ١٢٨.

وقال تعالى: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾^(١).

ولا بد -أيضاً- أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متحلياً بالصبر على ما يناله في ذات الله، والصبر منزلة عالية لا ينالها إلا من وُفق لها من الله تعالى؛ ولذا يقول العلماء: إن الصبر ورد في القرآن الكريم في أكثر من تسعين موضعاً، وقد جعل الله ثوابه بغير حساب، قال الله تعالى: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾^(٢).

كما يجب على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون فقيهاً عالماً بالمصالح الحاصلة من أمره ونهيه، والمفاسد التي قد تنتج عن ذلك؛ حيث يجب عليه أن يزن الأمور؛ ليعلم متى تكون المصلحة أعظم من المفسدة، أو العكس، ومتى تتساوى؛ لأن درء المفاسد أولى من جلب المصالح^(٣).

(١) سورة آل عمران، آية ١٥٩، وقد حث النبي ﷺ على الرفق في الأمر؛ فقال ((إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يترع من شيء إلا شاناه)). انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٤٦/١٦) كتاب البر، باب فضل الرفق. وحول الرفق واللين في هذا الجانب، انظر: ابن تيمية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص (١٩-٢٣).

(٢) سورة الزمر، آية ١٠.

(٣) انظر تفاصيل ذلك في: مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للسامرائي ص (٧٣-٧٤).

أما عن مراتب تغيير المنكر فقد تحدث عنها العلماء كثيراً، وقد دل حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه المتقدم^(١)، وغيره من النصوص على أن لتغيير المنكر ثلاث مراتب؛ وهي:

الإنكار باليد لمن استطاع ذلك، ولم يخش حصول مفسدة راجحة أو مساوية، والإنكار باللسان لمن لم يستطع أن يغير بيده؛ وذلك يكون بموعظة صاحب المعصية ونصحه ونهيه عنها بالحكمة والوعظ والتوجيه، ثم الإنكار بالقلب؛ وذلك لمن لا يستطيع أن يغير بلسانه فضلاً عن يده، فيجب عليه - حينئذ - أن ينكر المنكر بقلبه ويكرهه، والإنكار بالقلب لا يجوز لأي مسلم أن يخلو منه؛ لأن ذلك أدنى درجات الإيمان؛ كما ورد في الحديث، وقد سئل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : من ميّت الأحياء؟ فقال: "الذي لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً"^(٢).

(١) وهو قوله ﷺ: « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان ».

(٢) انظر في مراتب تغيير المنكر وأقوال العلماء فيها: أبو بكر الخلال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص (٣٦-٤٥)، ابن تيمية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص (١٨)، عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة ص (١٨٩-١٩٠)، السامرائي: مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص (٦٦-٦٧)، عبد الله آل قعود: أثر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حياة الأمة ص (٢٦-٢٧).

وبعد أن أوضحت شيئاً عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأهميته، وأدلتته، ومراتب تغييره^(١)، وحاجة المجتمع الإسلامي إليه، يتبين لنا واجب العلماء، ودورهم المنوط بهم، في هذا الجانب المهم من الدين؛ فالعلماء هم ورثة الأنبياء، وواجب عليهم من الدعوة والإرشاد وتبصير الأمة، ما لا يجب على غيرهم؛ لأنهم خلف لهم في وظيفتهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْمُونَهُ﴾^(٢). من هذا المنطلق لا بد لعلماء المسلمين ومفكريهم، والغيورين عسى مصالحهم، المدركين لأهمية وجودهم، وعظم رسالتهم، أن يقوموا بهذا الواجب العظيم، وأن يعملوا بما علمهم الله، وأن يدعوا إلى الله على بصيرة، وأن يُجددوا ما اندرس من الدين، وأن يخرجوا الناس من ظلمات الكفر والمعاصي والذنوب إلى نور العلم والإيمان والطاعة، وأن لا ينزروا في بيوتهم، ويقتصروا على مساجدهم، وتعليم العدد اليسير من تلاميذهم؛ بل لا بد أن يختلطوا بالناس، ويسعوا جاهدين لتذكيرهم ووعظهم ونصحهم وتعليمهم، وغرس العقيدة الصافية في نفوسهم، فإن لم

(١) ليس المقصود -هنا- بالطبع توضيح جميع الجوانب المتعلقة بموضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن ذلك يخرج بنا عن موضوع البحث، وما ذكرته فيه الكفاية، وفي الغرض المقصود -إن شاء الله.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٨٧.

يفعلوا ذلك، ويقوموا بأمر الله كما يجب، وقعوا في الوعيد الشديد؛ فهلكوا جميعاً، والعياذ بالله.

ومن هنا كان واجب العلماء عظيمًا، ومسؤوليتهم جسيمة؛ إذ لا بد أن يقوموا بواجبهم تجاه أمتهم، وأن يدلّوهم على الخير ومكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، وأن يؤدوا الأمانة العلمية؛ التي في أعناقهم، والتي أخذ الله عليهم الميثاق في بيانها وتوضيحها، وإرشاد الناس إليها بصدق وإخلاص؛ كي ننعم بالخيرية التي اختارها الله تعالى لنا بمنه وفضله، وتستيقظ الأمة، وتنبه للأخطار المحدقة بها، ولن يكون ذلك إلا بتوفيق الله تعالى ثم بالعمل الدؤوب والجهد المتواصل من قبل العلماء العاملين المخلصين لله تعالى، ولدينهم وأمتهم؛ الذين يجاهدون في الله حق جهاده، ولا يخشون لومة لائم، ليست عندهم مداينة لأحد أو مجاملة لشخص؛ مهما كان وضعه وقوة نفوذه؛ لأنهم عملوا بما علموا، وعرفوا الحق فاتبعوه، وتطلعوا إلى ما عند الله تعالى من الثواب والأجر العظيم، والنعيم المقيم، صبروا فنالوا، وزهدوا في هذه الدنيا؛ فجمعوا سعادة الدارين، وهذا فضل من الله يؤتيه من يشاء من عباده، والله ذو الفضل العظيم.

والآن، وبعد هذا التمهيد، يحسن بنا أن ندخل في تفاصيل هذا الفصل؛ الذي سألقي الضوء -من خلاله- على جهود العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في العصر السلجوقي، والآثار المترتبة على ذلك؛ لما لهذا الأمر من أثر كبير في الحفاظ على كيان أهل السنة في ذلك العصر، ولما له من نتائج مثمرة في المجتمع الإسلامي؛ لأن هذا الأمر العظيم

هو مهمة الأنبياء والمرسلين، ومن سار على نهجهم من العلماء العاملين المجاهدين، وما يترتب على إهماله من ذل وهوان وهلكة وتفرق، وانتشار للجهل والرذيلة، وخراب للبلاد، ودمار للعباد، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن هنا كان خلفاء العصر السلجوقي على مستوى المسؤولية، وكانوا يدركون واجبه المنوط بهم تجاه أمتهم في مثل هذا الأمر المهم^(١)، وهذا ما ساعد العلماء كثيرًا، وأعانهم - في ذلك العصر - على أن يقوموا بمهمتهم، ويؤدوا دورهم، وتثمر جهودهم؛ التي بُذلت في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ حيث لا حواجز ولا قيود تمنعهم من ذلك؛ بل كان الخلفاء يشجعونهم ويدعمونهم، ويهيئون لهم السبل الكفيلة لنجاح مهمتهم؛ حيث كانت الصلة القوية بين الخلفاء والعلماء، وكان الجميع ينشدون هدفًا واحدًا؛ وهو خوف الله تعالى في الرعية، وأداء الأمانة الملقاة على عاتقهم، والقيام بالواجب وإقامة الحجة، والخروج من العهدة وبراءة الذمة، ومن ثم حصول الأجر العظيم والثواب الجسيم، والنجاة من العذاب والوعيد؛ لأنه - إن لم يقم البعض بهذا الأمر، ويسعوا جاهدين

(١) لا يُفهم من هذا خصوصية هذه الصفة لخلفاء العصر السلجوقي فقط، وانفرادهم بها دون غيرهم، بل كان أكثر الخلفاء في العصر السابق للعصر السلجوقي، والعصور اللاحقة بهذا المستوى من الكفاءة والإخلاص لدينهم؛ فالخير موجود - والله الحمد - في هذه الأمة حتى قيام الساعة، ولكن الحديث - في هذا البحث - عن العصر السلجوقي، ولذلك ذكرتهم هنا.

لتنفيذه؛ كل حسب قدرته واستطاعته وموقعه - سيقع البلاء والهلاك على الجميع؛ كما أوضحت ذلك النصوص الشرعية، والأحاديث النبوية^(١). وكان الخلفاء في العصر السلجوقي يحرصون كثيرًا على التمسك والتحلي بالدين، والتصدي للتيارات المخالفة، والتأكيد على ذلك في كل وقت، ومتابعته بكل جدية واهتمام؛ لأن الخلفاء العباسيين - في ذلك العصر - كانوا يتمتعون بسلطة تنفيذية، وصلاحيات واسعة، تمكنهم من إصدار الأوامر والمراسيم، وتنفيذها دون عوائق؛ حيث كان هناك تعاون متبادل، وتعامل حسن، واحترام وتقدير، من جانب السلاطين السلاجقة؛ الذين كانوا يدعمون مثل هذه الجوانب الدينية؛ وذلك لتمسكهم بالإسلام، وحرصهم على مصالح المسلمين؛ فهم على المذهب السني، وقد ارتفع شأن أهل السنة في عهدهم، وتوسع المذهب السني وانتشر في أيامهم، وكانت لهم مشاركة فعالة في أحداث العالم الإسلامي؛ وهذا من الأسباب المهمة؛ التي أدت إلى قيام الخلفاء بواجباتهم الدينية، واهتمامهم بمصالح الرعية، حيث وجدوا لهم أعاونًا وأنصارًا، فاجتمعت الكلمة،

(١) سبق ذكر بعض الآيات والأحاديث، ومن ذلك - أيضًا - قول الرسول ﷺ «ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي، هم أعز منهم وأمنع، لا يغيرون، إلا عمهم الله بعقاب»، وقوله ﷺ «إن الناس إذا رأوا المنكر لا يغيرونه، أو شك أن يعمهم الله بعقابه»، وقوله ﷺ «مُرُوا بالمعروف، وانمُوا عن المنكر، قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم». انظر هذه الأحاديث: سنن ابن ماجه (١٣٢٧/٢، ١٧٢٩)، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الفصل الثالث: جهود العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وآثار ذلك ٨١٧

وتضافرت الجهود، ونهض الجميع بواجبهم، وقد استغل الخلفاء هذه الجوانب؛ فتحمسوا وأكدوا دورهم، وأثبتوه في تسيير أمور الدولة، والنظر والاهتمام بالجوانب الدينية والإدارية؛ التي هم المسلمون في دينهم وديانهم^(١).

فمن جملة جهود الخلفاء الدينية في ذلك العصر، والتي لها علاقة بمجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ما قام به الخليفة القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ) من مقاومة للمذهب الشيعي والتيارات المنحرفة؛ حيث أمر في سنة (٤٤٨هـ) أهل الكرخ والمشهد بأن يؤذنوا بالصلاة خير من النوم، وأن يتركوا حي على خير العمل؛ ففعل الشيعة ما أمرهم به الخلفاء؛ خوفاً من السلطة وقوتها^(٢).

(١) وهذا لا يعني بالطبع عدم وجود خلافات سياسية بين الخلفاء والسلاطين؛ فالجميع كانوا يحرصون على مصالحهم الشخصية والسياسية، ولكن ما يهمنا -هنا- هو الجوانب الدينية؛ حيث أكد الجميع حضورهم في هذا الجانب، وتصديهم لأصحاب التيارات المنحرفة والأفكار الباطلة.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (١٧٢/٨)، ابن الأثير: الكامل (٦٣٢/٩)، ابن كثير: البداية والنهاية (٦٨/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٥٩/٥)، كذلك من جهوده -في هذا الجانب- أمره بخلع جميع ما كان على أبواب الدور والدروب من "محمد وعلي خير البشر"، ومما يدل على قوة نفوذ أهل السنة دخولهم الكرخ -وأغلبها شيعة- وإنشادهم الأشعار في مدح الصحابة -رضي الله عنهم- حتى أدى الأمر إلى هروب أبي جعفر الطوسي ففيه الإمامية من داره. انظر: ابن الجوزي: المنتظم (١٧٢/٨-١٧٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (٦٨/١٢-٦٩).

وهذا يوضح قوة الخلافة، والنفوذ الديني الذي كان يتمتع به الخلفاء، والقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ولذا وُصف الخليفة القائم بأمر الله بأنه "من خيار بني العباس دينًا واعتقادًا ودولة"^(١)، ومما يؤيد ما نذكره من جهود الخليفة القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واهتمامه بالرعية، وصلته بالعلماء، والآثار المترتبة على ذلك، ما ذكره ابن دقماق عنه؛ حيث قال: "فلما تولى القائم بأمر الله أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وأحسن إلى الرعية، وعدل فيهم، وجلس للناس بنفسه، وأقام العلماء والمحدثين يرفعون له قصص الناس؛ فانصلح الحال"^(٢).

وهذا النص يؤكد جهود الخليفة القائم ودوره العظيم في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقيامه بهذا الواجب؛ من خلال مركزه وقيادته الأمة، وتفقدته أحوالها، والعمل على رفعتها، وتصديه لأهل الأهواء والفرق الضالة، والتيارات المنحرفة؛ التي قد تؤثر على المسلمين، وتؤدي ومن ثم إلى زعزعة كيان أهل السنة.

واستكمالاً للجهود المبذولة في هذا الأمر المهم، فقد اجتمع بعض العلماء والفقهاء وأصحاب الحديث سنة (٤٦٠هـ)، في ديوان الخلافة، وطلبوا إخراج الاعتقاد القادري -نسبة إلى الخليفة القادر بالله (٣٨١-)

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١١٠).

(٢) ابن دقماق: الجوهر الثمين (١/١٩٢).

٤٢٢هـ) - وقراءته، فقرأ على الحضور، ومن جملة ما ورد في هذا الاعتقاد، لعن الرافضة وتكفيرهم، ثم قام أبو بكر أحمد بن الحسن بن فورك الأصبهاني (٤٧٨هـ) فلعن المبتدعة، وقال: "لا اعتقاد لنا إلا ما اشتمل عليه هذا الاعتقاد"، فشكره الحضور على ذلك^(١)، وهذا الاعتقاد القادري يحتوي على مذهب أهل السنة، والإنكار على أهل البدع؛ وهو داخل ضمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن من الأمور التي يشملها المنكر: البدع الاعتقادية، والبدع العلمية^(٢)، بل إن هذه البدع - بأنواعها - من أهم الأمور؛ التي يجب إنكارها، وتحذير المسلمين من أخطارها وأضرارها الدينية؛ وهذا ما جعل العلماء يقرؤون ذلك الاعتقاد، وغيره من الكتب الدينية الموضحة للعقيدة الصحيحة؛ حيث ذكر ابن كثير أنه قرئ - أيضاً - مع الاعتقاد القادري كتاب "التوحيد" لابن خزيمة^(٣).

وكان الخليفة المقتدي بأمر الله (٤٦٧-٤٨٧هـ) من أكثر خلفاء بني العباس شدة واهتماماً بمجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والذي يُعدُّه من أهم الجوانب الدينية؛ التي يجب على الخليفة القيام به

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٤٨/٨-٢٤٩)، وقد تقدمت ترجمة ابن فورك في الفصل

الثالث من الباب الأول.

(٢) ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، انظر: مجموع الفتاوى (٤٢٥/٣-٤٢٦).

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية (٩٦/١٢)، وذكر أن الذي قرأه الشيخ أبو مسلم الكجي البخاري المحدث، والكتاب مطبوع بتحقيق الدكتور عبد العزيز بن إبراهيم

الشهوان، وقد صدر في مجلدين.

ومتابعته؛ حيث قام بحملات مكثفة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فأمر بنفي المغنّيات والمفسدات من بغداد، ويبيع دورهن، وخرّب الخمارات، وهدم دور الفساق ببغداد، وأزيلت المنكرات، ومنع اللعب بأبراج الحمام حفاظاً على حرّم الناس، ومنع الملاحين من حمل الرجال والنساء مجتمعين، وحطم الملاهي وأراق الخمر، وتوّدّي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل محلة، وأمر الشيعة بذكر الصحابة -رضي الله عنهم- وحثهم على حضور الجمع والجماعات، وهدد المخالفين لأوامره بأشد العقوبات، وأمر بهدم دور اليهود، وسد أبوابهم المقابلة لأبواب الجوامع، وأمرهم -كذلك- بخفض الأصوات عند قراءة التوراة في منازلهم، وإظهار الغيار على رؤوسهم^(١)، وغير ذلك من الأمور الكثيرة؛ التي تؤكد قيام الخليفة المقتدي بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ حتى اشتهر بكثرة حملاته في هذا الشأن، وهذا يُدلل على قوته وهيبته، وتمسكه وتحليه بالدين، وأدائه واجباته ومسؤولياته، وحرصه الشديد على القيام بما على الوجه المرضي لله -سبحانه وتعالى- حيث إنهما أمانة

(١) انظر في هذه الأعمال والجهود: ابن الجوزي: المنتظم (٣٠٧/٨)، (١٧/٩)، ٢٨،

٣٥، (٥٥)، ابن الأثير: الكامل (١٠٩/١٠-٢٣١)، ابن كثير: البداية والنهاية

(١٢/١٢٧-١٤٦)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣١٨/١٨)، السيوطي: تاريخ

الخلفاء ص (٤٢٣)، محمد شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد ص (١٦).

الفصل الثالث: جهود العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وآثار ذلك ٨٢١

عظيمة، ومسؤولية جسيمة؛ ولهذا وصفه ابن الأثير بقوله: "وكان قوي النفس، عظيم الهيبة، من رجال بني العباس"^(١).
وقال ابن كثير عنه: "وكان غيورًا على حريم الناس، أمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، حسن السيرة"^(٢).

كذلك حرص الخليفة المستظهر بالله (٤٨٧-٥١٢هـ) على متابعة جهود والده في هذا الجانب المهم من الدين؛ حيث تصدى للعارين؛ الذين زاد خطرهم وعظم نفوذهم في عهده؛ لأنهم تسببوا في انتشار الفوضى، وانعدام الأمن؛ الأمر الذي أدى إلى قلق الناس وخوفهم على أرواحهم وممتلكاتهم؛ فقبض على بعض أعيانهم وقتلهم، وهرب الباقون^(٣)، وأنقذ الناس من شرهم ومفاسدهم، كذلك كان حريصًا على التمسك بالدين؛ حيث نجده يأمر في سنة (٤٩٤هـ) بفتح جامع القصر، وإقامة صلاة التراويح فيه.

(١) ابن الأثير: الكامل (٢٣١/١٠)، وذكر نحوه ابن الجوزي: المنتظم (٢٩٣/٨)،
والحسيني: زبدة التواريخ ص (١٣٠)، وغيرهم.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (١٤٦/١٢)، ويذكر ابن حزم أنه أصلح كثيرًا من
المفاسد؛ التي كانت تجري في بغداد. انظر: موجز تاريخ الإسلام - تمة المحقق -
ص (٦١).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (١١٣/٩)، ابن الأثير: الكامل (٣٠١/١٠).

ومن أهم أعماله في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -أيضاً- منعه النساء من الخروج ليلاً للتفرج^(١)؛ خوفاً على نساء المسلمين، وصيانة لأعراضهن، وحمایتهن؛ وهذا كله دليل على ورع الخليفة وتقواه، ومتابعته أمور دولته ورعيته، وحرصه الشديد على القيام بالواجبات الدينية؛ التي تهم المسلمين في دينهم ودنياهم، ومحاربتة المنكرات، وإقامته شعائر الدين. ومما يؤكد وقوف المستظهر ضد المنكرات والأفكار الضالة والدعوات الهدامة، وتصديه لها، ومناصرتة أهل السنة، وصلته القوية بالعلماء ووقوفه معهم: محاولة الباطنية التخلص منه واغتياله سنة (٥٠٥هـ)^(٢)، ولكن المحاولة فشلت؛ وهذا دليل على مساعدة المستظهر ومساندته السلاجقة في تصديهم للباطنية، وحرصه الشديد على قمع حركتهم، والتنكيل بهم؛ لما أحدثوه من دعاوى باطلة، وأفكار هدامة، وسفك للدماء؛ سواء على مستوى الدولة من خلفاء وسلاطين ووزراء، أو علماء ومجاهدين، وغيرهم.

وقد تصدى الخليفة المسترشد بالله (٥١٢-٥٢٩) لتيارات الفكرية المنحرفة، وقام بأعمال عظيمة في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ تدل على اهتمامه بالجانب الديني، ومتابعته للأمور والأحداث؛ التي

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٢٣/٩)، ابن الأثير: الكامل (٣٢٥/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٦٠/١٢).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (١٦٧/٩)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٧٣/١٢).

حصلت في عهده؛ من ذلك: تصديه لحركة دبيس بن صدقة الأسدي^(١)؛ الذي كان على مذهب الشيعة، وكانوا يجاهرون بسب الصحابة -رضي الله عنهم- إضافة إلى تركهم الصلوات، وعدم إقامتهم الحج، واعتداءاتهم المتواصلة على المسلمين، وأعمالهم العدائية الأخرى، وموقف الخليفة المسترشد من هذه الحركة وقمعه لها، يؤكد -بوضوح- دفاعه ونصرته لأهل السنة، ومحاربة الفرق الضالة، وأهل البدع والمنكرات، وحماية الخلافة العباسية السنية من خطر العابثين والحاquدين؛ الذين يتربصون بالمسلمين، ويتحينون الفرص للقضاء على أهل السنة، وعودة النفوذ الشيعي لسابق عهده في أيام البويهيين، ولكن المسترشد بالله كان ذا دين ورأي، وشجاعة، يخرج بنفسه للجهاد، وكان خليقاً للإمامة؛ كما وصف بذلك^(٢).

(١) انظر في هذه الحركة ونهايتها على يد المسترشد بالله سنة (٥٢٥هـ): ابن الجوزي: المنتظم (٢١٧/٩، ٢٣٥، ٢٣٨)، (١٠/٤٤-٥٢)، ابن الأثير: الكامل (١٠/٥٩٥-٦٠٧)، (١١/٣٠)، الكتبي: عيون التواريخ (١٢/١٣١، ١٣) مخطوط، ورقة (٤٠٤)، اليافعي: مرآة الجنان (٣/١٢٣)، الذهبي: العبر (٢/٤٠٨-٤٣٥)، ابن خلدون: العبر (٣/٦٢٠)، (٤/٣٧٢).

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٩/٥٦١)، العبر (٢/٤٣٤)، وقال عنه ابن حزم: "كان ذا همة عالية وهيبة وشهامة، معدوداً من الفقهاء". ابن حزم: موجز تاريخ الإسلام - تمة المحقق - ص (٦٢).

كما كان المسترشد شديد الحرص على إقامة شعائر الدين، والقيام بالمعروف والنهي عن المنكر؛ حيث تصدى -بقوة- لمحاسبة أهل الفجور والفساد؛ حيث أمر في سنة (٥١٤هـ) بإراقة الخمر التي بسوق السلطان، وهدم دور أهلها^(١)؛ وهذا أمر له أهميته الكبرى في ميدان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لاسيما عند ما يكون الأمر به، والمتابع له، هو خليفة المسلمين، كما أمر في سنة (٥٢٦هـ) بمحاسبة القائمين على دار الضرب؛ عندما تبين له اختلاسهم وخيانتهم^(٢)، وكان يقوم بمصادرة أموال الوزراء والكتاب ورؤساء الدواوين، عندما يتضح له اختلاسهم، أو نهبهم الأموال، استغلالاً لمراكزهم ووظائفهم في الدولة^(٣)؛ وهذا يدل على اهتمامه بالأمور؛ ومتابعته لها، وفطنته وتفقده أحوال دولته؛ لما فيه مصلحة المسلمين العامة، ويؤكد -بوضوح- الجهود العظيمة؛ التي بذلها - رغم ظروف عصره- في الجوانب الدينية والإدارية خاصة^(٤).

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢١٨/٩).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٢٥/١٠).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (٢٧/١٠).

(٤) من جهوده -أيضاً- التي تؤكد حرصه على إقامة الشعائر الدينية، عندما تأخر سير الحجاج سنة (٥١٢هـ) وخيف انقطاع الحج وعدم ذهاب الناس في تلك السنة، أمر على الفور بتعيين أمير للحج، وزوده بالمال الذي يحتاجه، حتى أدى الحجاج فريضتهم ببسر وسهولة والله الحمد. انظر: ابن الأثير: الكامل (٥٤٥/١٠).

كذلك قام الخليفة الراشد بالله؛ على الرغم من قصر مدة خلافته؛ حيث لم تتجاوز أحد عشر شهراً وأياماً^(١) (٥٢٩-٥٣٠هـ)، بالتأكيد على تعظيم الشعائر الدينية، ومحاربة المنكرات، والإحسان إلى الرعية، وتفقد أحوال الناس، ومما يدل على ذلك أمره -عند توليه الخلافة- بعدم الظلم، ومن كانت له مظلمة فليرفعها، وأن يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر^(٢).

وهذه النقطة الأخيرة هي التي نتمنا -هنا- لأننا نتحدث عن الجهود المبذولة في هذا الأمر المهم، واهتمام الخلفاء والعلماء في هذا الجانب الديني العظيم؛ فعلى الرغم من الظروف السياسية المضطربة في عهده القصير، إن الخليفة الراشد لم يغفل عن هذا الواجب؛ لأنه يُدرك أهميته ووجوبه عليه؛ بصفته خليفة المسلمين؛ يجب عليه إنكار المنكرات، ومجاهدة أهل الفسق والفجور، ومعاقتهم، والتضييق عليهم؛ كي يصلح المجتمع، وتنتشر الفضيلة؛ ليظل المجتمع مثاليًا خاليًا من الشوائب؛ التي تكدر صفوه، ولا يتأتى ذلك إلا بالجهود المتواصلة والعمل الدؤوب من قبل الخلفاء؛ الذين

(١) ابن حزم: موجز تاريخ الإسلام -تتمة المحقق- ص (٦٣)، ابن الأثير: الكامل

(٤٢/١١)، ابن دقماق: الجوهر الثمين (٢٠٦/١).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٥٠/١٠-٥١)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٥٦٩/١٩)،

السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤٣٦)، المكي: سمط النجوم العوالي (٣٧٣/٣)،

وتذكر هذه المصادر أنه كان رجلًا صالحًا دينًا ورعًا، يكره الشر والظلم.

استرعاهم الله تعالى على الرعية، وكذلك رجال الدولة الآخرين، والعلماء والمصلحين والمفكرين؛ كل بحسب قدرته وموقعه.

وكان الخليفة المقتفي لأمر الله (٥٣٠-٥٥٥هـ) يُباشِر الأمور بنفسه، خليقاً للإمامة، أعاد الهيبة والمكانة للخلافة العباسية، ولم يبق له منازع، وكان حريصاً -كسابقه من الخلفاء- على تمسكه وتقيدته بالدين، والقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ حيث أمر في سنة (٥٤٧هـ) بإرأقة الخمر، وخاصة من مساكن أصحاب السلطان؛ حيث وُجد كثير من الخمر في تلك الدور؛ فتقدم الخليفة بإرأقته وإتلافه^(١)، إضافة إلى قيامه بعزل بعض الوزراء؛ الذين يأخذون أموال الناس بالباطل، ويسئون معاملة الرعية^(٢)؛ مما يدل على ورعه وتقواه وقيامه بالواجب المكلف به، والمؤمن عليه.

(١) ابن الأثير: الكامل (١٦١/١١).

(٢) من أمثلة ذلك ما حدث سنة (٥٣٤هـ) عند ما قام بعزل الوزير علي بن طراد الزيني بعد أن استبد بالأمور، على الرغم من صلته القوية به وقرابته منه. انظر: ابن طباطبا: الفخري ص (٣١٠)، ابن خلدون: العبر (٦٣٤/٣)، ابن العماد: شذرات الذهب (١١٧/٤)، وموقعه -أيضاً- من أبي البركات كمال الدين بن المسلمة الزكزيني -وزير السلطان مسعود- حينما طلب من صاحب المخزن مبلغاً كبيراً من المال؛ يحصله من الناس؛ فتصدى له المقتفي ولامه على ذلك العمل؛ حتى أنكر السلطان مسعود ذلك الفعل على وزيره. ابن الجوزي: المنتظم (٦٦/١٠).

وكذلك تدل مثل هذه الأعمال والجهود على يقظته وفطنته ومتابعته لما يجري في دولته؛ وهذا ما جعل البعض من المؤرخين يقول عنه: "كان المقتفي شجاعاً حليماً، عظيم الهيبة، عالماً فاضلاً، بيده أزمة الأمور، لا يجري في دولته أمر - وإن صغر - إلا بتوقيعه، باشر الأمور بنفسه، ولم يُر - مع سماحته ولينه - خليفة في شهامته وشجاعته وصرامته، مع ما خص به من زهده وورعه وعبادته"^(١)، ومن هنا يتضح شدة تمسك المقتفي بأمر الدولة ومتابعته الجوانب الدينية والسياسية والاقتصادية بكل دقة واهتمام.

وتابع الخليفة المستنجد بالله (٥٥٥-٥٦٦هـ) هذه المسيرة المباركة؛ فقد كان شديد الاهتمام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، شديداً على أهل العبث والفساد، يقول عنه ابن كثير: "كان من خيار الخلفاء وأعدلهم، وكان أماراً بالمعروف، نهاءً عن المنكر"^(٢)، ومن خلال هذا الوصف بصيغة المبالغة يتضح أن المستنجد كان كثير القيام بهذا الأمر العظيم، والمتابعة، والاهتمام به، ويقول عنه الذهبي: "وقام كل القيام على المفسدين"^(٣)، ومن أمثلة ذلك: أنه قبض على إنسان كان يسعى بالناس؛

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٠١/٢٠)، العبر (٢٤/٣-٢٥)، القرطبي: أخبار الدول

ص (١٧٥)، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤٤٠-٤٤١).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (٢٦٢/١٢).

(٣) الذهبي: العبر (٤٨/٣).

فحبسه وأطال حبسه؛ فشفع فيه بعض أصحابه المختصين بخدمته، وبذل عنه عشرة آلاف دينار؛ فقال له المستنجد: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لي إنساناً آخر مثله؛ لأكف شره عن الناس، ولم يطلقه^(١).

وقبض الخليفة المستنجد على القاضي ابن المرخم؛ الذي كان يأخذ أموال الناس، ويظلم في أحكامه؛ فأعاد الأموال إلى أصحابها، وسجنه، وصادر ممتلكاته^(٢)، كذلك كان شديداً على أهل النيممة والسعاية بالناس، والمتسلطين على الرعية؛ حيث كان من أحسن الخلفاء سيرة مع رعيته، كثير الرفق بهم، رد كثيراً من الأموال، وأسقط المكوس؛ فلم يترك بالعراق شيئاً منها، وأفرج عن أناس كانوا مطالبين بأموال؛ حيث تحمل تلك الأموال عنهم، وأطلق سراحهم^(٣)؛ الأمر الذي يدل على تحريره في العدل، وحبه للخير، وتقربه من الرعية، وتوثيق الصلة بهم؛ وهذه الأمور هي التي جعلته شديداً على أهل العبث والفساد والظلم، ومن هنا كان المستنجد كثير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لوجوبه عليه من جهة، ولما يعود على المجتمع الإسلامي من آثار وفوائد عظيمة من جهة أخرى.

(١) ابن الأثير: الكامل (٣٦٢/١١)، الكتبي: عيون التواريخ (٥٢٢/١٢)، القرماني: آثار الدول ص (١٧٧).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (١٩٤/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٣٦٢/١١).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (١٩٤/١٠)، الذهبي: العبر (٤٨/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٦٢/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٣٨٦/٥).

ثم واصل تلك الجهود الخيرة والمتعلقة بمجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ابنه الخليفة المستضيء بأمر الله (٥٦٦-٥٧٥هـ) الذي كان عادلاً، حسن السيرة في الرعية، والناس معه في أمن عام وإحسان شامل، وطمأنينة وسكون، حريصاً على تحري العدل، ومحاربة الظلم، أمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، مبطلاً للبدع، مزيلاً عن الناس المكوسات والضرائب^(١).

ومثل هذه الأوصاف تؤكد ما كان يتمتع به الخلفاء في العصر السلجوقي من اهتمام عظيم بالجانب الديني بصفة عامة، وجانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بصفة خاصة؛ وهذا موداه إلى تقوى الله تعالى وخشيته، وشعورهم بالمسؤولية، وتحملهم الأمانة التي ائتمنهم الله تعالى عليها، وإدراكهم واجبهم تجاه رعيته؛ وهذا لا يستغرب على خلفاء ذلك العصر؛ لأنهم كانوا على درجة كبيرة من العلم؛ الذي أهلهم للقيام بمثل هذه الأعمال والجهود العظيمة؛ حيث عملوا، وقاموا بواجبهم خير قيام، وتطلعوا إلى ما عند الله تعالى من الثواب والأمر العظيم، وما أعده - سبحانه - للإمام العادل؛ حيث إنه أول السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٣٣/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٤٥٩/١١)، ابن كثير:

البداية والنهاية (٣٠٤/١٢)، السيوطي: تاريخ الخلفاء (٤٤٥).

وكان للمستضيء مواقف حازمة ضد أهل البدع والأهواء والفرق الضالة، منها عندما أمر في سنة (٥٧١هـ) بتحذير ومنع الشيعة من سب الصحابة -رضي الله عنهم- أو انتقاصهم، وهددهم بالسجن، وبأشد العقوبات^(١)، وقبض في سنة (٥٧٤هـ) على أحد رجالهم، ويدعى: ابن قرابا؛ فأخذ وقطع لسانه ويده -كما تذكر بعض المصادر- وأحرقت كتبه، وهجم عليه العامة ورجوه حتى مات؛ لما كان يظهره من سب الصحابة وانتقاصهم في كتبه التي وجدت عنده^(٢)، وهذه المواقف أدت إلى خفت صوت الشيعة، وقوة نفوذ أهل السنة، وقد عبر عن ذلك المؤرخ ابن الجوزي؛ المعاصر لتلك الأحداث؛ حيث قال: "وقد خمدت جمرتهم بالمرّة، وصاروا أذل من اليهود"^(٣) أي: الروافض، ويوضح الذهبي ذلك بقوله: "وفي أيامه اختفى الرفض ببغداد ووهي، وأما بمصر والشام فتلاشى، وزالت دولة العبيديين أولي الرفض"^(٤).

ومما يؤكد اهتمامه بالجانب الديني، ومتابعته الأمور، وشدته على أهل الأهواء والتيارات المنحرفة، ما فعله سنة (٥٧٣هـ)، عندما أمر بحبس اليهود؛ الذين تسلطوا على المسلمين وتأديبهم، وهدم كنيستهم

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٥٩/١٠).

(٢) المصدر السابق (٢٨٥/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (٣٠٠/١٢).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (٢٨٦/١٠).

(٤) الذهبي: العبر (٦٨/٣).

وجعلها مسجداً؛ نكايه بهم، وتشهيراً بأمرهم^(١)؛ كي يصبحوا عبرة لغيرهم، ولمن تُسول له نفسه الإساءة للمسلمين؛ أو التسلط عليهم^(٢). وهذه الجهود والأعمال والمواقف؛ التي قام بها الخليفة المستضيء تدل -بوضوح- على اهتماماته الدينية، وقيامه بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأهميته لديه، وكذلك وقوفه ودعمه لأهل السنة ونصرتهم، ومحاربتة أهل البدع والأهواء والأفكار الضالة؛ التي يحاول أصحابها تروييحها ونشرها في المجتمع الإسلامي؛ الأمر الذي أدى -بحول الله- إلى الحفاظ على كيان أهل السنة، ومجاهدة التيارات الفكرية المنحرفة، والتصدي لها بكل قوة وحزم وشدة.

أما آخر الخلفاء العباسيين في العصر السلجوقي؛ وهو الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ)، فقد سار على نهج والده، ومن سبقه من الخلفاء؛ فقد شدد على التمسك بالنفوذ الديني، ومحاربة الأفكار الباطلة، ومناصرة أهل السنة؛ فقد كان يتمتع بشخصية قوية، وتجربة طويلة؛ أكسبته هيبه في القلوب؛ ولذلك وصف بأنه أسد بني العباس، دانت له السلاطين، وذلت له العتاة، وانقهرت بسيفه البغاة، وكان يهتم كثيراً

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٧٥/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٤٤٧/١١-٤٤٨)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٩٨/١٢).

(٢) مما يؤكد ذلك أمره بصلب جماعة من المفسدين في الأرض، وجعلهم عبرة لغيرهم أو لمن يفكر في زعزعة الأمن والإساءة للناس (ابن الجوزي: المنتظم (٢٧٥/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٤٤٨/١١)).

بأصحاب الأخبار؛ الذين يطالعونه بما يحدث من أمور صغيرة وكبيرة؛ مما يدل على متابعته أمور الدولة وتطورات الأحداث في عهده.

ومن الأمثلة الدالة على قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتصديه للفرق الضالة، ومجاهته للأفكار المخالفة، ما فعله سنة (٤٨٣هـ) عندما أمر بقتل هبة الله بن علي صاحب، ومصادرة أمواله، وممتلكاته؛ لأنه كان رافضياً سبأياً؛ أي: يسب الصحابة -رضي الله عنهم- وينتقصهم^(١)؛ وهذا عمل منكر عظيم يستحق صاحبه هذه العقوبة، ويؤكد -في الوقت نفسه- حرص الخليفة الناصر على محاربة المنكر، ومناصرة أهل السنة، وعدم المحاباة أو الجاملة في مثل هذه الأمور الخطيرة؛ مهما كان موقع صاحبها أو مركزه، وقربه من الخليفة؛ كالصاحب مثلاً؛ لأن مثل هذه العقوبة لا يستطيع تنفيذها إلا من ولي أمر المسلمين؛ كالخليفة، أو من ينيبه؛ فإذا لم يفعل خليفة المسلمين ذلك، فقد أحل بالأمانة؛ التي ائتمن عليها، والمسؤولية المنوطة به تجاه دينه وأمته.

كما قاوم الخليفة الناصر المذاهب الفكرية والتيارات المخالفة لعقيدة أهل السنة؛ يتضح ذلك عندما أمر بإحراق كتب عبد السلام بن عبد الوهاب الجليلاني، والقبض عليه، ومصادرة أمواله؛ لأن كتبه احتوت على

(١) الذهبي: العبر (٨٧/٣)، ابن العماد: شذرات الذهب (٢٧٩/٤).

كتب الفلاسفة وأفكارهم المنحرفة^(١)، ثم إن الخليفة أمر الشيخ عبد الله التميمي البكري؛ المعروف بابن المارستانية، أن يخاطب بالناس، ويحذر من الفلاسفة وأفكارهم، وكذلك الأفكار المخالفة لمذهب أهل السنة؛ فتكلم التميمي، وأخذ يلعن الفلاسفة ومن شاكلهم، ويخرج كتبهم أمام الناس، ويتكلم في شأنها كتاباً كتاباً، ويوضح للناس ما فيه بإيجاز، ثم يلقيه في النار، بعد أن يذمه ويذم مؤلفه^(٢).

ولا شك أن مثل هذه المواقف والجهود تؤكد قيام الخليفة الناصر بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتمسك بالدين والعمل على نصرة أهل السنة، ودعمهم وتأييدهم، ومحاربة من خالفهم من أصحاب الفرق والتيارات الضالة من شيعة وفلاسفة ونحوهم؛ لما فيها من الأخطار والآثار السيئة على المسلمين، الأمر الذي يؤدي - في النهاية - إلى الحفاظ على كيان أهل السنة، ومجابهة التيارات المنحرفة الأخرى.

من خلال ما تقدم من جهود ومواقف للخلفاء العباسيين في العصر السلجوقي في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يتبين إدراك الخلفاء لأهمية هذا الأمر العظيم، وواجب القيام به، والتصدي - بقوة - لأصحاب

(١) ابن الأثير: الكامل (٣٠٥/١٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (٤٥/١٣)، وكان ذلك سنة (٦٠٣هـ)، وقد تقدمت ترجمة عبد السلام الجيلاني في الفصل الأول من الباب الأول من الرسالة.

(٢) انظر: محمد آل ياسين: الحياة الفكرية في العراق ص (٣٨).

البدع والمنكرات، وأهل العيب والفسق والفساد، والمحافظة على الأمن، وضبط الأمور؛ حيث كان الخلفاء على قدر كبير من العلم والشعور بالمسؤولية، وعظم الأمانة؛ التي تحملوها تجاه الرعية.

وما جعلني أوضح مواقف الخلفاء وجهودهم في هذا الميدان، وألقي الضوء عليها بشيء من الاختصار والإيجاز^(١)؛ وهو محاولة ربط تلك الجهود والمواقف بجهود العلماء الآتية ومواقفهم البارزة تجاه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن العلماء وجدوا التشجيع والتأييد والدعم والنصرة من قبل هؤلاء الخلفاء؛ الذين عملوا ما في وسعهم في هذا المجال، وهيئوا المناخ الملائم والجو المناسب للعلماء؛ كي يوضحوا هذه الأمور للناس؛ فيأمرهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر؛ لما في ذلك من النتائج المثمرة والفوائد العظيمة؛ التي تعود بالخير والنفع للمجتمع الإسلامي، وهذه النتائج والفوائد لا يمكن تحقيقها وقطف ثمارها، لولا نصر الله، ثم تعاون الجميع، وتضافر الجهود، وتوحيد الصف واجتماع الكلمة، أي أن العلماء وجدوا من الخلفاء كل الدعم والتأييد؛ حيث كان الخلفاء - كما

(١) سبق أن ذكرت هذه الأعمال والجهود في مواضع سابقة من البحث، ولكني ذكرتها هنا - بإيجاز لمناسبتها وأهميتها في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولارتباطها بجهود العلماء في ذلك العصر في هذا الميدان المهم؛ لأن الهدف من البحث - بصفة عامة - توضيح جهود الخلفاء والعلماء في الحفاظ على كيان أهل السنة في العصر السلجوقي.

سبق ذكره- يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، بأنفسهم، ويتابعون -
باهتمام بالغ- الأمور المتعلقة بهذا الأمر المهم في حياة المجتمع الإسلامي.
لذا كان من الطبيعي للعلماء في ذلك العصر أن يقوموا بواجبهم -
أيضًا- في هذا المضمار، كما قام به الخلفاء؛ وهذا واجب شرعي على
العلماء العاملين والمخلصين المدركين لرسالتهم، المؤثرين في أمتهم، عليهم
أن يُذكروا الناس ويعظوهم، ويقوموا بهذا الواجب المتعلق بهم، وأن لا
يسكتوا عن إنكار المنكر؛ لأنه بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
يندرس العلم، ويكثر الجهل، ويزداد الشر، وتعظم المصيبة الدينية
والدنيوية، ويختل الأمن، وتعم الفوضى، وفي ترك المنكر -أيضًا- تعرض
للعنة الله، كما لعن بنو إسرائيل لما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر، ثم إن ترك هذا الأمر وعدم الاهتمام به من أسباب العقاب العام،
ومن موانع إجابة الدعاء، وغير ذلك من المفاصد والأضرار الكثيرة الناجمة
عن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لذلك كان لا بد للعلماء -وهم ورثة الأنبياء، ومصايح الهدى،
وقادة الفكر- أن يقوموا بهذا الواجب العظيم، وأن لا يتهاونوا به؛ فعلى
هذا جرت سنة الأنبياء والمرسلين والسلف الصالح -رضوان الله عليهم-
بدعوة الناس إلى الخير، وإرشادهم إلى طريق الهدى والرشاد، والأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر، مهما اعترض طريقهم من أشواك ومخاطر،
متحلين بالصبر والتحمل، واثقين بما عند الله من الأجر والثواب، غير
وجلين أو متزعزعين؛ كي تتحقق لنا الخيرية؛ التي اختصنا الله تعالى بها في

كتابه العزيز، فتعزز الأمة، ويصلح المجتمع، ويُقضى على الشر والفساد، وينشر الأمن، ويسعد الناس، ويأمن من يقوم بهذا العمل من لعنة الله وسخطه ومقته، ومن تعلق العصاة به يوم القيامة، ولا شك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سببان من أسباب النصر والتأييد، وتركهما سبب للذل والخذلان؛ وهما من أفضل الأعمال، والقيام بهما فيه أمان من الذم والتوبيخ في الدنيا الآخرة، وفيه عزة للإسلام والمسلمين.

من هذا المنطلق أدرك علماء العصر السلجوقي أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والآثار المترتبة على القيام به؛ فكانت لهم الجهود الكبيرة والدور العظيم في هذا الميدان، وكانت صلتهم بالخلفاء والسلاطين قوية في ذلك العصر؛ حيث كانوا يلقون منهم كل دعم وتأييد؛ مما مكن لجهودهم؛ فأثمرت عن فوائد عظيمة عادت بالخير والنفع على المجتمع الإسلامي؛ لأن دائرة المعروف والمنكر متسعة تشمل جميع جوانب الحياة؛ ولذا فمنهج العلماء في الأمر والنهي ليس مجرد وعظ ونصح وإرشاد وتوضيح؛ إنما هو عمل مضمّن، وجهد متواصل، لا بد فيه من الصبر والتحمل، والعلماء المخلصون خير من يحمل هذه الصفات؛ لعلمهم باختلاف مفاهيم الناس، ومدى تقبلهم هذا الأمر، وإدراكهم أهميته، ومن هنا ندرك أهمية وجود العلماء في المجتمع الإسلامي، وتأثيرهم فيه.

ومن أشهر العلماء وأبرزهم، والذين كانت لهم جهود ومواقف

عظيمة في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في العصر السلجوقي:

أبو جعفر عبد الخالق بن عيسى بن أحمد بن محمد الهاشمي (٤٧٠هـ)، كان عالماً فقيهاً ورعاً عابداً زاهداً، أحد الفقهاء العلماء المشهورين بالديانة والفضل والعبادة والقيام في الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم^(١).

ويذكر الذهبي أنه كان إذا بلغه منكر عظم عليه جداً، وكان شديداً على المبتدعة، لم تنزل كلمته عالية عليهم، وأصحابه يقيمونهم، ولا يرددهم أحد^(٢).

ويقول صاحب المنهج الأحمد: "كان قوالياً بالحق لا يجابي، ولا تأخذه في الله لومة لائم، وكان شديد القول واللسان على أهل البدع، ولم تنزل كلمته عالية عليهم، ولا يرد يده عنهم أحد، وكان معظماً عند الخاصة والعامة، زاهداً في الدنيا، قائماً في إنكار المنكر، مجتهداً في ذلك"^(٣).

وهذه الأقوال المتقدمة تدل على قيام الهاشمي بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خير قيام؛ لأنه يدرك أهمية هذا العمل العظيم، ووجوبه على العلماء؛ حسب قدرتهم واستطاعتهم والظروف المحيطة بهم،

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (١١٩/١٢).

(٢) سير أعلام النبلاء ١٨/٥٤٧.

(٣) العليمي: المنهج الأحمد (١٥٢/٢-١٥٣)، وانظر عن أقوال العلماء في الهاشمي: ابن

الجوزي: المنتظم (٣١٥/٨)، الذهبي: العبر (٣٢٨/٢)، دول الإسلام ص (٢٤١)،

ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة (١٥/١-٢٦)، ابن تغري بردي: النجوم

الزاهرة (١٠٦/٥)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٣٦/٣).

نلاحظ - من خلال تلك النصوص - قوته في هذا الأمر، وشدته على أهل البدع والأهواء الضالة؛ لأنه يعلم خطرهم على المجتمع الإسلامي؛ وهو - في هذا كله - لا يأبه بأحد، أو يخشى بطش أحد به؛ بل كان يجتهد في مقاومته المنكرات، لا تأخذه في سبيل ذلك لومة لائم؛ لأنه يتطلع إلى ما عند الله تعالى، وفي نفس الوقت يدرك ما يترتب على السكوت عن المنكر من مفسد ومخاطر وعقوبات؛ لأن في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمناً من لعنة الله وسخطه ومقتته، وفي ترك القيام بهما تعرض لذلك كله، وفيه كذلك أمان من تعلق العصاة بالعبد يوم القيامة؛ ولذا كان العلماء العاملون يدركون واجبه وأهميته في المجتمع الإسلامي؛ فكانوا يقومون بهذا الواجب العظيم؛ مهما كلفهم من تضحيات ومتاعب؛ كي تبرأ ذمتهم أمام الله تعالى.

ومن مواقف الإمام عبد الخالق بن عيسى الهاشمي وجهوده العظيمة في هذا الميدان، ما حدث في سنة (٤٦٤هـ)، حيث اجتمع ومعه الحنابلة في جامع القصر، وأدخلوا معهم أبا إسحاق الشيرازي وأصحابه - الشافعية - وطلبوا من الدولة قلع المواخير^(١)، وتبع المفسدين والمفسدات، ومن يبيع النبيذ، وضرب دراهم تقع بها المعاملة عوضاً عن القراضة؛ فما

(١) الماخور: بيت الريبة، وجمع أهل الفتن والفساد وبيوت الخمارين، وجمعه مواخير ومواخير. انظر: ابن منظور: لسان العرب (١٦٠/٥-١٦١)، الفيروزبادي: القاموس المحيط (١٣٦/٢)، إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط (٨٥٧/٢).

الفصل الثالث: جهود العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وآثار ذلك ٨٣٩

كان من الخليفة إلا أن تجاوب وامتثل لهذه المطالب؛ فهرب المفسدون والمفسدات، وكبست الدور؟، وأريقت الأنبذة، ووعدوا بقلع المواخير، والتقدم بضرب دراهم للتعامل بها^(١).

ولا شك أن هذه الأعمال والمواقف تدل دلالة واضحة على جهود الهاشمي، ومن معه من علماء الحنابلة والشافعية في القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتتبع أحوال المجتمع وما يدور فيه من مفاسد ومنكرات، ومحاولة تطهيره منها؛ كي يصبح مجتمعا مثاليًا صافيًا لا يكدره شيء من المنكرات الظاهرة، ولا ننسى تجاوب الخليفة في مثل هذا الجانب المهم وامتثاله لمطالب العلماء وتعاونهم معهم، لا سيما وقد أشرت - سابقاً - لمواقف وجهود الخلفاء في هذا الميدان^(٢)، وأن العلماء لقوا منهم كل دعم وتأييد بهذا الواجب العظيم؛ لما له من أثر كبير في المجتمع الإسلامي، ثم إننا نلاحظ - في هذا الموقف - تعاون الحنابلة والشافعية^(٣) في إنكار المنكرات والتصدي لها؛ ومكاتبته أولي الأمر في شأنها، على الرغم من التنافس بينهما والتنازع أحيانًا، ولكن ذلك لم يكن ليثنيهم عن القيام بواجبهم وتبرئة ذمتهم أمام الله تعالى.

(١) انظر تفاصيل ذلك في: ابن الجوزي: المنتظم (٢٧٢/٨)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٠٥/١٢)، العليمي: المنهج الأحمد (١٥٤/٢).

(٢) انظر: هذه الجهود والمواقف في الصفحات السابقة من هذا الفصل.

(٣) لأنه حضر اجتماع الحنابلة أبو إسحاق الشيرازي وأصحابه من الشافعية، واتفق الجميع على إنكار ما تقدم، ومكاتبته الخليفة بذلك.

ومن جهود أبي جعفر الهاشمي ومواقفه ضد أهل البدع والأهواء الضالة، موقفه من المعتزلة؛ حيث عزم أبو علي بن الوليد؛ شيخ المعتزلة؛ على إظهار مذهبه، والترويج له؛ وذلك بعد موت الشيخ الأجل أبي منصور بن يوسف^(١)، حيث قالوا: ما بقي من ينصرهم -يعني: أهل السنة- بعد موت ابن يوسف؛ فقام أبو جعفر الهاشمي إلى جامع المنصور، وسائر الفقهاء، وأعيان أهل الحديث، ومنعوا ذلك، وفرح أهل السنة كثيراً لهذا الموقف، وقام المجتمعون في الديوان بقراءة الاعتقاد القادري؛ الذي يوضح معتقد أهل السنة والجماعة، وقرئ كذلك كتاب التوحيد لابن خزيمة، وطلب أبو جعفر أن يُسلم إليه نسخة من الاعتقاد القادري؛ فقال الوزير ابن جهير: ليس هاهنا نسخة غير هذه، ونحن نكتب لكم نسخة لتقرأ في المجالس؛ فقال: هكذا فعلنا في أيام القادر، قرئ في المساجد

(١) هو عبد الملك بن محمد بن يوسف بن منصور؛ الملقب بالشيخ الأجل؛ كان أوحد زمانه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمبادرة إلى فعل الخيرات، واصطناع الأيادي عند أهلها من أهل السنة؛ مع شدة القيام على أهل البدع، ولعنهم، وتفقد المستورين بالبر والصدقة وإخفاء ذلك جهده وطاقته، قال الخطيب: كان أوحد وقته في فعل الخير، ودوام الصدقة، والإفضال على العلماء، والنصر لأهل السنة، والقمع لأهل البدع، توفي سنة (٤٦٠هـ). انظر: ترجمته وأخباره في: الخطيب: تاريخ بغداد (٤٣٤/١٠)، ابن الجوزي: المنتظم (٢٥٠/٨)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣٣٣/١٨)، ابن كثير: البداية والنهاية (٩٧/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٨٢/٥).

والجوامع، ثم قال الوزير: هكذا تفعلون؛ فليس اعتقاد غير هذا، وانصرفوا شاكرين^(١).

وهذا الموقف من الشيخ أبي جعفر الهاشمي ومن العلماء والفقهاء يدخل ضمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن ترك مثل هذه الأمور لأصحاب الأهواء والبدع، وترويجها للناس فيه خطر عظيم؛ حيث إن هذه البدع الاعتقادية والعملية تؤثر على المسلمين في دينهم وعقيدتهم؛ ولذا يجب التحذير منها وتوضيح مخاطرها وأضرارها على المجتمع الإسلامي؛ وهذا ما جعل الإمام أبا جعفر الهاشمي يتصدى لها بقوة وينكرها إنكاراً شديداً، دون مبالاة بأحد، ومن هنا جاء وصفه بالشدة على المبتدعة، وقمعهم، وعلو كلمته عليهم؛ وهذا هو الواجب ضد أهل البدع؛ لما يحملونه من أفكار ضالة ومعتقدات فاسدة وآثار مدمرة، ولا شك أن الإنكار عليهم له ضوابط معروفة عند أهل السنة يجب أن يعيها من أراد ذلك؛ كي يكون على علم وبصيرة من أمره^(٢).

وكانت للشيخ أبي جعفر الهاشمي جهود متتابعة في ميدان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ من خلال تدريسه في مسجده، ثم بجامع

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٤٨/٨-٢٤٩)، ابن كثير: البداية والنهاية (٩٦/١٢)، العلمي: المنهج الأحمد (١٥٥/٢).

(٢) انظر هذا الموضوع: كتاب موقف أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع لأبراهيم الرحيلي -رسالة دكتوراه مطبوعة- نشر مكتبة الغرباء -المدينة (١٥-٢٦) الطبعة الأولى.

المهدي، وجامع المنصور، وحلقاته العلمية؛ التي كان يعقدها فيهما؛ لما تتخلله تلك الدروس والحلقات من تذكير ووعظ ونصح، يدخل في مجمله ضمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ الأمر الذي جعله معظمًا عند الخاصة والعامة، وليس أدل على ذلك من أن الخليفة القائم بأمر الله أوصى -عند احتضاره- بأن يغسله أبو جعفر الهاشمي، ففعل، وكذلك أوصى القاضي أبو يعلى الفراء بذلك عند احتضاره -أيضًا^(١).

وذكرت له كتب التراجم؛ التي ترجمت له كلمة عظيمة تدل على إخلاصه لله تعالى، وتقواه له، وعلى وعيه وبعد نظره، واتساع مداركه، وقوته ومتابعته إنكار المنكرات حتى آخر حياته؛ حيث كان يقول: "مذهبي الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وما عليه مالك وأحمد والشافعي، وغيرهم ممن يكثر ذكركم، والصلاة بجامع المنصور؛ إن سهل الله تعالى ذلك عليهم؛ ولا يعقد لي عزاء، ولا يُشق على جيب، ولا يلطم خد، فمن فعل ذلك فإن الله حسيبه"^(٢).

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٣١٥/٨-٣١٧)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٥٤٧/١٨)، ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة (١٥/١-٢٦)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٣٦/٠٣)، ويذكر العليمي مجموعة من المساجد التي درس فيها. انظر: المنهج الأحمد (١٥٢/٢).

(٢) انظر هذا النص عند: ابن الجوزي: المنتظم (٣١٦/٨)، العليمي: المنهج الأحمد (١٥٦/٢).

ويكفي بهذه الكلمة عبرة واتعاظاً ودلالة على ما كان يتمتع به من ديانة وفضل، وحرص شديد على إنكار المنكرات؛ التي نهى عنها الشرع القويم؛ وهو - بذلك - يريد أن يلقي الجميع درساً علمياً في النصح والتوجيه والموعظة الحسنة؛ التي توجّل منها القلوب، وتذرف منها الدموع، ويبقى أثرها عميقاً في النفوس؛ لأنها نبعت من قلب مخلص لدينه وأمته، وفيها إشارة إلى عدم تعصبه لمذهبه الحنبلي؛ بل إن منهجه تحري الحق والعمل به، ودون تعصب لمذهب إمام، وهكذا يكون الفكر النير، والنظرة الثاقبة، والوعي العميق؛ المنبثق من قوة دينه، وورعه وتقواه، وإخلاصه وتفانيه لقضايا أمته، وبعده عن أسباب النزاع والفرقة والاختلاف.

وبعد تلك الحياة الحافلة بالجهود والأعمال والمواقف العظيمة المؤدية إلى الحفاظ على كيان أهل السنة في ذلك العصر، توفي أبو جعفر الهاشمي في شهر صفر سنة سبعين وأربعمائة، وصُلي عليه بجامع المنصور، ولم يسع الجامع الخلق، ولم يتهيأ لكثير منهم الصلاة، وكان يوماً مشهوداً، وكانت العامة تقول: ترحموا على الشريف الشهيد القليل المسموم؛ لما ذكر من أن بعض المبتدعة ألقى في نعليه سماً^(١)؛ لأنه كان شديداً عليهم، منكرًا

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٣١٦/٨-٣١٧)، العليمي: المنهج الأحمد (١٥٦/٢-١٥٧)،

ابن العماد: شذرات الذهب (٣/٣٣٧).

أفعالهم، ولذلك كانوا يتحينون الفرص للقضاء عليه، فيما لو صحت هذه الرواية.

ومن العلماء؛ الذين كانوا يهتمون كثيراً في القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في العصر السلجوقي: أبو الوفاء طاهر بن الحسين بن أحمد بن عبد الله القواس، كان من العلماء العاملين المخلصين، قرأ القرآن، وسمع الحديث، وتفقه أولاً على القاضي أبي الطيب الطبري، ثم تفقه على القاضي أبي يعلى الفراء، ولازمه حتى برع في الفقه، وأفنى ودرس، وكانت له حلقة بجامع المنصور للفتوى والمناظرة، وكان ثقة ورعاً، زاهداً، أماراً بالمعروف، نهياً عن المنكر، شجاعاً مقداماً، يهابه المخالفون، له شوكة ومنعة، أمة في نفسه، حدث عنه جماعة، توفي في شعبان سنة ست وسبعين أربعمائة، ودفن في بغداد^(١).

والشاهد من هذه الترجمة السابقة كثرة قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لورودها بصيغة المبالغة الدالة على ذلك، وهيبته أمام المخالفين؛ حيث كانت له قوة ومنعة ضدهم، وكثرة إنكاره عليهم، وقمعه لهم، ويشهد له بذلك وصف الذهبي له بأنه من العلماء العاملين

(١) انظر في ترجمته ابن القواس وأقوال العلماء فيه: ابن الجوزي: المنتظم (٩/٨-٩)، ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة (٢/٢٤٤)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٨/٤٥٢)، والعبير (٢/٣٣٤)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١٢٥)، العليمي: المنهج الأحمد (٢/١٧٠-١٧٣)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣/٣٥١-٣٥٢).

الصادقين المخلصين^(١)؛ حيث إن ابن القواس يدرك هذا الفعل العظيم المتمثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وواجب العلماء تجاهه، وحاجة المجتمع الإسلامي الماسة للقيام بذلك؛ لوجود التيارات المنحرفة، والمنكرات الظاهرة أحياناً؛ التي يجب عدم السكوت تجاهها، لا سيما من العلماء الذين يدركون ما يترتب على السكوت عن المنكرات من مفساد وأضرار، وفي الوقت نفسه يدركون ما يترتب على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسباب الرحمة والرضوان والنصر والتأييد والأجر العظيم.

وكان العلماء الربانيون الذين أدركوا أهمية واجبه المنوط بهم، وأهمية وجودهم في المجتمع الإسلامي، وسعيهم الحثيث للقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كانوا هم قادة المسلمين في أوقات الشدة، والأخطار والنوازل والنكبات، وقد أثبت العديد منهم جدارتهم وشجاعتهم في ذلك.

ومن النماذج الدالة على هذا الأمر، أن العالم الفقيه أبا القاسم مسعود بن محمد الخجندي؛ الذي عاش في أصبهان، لما رأى قوة الباطنية، وزيادة خطرهم، وكثرة سفكهم للدماء، لاسيما بعد مقتل نظام الملك، وولده وغيرهما من القادة والعلماء والمجاهدين، وشعور الناس بشدة الخوف والهلع منهم، تجرد هذا العالم للانتقام منهم، والتصدي لهم؛ فقام بجمع

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١٨/٤٥٢).

وجهاء أصبهان، وحشد الناس بالأسلحة، وجمع الجرم الغفير، وأمرهم بحفر أحاديث أوقدت فيها النيران؛ فجعلوا يأتون بهؤلاء الباطنية، ويلقونهم في النار، إلى أن قتلوا منهم خلقاً كثيراً^(١)؛ وبذلك عاد الأمان، وانحسرت شرور الباطنية، بفضل الله تعالى، ثم بجهود هذا الفقيه الذي قام بهذا الواجب العظيم، فسد الثغرة الأمنية في بلده، ووقف لهم حسب قدرته واستطاعته؛ حتى أنقذ الناس من شرورهم ومفاسدهم، لأن هؤلاء الباطنية أكثروا من سفك الدماء، واللجوء إلى أسلوب القتل والاعتقال، لتخويف الناس، وحثهم على الدخول في طاعتهم، والتأثر بمعتقداتهم وأفكارهم الضالة، والترويج لمذهبهم، ولكن العلماء لم يغفلوا عن هذه المقاصد السيئة؛ فقاموا بواجبهم خير قيام؛ فحذروا الناس من فكرهم ومعتقدهم، عن طريق التدريس والوعظ والتصنيف، والمواجهة، كما فعل الخجندي ومن معه؛ وهذا لا شك داخل ضمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لتضمنه التحذير من التيارات الفكرية المنحرفة ومحاربتها فكرياً وعلمياً؛ لما تحمله من آثار فكرية مدمرة على المسلمين في دينهم وعقيدتهم، وكانت وفاة الخجندي؛ كما تذكر أكثر المصادر سنة (٤٩٦هـ)؛ حيث وقعت

(١) انظر في ذلك: ابن الأثير: الكامل (٣١٥/١٠)، الذهبي: سير أعلام النبلاء

(٤٠٤/١٩)، محمد شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد ص (١٥١-١٥٢)، أكرم

العمرى: قيم المجتمع الإسلامي (١٥١/١) ن ومعلوم أن قتل الأعداء بالحرق لا يجوز

شرعاً، ولكن هذا اجتهاد منه.

فتنة بالري؛ فخرج ليصلح بين الناس؛ فرماه علوي بسهم فقتله، وقُتل العلوي، وكانت الفتنة بين السنة والشيعة^(١). وهذا من فضل الله تعالى عليه؛ حيث أكرمه بالشهادة - إن شاء الله تعالى.

ومن العلماء؛ الذين كانت لهم جهود عظيمة، وتوجيهات سديدة في العصر السلجوقي في ميدان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بهذا الواجب العظيم، وإحياء رسالته، الإمام أبو حامد الغزالي؛ الذي يرى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين؛ وهو المهمة؛ التي ابتعث الله لها النبيين جميعاً، وإذا أهمل علمه وعمله تعطلت رسالة الأنبياء، واضمححل الدين، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة،

(١) تذكر أكثر المصادر أن وفاته في تلك السنة، لكنها لا توضح لنا الاسم الحقيقي للخجندي، بل هناك اختلاف - أيضاً - في الكنية، فالبعض يذكره بأبي المظفر؛ كابن الجوزي (١٣٧/٥)، وابن الأثير (٣٦٦/١٠)، وسبط ابن الجوزي (٤٠٣/١)، وابن كثير (١٦٣/١٢)، وعندما تحدثوا عن موقفه المتقدم ضد الباطنية ذكروه بأبي القاسم في حوادث سنة (٤٩٤هـ)؛ كابن الأثير والذهبي - كما تقدم ذكره سابقاً -، ولعله كان يكنى بأبي المظفر، وأبي القاسم، ولعل عدم ذكر المصادر لاسمه الحقيقي يدل على أنهم غير متأكدين من اسمه الحقيقي، خصوصاً وأن بيت الخجندي هو بيت علم وفقه، ويذكر ابن كثير أن الخجندي المذكور كان عالماً فاضلاً وكان نظام الملك يزوره ويقدره. البداية والنهاية (١٦٣/١٢)، ونحن يهمننا موقف الخجندي وجهوده في هذا الميدان.

واستشرى الفساد، وهلك العباد، وخربت البلاد، ثم يوضح الغزالي ذلك بقوله: " فاستولت على القلوب مدهانة الخلق، وانمحت عنها مراقبة الخالق... فمن سعى في تلافي هذه الفتنة، وسدّ هذه الثلمة، إما متكفلاً بعملها، أو متقلداً لتنفيذها، مجدداً لهذه السنة الدائرة، ناهضاً بأعبائها، ومتشمرّاً في أحيائها كان مستأثراً من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إمامتها، ومستبداً بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها" (١).

ثم أوضح الغزالي الشروط التي بها يتحقق التصدي للإنكار، وكذلك درجات القيام بالإنكار، وآداب القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢).

ثم إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -عند الغزالي- دوائر بعضها أوسع من بعض، وله ضوابط يجب الأخذ بها؛ حيث قال: " فحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه؛ فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات، ثم يعلم أهل بيته، ثم يتعدى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه، ثم إلى أهل محلته، ثم إلى أهل بلده، ثم إلى أهل السواد المكتنف ببلده، ثم إلى أهل البوادي وغيرهم" (٣).

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين (٣٠٢/٢)، محمد القاسمي: موعظة المتقين من إحياء علوم الدين (١٧٢/١).

(٢) القاسمي: موعظة المتقين من إحياء علوم الدين (١٧٤/١-١٧٦).

(٣) الغزالي: إحياء علوم الدين (٣٣٦/٢).

والغزالي - في هذا الجانب - يشدد كثيرًا على الأمراء والسلاطين؛ ويخصهم ببحث أسماء باب أمر الأمراء ونهيهم عن المنكر، ويحث العلماء على الوقوف من الأمر موقف الأمر الناهي، مستشهدًا بكثير من الأدلة من القرآن والسنة^(١)، وسرد مواقف العلماء مع الخلفاء الأمويين والعباسيين^(٢).

ويهدف الغزالي من سرده تلك الأمثلة والمواقف إلى أن واجب العالم نصيحة السلطان الظالم، وتذكيره بالله تعالى، وتخويله به جل شأنه؛ بشرط أن لا يحدث فتنة، أو يتعدى الشر إلى غيره، فعند ذلك لا يجوز^(٣)؛ لأنه يترتب على هذه الحالة مفسدة أعظم من إنكار المنكر، وهي حدوث فتن وشرو يتضرر منها الناس، وللعلماء - في هذا الجانب - قواعد وضوابط^(٤).

(١) تقدم ذكر بعض هذه الأدلة في بداية هذا الفصل.

(٢) من هذه المواقف ما ذكره أن سفيان الثوري كتب إلى هارون الرشيد: " من العبد المذنب سفيان بن سعيد الثوري إلى العبد المغرور بالآمال هارون الرشيد "، وهذا عطاء بن أبي رباح يكلم الوليد بن عبد الملك فيقول: " بلغنا أن في جهنم واديًا يقال له: ههب، أعده الله لكل إمام جائر في حكمه " فصعق الوليد من قوله، وهذا ابن أبي ذؤيب يقول لأبي جعفر المنصور: " أشهد أنك أخذت هذا المال من غير حقه، فجعلته في غير أهله، وأشهد أن الظلم ببابك فاش ". انظر في هذه المواقف، الغزالي: إحياء علوم الدين (٢/٣٤٠-٣٤٢-٣٤٨).

(٣) الغزالي: إحياء علوم الدين (٢/٣٣٧).

(٤) هذه الضوابط المتعلقة بدرجات إنكار المنكر. انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ص (٤٦-٥٠)، ابن القيم: إعلام الموقعين (٣/٤-٥)، عبد الكريم زيدان:

يجب أن يراعيها من يقوم بإنكار المنكر؛ لأن الفتن قد تجر إلى أكثر من إنكار المنكر، فقد تصل لدرجة القتل والنزاع والخلاف المستمر، ويترتب عليها انعدام الأمن، وانتشار الفوضى، وخراب البلاد وهلاك العباد.

ويحذر الغزالي من التهاون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويُعدُّ التقاعس في هذا الجانب ذنبًا ومعصية؛ حيث يوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل مسلم، وخاصة أهل العلم والمعرفة^(١)، وفي هذا يقول: "اعلم أن كل قاعد في بيته أينما كان، فليس خاليًا في هذا الزمان من منكر، من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف، فأكثر الناس جاهلون بالشرع في شروط الصلاة في البلاد، فكيف في القرى والبادي... وواجب أن يكون في كل مسجد ومحلة فقيه يعلم الناس دينهم، وكذا في كل قرية"^(٢).

أصول الدعوة ص (٤٦٢-٤٦٤)، محمد القاسمي: موعظة المتقين من إحياء علوم الدين (١/١٧٥)، السامرائي: مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص (٦٣-٦٤).

(١) ماجد الكيلاني: هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص (١٢٣)، محمد شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد ص (٢١٠).

(٢) الغزالي: إحياء علوم الدين (٢/٣٣٦)، ثم انظر ما كتبه محمد فاروق النبهان، بعنوان " مفهوم العلم عند الإمام الغزالي " في مجلة الدارة، العدد الثالث، السنة الثانية عشرة، ربيع الآخر، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م، ص (١١٣)، وما كتبه الدكتور عرفان عبد

ولا يغفل الغزالي عن توضيح المراحل؛ التي يجب أن يأخذ بها القائم بالمعروف والناهي عن المنكر؛ كي تتحقق الفائدة المرجوة من هذا العمل، وينال خلالها الثواب والأجر من الله تعالى، فأولى هذه المراحل: التعريف، أي: تعريف المزجور وتعليمه أن ما يفعله منكر، فإنه قد يقدم عليه بجهله، فلعله إذا عرف أنه منكر تركه، ويجب تعريفه باللطف واللين، من غير عنف وشدة؛ ليصل إلى غايته من غير إيذاء؛ لأنَّ إيذاء المسلم حرام محذور، كما أن تقريره على المنكر محذور، ثم النهي بالوعظ والنصح والتخويف بالله تعالى، وهذه هي المرحلة الثانية، ثم ينتقل إلى المرحلة الثالثة إن اضطر إلى ذلك؛ وهي التعنيف بالقول الغليظ والزجر؛ وذلك عند العجز عن المنع باللطف، وظهور مبادئ الإصرار والاستهزاء بالوعظ والنصح، أما الدرجة الرابعة والأخيرة فهي التغيير باليد؛ وذلك كإراقة الخمر، وإتلاف المنكر، أو دفعه عن محرم، وليس إلى آحاد الرعية إلا الدفع، وأما الإراقة والإتلاف والضرب والحبس فيأى الولاية ومأذونهم^(١).

وهكذا يتضح -من خلال ما تقدم- اهتمام الغزالي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتطلعه لبناء مجتمع إسلامي يقوم بهذه المهمة خير قيام؛

الحميد فتاح في مجلة المجمع العلمي العراقي، بعنوان "الإمام الغزالي دراسة في المنهج" المجلد الثاني والثلاثون، الجزآن الثالث والرابع ص (٥٨٥)، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(١) انظر في هذه المراحل والدجات باختصار: محمد القاسمي: موعظة المتقين من إحياء علوم الدين ص (١٧٥-١٧٦).

لأنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حفظ للشريعة وحماية لأحكامها؛ وهو وظيفة الرسل -عليهم السلام وأتباعهم- وعلامة واضحة على الإيمان، وتركه علامة على النفاق.

ومن اهتمام الغزالي بهذا الجانب توضيحه بعض المنكرات الظاهرة المتعلقة في المساجد والأسواق والطرق والأماكن العامة^(١)، وكذلك منكرات الفرق المبتدعة، والتيارات الفكرية المنحرفة؛ مما يُدلل على حرصه الشديد في هذا الجانب المهم من الدين، ومحاولته الجادة لإصلاح المجتمع الإسلامي، وتنقيته من الشوائب والمنكرات؛ لأنّ هذا هو واجب العلماء العاملين؛ الذين لا ينزلون عن قضايا المجتمع وما يدور فيه؛ كي لا يتهاون الناس بالمعاصي والمنكرات؛ حتى يُظنّ أنها ليست بمعصية أو منكر، خاصّة إذا تُرك إنكار المنكر وأهمل هذا الجانب؛ حيث إن السكوت على معصية العاصين يؤدي إلى تزيينها في عقول الناس واقتداء بعضهم ببعض؛ لأنّ الإنسان مولع بالاقتداء بأبناء جنسه ومسايرتهم.

ومن هنا تتضح أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووجوب القيام به؛ كل حسب قدرته واستطاعته وموضعه، ولا شك أن العلماء

(١) عن منكرات المساجد والأسواق والطرق والحمامات والضيافة التي ذكرها الغزالي وحذر منها: محمد القاسمي: موعظة المتقين من إحياء علوم الدين (١/١٧٧-١٨٠).

وقد تحدثنا عن الغزالي وسيرته ومواقفه في أكثر من موضع في الرسالة؛ لذلك لا حاجة لتكرارها هنا.

الفصل الثالث: جهود العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وآثار ذلك ٨٥٣

كانوا يدركون أهمية ذلك والقيام به؛ لما له من أثر كبير في المجتمع وإصلاحه وتنقيته.

ومن العلماء؛ الذين اشتهروا في العصر السلجوقي بالقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتصدي للفرق الضالة: أبو سعد المعمر بن علي بن المعمر بن أبي عمامة^(١) البغال البغدادي، الفقيه، الواعظ، ريحانة البغداديين، كان فقيهاً واعظاً بليغاً فصيحاً، له قبول تام وجواب سريع، وخاطر حاد، له كلمات في الوعظ حسنة، ورسائل مستحسنة، وجمهور وعظه حكايات السلف، وكان يحصل -بوعظه- نفع كثير؛ فكان يبكي الحاضرين ويضحكهم^(٢).

ومن جهوده ومواقفه في القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أنه كان يجلس في مجلس أبي علي بن الوليد-شيخ المعتزلة- ويلعن

(١) في البداية والنهاية أبي عمار (١٧٥/١٢)، وفي شذرات الذهب أبي عمارة (١٤/٤)، وما ذكرناه يوافق ما في المنتظم، والعبر، وسير أعلام النبلاء، وذيل طبقات الحنابلة والنجوم الزاهرة، ومرآة الجنان، ومرآة الزمان، والمنهج الأحمد، وغيرها من المصادر التي ترجمت له.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (١٧٣/٩)، ابن الأثير: الكامل (٤٩٣/١٠)، سبط بن الجوزي: مرآة الزمان (٥٦٦/٢)، اليافعي: مرآة الجنان (١٩٣/٣)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٥١/١٩)، العبر (٣٨٨/٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٧٥/١٢)، ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة (١٠٧/١)، العليمي: المنهج الأحمد (٢٢٤/٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (١٤/٤).

المعتزلة^(١)، وهذه جرأة نادرة ضد الفرق الضالة والمبتدعة؛ لأنه يعرض نفسه للخطر لا محالة؛ حيث يجلس في مجلس شيخهم ويلعنهم؛ وهو باستطاعته أن ينتقدهم، وينكر عليهم، ويفند مزاعمهم؛ دون الذهاب إلى مجالسهم، وما يترتب عليه من مخاطر.

ومن جملة مواقفه في هذا الجانب -أيضاً: أنه خرج مرة، فلقى مغنية قد خرجت من عند تركي، فقبض على عودها، وقطع أوتاره؛ فعادت إلى التركي وأخبرته؛ فبعث من كبس دار أبي سعد، وأفلت -أي: هرب- فاجتمع بسبب ذلك الحنابلة، وطلبوا من الخليفة إزالة المنكرات كلها؛ فأذن لهم في ذلك^(٢).

وهذه المواقف والجهود تدل على قوته في الحق، وقيامه بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومباشرته ذلك بنفسه، وتصديه للمنكرات والتيارات الفكرية المنحرفة؛ الأمر الذي يدل على إدراكه عظم أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأثره العظيم في المجتمع الإسلامي.

(١) العليمي: المنهج الأحمد (٢/٢٢٥)، ابن العماد: شذرات الذهب (٤/١٤).

(٢) العليمي: نفسه (٢/٢٢٥)، ابن العماد: نفسه (٤/١٤).

وكان أبو سعد البغدادي مشهوراً بالوعظ والنصح والإرشاد؛ حتى انفرد بذلك، وانتفع بوعظه خلق كثير، وكان يعظ بحضرة الخليفة المستظهر بالله (٤٨٧-٥١٢هـ) وبحضرة السلاطين^(١)، لا تأخذه في الله لومة لائم. ومما يدل على عدم مجاملته لأحد؛ مهما كان وضعه ومركزه، وعدم المحاباة في الحق، أنه وعظ يوماً الوزير السلجوقي الشهير نظام الملك في جامع المهدي؛ فكان من جملة ما قال: " الحمد لله ولي الإنعام، وصلى الله على من هو للأنبياء ختام، وعلى آله سُرج الظلام، وعلى أصحابه الغر الكرام، والسلام على صدر الإسلام^(٢)، من زينه بالتقوى، وختم له بالحسنى، وجمع له بين خيري الآخرة والأولى، معلوم يا صدر الإسلام أن آحاد الرعية من الأعيان مخيرون في القاصد والوافد، إن شاءوا وصلوا، وإن شاءوا فصلوا، وأما من توشح بولاية فليس مخيراً؛ لأن من هو على الخليفة أمير، فهو -في الحقيقة- أجير، قد باع زمنه، وأخذ ثمنه، فلم يبق له من نهاره ما يتصرف فيه على اختياره، ولا له أن يصلي نفلًا، ولا يدخل معتكفًا؛ دون الصدد لتدبيرهم، والنظر في أمورهم؛ لأن ذلك فضل، وهذا فرض لازم، ولما تقلدت أمور البلاد، وملكت أزمة العباد

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٧٣/٩)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٥٦٦/٢)،

العليمي: المنهج الأحمد (٢٢٥/٢).

(٢) صدر الإسلام: من الألقاب التي يُلقب بها الوزير نظام الملك. حسن الباشا: الألقاب

الإسلامية ص (٣٧٨).

اتخذت الأبواب والبواب، والحجاب والحجاب؛ ليصدّوا عنك القاصد، ويردوا عنك الوافد، فاعمر قبرك كما عمرت قصرك، وانتزه الفرصة ما دام الدهر يقبل عذرك... وقد استجلبتُ لك الدعاء، وخلدتُ لك الشاء، مع براءتي من التهمة فليس لي -بحمد الله تعالى- في أرض الله تعالى ضيعة ولا قرية، ولا بيني وبين أحد خصومة، ولا بي -بحمد الله- فقر ولا فاقة^(١).

فلما سمع نظام الملك هذه الموعدة المؤثرة بكى بكاءً شديداً، وأمر له بمائة دينار، فأبى أن يأخذها، وقال: أنا في ضيافة أمير المؤمنين، ومن يكن في ضيافته يقبح به أن يأخذ عطاء غيره، فقال: فُضِّها على الفقراء، فقال: الفقراء على بابك أكثر منهم على بابي، ولم يأخذ شيئاً^(٢).

ولا شك أن هذه الموعدة أبلغ من أي تعليق؛ لأننا نلمح فيها تقوى المؤمن وعزته، وأصالة علمه، ونزاهة قصده، وإخلاصه لله تعالى، وجرأته في الحق، وشدة شففته للمنصوح، وحرصه على مصالح المسلمين، وفي

(١) ذكرت هذه الموعدة مجموعة من المصادر التي تحدثت عن المعمر بن علي البغدادي، منها: ابن الجوزي: المنتظم (١٧٣/٩-١٧٤)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٥٦٧/٢-٥٦٩)، ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة (١٠٧/١-١٠٩)، العليمي: المنهج الأحمد (٢٢٥/٢-٢٢٧)، ابن العماد: شذرات الذهب (١٤/٤-١٥)، وقد ذكرت نماذج منها -هنا- بما يناسب المقام والموضوع، أما نصها بالكامل فانظره في قسم الملاحق، آخر الرسالة.

(٢) انظر: المصادر السابقة حاشية رقم (٣).

نفس الوقت تجاوب الوزير نظام الملك مع هذه الموعظة، وتأثره الشديد بها، وعدم تضجره منها؛ حيث إنه وعظه أمام الناس في الجامع، ومع ذلك تقبلها وبكى منها؛ لأنّ مثل هؤلاء الرجال المخلصين، أدركوا حقارة هذه الدنيا الفانية، وأن ما هم فيه من نعيم وجاه ومنصب سيزول لا محالة مع هذه الحياة المؤقتة، وأن الإنسان لا ينفعه إلا ما قدم من عمل صالح يبتغي به وجه الله تعالى.

وما أحوجنا - في هذا العصر - إلى أمثال هؤلاء وأولئك القادة؛ كي تتضافر الجهود، ويتعاون الجميع؛ لما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين، وهم موجودون ولله الحمد، ولكن نسأل الله تعالى أن يكثر من أمثالهم؛ لحاجة المجتمع الماسة إليهم.

وكانت وفاة أبي سعد البغالي البغدادي في سنة ست وخمسمائة للهجرة، وشعبه خلق كثير^(١).

ومن العلماء المشهورين بإنكار المنكرات والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتأييل ثناء العلماء في هذا الجانب المهم: أبو الفضل جعفر بن الحسن الدرزي^(٢) (٥٠٦ هـ)، قال عنه الذهبي: "الإمام

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٥٢/١٩)، اليافعي: مرآة الجنان (١٩٣/٣)، ابن تغري

بردي: النجوم الزاهرة (٢٠٥/٥)، ابن العماد: شذرات الذهب (١٥/٤).

(٢) الدرزي: نسبة إلى درزيان: بفتح الدال، وسكون الراء، وكسر الزاي: قرية كبيرة

تحت بغداد على دجلة بالجانب الغربي. ياقوت: معجم البلدان (٤٥٠/٢).

الدرزيجاني، شيخ الإسلام، الفقيه الحنبلي المقرئ؛ صاحب القاضي أبي يعلى، سمع منه، ومن أبي علي بن البناء، ولقن خلقاً كثيراً، وكان قوَّالاً بالحق، أماراً بالمعروف، كبير الشأن، عظيم الهيبة^(١).

وأثنى عليه العليمي بقوله: "جعفر بن الحسن الدرزيجاني، المقرئ الفقيه الزاهد، الأمار بالمعروف والنهء عن المنكر، ذو المقامات المشهورة في ذلك، والمهتدي بنور الإيمان واليقين، لدى الملوك والمتصرفين، كان من عباد الله الصالحين، قوَّالاً بالحق، لا تأخذه في الله تعالى لومة لائم، مهيباً، وقوراً، له حرمة عند الملوك والسلاطين، ولا يتجاسر أحد أن يقوم عليه إذا أنكر منكراً، مداوماً للصيام والتهجد والقيام"^(٢).

وذكر نحو ذلك ابن رجب وابن العماد في ترجمتهما للدرزيجاني^(٣). وهذه الأقوال المتقدمة تدل على فضله وعلمه وورعه وتقواه، وقيامه بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وشدته في ذلك على أصحاب المنكرات، مع احترام الخلفاء والسلاطين له وتقديرهم إياه؛ لأنهم يؤيدون هذه الجهود والمواقف من العلماء العاملين، ويباركون مثل هذه الأعمال الجليلة؛ التي تعمّ فائدتها على المجتمع الإسلامي بصفة عامة؛ حيث إن

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٩/٤١٤).

(٢) العليمي: المنهج الأحمد (٢/٢٢٨).

(٣) ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة (١/١١٠)، ابن العماد: شذرات الذهب (٤/١٥)،

وفيها: والمهيب بنور الإيمان.

التهاون بهذا الواجب العظيم يعرض الجميع لعقاب الله وسخطه، وهذا لا شك له مردوده على مسيرة القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنهم يهدفون جميعاً لتنقية المجتمع من المنكرات؛ التي ستؤثر فيه لا محالة؛ إن قُوبلت بالسكوت والتهاون وعد الاهتمام؛ لأنّ في القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسماً لموادّ الشر والفساد؛ وهذا لا يتأتى إلا بالإخلاص والتعاون، وتضافر الجهود، بعد توفيق الله تعالى.

ومما يُدلل على حسن معتقد أبي الفضل الدرزي جاني، وتوكله الخالص على الله تعالى، أنه لما جاء إلى بغداد التقى به أحد العلماء؛ فقال له: "كيف تركت الصبيان؟ فقال: ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً﴾^(١)، ثم قال: "تقوى الله لنا ولهم"^(٢).

وفي الجواب دليل واضح على قوة اليقين بالله تعالى، وتقواه والإخلاص له سبحانه في القول والعمل، وأن من ثمار التقوى حفظ الأهل والأولاد والذرية، وتكفل الله - سبحانه وتعالى - بذلك في كتابه العزيز.

ومن علماء العصر السلجوقي؛ الذين اشتهروا بالقيام بالمعروف والنهي عن المنكر، وقوته في هذا الجانب، لاسيما إنكاره على كبار رجال الدولة، وعدم مجاملته لهم، مع أنه كان محترماً معظماً عند الخلفاء

(١) سورة النساء، آية (٩).

(٢) العليمي: المنهج الأحمد (٢/٢٢٨)، وذكر أن الذي التقى به أبو الحسن الدرزي جاني.

والسلاطين: العالم الشهير علي بن عجيل بن محمد بن عقيل البغدادي (٥١٣هـ-)، وقد تقدم الحديث عنه.

ولكن ما يهمنا -هنا- هو ذكر نماذج من مواقفه وجهوده في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتي تُدلل على أنه لا تأخذه في الله لومة لائم، وتؤكد إقدامه وشجاعته في الحق.

فمن جملة هذه المواقف أنه أرسل مرة إلى حماد بن مسلم الدباس^(١)؛ يهدده في أمر كان يفعله؛ حيث بلغه أنه كان يُعطي المحموم لوزة وزبيبة ليبراً؛ فبعث إليه قائلاً: إن عدت إلى هذا ضربت عنقك^(٢).

وفي هذا إنكار للمنكر، لاسيما إذا كان له اتصال بالعقيدة والدين؛ حيث إن العوام سيعتقدون بهذا الرجل الصوفي؛ ظناً منهم أن الشفاء بيده،

(١) هو: أبو عبد الله حماد بن مسلم الدباس، كان على طريقة التصوف، يدعي المعرفة والمكاشفة وعلوم الباطن، كان قليل العلم، بل وصفه ابن الجوزي بقوله: " كان عارياً عن علم الشرع، وكان ابن عقيل يُنفر الناس عنه، وأثنى عليه بعض العلماء كابن الأثير وغيره، توفي سنة (٥٢٥هـ)، ولعله تاب من أفعاله تلك؛ ولهذا فالعلماء فيه بين مادح وقادح، والله أعلم. انظر في ترجمته: ابن الجوزي: المنتظم (٢٢/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٦٧١/١٠)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٥٩٤/١٩)، والعبير (٤٢٥/٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٠٢/١٣)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٢٤٦/٥)، ابن العماد: شذرات الذهب (٧٣/٤).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٢٢/١٠)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٥٩٥/١٩)، العليمي:

المنهج الأحمد (٢٥٥/٢).

وهذا لا شك له خطره الكبير على الناس في دينهم؛ الأمر الذي اضطر معه ابن عقيل أن يهدد هذا الرجل بالقتل إن لم يكف عن فعله. وفيه -أيضاً- إنقاذ العامة من شرور الدجالين والمتصوفة؛ الذين ضلوا وأضلوا.

وهذا موقف عظيم وعمل جليل من العالم المدرك والمتابع لما يدور في مجتمعه، والمخلص لله ولدينه وأمه.

ومن مواقفه المشهورة -أيضاً- في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتي توضح -بجلاء- عدم مدهانتها لرجال الدولة، أو التزلف لأصحاب النفوذ والسلطة، ما حدث سنة (٤٨٨هـ) عندما بدأ الوزير عميد الدولة ابن جهير ببناء سور بغداد، وخط السور وقدره، وتقدم بجباية الأموال، وأذن للعوام في الفرجة والعمل، واجتمع أهل المحال بالأعلام والبوقات والطبول وأنوع الملاحية والزمور، وأظهر العوام في الاشتغال بينانه كثيراً من المنكرات، واختلط الرجال والنساء.

عند ذلك أنكر أبو الوفاء علي بن عقيل على الوزير فعل ذلك، والموافقة عليه، وكتب إليه كتاباً طويلاً جملته: "لولا اعتقادي صحة البعث، وأن لنا داراً أخرى لعلي أكون فيها على حال أحمدها، لما نصبت نفسي إلى مالك عصري، وعلى الله أعتد في جميع أموري، بعد أن أشهده أني محب متعصب، لكن إذا تقابل دين محمد ودولة بني جهير، فوالله ما أردت هذه بهذه، ولو كنت كذلك كنت كافراً؛ فإن كان هذا الخرق الذي جرى بالشرعية لمناسبة واضعها، فما لنا نعتقد الختمات،

ونعتقد القرآن، ورواية الأحاديث، وإذا نزلت بنا نازلة تقدمنا بجموع الختمات والأدعية عقيها - ثم بعد ذلك - طبول وصواني، وزمور وخيالات، وكشف عورات؟ ومعنى هذا أننا مستهزئون بحكم الله لا نبالي به، فبأي وجه تلقى محمداً ﷺ، وأي حرمة لنا عند الله؟".

" وما عندي يا شرف الدين^(١) أن تقوم بسخطة من سخطات الله تعالى، ترى بأي وجه تلقى محمداً ﷺ، وأي حرمة تبقى لوجوهنا وأيدينا وألسنتنا عند الله؛ إذا وضعنا الجباه ساجدة له، ثم كيف نطالب الأجناد بتقبيل عتبة، ولثم تراهما، ونقيم الحد في دهليز^(٢) الحریم صباحاً ومساءً على قدح نبید مختلف فيه، ثم تمرح العوام في المسكر المجمع على تحريمه؟، هذا مضاف إلى الزنا الظاهر، ولبس الحرير على جميع المتعلقين والأصحاب.

يا شرف الدين، اتق سخط الله تعالى؛ فإن سخطه لا يُقاومه سماء ولا أرض، ثم لا تلمنا على ملازمة البيوت، والاختفاء عن العوام؛ لأنهم إن

(١) شرف الدين: أحد ألقاب الوزير محمد بن محمد بن محمد بن جهير؛ عميد الدولة، وقد خدم هذا الوزير ثلاثة خلفاء: القائم والمقتدي والمستظهر، تولى الوزارة مرات يعزل ثم يعاد، كان حليماً قليل العجلة، كثير الصدقات واسع المعروف، يجيز العلماء والشعراء ويمسح إليهم، وأخباره متفرقة في كتب التاريخ، وأكثر من ترجم له سبط ابن الجوزي. انظر: سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٣٥٠/١).

(٢) الدهليز: بالكسر، المدخل بين الباب والدار، وجمعه "دهاليز"، وهي كلمة فارسية معربة. الرازي: مختار الصحاح ص (٢١٣)، إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط (٣٠٠/١).

سألونا لم نقل إلا ما يقتضي الإعظام لهذه القبائح، والإنكار لها، والنيابة على الشريعة، فاتق الله تقوى من علم بمقدار سخطه، فقد قال: ﴿فلما آسفونا انتقمنا منهم﴾^(١)، وقد ملأتكم في أعينكم مدائح الشعراء، ومداجاة المتمولين بدولتكم؛ الذين خسروا الله فيكم؛ فحسنوا لكم طرائقكم، والعامل من عرف نفسه، ولا يغيره مدح من لا يخبرها^(٢).

ومثل هذه الموعظة الجريئة تدل دلالة واضحة على تحرك العلماء المخلصين، وإعلان سخطهم على المنكرات والانحرافات، لاسيما عندما تكون ظاهرة معلنة، كما هو الحال مع الموقف الماضي؛ وهذا ما جعل أبا الوفاء بن عقيل يعلن سخطه وإنكاره على وزير الخليفة المستظهر ابن جهير الذي يُعدُّ مسؤولاً عن هذه المنكرات، فأخذ يذكره بتقوى الله تعالى، ويحذره من غضب الله وسخطه ونقمته، كما حذره من الانتهازين والمداهنين؛ الذين يحسنون له هذه الأعمال، ويمدحونه زوراً وكذباً.

وهذا الموقف من ابن عقيل يُعدُّ واجباً عظيماً على العلماء؛ لأنهم خير من يدرك أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومخاطر السكوت عن ذلك، وآثاره المترتبة عليه؛ الأمر الذي يجعلهم يجاهون مثل هؤلاء

(١) سورة الزخرف، آية (٥٦).

(٢) انظر النص كاملاً في: ابن الجوزي: المنتظم (٩/٨٥-٨٦)، العليمي: المنهج الأحمد

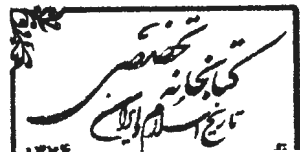
(٢/٢٥٥-٢٥٦)، ونقل سبط ابن الجوزي مقتطفات منه. مرآة الزمان (١/٢٣٦-

الوزراء ورجال الدولة، دون أي خوف أو وجل؛ لأنهم مقتنعون بما يفعلونه، ويستمدون العون من الله تعالى؛ كي تبرأ ذمتهم، ويأمنوا من سخط الله ومقته؛ حيث إن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسباب العقاب العام، وهكذا يكون الرجال المخلصون المؤمنون؛ الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

ولابن عقيل جهود ومواقف -أيضاً- في هذا الميدان المهم في الرد على المتكلمين، والإنكار على أهل الكلام وذمهم، والتحذير منهم، على الرغم من تأثيره بهم، مُدّة من الزمن؛ لمخالطته شيوخ المعتزلة كأبي علي بن الوليد، وأبي القاسم بن التبان؛ مما جعله يوافقهم في بعض الأقوال، ويتأثر بمسلكهم، ولكن يبدو أنه تاب عن ذلك، وصحت توبته -كما يذكر ابن حجر- الذي يضيف أنه صنف في الرد عليهم^(١)، ويؤيد هذا القول قول العليمي؛ حيث يذكر: " أن له من الكلام في السنة والانتصار لها، والرد على المتكلمين شيء كثير، وقد صنف في ذلك مصنفاً"^(٢).

(١) انظر كلام ابن حجر عنه في: لسان الميزان (٤/٢٨٠)، وقد أوضحت -سابقاً- في الفصل الأول من الباب الثاني كلام العلماء في ابن عقيل وعلاقته بالاعتزال وإظهار توبته؛ لذلك فضلت عدم تكرارها هنا، ويقول سبط ابن الجوزي في توبته: " وثارت الحنابلة عليه بسبب ترده على ابن الوليد وأرادوا قتله، حتى حضر ابن عقيل في الديوان وتاب وتبرأ منه ". انظر: مرآة الزمان (٢/٦٩٣).

(٢) العليمي: المنهج الأحمد (٢/٢٥٨)، وهو دليل على توبته وحسن معتقده بعد تأثيره مدّة بعلم الكلام.



وما يهمننا -هنا- قوله^(١): " أنا أقطع أن الصحابة ماتوا وما عرفوا الجوهر والعرض^(٢)، فإن رضيت أن تكون مثلهم فكن، وإن رأيت أن طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبي بكر وعمر، فبئس ما رأيت، وقد أفضى الكلام عليه بأهله إلى الشكوك، وكثير منهم إلى الإلحاد، تشم روائح الإلحاد من فلتات كلام المتكلمين، وأصل ذلك أنهم ما قنعوا بما قنعت به الشرائع، وطلبوا الحقائق، وليس في قوة العقل إدراك ما عند الله من الحكمة التي انفرد بها... " ^(٣).

(١) أي قول أبي الوفاء بن عقيل.

(٢) الجوهر: حسب المفهوم الأرسطي هو ما يقوم بنفسه، والعرض: هو ما لا يقوم بنفسه، بل بالجوهر، والأعراض تسعة تشكل مع الجوهر المقولات العشر التي ذكرها أرسطو في الجزء الأول من كتاب المنطق. انظر: المنقذ من الضلال للغزالي ص (٧٠) هامش رقم (٢٧)، والجوهر والعرض والجسم الحادث واصطكاك الأجرام ونحوها، كلها عبارات يعتمدها أهل علم الكلام في الإثبات والتنزيه. انظر: عبد الرحمن دمشقية: الإمام أبو حامد الغزالي والتصوف ص (٩٤)، وقد تعقب ابن تيمية قول ابن عقيل المتقدم بقوله: " قول القائل إن الصحابة -رضي الله عنهم- ماتوا ولم يعرفوا ذلك، فيه تفصيل، وذلك أن هذا الكلام فيه حق وباطل" ثم بدا يفصل -رحمه الله- في ذلك. انظر: درء التعارض (٥١/٨).

(٣) ابن الجوزي: تلبيس إبليس ص (٩٨-٩٩)، العليمي: المنهج الأحمد (٢٥٧/٢)، وهذا النص دليل -أيضًا- على رجوعه وتوبته، وذمه لأهل الكلام، والتحذير منهم.

وهذا القول يدلّ على تصديه للفرق المبتدعة، وذمه أهل الكلام، ورجوعه إلى الحق بعد تجربته وتبحره في علم الكلام؛ حتى اتضح له أنه يؤدي إلى الشكوك والإلحاد.

وهذه التجربة والنتيجة؛ التي آلت إليها، خاضها غيره -أيضاً- من العلماء؛ كالجويني والغزالي والرازي^(١)، وانتهوا إلى ما انتهى إليه ابن عقيل من ذمهم علم الكلام، وتحذير الناس منه؛ وهي عبرة وعظة يجب أن يُستفاد منها؛ لأنّ الإنسان لا يضمن أن يطول به العمر؛ حتى يخوض هذه التجربة الطويلة، ثم إنه لا يضمن -أيضاً- أن ينتهي إلى ما انتهى إليه هؤلاء العلماء؛ الذين أكرمهم الله تعالى بالتوبة والرجوع إلى الحق -إن شاء الله- ونسأل الله الثبات على الحق؛ حتى نلقاه، وعدم الخوض فيما لا طائل منه.

وهذه الجهود والمواقف المتقدمة تدل على قيام أبي الوفاء علي بن عقيل البغدادي بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعظم أهمية هذا الأمر لديه، ومتابعته أحوال عصره، ومحاولته الاستفادة من تجربته، ونفع المسلمين من خلالها، لاسيما فيما يتعلق بالعقيدة، وتحذيره من علم الكلام والخوض فيه، ثم إنكاره المنكرات الظاهرة التي أوضحنها آنفاً والمتعلقة بما فعله الناس عند الشروع في بناء سور بغداد، وإنكاره على

(١) انظر في تجارب بعض العلماء ونصائحهم وتوجيهاتهم بعد رجوعهم إلى الحق: شرح العقيدة الطحاوية ص (١٦٧-١٦٩)، ابن الجوزي: تلبس إبليس ص (٩٤-٩٩).

الوزير ابن جهير، وإعلان سخطه على تلك المنكرات، وتحذيرهم من سخط الله وعقابه، وهكذا يكون دور العلماء الفعلي في المجتمع. ومن هنا نلاحظ ونذكر أهمية وجودهم في المجتمع الإسلامي، وتأثيرهم فيه، وتوجيههم الرأي العام الإسلامي وقيادته، وفهم أرباب الحكمة، ومصايح الهدى، وقادة الفكر، وعليهم تقع مسؤولية عظيمة، وواجبات جسيمة تجاه أمتهم ومجتمعهم.

ومن العلماء؛ الذين كانوا يهتمون بواجب القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في العصر السلجوقي، ويكثرون من ذلك: الحسين بن علي اللامتنى (ت: ٥٢٢هـ)، وقد وصفه ابن كثير بقول: " كان خيراً ديناً على طريقة السلف، أماراً بالمعروف"^(١)؛ أي: كثير القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ولهذا وصفه بصيغة المبالغة، وكان اللامتنى محترماً عند الخلفاء والملوك، سفيراً بينهم^(٢)، ومع ذلك لا يدخر جهداً في القيام بهذا الواجب العظيم، والاهتمام به؛ لما له من أثر كبير ونتائج مثمرة، وفوائد عظيمة في المجتمع الإسلامي.

كذلك كان للعالم الفقيه: عماد الدين أبي الحسين محمد بن محمد ابن الحسين بن أبي يعلى الفراء (ت: ٥٢٦هـ)، جهود مميزة في الأمر

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١٩٩).

(٢) نفسه (١٢/١٩٩).

بالمعروف والنهي عن المنكر، والتصدي للفرق الضالة والمبتدعة؛ حيث كان صلباً في السنة، مدافعاً عنها، شديداً على أهل الأهواء والبدع. ومن جهوده في ذلك: تصنيفه كتابه " إيضاح الأدلة في الرد على الفرق الضالة المضلة "، مما يدل على مجابته لهم، والإنكار عليهم، والتحذير منهم^(١).

ومن العلماء العاملين الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر في العصر السلجوقي: أبو البركات يحيى بن عيسى بن إدريس الأنباري (ت: ٥٥٢هـ)، كان تقياً ورعاً زاهداً عابداً، وكان من أهل السنة الجياد، أماراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، رزقه الله أولاداً صالحين، سماهم بأسماء الخلفاء الأربعة، أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي -رضي الله عنهم- وحَفَّظَهُم القرآن كلهم بنفسه، كان يعظ الناس؛ فيبكي من أول صعوده

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٩/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٦٨٣/١٠)، اليافعي: مرآة الجنان (٢٥٢/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٠٤/١٢)، العليمي: المنهج الأحمد (٢٧٥/٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (٧٩/٤)، الزركلي: الأعلام (٢٣/٧)، ومثله كان الحسن بن أحمد بن عبد الله بن البنا الحنبلي (ت: ٤٧١هـ) الذي كان ناصرًا للسنة، شديداً على المخالفين وأهل الأهواء، وكان يعظ الناس في حلقاته بجامع المنصور، وجامع القصر. انظر: ابن الجوزي: المنتظم (٣١٩/٨)، الذهبي: تذكرة الحفاظ (١١٧٦/٣)، ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة (٣٢/١)، ابن حجر: لسان الميزان (٢٤٥/٢)، العليمي: المنهج الأحمد (١٦٥/٢).

المنبر إلى حين نزوله، وكان مستجاب الدعوة، له كرامات ومنامات صالحة^(١).

ومن العلماء؛ الذين اشتهروا في العصر السلجوقي بالقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقول الحق؛ وإن كان مرًا: أبو عبد الله محمد بن يحيى بن علي الزبيدي^(٢) (ت: ٥٥٥هـ).

قدم بغداد سنة تسع وخمسمائة، قال عنه ابن الجوزي: " كان يقول الحق؛ وإن كان مرًا، ولا يراقب أحدًا، ولا تأخذه في الله لومة لائم، وقد حُكي لي أنه دخل على الوزير الزيّني، وعليه خلعة الوزارة، وهم يهنتونه؛ فقال: هو ذا يوم عزاء لا يوم هناء، فقيل له: ولم؟ قال: أهنيء على لبس الحرير"^(٣).

وهذا دليل على قوته في الحق، وعدم مدهانته لأحد، وشدته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لاسيما عندما يكون المنكر واضحًا معلنًا أمام الناس، كما فعل مع الوزير الزيّني؛ حيث لم تأخذه في الله لومة لائم.

وهذا منهج العلماء العاملين المخلصين لله تعالى، الطامعين فيما عنده، الزاهدين بما في أيدي الناس.

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٨٠/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٣٧/١٢).

(٢) نسبة إلى زبيد: مدينة مشهورة باليمن. ياقوت: معجم البلدان (١٣١/٣).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (١٩٨/١٠)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣١٧/٢٠).

وقال عنه ابن الأثير: " كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وكان نحوياً واعظاً، صحبه ابن هبيرة مدة، وكان موته ببغداد "(١).
وقال عنه الذهبي: " قدم دمشق بعد الخمسمائة؛ فوعظ بها، وأخذ يأمر بالمعروف؛ فلم يهتم له الملك طغتكين، ثم قدم دمشق رسوياً من المسترشد في شأن الباطنية "(٢).

ومن هذه الأقوال تتضح لنا جهوده ومواقفه في القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعدم خوفه من أحد، وجرأته القوية في هذا الجانب المهم، حتى إن طغتكين-صاحب الشام- لم يهتمه؛ لكثرة ما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؛ الأمر الذي اضطره لمغادرة دمشق إلى بغداد، ومواصلة جهوده في هذا المجال، على الرغم من قربه من الخلفاء والسلطين والوزراء، واحترامهم له، وتكليفه ببعض المهمات والسفارات أحياناً، ومع ذلك كان كثير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ حتى مع رجال الدولة، لا تأخذه في الله لومة لائم؛ لأن خير من يقوم بمهمة محاسبة الحكام والسلطين والوزراء في الأمة هم العلماء؛ لأنهم النخبة الواعية المدركة لأمر هذا الدين^(٣)، والقادرة على التصدي والمواجهة بالحكمة

(١) ابن الأثير: الكامل (٢٦٤/١١).

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣١٧/٢٠)، وانظر عن الزبيدي: السمعاني: الأنساب

(٢٤٧/٦)، ياقوت: معجم الأديباء (١٠٦/١٩).

(٣) فاروق السامرائي: مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص (١٢٩).

والموعظة الحسنة، ومن هنا تتضح أهمية وجودهم ودورهم في المجتمع الإسلامي؛ إذا خلصت النية، وحسنت الطوية.

ومن علماء العصر السلجوقي؛ الذين كانت لهم أيادٍ بيضاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: الحافظ أبو العلاء الحسن بن أحمد بن محمد العطار الهمداني (ت: ٥٦٩هـ)، كان إماماً في علوم القراءات والحديث والأدب والزهد والتمسك بالأثر؛ حتى أصبح أوجد زمانه في علمي الكتاب والسنة، وصنف الكتب الكثيرة المفيدة، وكان صحيح الاعتقاد، حسن السمات، له ببلده المكانة والقبول التام، حسن السيرة، عزيز النفس^(١).

ذكر الذهبي أنه أشهر من أن يُعرف؛ بل يتعذر وجود مثله في أزمنة كثيرة، له كتاب " زاد المسافر " في خمسين مجلداً^(٢).

وقد سبق أن تطرقت إليه، ولكن ما يهمننا عنه -في هذا الفصل- قول ابن العماد: " كان محدث عصره، ومقرءه، وكان لا يغشى السلاطين، ولا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يمكن لأحد أن يعمل في محلته منكراً ولا سماعاً "^(٣).

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٤٨/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٨٦/١٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (٢٣٢/٤).

(٢) الذهبي: العبر (٥٦/٣).

(٣) ابن العماد: شذرات الذهب (٢٣٢/٤).

وهذا القول يدل على شدته وقوته في إنكار المنكرات، وعدم مجاملته أو مدهنته لأحد في هذا الجانب المهم من الدين؛ يبتغي بذلك وجه الله، دون خوف من سلطان، أو مجاملة لكبير، لا يأبه بما يترتب على ذلك من أمور؛ حيث إن الدنيا ليست عند بشيء، وإنما تطلعه وغايته إلى ما عند الله تعالى من الثواب والأجر العظيم.

كذلك كان للشيخ المحدث: عبد المغيث بن زهير الحربي (ت: ٥٨٣هـ) مواقف عظيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كان إمامًا حافظًا زاهدًا ورعًا، صالحًا متدينًا صدوقًا أمينًا، حسن الطريقة جميل السيرة، حميد الأخلاق، مجتهدًا في اتباع السنة والآثار، منظورًا إليه بعين الديانة والأمانة، جمع وصنف وحدث، ولم يزل يفيد الناس إلى حين وفاته، وبورك له حتى حدث بجميع مروياته، وسمع منه الكبار، وحدث عنه جماعة من العلماء^(١).

قال عنه الذهبي: "الشيخ الإمام المحدث الزاهد الصالح المتبع، بقية السلف"^(٢).

(١) الذهبي: العبر (٣/٨٥)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/٣٢٨)، ابن رجب: ذيل

طبقات الحنابلة (١/٣٥٤)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٦/١٠٦).

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٢١/١٥٩-١٦٠).

وكان عبد المغيث بن زهير الحربي من أعيان الخنابلة، عُني بجمع الحديث وطلبه وسماعه^(١).

ومن مواقفه الدالة على صدقه وإخلاصه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمؤكد على أنه لا تأخذه في الله لومة لائم، هو أن الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ)، لما بلغه نهي عبد المغيث الحربي عن سبّ يزيد بن معاوية، تنكر له وقصده زائراً مستخفياً؛ فعرفه الشيخ عبد المغيث ولم يُعلمه بأنه قد عرفه، فسأله الخليفة عن يزيد أيلعن أم لا؟ فقال: لا أسوِّغ لعنه؛ لأني لو فتحت هذا الباب لأفضى الناس إلى لعن خليفتنا، فقال الخليفة: ولم؟ قال: لأنه يفعل أشياء منكراً كثيرة، منها كذا وكذا، ثم شرع يعدد على الخليفة أفعاله وخطاياها، وما يقع منه من المنكر لينزجر عنها؛ فتركه الخليفة وخرج من عنده، وقد أثر كلامه فيه، وانتفع به^(٢).

وهذا الموقف من الشيخ عبد المغيث بن زهير الحربي مع الخليفة الناصر، يدل على جرأته في الحقّ، وقوته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعدم مدهانتته لأحد، أو التزلف له؛ حتى وإن كان الخليفة بنفسه؛

(١) ابن الأثير: الكامل (٥٦٢/١١)، ابن العماد: شذرات الذهب (٢٧٥/٤).

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٦١/٢١)، وقد نقل ذلك عن شيخ الإسلام ابن تيمية ابن كثير: البداية والنهاية (٣٢٨/١٢)، وفي رواية الذهبي أنه لما أخذ يعدد خطايا الخليفة والمنكرات عليه، قال له: يا شيخ ادع لي، وقام. الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٦١/٢١).

لأن هذا من واجب العلماء العاملين المخلصين مع الحكام، والنصيحة لهم، والإنكار عليهم بالتي هي أحسن، دون أن يترتب على ذلك فتنة أو مفسدة أعظم من الإنكار.

وفي هذا الموقف -أيضاً- نلاحظ تجاوب الخليفة مع العالم، وعدم سخطه عليه، أو الانتقام منه؛ بل إنه تلقى نصحه بالقبول، وانتفع من كلامه وتوجيهاته؛ وهذا يدل على تعاون الجميع، وتضافر الجهود لما فيه الخير للإسلام والمسلمين، فالناس بين رجلين: عالم، وحاكم، إن صلحا صلح الناس، وإن فسدا فسد الناس، وعم الشر، وانتشرت الفوضى والرذيلة، وانعدم الأمن، واضطربت الأمور.

ولا بد -ونحن نتحدث- عن دور العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في العصر السلجوقي أن لا تغفل جهود ومواقف أحد أشهر علماء العصر في هذا الميدان؛ وهو العلامة: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ-)، الذي كانت له جهود عظيمة موفقة في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، خلال مجالس وعظه ونصحه، وتذكيره الناس؛ حيث كان " رأساً في التذكير بلا مدافعة، يقول النظم الرائق، والنثر الفائق، وهو حامل لواء الوعظ، والقيم بفنونه، مع الشكل الحسن، والصوت الطيب، والوقع في النفوس، وحسن السيرة، والحرمة الوافرة عند الخاص والعام، يحضر مجلس وعظه الجم الغفير من الناس، منهم الخلفاء والملوك والوزراء وكبار رجال الدولة، لا يكاد مجلسه ينقص عن ألفوف كثيرة، لا يضيع من زمانه شيئاً، يكتب في اليوم أربع كراريس، وله في

كل علم مشاركة، لكنه كان في التفسير من الأعيان، وفي الحديث من الحفاظ، وفي التاريخ من المتوسعين، ولديه فقه كاف، وأما السجع الوعظي فله فيه ملكة قوية، كان من أحسن الناس كلاماً، وأتمهم نظاماً، وأعذبهم لسائناً، وأجودهم بيائناً، صاحب التصانيف الكثيرة^(١).

وكانت أكثر جهوده في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خلال مجالس وعظه وتذكيره؛ حيث كانت مجالس مؤثرة في الحضور، ويتطرق خلالها لبعض جوانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإنكار على الفرق الضالة والمبتدعة، وكان الخلفاء أحياناً يطلبون منه أن يتحدث ويكلفونه بذلك، لاسيما مع ظهور البدع والمنكرات ونحوها، وفي ذلك يقول في بعض مجالسه: "وظهر أقوام يتكلمون بالبدع،

(١) ترجم لابن الجوزي الجم الغفير، منهم على سبيل المثال: ابن الأثير: الكامل (٧١/١٢)، أبو شامة: الذيل على الروضتين ص (٢١)، ابن الساعي: الجامع المختصر (٦٥/٩)، الذهبي: تذكرة الحفاظ (١٣٤٢/٤)، والعبير (١١٨/٣)، ابن رجب في الذيل (٣٩٩/١)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٨/١٣)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٨٠/٦)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٢٩/٤)، وما ذكرته عنه مختصراً من ترجمة الذهبي له في سير أعلام النبلاء (٣٦٥-٣٨٤)، وقد صنف الأستاذ عبد الحميد العلوجي كتاباً في مصنفاته، تتبع أسماءها ونسخها والمطبوع منها ورتبها على حروف المعجم ووضع لكل كتاب رقماً؛ سماه: مؤلفات ابن الجوزي، طبع ببغداد سنة ١٩٦٥م.

ويتعصبون في المذاهب؛ فأعاني الله تعالى عليهم، وكانت كلمتنا هي العليا"^(١).

وهذا لا شك داخل ضمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويقول في موضع آخر موضحاً قوة تأثيره في قلوب الناس: " وفي يوم الأربعاء غرة رمضان من سنة (٥٦٧هـ)، تكلمت في مجالسي؛ فتاب على يدي نحو من مائتي رجل "^(٢).

ويقول -أيضاً: " لقد تاب على يدي في مجالس الذكر أكثر من مائتي ألف، وأسلم على يدي أكثر من مائتي نفس، وكم سالت عين متجرب بوعظي لم تكن تسيل... ولقد جلست يوماً فرأيت حوالي أكثر من عشرة آلاف ما فيهم إلا من قد رقق قلبه، أو دمعت عينه "^(٣).

وقد حضر الرحالة ابن جبير (ت: ٦١٤هـ) مجلسين من مجالس الوعظ؛ التي كان يقيمها ابن الجوزي، أوضح من خلالها قوة تأثير الوعظ في نفوس الناس، وما يتمتع به ابن الجوزي من قوة البيان، وروعة في التأثير؛ حيث يقول: " ثم إنه أتى -أي ابن الجوزي- بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ، وآيات بينات من الذكر، طارت لها القلوب اشتياقاً،

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٠/١٩٤).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (١٠/٢٣٧)، وانظر نحوه (١٠/٢٨٤).

(٣) ابن الجوزي: صيد الخاطر ص (٢٣٦)، انظر نحوه في: الذهبي: سير أعلام النبلاء

وذابت بها الأنفوس احتراقاً، إلى أن علا الضجيج، وتردد بشهقاته الشيخ، وأعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح؛ كل يُلقي ناصيته بيده فيجزها، ويمسح على رأسه داعياً له... فشاهدنا هولاً يملأ النفوس إنابة وندامة، ويذكرها هول يوم القيامة، فلو لم نركب ثبح البحر، ونعترف مفازات الفقر إلا بمشاهدة مجلس هذا الرجل، لكانت الصفقة الراجحة، والوجهة المفلحة الناجحة" (١).

ثم ذكر ما شاهده في المجلس الثاني، ومدى تأثير الناس به أيضاً (٢). وهذه المجالس الوعظية تؤكد مدى تأثير الوعظ والتذكير والنصح والتوجيه في نفوس الناس عامة، وتوجيههم الوجهة السليمة.

وهذه الجهود لها دلالتها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن المذنبين والمفسدين إذا جلسوا في هذه المجالس، لا بد أن يتأثروا من خلالها ويتوبوا ويقنعوا عما هم فيه من الذنوب والفساد، وهذا ما أوضحه ابن الجوزي حينما تحدث عن أحد مجالس وعظه؛ حيث قال: " وتكلمت في مدرستي؛ فكان الزحام خارجاً عن الحد... وتاب خلق من المفسدين" (٣).

(١) رحلة ابن جبير ص (١٧٧).

(٢) نفسه ص (١٧٧-١٧٩).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (٢٨٥/١٠)، وعن مجالس وعظه، وعدد الحضور فيها، وتأثير الناس من خلالها. انظر: المنتظم (١٠/١٩٤-٢٣٧-٢٥١-٢٥٢-٢٥٣-٢٦٣-٢٨٣-٢٨٤-٢٨٥) وما بعدها.

وكان الخليفة المستضي بأمر الله (٥٦٦-٥٧٥هـ) يحضر مجلس وعظ ابن الجوزي^(١)، ويتأثر به، وكان ابن الجوزي يعظ الخليفة، ويوضح له الحق، ويذكره بالآخرة، دون مداهنة أو مجاملة؛ بل من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصح لأولي الأمر، فمن هذه المواقف أن أمير المؤمنين حضر مجلساً له في شهر المحرم سنة (٥٧٤هـ) فقال له: "يا أمير المؤمنين، كن لله سبحانه مع حاجتك إليه، كما كان لك مع غناه عنك، إنه لم يجعل أحداً فوقك، فلا ترض أن يكون أحد أشكر منك"^(٢)، فتأثر الخليفة بهذه الموعدة، وتصدق يومئذ بعد المجلس بصدقات كثيرة، وأطلق مساجين^(٣).

ثم تكلم يوم الخميس تاسع رجب من نفس السنة المذكورة، وأمير المؤمنين حاضر، يقول ابن الجوزي واصفاً ذلك المجلس: "وبالغتُ في وعظ أمير المؤمنين، فمما حكيت له أن الخليفة الرشيد قال لشيبان: عظني، فقال: يا أمير المؤمنين؛ لأن تصحب من يخوفك حتى يدركك الأمن، خير لك من أن تصحب من يؤمنك حتى يدركك الخوف، قال: فسر لي هذا، قال: من يقول لك، أنت مسؤول عن الرعية، فاتق الله، أنصح لك ممن يقول: أنتم أهل بيت مغفور لكم، وأنتم قرابة نبيكم،

(١) الذهبي: العبر (١١٩/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٩/١٣).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٢٨٣/١٠).

(٣) نفسه (٢٨٣/١٠).

فبكى الرشيد حتى؛ رحمه من حوله، وقلت له في كلامي: يا أمير المؤمنين، إن تكلمت خفت منك، وإن سكت خفت عليك، فأنا أقدم خوفاً عليك لمحبتى لك، على خوفاً منك" (١).

ويضيف ابن كثير عن هذا المجلس قول ابن الجوزي لأمر المؤمنين: " كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إذا بلغني عن عامل لي أنه ظلم؛ فلم أعيره فأنا الظالم، يا أمير المؤمنين؛ كان يوسف-عليه السلام- لا يشبع في زمن القحط؛ حتى لا ينسى الجائع، وكان عمر يضرب بطنه عام الرمادة، ويقول: قرقرا أو لا ترقرا، والله لا ذاق عمر سمنا ولا سمينا حتى يخصب الناس" (٢).

قال: فبكى المستضيء، وتصدق بمال كثير، وأطلق المحاييس، وكسا خلقاً من الفقراء (٣).

وهكذا يكون العلماء المخلصون؛ الذين لا يخافون في الله لومة لائم، والذين نذروا أنفسهم لخدمة دينهم وأمتهم من خلال هذه المواقف الجريئة؛ التي تدل على صدق إيمانهم، وحسن معتقدتهم، وإدراكهم الواجب المنوط بهم، على الرغم من قربهم من الحكام، والتقدير والاحترام الذي يحظون بهد عندهم، ولكنهم لا يتأثرون بذلك، بقدر ما يحاولون

(١) نفسه (٢٨٥/١٠)، وذكر الذهبي شيئاً من ذلك في: سير أعلام النبلاء (٣٧٢/٢١).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (٢٩/١٢).

(٣) نفسه (٢٩/١٣).

جاهدين النصح لهم، وتذكيرهم بالله تعالى، والمبالغة في وعظهم؛ لما لذلك من تأثير في المجتمع الإسلامي؛ لأن الحكام في أمس الحاجة لمن يذكرهم ويعظهم ويوضح لهم الأمور، فإذا تعاون العلماء في هذا الجانب وسكتوا عليه، فمن يقوم به، وعلى من تقع المسؤولية؟

وقد ذكر الذهبي قولاً لابن الجوزي يؤيد ما ذكرناه سابقاً، ولكنه لم يوضح الخطاب لمن، فذكر من جملة أقواله: "يا أمير، اذكر عند القدرة عدل الله فيك، وعند العقوبة قدرة الله عليك، ولا تشف غيظك بسقم دينك" (١).

وهذه كلمة عظيمة تدل على قوته في الحق وجرأته، وعدم خوفه من أحد، وقيامه بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومن مواقف ابن الجوزي ضد أهل البدع والفرق الضالة، ما حدث في سنة (٥٧١هـ)، عندما كثر الرفض؛ فكتب صاحب المخزون إلى أمير المؤمنين قائلاً: "إن لم تُقَوِّ يدي ابن الجوزي لم تطق على دفع البدع"، فكتب أمير المؤمنين بتقوية يدي ابن الجوزي؛ الذي خرج إلى الناس وأخبرهم بذلك على المنبر، وقال: "إن أمير المؤمنين قد بلغه كثرة الرفض، وقد خرج توقيعه بتقوية يدي في إزالة البدع، فمن سمعتموه من العوام يتنقص الصحابة؛ فأخبروني حتى أنقض داره وأخلده الحبس، وإن كان من

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣٧١/٢١).

الوعاظ عاقبناه"^(١)، فانكف الناس وامتنعوا من ذلك، بعد أن رأوا الحزم والشدة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لاسيما لمن يسب الصحابة أو ينتقصهم، أو يحط من قدرهم -رضي الله عنهم.

وهذا يدل على مكانة ابن الجوزي عند الخليفة، واحترامه لدى رجال الدولة، وشهرته وقوته في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، خاصة ضد أهل البدع والفرق الضالة، وكذلك ضد المنكرات الظاهرة؛ التي يتناولها خلال مجالس وعظه، والتي يحضرها خلق كثير.

ولا شك أن مواقفه وجهوده التي ذكرنا طرفاً منها -سابقاً- تدل دلالة واضحة على قيامه بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتفانيه في ذلك، وجرأته القوية في قول الحق -حيث ذكرنا بعض مواقفه مع الخليفة ونصح له وتذكيره بالله؛ كي تبرأ ذمته أمام الله تعالى، ويقوم بواجبه كما ينبغي، ويعمل بما علمه، لا تأخذه في الله لومة لائم- ومن هنا يتضح أهمية وجود العلماء في المجتمع الإسلامي.

ومن العلماء؛ الذين اشتهروا في القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في العصر السلجوقي: أبو شجاع محمد بن أبي محمد بن أبي المعالي ابن المقرون البغدادي (ت: ٥٩٧هـ)، أحد أئمة القراء، كان صالحاً عابداً

(١) انظر هذا الموقف في: ابن الجوزي: المنتظم (٢٥٩/١٠).

بمجاى الدعوة، لقن خلقة لا يحصون، وكان من الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر^(١).

ومن العلماء المشاهير فى العصر السلجوقى، والذين اشتهروا بالورع والعبادة والتمسك بالأثر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: الإمام تقى الدين أبو محمد عبد الغنى بن عبد الواحد بن على بن سرور المقدسى (ت: ٦٠٠هـ)، سمع ببغداد، والإسكندرية، وأصبهان من جماعة من العلماء، ولم يزل يطلب ويسمع ويكتب ويسهر ويدأب، ويأمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتقى الله، ويتعبد ويصوم ويتهجد، وينشر العلم إلى أن مات، إليه انتهى حفظ الحديث متناً وإسناداً، كان مجتهداً على الطلب، ويكرم الطلبة ويحسن إليهم، ويفرح لهم بسماع ما يحصلونه، وكان ورعاً زاهداً عابداً، كريماً جواداً لا يدخر شيئاً، يتصدق على الأرامل والأيتام؛ حيث لا يراه أحد، جامعاً للعلم والعمل، لا يضيع شيئاً من زمانه بلا فائدة، وكان يقرأ الحديث يوم الجمعة بالجامع، ويجتمع إليه خلق فيبكي ويبكي الناس كثيراً، حتى إن من حضره مرة لا يكاد يتركه^(٢).

(١) الذهبى (١٢٠/٣)، اليافعى: مرآة الجنان (٤٩٢/٣)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٣٣/٤).

(٢) انظر سيرته وأخباره فى: أبو شامة: ذيل الروضتين ص (٤٦)، ابن الساعى: الجامع المختصر (١٤٠/٩)، الذهبى: سير أعلام النبلاء (٤٤٣/٢١)، والعبير (١٢٩/٣)، وتذكرة الحفاظ (١٣٧٢/٤)، اليافعى: مرآة الجنان (٤٩٩/٣)، ابن كثير: البداية

ومن جهود الإمام عبد الغني المقدسي ومواقفه العظيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ما ذكره الذهبي أنه كان لا يرى منكراً إلا غيره بيده أو بلسانه، وكان لا تأخذه في الله لومة لائم، أراق مرة خمراً؛ فجذب صاحب الخمر السيف؛ فلم يخف منه، وأخذه من يده، وكان قوياً في بدنه، وكثيراً ما ينكر ويكسر الطنابير والشبابات^(١).

وكان لا يصبر عن إنكار إذا رآه، ويؤيد ذلك ويشجع من يقوم بهذا الواجب، ويصوّب فعلهم، ويذكرهم دائماً بقول الله تعالى: ﴿وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾^(٢). ودخل مرة على الملك العادل^(٣) فتحدث معه، فلما انتهى أخذ الملك يتكلم في أمر ماردين وحصارها؛ فسمع الحافظ عبد الغني المقدسي

والنهاية (٣٨/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٨٥/٦)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٤٥/٤).

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٥٤/٢١). والطنبور والشبابة: من آلات اللعب واللهر والطرب (إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط (٥٦٧/٢).

(٢) سورة لقمان، آية (١٧)، ثم انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٥٤/٢١)، وبداية الآية: ﴿يا بني أقم الصلاة﴾.

(٣) هو السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي، نشأ في خدمة نور الدين مع أبيه، وكان أخوه صلاح الدين يستشيريه ويأخذ برأيه، وكان ملكاً عظيماً عميق الفكر، بعيد الغور، ذا حلم وسؤدد، ورأي سديد، كان يسمع ما يكره ولا يظهر أنه سمع، توفي سنة (٦١٥هـ). انظر ترجمته وأخباره

كلامه، فقال: أيش هذا، أنت بعد تريد قتال المسلمين، ما تشكر الله فيما أعطاك، أما أما؟!، فما أعاد ولا أبدى، ثم قام الحافظ وقام معه أحد الحضور، فقال له: أيش هذا؟ نحن كنا نخاف عليك من هذا، ثم تعمل هذا العمل؟ قال الحافظ: أنا إذا رأيت شيئاً لا أقدر أصبر^(١).

وهذه المواقف المتقدمة تدلّ على جهود الحافظ عبد الغني المقدسي وتفانيه في القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجرأته في الحق، ومباشرته الإنكار بنفسه لقدرته على ذلك، وعدم وجود مفسدة تترتب على الإنكار باليد أحياناً، لاسيما وأنه عالم فقيه يدرك مثل هذه الأمور جيداً، وكان ينصح طلابه وأصحابه بالقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويؤيدهم ويشجعهم على ذلك، ومما يؤكد اهتمامه في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن الذهبي ذكر له من جملة مصنفاته كتاباً

في: ابن الأثير: الكامل (٣٥٠/١٢)، ابن واصل: مفرج الكروب (٢٧٠/٣)،
اليافعي: مرآة الجنان (٢٩/٤)، الذهبي: العبر (١٦٧/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية
(٧٩/١٣)، ابن دقماق: الجوهر الثمين (٢٣/٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة
(٢٢٦/٦).

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٥٦/٢١)، ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة
(١٣/٢).

اسمه " الأمر بالمعروف " ^(١)، مما يُدلل على جهوده ومتابعته هذا الأمر، وعظمه عنده، وإدراكه الآثار المترتبة عليه في المجتمع الإسلامي.

كذلك كان للعالم الشيخ الصالح الزاهد العابد: أبي البقاء محمود بن عثمان بن مكارم النعال البغدادي (ت: ٦٠٩ هـ)، جهود ومواقف في ميدان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كان فقيهاً واعظاً زاهداً، قرأ القرآن وسمع الحديث، وكان يجلس في رباطه للوعظ، وكان رباطه مأوى للفقراء وأهل الدّين والفقهاء الغرباء، وأهل العلم الذين يرحلون لطلب العلم، وكان يؤثرهم ويحسن إليهم، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ^(٢).

وذكر ابن العماد أن الشيخ محمود وأصحابه كانوا ينكرون المنكر، ويُريقون الخمر، ويرتكبون الأهوال في ذلك، وضُرب مرات، وهو شديد في دين الله، له إقدام وجهاد، وكان يُسمى: شيخ الحنابلة، وقد انتفع به كثير، تُوفي وقد جاوز الثمانين ^(٣).

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٤٧/٢١)، وذكر له عددًا كبيرًا من المصنفات المفيدة، وقد جمع الحافظ ضياء الدين أبو عبد الله المقدسي (ت: ٦٤٣ هـ) سيرته في جزئين، ونقل ابن رجب عن الضياء أن ممن كتب سيرة له -أيضًا: مكّي بن عمرو بن نعمة المصري.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (٦٤/١٣).

(٣) ابن العماد: شذرات الذهب (٣٨/٥-٣٩).

وهذه المواقف والجهود تدل على دور العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأهميته في المجتمع؛ لأن هذه الجهود المتمثلة في إنكار المنكرات، وقمع أهلها، يؤدي إلى تنقية المجتمع الإسلامي من الشر والفساد؛ كي يصبح مجتمعاً مثالياً يؤدي رسالته على الوجه المطلوب المرضي لله - سبحانه وتعالى - الأمر الذي يؤدي إلى استقامة المجتمع، وتنظيم حياة أفراد، ورفقته، وتمتع الناس بنعمة الأمن والرخاء والطمأنينة، ومن هنا تتضح حاجة المجتمعات إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن العلماء؛ الذين اشتهروا بكثرة قيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ في ذلك العصر: أبو عثمان عبد الله بن جعفر اليونيني (ت: ٦١٧هـ)، كان شيخاً مهيباً تامّ الشجاعة، أماراً بالمعروف نهاءً عن المنكر، كثير الجهاد، دائم الذكر، عظيم الشأن، منقطع القرين^(١).

ويقول الذهبي: " كان شيخاً مهيباً شجاعاً، أماراً بالمعروف، لا يهاب الملوك، حاضر القلب، دائم الذكر، بعيد الصيت "^(٢).

(١) الذهبي: العبر (١٧٣/٣)، ابن العماد: شذرات الذهب (٧٤-٧٣/٥) وفيه " عبد الله بن عبد العزيز بن جعفر اليونيني".

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٠١/٢٢-١٠٢).

وذكر ابن كثير: " أنه كان من الصالحين الكبار المشهورين بالعبادة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، له همة عالية في الزهد والورع"^(١)، وكان لا يُبالي بالرجال -قلوا أو كثروا- لشجاعته الفذة^(٢).

وكان الشيخ عبد الله اليونيني لا يهاب أحداً في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ سواء بالقول أو العمل؛ حيث كان يجابه الحكام، وينكر عليهم وجود المنكرات في بلدانهم، ويؤنبهم على ذلك^(٣)؛ فيأخذون بكلامه وتوجيهاته؛ لأنه لا يريد التزلف إليهم، أو الثناء والسمعة والمصلحة الخاصة؛ بل يتبغى بعمله ذلك وجه الله تعالى؛ كي تبرأ ذمته، ويقوم بواجبه، ويؤدي رسالته.

ولا شك أن هذه الأقوال المتقدمة تدلّ على كثرة قيامه بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ حتى وصفه البعض بقولهم: كان أماراً بالمعروف نهاءً عن المنكر، وكان لا يخشى في الله لومة لائم، ولا يأبه بأحد؛ حيث كانت له همة عالية في هذا المجال المهم، وكان يواجه الملوك والولاة، دون هيبة أو وجل؛ فينكر عليهم ما يراه في بلدانهم من منكرات معلنة ظاهرة للعيان؛ فيتلقون كلامه بالقبول، وينفذون توجيهاته، وذلك

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (٩٣/١٣).

(٢) الذهبي: العبر (١٧٤/٣)، ابن العماد: شذرات الذهب (٧٤/٥).

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٠٢/٢٢)، من تلك المواقف قيل إن العادل أتى والشيخ يتوضأ، فجعل تحت سجادته دنانير فردها، وقال: يا أبا بكر؛ كيف أدعوك والخمور دائرة في بلدك، فأبطل ذلك. نفسه (١٠٢/٢٢).

لإخلاصه وصدقه فيما يقول ويفعل، وتقدير الحكام واحترامهم العلماء، والأخذ بتوجيهاتهم ونصائحهم؛ لما فيه الخير والفلاح للأمة.

كذلك كان للشيخ الإمام العالم الفقيه شهاب الدين أبي عبد الله محمد بن خلف بن راجح المقدسي (ت: ٦١٨هـ) جهود موفقة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ حيث كان زاهدًا عابدًا ورعًا فاضلًا في فنون العلوم، بحاتًا مفحماً للخصوم، ذا حظ من صلاح وأوراد، وسلامة صدر، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر^(١).

ذكر الذهبي أنه كان إمامًا محدثًا فقيهاً عابدًا، دائم الذكر، لا تأخذه في الله بومة لائم^(٢).

وقال ابن العماد: " كان بحاتًا مناظرًا، أمارًا بالمعروف، نهاءً عن المنكر، كثير المحفوظات، متحررًا في العبادات، حسن الأخلاق "^(٣). ولم توضح المصادر؛ التي تناولت سيرته، وترجمته، شيئًا من مواقفه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا أنها أشارت إلى كثرة قيامه بذلك؛ مما يدل على اهتمامه بهذا الواجب العظيم، وكثرة فعله له؛ حتى وصفه ابن العماد- كما تقدم- بقوله " أمارًا بالمعروف، نهاءً عن المنكر "

(١) الذهبي: العبر (٣/١٧٨)، ثم انظر: أبو شامة: ذيل الروضتين ص (١٣٠)، ابن كثير:

البداية والنهاية (١٣/٩٦)، ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة (٢/١٢٤)، ابن تغري

بردي: النجوم الزاهرة (٦/٢٥١).

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٢٢/١٥٧).

(٣) ابن العماد: شذرات الذهب (٥/٨٢).

وكان لا يخشى أحدًا في ذلك؛ حيث لا تأخذه في الله لومة لائم؛ كما ذكر الذهبي.

وهذه إشارات واضحة لجهوده المبذولة في هذا الشأن؛ لأن هؤلاء العلماء كانوا يدركون أهمية القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأثره الكبير في المجتمع الإسلامي، وما يترتب على السكوت عن هذا الأمر من مفسد وأضرار، وتعرض لسخط الله تعالى وعقابه؛ لأن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسباب العقاب العام، ومن موانع إجابة الدعاء، والعياذ بالله.

وهكذا أقيمتُ الضوء على نماذج من جهود ومواقف العلماء في العصر السلجوقي في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والآثار المترتبة على ذلك في المجتمع الإسلامي؛ الأمر الذي يؤدي - في النهاية - إلى الحفاظ على كيان أهل السنة، ولا شك أن مثل هؤلاء العلماء المخلصين عندما كانوا يقومون بهذا الواجب العظيم، ويقفون تلك المواقف العظيمة، لا يخشون في الله لومة لائم، ولا يحابون أحدًا أو يداهنونه؛ إنما كانوا يرجون ما عند الله تعالى من الأجر والثواب العظيم، ثم القيام بالواجب المنوط بهم، وأداء لرسالتهم العظيمة في هذه الدنيا، فهم ورثة الأنبياء، ثم إقامة الحجّة، والخروج من العهدة، وبراءة الذمة، والنجاة من العقاب العام، ومحاولة إنقاذ الناس من سخط الله تعالى ونقمته، في حالة السكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والعلماء يدركون تمام الإدراك أن الصراع بين الحق والباطل قائم حتى قيام الساعة؛ فلاحق أصحاب يدعون إليه، وله أعداء يدعون إلى ضده وهو الباطل، وقد جعل الله تعالى تكريم هذه الأمة وعزها مقروناً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإن تخلت عن ذلك وتقاعت هبطت مكانتها، وانحدرت قيمتها، وتكالبت عليها الأمم؛ لأن مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هي العلامة المميزة لوصف الأمة الإسلامية^(١).

ثم إن الوظيفة الأساسية لإقامة منهج الله تعالى في الأرض، وتبليغ شريعته، وتغليب الخير على الشر، والحق على الباطل، والمعروف على المنكر، هي مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد قام العلماء - في ذلك العصر - بجهود مميزة ومواقف عظيمة في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واختلفت أساليبهم ومواقفهم في ذلك؛ فمنهم من كان يواجه المنكرات بنفسه ويغيرها بيده؛ ضمن ضوابط شرعية، بحيث لا يترتب على تغيير المنكر مفسد ومضار أكبر من ذلك، والعلماء خير من يعلم مثل هذه الضوابط والقواعد، ويطبقها قولاً وعملاً.

وبعض العلماء كانوا يطلبون من الخلفاء ورجال الدولة تغيير المنكرات الظاهرة؛ حيث يقومون بتوضيحها بكل صراحة وشجاعة؛ لاتأخذهم في الله لومة لائم، وكان الخلفاء والوزراء ينفذون تلك

(١) فاروق السامرائي: مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص (٦).

التوجيهات، ويقومون بتغيير المنكرات؛ لقناعتهم بذلك، وإدراك أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وآثاره في المجتمع الإسلامي.

وهناك قسم آخر كان من جملة جهوده ومواقفه مجابهة الحكام بما عليهم من ملاحظات؛ فيعدد أمامه المنكرات الواضحة عليه، أو التي في بلاده، ويعظه وينصحه ويذكره بالله تعالى والآخرة والحساب والجزاء؛ دون أن يكون هناك شيء من المداهنة أو المحاباة، أو التملق والتزلف، أو طلب الدنيا والظهور، وما شابه ذلك؛ بل كانوا يبتغون بهذا العمل وجه الله تعالى، والفوز بالسعادة الأبدية؛ لأنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أفضل الأعمال؛ فهما من أسباب النجاة من عذاب الدنيا والآخرة، وتركهما من أعظم أسباب الهلاك وعموم العقوبات، وفيها حسم للشر والفساد، وقمع للمجرمين والمفسدين والعاثين بالأمن والاستقرار.

وتمثلت جهود بعض العلماء - في هذا المجال - بالوقوف في وجه أصحاب البدع والأهواء والأفكار الضالة، والتصدي لهم، واتباعوا معهم أساليب عديدة لإيقاف تيارهم، وتقليص نفوذهم، وحاولوا - جاهدين - قطع جميع السبل؛ التي تؤدي إلى تحقيق أهدافهم، أو عرض أفكارهم على الناس؛ لما لهذه البدع والأهواء من تأثير كبير على المسلمين في دينهم وعقيدتهم؛ حيث كان العلماء يدركون مخاطرهم وآثارهم؛ ولهذا كانوا يحذرون منهم، وينكرون عليهم أفعالهم، ويتصدون لهم بكل قوة وصلابة، لاسيما إذا كان الموقف يقتضي ذلك.

ثم إن هؤلاء العلماء كانوا يبينون الحق للعامّة، ويرشدونهم إلى ما فيه الخير والفلاح في الدنيا والآخرة، ويخالطونهم، ويتعرفون على أحوالهم ومشاكلهم، ويوجهونهم نحو الخير، ويوضحون لهم جوانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويدعونهم بالحكمة والموعظة الحسنة، مع التلطف معهم والتودد إليهم؛ الأمر الذي أدى إلى تقبل العامة لأقوالهم والعمل بها، وتقديرهم العلماء، والتأثر بهم؛ لأنهم التزموا معهم صدق القول والعمل.

وهكذا أدت هذه الجهود والمواقف -مجتمعة- إلى الحفاظ على كيان أهل السنة في العصر السلجوقي؛ وذلك بفضل الله تعالى، ثم بفضل تلك الجهود والمواقف لأولئك العلماء العاملين المخلصين؛ الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه؛ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾^(١).

(١) سورة الأحزاب، آية (٢٣).

الفصل الرابع

"اهتمام الخلفاء العباسيين والسلاطين
السلاجقة بالعلم وعلاقتهم بالعلماء وآثار
ذلك على المجتمع الإسلامي"

الفصل الرابع

"اهتمام الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة بالعلم

وعلاقتهم بالعلماء وآثار ذلك على المجتمع الإسلامي"

كان الخلفاء العباسيون والسلاطين السلاجقة ووزراءؤهم يهتمون كثيراً بالعلم في ذلك العصر، ويحتفون بأهله، ويجلبونهم، ويحبونهم، ويحبون العلماء والصالحين من الناس، ويقرّبونهم إليهم، ويحضرون مجالسهم ومناظراتهم، وكان بعض العلماء والفقهاء يتقرّبون منهم، ويصنفون لهم الكتب في الفقه والأصول والسياسة والتاريخ والأدب، والخلفاء - في ذلك العصر - وبعض رجال الدولة كانوا من العلماء وعشاق العلم؛ لذلك كان من الطبيعي أن يهتم هؤلاء بالعلم، وتنشط - في عصرهم - الحركة العلمية والثقافية، ويزهو العلم، ويسعد في أيامهم.

وقد أشارت المصادر التاريخية؛ التي تحدثت عن هؤلاء الخلفاء والسلاطين والوزراء، إلى جوانب كثيرة تؤكد حبهم للعلم والأدب، ومجالستهم للعلماء، والتحاور معهم في القضايا العلمية والأدبية؛ من خلال المجالس العلمية؛ التي كانت تُعقد في قصور الخلفاء والسلاطين والوزراء^(١)،

(١) انظر في هذه المجالس: الخطيب: تاريخ بغداد (١/٢٣٠-٢٣١)، (٢/٧٦-٧٩)، (٤/١٩٧-١٩٨-٣٤٣)، وكذلك منير الدين أحمد: تاريخ التعليم عند المسلمين ص (٥٨-٦٠)، وهي خاصة بمجالس الحديث والفتوى، وهناك مجالس أخرى للسوعظ والمذاكرة، ومجالس للأدباء والشعراء، وغيرها.

وفي الجوامع؛ الأمر الذي أدى إلى ازدهار النهضة العلمية والثقافية - في ذلك العصر - وتطورها^(١).

وكان الخلفاء والسلاطين ووزراؤهم يشجعون مثل هذه المجالس العلمية، ويحظى رجال العلم والأدباء والشعراء فيها بالهبات والصلات الجزيلة والدعم والتشجيع؛ لأنّ الخلفاء العباسيين كانوا يدعون العلماء لإلقاء دروسهم في مدارس وجوامع بغداد، وكان السلاطين السلاجقة ووزراؤهم يوفدون العلماء إلى بغداد للتدريس في المدرسة النظامية؛ لشهرتها ورغبة العلماء في ذلك، وكان الخلفاء يُقلدون العلماء مناصب ومراكز عالية في الدولة؛ كالوزارة والقضاء والكتابة والحسبة وإمارة الحج والإمامة وغيرها، ومن أشهر هؤلاء العلماء الذين تقلدوا الوزارة مُدّة طويلة عون الدين يحيى بن هبيرة؛ حيث كان من كبار علماء بغداد^(٢).

وقبل أن ندخل في الحديث عن علاقة العلماء بالخلفاء والسلاطين والوزراء، وآثارها في الحفاظ على كيان أهل السنة - في ذلك العصر - لا بد أن نوضح بعض الجوانب المتعلقة بالخلفاء والسلاطين والوزراء؛ التي

(١) مرزبن عسيري: الحياة العلمية في العصر السلجوقي ص (٢٢٦-٢٢٧)، وقد أوضح الصابي التقاليد المعنية؛ التي يجب على الحاضرين مراعاتها في المجالس العلمية والأدبية. الصابي: رسوم دار الخلافة ص (٤٥-٦١).

(٢) ابن الطقطقي: الفخري ص (٣١٢)، مرزبن عسيري: الحياة العلمية ف بالعصر السلجوقي ص (٢٢٨)، وقد تقدم ذكر الوزير العالم ابن هبيرة في أكثر من موضع في الرسالة.

تؤكد حبّهم للعلم والعلماء، وتقديرهم لهم، وحضورهم مجالسهم، وكذلك تسليط الضوء على بعض مواهبهم العلمية والأدبية؛ كي نوضح اهتمامهم بالحركة العلمية والثقافية وعنايتهم الفائقة بها، والتي انعكست آثارها على العلاقة بين العلماء ورجال الدولة؛ لذلك نرى مجموعة من كبار العلماء والفقهاء والمفكرين يلتفون حول الخلفاء، ويظهرون السواء لهم، ويؤلفون لهم المصنفات المختلفة؛ لأنّ هؤلاء العلماء هم الذين يرفعون إلى الخلفاء قصص الناس ومشاكلهم وأحوال مجتمعاتهم؛ الأمر الذي يؤدي إلى حدوث آثار إيجابية في المجتمع الإسلامي.

وتوضّح لنا الكتب التاريخية جوانب كثيرة عن هؤلاء الخلفاء، واهتماماتهم العلمية، واتصالهم بالعلماء، يقول ابن الأثير عن الخليفة القائم بأمر الله: " كان دينًا ورعًا، عالمًا، له عناية بالأدب، ومعرفة حسنة بالكتابة، ولم يكن يرتضي أكثر ما يكتب من الديوان؛ فكان يُصلح فيه أشياء، وكان مؤثرًا للعدل والإنصاف " (١).

ويقول الحسيني عنه: " كان عالمًا معتنيًا بالأدب، حليمًا حسن الاعتقاد، سليم الطوية، عالمًا منصفًا دينًا، شديد الخوف من الله تعالى " (٢).
ويذكر الذهبي: " أنه كان ذا دين وخير وبرّ وعلم وعدل " (٣).

(١) ابن الأثير: الكامل (٩٥/١٠).

(٢) الحسيني: زبدة التواريخ ص (١٢٩-١٣٠).

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣٠٧/١٨).

ويقول في موضع آخر: " أن له يدًا في الكتابة والأدب " (١).
ويقول ابن الفوطي عن الخليفة القائم بأمر الله: " وكانت أيامه منيرة بالعدل، مزهرة بالعلم والفضل ليلاً ونهاراً، يستأنس بالعلماء ومحاضرتهم، والأدباء ومحاورتهم " (٢).

ويقول ابن كثير: " وقد كان القائم بأمر الله فصيحاً ورعاً زاهداً، أديباً بليغاً، شاعراً، وكان من خيار بني العباس ديناً واعتقاداً ودولة " (٣).
وهذه الأقوال المتقدمة تؤكد أن الخليفة القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ) كان عالماً، محباً للعلم، راعياً لأهله، يقرب العلماء ويجالسهم، ويستأنس بعلمهم ومحاوراتهم، له معرفة تامة بالأدب والكتابة، وله شعر حسن، وكان العلماء يحظون بتقديره واحترامه لهم، حتى إنه كان يقيمهم

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٣٨/١٥)، وفي العبر (٣٢٢/٢) " له علم وفضل ".

(٢) ابن الفوطي: مجمع الآداب (٣٥١/٣).

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية (١١٠/١٢)، وقد أورد ابن كثير شيئاً من شعره -وهو بحديثة عانة- أيام فتنته، منه:

سأت ظنوني فيمن كنت آمله	ولم يجل ذكر من واليتُ في خلدي
تعلموا من صروف الدهر كلهم	فما أرى أحداً بحنو على أحد
يومي يمر وكلمما قضيته	علّلت نفسي بالحديث إلى غد
أقبح بنفس تستريح إلى المنى	وعلى مطامعها تروح وتغتدي

انظر: البداية والنهاية (٧٨/١٢)، حوادث سنة (٤٥٠هـ).

ليرفعوا له شكاوى الناس واحتياجاتهم؛ لإدراكه وقناعته بأهمية وجود العلماء في المجتمع الإسلامي وتأثيرهم فيه، ويؤيد ذلك قول ابن دقماق عنه: " فلما تولى الخلافة أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وأحسن إلى الرعية، وجلس للناس بنفسه، وأقام العلماء والمحدثين يرفعون له قصص الناس؛ فانصلح الحال "(١).

وهذا دليل على مكانة العلماء عنده، وصلته بهم.

وكان الخليفة المقتدي بأمر الله (٤٦٧-٤٨٧) عالماً محباً لأهل العلم، مكرماً لهم، تربطه بالعلماء علاقة وثيقة، وقد حضر بيعته الشيخ أبو إسحاق الشيرازي، وأبو عبد الله الدامغاني، وأبو نصر بن الصبغ، وأبو جعفر الهاشمي، وغيرهم من العلماء والأعيان(٢).

ويذكر الذهبي نقلًا عن ابن النجار: أن الخليفة المقتدي كان محباً للعلوم، مكرماً لأهلها، وكان غزير الفضل كامل العقل، بليغ النثر(٣).

أما عن نثره الدال على علمه وبلاغته وفصاحته؛ فمنه:

" وعد الكرماء ألزم من ديون الغرماء "

" الألسن الفصيحة أنفع من الوجوه الصبيحة "

(١) ابن دقماق: الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين (١/١٩٢).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٨/٢٩٢)، ابن الأثير: الكامل (١٠/٩٦)، ابن كثير: البداية

والنهاية (١٢/١١١)، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤٢٣)، المكي: سمط النجوم

العوالي (٣/٣٧١).

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٨/٣٢٣)..

" الضمائر الصحيحة أبلغ من الألسن الفصيحة "

" حق الرعية لازم للرعاة، ويقبح بالولاء الإقبال على السعاة "(١).

وهذه الأقوال الحكيمة والبلغية تدل على ما كان يتمتع به الخليفة المقتدي من علم وأدب وبلاغة، وفصاحة، وعقل، وحكمة، وتذوق للعلم والأدب.

أما الخليفة المستظهر بالله (٧٨٧-٥١٢هـ) فقد كان عالماً أديباً شاعراً، محباً للعلم والعلماء، مكرماً لهم، يمتلك موهبة أدبية جيدة، وكان أفصح الناس لساناً، وأحسنهم نظماً^(٢).

يقول ابن الجوزي: " كان كريم الأخلاق، لين الجانب، سخي النفس، حافظاً للقرآن، محباً للعلم، منكرًا للظلم، فصيح اللسان، له شعر مستحسن "(٣).

ويقول ابن الأثير: " وكان حسن الخط، جيد التوقيعات، لا يقاربه فيها أحد؛ مما يدل على فضل غزير، وعلم واسع "(٤).

ويقول ابن كثير: " كان لدى المستظهر علم كثير، وله شعر حسن "(٥).

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٨/٣٢٣-٣٢٤).

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٥/١٣٨)، وفي العبر (٢/٣٢٢) " له علم وفضل "

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (٩/٨١).

(٤) ابن الأثير: الكامل (١٠/٥٣٦).

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١٨٢).

وتكاد تجمع المصادر التاريخية؛ التي كتبت عن الخليفة المستظهر؛ على أنه يحب العلماء والصالحين، ويقربهم لديه، وتربطه بهم علاقات وثيقة، وكان يعرف لهم قدرهم ومكانتهم وأهميتهم، وتأثيرهم في الرأي العام الإسلامي؛ لذلك تقرب منه أكثر العلماء والفقهاء والأدباء؛ الذين برزوا في عهده، وصنفوا له الكتب المتنوعة.

فقد ذكر الذهبي أنه: " كان موصوفاً بالسخاء والجود، ومحبة العلماء وأهل الدين، مع الفضل والنبيل والبلاغة، وعلو الهمة، وحسن السيرة" (١).

ويقول سبط ابن الجوزي: " كان المستظهر جواداً سمحاً، حافظاً للقرآن، محباً للعلماء والصالحين، منكرًا للظلم، فصيح اللسان، شاعراً" (٢).
ويقول السيوطي: " كان محباً للعلماء والصلحاء" (٣).

ويذكر ابن العماد أنه كان " قوي الكتابة، جيد الأدب، حسن الخط، جيد التوقيعات، سمحاً، جواداً، محباً للعلماء والصلحاء" (٤).

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣٩٧/١٩).

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٦٥٨/٢).

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤٢٦).

(٤) ابن العماد: شذرات الذهب (٣٣/٤).

وذكر نحو ذلك كل من الإربلي، وابن تغري بردي، والقرماني، وابن دقماق، وغيرهم؛ حيث أشادوا بمناقبه العلمية، ومحبه العلم والعلماء، وموهبه الأدبية والشعرية^(١).

وله أقوال نثرية -أيضاً- تدل على موهبه وثقافته، وتدل كذلك على نضج أدبي، وفهم رفيع المستوى، ومن تلك الأقوال نختار هذه النماذج:

" خير ذخائر المرء لذيهاه ذكر جميل، ولآخرته ثواب جزيل "

" الصبر على الشدائد ينتج الفوائد "

" بضاعة العامل لا تخسر وربحها يظهر في المحشر "

" البذل من شيم الأكارم، والضمن من صفات الآثم "

" شح المرء بفلسه من دناءة نفسه "^(٢).

ومما يدل على تمكنه من الكتابة والنثر الأدبي، رسالته إلى زين الملك أبي سعد هند ابن محمد-مستوفي ديوان السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي- وفيما يلي نص الرسالة:

(١) انظر: الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص (٢٧٠)، ابن تغري بردي: النجوم

الزاهرة (٢١٦/٥)، القرماني: أخبار الدول وآثار الأول ص (١٧٣)، ابن دقماق:

الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين (٢٠٠/١).

(٢) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص (٢٧٠)، الذهبي: سير أعلام النبلاء

(٣٩٨/١٩)، محمد شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد ص (٨٧).

" بسم الله الرحمن الرحيم، لك -يا زين الملك- من شريف الارتقاء ما يزلفك إلى الحسنى في العاقبة والأولى، وما أبديته من خبايا الإخلاص؛ فهو يقتضي عطايا الاختصاص، والسكون إلى ولائك مستدام، يبقى على مرور الأيام، والثقة بطاعتك مشتهرة عند الخاص والعام، ومع هذه الأسباب والأواحي، فما نقنع منك بالإغفال والتراخي، والله يعلم أن الشفقة على السيرة الغيائية أمر قد ظهر حكمه، وتم، وقد قيل (نبه لها عمراً ثم نم)، وفي هذه الإشارة مقنع مع خلوص عقيدتك يا زين الملك، وأنت أجدر بالذاكرة بما يجمع بين الأجر والثواب، وجميل الذكر المستطاب، والله عنده حسن الثواب^(١).

وكان الخليفة المسترشد بالله (٥١٢-٥٢٩هـ) عالماً فصيحاً بليغاً حسن الخط، يقول ابن الأثير: " ولقد رأيت خطه في غاية الجودة، ورأيت أجوبته على الرقاع من أحسن ما يكتب وأفصحه "^(٢).

ويقول الذهبي: " وله خط بديع، ونثر صنيع، ونظم جيد، مع دين ورأي وشهامة وشجاعة، وكان خليقاً للإمامة، قليل النظر، لم يكن في

(١) محمد شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد ص (٨٧-٨٨)، وزين الملك توفي سنة (٥٠٦هـ)، وقد أورد له سبط ابن الجوزي رسالة مماثلة لشبل الدولة مقاتل بن عطية الكبرى (ت: ٥٠٥هـ) تدل على فصاحته، وحسن تعبيره، وموهبته الأدبية. انظر: مرآة الزمان (٢/٦٥٩).

(٢) ابن الأثير: الكامل (١١/٢٨).

الخلفاء من كتب أحسن منه، وكان يستدرك على كتابه، ويصلح أعاليط في كتبهم" (١).

وذكر نحو ذلك السيوطي في تاريخه (٢).

ويقول ابن كثير: " كان الخليفة المسترشد فصيحا بليغا، عذب الكلام، حسن الإيراد، مليح الخط، كثير العبادة، محببا إلى الخاصة والعامّة، وهو آخر خليفة رؤي خطيبا " (٣).

وكان الخليفة المسترشد بالله قد سمع الحديث من أبي القاسم علي بن أحمد الرزاز، وأبي الحسن بن العلاف، وعبد الوهاب بن هبة الله السبي، وروى عنه محمد بن عمر بن مكّي الأهوازي، ووزيره علي بن طراد الزيّني، وحمزة بن علي الرازي، وإسماعيل بن طاهر الموصلّي، وغيرهم (٤).
وقد أشار بمناقبه العلمية ومواهبه الأدبية كل من ابن دحية، وابن واصل، وابن طباطبا، والكتّبي، وابن تغري بردي، والقرماني، وغيرهم (٥).

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٩/٥٦١-٥٦٢).

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤٣٢)، وكذلك ابن العماد: شذراتالذهب (٤/٨٧).

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/٢٠٨).

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٩/٥٦١)، السبكي "طبقات الشافعية الكبرى

(٧/٢٦٢)، وابن العماد: شذراتالذهب (٤/٨٦-٨٧).

(٥) انظر: ابن دحية: النبراس ص (١٤٥)، ابن واصل: مفرج الكروب (١/٥٠)، ابن

طباطبا: الفخري ص (٣٠٢)، الكتّبي: فوات الوفيات (٣/١٧٩)، ابن تغري بردي:

النجوم الزاهرة (٥/٢٥٦)، القرماني: أخبار الدول وآثار الأول ص (١٧٤).

وكان الخليفة المسترشد بالله دائم الاتصال بالعلماء، وتربطه علاقة وثيقة بهم، حتى إن بعضهم صنف له الكتب؛ مما يدل على اهتمامه بالعلم، وكثرة مجالسته للعلماء، ودعمه وتشجيعه لهم، وإدراكه أهمية وجودهم في المجتمع وتأثيرهم فيه.

أما الخليفة الراشد بالله (٥٢٩-٥٣٠هـ) فقد كان فصيحا أديبا شاعرا عذب العبارة، وقد أشاد بمناقبه العلمية والأدبية عدد من المؤرخين؛ كابن دحية، وابن طباطبا، والكتبي، والسيوطي، وابن العماد، والقرماني، وغيرهم^(١).

ومما يؤيد ذلك ما أورده الذهبي من كلامه؛ الذي يدل على فصاحته وبلاغته وموهبته الأدبية؛ حيث ذكر من كلام الراشد: "إنا نكره الفتن إشفاقاً على الرعية، ونؤثر العدل والأمن في البرية، ويأبى المقذور إلا تصعب الأمور، واختلاط الجمهور، فنسأل الله العون على لَمّ شعث الناس بإطفاء نائرة البأس"^(٢).

(١) ابن دحية: النبراس ص (١٥٦)، ابن طباطبا: الفخري ص (٣٠٨)، الكتبي: فوات الوفيات (٤/١٦٨)، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤٣٦)، ابن العماد: شذرات الذهب (٤/١٠١)، القرماني: أخبار الدول ص (١٧٥).

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٩/٥٦٩-٥٧٠).

ولا شك أن هذه النماذج للخليفة الراشد بالله تدل على ما كان يتمتع به من مواهب علمية وأدبية، وأنه من عشاق العلم والأدب، وأنه كان يجالس العلماء والأدباء، ويتحاور معهم، ويتأثر بمجالستهم.

وكان الخلفاء - في العصر السلجوقي - يعقدون مجالس العلم والمناظرة بحضور جمع عظيم من رجال العلم والفقهاء والأدباء؛ فقد ذكر البنداري أن الخليفة المقتفي لأمر الله (٥٣٠-٥٥٥هـ) استقبل في سنة (٥٤١هـ) العالم قطب الدين المظفر بن أردشير العبادي الواعظ؛ الذي اشتهر بالوعظ والفصاحة والبلاغة؛ حيث أقبل عليه الإمام المقتفي وقبَّله، ورفع، وبجَّله، وأمره بالجلوس في جامع القصر في موضع يقرب من منظرته؛ ليجلس حيث لا يراه؛ وهو بحضرتة^(١).

وهذا الموقف من الخليفة المقتفي يدل على تقديره العلماء واحترامه لهم، وإدراكه أهميتهم ومكانتهم، ولا غرابة في ذلك؛ إذ وصفه المؤرخون بأنه كان عالماً فاضلاً دينياً، محباً للحديث والعلم، مكرماً لأهله، سمع الحديث من أبي الحسن بن العلاف، ومن مؤدبه أبي البركات السبيعي،

(١) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (١٩٦-١٩٧)، وقطب الدين أبو منصور المظفر بن أردشير العبادي، كان واعظاً باهراً، كان يعظ بجامع القصر وبتدار السلطنة، وكان يصرب بحسن وعظه المثل، توفي سنة (٥٤٧هـ). انظر ترجمته في: ابن الجوزي: المنتظم (١٠/١٥٠-١٥١)، السمعي: الأنساب (٨/٣٣٧)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٢٠/٢٣١)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/٢٣٠).

وغيرهما^(١)؛ وهذا يدل على علمه واهتمامه بسنة الرسول ﷺ وكثرة مجالسته العلماء، رغم مشاغله بأعباء الدولة؛ وهوم الرعاية، ومتابعة دولته. أما الخليفة المستنجد بالله (٥٥٥-٥٦٦هـ)، فقد أثنى على علمه وفهمه وأدبه كثير من المؤرخين الذين ترجموا له، وأشادوا بمناقبه العلمية، ومواهبه الأدبية.

فقد ذكر ابن حزم: " أنه كان موصوفاً بالفهم السديق والذكاء، والرأي السديد، والفضل والأدب "^(٢).

وقال الذهبي: " كان موصوفاً بالفهم الثاقب، والرأي الصائب، والذكاء الغالب، والفضل الباهر، له نظم ونثر "^(٣).

ويقول القرمانى: " وكان للمستنجد نظم بديع، ونثر بليغ "^(٤).

وهذه الأقوال تدل على فصاحة المستنجد وبلاغته، وموهبته الأدبية.

(١) انظر في اهتمام الخليفة المقتفي بالعلم وتقديره العلماء: ابن دحية: النيراس ص (١٥٦)، ابن واصل: مفرج الكروب (١٣١/١)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣٣٩/٢٠-٤٠٠)، القلقشندي: مآثر الأنافة (٣٥/٢)، المكى: سمط النجوم العوالي (٣٧٣/٣)، القرمانى: أخبار الدول ص (١٧٥).

(٢) ابن حزم: موجز تاريخ الإسلام-تمة المحقق- ص (٦٤).

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤١٨/٢٠)، وذكر نحوه السيوطى في تاريخ الخلفاء ص (٤٤٣).

(٤) القرمانى: أخبار الدول ص (١٧٦-١٧٧)، وذكر نحوه ابن العماد في شذرات الذهب (٢١٩/٤).

وكان الخليفة المستضيء بأمر الله (٥٦٦-٥٧٥هـ) من خيار الخلفاء، محباً للعلم، مكرماً للعلماء، مدركاً مكانتهم، كثير البذل والعطاء لهم، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، فرق أموالاً كثيرة على العلماء وغيرهم^(١).

وقد وصفه ابن دقماق بقوله: " كان كثير الحلم، غزير العلم "^(٢). وكان يُقرب العلماء إليه، ويُوثق علاقته بهم، ويستمع إلى وعظهم ونصحهم؛ مما يُدلل على اهتمامه بالعلم والعلماء، ومحبتهم لهم، وإدراكه أهميتهم، ومدى تأثيرهم في المجتمع؛ حيث كان يأمر بعقد مجلس الوعظ، ويجلس بحيث يسمع ولا يرى^(٣)؛ لأنه كان حريصاً على الفائدة والاستماع للعلماء، والأخذ بأقوال العلماء المخلصين؛ الذين يُذكرون الحكام بالله تعالى، ويعظونهم، وينقلون لهم أحوال الناس ومشاكلهم؛ لما في ذلك من المصلحة العامة؛ التي تعود على الجميع بالخير والنفع؛ وهذا من آثار علاقة العلماء بالخلفاء ورجال الدولة.

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٣٣/١٠)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٦٩/٢١)، ابن كثير: البداية والنهاية (٣٠٤/١٢)، القرمانى: أخبار الدول ص (١٧٧)، ولابن الجوزي كتاب مستقل عن سيرة الخليفة المستضيء؛ وهو المصباح المضيء في خلافة المستضيء.

(٢) ابن دقماق: الجواهر الثمين (٢١٣/١).

(٣) ابن العماد: شذرات الذهب (٢٥٠/٤).

وكان آخر خلفاء بني العباس - في العصر السلجوقي - الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ) كسابقه من الخلفاء، عالماً، يحب العلم، ويقرب العلماء، ويُفاوضهم مفاوضة خبير؛ كما يذكر ابن طباطبا^(١)، ويضيف بأنه صنف كتباً، وسمع الحديث النبوي^(٢).

ويقول الذهبي: " كان الناصر لدين الله فصيحاً بليغاً كامل الظرف، له التوقعات المسددة، والكلمات المؤيدة " ^(٣).

وكان الخليفة الناصر يهتم بسنة الرسول ﷺ وتلقي العلوم الشرعية؛ حيث ذكر الذهبي وغيره أنه اشتغل برواية الحديث، وكتب للملوك والعلماء إجازات، وجمع كتاباً فيه سبعون حديثاً.

ومن روى عن الخليفة الناصر بالإجازة من العلماء: عبد الوهاب بن سكينه، وابن الأخضر، وقاضي القضاة ابن الدامغاني، والملك العادل، وبنوه، ومحمود الزنجاني، والمقداد القيسي^(٤).

ويقول ابن النجار: " شرفني الناصر بالإجازة، ورويتُ عنه بالحرمين ودمشق والقدس وحلب وبغداد وأصبهان ونيسابور ومرو وهمدان " ^(٥).

(١) ابن طباطبا: الفخري ص (٣٢٢).

(٢) نفسه ص (٣٢٢).

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٩٩/٢٢).

(٤) ن.م.س (١٩٧/٢٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (٩٨/٥).

(٥) نفسه (١٩٨/٢٢).

وقد أجاز الناصر لجماعة من الأئمة والكبراء؛ فكانوا يحدثون عنه في أيامه، ويتنافسون في ذلك^(١).

ولا شك أن هذا يدل على محبة الخليفة الناصر للعلم، والاستزادة منه، واتصاله بالعلماء، وعلاقته بهم.

ويقول ابن دقماق عن الخليفة الناصر: " كان فاضلاً عالماً أديباً، حسن الرأي والتدبير، حسن السياسة، ذا فكرة جيدة "^(٢).

ومما يؤكد ذلك ما ذكره الذهبي؛ حيث أورد بعض توقيعاته وأقواله، ومنها قوله لصدر المخزن^(٣): " لا ينبغي لأرباب هذا المقام أن يقدموا على أمر لم ينظروا في عاقبته؛ فإن النظر قبل الإقدام خير من الندم بعد الفوات، ولا يؤخذ البراء بقول الأعداء؛ فلكل ناصح كاشح، ولا يُطالب بالأموال من لم يخن في الأعمال؛ فإن المصادرة مكافأة للظالمين، وليكن العفاف والتقى رقيبين عليك "^(٤).

وهذا النص يدل على علم الخليفة الناصر وأدبه وثقافته وتأثره بمجالسة العلماء ومحاوراتهم.

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٩٣/٢٢).

(٢) ابن دقماق: الجوهر الثمين (٢١٥/١).

(٣) صدر المخزن: هو المكلف بالأعمال المالية للدولة، ويشبهه وزير المالية في عصرنا الحاضر، والمخاطب -هنا- هو " جلال الدين ابن يونس " .

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٩٩/٢٢).

وكان الخليفة الناصر لدين الله؛ كغيره من خلفاء العصر السلجوقي؛ من حيث الاهتمام بالكتب وجمعها، والاستفادة منها؛ حيث تذكر المصادر أن له خزانة كتب عظيمة^(١)، أوقف جزءاً منها على خزانة المدرسة النظامية، يقول ابن كثير في حوادث سنة (٥٨٩هـ): " وفيها أمر الخليفة الناصر بعمارة خزانة الكتب النظامية ببغداد، ونقل إليها من الكتب النفيسة ألوفاً لا يوجد مثلها"^(٢)، ونقل كذلك جزءاً آخر من الكتب إلى خزانة كتب الرباط الخاتوني؛ الذي أنشأه سنة (٥٨٤هـ)^(٣). وهذا يدل على أن الخليفة الناصر لدين الله كان عالماً، محباً للعلم والقراءة والاطلاع، له اهتمام كبير بالحركة العلمية ومتابعتها؛ حيث يهتم بجزائن الكتب، ويعمل على توفير الكتب النفيسة والمتنوعة لها؛ مهما كلفه ذلك من عناء ونفقة.

وهكذا يتضح لنا -مما سبق ذكره- أن خلفاء بني العباس؛ في العصر السلجوقي، كانوا من العلماء والأدباء المحبين للعلم والأدب والحديث

(١) القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص (١٧٧).

(٢) ابن الأثير: الكامل (١٠٤/١٢)، الفسائي: العسجد المسبوك ص (٢٢٤)، جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٢٢٧/٣)، محمد آل ياسين: الحياة الفكرية في العراق ص (٢٠٥).

(٣) ابن الأثير: الكامل (١٠٤-٢٦/١٢)، والقفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص (١٧٧)، والرباط الخاتوني نسبة إلى زوجته سلجوقية خاتون (ت: ٥٨٤هـ).

والعربية، وغيرها من العلوم^(١)، المدركين لأهمية العلم ووجود العلماء؛ حيث كانت تربطهم بالعلماء علاقته وثيقة وصلة قوية، انعكست آثارها على المجتمع الإسلامي آنذاك^(٢)، ومن ثم أدت هذه الآثار العظيمة إلى الحفاظ على كيان أهل السنة في ذلك العصر.

أما عن مظاهر اهتمام السلاطين السلاجقة بالعلم، وعلاقتهم بالعلماء في عصرهم، فمن المعلوم أن هؤلاء السلاطين - كما تذكر المصادر التاريخية - كانوا غير مثقفين؛ لطبيعتهم البدوية التي غلبت عليهم؛ ولذلك كانوا يستعينون برجال أكفاء لخدمة دولتهم إدارياً وسياسياً؛ ممن كانت لهم خبرات طويلة في مثل هذه المجالات^(٣).

وهذا ما أتاح لهم الفرصة للاهتمام بالعلم، ومجالسة العلماء والأدباء والشعراء، وتعليم العربية، وحفظ الأشعار، ومعرفة التواريخ والسير؛ حتى

(١) علي جواد الطاهر: خلفاء بني العباس ووزراؤهم في شعر العصر السلجوقي، مجلة الأستاذ، المجلد الثامن ص (١٢٨-١٣٧٩هـ-١٩٥٩م).

(٢) سوف يأتي تفصيل وتوضيح هذه العلاقة في هذا الفصل - بمشيئة الله - مع ذكر نماذج من العلماء؛ الذين كانت تربطهم علاقة وثيقة مع الخلفاء، والآثار المترتبة في الحفاظ على السنة في ذلك العصر.

(٣) عبد المنعم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ص (١٧٩-١٨٠)، وإيران والعراق في العصر السلجوقي ص (٢٧-١٧٦)، ومن أشهر سلاطين السلاجقة الأئمة السلطان سنجر، ذكر ذلك الدكتور: عبد النعيم حسنين نقلًا عن نظامي عروضي سمرقندي في كتابه "جهار مقالة" وكان معاصرًا له.

عرفوا معنى العلم، وأهميته، ومن ثم تقدير العلماء، ومعرفة مكانتهم، وتقديرهم، ومنحهم التشجيع والدعم والاهتمام.

ولا شك أن سلاطين السلاجقة كانوا يدركون أن العلم هو عماد الدولة، وأن العلماء هم قادة الفكر، وأرباب الكلمة، ومشاعل الحضارة، ورواد الأمة؛ لذلك عملوا على تشجيع العلوم ودعمها؛ فبنوا المدارس والربط لطلاب العلم، وأمدوها بالكتب المختلفة، وتنافسوا في تكريم العلماء، والمتخصصين في كل علم وفن، وتشجيع الأدباء من كتاب وشعراء؛ حيث كانوا يجزلون العطاء لهم، ويلتقون معهم في قصورهم ومجالسهم؛ التي كانت عامرة بعلماء الدين والأدباء والشعراء، ورواد القلم والمعرفة؛ مما زاد الحياة الثقافية - في العصر السلجوقي - تقدماً وازدهاراً^(١).

ولكي تتضح الصورة أكثر، فلا بد من استعراض موجز لمظاهر اهتمام السلاطين السلاجقة بالعلم، وعلاقتهم بالعلماء؛ فيذكر البنداري - عن السلطان طغرل بك - أن القاضي الماوردي توجه إليه في رسالة من الخليفة القائم بأمر الله سنة (٤٣٣هـ)، فكتب الماوردي كتاباً تضمن الطعن، والقدح فيه، ووقع هذا الكتاب في يد السلطان طغرل بك؛ فوقف

(١) ياقوت: معجم الأدباء (٥٤/٨)، عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ص

(١٨٢-١٨٩)، مريزن عسيري: الحياة العلمية في العصر السلجوقي ص (١٧٢-

عليه ثم ختمه وكتمه، يقول الماوردي بعد ذلك: " ولم يتغير عن عادة إكرامي وشيمة احتراممي"^(١).

وهذا يدل على احترام السلطان طغرل بك العلماء وتقديرهم لهم، وإدراكه مكانتهم وأهميتهم.

وكان العلماء والأدباء يجتمعون بمجلس السلطان ألب أرسلان السلجوقي (ت: ٤٦٥هـ)، الذي عُرف عنه ميله إلى صحبة المثقفين، ورغبته في سماع محاوراتهم وأخبارهم^(٢)، وقد تأثر ألب أرسلان بهذه الصحبة، ويتضح ذلك في رسالته؛ التي بعثها لنظام الملك؛ عندما وجد رسالة تركت على مصلاه تتضمن السعاية في الوزير نظام الملك؛ فأخذها وقرأها، ثم سلمها إلى نظام الملك؛ وقال له: " خذ هذا الكتاب؛ فإن صدّقوا في الذي كتبوه فهذب أخلاقك، وأصلح أحوالك، وإن كذبوا فاعفر لهم، وأشغلهم بمهم يشتغلون به عن السعاية في الناس"^(٣).

(١) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (٢٦).

(٢) دائرة المعارف الإسلامية (٢/٥٠٣)، (١٢/٢٧)، مادة ألب أرسلان.

(٣) ابن الأثير: الكامل (١٠/٧٥)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والسديني (٢٥/٤).

وهذا النص يدلّ على علمه وموهبته الأدبية، وثقافته وتأثره بمجالسة العلماء والأدباء، وحبّهم اللغة العربية وتعلمها؛ لأنها ليست لغتهم الأصلية"^(١).

ويقول ابن الأثير: " وكان كثيراً ما يُقرأ عليه تواريخ الملوك وآدابهم، وأحكام الشريعة "^(٢)؛ مما يدل على حبه العلم والاستزادة منه، ومعرفة أخبار الماضين وتاريخهم ، والتفقه بالدين؛ عن طريق قراءة الكتب الدينية الموضحة لأسرار الشريعة وأحكامها.

أما السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان (ت: ٤٨٥هـ) فقد كان يُساهم في تنمية الحياة العلمية، والاهتمام بها وتقويتها؛ كي تصدى للأفكار الشيعية والباطنية^(٣)، وقد زاد السلطان ملكشاه من اهتمامه بالعلم والعلماء؛ حتى قيل عنه إنه صنف رسالة في وصف مملكته وأخباره^(٤)، وكان يهتم - كغيره من سلاطين السلاجقة - بالمراكز العلمية؛ كإنشاء المدارس والربط، وإمدادها بالكتب، ولا شك أن التنافس بين رجال الحكم السلجوقي، ورجال الخلافة العباسية؛ من أجل إنشاء المدارس

(١) وقد يكون هذا النص المتقدم كتب باللغة الفارسية، ثم ترجم إلى اللغة العربية، إلا أن المصادر لم تشر إلى ذلك؛ وهذا ما يجعلنا نؤيد كتابته بالعربية، وأن بعض السلاطين والسلاجقة قد اهتموا بها وتعلموها.

(٢) ابن الأثير: الكامل (٧٥/١٠).

(٣) محمد شندب: الحضارة الإسلامية ص (٢٣٦).

(٤) البغدادي: هدية العارفين (٤٧١/٢).

والمكتبات، وتسهيل سبل المعرفة؛ يُعدُّ من الظواهر الحضارية والثقافية في ذلك العصر، والجديرة بالدراسة والعناية والاهتمام^(١).

ومما يجب ذكره -هنا- أن السلطان ملكشاه هو الذي أسس المرصد المشهور باسمه سنة (٤٦٧هـ)، حيث جمع لجنة من العلماء الفلكيين، وعينهم فيه؛ من بينهم الشاعر الفلكي المشهور عمر الخيام، وأبو المظفر الإسفزازي، وميمون بن النجيب الواسطي، وأنفق على المرصد من الأموال شيئاً عظيماً^(٢).

ولذا يُعدُّ عصر السلطان ملكشاه عصرًا حافلًا بالعلم والعلماء؛ كما كان السلطان نفسه مشاركًا ومشجعًا لهذه النهضة العلمية.

ولا بد أن نشير إلى أن عصر السلطان ألب أرسلان وولده ملكشاه -رغم كونه مزدهمًا بالأعمال الحربية، والتحركات العسكرية، والظروف السياسية- كان في الوقت نفسه عصرًا مزدهرًا في النواحي العلمية والأدبية والفنية؛ فكثرت المؤلفات في العلوم المختلفة باللغتين العربية والفارسية، وكان سلاطين السلاجقة -كما ذكرت- يُشجعون العلماء والأدباء في كل علم وفنٍّ، على مواصلة الإنتاج والإبداع؛ بما يقدمونه لهم من المكافآت والجوائز السخية؛ مما جعل الإنتاج العلمي والفني غزيرًا في العصر السلجوقي، وتشهد بهذه الغزارة الآثار الباقية عن هذا العصر من

(١) محمد شندب: الحضارة الإسلامية ص (١٩٦).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٩٨/١٠)، حسن إبراهيم

كل علم وفنّ، وكان العلماء والكتاب والشعراء يحرصون - في إنتاجهم - على إظهار ثقافتهم الواسعة، وإمامهم بأطراف من مختلف العلوم والفنون الرائجة في عصرهم؛ لإثبات نبوغهم وتفوقهم^(١).

واستكمالاً لمعرفة بعض الجوانب العلمية المتعلقة بسلاطين السلاجقة، ومظاهر اهتمامهم بالحركة العلمية، وتشجيعهم العلماء، وتوثيق الصلة بهم، فقد كان السلطان أبو القاسم محمود بن محمد بن ملكشاه (ت: ٥٢٥هـ)، متوقفاً ذكاً، قوي المعرفة بالعربية، حافظاً للأشعار والأمثال، عارفاً بالتواريخ والسير، شديد الميل إلى أهل العلم والخير^(٢).

ويقول الراوندي عنه: " وكان لطيف الطبع، عذب الكلام، حلو الدعابة، حسن الخط، جميل العبارة، واسع الإدراك"^(٣).

ويقول البنداري: " كان السلطان محمود قوي المعرفة بالعربية، حافظاً للأشعار والأمثال الأدبية، عارفاً بالتواريخ والسير"^(٤).
ومثله ذكر الحسيني في زبدة التواريخ^(٥).

(١) عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (١٨٥)، العبادي: في

التاريخ العباسي والفاطمي ص (١٨٨).

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان (١٨٢/٥).

(٣) الراوندي: راحة الصدور ص (٢٩٩-٣٠٠).

(٤) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (١٤٢).

(٥) الحسيني: زبدة التواريخ ص (١٩٥).

وهذه الأقوال المتقدمة تدلّ على ما كان يتمتع به السلطان محمود ابن محمد بن ملكشاه السلجوقي من محبة للعلم، وشغف به، وتقدير للعلماء، والميل لهم، والتأثر بهم، ومجالستهم؛ حتى نال حظاً وافراً في العربية والأدب والشعر والتواريخ والسير؛ من خلال اهتمامه بالعلم، وصحبته العلماء.

وكان السلطان طغرل بن أرسلان السلجوقي (ت: ٥٩٠هـ) آخر سلاطين السلاجقة، عالماً شغوفاً بالمعرفة، قوي الصلة بالعلماء^(١)، توفرت له مواهب وخصائص؛ من حيث كمال العقل، وإفاضة العدل، ووفور العلم، وشمول الحلم، وحب العلماء، وجودة الخط والبلاغة والنصاحة والشعر^(٢).

وهكذا كان سلاطين السلاجقة يدركون فضل العلم وأهميته، ودور العلماء ومكانتهم في المجتمع، ويقدمون لهم الدعم والتأييد والتشجيع؛ الأمر الذي أدى إلى تقدم العلم ورقيه في العصر السلجوقي؛ الذي كان من أزهى عصور الحضارة الإسلامية؛ حيث واصل المسلمون تقديمهم

(١) الراوندي: راحة الصدور ص (١٤).

(٢) نفسه ص (٤٦٥).

العلمي في ذلك العصر؛ فبلغوا درجة عظيمة من التقدم في كثير من العلوم^(١).

وعندما نتحدث عن علاقة السلاطين السلاجقة بالعلماء، وصلتهم بهم، يجب ألا يغيب عن أذهاننا موقف العالم الفقيه أبي نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي مع السلطان السلجوقي ألب أرسلان في قتاله مع الروم في موقعة " ملاذكرد " الشهيرة؛ حيث كان الإمام والفقيه للسلطان ألب أرسلان، وقد أيدته وشجعه وشد من أزره، وقال له: " إنك تقاتل عن دين الله، وأنا أرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح، فالقهم يوم الجمعة في الساعة التي تكون الخطباء على المنابر، يدعون للمجاهدين بالنصر على الكافرين، والدعاء مقرون بالإجابة "، فأخذ السلطان برأي إمامه وفقهه الذي كان مرافقه في السفر، وتوقف إلى يوم

(١) انظر الفصل الأول من الباب الثاني المتضمن " ازدهار الحركة العلمية والثقافية ومجتمع العلماء في العصر السلجوقي "، كذلك لا تغفل - في هذا الجانب - تشجيع السلاجقة لفنون النقش والخط والزخرفة والمعمار؛ لأنهم كانوا يعيشون الفنون الجميلة، وكانت قصور السلاطين تزدان بالفنون الفارسية، وكان للخط مكانة سامية في ذلك العصر، وقد تعددت أنواع الخطوط؛ حتى بلغت سبعين نوعاً؛ كما ذكر الراوندي في كتابه؛ حيث ذكر أنه تعلم سبعين نوعاً من الخط، وأنه كان يكسب قوته من هذا العمل المبارك. انظر: الراوندي: راحة الصدر ص (١٣-١٤)، وقد بلغت الفنون الجميلة أعلى درجات رقيها في العصر السلجوقي. انظر: عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (١٨٦-١٨٨).

الجمعة عند خطبة الخطباء، وقرأ قوله تعالى: ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾^(١)، وقال: "ربما يكون في الخطباء من إذا قال في آخر خطبته: اللهم انصر جيوش المسلمين وسرايهم، حقق الله بركات دعائه مقاصد الغزاة ومبتغاهم"^(٢)، وقد تحقق للمسلمين النصر في تلك الموقعة -بفضل الله تعالى- وتوفيقه لهم^(٣).

وهذا الموقف من السلطان والعالم يؤكد عمق الصلة؛ التي تربط السلاطين السلاجقة بالعلماء^(٤)، والأخذ برأيهم، ومرد ذلك إلى تقدير السلاطين لهم، والاعتراف بفضلهم ومكانتهم وأهميتهم في المجتمع؛ الأمر الذي يعود بالخير والنفع على المسلمين؛ من خلال توثيق هذه العلاقة، والمحافظة عليها؛ وهذا هو واجب العلماء والفقهاء في النصيحة وقول الحق، وإبراز دورهم في الجهاد، وعدم الخشية إلا من الله تعالى.

وبعد أن اتضحت الرؤيا حول مظاهر اهتمام السلاطين السلاجقة بالعلم والعلماء، وصلتهم بهم، ومجالستهم لهم، لا بد أن نذكر -أيضاً-

(١) سورة الأنفال، آية (١٠).

(٢) الحسيني: زبدة التواريخ ص (١١١)، فايد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ص (٥٩).

(٣) انظر تفاصيل ذلك في الفصل الثاني من الباب الأول المتضمن "دور الخلفاء العباسيين والسلاطين والسلاجقة وجهودهم ضد الزحف البيزنطي والصليبي".

(٤) سبق أن ذكرت -أيضاً- علاقة السلطان ملشكاه بالعلماء وصلته بهم؛ عندما تحدثت عن مرصده الفلكي.

عناية وزراء العصر السلجوقي بالعلم وعلاقتهم بالعلماء؛ كي تكتمل الصورة وتحقق الفائدة حول معرفة اهتمام الخلفاء والسلاطين والوزراء - في ذلك العصر - بالحركة العلمية، وارتباطهم بالعلماء، والآثار المترتبة على ذلك.

فقد تولى منصب الوزارة لدى الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة - في ذلك العصر - عدد من الوزراء؛ الذين كان للكثير منهم اهتمامات علمية جلية؛ حيث كان بعضهم من علماء العصر المعدودين؛ مثل الوزير عون الدين يحيى بن محمد بن هبيرة (ت: ٥٦٠ هـ) الذي وزر للخليفة المقتفي، ثم المستنجد، وكان قد دخل بغداد شاباً؛ فطلب العلم، وتفقه، وسمع الحديث، وقرأ القراءات، وجالس العلماء والفقهاء والأدباء، وقرأ النحو، واطلع على أيام العرب، وأحوال الناس، وكان معروفاً بعدله ودينه وتواضعه وعلمه، ألف كتاب "الإفصاح عن شرح معاني الصحاح"، وظلّ العلماء بتدريسونه زمناً طويلاً، وكان مجلسه معموراً بالعلماء والفقهاء؛ الذين كان يقربهم ويكرمهم، ويعرف قدرهم ومكانتهم^(١).

(١) ابن الفوطي: مجمع الآداب (٢/٩٨٨)، الذهبي: العبر (٣/٣٤)، اليافعي: مرآة الجنان (٣/٣٤٦)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/٢٥٠)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٥/٣٦٩)، ابن العماد: شذرات الذهب (٤/١٩١)، البغدادي: هدية العارفين (٢/٥١٢).

يقول العليمي: " كان الوزير ابن هبيرة عالماً فاضلاً، ذا رأي صائب، وسريرة صالحة، وكان مكرماً لأهل العلم، ويُقرأ عنده الحديث عليه، وعلى الشيوخ بحضوره، ويجري من البحث والفوائد ما يكثر ذكره، وكان مقرباً لأهل العلم والدين، ويحبهم ويكثر مجالستهم ومذاكرتهم، له معرفة حسنة باللغة والنحو والعروض، وصنف في تلك العلوم، كثير السير والمعروف وقراءة القرآن، متبعاً للسنة وسيرة السلف" (١).

وبجانب الوزير العالم ابن هبيرة، كان هناك عدد من الوزراء الذين كانت لهم اهتمامات علمية، وعلاقة بالعلماء؛ منهم الوزير أبو شجاع محمد بن الحسين بن محمد الملقب بظهير الدين الروذراوري (ت: ٤٨٨هـ)، الذي كان له نصيب وافر في النهوض بالحركة العلمية والأدبية في ذلك العصر؛ حيث تذكر المصادر أنه تعلم ودرس وقرأ الفقه والأدب، وعُرف بتعمقه في دراسة العربية، وكان عصره أحسن العصور - كما ذكر الأصفهاني - وزمانه أنضر الأزمان، ولم يكن في الوزارة من يحفظ أمر الدين والشريعة مثله، وله مؤلفات أشهرها كتاب " ذيل تجارب الأمم " كما أنشأ مدرسة في بغداد، وجعلها وقفاً على أصحاب الإمام الشافعي، وكان أحسن الناس خطاً ولفظاً، وله شعر حسن (٢).

(١) العليمي: المنهج الأحمد (٣٣٢/٢) وما بعدها.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٩٠/٩)، ابن الأثير: الكامل (٢٥٠/١٠)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (١٣٦/١)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٢٥٧/١)، الأصفهاني:

وكان أبو شجاع الروذراوري قد تولى الوزارة للخليفة المقتدي بأمر الله تعالى سنة (٤٧٦هـ)^(١).

وكذلك كان الوزير عبيد الله بن يونس بن أحمد البغدادي (ت: ٥٩٣هـ) فقيهاً أصولياً متكلماً، حفظ القرآن، له علم بالسنة والفرائض والنحو والأخبار والحساب، وكان عالماً بالجبر والمقابلة والهندسة، تولى الوزارة للخليفة الناصر لدين الله^(٢).

وكذلك كان الوزير عميد الدولة محمد بن محمد بن محمد بن جهير من أكفأ وزراء الخلافة العباسية، في العصر السلجوقي، تولى الوزارة للخليفة المقتدي والمستظهر، ويصفه المؤرخون بأنه كان حسن التدبير واسع المعرفة، كثير الصدقات، وخاصة على العلماء، وكان من المهتمين بالفقه والحديث والأدب، ودرس مختلف أنواع العلوم^(٣).

خريدة القصر - قسم العراق - (٧٧/١)، والروذراوري: نسبة إلى بلدة بنواحي همدان، يقال لها روذراور. ابن الأثير: اللباب (٤١/١ - ٤٢).

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٦/٩).

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٢٩٩/٢١)، والعبير (١٠٧/٣)، ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة (٣٩١/١)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣١٣/٤)، وعنده عبد الله بن يونس.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (١١٨/٩)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٣٥٠/١)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (١٣١/٥)، وذكر أن الوزير نظام الملك كان معجباً بعميد

هؤلاء الوزراء نماذج لمن تولى الوزارة للخلفاء العباسيين في العصر السلجوقي، من الذين كانت لديهم اهتمامات علمية، ونشاط علمي ملموس، وتقدير للعلم، ومعرفة لمكانة العلماء وأهميتهم ودعمهم وتشجيعهم وإكرامهم.

أما عن وزراء السلاطين السلاجقة، ومظاهر اهتماماتهم العلمية، وصلتهم بالعلماء، وتشجيعهم والإنفاق عليهم، فيقف على قمة الوزراء؛ الذين اهتموا بالناحية العلمية في العصر السلجوقي، وأشار إليه كثير من علماء التاريخ والتراجم والأدب: الوزير نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي (ت: ٤٨٥هـ) الذي وُلد ونشأ وتعلّم في مدينة طوس، ثم رحل إلى نيسابور وأخذ عن علمائها، وكان ثقة وثبتاً متحريراً، محباً لأهل العلم، كثير الإحسان إليهم، تلقى علومًا شتى؛ منها: علوم العربية، والفقه، والحديث، والتفسير، والتاريخ، والحساب، وكان يُستقن اللغتين الفارسية والتركية، إلى جانب العربية، وهو مؤلف كتاب "سياسة نامه"^(١)، وكان يجلب العلماء ويقدرهم ويقربهم إليه، حتى إنه رتب لهم

الدولة، وكان يستشيره في أهم أمور الدولة، ويقدمه على أكفأ الموظفين في الإدارة السلجوقية، وكانت وفاته سنة (٤٩٣هـ).

(١) تضمن الكتاب الآراء والنظريات الإدارية؛ التي تعد أساساً لنظام الحكم وإدارة الدول والممالك، كما خصص فصلاً منه لبيان خطر الباطنية، وتوضيح فساد مذهبهم، والتحذير منهم، كما نلاحظ أن نظام الملك كان يؤكد للسلاجقة ضرورة اهتمامهم

رواتب ثابتة تصرف لهم بانتظام، وكان يقوم بصرف مرتبات لاثني عشر ألف رجل من رجال العلم في مختلف أنحاء الدولة الإسلامية، وكان مجلسه يضم فحول العلماء والفقهاء وأئمة المسلمين وأهل التدين؛ حتى كانوا يشغلونه عن مهمات الدولة؛ فقال له بعض كتابه: هذه الطائفة من العلماء قد بسطتهم في مجلسك؛ حتى شغلوك عن مصالح الرعية ليلاً ونهاراً؛ فإن تقدمت أن لا يوصل أحد إلا بإذن، وإذا وصل جلس بحيث لا يضيق عليك مجلسك، فقال: هذه الطائفة أركان الإسلام، وهم جمال الدنيا والآخرة، ولو جلستُ كلاً منهم على رأسي لاستقلتُ لهم ذلك، وكان إذا دخل عليه أبو القاسم القشيري، وأبو المعالي الجويني يقوم لهما، ويجلسهما في مسند، ويجلس في المسند على حالته.

وقام الوزير نظام الملك بإنشاء المكتبات وزودها بالكتب؛ فكانت سوق العلم في أيامه قائمة، والعلماء - في عهده - مرفوعي المهمة، وكان نظام الملك من العلماء؛ الذين بذلوا جهداً عظيماً في تحصيل العلم، وكان مقبلاً على الحديث، ولو عا به سماعاً ورواية، فقد روى عنه جماعة؛ منهم:

بالبريد ويحذرهم من إهماله. انظر: نظام الملك: سياست نامة ص (١٠٢-١٠٧-١٢٩-٢٣٣)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (٦٢-٦٣)، عبد النعيم حسنين: دولة السلاجقة ص (٧٠-٧١)، بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص (٢٨٠)، الزهراني: نظام الوزارة في الدولة العباسية ص (١٧٢-١٧٣).

علي بن طراد الزيني، ونصر العكبري، والحسن بن منصور السمعاني وغيرهم، وأملى ببغداد مجلسين:

أحدهما بجامع المهدي بالرصافة.

والآخر بمدرسته النظامية في بغداد.

وحضر إملأه الأئمة، قال أخوه أبو القاسم عبد الله بن علي بن إسحاق: كان أخي نظام الملك يُملي الحديث بالري، فلما فرغ قال: إني لأعلم أني لست أهلاً لما أتلوه من هذا الإملاء، ولكني أريد أن أربط نفسي على قطار نقلة حديث رسول الله ﷺ، وكان قد أملى مجالس عدة في مدن مختلفة؛ فحدث في أصبهان، والري، ومرو، ونيسابور، إضافة إلى بغداد، وقد جعل نظام الملك داره مجمعاً للعلماء والأئمة والأدباء؛ دون التقيّد بمذهب معين، أو سن محدد؛ فلم يتفق لغيره ما اتفق له من ازدحام العلماء عليه، وتردهم على بابه، وتصنيفهم الكتب باسمه

وكان الوزير نظام الملك ذا رأي ثاقب، ونظرة بعيدة، وحنكة سياسية، وخبرة طويلة في معالجة الأمور والأحداث التي تطرأ؛ حيث شعر بالخطر العظيم؛ الذي يواجه الأمة الإسلامية، والمتمثل في انتشار المذاهب الهدامة؛ التي فرقت البلاد، وسفكت الدماء، وخاصة فرقة الباطنية، وكذلك حالة الانقسام في جسم الدولة؛ ولذلك رسم له طريقاً واضحاً في سبيل الرقي بهذه الدولة، وإزالة أسباب الخلاف، ومكافحة الفرق الهدامة، والتيارات الفكرية المنحرفة، واضعاً نصب عينيه الدفاع عن العقيدة الإسلامية والمذهب السني، ضد أعداء الأمة؛ سواء في الداخل ممن تستروا

تحت ستار الإسلام، أو في الخارج متمثلاً في مطالع البيزنطيين والصليبيين، ثم نظر لهدف آخر؛ وهو ضمان مصلحة الخلافة العباسية والسلطنة السجوقية، ولتحقيق هذه الأهداف عمل على نشر العلم، وتشجيع العلماء، وافتتاح العديد من المدارس؛ التي تخرج بها العديد من العلماء المدافعين عن العقيدة الإسلامية والمذاهب السنية؛ الأمر الذي أدى إلى الحفاظ على كيان أهل السنة في ذلك العصر^(١).

ومن وزراء العصر السلجوقي؛ الذين اشتغلوا بالعلم والأدب، وأظهروا اهتماماً بالعلم والعلماء: الوزير عبد الرزاق بن عبد الله بن علي

(١) تحدثت أكثر المصادر التاريخية عن نظام الملك وسيرته وأخباره وعلمه ومواقفه وأعماله السياسية والعلمية، وقد تحدثت عنه في الفصل الثالث من الباب الأول، وكذا في الفصل الثاني من الباب الثاني، وللمزيد من التفاصيل في علمه واهتماماته العلمية، ومواقفه مع العلماء وتقديره لهم. انظر: ابن الجوزي: المنتظم (٦٤/٩)، ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (٩)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (٥٦)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (١٢٨/٢)، الحسيني: العراضة في الحكاية السلجوقية ص (٥٧)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (١٦٢/١)، السبكي: طبقات السافعية الكبرى (٣٠٩/٤)، وقد طبع جزء فيه مجلسان من أمالي الصاحب نظام الملك بتحقيق وتخريج أبي إسحاق الأثري، وهناك رسالة ماجستير بعنوان "الوزير السلجوقي نظام الملك" أعدتها هيفاء البسام-كلية السريعة والدراسات الإسلامية-جامعة أم القرى-١٤٠٠هـ، وقد حزن المسلمون كثيراً لوفاته؛ وذلك لما كان عليه من حسن الطريقة، وآثار العدل، والنصفة والإحسان إلى أهل الدين والفقهاء والقرآن والعلم، وحب الخير وحميد السياسة. ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص (١٢١).

ابن إسحاق الطوسي (ت: ٥١٥هـ) - وزير السلطان سنجر - كان من مشاهير العلماء الذين درسوا بالمدرسة النظامية، وكان فاضلاً، تفقه على أبي المعالي الجويني - إمام الحرمين - وأفتى وناظر، حتى أصبح وزيراً للسلطان سنجر، وكان يجتمع عنده الأئمة ويناظرهم، وكان فصيحاً جريئاً^(١).

كما قام العالم شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور الخوارزمي (ت: ٤٩٤هـ) - مستوفى مملكة السلطان ملشكاه السلجوقي - ببناء مدرسة مشهدة أبي حنيفة ببغداد، وأخرى بمرور، وكان يكرم أهل العلم، ويئذل المال الكثير لهم، ويوفر للمدارس الكتب النفيسة^(٢).

كذلك قام الوزير السلجوقي تاج الملك أبو الغنائم المرزبان خشرو (ت: ٤٨٥هـ)، ببناء المدرسة التاجية ببغداد، والتي جدد بناءها الوزير تاج الدين بن دارست سنة (٥٤١هـ)، وكانت تعقد في دار هذا

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٧٣١/٢)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (١٦٨/٧)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٨٩/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٢٢٢/٥)، زامبارو: معجم الأنساب ص (٣٣٩)، الزركلي: الأعلام (٣٥٢/٣).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (١٢٨/٩)، ابن الأثير: الكامل (٣٢٦/١٠)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٣٧٩/١)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٦١/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٦٧/٥)، وقد تقدم الحديث عنه.

الوزير-ابن دارست- مجالس علمية في أثناء إقامته ببغداد يحضرها العلماء والأئمة للبحث والمناقشة والمناظرة^(١).

وكان للوزير أبي نصر أنوشروان بن خالد بن محمد القاشاني (ت: ٥٣٢هـ) اهتمام كبير بالعلم والأدب، واتصال بالعلماء والأدباء؛ فعندما أطلعته أبو محمد القاسم بن علي الحريري (ت: ٥١٦هـ)، على المقامة الأولى التي صنفها، أعجب بها الوزير، وشجعه على تصنيف مقامات مماثلة لها؛ فاستجاب الحريري لطلبه، وكتب مقاماته؛ التي بلغت الخمسين، وللوزير أنوشروان مؤلف تاريخي؛ سماه " صدور زمان الفتور، وفتور زمان الصدور " نقل منه العماد الأصبهاني في كتابه " نصره المدة وعصرة الفطرة "، الذي ذكر فيه أخبار الدولة السلجوقية^(٢).

-
- (١) ابن الجوزي: المنتظم (٧٤/٩)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (١٩٦)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (١٩٧/٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٤٤/١٢).
- (٢) ابن الجوزي: المنتظم (٧٧/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٧٠/١١-٧١)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٦٧/٤)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢١٤/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٢٦١/٥)، وكان الوزير أنوشروان القاشاني قد تولى نيابة الوزارة للسلطان محمد بن ملشكاه، وفي سنة (٥٢١هـ) ولي وزارة السلطان محمود بن محمد ملشكاه، كما ولي الوزارة للخليفة المسترشد بالله في سنة (٥٢٦هـ)، ثم تولى الوزارة للمرة الثالثة في سنة (٥٢٩هـ) للسلطان مسعود. انظر: ابن الجوزي: المنتظم (٢٧-٢٦/١٠)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (٩٩-١٣٥-١٣٦).

أما الوزير السلجوقي مؤيد الدين الحسين بن علي الطغرائي (ت: ٥١٥هـ) -وزير السلطان مسعود- فقد كان عالماً أديباً فاضلاً، وشاعراً كاتباً، له ديوان شعر مشهور، وهو صاحب قصيدة لامية العجم، وكانت لهذا الوزير اهتمامات كبيرة بصناعة الكيمياء، وله مصنفات؛ منها: كتاب "جامع الأسرار"، وكتاب "تركيب الأنوار"، وكتاب "مصايح الحكمة"، وكتاب "الرد على ابن سينا في إبطال الكيمياء"، وكتاب "مفاتيح الرحمة"، وغيرها، وكان الطغرائي واسع المعرفة، غزير الفضل، فاق أهل عصره بصنعة النظم والنثر^(١).

وهكذا كان وزراء العصر السلجوقي؛ سواء ممن وزر للخلفاء أو السلاطين، يهتمون بالعلم، ويقربون العلماء، وتعدّد -في مجالسهم- الندوات والمجالس العلمية؛ التي يحضرها جمع من الأئمة والعلماء؛ الذين يحظون بتقديرهم واحترامهم لهم، وبذل الأموال إليهم، تقديراً لجهودهم

(١) ابن الأثير: الكامل (٥٦٣/١٠)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٧٠٨/٢)، ياقوت: معجم الأدباء (٥٦/١٠)، أبو الفدا: المختصر (٢٣٦/٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٩٠/١٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (٤١/٤)، دائرة المعارف الإسلامية (٢٢٦/١٥)، وعن مولفاته المذكورة -أنفأ- وأماكن وجودها في مكنتات العالم، انظر: بروكلمان: تاريخ الأدب العربي (١٢/٥).

وهناك خلاف -بين المصادر المتقدمة المذكورة- حول تاريخ وفاته؛ فذكر البعض أن وفاته سنة (٥١٤هـ)، وذكر غيرهم أن وفاته سنة (٥١٥هـ)، كأبي الفداء، وابن كثير، وياقوت.

العلمية، وأهمية وجودهم في المجتمع، ولا غرابة في ذلك إذا ما علمنا أن هؤلاء الوزراء أنفسهم كانوا من العلماء المعدودين الذين اهتموا بالعلم والأدب والثقافة؛ ولذا من الطبيعي أن يزدهر العلم في عهدهم، ويحظى العلماء بذلك التقدير والإكرام؛ لأنهم يعرفون معنى العلم وفضله، ومكانة العلماء، وليس أدل على ذلك من مواقف الوزيرين العالمين الكبيرين ابن هبيرة ونظام الملك مع العلماء -التي سبق ذكرها- فهي تؤكد لنا اهتمامهما بالعلم، وعنايتهما بالعلماء، وتقديم العون والدعم والتأييد والشتجيع لهم، وكذلك فعل الوزراء الآخرون؛ الذين عملوا ما في وسعهم وطاقاتهم تجاه علماء عصرهم، رغم تحملهم أعباء الوزارة ومتطلباتها، ولكن ذلك لم ينسهم واجبهم المنوط بهم تجاه العلماء، وتذليل الصعاب التي تعترضهم، كيف لا وهم قادة الفكر وأصحاب الرأي وأرباب الكلمة في المجتمع^(١)؟

وبعد أن ألقيت الضوء على اهتمامات الخلفاء والسلاطين والوزراء -في العصر السلجوقي- بالناحية العلمية، وتقديم نماذج لمواهبهم العلمية والأدبية، وكذلك صلتهم وعلاقتهم بالعلماء، وإدراكهم مكانتهم في

(١) للمزيد من التفاصيل في اهتمامات الوزراء العلمية في العصر السلجوقي، انظر: الزهراني: نظام الوزراء في الدولة العباسية ص (١٨٩-١٩٥)، وكذلك ما كتبه الدكتور علي حواد الطاهر بعنوان "ورزاء السلاجقة في شعر عصرهم" في مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد السابع، ١٣٧٩هـ-١٩٦٠م ص (١٩٧).

المجتمع، أرى من الضروري -الآن- إلقاء الضوء على مواقف بعض العلماء مع رجال الدولة في عصرهم، والآثار المترتبة على ذلك في الحفاظ على كيان أهل السنة في ذلك العصر.

ولا شك أن الملاحظ في ذلك العصر عمق الصلة وقوة العلاقة؛ التي تربط العلماء بالخلفاء ورجال الدولة عموماً، والكثير من العلماء من خلال تلك الصلة والعلاقة قاموا بتأليف الكتب والمصنفات، وقدموها للخلفاء في مختلف العلوم في الفقه والأصول والتاريخ والسياسة والأدب والطب، وغيرها، كذلك كان الخلفاء يبعثون العلماء في مهمات رسمية وسفارات تتعلق بالدولة؛ مما يؤكد ثقة الخلفاء بالعلماء ومكانتهم العظيمة لديهم، ولم تكن هذه العلاقة القوية والصلة المتينة بين الخلفاء والعلماء ذات تأثير على قول العلماء للحق ومجاهة الخلفاء أحياناً، ومواقفهم العظيمة؛ التي تؤكد صلابتهم وجرأتهم في الحق، وعدم التزلف أو الرغبة في الجاه والمنصب على دينهم وواجبهم؛ الأمر الذي مكن لهذه العلاقة؛ فوقف الخلفاء إلى جانبهم، ودافعوا عنهم، وحرصوا على تقريبيهم؛ والتأثر بمجالستهم، والاستماع لتوجيهاتهم، ومجالس وعظهم، وطاعتهم في إنكار المنكرات، وإزالتها من المجتمع، وقمع المفسدين والمجرمين.

فمن جملة هؤلاء العلماء؛ الذين صنفوا الكتب، وقدموها للخلفاء: أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي (ت: ٥٠٧هـ) أحد أئمة الشافعية؛ المعروف بالمستظهري؛ الملقب فخر الإسلام، ألف للخليفة المستظهر بالله كتاباً؛ سماه " حلية العلماء بمعرفة مذاهب الفقهاء " وهو

الكتاب؛ الملقب بـ "المستظهري"؛ لأنه صنفه للخليفة المستظهر بالله، ويتكون هذا الكتاب من ثلاثة أجزاء، يمدح - في مقدمة الجزء الأول - الخليفة المستظهر، ويطلب لأنصاره العزة، ويخبر بأنه استخار الله تعالى في وضع هذا الكتاب للإمام المستظهر؛ حيث يقول: "أما بعد؛ فإنه لما انتهت الإمامة المعظمة، والخلافة المكرمة، إلى سيدنا ومولانا أمير المؤمنين المستظهر بالله - أعز الله أنصاره - ذي الهمة العليا في أمر الدين والدنيا، استخرتُ الله تعالى في كتاب جامع لأقاويل العلماء؛ تقريباً إلى الله تعالى في اطلاعه عليه؛ رجاء أن يكون ما يصدر عنه غير خارج عن مذهب من المذاهب، وينتفع به كل ناظر فيه؛ فأرزق الأجر والثواب عليه - إن شاء الله تعالى" (١).

وهكذا، يتضح لنا - جلياً - عمق الصلة والرابطة بين العلماء والخلفاء؛ من خلال وقوف أكبر رجل في المذهب الشافعي في وقته إلى جانب الخليفة المستظهر؛ حتى إنه سمى كتابه باسم الخليفة، ولا شك أن لهذا الموقف تأثيره الكبير في المجتمع، ومن ثم الحفاظ على كيان أهل السنة في ذلك العصر.

(١) الشاشي: حلية العلماء (١/٥٣-٥٤)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٩/٣٩٤)، محمد شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد ص (٢٣٠-٢٣١)، وسبق أن ذكرت أن مؤسسة الرسالة ودار الأرقم نشرت من الكتاب قسم العبادات سنة (١٩٨٠هـ) في ثلاثة أجزاء بتحقيق الدكتور ياسين درادكة بعنوان "حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء" و تقدم الحديث عن الشاشي.

كذلك يعطينا كتاب " فضائح الباطنية وفضائل المستظاهرة " للغزالي (ت: ٥٠٥هـ)، صورة أخرى لمواقف العلماء مع الخلفاء؛ حيث ألف أبو حامد الغزالي هذا الكتاب؛ بناءً على طلب من الخليفة المستظهر؛ كي يرد به على عقائد الباطنية، ويحذرهم من أفكارهم الضالة^(١)، وقد خصص الباب التاسع من كتابه -بأكمله- لإقامة البراهين الشرعية على أن الإمام الحق القائم الواجب على الخلق طاعته هو الإمام المستظهر؛ كما أوضح بأنه يجب على علماء الدهر كافة الفتوى بوجوب طاعته على الخلق، ونفوذ أفضيته بنهج الحق، وصحة توليته للولاء، وتقليده للقضاة، وأنه خليفة الله على الخلق، وأن طاعته على الخلق كافة فرض، ثم أورد صفات الإمام، وواجباته الدينية والسياسية^(٢).

وهذا الموقف يؤكد -أيضاً- متانة العلاقة؛ التي كانت تربط العلماء بالخلفاء في ذلك العصر، وما ترتب عليها من آثار وفوائد للمجتمع الإسلامي.

ولا بُدّ أن نشير -في هذا الصدد- لموقف المؤرخ محمد بن عبد الملك الهمداني (ت: ٥٢١هـ)، الذي كان من كبار المؤرخين في عصره؛ حيث صنف عدداً من الكتب التاريخية؛ منها كتابه " تكملة تاريخ الطبري"، وفي مقدمته يعلن موقفه من الخليفة المستظهر بالله بكلّ صراحة

(١) الغزالي: فضائح الباطنية ص (٣-٤)، والمنقذ من الضلال ص (٤١).

(٢) الغزالي: فضائح الباطنية ص (١٦٩).

ووضوح؛ فنجده يدعو له ويشيد بإحسانه، فيقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ﷺ وعلى آله وصحابه:

" والدعاء لمن الدنيا مهنة بمصادفة سلطانه، والفضائل مستفيدة من تيامن إحسانه، والدهر مفتخر بحصول عنانه في يديه، ومثوله في جملة العبيد لديه، سيدنا ومولانا الإمام المستظهر بالله أمير المؤمنين، لا زال سلطانه باذج المكان، راسخ الأركان، وأيامه رفيعة العماد، منيعة البلاد"^(١).

ثم بعد أن يتحدث عن كتابه ومنهجه فيه يذكر أنه ختمه ببيعة المستظهر بالله أمير المؤمنين؛ الذي قضى حق الله في بريته، وارتسم أمره في رعيته، وفضائل المستظهر- في رأيه- تداوي الفكر العليل، وتشحذ الطبع الكليل، ويذكر أن في أيام المستظهر اعتدل المائل، وارتدع الجاهل، وأمن السابل، وقصر المتناول، ويضيف أنه عمدة الدين، ثم يختم مقدمته بالدعاء بأن يحفظ الله تعالى على الدنيا سياسته، وعلى أهلها حسن رأفته؛ حتى تضع له الدنيا خدودها ضارعة، وتستجيب لأمره سامعه طائعة^(٢).

وهكذا، من خلال اطلاعنا على الكتب السابقة " حلية العلماء"، و" فضائح الباطنية"، و" تكملة تاريخ الطبري"، لنخبة من أشهر علماء

(١) الهمداني: تكملة تاريخ الطبري ص (١٨٧)، (المقدمة) ضمن المجلد الحادي عشر من تاريخ الطبري.

(٢) الهمداني: تكملة تاريخ الطبري ص (١٩).

ذلك العصر الشاشي والغزالي والهمداني، نجد حرصاً كبيراً من العلماء على موازنة الخلافة العباسية، وتوثيق الصلة بالخلفاء، والولاء لهم، والدفاع عن أحقيتهم بالخلافة، ثم تميز الخليفة المستظهر بالله بصلته القوية بالعلماء في عصره ومحبه لهم، والتقرب منهم، ومجالستهم؛ لذلك تقرب منه أكثرهم، وصنفوا له الكتب- كما تقدم- إضافة إلى محبة الخليفة نفسه للعلم والعلماء والصالحين من الناس؛ كما ذكرت ذلك المصادر التاريخية؛ التي تحدثت عنه، وعن سيرته وأخباره.

وكذلك كان للخليفة المقتدي بأمر الله علاقة وثيقة بعلماء عصره؛ فالطبيب أبو الحسن سعيد بن هبة الله (ت: ٤٩٤ هـ)، الذي عاش في خلافة المقتدي، وخدمه بصناعة الطب، وهو صاحب التصانيف في الطب^(١)، صنف للخليفة المقتدي بأمر الله كتاب "المغني في الطب"؛ حيث قال فيه: "ولما رأى العبد الخادم هذه الأيام الزاهرة، والمناقب الباهرة، آثر أن يصنف لمولاه كتاباً طبياً، مختصراً مغنياً، في معرفة الأمراض وأسبابها، وعلاقتها ومداواتها؛ لا اضطرار الناس إلى وجود الصحة، واعتمادهم عليها"^(٢).

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص (٣٤٢)، اليافعي: مرآة الجنان (١٦٣/٣)، ابن العماد: شذرات الذهب (٤٠٢/٣)، البغدادي: هدية العارفين (٣٩٠/١).

(٢) مريزن عسيري: الحياة العلمية ف بالعصر السلجوقي ص (١٦٨)، نقلًا عن سعيد ابن هبة الله: مختصر المغني في معرفة الأمراض والأبيات والعلاقات والمداواة، مصور

كما صنف الطيب يحيى بن عيسى بن جزلة (ت: ٤٩٣هـ)، إمام الطب في عصره، كتاب " تقويم الأبدان في تدبير الإنسان " للخليفة المقتدي أيضًا^(١)؛ مما يؤكد عمق العلاقة التي تربط الخليفة المقتدي بعلماء العصر السلجوقي بصفة عامة، وتشجيعه الأطباء بصفة خاصة؛ لما لهم من أهمية كبيرة في حياة الناس ومداواتهم بعد توفيق الله تعالى، لاسيما وأن هؤلاء الأطباء كان منهم من يُتقن عدة علوم، إلى جانب مهنته الأساسية^(٢).

وكان الخليفة المسترشد بالله محبًا للعلم، مكرّمًا للعلماء، شديد الصلة بهم؛ حيث تذكر بعض المصادر أن الشاشي صنف له كتاب " العمدة "، وباسمه اشتهر الكتاب؛ لأن الخليفة المسترشد كان يُلقب " عمدة الدنيا والدين ، وعدة الإسلام والمسلمين " ^(٣).

بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، رقم (١٠٨) طب، ورقة أ.

(١) القفطي: إخبار العلماء ص (٢٣٩)، ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص (٣٤٣)، ابن العري: تاريخ الدول ص (٣٣٩)، وكتاب تقويم الأبدان لابن جزلة مطبوع بمطبعة روضة الشام، دمشق ١٣٣٣هـ-١٩١٤م، ومنه مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى رقم (١٧) طب.

(٢) انظر: ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص (٢٤٣-٢٤٤-٣٤٢).

(٣) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٧/٢٥٨)، الأسنوي: طبقات الشافعية (٢/٩)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٩/٥٦٧).

كما صنف العالم أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) كتاب " النصر على مصر " للخليفة المستضيء بأمر الله^(١).

وكان العلماء - في العصر السلجوقي - يحظون بتقدير كبير، ومناصرة وتأييد من الخلفاء، لاسيما عندما يتعرضون لظلم أو مكروه، وهناك مواقف تُدلل على ذلك؛ منها: ما حدث للفقير الشافعي ألكيا الهراسي (ت: ٥٠٤هـ)، عندما اتهم بأنه يميل إلى مذهب الباطنية، وهو بريء من ذلك؛ فحدث له فتنة هائلة؛ حيث قبض عليه السلطان السلجوقي بروكياروق؛ بسبب ذلك الاتهام، ولكن الخليفة المستظهر بالله تدخل على الفور، وأرسل إلى بروكياروق ببراءة ألكيا الهراسي، وشهد جماعة من العلماء ببراءته، منهم: علي بن عقيل، وأكدوا حسن عقيدته؛ فأطلق، وفرجت كربة شيخ الإسلام، وكان يلقب -أيضاً- "شمس الإسلام"^(٢).

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٣٧/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٦٤/١٢)، وكان ذلك سنة (٥٦٧هـ).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (١٦٧/٩)، ابن الأثير: الكامل (٤٨٤/١٠)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣٥١/١٩)، الكتيبي: عيون التواريخ (١٣/مخطوط، ورقة (١٠٧)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٧٢/١٢)، البغدادي: هدية العارفين (٦٩٤/١)، وسبب وقوع التهمة عليه أن صاحب الأملوت "الحسن بن الصباح" الباطني كان يلقب بألكيا أيضاً، ثم اتضح الأمر، وقد تقدم توضيح معنى " ألكيا " وهو الكبير القدر،

وهذا الموقف من الخليفة المستظهر يدل على تقديره العلماء ووقوفه إلى جانبهم؛ لاسيما عندما يتعرضون لاتهام أو قدح في دينهم وعقيدتهم- كما حدث مع الهراسي- ويؤكد هذا الموقف -أيضاً- اهتمام الخليفة العباسية بجهود علماء السنة، ودورهم الكبير في مجرى الأحداث، وتأثيرهم في الرأي العام الإسلامي وتوجيهه وقيادته؛ وهذا -من شأنه- أن يدعم الجهود المبذولة للتصدي لأصحاب البدع والأهواء والأفكار المنحرفة والخطيرة على المجتمع؛ الأمر الذي يؤدي -في النهاية- إلى الحفاظ على كيان أهل السنة في ذلك العصر -بحول الله.

ومثل هذا الموقف المتقدم لا يُستغرب في ذلك العصر؛ نتيجة التعاون والصلة الوثيقة؛ التي تجمع العلماء والخلفاء، ولذلك نجد -في تراجم كثير من علماء العصر السلجوقي- أنهم كانوا يحظون بتقدير الخلفاء والحكام، وتقدير الخاصة والعامة؛ كالشيخ أبي إسحاق الشيرازي؛ الذي صلى عليه الخليفة المقتدي بأمر الله^(١)، وأسعد الميهني (ت: ٥٢٧هـ)^(٢)، ويوسف

المقدم بين الناس، وقد اتصل الهراسي -بعد ذلك- بخدمة السلطان بركياروق؛ فحظي عنده بالمكانة العظيمة والقدر الرفيع. ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٨٧/٣).

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٨/٩).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (٢٠٠/١٢)، حيث يذكر أنه حصل له وجاهة عند الخاص والعام.

الدمشقي (ت: ٥٦٣هـ)^(١)، ورزق الله التميمي (ت: ٤٨٨هـ)^(٢)، وعبد الخالق عيسى الهاشمي (ت: ٤٧٠هـ)^(٣)، وعلي بن عقيل البغدادي (ت: ٥١٣هـ)^(٤)، وغيرهم؛ حيث كانت لهم مكانة عظيمة عند الخلفاء ورجال الدولة، يستشيرهم في الأمور، ويرسلونهم في المهمات؛ مما يُدلل على احترام الخلفاء للعلماء وتقريبهم إليهم، ومشاركتهم في الآراء ومجريات الأحداث.

ومن المواقف المؤكدة لما ذكرناه، والنماذج الدالة على ذلك، ما حدث في سنة (٤٧٥هـ)؛ حيث ذهب الشيخ أبو إسحاق الشيرازي موفداً من الخليفة المقتدي في سفارة إلى السلطان السلجوقي ملكشاه، ووزير نظام الملك، وكان الخليفة يعلم أن لأبي إسحاق منزلة خاصة في نفس نظام الملك، وأنه قادر على تلبية مطالبه، وإنجاح غايته -من ثم- لدى السلطان نفسه، وكانت السفارة تتضمن الشكوى والتظلم من العميد أبي الفتح بن أبي الليث؛ عميد العراق، وكان في صحبته جماعة من علماء بغداد وأعيانها؛ منهم: الإمام أبو بكر الشاشي، والحسين بن علي

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٢٦/١٠).

(٢) العليمي: المنهج الأحمد (١٩٤/٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٨٤/٣).

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٥٤٦/١٨)، ودول الإسلام ص (٢٤١)، ابن رجب:

الذيل على طبقات الحنابلة (١٥/١).

(٤) ابن الجوزي: المنتظم (٢١٣/٩)، ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة (٢٥٩/٢)،

العليمي: المنهج الأحمد (٢٥٢/٢).

الطبري، وأبو ثعلب الواسطي، وأبو الحسن الآمدي، وأبو القاسم الزنجاني، وأبو علي الفارقي، وأبو العباس ابن الرطبي، وغيرهم، وقد تلقاه الناس بحفاوة لا نظير لها، وقد كانت السفارة ناجحة، عاد منها أبو إسحاق يحمل كتب السلطان ملكشاه والوزير نظام الملك بإجابة مطلب الخليفة^(١).

وهذا الموقف يؤكد مكانة العلماء عند الخلفاء ورجال الدولة بهم، ويدلل على أن الخليفة المقتدي كان كبير الإجلال للشيخ أبي إسحاق وغيره من علماء عصره.

ومن العلماء؛ الذين كانت لهم صلة وثيقة بالحكام، ومكانة عند الخاص والعام: أبو الفتح أسعد بن أبي نصر بن أبي الفضل الميهمي (ت: ٥٢٧هـ)، حيث تذكر بعض المصادر أنه بُعث رسولاً إلى السلطان السلجوقي سنجر بمرو، وأرسل -أيضاً- إلى همدان^(٢).

(١) ابن الأثير: الكامل (١٢٥/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢٣/١٢)، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص (٤٢٤)، حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٢٣٣-٢٣٤)، ومقدمة كتاب طبقات الفقهاء للشيرازي ص (١٤-١٥)، تحقيق د. إحسان عباس، ويذكر البعض أنه لما عاد أبو إسحاق إلى بغداد أهين العميد، ورُفعت يده عن جميع ما يتعلق بالخليفة وحواشيه. ابن الأثير (١٢٦/١٠)، عبد المجيد بدوي: التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص (٢١٩).

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٦٣٤/١٩)، والذي أرسله المسترشد بالله (٥١٢-٥٢٩).

وكان يوسف بن عبد الله بن بندار الدمشقي (ت: ٥٦٣هـ) مدرس النظامية ببغداد، يذهب في بعض المهمات والسفارات؛ التي تُوكل به؛ فقد بُعث رسولاً نحو خوزستان سنة (٥٦٣هـ)، فمات في تلك البلاد^(١).

كذلك من العلماء؛ الذين كان لهم قدر رفيع عند الخلفاء ورجال الدولة منذ زمن الخليفة القادر بالله، ومن بعده من الخلفاء حتى خلافة المستظهر: أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب التميمي (ت: ٤٨٨هـ)، حيث كان يحظى بمكانة عظيمة، ويُبعث في المهمات والرسائل إلى السلاطين، وتذكر بعض المصادر أنه سمع منه خلق كثير في أصبهان؛ لما قدمها رسولاً من جهة الخليفة المقتدي بأمر الله، وكان الخليفة قد جعله رسولاً إلى السلطان في مهام الدولة^(٢).

كما كان أبو الوفاء علي بن عقيل البغدادي (ت: ٥١٣هـ) عظيم الحرمة، وافر الجلالة عند الخلفاء والملوك؛ كما وصفه بذلك العليمي وغيره، ومع ذلك كان يواجه كبار رجال الدولة بالإنكار عليهم، بلفظه

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٢٦/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٣٣٣/١١)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٥٥/١٢).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٨٩/٩)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٥٠/١٢)، العليمي: المنهج الأحمد (١٩٥/٢).

وخطه، لاسيما إذا رأى منكراً ظاهراً؛ كما حدث مع الوزير عميد الدولة ابن جهير^(١).

ويذكر العالم الفقيه أبو الحسن الطبري؛ الملقب بألكيا الهراسي (ت: ٥٠٤هـ) فيقول: " أرسلني السلطان بروكياروق إلى إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتين (ت: ٤٩٢هـ)^(٢)، فرأيتُ - في مملكته - ما لا يتأتى وصفه من الذهب والجواهر"، وما شاهده عنده من أمور السلطنة في ملبسه ومجلسه؛ يقول: " فلما عُدت -أي: من مشاهدة ما في داره من العجائب- وعظته بحديث النبي ﷺ: « لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير من هذا »، فبكى، قال: وبلغني أنه كان لا يبني لنفسه منزلاً حتى يسبني قبله مسجداً أو مدرسة لله"^(٣).

(١) العليمي: المنهج الأحمد (٢/٢٥٥)، وموقفه مع الوزير عميد الدولة بن جهيز، ذكرته -مفصلاً- في الفصل الثالث من الباب الثاني؛ المتضمن جهود العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٢) هو: الملك المؤيد جلال الدين ظهر الدولة إبراهيم بن مسعود صاحب غزنة كان عادلاً كريماً مجاهداً، له صولات وجولات في بلاد الهند بقصد نشر الإسلام وتوسيع مملكته. انظر ترجمته في: ابن الأثير: الكامل (١٠/١٦٧)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (١/٣٣٠)، زامباور: معجم الأنساب ص (٤١٦).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم (٩/١٠٩)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (١/٣٣٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/١٥٧)، والحديث أورده ابن هشام في سيرته (٤/٥٢٦) بإسناد حسن، وكذلك ابن كثير في البداية والنهاية (٥/١٧)، في غزوة تبوك.

وهذا الموقف يدل على مكانة العلماء عند السلاطين السلاجقة؛ حيث كانوا يبعثونهم في السفارات والمهمات، وكذلك يدل على عدم اغترار العلماء بالدنيا وزينتها ومفاتها؛ ولهذا بعد أن أخذ الهراسي جولة على دار السلطان إبراهيم بن مسعود، لم يبد إعجابه ودهشته له؛ بل على الفور وعظه موعظة العالم المخلص؛ الذي أدرك قيمة الدنيا الفانية، واستشهد له بحديث النبي ﷺ - كما تقدم - مما أثر في قلب ابن مسعود حتى بكى عندما تذكر الحديث؛ وهذا واجب العلماء تجاه الحكام؛ من حيث النصح والوعظ لهم، وتذكيرهم بالآخرة، وما عند الله تعالى من الأجر والثواب العظيم، وعدم الاغترار بهذه الدنيا، وما أروع ما قاله الخليفة الراشد علي بن أبي طالب عليه السلام:

فإن تكن الدنيا تعد نفيسةً فإن ثواب الله أعلى وأنبى^(١)

ويقول في موضع آخر:

إنما الدنيا كظل زائلٍ أو كضيفٍ بات ليلاً فارتحل^(٢)

وفي سنة (٤٩٢هـ) وصل ألكيا الهراسي - أيضاً - في رسالة

السلطان بركياروق إلى الخليفة، وقام له الوزير عميد الدولة بن جهير لما دخل عليه^(٣).

(١) انظر: ديوان الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ص (١٠٦).

(٢) نفسه ص (١٠١).

(٣) ابن الأثير: الكامل (٢٩١/١٠)، والخليفة آنذاك هو المستظهر بالله.

وهذا يؤكد مكانة العلماء عند رجال الدولة وأهميتهم، وقوة العلاقة؛ التي تربط بينهم.

وهناك الكثير من العلماء؛ الذين كانوا يحظون باحترام الخلفاء ورجال الدولة^(١)، وينالون منهم كل دعمٍ ونصرةٍ وتأيد، وكان الخلفاء يستشيرونهم في الأمور والمللمات والأحداث؛ التي تطرأ في الدولة؛ لما لهم من مكانة وأهمية في المجتمع الإسلامي، ولما لهذه الصلة والعلاقة من تأثير كبير في المجتمع، تنعكس آثاره على المصلحة العامة للمسلمين، والوقوف -بقوة- تجاه التيارات الفكرية المنحرفة التي يخطط لها أعداء الإسلام في كل عصر؛ فهذه الصلة والتقرب من العلماء من شأنه أن يضع حدًا قويًا

(١) كأبي جعفر عبد الخالق بن عيسى الهاشمي (ت: ٤٧٠هـ) الذي أوصى الخليفة القائم عند موته بأن يغسله. ابن الجوزي: المنتظم (٣١٥/٨)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٥٤٦/١٨)، وأبي الفرج عبد الواحد بن محمد بن علي الشيرازي (ت: ٤٨٦هـ). اليافعي: مرآة الجنان (١٤٢/٣)، وأبي طالب الحسين بن محمد بن علي الزيني (ت: ٥١٢هـ)، وكان يُرسل إلى ملوك الأطراف من قبل الخليفة. ابن الأثير: الكامل (٥٤٥/١٠)، الذهبي: العبر (٣٩٩/٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٤/٤)، وأبي سعد محمد بن نصر بن منصور الهروي (ت: ٥١٨هـ) الذي علا قدره، وارتفعت مكانته عند الخلفاء؛ فكان يرسل في الرسائل إلى الأقطار، ويسعى في السفارات متنقلًا بين المدن. القرشي: الجواهر المضية (١٣٧/٢)، وأبي طاهر عبد الرحمن بن أحمد جاشاوري (ت: ٤٨٤هـ) والذي مشى كبار رجال الدولة والوزراء في جنازته، وجاء السلطان إلى قبره مما يدل على مكانته. ابن الجوزي: المنتظم (٥٨/٩). وغيرهم كثير.

أمام هذه التيارات؛ فيضعف نفوذها، ويخفت صوتها؛ ولذا كان الخلفاء والعلماء على إدراك واسع لما يدور حولها؛ فكان لتضافر الجهود وتعاون الجميع الدور الكبير في وقف هذا الزحف الخطير على المسلمين في دينهم وعقيدتهم؛ وذلك بفضل الله تعالى، ثم بهذه الرابطة القوية؛ التي وثقت العلاقة بين الخلفاء ورجال الدولة وبين العلماء وأصحاب الرأي والمشورة والفكر.

وكان هؤلاء العلماء -عندما يُبعثون من قبل الخليفة أو السلطان- يحظون بالاحترام والإكرام والحفاوة؛ تقديراً لمكانة الخليفة؛ من حيث وجوب الطاعة له، واعترافاً بمكانة العلماء في المجتمع، وتأثيرهم البارز فيه، ومما يؤكد ذلك ما حدث سنة (٤٩٦هـ)، عندما بعث الخليفة المستظهر بالله قاضي القضاة أبا الحسن الدامغاني، وأبا نصر بن الموصلايا إلى سيف الدولة صدقة بن منصور الأسدي -صاحب الحلة- ويصف ابن الجوزي تلك المقابلة فيقول: " فلما قربا قدم لهما مركوبين من مراكبه، وقام لهما واحترمهما، وأجاب بالطاعة لأمر المؤمنين، ونهض من خيمته، وقدم لهما طعاماً... " (١).

وهذا الموقف يؤكد مكانة العلماء عند رجال الدولة عموماً، رغم الخلافات السياسية أحياناً، ولكن الجميع يتفقون على تقدير العلماء

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٣٥/٩)، ابن الأثير: الكامل (٣٧٥/١٠).

والاعتراف بفضلهم ومكانتهم، وشكر مساعيهم الرامية لمصلحة المسلمين العامة، وبما يعود على الجميع بالخير والنفع والطمأنينة.

وكان الخلفاء في ذلك العصر يحترمون جميع العلماء على اختلاف علومهم ومعارفهم؛ لأنهم يحترمون العالم لعلمه وفكره، وبما يقدمه لأمته من نفع وفائدة، وكان الخليفة المستظهر على اتصال بأكثر علماء عصره؛ سواء علماء الفقه والحديث والتاريخ والأدب، أو علماء الطب والفلك، وغيرها من العلوم، وكان يجري عليهم الجرايات، ويجزل لهم العطايا، لاسيما البارعين في علومهم؛ كما حدث مع العالم الفلكي محمد بن محمد ابن الحسن بن عيشون^(١)؛ حيث خلع عليه وأجرى له مرتباً؛ مكافأة له على براعته بعلم الفلك^(٢)؛ وهذا يُدلل على أن الخلفاء يشجعون الإبداع العلمي، والاهتمام بالجوانب العلمية، ويؤيدون الجهود المبذولة في هذا الشأن.

ومما يجب ذكره في هذا الفصل المتعلق باهتمام رجال الدولة بالعلم والعلماء، وعلاقتهم بهم، أنه على الرغم من تلك العلاقة والصلة الوثيقة؛ التي تجمع الخلفاء ورجال الدولة بالعلماء، وعلى الرغم من ذلك الاحترام

(١) ابن عيشون: هو محمد بن محمد بن الحسن، موفق الملك أبو الفضل، كان رأساً في صناعته بالعراق، له شعر حسن، توفي سنة (٥٠٦هـ). الصفدي: الوافي بالوفيات (١٢٥/١).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٩٧/٩)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٢٧٣/١-٢٧٤)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٥٢/١٢).

والتقدير، وتلك المكانة الرفيعة؛ التي حظي بها علماء ذلك العصر إجمالاً^(١)، وما تركته هذه الصلة من آثار عظيمة في المجتمع الإسلامي آنذاك.

أقول: على الرغم من ذلك كله فإن العلماء - في ذلك العصر - لم يسكتوا عن قول الحق، ولم تأخذهم في الله لومة لائم؛ فقد سجلت المصادر مواقف عظيمة للعلماء - في ذلك العصر - مع الخلفاء والسلطين والوزراء، رغم قوة العلاقة ومثانة الصلة، إلا أن ذلك لم يثن العلماء العاملين المخلصين عن أداء رسالتهم، والقيام بواجبهم، والإنكار - أحياناً - على الخلفاء إذا اقتضى الموقف ذلك، وسوف نلقي الضوء - بمشيئة الله - على نماذج من تلك المواقف لهؤلاء العلماء، والحقيقة أن الخلفاء ورجال

(١) تتضح هذه العلاقة والمكانة الرفيعة للعلماء عند الخلفاء في المراسيم والعهود؛ التي تتضمن تقليد العلماء للقضاء خاصة؛ حيث يوضح العهد أو المرسوم مدى تقدير الخلفاء للعلماء والاعتراف بفضلهم ومكانتهم، وقد أوردت لنا بعض المصادر نماذج من تلك العهود والمراسيم تدلل على ما نقول، منها عهد الخليفة القائم بأمر الله بتعيين أبي عبد الله الحسين بن علي قاضياً للقضاة، وعهد الخليفة المقتدي بتعيين أبي منصور محمد بن محمد بن الحسين قاضياً على المظالم، وعهد المسترشد بالله بتقليد قاضي القضاة علي بن الحسين الزينبي القضاء في بغداد وسائر الجهات، وكذلك المرسوم الذي أصدره الخليفة الناصر بتقليد القاضي محي الدين أبي عبد الله محمد بن فضلان قضاء القضاة. انظر نصوص هذه العهود والمراسيم وما تضمنه من وصف للعلماء، واعتراف بقدرهم ومكانتهم في: ابن الجوزي: المنتظم (٢٦/٩)، القلقشندي: صبح الأعشى (١٠/٢٦٤-٢٧٦-، و٢٨٦-٢٩١)، محمد حمادة: الوثائق الإدارية ص (١٦٦-١٨٧).

الدولة كانوا يقابلون هذه المواقف بكل تقدير واحترام، وامتنال لتلك التوجيهات، وكانوا يقومون بتغيير المنكرات؛ التي ينبه عليها أولئك العلماء؛ وهذا ما جعل لتلك المواقف المصحوبة بالإخلاص وعدم التزلف أو طلب الجاه والمنصب، تأثيراً كبيراً في المجتمع، ومن ثم أدى ذلك إلى الحفاظ على كيان أهل السنة في ذلك العصر.

فمن تلك المواقف: أن العالم عبد الرحمن بن محمد بن مظفر الداودي (ت: ٤٦٧هـ) راوي صحيح البخاري؛ الذي كتب الكثير ودرس وأفتى ووعظ، وكان لا يفتر لسانه عن ذكر الله تعالى، دخل يوماً عليه نظام الملك؛ فجلس بين يديه؛ فقال له: "إن الله قد سلطك على عباده، فانظر كيف تجيبه إذا سألك عنهم"^(١).

وهذه جرأة في قول الحق، لا يملكها إلا العلماء المخلصون؛ الذين لا يخافون في الله لومة لائم؛ حتى وإن كانت تربطهم برجال الدولة علاقات وصلات، إلا أن هذه العلاقة لا تقف عائقاً أمام وعظهم، وتغليظ القول عليهم، وتذكيرهم بالله تعالى، وأنهم مسؤولون عن هذه الرعيّة؛ التي استرعاهم الله تعالى عليهم؛ وهذا واجب العلماء المنوط بهم تجاه دينهم وأمتهم؛ لما في ذلك من آثار عظيمة على المجتمع الإسلامي.

كذلك كان لأبي حامد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) مواقف مشهورة مع رجال الدولة في عصره، رغم قربه منهم، وعلاقته الوثيقة بهم؛ فمن مواقفه

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٩٦/٨)، ابن كثير: البداية والنهاية (١١٢/١٢).

وجهوده - في هذا المجال - تصنيفه كتاب " التبر المسبوك في نصيحة الملوك"، وهو عبارة عن نصائح وتوجيهات للسلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي (٥١١هـ-)، حيث يخاطبه الغزالي، ويذكره بنعم الله عليه، ويورد - في الكتاب - أخباراً تظهر أهمية العدل، وسياسة السلطان، وسياسة الوزراء؛ مستشهداً بتاريخ الخلفاء، وتاريخ الحكومات في فارس والروم^(١).

فمن جملة نصائحه ووعظه للسلطان محمد بن ملكشاه قوله: " اعلم -يا سلطان العالم- أن الله أنعم عليك نعمًا ظاهرة، وآلاء متكاثرة، يجب عليك شكرها، ويتعين عليك إذاعتها ونشرها، ومن لم يشكر نعم الله - جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه- فقد عرض تلك النعمة للزوال، وخجل من تقصيره يوم القيامة^(٢)، ثم -بعد أن ذكره بأهم تلك النعم وهي نعمة الإيمان- قال له: " واعلم أن لهذه الشجرة -أي: شجرة الإيمان- عشرة أصول وعشرة فروع"^(٣)، ثم أخذ يسرد له هذه الأصول والفروع قائلاً: "أما أصول الإيمان فهي: اعلم -أيها السلطان- أنك مخلوق ولك خالق،

(١) انظر: التبر المسبوك في نصيحة الملوك، القاهرة-مكتبة الكليات الأزهرية، ط ١-

١٣٧٨هـ-١٩٦٨م.

(٢) انظر: الغزالي: التبر المسبوك في نصيحة الملوك ص (٥).

(٣) المصدر نفسه (٦).

وهو خالق العالم، وجميع ما في الكون، وأنه واحد لا شريك له، فردّ لا مثل له.

واعلم أن الباري تعالى ليس له مثل.

وأنه تعالى على كل شيء قدير.

وأنه عالم بكل معلوم، وعلمه محيط بكل شيء.

وأنه سميعٌ بصير، يقول للشيء كن فيكون.

وأن أمره تعالى على جميع الخلق نافذ.

وأن جميع ما في العالم مخلوق له تعالى وليس معه شريك.

وأن بعد الموت حساب وسؤال وصراط وجنة ونار.

وجعل الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ آخر الأنبياء، وجعله بشيرًا

ونذيرًا، وأمر الخلائق من الإنس والجن بطاعته واتباعه، وجعله سيد

الأولين والآخرين، وجعل أصحابه خير أصحاب الأنبياء - صلوات الله

عليهم أجمعين" (١).

ثم أخذ يذكر فروع شجرة الإيمان؛ وهي: العدل والإنصاف (٢)،

والاستماع إلى نصيحة العلماء المخلصين، والحذر من علماء السوء؛ الذين

يحرصون على الدنيا (٣)، ثم يقول: "وينبغي للعلماء أن يعظوا الملوك، ولا

(١) انظر: الغزالي: التبر المسبوك في نصيحة الملوك ص (٧-١٢).

(٢) نفسه (١٢-١٣).

(٣) الغزالي: التبر المسبوك ص (١٨).

يغروهم، ولا يدخروا عنهم كلمة الحق"^(١)، وأن يحارب الظلم من أي جهة صدر، وفي هذا يقول للسلطان: " ينبغي أن لا تقنع برفع يدك عن الظلم، لكن تهذب غلمانك وأصحابك وعمالك ونوابك؛ فلا ترضى لهم الظلم؛ فإنك تُسأل عن ظلمهم، كما تُسأل عن ظلم نفسك"^(٢).

وأن يبتعد عن الغضب، ويميل إلى العفو والكرم والتجاوز، وأن يرضى لنفسه ما يرضاه للمسلمين، وأن لا يتشاغل عن قضاء حوائج المسلمين بنوافل العبادات؛ فإن قضاء حوائج المسلمين أفضل من نوافل العبادات، وأن يبتعد عن الشهوات، وأن تُعمل الأمور بالرفق واللطف، لا بالشدّة والعنف، وأن ترضى عنك رعيتك بموافقة الشرع، وأن لا يُطلب رضا أحد من الناس بمخالفة الشرع"^(٣).

ومن نصائحه له -أيضاً: أن يعرف لماذا وُجد الإنسان في الدنيا، وأن يعرف مصيره، ثم يحذره من الجور والفساد"^(٤)، وأن يبتعد عن أعمال اللهو؛ كاللعب بالشطرنج والنرد، وشرب الخمر، وضرب الكرة والصولجان والصيد؛ لأنّ ذلك يمنعه ويشغله عن أمور الرعية"^(٥).

(١) الغزالي: التبر المسبوك ص (٢١).

(٢) نفسه (٢١).

(٣) نفسه ص (٢٣-٢٩).

(٤) نفسه ص (٣٠-٤٤).

(٥) نفسه ص (٦٧).

ثم يقول له -أيضاً: " يجب على السلطان أنه متى وقعت رعيته في ضائقة، أو حصلوا في شدة وفاقة، أن يعينهم، لاسيما في أوقات القحط وغلاء الأسعار؛ حيث يعجزون عن التعيش، ولا يقدرّون على الاكتساب"^(١).

ثم يوضح له شروط الوزير والكاتب، ويذكر له حلم الحكماء، وشرف العقل والعقلاء، ثم يختم الكتاب بذكر خير النساء، وأن خيرهنّ الحسنة الولود، الخفيفة المهر، صاحبة الديانة والعفاف والستر^(٢).

والحقيقة أنّ هذا الكتاب يعبر عن الدروس والنصائح والتوجيهات؛ التي يريد الغزالي أن تصل إلى قبل السلطان محمد بن ملشكاه؛ لأن صلاح الراعي يؤدي إلى صلاح الرعية، وكان السلطان محمد يصغي لنصائح الغزالي، ويتأثر بها، ويأخذ بالكثير منها؛ ولذا حرص هذا السلطان على إقامة العدل، والإحسان إلى الرعية، وتقريب أهل الدين والعلم والمعرفة إليه، ومحاربة التيارات الفكرية المنحرفة^(٣).

(١) الغزالي: التبر المسبوك ص (٨٣-٨٤).

(٢) نفسه ص (٨٦-٩٢-١٠٧-١١٩-١٢٦).

(٣) كان السلطان محمد بن ملكشاه، على ما وصفه ابن خلكان: " رجل الملوك السلجوقية وفحلهم، وله الآثار الجميلة والسيرة الحسنة، والمعدلة الشاملة، والبر للفقراء والأيتام، والحرب للطائفة الملحدة، والنظر في أمور الرعية. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان (٧٢/٤).

ولا شك أن هذه المواعظ والنصائح تدل على جرأة الغزالي في قول الحق والنصح للحكام، وعدم المداهنة لهم، وتذكيرهم بالله تعالى، وما عليهم من واجبات تجاه أمتهم ورعيّتهم، ومثل هذه المواقف لها أثرها العظيم في المجتمع الإسلامي؛ لأنها تُجسّد عرى التلاحم بين العلماء ورجال الدولة؛ لما يخدم مصالح المسلمين العامة، ويحافظ على كيانها. وقد أورد ابن خلكان - في ترجمته للسلطان محمد بن ملكشاه - أن الإمام أبا حامد الغزالي نصح السلطان محمد بأن يتحلّى بجميد الصفات، ومكارم الأخلاق، وان يعلم أنه بقدر عناية الإنسان بهذه الحياة الدنيا، يجب أن يعلم أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأنه يجب أن يفكر - في الوقت نفسه - في هذه الحياة الآخرة؛ لأن الإنسان - مهما امتد به الأجل - لا بد صائر إلى هذا المصير المحتوم^(١).

ومما يُدلل على قوة الغزالي وجرأته، ومكانته العالية في إدارات الدولة وولايات السلاطين، وعدم مجاملته لأحد في قول الحق حين توفي السلطان ملكشاه، وطلب رأي الغزالي في تولية الملك محمود بن السلطان ملكشاه؛ حيث انفرد الغزالي بعدم جواز توليته؛ لصغر سنه؛ لأن الشرع

(١) انظر نص هذه النصيحة في: الغزالي: التبر المسبوك ص (٣٦-٣٧)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤/٧٢-٧٣)، اليافعي: مرآة الجنان (٣/٢٠١)، ورسائل الغزالي المسماة: فضائل الأنام من رسائل حجة الإسلام " ص (١٧٢)، ترجمة وتعليق الدكتور نور الدين آل علي، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والسيدني (٤/٤٦).

لا يجيز ولايته في هذه السن، وجرى الأمر كما أفى الغزالي، وتولى السلطان بروكياروق السلطنة، وفي هذا يقول ابن كثير: " ولم يعمل إلا بقول الغزالي "(١).

ثم إن الغزالي كان كثيرًا ما يجهر بالحق والنصيحة والموعظة للملوك والسلاطين والوزراء والأمراء؛ ينصحهم ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحذرهم من الظلم، ويحثهم على الرفق بالرعية؛ فقد دخل على السلطان سنجر بن ملكشاه السلجوقي؛ فقال له: " انظر إلى الناصح الصامت -أي: الموت- ماذا يقول بلسان الحال؟! أيتها الملك إذا أوقفتك في مقام المؤاخذة والسؤال، وقالوا لك: ماذا فعلت بعبادنا الذاكرين لكلمة لا إله إلا الله؛ الذين جعلناهم رعيته، وأعطيناك عدة مواش؛ فاهتممت بها؛ حتى خصصت لها كل رحبة خصبة، وغفلت عن عبادنا؟ ولماذا قدمت حرمة مواشيك على أعزتنا، فماذا عندك من الجواب على هذا السؤال؟".

ثم يطلب الغزالي العدل والرفق والرحمة بالرعية؛ فيقول: " وهم في أزمة شديدة مشردون مصابون في الظلم والقحط والجفاف، وقد

(١) ابن الأثير: الكامل (٢١٤/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٣٩/١٢)، ماجد الكيلاني: هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص (٨٢).

انقصمت ظهور المؤمنين، وانحنت أعناقهم من البلاء ومحنة الجوع، فماذا يكون إذا خففت من ثقل أطواق الذهب في أعناق ماشيتك؟" (١).

واستكمالاً لمواقف العلماء - في هذا الميدان - وتوضيح جرأتهم في قول الحق، والجهر به، رغم ما يربطهم برجال الدولة من علاقة وصله ومكانة، أقول: كان الفقيه الواعظ المعمر بن علي بن المعمر بن أبي عمارة البغال البغدادي (ت: ٥٠٦ هـ) يعظ بحضرة الخليفة المستظهر بالله، ويقدم له النصيح والوعظ أحياناً، دون خوف أو وجل، وكان يحصل - بوعظه - نفع كثير، ولما دخل الوزير نظام الملك بغداد صلى في جامع المهدي الجمعة؛ فقام المعمر بن أبي عمارة للخطبة؛ التي خصصها لموعظة الوزير نظام الملك؛ فذكره بالله تعالى، وأنك ستقف بين يديه، وستسأل عما ذا صنعت في العباد والبلاد، وأخذ يذكره بيوم القيامة؛ الذي ينخلع فيه القلب، ويحكم فيه الرب، ويعظم فيه الكرب، ويشيب فيه الصغير، ويعزل الملك والوزير (٢).

(١) الغزالي: أيها الولد ص (٢٣-٢٤)، فضائل الأنام من رسائل حجة الإسلام ص (٣٨-٤٢)، وكان الغزالي ينتقد السلاطين الظلمة، ويحذر من التعامل معهم، ويقول: " إن السلطان الظالم عليه أن يكف عن ولايته، وهو إما معزول أو واجب العزل " ، ويحذر العلماء المخلصين من الاختلاط بهم، أو التعامل معهم؛ حتى يفيئوا إلى شرع الله. انظر: الغزالي: إحياء علوم الدين (١٣٧/٢-١٣٩).

(٢) انظر نص هذه الخطبة المتضمنة تلك الموعظة الجريئة: ابن الجوزي: المنتظم (١٧٣/٩-١٧٤)، العليمي: المنهج الأحمد (٢٢٥/٢-٢٢٧)، وقد تقدم ذكر أكثر

وقد تأثر نظام الملك بهذه الموعظة المؤثرة، وبكى بكاء شديداً؛ لأنها كانت نابعة من قلب مخلص، لا يريد بذلك عرضاً من أعراض الدنيا، أو جاهاً ومنصباً، أو تزلفاً وتقرباً؛ وإنما يريد أن يؤدي واجبه ورسالته على الوجه المرضي لله سبحانه؛ لأنّ مثل هذه المواقف، والتزام الصدق والجرأة وقول الحق، ليست بالأمر اليسير؛ الذي قد يتساهله البعض؛ فقد يكون الثمن غالياً، والحمل ثقيلاً أحياناً، ولكن هؤلاء العلماء كانوا مخلصين لله في قولهم وعملهم؛ لا يرجون من أحد جزاء ولا شكوراً، ولا يخافون في الله لومة لائم، ولكنهم يتطلعون إلى ما عند الله تعالى من الأجر والثواب العظيم.

وإلى موقفٍ آخر من مواقف العلماء تجاه رجال الدولة للعالم: موهوب بن أحمد بن محمد الجوالقي (ت: ٥٤٠هـ-)، شيخ أهل اللغة في عصره، كان متديناً ثقة ورعاً، غزير الفضل، وافر العقل، من أهل السنة المدافعين عنها، سمع الحديث الكثير، ودرس العربية في المدرسة النظامية، ثم قربه الخليفة المتقفي لأمر الله؛ فاختص بإمامته في الصلوات، وكان الخليفة المقتضي يقرأ عليه شيئاً من الكتب، وانتفع بذلك، وبان أثره في توقيعاته، وللجوالقي مصنفات؛ منها: "شرح أدب الكاتب"، و"المعرب"،

فقرات هذه الخطبة في الفصل الثالث من الباب الثاني؛ المتضمن "جهود العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" ضمن جهود المعمر بن علي بن أبي عمارة في هذا المجال؛ حيث ذكرت له هذا الموقف لمناسبته هناك.

و"وتتمة درة الغواص " للحريري-صاحب المقامات-وغيرها من الكتب؛
التي انتشرت عنه، وشاع ذكرها^(١).

وكان أول دخول الجواليقي على الخليفة المقتفي ما زاد على أن
قال: السلام على أمير المؤمنين؛ فقال له هبة الله بن صاعد ابن التلميذ
النصراني: ما هكذا يسلم على أمير المؤمنين يا شيخ؛ فلم يلتفت إليه
الجواليقي، وقال: يا أمير المؤمنين لو حلف حالف أن نصرانياً أو يهودياً لم
يصل إلى قلبه نوع من أنواع العلم على الوجه المقبول لما لزمته كفارة؛
لأن الله ختم على قلوبهم، ولن يفك ختم الله إلا بالإيمان، فقال: صدقت
وأحسنت، وكأنا أُلجم ابن التلميذ بحجر، مع فضله وغزارة أدبه^(٢).

فالجواليقي -من خلال هذا الموقف المتقدم مع الخليفة المقتفي- لم
يأخذ في الاعتذار والتأسف أو الوجل من الخليفة، بل على الفور أخبره

(١) انظر: عن الجواليقي: ابن الأنباري: نزهة الألباء ص (٢٩٣)، ياقوت: معجم الأدياء
(٢٠٥/١٩)، ابن الأثير: اللباب (٢٤٥/١)، العليمي: المنهج الأحمد (٢٩٣/٢)،
السيوطي: بغية الوعاة (٣٠٨/٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (١٢٧/٤)،
البغدادي: هدية العارفين (٤٨٣/٢)، كحالة: معجم المؤلفين (٥٣/١٣)، ثم انظر ما
كتبه الدكتور دفع الله عبد الله سليمان عنه في مجلة الدارة، بعنوان " مختصر شرح
أمثلة سيبويه للجواليقي " ص (٧١)، العدد الثالث، ربيع الآخر ص (١٤٠٧هـ-
١٩٨٦م)، وكتبه التي ذكرناها جميعها مطبوعة ومتداولة أشار إليها ولغيرها الدكتور
دفع الله في مقالة في مجلة الدارة المذكورة آنفاً.

(٢) العليمي: المنهج الأحمد (٢٩٣/٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (١٢٧/٤-١٧٣).

بأن سلامه هذا هو ما جاءت به السنة النبوية المشرفة؛ قال ذلك بلسان الواثق من كلمة الصدق وقول الحق، رغم محاولة ابن التلميذ النيل منه أمام الخليفة لأغراضٍ في نفسه، ولكنه أجمه بجوابه؛ حتى إن الخليفة أُعجب من قوله وبيانه؛ فقال له: صدقت وأحسنت؛ وهذا الموقف يؤكد -بوضوح أيضاً- تقدير الخليفة للعلماء وإكرامه لهم، وتأثره بمجالستهم؛ كما قال ابن العماد عنه: " كان -أي المقتفي- كريماً محباً للحديث وسماعه، معتنياً بالعلم، مكرماً لأهله "(١).

ومن النماذج -أيضاً- لمواقف العلماء مع الخلفاء والسلاطين والوزراء ما فعله أبو العباس أحمد بن أبي غالب بن أحمد البغدادي (ت: ٥٤٨هـ) المعروف بابن الطلاية، وكان من أعاجيب دهره في الاستقامة، وقد زاره السلطان مسعود السلجوقي في مسجده بالحريية؛ فتشاغل عنه بالصلاة، ومازاده على أن قال: يا مسعود؛ اعدل، وادع لي، الله أكبر، وأحرم بالصلاة؛ فبكى السلطان مسعود، وتأثر من كلمته تلك، فأبطل المكوس والضرائب، وتاب^(٢)، أي أنه أخذ بتوجيه ابن الطلاية وموعظته المختصرة، رغم أنه خاطبه باسمه مباشرة: يا مسعود، ولم يمجده أو يمدحه؛ بل ذكّره بالله تعالى، ونصحه بأن يعدل في رعيته؛ التي استرعاه

(١) ابن العماد: شذرات الذهب (٤/١٧٣).

(٢) الذهبي: العبر (٣/٥)، الياضي: مرآة الجنان (٣/٢٨٦)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٥/٣٠٤)، ابن العماد: شذرات الذهب (٤/١٤٥).

الله عليها، الأمر؛ الذي أثر كثيراً في قلب السلطان مسعود؛ فامتثل لذلك، وتأثر؛ لأنه أدرك قول الصدق والحق في كلمة ابن الطلاية، وأنه نصحه الله تعالى؛ إدراكاً من العلماء المخلصين لواجبهم، وأداءً لرسالتهم، وعملاً بعلمهم، وتذكيراً للحكام بالله تعالى والدار الآخرة.

وكذلك من العلماء؛ الذين كانوا يصدعون بقول الحق، وينكرون الظلم، ولا يخافون في الله لومة لائم: الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت: ٥٦١هـ) الذي وقف على المنبر؛ ليخاطب الخليفة المقتفي لأمر الله، وينكر عليه تولية يحيى بن سعيد، المشهور بابن المرخم الظالم للقضاء؛ فقال مخاطباً الخليفة: "وليت على المسلمين أظلم الظالمين، فما جوابك غداً عند رب العالمين، أرحم الراحمين..."^(١).

فتأثر الخليفة، وعزل القاضي ابن المرخم لوقته؛ امتثالاً لكلام الجيلاني؛ الذي صدع بالحق على المنبر، وخاطب الخليفة مباشرة، وكان الجيلاني معروفاً بقوته وجرأته في قول الصدق والحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ حيث كان من الأتقياء المنصرفين عن الدنيا.

وتذكر لنا بعض المصادر موقفاً جريئاً للعالم الشيخ: عبد المغيث بن زهير الحربي (ت: ٥٨٣هـ) مع الخليفة الناصر لدين الله؛ الذي جاءه زائراً مستخفياً؛ فعرفه الشيخ عبد المغيث، ولم يخبره بأنه قد عرفه؛ فسأله الخليفة

(١) السامرائي: مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص (١٣٣-١٣٤)،

وقد تقدمت ترجمة الجيلاني وابن المرخم في الفصل الثالث من الباب الثاني.

عن يزيد بن معاوية: أيلعن أم لا؟ فقال الشيخ عبد المغيث: لا أسوّغ لعنه؛ لأنني لو فتحت هذا الباب لأفضى الناس إلى لعن خليفتنا، فقال الخليفة: ولم؟ قال: لأنه يفعل أشياء منكّرة كثيرة، منها كذا وكذا، ثم أخذ يُعدّد على الخليفة أفعاله المنكّرة؛ لينزجر عنها؛ فتركه الخليفة؛ فخرج من عنده، وقد أثر كلامه فيه، وانتفع به - كما يذكر ابن كثير وغيره^(١).

وهذا الموقف الجريء للشيخ عبد المغيث مع الخليفة الناصر، يؤكد جرأة العلماء المخلصين، وصلابتهم في قول الحق، والتزام الصدق، وعدم المداهنة أو المحاباة؛ بل لا بُد من النصيحة والوعظ للحكام، وتذكيرهم بالله تعالى، ومصارحتهم بأخطائهم؛ كي ينزجروا عنها، فيعم الخير، ويصلح المجتمع، ويسعد الناس.

وهكذا أُلقيتُ الضوء على نماذج عدة من مواقف العلماء مع الخلفاء والسلاطين والوزراء وأرباب الدولة في ذلك العصر، وجرأتهم في قول الحق والتزام الصدق، وعدم محاباتهم أو مداهنتهم لأحد؛ لأنّ مثل هذه المواقف الجريئة ليست بالأمر الهين؛ الذي قد يتصوره البعض؛ حيث لا يجرؤ عليها إلا من أخلص دينه لله، وقد قال الغزالي مرة لفخر الملك بعد أن نصحه ووعظه وغلظ عليه في القول: " اعلم - يا فخر الملك - أن هذه

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٦١/٢١)، ابن كثير: البداية والنهاية (٣٢٨/١٢)، وقد ذكرت هذا الموقف، وعلّقت عليه في الفصل الثالث من الباب الثاني؛ لأهميته هناك.

الكلمات لاذعة، مرة قاسية، لا يجروء عليها إلا من قطع أمله عن جميع الملوك والأمراء، فأقدر قدرها؛ فإنك قد لا تسمعها من غيري، وكل من يقول غير ذلك فاعلم أن طمعه حجاب بينه وبين كلمة الحق" (١).

وبمثل تلك المواقف العظيمة، والنصائح القيمة؛ التي خرجت من قلوب مؤمنة متفكّهة، ونطقتها ألسن عالمة جريئة صريحة، لم تعرف النفاق والمداراة والمداهنة، وسمعتها أذن واعية، وقلوب نيرة، عاهدت الله تعالى على رعاية الأمة على أساس شرع الله وإقامة حدوده؛ فكانوا نعم العلماء، ونعم الحكام؛ الذين كانوا يستمعون إلى وعظ العلماء ونصائحهم، معاهدين على تنفيذها والعمل بموجبها؛ ولذا كان العلماء المخلصون الصالحون يحرصون دائماً على إبداء النصيحة والموعظة الحسنة للحكام ورجال الدولة؛ حرصاً يجعلهم يتحملون كل أذى ومشقة في هذا السبيل، ويذلون كل جهدهم لتحقيق هذا المطلب الشرعي الكريم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ (٢)، ويقول الرسول ﷺ: «الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين

(١) البدرى: الإسلام بين العلماء والحكام ص (١١٤)، وقد خصص فصلاً لمواجهة الحكام وآراء العلماء في ذلك ص (١١٥-١٢١).

(٢) سورة آل عمران، آية (١٠٤).

النصيحة، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(١).

وعلى الرغم من تلك المواقف المتقدمة للعلماء مع رجال الدولة في ذلك العصر، إنّ ذلك لم يؤثر على قوة العلاقة والصلة؛ التي كانت تربط رجال الدولة بهم؛ لأنّ الخلفاء والسلاطين والوزراء وأرباب الدولة كانوا يدركون مدى إخلاص هؤلاء العلماء والتزامهم بالصدق وقول الحق، وعدم رغبتهم في شيء من حطام الدنيا، ولذلك كانوا يحظون باحترام وتقدير واعتراف بالفضل والمكانة، من قبل رجال الدولة؛ الذين كانوا يحبون أهل العلم، ويقربونهم، ويثقون بهم، ويرسلونهم في مهمات الدولة وسفاراتها، ويستشيرونهم في الملهمات والمنازعات؛ التي تحدث؛ لما لهم من أهمية في المجتمع الإسلامي، وتأثير كبير في الرأي العام.

ولكي نوضح مدى التقارب والتعاون والتآزر بين رجال الدولة والعلماء، والآثار التي ترتبت على ذلك، لا بد من ذكر بعض النماذج المؤكدة لعمق الثقة، وقوة العلاقة، وفائق التقدير والاحترام والمكانة؛ التي يكنها رجال الدولة للعلماء في ذلك العصر، والتي تؤكد ما ذكرناه آنفاً،

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة (٣٦/٢) -

(٣٧)، والنسائي في كتاب البيعة، باب النصيحة للإمام، سنن النسائي (١٤٠/٧)،

والترمذي في كتاب البر-باب ما جاء في النصيحة، سنن الترمذي (٣٢٤/٤)، وأبو

داود في كتاب الأدب، باب في النصيحة، سنن أبي داود (٢٣٣/٥)، والحديث رواه

وثمة أمر آخر مهم؛ وهو أن رجال الدولة - في ذلك العصر - بصفة عامة كانوا قمة في العلم والفقہ والإدراك لمكانة العلماء وأهمية وجودهم؛ حيث كان أكثرهم من العلماء الذين يحبون العلم، وينهلون من معينه العذب، ويجالسون العلماء ويجاورونهم، ويتأثرون بمجالستهم ووعظهم ونصائحهم؛ ولذلك تضافرت الجهود، وتعاون الجميع لما فيه مصلحة المسلمين العامة؛ الأمر الذي أدى إلى الحفاظ على كيان أهل السنة في العصر السلجوقي.

ومن المواقف الدالة على ما نقول: موقف نظام الملك عندما وقعت الفتنة بين الخنابلة والأشاعرة، وترددت الرسائل بين نظام الملك وعدد من العلماء حول الفتنة، وقد ورد كتاب من الوزير نظام الملك إلى العالم الفقيه أبي إسحاق الشيرازي؛ جواباً لرسالته؛ التي أرسلها إليه في الموضوع نفسه، وفيما يلي نص الرسالة:

" ورد كتابك بشرح أطلت في الخطاب، وليس توجب سياسة السلطان وقضية المعدلة إلى أن تمثل في المذاهب إلى جهة دون جهة، ونحن بتأييد السنن أولى من تشييد الفتن، ولم نتقدم ببناء هذه المدرسة - أي: النظامية - إلا لصيانة أهل العلم والمصلحة، لا للاختلاف وتفريق الكلمة، ومتى جرت الأمور على خلاف ما أردناه من هذه الأسباب، فليس إلا التقدم بسد الباب، وليس في المكنة الإيبان على بغداد ونواحيها، ونقلهم عما جرت عليه عاداتهم فيها؛ فإن الغالب هناك هو مذهب الإمام أبي عبد

الله أحمد بن حنبل -رحمة الله عليه- ومحلّه معروف بين الأئمة، وقدره معلوم في السنة"^(١).

ثم يقول في نهاية الرسالة: " والشيخ الإمام أبو إسحاق -وفقه الله- رجل سليم الصدر، سلس الانقياد، ويصغي إلى كل من ينقل إليه، وعندنا من تصادر كتبه ما يدل على ما وصفناه"^(٢).

وقد سُر العلماء بهذه الرسالة العظيمة؛ التي تؤكد فقه نظام الملك وعلمه، ونظرته البعيدة للأمر، ومناصرتة للعلماء، دون تعصب لمذهب، أو ميل لجماعة دون أخرى، وإنما نظر لمصلحة المسلمين العامة، واجتهد في إخماد الفتنة؛ لأنها لا تخدم إلا أعداء المسلمين؛ الذين يترصبون بهم، ثم إن الرسالة تؤكد تقديره للعلماء؛ والاعتراف بفضلهم ومكانتهم في الأمة؛ حيث أشار إلى ذلك في حديثه عن الإمام أحمد -رحمه الله- وكذلك التنويه بمكانة أبي إسحاق الشيرازي، وجهوده في إخماد الفتنة، وإطفاء نارها، وتقدير نظام الملك له؛ عندما اختصه بهذه الرسالة؛ التي تؤكد الجهود المبذولة في الحفاظ على كيان أهل السنة في ذلك العصر، والنظرة الشمولية للتعامل مع مجريات الأمور والأحداث.

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٣١٢/٨)، ابن كثير: البداية والنهاية (١١٧/١٢)، وكان ذلك في سنة (٤٧٠هـ).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٣١٢/٨)، محمد حمادة: الوثائق السياسية والإدارية ص (٤٥٢-٤٥٣).

ومن المواقف الدالة -أيضاً- على مكانة العلماء عند رجال الدولة -في ذلك العصر- أن الخليفة المستظهر بالله، ولّى أبا العباس أحمد بن سلامة بن عبد الله بن الرطبي^(١)، حاسبة بغداد في سنة (٥٠١هـ)^(٢)؛ لما لهذا العمل من أهمية كبيرة في المجتمع؛ حيث يحتاج لعلماء يدركون التعامل مع الناس، ويحسنون التصرف عند إنكار المنكرات؛ وقمع المجرمين والعاثين بأمن الناس وممتلكاتهم، ودعوة الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، وتوضيح الأمور؛ التي تخفي عليهم، والرفق معهم، والشدة والحزم في المواقف؛ التي تتطلب ذلك.

وعندما ورد الفرنج إلى دمشق سنة (٥٢٣هـ) أرسل صاحب دمشق تاج الملوك بوري بن طغتكين العالم الفقيه عبد الوهاب بن عبد الواحد بن محمد بن علي الشيرازي (ت: ٥٣٦هـ) إلى الخليفة المسترشد بالله ببغداد، ومعه جماعة، يستنجدهم على الفرنج؛ فخلع عليه الخليفة،

(١) هو أبو العباس أحمد بن سلامة بن عبد الله بن مخلد؛ المعروف بابن الرطبي، فقيه شافعي، تفقه على أبي إسحاق، وأبي نصر ابن الصباغ، وسمع الحديث ورواه، وكان قريباً من الخليفة المستظهر يودب أولاده، توفي سنة (٥٢٧هـ). ابن الأثير: الكامل (٩/١١).

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٤٩١/٢).

ووعده بالاتصال بالسلطان السلجوقي ليخبره بذلك، ويستحثه لنجدة المسلمين وكشف الغمة؛ التي حلت بهم^(١).

وكان عبد الوهاب الشيرازي فقيهاً بارعاً، وواعظاً فصيحاً، وصدراً معظماً، ذا حرمة وحشمة وسؤدد ورياسة ووجاهة وجلالة وهيبة^(٢).

وهذا الموقف يؤكد مكانة العلماء لدى الخلفاء ورجال الدولة، ويدلل على مشاركة العلماء في الأحداث؛ التي تحل بالأمة؛ لاسيما المتعلقة بمداومة العدو لأراضي المسلمين، وتهديد مقدساتهم؛ لأنّ هذا يُعدُّ واجباً على المسلمين، ومشاركة فعلية في الجهاد في سبيل الله؛ الأمر الذي يؤدي إلى تشجيع المسلمين، والرفع من معنوياتهم لدحر العدو وطرده من أراضي المسلمين، وتعريف الناس بفضل الجهاد في سبيل الله، وما أعده الله تعالى للشهداء في سبيله؛ عن طريق هؤلاء العلماء المخلصين المجاهدين.

وكذلك تذكر بعض المصادر أن الفقيه الشافعي محمد بن عبد اللطيف بن محمد بن ثابت الخنجدي (ت: ٥٥٢هـ) كان صدراً مقدماً عند السلاطين، وكان ذا حشمة عظيمة وجاه عريض، وكان السلطان

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٣/١٠)، العليمي: المنهج الأحمد (٢/٢٩٠)، سعيد عاشور:

بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص (٦٠).

(٢) العليمي: المنهج الأحمد (٢/٢٩٠)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٥/٢٧٠)،

ابن العماد: شذرات الذهب (٤/١١٣).

محمود السلجوقي يصدر عن رأيه^(١)؛ مما يُدلل على صلته القوية برجال الدولة ومشورته، ويتأثر بنصحه ومواعظه.

وكان أبو علي الحسن بن جعفر الهاشمي (ت: ٥٥٤هـ)، المقرئ الأديب الحنبلي ذا صلة قوية بالخلفاء؛ حيث يذكر البعض أنه جمع سيرة الخليفة المسترشد بالله، وكذلك سيرة الخليفة المقتضي لأمر الله، وجمع كتاباً؛ سماه "سرعة الجواب ومداعبة الأحباب"، وكان أديباً فاضلاً صالحاً متديناً صدوقاً، يقول الشعر الحسن^(٢).

كما تحدثنا المصادر عن مكانة أبي عبد الله محمد بن يحيى بن علي الزبيدي (ت: ٥٥٥هـ) لدى الحكام ورجال الدولة؛ حيث كان الخليفة المسترشد بالله قد بعثه رسولاً إلى دمشق في أمر الباطنية؛ مما يُدلل على مكانته وقوة صلته بالخلفاء، وجماله ومهارة هذه المهمات، وكان الزبيدي

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٧٩/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٢٢٨/١١)، الذهبي: العبر (١٨/٣)، اليافعي: مرآة الجنان (٣٠٠/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٣٧/١٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (١٦٣/٤).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (١٩١/١٠)، الذهبي: العبر (٢٢/٣)، اليافعي: مرآة الجنان (٣٠٧/٣)، ابن العماد: شذرات الذهب (١٧١/٤).

- كما تذكر المصادر التي ترجمت له - لا يخشى في الله لومة لائم، وكان يقول الحق؛ وإن كان مرأ^(١).

ولا يجب أن تُغفل - في هذا المقام - مواقف العالم الفقيه الواعظ عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) الذي ارتفع شأنه، وعلت مكانته في ذلك العصر، وكان مقرباً من الخلفاء ورجال الدولة، قوي الصلة بهم، وكان يحضر مجالس وعظه الخلفاء والملوك والأمراء والوزراء والعلماء، وجمع غفير من الناس، وكان قد تفرد بفن الوعظ، الذي لم يسبق إليه في طريقته وشكله، وفي فصاحته وبلاغته وعضوته، بحيث جمع المعاني الكثيرة في الكلمة اليسيرة، والذي يهمننا - هنا - هو توضيح مكانته لدى رجال الدولة في عصره، ومواقفه وجرأته في قول الحق؛ فقد سبق أنت ذكرت أنه ألف كتاب " النصر على مصر " وأهداه للخليفة المستضيء سنة (٥٦٧هـ) عندما انتهت دولة الفاطميين بمصر، وأقيمت الخطبة لبني العباس^(٢)، كما ألف كتاباً في سيرة الخليفة المستضيء؛ سماه "المصباح المضيء في خلافة المستضيء".

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٠/١٩٧)، ابن الأثير: الكامل (١١/٢٦٤)، السمعاني: الأنساب (٦/٢٤٧)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٢٠/٣١٧)، البغدادي: هدية العارفين (٢/٩٣)، الزركلي: العلام (٧/١٣٧).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (١٠/٢٣٧)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢/٢٦٤).

وكان الخلفاء يكلفونه ببعض المهمات والأعمال؛ التي تتعلق بأهل البدع والأهواء الضالة؛ فعندما كثر الرفض، وتكلم أصحاب البدع، وزاد نشاطهم سنة (٥٧١هـ) كتب الخليفة بتقوية يد ابن الجوزي في إزالة البدع والمنكرات والقبض على من يسب الصحابة -رضي الله عنهم- من الروافض، ومعاقبته بأشد العقوبات^(١)؛ مما يؤكد مكانته لدى الخلفاء واحترامهم له، وتأثرهم بمجالس وعظه؛ حيث كانوا يحضرون تلك المجالس، ويستمعون لحديثه، وعلى الرغم من تلك العلاقة الوطيدة والصلة الوثيقة؛ التي كانت تربط ابن الجوزي بالخلفاء ورجال الدولة آنذاك، له مواقف جريئة تدل على التزامه الصدق، وجرأته في قول الحق، لا تأخذه في الله لومة لائم؛ فمن تلك المواقف عندما تحدث في مستهل سنة (٥٧٤هـ) في مجلس الوعظ، وحضر أمير المؤمنين الخليفة المستضيء تكلم ابن الجوزي وقال: " لو أني مثلت بين يدي السدة الشريفة لقلت: يا أمير المؤمنين، كن لله سبحانه مع حاجتك إليه، كما كان لك مع غناه عنك، إنه لم يجعل أحداً فوقك، فلا ترضى أن يكون أحداً أشكر منك "^(٢).

فتأثر الخليفة بتلك الموعظة الموجزة المؤثرة، وتصدق بصدقات كثيرة

عقب انتهاء المجلس^(٣).

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٥٩/١٠).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (٢٨٣/١٠).

(٣) نفسه (٢٨٣/١٠).

وتذكر المصادر -أيضاً- موقفاً له مع الخليفة المستضيء-على الرغم من صلته القوية به- حيث التفت إليه مرة؛ وهو في الوعظ، فقال: " يا أمير المؤمنين؛ إن تكلمت خفت منك، وإن سكت خفت عليك، وإن قول القائل لك: اتق الله، خير لك من قوله لكم: إنكم أهل بيت مغفور لكم، كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إذا بلغني عن عامل لي أنه ظلم؛ فلم أغیره؛ فأنا الظالم، يا أمير المؤمنين؛ كان يوسف -عليه السلام- لا يشبع في زمن القحط؛ حتى لا ينسى الجائع، وكان عمر رضي الله عنه يضرب بطنه عام الرمادة، ويقول قرراً أو لا تقررأ، والله لا ذاق عمر سمناً ولا سميئاً حتى ينجب الناس" (١).

ويقول ابن كثير: " فبكى المستضيء، وتصدق بمال كثير، وأطلق الحاييس، وكسا خلقاً من الفقراء" (٢).

ومثل هذه المواقف تؤكد جرأة ابن الجوزي في قول الحق، وعدم المداهنة في ذلك، والحرص على استغلال العلاقة؛ التي تربطه برجال الدولة بتذكيرهم بالله تعالى، وحثهم على العدل في الرعية، ومتابعة عمالهم وولاتهم، وتحذيرهم من الظلم وعواقبه السيئة، ولاشك أن مثل هذه المواعظ والنصائح والتوجيهات ستترك أثرها الكبير في الحكام؛ الأمر الذي سيعود -بمشيئة الله- بالخير والمنفعة والمصلحة العامة للمسلمين.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (٢٩/١٣).

(٢) نفسه (٢٩/١٣).

ومن هنا تتضح آثار تلك العلاقة؛ التي تربط العلماء برجال الدولة في المجتمع الإسلامي؛ حيث تتضافر الجهود، وتتوحد الأهداف؛ التي أدت إلى الحفاظ على كيان أهل السنة في ذلك العصر.

وكان العالم القاضي محمد بن واثق بن علي بن الفضل بن فضلان البغدادي (ت: ٦٣١هـ)^(١) يحظى بمكانة عالية، واحترام كبير، لدى رجال الدولة في العصر السلجوقي؛ حيث ولّاه الخليفة الناصر لدين الله قضاء القضاة، ويتضح من المرسوم؛ الذي أصدره الخليفة الناصر بتقليده ذلك المنصب مدى الاحترام والتقدير والمكانة التي يُكَنِّها له، والاعتراف بفضله وعلمه وحسن سيرته وسلامة مقصده، ومن جملة ما ورد في ذلك المرسوم ما يلي: " هذا ما عهد عبد الله وخليفته في العالمين، المفترض الطاعة على الخلق أجمعين، أبو العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين إلى محمد بن يحيى بن فضلان حين سبر خلاله واستقراها، واعتبر طرائقه واستيراها، فألفاه رشيداً في مذاهبه، سديداً في أفعاله وضرائبه، موسوماً بالرصانة، حالياً بالورع والديانة، مبرزاً من العلوم في فنونها، عالماً بمفروض الشريعة المطهرة ومسنونها، مدرعاً ملابس العفاف، قد أناف على أمثاله في بوارع الأوصاف، فقلده قضاء القضاة في مدينة السلام وجميع البلاد والأعمال والنواحي والأمصار شرقاً وغرباً، وبعداً وقرباً، سكوناً إلى ما

(١) الذهبي: العبر (٢١١/٣)، اليافعي: مرآة الجنان (٧٥/٤)، السبكي: طبقات الشافعية

الكبرى (١٠٧/٨)، ابن العماد: شذرات الذهب (١٤٦/٤).

علم من حاله، واضطلاعه بالنهضة المنوطة به واستقلاله، وركونًا إلى قيامه بالواجب فيما أسند إليه، ونهوضه بعبء ما عول في حفظ قوانينه عليه...^(١).

كما أصدر الخليفة الناصر لدين الله توقيعًا بالتدريس في المدرسة النظامية ببغداد للقاضي محمد بن فضلان البغدادي سنة (٤٦١ هـ)، ومن المفيد إيراده -هنا- للتدليل على مكانة العلماء عند الخلفاء ورجال الدولة في ذلك العصر؛ حيث يقول فيه: "أحقّ من أفيضت عليه مجاسد النعم، وجذب بصنيعه إلى مقام التنويه وتقدم القدم، من أسفر في أفضية الفضائل صباحه، وانتشر -في العالم- علمه، وازدهر مصباحه، ولما كان الأجل الأوحده العالم محي الدين حجة الإسلام رئيس الأصحاب، مفيد العلوم، أبو عبد الله محمد بن يحيى بن فضلان -أدام الله رفعتة- ممن نظم فرائد المحامد عقده النضيد، وآوى من العالم والعمل إلى ركنٍ شديد، وثبتت قدمه في الديانة على مستثبت راسخ وقرار مهيد، رؤي التعويل في تفويض التدريس بالمدرسة النظامية إليه؛ ثقة باضطلاعه واستقلاله، وتبريزه في

(١) الفلقشندي: صبح الأعشى (١٠/٢٨٦-٢٩١)، محمد حمادة: الوثائق الإدارية والسياسية العائدة للعصور العباسية المتتابعة ص (١٨١-١٨٧).

حلبات الاستباق على نظرائه وأمثاله، وأسند إليه النظر في أوقات المدرسة المذكورة بأجمعها، سكوناً إلى كفايته، وركوناً إلى سداه وأمانته...^(١).
يتضح لنا - من خلال هذين النصين - مكانة ابن فضلان عند خلفاء بني العباس، الأمر الذي يؤكد تقرب الخلفاء ورجال الدولة للعلماء وأصحاب الفكر والكلمة والنظر، وتقليدهم المناصب العليا في الدولة؛ لما لهم من أثر كبير وأهمية عظيمة في المجتمع الإسلامي؛ الذي يحتاج كثيراً لمثل هؤلاء العلماء العاملين المخلصين؛ الذين يؤدون رسالتهم، ويقومون بواجبهم؛ ابتغاء مرضاة الله تعالى، وأداءً لرسالتهم العظيمة، وقياماً بواجبهم المنوط بهم، دون أن يتطلعوا لأهداف دنيوية أو أعراض شخصية أو نحو ذلك؛ وإنما يتطلعون لما أعده الله تعالى للعلماء العاملين المجاهدين من الأجر والثواب العظيم.

وهكذا ألقى الضوء - من خلال هذا الفصل - على اهتمامات الخلفاء والسلاطين والوزراء العلمية، ومواهبهم الأدبية، وعلاقتهم بالعلم، وحبهم له، والاستزادة منه، وتأثرهم بمجالسة العلماء والأدباء، والعلاقة الوطيدة، والصلة الوثيقة؛ التي كانت تربط رجال الدولة بعلماء عصرهم، وما ترتب عليها من آثار عظيمة من المجتمع الإسلامي، أدت إلى الحفاظ على كيان أهل السنة في العصر السلجوقي؛ لما تركته تلك النصائح

(١) القلقشندي: صبح الأعشى (١٠/٢٩٢-٢٩٣)، محمد حمادة: الوثائق الإدارية والسياسية ص (٢٣٧-٢٣٨).

والمواعظ والمؤلفات من أثر عظيمٍ في نفوس رجال الدولة من جهة، والمجتمع بصفة عامة من جهة أخرى، كما تطرقتُ لمواقف بعض العلماء مع رجال الدولة في عصرهم؛ رغم تلك الصلة والعلاقة؛ التي كانت تجتمعهم، وتؤكد تلك المواقف صلابة العلماء في التمسك بدينهم، والتزامهم الصدق، وجرأتهم في قول الحق، وعدم الخشية إلا من الله تعالى.

ومن الجدير بالذكر أن الحكام ورجال الدولة في ذلك العصر كانوا يستجيبون لمقالة العالم الصادق، ويمثلون تلك التوجيهات والنصائح، ويتبع تلك الاستجابة والامتثال الإكرام والتقدير وتوثيق الصلة؛ لأنّ النصيحة للحكام فيها الخير كل الخير لهم، ولمن يتولون أمرهم، والنصيحة -أحياناً- لا تخلو من شدة في الكلام، وتخويف بالله المنتقم الجبار؛ كما يتضح ذلك من خلال النماذج؛ التي ذكرتها سابقاً، ويمثل تلك النصائح والمواعظ المخلصة النابعة من قلوب مؤمنة، تعاون الجميع، وتضافرت جهودهم؛ للحفاظ على كيان أهل السنة في ذلك العصر، والتصدي -بقوة- تجاه التيارات الفكرية المنحرفة؛ التي كادت أن تعصف بالمسلمين، وتؤثر عليهم في دينهم وعقيدتهم.

والحقيقة أن الخلفاء ورجال الدولة -عموماً- لم تكن تضيق صدورهم بتلك النصائح والمواعظ والتوجيهات؛ بل كانوا يصغون إليها، ويتأثرون بها، ويكرمون أصحابها؛ ولذلك فقد حصل بهم خير كثير للإسلام، وفضل عظيم للمسلمين؛ فكانوا نعم الحكام، ونعم العلماء؛ لأنّ الجميع كانوا يتطلعون إلى هدفٍ واحدٍ مشترك؛ وهو رعاية الأمة

الإسلامية على أساس شرع الله، وإقامة حكم القرآن الكريم، والحفاظ على كيان أهل السنة ووحدة المسلمين، ضد الذين يحاولون النيل من المسلمين والتربص بهم، ولكن أتى لهم ذلك بفضل الله تعالى، ثم بفضل أولئك العلماء؛ الذين لقوا كل دعمٍ وتأيدٍ من الحكام ورجال الدولة في عصرهم؛ الأمر الذي أدى إلى تحقيق الخير، وإقامة العدل واستمراره، ودوام ذلك لأبناء الأمة الإسلامية؛ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾^(١)، وليس هناك تعاون أسمى وأنفع من تعاون العلماء مع الحكام على رعاية مصالح الأمة على أساس من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ولكي تتحقق هذه الرعاية بأجلى صورها وأسمى معانيها بحول الله وقوته.

(١) سورة المائدة، آية (٢).

الباب الثالث

"جهود العلماء والولاة في إعادة السنة
والحفاظ عليها في بلاد الشام ومصر في العصر
السلجوقي"

الفصل الأول: جهود الولاية في الحفاظ على السنة
والقضاء على المذهب الشيعي في بلاد الشام ومصر في
العصر السلجوقي.

الفصل الثاني: دور المدارس في انتعاش المذهب السني
وانتشاره في بلاد الشام ومصر في ذلك العصر.

الفصل الثالث: جهود العلماء في الحفاظ على السنة
ومحاربة التيارات الفكرية المنحرفة في بلاد الشام ومصر في
العصر السلجوقي.

الفصل الأول

"جهود الولاية في الحفاظ على السنة

والقضاء على المذهب الشيعي في بلاد

الشام ومصر في العصر السلجوقي"

الفصل الأول

"جهود الولاية في الحفاظ على السنة والقضاء على المذهب الشيعي في بلاد الشام ومصر في العصر السلجوقي"

من المناسب قبل الشروع في توضيح الجهود التي قام بها العلماء والولاية في الحفاظ على السنة والقضاء على المذهب الشيعي في بلاد الشام ومصر في العصر السلجوقي (٤٤٧-٥٩٠ هـ) أن أوضح -بشيء من الاختصار- الوضع الجغرافي والسكاني لبلاد الشام، قبل قدوم السلاجقة إليها، وكيف أتاحت الفرصة لهم للوصول إلى هذه المنطقة، والاستقرار فيها؛ ردحًا من الزمن.

فبلاد الشام تشمل خمسة أجناد؛ هي: جند قنسرين^(١)، وجند دمشق، وجند الأردن، وجند فلسطين، وجند حمص، أما حدودها؛ فيحدها -من الغرب- بحر الروم (البحر المتوسط)، ومن الشرق: بادية الشام، ومن الشمال: بلاد الروم، ومن الجنوب: مصر^(٢).

(١) قنسرين: مدينة في شمال الشام بين حلب وحمص. ياقوت: معجم البلدان (٤٠٣/٤).

(٢) انظر: ياقوت: معجم البلدان (٣١١/٣)، إرشاد يوسف: سلاجقة الشام والجزيرة ص (٧٢)، ملكة أبيض: التربية والثقافة العربية الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة ص(٥٤).

والأجناد الأربعة المذكورة الأولى فقد أوجدها الخليفة الراشد أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذين نظم جند فتح الشام، أما الجند الخامس فقد فصله الخليفة الأموي يزيد بن معاوية عن جند حمص، وجعله جندا مستقلا^(١).

أما السكان: فقد كان يسكن بلاد الشام في أوائل القرن الخامس الهجري؛ أي: قبل قدوم السلاجقة؛ قبائل عربية أقامت فيها إمارات متعددة، وقد تذبذبت زعامات هذه القبائل في ولائها بين العباسيين والفاطميين؛ حسب مصالحهم الخاصة وعقائدهم الدينية، إضافة للتفوق الذي تظهره هاتان القوتان في سائر أنحاء الشام، وقد كان أبناء هذه القبائل العربية منقسمين على أنفسهم؛ الأمر الذي أتاح للسلاجقة القدوم إلى هذه المنطقة، والسيطرة والاستقرار فيها، ثم استطاعوا -بعد ذلك- إقامة إمارات سلجوقية هناك على أنقاض الإمارات الفاطمية والعربية^(٢).

ومن تلك الزعامات القبلية في الشام؛ بنو عمار في طرابلس، وكانوا على مذهب الشيعة المواليين للفاطميين، وكذلك بنو كلاب، بقيادة

(١) ملكة أبيض: التربية والثقافة العربية الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة ص: (٥٤).

وجند: جمعها جنود وأجناد، وتجنّد: صار جندياً، واتخذ جنداً، وتجنّد للأمر؛ أي: تفرغ له، والجند؛ بمعنى التجمع، وجند؛ جمع معد للحرب، وهو -أيضاً- المدينة التي تجمع حولها كورا، ولم يستعمل هذا إلا في أجناد الشام. محمد فريد وحدي: دائرة معارف القرن العشرين (٣/١٧٦)، البستاني: دائرة المعارف (٥/٤٨٧).

(٢) إرشيد يوسف: سلاجقة الشام والجزيرة ص: (٧٢).

زعيمهم صالح بن مرداس الكلابي؛ الذي استطاع الاستيلاء على حلب الذي كان يتبع الخليفة الفاطمي، ويخطب له في بلاده^(١).

وكان السلاجقة قد ظهوروا في بلاد الشام عند ما دخلت جماعة من التركمان السلاجقة إلى الشام؛ بواسطة "عطية بن صالح المردي" الذي استعان بهم على ابن عمه "محمود بن نصر بن صالح المردي" سنة (٤٥٥هـ)، فاستطاع أن يستولي على حلب، ويرى البعض أن جموع التركمان؛ الذين دخلوا الشام والجزيرة قبل مجيء السلطان "طغرل بك" السلجوقي إلى بغداد سنة (٤٤٧هـ)، الذي ثبت قواعد السلاجقة، وبسط نفوذهم على أقاليم كثيرة، كانوا -أي: التركمان- ضمن السلاجقة الذين هاجروا من تركستان إلى بلاد ما وراء النهر، ثم دخل بعضهم إلى خراسان وفارس، ولما أراد السلطان "طغرل بك" أن يحد من أعمالهم التخريبية خاصة بعد مراسلة الخليفة العباسي القائم بأمر الله له، تفرق هؤلاء التركمان؛ فدخل بعضهم إلى الجزيرة والشام، فاستقروا بها، وكان ذلك قبل الحملات المنظمة؛ التي قام بها سلاطين السلاجقة إلى الشام^(٢).

(١) ابن النديم: زبدة الحلب (١/٢٣٢)، سهيل زكار: مدخل إلى تاريخ الحروب

الصليبية ص (٧٦)، إرشيد يوسف: سلاجقة الشام والجزيرة ص (٧٢).

(٢) إرشيد يوسف: سلاجقة الشام والجزيرة ص (٧٢-٧٤).

بينما يرى البعض الآخر أن هجرات أخرى من التركمان دخلت بلاد الشام على شكل جماعات متنقلة كانت تعتمد على النهب والسلب في طريقها، وقد لقي منهم أهل الشام عنتاً كبيراً، وقد استقر البعض منهم في الشام؛ بينما عبر آخرون منهم إلى بلاد الروم^(١).

ومهما يكن من أمر فإن النشاط السلجوقي، واستقراره في بلاد الشام، لم يبدأ إلا بعد حملة السلطان "ألب أرسلان" السلجوقي على بلاد الشام سنة (٤٦٢هـ) الذي بدأ بالاستيلاء على حلب سنة ٤٦٣هـ، وأنهى دولة بني مرداس، كما اتجه إلى مدينة الرملة وبيت المقدس؛ فانتزعهما من الفاطميين بمساعدة بعض أمراء التركمان؛ مثل: "أتسزبن أوق الخوارزمي" الذي قصد مدينة دمشق وحاصرها، ولكنه لم يستطع دخولها^(٢) وبعد عدة محاولات دامت ما يقرب من خمس سنوات تم له فتحها سنة (٤٦٨هـ)، في عهد السلطان "ملكشاه" السلجوقي الذي عين أخاه "تنش بن ألب أرسلان" ملكاً على بلاد الشام، وجعل حكمها

(١) إرشيد يوسف: سلاجقة الشام والجزيرة ص (٧٥)، ومن هؤلاء المؤرخين: سبط ابن الجوزي؛ مرآة الزمان (٥٩/١)، وما بعدها، وابن النديم: زبدة الحلب (٩/٢-١١).
 (٢) ابن الأثير: الكامل (٦٤/١٠)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (٣٦-٣٧)، أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر (١٨٧/٢)، القرماني: أخبار الدول وآثار الأول ص (٢٨٧)، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة (٨٧/٥)، العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص (١٨٤-١٨٥).

وراثياً في بيته، وبذلك قامت -في دمشق- دولة سلاجقة الشام؛ التي منعت أي تقدم من جانب الفاطميين في مصر نحو الشام^(١).
ومعلوم أن الدولة السلجوقية بلغت -في عهد السلطان ملكشاه- أقصى اتساعها وقوتها؛ فامتدت حدودها من بلاد ما وراء النهر شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً، وشمل سلطاتها -بالإضافة إلى خراسان والعراق- بلاد الشام^(٢).

وبعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ، تولى ابنه "بركياروق" السلطنة، وبدأت في عهده المنازعات والحروب الداخلية بينه وبين إخوته وأعمامه؛ مما أدى إلى تفكك الدولة؛ فظهر العديد من البيوت السلجوقية الحاكمة؛ مثل سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، وسلاجقة الشام، وسلاجقة العراق وفارس، ثم ظهرت الأتابكيات؛ التي أخذت تحل محل السلاجقة، كما حدث في دمشق على يد الأتابك طغتكين، والموصل

(١) ابن الأثير: الكامل (١١١/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (١١٢/١٢)، عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص: (٧٠).

(٢) السامرائي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي ص: (٢٢٥)، العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص: (١٨٩)، سهيل زكار: تاريخ العرب والإسلام ص: (٣٣٢)، علي الغامدي: بلاد الشام في الغزو المغولي ص: (٣٥).

وحلب على يد عماد الدين زنكي، وأتابكية الجزيرة، وأتابكية ديار بكر^(١)، وهكذا.

وعلى أية حال؛ فالذي يهمنا هو توضيح جهود الولاة والسلاطين في الحفاظ على السنة، والقضاء على المذهب الشيعي؛ الذي كان منتشرًا في الشام؛ حيث كان الأكثرية من سكان بلاد الشام يدينون بالمذهب الإسماعيلي الباطني؛ وذلك في منتصف القرن الخامس الهجري؛ أي: عند وصول النفوذ السلجوقي إلى الشام؛ وهذا ما يؤكد المؤرخ ابن الأثير وغيره؛ حيث يقول في حوادث سنة ٤٦٣هـ، ما نصه: "في هذه السنة خطب محمود بن صالح بن مرداس بحلب لأمر المؤمنين، القائم بأمر الله، والسلطان ألب أرسلان، وسب ذلك؛ أنه رأى إقبال دولة السلطان وقوتها، وانتشار دعوتها؛ فجمع أهل حلب، وقال: هذه دولة جديدة، ومملكة شديدة، ونحن تحت الخوف منهم، وهم يستحلون دماءكم؛ لأجل مذاهبكم، والرأي أن نقيم الخطبة، قبل أن يأتي وقت لا ينفعنا فيه قول ولا بذل" فأجاب المشايخ إلى ذلك، ولبس المؤذنون السواد، وخطبوا للقائم بأمر الله، والسلطان -أي: ألب أرسلان السلجوقي- فأخذت

(١) ابن الأثير: الكامل (٢١٥/١٠)، وما بعدها، العدوي: التاريخ الإسلامي ص (٣٥٧)، علي الغامدي: بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ص (٣٥-٣٦)، سهيل زكار: تاريخ العرب والإسلام ص (٣٣٥).

العامة حصر الجامع، وقالوا: هذه حصر علي بن أبي طالب؛ فليات أبو بكر مُحصر يصلي عليها الناس" (١).

وفي رواية الذهبي ما نصه: "في سنة ٤٦٣ هـ، أقام صاحب حلب محمود بن صالح الكلابي الخطبة العباسية، وقال للحلبيين: هذه دولة عظيمة نخافها؛ وهم يستحلون دماءكم للتشيع؛ فأجابوا ولبس الخطيب السواد، وأخذت رعا ع الرافضة حصر الجامع، وقالوا: هذه حصر الإمام علي؛ فليات أبو بكر بحصره...." (٢).

ولا شك أن هذا النص الصريح من صاحب حلب يعطينا دلالة واضحة أن عامة السكان في بلاد الشام قد تأثروا كثيراً بالمذهب الشيعي الإسماعيلي الباطني؛ الذي كان له أتباع وأعوان في شتى الأقطار آنذاك؛ حيث انتشرت الباطنية^(٣) بشكل واسع في منتصف القرن الخامس الهجري وأواخره على يد زعيمهم الحسن الصباح^(٤)؛ الذي اعتنق تعاليم الإسماعيلية، وكان يعمل لمناصرة الدعوة الفاطمية، وقد دعا للخليفة

(١) ابن الأثير: الكامل (٦٣/١٠)، وانظر: أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر:

(٢/١٨٦)، وابن كثير: البداية والنهاية (١٠١/١٢)، وقد تقدمت ترجمة صاحب

حلب محمود الكلابي ص (٢٦١).

(٢) الذهبي: العبر في خير من غير (٣١٣/٢).

(٣) تقدم الحديث عن الباطنية ونسأتمهم ومعتقداتهم وفرقهم وقلاعهم في الفصل الثالث

من الباب الأول من الرسالة ص (٢٦٣) وما بعدها.

(٤) تقدمت ترجمته ص: (٤٩٦).

المستنصر الفاطمي، ثم دعا لولده نزار بن المستنصر من بعده، مخالفًا - في ذلك - الدعوة الفاطمية في القاهرة؛ التي أجمعت على المستعلي بن المستنصر؛ ولهذا عرفت دعوته باسم الإسماعيلية النزارية؛ لاعتقاد جماعتها بحق "نزار بن المستنصر بالله" في الإمامة، وعرف أنصارها بذلك، ومنهم فئة الحشيشية أو الحشاشيين أو الفداوية^(١).

وكان الحسن الصباح - كما تقدم - على اتصال بالخليفة المستنصر بالله الفاطمي في مصر سنة (٤٧١هـ)، واتفق معه أن يدعو للفاطميين في الولايات الإسلامية، فعاد من مصر، وطاف بالشام - وهذا ما يهمنا هنا - والجزيرة، ثم استقر به المقام في أصفهان، وأسس لنفسه قلعة آلموت سنة (٤٨٣هـ)، وهذا الاتفاق بين الحسن والصباح والخليفة الفاطمي المستنصر؛ جاء في فترة التفوق والقوة؛ التي أحرزها سلاطين السلاجقة في الشام والجزيرة على حساب الفاطميين؛ لاسيما بعد مقتل البساسيري؛

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٢٠/٩)، ابن الأثير: الكامل (٣١٣/١٠)، الذهبي: العبر (٣٦٩/٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٥٩/١٢)، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص (٣٤٠)، العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص (١٩٢)، أحمد جلي: دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين ص (٢٣٢).

الذي كان يعمل لصالح الفاطميين، وقد فشلت حركته أمام المد السلجوقي؛ المتحالف مع العباسيين^(١).

وعلى أية حال؛ فقد انتشرت الباطنية في الشام، وتضاعف نشاطها في تبليغ معتقداتها، حتى استولوا على كثير من النواحي والقلاع، وخافهم الناس؛ لكثرة ما يتعرضون لهم بالأذى والقتل، فاستطاعوا أن يوسعوا دائرة نفوذهم واتساعهم بعد أن كان مقتصرًا على بلاد المشرق، وخاصة أصفهان وطبرستان، وغيرهما، ثم أصبح نشاطهم يهدد العراق؛ ولكنهم لم يكتفوا بذلك؛ بل امتد نفوذهم إلى الشام؛ حيث أصبحوا يشكلون قوة كبيرة؛ لها أثرها القوي في الشام، وأصبح لهم دعاة وأتباع، وكانت الظروف المحيطة بالشام تساعدهم على تحقيق أهدافهم؛ فاستطاعوا أن يحصلوا على حصن أفاميه (نواحي حلب) وحصن سرمين، وغيرها^(٢)، ولا شك أن ذلك كله لم يكن ليتم ويتحقق لهم مرادهم؛ لولا قدرة الله تعالى، ثم مساعدة بعض الأمراء، والوزراء، كالأمر رضوان بن تمش

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٢٠/٩)، أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر (٢٠٠/٢)، وقد تقدم الحديث عن البساسيري وفتنته، ومقتله في الفصل الأول من الباب الأول من الرسالة ص (١١٤) وما بعدها.

(٢) ابن الأثير: الكامل (٦٣٢/١٠ - ٦٥٦)، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص (١٤٩)، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص (٢٧٨)، وقد تقدم التعريف بهذه القلاع في الفصل الثالث من الباب الأول من الرسالة، عند الحديث عن الباطنية.

السلجوقي^(١)؛ الذي استعان بهم في حلب، وتستر عليهم وشجعهم وسمح لهم بحرية العمل، وكان على رأس هؤلاء الباطنية في حلب الداعية الباطني "الحكيم المنجم"؛ الذي وجهه الحسن الصباح إلى حلب في أوائل عهد رضوان السلجوقي (٤٨٨ - ٥٠٧ هـ)؛ الذي تودد إلى رضوان واستماله إليه حتى سمح له بنشر الدعوة الباطنية وأفكارها ومعتقداتها، وذلك بسماحة لهم ببناء دار دعوة لمذهبهم في حلب، على الرغم من نصائح الأمراء له بالتراجع عن دعم الباطنية، وتأييدهم، ودعمهم؛ لتحقيق مصالحه الشخصية والسياسية^(٢)، وهذا ما جعل أتباعهم، وأعداءهم في زيادة شريعة بالشام؛ لاسيما بعد منتصف القرن الخامس الهجري؛ الذي يمثل قوتهم وزيادة نفوذهم؛ الأمر الذي أدى بهم أن يقوموا بقتل من يحاول التضييق عليهم، أو مقاتلتهم، أو التحريض ضدهم، ومجاهدتهم في الشام، كما فعلوا مع صاحب حمص "جناح الدولة حسين" الذي كان من المحرضين ضد الباطنية؛ فانكشف أمره لهم، فبدأ الحكيم المنجم-الداعية الباطني في حلب- يحرض رضوان بن تتش عليه؛ حتى أقنعه بأنه يخطط

(١) يقول ابن الأثير عنه: "وكانت أمور رضوان غير محمودة، وكان يستعين بالباطنية في كثير من أموره لقلّة دينه، وكان الباطنية قد كثروا بحلب في أيامه". انظر: الكامل في التاريخ (٤٩٩/١٠).

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب (١٤٦/٢ - ١٤٧)، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص (١٤١)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣١٥/١٩)، مسفر الغامدي: الجهاد ضد الصليبيين ص (٩٥).

للاستيلاء على حلب، فاتفقا على التخلص منه، فتقدم له ثلاثة من الباطنية فقتلوه في حمص، في شهر رجب سنة (٤٩٦هـ)، بينما كان يهيم بالدخول إلى المسجد؛ لأداء صلاة الجمعة^(١)، فكتب الله له تلك الخاتمة الحسنة- إن شاء الله- على أيديهم؛ وهذا يؤكد لنا بداية الجهود ضد النشاط الشيعي الإسماعيلي الباطني في الشام، وعندما لاحظ سلاطين السلاجقة، وأمراء الشام النشاط الشيعي -هناك- في نماء وزيادة؛ خاصة في ظل تملك الباطنية لتلك القلاع والحصون والنواحي، وسيطرتهم عليها، ومن ثم بثّ أفكارهم ومعتقداتهم للناس، رأوا أن من الواجب السديني عليهم أمام الله تعالى؛ أن يقوموا بمجاهدتهم، والوقوف ضدهم بكل ما أوتوا من قوة؛ لكي يضعفوا قوتهم، ويحدوا من انتشار مذهبهم، وفكرهم؛ المنحرف، فقام أولئك السلاطين، والأمراء بجهود ومواقف عظيمة أدت - في النهاية- إلى تحول في ميزان القوى، ومن ثم إعادة المذهب السني إلى سابق عهده، والحفاظ عليه في بلاد الشام، وترسيخ عقيدة أهل السنة في النفوس؛ بفضل من الله وتوفيقه.

فمن هذه الجهود والمواقف؛ ما قام به السلطان "ألب أرسلان السلجوقي" الذي حمل على نفسه الجهاد ضد أهل الأفكار المنحرفة

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص (١٤٢)، أبو الفداء: المختصر (٢/٢١٦)،

سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (١/٣٩١)، ويذكر أن وفاته سنة (٤٩٥هـ).

والتيارات الباطلة، وكذلك جهاد أعداء المسلمين من الروم وغيرهم؛ حيث يُعدُّ من أبرز السلاطين السلاجقة في هذا الجانب.

وموقفه الذي يهمننا -هنا- هو ما حدث سنة (٤٦٣هـ)، عندما وصل السلطان ألب أرسلان إلى حلب، وكان أميرها "محمود بن صالح المرדاسي الكلابي" الذي سبق وأن أوضح أنه خطب للخليفة القائم بأمر الله، وللسلطان ألب أرسلان بحلب، عندما أخبرهم بقوة الدولة الجديدة؛ فطلب هذا الأمير من مندوب الخلافة؛ وهو: "طراد بن محمد الزبيني" أن يخرج إلى السلطان؛ ليعفيه من الحضور عنده، والمثول بين يديه؛ فخرج نقيب النقباء، وأخبر السلطان ألب أرسلان بأنه -أي: أمير حلب- قد لبس الخلع القائمية وخطب؛ فقال السلطان ألب أرسلان: "أي شيء تساوي خطبتهم وهم يؤذنون: حي على خير العمل؟"، ولا بد من الحضور ودوس بساطي هذا".

فامتنع محمود من ذلك؛ فاشتد الحصار والتضييق على البلد، وغلت الأسعار، وعظم القتال، وزحف السلطان يوماً، واقترب من البلد، فلما عظم الأمر على محمود، خرج ليلاً ومعه والدته "منيعة بنت وثاب النمري" فدخلتا على السلطان، وقالت له: هذا ولدي فافعل به ما تحب؛ فتلقاهما

بالجميل، وخلع على محمود، وأعادته إلى بلده^(١).

ولا شك أن هذا الموقف من السلطان السلجوقي ألب أرسلان يدل دلالة واضحة على نصره السلاطين السلاجقة، ودعمهم المذهب السنّي، ومحاولتهم الجادة في تقويض الفكر الشيعي، ووقوفهم -بقوة- أمام تلك التيارات الباطلة، والأفكار المنحرفة، والفرق الضالة؛ وهذا الموقف العظيم له تأثيره المباشر والبعيد على الشيعة بصفة عامة في الشام؛ لأنهم رأوا أن الموقف اختلف كثيراً في العصر السلجوقي عنه في العصر البويهي الشيعي؛ بحكم دعم البويهيين الشيعة لمعتقدات الشيعة وأفكارهم، وتأيدهم لهم؛ وذلك لانتمائهم للمذهب الشيعي، أما العصر السلجوقي؛ فقد تبدلت الأحوال، واختلفت الأمور، وضربت القوى الشيعية في الشام^(٢)، واستعاد المذهب السنّي كيانه وقوته، والحفاظ عليه، بفضل من الله تعالى، ثم بفضل تلك الجهود والمواقف؛ التي كان يقف خلفها أولئك الرجال العظام المخلصون لله تعالى، المجاهدون في سبيله، والذين قاموا بواجبهم المنوط بهم

(١) ابن الأثير: الكامل (٦٤/١٠)، النبداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص: (٣٦-٣٧)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٦٩/٥)، أبو الفداء: المختصر (١٨٦/٢-١٨٧)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٠١/١٢).

(٢) كان ألب أرسلان السلجوقي يهدف من تحركاته وجهوده في بلاد الشام إلى ضرب القوى الشيعية قبل التوجه إلى آسيا الصغرى لجهاد الروم البيزنطيين؛ كي لا تجتمع تلك القوى لمحاربة المسلمين، وتشكل خطراً عليهم. انظر: العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص: (٢٥٦-٢٥٧).

خير قيام، على قدر استطاعتهم، والظروف المحيطة بهم، وأقصد بذلك سلاطين السلاجقة والخلفاء العباسيين، وأمراء الشام؛ كما سيأتي توضيحه -إن شاء الله- لاحقاً.

ومع ذلك كله، وعلى الرغم من تلك الجهود والمواقف، إلا أن الباطنية -على وجه التحديد- كان لهم نشاط قوي؛ حيث عظم نفوذهم، واتسعت أعمالهم، واستفحل أمرهم، وكثرت قلاعهم وحصونهم وأتباعهم، ومما يجب توضيحه -هنا- أن بعض المؤرخين يرى أن سلاطين السلاجقة وأمراءهم في الشام؛ قد آووا هذه الفئة الخطيرة على الإسلام والمسلمين، وتستروا عليها، واستخدموا رجالها أدوات مباشرة لاغتيال وتصفية معارضيتهم لمصالحهم السياسية، وتثبيت دعائم ملكهم -كما يتصورون- الأمر الذي أدى إلى تمكنهم وتأثيرهم وسيطرتهم على مجريات الأمور والأحداث ردحاً من الزمن؛ كما أوضحت ذلك عند الحديث عن "رضوان بن تتش السلجوقي" صاحب حلب، واستعانته بهم وتشجيعهم، والسماح لهم بنشر دعوتهم.

كذلك ما قام به "إيغازي بن أرتق" صاحب حلب الذي راسل "طغتكين" صاحب دمشق، وطلب منه أن يسمح للباطنية بنشر دعوتهم، والاستعانة بهم عند الضرورة؛ فرحب برأيه، وقبله، وسمح لأحد أكبر دعائهم بالشام؛ وهو: "بهرام بن موسى الاسترابادي" بنشر دعوته بين عوام الناس؛ فتبعه خلق كثير منهم، وأذن له طغتكين بالإقامة في دمشق، وقد كان المساعد والمعين له في ذلك الوزير "أبو علي طاهر بن سعد المزدغاني"



وزير طغتكين؛ الذي أشار على صاحب دمشق طغتكين؛ بأن يسلم لبهرام قلعة "بانياس" فتسلمها، واجتمع الباطنية بها؛ فزاد نفوذهم وأنصارهم من الفلاحين وعوام الناس؛ حيث استهوتهم أباطيله؛ حتى كثروا في الشام، وعظم خطرهم، واستفحل أمرهم، وخافهم الناس^(١)؛ فاشتد الحال كثيراً على الفقهاء والعلماء، وأهل السنة إجمالاً.

ولم يكن الوزير المزدغاني هو الوزير الوحيد؛ الذي مال مع الباطنية، وشجعهم وساعدهم؛ بل هناك بعض الوزراء قبله، وإن كانوا خارج الشام، إلا أنهم لعبوا نفس الدور والتأثير؛ كالوزير "سعد الملك أبو المحاسن الآبي" الذي تأمر مع الباطنية على قتل السلطان محمد السلجوقي؛ الذي يحاصر قلعة (شاه دز)، وكان صاحبها "أحمد بن عبد الملك بن عطاش" الزعيم الباطني الشهير الذي تتلمذ على يديه "الحسن الصباح"، وكان هدفه من هذا التآمر فك الحصار عن القلعة، ولم يتوقع السلطان محمد أبداً أن يكون وزيره المذكور أحد المتتمين لمذهب الباطنية؛ كما ذكر بعض المؤرخين، وأن يكون من المتعاونين معهم ضد السلاجقة السنة، ولكن -بعد انكشاف الأمر والمؤامرة- قبض عليه السلطان محمد، وصلب على باب أصفهان، ومما يؤكد ما ذكرناه هو أنه بعد مقتل هذا الوزير يومين

(١) ابن القلاشي: ذيل تاريخ دمشق ص: (٢١٥) وما بعدها، ابن الأثير: الكامل

فقط؛ سقطت القلعة؛ حيث كان من بين أسباب صمودها ومقاومتها؛ نظراً لوجوده في ذلك المنصب المهم؛ وهو الوزارة^(١).

كذلك اهتم الوزير "محمد الملك البلاساني" وزير السلطان السلجوقي "بركياروق" حيث ذكر أن من أسباب مقتله هو اتهامه بدفع الباطنية لقتل بعض الخصوم إبان وزارته^(٢)، وقد ذكر عنه الذهبي "أنه كان يعتضد بالباطنية"^(٣).

وعلى كل فقد ظل الباطنية في عهد طغتكين صاحب دمشق، وكذلك في عهد إيغازي بن أرتق صاحب حلب (٥١١-٥١٦هـ) يعملون بجرية تامة، ومجال واسع؛ نظير تلك المساعدات والتسهيلات؛ التي قاما بها، واستمر الحال كذلك حتى تولى "تاج الملوك بوري بن طغتكين" أمر دمشق بعد وفاة والده، الذي لم يكن مؤيداً تماماً سياسة أبيه مع الباطنية؛ لأنه يدرك مدى خطرهم وشرهم، وتأثير معتقداتهم على الناس، وكان له دور بارز وجهود عظيمة ضدهم - كما سيأتي إن شاء الله.

ونعود الآن لاستكمال جهود السلاطين السلاجقة وأمراء الشام من قبلهم ضد الباطنية، والحد من نشر مذهبهم ومعتقداتهم؛ وهو ما يهمنا -

(١) الراوندي: راحة الصدور ص: (٢٤٥)، الحسيني: العراضة ص: (٩١)، اليافعي:

مرآة الزمان (١٦٢/٣)، ابن خلدون: العبر (١٢٣/٤).

(٢) ابن الأثر: الكامل (٢٨٩/١٠).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٨٠/١٩).

هنا- فبعد وفاة "رضوان بن تتش السلجوقي" صاحب حلب سنة (٥٠٧هـ)، تولى ابنه ألب أرسلان مكانه؛ فقام السلطان السلجوقي "محمد بن ملكشاه" الذي تولى زعامة السلاجقة سنة (٤٩٨هـ)، فراسله وأوصاه بقتل الباطنية وتبعهم وعدم التهاون معهم؛ كما فعل والده من قبل، ومعلوم أن السلطان محمد قد تتبع الباطنية، وحاول القضاء عليهم في كل مكان؛ حيث هاجمهم مرات عدة في نواحي أصبهان، وضيق عليهم كثيراً، وسيطر على بعض قلاعهم، وقتل أحد أكبر زعمائهم؛ وهو "أحمد ابن عبد الملك بن عطاش" سنة (٥٠٠هـ).

فقام هذا السلطان العظيم ببعث كتاب إلى السلطان ألب أرسلان ابن رضوان يحثه -من خلاله- على قتال الباطنية؛ فقال له: "كان والدك يخالفني في الباطنية، وأنت ولدي فأحب أن تقتلهم"^(١).

وهذا يدل على إدراك السلطان محمد السلجوقي خطورة الباطنية العقديّة والعسكرية، ومحاولته الجادة في استئصالهم، والقضاء عليهم؛ كي لا يؤثروا على الناس في معتقداتهم؛ من خلال دعوتهم، ونشاطهم المضلل؛ وهي جهود عظيمة في هذا الجانب المهم، وقد قام السلطان ألب أرسلان؛ صاحب حلب؛ بامثال تلك الأوامر والتوجيهات وطاعة السلطان محمد في قتال الباطنية، ومحاوله القضاء عليهم في الشام؛ فقبض على بعض

(١) ابن النديم: زبدة الحلب (١٦٨/٢)، محمد ماهر حماده: وثائق السياسية والإدارية العائدة للعصور العباسية المتتابعة ص: (٤٥٠).

زعمائهم؛ ومنهم: "أخو الحكيم المنجم" الداعية الباطني، وقبض - كذلك- على "أبي طاهر الصائغ" فقتلهم، وأمر بمطاردة من تبقى منهم في حلب، فقتلوا وشردوا، ولم يبق منهم أحد في حلب خاصة؛ حيث تفرقوا في البلاد^(١).

وكان الباطنية -على الرغم من تتبعهم من قبل السلاطين السلاجقة والأمراء في الشام- إلا أنهم كانوا يتحينون الفرص لمواصلة نشاطهم، والسيطرة على بعض الحصون والقلاع؛ فمن ذلك ما حدث سنة (٥٠٧هـ)، عندما أفلت من مذبح حلب -المتقدمة- أحد مقدمي الباطنية؛ ويدعى "إبراهيم بن إسماعيل العجمي" الذي لجأ إلى شيراز- إحدى قلاع الشام- عند بني منقذ، ثم بدأ الاتصال بالباطنية في أفامية وسمرين ومعة النعمان، واتفق معهم على الاستيلاء على شيراز من بني منقذ، وحددوا لذلك يوم عيد الفصح عند النصارى؛ حين يخرج أهل الحصن خارجه لمشاهدة النصارى في عيدهم؛ فثار الباطنية على حين غفلة من أهله؛ فملكوا الحصن، واستولوا عليه، وأغلقوا أبوابه، إلا أن أصحاب الحصن أدركوا ذلك، وعادوا إليهم ليلاً؛ فكبروا عليهم وقاتلوه؛ فقتلوه

(١) ابن الأثير: الكامل (٤٩٩/١٠)، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص: (١٨٠)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٥٧٩/٢-٥٨٠)، ويذكر أنه (قتل أعيانهم، وحبس بعضهم، واستصفيت أموالهم، ومنهم من رمي من أعلى القلعة، ومنهم من خُنق وقتل، وهرب بعضهم إلى الفرنج). مرآة الزمان (٥٨٠/٢).

الفصل الأول: جهود الولاة في الحفاظ على السنة في بلاد الشام ومصر ١٠٠١

عن آخرهم، وقتلوا كل من كان على رأيهم في البلد من الباطنية؛ فلم يفلت منهم أحد، واستعادوا الحصن منهم^(١).

وهذا يؤكد أن عامة الناس - في الشام - كانوا يجذرون من الباطنية، ويناصبونها العدا، ويقاتلونهم؛ كلما سنحت الفرصة لهم؛ كما فعل بنو منقذ في الحادثة المتقدمة.

ومع هذا كله، وبالرغم من جهود السلاجقة وأمراء الشام وموافقهم العظيمة ضد هذه الطائفة الضالة، فقد عظم خطرهم في الشام ردحاً من الزمن؛ فكانوا سريعاً ما يعودون لسابق عهدهم من إقامة القلاع، وإحكام الحصون، والاعتداء على الناس، ومن ذلك ما حدث سنة (٥٢٣هـ—)، عندما اعتدى الباطنية على أهالي وادي التيم - من نواحي دمشق - فقتلوا مقدمهم "برق بن جندل"، فثار هؤلاء على الباطنية، وفي مقدمتهم "الضحاك بن جندل" فالتقوا مع "بهرام الاستراباذي" وجماعته؛ فهزموا،

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص (١٩١)، ويذكر ابن الأثير وأبو الفداء والذهبي والسيوطي؛ أن هذه الحادثة كانت سنة (٥٠٢هـ—)، إلا أن تسلسل الأحداث السابقة يؤكد صحة رواية ابن القلانسي، وكذلك سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان (٥٧٣/٢)، ويذكر أنها سنة (٥٠٧هـ—)، انظر: الكامل (٤٧٢/١٠)، المختصر في أخبار البشر (٢٢٤/٢)، تاريخ الخلفاء ص: (٤٢٩)، وهؤلاء المؤرخون ذكروا أنها سنة (٥٠٢هـ—)، كما أوضحت.

وقتل زعيمهم بهرام، وقتل منهم الكثير، وفر من سلم منهم إلى بايناس على أقبح صورته بعد تلك المقتلة^(١).

واستمراراً لهذه الجهود والمواقف ضد المذهب الشيعي الباطني في الشام، لا بد أن نخرج على جهود ومواقف بعض أمراء الشام ضد الباطنية؛ وهذا من فضل الله تعالى على هذه الأمة أن هيا رجالاً مخلصين لدينهم وأمتهم يقفون - بقوة - ضد التيارات الهدامة والأفكار المنحرفة والفرق الضالة؛ كي يستقيم لهذه الأمة أمر دينها، ويحفظ الله تعالى بهذا الجهود دينه، ويعلي كلمته؛ كما تكفل بذلك سبحانه بقوله جل شأنه: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾^(٢).

فمن هؤلاء الزعماء المجاهدون الذين أبلوا البلاء الحسن في هذا الجانب المهم؛ للحفاظ على السنة، والقضاء على المذهب الشيعي الإسماعيلي في الشام: صاحب دمشق "تاج الملوك بوري بن ظهير الدين طفتكين" الذي قاتل الباطنية، واستأصل شأفتهم؛ فبعد أن قتل زعيمهم "بهرام" - كما تقدم - قام بأمر الباطنية مكانه نائبه "إسماعيل العجمي" في بايناس، وأتاب عنه في دمشق رجلاً؛ يقال له: "أبو الوفاء الكردي" الذي أقامه الوزير "أبو علي طاهر المزدغاني" الذي كان يساعدهم ويسهل

(١) ابن الأثير: الكامل (١٠/٦٥٦)، أبو الفداء: المختصر (٣/٢)، ابن العماد الحنبلي:

شذرات الذهب (٤/٦٥).

(٢) سورة الحجر، آية (٩).

الفصل الأول: جهود الولاة في الحفاظ على السنة في بلاد الشام ومصر ١٠٠٣

أمورهم - كما أوضحناه سابقاً - فسار إسماعيل ونائبه أبو الوفاء على طريقة بهرام في الضلال والغواية، واستدراج الناس لمذهبهم وأفكارهم؛ حتى كثر أتباعهم، واستمروا في الاعتداء على الناس، ثم تعاون هؤلاء جميعاً - بما فيهم الوزير المزدغاني - على استدعاء الفرنج؛ ليسلموا لهم دمشق، واستقر الأمر بينهم، وحددوا لذلك يوماً يأتي فيه؛ ليفتحوا لهم أبواب دمشق؛ وهو في العاشر من رمضان (٥٢٣هـ)، وقرر المزدغاني الوزير مع الإسماعيلية أن يحتاطوا لذلك اليوم على أبواب الجامع؛ فلا يمكنوا أحداً من الخروج؛ ليأتي الفرنج، ويملكوا البلاد.

وهذه مؤامرة خطيرة لو تم لها النجاح، ولكن الله تعالى كان لهم بالمرصاد؛ ففطن "تاج الملوك بوري" لمؤامرتهم، وكان ينتظر الفرصة لقتلهم؛ حيث لم يكن راضياً تماماً عن سياسة أبيه، وكذلك إينغازي بن أرتق مع الباطنية؛ فأمر - على الفور - بقتل الباطنية أينما كانوا، ونادى في البلد بذلك، وقبض على وزيره المزدغاني فقتله، وثار أهل دمشق بالباطنية قتلاً ونهباً وتشريداً؛ حتى لم يبق منهم أحد في دمشق؛ بعد أن قتل منهم ما يقرب من ستة آلاف شخص، وكفى الله المؤمنين شرهم، وردّ على الكافرين كيدهم، كما يعبر بذلك ابن الأثير^(١).

(١) ابن الأثير: الكامل (١٠/٦٥٦)، أبو الفداء: المختصر (٣/٢)، الذهبي: العبر في خبر من غير (٢/٤١٨)، الياضي: مرآة الجنان (٣/٢٢٩)، ابن كثير: البداية والنهاية

والذي يتبادر إلى الذهن - بعد استقراء الروايات - هو أن الباطنية اتفقوا سرًا مع الفرنج لتسليمهم دمشق وغيرها من القلاع والحصون؛ التي في حوزتهم، بعد أن لاحظوا أن بوري تاج الملوك بن طفتكين كان يخطط من قبل للقضاء عليهم، فلجأوا إلى الفرنج؛ حتى يفسدوا مخططاته تجاههم^(١)، لا سيما وأنه يختلف موقفه معهم عن موقف أبيه طفتكين أو صاحب حلب إيغازي بن أرتق.

وهكذا، كان لتاج الملوك بوري بن طفتكين جهودا عظيمة ومواقف مشكورة مأجورة - إن شاء الله - ضد الباطنية ومن نحا نحوهم من الوزراء أو المساعدين المؤيدين لهم، فحاول أن يستأصل شأفتهم من الشام؛ رغم تعدد جبهات القتال ضد المسلمين عسكريًا مع الصليبيين، وعقدًا مع الشيعة الباطنية. وهؤلاء؛ أي: الصليبيون والباطنيون؛ يتفقون في الأهداف والمقاصد التي تحارب الإسلام، وتنال من المسلمين، وكان بينهما تعاون وثيق ضد المسلمين.

ومع هذا؛ فقد وفق الله تعالى بعض الأمراء المجاهدين وقبلهم سلاطين السلاجقة لمجاهدة هؤلاء الباطنية والوقوف ضدهم، وقتالهم على قدر استطاعتهم والظروف المحيطة بهم، وعلى كل؛ فقد استشهد تاج

(١٢/٢٠٠)، ابن العماد: شذرات الذهب (٤/٦٦)، كرد علي: خطط الشام (٤/٤).

(١) إرشيد يوسف: سلاجقة الشام والجزيرة ص: (٢٣٣-٢٣٤).

الفصل الأول: جهود الولاة في الحفاظ على السنة في بلاد الشام ومصر ١٠٠٥

الملك بوري على أيديهم سنة (٥٢٦هـ-)، حيث إن الباطنية - في خراسان - قد نظروا وأدركوا ما أصاب إخوانهم في الشام على يد تاج الملك بوري بن طغتكين؛ فقرروا قتله؛ حيث قفز عليه اثنان من الباطنية؛ فجرحاه جرحين؛ برئ أحدهما، وبقي الآخر، ثم توفي بعد ذلك متأثراً بجراحه سنة (٥٢٦هـ-)، وكان - رحمه الله - مجاهداً شجاعاً مقداماً^(١).

واستمر الباطنية - بعد وفاة تاج الملك بوري - في اعتداءاتهم على المسلمين، والعودة إلى نشاطهم السابق؛ فقاموا بشراء حصن القدموس في الشام؛ فعمروه واتخذوه مقراً لهم، كما اشتروا قلعة الكهف من سيف الملك بن عمرو، وكان ذلك سنة (٥٢٧هـ-)^(٢)، وعلى الرغم من تجدد نشاطهم، وتحصين أنفسهم في القلاع والحصون، إلا أن موقفهم أصبح ضعيفاً في الشام؛ لا سيما بعد مطاردات ومناوشات بينهم وبين أهل الشام، واستمروا على ذلك الضعف وبداية الانهيار حتى قدم "أبو الحسن سنان بن سليمان بن محمد الباطني" من خراسان، فأقام في حلب مستنكراً، وقام بدعوة الناس لمبادئ الباطنية ومعتقداتهم سراً، ثم اتجه إلى مصياف،

(١) ابن الأثير: الكامل (٦٧٩/١٠)، اليافعي: مرآة الجنان (٢٥١/٣)، الذهبي: العبر

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (٢٠٤/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم

الزاهرة (٢٤٩/٥)، ابن العماد: شذرات الذهب (٧٨/٤)، الصفدي: أمراء دمشق

في الإسلام ص (٣٨)، المنجد: ولاة دمشق في العصر السلجوقي ص (٢١).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٨/١١)، أبو الفداء: المختصر (٨/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية

(٢٠٤/١٢)، القلشندي: صبح الأعشى (١٤٦/٤).

وأقام فيها يوجه دعواته، ويث أفكاره، وكان داهية مكرًا استغوى كثيرًا من العامة والجهال، واستولى على بعض الحصون، واستمر في دعوته حتى توفي سنة (٥٩٩هـ)^(١).

ومع ذلك كان موقف الباطنية ضعيفاً في أواخر العصر السلجوقي، رغم قدوم داعيتهم "سنان بن سليمان" إلا أن تعاون وجهود السلاجقة والخلفاء ودورهم الكبير في وقف هذا الزحف وذلك التيار المنحرف؛ أدت - في النهاية - إلى الحفاظ على كيان السنة، وتحول الناس في بلاد الشام إلى عقيدة أهل السنة، وما من شك أن هذا التحول الخطير جاء بعد توفيق الله تعالى، ثم بنتيجة جهود ومثابرة وعزيمة صادقة من جانب ولاة السلاجقة وسلاطينهم وأمرائهم في الشام؛ لأن الباطنية كانوا قد اتخذوا - في ظاهر دعوتهم - نصره آل البيت وأخفوا - في الباطن - العمل على نشر الشرك والضلال في قلوب الناس، وإثارة الفتن والفوضى والقلق بين المسلمين، والتغلغل في إدارات الدولة، والتقرب من بعض المتعاونين معهم؛ الذين سهلوا لهم شيئاً من أمور دعوتهم؛ فأقدموا على القتل العمد لأهم

(١) ابن الأثير: الكامل (٧٩/١١)، الذهبي: العبر (٩٩/٣)، سير أعلام النبلاء

(١٨٢/٢١)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٧٦/٦)، ابن العماد: شذرات

الذهب (٢٩٤/٤)، محمد كرد علي: خطط الشام (٣/٢)، الزركلي: الأعلام

(١٤١/٣)، دائرة المعارف الإسلامية (٤٣٧/٧).

وعن النشاط الإسماعيلي الباطني في الشام انظر: مسفر الغامدي: الجهاد ضد

الصليبيين ص: (٦٢-٥٧).

الفصل الأول: جهود الولاة في الحفاظ على السنة في بلاد الشام ومصر ١٠٠٧

الشخصيات؛ التي تقف في طريقهم ومصالحهم؛ لأنهم تسللوا إلى الشام بعد بروزهم في خراسان، وعمدوا إلى الإقامة في حصون منيعة، وقلاع قوية، يجتمعون فيها ويؤثرون على عوام الناس وجهالهم وسفهاءهم، وكانت لهم قيادة محكمة، وأتباع متبعون لأوامرهم، مطيعون لهم.

ومن هنا استطاعوا اغتيال شخصيات بارزة من أعدائهم؛ سواء في خراسان وبلاد المشرق أو الشام، ومن أبرز ضحاياهم في الخلفاء: الخليفة المسترشد بالله العباسي، والراشد بالله، ومحاولتهم قتل الخليفة المستظهر بالله، وقتلوا من السلاطين السلطان "داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه"، كما قاموا بقتل الأمير "مودود بن التونتكين" في دمشق سنة (٥٠٧هـ)، وقسيم الدولة آقسنقر البرسقي و"جناح الدولة" صاحب حمص، وبوري بن طغتكين -المتقدم- ومن أشهر الوزراء الذين ذهبوا ضحية الباطنية: الوزير السلجوقي الشهير "نظام الملك" الذي كان من أشد الناس عداوة لهم، وكذلك الوزير "أبو الفرج محمد بن عبد الله" رئيس الرؤساء، وغيرهم كثير ممن كان لهم دور وجهد بارز ومواقف عظيمة في تتبعهم وجهادهم والوقوف ضدهم^(١)، لا سيما من يجاهد من

(١) انظر في قيام الباطنية بتلك الأعمال الشنيعة من قتل واغتيال للخلفاء والسلاطين والأمراء والوزراء: الراوندي: راحة الصدور، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق، الحسيني: العراضة في الحكاية السلجوقية، والياضي: مرآة الجنان، وأبو شامة في الروضتين، وابن القلانسي في الذيل، وأبو الفداء في المختصر، وابن كثير في البداية والنهاية.

هؤلاء السلاطين أو الأمراء والوزراء ضد الصليبيين؛ لأن الباطنية كانوا يتعاونون كثيراً مع الصليبيين؛ حيث إن الوقت الذي ظهر فيه الباطنية، وبدؤوا بنشر دعوهم ونشاطهم، كان عند بروز السلاجقة قوةً جديدةً وكبيرةً تهدد كيان الفاطميين واستقرارهم، ثم صعد الباطنية نشاطهم كثيراً عند مجيء الصليبيين إلى بلاد الشام في أواخر القرن الخامس الهجري حيث إنهم ركزوا جهودهم -أي: الباطنية- على الشخصيات؛ التي أظهرت شجاعة وبأساً وجهاداً ضد الفاطميين أو الصليبيين، مما يؤكد -بوضوح وجلاء- أن هدف الباطنية هو عرقلة نشاط السلاجقة والتأثير عليهم؛ كي يعجزوا عن الوصول إلى مقر الخلافة الفاطمية حتى ولو أدى ذلك إلى التعاون والاتحاد مع الصليبيين.

ومن هنا ندرك القاسم المشترك بين أعداء المسلمين (الباطنيين والصليبيين) في محاولاتهم للنيل من الإسلام وأهله ونصب العداة للمسلمين، ويتجلى ذلك في محاولاتهم التخلص من القادة والمجاهدين والأبطال؛ الذين يقفون في طريقهم، ويؤثرون على مصالحهم، ولكن أولئك المجاهدين كانوا يستمدون العون والتأييد من الله -سبحانه وتعالى-

وقد فصلت ذلك وأوضحته في الفصل الثالث من الباب الأول من الرسالة ص: (٥٠١) وما بعدها، مع الإحالات إلى تلك الكتب جزءاً وصفحة، فليُنظر هناك لمناسبته وأهميته في ذلك الفصل، وعدم مناسبة تكراره مفصلاً -هنا- في الفصل المتعلق ببلاد الشام.

الفصل الأول: جهود الولاية في الحفاظ على السنة في بلاد الشام ومصر ١٠٠٩

الذي نصرهم ومكنهم، وقضى على تلك الشرذمة الفاسدة، وعاد الناس في الشام لسابق عهدهم على المذهب السني المستمد من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ.

وهكذا أصبح عامة الناس في بلاد الشام في أواخر العصر السلجوقي على عقيدة أهل السنة، بعد أن كان عامة السكان على المذهب الشيعي؛ وذلك بفضل الله تعالى، ثم بفضل تلك الجهود والمواقف لأولئك الرجال المخلصين؛ الذين جاهدوا في الله حق جهاده، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه؛ مما أدى - في النهاية - إلى تطهير بلاد الشام من الفكر الشيعي الباطني الإسماعيلي، والحد من خطرهم - أي: الباطنية - ونشر أفكارهم ومعتقداتهم بين المجتمع السني في بلاد الشام.

واستكمالاً لهذا الموضوع وتمة لهذا الفصل؛ لا بد أن نعرض - باختصار - على جهود "السلطان صلاح الدين الأيوبي" في مصر بعد أن استقر بها، وجهوده الحثيثة والعظيمة لاستئصال المذهب الشيعي، وترسيخ عقيدة أهل السنة في قلوب المسلمين هناك، بعد أن سقطت "الدولة العبيدية" سنة (٥٦٧هـ)^(١)، وليس ثمة شك أن مثل هذا الحديث العظيم؛

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٣٧/١٠)، الأزدوي: أخبار الدول المنقطعة ص: (٣٦٥)، ابن الأثير: الكامل (٣٦٨/١١)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (١٥٩/٧)، ابن دقماق: الجوهر الثمين (٢١٢/١)، المكي: سطر النجوم العوالي (٣٧٧/٣)، القرماني: أخبار الدول ص (١٧٧).

التمثل في سقوط الدولة العبيدية؛ وإعادة مصر للخلافة العباسية، يؤكد أن دولة السلاجقة السنية، كان لها دور كبير وجهد عظيم في إنقاذ الخلافة العباسية من الخطر المحدق بها سياسياً ومذهبياً، وكان هذا السقوط والزوال للعبيدين نتيجة لظهور دولتهم على الساحة السياسية^(١) — أي دولة السلاجقة.

وقد تمكن السلطان صلاح الدين بتوجيهات قائده العظيم "نور الدين محمود زنكي" من السيطرة على مصر، وإعادتها للخلافة العباسية، وقطع خطبة العبيدين، وقد استنفذ صلاح الدين في ذلك كل جهده وطاقته والإمكانات المتاحة له لتوحيد المسلمين، والدفاع عن عقيدتهم وحمايتهم من الأفكار المنحرفة والتيارات الفاسدة؛ التي قد تؤثر على عامة الناس بمرور الزمن، وكان المجاهد "نور الدين محمود" يدين بالولاء والطاعة للخليفة العباسي وللسلطان السلجوقي؛ مما يؤكد عمق العلاقة بين الخليفة والسلطان من جهة، وبين المجاهدين من أمراء المسلمين وأتباعهم؛ لما فيه مصلحة المسلمين عامة، والحفاظ على كيان أهل السنة خاصة، لا سيما في ظل وجود تيارات مخالفة؛ كالعبيدين والباطنيين ومن حذا حذوهم، أو نهج منهجهم.

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ص: (٢٧)، ط: دار النهضة العربية القاهرة (١٩٩٠م)، وكتابه: الحركة الصليبية (٢/٦٩٩) الطبعة الثالثة، القاهرة (١٩٧٦م).

الفصل الأول: جهود الولاة في الحفاظ على السنة في بلاد الشام ومصر ١٠١١

وقد استبشر الناس خيراً وفرحوا كثيراً، بزوال دولة العبيديين في مصر، وسُيِّرت الخلع للمجاهدين العظيمين "نور الدين، وصلاح الدين" وزينت بغداد -مقر الخلافة- ابتهاجاً وسروراً بهذا الحدث العظيم، حتى إن بعض العلماء -آنذاك- أفردوا كتباً خاصة بذلك الحدث؛ فقد ألف ابن الجوزي كتاباً؛ أسماه: "النصر على مصر" وكتب أبو شامة كتاباً أيضاً بعنوان "كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والمكر والكيد"^(١).

ومن فضل الله تعالى على المسلمين؛ أن عامة الناس -وأكثرهم في مصر- لم يتأثروا بالمذهب الشيعي، رغم الدعاة العبيديين، ومحاولاتهم في هذا الجانب؛ لذلك نجد أن صلاح الدين لم يجد أي صعوبة، أو مقاومة كبيرة في القضاء على الأفكار والمعتقدات الشيعية، ومن ثم استئصال المذهب الشيعي، وانتعاش المذهب السني، وترسيخ العقيدة الإسلامية الصحيحة في مصر.

وبعد أن استقرت الأمور في مصر، قام السلطان صلاح الدين بعزل القضاة الشيعة في مصر، وعين في منصب قاضي القضاة قاضياً سنياً؛ هو "الإمام صدر الدين أبو القاسم عبد الملك بن درباس الشافعي" الذي كان

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٣٧/١٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٦٨/١٢).

من جُلة العلماء وفضلائهم^(١)، وجعل له نوابًا من القضاة الشافعية، ثم أبطل صلاح الدين من الأذان (حي على خير العمل) وهو الأذان المعروف لدى الشيعة^(٢)، ثم شرع في بناء المدارس الكثيرة في مصر على المذاهب الأربعة^(٣)، في محاولة منه لترسيخ المذهب السني، واستئصال المذهب الشيعي؛ الذي كان مدعومًا ومؤيدًا من قبل الدولة العبيدية.

كما قام المجاهد صلاح الدين بإلغاء رسوم المرور التي كان الحجاج يدفعونها زمن الفاطميين، وكانوا يلاقون بسببها ضغوطًا شديدة تصل إلى حد الضرب، ولم يكتب بذلك؛ بل أقام للحجاج أماكن يأوون إليها خلال إقامتهم، ويقدم لهم فيها الغذاء، وما يحتاجون إليه^(٤).

وهكذا؛ توحدت مصر مع بلاد الشام، وبدأت تستعد لتكون مركز الجهاد الإسلامي في الشرق ضد الصليبيين؛ فبعد موت نور الدين محمود،

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٧٤/٢١)، العبر (١٣٩/٣)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٩٦/٦).

(٢) المقدسي: الروضتين (١٩٦/١)، ابن الأثير: الكامل (٣٦٦/١١)، ابن واصل: مفرج الكروب (١٩٧/١)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٦٣/١٢)، ابن دقماق: الجوهر الثمين (١٧/٢)، محمد كرد: خطط الشام (٣٩/٢).

(٣) سوف أتحدث - بمشيئة الله تعالى - بالتفصيل عن هذه المدارس؛ التي أنشأها صلاح الدين في مصر في الفصل الثاني من هذا الباب؛ المتعلق بدور المدارس في انتعاش المذهب السني، وانتشاره في الشام ومصر.

(٤) ابن جبير: الرحلة ص (٣٠).

الفصل الأول: جهود الولاة في الحفاظ على السنة في بلاد الشام ومصر ١٠١٣

انتقل مركز الجهاد ضد الصليبيين من الدولة الزنكية في الشام إلى الدولة الأيوبية في مصر^(١)، بقيادة صلاح الدين؛ الذي سيطر الجهاد على كل جوارحه، وأصبح لا يفكر إلا فيه، وفي كيفية الاستعداد له^(٢)، وقد أمضى سنوات طووالاً أبلى فيها البلاء الحسن في ساحات القتال وميادين المعارك والبطولات؛ دون كلل أو ملل، وبكل إخلاص وتفان في سبيل الله.

ولا شك أن تضامن الجهود وتوحيد الصفوف واجتماع الكلمة ونبذ الخلافات والخصومات، وتعاون الجميع؛ كان له أثره الكبير - بعد الله تعالى - فيما وصلت إليه بلاد الشام ومصر من نبذ للأفكار الشيعية، وترسيخ للمذهب السني فيهما؛ فلم يكن باستطاعة الدولة أو الخلافة لوحدها أن تقوم بتلك الجهود والمواقف المتقدمة لولا توفيق الله تعالى، ثم حشد الطاقات الإسلامية وتجاوز الخلافات والعلاقة القوية بين العلماء والحكام، وتنسيق جهود الجميع، وتعبئة الطاقات لمواجهة ذلك الفكر الضال؛ المتمثل في الشيعة الإسماعيلية الباطنية في الشام ومصر.

وقد أدى ذلك كله إلى تطهير بلاد الشام من الفكر الباطني الإسماعيلي، وتطهير مصر كذلك، لا سيما زمن المجاهدين العظمين نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي؛ اللذين أبليا البلاء الحسن، وجاهدا في سبيل الله حق جهاده؛ حتى أتاهما اليقين؛ يتجلى ذلك في مقولة صلاح

(١) نادية محمود وآخرون: الدولة العباسية ص (١٣٨).

(٢) علي الغامدي: بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ص (٣٧).

الدين؛ التي أوردها ابن واصل؛ حيث ذكر عن صلاح الدين قوله: "إنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم" (١).

كذلك ما نقله ابن تغري بردي عن نور الدين الزنكي؛ حيث يقول: "في عام (٥٤٣هـ)، أبطل نور الدين -بجلب- الأذان بحمي علي خير العمل، وكذلك سب الصحابة، وقال: من عاد إلى ذلك قتلته؛ فلم يعد أحد، وقد ساعده علي ذلك جماعة من أهل السنة والجماعة؛ فعظم ذلك على الطائفة الإسماعيلية وأهل التشيع عمومًا، وضائق له صدورهم...." (٢).

وهكذا؛ ألقى الضوء بنوع من التفصيل والإيضاح لجهود الولاة والسلاطين والأمراء في الحفاظ على كيان أهل السنة والقضاء على المذهب الشيعي الباطني، واستئصاله في بلاد الشام ومصر، وإعادة الناس إلى عقيدة أهل السنة وترسيخها، رغم الجهد المبذول من قبل الشيعة الباطنية الإسماعيلية، وبثهم الدعاة وتحصينهم في تلك القلاع الحصون المنيعة، ودعم وتأيد العبيديين وبعض المندسين في صفوف المسلمين؛ ممن غلبت عليهم شقوقهم ومصالحهم الشخصية والسياسية، ولكن الله كان لهم جميعًا بالمرصاد؛ فأعلى كلمته ونصر حزبه وجنده، وهزم أهل الباطل، وعلا صوت الحق -بفضله ومنه سبحانه، ثم بجهود ومواقف أولئك

(١) مفرج الكروب (١٨/٢).

(٢) انظر: النجوم الزاهرة (٥/٢٨٢).

الفصل الأول: جهود الولاية في الحفاظ على السنة في بلاد الشام ومصر ١٠١٥

الرجال الصادقين؛ الذين لا يرجون علواً في الأرض ولا فساداً- فمكّن الله تعالى لهم ونصرهم وأعزهم، وهكذا تعطينا أحداث التاريخ وعبره أن النصر -دائماً- والتمكين لأهل الله وخاصته؛ مهما علا الباطل وفسا، والله الأمر من قبل ومن بعد، نعم المولى ونعم النصير.

الفصل الثاني

"دور المدارس في انتعاش المذهب السني
وانتشاره في بلاد الشام ومصر في ذلك
العصر"

الفصل الثاني

"دور المدارس في انتعاش المذهب السني وانتشاره

في بلاد الشام ومصر في ذلك العصر"

من المعلوم أن للمدارس دورًا كبيرًا في التعليم والثقافة، وتوجيه الناس الوجهة الدينية الصحيحة المستمدة من كتاب الله تعالى، وسنة نبيه -عليه الصلاة والسلام- لأنها تركز بالدرجة الأولى على التعليم والتوجيه والإرشاد، ومن هنا، يتضح لنا أهمية تلك المدارس في نشر المذهب السني؛ عندما أنشئت في بلاد الشام ومصر في العصر السلجوقي؛ حيث اهتم الولاة والسلاطين بذلك كثيرًا؛ علمًا بأن بلاد الشام لم يكن يوجد بها مدارس في بداية العصر السلجوقي، بل لا توجد حتى مدرسة واحدة في بداية الحروب الصليبية، وكان في كل محلة ومدينة دارًا للدعوة الإسماعيلية، وبث أفكارها وعقائدها بين الناس، ولكن -بفضل الله تعالى- ثم الجهود المخلصة للولاة والسلاطين ومحاربتهم لتلك الأفكار المنحرفة والفرق الضالة والتيارات الباطلة- شرعوا بكل جد وإخلاص في إنشاء المدارس بكثرة في أنحاء بلاد الشام ومصر، وما إن جاء آخر العصر السلجوقي سنة (٥٩٠هـ)، حتى أصبحت بلاد الشام تعج بكثرة المدارس ودور العلم؛

سواء في دمشق أو حلب أو بيت المقدس أو بقية مدن الشام الهامة؛
كحماه وحمص والخليل وغيرها^(١).

وكانت مؤسسات التعليم - في ذلك الوقت - تنقسم قسمين:

المساجد حيث يُعدُّ المسجد المدرسة الأولى للمسلمين^(٢)؛ حيث أقيم
في مدينة دمشق وحدها ما يزيد عن مائة مسجد؛ خلاف المدن الشامية
والمصرية الأخرى، وكانت المساجد - بالإضافة إلى جانب الصلاة
والعبادة - مراكز تعليمية لتعليم الناس القرآن والحديث والفقہ والعقيدة
واللغة وغيرها من العلوم، وقد تركت آثاراً عميقة في عقائد الناس،
ووجهتهم التوجيه الإسلامي الصحيح.

أما القسم الثاني؛ فهو الذي يهمننا في موضوع البحث والدراسة؛
وهو المدارس ودور العلم؛ التي انتشرت في بلاد الشام أواخر القرن
الخامس الهجري، وقد بلغ الاهتمام والعناية بإنشاء المدارس زمن "نور
الدين محمود بن زنكي (٥٤١-٥٦٩هـ)" الذي توسع في إنشاء المدارس
منذ سنوات حكمه الأولى، وسار على نهجه وخطاه "صلاح الدين
الأيوبي" ورجال الدولة الأيوبية^(٣)، الذين توسعوا واهتموا كثيراً بإنشاء

(١) علي عودة الغامدي: بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ص (٤٠٣-٤٠٤) ماجد

الكيلاي: هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص (٢١٥-٢١٦).

(٢) علي الملا: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأروبية ص (٥٢).

(٣) علي الغامدي: بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ص (٤٠٣٩)، ماجد الكيلاي: هكذا

ظهر جيل صلاح الدين ص (٢١٥).

الفصل الثاني: دور المدارس في انتشار المذهب السني في بلاد الشام ومصر ١٠٢١

المدارس في بلاد الشام ومصر؛ الأمر الذي أدى إلى الحفاظ على كيان أهل السنة، ونشر المذهب السني في بلاد الشام ومصر، ومن ثم استئصال المذهب الشيعي، والقضاء عليه، وإعادة الناس إلى التمسك بالعتيدة الإسلامية الصحيحة.

وعندما نستقري التاريخ، لا نجد غرابة فيما قام به "نور الدين محمود بن زنكي" من خلال ذلك العمل العظيم، وتوسعه في إنشاء المدارس، عندما نقرأ سيرته وزهده وعلمه وعبادته وإكرامه العلماء وتقريبه لهم؛ حيث يذكر ابن الأثير أنه كان "يكرم العلماء وأهل الدين ويعظمهم ويعطيهم ويقوم إليهم ويجلسهم معه، وينبسط معهم، ولا يرد لهم قولاً، ويكاتبهم بخط يده.." (١).

ويذكر أبو شامة في الروضتين الهدف المنشود لنور الدين من قيامه بإنشاء المدارس والتوسع في ذلك؛ حيث ذكر عن نور الدين قوله: "ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة، وإظهار الدين" (٢).

(١) ابن الأثير: الكامل (٤٠٥/١١)، ويضيف النعمي أن نور الدين: "أظهر السنة وغير البدعة، وقمع الرافضة وبنى المساجد والمدارس". النعمي: الدارس في تاريخ المدارس (٤٦٧/١).

(٢) أبو شامة: الروضتين ص (٦).

وأكرم به من مقصد، وأعظم به من هدف، وأنعم بها من غاية؛ عندما يكون المقصود هو حفظ الدين ونشر العلم وإعلاء كلمة الله من خلال تلك المدارس؛ التي كان لها الدور الكبير في تحقيق ما كان يصبو إليه -رحمه الله.

والحقيقة أنه لا يمكن -من خلال هذا الفصل المتعلق بالمدارس ودورها في نشر المذهب السني والحفاظ على السنة والقضاء على المذهب الشيعي الإسماعيلي آنذاك- أن أستعرض جميع هذه المدارس؛ التي أنشئت في بلاد الشام ومصر خلال العصر السلجوقي، ولكني سأكتفي بذكر أهم تلك المدارس؛ التي تؤكد مظاهر الاهتمام بالحركة العلمية وازدهارها وعلو النشاط التعليمي في تلك الحقبة، ومما يجب ذكره أن الصفة الجماعية لذلك النشاط العلمي يبدو جلياً واضحاً في تباري وتسابق الوزراء والقادة والأمراء والأغنياء والرجال والنساء في إنفاق أموالهم في بناء المدارس والمؤسسات التعليمية، وتوفير الفرص، وهيئتها لجميع أفراد الأمة؛ لدخول تلك المدارس، والاستفادة منها في حياتهم العلمية والعملية.

ومن هؤلاء -على سبيل المثال لا الحصر- ما كان عليه "أسد الدين شيركوه" كبير قادة نور الدين العسكريين "الذي كان يملك أرضاً واسعة أنفق مواردها في بناء المدارس، وحين مات لم يخلف إلا دنانير قليلة^(١).

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٢٩٧/٧)، وهو عم صلاح الدين. انظر ترجمته

في ابن خلكان: وفيات الأعيان (٣١٧/٢).

وكذلك ما قام به وزير نور الدين "أبو الفضل محمد بن عبد الله الشهرزوري" ^(١) الذي أوقف أوقافاً كثيرة؛ منها: مدرسة بالموصل، ومدرسة نصيبين، ورباطاً في المدينة المنورة، وأوقف أوقافاً في قرية المهمّة على المقادسة الذين نرحوا من وجه الاحتلال الصليبي، وكان كثير التبرع والهبات ^(٢).

وكذلك فعل "عبد الله بن عصرون" قاضي القضاة بدمشق؛ حيث بنى مدرستين في دمشق وحلب ^(٣)، وكذلك فعل "نجم الدين أيوب" والد صلاح الدين؛ حيث بنى خانقاه في مصر ومسجداً وقناة خارج باب النصر في القاهرة، وفي دمشق بنى خانقاه تعرف بالنجمية ^(٤)، وأيضاً فعل الأمير "مجاهد الدين قايماز" نائب قلعة الموصل؛ حيث بنى جامعاً كبيراً ورباطاً ومدارس وخوانقات وجوامع في نواح متفرقة ^(٥).

وهكذا سار على هذا النهج بقية رجال الحكم والإدارة، وخذت حذوهم نساؤهم؛ فقد كان لمن نصيب وافر من تلك الأعمال العظيمة؛ المتمثلة في بناء المساجد والمدارس والأربطة ونحوها؛ فمن ذلك ما فعلته

(١) سيأتي الحديث عنه - إن شاء الله - في الفصل الثالث من هذا الباب.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (٢٩٦/١٢)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (١١٧/٦-١١٩).

(٣) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (١٣٣/٧).

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية (٢٧٢/١٢).

(٥) المصدر السابق (٢٩٦/١٢).

الست خاتون عصمت الدين، زوجة نور الدين؛ حيث أوقفت الخاتونية بمحلة حجر الذهب، وخانقات خاتون باب النصر، وأوقافاً كثيرة أخرى، ومثلها فعلت الست زمرد خاتون بنت جاولي؛ حيث أوقفت الخاتونية البرانية بمحلة صنعاء الشام^(١).

وقد وصف ابن جبير الرحالة ذلك عندما زار دمشق؛ فقال: "ومن النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة وتنفق فيها الأموال الواسعة، وتعين لها من مالها الأوقاف"^(٢)، ويضيف: "ومن الأمراء من يفعل ذلك، لهم في هذه الطريقة المباركة مسارعة مشكورة عند الله -عز وجل"^(٣).

والآن؛ إلى ذكر أهم المدارس؛ التي زحرت بها بلاد الشام ومصر في ذلك العصر، وكان لها دورها المؤثر في القضاء على المذهب الشيعي الإسماعيلي، والحفاظ على السنة؛ حيث كانت تلك المدارس جميعها على المذاهب السنية الأربعة؛ فقد ذكر المؤرخ المعاصر -آنذاك- عز الدين بن شداد؛ أن عدد مدارس حلب بلغ (٤٦) مدرسة، وبلغ عدد مدارس

(١) المصدر السابق (٣١٧/١٢-٣١٨)، الذهبي: العبر (٨٣/٣)، ابن تغري بردي:

النجوم الزاهرة (٩٩/٦).

(٢) ابن جبير: الرحلة ص (٢٤٨).

(٣) نفسه ص (٢٤٨).

دمشق وحدها (٩٢) مدرسة^(١)، وعدد مدارس بيت المقدس (١٢) مدرسة، فضلاً عن المدارس الأخرى في بقية بلاد الشام^(٢).

أما في مصر؛ فيذكر المؤرخون أن صلاح الدين الأيوبي بعد أن استقر في مصر، وقضى على دولة العبيديين - كما تقدم ذكره - شرع في إنشاء المدارس الكثيرة على المذاهب الأربعة، وقام بعزل قضاة مصر الشيعة؛ حتى ذكر بعض المؤرخين أنه بسبب ذلك "علت السنة وعفت البدعة" في مصر^(٣).

ويقول البعض الآخر: "إن الرفض ببغداد ومصر اختفى وضعف، وظهرت السنة وحصل الأمن"^(٤)، ويذكر آخرون تعليقاً على انتشار

(١) ابن شداد: الأعلام الخطيرة (١/٩٦، ٢/٢٠٠) قسم مدينة دمشق تحقيق الدكتور سامي الدهان.

(٢) علي الغامدي: بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ص (٤٠٤).

(٣) ابن الأثير: الكامل (١١/٣١٦)، ابن واصل: مفرج الكروب (١/١٩٨)، المقرئ: الخطط (١/٣٥٩) ابن كثير: البداية النهاية (١٢/٢٦٣)، ابن دقماق: الجواهر الثمين (٢/١٧)، ثم انظر: المقدسي: الروضتين (١/١٩٦).

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٢١/٦٨)، اليافعي: مرآة الجنان (٣/٤٠١)، ويذكر المقرئ أيضاً عن ذلك ما نصه: "واختفى مذهب الشيعة إلى أن نسي من مصر". الخطط (١/٣٥٩). أي: بعد سقوط العبيديين وتولي صلاح الدين مقاليد الأمور بمصر.

المذهب السني وضعف الروافض وإذلالهم بقوله: "وخذت جمرتهم -أي: الروافض- وصاروا أذل من اليهود" ^(١).

ومن خلال هذه الأقوال نؤكد دور تلك المدارس، وتأثيرها المباشر في انتعاش المذهب السني، ونشره في بلاد الشام ومصر، ومن ثم استتصال المذهب الشيعي والقضاء عليه؛ كل ذلك لم يكن ليتم لولا فضل الله تعالى، ثم الجهود الكبيرة والعظيمة للمجاهدين العظمين "نور الدين صلاح الدين" اللذين أبليا البلاء الحسن في دعمهما أهل السنة، والقضاء على الأفكار والمعتقدات الشيعية التي كانت منتشرة في الشام ومصر؛ حيث قام نور الدين محمود بن زنكي ببناء المدارس الكثيرة للحنفية والشافعية، وذلك في الشام ^(٢)، وقام صلاح الدين بإنشاء مدارس للشافعية وأخرى للمالكية، وأوقف عليها الأوقاف ^(٣)؛ إضافة إلى قيامهما ببناء الجوامع والبيمارستانات والخانات في الطرق، وغير ذلك من المصالح العامة؛ التي تهم الرعية، وتقوم على مصالحهم.

ومن تلك المدارس؛ التي كانت منتشرة في بلاد الشام نذكر -على سبيل المثال لا الحصر- أهمها؛ وهي:

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٦٨/١٠).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٤٠٤/١١)، الأزدي: أخبار الدول المنقطعة ص (٣٦٥).

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب (٣٥٨/١-٣٥٩)، وانظر: ابن الأثير: الكامل (٣٦٦/١١).

المدرسة العادلية الكبرى؛ التي يذكر ابن شداد أن أول من أنشأها نور الدين محمود بن زنكي، وتوفي ولم تتم؛ فاستمرت كذلك، ثم بنى بعضها الملك العادل سيف الدين، ثم توفي ولم تتم أيضًا، فتممها ولده الملك المعظم؛ الذي جعل بناءها متميزًا لا نظير له في بناء المدارس، وأوقف عليها الأوقاف، ودفن والده فيها، ونسبها إليه، وأصبحت مدرسة عظيمة؛ فسميت العادلية، وأول من درس بها قاضي القضاة بالشام جمال الدين يونس بن بدران المصري، وحضر الملك المعظم بنفسه، وحضر أعيان الشيوخ والقضاة والفقهاء، وكان افتتاحًا مهيبًا يدل على العناية الكبيرة، والاهتمام العظيم بتلك المدرسة، وما كان للعلم وأهله من تقدير ومكانة في ذلك العصر من جانب السلاطين والأمراء ورجال الدولة^(١).

وقد ألحقت بالمدرسة العادلية الكبرى مكتبة ضخمة استفاد منها كثير من المؤرخين وطلبة العلم؛ حيث يذكر أبو شامة أنه صنف بها كتابه "تاريخ الروضتين في أخبار الدولتين"، وكذلك ابن خلكان؛ الذين صنف بها كتابه "وفيات الأعيان"، والنعمي جمع فيها كتابه "الدارس في تاريخ

(١) ابن شداد: الأعلام الخطيرة (٢/٢٤٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٣/٦٨)، النعمي: الدارس في تاريخ المدارس (١/٢٧١)، وسيأتي الحديث - إن شاء الله - عن قاضي القضاة جمال الدين المصري في الفصل الثالث من هذا الباب وعن المدارس في عهد نور الدين محمود بن زنكي، انظر ما كتبه الأستاذ ممدوح الزوي في مجلة المنهل عدد (٥١٦)، شهر محرم سنة (١٤١٥هـ)، بعنوان "المدارس الدمشقية القديمة" ص (٤٠٥-٤٠٦).

المدارس"، وهذا يدل على أن هذه المكتبة كانت تضم مجموعة من الكتب في شتى فنون العلم والمعرفة^(١).

وقد سميت بالمدرسة العادلية الكبيرة أو الكبرى، تمييزاً لها عن المدرسة العادلية؛ التي أنشأها زهرة خاتون بنت الملك العادل سيف الدين ابن أيوب، وتقع داخل باب الفرج شرقي باب القلعة، وقد أوقفت زهرة خاتون على المدرسة أوقافاً كثيرة، وقررت لها مدرساً ومعيّداً، وإماماً ومؤذناً، وبواباً، وقيماً، وعشرين فقيهاً، وقد تولى التدريس بها عدد من العلماء؛ كما ذكر ذلك ابن شداد والنعيمي^(٢).

ومن المدارس الشهيرة بدمشق: المدرسة النورية، وقد أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي سنة (٥٦٣هـ)، ودرس بها عدد من العلماء^(٣).

والمدرسة الصادرية؛ أنشأها شجاع الدولة صادر بن عبد الله، وهي أول مدرسة أنشئت بدمشق سنة ٤٩١هـ، كما يذكر ابن شداد والنعيمي^(٤).

(١) انظر: علي الغامدي: بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ص (٤٠٥-٤٠٦).

(٢) ابن شداد: الأعلام الخطيرة (٢/٢٤٣) النعيمي: المدارس في تاريخ المدارس (١/٢٧٨).

(٣) المصدران السابقان (٢/٢٠٣، ١/٤٦٦).

(٤) المصدران السابقان (٢/١٩٩، ١/٤١٣).

وكذلك المدرسة الصلاحية بالقرب من البيمارستان النوري، وقد بناها نور الدين محمود بن زنكي، ونسبت إلى الملك الناصر صلاح الدين؛ فاتح بيت المقدس^(١).

والمدرسة الشامية البرانية؛ أنشأها ست الشام بنت نجم الدين أيوب، والدة الملك الصالح إسماعيل، وأخت صلاح الدين؛ وهي من أكبر المدارس وأعظمها وأكثرها فقهاء، وأكثرها أوقافاً، وتولى التدريس بها جماعة من العلماء والقضاة؛ كما ذكر ذلك ابن شداد والنعيمي^(٢).

ومن المدارس الحنابلة بدمشق: المدرسة الحنبلية، أو مدرسة سيف الإسلام؛ أخي صلاح الدين؛ وهي بالقرب من المدرسة الرواحية داخل باب الفراديس^(٣).

والمدرسة الجوزية، بسوق القمح؛ أنشأها محي الدين ابن الشيخ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي؛ في أيام الملك الصالح عماد الدين إسماعيل^(٤).

(١) المصدران السابقان (٢٤٥/٢، ٢٥٠/١).

(٢) المصدران السابقان (٢٤٩/٢، ٢٥٠-٢٥٠/١، ٢٠٨/١).

(٣) ابن شداد: الأعلام الخطيرة (٢٥٥/٢).

(٤) السابق (٢٥٦/٢)، النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس (٢٣/٢).

ومن المدارس المالكية الشهيرة بدمشق: المدرسة الصلاحية التي أنشأها السلطان صلاح الدين، بالقرب من اليمارستان النوري^(١)، وهي غير المدرسة الصلاحية الشافعية؛ التي مر ذكر آنفاً.

وكذلك كان هناك مدارس خاصة بتدريس الطب في الشام؛ كالمدرسة الداخورية، والمدرسة الدينسرية، والمدرسة اللبودية النجمية^(٢).

ومن جملة المدارس؛ التي أنشئت في حلب، ودرس فيها العلماء، والقضاة والفقهاء وكان لها دور كبير في نشر المذهب السني وانتعاشه ومحاربة الأفكار والمعتقدات الشيعية الباطنية نذكر -على سبيل المثال- أشهر تلك المدارس لا سيما التي أنشئت زمن نور الدين محمود بن زنكي؛ مثل: المدرسة النورية في حلب؛ أنشأها نور الدين بسن زنكي؛ سنة (٥٤٤هـ)، ودرس بها عدد من العلماء^(٣).

والمدرسة الأُسدية؛ أنشأها أسد الدين شيركوه^(٤).

وكذلك المدرسة الصاحبية؛ أنشأها القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم؛ المعروف بابن شداد سنة (٦٠١هـ)، ودرس بها^(٥).

(١) السابقان: (٢٥٣/٢، ٨/٢).

(٢) السابقان (٢٥٣/٢، ١٠١/٢-١٠٦).

(٣) ابن شداد: الأعلام الخطيرة (١٠٠/١).

(٤) السابق (١٠٣/١).

(٥) السابق (١٠٢/١).

والمدرسة الظاهرية؛ التي أنشأها السلطان الملك الظاهر غياث الدين غازي بن يوسف بن أيوب، صاحب حلب، وانتهت عمارتها سنة ٦١٠هـ^(١).

ومدرسة الفردوس؛ أنشأها الصاحبة ضيفة خاتون بنت الملك العادل؛ وهي مدرسة كبيرة، رتبت فيها خلقة من القراء والفقهاء^(٢).

ومن المدارس الحنفية بحلب: المدرسة الخلاوية؛ وهي من أعظم المدارس صيتاً، وأكثرها طلبة، بناها نور الدين محمود بن زنكي، واهتم بها كثيراً، واستدعى لها من دمشق الفقيه الإمام برهان الدين علي بن الحسن البلخي؛ ليتولى التدريس بها^(٣).

والمدرسة الأتابكية؛ التي أنشأها الأتابك شهاب الدين طغرل بحلب، وانتهت عمارتها سنة (٦١٨هـ)، وأول من درس فيها الشيخ جمال الدين خليفة بن سليمان القرشي، إلى أن توفي سنة (٦٣٨هـ)^(٤). وهناك -أيضاً- المدرسة الأتابكية الثانية، وقد أسسها -أيضاً- الأتابك طغرل، وتم بناؤها سنة (٦٢٠هـ)، وأول من درس بها صفى الدين عمر الحموي^(٥).

(١) السابق (١٠٧/١).

(٢) ابن شداد: الأعلام الخطيرة (١٠٨/١).

(٣) السابق (١١٠/١).

(٤) السابق (١١٤/١).

(٥) السابق (١٢١/١).

وفي حلب -أيضا- مدرسة أنشأها الأمير سيف الدين علي بن علم الدين سليمان بن جندر؛ لتدريس مذهبي الإمام مالك، والإمام أحمد بن حنبل، ولم يذكر ابن شداد اسماً لهذه المدرسة^(١).

إلى غير ذلك من المدارس الكثيرة؛ التي أنشئت في دمشق وحلب وجميع بلاد الشام، وكان لها دور كبير ومؤثر في نشر المذهب السني، واستئصال الأفكار والمعتقدات الشيعية؛ إضافة إلى ازدهار الحياة العلمية والفكرية في ضوء التشجيع العلمي العظيم؛ المتمثل في التوسع ببناء المدارس العلمية، وتعيين العلماء والقضاة والفقهاء والمدرسين الأكفاء للقيام بمهمة التدريس، والإشراف على تلك المدارس؛ بدعم وتوجيه وتأييد من رجال الدولة وملوكها وسلاطينها في ذلك العصر.

كما قام نور الدين محمود بن زنكي ببناء مدارس مماثلة خارج دمشق وحلب للغرض نفسه؛ فبنى مدرسة في حران، وأسلمها إلى الشيخ أسعد بن المنجا بن بركات المتوفى سنة (٦٠٦هـ)، الذي أسند إليه نور الدين -أيضاً- التدريس في المدرسة المسمارية، كما أسند إليه القضاء، وقد استمرت ذريته تتناوب التدريس في مدرسته فيما بعد^(٢).

(١) السابق، نفسه (١٢١/١).

(٢) ابن رجب: طبقات الحنابلة (٤٩/٢)، ثم انظر: الذهبي، العبر: (١٤١/٣)، وعن المدرسة المسمارية انظر: النعمي، الدارس في تاريخ المدارس (٨٩/٢).

كذلك بني نور الدين محمود بن زنكي مدرسة أخرى في حران، وأسلمها إلى الشيخ حامد بن محمود المتوفى سنة ٥٧٠هـ، وكان نور الدين "يقبل عليه وله فيه حسن ظن"، كما ذكر ذلك ابن رجب في الطبقات^(١).

وغيرها من المدارس في أنحاء بلاد الشام.

أما عن السلطان صلاح الدين وجهوده في بناء المدارس في مصر، فقد سار على نفس النهج الذي نهجه نور الدين محمود بن زنكي في الشام؛ فعندما توحدت مصر مع الشام جدّ في تعمير المدارس الكثيرة على المذاهب السنية الأربعة لاستئصال المذهب الشيعي؛ الذي عمل العبيديون على دعمه ونشره؛ إبان سيطرتهم على مصر، ومضوا في سياستهم الرامية إلى تفويض الخلافة العباسية، واجتثاث الفكر الإسلامي السني، واستبداله بالفكر الشيعي الباطني، ولكن صلاح الدين كان متنبهاً يقظاً لذلك بعد زوال دولتهم، فعمل على الفور ببناء المدارس؛ التي لم تكن موجودة قبل ذلك في مصر.

وعن ذلك يروي ابن خلكان جانباً من تلك الأعمال المجيدة؛ التي قام بها صلاح الدين فورتوليه الأمور في مصر، حيث يقول: "ولما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية؛ لم يكن بها شيء من المدارس، فإن

(١) ابن رجب: طبقات الحنابلة (٣٣٣/١)، ماجد الكيلاني: هكذا ظهر جيل صلاح

الدولة المصرية كان مذهبها مذهب الإمامية؛ فلم يكونوا يقولون بهذه الأشياء؛ فعمر المدرسة المجاورة للإمام الشافعي، وبنى مدرسة بالقاهرة جوار مشهد الحسين، وجعل عليها وقفاً كبيراً، وبنى مدرسة للحنفية، والمدرسة التي بمصر المعروفة بزين التجار وقفاً على الشافعية، وله بالقدس مدرسة أيضاً، ووقفها كثير، وله بمصر مدرسة للمالكية" (١).

ثم يعقب ابن خلكان متعجباً من أعمال هذا الرجل العظيم: "ولقد فكرت في نفسي في أمور هذا الرجل، وقلت: إنه سعيد في الدنيا والآخرة؛ فإنه فعل في الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكبيرة وغيرها، ورتب هذه الأوقاف العظيمة، وليس فيها شيء منسوباً إليه في الظاهر؛ فإن المدرسة التي في القرافة؛ لا يسميها الناس إلا بالشافعي، والمجاورة للمشهد؛ لا يقولون إلا المشهد، والمدرسة الحنفية؛ لا يقولون أيضاً إلا مدرسة السيوفية، والتي بمصر لا يقولون إلا مدرسة زين التجار، والتي بمصر مدرسة المالكية، وهذه صدقة السر على الحقيقة، والعجب أنه له بدمشق في جوار البيمارستان النوري مدرسة يقال لها الصلاحية، فهي منسوبة إليه - وقد تقدم ذكرها ضمن مدارس دمشق - وله بها - أي: في

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٧/٢٠٦-٢٠٧)، ثم انظر: الأيوبي، مضمار الحقائق ص: (٥٢، ٩٣، ١٨٨)، سير أعلام النبلاء (٢١/٢٧٨)، النجوم الزاهرة (٦/٥٤ -

الفصل الثاني: دور المدارس في انتشار المذهب السني في بلاد الشام ومصر ١٠٣٥

دمشق- مدرسة المالكية أيضاً، ولا تعرف به، وهذه النعم من أطفاف الله تعالى به" (١).

كما يذكر المؤرخ ابن واصل أن صلاح الدين -بعد أن استقر في مصر- حوّل الأزهر إلى جامعة سنية، ونشر دور القرآن والحديث والأربطة في جميع أرجاء القطر، ورتب -في هذه المؤسسات- المدرّسين والطلبة، وأجرى للجميع رواتب شهرية، وأوقف الأوقاف الكثيرة للصرف عليها(٢).

ومن أشهر المدارس؛ التي بناها صلاح الدين -في مصر- بعد زوال الدولة العبيدية: المدرسة الناصرية؛ التي عرفت -بعد ذلك- بمدرسة ابن زين التجار؛ وهو أبو العباس أحمد بن مظفر بن الحسين؛ أحد أعيان الشافعية، درس بها مدة طويلة، ثم عرفت بالمدرسة الشريفة، وكان بناؤها سنة (٥٦٦هـ)، وهي مدرسة للشافعية(٣).

ومن مدارس المالكية بمصر: المدرسة القمحية؛ المسماة بدار الغزل، جعلها السلطان صلاح الدين مدرسة للمالكية، وتقع بجوار الجامع العتيق،

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٠٧/٧).

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب (٥٤/٢-٥٥).

(٣) المقرئزي: الخطط (٣٦٣/٢)، ثم انظر: ابن الأثير: الكامل (٣٦٦/١١)، ابن تغري

بردي: النجوم الزاهرة (٣٨٥/٥).

جامع عمرو بن العاص، وبنها السلطان صلاح الدين سنة (٥٦٦هـ—)، وأوقف عليها الأوقاف^(١).

ومن مدارس الحنفية: المدرسة السيوفية بالقاهرة، محلها من جملة دار الوزير المأمون البطائحي، وقفها السلطان صلاح الدين على الحنفية سنة (٥٧٢هـ—)، وهي أول مدرسة وقفت على الحنفية بديار مصر، وعرفت بالمدرسة السيوفية؛ لأن سوق السيوفيين كان في ذلك الوقت على بابها^(٢).
ومن مدارس القاهرة -أيضا- زمن صلاح الدين: المدرسة الفاضلية، بناها القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني سنة (٥٨٠هـ—)، ووقفها على الشافعية والمالكية، ويذكر المقرئ أن هذه المدرسة كانت تحتوي على جملة عظيمة من الكتب في سائر العلوم، يقال إنها كانت مائة ألف مجلد^(٣).

وكذلك المدرسة الصالحية بمصر؛ التي رُتب فيها دروسٌ أربعة للفقهاء المنتمين إلى المذاهب الأربعة^(٤)، وهو عمل يدل على نبذ التعصب المذهبي، وتعبئة كافة المذاهب والجماعات الإسلامية، وتنسيق الجهود،

(١) المقرئ: الخطط (٣٦٤/٢).

(٢) السابق: (٣٦٥/٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٢٩٠/٥).

(٣) المقرئ: الخطط (٣٦٦/٢).

(٤) السابق (٣٧٤/٢).

وتعاون الجميع للتصدي لتطهير البلاد المصرية من الفكر الباطني
الإسماعيلي.

ومعلوم أن نور الدين محمود بن زنكي كان يتفقه على المذهب
الحنفي، وصلاح الدين تفقه على المذهب الشافعي، وكلاهما كان له
مستشاروه؛ الذين يضمون - في صفوفهم - الحنبلي والمالكي والشافعي
والحنفي؛ حيث لم تفرق الدولة - آنذاك - بين مذهب وآخر؛ وهي تنشيء
المدارس ودور القرآن والحديث والأربطة في شتى المدن الشامية والمصرية؛
لأن الجميع يهدف إلى عمل إسلامي موحد؛ الهدف منه نشر المذهب
السني، وترسيخ عقيدة أهل السنة، والقضاء على الفكر الشيعي الباطني،
وتقويضه وإزالته.

وهكذا تكون الأهداف النبيلة، والغايات السامية؛ التي كان يتطلع
إليها أولئك الرجال؛ الذين قادوا الأمة إلى بر الأمان - بفضل الله تعالى
وتوفيقه - فكان لهم ما أرادوا، لأنهم أخلصوا النية لله - عز وجل -
وصدقوا ما عاهدوا الله عليه.

واستكمالاً للمدارس؛ التي أنشئت بمصر، فهناك المدرسة الكاملية،
والمدرسة الصاحبية، والمدرسة المسروورية، والمدرسة المنصورية، والمدرسة
الظاهرية، والمدرسة الصيرمية، وغيرها من المدارس الكثيرة التي كانت

قائمة آنذاك^(١)، وتزخر بالعلماء والفقهاء والقضاة؛ الذين كانوا يقومون بواجب التدريس بها، بدعم وإشراف مباشر من السلطان صلاح الدين، ومن جاء بعده.

وكانت المدارس زمن صلاح الدين ذات مبنى واسع ومساحة كبيرة أحياناً، تؤكد مدى الاهتمام بها، والإنفاق عليها بسخاء؛ كي تؤدي دورها على الوجه اللائق بها، وليس أدل على ذلك من وصف الرحالة ابن جبير إحدى المدارس؛ وهي المدرسة الشافعية - وقد تقدم الحديث عنها - فقال في وصفه: "مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها، ولا أوسع مساحة، ولا أحفل بناء، يخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته... والنفقة عليها لا تحصى" ^(٢).

وهكذا؛ يتضح لنا - من خلال ما تقدم ذكره عن المدارس في بلاد الشام ومصر - تلك الجهود العظيمة والمشرفة؛ التي قام بها المجاهدان العظيمان: نور الدين محمود بن زنكي، وصلاح الدين يوسف بن أيوب؛ اللذان شرعا وجداً في بناء المدارس دون تعصب لمذهب أو تأثير به؛ حيث كانا يجتهدان في إبطال مذاهب الشيعة الباطنية؛ التي أثرت على الناس ردحاً من الزمن، وكان صلاح الدين يقتدي ويتأثر بأعمال وجهود سيده

(١) انظر في هذه المدارس، وإنشائها، وأوقافها، ومن درس بها: المقرئزي: الخطط

(٢/٣٦٣-٤٠٥).

(٢) ابن جبير: الرحلة ص (٣٠).

الفصل الثاني: دور المدارس في انتشار المذهب السني في بلاد الشام ومصر ١٠٣٩

نور الدين في هذا المجال المهم؛ حيث يذكر المقرئزي بأنه لما انقرضت الدولة الفاطمية (العبيدية) على يد السلطان صلاح الدين أبطل مذاهب الشيعة من ديار مصر، وأقام بها مذهب الإمام الشافعي، ومذهب الإمام مالك، واقتدى بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكي؛ فإنه بنى - بدمشق، وحلب، وأعمالهما - عدة مدارس للشافعية والحنفية، وبني لكل من الطائفتين مدرسة بمصر^(١).

ولا شك أن هذه الجهود هي التي أدت - في نهاية المطاف - إلى الحفاظ على كيان أهل السنة من الأخطار المحدقة به، والتيارات الفكرية المنحرفة، ومن ثم القضاء عليها في بلاد الشام ومصر، والله الحمد والمنة.

(١) المقرئزي: الخطط (٢/٣٦٣).

الفصل الثالث

"جهود العلماء في الحفاظ على السنة
ومحاربة التيارات الفكرية المنحرفة في بلاد
الشام ومصر في العصر السلجوقي"

الفصل الثالث

"جهود العلماء في الحفاظ على السنة ومحاربة التيارات الفكرية المنحرفة في بلاد الشام ومصر في العصر السلجوقي"

ليس ثمة شك أن للعلماء أهمية كبيرة ومكانة عظيمة في المجتمع الإسلامي؛ لأنهم يحملون رسالة عظيمة وواجبا عظيماً تجاه الأمة؛ فهم ورثة الأنبياء، وهم مصابيح الهدى ومشاعل النور لباقي أفراد الأمة، ومن هنا كان لهم الدور الكبير والمؤثر في الناس؛ لأنهم يحملون العلم الذي يجب عليهم شرعاً أن يعلموه الناس بكل إخلاص وصدق نية، ومن ثم يحذروهم من الوقوع في المزالق والمعتقدات الفاسدة، والأفكار المنحرفة، والتيارات الباطلة والفرق الضالة؛ فكانت لهم المكانة العالية عند الله تعالى، والسعادة في الدنيا والآخرة؛ إذ قاموا بذلك الواجب العظيم، وأدوا الرسالة الموكلة بهم، وتحملوا الأمانة بصدق؛ لا يبتغون بذلك إلا الأجر والثواب من الله - سبحانه وتعالى.

وقد دلت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الكثيرة على أهمية العلم، وتوضيح مكانة العلماء وقدرهم ومترلتهم عند الله تعالى؛ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير﴾^(١). وقوله - عز وجل: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء إن

(١) المجادلة آية (١١).

الله عزيز غفور»^(١). ويقول - جل شأنه: «قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون»^(٢).

ومن الأحاديث الدالة على فضل العلماء وأهميتهم، وعلو مكانتهم في المجتمع، وتأثيرهم في الناس، ما ورد في الصحيحين عن معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(٣).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»^(٤).

ومن فضل الله تعالى على المسلمين أن هيا لهم - في كل زمان - علماء مخلصين يقولون بالحق، وبه يعدلون، يجاهدون في الله حق جهاده لا يتغون بذلك جزاء ولا شكوراً، لا يخشون إلا الله تعالى، ويرجون ما عنده من ثواب، ويخافون عقابه؛ لأنهم أعلم الناس - بعد الأنبياء - بأمر

(١) سورة فاطر، آية (٨٣).

(٢) سورة الزمر آية (٩).

(٣) صحيح البخاري مع الفتح (١/١٦٤)، كتاب العلم، وصحيح مسلم بشرح النووي (١٢٨/٧)، كتاب العلم.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/٢٢٧)، كتاب العلم، سنن أبي داود (١٦/٥)، كتاب لزوم السنة.

الفصل الثالث: جهود العلماء في الحفاظ على السنة في بلاد الشام ومصر ١٠٤٥

الشريعة؛ فهم أحشى الأمة وأتقاهم لمن صدق مع الله وأخلص نيته، دون نظر أو اهتمام بمتع الدنيا الفانية، ولذاتها الزائلة؛ بل يتطلعون إلى النعيم المقيم الذي لا يزول ولا يحول.

وللعلماء دور كبير في توثيق الصلة بين الراعي والرعية، وفي إصلاح عقائد الناس، وتوجيهها للمنهج السليم، والمعتقد الصافي الخالي من الشوائب؛ حيث يحذرونهم من أي انحراف في العقيدة أو خلل، ويقفون - في الوقت نفسه - ضد أهل البدع والأهواء والزيغ والضلالات والعقائد الفاسدة؛ التي تفسد على الناس عقيدتهم، وتؤثر في مسلكهم؛ وهذا من فضل الله تعالى؛ الذي قيض لدينه علماء عاملين مخلصين مجاهدين لا يخافون في الله لومة لائم؛ فقمعوا تلك الأفكار والأهواء الضالة، وقاموا بواجب الوعظ والنصح والتدريس، وتأليف الكتب والموسوعات النافعة؛ يستفيد منها المجتمع جيلاً بعد جيل؛ وهذا من حفظ الله تعالى لدينه؛ الذي تكفل به سبحانه؛ فحصل بهؤلاء العلماء المخلصين نفع عظيم وخير كبير للإسلام وأهله على الدوام؛ رغم صراع أهل الباطل والزيغ والضلالات، ومحاولاتهم المستميتة في سبيل نشر دعوتهم الفاسدة، ولكن الله غالب على أمره؛ وعد أهل الحق بالنصر والتأييد، وأهل الباطل بالقمع والنكال والتشريد.

ومن هذا المنطلق ظهر - في بلاد الشام ومصر في العصر السلجوقي - الكثير من العلماء؛ الذين كان لهم الدور العظيم، والجهد البارز، والمواقف

المشرفة في الحفاظ على كيان أهل السنة، والقضاء على المذهب الشيعي الباطني الإسماعيلي في الشام ومصر.

ونذكر من هؤلاء العلماء -على سبيل المثال لا الحصر بداية- نماذج من العلماء؛ الذين كانت لهم صلة مباشرة ووثيقة برجال الدولة وسلاطينها وملوكها؛ لما في ذلك من أثر كبير في الحفاظ على السنة، والقضاء على المذاهب العقدية المنحرفة، وعلى الخصوص المذهب الشيعي الباطني؛ لأن الحكام -في ذلك العصر- أمثال نور الدين محمود، وصلاح الدين، كانوا يستمعون إلى مناصحة العلماء لهم، ومواعظهم، ويعملون بها، ويأخذون بأرائهم السديدة، ويستأنسون بها؛ وهذا ما أفاد الدولة الإسلامية، وأثر في المجتمع الإسلامي تأثيراً كبيراً؛ لأن القوة المؤثرة في المجتمع والتي تقوده إلى الخير والعزة، مقسمة بين السلطة السياسية والقيادة الفكرية المؤثرة في الرأي العام الإسلامي، فإذا اتحدت هاتان القوتان بمنطلق صحيح ومنهج واضح وغاية واحدة وإخلاص لله، ارتفعت الأمة الإسلامية، وعلا شأنها، وأعزها الله تعالى بهذا الدين؛ لأن صلاح الحكام والعلماء له تأثيره المباشر في صلاح الناس بصفة عامة؛ وذلك لامتزاج السلطة السياسية بقيادة الفكر، وأرباب الكلمة، ومشاعل النور والهدى (العلماء)، لكونهم يوجهون الناس، ويرشدونهم لما فيه نفعهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة.

ومن هنا كان نور الدين وصلاح الدين على دراية كبيرة بمثل هذا التوافق بين الحكام والعلماء، ويدركون أهميته وتأثيره؛ لذا نجد بعض

الفصل الثالث: جهود العلماء في الحفاظ على السنة في بلاد الشام ومصر ١٠٤٧

وزرائهم وقادتهم كانوا على مستوى كبير من القيادة والإدارة والسياسة؛ مع ما يحملونه من علم شرعي ودين وورع وتقوى، أدى كل ذلك إلى وحدة الأمة وقوتها ووقوفها ضد التحالف الصليبي الباطني، وضد التيارات المنحرفة؛ التي أحاطت بالأمة، رغم تخطيط أولئك الأعداء وقوتهم، وصبرهم وتحملهم في سبيل دعواتهم الباطلة، وأفكارهم الضالة، وأطماعهم في النيل من المسلمين، والسيطرة على خيرات الأمة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

ومن أمثلة هؤلاء العلماء الذين تحدثنا عن تأثيرهم وصلتهم برجال الدولة:

أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم بن المظفر بن علي الشهرزوري، الذي ولد سنة (٤٩١هـ)، وتفقه ببغداد، وتولى قضاء الموصل، ثم قدم الشام وافداً على نور الدين محمود بن زنكي؛ الذي أكرمه وبالغ في إكرامه، وولاه قضاء دمشق، وناظر الأوقاف، وناظر أموال السلطان، وتمكن في أيام نور الدين تمكناً بالغاً حتى وصل إلى الوزارة^(١).

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٤١/٤)، ابن الجوزي: المنتظم (٢٦٨/١٠)، ابن الأثير: الكامل (٤٤١/١١)، ابن السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (١١٧/٦)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٧٩/٦).

وكان الشهرزوري، كما وصفه الذهبي وابن كثير والسبكي وابن العماد وغيرهم، فاضلاً ديناً أميناً ثقة، فقيهاً أصولياً أديباً شاعراً، ذا أفضال^(١).

وكان جواداً، ذا عقل ومعرفة في تدبير الدول، كما يذكر ابن الأثير^(٢).

واستمر الشهرزوري على تلك المكانة والحظوة في عهد صلاح الدين؛ الذي أقره على ما كان عليه، ونال عنده ما لم ينله أحد من الفقهاء والعلماء من التقدم ونفاذ الكلمة والاستشارة. ومن أمثلة ذلك أن السلطان صلاح الدين؛ لما أخذ دمشق، وتمنعت عليه القلعة أياماً، مشى بنفسه إلى دار القاضي كمال الدين زائراً مستشيراً؛ فتلقاه وجالسه وباسطه، وقال: طب نفساً، وقر عيناً؛ فالأمر أمرك والبلد بلدك^(٣).

ويعلق السبكي على ذلك الموقف؛ فيقول: "وفي هذا من الدلالة على جلالة قدر القاضي -أي: كمال الدين- ما لا يخفى"^(٤).

وأسند إليه -في أيام نور الدين مع القضاء- أمر المساجد والمدارس والأوقاف والحسبة والأمور الدينية والشرعية، وكان صاحب القلم

(١) انظر: العبر (٦٣/٣)، البداية والنهاية (٢٩٦/١٢)، طبقات الشافعية الكبرى (١١٨/٦)، شذرات الذهب (٢٤٣/٤).

(٢) الكامل في التاريخ (٤٤١/١١).

(٣) الذهبي: العبر (٦٣/٣)، وانظر: السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (١١٨/٦).

(٤) طبقات الشافعية الكبرى (١١٨/٦).

والسيف^(١)، ومع ذلك كله كان كثير الصدقة، يهب الألف دينار فما فوقها، وكانت له أوقاف كثيرة؛ منها مدرسة بالموصل، ومدرسة بنصيبين، ورباطٌ بمدينة الرسول ﷺ، وله أوقاف بدمشق^(٢).

وكان يتردد في الرسائل بين بغداد ودمشق وغيرها، وقد سيّره الخليفة المقتفي العباسي رسولاً للإصلاح بين نور الدين، وقلج أرسلان بن مسعود؛ صاحب الروم، ولم يكن شيء من أمور الدولة يخرج عنه، كان عظيم الرياسة خبيراً بتدبير الملك^(٣).

توفي في المحرم سنة (٥٧٢هـ)^(٤).

ومن العلماء؛ الذين كانت لهم صلة وثيقة بالحكام ورجال الدولة، وكان لهم الدور البارز والجهد المميز في الحفاظ على السنة والقضاء على المذهب الشيعي في ذلك العصر: الإمام القاضي عبد الله بن محمد بن هبة الله بن أبي عصرون؛ أحد الأعلام، كان من أعيان الأمة وأعلامها، عارفاً بالمذهب والأصول، ديناً خيراً متواضعاً، ملأ البلاد تصانيف وتلاميذة، وعنه أخذ الفقه فخر الدين ابن عساكر، وغيره، كان خصيصاً بنور

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٧٩/٦).

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٤١/٤-٢٤٢)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (١١٨-١١٩).

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٤٢/٤)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٩٦/١٢).

(٤) الذهبي: العبر (٦٣/٣)، ابن الأثير: الكامل (٤٤١/١١)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (١٢١/٦).

الدين؛ الذي أقبل عليه عندما قدم إلى حلب، ثم استصحبه معه إلى دمشق، ودرس بالغزالية، وتولى منصب قاضي قضاة دمشق، وعُيّن ناظرًا للأوقاف، وعظمت مكانته، ونفذت كلمته، وبني له نور الدين المدارس بحلب وحمص وحماة وبعلبك، وبني ابن أبي عصرون لنفسه مدرستين بدمشق وحلب^(١)، وهذا ما يهمننا -هنا- لأن المدارس لها تأثيرها المباشر والفعال في الحفاظ على كيان أهل السنة، وتحذير الناس من المعتقدات والأفكار المنحرفة.

وكانت لابن أبي عصرون مصنفات كثيرة؛ ذكرها السبكي في طبقاته^(٢).

واستمرت صلته -أيضًا- بصلاح الدين؛ حيث ولاه القضاء سنة (٥٧٣هـ) في دمشق^(٣)؛ مما يؤكد عمق العلاقة بين السلاطين والأمراء من جهة والعلماء وأرباب الكلمة والرأي من جهة أخرى.

(١) انظر عن القاضي عبد الله بن أبي عصرون، ابن الأثير: الكامل (٤٢/١٢)، الذهبي: تذكر الحفاظ (١٣٥٧/٤)، العبر (٩٠/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (٣٣٣/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٠٩/٦)، ابن العماد: شذرات الذهب (٢٨٣/٤).

(٢) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (١٣٣/٧-١٣٤).

(٣) الذهبي: العبر (٩١/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (٣٣٣/١٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٠٩/٦).

توفي ابن أبي عصرون في شهر رمضان سنة (٥٨٥هـ) ^(١). وكذلك من العلماء؛ الذين كان لهم دور بارز في الحفاظ على السنة، والقضاء على المذهب الشيعي الباطني، ومحاربة العبيديين، والتأليب عليهم، ولعنهم علانية، ووصفه لهم بالزندقة واليهودية، وكانت له اليد الطولى في تشجيع صلاح الدين لغزو مصر، وإزالة الدولة العبيدية؛ ذلكم هو العالم محمد بن الموفق بن سعيد بن علي الخبوشاني؛ الذي يقول عنه السبكي: "كان إماماً جليلاً كبير المحل في الورع، أحد الأئمة علماء وديننا وورعاً وزهداً؛ قل أن ترى العيون مثله زهداً وعلماً وأمرًا بالمعروف وتصميماً على الحق" ^(٢)

وكان يقول بملء فيه: "أصعد إلى مصر، وأزيل ملك بني عبيد اليهودي"، فصعدها وصرح بلعنهم، وचारوا في أمره، وأرسلوا إليه بمال عظيم ^(٣)، ولكنه لم يأبه به، وقد جعله السبكي السبب الرئيسي في تحويل الرأي العام المصري عن العبيديين؛ ذلك أنه لما توفي العاضد العبيدي، تخوف الناس من الخطبة لبني العباس بادئ الأمر، حذرًا من الشيعة؛ فوقف الخبوشاني أمام المنبر بعصاه وأمر الخطيب أن يذكر بني العباس، ففعل، ولم

(١) الذهبي: تذكرة الحفاظ (٤/١٣٥٧).

(٢) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٧/١٤)، ثم انظر: الذهبي: العبر (٣/٩٥)، ابن

كثير: البداية والنهاية (١٢/٣٤٧)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٦/١١٥)،

ابن العماد: شذرات الذهب (٤/٢٨٨).

(٣) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٧/١٥).

يكن إلا خيراً؛ فوصل إلى بغداد الخبر، فزينوها وأظهروا الفرح والسرور بزوال دولة العبيدين الشيعة^(١)، وعودة الخطبة للعباسيين والسلاجقة.

وكان الخبوشاني قد قدم مصر سنة (٥٦٥هـ)، فأقام بمسجده بالقاهرة مدة، وكان السلطان صلاح الدين يقدره، وأعطاه مالاً؛ فبنى به المدرسة التي بجانب الشافعي، وفوضّ تدريسيها إليه، توفي سنة (٥٨٧هـ)^(٢).

وفي هذا دلالة واضحة على قوة العلاقة بين السلاطين والعلماء، وآثار تلك العلاقة لا شك تنعكس مباشرة على المجتمع الإسلامي، ومن ثم تؤدي إلى الحفاظ على كيان أهل السنة، ومحاربة الفرق الضالة والتيارات المنحرفة، ولا نجد غرابة في ذلك؛ إذا ما استعرضنا الكتب؛ التي ترجمت للسلطان صلاح الدين ونور الدين محمود؛ التي تؤكد مدى صلتهم بالعلماء، وإكرامهم لهم، والإحسان إليهم، وتقديمهم في المشورة في جميع أمور الدولة والمسلمين عامة؛ فقد ذكر ابن خلكان أن السلطان صلاح الدين: "كان يحب العلماء وأهل الخير، ويقربهم، ويحسن إليهم"^(٣).

(١) انظر: السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (١٥/٧).

(٢) الأسنوي: طبقات الشافعية (٢٣٧/١)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى

(١٤/٧)، ابن كثير: البداية والنهاية (٣٤٧/١٢).

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٠٧/٧).

الفصل الثالث: جهود العلماء في الحفاظ على السنة في بلاد الشام ومصر ١٠٥٣

وهناك بعض العلماء؛ الذين أثروا في حياة صلاح الدين؛ كما يذكر ابن شداد والسبكي أن صلاح الدين تعلم على يد كبار العلماء، وسمع الحديث من الحفاظ: أبي طاهر السلفي، وأبي الطاهر بن عوف، وعبد الله ابن بري النحوي، والشيخ قطب الدين النيسابوري؛ الذي كتب عقيدة الإسلام له ولأولاده^(١).

وهذا ما يؤكد لنا أن القيادات السياسية والعسكرية والإدارية - في ذلك العصر - قد تميزت بالتزامها الديني والعقدي في جميع نشاطاتها وأعمالها، والسبب في ذلك هو التربية الإسلامية والتنشئة الصالحة؛ فقد كان نور الدين محمود بن زنكي تقيًا ورعًا، كثير المطالعة للكتب الدينية، متبعًا للآثار النبوية، محافظًا على الصلوات في الجماعات، كثير التلاوة محبًا لفعل الخيرات، كان حنفي المذهب، ولكن دون تعصب؛ فالمذاهب عنده سواء، ولا تعدو أن تكون مدارس في الفقه، وكان يحب العلماء ويكرمهم ويحترمهم ويحسن إليهم، ولما فتح دمشق أحسن إلى أهلها، وبنى لهم المدارس والمساجد والربط...^(٢).

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص (٧)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٣٤٠/٧).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٤٠٥/١١)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٧٨/١٢)، ثم انظر: ابن قاضي شهاب: الكواكب الدرية ص (٥٦)، وللاستزادة عن نور الدين وجهاده وعدله وسيرته وأخبار دولته، انظر: كتاب "الباهر في الدولة الأتابكية" لابن الأثير،

وكان صلاح الدين على نفس السيرة والنهج، فقد كان فقيهاً، درس الفقه الشافعي، وسمع الحديث من بعض العلماء - كما مر - كذلك روى الحديث عنه أناس؛ مثل: يونس بن محمد الفارقي، والعماد الكاتب وغيرهما، ويقال إنه كان يحفظ القرآن، وكتاب "التنبيه" في الفقه، و"الحماسة" في الشعر، وكان مجلسه حافلاً بأهل العلم، يجمع فيه العلماء والفضلاء، ويتدارسون أمور دينهم ودنياهم^(١).

وهكذا كان تعلق هذا الجيل بالدين وصلتهم بالعلماء وتأثرهم بهم، جعلهم يحرصون على الجهاد والاستشهاد، ويختارون ألقابهم وأسماءهم على نحو يتفق مع هذه النزعة؛ فيختارون لأنفسهم: عماد الدين، وسيف الدين، ومعين الدين، ونور الدين، وصلاح الدين، وأسد الدين، ونجم الدين، وزين الدين، ونحو ذلك؛ مما يدل على عمقهم الديني

وكتاب: "الشهيد نور الدين محمود زنكي" لمحمد علي قطب، وكتاب: "نور الدين محمود" لحسين مؤنس.

(١) انظر عن صلاح الدين: ابن خلكان: وفيات الأعيان (١٣٩/٧)، ابن الأثير: الكامل (٩٥/١٢)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٣٣٩/٧)، ومن المعتذر حصر المصادر الأصلية التي تحدثت عنه وعن سيرته وأخباره، ويكفي أن نذكر منها: سيرة صلاح الدين لابن شداد، والروضتين في ذكر الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة، ومفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل، والفتح القسي في الفتح القدسي للعماد الأصفهاني، ومضمار الحقائق للأيوبي، وكذلك كتب التاريخ العامة والكتب المعاصرة التي تحدثت عنه.

وروحهم الإسلامية، وتعلقهم بالله - سبحانه وتعالى - في جميع شؤونهم وأعمالهم^(١).

وقد تأثر رجال نور الدين وصلاح الدين بهما كثيراً، وكانوا على المستوى نفسه من العلم والدين والأخلاق؛ سواء كانوا وزراء أو قادة أو أمراء، ومن أمثلة ذلك: الوزير أبو الفضل محمد بن عبد الله الشهرزوري، وعبد الله بن محمد بن أبي عصرون، وقد تقدم الحديث عنهما، ومثلهما وزير صلاح الدين الشهير، وكاتبه ومستشاره القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي؛ الذي قال عنه صلاح الدين: "لم أفتح البلاد بسيفي، وإنما برأي القاضي الفاضل"، وكان القاضي الفاضل يجمع إلى حنكته السياسية والإدارية، ورعاً فائقاً؛ فكان كثير الصيام والصدقة والصلاة وقراءة القرآن، وكان متواضعاً يكثر عيادة المرضى، والإحسان للفقراء، حسن السيرة، له مدرسة بمصر للشافعية، والمالكية، اقتنى من الكتب نحواً من مائة ألف كتاب، وكان يقدره صلاح الدين كثيراً، ويأخذ برأيه، توفي سنة (٥٩٦هـ)^(٢).

وكذلك كان الأمير ضياء الدين عيسى بن محمد الهكاري، كان من أعيان أمراء الجيش زمن صلاح الدين، وكان فقيهاً كريماً تفقه على الإمام

(١) ماجد الكيلاني: هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص (٢٢٩).

(٢) الذهبي: العبر (١١٥/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢٤/١٣)، ابن تغري بردي:

النجوم الزاهرة (١٥٩/٦)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٢٤/٤).

أبي القاسم بن البرزي بالجزيرة، ثم انتقل إلى حلب، وسمع من الحافظ أبي طاهر السلفي، والحافظ بن عساكر، وكان ذا شجاعة فائقة، وحنكة عسكرية^(١).

وأيضاً الأمير بهاء الدين قراقوش، كان عالماً فقيهاً، إلا أنه كرّس نفسه للخدمة الإدارية والعسكرية؛ فقد كان والي صلاح الدين على عكا، وكان من أروع القادة وأشجعهم، ويبدو أن سياسته في القاهرة كانت حكيمة وحازمة، ولها دورها الكبير في إزالة آثار الفاطميين، وتضييق الخناق على بقاياهم؛ لذلك لم يجدوا سبيلاً لمحاربتة إلا بالإشاعات، وتشويه سمعته؛ فوضعوا عنه كتاباً؛ أسماه "كتاب الفاشوش في أحكام قراقوش"، توفي سنة (٥٩٧هـ)^(٢).

ولا شك أن هذه الشخصيات؛ التي ذكرناها؛ والتي جمعت بين الدين والعلم وإدارة والسياسة، لم تكن إلا نموذج لرجال الإدارة والحكم زمن نور الدين وصلاح الدين؛ وهذا التجانس والتوافق كان له أثره العظيم في الحفاظ على السنة والقضاء على المذهب الشيعي في بلاد الشام ومصر في ذلك العصر؛ وهو ما يهمننا في موضوع هذا الفصل؛ من خلال الربط بين الحكام والعلماء؛ لأن ذلك يؤدي إلى حشد مقدرات الأمة،

(١) ابن الأثير: الكامل (٤٢/١٢)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٢٩٠/٤).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (٣١/١٣)، وفيه يذكر أن تلك الأشياء؛ التي ذكرت في الكتاب موضوعة عليه، وأن صلاح الدين كان يعتمد عليه كثيراً.

الفصل الثالث: جهود العلماء في الحفاظ على السنة في بلاد الشام ومصر ١٠٥٧

وتهيئتها لمجابهة التحديات في الداخل والخارج؛ وهذا ما سجلته أحداث التاريخ من خلال جهود نور الدين وصلاح الدين وأولئك العلماء والقادة والقضاة ورجال الدولة إجمالاً؛ حيث تضافرت الجهود، وتوحدت الصفوف، ضد الأعداء المتربصين بالإسلام وأهله عسكرياً وعقدياً.

والآن إلى استكمال النماذج الخالدة من العلماء؛ الذين كان لهم الدور البارز في الحفاظ على السنة، ومحاربة التيارات المنحرفة في ذلك العصر، فمن أولئك: الشيخ الإمام مسعود بن محمد بن مسعود؛ أبو المعالي قطب الدين النيسابوري، كان عالماً ورعاً متواضعاً، كان إماماً في المذهب، درس بنظامية نيسابور، ثم قدم بغداد ووعظ بها، وحصل له بها القبول التام، ثم جاء إلى دمشق ودرس بالمدرسة المجاهدية مدة، ثم بالغزالية، ثم خرج إلى حلب، ودرس بها بالمدرستين؛ اللتين بناهما نور الدين وأسد الدين، ثم سافر إلى بغداد ومنها إلى همدان ودرس بها، ثم عاد إلى دمشق واستوطنها، ودرس بالغزالية والجاروخية، وكان يبعث رسوماً إلى ديوان الخلافة، توفي بدمشق سنة (٥٧٨هـ) ^(١).

ومن هؤلاء العلماء -أيضاً: الإمام صدر الدين أبو القاسم عبد الملك ابن درباس الكردي الشافعي، كان مشهوراً بالصلاح، والغزو، وطلب

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان (١٩٦/٥)، الأسنوي: طبقات الشافعية (٢٧٩/٢)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٢٩٧/٧)، والمدرسة الغزالية والجاروخية من مدارس دمشق. انظر: النعيمي: الدارس في أخبار المدارس (٣١٣/١، ١٦٩).

العلم، وكان من جلة العلماء وفضلائهم، روى عنه الحافظ زكي الدين المنذري، توفي سنة (٦٠٥هـ). بمصر^(١).

وكذلك: أبو الحسن شيخ الشيوخ صدر الدين محمد بن شيخ الشيوخ عماد الدين عمر بن علي الجويني، كان فقيهاً فاضلاً، من بيت رياسة وإمرة عند بني أيوب، درّس بمصر بمدرسة الشافعي، ومشهد الحسين، وكانت له حرمة وافرة عند الملوك، أرسله الكامل إلى الخليفة المستضيء يستنصره على الفرنج، فمات بالموصل ودفن بها سنة (٦١٧هـ)^(٢).

ومنهم كذلك: الشيخ حامد بن محمود الحراي؛ الذي بني له نور الدين مدرسة في حران وأسلمها إليه، وقد ذكر عنه ابن رجب في الطبقات أن "نور الدين محمود كان يقبل عليه، وله فيه حسن ظن"، توفي سنة (٥٧٠هـ)، وقد ولاه نور الدين التدريس والقضاء والمظالم في حران^(٣).

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٧٤/٢١)، العبر (١٣٩/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية

(٥٢/١٣)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٩٦/٦).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٤٠٠/١٢)، الذهبي: العبر (١٧٥/٣)، ابن كثير: البداية

والنهاية (٩٣/١٣)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٢٥١/٦)، ابن العماد:

شذرات الذهب (٧٧/٥).

(٣) ابن رجب: طبقات الحنابلة (٣٣٣/٢).

ومثله: علي بن برداون بن زيد الكندي؛ الذي حظي عند السلطان نور الدين بمكانة عالية^(١).

ومن المعلوم أنه كان لدى نور الدين وصلاح الدين مجالس دورية، يلتقي فيها القادة والوزراء والعسكريون مع العلماء والفقهاء؛ حيث يحتل العلماء المترلة الأولى في تلك المجالس؛ ولذلك حاول بعض قادة الجيش النيل من هذه المكانة المرموقة؛ التي حظي بها أولئك العلماء في ذلك العصر؛ فصار البعض منهم يغتاب العلماء، وحدث مرة أن نال أحد القادة من الفقيه قطب الدين النيسابوري -المتقدم ذكره- في مجالس نور الدين، فما كان نور الدين إلا أن قال له بعد أن استشاز غضباً: "يا هذا إن صح ما تقوله فله حسنة تغفر له كل زلة تذكرها، وهي العلم والدين، أما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت، وليست لكم حسنة تغفرها، ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم، أفلا أحتمل سيئة هذا - إن صحت - مع وجود حسنته عليّ؟ إنني والله لا أصدقك فيما تقول، وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء لأوذنيك"^(٢).

فتأمل هذا الرد الملجم والجواب المفحم من السلطان نور الدين؛ الذي يؤكد عظمة العلماء عنده، وثقته التامة بهم، ويوثق العلاقة والرابطة بين الحكام والعلماء، وما لها من آثار حميدة على الفرد والمجتمع؛ لأنها

(١) ابن رجب: طبقات الحنابلة (٣١٣/٢).

(٢) حسين مؤنس: نور الدين محمود ص (٣٩٩).

تؤدي إلى تكامل وتوافق القيادات السياسية والعلمية، وخطر الفجوة بينهما إن وجدت، وعدم التفرد بالرأي؛ بل مشاوررة العلماء المخلصين فيما يخص أمور الدولة والرعية؛ وهذا الجانب ظهر -بجلاء ووضوح- في ذلك العصر بتوفيق الله تعالى لهم؛ ولذلك مكنهم في الأرض، وأورثهم إياها؛ مع ما يدخر لهم في الآخرة من الأجر والثواب العظيم -إن شاء الله تعالى- نظير ما قدموه من خدمات جليلة للإسلام والمسلمين؛ إبان مُدَّة حكمهم ومسؤوليتهم عن الرعية؛ التي استرعاهم الله تعالى عليها.

ومن العلماء؛ الذين كانت لهم جهود بارزة في الحفاظ على السنة، وإظهارها، والوقوف ضد الفرق الضالة في ذلك العصر؛ أيضا: الحافظ السلفي أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد الأصبهاني الجرواني، كان حافظًا جليلًا، وإماما كبيرا واسع الرحلة دينًا ورعًا حجة ثبًا، فقيها لغويًا، حكى عن نفسه أنه حدث سنة (٤٩٢هـ-)، وما في وجهه من شعرة، وأنه كان ابن سبع عشرة سنة أو نحوها، رحل إلى دمشق، ثم إلى مصر ودرس بها^(١)، وقد مر معنا أن صلاح الدين سمع الحديث من كبار العلماء -آنذاك- ومنهم أبو طاهر السلفي.

(١) الذهبي: العبر (٧١/٣)، تذكرة الحفاظ (١٢٩٨/٤)، ابن كثير: البداية والنهاية (٣٠٧/١٢)، الأسنوي: طبقات الشافعية (٣٣٩/١)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٣٢/٦).

ويقول عنه الذهبي: "لا أعلم أحدًا في الدنيا حدّث نيّفًا وثمانين سنة سوى أبي طاهر السلفي" (١).

وكانت إقامته بالإسكندرية بضعا وستين سنة، ملازمًا -خلال هذه المدة الطويلة- مدرسته، مكبًا على الاشتغال والمطالعة والنسخ وتحصيل الكتب، وكان أمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، أزال -من جواره- منكرات كثيرة، توفي سنة (٥٧٦هـ) وعمره أكثر من مائة سنة (٢).

ومن هؤلاء العلماء -أيضًا: الشيخ الإمام العالم الجليل الواعظ الفقيه زين الدين أبو الحسن، علي بن إبراهيم بن نجما الأنصاري الدمشقي الحنبلي، قدم بغداد ففتقه بها وسمع الحديث، ثم رجع إلى دمشق، ثم عاد إليها رسولًا من جهة نور الدين محمود سنة (٥٦٤هـ)، وكان مليح الوعظ، لطيف الطبع، حلو الإيراد، كثير المعاني، متدينًا، حميد السيرة، ذا منزلة رفيعة، كان كبير القدر معظمًا عند السلطان صلاح الدين، له حظوة عنده، كان يكاتبه ويحضره مجلسه، نزيل مصر، وكانت له مكانة بها (٣).

(١) انظر: العبر (٧١/٣).

(٢) ابن الأثير: الكامل (٤٦٩/١١)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٨٨/٤)، ابن العماد: شذرات الذهب (٢٥٥/٤).

(٣) الذهبي: العبر (١٢٦/٣)، سير أعلام النبلاء (٣٩٣/٢١)، ابن كثير: البداية والنهاية (٣٥/١٣)، ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة (٤٣٦/١)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٨٣/٦).

كان أحد رجالات صلاح الدين ومستشاريه؛ وهذا يؤكد ما ذكرنا -سابقا- من الترابط والعلاقة والصلة بين نور الدين وصلاح الدين والعلماء في الشام ومصر؛ الأمر الذي يؤدي -في النهاية- للحفاظ على السنة، والقضاء على المذهب الشيعي والأفكار والعقائد المنحرفة؛ وهذا يتأكد لدينا عندما آل أمر مصر إلى صلاح الدين خص نفسه بآبن نجاشة العالم الواعظ، وجعله من مستشاريه، ويصور لنا أبو شامة طبيعة العلاقات بين الاثنين فيقول: "وكان السلطان يستشير، ويروقه تدبيره، ويميل إليه، لتقدم معرفته، وكرام سجيته" (١).

ويذكر ابن رجب أن صلاح الدين كان يسمي ابن نجاشة عمرو بن العاص، ويعمل برأيه؛ لسداد رأيه، وسعة حيلته، وأن كثيراً من أرباب الدولة وأهل السنة في مصر كانوا لا يخرجون عما يراه لهم زين الدين بن نجاشة، وأن الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين قال له: "إذا رأيت مصلحة في شيء فاكتب إلي بها، فأنا ما أعمل إلا برأيك" (٢).

ومثل هذه الأقوال والنصوص توضح علاقة العلماء وصلتهم القوية بأهل السنة، والحفاظ على كيانهم، وتحذيرهم من مواقع الزلل، أو التأثير بالفرق الضالة.

(١) أبو شامة: الروضتين (٥٨/٢).

(٢) ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة (٤٣٧/١-٤٣٨).

الفصل الثالث: جهود العلماء في الحفاظ على السنة في بلاد الشام ومصر ١٠٦٣

وقد قام زين الدين بن نجح بدور كبير زمن صلاح الدين؛ وذلك بكشفه مؤامرة الفاطميين ضد السلطان صلاح الدين سنة (٥٦٩هـ—)، ففي تلك السنة اتفق جماعة من العبيديين - برئاسة عمارة اليمنى - على الإطاحة بصلاح الدين؛ حيث كانت خطتهم تقضي باستدعاء الصليبيين لمهاجمة مصر من الشمال؛ فينشغل صلاح الدين بمقاومتهم؛ وبذلك يتيسر لعمارة وأصحابه تنفيذ ما يريدون، غير أن العالم ابن نجح أخبر صلاح الدين بنواياهم، وصار ينقل إليه أخبارهم وتحركاتهم أولاً بأول، إلى أن كشف أمرهم، وفشلت خطتهم؛ فاعتقلهم صلاح الدين، وأمر بصلبهم جميعاً^(١).

وكان صلاح الدين -عندما يخرج لمحاربة الصليبيين في بلاد الشام- يكتب العالم زين الدين بن نجح بوقائعه، ويخبره بانتصارات المسلمين، من ذلك أنه عندما فتح قلعة حمص سنة (٥٧٠هـ) كتب إليه يصف القلعة برسالة مطولة^(٢).

واستمر ابن نجح يعمل -بتواصل- مع صلاح الدين؛ حتى دخل معه بيت المقدس فاتحاً، وألقى في المسجد الأقصى أول مجلس للوعظ؛ وذلك

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣٩٥/٢١)، ابن كثير: البداية والنهاية (٣٥/١٣).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (٢٨٩/١٢-٢٩٠).

يوم الجمعة؛ التي خطب فيها بالقدس، وفي الجمعة الثانية طلب صلاح الدين منه أن يكرر الوعظ في المسجد ففعل^(١).

وهكذا، تتوحد القيادات السياسية مع العلماء ورجال الفكر، وتصب جهود الجميع في منهاج واحد وغاية واحدة وهدف نبيل هو خدمة الإسلام والمسلمين؛ والمحافظة على كيانهم وعقيدتهم.

توفي زين الدين بن نجاة سنة (٥٩٩هـ)^(٢) بعد حياة حافلة بالعطاء والوعظ والتدريس والجهود الموفقة والأدوار المتعددة.

ومن أشهر علماء ذلك العصر، والذين كان لهم الدور البارز واليد الطولى في الحفاظ على السنة في ذلك العصر: الإمام العالم الحافظ الكبير المحدث العابد الأثري، عالم الحفاظ تقي الدين أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد بن علي المقدسي الجماعيلي ثم الدمشقي، ولد سنة (٥٤١هـ) بجماعيل - من أرض فلسطين - هاجر صغيراً إلى دمشق، وسمع بها الكثير، وكذلك بالإسكندرية وبيت المقدس ومصر وبغداد وحران والموصل وأصبهان وهمدان، وكتب الكثير، وإليه انتهى حفظ الحديث متناً وإسناداً ومعرفة بفنونه، مع الورع والعبادة والتمسك بالأثر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كان لا يرى منكرًا إلا غيَّره بيده أو بلسانه، وكان لا تأخذه في الله لومة لائم، وكثيراً ما كان - بدمشق - ينكر المنكر، ويكسر

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (٢٨٩/١٢ - ٢٩٠)، أبو شامة: الروضتين (١٠٩/٢).

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣٩٧/٢١)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٤٠/٤).

الفصل الثالث: جهود العلماء في الحفاظ على السنة في بلاد الشام ومصر ١٠٦٥

الطنابير وآلات اللهو، وكانت له هيبة ومكانة عند السلاطين ورجال الدولة، ولم يعرفه أحد من أهل السنة أو رآه إلا أحبه ومدحه كثيراً، وكان كثير الصدقة سراً وعلانية، بعث إليه مرة الأفضل بن صلاح الدين بنفقة وقمح كثير ففرقه كله، وكان الأفضل يكرمه ويقدره كثيراً، وكذلك العادل وغيره من رجال الدولة في ذلك العصر^(١).

كان يقول عنه موفق الدين ابن قدامة: "كان الحافظ عبد الغني جامعاً للعلم والعمل، وكان رفيقي في الصبا وفي طلب العلم... وكمل الله فضيلته بابتلائه بأذى أهل البدعة وعداوتهم، ورزق العلم وتحصيل الكتب الكثيرة"^(٢).

صنف الكتب الكثيرة؛ التي كان لها أعظم الأثر في الحفاظ على السنة، في ذلك العصر وما بعده حتى يومنا هذا، ومنها: "المصباح في عيون الأحاديث الصحاح"، ونهاية المراد في كلام خير العباد"، و"تحفة الطالبين في الجهاد والمجاهدين"، و"محنة الإمام الأحمد"، و"ذم الرياء"، و"ذم الغيبة"، و"الأحكام الكبرى"، و"الصغرى"، و"السيرة"، و"الكمال في معرفة رجال

(١) انظر في ترجمته وأخباره: الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٤٣/٢١)، تذكرة الحفاظ (١٣٧٢/٤)، العبر (١٢٩/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (٣٨/١٣)، ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة (٥/٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٨٥/٦)، ابن العماد: شذرات الذهب (٣٤٥/٤)، وغيرها.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٥٣/٢١)، تذكرة الحفاظ (١٣٧٦/٤).

الكتب الستة"، و"الأدعية الصحيحة" وغير ذلك من الكتب والرسائل في شتى علوم الشريعة"^(١).

توفي سنة (٦٠٠هـ)^(٢)، وقد أسهب المؤرخون والمترجمون له في وصف زهده وتقواه، واشتغاله بالحديث، وتنظيمه وقته، وبركة ذلك في حياته، وكراماته ومناماته، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، ومحاربه أهل البدع والأهواء، وجهوده في التدريس والوعظ والفتيا والتأليف، وهذه هي الحياة المباركة في الدنيا والآخرة - إن شاء الله.

كما أن هناك العالم الفقيه المقرئ المحدث شيخ الإسلام أبا عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، أبا العلامة موفق الدين المقدسي، ولد بقرية جماعيل سنة (٥٢٨هـ) وهاجر إلى دمشق هو وأبوه وأخوه وقرابته مهاجرين إلى الله، وتركوا المال والوطن؛ لاستيلاء الفرنج على الأرض المقدسة، حدث عنه أخوه الشيخ موفق الدين الذي قال عنه: "ربانا أخي وعلمنا، وحرص علينا، وكان للجماعة كالوالد يحرص عليهم، ويقوم بمصالحهم" كان إماماً فاضلاً مقرئاً عابداً قانتاً لله، كثير النفع لخلق الله، كان على مذهب السلف الصالح حسن العقيدة متمسكاً بالكتاب والسنة، كان يخطب بالجامع ويكي الناس، ويقرأ الحديث سريعاً

(١) عن هذه الكتب والمصنفات المتنوعة له، انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٤٦/٢١).

(٢) الذهبي: تذكرة الحفاظ (١٣٨٠/٤)، العبر (١٢٩/٣).

الفصل الثالث: جهود العلماء في الحفاظ على السنة في بلاد الشام ومصر ١٠٦٧

بلا لحن، وكان إذا سمع بمنكر اجتهد في إزالته، ويكتب فيه إلى الملك؛ حتى قال عنه بعض الملوك: "هذا الشيخ شريك في ملكي"، توفي سنة (٦٠٧هـ) (١).

وبما أن الحديث موصول عن هذه الأسرة المباركة؛ التي أنعم الله تعالى عليها بالدين والعلم الشرعي، لا بد أن نتحدث عن علم من أعلامها البارزين؛ والذي كانت له الجهود العظيمة - في ذلك العصر - المتمثلة في التدريس والفتيا والوعظ والتأليف؛ ألا وهو: أبو محمد عبد الله بن أحمد ابن قدامة المقدسي الجماعيلي الدمشقي؛ الملقب بموفق الدين؛ وهو الشيخ الإمام القدوة العلامة المجتهد شيخ الإسلام، ولد -أيضاً- بجماعيل سنة (٥٤١هـ)، وهاجر مع أهل بيته وأقاربه - كما تقدم - وله عشر سنين، حفظ القرآن، وشرع في الإقبال على طلب العلم؛ فسمع الحديث، ورحل مرتين إلى العراق بصحبة الحافظ عبد الغني سنة (٥٦١هـ)، ودرس في بغداد الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ثم رحل إلى مكة سنة

(١) الذهبي: العبر (٣/١٤٧)، سير أعلام النبلاء (٥/٢٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (٥٨/١٣)، ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة (٥٢/٢)، أبو شامة: ذيل الروضتين ص (٧١)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٦/٢٠١)، ابن العماد: شذرات الذهب (٢٧/٥).

(٥٧٣هـ)، لطلب العلم -أيضاً^(١) - كان عالم أهل الشام في زمانه، وإمام الحنابلة بجامع دمشق، خصه الله بالعلم الوافر، وكان -مع تبخره في العلوم- ورعاً زاهداً تقيّاً ربانياً، عليه هيبة ووقار، كان إماماً من أئمة المسلمين، وعلماً من أعلام الدين في العلم والعمل.

قال عنه ابن تيمية: "ما دخل الشام -بعد الأوزاعي- أفقه منه"، وكان إماماً في القرآن، إماماً في التفسير، إماماً في علم الحديث، إماماً في الفقه؛ بل أوجد زمانه فيه، إماماً في علم الخلاف، أوجد زمانه في الفرائض، إماماً في أصول الفقه، إماماً في النحو، إماماً في الحساب، إماماً في النجوم السيّارة والمنازل، وكان يفهم الخصوم بالحجج والبراهين، ولم يبلغ أحد درجة الاجتهاد في زمنه إلا الموفق؛ لتعمقه في علوم الفقه والأصول، استقر في دمشق، واشتغل بالفقه وتدريسه، وفي الحديث، وانتفع به ومصنفاته خلق كثير^(٢).

ومن أشهر تلك المؤلفات كتاب: "المغني" في الفقه، شرح به مختصر الخرقى في عشرة مجلدات - وهو مطبوع - وكتاب "الكافي" في أربعة مجلدات، و"المقنع" و"العدة" و"روضة الناظر" في أصول الفقه، وله كذلك

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٦٥/٢٢)، العبر (١٨٠/٣)، أبو شامة: ذيل الروضتين ص (١٣٩)، ابن كثير: البداية والنهاية (٩٩/١٣)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٢٥٧/٦).

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب (٨٨/٥-٨٩)، ثم انظر: سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٦٢٧/٨-٦٣٠).

كتاب "الاعتقاد" و"البرهان" و"فضائل الصحابة" و"ذم التأويل" و"القدر" و"ذم الوسواس" و"التوابين" و"نسب الأنصار" وغير ذلك من الكتب والمصنفات والرسائل^(١).

واستمر ابن قدامة يقوم بدوره المنوط به تجاه دينه وأمته داعيًا إلى الله تعالى على بصيرة، ناشراً علوم الشريعة، محارباً البدع والأهواء، غير متعصب لمذهب أو منفرد برأي؛ حتى وافاه الأجل في دمشق سنة (٦٢٠هـ)^(٢)، بعد حياة حافلة بالعطاء والجهود والمواقف؛ التي أدت إلى الحفاظ على السنة، وقمع المبتدعة، ومحاربة الفرق الضالة والمنحرفة.

ويقول سبط ابن الجوزي عن أسرة المقداسة؛ التي باركها الله تعالى: "شاهدت من الشيخ أبي عمر، وأخيه الموفق، ونسيبه العماد، ما نرويه عن الصحابة والأولياء والأفراد؛ فأنستني حالهم أهلي وأوطاني، ثم عدتُ إليهم على نية الإقامة، عسى أن أكون معهم في دار المقامة"^(٣).

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٦٨/٢٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٠٠/١٣)، ابن العماد: شذرات الذهب (٩٠/٥-٩١).

(٢) أبو شامة: ذيل الروضتين ص (١٤٠-١٤١)، الذهبي: العبر (١٨١/٣)، ثم انظر: كتاب المغني لابن قدامة (المقدمة) ص (٦-٣٦)، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، والدكتور عبد الفتاح محمد الحلوة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ، دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٣١٣/٨-٣١٤).

ونستكمل ذكر النماذج الخالدة من علماء ذلك العصر؛ الذين كانت لهم جهود عظيمة في الحفاظ على السنة في بلاد الشام ومصر - آنذاك - من خلال تدريسهم في المدارس، ووعظهم في المساجد، وتصنيفهم الكتب والمؤلفات في العلوم الشرعية، وعلاقتهم الوثيقة بالسلطين ورجال الدولة، فمن هؤلاء: الشيخ الإمام العلامة شيخ الحنابلة وجيه الدين أبو المعالي أسعد بن المنجا بن أبي البركات القاضي الدمشقي الحنبلي، رحل إلى بغداد، فتفقه على كبار علمائها، ثم إلى دمشق، وتولى قضاء حران زمن نور الدين محمود، والذي بنى له مدرسة فيها، وأسلمها إليه، كذلك أسند نور الدين إليه التدريس في المدرسة المسمارية، واستمرت ذريته تتناوب التدريس في مدرسته فيما بعد^(١).

وكان له اتصال بالدولة وخدمة السلطين، وروى عنه جمع من العلماء؛ منهم: الشيخ موفق الدين بن قدامة - المتقدم - وابن خليل، والضياء، والزكي المنذري، وابن أبي عمر المقدسي، وغيرهم^(٢).
ألف كتاب "النهاية في شرح الهداية" في عدة مجلدات، وكتاب "الخلاصة في المذهب"، وفي أولاده علماء، توفي سنة (٦٠٦هـ)^(٣).

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٣٦/٢١)، العبر (١٤١/٣)، ابن رجب: ذيل طبقات

الحنابلة (٤٩/٢). وعن المدرسة المسمارية بدمشق والتي بناها الشيخ مسمار، انظر:

الدارس في أخبار المدارس (٨٩/٢).

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب (١٩/٥).

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤٣٧/٢١).

الفصل الثالث: جهود العلماء في الحفاظ على السنة في بلاد الشام ومصر ١٠٧١

ومن العلماء -أيضاً: العلامة قاضي الشام جمال الدين يونس بن بدران ابن فيروز المصري الشافعي، اختصر كتاب "الأم" للشافعي، وصنف في الفرائض، كان رسولاً إلى الملوك والخلفاء عن صاحب دمشق، وتولى التدريس في المدرسة الأمينية، ثم تولى وكالة بيت المال بدمشق، ثم ولاه الملك المعظم قضاء القضاة بدمشق بعد عزله الزكي ابن الزكي، وولاه كذلك التدريس في المدرسة العادلية الكبرى بدمشق؛ حين كمل بناؤها؛ فكان أول من درس بها، وكان يدرس فيها التفسير والفقه، وكان كثير المذاكرة للعلم، كثير الاشتغال، حسن المنهج، وكان في ولايته عفيفاً نزيهاً مهيباً، توفي سنة (٦٢٣هـ) ^(١).

ومن العلماء المشاهير كذلك في بلاد الشام في ذلك العصر: الشيخ الإمام العالم القدوة المفتي شيخ الشافعية ببلاد الشام فخر الدين أبو منصور عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الدمشقي؛ المعروف بابن عساكر، درس الفقه الشافعي على شيخه قطب الدين النيسابوري، وتزوج بابنته، وحدث بمكة ودمشق والقدس، وانفرد

(١) الذهبي: العبر (٣/١٩٢)، سير أعلام النبلاء (٢٢/٢٥٧)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٣/١١٤)، أبو شامة: ذيل الروضتين ص (١٤٨)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٨/٣٦٦)، ابن العماد: شذرات الذهب (٥/١١٢)، وقد تقدم الحديث عن المدرسة العادلية الكبرى، أما عن المدرسة الأمينية فانظر: النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس (١/١٣٢)، بناها أتابك العساكر بدمشق أمين الدولة، وانظر أيضاً: ابن شداد: الأعلام الخطيرة (٢/٢٣١).

بالفتوى على مذهب الشافعي، كان إماماً صالحاً قانتاً عابداً ورعاً، كثير الذكر، لا يخلو لسانه عن ذكر الله^(١).

كان الشيخ ابن عساكر مدرساً بالمدرسة العذراوية، وهو أول من درس بها، ثم تولى التدريس بالمدرسة النورية الكبرى، ثم درس بالمدرسة الجاروخية بدمشق، ثم بالمدرسة الصلاحية (الناصرية) بالقدس؛ فكان يقيم بدمشق أشهراً وبالقدس أشهراً، ثم أسند إليه السلطان العادل التدريس بالمدرسة التقوية، وكان يجتمع بها حشد من العلماء والفقهاء؛ حتى كانت تسمى نظامية بغداد^(٢)، وكان يفد إليه طلبة العلم من شتى الأقطار؛ لينهلوا من علمه الغزير، ويتأثروا بتقواه وتواضعه وحسن سمعته، وعرض عليه السلطان العادل منصب القضاء وألح عليه؛ فامتنع وأصر على ذلك وجهاز أهله للسفر؛ فأعفاه العادل من القضاء، ورق عليه، له مصنفات في الفقه والحديث، إلا أن المؤرخين وأصحاب التراجم لم يذكروا لنا أسماء

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٨٧/٢٢)، أبو شامة: ذيل الروضتين ص (١٣٦).

(٢) أبو شامة: ذيل الروضتين ص (١٣٧)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى

(١٧٩/٨)، وعن المدرسة العذراوية، انظر: ابن شداد: الأعلام الخطيرة (٢١٣/٢)،

والمدرسة الجاروخية، نفس المصدر (٢٢٩/٢)، والنعمي: الدارس (١٦٩/١)، وعن

المدرسة التقوية، انظر: ابن شداد: الأعلام الخطيرة (٢٣٥/٢).

الفصل الثالث: جهود العلماء في الحفاظ على السنة في بلاد الشام ومصر ١٠٧٣

تلك المصنفات، واستمر ابن عساكر في التدريس والوعظ ونشر العلم حتى توفي سنة (٦٢٠هـ) ^(١).

ومن أشهر العلماء -أيضا- في ذلك العصر، والذي يجب أن يذكر في هذا المقام؛ الذي نتحدث عن نماذج من أولئك العلماء؛ الذين طبقت شهرتهم الآفاق؛ لفضلهم وعلمهم ودينهم وكثرة طلابهم ومن أخذ عنهم؛ حيث جمعوا بين الدين والعلم وإخلاص النية لله وطلب العلم الشرعي ونصحهم للسلطين وأدائهم واجبههم تجاه دينهم وأمتهم؛ ولذلك كان أثرهم واضحا وذكرهم طاهرا وآثارهم باقية حتى اليوم.

فمن هؤلاء العلماء: القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم، أبو المحاسن الشهير بابن شداد، ولد بالموصل، وحفظ بها القرآن الكريم، وتلقى العلوم الشرعية من حديث وفقه وقراءات على أيدي أكبر العلماء هناك، كان إماما فاضلا ثقة، ونال رئاسة الدين والدنيا، متعبدا متزهدا، نافذ الكلمة، رحل إلى بغداد سنة (٥٦٦هـ)، وعُين بالنظامية ^(٢) معيدا لمدة أربع سنوات، ثم عاد إلى بلاده وأصبح مدرسا بمدرسة القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري ^(٣)، حدث بمصر ودمشق وحلب،

(١) الذهبي: العبر (٣/١٨١)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٣/١٠١)، السبكي: طبقات

الشافعية الكبرى (٨/١٧٧)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٦/٢٥٦)، ابن

العماد: شذرات الذهب (٥/٩٢).

(٢) أي: بالمدرسة النظامية ببغداد.

(٣) تقدم الحديث عن مدرسته الكمالية في الفصل السابق المتعلق بالمدارس.

وانتفع بعلمه خلق كثير^(١)، ثم حج سنة (٥٨٣هـ) وزار الشام؛ فاستحضره السلطان صلاح الدين وأكرمه، وسمع منه الحديث، ثم جمع كتاباً مجلداً في فضائل الجهاد؛ وقدمه للسلطان؛ فلازمه وطلب منه البقاء معه، وأسند إليه قضاء العسكر، وقضاء بيت المقدس، وكان حاضراً موت صلاح الدين، ثم خدم بعده ولده الملك الظاهر؛ صاحب حلب؛ فولاه قضاء مملكته، ونظر أوقافها، وجعله أقرب الناس إليه، وأقطعه الإقطاعات الكثيرة؛ فتكاثرت أمواله؛ فبنى مدرسة بحلب، وبنى داراً للحديث، وأوقف على تلك المدرسة والدار أوقافاً عظيمة؛ فقصدته الطلبة من شتى البلاد، وصار يكثر الأفضال والنفقات على طلبة العلم، وكانت حلب في عصره - كما يذكر ابن خلكان - "قليلة المدارس؛ فاعتنى بترتيب أمورها، وجمع الفقهاء بها، وعمرت - في أيامه - المدارس الكثيرة"، حتى أصبحت حلب مقصداً للعلماء يفتدون إليها؛ يتعملون في مدارسها، وينهلون من معين

(١) انظر عما تقدم ذكره: ابن خلكان: وفيات الأعيان (٨٤/٧) وما بعدها، أبو شامة: ذيل الروضتين ص (١٣٦)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣٨٣/٢٢)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٣٦٠/٨-٣٦١)، ثم انظر مقدمة المحقق لكتاب "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" لابن شداد، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيبان، القاهرة ١٩٦٤م.

الفصل الثالث: جهود العلماء في الحفاظ على السنة في بلاد الشام ومصر ١٠٧٥

علمائها، ويصفها ابن خلكان - بعد وصوله إليها - بأنها "كانت مشحونة بالعلماء والمشتغلين" ^(١).

وكان ابن شداد بيده حل الأمور وعقدها، ولم يكن لأحد في الدولة معه كلام، كذلك كان للفقهاء - في أيامه - حرمة تامة، ورعاية كريمة، خصوصاً جماعة مدرسته؛ فإنهم كانوا يحضرون مجالس السلطان، ويفطرون في شهر رمضان على سماطة - كما يعبر ابن خلكان ^(٢).

صنف العديد من المصنفات والمؤلفات؛ منها: كتاب "ملجأ الحكام عند التباس الأحكام"، وكتاب "دلائل الأحكام"، وكتاب "الموجز الباهر" في الفقه، وكتاب "فضائل الجهاد" صنفه للسلطان صلاح الدين، وكتاب "العصا"، وكتاب "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" وهو المعروف بسيرة صلاح الدين، وغيرها ^(٣).

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤٨/٧ و ٨٩)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٣٦١/٨)، علي الغامدي: بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ص (٣٩٦-٣٩٧).

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٩١/٧).

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٩٩/٧-١٠٠)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى

(٣٦١/٨).

توفي ابن شداد سنة (٦٣٢هـ) في حلب^(١)، والتي كان له دور بارز في ازدهار الحياة العلمية بها، وكثرة العلماء؛ الذين كان لهم الأثر الكبير في الحفاظ على السنة في ذلك العصر.

ومن العلماء -أيضا- في ذلك العصر: الناصح الحنبلي؛ وهو الشيخ الإمام المفتي الواعظ الكبير ناصح الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب بن الشيخ أبي الفرج عبد الواحد بن محمد بن علي الأنصاري السعدي العبادي، الشيرازي الأصل، الدمشقي المولد، ولد سنة (٥٤٤هـ) بدمشق، ورحل في طلب العلم؛ فأقام ببغداد مدة، وسمع بأصبهان والموصل وغيرها، درس وأفتى وصنف، وكان رئيس الحنابلة في زمنه بدمشق، ووعظ وحدث بمصر وحلب وإربل والمدينة وبيت المقدس وحصل له القبول التام، وكانت له حرمة عند الملوك والسلاطين، خاصة ملوك الشام بني أيوب، وحضر فتح المقدس مع السلطان صلاح الدين، وكان يجتمع به ويسأله عن بعض الأمور، ثم استقر به المقام في دمشق^(٢)؛ فاشتغل بالتدريس بالمدارس، ومنها مدرسة جده شرف الإسلام بالمسمارية، كما كان أول من درس بالصاحبية؛ وهي المدرسة التي أنشأها

(١) الذهبي: العبر (٢١٥/٣)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٢٩٢/٦)، ابن العماد: شذرات الذهب (١٥٩/٥).

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٦/٢٣)، العبر (٢١٩/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٤٦/١٣)، ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة (١٩٣/٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٢٩٨/٦)، ابن العماد: شذرات الذهب (١٦٤/٥).

الفصل الثالث: جهود العلماء في الحفاظ على السنة في بلاد الشام ومصر ١٠٧٧

له الصاحبة ربعة خاتون بنت أيوب، بجبل الصالحية بدمشق، وحضرت درسه بها، وذلك سنة (٦٢٨هـ)^(١)، وانتهت إليه رئاسة المذهب الحنبلي في الشام بعد الشيخ موفق الدين بن قدامة؛ الذي قال له في سنة وفاته: "سُررت بقدمك مخافة أن أموت وأنت غائب؛ فيقع وهن في المذهب، وخلف بين أصحابنا"^(٢).

وللناصح تصانيف عدة في علوم الفقه والحديث؛ منها: كتاب "أسباب الحديث" في عدة مجلدات، وكتاب "الاستشهاد بمن لقيت من صالح العباد في البلاد"، وكتاب "الأبجداد في الجهاد"، وكتاب "تاريخ الوعاظ"، وغيرها من المؤلفات، واستمر الناصح يقوم بالوعظ والتدريس والتأليف والنصح للأمة وتوثيق الصلة برجال الدولة حتى توفي سنة (٦٣٤هـ) بدمشق^(٣).

ومن العلماء -أيضا- والذين لهم جهود كبيرة ودور بارز في إظهار السنة، والقضاء على الأفكار المنحرفة والفرق الضالة في ذلك العصر: الشيخ الإمام العلامة؛ شيخ الحنفية جمال الدين محمود بن أحمد بن عبد السيد الحصري التاجري الحنفي، سمع الحديث الكثير، واستقر به المقام في

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (١٤٦/١٣)، ابن العماد: شذرات الذهب (١٦٥/٥)،

وعن المدرسة الصاحبية. انظر: ابن شداد: الأعلاق الخطيرة (٢٥٧/٢)، النعمي:

الدارس في تاريخ المدارس (٦٢/٢).

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب (١٦٥/٥).

(٣) المصدر نفسه (١٦٦/٥).

دمشق؛ فانتهت إليه رئاسة الحنفية بها، وكان الملك المعظم يحترمه ويكرمه، قرأ عليه الجامع الكبير، وله عليه شرح، كان كثير الصدقات غزير الدمعة، عاقلًا نزيهًا عفيفًا، وكان من العلماء العاملين، وهو أول من درس بالمدرسة النورية بدمشق سنة (٦١١هـ) واستمر يدرس بها خمسًا وعشرين سنة، توفي سنة (٦٣٦هـ) ^(١).

ومن العلماء -أيضًا- الذين لا بد أن نتحدث عنهم في هذا العصر، وكانت له الجهود الواضحة والدور المميز في بلاد الشام خاصة، هو الإمام الحافظ العلامة شيخ الإسلام تقي الدين أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن ابن عثمان بن موسى الكردي الشهرزوري الأصل، الموصلي المنشأ، الدمشقي؛ المعروف بابن الصلاح، مفتي الشام ومحدثها، سمع الحديث بالموصل وبغداد، ومرو، ونيسابور، ثم بدمشق من القاضي عبد الصمد بن الحرستاني، والشيخ الموفق ابن قدامة، وغيرهما، كان إمامًا كبيرًا فقيهاً محدثًا زاهدًا ورعًا مفيدًا معلمًا، وكان أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث والنفقة وأسماء الرجال، كما كانت له مشاركة في فنون

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٥٣/٢٣)، العبر (٢٢٨/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٥٢/١٣)، القرشي: الجواهر المضية (١٥٥/٢)، ابن العماد: شذرات الذهب (١٨٢/٥)، النعيمي: الدارس في أخبار المدارس (٤٧٧/١)، وقد تقدم الحديث عن المدرسة النورية في الفصل الثاني من هذا الباب.

الفصل الثالث: جهود العلماء في الحفاظ على السنة في بلاد الشام ومصر ١٠٧٩

عديدة^(١)، وبعد أن استقر به المقام في الشام تولى التدريس في المدرسة الناصرية بالقدس، ثم انتقل إلى دمشق، وتولى التدريس في المدرسة الرواحية؛ التي أنشأها الزكي أبو القاسم هبة الله بن عبد الواحد الحموي، ولما بنى الأشرف بن العادل دار الحديث بدمشق فوَّضَ تدريسها إليه، ثم تولى التدريس بمدرسة ست الشام زمرد خاتون بنت أيوب؛ فكان يقوم بالتدريس - في هذه المدارس الثلاث - من غير إخلال بشيء منها^(٢).

ومع ذلك العمل المضي والجهد الكبير قام ابن الصلاح بتصنيف عدد من المؤلفات في علوم الحديث والفقهاء؛ منها: كتاب في علوم الحديث، وكتاب في مناسك الحج، وكتاب "مشكل الوسيط" وآخر في الفتاوى، وغيرها من الكتب والمؤلفات النافعة، ولم يزل أمره مسدداً، وجهوده متواصلة، ودروسه نافعة، وتلاميذه يكثرون، حتى توفي سنة (٦٤٣هـ)، ودفن بدمشق^(٣).

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٤٣) الذهبي: العبر (٢٤٦/٣)، سير أعلام النبلاء (١٤٠/٢٣)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٣٦٦/٨)، الأسنوي: طبقات الشافعية (٤١/٢).

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٤٤/٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٦٨/١٣)، النعيمي: الدارس في أخبار المدارس (٢٠٠/١). وعن المدرسة الرواحية، انظر: ابن شداد: الأعلام الخطيرة (٢٤١/٢).

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢٤٤/٣)، الذهبي: تذكرة الحفاظ (١٤٣٣/٤)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٣٥٤/٦)، ابن العماد: شذرات الذهب (٢٢١/٥).

كذلك كان من علماء ذلك العصر: الإمام العلامة الحافظ المحقق شيخ الإسلام زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله بن سلامة المنذري، الشامي الأصل، المصري الشافعي، ولد بمصر، وكان شيخ الحديث بها مدة طويلة، وقيل ولد بالشام، كان تقياً ورعاً ثقةً حجة متحريراً زاهداً، سمع الكثير من الحديث، وله القدم الراسخ في معرفة صحيح الحديث من سقيمه، حفظ أسماء الرجال، كما كانت له اليد الطولى في الفقه واللغة والتاريخ، انتفع الناس بعلمه كثيراً^(١)، وكان شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام يُسمع الحديث قليلاً بدمشق، فلما دخل القاهرة ترك ذلك، وصار يحضر مجلس الشيخ زكي الدين المنذري، ويسمع عليه في جملة من يسمع^(٢).

درّس الشيخ المنذري في دار الحديث الكاملية بمصر، وكان لا يخرج منها إلا لصلاة الجمعة، وصنف التصانيف الكثيرة؛ منها: الشرح على "التنبيه" للشيخ أبي إسحاق، واختصر "صحيح مسلم" وله "مختصر سنن أبي داود وحواشيه"، وخرّج لنفسه معجماً كبيراً مفيداً وغيرها، وتخرّج به

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣١٩/٢٣)، العبر (٢٨١/٣)، تذكر الحفاظ (١٤٣٦/٤)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٣٥٤/٦)، ابن العماد: شذرات الذهب (٢٢١/٥).

(٢) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى (٢٦١/٨)، الأسنوي: طبقات الشافعية (١٠٠/٢).

في فن الحديث خلق كثير؛ منهم: الدمياطي، وابن دقيق العيد، وعز الدين، وغيرهم، توفي سنة (٦٥٦هـ) بمصر^(١).

وهكذا ألقى الضوء على نماذج خالدة من العلماء؛ الذين صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه؛ فأخلصوا النية لله، وطلبوا العلم، وتجردوا له بنية خالصة وصدق وإخلاص؛ ولذلك بارك الله تعالى لهم تلك الجهود والمواقف التي كانت سداً منيعاً في وجه التيارات والأفكار المنحرفة والفرق الضالة؛ التي كان لها الأثر في بلاد الشام ومصر في العصر السلجوقي، ولكن -بتوفيق الله تعالى، ثم بتضافر الجهود، وتعاون الجميع، وتوحيد الصفوف، واجتماع الكلمة، وصدق التوجه لله تعالى- حافظ هؤلاء العلماء العاملون المخلصون على السنة وكيان أهل السنة، ومن ثم قضوا واستأصلوا من بلاد الشام ومصر المذهب الشيعي الإسماعيلي الباطني.

كل ذلك بفضل الله تعالى، ثم بدعم وتأييد الحكام والسلاطين ورجال الدولة في ذلك العصر؛ سواء من السلاجقة أو خلال مدة حكم نور الدين محمود بن زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، اللذين كان لهما الفضل الكبير بعد الله، والدور المميز، في تيسير أمور أولئك العلماء وتشجيعهم لهم ببناء المدارس السنية ودور القرآن ودور الحديث ووقف الأموال عليها والاهتمام بها وتعاهدها بالرعاية والمتابعة، وتقريب العلماء

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (٢١٢/١٣)، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى

إليهم وتكريمهم، واستمرت القافلة تسير؛ فتولى تلاميذ أولئك العلماء المسيرة من بعدهم والتدريس في مدارس الشام ومصر، ومحاربة البدع والفرق الضالة والأفكار المنحرفة والتيارات الباطلة، وحث الحكام على الجهاد ضد اعداء الأمة والتربصين بها؛ كما فعل سلطان العلماء عز الدين ابن عبد السلام الدمشقي؛ الذي كان إمام عصره، أمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم؛ حيث درّس بعدة مدارس بدمشق ومصر، وكانت له المكانة العالية والمنزلة الرفيعة عند رجال الدولة وعامة الناس وطلبة العلم^(١).

وهكذا تنتج الثمار اليانعة بذورًا صالحة للمجتمع تقف إلى جانب الحق والفضلية، وتقمع أهل الباطل والرديلة؛ لأنّ من نصر الله تعالى، وصدق في قوله وفعله ونيته، وابتغى - بعلمه - وجه الله تعالى، لا شك أن الله ناصره ومؤيده ومثيبه على ذلك الثواب العظيم، ويبارك له في علمه بعد وفاته؛ لما يتركه من آثار علمية تتمثل في المؤلفات والمصنفات؛ التي سيتلقفها الناس ينهلون من معينها؛ الذي لا ينضب، وكذلك في كثرة التلاميذ؛ الذين سينشرون العلم الشرعي من بعدهم، ويصبحون علماء بارزين مؤثرين في مجتمعهم لهم القدوة والأسوة فيمن سلف من مشايخهم وعلمائهم؛ وهذا ما حدث في ذلك العصر في بلاد الشام ومصر، واستمر

(١) انظر المزيد عن حياة عز الدين بن عبد السلام وأخباره ومواقفه: السبكي: طبقات

الفصل الثالث: جهود العلماء في الحفاظ على السنة في بلاد الشام ومصر ١٠٨٣

- بعد ذلك- إلى اليوم بفضل الله تعالى؛ حيث وجود العلماء العاملين في كل زمان ومكان، رغم وجود أهل الباطل والفتن، فهذه سنة الله في خلقه منذ مبعث الأنبياء -عليهم السلام- وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها؛ ليحق الله الحق بكلماته، ويقطع دابر الكافرين.

الختامة

الخاتمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:
 بفضل من الله وتوفيقه، فقد انتهى موضوع الرسالة؛ التي قمت فيها
 بدراسة جهود العلماء والولاة في الحفاظ على السنة في العصر السلجوقي
 (٤٤٧-٥٩٠هـ)، وقد توصلت - في هذه الدراسة - إلى نتائج مختلفة؛
 يأتي في مقدمتها:

ارتفاع شأن أهل السنة والجماعة في العصر السلجوقي؛ لأنّ
 السلاجقة كانوا أتراكاً مسلمين، متمسكين بالمذهب السني، مؤيدين له،
 معادين لما سواه؛ لذلك قاموا بنشر الإسلام على المذهب السني، وكان لهم
 الفضل العظيم - بعد الله تعالى - في حماية الدين، والذود عن الإسلام
 وأهله، كما شارك السلاجقة في أحداث العالم الإسلامي مشاركة فعالة،
 وتوسع المذهب السني، وانتشر في عصرهم، وانحسر المذهب الشيعي؛
 الذي كان له نفوذ ونشاط وهيمنة في العصر البويهي؛ بحكم انتماء
 البويهيين للتشيع، ودعمهم ونصرهم للمذهب الشيعي في عصرهم
 (٣٣٤-٤٤٧هـ).

وبالجملة؛ فقد كان العصر السلجوقي عصرًا ذهبيًا في المشرق
 الإسلامي؛ حيث وُحِّدَت أكثر المناطق والدويلات تحت إمرة واحدة؛
 فاتحدت البلاد بعد أن كانت مجزأة، وتضافرت الجهود وتعاون الجميع
 للعمل لما فيه خير الإسلام ومصلحة المسلمين.

كما أوضحت الدراسة استعادة الخلافة العباسية مكانتها وهبتها في نفوس المسلمين في العصر السلجوقي؛ لأنّ السلاطين السلاجقة كانوا يدينون بالمذهب السني- كما أسلفت- ويُعدّون الخلافة العباسية رمزاً لوحدة المسلمين السنيين، ومحط أنظارهم؛ لذلك كانوا يأخذون البيعة، ويخطبون له على منابرهم، ويحرصون على رضاه، والتقرب منه، وتوثيق العلاقة به؛ نظراً لمكانته الروحية عند المسلمين، وحفاظاً على مصالحهم العامة السياسية والشخصية، لاسيما وأنّ انتقال السلطة من البويهيين إلى السلاجقة صاحبه تغييرات مختلفة في الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والمذهبية، مقرونة بأخطار جسيمة تحيط بالخلافة العباسية؛ كأطماع الدولة الفاطمية، وحركة البساسيري، والاعتداءات البيزنطية، وظهور الحركة الباطنية؛ كل هذه الأمور والمتغيرات أدت إلى دعم العلاقة وتوطيدها بين الخلفاء العباسيين والسلطنة السلجوقية؛ لاختلاف مسلك واتجاه السلاجقة (السنة) عن البويهيين (الشيعة).

كما أثبتت الدراسة اهتمام الخلفاء العباسيين بالرعية، والعمل على إقامة العدل، ومحاربة الظلم، والتصدي لأصحاب الأهواء والفرق الضالة، وقمع المفسدين العابثين بالأمن، أو المتسلطين على أموال الناس، ومعاقتهم بأشد العقوبات، والحرص على توثيق صلّتهم بالعلماء، والاستنارة بآرائهم، والعمل بنصائحهم وتوجيهاتهم، وتأييد ودعم المجاهدين من الأمراء والسلاطين المسلمين، ومتابعة أمورهم، وبعث الخلع والهدايا إليهم، تشجيعاً لهم، ودعمًا لمؤازرتهم ضد أعداء المسلمين؛ مثل نور الدين

وصلاح الدين، وتعاونهم مع السلاجقة في جهادهم، وتصديهم للبيزنطيين والصليبيين والباطنية؛ الأمر الذي أدى إلى الحفاظ على كيان أهل السنة في ذلك العصر.

وأوضحت الدراسة الجهود العظيمة والمواقف المشهورة؛ التي قام بها الخلفاء العباسيون والسلاطين السلاجقة ضد البيزنطيين والصليبيين، وإبراز دورهم في أحداث العالم الإسلامي؛ حيث كان الخلفاء يحرصون كل الحرص على متابعة أمور الجهاد في سبيل الله، والمشاركة في الأحداث التي تهدد المسلمين في ديارهم ومقدساتهم؛ عن طريق متابعتهم للأحداث والمستجدات، وتأييدهم وتشجيعهم للمجاهدين، وتوثيق العلاقة بهم، والاستنفار لقتال الأعداء، وبعث الرسل إلى سلاطين السلاجقة -ذوي القوة الحربية والقدرات العسكرية- يستحثونهم على قتال الأعداء؛ لأن إعداد الجيوش وتسييرها للقتال كان من مهمة الأمراء المجاهدين والسلاطين السلاجقة؛ لقربهم من ساحات القتال، ومباشرتهم للأحداث، أي أن الخلفاء بذلوا ما في وسعهم، رغم الظروف المحيطة بهم آنذاك، وفي حدود الإمكانيات المتاحة لهم، لاسيما إذا علمنا أن الخلافة العباسية كانت محرومة من قوة ضاربة تخضع لها مباشرة، وتأتمر بأمرها.

وهذه القوة كانت تتوفر فقط للسلاجقة؛ الذين يملكون الإمكانيات المادية، والطاقات البشرية والعسكرية؛ التي تجعلها تبادر إلى نجدة المسلمين، وتحرير مقدساتهم؛ لذلك كانت الخلافة العباسية -محط أنظار المسلمين- تحيل الاستغاثات التي تتلقاها إلى سلاطين السلاجقة؛ الذين أبلوا البلاء

الحسن في هذا الميدان؛ حيث أحيوا القوة الحربية الإسلامية، وحملوا راية الجهاد في سبيل الله ضد البيزنطيين، وقاموا بنشر الإسلام على المذهب السني في آسيا الصغرى بعد معركة (ملاذكرد) سنة (٤٦٣هـ)، والتي هزموا -من خلالها- البيزنطيين، وطردوهم من آسيا الصغرى؛ بقيادة السلطان السلجوقي " ألب أرسلان".

كما تصدى السلاجقة -أيضاً- للصليبيين بكل قوة وشجاعة وصبر، يدفعهم في ذلك حبهم للجهاد في سبيل الله، ودفاعهم المخلص عن الإسلام والمسلمين.

ويمكننا القول إن السلاجقة بصفة عامة؛ سواء كانوا من سلاجقة آسيا الصغرى والأناضول، أو سلاجقة بلاد الشام، وسلاجقة فارس؛ فقد جاهد الجميع ضد البيزنطيين، وتحملوا الكثير من العناء والمشقة، واستشهد منهم خلق كثير في سبيل الله تعالى -إن شاء الله- دفاعاً عن الإسلام والمسلمين، وقياماً بواجبهم المنوط بهم، وكان دورهم عظيماً وبارزاً ومشرقاً في هذا الجانب، إلى أن أصاب دولتهم الضعف؛ بسبب المنازعات الداخلية؛ فأكمل المسيرة أسرة آل زنكي، وقاموا بدورهم العظيم في الجهاد ضد الأعداء، كما قام بذلك الأراتقة من قبل، وسيقوم الأيوبيون بالدور نفسه فيما بعد، وهكذا تستمر القافلة، ويستمر الصراع بين الحق والباطل.

وكان للعلماء المجاهدين المخلصين دور كبير في الجهاد في سبيل الله تعالى، ودعم ومؤازرة الولاة في ذلك العصر، وترغيبهم في الجهاد؛ فهذا

الإمام الفقيه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري-إمام السلطان ألب أرسلان-يقول له: " إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره، وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح؛ فالتقى معهم يوم الجمعة بعد الزوال، في الساعة التي يكون الخطباء على المنابر؛ فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر، والدعاء مقرون بالإجابة"، وهكذا يتضح واجب علماء وفقهاء الإسلام في النصيحة وقول الحق، ودورهم في الدعوة للجهاد في سبيل الله، ومشاركتهم في ذلك، وإخلاصهم لدينهم وأمتهم، وقيامهم بواجبهم، وأدائهم لرسالتهم؛ مما يدل على مكانتهم وأهمية وجودهم في المجتمع الإسلامي.

كما برهنت الدراسة أن طائفة الباطنية كانت عائقاً قوياً أمام استمرار الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين؛ حيث قاموا بدور سيء للغاية ضد الإسلام والمسلمين؛ لما أقدموا عليه من قتل معظم القادة المجاهدين والسلطين والأمراء والوزراء والعلماء؛ الذين جاهدوا -بصدق وعزم- ضد أعداء الإسلام، وحملوا راية الجهاد في سبيل الله؛ لذلك أوضحت الدراسة ما قام به الخلفاء والسلطين والأمراء والوزراء والعلماء من جهود مخلصية لمحاربتهم والحد من نفوذهم، والتخلص من شرورهم، ومن خطرهم المهدق بالمسلمين في دينهم وعقيدتهم؛ حيث تصدى الجميع لهم، وضيقوا عليهم، وفندوا مزاعمهم، وأبطلوا أفكارهم، وحاربوهم عسكرياً وفكرياً؛ لما لهم من تأثير مضر، وخطر جسيم على العقيدة والفكر والمجتمع والدولة على حدٍ سواء؛ مما اضطر الباطنية إلى اللجوء لأسلوب الاغتيالات

الفردية، وتصفية الخصوم، واستخدام كافة الوسائل التي تكفل لهم الوصول لغايتهم وتحقيق أهدافهم.

وكان على رأسهم: الحسن الصباح، وأحمد بن عبد الملك بن عطاش، وكان للخلفاء العباسيين دور كبير في دعم جهود ومواقف السلاطين السلاجقة والوزير نظام الملك والعلماء ضد الباطنية؛ الذين حاولوا اغتيال بعض الخلفاء؛ كالخليفة المستظهر، والخليفة المسترشد، وكان الخلفاء يدافعون -بقوة- عن العلماء؛ الذين يتهمون بمذهب الباطنية؛ مما يُدلل على مناصرتهم وتأييدهم لعلماء أهل السنة، والوقوف معهم، وإدراك مكانتهم ودورهم في المجتمع؛ كما حصل مع العالم الفقيه "ألكيا الهراسي" الذي اتهم بالميل لمذهب الباطنية، فسجن، ولكن الخليفة المستظهر تدخل بقوة، بعد أن شهد جماعة من العلماء ببراءة الهراسي، وحسن معتقده؛ فأطلق سراحه.

والحقيقة أن سلاطين السلاجقة ووزيرهم نظام الملك قد أبلوا البلاء الحسن ضد الفرق الضالة والتيارات الفكرية المنحرفة بصفة عامة، والدعوة الباطنية بصفة خاصة؛ حيث قاموا بمحاربتهم، والاستيلاء على قلاعهم، والتضييق عليهم، وأشهر السلاطين؛ الذين قاموا بهذا العمل العظيم والدور الكبير: السلطان بروكياروق الذي قتل منهم خلقاً كثيراً سنة (٤٩٤هـ)، والسلطان محمد؛ الذي استولى على بعض قلاعهم، وقتل زعيمهم أحمد ابن عبد الملك بن عطاش سنة (٥٢١هـ)، كما كان لأمرائهم دور بارز

في هذا المجال؛ مثل الأمير "جلولي سقاوو"، والأمير "أنوشتكين شير كير"، والأمير "تاج الملوك بوري"، وغيرهم.

أما محاربتهم فكرياً فكانت عن طريق جهود نظام المالك الوزير العالم؛ الذي تنبه لهذا الخطر المحدق؛ حيث قام بإنشاء المدارس النظامية؛ التي كانت من أبرز معالم العصر السلجوقي؛ بدعم وتأييد من الخلفاء والسلاطين والسلاجقة؛ حيث لم يجد نظام الملك مناصباً من القيام بعمل مضادّ ومنظم للقضاء على الأفكار؛ التي قامت بنشرها الدعوة الباطنية؛ لأنّه من غير الممكن إيقاف الدعوة الباطنية عن طريق القوة فقط، والتي لا تستطيع أن تمحو الفكرة الفاسدة والمنحرفة، وربما أدت إلى حصول ردّ فعليّ معاكس.

ولإدراك نظام الملك هذه الحقائق، ولكونه المسؤول عن توجيه سياسة السلاجقة، والمؤثر في سياسة الدولة العباسية، كان لا بد له أن يسلك طريقاً ملائماً لمواجهة مثل هذه الحركات الهدامة؛ ولذلك تولى إنشاء المدارس النظامية ونشرها في شتى الأمصار؛ للدّفاع عن العقيدة بوجه عام، ومحاربة الباطنية فكرياً ضدّ الأفكار الفاسدة؛ التي قاموا بنشرها؛ حتى استطاع تكوين جيل من العلماء والدعاة؛ للدّفاع عن الدين الإسلامي، ومنع الدعوة الباطنية من بثّ سمومها وأفكارها في المجتمع الإسلامي؛ عن طريق هؤلاء العلماء المتسلحين بسلاح الإيمان والعلم، وقد أنفق نظام الملك الأموال الكثيرة على هذه المدارس؛ التي حققت الأهداف

المرجوة من إنشائها؛ وهذا عمل عظيم يدل على إخلاص هذا الوزير لدينه وأمه ومجتمعه ونظريته الثاقبة لمجريات الأمور والأحداث.

وإلى جانب ذلك فقد أوضحت الدراسة ازدهار الحياة العلمية والثقافية في العصر السلجوقي، وتعدد مراكز الثقافة والعلم؛ التي تشمل المسجد والمدرسة والكتاب وخزائن الكتب والرباط وديوان الإنشاء ودور العلماء وغيرها، وكذلك دور الوراقين والنساخين، وأكدت الدراسة منافسة بعض المدن لبغداد؛ حيث أصبحت مراكز علمية وثقافية مهمة في ذلك العصر، وكان لتعدد الفرق الدينية والمذاهب الإسلامية أثر كبير في نشاط الحركة العلمية؛ حيث استخدمت هذه الفرق والمذاهب العلم وسيلة لتحقيق أغراضها، وأصبح العراق بصفة عامة ميداناً رحباً للصراع الفكري، والنشاط العلمي.

وأثبتت الدراسة عدم تأثير الحياة العلمية والثقافية، بظروف العصر السياسية والاجتماعية وسوء الأحوال آنذاك، بل واصل المسلمون تقدمهم العلمي في العصر السلجوقي، وبلغوا درجة عظيمة من التقدم في كثير من العلوم؛ سواء ما يخص الدراسات الشرعية من فقه، وحديث، وتفسير، وقراءات، أو دراسات لغوية وأدبية من لغة ونحو وشعر وأدب وإنشاء وكتابة ونحوها، أو الدراسات الخاصة بالتاريخ والجغرافيا والطب والفلك والرياضيات، وغيرها؛ حيث نشطت هذه العلوم، وزادت حركة التأليف، وانتشر العلماء في الآفاق.

وأوضحت الدراسة نماذج من العلماء؛ الذين برزوا في تلك العلوم، كما كان من أبرز العوامل؛ التي ساعدت على ازدهار النهضة العلمية والثقافية تلك المدارس النظامية؛ التي أنشأها نظام الملك؛ حيث تعدّ أول نوع من المؤسسات العلمية بمعناه الصحيح ظهر في ظل الإسلام، وأهم ما يميزها هو اتباعها الأسلوب التنظيمي العلمي في البناء والإشراف والمناهج والسكن وتقدير المعاليم للأساتذة والطلاب والعاملين بها، كما ظهرت مدارس خاصة بالمذاهب؛ نتيجة التعصب المذهبي؛ فكان هناك مدارس للشافعية والحنفية والحنبلية، تولى إنشاءها كبار رجال الدولة، ويقوم على التدريس فيها كبار علماء المذهب.

وبالجملة؛ فقد كانت الحركة العلمية في العصر السلجوقي حركة مباركة ونشطة ومزدهرة ومثمرة في شتى أنواع العلوم والمعارف، كما يجب أن لا نغفل تشجيع الخلفاء والسلاطين والوزراء للعلم والعلماء، ودورهم الكبير في ذلك.

وأوضحت الدراسة -أيضاً- مواقف العلماء وجهودهم العظيمة؛ التي أدت إلى انتعاش المذهب السني، وانتشاره في شتى الأقاليم والأمصار، ومحاربتهم للتيارات الفكرية المنحرفة، وتوضيح زيفها وبطلانها للناس؛ كي لا يتأثروا بها.

وقد ألفت الدراسة الضوء على دور المدارس النظامية وغيرها في انتشار المذهب السني؛ عن طريق العلماء؛ الذين درسوا في هذه المدارس، أو عن طريق الطلاب؛ الذين درسوا على أيدي هؤلاء العلماء، ثم نشروا

المذهب السني بعد عودتهم إلى بلدانهم، وأصبحوا من العلماء المعدودين، كذلك كان لبعض العلماء - في ذلك العصر - الذين لم يدرسوا في تلك المدارس، أو يتخرجوا فيها، جهود عظيمة في مجال نشر المذهب السني، والحفاظ على كيان أهل السنة.

ومن أبرز العلماء؛ الذين تناولتهم الدراسة في هذا الجانب: الشيرازي، وابن الصباغ، وألكيا الهراسي، والشاشي، والمتولي، وأبو عبد الله الطبري، والميهني، ويوسف الدمشقي، وابن عساكر، والشهرزوري، وابن شداد، والهكاري، والتميمي، والهاشمي، وعبد الواحد الشيرازي، وعلي ابن عقيل البغدادي، وابن العطار الهمداني، وغيرهم.

كما تضمنت الدراسة جهود العلماء ومواقفهم ودورهم في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وآثار ذلك على المجتمع الإسلامي؛ حيث أكدت الدراسة أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحاجة المجتمع الإسلامي إليه، ودعم وتأييد الخلفاء ورجال الدولة للعلماء في هذا الميدان المهم ومواقفهم في ذلك؛ الأمر الذي شجع العلماء للقيام بعملهم وأداء رسالتهم على الوجه المطلوب.

وأوضحت الدراسة نماذج لهؤلاء العلماء ومواقفهم وجهودهم، وجرأتهم في قول الحق، والتزام الصدق، وعدم محاباتهم لأحد؛ مهما كانت منزلته على حساب الشرع، ولم تأخذهم في الله لومة لائم؛ مع الأخذ في الاعتبار الضوابط الشرعية المتعلقة بإنكار المنكر، وعدم ترتب مفسدة أعظم على إنكاره، وقد أدت هذه الجهود - مجتمعة - إلى الحفاظ على

كيان أهل السنة في ذلك العصر؛ حيث كان العلماء يشد بعضهم بعضاً، ويقفون في وجه أصحاب البدع والأهواء والأفكار الضالة، ويوضحون الحق وطريق الصواب للناس، بحكمة ولطف، وموعظة حسنة، وهكذا يكون العلماء المخلصين العاملين؛ الذين يسعون إلى الإصلاح، ويدركون عظمة رسالتهم، والأمانة الملقاة على عاتقهم تجاه دينهم وأمتهم.

ثم أوضحت الدراسة تلك العلاقة الوطيدة والصلة الوثيقة؛ التي كانت تربط العلماء برجال الدولة من خلفاء وسلاطين وأمراء ووزراء وغيرهم؛ لما لهم من دور مؤثر وأهمية كبيرة في الرأي العام، وأثبتت الدراسة جدوى تلك العلاقة، وتعاون رجال الدولة مع العلماء، والاستماع لنصائحهم وتوجيهاتهم، والعمل بها، وقد أدى تضافر الجهود وتعاون الجميع بإخلاص - في هذا المجال - إلى الحفاظ على كيان أهل السنة في ذلك العصر؛ وهو ما أردت توضيحه وبيانه من خلال هذه الدراسة.

كما تناولت الدراسة مظاهر اهتمام رجال الدولة بصفة عامة بالعلم، وأهم كانوا من العلماء المحيين للعلم، المقربين للعلماء، المتأثرين بمجالستهم؛ ولذلك ليس مستغرباً أن تثمر تلك العلاقة عن آثار عظيمة ونتائج مفيدة على المجتمع الإسلامي آنذاك؛ لأن الأهداف والتطلعات كانت واحدة.

وقد أوضحت الدراسة نماذج من هؤلاء العلماء؛ الذين كانوا على صلة وثيقة بالحكام ورجال الدولة.

ومن هؤلاء العلماء؛ الذين أوضحت الدراسة مواقفهم وجهودهم في هذا الميدان -على سبيل المثال: عبد الخالق بن عيسى الهاشمي، وطاهر البغدادي، وأبو القاسم مسعود الخجندي، والغزالي، وجعفر الدرزيجاني، والحسن بن علي اللامتنى، ويحيى بن عيسى الأنباري، ومحمد الزبيدي، وعبد المغيث بن زهير الحربي، وابن الجوزي، وأبو البقاء الحنبلي، وعبد الغني المقدسي، والمعمر بن علي البغدادي، وغيرهم.

وقد تضمنت الرسالة إضافة إلى ما تقدم جهود العلماء والولاة في الحفاظ على السنة في بلاد الشام ومصر في ذلك العصر، ودورهم البارز في القضاء على المذهب الشيعي، من خلال دور المجاهدين العظيمة: نور الدين محمود بن زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، وكذلك دور المدارس في انتعاش المذهب السنّي، وانتشاره القوي في بلاد الشام ومصر.

وقد أوضحت الدراسة نماذج لتكامل المدارس الكثيرة؛ التي شجعها الولاة والسلاطين آنذاك، من خلال دعمهم، وتأيدهم للعلماء، ومجالستهم لهم، وحضورهم وإكراههم وتقديرهم، لاسيما نور الدين، وصلاح الدين اللذان أبليا البلاء الحسن، وكان لهما الدور المؤثر والقوي في الحفاظ على السنة، وتقويض المذهب الشيعي في الشام ومصر.

كما تناولت الرسالة دور العلماء وجهودهم في محاربة التيارات الفكرية المنحرفة، والأفكار الضالّة في بلاد الشام ومصر؛ الأمر الذي أدى في النهاية إلى الحفاظ على السنة في ذلك العصر.

ومن هؤلاء العلماء؛ الذين أوضحت الدراسة جهودهم ومواقفهم وأعمالهم -على سبيل المثال لا الحصر: أبو الفضل محمد بن عبد الله الشهرزوري، والقاضي عبد الله بن محمد بن هبة الله بن أبي عصرون، ومحمد بن الموفق بن سعيد الخبوشاني، والإمام صدر الدين محمد بن شيخ الشيوخ؛ عماد الدين عمر بن علي الجويني، والشيخ حامد بن محمود الحراني، وزين الدين أبو الحسن علي بن إبراهيم الدمشقي، وتقي الدين أبو محمد عبد الغني المقدسي، وأبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، وكذلك أخوه العلامة: أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، وجمال الدين يونس بن بدران المصري الشافعي، والعلامة ابن عساكر الدمشقي، والقاضي بهاء الدين يوسف بن رافع؛ الشهير بابن شداد، والعلامة شيخ الإسلام؛ تقي الدين أبو عمر عثمان بن عبد الرحمن؛ المعروف بابن الصلاح؛ مفتي الشام ومحدثها، والشيخ زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري؛ الشامي الأصل؛ المصري الشافعي، وغيرهم؛ ممن كان له دور بارز، وجهد مميز، وعمل عظيم؛ من خلال التدريس، والوعظ بمدارس الشام ومصر، ومحاربة البدع، والأفكار المنحرفة، والفرق الظالمة، والتيارات الباطلة، وحثّ الحكام على الجهاد ضدّ الأعداء المتربّصين بالأمة، من خلال علاقتهم الوثيقة بهم.

وهكذا أوضحت الدراسة مواقف وجهود العلماء والولاة؛ التي أدت إلى الحفاظ على السنة في العصر السلجوقي؛ رغم الظروف العامة المحيطة بالعصر، والاضطرابات السياسية والاجتماعية والمذهبية آنذاك، إلا أنهم

أخلصوا الجهود لله تعالى، وتعاونوا لما فيه خير الإسلام ومصلحة المسلمين،
وتغلبوا على ظروف عصرهم بتوفيق من الله تعالى وفضله؛ فكانوا نعم
العلماء ونعم الحكام؛ لأنهم عاهدوا الله تعالى على رعاية الأمة الإسلامية
على أساس من شرع الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ.

إلى غير ذلك من النتائج الكثيرة، والحقائق المفيدة؛ التي توصلت
إليها هذه الدراسة، والله الحمد والمنة والفضل، وآخر دعوانا أن الحمد لله
رب العالمين، وصلى الله وسلّم، وبارك على سيدنا محمدٍ وعلى آله
وصحبه أجمعين.

الملاحق

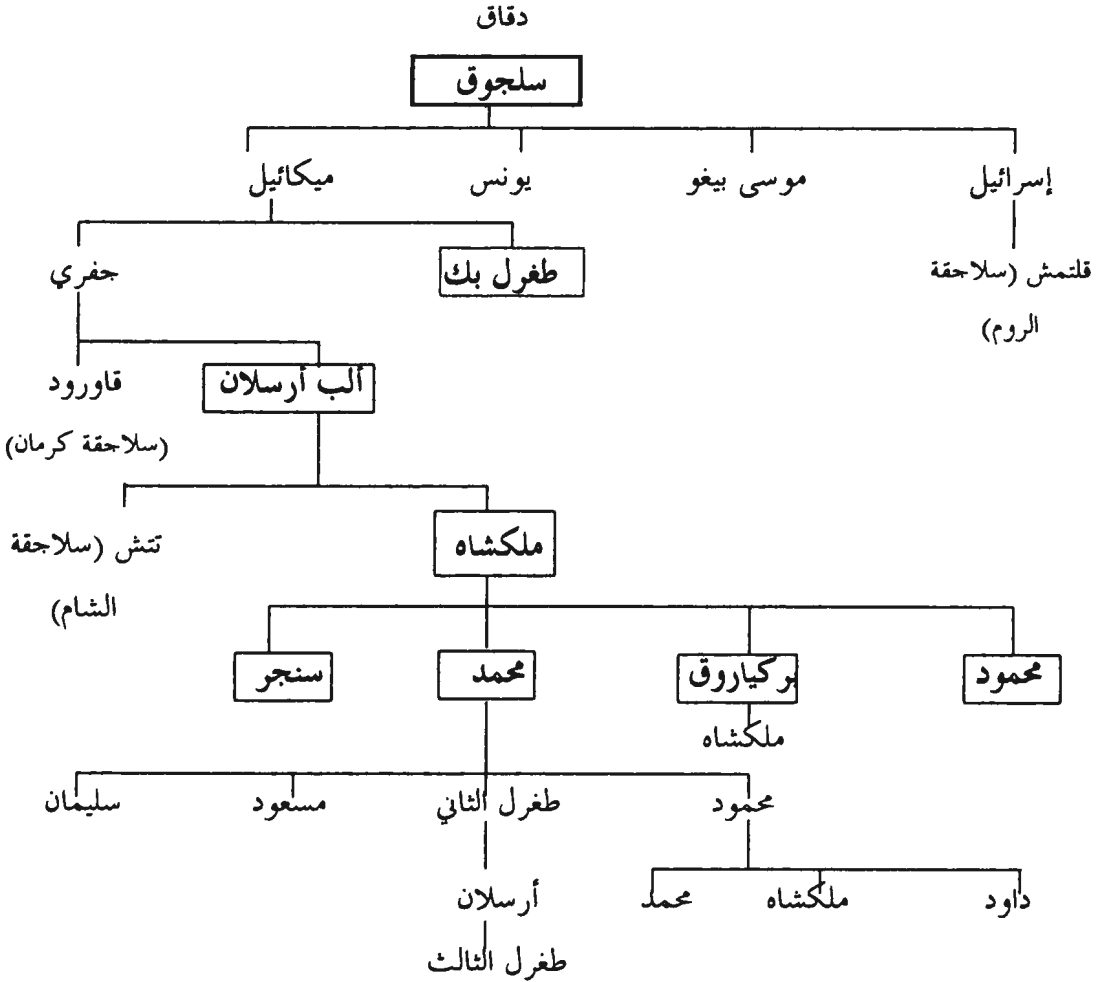
(الملحق الأول)

الخلفاء العباسيون في العصر السلجوقي

- ١- القائم بأمر الله، أبو جعفر عبد الله بن القادر (٤٢٢-٤٦٧هـ)
- ٢- المقتدي بأمر الله، أبو القاسم عبد الله بن محمد بن القائم (٤٦٧-٤٨٧هـ)
- ٣- المستظهر بالله، أبو العباس أحمد بن المقتدي (٤٨٧-٥١٢هـ)
- ٤- المسترشد بالله، أبو منصور الفضل بن المستظهر (٥١٢-٥٢٩هـ)
- ٥- الراشد بالله، أبو جعفر منصور بن المسترشد بالله (٥٢٩-٥٣٠هـ)
- ٦- المقتفي لأمر الله، أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله (٥٣٠-٥٥٥هـ)
- ٧- المستنجد بالله، أبو المظفر يوسف بن المقتفي (٥٥٥-٥٦٦هـ)
- ٨- المستضيء بأمر الله، أبو محمد الحسن بن المستنجد (٥٦٦-٥٧٥هـ)
- ٩- الناصر لدين الله، أبو العباس أحمد بن المستضيء (٥٧٥-٦٢٢هـ)

(الملحق الثاني)

شجرة النسب السلجوقي



(الملحق الثالث)

منشور الفتوة الذي صدر في عهد الخليفة الناصر لدين الله

العباسي القاضي بتنظيم الفتوة سنة (٦٠٤هـ) (١).

حصلت فتنة في بغداد بين الفتيان، وكان الناصر مهتمًا بالفتوة كل الاهتمام، ووصل الخبر إليه؛ فغضب، وقرر تنظيم الفتوة، وأصدر مرسومًا بذلك، وجمع الفتيان، وقرأ عليهم نظام الفتوة الجديد، وقد جاء فيه ما يلي:

(بسم الله الرحمن الرحيم)

"... وقد رسم-أعلى الله المراسم العلية المقدسة النبوية، وزادها نفاذًا معضودًا بالصواب، وتأيدًا ممتد الأطناب، محكم الأسباب على كل من تشرف بالفتوة برفاقة الخدمة الشريفة المقدسة المعظمة المجدة المكرمة الطاهرة الزكية النبوية الإمامية الناصرة لدين الله تعالى، شرف الله مقامها، وخلد أيامها، وأعلى كلمتها ونصر رايتها- أنه من قتل له رفيق نفسًا نهي الله تعالى عن قتلها وحرمة، وسفك دمًا حقنه الشرع المطهر وعصمه، وصار بذلك مما قال الله تعالى في حقه؛ حيث ارتكب هذا المحرم، واحتقبت عظيم هذا المأثم: ﴿ومن قتل مؤمنًا متعمدًا فجزاؤه جهنم

(١) ابن الساعي: الجامع مع المختصر (٩/٢٢٣-٢٢٦).

خالدًا فيها^(١) الآية، أن ينزل عنه في الحال في جميع الفتيان عند تحققه لذلك ومعرفته، ويبادر إلى تغيير رفقته، مخرجًا له بذلك عن دائرة الفتوة التي كان متمسكًا بها، ومسقطًا لها من عداد الرفاقة التي لم يقيم بواجبها؛ ذلك لهم خزي في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب عظيم، وإن كل فتى يحوي قاتلًا ويخفيه، ويساعده على أمره ويؤويه، ينزل كبيره عنه، ويغير رفاقته، ويتبرأ منه، وإن من حوى ذا عيب فقد عاب وغوى، ومن أوى طريد الشرع فقد ضلّ وهوى، والنبي -عليه السلام- يقول: «مَنْ آوَى محدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً»^(٢)، ولا حدث أكبر من قتل النفس عدوًّا وظلمًا، ولا ذنب أعظم منه وزرًا وإثمًا؛ فإن الفتى متى قتل فتى من حزبه سقطت فتوته، ووجب أن يؤخذ منه القصاص عملاً بقوله تعالى: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص﴾^(٣)، وإن من قتل غير فتى عونًا من الأعوان، أو متعلقًا بديوان، في بلد سيدنا ومولانا الإمام المفترض الطاعة على الأنام الناصر لدين الله أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين؛ فقد عيب هذا القاتل في حرم صاحب الحزب بالقتل؛ فكأنما

(١) سورة النساء، آية (٩٣).

(٢) سنن أبي داود، كتاب الديات (٦٦٩/٤)، حديث رقم (٤٥٣٠)، وقد وردت الفقرة الأولى من الحديث إلى قوله " أجمعين " فقط.

(٣) سورة المائدة، آية (٤٥).

عيب على كبيرة؛ فسقطت فتوته بهذا السبب الواضح، ووجب أخذ القصاص منه عند كل فتى راجح، وليعلم الرفقة الميمونة ذلك، وليعملوا بموجبه، وليجروا الأمر في أمثال ذلك على مقتضى الأمور به، وليقفوا عند الحدود في هذا المرسوم المطاع، وليقابلوه بالانقياد والاتباع - إن شاء الله تعالى - وكتب في تاسع صفر سنة أربع وستمئة "

وسلّم إلى كل واحد من رؤساء الأحزاب منشور بهذا المثال، فيه شهادة ثلاثين من العدول، ثم كُتب تحت كل مرسوم ومنشور ما هذا صورته:

" قابل العبد ما تضمنه هذا المرسوم المطاع، وقابله بما يجب عليه من الانقياد والاتباع والامتثال؛ وهو الذي يجب العمل به فتوة وشرعاً؛ وهذا المعروف من سيرة الفتيان المحققين نقلًا، وقد ألزمت نفسي إجراء الأمر على ما تضمنه هذا المرسوم الأشرف؛ فمتى جرى ما ينافي المأمور به الحدود فيه كان الدرك لازماً، والمؤاخذة مستحقة على ما يراه صاحب الحزب، ثبت الله دولته وأعلى كلمته، وكتب فلان بن فلان في تاريخه "

(الملحق الرابع)

" تقليد الخليفة العباسي الناصر لدين الله للقاضي محي

الدين محمد بن فضلان بتعيينه مدرساً في المدرسة النظامية في

بغداد سنة (٦١٤هـ) " (١).

" أحق من أفيضت عليه مجاسد النعم، وجذب بصنيعه إلى مقام التنويه وتقدم القدم، من أسفر في أفضية الفضائل صباحه، وانتشر في العالم علمه وأزهر مصباحه.

ولما كان الأجل الأوحد العالم، محي الدين حجة الإسلام، رئيس الأصحاب، مفتي الفريقين، مفيد العلوم، أبو عبد الله محمد بن يحيى بن فضلان -أدام الله رفعته- ممن نظم فرائد المحامد عقده النضيد، وآوى من العلم والعمل إلى ركن شديد، وثبت قدمه من الديانة على مستثبت راسخ وقرار مهيد، روي التعويل في تفويض التدريس بالمدرسة النظامية إليه، ثقة باضطلاع واستقلاله، وتبريزه في حلقات الاستباق على نظرائه وأمثاله، وتراجع المساجلين له عن فوت غايته وبعد مناله، وأسند إليه -أدام الله رفعته- النظر في أوقاف المدرسة المذكورة بأجمعها، واعتماد ما شرطه الواقف في مصارفها وسبلها، سكوناً إلى كفايته، وركوئاً إلى سداده وأمانته.

(١) القلقشندي: صبح الأعشى (١٠/٢٩٢-٢٩٣).

ورسم له تقدم تقوى الله تعالى؛ التي ما زال منتهجاً لطرائقها، متمسكاً بعصمها ووثائقها، وأن يشرح صدره للمتعلمين، ولا تأخذه ضجرة من المستفيدين، ولا تعدو عيناه عن جهلاء الطالبين، ولا يتبرم بالمبالغة في تفهيم مبتدي، ولا يغفل عن تذكير المنتهي، فإنه إذا احتمل هذه المشقة، وأعطى كل تلميذ حقه، كان الله تعالى كفيلاً بمعونته؛ بحسب ما يعلم من حرصه عليهم وإخلاص نيته، وليكن بسائر المتفهمة معتنياً رقيقاً، وعليهم حدباً شقيقاً، يفرّغ لهم من الفقه ما وضح وتسهل، ويبين لهم ما التبس من غواصه وأشكل؛ حتى تستنير قلوبهم بأضواء علوم الدين، وتنطق ألسنتهم فيها باللفظ الفصيح المبين، وتظهر آثار بركاته في مراشده وتبين، ولتتوفر همته في عمارة الوقوف واستنمائتها، والتوفر على كل ما عاد بتزويدها وزكائها؛ بحيث يتضح مكان نظره فيها، ويبلغ الغاية الموفية على من تقدمه ويوفيهها، ولا يستعين إلا بمن يؤدي الأمانة ويوفيهها، ويقوم بشرائط الاستحفاظ ويكفيها؛ وهو -أدام الله رفعتة- يجري من عوائد المدرسين والمتمولين قبله على أوفى معهود، ويسامي به إلى أبعد مرتقى ومقام محمود، وأذن له في تناول إيجاب التدريس ونظر الوقوف المذكورة، أسوة بمن تقدمه في التدريس والنظر في الوقوف، على ما شرط الواقف في كل ورد وصدر، واعتماد كل ما حدّه في ذلك ومثله عن غير تجاوز".

(الملحق الخامس)

" خطاب السلطان السلجوقي ألب أرسلان لجنوده لما تحقق
من نشوب القتال بينه وبين ملك الروم في معركة "ملاذكرد"،
وذلك يوم الجمعة قبيل صلاة الجمعة مباشرة" (١).

جمع السلطان ألب أرسلان عسكره، وقال لهم:
" نحن مع القوم تحت الناقص، وأريد أن أطرح نفسي عليهم في هذه
الساعة؛ التي يدعي فيها لنا وللمسلمين على المنابر؛ فإمّا أن أبلغ الغرض،
وإما أن أمضي شهيداً إلى الجنة؛ فمن أحبّ أن يتبعني منكم فليتبعني، ومن
أحب أن ينصرف فليمض مصاحباً عني؛ فما هاهنا سلطان يأمر، ولا
عسكر يؤمر، فإتّما أنا اليوم واحد منكم وغازٍ معكم، فمن يتبعني ووهب
نفسه لله تعالى فله الجنة والغنّمة، ومن مضى حقت عليه النار
والفضيحة".

وكان جواب عسكره لما انتهى من كلامه:
" أيها السلطان، نحن عبيدك، ومهما فعلته تبعناك فيه، وأعتاك عليه،
فافعل ما تريد".

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٢٦٢/٨)، محمد حمادة: الوثائق السياسية والإدارية العائدة
للعصور العباسية المتتابعة ص (٣٢٨).

(الملحق السادس)

" منشور أصدره السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي

سنة (٥٠٠هـ)، لما ملك قلعة "شاه دز" قرب أصفهان، وقتل

الباطنية فيها؛ وهو في صورة خطاب موجه إلى وزير الخليفة

المستظهر بالله " (١).

" الوزير الأجل، مجد الدين، شرف الإسلام، ظهير الدولة، زعيم الملة، فخر الوزارة؛ أبو المعالي هبة الله بن محمد بن عبد المطلب، رضي أمير المؤمنين، أما بعد: أطال الله بقاء الوزير وألقابه، فإن الله تعالى يقول - وقوله الحق: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعززة على الكافرين يجاهدون في الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾، ولقد آتانا الله - وله الحمد - من هذا الفضل ما صرنا به أطول الملوك في الإسلام باعًا، وأعزهم في الذب عن حريمه أشياعًا وأتباعًا، وأثقلهم على أعداء الله وأعداء الدين وطأة وإنحاءً، فالحمد لله على ذلك حمدًا يوازي قدر نعمه، ويمتري المزيد من مواد كرمه، ثم الحمد لله على ما يسرنا له من إعزاز الدين، ورفع عماده، وقمع أضداده، واستئصال شأفة الباطنية المناهضين لعباده؛ الذين استزلوا العقول الفاسدة؛ فاستغوها بأباطيلهم، واستهووها بأضاليلهم،

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص (١٥٢-١٥٦) باختصار طفيف.

واتخذوا دين الله هزواً ولعباً بما لقفوه من زخارف أقاويلهم، مسمياً ما سنى الله من فتح الفتوح وهياً أسبابه من النصر الممنوح بأخذ قلعة " شاهدز " الذي شمخ بها الجبل وبذخ، وكان الباطل باض فيها وفرخ، وكانت قذى في عيون الممالك، وسيماً إلى التورط بالمسلمين في المهاوي والمهالك، وفيها ابن عطاش الذي طار عقله في مدرج الضلال وطاش، وكان يري الناس فنج الهدى مضلة، ويتخذ السفر المشحون بالأكاذيب مجلة، ويستبيح دماء المسلمين هدرًا، ويستحل أموالهم غررًا؛ فكم من دماء سفكت، وحرم انتهكت، وأموال استهلكت، ولو لم يكن منهم إلا ما كان عند حدثان أمرهم بأصفهان من اقتناص الناس غيلة، واستدراجهم خديعة، وقتلهم إياهم بأنواع العقوبات قتلة شنيعة، ثم فتكهم عوداً على بدء بأعيان الحشم وخيار العلماء، وإراقتهم ما لا يعد ولا يحصى من محرقات الدماء، إلى غير ذلك من هنات يمتعض الإسلام لها أي امتعاض، وما الله عن المسلم أن يتميز لها براض، لكان حقاً علينا أن نناضل عن حمى الدين، ونركب الصعب والذلول في مجاهدتها ولو إلى الصين.

وهذه القلعة كانت من أمهات القلاع التي انقطع إليها رؤوس الباطنية كل الانقطاع؛ وهي -في العزة والمنعة- مثل مناط الشمس؛ التي تنال منها حاسة البصر دون حاسة اللمس، وكأنها وهي أعلى شاهق، نزلت على الجبل من حائق، فهي -بهمزة الصفة- مقابلة لبلدة أصفهان؛ التي هي مقر الملك ودار الثواء، وأولى البلاد بتطهيرها من احتياج الفتن واختلاف الأهواء، وكنا -في خلال هذه الأحوال- لم نخل هذه القلعة من

طائفة تهزم حمية الدين من الجند، ينتهون من التضييق عليها إلى كل غاية من الجدد؛ فيتوفرون على محاصرتهم، ويتشمرون لمزاوتهم ومصاولتهم، ويقعدون لهم بكل مرصد، ويسدون كل متنزل ومصعد؛ حتى انقطعت عنهم المواد، وخانتهم المير والأزواد، واضطروا إلى أن نزل بعضهم على حكم الأمان بعد الاستئثار والاستئذان؛ فأمرنا بتخلية سربهم، وإيمان سربهم، وسلم الشطر من القلعة؛ لخلوه من الفئة النازلة، واعتصم ابن عطاش بقلعة أخرى تسمى "دالان" مع نخب أصحابه من المقاتلة؛ وهذه القلعة هي أمتع المواقع وأحصنها، وأوعرها مسلماً وأحزنها؛ فقد نقل إليها ما كان بقي لهم من الميرة، وسائر ما يستظهر به من السلاح والذخيرة، على أن يلبثوا بها أياماً معدودة؛ فينزلوا ويبدل لهم الأمان؛ مثل ما بذل للأولين، فيتحولوا كل ذلك بواسطة من قدمنا ذكرهم من المستخدمين في الدواوين، وفي باطن الأمر خلاف ما يتوهم من الإعلال؛ وذلك أنهم قدروا أن ما سلم من القلعة يترك على عمارته ومكانته، وما امتنع به من القلعة لا يقدر عليه لمنعته، وحصانته؛ ففطننا لما عمدوا، وعليه اعتمدوا، وأمرنا في الحال بالقلعة المسلحة فنسفت نسفاً، وخسفت بها خسفاً، وصير سفليها علواً، كما كان علوها خلواً، ثم انتقمنا منهم؛ فلم يفلت منهم صاحب ولا مصحوب، إن الشقاء على الأشقين مصبوب.

ووافق ذلك حلول الموعد لنزول باقي القوم من "دالان" فأبوا إلا المطل والليان، فلما مضت أيام على ذلك، وأظهروا التمرد والعصيان؛ فصاروا كما قال الله تعالى: ﴿ومن يرد الله فتنه فلن تملك له من الله شيئاً﴾

أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم^(١)، فعند ذلك استخرنا الله تعالى تجريد العزائم لهذا الجهاد؛ الذي هو عندنا من أنفس العزائم، ولا نخاف فيه لومة لائم، وأهبنا من حضرنا من العساكر المنصورة إلى الإحراق بالقلعة المذكورة يوم الثلاثاء؛ ثاني ذي الحجة؛ فنزلوا لفنائهم محتشدين، ولصدق اللقاء متشمريين متجردين، وجرت مناوشة عشية هذا اليوم، أثخت عدة من أولئك القوم، وبات المسلمون ليلتهم تلك على أضْم؛ والملحدون لحماً على وضم؛ فلما تنفس الصبح نصر الله الحق، وأدال الدين، وساء صباح المنذرين، وغدت جيوش النصر يداً واحدة، وكلمة على التظافر والتظاهر مساعدة، تسطو بالفئة المتحصنة بالقلعة سطوة الليث الهصور؛ فلم يلبثوا قبل ذرور الشمس بقرنها، وأخذها الناصح من لونها، أن أخذوا القلعة عنوة وقهراً، وأجروا من دماء الباطنية الملحدة نهرًا، وأمرنا في الحال بهدمها، والتعفية على ردمها، وأسر ابن عطاش، رأس الجالوت، وولي الطاغوت؛ الذي كان ممن قال الله تعالى فيه: ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾^(٢)، فجعلناه وولده المقرون به مثله للنظار، وعبرة لأولي الأبصار، فقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين.

(١) سورة المائدة، آية (٤٤).

(٢) سورة القصص، آية (٤١).

هذا هو الفتح المبين، والعزة التي تتلى؛ لأنها من الدهر الحنين،
والنعمة التي تمت وعمت، وأحنت بالنعمة على أعداء الله ورسوله
وطمت، وما ذاك إلا من بركات عقائدنا الناصعة في موالاته الدولة
العباسية، وهذه البشرية التي يهناً بها الإسلام، وترفع بها من الإشادة
بذكرها في الخافقين الأعلام، أمرنا بنشرها في الأقصى والأدنى، لاسيما
الدارة العزيزة، ظاهر الله مجدها، فإنها أولى من يبشر بمثلها ويهناً... وكتب
بالأمر العالي شفاهاً في ذي القعدة سنة (٥٠٠هـ)".

(الملحق السابع)

" كتاب نظام الملك إلى الشيخ أبي إسحاق الشيرازي بشأن

الفتنة التي وقعت بين الحنابلة والشافعية " (١)

" ورد كتابك بشرح أطلت فيه الخطاب، وليس توجب سياسة السلطان وقضية المعدلة إلى أن نميل في المذاهب إلى جهة دون جهة، ونحن بتأييد السنن أولى من تشييد الفتن، ولم نتقدم ببناء هذه المدرسة إلا لصيانة أهل العلم والمصلحة، لا للاختلاف وتفريق الكلمة، ومتى جرت الأمور على خلاف ما أردناه من هذه الأسباب، فليس إلا التقدم بسد الباب، وليس في المكنة الإبيان على بغداد ونواحيها، ونقلهم عن ما جرت عليه عاداتهم فيها؛ فإن الغالب هناك هو مذهب الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل -رحمة الله عليه- ومحلّه معروف بين الأئمة، وقدره معلوم في السنة، وكان ما انتهى إلينا أن السبب في تجديد ما تجدد مسألة سئل عنها أبو نصر القشيري من الأصول؛ فأجاب عنها بخلاف ما عرفوه من معتقداتهم، والشيخ الإمام أبو إسحاق -وفقه الله- رجل سليم الصدر، سلس الانقياد، ويصغي إلى كل من ينقل إليه، وعندنا من تصادر كتبه ما يدل على ما وصفناه من سهو له يجتذ به، والسلام "

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٨/٣١٢).

(الملحق الثامن)

" موعظة المعمر بن علي بن المعر بن أبي عمارة البغالالبغدادى للوزير نظام الملك" (١).

" الحمد لله ولي الإنعام، وصلى الله على من هو للأنبياء ختام، وعلى آله سرج الظلام، وعلى أصحابه العز الكرام، والسلام على صدر الإسلام، ورضي الأنام، من زينه الله بالتقوى، وختم له بالحسنى، وجمع له بين خيري الآخرة والدنيا، معلوم يا صدر الإسلام أن آحاد الرعية من الأعيان مخيرون في القاصد والوافد، إن شاءوا وصلوا، وإن شاءوا فصلوا، وأما من توشح بولاية فليس مخيراً في القاصد والوافد؛ لأن من هو على الخليفة أمير، فهو - في الحقيقة - أجير، قد باع زمنه وأخذ ثمنه؛ فلم يبق له من نهاره ما يتصرف فيه على اختياره، ولا له أن يصلي نفلًا، ولا يدخل معتكفًا، دون الصدد لتدبيرهم، والنظر في أمورهم؛ لأن ذلك فضل، وهذا فرض لازم.

وأنت يا صدر الإسلام - وإن كنت وزير الدولة - فأنت أجير الأمة استأجرك جلال الدولة (٢) بالأجرة الوافرة؛ لتتوب عنه في الدنيا والآخرة،

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٩/١٧٣-١٧٤)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٢/٥٦٦)،

العليمي: المنهج الأحمد (٢/٢٢٥-٢٢٧)، ابن العماد: شذرات الذهب (٤/١٤).

(٢) هو السلطان السلجوقي ملكشاه.

وتجيب عنه ربّ العالمين؛ فإنّه سيففه بين يديه؛ فيقول له: ملكتك البلاد، وقلدتك أزمة العباد، فما صنعت في إفاضة البذل، وإقامة العدل؟ فلعله يقول: يا ربّ اخترت من دولتي شجاعاً عاقلاً حازماً فاضلاً، وسميته قوام الدين نظام الملك، وها هو قائم في جملة الولاة، وبسطت يده في الشرط والسيف والقلم، ومكنته في الدينار والدرهم، فأسأله يا ربّ: ماذا صنع في عبادك وبلادك؟ أفتحسن أن تقول في الجواب: نعم تقلدت أمور البلاد، وملكك أزمة العباد، وبثت النوال، وأعطيت الأفضال؛ حتى إذا قربت من لقاءك، ودنوت من تلقائك، اتخذت الأبواب والبواب والحجاب؛ ليصدوا عني القاصد، ويردوا عني الوافد؟ فاعمر قبرك، كما عمرت قصرك، وانتهز الفرصة ما دام الدهر يقبل عذرك، وهذا ملك الهند -وهو عابد صنم- ذهب سمعه، فقال: ما حسرتي لذهاب هذه الجارحة من بدني، ولكن تأسفي لصوت المظلوم لا أسمعه لأغيثه، ثم قال: إن كان قد ذهب سمعي، فما ذهب بصري، فليؤمر كل ذي ظلامه أن يلبس الأحمر؛ حتى إذا رأيت عرفته فأنصفته.

وهذا أنوشروان قال له رسول ملك الروم: لقد أقدرت عدوك عليك؛ بتسهيل الوصول إليك؛ فقال: إنما أجلس هذا المجلس؛ لأكف ظلامه، وأمضي حاجة. وأنت يا صدر الإسلام أحقّ بهذه المأثرة، وأولى بهذه المعدلة، وأحرى من أعدّ جواباً لتلك المسألة؛ فإن الله الذي تكاد السموات يتفطرن منه، في موقف ما فيه إلا خاشع أو خاضع، أو مقنع،

ينخلع فيه القلب، ويحكم فيه الرب، ويعظم فيه الكرب، ويشيب فيه الصغير، ويعزل الملك والوزير: ﴿يَوْمَذِي تَذَكَّرُ الْإِنْسَانَ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾^(١)، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تُوَدِّعُ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾^(٢)، وقد استجلبتُ لك الدعاء، وخلّدتُ لك الثناء، مع براءتي من التهمة، فليس لي -بحمد الله- في أرض الله ضيعة ولا قرية، ولا بيني وبين أحد خصومة، ولا بي -بحمد الله- فقر ولا فاقة".

(١) سورة الفجر، آية (٢٣).

(٢) سورة آل عمران، آية (٣٠).

(الملحق التاسع)

" موعظة علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي إلى
الوزير عميد الدولة ابن جهير لما بنى سور بغداد، وأظهر للعوام
في أثناء الاشتغال ببنائه بعض المنكرات " (١)

" لولا اعتقادي صحة البعث، وأن لنا داراً أكون فيها على حال
أحمدها، لما نصبت نفسي إلى مالك عصري، وعلى الله أعتد في جميع
أموري، بعد أن أشهده أي محبّ معتصب، لكن إذا تقابل دين محمد ﷺ
ودولة بني جهير، فوالله ما أزن هذه بهذه، ولو كنت كذلك كنت كافراً؛
فأقول: إن كان هذا الخرق الذي جرى بالشرعية عن عمد لمناسبة
واضعها، فما بالنا نعتقد الختمات، ورواية الأحاديث، فإذا نزلت بنا
الحوادث تقدمنا بجميع الختمات والدعاء عقييها، ثم - بعد ذلك - طبول
وسواني، ومخانيث وخيال، وكشف عورات الرجال، مع حضور النساء،
إسقاطاً لحكم الله تعالى، وما عندي يا شرف الدين (٢) أن فيك أن تقوم
لسنخطة من سنخطات الله تعالى، ترى بأي وجه تلقى محمداً ﷺ، بل لو
رأيتَه - في المنام - مغضباً كان ذلك يزعجك في يقظتك، وأي حرمة تبقى
لوجوهنا وأيدينا وألسنتنا عند الله إذا وضعنا الجباه ساجدة له؟ ثم كيف

(١) ابن الجوزي: المنتظم (٨٥/٩-٨٦)، العلمي: المنهج الأحمد (٢/٢٥٥-٢٥٦).

(٢) أحد ألقاب الوزير ابن جهير.

نطالب الأجناد بتقبيل عتبة ولثم تراجمها، ونقيم الحد في دهليز الحرم صباحاً ومساءً على قدح نبيد مختلف فيه، ثم تمرح العوام في المسكر المجمع على تحريمه؟ هذا مضاف إلى الزنا الظاهر، ولبس الحرير على جميع المتعلقين والأصحاب.

يا شرف الدين، اتق سخط الله تعالى، فإن سخطه لا يُقاومه سماء ولا أرض، وإن فسدت حالي بما قلت؛ ففعل الله يلطف بي، ويكفيني هوائج الطباع، ثم لا تلمنا على ملازمة البيوت، والاختفاء عن العوام؛ لأنهم إن سألونا لم نقل إلا ما يقتضي الإعظام لهذه القبائح، والإنكار لها، والنياحة على الشريعة، أترى لو جاءت معتبة من الله في منام، أو على لسان نبي؛ إن لو كان قد بقي للوحي نزول، أو ألقى إلى روع مسلم بالهام، هل كانت إلا إليك؟ فاتق الله تقوى من علم بمقدار سخطه، فقد قال: ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم ﴾^(١)، وقد ملأتكم في عيونكم مدائح الشعراء، ومداجاة المتمولين بدولتكم الأغنياء الأغبياء؛ الذين خسروا الله فيكم، فحسّنوا لكم طرائقكم، والعاقل من عرف نفسه، ولا يغيره مدح من لا يخبرها "

(١) سورة الزخرف، آية (٥٦).

(الملحق العاشر)

" مقال أبي حامد الغزالي للسلطان السلجوقي سنجر في

حضرتة " (١)

كان الغزالي كثيرًا ما ينصح السلاطين والوزراء والأمراء، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحذرهم من الظلم، ويذكرهم بالآخرة، فتكلم مرة في حضور السلطان سنجر؛ فكان من جملة ما قال له:

" بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله أجمعين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، أبقى الله ملك الإسلام، انظر الناصح الصامت -أي: الموت- ماذا يقول بلسان الحال؟ هكذا يقول: فليعلم كل مخلوق بأنني له بالمرصاد، وسأفتح المصيدة فجأة، ولا أبعث من قبل رسولاً، فإذا أردتم أن تروا ماذا سأفعل بكم؟ فلينظر الملوك إلى الملوك الذين مضوا، والأمراء إلى الأمراء السابقين.

يا أيها الملك، هيأت لهذه الدنيا كثيرًا من الجيوش والخزائن، فاعمل للآخرة -أيضًا- على قدر مقامها ومدتها؛ فالدنيا مقدارها معلوم، وقد لا يبقى منها غير أيام وأنفاس قليلة، ولكن الآخرة لا نهاية لها.

(١) فضائل الأنام من رسائل حجة الإسلام ص (٣٨-٤٢)، رسالة أيها الولد للغزالي

اقبل مني وصية واحدة: اجعل كلمة " لا إله إلا الله " ورَدَ لسانك بحيث لا يسمعها غيرك، واذكرها وإن كنت في الصيد أو على العرش، أو في الخلوة؛ فلا تنقطع عنك ساعة واحدة، فإنَّ الإيمان يرسخ بها.

أيها الملك: إذا أُوقِفْتَ في مقام المواخِذة والسؤال، وقالوا لك: ماذا فعلت بعبادنا الذَّاكِرِينَ لكلمة " لا إله إلا الله " الذين جعلناهم رعيّتك، وأعطيناك عدة مواشي، فاهتممت بها حتى خصصت لها كل رحبة خصبة، وغفلت عن عبادنا، ولماذا قدمت حرمة مواشيك على أعزتنا؟ وقد قلنا: إن حرمة المؤمن عندنا أعظم من الكعبة، فماذا عندك من الجواب على هذا السؤال؟!".

ثم طلب الغزالي العدل والرحمة بالرعية؛ فيقول: " إنَّ أهل طوس في أزمة شديدة، مشردون ومصابون في الظلم والقحط والجفاف، فارحمهم يرحمك الله تعالى، فقد انقطعت ظهور المؤمنين، وانحنت أعناقهم من البلاء ومحنة الجوع، فماذا يكون إذا خفت من ثقل أطواق الذهب في أعناق مواشيك؟... والسلام".

الفهارس

فهرس الأعلام المترجم لهم

فهرس المصادر والمراجع

فهرس محتويات الرسالة

فهرس الأعلام المترجم لهم

الصفحة	العلم
٣٨٠	آقسنقر-قسيم الدولة-البرسقي (أمير)
١٢٤	إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي
٩٤٣	إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين (أمير)
٥٦١	أحمد بن الحسن بن علي الطوسي-ضياء الملك (الوزير)
٩٦٦	أحمد بن سلامة بن عبد الله بن الرطبي
٦٣٣	أحمد بن محمد بن أحمد البغدادي
٤٣٧	أحمد بن محمد بن الحسن الفوركي
٤٩٦	أحمد بن عبد الملك بن عطاش (زعيم باطني)
١١٤	أرسلان بن عبد الله البساسيري (قائد)
٢١٥	أرغش المسترشدي (قائد)
٦٠٥	إسماعيل بن عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي
١٩٥	إسماعيل (الظافر) بن عبد المجيد (الحافظ لدين الله) العلوي (حاكم فاطمي)
٩٢٩	أنوشروان بن خالد بن محمد القاشاني القيني (وزير)
٣٢٥	إيلغازي بن أرتق-نجم الدين-التركمان (أمير)
٢٢٣	أبو بكر بن منصور بن نصر بن الحسين؛ المعروف بابن العطار
٦٢٤	تنش (تاج الدولة) بن ألب أرسلان السلجوقي (أمير)

١١٢٨ جهود العلماء والولاة في الحفاظ على السنة... للدكتور خالد الصاعدي

الصفحة	العلم
٦٥٣	جعفر بن أحمد بن الحسين بن السراج
٢٤٨	حسام الدين أبو الهيجاء الكردي (أمير)
٨٦٨	الحسن بن أحمد بن عبد الله بن البنا الحنبلي
٤٩٦	الحسن بن الصباح بن علي الإسماعيلي (زعيم باطني)
٥١٧	الحسن بن علي الطوسي - نظام الملك (الوزير السلجوقي)
٦٣٣	الحسين بن علي الصمري
٦٥٤	الحسين بن محمد بن عبد الوهاب الدباس
٨٦٠	حماد بن مسلم الدباس
٣٦٣	داود بن سليمان بن قنلمش - قنح أرسلان - (سلطان سلجوقي)
٤١٥	داود بن علي عبد الله بن عباس الهاشمي
١٥٧	دبيس بن صدقة بن مزيد الأسدي (أمير)
٦٨١	سابور بن أردشير (وزير)
٥٠٠	سعد بن محمد الآبي (وزير)
١٩٢	سعد بن محمد بن سعد الصيفي التميمي
٦٥٥	سعيد بن المبارك بن علي بن الدهان
٦٥٢	سلمان بن عبد الله الحلواني النهرواني
٢١٤	شملة التركماني (أمير)

الصفحة	العلم
٩٤٥	عبد الخالق بن عيسى بن أحمد الهاشمي
٦٥٦	عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنباري
٢٧٨	عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلاني
١٢٥	عبد السيد بن محمد بن عبد الواحد البغدادي (ابن الصباغ)
١٩٢	عبد القاهر بن محمد بن عبد الله السهروردي
٦٥٧	عبد الله بن الحسين العكبري
٢٢٧	عبد الله (العاقد) بن يوسف الحافظ بن المستنصر (حاكم فاطمي)
٦٦٢	العلاء بن الحسين بن وهب بن الموصلايا (كاتب)
٢٤٢	عبد الملك بن زيد الدولعي
٧٥٧	عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني
٨٤٠	عبد الملك بن محمد بن يوسف الحنبلي
٢٠٧	علي بن أحمد الدامغاني
٢١١	علي بن حسن بن المسلمة البغدادي (وزير)
١٩٣	علي بن الحسين الغزنوي
١٦٧	علي بن طراد بن محمد الزينبي (وزير)
٥٥٦	علي بن عبد الرحمن بن محمد السمنجاني
٤٤٥	علي بن عقيل بن علي بن محمد البغدادي

١١٣٠ جهود العلماء والولاة في الحفاظ على السنة... للدكتور خالد الصاعدي

الصفحة	العلم
٦٥٢	علي بن فضال المجاشعي
٧٨٣	علي بن محمد الدريبي
١٥٥	علي بن محمد بن علي بن الحسن الدامغاني
٦٥٤	علي بن محمد بن علي الفصيحي
٦٥٣	علي بن نصر بن محمد الفندورجي
٣٢٢	فخر الملك أبو علي بن عمار (أمير)
٢١٧	قايماز بن عبد الله المستنجدي (قطب الدين)
٤٢٩	قرواش بن المقلد بن المسيب بن رافع - معتمد الدولة (أمير)
٦٥٧	المبارك بن سعيد بن الدهان
٦٥٦	المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري
١٥١	محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي
٣١٩	محمد بن أحمد بن محمد الأبيوردي
١٦٧	محمد بن أحمد بن محمد بن جعفر الكرخي
٢٣٩	محمد بن أيوب بن شاذي الدويني التكريتي (الملك العادل)
٤٣٥	محمد بن الحسن بن علي الطوسي (شيخ الشيعة)
٤٤٥	محمد بن الحسين بن محمد - ظهير الدولة - الروذراوري (وزير)
٢٥٠	محمد بن سالم الغوري - غياث الدين - (أمير)
٤٣٠	محمد بن الطيب بن محمد الباقلائي

الصفحة	العلم
٢١١	محمد بن عبد الله بن هبة الله بن علي بن المسلمة البغدادي (وزير)
٢٤٨	محمد بن علي بن أحمد القصاب (وزير)
١٢٤	محمد بن علي بن محمد الحنفي الدامغاني
٢٣١	محمد بن عماد الدين عمر بن علي الجويني
٦١٣	محمد بن المظفر بن بكران الحموي الشامي
٩٤٧	محمد بن محمد بن الحسن بن عيشون
١٣٨	محمد بن محمد بن محمد بن جهير (وزير)
٤١٧	محمد بن الوليد بن خلف بن سليمان الطرطوشي
٨٨	محمد بن منصور بن محمد الكندري- عميد الملك- (وزير)
٣١٩	محمد بن نصر بن منصور الهروي
١٩٦	محمود بن عماد الدين زنكي (نور الدين)
٤٧٣	محمود بن نصر بن صالح بن مرداس الكلابي (أمير)
٤٥٦	مسعود بن محمود السلجوقي (سلطان سلجوقي)
٦٩٧	مقاتل بن عطية بن مقاتل البكري
١١٧	مهارش بن مجلي العقيلي
١٩٩	مودود بن عماد الدين زنكي (قطب الدين)
٦٥٤	موهب بن أحمد بن الحسن الجوالقي

١١٣٢ جهود العلماء والولاة في الحفاظ على السنة... للدكتور خالد الصاعدي

الصفحة	العلم
٦٥٥	هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة-ابن الشجري-
٦٥٣	يحيى بن علي بن محمد الشيباني
٥١٥	يعقوب بن سليمان بن داود الخازن
٢٢٦	يوسف بن أيوب بن شاذي الدويني التكريتي (صلاح الدين)
١٨٤	يوسف بن عبد الله بن بندار الدمشقي

فهرس المصادر والمراجع

☆ القرآن الكريم

أولًا: المصادر الخطية (المخطوطة):

الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عثمان (ت: ٧٤٨هـ) —
: (١٣٤٨م)

١. تاريخ الإسلام، الجزء التاسع، مخطوط مصور، برقم ٩٣١، قسم
المخطوطات، بالجامعة الإسلامية بالمدينة.

الكتبي: محمد بن شاكر بن أحمد الحلبي الدمشقي (ت: ٧٦٤هـ) —
: (١٣٦٣م)

٢. عيون التواريخ، الجزء الثالث عشر، مخطوط مصور برقم ٢٥٤٣،
قسم المخطوطات، بالجامعة الإسلامية بالمدينة.

ثانيًا: المصادر العربية والمعرّبة المطبوعة:

الآمدي: سيف الدين أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد (٦٣١هـ) —
: (١٢٣٣م)

١. الإحكام في أصول الأحكام، طبعة قديمة بدون دار نشر أو تاريخ.
ابن الأنباري: أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد
(ت: ٥٧٧هـ - ١١٨١م):

٢. نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق: د. إبراهيم السامرائي،
مكتبة المنار، الطبعة الثالثة (١٤٠٥هـ).

ابن أبي أصيبعة: أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة ابن السعدي (ت: ٦٦٨هـ - ١٢٦٩م):

٣. عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق د. نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت (١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م).

الأبيوردي: أبو المظفر محمد بن أحمد بن محمد (ت: ٥٠٧هـ - ١١١٣م):

٤. ديوان الأبيوري، تحقيق عمر الأسعد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية (١٩٨٧م).

٥. ابن الأثير: ضياء الدين نصر الله بن محمد الشيباني الجزري (ت: ٦٣٧هـ - ١٢٣٩م):

٦. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق د. أحمد الحوفي، د. بدوي طبانة، مكتبة فهضة مصر ومطبعتها، القاهرة، (١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م).

ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن محمد الجزري (ت: ٦٣٠هـ - ١٢٣٢م):

٧. الكامل في التاريخ، ط. دار صادر، بيروت، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).

٨. التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات، مكتبة المثني، بغداد، (١٣٧٢هـ -)، ودار الكتب الحديثة، القاهرة.

٩. اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت (١٤٠٠هـ) —
١٩٨٠م).

ابن الأثير: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد الجزري
(٦٠٦هـ — ١٢٠٩م):

١٠. النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر أحمد الزاوي،
ومحمود الطناحي، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة.

الآجري: أبو بكر محمد بن الحسين البغدادي (ت: ٣٦٠هـ):

١١. أخلاق العلماء، تحقيق: د. فاروق الثقافة، دار الثقافة، الدار
البيضاء، الطبعة الثانية (١٤٠٤هـ).

١٢. الشريعة، تحقيق: محمد حامد فقي.

الأربلي: عبد الرحمن سنبط بن إبراهيم قنيتو (ت: ٧١٧هـ — ١٣١٧م):

١٣. خلاصة الذهب المسبوك، تحقيق: مكي السيد حاسم، نشر مكتبة
المثنى، بغداد.

الأزدي: جمال الدين أبو الحسن علي بن ظافر بن الحسين الخزرجي
(ت: ٦١٣هـ — ١٢١٦م):

١٤. أخبار الدول المنقطعة: تاريخ الدولة العباسية، تحقيق ودراسة: د.

محمد بن مسفر الزهراني، مكتبة الدار، المدينة المنورة، (١٤٠٨هـ) —

١٩٨٨م).

- الأسنوي: جمال الدين عبد الرحيم (ت: ٧٧٢هـ - ٩٣٥م):
١٥. طبقات الشافعية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى
(١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).
- الأشعري: أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت: ٣٢٤هـ - ٩٣٥م):
١٦. مقالات الإسلاميين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة
الثالثة.
١٧. الإبانة عن أصول الديانة، طبعة الجامعة الإسلامية، الطبعة الثانية
(١٤٠٥هـ).
- الإسفرائيني: أبو المظفر شاهفور بن طاهر بن محمد (ت: ٤٧١هـ):
١٨. التبصر في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، علق
على حواشيه: محمد زاهد الكوثري، مكتبة الخانجي، بمصر، ومكتبة المثني
بيغداد، (١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م).
- الإصطخري: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي (ت: ٣٤٦هـ -
٩٥٧م):
١٩. المسالك والممالك، من منشورات مؤسسة النصر، مصر.
- الأصفهاني: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد (ت: ٤٣٠هـ):
٢٠. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الأصفهاني: حمزة بن الحسن (ت: ٣٦٠هـ - ٩٧١م):
٢١. تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، مكتبة
الحياة، بيروت، (١٩٦١م).

- الأيوبي: محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي (ت: ٦١٧هـ):
 ٢٢. مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: د. حسن حبشي، عالم
 الكتب، القاهرة.
- الباقلاني: محمد بن الطيب (ت: ٤٠٥هـ):
 ٢٣. التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج
 والمعتزلة، تحقيق: محمود محمد الخضير، ومحمد عبد الهادي أبو ريذة،
 دار الفكر العربي، القاهرة، (١٣٦٦هـ).
٢٤. إعجاز القرآن، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب
 الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).
- البغدادي: إسماعيل باشا بن محمد أمين الباباني (ت: ١٣٣٩هـ) —
 (١٩٢٠م):
٢٥. هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، جزآن، طبع بعناية
 وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية، استانبول، (١٩٥١م)،
 منشورات مكتبة المثنى، بغداد.
- البغدادي: عبد القاهر بن طاهر بن محمد (ت: ٤٢٩هـ—١٠٣٧م):
٢٦. الفرق بين الفرق، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار
 المعرفة، بيروت، لبنان.

البكري: أبو عبيد الله بن عبد العزيز (٤٨٧هـ):

٢٧. معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، حققه وضبطه مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٣هـ) - (١٩٧٣م).

البنداري: الفتح بن علي بن محمد (ت: ٦٤٣هـ - ١٢٤٥م):

٢٨. تاريخ دولة آل سلجوق؛ وهو مختصر لتاريخ السلاجقة الذي ألفه عماد الدين الأصفهاني، بعنوان "نصرة المدّة، وعصرة الفطرة"، شركة طبع الكتب العربية، القاهرة، (١٣١٨هـ - ١٩٠٠م).

البيروني: أبو الريحان محمد بن أحمد الخوارزمي (ت: ٤٤٠هـ) - (١٠٤٨م):

٢٩. الآثار الباقية عن القرون الخالية، مكتبة المثنى، بغداد، ومؤسسة الخانجي، بمصر.

البيهقي: أبو الفضل محمد بن حسين (ت: ٤٧٠هـ):

٣٠. تاريخ البيهقي، ترجمه إلى العربية يحيى الخشاب، وصادق نشأت، دار النهضة العربية، بيروت، (١٩٨٢هـ).

الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (ت: ٢٧٩هـ):

٣١. سنن الترمذي، تحقيق أحمد شاكر، طبعة الحلبي، مصر، الطبعة الثانية (١٣٩٨هـ).

ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي
(ت: ٨٧٤هـ - ١٤٦٩م):

٣٢. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية،
المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر، مصر.

التنوخي: أبو علي المحسن بن علي (ت: ٣٨٤هـ - ١٩٩٤م):

٣٣. الفرج بعد الشدة، تحقيق عبود الشالجي، دار صادر، بيروت
(١٣٩٨هـ - ١٩٧٨).

التوحيد: أبو حيان علي بن محمد (ت: ٤٠٠هـ - ١٠٠٩م):

٣٤. الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: أحمد أمين، وأحمد الزين، منشورات دار
مكتبة الحياة، بيروت.

ابن تيمية: شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلِيم
(ت: ٧٢٨هـ - ١٣٢٧م):

٣٥. مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم
الحنبلي، وابنه محمد، مصورة عن الطبعة الأولى، (١٣٩٨هـ)، مطابع
دار العربية، بيروت.

٣٦. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تحقيق: صلاح الدين المنجد،
دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م).

٣٧. درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، طبعة
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.

٣٨. الرد على المنطقيين، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

٣٩. الصارم المسلول على شاتم الرسول، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة خاصة للحرس الوطني السعودي.

٤٠. منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية، تحقيق: د.

محمد رشاد سالم، أشرفت على طبعة إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام

محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م).

الثعالبي: أبو منصور عبد الملك بن محمد (ت: ٤٢٩هـ-١٠٣٧م):

٤١. يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: د. مفيد محمد قميحة

دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ-١٩٨٣م).

ابن جبير: أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني الأندلسي (ت: ٦١٤هـ-

١٢١٧م):

٤٢. رحلة ابن جبير، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية،

(١٤٠٦هـ-١٩٨٦م).

الجزري: أبو الخير محمد بن محمد (ت: ٨٣٣هـ-١٤٢٩م):

٤٣. غاية النهاية في طبقات القراء، عني بنشره ج، برجستراسر، دار

الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (١٤٠٠هـ-١٩٨٠م).

ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي البغدادي

(ت: ٥٩٧هـ-١٢٠٠م):

٤٤. تلبيس إبليس، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية،

المصححة، (١٤٠٧هـ-١٩٨٧م).

٤٥. صيد الخاطر، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٦. المصباح المضيء في خلافة المستضيء، تحقيق: ناحية عبد الله إبراهيم، مطبعة الأوقاف، بغداد، (١٣٩٦هـ).
٤٧. مناقب بغداد، تحقيق محمد بهجة الأثري، مطبعة دار السلام، بغداد، (١٣٦١هـ).
٤٨. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، مطبعة دار المعارف العثمانية، حيدرآباد، ط ١ (١٣٥٨هـ).
- الجوهري: إسماعيل بن حماد (ت: ٣٩٣هـ - ١٠٠٣م):
٤٩. الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٤هـ).
- الجويني: أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف (ت: ٤٧٨هـ):
٥٠. الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، تحقيق: د. محمد يوسف موسى، وعلي عبد المنعم عبد الحميد، الناشر مكتبة الخابجي، مصر، ومكتبة المثني، بغداد.
٥١. الطريق إلى الخلافة، اختصار غياث الأمم في التياث الظلم، اختصره وعلق عليه أبو عمار محمد بن حامد الحسينين، دار طيبة، الرياض ومكة، الطبعة الثانية، (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).
- حاجي خليفة: مصطفى بن عبد الله (ت: ١٠٦٧هـ - ١٦٥٦م):
٥٢. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، منشورات مكتبة المثني، بغداد.

ابن حجر: شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ) —
: (١٤٤٨م)

٥٣. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت.

٥٤. تقريب التهذيب، تحقيق ودراسة: محمد عوامة، دار الرشيد، حلب، سوريا، الطبعة الثانية، (١٤١١هـ - ١٩٩١م).

٥٥. تهذيب التهذيب، دار صادر، بيروت، لبنان.

٥٦. لسان الميزان، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى،
(١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).

ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد الظاهري (ت: ٤٥٦هـ) —
: (١٠٦٣هـ)

٥٧. جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،
(١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

٥٨. الفصل في الملل والأهواء والنحل، دار الفكر، بيروت،
(١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).

٥٩. موجز تاريخ الإسلام، قدم له وعلق عليه بديع السيد اللحام، دار
الإيمان، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م).

الحسيني: صدر الدين أبي الحسن علي بن ناصر (توفي في القرن السابع):

٦٠. زبدة تواريخ أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، تحقيق: د. محمد
نور الدين، دار اقرأ، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

- ابن حماد: أبو عبد الله محمد بن علي (ت: ٦٢٧هـ):
٦١. أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق ودراسة: د. التهامي نقرة، ود. عبد الحليم عويس، دار العلوم، الرياض.
- الخطيب البغدادي: الحافظ أبي بكر أحمد بن علي (ت: ٤٦٣هـ) — (١٠٧٠م):
٦٢. تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
٦٣. الكفاية في علم الرواية، دار الكتب الحديثة، القاهرة، الطبعة الأولى.
- الخلال: أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون (ت: ٣١١هـ):
٦٤. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ) — (١٩٨٦م).
- ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن ولي الدين التونسي الحضرمي الأشبيلي (ت: ٨٠٨هـ — ١٤٠٥م):
٦٥. العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان (١٣٩١هـ — ١٩٧١م)، دار الفكر للطباعة، بيروت، (١٤٠١هـ — ١٩٨١م).
٦٦. المقدمة، دار القلم، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة (١٩٨٤م).

ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر
(ت: ٦٨١هـ - ١٢٨٢م):

٦٧. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار
صادر، بيروت، (١٣٩٣هـ - ١٩٧٧م).

الخوارزمي: محمد بن أحمد بن يوسف (ت: ٣٨٧هـ - ٩٩٧م):

٦٨. مفاتيح العلوم، تقديم وإعداد، د. عبد اللطيف محمد العبد، دار
النهضة العربية، القاهرة.

الداوودي: الحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد (ت: ٩٤٥هـ -
١٥٣٨م).

٦٩. طبقات المفسرين، جزءان، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة
(٣٩٢هـ - ١٩٧٢م).

ابن الديلمي: محمد بن سعيد بن محمد (ت: ٦٣٧هـ - ١٢٣٩م):

٧٠. ذيل تاريخ مدينة السلام، تحقيق: بشار عواد معروف، مطبعة دار
السلام، بغداد، (١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م).

ابن دحية: عمر بن حسن بن علي (ت: ٦٣٣هـ - ١٢٣٥م):

٧١. النبراس في تاريخ بني العباس، باعثناء عباس العزاوي، بغداد
(ت: ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م).

ابن دقماق: إبراهيم بن محمد بن أبادمر العلائي (ت: ٨٠٩هـ) —
١٤٠٦م):

٧٢. الجواهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ) —
١٩٨٥م).

الديلمي: محمد بن الحسن (ت: ٧١١هـ-١٣١١م):

٧٣. بيان مذهب الباطنية وبطلانه، عني بتصحيحه د. شدو طمان، إدارة ترجمان السنة، لاهور، باكستان.

الدينوري: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت: ٢٧٦هـ):

٧٤. عيون الأخبار، شرحه وضبطه وعلق عليه: د. يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت: ٧٤٨هـ-١٣٤٨م):

٧٥. الإعلام بوفيات الأعلام، حققه رياض عبد الحميد مراد، وعبد الجبار زكار، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ) —
١٩٩١م).

٧٦. تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي.

٧٧. دول الإسلام، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ود. بشار عواد معروف، ود. محيي هلال السرحان، ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ-١٩٨٣م).

٧٨. العبر في خير من غير، تحقيق: محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ-١٩٨٩م).
٧٩. معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، جزءان، محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، الطبعة الأولى.
٨٠. ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق: علي محمد البجاوي، وفتحية علي البجاوي، دار الفكر العربي.
- الراغب الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل (ت: ٥٠٢هـ-١١٠٨م):
٨١. الذريعة إلى مكارم الشريعة، تحقيق ودراسة د. أبو اليزيد العجمي، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، الطبعة الثانية، (١٤٠٨هـ-١٩٨٧م).
- الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت: ٦٦٦هـ-١٢٦٨٩م):
٨٢. مختار الصحاح، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، ودار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، (١٤٠٦هـ-١٩٨٦م).
- الرازي: أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر (ت: ٣٢٧هـ):
٨٣. الجرح والتعديل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الرازي: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين، الملقب فخر الدين،
(ت: ٦٠٦هـ - ١٢٠٩م):

٨٤. اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، مراجعة علي سامي النشار،
دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).

الراوندي: محمد بن علي بن سليمان (ت: ٦٠٣هـ - ١٢٠٦م):

٨٥. راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ترجمة د.
إبراهيم الشواربي، ود. عبد النعيم محمد حسنين، ود. فؤاد الصياد،
بمعاونة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم، الناشر، دار
القلم، القاهرة، (١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م).

ابن رجب: أبو الفرج زين الدين عبد الرحمن بن أحمد البغدادي الحنبلي
(ت: ٧٩٥هـ - ١٣٩٢م):

٨٦. كتاب الذيل على طبقات الحنابلة، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة،
(١٣٧٢هـ - ١٩٥٢م).

الزيدي: محمد بن محمد بن عبد الرزاق الشهير بالسيد الحسيني
(ت: ١٢٠٥هـ - ١٧٩٠م):

٨٧. تاج العروس من جواهر القاموس، دار مكتبة الحياة، بيروت،
الطبعة الأولى.

الرمحشري: جار الله أبي القاسم، محمود بن عمر الخوارزمي
(ت: ٥٣٨هـ - ١١٤٣م):

٨٨. أساس البلاغة، دار صادر، بيروت، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).

ابن الساعي: تاج الدين علي بن أنجب الخازن (ت: ٦٧٤هـ) —
(١٢٧٥م):

٨٩. الجامع المختصر في تواريخ عنوان وعيون السير، الجزء التاسع،
تحقيق مصطفى جواد، الطبعة السريانية، بغداد (١٣٥٣هـ - ١٩٣٤م).
سبط ابن الجوزي: شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزأوغلي
(ت: ٦٥٤هـ - ١٢٥٦م):

٩٠. مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تحقيق: د. مسفر سالم الغامدي،
مركز إحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، جزاءن،
تشمل المدة من (٤٨١ - ٥١٧هـ)، تاريخ الطبع (١٤٠٧هـ) —
(١٩٨٧م).

السبكي: تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي
(ت: ٧٧١هـ - ١٣٦٩م):

٩١. طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، ومحمود
الطناجي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه، القاهرة، الطبعة الأولى،
(١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م).

السجستاني: أبو داود سليمان بن الأشعث (ت: ٢٧٥هـ):

٩٢. السنن، مع كتاب "معالم السنن للخطابي"، تحقيق الدعاس، وعادل
السيد، دار الحديث، حمص.

- السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت: ٩٠٢هـ - ١٤٩٦م):
 ٩٣. الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، تحقيق: فرانز روزنثال، ترجمة د. صالح العلي، وهو ضمن كتاب "علم التاريخ عند المسلمين" لروزنثال، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
- السفارييني: محمد بن أحمد الحنبلي (ت: ١١٨٨هـ - ١٧٧٤م):
 ٩٤. لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، شرح الدرّة المضيئة، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).
- السكسكي: عباس بن منصور (ت: ٦٨٣هـ):
 ٩٥. البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان، تحقيق د. بسام علي العموش، مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
- السمعاني: أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي (ت: ٥٦٢هـ - ١١٦٦م):
 ٩٦. الأنساب، نشره: س. مرجليوث، ليدن، ودار الكتب العلمية، بيروت، تقديم وتعليق عبد الله عمر البارودي، الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
٩٧. سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، ترجمة حياته بقلمه، تحقيق: محمد كامل حسين، دار الكاتب المصري، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٩٤٩م).

السيوطي: الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت: ٩١١هـ-
١٥٠٥م):

٩٨. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبي الفضل
إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت.

٩٩. تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بدون دار
نشر، أو تاريخ طبع.

١٠٠. حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جزءان، تحقيق محمد أبي
الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى (١٣٧٨هـ-
١٩٦٧م).

١٠١. طبقات المفسرين، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة، الطبعة
الأولى، (١٣٩٦هـ-١٩٧٦م).

الشاطبي: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي
(ت: ٧٩٠هـ-١٣٨٧م):

١٠٢. الموافقات في أصول الشريعة، عنى بضبطه وترقيمه ووضع تراجمه
محمد بن عبد الله دراز، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.

أبو شامة: شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي
(ت: ٦٦٥هـ-١٢٦٦م):

١٠٣. الروضتين في أخبار الدولتين، مطبعة وادي النيل، القاهرة،
(١٢٨٨هـ-١٨٧١م).

١٠٤. ذيل الروضتين، نشره السيد عزة العطار الحسيني، الطبعة الثانية، دار الجيل، (١٩٧٤م).
- أبو شجاع: الوزير محمد بن الحسين الملقب ظهير الدين الروذراوري (ت: ٤٨٨هـ - ١٠٩٥م):
١٠٥. ذيل تجارب الأمم، طبع شركة التمدن الصناعية، مصر، (١٣٣٤هـ).
- ١٠٦.
- ابن شداد: بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع؛ الشهرير بابن شداد (ت: ٦٣٢هـ):
١٠٧. النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيبان، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٩٦٤م).
- ابن شداد: عز الدين محمد بن علي (ت: ٦٨٤هـ - ١٢٨٥م):
١٠٨. الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: يحيى عبارة، طبعة دمشق، (١٩٧٨م)، وكذلك قسم مدينة دمشق، تحقيق د. سامي الدهان.
- الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت: ٥٤٨هـ - ١١٥٤م):
١٠٩. الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاي، دار المعرفة، بيروت.
- الشوكاني: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله (ت: ١٢٥٠هـ):
١١٠. فتح القدير، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

الشيرازي: أبو إسحاق إبراهيم بن علي (ت: ٤٧٦هـ - ١٠٨٩م):
١١١. طبقات الفقهاء، تحقيق: د. إحسان عباس، طبعة بيروت،
(١٩٨٨م).

١١٢. المعونة في الجدل، تحقيق: عبد المجيد تركي، دار المغرب اللبناني،
بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

الصايغ: أبو الحسين هلال بن المحسن (ت: ٤٤٨هـ - ١٠٥٦م):
١١٣. رسوم الخلافة، تحقيق ميخائيل عواد، دار الرائد العربي، بيروت،
الطبعة الثانية، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).

١١٤. تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق عبد الله مخلص، القاهرة،
(١٩٥٨م).

الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك (ت: ٧٦٤هـ - ١٣٦٢م):
١١٥. الوافي بالوفيات، بتحقيق صلاح الدين المنجد، دار الكتاب
الجديد، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

١١٦. أمراء دمشق في الإسلام، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار الكتاب
الجديد، بيروت، لطبعة الثانية، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

الصيمري: أبو عبد الله الحسين بن عبد الله (ت: ٤٣٦هـ):
١١٧. أخبار أبي حنيفة وأصحابه، مطبعة المعارف الشرفية، حيدآباد،
الهند، (١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م).

ابن طباطبا: محمد بن علي بن الطقطقي العلوي (ت: ٧٠٩هـ -
(١٣٠٩م):

١١٨. الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار بيروت، للطباعة والنشر، (١٤٠٠هـ-١٩٨٠م).

الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (ت: ٣١٠هـ-٩٢٢م):

١١٩. تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت.

الطحاوي: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي (ت: ٣٢١هـ):

١٢٠. العقيدة الطحاوية مع شرحها لابن أبي العز الحنفي (ت: ٧٩٢هـ)، تحقيق: جماعة من العلماء، خرج أحاديثها محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة الدعوة الإسلامية، شباب الأزهر.

الطوسي: نظام الملك الحسن بن علي بن إسحاق (ت: ٤٨٥هـ-١٠٩٢م):

١٢١. سياست نامه، ترجمة وتعليق: د. محمد الغزاوي، دار الرائد العربي، بيروت.

١٢٢. مجلسان من أمالي الصاحب نظام الملك، حققه وأخرجه أبو إسحاق الحويني الأثري، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ومكتبة العلم، جدة، (١٤١٣هـ).

ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي (ت: ٤٦٣هـ-١٠٧٠م):

١٢٣. جامع بيان العلم وفضله، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

- ابن العبري: غريغوريوس بن هارون الملطي (ت: ٦٨٥هـ - ١٢٨٦م):
١٢٤. تاريخ مختصر الدول، دار الرائد اللبناني، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
ابن عدي: الحافظ أبو احمد عبد الله بن عدي الجرجاني (ت: ٣٦٥هـ):
١٢٥. الكامل في ضعفاء الرجال، تحقيق: يحيى مختار غزاوي، دار الفكر،
بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م).
ابن العديم: كمال الدين أبي القاسم عمر بن العديم (ت: ٦٦٠هـ -
١٢٦٢م):
١٢٦. زبدة الحلب في تاريخ حلب، الجزء الثاني، تحقيق: د. سامي
الدهان، طبعة المعهد الفرنسي، بدمشق (١٣٧٠هـ - ١٩٥١م).
ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله (ت: ٥٧١هـ):
١٢٧. تبين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري،
مطبعة التوفيق، دمشق، (١٣٤٧هـ - ١٩٢٨م).
العليمي: أبو اليمن محيي الدين عبد الرحمن بن محمد (ت: ٩٢٨هـ -
١٥٢١م):
١٢٨. المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد، تحقيق: محمد محيي
الدين عبد الحميد، عالم الكتب، الطبعة الثانية، (١٤٠٤هـ -
١٩٨٤م).

العماد الأصفهاني: أبو عبد الله محمد بن محمد صفى الدين
(ت: ٥٩٧هـ - ١٢٠٠م):

١٢٩. خريدة القصر وجريدة العصر، القسم العراقي، تحقيق محمد بركة الأثري، ود. جميل سعد، مطبوعات الجمع العلمي العراقي، (١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م).

١٣٠. الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح وتقديم: محمد محمود صبح، طبعة القاهرة (١٩٦٥م).

ابن العماد: أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد الحنبلي (ت: ١٠٨٩هـ -
١٨٧٨م):

١٣١. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

ابن العمراني: محمد بن علي بن محمد (توفي في حدود ٥٨٠هـ -
١١٨٥م):

١٣٢. الأنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق د. قاسم السامرائي، طبعة ليدن (١٩٧٣م).

العيبي: بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد (ت: ٨٥٥هـ - ١٤٥١م):
١٣٣. السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، تحقيق فهمي محمد شلتوت، دار الكتاب العربي، القاهرة، (١٣٨٦هـ).

الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الطوسي (ت: ٥٠٥هـ) —
: (١١١١م)

١٣٤. إحياء علوم الدين ، ٤ أجزاء، المكتبة التجارية، القاهرة، بلا تاريخ،
ونشرته دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، في خمسة أجزاء،
وقد نقلت منهما.

١٣٥. التبر المسبوك في نصيحة الملوك، الناشر، مكتبة الكليات الأزهرية،
مصر، الطبعة الأولى، (١٣٧٨هـ—١٩٦٨م).

١٣٦. تهافت الفلاسفة، تحقيق، د. سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة،
(١٣٩٢هـ—١٩٧٢م).

١٣٧. رسالة أيها الولد، تحقيق: علي محيي الدين علي القره
داغي، دار الاعتصام، القاهرة.

١٣٨. الزواج الإسلامي السعيد، تحقيق: محمد عثمان الخشت، مكتبة
القرآن، القاهرة.

١٣٩. المستصفي من علم الأصول، تحقيق: محمد مصطفى أبو العلاء،
مكتبة الجندي، مصر.

١٤٠. المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال، تحقيق: د. علي
أبو ملح، دار ومكتبة الهلال، الطبعة الأولى، (١٩٩٣م).

١٤١. الموت، سكرات الموت وشدته وحياة القبور حتى النفخ في الصور،
تحقيق: عبد اللطيف عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة.

١٤٢. فضائح الباطنية وفضائل المستظهيرية، (المستظهري)، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، مؤسسة دار الكتب الثقافية، الكويت، (١٩٦٤م).
- الغساني: عماد الدين أبو العباس إسماعيل بن علي (ت: ٨٠٣هـ):
١٤٣. العسجد المسبوك والجوهر المسكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق: شاكر محمود عبد المنعم، دار التراث الإسلامي، بيروت، (١٣٩٥هـ).
- الفارقي: أحمد بن يوسف بن علي الأزرق (ت: ٥٧٧هـ-١١٨١م):
١٤٤. تاريخ الفارقي، تحقيق بدوي عبد اللطيف عوض، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (١٩٧٤م).
- أبو الفداء: عماد الدين إسماعيل بن علي (ت: ٧٣٢هـ-١٣٣٢م):
١٤٥. المختصر في أخبار البشر، طبعة دار المعرفة، بيروت.
- ابن فرحون: أبو إسحاق إبراهيم بن علي (ت: ٧٩٩هـ-١٣٩٦م):
١٤٦. الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب، تحقيق: د. محمد الأحمد أبو النور، مكتبة دار التراث العربي، القاهرة.
- ابن الفوطي: كمال الدين أبي الفضل عبد الرزاق بن أحمد الشيباني (ت: ٧٢٣هـ-١٣٢٣م):
١٤٧. الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، المكتبة العربية، بغداد.
١٤٨. تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، تحقيق: د. مصطفى جواد، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم.

ابن الفقيه: أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني:

١٤٩. مختصر كتاب البلدان، طبعة ليدن، (١٣٠٢هـ).

الفيروز آبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي (ت: ٨١٧هـ) —
: (١٤١٥م)

١٥٠. القاموس المحيط، دار الجليل، بيروت.

الفيومي: أحمد بن محمد بن علي المقري (ت: ٧٧٠هـ):

١٥١. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، المكتبة العلمية،
بيروت.

ابن قاضي شهبة: بدر الدين محمد بن أبي بكر (ت: ٧٧٤هـ):

١٥٢. الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق: د. محمد زايد،
بيروت، دار الكتاب الجديد (١٩٧١م).

ابن قدامة: أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة (ت: ٦٣٠هـ):

١٥٣. المغني، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، ود. عبد الفتاح
الحو، دار حجر للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ).

القرشي: محيي الدين أبي محمد عبد القادر (ت: ٧٧٥هـ-١٣٧٣م):

١٥٤. الجواهر المضية في طبقات الحنفية، تحقيق: د. عبد الفتاح الحلو،
مطبعة عيسى الحلبي وشركاه، (١٣٩٨هـ-١٩٧٨م).

القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت: ٦٧١هـ):

١٥٥. الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة

- القرماني: أبو العباس أحمد بن يوسف (ت: ١١٠٩هـ):
 ١٥٦. أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، عالم الكتب، بيروت.
 القزويني: زكريا بن محمد بن محمود (ت: ٦٨٢هـ-١٢٨٣م):
 ١٥٧. آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت، للطباعة والنشر،
 (١٤٠٤هـ-١٩٨٤م).
 القفطي: الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف
 (٦٤٦هـ-١٢٤٨م):
 ١٥٨. إخبار العلماء بأخبار الحكماء، عُني بتصحيحه السيد محمد الأمين
 الخانجي، مطبعة السعادة، مصر.
 ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد علي (ت: ٥٥٥هـ-١١٦٠م):
 ١٥٩. ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، (١٩٠٨م).
 القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي (ت: ٨٢١هـ-١٤٠٨م):
 ١٦٠. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المطبعة الأميرية، القاهرة،
 (١٣٣٢هـ-١٩١٣م).
 ١٦١. مآثر الأنافة في معالم الخلافة، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج،
 الكويت، (١٩٦٤م).
 ابن القيم: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت: ٧٥١هـ-١٣٥٠م):
 ١٦٢. إعلام الموقعين عن رب العالمين، راجعه وقدم له وعلق عليه: طه
 عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، (١٣٨٨هـ-١٩٦٨م).

- الكتبي: محمد بن شاكر بن أحمد (ت: ٧٦٤هـ - ١٣٦٢م):
١٦٣. عيون التواريخ، الجزء الثاني عشر، تحقيق: فيصل السامر، ونبيلة عبد المنعم داود، دار الحرية، للطباعة، بغداد، (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م).
١٦٤. فوات الوفيات والذيل عليها، ٤ أجزاء، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (١٩٧٣م).
- ابن كثير: الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ - ١٣٧٢م):
١٦٥. البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الخامسة، (١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م).
١٦٦. الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، مكتبة التراث، القاهرة، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).
١٦٧. تفسير القرآن العظيم، مكتبة دار التراث، مصر.
- اللالكائي: أبو القاسم هبة الله بن الحسين بن منصور الطبري (ت: ٤١٨هـ):
١٦٨. شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، تحقيق: د. أحمد سعد حمدان، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثانية، (١٤١١هـ).
- اللكنوي: أبو الحسنان محمد عبد الحي الهندي (ت: ١٣٠٤هـ):
١٦٩. الفوائد البهية في التراجم الحنفية، دار المعرفة، بيروت.

مالك بن أنس (ت: ١٧٩هـ - ٧٩٥م):

١٧٠. الموطأ، وبذيله كتاب "إسعاف المبطأ برجال الموطأ" للسيوطي، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

الموردي: علي بن محمد بن حبيب البصري (ت: ٤٥٠هـ - ١١٥٥م):

١٧١. الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م).

١٧٢. أدب الدنيا والدين، تحقيق: د. محمد صباح، دار مكتبة الحياة، بيروت، (١٩٨٦م).

١٧٣. أعلام النبوة، تحقيق محمد شريف سكر، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

١٧٤. تسهيل النظر وتعجيل الظفر، تحقيق محيي السرحان، وحسين الساعاتي، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠١هـ).

١٧٥. قتال أهل البغي، تحقيق: د. إبراهيم بن علي صندوقجي، مطبعة المدني، مصر، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).

ابن ماجه: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت: ٢٧٥هـ):

١٧٦. السنن، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار إحياء الكتب العربية.

المتولي: أبو سعد عبد الرحمن بن مأمون (ت: ٤٧٨هـ):

١٧٧. الغنية في أصول الدين، تحقيق: عماد الدين حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٧م).

- المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت: ٣٤٦هـ - ٩٥٧م):
١٧٨. التنبيه والإشراف، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان (١٩٨١م).
مسكويه: أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب (ت: ٤٢١هـ - ١٠٣٠م):
١٧٩. تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تصحيح ونشر آمدروز، مطبعة
التمدن، القاهرة، (١٩١٤م).
المقدسي: شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر البنا (ت: ٣٦٧هـ -
٩٧٧م):
١٨٠. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن، الطبعة
الثانية، (١٣٢٧هـ - ١٩٠٩م).
المقريزي: تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت: ٨٤٥هـ -
١٤٤١م):
١٨١. اتعاظ الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفاء، تحقيق: جمال الدين الشيال،
القاهرة، (١٣٨٧هـ).
١٨٢. السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، مطبعة
دار الكتب المصرية، القاهرة، (١٩٣٤م).
١٨٣. كتاب الخطط المقرزية (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)،
دار صادر، بيروت.

مكي: أبو محمد بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني

القرطي (ت: ٤٣٧هـ - ١٠٤٥م):

١٨٤. التبصرة في القراءات السبع، تحقيق: د. المقرئ محمد غوث

الندوي، الدار السلفية، الهند، الطبعة الثانية، (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).

المكي: عبد الملك بن حسين العصامي (ت: ١١١١هـ):

١٨٥. سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، المطبعة للسلفية،

القاهرة، (١٣٧٩هـ).

ابن مندة: الحافظ محمد بن إسحاق بن يحيى (ت: ٣٩٥هـ):

١٨٦. الإيمان، تحقيق: د. علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، مطبوعات

المجلس العلمي، الجامعة الإسلامية بالمدينة، الطبعة الأولى، (١٤٠١هـ -

١٩٨١م).

المنذري: زكي الدين أبي محمد عبد العظيم بن عبد القوي (ت ٦٥٦هـ -

١٢٥٨م):

١٨٧. التكملة لوفيات النقلة، تحقيق د. بشار عواد معروف، مطبعة

الآداب، النجف.

ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي (ت

٧١١هـ - ١٣١١م):

١٨٨. لسان العرب، دار صادر، بيروت.

ابن منقذ: الأمير أبو المظفر مؤيد الدولة مجد الدين أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ الشيرازي (ت ٥٥٨٤هـ):

١٨٩. الاعتبار، تحقيق د. قاسم السامرائي، مؤسسة دار الأصالة للثقافة والنشر، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).

المنقري: نصر بن مزاحم (ت ٢١٢هـ):

١٩٠. موقعة صفين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، بمصر، الطبعة الثالثة، (١٤٠١هـ - ١٩٨١م).

ناصر خسرو: أبو معين الدين ناصر خسرو القبادياني المروزي (ت ٤٥٢هـ):

١٩١. سفر نامه، ترجمة وتقديم د. أحمد خالد البديلي، الناشر: عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

ابن النجار: الحافظ محب الدين أبي عبد الله محمد بن محمود البغدادي (ت ٦٤٣هـ - ١٢٤٥م):

١٩٢. المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، حققه وأشرف عليه محمد محمود خلف، و د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).

ابن النديم: محمد بن إسحاق (ت ٣٨٥هـ - ٩٩٥م):

١٩٣. الفهرست، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

- النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب (ت ٣٠٣هـ):
 ١٩٤. سنن النسائي (المجتبى)، مطبعة مصطفى الباي الحلبي وشركائه،
 القاهرة، الطبعة الأولى، (١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م).
 ابن النظام الحسيبي: محمد بن محمد بن عبد الله بن النظام (ت ٧٤٣هـ -
 ١٣٤٢م):
 ١٩٥. العراضة في الأحكام السلجوقية، ترجمة وتحقيق عبد النعيم
 حسنين، وحسين أمين، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، (١٩٧٩م).
 النعيمي: عبد القادر بن محمد الدمشقي (ت ٩٧٨هـ).
 ١٩٦. المدارس في تاريخ المدارس، أعد فهارسه إبراهيم شمس الدين، دار
 الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م).
 النوبختي: أبو محمد الحسن بن موسى (ت ٣١٠هـ):
 ١٩٧. فرق الشيعة، منشورات دار الأضواء، بيروت، لبنان، الطبعة
 الثانية، (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).
 النووي: أبو زكريا يحيى بن شرف (ت ٦٧٦هـ):
 ١٩٨. شرح صحيح مسلم، مكتبة الرياض الحديثة.
 الهمداني: رشيد الدين فضل الله (ت ٧١٨هـ):
 ١٩٩. جامع التواريخ، المجلد الثاني - الجزء الأول، ترجمة محمود صادق
 نشأت، ومحمد موسى هنداوي، وفؤاد عبد المعطي الصياد، مراجعة يحيى
 الحشاش، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الباي الحلبي، مصر.

الهمداني: عبد الجبار بن أحمد (ت ٥٤١٥هـ):

٢٠٠. تثبيت دلائل النبوة، تحقيق عبد الكريم عثمان، دار العربية، بيروت.

الهمداني: محمد بن عبد الملك (ت ٥٢١هـ - ١٢٢٧م):

٢٠١. تكملة تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، لبنان.

ابن واصل: جمال الدين محمد سالم (ت ٦٩٧هـ):

٢٠٢. مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، وزارة المعارف المصرية، مطبعة دار الكتب (١٩٥٣م)، القاهرة.

ابن الوردي: زين الدين عمر بن المظفر بن عمر بن أبي الفوارس (ت ٧٤٩هـ):

٢٠٣. تمة المختصر في أخبار البشر (تاريخ ابن الوردي)، تحقيق أحمد رفعت البدرأوي، طبعة بيروت، (١٣٨٩هـ - ١٩٧٠م).

ابن أبي يعلى: القاضي أبي الحسين محمد بن محمد بن الحسين الفراء الحنبلي (ت ٥٢٦هـ - ١١٣١م):

٢٠٤. طبقات الحنابلة، جزآن، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

أبو يعلى: القاضي محمد بن الحسين الفراء الحنبلي (ت ٤٥٨هـ - ١٠٦٥م):

٢٠٥. الأحكام السلطانية، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤٠٣هـ).

أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٢هـ):

٢٠٦. كتاب الخراج، نسخة معارضة بطبعة بولاق سنة (١٣٠٢هـ).

اليافعي: أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي المكسي (ت ٧٦٨هـ) — -
: (١٣٦٦م)

٢٠٧. مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يُعدُّ من حوادث الزمان، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، (١٣٩٠هـ) — -
: (١٩٧٠م).

ياقوت: شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ) — -
: (١٢٢٨م)

٢٠٨. معجم الأدباء، مطبوعات دار المأمون، مكتبة الحلبي، مصر
(١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م).

٢٠٩. معجم البلدان، طبعة دار صادر، ودار بيروت، بيروت، لبنان،
(١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).

اليحصبي السبتي: القاضي عياض بن موسى بن أبي الفضل (ت
: (٥٤٤هـ))

٢١٠. ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق
د. أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة، بيروت، ودار مكتبة الفكر،
ليبيا.

اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب (ت ٢٨٤هـ — -
٨٩٧م):

٢١١. تاريخ اليعقوبي، طبعة دار صادر، بيروت.

اليونيني: قطب الدين موسى بن محمد البعلبكي (ت ٧٢٦هـ — -
١٣٢٥م):

٢١٢. ذيل مرآة الزمان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بجيدر آباد،
الدكن، الهند، الطبعة الأولى (١٣٧٤هـ - ١٩٥٤م).

ثالثاً: المراجع العربية والمعربة المطبوعة:

آرنولد: سيرتوماس:

٢١٣. الدعوة إلى الإسلام، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن وزملاؤه،
مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، (١٩٧٠م).

إبراهيم أنيس وآخرون:

٢١٤. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، المكتبة الإسلامية، استانبول،
تركيا، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ - ١٩٩٢م).

أحمد عبد الرزاق أحمد:

٢١٥. الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، دار الفكر العربي،
القاهرة، (١٩٩٠م).

أحمد: منير الدين:

٢١٦. تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم حتى القرن الخامس، ترجمة وتعليق د. سامي الصفار، دار المريخ، الرياض، (١٤٠١هـ - ١٩٨١م).

الأحمد: أحمد محمود:

٢١٧. في السنوات الأخيرة من حياة صلاح الدين، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).
الأعظمي: وليد:

٢١٨. السيف اليماني في نحر الأصفاني صاحب الأغاني، دار الوفاء، مصر، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

الألباني: محمد ناصر الدين:

٢١٩. صحيح الجامع الصغير، للسيوطي، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).

أمين: أحمد:

٢٢٠. ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة، (١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م).

٢٢١. ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة العاشرة.

بارتولد: فاسيلي (مستشرق روسي):

٢٢٢. تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، شركة كاظمة للنشر، الكويت، الطبعة الأولى، (١٤٠١هـ - ١٩٨١م).

٢٢٣. تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة، (١٩٨٩م).

الباشا: حسن

٢٢٤. الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، (١٩٨٩م).

٢٢٥. الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، ثلاثة أجزاء، دار النهضة العربية، القاهرة، (١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م).

٢٢٦. دراسات في تاريخ الدولة العباسية، دار النهضة العربية، القاهرة، (١٩٧٥م).

٢٢٧. دراسات في الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة، (١٩٧٥م).

البدري: عبد العزيز:

٢٢٨. الإسلام بين العلماء والحكام، المكتبة العلمية، المدينة المنورة.

بدوي: عبد الرحمن:

٢٢٩. التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، دراسات لكبار المستشرقين، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، (١٩٦٥م).

٢٣٠. مذاهب الإسلاميين، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، (١٩٧٣م).

٢٣١. مؤلفات الغزالي، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والاجتماعية، القاهرة، (١٩٦٠م).

بدوي: عبد المجيد:

٢٣٢. التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن الخامس حتى سقوط بغداد، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

بركلمان: كارل:

٢٣٣. تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة العاشرة، (١٩٨٤م).

بطاينة: محمد ضيف الله:

٢٣٤. في تاريخ الحضارة العربية والإسلامية، دار الفرقان، عمان، الأردن، الطبعة الثانية، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م).

بندلي جوزي:

٢٣٥. من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، مطبعة بيت المقدس، القدس، (١٩٢٨م)، وقف على طبعة الأستاذ خليل سكاكيني.

جاسر: شفيق أحمد:

٢٣٦. تاريخ القدس، دار البشير، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).

الجبوري: جميل عائد:

٢٣٧. دراسات في الحضارة الإسلامية، مطبعة الرشيد، المدينة المنورة،
(١٤١٢هـ).

الجزائري: أبو بكر جابر بن موسى:

٢٣٨. العلم والعلماء، دار الكتب السلفية، القاهرة.

جلي: أحمد محمد أحمد:

٢٣٩. دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين "الخوارج والشيعة"، طبعة
مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى،
(١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).

الجميلي: رشيد عبد الله:

٢٤٠. إمارة الموصل في العصر السلجوقي (٤٨٩-٥٢١هـ)، جامعة
بغداد، الطبعة الأولى، (١٩٨٠م).

الجندي: أنور:

٢٤١. أعلام الإسلام، دار الاعتصام، القاهرة، مصر.

٢٤٢. نوابغ الإسلام، دار الاعتصام، القاهرة، مصر.

حبشي: حسن:

٢٤٣. الحرب الصليبية الأولى، مطبعة الاعتماد في القاهرة، ونشر دار
الفكر العربي، (١٩٤٧م).

حتي: فليب، وآخرون:

٢٤٤. تاريخ الغرب-مطول-الجزء الثاني، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، (١٣٦٩هـ-١٩٤٩م).

الحجوي: محمد بن الحسن الثعالبي الفاسي:

٢٤٥. الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، (١٣٩٧هـ).

حسن: حسن إبراهيم:

٢٤٦. تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة السابعة (١٩٦٥هـ).

حسن: علي إبراهيم:

٢٤٧. التاريخ الإسلامي العام، وكالة المطبوعات، الكويت، الناشر: مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

حسين: عبد النعيم محمد:

٢٤٨. دولة السلاجقة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، (١٩٧٥م).

٢٤٩. سلاجقة إيران والعراق، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، (١٣٨٠هـ-١٩٧٠م).

٢٥٠. إيران والعراق في العصر السلجوقي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٢هـ-١٩٨٢م).

٢٥١. تاريخ العراق في العصر السلجوقي، المكتبة الأهلية، مطبعة الإرشاد، بغداد (١٣٨٥هـ-١٩٦٥م).

٢٥٢. بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية (١٩٧٦م).

٢٥٣. المدرسة المستنصرية، مطبعة شفيق، بغداد (١٩٦٠م).

الحلو: عبد الفتاح محمد:

٢٥٤. أعلام التراث الإسلامي، شركة مكنتات عكاظ للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الأولى (١٤٠١هـ-١٩٨١م).

حمادة: محمد ماهر:

٢٥٥. الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصور العباسية المتتابعة، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، (١٤٠٦هـ-١٩٨٦م).

٢٥٦. وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، (١٤٠٦هـ-١٩٨٦م).

حمدي عبد الرزاق:

٢٥٧. شطحات المتصوفة في طبقات الشعراي، دار الحقيقة للإعلام الدولي.

الحوالي: سفر بن عبد الرحمن:

٢٥٨. منهج الأشاعرة في العقيدة، الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى، (١٤٠١هـ-١٩٨٦م).

الخالدي: إسماعيل عبد العزيز:

٢٥٩. العالم الإسلامي والغزو المغولي، الطبعة الأولى، مكتبة الفلاح، الكويت، (١٤٠٤هـ-١٩٨٤م).

الحشت: محمد عثمان:

٢٦٠. حركة الحشاشين (تاريخ وعقائد أخطر فرقة سرية في العالم الإسلامي) مكتبة الساعي، الرياض.
الخصري: محمد:

٢٦١. محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) دار الفكر العربي، القاهرة.
الخطيب: محمد بن أحمد:

٢٦٢. الحركات الباطنية في العالم الإسلامي، مكتبة الأقصى، عمان، الأردن، الطبعة الثانية، (١٤٠٦هـ).
خليل: عماد الدين:

٢٦٣. الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام، مؤسسة الرسالة، بيروت، (١٤٠٠هـ-١٩٨٠م).

٢٦٤. عماد الدين زنكي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٢هـ-١٩٨٢م).

٢٦٥. المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي-عصر ولاة السلاجقة في الموصل (٤٨٩-٥٢١هـ)، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠١هـ-١٩٨١م).

دروزه: محمد عزة:

٢٦٦. تاريخ الجنس البشري، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى.

الدريبي: فتحي:

٢٦٧. دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، دار قتيبة للنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).

الدسوقي: عمر:

٢٦٨. إخوان الصفا وخلان الوفا، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة.

دمشقية: عبد الرحمن:

٢٦٩. أبو حامد الغزالي والتصوف، دراسة حول العديد من كتب الغزالي، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

الدوري: عبد العزيز:

٢٧٠. دراسات في تاريخ الدولة العباسية، مطبعة السريان، بغداد، (١٩٤٥م).

٢٧١. الجذور التاريخية للشعبوية، دار الطليعة، بيروت، (١٤٠٠هـ-١٩٨٠م).

الدويش: موسى:

٢٧٢. فتاوى ورسائل ابن عربي الصوفي، مطبعة شركة الصفحات الذهبية، الطبعة الأولى، (١٤١٠هـ).

الديوه جي: سعيد:

٢٧٣. تاريخ الموصل، الجزء الأول، مطبوعات الجمع العراقي، (١٤٠٢هـ-١٩٨٢م).

الرفاعي: أنور:

٢٧٤. تاريخ العرب والإسلام منذ العصور القديمة حتى العهد العثماني،
دار الفكر، القاهرة.

رمضان: محمد مصطفى:

٢٧٥. الشعوبية الجديدة، بدون نشر أو تاريخ للطبع.

رنسيما: ستيفن:

٢٧٦. تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريبي، دار الثقافة،
بيروت، الطبعة الأولى، (١٩٦٨م).

روزنثال: فرانز:

٢٧٧. علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة د. صالح العلي، مؤسسة الرسالة،
بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

الريس: محمد ضياء الدين:

٢٧٨. النظريات السياسية الإسلامية، دار المعارف، مصر، الطبعة الخامسة
(١٩٦٩م).

زامباور: أدوارد فون:

٢٧٩. معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة
د. زكي محمد حسن، ود. حسن أحمد محمود، القاهرة، (١٣٧٠هـ -

(١٩٥١م).

الزحيلي: محمد:

٢٨٠. أعلام المسلمين (الإمام الجويني، إمام الحرمين) دار القلم، دمشق،
الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

الزركلي: خير الدين بن محمود الدمشقي:

٢٨١. الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة السادسة، (١٩٨٤م).
٢٨٢. مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، مؤسسة الرسالة، بيروت،
الطبعة الأولى، (١٣٩١هـ).

أبو زهرة: محمد:

٢٨٣. تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي، (١٩٨٧م)، القاهرة.

الزهراني: محمد بن مسفر:

٢٨٤. نظام الوزارة في الدولة العباسية (العهدان البويهي والسلجوقي)،
مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).
٢٨٥. نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية (٤٤٧-٥٩٠هـ)،
مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).

زيدان: عبد الكريم:

٢٨٦. أصول الدعوة، مكتبة المنارة الإسلامي، (١٤٠١هـ - ١٩٨١م).

الزيات: أحمد:

٢٨٧. تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر، القاهرة.

السامرائي: خليل إبراهيم ورفاقه:

٢٨٨. تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي، جامعة الموصل،
(١٩٨٨م).

السامرائي: عبد الله سلوم:

٢٨٩. الشعبية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية، المؤسسة العراقية
للدعاية والطباعة، بغداد.

السامرائي: فاروق عبد المجيد:

٢٩٠. مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، دار الوفاء،
جدة.

سرور: محمد جمال الدين:

٢٩١. تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، دار الفكر العربي، القاهرة،
(١٩٦٦هـ-١٩٧٦م).

٢٩٢. سياسة الفاطميين الخارخية، دار الفكر العربي، القاهرة،
(١٩٦٦هـ-١٩٧٦م).

٢٩٣. النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق، دار الفكر العربي، القاهرة،
(١٩٦٤م).

سزكين: فؤاد:

٢٩٤. تاريخ التراث العربي، ترجمة محمود فهمي حجازي، أشرفت على
طبعه جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، إدارة الثقافة والنشر،
(١٤٠٣هـ).

أبو سعيد: حامد غنيم:

٢٩٥. العلاقات العربية السياسية في عهد البويهيين، مكتبة الشباب،
القاهرة، الطبعة الأولى، (١٩٧١م).

٢٩٦. قيام دولة بني بويه، بدون دار نشر، أو تاريخ.

السعدي: عبد الرحمن بن ناصر:

٢٩٧. تيسير الكرم الرحمن في تفسير كلام المنان، من مطبوعات الجامعة
الإسلامية، بالمدينة المنورة.

سيد أمير علي:

٢٩٨. مختصر تاريخ العرب، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة،
(١٩٨١م).

السيد عبد العزيز سالم:

٢٩٩. التاريخ والمؤرخون العرب، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان
(١٩٨١م).

شاكر مصطفى:

٣٠٠. دولة بني العباس، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الأولى،
(١٩٧٣م).

٣٠١. التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة
الثانية، (١٩٨٦م).

الشامي: أحمد:

٣٠٢. الدولة الإسلامية في العصر العباسي الأول، مكتبة الأنجلو المصرية،
الطبعة الثانية، (١٩٨٦م).

الشحات: علي أحمد:

٣٠٣. مكانة العلم والعلماء في الإسلام، دار إحياء الكتب العربية،
مطبعة الحلبي، مصر.

الشرقاوي: عفت:

٣٠٤. في فلسفة الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، بيروت،
(١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

شفيق: منير:

٣٠٥. الإسلام في معركة الحضارة، دار البراق للنشر، الطبعة الأولى،
(١٤١١هـ - ١٩٩١م).

الشكعة: مصطفى:

٣٠٦. معالم الحضارة الإسلامية، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة،
(١٩٨٧م).

٣٠٧. مناهج التأليف عند العرب، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة
الرابعة، (١٩٨٢م).

شلي: أحمد:

٣٠٨. موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة
العربية، مصر، الطبعة الثامنة، (١٩٨٥م).

شندب: محمد حسين:

٣٠٩. الحضارة الإسلامية في بغداد، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى
(١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).

الشيال: جمال الدين:

٣١٠. تاريخ الدولة العباسية، دار الفكر العربي، القاهرة.
طعيمة: صابر:

٣١١. دراسات في الفرق، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الثانية،
(١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).

ظهير: إحسان إلهي:

٣١٢. الإسماعيلية تاريخ وعقائد، إدراة ترجمان السنة، لاهور، باكستان،
الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).

عاشور: سعيد عبد الفتاح:

٣١٣. الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، طبعة القاهرة، سنة
(١٩٧٢-١٩٧٨م)، الطبعة الثالثة، والطبعة الأولى أيضاً سنة
(١٩٦٣م).

٣١٤. بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، دار الأحد، بيروت،
(١٩٧٧م).

٣١٥. الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، طبعة دار النهضة العربية،
القاهرة (١٩٩٠م).

عاشور: فايد حماد محمد:

٣١٦. جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، مؤسسة الرسالة، بيروت،
الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

العباد: عبد المحسن بن حمد:

٣١٧. عشرون حديثاً من صحيح البخاري، دراسة أسانيداً وشرح
متونها، مطابع الرشيد، المدينة المنورة، الطبعة الثانية، (١٤٠٤هـ).

العبادي: أحمد مختار:

٣١٨. في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية، بيروت،
(١٩٧١م).

عبد الرحمن عبد الخالق:

٣١٩. الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، مكتبة ابن تيمية،
الكويت، الطبعة الثانية، (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).

عبد اللطيف حمزة:

٣٢٠. أدب الحروب الصليبية، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثانية،
(١٩٨٤م).

عبد الله آل قعود:

٣٢١. أثر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، دار العاصمة، الرياض،
الطبعة الأولى، ١٤١١هـ).

العبود: نافع توفيق:

٣٢٢. الدولة الخوارزمية، مطبعة جامعة بغداد، الطبعة الأولى،
(١٩٧٨م).

عثمان: عبد الكريم:

٣٢٣. معالم الثقافة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة
عشر، (١٤٠٩هـ-١٩٨٩م).

٣٢٤. سيرة الغزالي وأقوال المتقدمين فيه، دار الفكر — دمشق، ودار
المعارف، مصر.

العدوي: إبراهيم أحمد:

٣٢٥. التاريخ الإسلامي آفاقه السياسية أبعاده الحضارية، مكتبة الأنجلو
المصرية، (١٣٩٦هـ-١٠٧٦م).

عرفان عبد الحميد:

٣٢٦. دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت،
(١٤٠٤هـ-١٩٨٤م).

العروسي: محمد:

٣٢٧. الحروب الصليبية في الشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي،
بيروت، (١٤٠٤هـ-١٩٨٢م).

العريبي: السيد الباز:

٣٢٨. الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، بيروت، (١٩٨٢م).

العسلي: بسام:

٣٢٩. الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٩٨هـ-١٩٧٨م).

٣٣٠. الظاهر بيبرس ونهاية الحروب الصليبية القديمة، دار النفائس، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٩٨٣م).

العسيري: مريزن سعيد مريزن:

٣٣١. الحياة العلمية في العصر السلجوقي، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

العش: يوسف:

٣٣٢. تاريخ عصر الخلافة العباسية، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٢هـ-١٩٨٢م).

العلوجي: عبد الحميد:

٣٣٣. مؤلفات ابن الجوزي، طبعة بغداد، (١٩٦٥م).

العُمري: أكرم ضياء:

٣٣٤. الإسلام والوعي الحضاري، دار المنارة، جدة، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ-١٩٨٧م).

٣٣٥. بحوث في تاريخ السنة المشرفة، طبعة بغداد، الطبعة الرابعة، (١٤٠٥هـ-١٩٨٥م).

٣٣٦. دراسات تاريخية، طبعة المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية، بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ-١٩٨٣م).

٣٣٧. قيم المجتمع الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، كتاب الأمة، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).

٣٣٨. موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثانية، (١٤٠٥هـ).

عودة: عبد القادر:

٣٣٩. الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه، مؤسسة الرسالة، بيروت، (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).

العودة: سليمان بن حمد:

٣٤٠. عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثالثة، (١٤١٢هـ).

العوفي: محمد سالم بن شديد:

٣٤١. العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والدولة الفاطمية في العصر السلجوقي، الطبعة الأولى، (١٤٠٢هـ).

عويس: عبد الحلیم:

٣٤٢. قضية نسب الفاطميين أمام منهج النقد التاريخي، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م).

الغامدي: عبد الله سعيد محمد:

٣٤٣. صلاح الدين والصليبيون، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

الغامدي: علي محمد عودة:

٣٤٤. بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي، المكتبة الفيصلية، (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).

٣٤٥. بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ).

الغامدي: مسفر بن سالم بن عريج:

٣٤٦. الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، دار المطبوعات الحديثة، جدة، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

غنيم: إسمت:

٣٤٧. الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية، دار الجمع العلمي بجدة، (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م).

الفاخوري: حنا:

٣٤٨. تاريخ الأدب العربي، المكتبة البوليسية، بيروت، لبنان.

فامبري: أرمنيوس (مستشرق مجري):

٣٤٩. تاريخ بخارى، ترجمة الدكتور محمد الساداتي، القاهرة، (١٩٦٥م).

فتحي عثمان:

٣٥٠. الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال

الحضاري، دار الكاتب العربي، القاهرة.

فروخ: عمر:

٣٥١. تاريخ العلوم عند العرب، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٩٨٤م).

٣٥٢. عبقرية العرب في العلم والفلسفة، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

الفاقي: عصام الدين عبد الرؤوف:

٣٥٣. الدولة العباسية، مكتبة نهضة الشرق، مصر، (١٩٨٧م).

فوزي: فاروق عمر:

٣٥٤. التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، مؤسسة المطبوعات العربية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٩٨٠م).

القاسمي: محمد جمال الدين:

٣٥٥. موعظة المتقين من إحياء علوم الدين، دار العلوم الحديثة، بيروت، لبنان.

قدورة: زاهية:

٣٥٦. الشعبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، (١٩٧٢م).

قطب: محمد علي:

٣٥٧. الشهيد نور الدين محمود زنكي، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠١هـ).

كحالة: عمر رضا:

٣٥٨. معجم المؤلفين، مكتبة المثني، ومكتبة دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٣٥٩. معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

كي لسرتنج:

٣٦٠. بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس، وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

الكيلاي: ماجد:

٣٦١. هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

اللويحق: عبد الرحمن:

٣٦٢. قواعد في التعامل مع العلماء، دار الوراق، الرياض، (١٤١٥هـ).
لويس: برنارد:

٣٦٣. أصول الإسماعيلية، ترجمة خليل أحمد جلو وجاسم محمد الرجب، قدم له الدكتور عبد العزيز الدوري، دار الكتاب العربي، مصر.

الليثي: سميرة:

٣٦٤. الزندقة والشعوبية وانتصار الإسلام والعروبة عليهما، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، (١٩٦٨م).

منز: آدم:

٣٦٥. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الخامسة.

محمد آل ياسين:

٣٦٦. الحياة الفكرية في العراق في القرن السابع الهجري، الدار العربية للطباعة، بغداد، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)، الطبعة الأولى.

محمد خفاجي:

٣٦٧. الآداب العربية في العصر العباسي الثاني، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

د. محمد سليمان داود، و د. فؤاد عبد المنعم:

٣٦٨. الإمام أبو الحسن الماوردي، شباب الجامعة، الإسكندرية، (١٩٧٨م).

محمد سويسي:

٣٦٩. أدب العلماء في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجري (البيروني وعمر الخيام) الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، (١٩٨٢م).

محمد عبد القادر أبو فارس:

٣٧٠. القاضي أبو يعلى الفراء وكتابه الأحكام السلطانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣).

المعتق: عواد بن عبد الله:

٣٧١. المعتزلة وأصولهم الخمسة، دار العاصمة، الرياض، (١٤٠٩هـ -
١٩٨٩م).

محمد كرد علي:

٣٧٢. خطط الشام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية،
(١٣٨٩هـ-).

محمود إسماعيل:

٣٧٣. الحركات السرية في الإسلام، دار القلم، بيروت، لبنان.

محمود: حسن أحمد، وأحمد الشريف:

٣٧٤. العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، القاهرة،
(١٩٧٣م).

محمود شاكر:

٣٧٥. القرامطة، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، (١٩٨٤م).

محمود: علي عبد الحليم:

٣٧٦. الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، دار عكاظ للطباعة والنشر،
جدة.

محمود مصطفى:

٣٧٧. إعجام الأعلام، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤٠٣هـ -
١٩٨٣م).

مخلاف: محمد بن محمد:

٣٧٨. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

المسند: عبد الله بن علي:

٣٧٩. العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت، دار المنار، القاهرة، (١٤١٢هـ - ١٩٩١م).

مصطفى غالب:

٣٨٠. تاريخ الدعوة الإسماعيلية، دار الأندلس، بيروت، الطبعة الثانية، (١٩٥٥م).

معروف: ناجي:

٣٨١. تاريخ علماء المستنصرية، دار الشعب، القاهرة، الطبعة الثالثة.

٣٨٢. علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي، مطبعة الإرشاد، بغداد، (١٣٩٣هـ).

٣٨٣. مدارس قبل النظامية، مطبعة المجمع العلمي العراقي، (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م)

٣٨٤. نشأة المدارس المستقلة في الإسلام، مطبعة الأزهر، بغداد، (١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م).

٣٨٥. المدارس الشراعية ببغداد وواسط ومكة، مطبعة الإرشاد، بغداد، (١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م).

الملا: أحمد:

٣٨٦. أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية، دار الفكر، دمشق،
الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م).

ملكة أبيض:

٣٨٧. التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة، دار العلم
للملايين، بيروت، الطبعة الأولى (١٩٨٠م).

المنجد: صلاح الدين:

٣٨٨. ولاية دمشق في العهد السلجوقي، وهو عبارة عن نصوص
مستخرجة من تاريخ دمشق القديم، لابن عساكر، دار الكتاب الجديد،
بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، (١٩٨١م).

مؤنس: حسين:

٣٨٩. نور الدين محمود، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة،
(١٤٧٨هـ - ١٩٥٩م).

نادية محمود مصطفى وآخرون:

٣٩٠. الدولة العباسية من التخلي عن سياسات الفتح إلى السقوط، المعهد
العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة (١٤١٧هـ - ١٩٩٦م).

ندا: طه:

٣٩١. فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية.

النشار: علي سامي:

٣٩٢. نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، منشأة المعارف، الإسكندرية،
الطبعة الثانية، (١٩٦٢م).

نور الدين آل علي:

٣٩٣. فضائل الأنام من رسائل حجة الإسلام للغزالي، ترجمه عن
الفارسية الدكتور نور الدين آل علي، الدار التونسية للنشر،
(١٩٧٢م).

نور الدين عتر:

٣٩٤. منهج النقد في علوم الحديث، دار الفكر، دمشق.

الهاشمي: سعدي:

٣٩٥. ابن سبأ حقيقة لا خيال، مكتبة الدار، المدينة المنورة، (١٤٠٦هـ -
١٩٨٦م).

الهرفي: محمد:

٣٩٦. شعر الجهاد في الحروب الصليبية، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة
الثالثة، (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).

هونكة: زغريد:

٣٩٧. شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون، وكمال
الدسوقي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثامنة، (١٤٠٦هـ -
١٩٨٦م).

الوكيل: عبد الرحمن:

٣٩٨. هذه هي الصوفية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، (١٩٨٤م).

ول ديوارنت:

٣٩٩. قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، طبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ونشرته جامعة الدول العربية سنة (١٩٥٧م).

رابعًا: الموسوعات:

٤٠٠. دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، ١٤ جزءًا.

٤٠١. دائرة المعارف، لفؤاد البستاني، بيروت، (١٩٦٤هـ).

٤٠٢. دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٩٧١م).

٤٠٣. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، الطبعة الثانية، (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).

٤٠٤.

خامسًا: الرسائل الجامعية:

٤٠٥. إبراهيم بن عامر الرحيلي، "موقف أهل السنة من أهل البدع"، رسالة دكتوراه مطبوعة، نشر مكتبة الغرباء، المدينة المنورة، (١٤١٥هـ).

٤٠٦. خالد محمد الصاعدي، "جهود العلماء في الحفاظ على كيان أهل السنة في العصر البويهي، (٣٣٤هـ - ٤٤٧هـ)"، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، (١٤١١هـ).
٤٠٧. عواض هلال العمري، تحقيق كتاب "الحج من التعليق الكبير"، لأبي يعلى الفراء، رسالة ماجستير في الفقه الإسلامي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، (١٤٠٨هـ).
٤٠٨. محمد الأمين مولود، "محاولات الخلفاء العباسيين لاسترجاع سلطانهم في العهد السلجوقي"، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، (١٤٠٩هـ).
٤٠٩. محمد با كريم، "وسطية أهل السنة بين الفرق"، رسالة دكتوراه في العقيدة، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، (١٤٠٩هـ).
٤١٠. هيفاء البسام، "الوزير السلجوقي نظام الملك"، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة أم القرى، (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).
- سادساً: الدوريات والمجلات:
٤١١. إبراهيم خليل، "كربوقا صاحب الموصل ودوره في مقاومة الصليبين"، مجلة المؤرخ العربي، العدد الخامس، (١٩٧٤م).
٤١٢. إبراهيم بن محمد البريكان، "التصوف في ميزان النقل والعقل"، مجلة البحوث الإسلامية، العدد (٤١)، شهر صفر، (١٤١٥هـ).

٤١٣. أحمد الحجي الكردي، "تاريخ العلوم العربية والإسلامية"، مجلة تاريخ العرب والعالم، العدد (٧١-٧٢)، شهر ذي الحجة ومحرم، (١٤٠٤هـ - ١٤٠٥هـ).

٤١٤. حمدي عبد المنعم، "آداب العلم في الإسلام تسمو على كل الفلسفات"، صحيفة المسلمون، العدد (٩٤)، شهر ربيع الأول، (١٤٠٧هـ).

٤١٥. دفع الله سليمان، "شرح أمثلة سيويه" للجواليقي، مجلة الدارة، العدد الثالث، السنة الثانية عشرة، ربيع الآخر، (١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م)، دار الملك عبد العزيز، الرياض.

٤١٦. رشا حمود الصباح، "التصورات الأوروبية للإسلام في العصور الوسطى"، مجلة عالم الفكر، المجلد الحادي عشر، العدد الثالث، (١٩٨٠م).

٤١٧. رشيد الجميلي، "دراسات في العصر السلجوقي - الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين"، مجلة الأستاذ، جامعة بغداد، العدد الأول، (١٣٩٧هـ).

٤١٨. سعيد نفيسي، "المدرسة النظامية في بغداد"، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الثالث، الجزء الأول، (١٩٥٤م).

٤١٩. سيد أحمد الناصري، "الوراقون والنساخون ودورهم في الحضارة العربية الإسلامية"، مجلة الدارة، العدد الرابع، رجب-شعبان-رمضان، (١٤٠٩هـ)، دار الملك عبد العزيز، الرياض.

٤٢٠. صالح أحمد العلي، "ألوان الملابس العربية في العهود الإسلامية الأولى"، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد السابع والعشرون، (١٩٧٦م).

٤٢١. طه الولي، "التعليم عند المسلمين"، مجلة الفكر العربي، العدد العشرون، السنة الثالثة، (١٩٨١م).

٤٢٢. عبد العزيز الدوري، "نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية"، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد العشرون، (١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م).

٤٢٣. عبد الله سعيد بالحداد، "القرامطة ما لهم وما عليهم"، مجلة الجندي المسلم، العدد الثاني والخمسون، شهر جمادى الآخرة، (١٤٠٩هـ).

٤٢٤. عرفان عبد الحميد فتاح، "الإمام الغزالي - دراسة في المنهج"، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الثاني والثلاثون، الجزآن الثالث والرابع، (١٤٠١هـ - ١٩٨١م).

٤٢٥. عفاف سيد صبره، "الأمير مودود بن التونتكين - أتاك الموصول - ودوره في حركة الجهاد الإسلامي"، مجلة الدارة، العدد الثاني، السنة الثانية عشرة، (١٩٨٦م).

٤٢٦. علي جواد الطاهر، "خلفاء بني العباس ووزراؤهم في شعر العصر السلجوقي"، مجلة الأستاذ، المجلد الثامن، (١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م).

٤٢٧. عيد سفر الحجيلي، "تحقيق المقام فيما يتعلق بأوقات النهي عن الصلاة من أحكام"، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الأعداد

- (١٠٠-٨٥) في مجلد واحد، شهر محرم (١٤١٠هـ) - ذي الحجة (١٤١٣هـ).
٤٢٨. محمد أحمد الحمود، "منهج الماوردي وموقفه من الأسانيد والأحكام الفقهية والقراءات، وموقفه من الإسرائيليات"، مجلة الفرقان، العدد السادس، شهر ذي القعدة، (١٤٠٩هـ).
٤٢٩. محمد عثمان صالح، "الاستشراق ومكونات النفسية الغربية تجاه الإسلام والمسلمين"، مجلة المنهل، العدد (٤٧١)، المجلد الخمسون، (١٤٠٩هـ).
٤٣٠. محمد علي البار: "الترجمة في عهد المأمون والترجمة في العصر الحديث"، جريدة الشرق الأوسط ١٩٨٦/٩/٢٩م.
٤٣١. محمد فاروق النبهان: "مفهوم العلم عند الإمام الغزالي"، مجلة الدارة، العدد الثالث، السنة الثانية عشرة، ربيع الآخر، (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).
٤٣٢. محمد الهلالي: "الفتوة والفروسية"، مجلة المورد، المجلد الثاني عشر، العدد الرابع، (١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م).
٤٣٣. محمود شيت خطاب: "بلاد ما وراء النهر"، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الثالث والثلاثون، الجزء الرابع، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م).
٤٣٤. مصطفى جواد: "الربط البغدادية وأثرها في الثقافة الإسلامية"، مجلة سومر، المجلد العاشر، (١٩٥٤م).

٤٣٥. مصطفى جواد: "الفتوة وأطوارها"، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الخامس، (١٣٧٧هـ).
٤٣٦. مصطفى جواد: "المدرسة النظامية في بغداد"، مجلة سومر، المجلد التاسع، الجزء الثاني، بغداد، (١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م).
٤٣٧. ممدوح الزوي: "المدارس الدمشقية القديمة"، مجلة المنهل، العدد (٥١٦)، شهر محرم، (١٤١٥هـ).
٤٣٨. ناجي معروف: "التوقعات التدريسية"، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد السادس، (١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م).
٤٣٩. ناجية عبد الله إبراهيم: "ابن الجوزي- فهرسة كتبه"، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الحادي والثلاثون، الجزء الثالث، (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).
٤٤٠. نوري القيسي: "الفتوة تطور ودلالة"، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الرابع والثلاثون، الجزء الثالث، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
٤٤١. يوسف درويش غوانمه: "الأفضل بن بدر الجمالي وموقفه من الحملة الصليبية الأولى"، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، المجلد العاشر، (١٩٨٣م).

فهرس محتويات الرسالة

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٧
مدخل " في تعريف السنة، والمراد بأهل السنة والجماعة "	٤٣
تمهيد في نشأة السلاجقة وكيفية وصولهم إلى بغداد:	٥٥
ذكر أشهر سلاطين السلاجقة	٨٦
الباب الأول: " جهود الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة	
الدينية، ودعمهم السنة، ومحاربتهم التيارات الباطلة "	١٠١
الفصل الأول: " تقويم عام لخلفاء العصر السلجوقي "	١٠٧
تمهيد	١٠٧
الخليفة القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ):	١٠٩
الخليفة المقتدي بأمر الله (٤٦٧-٤٨٧هـ):	١٢٢
الخليفة المستظهر بالله (٤٨٧-٥١٢هـ):	١٣٧
الخليفة المسترشد بالله (٥١٢-٥٢٩هـ):	١٥٤
الخليفة الراشد بالله (٥٢٩-٥٣٠هـ):	١٦٤
الخليفة المقتفي لأمر الله (٥٣٠-٥٥٥هـ):	١٧٢
الخليفة المستنجد بالله (٥٥٥-٥٦٦هـ):	٢٠٦
الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ):	٢٣٥

الفصل الثاني: " دور الخلفاء العباسيين والسلطين السلاجقة	
٢٨٩.....	وجهودهم ضد الزحف البيزنطي والصليبي "
٢٨٩.....	توطئة.....
٢٩٦.....	الحروب الصليبية ودوافعها.....
٣٠٧.....	أحوال العالم الإسلامي قبيل الحروب الصليبية.....
٣١٣.....	الأحداث الكبرى في تاريخ الحروب الصليبية.....
٣٢١.....	جهود الخلفاء العباسيين ضد الصليبيين.....
٣٣٣.....	جهود السلطين السلاجقة ضد البيزنطيين.....
٣٦٠.....	مواقف السلطين السلاجقة وجهودهم ضد الصليبيين.....
الفصل الثالث: "جهود الخلفاء العباسيين والسلطين	
٤١١.....	السلاجقة في محاربة الفرق الضالة والتيارات الباطلة"
٤١١.....	نشأة الفرق وتعددتها، والعوامل التي ساعدت على ذلك.....
٤٢٣.....	موقف البويهيين من السنة وتصدي الخليفة القادر لهم.....
٤٣٣.....	جهود الخلفاء العباسيين ضد الفرق الضالة والتيارات الباطلة.....
٤٧١.....	جهود السلطين السلاجقة ضد الفرق الضالة والتيارات الباطلة.....
الباب الثاني: "جهود العلماء، ودعمهم المذهب السني،	
وعلاقتهم بالخلفاء والسلطين، وآثارها في الحفاظ على السنة	
٥٧٩.....	في ذلك العصر"

الفصل الأول: "ازدهار الحياة العلميّة والثقافية ومجتمع العلماء في العصر السلجوقي"	٥٨٥
تمهيد	٥٨٥
الإنتاج العلمي في العصر السلجوقي وأبرز علماء العصر في شتى أنواع العلوم والمعارف	٥٨٥
الفصل الثاني: "دور العلماء في انتعاش المذهب السني وانتشاره في الأمصار ومحاربة التيارات الفكرية المنحرفة"	٦٧٥
تمهيد	٦٧٥
محاولات الشيعة ترويح مذهبهم	٦٨٠
تضافر الجهود لنشر المذهب السني	٦٨٥
دور الوزير نظام الملك الطوسي في هذا المجال	٦٩٢
المدارس النظامية ودورها في نشر المذهب السني	٦٩٨
جهود العلماء في نشر المذهب السني في شتى الأمصار من مدرسي وخريجي المدارس النظامية	٧٠٩
دور المدارس الأخرى-عدا النظامية-في نشر المذهب السني، ومواقف وجهود علمائها في ذلك	٧٥٧
الفصل الثالث: "جهود العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثر ذلك في المجتمع الإسلامي"	٨٠٥
وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأهميته	٨٠٥

جهود الخلفاء العباسيين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصلتها بمواقف العلماء وجهودهم في هذا المجال..... ٨١٥
نماذج لأشهر العلماء وجهودهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومواقفهم العظيمة في التزام الصدق وقول الحق وآثارها..... ٨٣٥
الفصل الرابع: "اهتمام الخلفاء العباسيين والسلطين السلاجقة بالعلم وعلاقتهم بالعلماء وآثار ذلك على المجتمع الإسلامي"..... ٨٩٥
اهتمامات الخلفاء بالحركة العلمية واتصالهم بالعلماء..... ٨٩٥
مظاهر اهتمام السلطين السلاجقة بالعلم وعلاقتهم بالعلماء..... ٩١٢
مظاهر اهتمام وزراء العصر السلجوقي بالعلم وعلاقتهم بالعلماء..... ٩٢١
نماذج موضحة لعمق الصلة وقوة العلاقة بين الخلفاء والعلماء..... ٩٢٢
مواقف العلماء مع رجال الدولة وآثارها في المجتمع الإسلامي..... ٩٤٨
الباب الثالث: "جهود العلماء والولاة في إعادة السنة والحفاظ عليها في بلاد الشام ومصر في العصر السلجوقي"..... ٩٧٧
الفصل الأول: " جهود الولاة في الحفاظ على السنة والقضاء على المذهب الشيعي في بلاد الشام ومصر في العصر السلجوقي"..... ٩٨٣
الوضع الجغرافي والسكاني لبلاد الشام قبل قدوم السلاجقة..... ٩٨٣
النشاط السلجوقي واستقراره في بلاد الشام..... ٩٨٦
انتشار الباطنية في الشام..... ٩٨٩

جهود السلاطين السلاجقة ضد أهل الأفكار المنحرفة والتيارات الباطلة في الشام..... ٩٩٣
جهود بعض أمراء الشام ضد الباطنية..... ١٠٠٢
جهود السلطان صلاح الدين لاستئصال المذهب الشيعي وترسيخ عقيدة أهل السنة في مصر..... ١٠١٠
الفصل الثاني: "دور المدارس في انتعاش المذهب السني وانتشاره في بلاد الشام ومصر في ذلك العصر"..... ١٠١٩
مؤسسات التعليم في الشام وأقسامها آنذاك..... ١٠١٩
دور الوزراء والقادة والأمراء والرجال والنساء في بناء المدارس والمؤسسات التعليمية..... ١٠٢٢
أهم المدارس التي زحرت بها بلاد الشام في ذلك العصر ودور نور الدين محمود بن زنكي في بناء تلك المدارس..... ١٠٢٣
جهود السلطان صلاح الدين في بناء المدارس في مصر في ذلك العصر..... ١٠٣٣
الفصل الثالث: "جهود العلماء في الحفاظ على السنة ومحاربة التيارات الفكرية المنحرفة في بلاد الشام ومصر في العصر السلجوقي"..... ١٠٤٣
أهمية العلماء في المجتمع الإسلامي..... ١٠٤٣
نماذج من علماء الشام ومصر في العصر السلجوقي وصلتهم برجال

١٠٤٦.....	الدولة وسلاطينها في ذلك العصر وآثار تلك العلاقة
١٠٥٣.....	نماذج من علماء الشام ومصر وجهودهم في الحفاظ على السنة ومحاربة الفرق الضالة والتيارات المنحرفة في ذلك العصر
١٠٨٧.....	الخاتمة ونتائج البحث
١١٠١.....	الملاحق
١١٢٧.....	فهرس الأعلام المترجم لهم
١١٣٣.....	فهرس المصادر والمراجع
١٢٠١.....	فهرس محتويات الرسالة



مكتبة الأستاذ
مكتبة الميزية
٥٥٧.٥٠٦:٥
SR